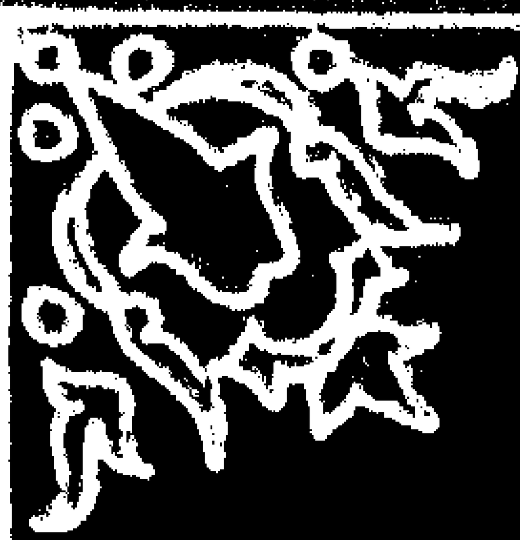


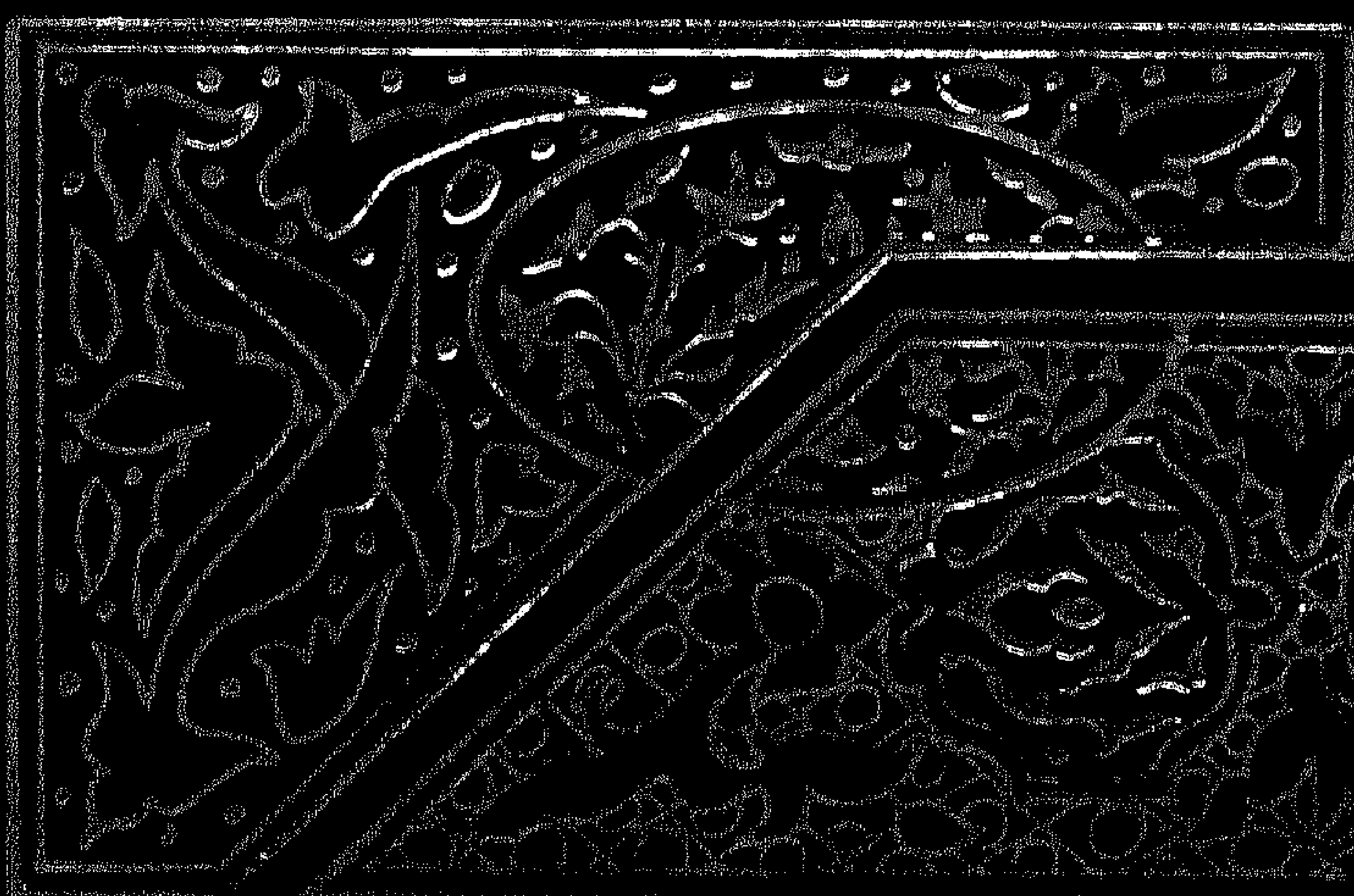

عرفان محمد حمّور

مواسم العرب الكبرى

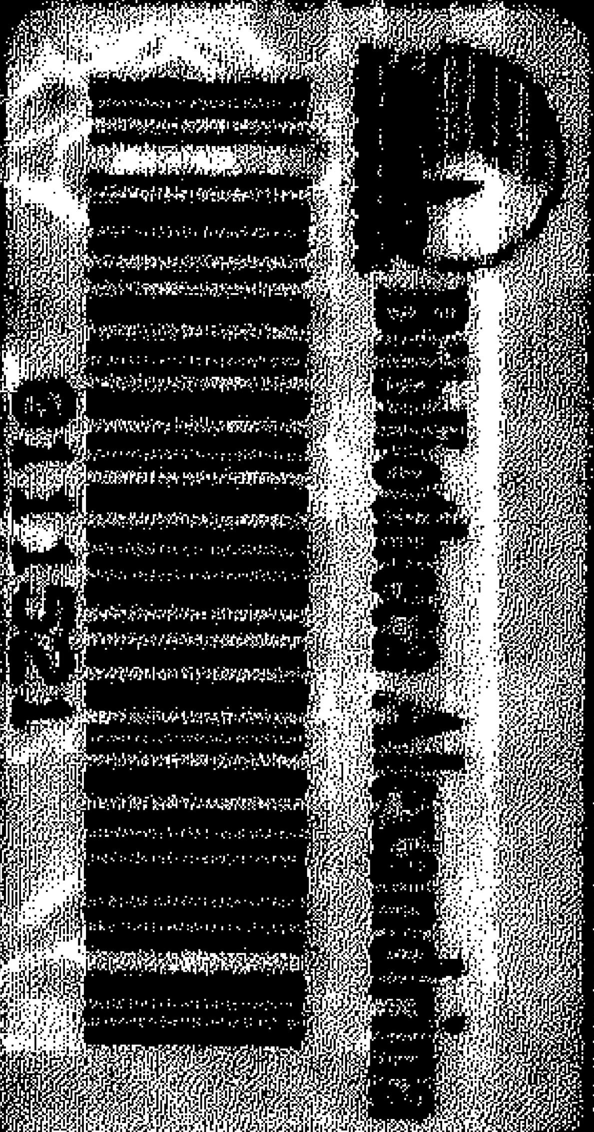
تاريخ المواسم العامة في بلاد العرب و القواعد التي قامت عليها و اشهر اخبارها و طرائفها



الجزء الأول



مؤسسة
...ب الحديثة
...ي - لبنان





عنوان الكتاب

مواسم العرب الكبرى

المؤلِّفُ: عرفان محمد حمُّور

الناشر والموزّع

مؤسسة الرِحّاب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

المدير المسؤول: أحمد فوّاز

هاتف: ٠٣/٣٥٩٧٨٨

ص.ب: ١١/٣٨٤٧

بيروت ـ لبنان

التنضيد والإخراج

مؤسسة فَوْر بِرِسْ

هاتف: ٠١/٦٥٢٣٤٨

العنوان: البربير ـ بناية كاملة ـ ط ٤

بيروت ـ لبنان

تصميم الغلاف

د. هدال عرفان حمُّور

الطبعة الأولى ١٩٩٩

عرفان محمد حمّور

مواسم العرب الكبرى

تاريخ المواسم العامة في بلاد العرب و القواعد التي
قامت عليها و اشهر اخبارها و ءاثارها

الجزء الأول

خصائص المواسم العامة و عوامل نشوئها و ازدهارها

مؤسسة الرحاب الحديثة
بيروت - لبنان

الإهداء

إلى أخي الأكبر مطيع...

راجياً أن يكون فيه بعضُ الوفاءِ بما لَكَ عليَّ من أَيَادٍ بِيضٍ، كثُرتْ حتى صِرتُ أُعَدُّ منها ولا أُعَدِّدُها. . . فأنتَ أَحَقُّ مَن يُهدىٰ إليْكَ شُكراً وعِرْفاناً.

أَمَدَّكَ اللّهُ بالعُمُر الطويل، مع الصحَّةِ والقُوَّةِ والطمأنينة.

بيروت في ٤/٤/١٩٩٩

عرفان محمد حمُّور

مُقدّمة الكتاب

موضوع هذا الكتاب المواسِمُ التي كانت للعرب منذ عصر الجاهلية، وهي مواقيتُ معروفةٌ ثابتةٌ، كانوا إذا أَهَلَّتْ اجتمعوا إليها، في مواضِعَ مُعَيَّنةٍ، لأغراضٍ مختلفةٍ كثيرة: دينيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وتجاريَّةٍ وأدبيَّة. ومن الممكن التمييزُ بين أنواعٍ ثلاثةٍ من هذه المواسم، **الأولُ**: مواسمُ الحجِّ والأعْيادِ، **والثاني**: مواسمُ الخروج إلى البَوادي في أوقات الربيع. **والثالثُ**: مواسمُ الأسواق العامَّة، وكان يَصْحَبُها، فوق التجارة، مُخَالَطةٌ واجتماعٌ وسياسةٌ وأدَبٌ وسَمَرٌ ولَهْوٌ، وربما نُسْكٌ وحجٌّ أيضاً.

وقد كانت لي عنايةٌ، منذ عهدٍ قديم، بمواسم الأسواق عامَّةً، وسوقِ عكاظٍ خاصَّةً، حتى أَلَّفْتُ فيها كتاباً سمَّيْتُه: «أسواق العرب»، ودَفَعتُه للنشر سنة (١٩٧٩ م)، فأُعِيدَ طبعُه سنة (١٩٨١ م)، ثم زِدْتُ عليه أشياءَ، ونَقَصْتُ أشياءَ، وأعْدَدْتُه للطبع سنة (١٩٨٣ م). ومع ابتهاجي بما قُدِّر للكتاب من انتشار، أُحبُّ أن أشير هنا إلى أنه لم يكن مُحقَّقاً تحقيقاً عِلميّاً دقيقاً، يُعْنَىٰ باستِقْصاء الأخبار والروايات والمواقيت، والتثبُّتِ منها، واستقرائها، وتعيينِ المواضِع، وتَتَبُّعِ الحقائق، وتصويب الأغَاليط... والعُذْرُ في هذا النقص أن الكتاب، كما ذكرتُ في مُقَدّمته، كان مدفوعاً وقتئذٍ لمطالعةِ العامَّة، ووُقوفِهم على وجهٍ من وُجُوه حضارة العرب في عصر الجاهلية، وهو عُذْرٌ

أيضاً على ما وقع فيه من أخطاء، وَقَع في مِثْلها كلُّ من تصدَّىٰ لهذا الموضوع. ذلك أن ما كُتِب فيه حتى اليوم، على خُصُوصيَّةٍ تَعَلُّقِه بمواسم الأسواق فقط، لا يخرجُ عن حُدود الجمع والنَّقْلِ والعَرْض، فإن خرج عن ذلك أحياناً، فإنه لا يَعْدو استبدالَ كلمةٍ بأخرى، وعبارةٍ بعبارةٍ مثلِها، وتفسيرَ غامضٍ بما يُقرِّبه، أو ربما بما يَزيدهُ بُعداً وغموضاً. . . وهذا ما حَمَلني على العوْدةِ من جديد إلى بحثِ موضوع المواسم كافةً، بحثاً عِلميّاً قائماً على الفحص والتحقيق، يستقصي كلَّ أخباره، ويمتدُّ إلى جذوره، ويَتتبَّعُه في مختلفِ أطرافِه ووُجُوهِه.

ثم نظرتُ فوجدتُ أن المواسم الكبرى عند العرب كانت ظاهرةً بارزةً مُنظَّمةً في حياتهم، شملتْ جوانبَها الدينيّة والاجتماعيَّةَ والتجاريَّةَ والأدبيَّةَ وغيرَها، وأن لها بذلك جُذوراً عميقةً، وقواعِدَ ثابتةً في مجتمعاتهم، وأنها لا يمكن أن تكون وُجِدَتْ فيهم من عَدَمٍ، أو من حاجةِ الناس إلى المُونَةِ والامْتِيارِ وحَسْب، أو لتوافُرِ نبعٍ من الماءِ العَذْبِ في مَوْضعٍ مُنْقَطع، وإقامةِ معبدٍ دينيّ عليه لشُكر الإله. . . ولعلَّها نشأت في بداياتها، عموماً، بتأثيرٍ من هذه الأمور، مُتَفرِّقةً أو مُجتمعةً، ولكنها في ازدهارِها، وانتظامِ قيامها، كانت قطعاً نتيجةً لعوامل أُخرىَ كانت مُتوافِرةً في مجتمعات الجاهلية، ويمكنُ البحثُ عنها في ثلاثِ حالاتٍ من حياة العرب. **الأولى**: الحالةُ التجارية بمختلف عناصرها. **الثانية**: الحالةُ الدينيَّةُ التي كانت تَسُودُ بلادَ العرب، على ما كان بها من وَثَنيَّةٍ، وشِرْكٍ، ونقصٍ في كلِّ مِلَّةٍ ونِحْلَةٍ. **الثالثة**: الحالةُ الاجتماعيةُ، على ما وُصِفَتْ به، ظُلماً، من التخلُّفِ والجهلِ والنَّهْبِ والسَّلْبِ، إلى ما هنالك من نُعُوتٍ يَصعُبُ معها تَصوُّرُ قيامِ مثلِ تلك المواسم فيها، حِقَباً مُتَطاولةً من الزمن، كموسم سوق عكاظ، الذي عُمِّر نحوَ خَمسِ مئةِ سنة، قبل أن يظهر الإسلامُ على بلاد العرب، ويَصرفَ المسلمين عن

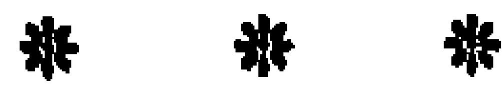
التجارةِ إلى الفُتوح، ويُبَدِّلَ وَجْه مجتمعاتهم. وإذا كان موسمُ الحجِّ إلى مكَّةَ المكَرَّمةِ ابتدأ مع إبراهيم الخليل ودعوتهِ إلى الحنيفيَّة في جزيرة العرب، فذلك يعني أنه انقضى على قيامه منتظماً نحوُ ألفين وخمسِ مئةِ عام، حين أَقَرَّهُ الإسلامُ، ونَـزَعَ عنه ما شابَهُ من علامات الشِرْكِ والوثنيَّةِ، وجَعَله فريضةً من أركان الإسلام... ومن البَدِيهيِّ القولُ بأن الاستمرار لم يكن مُمكناً، لتلك المواسم، لو لم يتوافر لها عُنصرانِ رئيسَان، أحدهما: الاطمئنانُ غالباً إلى نوعٍ من الاستقرار الأمْنيّ، قائمٍ على قواعِدَ مُعيَّنةٍ معروفة. والآخَرُ: معرفةُ العربِ حسابَ الشهور والسنين، وإحْكامُهم تثبيتَ مواسمهم في مواعيدها من الفصول الطبيعية. لِيَظلَّ التوافُقُ عليها قائماً بين العرب، في مختلف ديارهم، وعلى تَبايُنِ تَقَاوِيمهم، وتعَدُّدِ عقائدهم ودياناتهم، ومن غير ذلك يصيرُ الموسمُ دائراً في الأزْمِنة، فيفقدُ وَسْمَهُ الذي قام عليه في الأصل، أي العلامة الثابتةَ التي يُعرفُ بها، وهي هنا وقتُ قيامِهِ، فلا يجتمعُ إليه إلا بعضُ أهله، لأن الآخَرين باتُوا يجهلون موعدَ قيامه، بعدما كان لهم مَعْلَماً يجمعُهم.

وعلى ذلك، فالموضوعُ في أُصوله محتاجٌ إلى اسْتِقْصاءِ كلِّ ما قيل فيه، وفيما اتصل به، قديماً وحديثاً، ثم إلى تحقيقٍ دقيق، ومُوازنةٍ بين الأقوال والأخبار والروايات جميعاً، واستقراءِ ما يَـثْبُتُ منها، واسْتِنطاقِه بما يُمكن أن يُحدِّثنا به من تاريخ الجاهليَّة وأسْرارِها، لعلَّهُ يُساعدنا على نَزْعِ الشَّوْكِ عن المسائل الشَّوِكَة، التي يُفْرزها البحثُ في جُذور هذا الموضوع، وهي كثيرةٌ...

● منها مسألةُ النَّسيء، الذي أبطله الإسلامُ، وكانت العربُ تستعملُه لتثبيت مواسمها في مواعيدها، كيلا تدورَ في الأزمنة الأربعة مع دَوَرانِ شهور القمر...

● ومنها مسألةُ الأمنِ، والتفتيشِ عن قواعدِه في عصر الجاهلية، إذ لا يمكنُ أن تقومَ المواسمُ في مجتمعاتٍ، لا تكفلُ لها حَدّاً مُرْضِياً من الأمان، وهو ما نَفَاهُ المؤرِّخون والباحثون عن مجتمعات العرب القديمة.

● ومنها تاريخُ مكةَ في أيام خُزَاعَة وقريش، وقد غطَّاهُ حِجَابٌ من الضَّباب، حَاكتْه أيدي العصبيَّة والأهواء. ويهمُّنا في هذا الكتاب أن نكشفَهُ لأن مكة كانت العاصمةَ القوميَّةَ والدينيَّة للعربِ جميعاً، وكانت أعظمَ محطَّاتِ القوافل في جزيرة العرب، وفيها وفيما جاوَرَها من أرضِ الحجاز ونجْدٍ قامت أعظمُ مواسم العرب، وأكثَرُها شهرةً، وأوْسَعُها تأثيراً.



وهنالك فوق ذلك كلِّه مسألةُ التحقيقِ الصحيح في تاريخ العرب نَفْسِه، وتَدْوينِهِ كما يجبُ أن يُدَوَّن، وكما تُدوِّنُ الأُممُ تواريخَها... فإذا نظرنا مَلِيّاً، وجدنا أنَّ تاريخنَا لم يُكتَبْ بعدُ، وما يزالُ مُعْظَمُه مَطْمُوراً تحت التراب، ينتظرُ يومَ يُبْعَثُ حَيّاً. وجُلُّ ما كُتِبَ منه، تكالَبَتْ عليه أهواءُ الأعاجم الغُلاَةِ[1]، من الرُّوَاةِ الحاقِدينَ[2]، والمُستَشْرِقينَ المُتَعصِّبينَ، فكُسِيَتْ حَقَائقُهُ الناصِعَةُ الزَّاهِيَةُ، أرْدِيَةً قاتِمَةً حالِكَةً... وتَمَالأَتْ على الطعْنِ فيه[3]، شهواتُ المُفْسِدينَ من الحُكَّام، وأغراضُ المُبْطِلينَ[4] من الشِّيَع والأحزاب، وعَبَثُ المُسْتَخِفِّينَ من الكاتِبينَ والمُصَنِّفِينَ... كلُّ أولئك عَكَفُوا على ما دُوِّنَ من تاريخنا، فجعلوا حَسَناتِنا فيه سيئاتٍ، ثم توسَّعُوا في

(١) الغُلاَةُ: مُفردها الغَالي، وغَالَى في الأمر مُغَالاةً أي بالَغَ.
(٢) حَقَدَ عليه: أمْسَكَ عداوَتَهُ في قلبه يتربَّصُ فرصةً للإيقاع به.
(٣) طَعَنَ فيه: عابَهُ وقَدَح فيه.
(٤) المُبْطِلونَ: مُفردها مُبْطِلٌ، وأَبْطَلَ أي أتى بالباطل والكذب.

ذلك وتَزَيَّدُوا ما شاء لهم حِقدُهم وتَعَصُّبُهم علينا أن يفعلوا، فما انفكُّوا حتى أَلْحَقُوا بأُمَّتِنا كلَّ ما في الدنيا من العُيوب والمَسَاوِىء.

إن تاريخ الأُمَّة هو الأُمَّةُ، وفي تاريخ كل أُمّةٍ من الفَضَائل والمكارم والأَمْجَادِ ما يُثْمِرُ الأُسْوَةَ الحَسَنَةَ والقُدْوَةَ الطيِّبةَ، وفيه من الأَخْطَاءِ والزَّلاَّتِ ما يُفيدُ العِبْرَةَ والموْعظةَ... ووَاجِبُ المُؤَرِّخ أن يُحْسِنَ تنبيهَ الأجيال إلى مَواطِنِ الأُسْوةِ والقُدوةِ من تاريخ الأُمَّة، والتَرَفّقَ في إيقاظِها للاعْتِبَارِ بأخطاءِ الماضي وزَلاَّتِهِ والاتِّعَاظِ بها... وفي هذا يختلفُ مُؤَرِّخُونا عن مُؤرِّخي الأُمم الأخرى، فهؤلاءِ وإن كانوا يلتزمون الحقيقةَ غالباً في عَرْضِ الوقائع، غير أنهم يُحيطون أخطاءَ الماضي وزَلاَّتِهِ بالظروفِ التي أدَّت إلى وقوع تلك الأخطاءِ والزلاَّتِ، ويتوسَّعُونَ في بيانِ أسبابها، حتى يندفعَ القارىءُ، فَيُعْطيَ المخطئينَ العُذْرَ فيما صَدَرَ عنهم، ثم يَسْتَخلِصُونَ العِبْرَةَ من تلك الأخطاء، كي يستفيدَ الخَلَفُ من زَلاَّتِ السَّلَفِ[1]، وأخطائه، ويتجنَّبَ الوقوعَ في أمثالها، فيخرج المؤرِّخُونَ والقُرَّاءُ من مثل هذه المواقف بالاحترام التامّ لمن سَلَفَ من أُمَّتِهم، حتى عندما يكُونون مُخْطِئين.

آيَةُ ذلك أن المؤرِّخين من أبناء الأمم الأخرى آمنُوا بأنهم جزءٌ من الأُمَّة التي يُدَوِّنُونَ تاريخَها، فالْتَزَمَ المحقِّقُونَ منهم بالأمانةِ العلميَّة، فسَمَّوْا الصوابَ صَواباً والخطأَ خطأً، غير أنهم جَمَّلُوا عَرْضَ الصَّوابِ فبَهرُوا الأجيالَ، ودَرَسُوا ظروفَ الخطأ، واستخلصوا نواحيَ العُذْرِ فيه لمن صَدَرَ عنه الخطأُ، فحافَظُوا على كرامةِ عظمائهم، لا بل سَمَوْا بهم إلى ذروةِ العَظَمة، وهكذا يُؤَدِّي التاريخُ رسالتَه... لكنّ أُمَّتَنا ابْتُليتْ بنفر تَصدَّوْا لنَقْلِ أخبارِها وروايتها، ثم بآخَرين عَكَفُوا على تدوين تاريخها، وكان معظمُ هؤلاءِ

---

(١) السَّلَفُ: ج أسْلاف، كلُّ من تقدَّمَكَ من آبائك وأجدادك. وسَلَفَ: مَضَى، أو تقدّم وسَبَق.

وأولئك أعجمياً غريباً عنها، ليست له عاطفةُ بَنِيها، أو إعجابُهم بمآثِرِها وتُراثِها، أو احترامُهم لعظمائها، ولا عنده إحاطَةٌ بظُروفها وتقاليدِها، أو معرفةٌ بمجتمعَاتِها... مِمَّا أَدَّىَ في كثير من المَوَاضِعِ إلى سُوءِ فَهْم أو تقديرٍ لطبيعة حياتنا ومَجْرىٰ حوادثِنا، صَاحَبَهُ أحياناً سوءُ النَّوَايَا وخُبْثُ الأَغْراضِ، فانعكسَ ذلك كلُّه صفحاتٍ سوداءَ في تاريخنا، مُلِئَت بالأكاذيب المُفْتَراةِ على أمّتنا، وعلى عُظماءِ الأُمّة الّذين صَنَعُوا التاريخَ، وأنْشَؤُوا هذا الوطنَ الكبير الذي نعيشُ فيه، ونتَبَخْبَخُ رُبُوعَهُ... أما قُدَماءُ المؤرِّخين والعلماءِ العرب، فَيُؤْخَذُ عليهم أنهم ذكروا أخبارَ تاريخنا مَعْزُوَّةً إلى رُوَاتِها، من غير اسْتِقْصاءٍ للحقيقةِ والصدقِ في الروايةِ والرَّاوي، فلمّا انكبَّ المُحْدَثُونَ يُؤَلِّفُونَ كتب التاريخ، اعتمدوا تلك المَرَاجِعَ[1]، من دون أن يتحقَّقُوا ما ذُكِرَ فيها من الرواياتِ المختلفةِ. بل كثيراً ما خَدَعتهمُ الأخبارُ المكذوبةُ، التي بُثَّتْ في تَضَاعيفِ الروايات، وحَسِبُوها حَقَائِقَ تاريخيَّةً، فأَثْبَتُوها في مُصَنَّفَاتِهم، واستندوا إليها في أحكامهم، فكان من ذلك وأمثاله ما شَابَ تاريخَنا من سَقِيم الأخبارِ وبَاطِلِها، وما أصاب عُظماءَنا من ظُلم وافْتِرَاءٍ.

أَدْرَكَ العالِمُ المؤرِّخُ ابنُ خلدُون بفِطْنَتِه مسألة التأليفِ في التاريخ، فذكر في مقدِّمته أنّ فحولَ المؤرِّخين في الإسلام قد استوعَبُوا أخبارَ الأيام المَوَاضِي، وجمعوها، وسَطَّرُوها، ولكنّ المُتَطفِّلينَ خَلَطُوها بدَسَائِسَ ابتدعوها من الباطل، وشَابُوهَا بزخارِفَ من الروايات التي لَفَّقُوها فجاء مَن

---

(١) ذكر الدكتور عمر فروخ في كتابه «تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية»: أن المستندات التاريخية تُقسَمُ مصادِرَ ومراجعَ، فالمصدرُ هو المستَنَدُ الذي بقي لنا أو وصَلَ إلينا من العصر الذي نريد دراسةَ أحواله. أما المرجعُ فهو عادةً الكتابُ الذي كُتِبَ عن عصرٍ ما، ولكن بعد انقضاء ذلك العصر، (ص: ١٨، ١٩، ٢٠)، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨١ م.

بعدَهُم واقْتفَوْا آثارَهم، وأدُّوها إلينا كما سمعوها، ولم يُلاحِظوا أسبابَ الوقائع والأحوال، ولا رَفَضُوا الأباطيلَ ولا دَفَعُوها، فكان التحقيقُ عندهم قليلاً... ثم ذكر ابنُ خلدون في مَوْضعٍ آخر أنّ المؤلِّفَ في التاريخ يحتاجُ إلى مراجِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، ومعارِفَ مُتنوِّعةٍ وحُسْنِ نظَرٍ وتثبُّتٍ، أما المؤرِّخونَ الذين نقلوا الوقائعَ التاريخيَّة، و «لم يَعْرِضُوها على أصُولها، ولا قاسُوها بأَشْبَاهِها، ولا سَبَرُوها بمِعْيَارِ الحكمةِ، والوقوفِ على طبائع الكائنات، وتحكيم النظَرِوالبَصِيرَةِ في الأخبار»، فقد ضَلُّوا الحقَّ، لأنهم اعتمدوا مجرَّدَ النقل من المَراجِعِ القديمة[١]...

وسَأضْرِبُ لذلك مَثَلاً كتابَ «تاريخ الرُسلِ والملوك» لأبي جعفر محمد بن جرير الطَبَرِيّ[٢]، الذي يُعَدُّ عمدةَ مَراجِعِ التاريخ عند العرب، فقد جَمَعَ فيه مُؤَلِّفُهُ جميعَ الرواياتِ التي وصلتْ إليه، من غير أن يُرَجِّحَ إحداها على الأخرى، إلا نادراً... فالطبريُّ حين يذكرُ الخَبَرَ، مُكَرَّراً في رواياتٍ مُتَعدِّدةٍ قد تَتَّفِقُ أو تختلفُ، ومُسْنَداً[٣]، في كل روايةٍ، إلى عَددٍ من الرواةِ، نَقَلَ أحدُهم عن الآخَر، يُسْقطُ التَّبِعَةَ عن نَفْسِه، ويُلقيها على الباحثِ... فَعَلَىٰ هذا أن يستقصيَ الرواياتِ المختلفةَ، المتعلِّقةَ بكل واقعةٍ، وأن يتبيَّنَ مكانَ رُوَاتِها من الصدق والأمانة، ليعرفَ الكاذبَ مِنَ الصادق، والخائنَ مِنَ

(١) مقدمة ابن خلدون: ٤، ٩.

(٢) الطبري: (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ = ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م). أبو جعفر، محمد بن جرير، وُلد في طبرستان، وتلقَّى عُلومه في بغداد ومصر والشام. من مشاهير المؤرخين، وصاحبُ مذهب فقهيّ يُعَدُّ فرعاً من المذهب الشافعي. أشهرُ مؤلَّفاته: تاريخُ الرسل والملوك، المعروفُ بتاريخ الطبري. توفي في بغداد.

(٣) أسْنَدَ الحديثَ أو الخبر إلى المحدِّث: عَزَاهُ إليه، والراوي غيرُ المحدِّث، هو ناقلُ الحديث بالإسْناد، والسَّنَدُ، والإسْنَادُ: الطريقُ الموصِلُ إلى متن الحديث، والجمع: أسانيد، وهو أن يقول المحدِّثُ: روى أو حدَّثَ فلانٌ عن فلان...

الأمين. . . ثم يُوازِن بين الأخبار، ويُرَجِّح ما كان أقربَ إلى الحقيقة، وأشدَّ اتِّصالاً بالبيئة، وأصدق تعبيراً عنها، ويعتمد الرَوِيَّةَ والعقلَ في إثْباتِها أو نَفْيها. أمّا الباحِثُ الذي يُذَيِّلُ بحثَهُ بذكر أرقام الصفحات التي اقْتَبَس منها في كتُب الطبري أو الواقدي أو البلاذري أو اليعقوبي وغيرهم، فهو مُقِرٌّ على نفسه بأنه حَاطِبُ ليلٍ لا يدري ما يأخُذُ ومايَدَعُ. . . فهذه المراجِعُ التاريخية هي الموادُّ الأوَّليَّةُ للتاريخ، وليست هي التاريخ، لأن تاريخنا لم يُكتب بعد، فلا بُدَّ من التوفُّر عليها لِتَنقيتها ممّا شابَها من التلفيق والكذب، ثم ترتيبها على النحو الذي تصير فيه تاريخاً، وإنها على ما هي عليه مخلوطٌ فيها السمُّ بالدَّسَم.

صفوةُ الكلام أنه يجبُ على مَنْ يريدُ التأليفَ في التاريخ، أن يكون جامعاً بين صِحَّةِ الرواية للحوادث التي يُؤَلِّفُ فيها، وسَعَةِ الدِرَايَةِ بالأحوال المُتَّصِلَة بتلك الحوادث. . . ثم يَتَخَيَّرُ الحوادثَ التي يبني عليها كتابَهُ، ويحاولُ أن يربطَ بعضَها ببعضٍ، وقد يُهملُ أشياءَ لأنها لم تَتَّسِقْ في السلسلة المنطقية. ولا يمكن أن يكون مؤرِّخاً عربيّاً، إلا مَنْ كان عَارِفاً باللغةِ العربيَّة مُتَمكِّناً من مفرداتها، ليفهمَ ظواهِرَ الكلام وبَوَاطِنَه، ومُطّلِعاً على البيئةِ العربية وتَقَاليدها وعاداتِها وعقائِدها.

* * *

ونحن إذ نتوقَّفُ عند هذا المقطع، فيما اسْتَطردْنا إليه من الكلام على مسألة تدوين التاريخ العربي، نجدُ أنفُسَنا مُلْزَمين بالبحث في مسألةٍ خطيرة أخرى، مُتفرِّعةٍ منه، ومتَّصلةٍ به.

تلك هي مسألةُ تجهيلِ الجاهليّة، والإنكارِ على أهلها بعضَ المعرفة بالكتابة والحساب، وهو أمرٌ يَتَعارضُ، إن صحَّ، مع القول بتَوَفُّرهم على إقامة المواسم العامّة، وإمْسَاكِهم بمقاليد التجارة!. ومِثْلُه القولُ أيضاً بأن

مجتمعات العرب، في وسَطِ الجزيرة وشَمالِها، كانت مجتمعاً واحداً من الأعرابِ، أهلِ الرحْلةِ والانْتِواء، وهو قولٌ لا يستقيمُ مع القول بأن المواسم الكبرى قامت في رُبُوعهم، على وَفْرةٍ وتَنوُّعٍ في الأغراض! . ويتَّصلُ بهذا أيضاً التحقيقُ فيما قامت عليه الحياةُ الدينيَّةُ في الجاهليَّة، حتى مَكَّنَتْ للعرب أن يُقيموا المواسمَ في بلادِهم للناس، على اختلافِ مذاهبهم في العبادة والتديُّن.

وهنالك، فضلاً عن ذلك، مسألةُ التأريخ لسوق عكاظ، والكشفِ عن مَوْضِعها، والتحقيقِ في نظامها، وأئمَّةِ مواسمها، وقُضَاتِها، وأصحابِ الأمر فيها، فهذه وغيرُها من أمور عكاظ قيلتْ فيها أقوالٌ كثيرة، يَلُفُّها الغموضُ والاضطرابُ والعُموميَّةُ، ومن الواجب أن يُقْطعَ فيها بالبحث والاستقصاء والتمحيص. . وعلى سبيل المثال، وجدتُ في المراجع القديمة اتفاقاً على أن أَئمَّةَ الموسم، وقُضاةَ السوق كانوا من بني تميم بن مُرّ، وأن أرضَ السوق كانت لبني هوازن، من شَعب قيس بن عَيْلان، ومع ذلك فإن الباحِثينَ المُتأخِّرينَ، وكنتُ على مذهبهم، توهَّموا دوراً لقُريشٍ في السوق، فتحدَّثوا عنها وكأنها كانت تملكُها وما فيها، وتُديرُ شُؤونَها كما تشاء، وتحكُم أمُورَها كما تهوىٰ. . . وقد تبيَّنَ لي بعدئذٍ، بالتحقيق والبحثِ، أن دَوْرَها بعكاظ لم يكن يزيدُ على دَوْر غيرها من قبائل العرب، وأن حِرْصَها على شُهودِ مواسمها كان أشَدَّ من حِرْصِ غيرها، لما تُوفِّرهُ لتُجَّارها من المنافع والأرباح. ولعلَّ اللَّبْسَ نشأ من الظنِّ بأن السوق كانت من أسواق مكة، وبأن موسمها من مواسم الحج، وهي في الحقيقة ليست كذلك. . . وهذا ما أردتُه بالعودة من جديد إلى التحقيق في موضوع المواسم العامَّة من كلِّ جوانبه، وأُصُولهِ، وما يتَّصِلُ به من مختلف الأمور.

* * *

تلك المسائلُ، وأمورٌ أُخرى مِثلُها، مُتَّصلةٌ بها في الشَّوْكِ والعَوَصِ، تحتاجُ إلى دَرْس جديدٍ، وبحثٍ جَدّيّ مُخْلصٍ. وهو بحثٌ تاريخيٌّ وأدبيٌّ قبل أيّ شيءٍ آخَر، يعتمدُ في مُعْظَمه على استقصاءِ كلّ الأخبارِ والنصوصِ والروايات، التي تتَّصِل به من قريب، أو من بعيد، في عصر الجاهليَّة، ثم على دَرْسِها دراسةً قِوامُها الفهمُ العميقُ على وَجْهها الصحيح، ومناقَشَتُها، ومقابلةُ بعضِها بالبعض الآخَر، توصُّلاً إلى رأيٍ حاسِمٍ، فإن لم يَكُنْهُ، فإلى ترجيحِ رأيٍ على آخَر، أو تفضيل روايةٍ تدعمُ فكرةً أو مَذْهباً.

والجديرُ بالذكر، أن الباحثَ في العصر الجاهليّ، يَلْقَى عناءً كبيراً وعَنَتاً في التفتيش عن أخباره، وجَمْعِها، لأن هذه الأخبار مَبْثُوثةٌ في بُطون الأسْفارِ، لم يَرْوِها الرواةُ قديماً مُجتمعةً، ولا نَقَلَها عنهم أهلُ الأخبار مُصَنَّفَةً، ولم يَتَوَلَّها أحدٌ من الباحثين حديثاً بالجمع والفَرْزِ والتنسيق. بل إنها ما تزال مَنْثُورةً نَـثْراً مُتَباعِداً في تَضَاعيف الكتُبِ، كانْتِثارِ النجوم في الفضاءِ، وقد لقيتُ في اسْتِقصائها، وجَمْعها، ودَرْسِها، وتَبْويبِها، واستخراج مَقَاصِدِها، من التعبِ والمُصَابَرةِ قِسْطاً ليس باليَسِير. وكثيراً ما كنتُ أجِدُ نفسي مُضْطرّاً إلى مطالعة كتابٍ ضخمٍ، لأظْفَرَ منه أخيراً بخبرٍ في سَطْرٍ أو سطرَيْن، وربما في كلمةٍ أو كلمتيْن، فأُسَارِعُ إلى تدوينهِ وحِفْظه. ولبثتُ في التقصّي والمطالعة نحوَ ثمانِ سنين، لا أُنْشِيءُ في الموضوع شيئاً، إلا ماكنتُ أُدَوِّنُه في وُرَيْقاتٍ مُتَفرِّقاتٍ مختلفاتٍ، من أخبارٍ ونصوصٍ وكلمات، رأيتُها تتَّصِلُ بالموضوع في صميمه؛ أو في بعض جوانبه، أو تدور عليه من حوله: وكنتُ كلما ظَنَنْتُ أنني قطعتُ في البحث شَوْطاً، بدا لي فيه جديدٌ لم يكن مُحْتَسَباً، فيضطرّني إلى مراجعةِ ما كنتُ قرأت، أو إضافةِ ما كنتُ نَقَصْتُ، أو تَصْويبِ ما كنتُ غَلِطتُ. ولمّا رأيتُ أنني اكتفيتُ من البحث والاستقصاء والجمع والتدوين، عدتُ إلى وُرَيْقاتي، فشرعتُ أستكملُ تَصْنِيفَها وتَقْيِيدَها،

وأجعلُها في مجموعاتٍ، يَنْتظمُ كلَّ مجموعة منها مَطْلبٌ واحد، ويُقَيِّدُ المطالبَ المُتَشاكِلةَ فصلٌ واحد، ويجمعُ الفصولَ المتجانِسَةَ بابٌ واحد.

ثم مضيتُ بعد ذلك أفحصُ هذه الأخبارَ والنصوص، وأدْرسُها دَرْساً دقيقاً، قائماً على الاستقراء والاستدلال، في حدود قدرتي على الاسْتِشْفَافِ، وقُدْرَتِها على الدلالة، من غير أن أُحَمِّلها فوق ما في وُسْعها، أو أن أُوَجِّهَها وجهةً لم تُوجَّهْ إليها، فإذا كان لأَحَدِها وجوهٌ، قَلَّبْتُه على مختلفِ وُجُوهِهِ، حتى يَسْتبينَ لي منها الوجهُ الصحيح، أو الأقربُ إلى الصحّة. ولا أكون مُغَالياً إنْ قلتُ: إنَّ كلَّ رأيٍ في هذا الكتاب قام دونه جَدٌّ ومُجَاهدةٌ في البحث والتمحيص، ووَفْرَةٌ من الأخبار والنصوص. ولم أقنعْ بسَرْد ما توصَّلتُ إليه من المعلومات مُجَرَّداً، بل دَعمتُه بالخرائط المختلفةِ لتوضيح المواقع والمواضع، والجَداوِلِ المحقَّقةِ لأنساب بعضِ قبائل العرب، للاستعانة بها على معرفةِ قومٍ، أو تعيين زمنٍ، إلى ما هنالك... كما شرحتُ في الحواشي كثيراً من الألفاظ، والعبارات الغامضة، وترجمتُ لكثير من الأعلام، وألْحَقْتُ بآخر الكتاب جريدةً مفصَّلةً، مُرتَّبةً على حُروف المعجم، ذكرتُ فيها أسماءَ الكتُبِ التي رجعتُ إليها في مختلف موضوعات الكتاب، فضلاً عن الفهارس الفَنيَّة المتعدِّدة. وقد جعلتُ الكتابَ في جُزءَيْنِ:

أوَّلُهما: مدخلٌ إلى التعريفِ بالمواسم العامَّة عند العرب، وخصائصِها وأغراضِها وآثارها وأنواعها، وعواملِ نشوئها، وأحوالِ استمرارها وازدهارها كظاهرةٍ حضاريَّةٍ لا يُمكن أن تنشأ إلا في مجتمعاتٍ، تَوافَرَ لها النصيبُ الأَوْفَىٰ من الارْتِقاءِ والعلم والأمن والاستقرار...

وثانيهما: تحقيقٌ مُوسَّعٌ في مواسم الأسواقِ العامَّة، والحجِّ، والأعياد في بلاد العرب والشام والعراق، وإحْصَاءٌ لكلِّ ما عُرِفَ منها في موارد القدماء والمُحْدَثين، وبيانٌ لمواعيدِها ومَوَاضِعِها وما أُثِرَ من وقائعها

وتاريخها، وإشاراتٌ إلى بعض مواسم مصر القديمة، وعددٍ من الأعياد المسيحيّة في بعض الأدْيرة.

وفي الختام، أُحبُّ أن أعترفَ بأن في الكتاب حماسةً، وتركيزاً على بعض المسَائل، وإبْرازاً لبعض الأمور... ولكنَّ ذلك لم يكن مُقدَّمةً، بل نتيجةً للبحث والدرس، مع أنه من الطبيعيّ في البحوث العلميَّة، أن تُرافِقَها الحماسةُ، مَقْرونةً بالإصرار على بلوغ النتائج، بالأَدِلَّة التي يتكشَّفُ عنها البحثُ والدرسُ... ولا أريدُ أن أنكرَ أنني أحببتُ العصر الجاهليَّ، من خلال دراستي للمواسم العامَّة، ولكنه لم يكن حُبَّ هَوَىً وعَصَبيَّةٍ، وإنما لما اكتشفتُهُ في أجدادنا من مكارم الأخلاق، وحميد الخِصَال، وعلى ذلك فإني بذلتُ الجهدَ في أن أنْهَجَ، على قَدْر طاقتي، نهجاً علميّاً محضاً، لا يَتحكَّمني هَوىً فيُزِلُّني، ولا يَستخِفُّني رأيٌ فيُميلُني، ولا تَغْلبُني عَصَبيَّةٌ فتُبعِدُني عن قصدي، واللَّهُ من وراءِ القصد.

وأخيراً، كان الفراغُ من تأليف هذا الكتاب مَطْلعَ شهر حزيران (يونيه) سنة (١٩٩٥)، وكان من الممكن أن تنقضيَ سنَواتٌ عِدَّةٌ أُخَرُ، قبل أن يأخذَ طريقَه إلى التنْضِيدِ والإخراج والطبْع والنَّشْرِ، في أيام الكسَادِ هذه، لولا أن قُيِّضَ للنُهوض به في ذلك الطريق الصعب، الأخُ الكريمُ الأستاذ أحمد فوَّاز، صاحبُ مؤسسة دار الرحاب الحديثة، فتصدَّىٰ له بعُدَّةٍ تُشكر، وهِمَّةٍ تُقدَّر، وخِبْرةٍ عمادُها البصيرةُ والبصَر... وفَّقَهُ اللَّهُ، وسَدَّدَ خُطاهُ إلى ما فيه الخيرُ.

بيروت في ٥/ ١٢/ ١٩٩٧ — عرفان محمد حمُّور

الجزء الأول

خصائص المواسم العامّة
وعوامل نشوئها وازدهارها

الباب الأول ـ المدخل إلى معرفة المواسم العامّة وخصائصها.
الباب الثاني ـ الحالة التجاريّة ومُدُن القوافل في بلاد العرب.
الباب الثالث ـ الحالة الدينيّة ومقدار ما كانت عليه من الحريّة والمشاركة.
الباب الرابع ـ أحوال الاجتماع عند العرب، ومسألة تجهيل الجاهليّة.
الباب الخامس ـ قواعد الأمن في مجتمعات العرب قبل الإسلام.
الباب السادس ـ المواسمُ ومَبْلَغُ علم العرب بحساب الأزمنة.

الباب الأول
المدخل إلى معرفة المواسم العامّة

الفصل الأول: التعريف بالمواسم العامّة عند العرب وأصنافها.

الفصل الثاني: خصائص المواسم العامّة وأغراضُها وآثارها.

المطلب الأول: عُموميّة الأسواق الموسميّة وخُصوصيّةُ الأسواق الدائمة.

المطلب الثاني: حَوْليّةُ مواسم الحجّ والأعياد والأسواق الموسميّة.

المطلب الثالث: نظام المتاجرة والعُشُور في الأسواق الموسميّة.

المطلب الرابع: طرائق البُيُوع في الأسواق الموسميّة.

المطلب الخامس: اتصال المواسم العامّة بالمواسم الدينيّة.

١ ـ القداسة والحرمة. ٢ ـ الأمن والسلام.

المطلب السادس: امتياز المواسم العامّة بتنوُّع أغراضها وتَعدُّدِ خصائصها.

١ ـ معارض للتجارات. ٢ ـ مجامع للسياسة والاجتماع.

٣ ـ مناسبات للوعظ والتبشير. ٤ ـ منابر للخطابة والشعر.

٥ ـ محكمة لنقد الشعر. ٦ ـ التقاضي في الفخر والأحساب.

٧ ـ رايات الوفاء والغدر. ٨ ـ طلبُ المجد والشهرة.

٩ ـ العَرّافون والأطبّاء. ١٠ ـ قضاء الديون والأتاوات.

١١ ـ ملاعبُ الفروسيّة وأنواع الرياضة. ١٢ ـ طلب اللهو والللذات.

١٣ ـ تجارة الرقيق. ١٤ ـ القِنَاعُ والنِقَابُ (أعياد الكرنفال)

المطلب السابع: اختلاف أسباب الاستمرار والبقاء بين المواسم العامة والأسواق الخاصّة.

المطلب الثامن: آثار المواسم العامّة في العادات والمفاهيم وتوحيد اللهجات.

المطلب التاسع: خلود وقائع المواسم العامّة.

الفصل الثالث: القواعدُ المشتركة في نشوءِ المواسم وأُسُسها.

الفصل الأول

التعريف بالمواسم العامة

المَواسِمُ العامَّةُ عند العرب، هي كلُّ المَواقيتِ المُعْلَمةِ باجتماعِ الناسِ إليها، إذا أَهَلَّتْ، لِلحَجِّ، أو للنُّسُكِ والعبادة، أو للعِيدِ، أو للتجارةِ وتَصْحَبُها في العَادة شؤونٌ دينيَّةٌ، واجتماعيَّةٌ، وثَقَافيَّةٌ مُتَعدِّدَة، أو لمراجَعَةِ البَداوَةِ في فَصْلَيْ الربيع والخريف.

والمَوْسِمُ في الأصل من الوَسْم، والوَسْمُ والسِّمَةُ أَثَرُ الكَيِّ، أو العَلامةُ يتركُها في المَوْسُومِ، فيُعْرف بها.. واتَّسَمَ الرجلُ، إذا جعل لنَفْسِه سِمَةً يُعرفُ بها، والوَسِيمُ: الثابتُ الحُسْنِ، فكأنه وُسِمَ بالحُسْنِ، فصار له علامةً يُعرفُ بها. وامرأةٌ ذاتُ مِيسَمٍ، إذاكان للحُسْن والجمال أَثَرٌ عليها. وفي الحديث: تُنْكَحُ المرأةُ لِمِيسَمِها، أي لحُسْنها، وهو من الوَسَامَةِ.

ومن ذلك أيضاً مَطرُ الربيع الأول عند العرب، وهو يأتي في الخريف وأولِ الشتاء، سُمِّيَ وَسْمِيّاً، لأنه يَسِمُ الأرضَ بالنبات، فنُسِبَ إلى الوَسْم[1]. وكذلك سُمِّيَ الوقتُ، الذّي اعتاد الناسُ أن يجتمعوا إليه في كلِّ سنةٍ، أو أكثرَ، مَوْسِماً، على وزن مَفْعِلٍ، وهو اسْمٌ للزمان، فكأن ذلك الوقتَ المُعَيَّنَ وُسِمَ بِوَسْمِ الاجتماع والتلاقي، فصار لهم مَعْلَماً[2]، كلما أَهَلَّ عليهم علموا

---

(١) أبو العباس القلقشندي ـ صبح الأعشى: ٢/ ١٩٢.

(٢) المعْلَمُ: ما يُسْتدَلُّ به، جمعُ مَعَالِمَ.

أنه زمانُ اجتماعهم. وجعله بعضُهم إسماً للمكان فقال: إنه «مكانُ سُوقِ الحَجيج»[١]، أي موْضِعُ السُّوقِ التي تقومُ حينما يجتمعُ الحَجيجُ إليها. ويُقال: وَسَّمَ الناسُ، إذا شَهِدُوا الموسمَ، مثلما يُقال: عَيَّدُوا، إذا شَهِدُوا العيد[٢].

وهكذا سُمِّيَ وقتُ الحجِّ مؤسماً، لأنه مَعْلَمٌ يجتمعون إليه كلَّما أَزِفَ، وسُمِّي وقتُ قيام بعضِ أسواق التجارة والاجتماع مَوْسماً، لأنه كذلك معْلمٌ، يجتمعون إليه. وسُمِّي يومُ العِيد مَوْسماً، لأنه الوقتُ الذي يعودُ فيه الفرحُ أو الحزنُ، فيعودون إلى الاجتماع فيه، واشْتَقُّوا له إسماً من العادة، لأنه يعود كل سنةٍ بفرحٍ مُجَدَّدٍ، أو بذكرى حُزنٍ وألمٍ[٣]. وسُمِّيَ زمنُ الربيع موسماً، لأنه الزمن الذي تعود فيه الخضرةُ إلى الأشجار والزروع، أو تعود فيه الأنْداءُ والأمطارُ إلى الأرض فتُخْصِبُها، وتُنبِتُ العُشبَ والكلأ، فيعود الناس إلى الاجتماع إما لاجْتَناءِ الثمار أو للنُجْعَةِ.

وعلى ذلك، فإن كلَّ وقتٍ اعتاد العربُ، إذا أَهَلَّ، أن يجتمعوا إليه، في حَجٍّ، أو عيدٍ، أو نُجْعَةٍ، أو تجارةٍ، أو فيها جميعاً مُجتمعةً، هو مَوْسِمٌ عامٌّ عندهم، ما دام قِيامُهُ مَوْقُوتاً بِميقاتٍ ثابتٍ مُعَيَّنٍ، ينعقِدُ بحُلُولِهِ، وينقضي بانقضائه. وقد أكثروا من استعماله لأسْواقهم، التي كانت تقومُ بين نَجْدٍ والحجاز، وهي أسواقُ عُكاظٍ ومِجَنَّةٍ وذي المجاز، لأن انعقادها وافق موسمَ الحجِّ إلى مَكَّة، واختلط أَمْرُها بشَعَائِره، حتى حُسِبَتْ من مَنَاسِكِهِ[٤]. ثم

---

(١) الثعالبي ـ فقه اللغة: ٣٠١.

(٢) ابنُ منظور ـ لسان العرب: ١٢/ ٦٣٥ ـ ٦٣٧ (وسم).

(٣) لسان العرب: ٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٢ (عيد)، والزَّنْجَانيُّ ـ تهذيب الصِحَاح: ٢٣١، ٧٩٨ ـ ٧٩٩.

(٤) أبو الوليد الأزرقي ـ أخبار مكة: ١/ ١٨٩، وابنُ كَثِير ـ تفسير القرآن الكريم: ١/ ٤١٨.

طَفِقُوا يستعملونه للأسواق المُمَاثِلةِ، التي كانوا يُقيمونها في مواقيتَ مَعْلُومةٍ، على مَواضِعَ مختلفةٍ من بلادهم، فغَلَبَ عليها جميعاً اسْمُ المواسم، واتَّصَفَتْ بالعُموميَّةِ، لأنها كانت مَقْصِدَ الناسِ والتجّارِ من مختلف البِقَاع، للتجارة وأغراضٍ أُخرى مُتَنوِّعةٍ. ولعلَّ هذه الطائفةَ من أسواق الجاهلية، غَلَبَتْ عليها تَسْميةُ المواسم، لأن العرب أنْشَؤوها على مِثَالِ مواسم الحَجِّ، ومَجامِعهِ الكبرى، بما أقاموه فيها، أو في بعضها، من أَنْصَابٍ وأَصْنَامٍ يُعظِّمونَها، فكانوا يَحجُّون إليها، ويطوفون حولها[1]... وقد كان لهم من تلك الأسواق في مواسمها، فوق التجارات والبِيَاعاتِ: مَثَابَةٌ للعبادة[2]، وقُبَّةٌ للشِّعْر، ومِنْبرٌ للخطابة، والتفاخُر، والمُمَاجَدَة[3]، ورُكْنٌ للحكومة والتقَاضي، ومَلاعِبُ للفُروسِيَّة والرياضة، ومَلاذٌ للخائفين والمظلومين، ومجامِعُ للقبائل، ومَعْرِضٌ للأخلاق والعادات، وندوةٌ للتَّشَاوُرِ والتعَاهُدِ، ومُلْتَقى للمُحِبِّين، ومَرْتَعٌ للفَرح والطَّرَبِ واللَّهْو، ومجالسُ للسَّمَرِ، والمُنَادَمة، والتَّحَاجي[4]، وأشياءُ مُتنوِّعةٌ كثيرةٌ تَجِلُّ عن الحَصْرِ[5].. وعلى

(١) كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٥، وجواد علي ـ المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٧/ ٣٨٣.

(٢) المَثَابَةُ: الموضعُ الذي يُثَابُ إليه، أي يُرْجَعُ إليه مرَّةً بعد أُخرى.

(٣) المُماجَدَةُ: التفاخرُ بذكر الأمْجادِ. وتَماجَدَ القومُ: تفاخروا بأن يُظْهِرَ كلٌّ منهم مَجْدَهُ. ويُقَالُ: ماجَدَهُ فمَجَدَهُ، أي عارَضَهُ في مَجْدِهِ فغَلَبَهُ.

(٤) التَّحَاجي: من الحِجَىٰ، وهو العقلُ والفِطْنة، فكان أحدُهم يُلقي على الآخَرِ كلمةً مُحْجِيَةً، يُخَالِفُ معناها لفظَها، ليمتحِنَ فِطْنَتَهُ في إدْراك حقيقةِ معناها، أو مَوْضعِ الغَلَطِ فيها، وهي لعبةُ التحاجي بالألغاز والأغاليط.

(٥) محمد بن حبيب ـ المحبَّر: ٢٦٤، والقلقشندي ـ نهاية الأرب: ٤٦٤، وأبو حَيَّان التوحيدي ـ الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤، ومحمد عاطف ورفاقه ـ أدبيات اللغة العربية: ١٢، والمفصَّل: ٧/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

ذلك، يمكنُ القولُ بأن المواسمَ العامَّة، ولا سيما الرئيسَةَ منها، كانت تختلفُ في أغْراضِها، ومَزَاياها، وخصائِصها، عن أسواق التجارة الدائمة، مثلما تختلفُ عنها في أسباب نشوئها وآثارها، وهو اختلافٌ ناشِىءٌ من فُروقٍ تَفرِقُ بين الطائفتيْن، فالمواسمُ عامَّةٌ، وانعقادُها مُوَقّتٌ، وقيامُها يكونُ غالباً على مواضِعَ يعتقدون أنها مُقَدَّسةٌ، وأغراضُها دِينيَّةٌ وتجاريَّةٌ واجتماعيَّة وأدَبيَّةٌ. بينما أسواق التجارة خاصَّةٌ، ودائمةٌ، ولا تقوم إلا للتجارة فقط، وهو ما ستتكلَّمُ عليه بالتفصيل في الفصل التالي.

على أننا أردنا بالمواسم العامَّة في هذا الكتاب، غالباً، تلك الأسواق الكبرى التي كان لها موعدٌ معيَّنٌ، ثابتٌ من السنة، تنعقدُ فيه، ومُدَّةٌ محدودةٌ تقوم فيها، ثم تَنْفَضُّ عنها، إلى مثل ذلك من السنة التالية. هذا على الرغم من أننا سنتكلَّمُ أيضاً على مواسمَ للأعياد والعبادة كانت عند العرب، كما نتكلّم بالتفصيل على موسم الحجِّ الأكبر إلى كعبة مكة. ونشير أيضاً إلى مواسِمَ عَامَّةٍ أُخَرَ عند العرب، لم تكن أسواقاً، ولا مواسمَ للحجِّ أو للعيد، وإنما كانت للتَّبَدِّي أو التَّرَبُّعِ، وكانوا يخرجون فيها من منازلهم إلى البَوادي، زَمَنَيْ الخريف والربيع، وهي مواسمُ النُّجْعَةِ، ومُفَارقةِ الحضَارةِ، ومُراجَعَةِ البداوة.. وفي مثل هذه المواسم كانت تُوصَلُ عقودُ الجِوار وتُوثَّق، وتُنْجَزُ المواعيدُ بين الأَحِبَّةِ، وتُقالُ أروعُ قصائدِ الحبّ، وفيها كانت القلوبُ تَجْزَعُ، والدموعُ تسيلُ خوفاً من ساعةِ الافتراقِ، والعَوْدةِ إلى المحاضِر، وانقطاعِ أُنْسِ الحبيب... وما بكاءُ الأطلالِ عند الشعراء، وتحيَّتُهم دِمَنَ الدِّيَارِ إلاَّ بعضٌ ممَّا كان يكونُ في تلك المواسم من حكايات العِشق والغرام... وليس صحيحاً كلُّه مذهبُ من قال إن بكاءَ الأطلال كان ضرباً من العادة، جرى على ألسنة الشعراء في أيام الجاهليَّة، يفتتحون به قصائدهم... فالعارفُ بعاداتِ العرب، إذا تأمَّلَ في هذه المواسم، وجد أنها كانت مواسمَ أُلْفَةٍ

ومحبَّةٍ، لم يكن المحبُّون يجرؤون على التلاقي إلا في مُتَنَزَّهاتِها وحِمَاها ومَرَابِعها، فإذا انْقَضَتْ أيّامُها، ورَجَعَ كلٌّ إلى دياره، ثم مَرُّوا بمَواضِعِها مِن بعدُ، ذَكروها، وبَكَوْا على أطلالها وآثارها... وربما كانت تقومُ للعرب أسواقٌ في مواسم الربيع هذه، ولا سيما إذا أفاض اللّهُ عليهم فيها الخيرَ، ووَسَّعَ النِّعمَ، وإلى ذلك أشار التوحيديُّ(١) بقوله:

«... على أنَّ العربَ، رحمكَ اللّهُ، أحسنُ الناسِ حالاً وعَيْشاً إذا جادَتْهمُ السماءُ، وصَدَقَتْهمُ الأنْواءُ(٢)، وازدانَتِ الأرضُ، فهُدِّلَتِ الثِّمَارُ، واطَّرَدَتِ الأودية، وكثرَ اللَّبَنُ، والأَقِطُ(٣)، والجبنُ، واللحمُ، والرُّطَبُ، والتَّمْرُ، والقَمح، وقامت لهم الأسواقُ، وطابَتِ المرابعُ، وفَشَا الخِصْبُ، وتَوَالَىٰ النَّتَاجُ(٤)، واتَّصَلَتِ الميرةُ، وصَدَقَ المَصَابُ(٥)، وأَرْفغَ المُنْتَجعُ(٦)، وتلاقتِ القبائلُ على المناهل، فتعاقدوا وتعاهدوا، وتزاوَرُوا وتناشَدُوا، وعَقَدُوا الذِّمَم، ونَطَقُوا بالحِكَم، وقَرَوْا الطُّرَّاق(٧)، ووصَلُوا العُفَاةَ(٨)،

---

(١) أبو حيّان التوحيدي: علي بن محمد، فقيهٌ فيلسوفٌ ومُتصوِّفٌ، وُلد سنة (٣١٠ هـ)، ونشأ يتيماً فقيراً، وتلقَّى العلم في بغداد على أكابر علماء عصره، فَحقَّق ثقافةً عربيةً إسلامية موسوعية، ولُقِّبَ بفَيْلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة. تُوفي بشيراز سنة (٤١٠ هـ)، وله نحوُ ستةٍ وعشرين مُصَنَّفاً، أشهرها كتابُ الإمتاع والمؤانسة.

(٢) **الأنواء**: مَسَاقِطُ النجوم في أُفُق المغرب، الواحدُ نَوْءٌ، وكانت العرب تتَّخِذُها معالمَ تُنْبِئُهم بمواعيد الأمطار والرياح والبرد والحرّ.

(٣) **الأَقِطُ**: طعام يُتَّخَذُ من اللبن الحليب بعد طبخه، كالقريشة.

(٤) **النَّتَاجُ**: ما تَلِدَهُ الإبلُ والأغنام.

(٥) **المَصَابُ**: انصبابُ المطر ونزولُه.

(٦) **أرْفَغَ**: لهم، أي وسَّعَ.

(٧) **قَرَىٰ**: الضيفَ، أي أضافه، **والطُّرّاق**: الآتونَ ليلاً، الواحدُ: طارقٌ.

(٨) **العُفَاةُ**: طُلَّابُ المعروف، الواحدُ: عافٍ.

وزَوَّدُوا السَّابِلَةَ[1]، وأَرْشَدُوا الضُّلَّالَ، وقاموا بالحَمَالاتِ[2]، وفَكُّوا الأسْرىٰ، وتداعوا الجَفَلَىٰ، وتعافوا النَّقَرَى[3]، وتنافَسُوا في أعمال المعروف. . . »[4].

فليس من الغريب إذن أن يكون في هذه المواسم الطيِّبَة، مواسمِ الخيرِ والنعمة، والحبِّ، والأُلْفَةِ، شِعرٌ وشُعَراءُ، وعهودٌ بين المحبِّينَ على المودَّة والوفاء، ومواعيدُ تظلُّ تبعثُ في نفوسهم آمالَ العودة إلى اللقاء، وقد يكون فيها أسواقٌ تقومُ للمتاجرة، فيكون فيها اجتماعٌ وسياسةٌ، وقضاءٌ ومفاخراتٌ، وشُورىٰ ومُنافَراتٌ، وكلُّ ما كانت العربُ قد أَلِفَتْهُ من الأنْشِطة في مواسم أسواقِها الكِبَار. . .

* * *

ولئن كنتُ قد تَولَّيتُ مواسمَ الأسواق بالتحقيق الدقيق والبحث العميق، وكشفتُ عن مَوْسمْين كبيرْين في كل سنة لخروج أهل الحواضر إلى الأرْيافِ والبوادي، في نُجعة بيَّنتُ أَزْمنتَها وأغراضَها وآثارها، لقد عَرَضْتُ، عَرْضاً وَصْفيّاً غالباً، جُملةً من مواسم الأعياد القديمة عند العرب، سواء ما كان منها وثَنيّاً أو دينيّاً، وذلك لأنني نظرتُ فوجدتُها أكثر من أن أُحِيطَ بها، أو أُحْصِيَها وأُحَقِّقَها، فذكرتُ موسمَ العيد السنويّ بتدمُر، ووصفتُ وقائعه

---

(١) السابِلَةُ: أبناءُ السبيل، أو المارُّونَ على الطريق.

(٢) الحَمَالات: الدِّيَاتُ والغَرَامَاتُ، مُفْردها: حَمَالة.

(٣) الجَفَلَىٰ: أن تدعو الناس إلى طعامك دعوةً عامَّةً لا تخصُّ بها جماعةً مخصوصةً. والنَّقَرَىٰ: الدعوةُ الخاصَّةُ، وهي عيبٌ عند العرب لأنها لا تدلُّ على الكرم، ولذلك قال إنهم كانوا يَتَعافونها، أي يُمسِكونَ عنها.

(٤) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٠ ـ ٨١.

ومَراسِمَهُ، كما ذكرتُ بعضَ أعياد النصارى، كعيد الشعانين وعيد الصليب، التي كانت تُقام في بعض الأَدْيِرة بالعراق ونَجْران. . . ذلك أنها كانت مواسمَ عامّةً يَشْهدُها النصارىٰ وغيرُهم من أهل المِلَل الأُخرى! وحتى في الإسلام، ولا سيما في زمن الخلافة العباسيَّة ببغداد، والخلافةِ الفاطميَّة بالقاهرة، كان المسلمون يحتفلون بأعيادِ النصارى والمجوس والصابئة، كاحتفالهم بأعيادهم في رأس السنة الهجريَّة، ويوم عاشوراء، وليلة مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، وليلة أوَّل رجب، وليلة نصف شعبان، وليلة غُرَّة رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى! ولم يكن للمسلمين في أول الإسلام غيرُ مَوسِمَيْن للعيد، في الفِطْر وفي الأضحىٰ. . وكانت أعيادُ النصارى التي يُشاركهم فيها المسلمون كثيرةً، منها: عيدُ الميلاد، وعيدُ الفصح، وعيدُ الشعانين. . .

وقد ذكر القلقشنديُّ[1] أن أعيادَ القِبْط في مصر كثيرةٌ، ولا يكاد يخلو يومٌ من أيام السنة من عيدٍ لهم، ومنها ما كانت مواسمُه ثابتةً في مواقعها من فُصول الشمس، ومنها ما كان مُتَحوِّلاً، كعيد الفِصْح الأكبر، لأنه مُتعلِّق بفِطْرهم من صَوْمِهم الكبير، وهو مُوقَّتٌ توقيتاً قمريّاً وشمسيّاً معاً، ومنها أيضاً: عيدُ البشارة، وعيدُ الزيتونة أو عيدُ الشعانين، وعيدُ النيروز، وعرسُ النيل في الأول من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وغيرُها من الأعياد[2]. . . ويقول د. شوقي ضيف: «كان المسلمون في مصر يحتفلون، وما يزالون،

(١) القلقشندي: أبو العباس، شهابُ الدين أحمد بن علي. يُنسب إلى قَلْقَشَندة من أعمال مصر في القَلْيوبيَّة. من كبار علماء عصره وأدبائهم. أعظمُ مؤلَّفاته: صبح الأعشَىٰ في صناعة الإنشا، ضمَّنَهُ كل ما يحتاج إليه الأديب من العلوم والمعارف والأدب والجغرافية والتاريخ. توفي سنة (٨٢١ هـ).

(٢) صبح الأعشى: ٢/٤٥٣ ـ ٤٥٥.

مع إخوانهم القِبْط بأعيادهم، كعيد ميلاد المسيح، وعيد الغِطاس، وعيدِ خَميسِ العهدِ قبلَ عيد الفصح بثلاثة أيام، وعيد أَحَدِ الشعانين، وكانت الكنائسُ تُزيَّن فيه بأغصان الزيتون وخُوص النخيل. وكان بعضُ هذه الاحتفالات يتحوَّلُ إلى (كرنڤالات) كبيرة، يلهو فيها المسلمون والقبطُ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات، والخيال هو لعبة خَيال الظلِّ المضحكة، التي تحوَّلت مع الزمن إلى لعبة (الأراجوز) المعروفة، ولعلّ التماثيل هي أشباحُ الأراجوز نفسُها، أما السماجات فأشخاصٌ يتراؤون في صور مضحكة، صابغين وجوههم أصباغاً مختلفة»[1].

وما دُمنا نتكلَّم على أصناف المواسم العامَّة كما عَرفها العربُ على اختلاف دياناتهم وعقائدهم ومَواطِنهم، «ينبغي أن نذكر أن المسيحية وُجدت قبل أن تُقْرنَ بها تلك المواسمُ والأعيادُ والاحتفالاتُ، وأن المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها، وأنكروه، وكان منهم مَن حَرَّم حتى الاحتفالَ بمولدِ للمسيحِ في يومٍ مُعيَّن كائناً ما كان... وقد مضت ثلاثةُ قرون تقريباً قبل أن تحتفل كنيسةٌ من الكنائس المعتَمَدةِ بعيد ميلاد المسيح، في تاريخ من التواريخ، ثم اختلفت الكنائسُ في هذا الموسم، فاحتفلت به الكنيسةُ الغربية في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر)، واحتفلت به الكنيسةُ الشرقية في السادس من شهر كانون الثاني (يناير)، ويُرجَّح أنهما اختارا هذا الزمنَ، لصَرْفِ المسيحيين عن شُهود المحافلِ الوثنيَّة التي كانت تتَّخِذُه عيداً للشمس»[2]... ولمّا كانت سنتُهم تبدأُ بشهر تشرين، كانوا يُعيِّدون هذا العيدَ في هذا الشهر.

---

(١) عالمية الإسلام: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) عباس العقاد ـ حياة المسيح: ١٠٣ ـ ١٠٤.

وقد اجْتَزَأتُ الحديثَ عن مواسم الأعياد المسيحيَّة، في هذا الموضع، وكان من حقِّها الكلامُ عليها بالتفصيل في الجزء الثاني من الكتاب، وذلك لسببيْن، أولهما: أنها مواسمُ كثيرةٌ جداً، ولا سيما عند الأقباط بمصر. والثاني: أن معرفتنا قليلةٌ جداً بما كان قائماً منها في عصر الجاهلية، بما في ذلك موسم نَجْران.

* * *

وصفوةُ القولِ في التعريف بالمواسم العامّة، أنها مَواقِيتُ مُعيَّنةٌ معروفة، يجتمع الناسُ إليها كلَّما أَهَلَّتْ، وينْفضُّون عنها إذا انْقَضَتْ... وهي على ضُروبٍ مُتَعدِّدة، منها أسواقٌ موسميَّةٌ للتجارات والاجتماع والسياسة والشعر واللهو والرياضة وغير هذا من الأغراض. ومنها مواسمُ للحجِّ والنُسْكِ والعبادة، ومواسمُ للأعياد الدينية، ومواسمُ طبيعية زراعيَّة يخرج الناسُ فيها من حواضرهم إلى البوادي في الربيع والخريف.

* * *

الفصل الثاني

خصائص المواسم العامة وأغراضها وءاثارها

المطلب الأول ـ عُموميّةُ الأسواق الموسمية وخُصوصيةُ أسواقِ التجارة الدائمة:

السُّوقُ في اللغة مَوْضِعُ البِيَاعَات. والبِيَاعَاتُ: السِّلَعُ والأَمْتِعَةُ والعُرُوضُ، التي يَتبايَعُ الناسُ بها في التجَارة. وقد سُمِّيَ مَوْضِعُ البِيَاعَاتِ سُوقاً، لأن البضائعَ تُجلَبُ إليه، وتُسَاقُ نحوَهُ. ويُقال: تَسَوَّق القوم إذا باعُوا واشْتَروا، وابْتَغُوا الرزق، أو طلبوا المعاشَ[1]. وفي القرآن الكريم: ﴿ وقَالوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْواقِ ﴾[2]، أي يبتغي الرزق. فالسُّوقُ مُشْتقَّةٌ إذن من سَوْقِ الناس بضائِعَهم إلى مَوْضعٍ مُعيَّنٍ، اعْتادَ الناسُ أن يَتَبايَعُوا فيه، ابتغاءً للرزق وقضاءً للحاجات. ويُقال: قامَتِ السوقُ إذا نَفَقَتْ، ونامَتْ إذا كَسَدَتْ، وقِيامُ السوقِ هو رَوَاجُ بُيُوعِها وعُروضِها وتجاراتها. والنافِقُ من البضائع: الرَّائجُ، خِلافُ الكاسِدِ، ونَفَّق البضاعةَ وأَنْفَقَها: رَوَّجَها[3]... ويُقال: انْعَقَدتِ السوقُ، أي انتظمت، وتأكَّد افتتاحُها، وبدأ فيها البيعُ والشراء[4].

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٢٥ (باع)، و ١٠/ ١٦٧، ١٦٨ (سوق).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٤٩٧ (قوم)، و ١٠/ ٣٥٧ (نفق).

(٤) المرجع نفسه: ٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨ (عقد).

وكانت الأسواقُ عند العرب في الجاهلية على ضَربَيْنِ، أحدهما أسواقٌ موسميَّةٌ عامَّةٌ، والآخَرُ أسواقٌ دائمةٌ خاصَّةٌ. فأمَّا الأولى فهي مَرْهُونةٌ بموسمٍ مُعيَّنٍ، تنعقدُ فيه أياماً معلوماتٍ، ثم تنفضُّ بانقضائها، وهي غالباً مَقْصِدُ الناس من أهل الموضع الذي تكون فيه، وأهالي المواضِع القريبة المجاورة، أو البعيدة. وأمَّا الثانيةُ فهي خاصَّةٌ بأهلها، وغيرُ مرهونةٍ في انعقادها بموسمٍ مُعيَّنٍ، وميقاتٍ معلومٍ، وهي ظاهرةٌ طبيعيَّةٌ، يُمكن أن تَنْشَأَ في كل مكانٍ أو زمانٍ، وعند جميع الناس، تُزَوِّدُهم بما يحتاجون إليه في حياتهم اليوميَّةِ، من الطعام والشراب والدواءِ واللباس وكلِّ الأشياء اللازمة لمعيشتهم، وكان يكون بها عادةً: جَزَّارٌ، ونَخَّاسٌ[1]، ونَجَّارٌ، وخَيَّاطٌ، وبَزَّازٌ[2]، وخَمَّارٌ، وحدَّادٌ، وزَيَّاتٌ[3]، وعطَّارٌ، وبَيْطارٌ[4]، وحَجَّامٌ[5]، وكان يوجدُ أيضاً في بعض أسواقهم صَاغَةٌ[6]. . . والأصلُ في هذه الأسواق أن تظلَّ منعقدةً للبيع والشراءِ، طولَ السنة، أو مُعْظَمها، أو أياماً مُعَيَّنةً من الشهر أو الأسبوع، أو كلما وصلت إلى القرية، أو البادية، قافلةٌ تحملُ العُروضَ والأَمْتِعةَ والسِّلَعَ المختلفة، فيقصدُها أهلُ القرية، أو الموضع الذي تكون به، وقلَّما يقصدُها أحدٌ من مَطارِحَ بعيدةٍ، إلا إذا كانت سوقاً كبرى، وكانت له فيها حاجَةٌ مُلِحَّةٌ

---

(١) النخَّاسُ: بائعُ الدَّوابِّ، سُمِّي بذلك لِنَخْسِه إيَّاها حتى تَنْشط، أي لِغَرْزِه جَنْبها، أومُؤخَّرها، بعُودٍ أو نَحْوِه. وحِرْفَتُه النِخَاسَةُ، وقد يُسمَّى بائعُ الرقيق نخَّاساً، والأوَّلُ هو الأصل.

(٢) البزَّازُ: بائعُ البَزِّ، وهو الثياب.

(٣) الزيَّاتُ: بائعُ الزيت.

(٤) البَيْطَارُ: الذي يُعالج الدَّوابَّ.

(٥) الحَجَّامُ: وحِرْفَتُه الحِجَامَةُ، وهي المداواة بالمِحْجَم، والمحجَمُ قارورةُ الحَجْم، أو آلَتُهُ، وهي كالكأس، يُفَرَّغ من الهواء، ويُوضَع على الجلد، فيُحدِثُ تَهيُّجاً، ويجذبُ الدمَ بقوَّة، وقد سُمِّي من يصنعُ ذلك حَجَّاماً لامْتِصاصِه فمَ المِحْجَم.

(٦) إبن الأثير ـ الكامل في التاريخ: ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

إلى سِلْعةٍ، ليس في دِيَارِهِ مِثلُها. وفي حديث أهل الأخبار مثلاً، أن «رابِيَةَ الحَزْوَرَةِ كانت سوقَ مكة»[1] في الجاهلية، وأن القوافل كانت إذا قَدِمتْ مكةَ من السَّرَاةِ، أو الطائف، تحملُ الحِنْطَةَ والحُبُوبَ والسَّمْنَ والعسَلَ، تَحُطُّ في رَحْبَةٍ بين دارَيْ أبي سفيان وحَنْظَلَةَ بن أبي سفيان، وتُباعُ فيها[2]. وليس في نُشُوءِ هذه الأسواق، ودَوَامِها، غيرُ قضاء حاجات الناس طلباً للرزق والمعاش، في عملٍ تجاريّ مَحْضٍ، لا يبتغي في أَساسِه أن يُحقِّق أكثرَ من المصالح الماديَّة للمُتَبايِعينَ.. وتلك هي عِلَّةُ نُشُوئها، ودَوَامِها على توالي الأيام، وانتشارِها في كلِّ مكان، وخُصوصيَّةِ نشاطها، لا عِلَّةَ سوى ذلك.
ولا شك في أنها كانت معروفةً في كثير من القُرى والأمصار والأحياء المنتشرة في بلاد العرب.



المطلب الثاني ـ حَوْليَّةُ الأسواق الموسميّة ومواسم الحج والأعياد:

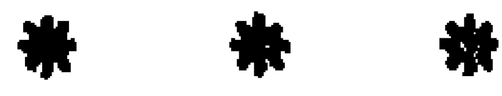
وعلى ذلك فأوّلُ خصائصِ الأسواقِ الموسميَّةِ أنها كانت حَوْليَّةً، تنعقِدُ مواسمُها مرَّةً واحدةً في مواقيتَ مُعيَّنةٍ من السنة، وتقومُ أياماً مَعْدوداتٍ مَعْلوماتٍ، ثم تَنفضُّ بانقضائها، فلا يعودون إلى مِثْلها حتى يَحُولَ الحَوْلُ... شأنُهم في ذلك كشأنِهم في مواسم الحجِّ، ومُعظمِ مواسم الأعياد.

ولا شك في أن ضَبْطَ مواعيدِ الأسواق الموسميَّةِ على مواقيتَ مُعيَّنةٍ لم

---

(١) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان: ٢/ ٢٥٥، وأخبار مكة: ٢/ ٢٩٤.
(٢) أخبار مكة: ٢/ ٢٣٩، «وصارت الرحبةُ تُعْرف بعدئذٍ بدار زياد، لأن معاوية بن أبي سفيان أقطعها لأخيه من أبيه زياد بن سُمَيَّة».

يكن يتمُّ مُصَادفةً أو هَوىً، بل كان غالباً متوافقاً ومواعيدَ مواسمَ دينيَّةٍ، ومواعيدَ انتقال القوافل التجاريَّة بين محطَّاتِ التجارة والأسواق، فمن شأن هذا الضبطِ أن يجعل الناسَ والتجَّارَ على موعدٍ ثابتٍ، فلا ينتظرُ أحدُهم الآخَرَ انتظاراً يُخِلُّ بنظام القوافل، كما أن من شأنه أن يُتيح للتُجَّار وقتاً يتدبَّرون فيه أُمورهم للاشتراك في القوافل، وقد أُعِدَّتْ، ونُظِّمَ طريقُ سَيْرِها، وأُمِّنَتْ بالخفارة والخُفَراءِ، مثلما يُتيح للناسِ شهودَ مواسم الحجِّ والأسواق العامَّة في أوقاتها آمِنينَ مطمئنِّين.



المطلب الثالث ـ نظام المتاجرة والعُشُور في الأسواق الموسميَّة:

ويبدو أنه كان واحداً في الأسواق الموسميَّة كلِّها، فإذا أَزِفَ وقتُ الموسم، لا تُفتَتَحُ السوقُ للمتاجَرة، حتى يأذَنَ الملكُ أو نائبُه بافتتاحها، أو إمامُ الموسم إن لم تكن السوقُ في أرضِ مملكةٍ، كما في أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز[1]، وحينئذٍ تقوم السوقُ وتصحُّ المبايعات. . . فإذا كانت السوقُ في أرض مملكةٍ، لم يَبِعْ أحدٌ من التجار شيئاً من بضاعته حتى يبيعَ الملكُ أوّلاً كلَّ ما يريدُ بَيْعَهُ من السِّلَع والعُروض التجارية، كما في سوق دومة الجندل[2]. وكان من عادة الملوك في ذلك الزمن أن يُرسِلوا القوافلَ بالبضائع، للمتاجرة في المواسم العامّة، ولعلّ هذه العادة كانت من آيات المُلْكِ والرياسة، إذ لم تكن في ملوك العرب وسادتهم وحَسْبُ، بل كانت «عُرفاً مُتَّبعاً عند غيرهم من الملوك مثل الأكاسرة والقياصرة»[3].

---

(١) المحبَّر: ١٨١، وأبو علي المرزوقي ـ الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

(٣) المفصَّل: ٥/ ٢٦١، و ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

وكان التجارُ في تلك المواسم يُؤدُّون إلى الملوك ضريبةً على بيُوعهم بمقدار العُشْر، تُسمَّى العُشُور، كما في أسواق عدن وصنعاء باليمن، وصُحَار ودَبَا بعُمَان، والمشقَّر بالبحرين، ودُومة الجندل... فهذه جميعاً كانت عُشُورها إلى ملوكها، أو مَن يقوم مقامَهم عليها[١]. وكان في كل سوق منها عَشَّارون أو جُبَاةٌ، يطوفون فيها، لِيَسْتَوفُوا من التجار العُشُورَ التي وجَبَت عليهم، ويُؤَدُّوها إلى الملوك. وكانت هذه الضريبةُ معروفةً ومُتَّبعَةً في البلاد الأخرى كما في جزيرة العرب، وتُؤْخَذُ نقداً أو عَيْناً[٢].

أمّا إذا لم تكن السوقُ في أرضِ مملكةٍ، فلم يكن فيها عُشُورٌ، فكأنها كانت منطقةً حُرَّةً لا تُسْتَوفَى فيها أيةُ ضريبة... فسوقُ الشِّحْر مثلاً لم يكن بها عُشُورٌ «لأنها ليست بأرض مملكة»[٣]، ومع ذلك فقد كانت قبيلةُ محارب بن هرب من بني مَهرَة، تخفرُ جميعَ من يختلف إليها من العرب[٤]... ولم يكن في سوق عكاظ «عُشُورٌ ولا خفارة»[٥]، لأنها لم تكن في أرضِ مملكة، وهو مقتضى النصّ السابق، ولأنها تقومُ في شهرٍ حَرامٍ لا يحتاجُ الناسُ فيه إلى مَن يحميهم[٦]... والقولُ نفسُه يُقال في سائر الأسواق التي ليست في أرضِ مملكةٍ أو تقوم في شهرِ حرام، مثل سوق مجنة وسوق ذي المجاز، وسوق الرابية بحضرموت، وسوق نطاة، وغيرها... غير أن

---

(١) المحبَّر: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٣.
(٢) المفصَّل: ٥/ ٣٠٧، و ٧/ ٤٧٨.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٤) المحبَّر: ٢٦٦. وبنو مَهرَة بن حيدان: بطنٌ من قضاعة، مَسَاكنُهم بلادُ الشِحْر، بين عُمَانَ وحضرموت، على سواحل بحر العرب.
(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.
(٦) المحبَّر: ٢٦٧.

بعض الباحثين وقعوا في الغَلَط حينما حسبوا الأسواق طائفتين، تقع إحداهما في أرض مملكة، والأخرى في البادية حيث «كان سادةٌ بعض هذه المناطق ينصبون أنفسَهم حُكَّاماً على أسواقها، ويسيرون فيها بسيرة الملوك، فيأخذون من التجار فيها العُشُورَ، كما كان يفعلُ بعضُ بني تميم في سوق المشقَّر بهَجَر، وكما كان يفعلُ آلُ الجُلَنْدَىٰ في سُوقَيْ صُحَار ودَبَا بعُمان»[1]... وهذا مذهبٌ في الرأي لايتفقُ وحقيقةَ الأمر، فالمُشَقَّرُ لم يكن في باديةٍ، وإنما هو قَصَبَةُ هَجَرٍ وقاعدتُها، وهَجَرٌ قَصبةُ البحرين ومدينتُها[2]، وبنو عبد الله بن دارم من تميم كانوا مُلوكَ البحرين وسادَتَها، وكانوا يستوفون العُشورَ من التجار لأنهم ملوكٌ في أرض مملكة، وليس لأنهم تَشَبَّهُوا بالملوك في أرض بادية، فالمَمَالِكُ تقومُ في البادية كما تقومُ في الحاضرة، وتكون رعيَّتُها من القبائل كما تكون من أهل القُرى والمُدن... وهذه دومةُ الجندل والحيرةُ وتدمُر والبتراء، كلُّها ممالكُ قامت في البادية، وكان لها ملوك يحكمونها، ويستَوْفُونَ العُشُورَ من التجار في أسواقها وفاقاً للعادة المتَّبَعَة.

أما لو كان الأمرُ كما زعم أولئك الباحثون، فما الذي منَعَ «آل مَهرَة بن حيدان» وهم رؤساءُ مِخْلافِ المَهَرة وسادتُه[3]، أن يسيروا في «سوق الشِحْر» بسيرة الملوك، ومُعظمُ بلاد الشحْر حاضرةٌ لا بادية؟ العلَّةُ في ذلك واضحة،

(١) د. يوسف خليف ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ١٢٨.

(٢) كانوا يُطلِقُون اسم البحريْن على المنطقةِ الممتدَّةِ من الأُبُلَّة، عند رأس الخليج العربي، إلى حدود عُمَان، وهي ما تُسمَّى اليومَ بالأحْسَاء. وسنعود إلى بيان هذا في موضعه... ونحبُّ أن نشير هنا إلى أنه حيثما جاء ذكرُ البحرين في هذا الكتاب، فالمرادُ به إقليمُ الأحْسَاءِ، وليس جُزُرَ البحرين المعروفة في أيامنا.

(٣) المِخْلافُ: الكورةُ من الأرض، وهي بقعة تجتمع فيها القُرى والمساكن.

وهي أن الشِحْر لم يكن في أرض مملكة[1]. وقد كان «آلُ حُجْر بن عمرو الكندي» ملوكاً على قبائل مَـعَدٍّ بن عدنان منذ القرن الخامس[2]، وكان «آلُ مسروق بن وائل الحضرمي» ملوكاً في حضرموت[3]، وكانت حضرموتُ انْدَرَجَت في كندة وصاروا من عِدَادِها[4]، وكانت «سوق الرابية» بحضرموت تقومُ بجوارهم وحمايتهم معاً[5]، فما الذي منعهم يومئذٍ أن ينصبوا من أنفسهم مَلِكاً عليها، يستوفي العشور ممن يُتاجر فيها؟ والعلَّةُ هنا واضحة أيضاً، وهي أن الرابية لم تكن في أرض مملكة، وكانت تقوم في شهر حرام[6]... ويبدو أن اللبْسَ نشأ من عدم التفريق بين العُشُور التي يَسْتوفيٰها الملوكُ في الأسواق، وضرائب المرور التي يستوفيها رؤساءُ القبائل في البادية من التجار لحمايةِ قوافلهم وضَمانِ مُرورِها في أرضهم بأمانٍ وسلامٍ.

والعجيب في أمر أولئك الباحثين أنهم إذا تحدَّثوا عن «المشقَّر»، أَقَرُّوا بأن صاحبها هو أَحَدُ رؤساء بني تميم، من أبناء عبد الله بن زيد[7]، فإذا تحـدَّثُـوا عـن «هَجَـر» أكَّـدُوا أن ملكهـا هـو المنـذرُ بـنُ سـاوَى، أَحَـدُ بنـي عبد الله بن دارم، وأنه مَلكُ البحرين عامَّةً[8]، وكأنَّ المشقَّرَ شيءٌ، وهَجَراً شيءٌ آخَرَ، ومَلِكَ المشقَّرِ غير مَلكِ هَجَر! وكلُّها أسماءٌ لمُسَمَّيَاتٍ واحدة،

---

(١) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٢) جرجي زيدان ـ العرب قبل الإسلام: ٢٩١.

(٣) لسان العرب: ١١/ ٤٢٢ (عَبْهَلَ).

(٤) العرب قبل الإسلام: ١٨٢.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٦) المحبَّر: ٢٦٧.

(٧) المفصَّل: ٧/ ٣٧٣، وأسواق العرب: ٢٤٤.

(٨) المفصَّل: ٧/ ٣٧٤، وأسواق العرب: ٢٥١.

فالمشقَّرُ حِصْنُ هَجَرٍ، وهَجَرٌ حاضرةُ البحرين وقاعدتُها[1]، وملوكُ البحرين هم أبناء عبد الله بن دارم من بني تميم، والمنذر بن ساوَى هو أحدُ بني عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم التميميّ[2]، وكان صاحبَ البحرين وملكها حينما ظهر الإسلام[3].. وما قلتُه في «المشقَّر» أقوله في «صُحَار»، فصُحَارُ كذلك لم تكن باديةً، بل كانت عاصمةَ عُمَانَ وثَغْرَها على البحر، وكانت «دبا» مثلَها من قبلُ، وبنو المُسْتكبِرِ من أَزْدِ عُمَان كانوا ملوكها وأصحابَها، فكانوا يستوفون العُشُورَ من التجار بهذه الصفة لا بغيرها.

وقد استَوْقفني أحدُ الباحثين حين وجدتُه يعجبُ لِسُكوت أهل الأخبار عن «وُلاة سوق مجنَّة وجُبَاةِ عُشورها»، ثم يعودُ ويُطمْئِنُ نفسَهُ بأنهم كانوا من سادة قريش[4]... وهو غلطٌ من الباحث الكريم، صوابُه أن سوق مجنَّة لم تكن في أرض مملكة، ولم يكن بها عشورٌ ولا خفارةٌ. كما زعم أن «والي سوق الشِحْر وجابي عُشُورِها من قبيلة مَهَرَة»، وعزا قولَه إلى اليعقوبي[5]، مع أن الرجُل لم يقلْ شيئاً من ذلك، وإنما ذكر أن السوق لم تكن بها خفارة لأن قبيلة مَهَرَة كانت تقومُ بها[6].

* * *

وكانت أسواقُ الشام في أرضِ مملكةٍ وأمْرٍ مُحْكَم، فكانت تُجبَى فيها

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧، و٢/ ٣٧٨، و٣/ ٤١١، و٥/ ٣٩٣، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٢) ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢.
(٣) الأعلام: ٧/ ٢٩٤.
(٤) الأطلس التاريخي للدولة السعودية: الملحق رقم ٢.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

العُشُورُ من التجار إذا دخلوا حُدودها، فإذا تاجروا في أسواقها عشَّرهم ولاةُ العُشور في الأسواق[1]. وكانت رئاسةُ مَعَان وفلسطين لبني جُذَام، منهم مثلاً زِنْبَاعُ بنُ رَوْح بنِ سَلامَة الجُذَاميُّ وكان يعشُر من يمرُّ به مُتَاجراً إلى الشام[2]، وتذكُرُ روايةٌ أنه كان يعملُ للملك الحارثِ بن أبي شَمِر الغسَّاني[3]. بينما تذكر روايةٌ أخرى أنه كان يتولَّى ذلك للرومِ حُكامِ البلاد، إذ كان صعباً عليهم جبايةُ العُشور من العرب، فوَكَلُوا أمَرَها إلى رؤساءِ القبائل وسادَتِها[4]. ويبدو أن التعشير على مشارف الشام كان من حقّ بني جذام، لأنه ظلَّ في أبناءِ زِنْبَاع من بعده[5]، ولعلَّه كان كذلك في آبائه من قبله.

ويبدو أن الأمر نفسه كان في العراق، ولا شك في أن حكومة المناذرة كانت تُولِّي من يعشُرُ التجارَ، وهو ما نفهمه من شعْرٍ قاله جابرُ بنُ حُنَيّ التغلبي:

وفي كلّ أسواق العراق إتَاوَةٌ ... وفي كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهمِ[6]

والإتاوةُ هي الخَراجُ أو العُشُورُ، والمكْسُ كلمةٌ آراميَّةٌ «مَكْسُو»، وهيَ هنا تكرارٌ لكلمة الإتاوة، وربما كانت الإتاوةُ أكثر شُمولاً، والمكسُ يعني ما يُدفعُ ضريبةً على البيوع في الأسواق[7].

* * *

---

(1) المفصَّل: ٥/٣٠٨.

(2) ابن حجر العسقلاني ـ الإصابة في تمييز الصحابة: المجلد ١، ص ٥٣٣، الترجمة ٢٨١٧.

(3) المفصَّل: ٧/٤٧٩.

(4) المفصَّل: ٥/٣٠٩.

(5) الأعلام: ٣/٣٤.

(6) المفضليات: تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون: القصيدة ٤٣/ الصفحة ٢١١.

(7) المفصَّل: ٧/٤٧٢ ـ ٤٧٣، والإفصاح في فقه اللغة: ٦٦٨.

المطلب الرابع ـ طرائق البيوع في الأسواق الموسميّة:

ثمَّةَ أمرٌ يُعَدُّ ظاهرةً مُشتَركةً بين أسواق الجاهلية الموسميَّة، فقد جاء في أحاديث الأسواق عند أهل الأخبار وبعض المؤرخين، أن مبايعة العرب في سوق دومة الجندل، وسوق صُحَار، وسوق الشِحْر، كانت تجري بطريقة «إلقاء الحجارة، أو رَمْي الحَصَاة»[1]... وأن مبايعتهم في سوق المشقَّر، كانت «المُلاَمَسَة والهَمْهَمَة والإيمَاء»[2]، وأن بيعهم في سوق صنعاء كان بطريقة «جسّ الأَيْدي»[3]، وأن بَيْعهم في سوق عكاظ كان بطريقة «السِّرار»[4]... وهي طرائقُ للبيع تَطْغَى عليها الشَّكْلِيةُ، وتَتِمُّ المبايعةُ فيها من غير صيغة كلام، فتُفقدُ أحدَ المتبايعين حريتَه في الخِيَار والقبول... وقد ذكروا لها شروحاً مختلفةً كثيرةً، يدلُّ اختلافها على تكلُّفِ أصحابها في تفسيرها، وتَزَيُّدِهم في مَدْلُولها، كما تدلُّ كثرتُها على جَهْلهم حقيقتَها، وحَيْرتِهم في الوُقوعِ على المعنى الصحيح... ومن ذلك قولُهم في مبايعة إلقاء الحجارة، أن يجتمعَ على السلعة نَفَرٌ يُسَاوِمُون بها صاحبها، فأيُّهم رضي ألقى حجره[5]..! أو أن يقول أحدُ المتبايعين للآخَر: إرْمِ هذه الحَصاةَ، فعلَى أيِّ ثوبٍ وقعتْ فهو لك بدرهم[6]..! أو قولُهم في السِّرَار أنه إذا وجَبَ البيعُ وعند التاجر ألفٌ ممَّن يريدُ الشراء ولا يُريدُهُ فلَهُ الشركةُ

---

(١) المحبَّر: ٢٦٤، ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، ١٦٤.
(٢) المحبَّر: ٢٦٥.
(٣) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٤) المحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.
(٥) المحبَّر: ٢٦٤.
(٦) محمود شكري الألوسي ـ بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤.

في الربح[١]. . !، إلى أقوالٍ أخرى مختلفةٍ نخشى الإطالةَ والإمْلاَلَ إن نحن ذكرناها جميعاً. وإذا أخذنا بتلك الشروح، فكأننا أقْرَرْنا بأن بُـيُوع العرب في مواسمهم الكبرى كانت «نوعاً من أنواع المقامرة»[٢]، أو ضَرْباً من ضُروب العبث واللهو، وأن أسواقهم لم تكن أكثر من مَلاعبَ للتسلية واخْتبارِ الحظُوظ، وأن العرب بذلك، مع مَن كان يقصدُ أسواقَهم من الأجانب، أقوامٌ سُذَّجٌ أو من ذوي الغَفْلةِ. وإذا صَرَفنا النظر عن تلك الشروح، لِمَا فيها من التكلُّف والتزيُّد، ونظرنا في مَدلُولها الحقيقي، وَجَدنا أن المشتري إذا لَمَسَ السلعةَ بعد معاينتها، أو أَلْقَى عليها حجراً، أو أَوْمَأَ للبائع برأسه، أو جَسَّ يَدَهُ، أو هَمْهَمَ بكلام وإن كان خَفِيّاً، فإن ذلك يُعَدُّ علامةَ القبول بالمبايعة، وإنْهاءً للخِيَار، ومُوجِباً للبيع[٣]. . . أي أن المشتري يظلُّ حُرّاً في خِيَاره ما دام ينظرُ إلى المبيع، أو يتحدَّثُ بشأنه مع البائع، فإذا لمسهُ مثلاً، فتلك علامةُ القبول، وقد وَجَبَ البيعُ. وإذا صحَّ أن هذه البُيوعَ اتُّبِعتْ أحياناً في بعض مواسم الجاهلية، فلعلَّ السببَ جهلُ الأعاجم لغات العرب وعاداتهم، أو ربما اختلافُ اللهجات بين بعض قبائل العرب. . . ولا شك في أنها كانت تُتَّبَعُ للتعبير فقط عن قَطْع الخِيَار ووُجُوبِ البيع، ولكنْ بعد إجراء المُسَاوَمة الحرَّة بين المُتَبايِعَيْن على نحْوٍ من الأنْحَاء، إذ لا يُعقل أن ينظرَ المشتري إلى سلعة، ثم يلمسَها أو يُلقيَ عليها حجراً، أو يَجسَّ يدَ البائع، فيقع البيعُ على غير إرادة منه، دون أن يُعَايِنَها ويعرفَ شيئاً عن ثمنها وأَوْصَافها. . .

إن سوقاً كسوق عكاظ، يَعِدُ الناسُ أنفسَهم كلَّ سنة بشُهودها، ويُواعِدُ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥، المحبر: ٢٦٧.

(٢) المفصَّل: ٧/ ٣٧١.

(٣) سعيد الأفغاني ـ أسواق العرب: ٤٨ ـ ٥٥، المفصَّل: ٧/ ٣٧١، لسان العرب: ٦/ ٢١٠ (لمس).

بعضُهم بعضاً على التلاقي في موسمها، ويَؤُمُّها عربُ الشمال والجنوب، وأهلُ الشام والعراق، ويقصدُها التجارُ من البلاد القريبة والبعيدة، ويَتَوافى بها ملوكُ العرب وأشرافُهم على اختلاف قبائلهم وديارهم... ومثلُها سوقُ دُومة الجندل، يشهدُها أهلُ العراق والشام، فضلاً عن أهل نجدٍ والحجاز، ويتكلَّفون في الانتقال إليها مشقَّةً ونَصَباً، وكذلك سوقُ صُحَار التي تُقْصَدُ على بُعْدِها ووُعورةِ الطريق إليها! هذه الأسواق وأمثالها لا يمكن أن تكون طرائقُ البيع الوحيدةُ فيها أشْكالاً من القمار واللهو والعبث، وما سمعنا قطُّ بأسواقٍ يتزاحمُ الناسُ فيها، ولا بتجارةٍ تزدهرُ في أقوام يُوصَفُون بالسَّذاجة والغَفْلة...! وإذا فَرَضْنا أن عرب الجاهلية كانوا من السذاجة بحيث يتبايعون بإلْقاء الحجارة، فهل كان كذلك تجارُ الشام والعراق ومصر والروم والحبشة وفارس والهند والسِّند، وكانوا يحرصون على شُهود معظم المواسم في مواقيتها؟.. وهل كانوا يَصْحَبُونَ حجارتهم معهم، أم كانوا يستعملون حجارة الجاهلية؟.. نحن لا نُنكر أن عرب الجاهلية عرفوا أنواعاً فاسدةً من البيوع، ولعلَّها كانت مُتَّبعةً في بعض البوادي، وهي التي أبْطَلَها الإسلامُ، ولكن الأسواق الموسمية كانت أَجَلَّ، وأبعدَ خَطَراً، من أن تعتمد تلك البيوعَ قاعدةً رئيسَةً وحيدةً في مبايعاتها.

* * *

ولا بدَّ أن نُسجِّلَ أنهم اتَّبعوا أحياناً طريقةَ المُقَايَضَة في بعض تجاراتهم، وهي المُعَاوَضَةُ، أي أنهم كانوا يستبدلون بسِلَعِهم سِلَعاً أُخْرى، وبمتَاعهم مَتاعاً آخَر، لكنَّ طريقةَ تعامُلهم الأساسيةَ في أسواقهم ومتاجرهم كانت بالذهب والفضة، وَزْناً أو نقداً[1]... وكان النقدُ المُتَداول في العصر

---

(١) المفصَّل: ٧/٢٢٩ ـ ٢٣٠.

الجاهلي على نوعين: أحدهما الدراهمُ، والآخَر الدنانِيرُ. أما الدراهمُ وهي كلمةٌ يونانية، مُفْردُها دِرْهَمٌ، فكانت على ضَرْبَين أيضاً: ضَرْبٌ عليه نقشُ إيران، والآخَرُ عليه نقشُ الروم. وكانت كلها من الفضة، غير أنها مختلفة الأوزان، ولهذا كان أهلُ مكة، وربما سائرُ العرب، يتعاملون بها وَزْناً لا عَدّاً، وهذا جانبٌ من جوانبِ الذكاءِ وحُسْنِ العمل عند العرب، ودليلٌ على ارتقائهم وازْدهارِ أسواقهم وتجاراتهم. وأمّا الدنانيرُ، وكانت معروفةً في مكة وسائر بلاد العرب، وهي رومانية، فقد كانت من الذهب، والدينار يُساوي عشرة دراهم[1]... وكانوا كذلك يستعملون في أسواقهم الموازينَ، كما كانت لهم مكاييلُ خاصَّةٌ كالصّاعِ والمُدّ والرِّطْلِ والمِثْقال والأوقية وغيرها.



المطلب الخامس ـ اتصال المواسم العامَّة بالمواسم الدينيَّة:

إن الأسواق الموسميَّة العامَّةَ، وإن كانت في جَوْهرِها ومُنْتهىٰ أمْرِها أسواقاً تجاريَّةً تَتَوخّىٰ الربحَ والكَسْبَ، فإن نُشُوءَها يكادُ يكون مُلازِماً للمواسم الدينيَّةِ، كمواسم الحجِّ والعِبَادة والأعياد، ومُتَّصِلاً بها من بعض وُجُوهها، وانعقادُها يكونُ أيّاماً معلوماتٍ، فوق مَواضِعَ مُقَدَّسَةٍ معروفةٍ لا تَتحوَّلُ عنها، في مَوَاقيتَ مُعَيَّنةٍ من السنة، تَتَّفِقُ غالباً ومواعيدَ المواسم والاحتفالات الدينيَّة.. وقد تَسْبِقُها، كما في أسواق عُكاظِ ومِجَنَّةٍ وذي المجَاز، التي كانت مواسمُها تَنعقِدُ قُبيْلَ موسم الحجِّ إلى كعبة مكة، لأن العرب كانوا يومئذٍ يتحرَّجُونَ من التجارة فيه.. وقد تَصْحَبُها، كما في أسواق دُومَةِ الجندل والشِحْرِ وبَدْرٍ، تنعقِدُ بانعقادها، وتنقضي بانقضائها، وكما في

(١) أبو الحسن الندوي ـ السيرة النبوية: ٧٨، والمفصّل: ٨/ ٧٢٢.

سائر الأسواق التي أُقيمتْ على مَواضِعَ مُقدَّسةٍ، أو أُضِيفَ إليها من الأصنام، أو الأنْصَاب، ما جعلها مَحَجّاً، ومَوسماً دينيّاً.

ولا بُدَّ لنا في هذا المقام من التفريق بين مواسم الأسواق العامّة التي تَؤُول أيامُ انعقادها إلى أعيادٍ، أو ما يُشْبه الأعيادَ، وبين مواسم الأعياد الدينيّة التي قد تَؤُول إلى أسواقٍ، أو ما يُشبه الأسواقَ، ذلك أن الأعياد لا تكون عادةً إلا مَوْسميَّةً. . . فالجماعاتُ البشريَّة الأُولى ابتدأتْ فاتَّخذَتْ لها جُملةً من الآلهة، كانت تعتقدُ بأنها مُدبِّرةُ هذا الكونِ، وبأن كلَّ إلَهٍ منها صاحبُ أمرٍ من أموره، فهنالك إلَهٌ للريح، وإلَهٌ للمطر، وإلَهٌ للنور، وإلَهٌ للظُّلمة، وإلَهٌ للربيع، وإلَهٌ للحرب، وآلهةٌ أُخَرُ كثيرةٌ، اختارتْها من عناصر الطبيعة، فكانت تعْبُدُها، وتُقدِّم لها القَرابينَ علىَ مَذابحَ إلَهيَّةٍ خاصَّةٍ بها، في أوقاتٍ معيَّنةٍ من كل سنة، وفي طُقوسٍ تليقُ بعظَمتها وقُوَّتها وأفعالها، وفي احتفالاتٍ مَهِيبةٍ، تُحشَدُ لها الحشُودُ من الناس، وتُقَام الصَّلَواتُ، ويُحْرَقُ البخُور، ثم ينتهي ذلك كلُّه إلى الطعام والشرابِ والمرحِ والرقصِ والغناءِ وما إلى هذا من ألوان الفَرح والعيد. . .

ومن هذه المُعتقَداتِ الدينيَّة الوثنيَّة القديمة، نشأت أعيادٌ موسميَّةٌ كثيرةٌ، ما يزال بعضُها قائماً، بالرغم من تطوُّر الفكر الدينيّ وانتشارِ الديانات السمَاوِيّة وغير السمَاوِيّة. . . والغريبُ أن بعضَ الديانات السماويّة لم تَعْمَدْ إلى القضاء على تلك المواسم، بل هَذَّبَتْ منها، وأبْقَتْ عليها، وأعطتْها طابعاً دينيّاً جديداً! ومن ذلك: عيد الفِصْح، أو الفِسِح، الذي يحتفلُ به اليهودُ على ما اعتادوا، ويحتفلُ به النصارىٰ أيضاً على ما اعتادوا واعتقدوا، وهو في الأصل عيدٌ موسميٌّ زراعيٌّ قديمٌ جِدّاً، يُحتفل فيه بقُدُوم الربيع، ولكن اليهود يزعمون أنه عيدُ تَذْكارِ خُروجهم من مصر بقيادة موسى، في

زمن الفرعون «مرنفتاح»، والفِسحُ في العِبْريَّة: الاجتياز والعُبُور، أو النَجاةُ. . . ولمَّا انتشرتِ المسيحيَّة، واعتنقها كثيرٌ من اليهود، احتفظ هؤلاء بهذا العيد، وظلَّ عندهم موسماً يحتفلون به، ويُعَيِّدُون فيه، وجعلوه تذكاراً لقيامَةِ المسيح بعد صَلْبِهِ، لأن صَلْبَهُ تمَّ في اعتقادهم ليلةَ عيدِ الفصح، أي في الليلة السابقة على قيامَتِه من الموت، ويُعرفُ عندهم بالعيد الكبير، ويكون دائماً في يوم الأحد، بعد انتهائهم من موسم الصوم الكبير، ويقع في الأحَدِ الذي يسبقُه عيدُ الشعانين.

وهنالك عددٌ من الأعياد الأخرى، صُبغَ بالصبغةَ المسيحيَّة، والاعتقادُ عند الباحثين قائمٌ على أن لها أُصولاً وثنيَّةً، مثل عيدِ الشعانين نفسِه، فهو عيدٌ قديمٌ للاحتفال بالأشجار عامَّةً، وأشجار الزيتون خاصةً، وعيدِ فريك السُّنْبُل في الخامس والعشرين من أيار، وذلك حين يَصيرُ السنبلُ فَرِيكاً صالحاً للأكل[1]، وعيد كنيسة القيامة في بيت المقدس، في الخامس من تشرين الأول، وتجتمع فيه طوائفُ المسيحيين من كل البُلدان، فتُوقَدُ له القناديلُ، وتُضَاءُ الشموع، ويكون لهم فيه صلواتٌ واحتفالٌ كبير مَهيب. وعيد الغِطَاس (القلندس)[2]، وهو عند النصارىٰ عيدُ الظهور الإلَهي في الأول من كانون الثاني، والغِطَاسُ أحَدُ أنواع العِمَادِ الثلاثة، والنوعان الآخرانِ: السَّكْبُ والرّشُّ، وكان له بالشام طقوسٌ واحتفالٌ كبيرٌ، وكانوا يُوقِدون في ليلته النيران، ويُقيمون الأفراح، ولا سيما في أنطاكية وبيت

---

(١) أفْرَكَ الحَبُّ: صار فريكاً، أي حان وقتُ أن يُفْرَكَ، أو يُدْلَكَ باليد، ويُؤكل. ويقال للنبت أوّلَ ما يطلع: نَجَمَ، ثم فرَّخ وقَصَّب، ثم أَعْصَفَ، ثم سَبَّل، ثم سَنْبَلَ، ثم أحبَّ وأَلَبَّ، ثم أسفَى، ثم أفْرَكَ، ثم أحصد.

(٢) ويقال: إن النصارى يُسَمُّون ليلةَ الغِطاس ليلةَ القَدْر، ويقولون إن مَن سهرها كلَّها، أو غَطَسَ فيها طال عمره.

المقدس ومصر، وكانوا يُسَمُّون أنطاكية مدينةَ اللّهِ، وأُمَّ المُدُنِ، لأن النصرانية انتشرت منها إلى سائر أوربة، وفي أنطاكية كنيسةُ بولس، وكنيسةُ أشمونيت ولها عيدٌ عظيمٌ للمسيحيين... ومن الأعيادِ الوثنيةِ الأصلِ عيدُ الصليب في الرابع عشر من أيلول (سبتمبر)، نقله إلى المسيحية الإمبراطور قسطنطين عن أسطورةٍ يونانية.

ولا شك في أن مواسمَ هذه الأعيادِ، وأَشباهِها، كانت تؤولُ غالباً إلى أسواق للتجارة ومختلف الأنشطة الاجتماعية، إضافةً إلى اللهو واللعب والمرح...

وأخيراً فإنَّ اتصال كثيرٍ من مواسم الأسواق والأعْياد بالمواسم الدينيَّة قد لَزِمَهُ أمْرانِ: أحدهما: قداسةُ المواضِعِ التي كانت تُقام عليها معظمُ الأسواق والأعياد الموسميَّة، فضلاً عن حُرْمَةِ أماكنِ العبادة. والآخرُ: شُيُوعُ الأمن والسلام فيها، وهو ما سنتحدَّثُ عنه فيما يلي...

١ ـ القَداسَةُ والحُرْمَة:

والقداسةُ أولُ ما امتازت به تلك الأسواقُ، أو مُعْظَمُها... فقد ارتبطت مواسمُها بالاحتفالات الدينية[١]، فكانت مواسمَ للعبادة والتجارة والاجتماع، ذلك أن بعضَها أُنْشِيءَ فوق مواضِعَ مُقدَّسَةٍ، والبعضَ جُعِلَت فيه أصنامٌ، أو حجارةٌ تُعَظِّمها العربُ، فكانت تقصدُها للحجِّ والعبادة في مواسمَ مُعيَّنةٍ[٢]... وقد كان في سوق عكاظ مثلاً صخورٌ يُقدِّسُها عربُ الجاهلية[٣]، فكانوا «يطوفون حولها ويحجُّون

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) المفصَّل: ٦/٤٠٦، ٤١٨، ٧/٣٨٣.
(٣) معجم البلدان: ٤/١٤٢.

إليها»[1]، وكان لقبيلة هوازن في أرض عكاظ أيضاً صَنمٌ يُسَمَّى «جِهَار»، أُقيم على سفحِ جبل أَطْحَل[2]، وكان لبني كلب بن وبرة في دومة الجندل صنمٌ يُدْعَى «وَدّاً»[3] يُقدِّسونه، ويشاركهم في تقديسه بعضُ تميم وطيِّىء والخزرج ولخم وَهُذَيْل، وذُكر أن قريشاً كانت تتعبَّد له كذلك[4]، وكان موضعُ سوق الشِحْر في ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُود، وموسمُها موعدُ زيارة القبر في شعبان من كل سنة[5]. . . والقولُ نفسه يمكن أن يُقال في عَددٍ آخر من الأسواق مثل: مجنَّة وذي المجاز وبَدْرٍ والنبط ونجران وغيرها. . .

ولم تكن حرمةُ المكان وحدَها تشملُ الأسواق الموسمية بالقداسة، وإنما كانت حُرْمةُ الشهور المقدَّسة تشملُ عدداً من الأسواق، يُقامُ أثناءَها مثل: عكاظ ومجنةٍ وذي المجاز وصُحَار ودَبَا وحُبَاشَةٍ وحَجْرٍ ونَطَاة، والشهور المحرَّمة أربعةٌ عند عربِ الجاهلية هي: رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، المحرَّم، وقد حُرِّم فيها البَغْيُ والعُدْوانُ والقتالُ، مثلما حُرِّمَتْ في المواضع المقدَّسة.

٢ ـ الأمنُ والسلام:

وشُيُوع الأمن في معظم الأسواق الموسمية، إن لم يكن كلها، كانت نتيجةً أكيدة أَفْضَتْ إليها حُرْمَةُ المواضع والأزمنة، فضلاً عن حُسْن الإدارة والرعاية والنظام، التي كان الملوك أو زعماءُ القبائل يُوفِّرونها في المواسم،

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٧.
(٢) المحبَّر: ٣١٥، وجمهرة أنساب العرب: ٤٩٣.
(٣) معجم البلدان: ٥/٣٦٧، والمحبَّر: ٣١٦، وجمهرة أنساب العرب: ٤٩٢.
(٤) المفصَّل: ٦/٢٥٦، ٢٩٣، ولسان العرب: ٣/ ٧١ (أدد).
(٥) خير الدين الزركلي ـ الأعلام: ٨/ ١٠١ ـ ١٠٢.

للأسواق التي تقع في سلطانهم، فكان الناسُ الذين يقصدون الأسواق في مواسمها مُطْمئِنين غالباً إلى سَلاَمَتِهم فيها، وهو ما عَنَاهُ اليعقوبيُّ[1] بقوله: «فكانوا يجتمعون بها في تجاراتهم، ويجتمع فيها معهم سائرُ الناس، ويأمَنُون فيها على دمائهم وأموالهم»[2]، وهو ما أرادهُ ابنُ عبد ربّه[3] بقوله: «وكان يأمَنُ بعضُهم بعضاً فيها»[4]، وما قرَّرَهُ المؤرِّخون من اطمئنانِ الناسِ الذين كانوا يَغْشَوْنها إلى سلامة أنفسهم وأموالهم فيها[5]. . . فالأمنُ إذن كان غالباً على الأسواق الموسميّة، وعلى الطُرق المُوصِلةِ إليها كذلك، ولا سيما تلك التي تقع في «أرضِ مملكةٍ وأَمْرٍ مُحْكَمٍ»[6]، أما الأسواقُ التي تقع في سلطان القبائل بالبادية، فكان الناسُ يصِلون إليها بخفارةٍ[7]، يقوم بها زعماءُ تلك القبائل، وتَضْمنُها أحلافُ الجِوَار. . . ولولا توافُرُ الأمن في أسواق الجاهلية لمَا قامت سوقٌ منها، ولا ازدهرت تجارةٌ فيها، ولا تَكلَّفَ أحدٌ مَشَقَّةَ السفر إلى أسواق الآخَرين، ولا تنازعت دَوْلتا الروم والفرس للفَوْز بتجارات العرب واحتلالِ مراكزها.

* * *

(١) اليعقوبي: أبو يعقوب، أحمد بن إسحاق. مُؤرِّخ وجغرافي، من أهل بغداد. له كتُبٌ جيِّدة، أشهرها كتابه المعروف بتاريخ اليعقوبي، وكان مُتَشيِّعاً من الإمامية. توفي سنة (٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م).

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٣) ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه، أبو عمر (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ = ٨٦٠ ـ ٩٤٠ م)، أديب من الأئمة، وشاعر من أهل قرطبة. غلب عليه الاشتغالُ في أخبار الأدب وجمعها. أشهر كتبه: العقد الفريد.

(٤) العقد الفريد: ٥/ ٢٥٣.

(٥) المفصَّل: ٧/ ٣٦٩.

(٦) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤، المحبَّر: ٢٦٦.

(٧) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

المطلب السادس ـ امتياز المواسم العامَّة بتعدُّد أغراضها وخصائصها:

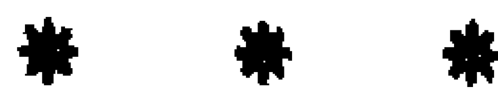
وبينما الأصلُ في الأسواق الدائمة أنها لا تُعالجُ غيرَ التجارة، فإن الأسواق الموسميَّة عند العرب كانت تُعالجُ، إلى جانب التجارة، شؤوناً كثيرةً مختلفةً من شؤون حياتهم الاجتماعية، والسياسية، والأَدَبية، ويقصدُها الناسُ من البِقاع القريبة والبعيدة، يأتُونها وكأنهم معها على موعدٍ يتجدَّدُ كلَّ سنة، لامتيازها على الأسواق الدائمة: بتَعدُّدِ أغراضها، وتَنَوُّعِ وظائفها، وبما كان يتوافَرُ فيها من البضائع، مما لا يُمكن الوقوعُ على مثْله في الأسواق المحليَّة الخاصَّة، وبمن كان يَشْهَدُها من القبائل والتجار، وبما هو في أساس نُشوئها من الأحوال، غيرِ حاجَةِ الناس إلى المِيرَة والأمتعة وسائر عُروض التجارة، وهي أحوالٌ لا بُدَّ منها في نشوء المواسم العامَّة، وبقائها، وانتظام تَجدُّدِها، وازدهارها، على النَّحْوِ الذي شَهِدَتْهُ بلادُ العرب في الجاهلية، كالموقع الجغرافي، والحالةِ التجارية، وخصائصِ العرب القوميَّة، وطبيعةِ المجتمعات التي تَرعَىٰ المواسمَ، والحالةِ الأمْنيَّة، ومقْدارِ ما كانت عليه الحالةُ الدينيَّةُ من الحريَّة والمُشَارَكة، إلى ما هنالك من الأحوال اللازمة.

وإذا نظرنا فيمن كان يَشْهَدُ الأسواق الموسميَّة من الناس، وَجَدْنا أنَّ من الأسواق ما كان موسمُها قوميّاً عامّاً، كسُوق عكاظ، يَفِدُ إليها العربُ من كل مكان في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، ويحرصُ على شُهودها أشرافُ العرب وملوكهم، «فكان شريفُ كلِّ بلدٍ يحضرُ سوق بلدهِ، إلا سوق عكاظ، فإنهم كانوا يَتَوافَوْن بها من كل أَوْب..»[1]، كما كان يقصدُها كثير من تجّار البُلدان المجاورة، لِما عَسَاهُ أن يكون بها، ممّا لا يُمْكن تَوافُرُهُ مُجتَمِعاً في غيرها... ومنها ما كان موسمُها مَحليَّاً، كأسواق

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٦.

حضرموت وحَجْر ونطاة وحُبَاشة وأمثالِها، ينزلُها أهلُها ومَن كان قريباً إليهم من قبائل العرب، غير أن «أشراف العرب كانوا يتوافَوْنَ بتلك الأسواق كلِّها مع التجّار، لأن الملوك كانتْ ترضخ[1] لكلِّ شريفٍ منهم بسَهْمٍ من الأرباح. .»[2]. وهنالك أسواق كانت أكثر تنوُّعاً في الروّاد والعروض، يَقدَمُها فضلاً عن أهلها وجيرانهم، تُجارٌ من مختلف بلدان الأعاجم، مثل أسواق صُحَار ودَبَا بعُمان، والمشقَّر بهَجَر، وبُصْرى بالشام، وعَدَن، وغيرها. . . فكان تجارُ السِّنْد والهند والصين مثلاً يُوافُونَ أسواقَ عُمَان وعَدَن ببِيَاعاتهم قادمين إليها من البحر[3]. . وكان تجارُ الروم يتوغَّلُون إلى مسافات بعيدة في تلك الأرضين الشاسعة للبيع والشراء[4]. . ولا شك في أن وُقوع السوق على مرفأ تجاري، أو على طريق القوافل في المحطات التجاريّة الكبرى، أو قيامها في الأشهر المحرَّمة، كانت أسباباً في تنوُّع الروّادِ والعُروض التجاريّة معاً.



وقد كان العربُ يَغْشَوْنَ الأسواق الموسميّة، تَحدُوهم إليها حاجاتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ، وأغراضٌ شَتَّىٰ مُتَنوِّعةٌ، فكانوا يُعالجون فيها، فضلاً عن التجارة وأُمُورِ البيعِ والشراء، ضُرُوباً مُتعدِّدةً من شؤون الحياة والمجتمع، فكانت لهم بمثَابةِ أنْدِيةٍ اجتماعيةٍ، ومَحافِلَ سياسيةٍ، ومجامعَ لُغَويةٍ وأدبية، ومنابِرَ للوعْظِ والخطابة. . .

---

(١) رَضَخَ له من ماله: أعطاهُ، والرَّضْخُ: العَطِيَّةُ تُعطى للمُقاربة.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢، ١٦٤.

(٤) المفصَّل: ٧/ ٣٧٠.

وقد ردَّ الأفغاني تَنوُّعَ وظائف الأسواق الموسمية، وتعدُّدَ أغراض الناس منها، إلى حَوْليَّتِها فقال: «وإذ أن أكثر هذه الأسواق حَوْليَّة، تقومُ أياماً معلوماتٍ في كل عام، كان من المعقول أن تكون ميداناً لغير البيع والشراء، فكان فيها تناشدُ أشعار، وكان فيها تفاخُرٌ وتكاثُرٌ وتنَافرٌ ومُقَارَعَةٌ ومُعَاظَمةٌ، فيفوز في هذا أقوام ويخسَرُ آخرون، وتحتفل العربُ لها الاحتفالَ اللائق بها»[1]. ولا أعتقدُ أن هذا السبب كافٍ لِيُنْشِيءَ ذلك التنوُّع في الوظائفِ والتعدُّدَ في الأغراض، فَسُوقُ المِرْبَد في البصرة كانت دائمةً، تقومُ أيامَ السنة كلها، ولم تكن حَوْليَّـةً، ومع ذلك كان فيها شعرٌ وخطابةٌ وتنافُرٌ وتفاخُرٌ وسائرُ شؤونِ العرب وشُجونِهم.

ورَدَّ جرجي زيدان[2] ذلك إلى أن العرب «كانوا حيثما اجتمعوا على فَراغٍ من العمل، عَمَدُوا إلى المُنَاشَدة والمفاخرة والمُسَامَرة، وخصوصاً في المواسم»[3]. . . وكأني به أراد أن يجعل السبَبَ طبيعةَ العربِ أنفسهم، هي التي طبعتِ الأسواقَ الموسمية بخصائصهم، ونوَّعَت وظائفها لِتُحقق لهم كلَّ أغراضهم.

وفي اعتقادي أن التنوُّعَ في وظائف الأسواق الموسمية، وإن كان مُؤْتَلفاً مع طبيعة العرب وخصائصهم، لا يمكن أن يكون وُجُودُهُ مصادفةً،

---

(١) أسواق العرب: ٢٠٥.

(٢) جرجي حبيب زيدان: (١٨٦١ ـ ١٩١٤) ولد في بيروت، وهاجر إلى القاهرة حيث أنشأ مجلة الهلال، ثم أسس دار الهلال للطباعة والنشر. له روايات تاريخية وكتُب في التاريخ والأدب، أهمُّها تاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ التمدن الإسلامي. يفتقر إلى الدقَّة العلمية في مؤلَّفاته. توفي بالقاهرة.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦.

ولا بُدَّ أن يكون وراءَهُ فِكْرٌ مُبْدِعٌ، أَحْكَمَ تَدبيرَهُ، وأتْقَنَ نظامَه، وسَهِرَ على رعايته.. ولا سيما أن وُجودَ موعدٍ مُحدَّدٍ لقيام السوق، وآخَرَ لانتهائها، وتأكيدهما معاً بقيام موسم ديني بينهما غالباً، لا يتفقُ تَوافُرها جميعاً إلا وفاقاً لنظام ثابت معروف، تعتمدُ عليه حركةُ القوافل التجارية في جزيرة العرب وبلاد العراق والشام، كما يعتمدُ عليه الناس والتجارُ في تَنقُّلِهم بين الأسواق، وفي أنفسهم حاجاتٌ مُعَيَّنةٌ لولا عِلْمُهم بإمكان قضائها في سوق دون أخرى، لمَا تَجشَّمُوا عناءَ السفر، ومَشَقَّةَ الطُّرق ووعورتها.

ويُمْكِنُنا بعدُ، بما تَناثَر من الأخبار والروايات، في عشرات المراجع والموارد، أن نرسم صورةً لكثير مما كان يجري في المواسم، ولا سيما موسم سوق عكاظ، الذي كان له النصيبُ الأكبرُ من الشهرة والخُلود، وهو ما جعل وقائعَهُ وأخبارَهُ محفوظةً باقيةً في أَذْهان الرواة والمؤرخين وأهل الأخبار[1]... وما دامت مواسمُ الأسواقِ مَجامعَ عامَّةً مُتَشابِهةَ الوظائف والأغراض، فليس هنالك ما يمنع أن يكون ما جرى في عكاظ، جرى كلُّه أو بعضُه في سائر المواسم، وهو ما يُعلِّلُ استنادَنا، في مُعظم ما قَرَّرناهُ بشأن الأسواق، إلى ما جاء في سوق عكاظ من الروايات والأخبار التاريخيّة والأدبيّة.

١ ـ معَارضُ كبرى للتجارات:

فقد كانت الأسواقُ الموسميةُ، قبل كل شيء، مَتاجِرَ يُعْرَضُ فيها مختلفُ أنواع السِّلَع والبِيَاعَات، من الثياب والمتَاع والمِيرة والأثاث والسلاح، والرقيق، وبعضِ ضُروب الحيوان كالمواشي والخيل والأنْعَام،

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

وغير ذلك من العُروضِ الكثيرة، مِمّا تُنْتِجُهُ جزيرةُ العرب وبلادُ الشام والعراق، ومَا يجلبُه إليها تجارُ الهند والسند وفارس والصين والروم ومصر والحبشة، فكان كلُّ مَن أرادَ مِن العرب، وربما من غيرهم، أن يَمْتَارَ، قصد الأسواق في مواسمها، يلتمسُ السِّلَعَ التي يَبْتَغيها، لحاجته إليها، أو للمتاجرة بها[1].

٢ ـ مجامِعُ عامّةٌ للسياسة وأمور المجتمع:

وكانت الأسواقُ كذلك مَجامِعَ عامّةً، يَتَواعَدُ العربُ على التلاقي في مواسمها، فيكون انعقادُها مناسبةً يبحثون فيها مَشَاكلهم، ويتشَاوَرُون في أُمورهم، ويَعْقدون عُقودَ التحالُفِ والجِوَار[2]، ويُبْرِمُون معاهدات الأمن[3]، والاتفاقات القَبلية والعائلية[4]، ويُعلنون مُهَادَناتهم[5]، وينظرون في فَضِّ النزاعات، وإنهاءِ الخصوماتِ، وفداءِ الأَسْرىٰ، فكانوا إذا تَنازَعُوا اخْتَصَمُوا إلى قُضَاةٍ بالأسواق، مُتَّفَقٍ على حُكومتهم بين العرب[6]، ومن كان له أَسِيرٌ

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣، ١٦٥، والأغاني: ٢٢/ ٦٤، وابن قتيبة ـ المعارف: ١٤٤، وأسواق العرب: ١٩٥، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٩، ٤٥٤، ٤٥٩، والعقد الفريد: ١/ ٥٤، والبلاذري ـ أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٧، وابن سعد ـ الطبقات الكبرى: ١/ ٤٩٧، وعبد الوهاب عزام ـ موقع عكاظ: ٨...

(٢) شرح المعلَّقات للزوزني: ١٦٦، والمفصَّل: ٤/ ٣٦٠، ٣٧٦، ٣٨٢، والحيوان للجاحظ: ١/ ٣١٤، وأنساب الأشراف: ١/ ٤٢.

(٣) الأغاني: ١٥/ ١٨٧.

(٤) المفصَّل: ٧/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٦) المحبَّر: ١٨١، والمفصَّل: ٧/ ٣٨٤، ونهاية الأرب للقلقشندي: ٤٦٤.

مَضَى إلى الأسواق في مواسمها، يَسْعَى له في فَكّ أَسْرِهِ[1]، ومن كان مَوْتُوراً بحث في الأسواق عن وَاتِـرِه، يريد أن يتعرَّف إلى وجهه، لعله إذا لَقِيَهُ يوماً يُدرك منه ثَـأْرَه[2]، ومن جَرَّ على قومه الجرائر، فبات عِبْءً فوق وُسْعِهِم احْتِمالُه، أعلنوا خَلْعَهُ منهم في المواسم، لِيَبْرؤُوا من مسؤوليتهم عنه[3].

٣ ـ مناسباتٌ للوعظ والتبشير:

وكانت في الأسواق فرصةٌ طيبة، إذا انعقدت مواسمها، اغتنمها دُعَاةُ الخير والصَّلاح، وطافوا بالقبائل في منازلها منها، والتقوا سادَتَها، وَدَعَوْهم إلى ما آمنوا به من الحق والهُدَى[4].

٤ ـ منابر للخطابة والشعر:

وكانت قبائلُ العرب تَقْدَمُ الأسواقَ، ومع كل قبيلةٍ شاعِرُها، وهو الناطقُ باسْمها، والمتحدِّثُ بمآثِرها ومَفاخِرها، فإذا قامتِ المواسمُ، شَرَع الشعراءُ يتناشدون القصائدَ، في مُفاخرةٍ يَسْعَى كلٌّ منهم فيها إلى تخليد ذكر قبيلته بين العرب، وانتزاع تقديرهم لأمْجادها[5]. وكانت في الأسواق منابِرُ

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ١٩، والعقد الفريد: ٥/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠، والمحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥١، والأغاني: ١٢/ ١٥ ـ ١٦.

(٢) الأصمعيات: ٣٩/ ١٢٧، (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون).

(٣) الأغاني: ١٤/ ١٣٧، والمحبَّر: ١٩٥، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٣/ ٢٩٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٤، تاريخ الطبري: ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥١، معجم البلدان: ٤/ ١٣٤، مجمع الأمثال: ١/ ١٥٢، البيان والتبيين للجاحظ: ٣/ ٥ ـ ٦، ٧٩، د. أحمد أمين ـ فجر الإسلام: ٢٧، ٢٨...

(٥) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨ (عكظ)، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، الأغاني: ١١/ ٤٨ ـ ٤٩، المفصَّل: ٧/ ٣٨٣.

يقوم عليها الخطباءُ، يَعُدُّون مآثِرَهم، وأيامَ أقوامهم من عام إلى عام[1].

٥ ـ **محكمة لنقد الشعر:**

وكان الشعراء يتحاكَمُونَ في الأسواق، إلى قُضَاةٍ نُصِبُوا لنقد الشعر، وبيان غَثِّه من سَمِينِهِ، فكانوا إذا انعقد الموسم، مُثُلُوا بين يَدَيْ قاضي الشِعْر، يُنْشِدونَهُ جديدَهم من الشعر، فيقوم بالموازنة بين ما قالوه، ثم يُعْلِنُ حُكمه فيمن كان أجْوَدَهم شعراً[2]، في ذلك الموسم.

٦ ـ **حُكَّامٌ للتقاضي في الفخر والأحْساب:**

وكانوا يقصدون الأسواق للتفاخُرِ بالأحْسَابِ والأنْسَابِ، وكان لهم فيها قُضَاةٌ «ومُحكَّمُونَ يحتكمُ الناسُ إليهم في مُفَاخراتهم»[3]. . ولِلتَفَاخُرِ عندهم وُجوهٌ، أحدها: المُمَاجَدَةُ، وهي أن يذكر كل منهم لدى القاضي أمجادَهُ، ليحكُمَ بينهم أَيّهمُ أكثرُ مَجداً، والمجدُ: المُروءةُ والسَّخاءُ والكرمُ والشرفُ، ولا يكون إلا بالآباء[4]. . . ومنها أيضاً: المُنَافَرةُ، وهي أن يُفاخِرُ أحَدُهم الآخَرَ بما يكون لهُ من كثرةِ العَدَد وعِزَّة النَّفر[5]، فيَتَنافَرُونَ إلى القاضي، لِيُنَفِّرَ أحَدَهم على الآخَرين، أي لِيَقضيَ له بالغَلبةِ عليهم في

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١٦٧ ـ ١٦٨ و ٣٤٤، وأدبيات اللغة العربية: ١١ و ١٣، والرافعي ـ تاريخ آداب العرب: ١/٨٧، حِتّي وجرجي وجبُّور ـ تاريخ العرب: ١٣٧، والأغاني: ٣/ ١٠ و ٤/ ١٧٠ و ١١/ ٦، والمفصَّل: ٧/ ٣٨٢.

(٣) أسواق العرب: ٢٠٥.

(٤) لسان العرب: ٣/ ٣٩٥ (مجد).

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥، الأغاني: ١٢/ ٨، و ١٥/ ١٦ و ٢١/ ٢٢، و ٩/ ١٠٥، مجمع الأمثال: ١/ ٤٥٠، أنساب الأشراف: ١/ ٢٤.

المُنَافَرةِ. وقد سُمِّيَ هذا التفاخُر مُنَافَرةً لأنهم كانوا يسألون الحاكم عند المُفَاخَرة: أيُّنا أَعَزُّ نَفَراً[1]... وكان من الشرف الذي يتفاخرون فيه كذلك، أن يكون لأحدهم ثلاثةُ آباء تَوالَوْا على الرئاسة، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالبيتُ من قبيلته يُنسب إليه[2]. وكان سُؤْدَدُ الرئيس في قبيلته يُوجِبُ عليه البذلَ، والعطاءَ، والحِراسة والحماية، وحُسْن التدبير، والحِلْم[3].

٧ ـ راياتُ الوفاء والغدر:

وكانوا إذا غَدَرَ الرجلُ منهم، رَفَعُوا له رايةَ غَدْرٍ في الأسواق، فيُلْعَنَ ويُحتقر من العرب، ويُنْبَذ من مجتمعاتهم. وكانت تُرفَعُ للرجُل الوفيّ رايةٌ تُسمَّى رايةَ الوفاء، تكريماً له وتشريفاً[4]... ذلك أن الأسواق الموسمية كانت يومئذٍ مجامِعَ عامّةً، فكانت خير وسيلة للإعلان.

٨ ـ طلبُ المجد والشهرة:

وكان من يريد أن يُخلِّدَ في العرب ذِكْرهُ، يَقْدَمُ الأسواقَ في مواسمها، فيُطعِمُ الناس، ويُنْهِبُ مالَه[5]! . وكان أشرافُ العرب يبعثون مُنادياً يطوفُ بالناس في الموسم، يسأل إن كان فيهم جائعٌ فيُطعَمَ، أو خائفٌ فيُؤمَّنَ، أو مظلوم فيُنْتَصَفَ له[6].

---

(١) لسان العرب: ٥/ ٢٢٦ (نفر).

(٢) نهاية الأرب: ٤٥٤.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٩٦ (يسر).

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٥) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٦، والأصمعيات: ١٤٤، والإصابة: ٣/ ٣٨٥، الترجمة: ٧٩١٩.

(٦) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٦.

٩ ـ العرَّافون والأطبَّاء:

وكان في الأسواق عَرَّافُون وأطبَّاءٌ يَصْحَبُونَ قبائلهم في مَقْدَمها إلى المواسم، فمن كانت به عِلَّةٌ أعْيَا ذَوِيهِ دَواؤُها، خرجوا به إلى الأسواق أيام قيامها، لعلَّهم يجدون له فيها دواءً عند طبيب أو عَرَّاف، أو يجدون بين أفراد القوافل القادمة إلى الأسواق، مَنْ سبق أن أُصِيب بالعِلَّة عَيْـنِها، ثم شُفِيَ منها، لِيَصفَ لهم الدواء[١]. وكان من عادتهم كذلك، أن يقصدوا المواسم بأبنائهم، يسألون العرَّافَ أن يَتَـنَبَّأَ لهم بالمستقبل[٢].

١٠ ـ قضاء الديون والإتاوات:

وكانت مواسمُ الأسواق، ولا سيما موسم عكاظ، مواعيدَ تُعيَّنُ لِقضاءِ الديون، فمن كان له دَيْنٌ على آخرَ، أَنْظَرهُ إلى قيام الموسم[٣]. . . وما كان من عُشُورٍ وإتَاواتٍ للملوك والزعماء في رِقَابِ الناس، ينتظرون حلول المواسم لجبايتها[٤].

١١ ـ ملاعبُ الفروسية والرياضة:

ويُسْتَدَلُّ من بعض الأخبار أنه كان يُقام في المواسم الكبرى، كسوق عكاظ، ملاعبُ للتَّبَاري في أنواع من الرياضة، وحلباتٌ للمبارزة في

---

(١) عباس العقاد ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية: ٣١ ـ ٣٢، والشعر والشعراء: ٦٢٣، وأسواق العرب: ٣٥٨.

(٢) الطبقات: ١/ ١٥١، والمفصَّل: ٦/ ٧٧٣ ـ ٧٧٤.

(٣) د. محمد حميد الله ـ مجموعة الوثائق الإسلامية: ١٦٠، والطبقات الكبرى: ٣/ ١٠٩.

(٤) الأغاني: ٥/ ٢٠ ـ ٢١ و ١١/ ٧٧، والكامل في التاريخ: ١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١، والمفصَّل: ٧/ ٤٧٨.

الفروسية وسبق الخيل[1]. وقد ثبت للمؤرخين أن العرب في الجاهلية كانوا يتسابقون بركوب الخيل، ويتفاخرون بالسبق، على نحو ما كان معروفاً عند اليونان والرومان، وكانوا يُجْرُونَ خُيولهم في حلبات السباق، عشرةً عشرةً، وعندهم إسمٌ للفرس في كل مرحلة من مراحل السبق، وكانت الأسواق الكبرى أكثر المواضع صَلاحاً لهذا النوع من الرياضة.

١٢ ـ طلب اللهو واللذَّات:

ثَمَّةَ أغراضٌ كثيرة أخرى كانت المواسمُ العامَّةُ تُحقِّقها للناس في قِيامها، فكثيراً ما كانت مجامِعُها وسيلةً إلى خطبة امرأةٍ، أو مناسبةً للإعلان عن زواجٍ[2]، وموضعاً أحياناً لالْتقاءِ المحبِّين[3]... بل إن من كان يبغي اللذَّة واللهو والعَبَثَ، يسعى إلى الأسواق، حيث أُفْرِدت فيها مواضِعُ للشراب والمُجُونِ، رُفِعتْ فوقها راياتٌ تُشِيرُ إليها[4]... فضلاً عن أمور عديدة تجلُّ عن الحَصْر كانت كلُّها من وظائف الأسواق في الجاهلية، وهو ما سنُفصِّلهُ في كلامنا على سوق عكاظ.

١٣ ـ تجارة الرقيق:

ومن أغراض تلك المواسم أنه كانت تجري في كثيرٍ منها تجارةٌ رائجةٌ، مُرْبِحَةٌ، هي تجارةُ الرقيق، وكان يُجْلَبُ إلى بلاد العرب من أفريقيا،

---

(١) الطبقات الكبرى: ٣/ ٣٢٥، ومحمد حسين هيكل ـ الفاروق عمر: ٣١ و ٣٨، وعباس العقاد ـ عبقرية عمر: ٢١٦، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٦٩٧.

(٢) الأغاني: ٢١/ ٢٢، و ٩/ ١١٠ ـ ١١٤، و ١٢/ ٨.

(٣) مجمع الأمثال ١/ ١٣١، والأغاني: ٢٢/ ٢٤٥.

(٤) المحبَّر: ٢٦٤ و ٣٤٠، والأزمنة والأمكنة ٢/ ١٦٢، وتاريخ العرب: ١٣٨، والأغاني: ١٥/ ٦٩ ـ ٧٠، ود. صلاح الدين المنجد ـ الحياة الجنسية عند العرب: ١٤.

والهند، وفارس، وبلاد الروم وغيرها. وكانت هذه التجارةُ معروفة في أسواق العرب عامّةً، ولكنها كانت منتشرةً في أسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز ودومة الجندل وحُبَاشة بشكل خاص. وكان التجارُ يحرصون على أن ينقلوا معهم الرقيق الأجنبيَّ من البلدان التي كانت العلائقُ مُحْكمةً بينها وبين بلاد العرب، ثم يبيعونه في المواسم، ويجدون مَن يُقْبِل على شرائه، والتسابُق إلى حيازته، لأن كلَّ شريفٍ من سادة العرب كان يحبُّ ألاَّ يخلو منزلُه من العبيد والإمَاء[1]. وقد ذُكر أن سوق بُصْرى بالشام كانت مشهورةً بتجارة الرقيق الأجنبي.

١٤ ـ القِنَاعُ والنِقَابُ:

وبما أن مواسم الأسواق العامَّة والأعياد تَحْفلُ عادةً بالناس من كل الجِهات والطبقات، مما لا يكون مثلُه في المجامع الخاصَّةِ، فقد تميَّزت هذه المواسمُ عند العرب غالباً بمثل ما عرفتْه أعيادُ «الكرنَفَال» من عادة القِناع، فكانت جماعاتٌ مُعيَّنةٌ من رجالِ العرب، تَرِدُ هذه المواسمَ مُقَـنَّعَةً بأقْنِعَةٍ مختلفة، من أجل غاياتٍ مُتباينةٍ. .

فالفُرْسَانُ المشهورون كانوا يَتَقَنَّعُون خوفاً من أن يُعْرَفُوا، فيُغَالىٰ في فِدْيتهم إذا أُسِروا، أو خشيةً من أن يَغْدُرَ بهم أصحابُ الثارات إذا رأوهم وأَثْبَتُوا ملامحَهُم. . .

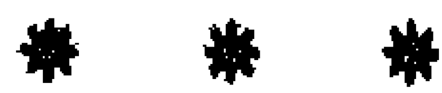
وكان بعضُ شعراءِ الحبِّ والغَزَلِ مَوْصُوفين بالجمال، كالمُقَـنَّع الكِنْديّ، فكانوا يَتَقَنَّعُون خوفاً على أنفُسِهم من الحاسِدين، ومن كَيْدِ

---

(١) ناصر الدين الأسد ـ القِيَانُ والغناء: ٣١، ٣٤، والشعراء الصعاليك: ١٣١.

النساءِ[1]... وكان في بعض قبائل العرب، رجَالٌ اشْتُهِرُوا بالجمالِ وافتِتانِ النساءِ بهم، فكانوا إذا وردوا المواسمَ العامّة، ولا سيما بمكة، يُؤمَرون بأن يتَلَثَّمُوا، وأن يتَّخِذُوا الأقنعةَ على وجوههم حَذَرَ الفتنة. وكان من هؤلاء «سُنَيْعٌ الطُّهَوِيُّ»، وهو من بني طُهَيَّةَ، من تميم[2]... ومنهم أيضاً «سُحَيْمُ بن وثيل»، من بني ريَاح بن يربوع التميمي، وكان من أجمل الناس، لا يدخلُ مكة إلا مُتَلَثِّماً[3]...

وكانت النسَاءُ أيضاً إذا وَرَدْنَ المواسِمَ الكبرى تَنْتَقِبْنَ بالنُّقُبِ والبَراقع[4]، حَذَراً من عُيُونِ الرجالِ، ونظراتهم، وتَعَرُّضهم لهنَّ بما يُؤْذيهنَّ، ولم تكن النُّقُبُ أو البراقعُ تَشفَعُ لهنَّ غالباً عند الرجال، بل ربما أغْرَتْهم بهنَّ أكثر ممَّا لو كُنَّ سافِراتٍ، كاشِفَاتٍ عن وُجُوههنَّ[5].



المطلب السابع ـ اختلافُ أسبابِ البقاءِ بين الطائفتين:

قد يكون من الممكن القولُ بأن أسواق التجارة الدائمة، والأسواق الموسميَّةَ العامَّة، ربما نشأتْ كلُّها بالمصادفة والاتفاق، قضاءً لحاجات

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧١، والأغاني: ٦/ ١٩٩، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦، والبيان والتبيين: ٣/ ٦٩ ـ ٧٠، والكامل في التاريخ: ١/ ٦٠٢، والأصمعيات: ١٢٧، والعقد الفريد: ٥/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) لسان العرب: ٨/ ١٦٨ (سنع)، والمحبَّر: ٢٣٢، والسَّنَعُ: الجمالُ، والسَّنيعُ: الحَسَنُ، الجميلُ، وامرأةٌ سَنِيعةٌ: جميلةٌ، ليِّنَةُ المفاصل، لطيفةُ العِظَام...

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٢٧.

(٤) النِقَابُ: ج نُقُب، وهو قناع تضعُه المرأةُ على وجهها فلا يبدو منه إلا العَيْنان. فإذا كان على طرف أنفِها فهو: اللِّفَامُ، وإذا كان على الفَم فهو: اللِّثَامُ.

(٥) العقد الفريد: ٥/ ٢٥٢.

الناس، أو نتيجةً لموسمٍ دينيٍّ مُعيَّن، غير أن بقاءَ الأُولى رَهْنٌ باستمرار الحاجة إليها، بينما يَقْتضي تجدُّدُ انعقادِ الثانية في مواعيدها، سنةً بعدٍ أُخرى، فضلاً عن الحاجة إليها، جُملةَ تلك الأحوال التي أشرنا إليها، فإذا نَقَصَ منها حالٌ، أو أكثر، أَفْضَى إلى خَلَلٍ في وظائفها، واضطرابٍ في تَجدُّدِ انعقادها، ثم إلى اندثارها. وهو ما أصاب أسواقَ العرب الموسميَّة في عصر الإسلام، فقد تغيَّرتِ المجتمعاتُ، وأُجيزَ للناس الاتجارُ في مواسم الحجّ، وتبدَّلتِ الحالةُ التجاريَّةُ، وانصرف العربُ إلى الغَزْوِ والفُتُوح، وعَمَّتِ الديانةُ الجديدةُ مُعْظَمَ بلاد العرب، وحُرِّم على غير المسلمين دخولُ مكة[1]، فاندثرت تلك الأسواقُ سوقاً بعد سوق، حتى كانت سنةُ (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) حين اضطربت حالةُ الأمن، فنهب الخوارجُ سوق عكاظ في موسمها، فَتَقَوَّضَتْ يومئذٍ، ولم تنعقد بعد ذلك. . . ثم كانت سنة (١٩٧ هـ = ٨١٢ م) حين قَتَل بعضُ قبائل «الأَزْد»[2] والياً على سوق حُبَاشَة كان من قبيلة «غَنِيّ»[3]، فأشار الفقهاءُ على والي مكة بتخريبها، فانْفَضَّتْ وقتئذٍ، وكانت آخِرَ أسواق العرب الموسميَّة انْدِثاراً[4]. . .

ولكنَّ الأسواق الدائمة، في مكة والمدينة وغيرهما، كانت في الوقت عَيْنِهِ تزدادُ سعَةً وازدهاراً وتَنوُّعاً، كلما ازدادت الحاجةُ إليها، وكلما ازداد إقبالُ المسلمين عليها في مواسم الحجِّ، بعدما صارت تَشْهَدُها طوائفُ مختلفةٌ من العرب والأعاجم على السواء. وهذا دليلٌ آخَرُ على أن المناسبة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) الأَزْدُ: قبائلُ يَمنِيَّةٌ، وهي ثلاثة فروع: أَزْدُ شَنُوءَة، وشنوءة مِخْلافٌ باليمن، وأَزْدُ جبالِ السَّراة، وأَزْدُ عُمَانَ. وكانت منهم قبائلُ غسَّان، وبارقٍ، وأَسْلَمَ، والأَوْسِ، والخزرجِ.

(٣) غَنِيُّ بنُ أعصر: بطنٌ من قبائل قيس بن عَيْلان، من أهل نَجْد.

(٤) تاريخ مكة: ١/ ١٩٠، ١٩٢.

الدينيَّة وحدها، غيرُ كافيةٍ لنشوء سوقٍ موسميَّةٍ عامَّة، بل لا بُدَّ لذلك من تَوافُرِ العوامل والأحوال الأُخرى التي ذكرناها.

* * *

المطلب الثامن ـ آثار المواسم العامَّة في العادات والمفاهيم وتوحيد اللغة:

وإذ كانت الأسواقُ الدائمة لا تَعْدُو آثارُها تحقيق المكَاسِبِ للتجَّار، وتَوْفيرَ حاجاتِ المعيشةِ للناس، مع شيءٍ يَسِيرٍ من الاخْتِلاطِ والتبادُلِ الثقافيّ، فإن المواسم العامَّةَ في الجاهلية كانت من أعظم الحوادث خَطَراً في حياة العرب، ومن أَشَدِّها تأثيراً في وحدتهم، سواء ما كان منها للعبادة والحجِّ، كتلك التي كانوا يحجُّون فيها جميعاً إلى بيت الله الحرام بمكة، وكان أَشْهَرَ بيوتِ الحجِّ وأَبْقَاها عند العرب[1]، أو ما كان منها للتجارةِ والعِبَادة ومختلفِ شؤون المجتمع والسياسة، كتلك التي كانوا يُقيمونها بعُكاظ والمجنَّة وذي المجاز ودُومةِ الجَنْدل والمُشَقَّرِ وغيرها، ويقصدُها الناسُ من كل فجٍّ عميق، فكان لها من الأثَرِ في حياتهم، ما جَعلَ منها سبباً رئيساً في جمع مختلف قبائلهم وأحيائهم، على مُؤْتَلِفِ العادات والأفكار والسُّنَنِ، وفي تقويم ألْسِنَتهم على لغةٍ أدبيةٍ واحدةٍ، تكوَّنَتْ من خير ما في لَهجاتِهم ولُغَاتهم من المفردات والتعابير والجُذُور اللغوية المُشْتَرَكَة، فأثْمَرتْ أَرْقَىٰ نهضةٍ أدبية في بلاد العرب، سبقت ظهور الإسلام بعَدَدٍ من الأجيال، وتمثَّلتْ في مجموعة الأَشْعَار والأمثال الجاهلية التي وصلت إلينا، فكانت مُقَدِّمةً لا بُدَّ منها لِيَتذوَّقَ العربُ طعمَ البلاغة في القرآن، ويُدْرِكوا مواضِعَ الإعجاز في آياته، إذ لم يكن مقبولاً في العقل السليم أن يتحدَّاهُم

---

(١) عباس محمود العقاد ـ مطلع النور: ١٥٠.

القرآنُ بالإعْجاز في بلاغة القول، وهم لا يعرفون من لغتهم شيئاً، يقعُ عليه ذلك التحدِّي، وتدورُ عليه الموازنةُ في عُرْفِ الخبراء بالكَلِم البليغ[1]. . . ولا كان من الممكن في الأساس «أن تُوجَدَ ثروةُ الشعراء الجاهليّين من العَدَم المُطْلَق، ولا كان من الجائز أن يَظهرَ كتابٌ مثلُ القرآن، في أُمَّةٍ لا تملكُ التعبيرَ عن دقائق المعاني الروحيَّةِ والتشريعيَّة. . .»[2]! ومن الطبيعي ألاَّ نَتوقَّفَ هنا كثيراً عند من زعموا بأن مُعظم ما نُقِل إلينا من أشعار الجاهلية وأخبارها وحوادثها مَصْنُوعٌ، لفَّقَتْهُ طائفةٌ من الرواة في العصر الإسلامي، وأن «كثرةَ الشعر الجاهلي بين مَرْفوضٍ ومَشْكوكٍ فيه»[3]. فهو مذهبٌ تَهاوَىٰ على أيدي كثير من الباحثين مؤخَّراً، وأضحَىٰ التسليمُ به انحطاطاً بالعقل، لأنَّ معناهُ الاعترافُ لأولئك الرواة، ببُلوغهم ذروةَ الشاعرية، التي بَلَغَها امرؤ القيس والنابغةُ وطَرَفَةُ وعنترةُ وزُهيرٌ وغيرُهم من فُحول الشعر في الجاهلية، ومعناهُ أيضاً الاعترافُ لهم بالمقدرة على التلفيق وفاقاً للأَمْزِجَةِ والمَلَكاتِ والأَعْمارِ، فنظموا القصائدَ بمزاج الشابِّ طَرَفَة، والشيخ زهير، والغَزِل العِرْبِيد امرىء القيس، والفارسِ الشجاع عنترة، وتَحرَّوْا لكلٍّ منهم مناسباته النفسيةَ والتاريخيةَ، وجمعوا القصائد، فجاءت على نَمَطٍ واحد في الديوان الذي نُسِبَ إليه!. . وما ذلك كلُّه سوى أوهامٍ تَوهَّمها النقَّادُ في الشعر الجاهلي، فحاولوا التشْكِيكَ في وُجوده، مُقدّمةً للتَّشْكيك في وحدة اللغة العربية قبل الإسلام، وهو أمرٌ يرفضُه العقلُ، لأن قبوله يكلِّفُه من الفَهْمِ شَطَطاً[4]، ولأن مواسم العرب الكبرى في عصر الجاهلية، كانت قطعاً من

---

(١) مطلع النور: ٨٢.

(٢) د. زكي مبارك ـ العشاق الثلاثة: ١٤٤.

(٣) د. طه حسين ـ في الأدب الجاهلي: ٤٢٠.

(٤) مطلع النور: ٦٦ ـ ٦٧.

أقوى الأسباب أثراً في تحقيق هذه الوحدة، لمّا كان يجتمع فيها من العرب على اختلاف طبقاتهم، ومذاهبهم، ولهجاتهم، وعاداتهم، مِمّا لا يمكنُ أن يجتمع مثلُه في أيّ مَحْفِلٍ آخَر، بالأحوال والشروط نفسها. . . فقد كانوا في مواسمهم العامّة، يَتلاقَوْنَ في حِمَى حُرْمةٍ كادت تكون شاملةً، وحُريّةٍ أوشكتْ أن تكون مُقدَّسةً، وسلامٍ لو لم يكن مُتوافراً خلالها، لمَا نَفَقَتْ سِلْعةٌ، ولا راجتْ تجارةٌ في جزيرة العرب، ولا عَبَرَتْها قافلةٌ.

وأخيراً، ثمّةَ شيءٌ لم يكن بُدٌّ من الإشارة إليه عن سوق المِرْبَد، وهو في الأصل سوقٌ للإبل، على حدود البادية، في ضاحيةٍ من ضواحي البصرة، فأقامتِ العربُ عليه في الإسلام سوقاً دائمةً للتجارة، تظلُّ قائمةً طولَ السنة، وتكون أوّلَ ما ينزلون إذا قدِمُوا البصرةَ من جزيرة العرب، وآخِرَ ما يُودِّعُون إذا غادروها. فما لبثتْ حتى غَلبتْ عليها خصائصُ العرب النفسيَّةُ والقوميَّةُ، فصارت مُتَنزَّهاً عظيماً، وسوقاً عامّةً، يخرجُ الناسُ إليها للتجارة والعلم والأدب والنزهة، ويقصدُها الشعراءُ، فيتناشدون الأشعار، ويتفاخرون، ويَتَهاجُون، ويَتَشَاورون، ويَؤُمُّها العلماءُ يبحثون عن شَواردِ اللغة وعلْمِ العربية، فكان لهذه السوق الدائمة من الآثار في حياة العرب، مثلما كان للأسواق الموسمية الكبرى في الجاهلية. . .

ولا شكَّ في أن تنوُّعَ وظائف الأسواق الموسمية عند عرب الجاهلية، وتَعَدُّدَ أغراضهم منها، إلى ما كان لهم من التقاليد والعقائد، وما في نفوسهم من طبَائعَ خاصَّةٍ، أَفْضَتْ بهم إلى حالٍ من أحوال الاجتماع، كان لها آثارٌ بعيدةٌ في مختلف جوانب حياتهم. . . فقد ساعدت على نُموِّ شعورهم بالعصبيَّة القوميَّة، وتوحيد كثير من عاداتهم وتقاليدهم[1]، ومفاهيم الشرفِ

---

(١) أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ـ معالم الحضارات: ١٥٩.

ومكارم الأخلاق عندَهم[1]. . . كما حَمَلتْهم على تهذيب ألفاظهم ومُفْرَداتهم، وانتقاء الأفْصَح منها، وتوحيد لهجاتهم المختلفة في لغةٍ مِثاليَّةٍ واحدة، خَلَتْ من العُيوب والشوائب، وصارت لغةَ المجتمعات الأدبية، وانصهرت فيها الفروعُ القديمة، فتأسَّسَتْ على خير ما في تلك اللهجات والفُروع من الجذور اللغوية، وأساليب التعبير والفصاحة. . . ولولا تلك المواسمُ لكانت «لغةُ العرب لغاتٍ لا يتفاهم أصحابُها، ولانْفَصَلت كلٌّ منها عن الأخرى، ذلك لأن لغات القبائل كان بينها تفاوتٌ في اللهجة واللفظ والأسلوب، وكان هذا التفاوتُ يَقلُّ أو يكثُر تَبَعاً لِضَعْفِ أو قُوَّة العَلائق التي تربطُ القبائل، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمانِ وحالةِ الاجتماع، التي يُؤَثِّر اختلافُها أعظمَ تأثيرٍ في اللغة»[2]. . وعلى ذلك يمكن القول بأن نهضة الشعر العربي في عصر الجاهلية، بعد توحيد العربية، إنما هي أثرٌ من آثار الأسواق الموسمية[3]، ولعلَّها أكثرُ الآثار وضوحاً وقوةً.

ولا يَخفَىٰ في الوقت عَيْنهِ ما كان لبعض الأسواق من الآثار السيئة، إذ أَدَّتْ إلى ظهور بعض الدَّخيل على لغة العرب، كتلك التي تنعقدُ على فُرَضِ البحار، فيقصدُها التجَّارُ من مختلف البلدان، ويختلطون بأهلها، ويستعملون مفرداتٍ من لغاتهم للتعبير عن حاجاتهم، ولا بدَّ لهذا النوع من الاختلاط أن يُؤدِّيَ بالتكرار إلى إدخال بعض الضَّيْم على اللغة القومية. وقد ذكر أهلُ الأخبار مثلاً أن موسمَ دَبَا بعُمَانَ كان يَشْهَدُهُ «تُجَّارُ السِّنْد والهند والصين

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٦.

(٢) أدبيات اللغة العربية: ١٢ ـ ١٣.

(٣) أسواق العرب للأفغاني: ٢٠٨، والعشاق الثلاثة: ١٤٤، ومعجم متن اللغة: ١/ ٤٢، وتاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥ و ٩٧، ود. صبحي الصالح ـ دراسات في فقه اللغة: ٩٦.

وأهل المشرق والمغرب»[1]، ومن المؤكد أن أولئك كانوا يُؤَثِّرونَ في التجَّار العرب من عدَّة وُجوهٍ، اجتماعيَّةٍ ولُغَويَّةٍ وثَقافيَّة.

ولكننا إذا نظرنا في مواسم الجاهلية نَظَرَ مُتَفكِّرٍ، وجدنا أنها امتازت بجُملةٍ من الخصائص المُشْتَركة، تُوحي بأن وراءَ إقامَتِها، وتطوُّرها، وازدهارها رَدْحاً طويلاً من الزمن، إرادةً واعِيةً، وفِكْراً مُنظَّماً، ودِرَايَةً خَبيرةً، وهو ما لا يمكن تَوافُرهُ إلا في قوم كان لهم، من غير شَكٍّ، لونٌ مُشْرِقٌ من ألوان المدنية والحضارة، ساعدهم على بُلُوغِ النجاح في هذا الجانب الخطير من جوانب الحياة... ولا أَحْسبُني مُبالِغاً إذا قلتُ، إن خيرَ من وَضَع مواسمَ الجاهلية مَوْضِعَها الصحيح: أبو حَيَّان التوحيديّ... فقد كان يتحدَّثُ عن حضارة عرب الجاهلية، وعِلْمِهم بالأنْواءِ والفُصول والأزمنة، فقال: «وممّا يَدلُّ على تحضُّرِهم في باديتهم، وتَبدِّيهم في تَحَضُّرِهم، وتَحلِّيهم بأشْرفِ أحوالِ الأمرين، أسواقُهم التي كانت لهم في الجاهليّة..»[2]، ثم أشار إلى مَوْسميَّة هذه الأسواق لمّا ذكر أنها كانت تتوالىَ في القيام طُولَ السنة، «فيحضُرها مَن قَرُبَ من العرب ومَن بَعُد...»[3]،

المطلب التاسع ـ خلودُ وقائع المواسم العامَّة:

وبينما أسواق التجارة الدائمة ضاعتْ أخبارُها ووقائعها في ظُلمات النسيان، فإن المواسمَ العامَّةَ، كما يبدو من أخبارِها ووقائعِها المأثورة، كان

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.
(٢) الأمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٣.
(٣) المرجع نفسه: ١/ ٨٥.

لها من الأهميَّة ما جعل كثيراً منها يظلُّ محفوظاً في الذاكرة، تتحدَّثُ به الناسُ، ويتناقَلُه الرواةُ، حتى وصلت إلينا تلك الأخبارُ والوقائعُ، فعَرفْنا منها أن هذه المواسمَ كانت منتشرةً في بلاد العرب، من أَدْناها إلى أقْصَاها، ومن مَشْرقها إلى مَغْربها، على مختلف وُجُوهِها، من دينيَّة واجتماعيَّةٍ وزراعيَّةٍ وتجاريَّة، وكان تَتَابُعُ قيامها يَسْتغرِقُ شهورَ السنة كلَّها، فلا يكادُ يخلو شهرٌ من موسمٍ ينعقدُ، وآخَرَ يَنْفَضُّ، ولا يكادُ مَوْضعٌ يَعْدَمُ موسماً يقومُ فيه، ويجتمعُ العربُ إليه، فكان لكلِّ صَقْعٍ من جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق مواسِمُ اشْتُهِرَ بها، واشتُهِرَتْ به، وهو ما سَنَجِدُهُ في الجزء الثاني، في كلامنا على مواسم العرب بين القُدماءِ والمتأخِّرين، وفي تحقيقنا مقدارَ ما عرفتْه العربُ من المواسم على اختلاف أنواعها، في مختلف أمصارها ورُبُوعها.

* * *

الفصل الثالث

القواعد المشتركة في أساس المواسم

عرضٌ لمختلف المذاهب التي قالت بأن الأساس في قيام مواسم التجارة والاجتماع والسياسة والأعياد والحجِّ، إنما هو المواضِعُ المقدَّسةُ، أو الطقوسُ الدينيةُ واحتفالاتها، أو تَوافُرُ الموضعِ الحَسَنِ على طريق القوافل في واحَةٍ تفجَّرَتْ بها ينابيع المياه العَذْبَة.

الفصل الثالث

القواعد المشتركة في أساس المواسم

لا ريب في أن ما كان بين نُشوءِ بعض الأسواق الموسميَّة والمواسم الدينية من ارتباط أو مُلازَمَةٍ، دفع مُعْظمَ الباحثين إلى اعتبار العامل الدينيّ السببَ الوحيدَ، أو الرئيسَ، في ظهور سائر الأسواق الموسمية عند العرب، وإلى الاعتقاد بأن المواضِعَ التي أُقيمتْ عليها كانت مَواضِعَ مُقَدَّسةً... كقول بروكلمان[1] مثلاً: «ولقد حَظِيت بعضُ الأماكن المقدَّسة بشُهرةٍ خاصّةٍ فكانت القبائلُ المختلفةُ تحجُّ إلى عكاظ مثلاً، وإلى مكة من مَطارِحَ نائِيَةٍ، وكان السلامُ الإلَهيُّ يُخيِّمُ على الصحراءِ في المواسم الدينيَّة، فيكفُّ الناسُ عن القتال والحرب... والواقعُ أن الأسواق التي كان العربُ يُقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية...»[2].

وهو ما ذهب إليه أيضاً جواد علي، فقد كان يتحدَّث عن المواضع المقدسة عند العرب، وأسباب تقديسها، فقال: «ومن هذه المواضع عكاظُ، فكان الناسُ يأتون الموضعَ في الموسم، فينْصبُون فيه خِيَامهم، ويُقيمون

---

(١) كارل بروكلمان: (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦ م)، مستشرق له تحقيقات في تراث العرب، ومُصَنَّفَاتٌ بالألمانية، أشهرُها: تاريخ الأدب العربي، وقد تُرجم بمصر إلى العربيَّة، وتاريخ الشعوب الإسلاميَّـة، تُرجم في بيروت. أخذ العربيَّـة واللغات الساميَّة عن «نولدكه» وآخرين من المستشرقين، ودرَّس العربيَّـة بمعهد اللغات الشرقية في برلين.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٥ ـ ٢٦.

سُوقِهم، ويطوفون بأحْجارِ عكاظ، يُقيمون على ذلك أيامَ الموسم، فهي أيام عبادة وتجارة وفرح...»[1]، ذلك أن أهل الأخبار تحدَّثوا عن وجود صخور كانت بعكاظ «يطوفون بها ويحجُّون إليها»[2]. وفي موضعٍ آخر أضاف جواد علي إلى ذلك قوله: «وإذا تذكرنا دُومةَ الجَنْدَل ومعبدَها الكبير، فلا يُستبعَدُ أن تكون الأسواقُ الأخرى مواضعَ مُقدَّسةً قديماً، كانت مَحجَّةً للناس عامرةً، تَفِدُ إليها القبائل في مواسم الحج، ثم فَقَدَتْ خُطورتها قُبَيل الإسلام، ولم يبق عليها إلا طابع الأسواق التجارية...»[3]، فقد كان بدُومة الجندل معبدٌ كبير، أُقيم فيه الصنم المشهور «وُدٌّ»، وكانوا في الجاهلية يحجُّون إليه، ويطوفون به كلما انعقد موسمُ السوق، أو يحضرون السوق كلما أَزِف موسمُ عبادة «ودّ»... فكانوا إذا اجتمعوا في «المعبد لأداء الفُروض الدينية، كان اجتماعُهم دينياً وسياسياً وتجارياً، يتعاملون فيه، ويتبادلون السلع، مما يعود على أهل الموضع بالأرباح الكبيرة والفوائد المتعددة»[4].

وفيما نصَّ الأفغاني أن تلك الأسواق في جزيرة العرب «كانت تلبيةً لِضروراتٍ محلية اقتضتْها معيشةُ العرب، وطبيعةُ توزُّعهم في أرضهم، وليست شيئاً مجلوباً حاكَوْا به غيرهم، كما يتكلَّفُ بعضُ المتعرضين لهذا البحث...»[5]، عاد في موضع آخر فقال: «ليست ظاهرةُ الجمع بين الأهدافِ الدينيّة والتجاريّة قاصرةً على أهلِ الجزيرة، ولا زمنِ الجاهلية، بل تكادُ تكون سِمَةً عامةً في الحضَر والبَدْو حتى هذه الأيام، فازدهارُ القدس في

(١) المفصَّل: ٦/٤٠٦.
(٢) معجم البلدان: ٤/١٤٢.
(٣) المفصَّل: ٦/٤١٨.
(٤) المرجع نفسه: ٦/٤٤٧.
(٥) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ١٩٦.

أعياد الميلاد بالزوّار والتجار، ومواسمُ العبادة والتجارة معاً في الحجاز أيامَ الحجّ أَشْهَرُ من أن يخفَى. . . »[1].

وعلَّل جرجي زيدان نشوءَ الأسواق الموسمية باحْتياجِ الناس في مواسم الحج إلى من يبيعُهم الأطعمةَ والأشْربةَ، فقال: «وقد كان كثير من أمثال هذه الأسواق في العالم القديم. . . لكن الأقدام لا تتزاحم فيها إلا إذا كان الغرضُ من الاجتماع حَجّاً دينيّاً، فإذا اجتمع الناسُ في مكان الحج وتكاثروا، احتاجوا إلى من يبيعُهم الأطعمة والأشْرِبةَ وغيرها، فتُقام الأسواق لهذه الغاية. . . كذلك كان شأنُ العرب في سوق عكاظ وغيرها من أسواق الجاهلية. . . »[2].

ولستُ أرى في العامل الدينيّ وحدَهُ سبباً كافياً لظهور الأسواق الموسمية عند العرب، ولا أَجِدُ في أقوال من ذهبوا هذا المذهبَ تبريراً مُقْنِعاً بتلك الوحدانية، ولا سيما أننا قُمْنَا باستقصاءِ مفهوم العرب للمواسم، وعاداتِهم في الحجِّ والتعبُّد، وحُجَّتِهم في تقديس بعض المواضع دون المواضع الأخرى، فتبيَّن لنا أن كلَّ وقتٍ، كان من عادة العرب، إذا أَهَلَّ، أن تجتمعَ إليه، سواء من أجل حجٍّ أو عيدٍ أو عبادةٍ أو تجارةٍ، إنما هو مَوْسِمٌ عندهم، ما دام مُجتَمَعاً للناس موْقوتاً بمُدَّةٍ مُعيَّنةٍ، ينعقدُ بحُلُولها، وينقضي بانقضائها، فكأنه وُسِمَ بذلك الوَسْم[3]، فصار لهم معْلَماً يجتمعون إليه كلما أدركهم. وسبق أن ذكرت أنهم أكثروا من استعماله، بهذا المعنى، لأسواقهم التي كانوا يُقيمونها بعُكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز، لأن مواعيدَ قيامها وافقتْ

(١) المرجع نفسه: ٢٠٧ ـ ٢٠٨.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣/ ٣٧.
(٣) لسان العرب: ١٢/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧(وسم).

شهورَ الحجّ إلى الكعبة، ورُسُومَ انعقادها اختلطت بشَعَائِره، فعُدَّتْ من مواسمه ومَنَاسِكِه، حتى أن بعضهم كان يقول: «لا تَحضروا أسواق عُكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز إلا مُحْرِمين بالحجّ...»[1]، وكأن مواسِمَها مواسِمُ نُسُكٍ وعبادة، بينما هي في الواقع مواسِمُ تجارةٍ واجتماعٍ وسياسةٍ ولهْوٍ ومَرَحٍ، يُؤَدَّى خلالها شيءٌ من الفُروض الدينية ليس له أية علاقة بمنَاسِكِ الحجّ إلى كعبة مكة، أو شَعائِره، وذلك كطَوافهم بصُخور عكاظ المقدسة... وحينما تحدَّث الأزرقيُّ[2] عن أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، عَدَّها من مَواسم الحجّ مع مِنَىٰ وعَرَفة[3]، وحُجَّتُه أنها كانت تقع «في مواسم الحجّ وفي أَشْهُرِه»، وعَلَّل تَرْكهُ الكلامَ على سوق حُبَاشَة بأنها «لم تكن في مواسم الحجّ ولا في أشهُرِه، وإنما كانت في رجَب»[4]... والمعروفُ أن شهور الحج عند العرب في الجاهلية هي: شَوَّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجة[5]... وأن مواسم عكاظ ومجنّة وذي المجاز تنعقدُ مع هلال ذي القعدة، وتَنْفَضُّ في الثامن من ذي الحجة، وهو يومُ التَّرْوِيَة، كانوا يَتَرَوَّوْنَ فيه من الماء، تَأَهُّباً للوقوف بعَرَفَة في التاسع حيث لا يوجد ماءٌ هنالك يومئذٍ... كذلك فيما يبدو كان مفهوم العرب للموسم، ثم جعلوا يتوسَّعُون في استعماله، كما ذكرنا في تعريف المواسم، فأطلقوه على سائر الأسواق المُمَاثِلة، حتى تلك التي لم يكن لهم فيها ما يُقدِّسُونه أو يُعظمونه،

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩٢.

(٢) الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد. مؤرِّخ عربيّ، يمانيّ الأصل. وُلد وعاش في مكة. له كتاب «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار». توفي نحو (٢٥٠ هـ).

(٣) المرجع نفسه: ١/ ١٨٩.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ١٩٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٨، ولسان العرب: ٢/ ٢٢٧ (حجج).

ثم تَجوَّزُوا فسَمَّوْا قَصْدَها، أو قَصْدَ بعضِها حجّاً، وما هو بحجٍّ وإنما زيارةٌ وقَصْدٌ، والقولُ بأن العرب كانوا يحجُّون إليها توسُّعٌ في التعميم، وشُذوذٌ عن المعنى الذي صارت إليه الكلمةُ في الجاهلية واستقرَّتْ عليه، وعَوْدٌ بها على ما يبدو إلى جذورها!

فالحجُّ لفظةٌ «ساميَّةٌ» قديمةٌ مُشْتركةٌ، كانت في الأصل تُفِيدُ معنى الرقص، والرقصُ كان طَقْساً تُمارسُهُ الشعوبُ القديمةُ في المواسم والأعياد الدينية، ثم صارت تعني الطَّوَافَ، وهو الدَّوَرانُ، أي التحرُّكُ، والرجوعُ إلى حيث الابتداءُ، والمُعَاوَدَةُ[1]، ثم تحوَّلت إلى معنى العِيد وهو من العَوْدِ، سُمِّيَ بذلك لأنه الوقتُ الذي يعودُ كل سنةٍ بفَرحٍ مُجدَّد أو بحزن[2]... ثم استقرَّ معنى الحجّ عند العرب على القَصْدِ والزيارة والإتيان والقُدوم، وكان العربُ يستعملونها إذا أكثروا التردُّدَ على مكانٍ والاختلافَ إليه، ولا سيما إذا كان مُعظَّماً، وبعد ذلك جرى العرفُ على استعمالها في القَصْدِ إلى مكة للنُّسُكِ، والحجِّ إلى البيت خاصَّةً، كما جرى باستعمالها للمَنَاسِكِ، لأنها تَبَعٌ لِقَصْدِ مكة، ولأنَّ تَمَامَها يكونُ بالحجِّ[3]... وشهرُ ذي الحِجَّة سُمِّيَ بذلك لوُقوع الحجّ إلى مكة فيه[4]، وليس إلى موضع آخرَ سواها، وشهرُ «ذُو حجتن أو ذُو محجتن أو ذو حجتان»[5]، وهو شهرُ الحج عند عرب اليمن كشهر ذي الحجة، وكان حجُّ أهل اليمن إلى مكة أيضاً[6]، ولو لم يكن

---

(١) د. أنيس فريحة ـ أسماء الأشهُر في العربية: ٧٧.

(٢) تهذيب الصِّحَاح: ٢٣١، والزبيديّ ـ تاج العروس: ٨/ ٤٣٢ ـ ٤٣٩ (عود).

(٣) لسان العرب: ٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧، وتاج العروس: ٥/٤٥٩ ـ ٤٦١ (حجج).

(٤) تاج العروس: ٥/ ٤٦٧ (حجج).

(٥) المفصَّل: ٨/٤٤٨ ـ ٤٥١، وأسماء الأشهر في العربية: ٨٤.

(٦) البلاذري ـ أنساب الأشراف: ١/ ٦٧.

كذلك لما أقام «أَبْرَهَةُ» في صنعاء «معبدَ القُلَّيْس» وأمَر بتحويل حجّ العرب إليه، مُبْتَغِياً صرفَ شعبِ اليمن عن الكعبة، وسائرِ الناس إن أفلح في سَعْيِه. ولكنَّ قداسةَ الكعبة هي القداسةُ التي لم يكن عليها خلاف بين العرب جميعاً، فكانوا يلتقون حولها على اختلافِ مَواطِنِهم وقبائلهم وشعائرهم، لأنها كانت لكل العرب[١]، تُمثِّلُهم بجُملةِ مأثُوراتهم ومَعبوداتهم ونِحَلِهم، فإذا قيل حَجُّوا إلى الكعبة فذالِكُم هو الحجُّ بمعناهُ المتَّفَقِ عليه عند الجميع، أمّا إذا قيل إن سوق عكاظ مثلاً كانت موضعاً مُقدَّساً، يَحجُّون إليه، ويطوفون بحجارةٍ فيه يُعظِّمونها، أو يطوفون بالصنم «جِهَار» الذي أقامه بعكاظ بنو هوازن، وتَعبَّدوا له، فالمعنى أنهم كانوا يقصدونه ويختلفون إليه ويَزُورونَه لا أكثر، وفعلُ الطواف والتعبُّد للصنم لا يجعل من موسم عكاظ موسماً دينياً في أساسه، ولا يجعل العاملَ الدينيَّ سبباً في قيام السوق، فالحجُّ إلى الكعبة كان أعظمَ موسم دينيٍّ عند عامّة العرب، ومع ذلك فإنه لم يُنْشِىءْ سوقاً موسميةً في مكة[٢]، لأن العرب كانوا يتأثّمون من الجمع بين الحجّ والمتاجرة في آنٍ معاً، فكانوا «يتَّقُونَ البُيوعَ والتجارةَ في موسم الحجّ، ويقولون: هذه أيام ذِكْر...»[٣]، وكانوا يمتنعون أيضاً من المتاجرة «في يوم عَرَفَة وأيام مِنَىٰ...»[٤]، وظلُّوا على ذلك حتى جاء الإسلام، فنزل القرآنُ بِرَفْع هذا الحَرَج عنهم[٥]... ومن أجل ذلك التأثُّم فيما أعتقد جعلوا مواقيت أسواقهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز مُتَقدِّمةً على موسم الحجّ في مكة، فكان

---

(١) أخبار مكة: ١/١٦٧ ـ ١٦٩، ومطلع النور: ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) المحبَّر: ٣١٥.
(٣) تفسير ابن كثير: ١/٤٢٥ ـ ٤٢٦.
(٤) أخبار مكة: ١/١٨٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

يحضرها من كانت له حاجةٌ فيها، ومن لم تكن له حاجَةٌ قصد مكة رأساً، من غير أن يُعرِّجَ على الأسواق، أو يلبثَ فيها وهو مُحْرِمٌ بالحجّ، وهذا ما عناه الأزرقيُّ بقوله: «وإنما كان يحضرُ هذه المواسمَ بعكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجازِ التُّجارُ، مَن كان يريدُ التجارةَ منهم، ومَن لم يكن له تجارةٌ ولا بَيْعٌ، فإنه يخرجُ من أهله متى أراد. . .»[1]، أي أنه، إذا أحْرَمَ بالحجِّ، غيرُ مُضطرٍّ إلى الخروجِ من حَيِّهِ أو منزله في شهر شوَّال، مُتكلِّفاً مشَقَّةَ طولِ الطرق ووُعُورَتها، ليكونَ في عكاظ مع هلال ذي القعدة، إن لم يكن تاجراً أو راغباً في البيع والشراء، ثم يلبث هنالك على رُغْمِه بِضْعةً وثلاثين يوماً، همُّه البحثُ عمَّن يبيعهُ الأطعمةَ والأشْرِبةَ، كما ذهب زيدان، وليس له من أَرَبٍ وراء ذلك سوى أن ينتظرَ حُلولَ موعد الحجّ لِينتقلَ إلى مكة!. . وقد فاتَ من ذهب هذا المذهبَ أنه كان من عادة العرب في الجاهلية إطعامُ الحجيج، وإسْقَاؤهم النبيذَ رِفادَةً وكرماً، لأنهم ضيوفُ اللهِ، وزُوَّارُ بيته[2]. . . ولأنهم لن يجدوا في الموسم مَنْ يبيعُهم شيئاً، فكان أهلُ مكة يُخرِجون من أموالهم ما يشترون لهم به الخُبْزَ والجُزُرَ[3] للطعام، والزبيبَ للنبيذ، فلا يزالون يُطعمون الناسَ ويَسْقُونَهم حتى تنقضي أيامُ الموسم[4]. . .

هذا، ويُفهم من كلام الأزرقي أيضاً أن سوق عكاظ كانت إذا حَفَلَتْ بالناس، فذلك لأنهم أرادوا قصدَها لِشُهودِ موسمها والمشاركةِ في مَجَامِعها وأعمالها، وليس لأنهم مُضطرُّون للتوقُّف عندها في طريقهم إلى مكة، فمن

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ١٣٠، وأخبار مكة: ١/ ١١٠، ولسان العرب: ٣/ ١٨١ (رَفَدَ).

(٣) الجُزُرُ: مفردها جَزُور، وهو ما يُجْزَرُ أو يُذْبَحُ من النُّوق أو الغَنَم، ومن ذلك الجَازِرُ والجزَّار.

(٤) لسان العرب: ٣/ ١٨١، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٦٠، وأنساب الأشراف: ١/ ٥٢.

كان يريدُ الحجَّ فقط، يقصدُ مكةَ رأساً. . . والقولُ نفسُه يُقال في سُوقَيْ مجنَّة وذي المجـاز! فمن فاتَهُ شُهودُ عكاظ شَهِدَ مجنَّةَ أو ذا المجاز. . . وأكادُ أقول إن القداسة أُضيفت إلى عكاظ بعد نشوء السوق عليها، وأن المؤسِمَ الـدينيَّ علـى خُصُـوصِيَّتـهِ فيهـا كـان نتيجـةً لقيـام السـوق لا سببـاً لهـا. . . فأصحـاب السوق هم بنـو هَوَازِن، من قيس بن عيـلان، وهـم الذين أقاموا فيه الصنَمَ «جِهَار»، ولـم يكن يُشارِكُهم التعبُّـدَ له من العربِ غيرُ بني مُحَارب[1]. ولعلهم كانوا أيضاً مَن أضاف القداسة إلى بعض حجارة عكاظ فجعلوا العربَ يُعظمونها، ويطوفون بها تَبرُّكاً ونُسكاً، وجعلوا السوق في الوقت نفسه مَثابةَ أمنٍ وسَكَنٍ، تهوي إليها أفئدةُ الناس جميعاً، وهذا فِعلُ قوم أَحْكَمُوا تدبير الأمور، وأحْسَنُوا إيرادَها مَوارِدَها. . . إذ لو لم يكن موضعُ عكاظ في الأساس صالحاً لقيام سوقٍ تجاريَّةٍ واجتماعيَّةٍ موسميَّةٍ عليه، سواءٌ أكان مقدَّساً أم غير مُقدَّس، لاختاروا لها موضعاً آخَرَ، تتوافَرُ فيه المياهُ العذبةُ، والنباتُ والكلأُ، والجوُّ الطيب، والموقعُ الحسن. . . وإذا كان الموضعُ مقدساً، والقومُ لا يعرفون التجارَةَ وأساليبها، فليس من شأن الاحتفال الديني مهما كان كبيراً أن يساعد على قيام سوق موسمية فيه، ينتظمُ انعقادُها مئات السنين. . . بينما إدْراكُ الثمار ومواعيدُ اجْتِنائها، وتنوُّعُ الغَلَّات ومواقيتُ تبادلها بين القبائل، وتفجُّرُ الينابيع في البادية بالمياه العذبة[2]. . . كلُّ أولئك قواعدُ في أساس الأسواق الموسميَّة والمواسِم الدينيَّة على السواء، الأسواقُ للعمل التجاريّ، والاحتفالُ الدينيُّ شُكْراً للهِ على نِعَمِهِ.

---

(١) المحبَّر: ٣١٥. وبنو مُحارب بنُ خَصَفَة، من قيس بن عَيْلان، وهم أبناء عمّ هَوازِن.
(٢) المفصَّل: ٤/ ٢٨١.

نَخْلصُ من كل ما قدَّمناهُ، إلى أن ظهورَ الأسواقِ الموسميَّةِ، وإن كاد يكون مُلازِماً للمواسم الدينيَّةِ، ومُرْتبطاً بها في بعضٍ من وُجوهها، فذلك لا يعني أن المواسم الدينيَّة، من حَجٍّ أو عبادةٍ أو أَعْيادٍ، تُؤدِّي دائماً إلى ظهور الأسواق الموسميَّة، أو أنها الأساسُ الوحيدُ الذي يقفُ وراء نشُوئِها كما ذهب بعضُ المؤرخين والباحثين، وربما كان العكسُ صحيحاً أيضاً، وهو أن يكون الموسمُ الدينيُّ نتيجةً لقيام السوق الموسميَّة في مَوْضعٍ ما، إذ أن كليهما لا بُدَّ له في طور نشأته الأولى، من أساسٍ جغرافيّ صالحٍ يقومُ عليه، وهو عادةً واحةٌ خضراءُ وسط البادية، نشأت على نبع للمياه العذْبة، فإذا كان موقعها على طريق رئيس من طُرُق القوافل، صار خطرُها عند التجار كبيراً، وشأنُها عند أهلها عظيماً، وأصبحت منزلاً ضرورياً تتوقف عنده قوافل التجارة، لِتَنْهَلَ من مياهِهِ العَذْبة، وتَشْهَدَ فيه المنافعَ من بَيْعٍ وشراءٍ وتجارةٍ، وربما غدا موعدُ وصولِ القافلة التجارية إليه موسماً لسوقٍ تجاريَّةٍ تنشأ فيه.. وإذ كانوا يَعُدُّون مثلَ هذا الموضعِ مُقدَّساً لمَا جعل اللَّهُ فيه من الماءِ والخضرة والكلأ، فإنهم يُقيمون عليه، شكراً لله، بيتاً للعبادة يحجُّون إليه في موسمٍ معيَّن، لعله كان يتفقُ غالباً مع موعدِ وصولِ القوافل التجاريَّة وقيامِ السوق، وكانوا يُحرِّمُون بيوتَ العبادة ومواضِعَها، ويتعاهدون على المُسَالَمة في جِوَارها[1]، فيطمئنُّ الناسُ، ويقصدونها من بقاع مختلفة، ويشتركون في التجارة والعبادة والفرح... وعلى ذلك فالموسمُ الدينيُّ والسوقُ الموسميةُ كلاهما نشأ نتيجةً لموقعٍ جغرافيٍّ مُتَميِّزٍ، وموضعٍ توافرت فيه المياهُ والكلأ، وحالةٍ أَمْنيةٍ مُطَمْئِنَةٍ، ونشاطٍ تجاريّ حَسَنٍ...

ويبدو أن فيليب حِتّي كان أكثر دِقَّةً، حينما ردَّ أسبابَ نُشوءِ عكاظ

---

(١) مطلع النور: ١٥٠.

ونشوءِ مكّة معاً، إلى الحالة الدينيّة، وإلى الحالة التجاريّة، التي علَّل نجاحَها وازْدهارَها بأمرَيْن، أحَدُهما: الموقعُ الجغرافيُّ، والآخَرُ: طرقُ المواصلات، فقال: «وامتاز قُطْرُ الحجاز بخصائصَ فريدةٍ، منها: وقوعُهُ في نقطة مركزية، وسهولةُ الوصول إليه، وقِيَامُه على طريق القوافل السائرة بين الشمال والجنوب، فانفتحت فيه أبوابٌ واسعةٌ للحركة الدينية والتجارية، وبفضل هذه نشأتْ سوقُ عكاظ والكعبةُ. . .»[1].

وقد عَدَّ يوسف خليف «من الطبيعي أن تقومَ على طول الطرق التجاريّة، حيث يوجد الماءُ، مجموعةٌ من الأسواق التي تنزلُ فيها القوافلُ التجاريةُ. . .»، وأن تقوم بمنطقة مكة أسواقُ عكاظ ومجنّة وذي المجاز «لأنها كانت أكبرَ مراكزِ التجارةِ في الجزيرة العربيّة، ولكثْرةِ وُفودِ العربِ التي كانت تهوي إليها في مواسم الحجِّ. . .»، ثم أكّد أخيراً «أنه على طول الطرق التجارية كانت تقومُ الأسواق، وأن هذه الأسواق كانت تكثر حول مراكز التجارة الأساسية. . .»[2]. فالأسَاسُ عنده: الطرقُ التجاريةُ حيث يوجدُ الماء، والمراكزُ التجاريّةُ، ومركزُ مكةَ الدينيّ.

ومن الطبيعيّ القولُ بأن ذلك لم يكن كلَّ القواعد التي كانت في أساس الأسْواقِ الموسميَّة عند العرب، فقد كانت هذه الأسواق تَشْهَدُ ضُروباً مختلفةً من الأنْشِطَةِ الاجتماعيَّة والثقافيَّة والاقتصاديّة والسياسيَّة، وتَشْهَدُها طوائفُ شَتَّى من الناس، تقصدُها من بلادٍ كثيرة، فلم يكن من الممكن أن يَتَسنَّىٰ لها الانتظامُ في مواسمها، والقيامُ في مواعيدها، والازدهارُ في شؤونها، إلا إذا كان الأمنُ مَوْفُوراً فيها، والسَّلامُ غالباً على نُزَلائِها، وهذا لا يَتَوافَرُ عادةً إلا إذا كانت المجتمعاتُ، التي نشأت فيها المواسمُ، على شيءٍ من الارْتقاءِ

---

(١) تاريخ العرب: ١٥٠.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ١٢٦ ـ ١٢٨.

والتقدُّم. ولكننا إذا نظرنا في المصنَّفَاتِ التي عَرَضَتْ لتاريخ الجاهلية، وجدنا بعضَها يصِفُ العربَ بالتخلُّفِ والتوحُّشِ والجهل، ويُشِيدُ بعضٌ آخَرُ بما تفرَّدُوا به من مكارمِ الأخلاقِ ومَحَاسِن العاداتِ، وما تميَّزُوا به في جاهليَّتهم من الشجاعة، والكرم، والوفاءِ بالعُهود، وغَوْثِ الملهوف، وحماية الجار، والذَّوْدِ عن الحِمَى، وقِرَى الضيف، ورهافة الحسّ، والاعتزاز بالنفس، وإبَاءِ الضَّيْم، ورفضِ الذُّلِّ. . . فكيف يستوي في عقل سليمٍ أن تكون لأُمَّةٍ كلُّ هذه المزايا، ثم تُوصَفُ بالتوحّش والتخلُّف والجهل؟ لا شك في أن هذا المذهب، إن لم يكن سوءُ النيَّة باعثاً على تَزْويره، ناشِئٌ من الخَلْطِ بين مجتمعات العرب في الجاهلية، وعَدِّها مجتمعاً واحداً من الأعرابِ، سُكانِ الفَلَوات والصحارى، وأهلِ الغزو والغارات والانتِهاب! وسيَظهرُ لنا جَليّاً أنه جنايةٌ على الحقيقة، فالعربُ لم يكونوا مجتمعاً واحداً من الأعراب، ولو لم يكن في مجتمعاتِ الجاهلية ما يَصْلُح لرعاية الأسواق الموسميَّة، وتوفيرِ الأمن فيها، لما نشَأتْ تلك الأسواقُ، ولا كُتِبَ لها البقاءُ طويلاً. . . ليس هذا وحسب، بل إن المجتمع يجب أن يكون على قَدْرٍ من العلم بالكتابة والحساب، وقَدْرٍ آخَرَ من الفقه بحسابِ الشهورِ والسنينِ والفُصولِ، وإلاَّ كانت الأسواقُ مَهْزَأةً، والمواسِمُ من غيرِ وَسْمٍ يَسِمُها بوقتٍ مُعيَّنٍ تُعْرفُ به، فلا تكون حينئذٍ مواسِمَ ولا أسواقاً. . .

وقد عرفنا أن الأسواق الموسميَّةَ خاصَّةً، إنما هي حالةٌ من حالاتِ الحضارة، يُعَدُّ ظهورُها في المجتمعاتِ البشريَّةِ دليلاً على بُلوغِها قَدْراً جيِّداً من الارتقاء، ولا سيما في الأَنْشِطةِ التجاريَّة، والحياة الدينيَّة، وأحوالِ الاجتماع، وما يتَّصِلُ بها من الأُمور المختلفة.

ونَخْلُص من كل ذلك إلى القول بأن القواعد المُشْتَركَةَ في أُسُسِ

المواسم العامَّة ببلاد العربِ، تكادُ تكونُ ثَلاثاً:

الأولى: الحالةُ التجاريَّةُ، ويدخُل فيها الموقعُ الجغرافيُّ ومراكزُ التجارةِ وطرُقُ القوافلِ.

والثانية: الحالةُ الدينيَّةُ ومقدارُ ما كان بها من الحريَّةِ والمُشارَكةِ، وإذا خَلتْ من الحريَّة والمشاركة مع اختلاف المِلَلِ والنِحَلِ والعقائد صارتْ سبباً في زَوال المواسم وذهابها.

والثالثة: مجتمعاتُ العرب، وحالةُ الأمنِ فيها، ومَبْلغُ علمِها بحسابِ الشهور والسنين، وبمسألةِ القراءة والكتابة...

مع العلم بأنه لا يُشترطُ تَوافُرُ كلِّ هذه القواعدِ إلا لمواسم الأسواق العامَّة فقط، أما سائر المواسم فبعضُ هذه القواعدِ كافٍ لقيامها، كمواسم الأعياد ومواسم التربُّع في البادية، ومواسم العبادة والنُسك...

الباب الثاني

الحالة التجارية ومدن القوافل

الفصل الأول: موقع بلاد العرب من العالم القديم

الفصل الثاني: العرب والتجارة

الفصل الثالث: طرق التجارة والقوافل

الفصل الرابع: المحطات التجارية الكبرى في بلاد العرب.

المطلب الأول: مملكة معين

المطلب الثاني: مملكة سبأ

المطلب الثالث: مملكة حضرموت وقتبان

المطلب الرابع: مملكة حِمْيَر

المطلب الخامس: مملكة الأنباط

المطلب السادس: مملكة تدمر

المطلب السابع: مملكة الحيرة

المطلب الثامن: مملكة الغساسنة

المطلب التاسع: مدينة مكة

١ ـ موقع مكة، ٢ ـ أهل مكة، ٣ ـ عهد خزاعة بمكة، ٤ ـ زمن خزاعة، ٥ ـ عهد قريش، ٦ ـ نهضة مكة.

الفصل الأول

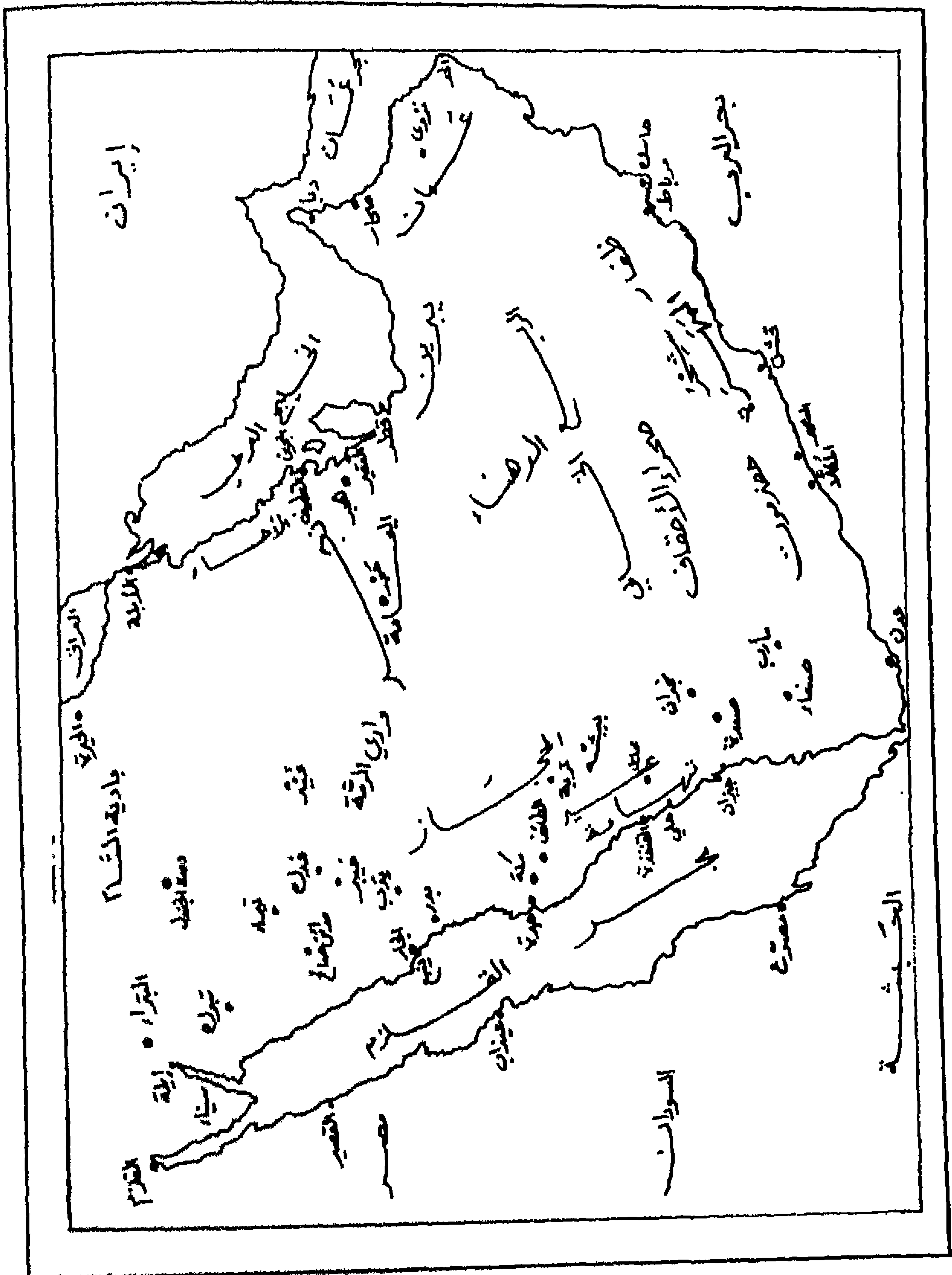
موقع بلاد العرب

تقعُ بلادُ العرب في أقصى الجنوب الغربيّ من قارَّة آسية. وقد تفرَّدت في هذا الموقع عن سائر أجزاء آسية، فبدَتْ كأنها قارة صغيرةٌ مستقلةٌ، حجزتْها البحارُ والجبالُ والصحارى من جهاتها الأربع، وجعلت منها أكبرَ شبهِ جزيرةٍ في العالم... ولكنّ اسمَ الجزيرة غلب عليها، لأن حدودها مع العراق وسورية كانت حدوداً مُتَّصلةً، يصعبُ تمييزُها وتحديدُها، وتكاد باديةُ السَّمَاوَة، ومعظمُ بلاد الشام تكون جزءً منها، وامتداداً طبيعياً لها. وعلى ذلك كانوا يرون أن حدَّها الشمالي إنما هو في الحقيقة حاجزٌ من مياه الأنهار، يبدءُ من ثَغْر الأُبُلَّةِ[1]، ويتصل بشَطِّ العرب، فالفرات، فالعاصي، فالشريعة، فالبحر الميت، وينتهي في خليج أَيْلَة[2]، ويُكمل الإطارَ البحريَّ الذي يحيط بها من أطرافها الأُخرى، ابتداء من الخليج العربي وبحر عُمَان في الشرق، مروراً ببحر العرب وخليج عدن في الجنوب، وانتهاءً إلى البحر الأحمر في الغرب... وهذا ما عَنَاهُ بعضُ الجغرافيين بقوله إنها «إنما سُمِّيتْ جزيرةً لإحاطةِ البحار والأنهار بها من جميع أقطارها وأطرافها»[3]... وإذا

(١) الأُبُلَّة: مرفأ على رأس الخليج العربي، كان العرب يُسمُّونَه «ثَغْرَ الهند» لأنه مُوصِلٌ إلى بحرها، يُصدِّرون منه سِلَعَ العراق والشام وآسية الصغرى وأوربة إلى الهند.

(٢) أَيْلَة: مدينة على ساحل بحر القُلْزُم، أي الأحمر، وهي آخرُ الحجاز وأوّلُ الشام، وتُعَدُّ في بلاد الشام، وتُسمَّى اليوم «العقبة».

(٣) معجم البلدان: ٢/ ١٣٧.


إيران
بحر العرب
الحبشة
السودان
مصر
عدن
صنعاء
نجران
الحجاز
تهامة
عمان
قطر
البحرين
بادية الشام

عدَّتْ باديةُ السمَاوَة، ومعظمُ أرض الشام امتداداً لجزيرة العرب، فإن التحديد الذي يتفق مع طبيعة الأرض أيضاً يُدْخل سيناء في حدود الجزيرة[1]، ولا سيما أنها كانت من منازل العرب منذ عهد قديم.

وقد أتاح لها ذلك التفرُّدُ بالموقع أن تحتلَّ من العالم القديم مركزاً وَسَطاً، وأن تُتاخِمَ مُعْظمَ المدنيات الكبرى وقتئذٍ، وتتفاعلَ معها سواء في سورية والعراق ومصر أو في سائر البلدان الأخرى، وأن تجعلَ من واحاتها في الصحراء، ومُدنها وقُراها مراكزَ للتجارة الدولية، ومحطاتٍ ضروريةً لقوافلها، تصلُ تجّارَ المحيط الهندي بتجّارِ حَوْض البحر الأبيض المتوسط، وبلادَ الشرق الأقصى وجنوب آسية ببلاد مصر وشرق إفريقية وفارس والروم... فكفل لها ذلك أن يُمْسِك بَنُوها، على تعاقُبِ دُوَلهم، بأَزِمَّةِ التجارة المحلية والدولية زَمَناً طويلاً استمرَّ حتى العصور الوسطى، وأن يُسهِموا فيها بأموالهم أو بجهودهم وخبراتهم، فكان أكثَرُهم تُجّاراً، أو عُمّالاً في جانب من جوانبها، أو مُشَارِكِين في حقلٍ من حقولها، يَتَوفَّرون على تنظيم أمورها، وتوفير وسائل الأمن اللازمة لحماية قوافلها، وخِفَارةِ تُجّارها في رحلاتهم إلى الأسواق الداخلية والخارجية[2].

ولو نظرنا إلى جزيرة العرب من الناحية الطبيعية لوجدنا أنها في جُمْلتها: «نَجْدٌ أقصى ارتفاعه في الجنوب والغرب، وانحداره نحو الشمال والشرق إلى وادي الفرات وساحل الخليج العربي...»[3]، وأنها يمكن أن

---

(١) عبد الوهاب عزام ـ مهد العرب: ٢٣.

(٢) عمر فروخ ـ تاريخ صدر الإسلام: ٤٢، والأطلس التاريخي للدولة السعودية: ٤ و٦، ومجلة الكتاب ـ المجلّد ١٢ السنة ٩٥٣: ٧٢٠ ـ ٧٢١، ود. ناصر الدين الأسد ـ مصادر الشعر الجاهلي: ٤ ـ ٥.

(٣) مهد العرب: ٢٤.

تُقسم إلى ثلاثة أقسام طبيعية: **الأول في الشمال**، ويمتد من شمال بادية الشام إلى صحراء النفود، ومن رأس الخليج العربي إلى شاطىء مَدْيَن على البحر الأحمر، وقد قامت في هذا الجزء من بلاد العرب مَمالكُ النَّبْط، وتدمر، ودومة الجندل، والحِيرَة، والغساسنة وغيرها، وازدهرت فيه مُدُنٌ كثيرة على طُرق القوافل ومحطّات التجارة. **والقسم الثاني في الوسط**، ويضمُّ الحجازَ، ونَجْداً، واليمامة، والبحريْنِ، وكان اسمُ البحرين يُطلق على الإقليم الممتدِّ من الأُبُلَّة إلى حدِّ عُمَان، وهو إقليم الأحساء. وكانت تمرُّ خلاله طرُق التجارة الدولية، وتقوم في مُدُنِهِ وقُرَاهُ أكثرُ محطّات التجارة شُهرةً، وأشدُّ الأسواق الموسمية خَطراً. **والقسمُ الثالث في الجنوب**، ويمتدُّ من جنوب الحجاز وصحراءِ الربع الخالي إلى بحر العرب، ومن خليج عُمَان إلى مضيق باب المندب، ويشمل اليمنَ وحضرموت والمَهرة وعُمَان، وكانوا يُسَمُّون هذا الإقليم كلَّه، من عُمَان إلى نجران: اليمن[1]. وقداشتُهِر بخصب ربوعه، وتنوُّع غَلاَّتِهِ، وبراعة تُجَّاره، وكثرة مصانعه ومَتَاجِره وزُروعِهِ وأشجاره.

ولكن بعضَ الجغرافيين يقسمُ جزيرةَ العرب تقسيماً آخَرَ، يجري على النَّسَقِ التالي:

١ - تِهَامَة:

وهي غَوْرٌ ساحليٌّ يقع بين البحر الأحمر غرباً وجبال السَّرَاة شرقاً. وهي قِسْمان، أحدهما في الجنوب وهو سهل ساحلي خصبٌ جداً، فيه قرى ومُدُنٌ كثيرة ومرافىء مثل عَدَن ومَخَا. والآخَرُ في الشمال موازٍ للحجاز، وهو ساحلٌ كثيرُ الجزائر والصخور، ومن مَرافِئه جُدَّةٌ مرفأُ مكة،

---

(١) زكريا بن محمد القزويني - آثار البلاد وأخبار العباد: ٤٣.

والجارُ[1] مرفأُ يثرب «المدينة»، والوَجْهُ. . وتقع بين القسمين في الوسط تِهَامةُ عَسِير، وميناؤها القنفذة[2].

٢ ـ الحجــاز:

أو السَّراةُ، وهو إقليم جبلي كبير، يمتدُّ من أقصى اليمن حتى يتَّصلَ بالشام، وسُمِّي حِجازاً لأنه فصل بين تِهامة في مَغْربه وهضبة نجْدٍ في مَشْرقه، وامتاز بوقوعه على طريق التجارة الغربي في الجزيرة، وهو أعظمُ طرق القـوافـل، يصِـلُ مُـدُنَ الجنـوب بمـدُن الشمـال، ويُـوصِـلُ متـاجِـرَ اليمـن وحضرموت وظفار وعُمَان، ومتاجِرَ بلاد الشرق أيضاً، إلى بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من الدول. وعلى هذا الطريق قامت معظم المحطات التجارية الكبرى مثل: مكة ويثرب والطائف ومدائن صالح وتبوك والحِجْر وتيماء ومَعَان وغيرها، وفيها نشأت الأسواقُ الموسمية كعكاظ ومجنَّة وذي المجاز وحُبَاشة ونطاة وغيرها. . .

٣ ـ نَجْــد:

أوسعُ أقاليم الجزيرة، وأطيبُها هواءً، يقع بين الحجاز غرباً والأحساء شرقاً، وتحدُّه صحراء النفود في الشمال، والرَّبْعُ الخالي في الجنوب، وتَكثُر فيه الوديانُ والينابيعُ والمُروجُ الخُضْرُ والقُرى. والقسم الجنوبي الشرقي من

---

(١) الجارُ: هو اليومَ مرفأُ يُنْبع.

(٢) جاء في الحديث أنَّ «تِهامَةَ كبديع العَسَل، حُلْوٌ أوَّلُه، حُلوٌ آخِرُهُ»، شبَّهها بزقّ العسل، لأن هواءَها لا يَتَغيَّر، فأولُه طيِّب وآخِره طيِّبٌ، وكذلك العسل لا يتغيَّر، وتهامةُ في فصول السنة كلها طيِّبة، ولياليها لا تُؤذي بحرٍّ مُفْرِطٍ ولا قُرٍّ مُؤْذٍ، ومنه قولُ امرأةٍ من العرب تصفُ زوجها: زوجي كلَيْلِ تهامة، لا حَرَّ ولا قُرَّ، ولا مخافة ولا سآمةَ.

نجد يُسمَّى اليمَامَة، وكانت قديماً تُسمَّى «جَوّاً»، بمعنى الوادي الواسع[1]، وتُسمَّىٰ العَروضَ أيضاً، وهي تتصل بالأحْسَاءِ شرقاً، والحجاز غرباً، وواحةِ يَبْرينَ جنوباً. وكانت قاعدتُها مدينةَ حَجْر، ومن قُراها: منْفُوحَة، ووَبَرة، وفَلَج[2]...

٤ ـ الأحْسَـاءُ:

وكان يغلبُ عليها قديماً إسمُ هَجَرٍ أو البحرين، وهي تمتدُّ على ساحل الخليج العربيّ بين الأُبُلَّة وعُمَان، حَدُّها من عُمان ناحيةُ «جُرَّفَار»[3]، وقصبتُها مدينةُ هَجَر، وأشهر مُدُنِها: الخطُّ والقطيفُ والعُقَيْر وقَطَرُ وبَيْنُونَة ودارين وجُواثَا والزارَةُ والغَابةُ، وتُعدُّ واحةُ يبرين أيضاً من أصْقَاعِها[4]، تمرُّ بها طريق الحاجِّ من عُمَان[5]، وبينها وبين مدينة هَجَر مرحلتان أي نحو خمسين ميلاً[6]...

٥ ـ اليمَــنُ:

هو الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، يحدُّه الحجاز من الشمال، وبحرُ العرب من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب حتى مضيق

---

(١) مهد العرب: ٧٨، ومعجم البلدان: ٥/ ٢٦٢ و ٢/ ١٩٠.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٤٤٢، ٥/ ٣٥٩، ومهد العرب: ١٢١، ومعجم البلدان: ٤/ ٢٧١.

(٣) معجم البلدان: ٢/ ١٢٨ و ١٥٤، وجُرَّفار أو جُلُّفار: بلدٌ عامِرٌ بعُمَانَ، كثيرُ الغَنَم والجبن والسمن، تُجلَبُ منه إلى ما يُجاوِرهُ من البلدان.

(٤) المرجع نفسه: ٥/ ٤٢٧.

(٥) مهد العرب: ١٢١.

(٦) معجم البلدان: ٥/ ٤٢٧.

باب المندب. وهو من أغنى أقاليم العرب بالمياه والزروع والأشجار، كثير المدن والقرى، وأشهرها صنعاء ومأرب ونجران وعَدَن وبيشة وتُـرَبة وأبْها وعثر وصَبْيَا وصَعْدة وتعزّ، وفيه قامت دول العرب القديمة مثلُ معين وسبأ وحِمْيَر، وهي من أقدم مواطن الحضارة في جزيرة العرب.

٦ ـ حضـرمــوت:

تقع شرقيَّ اليمن على ساحل بحر العرب، وحولها رمال كثيرةٌ تُعرف بالأحقاف تمتدُّ بينها وبين عُمَان، أشهر مدنها شَبْوَة أو شِبَام، وتَرِيم، وأحسن مرافئها المُكَلاّ. ويقال: إن قبر النبي هود عليه السلام موجود إلى الجنوب الشرقي من تَرِيم[1]. وقد عُرف أهل حضرموت بأنهم أهلُ التجارة والاغتراب.

٧ ـ المَهَــرةُ:

إقليمٌ ساحليٌّ يمتدُّ إلى الشرق من حضرموت، ويُسمَّى شِحْرَ مَهَرة، والشِحْر معناهُ الساحلُ. وحَدُّ هذا الإقليم من الشرق قريةُ حاسِك، ويقعُ بالقُرْب منها مِرْباط وهي مرفأُ مدينة ظَفَار، بينهما نحو خمسة عشر ميلاً، وظفارُ مدينةٌ من أعمال الشِحْر، اشْتُهِرت باللُبَان، وهي غيرُ ظَفَار اليمن. وحدُّ شِحْر مَهرة في الغرب هو مدينةُ الشِحْر على الساحل بالقرب من المُكَلاَّ[2]. وكان تجارُ العرب يخترقون أرضَ «وَبَار» للوصول إلى مِرْباط وظفار في المَهرة[3]، وهي على الأرجح أرضٌ واسعةٌ كانت من منازل عاد،

(١) معجم البلدان: ٢/ ٢٨، ٣/ ٣٢٣، ١/ ١١٥.

(٢) المرجع نفسه: ٥/ ٩٧، ٤/ ٦٠.

(٣) مهد العرب: ١٢١.

تقعُ بين رِمَال يَبْرين واليمن[1]، ولعلَّ جانب الربع الخالي، المتَّصلَ بجنوب الأحْسَاءِ واليمامة كان يُسمَّى «يَبْرين»، ويقع كما أشار ياقوت على يمين مطلع الشمس من حَجْر اليمامة[2]، ومنه واحةُ يبرين التي يمرُّ بها حاجُّ عُمَان بطريقهم إلى مكة. أمّا الجانب المتَّصل بحضرموت وشَرْقِ اليمن فيُسمَّى «الأحقاف»، وما بينهما هو أرضُ «وَبَار»...

٨ ـ عُمَــان:

وهو الجزء الجنوبي الشرقيُّ من جزيرة العرب، إقليم جبلي خصيب، ساحله شديدُ الحرارة. أهله رُوَّادُ تجارة، ومَلاَّحُونَ مَهَرةٌ، خَبِروا البحار، وعرفوا أسفارها منذ قرون بعيدة. أعظم جباله الجبلُ الأخضر، وفيه ينابيع كثيرة ومياهٌ عذبة، يُحسن الناسُ هناك تصريفَها والانتفاع بها. وهم في سعة من الرزق والغَلاَّت والفواكه والثمار، دُورُهم مبنيَّةٌ بالآجُرّ والساج، وأسواقهم تُعَدُّ خزانة الصين وبلاد الشرق الأقصى وغيرها[3]. أشهر مُدُنهم: صُحَار ودَبا وتُؤَام ومسقط ونَزْوَىٰ، وكانت صُحَارُ قصبةَ عُمَان مما يلي الجبل، وتُؤَامُ قصبتَها ممّا يلي الساحل[4].

٩ ـ أمّا الباديةُ الواسعة:

التي تمتدُّ في شمالِ الجزيرة فتُتَاخِم العراق وسورية، فالقسم الشرقيُّ المتَّصلُ منها بالعراق يُسمَّى باديةَ السَّمَاوَة، والقسم الغربيُّ بادية

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٣٥٦، ولسان العرب: ٥/ ٢٧٣ (وبر).

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٤٢٧.

(٣) المرجع نفسه: ٣/ ٣٩٤.

(٤) المرجع نفسه: ٣/ ٣٩٣.

الشام[1]، والقسمُ الشماليُّ الواقعُ بين الفرات والمَوصل باديةَ أَقُور أو الجزيرة[2]... ويُلحقُ بجزيرة العرب أيضاً شبهُ جزيرة سيناء، وهي تصلها بوادي النيل وبلادِ الشام. والمراجعُ التاريخيّةُ والجغرافيّةُ تَذكُر أن جزيرة العرب كانت مُتّصلةً بقارَّة إفريقية، وكان النيلُ حدَّها الغربيَّ، ثم تأثّرت مصرُ بالخطّ الانْهِداميّ في شرقيِّها، فتكوَّن البحرُ الأحمر، وكان يُسمَّى «خليجَ العرب»، وتُسمَّى الأرضُ الواقعةُ بين ساحله الغربي والشاطىء الشرقي للنيل: الصحراء العربيةَ أو باديةَ العرب، ويُسمَّى الجبلُ الشرقي المُتاخِمُ للنيل: جبلَ العرب أو بلادَ العرب[3]...



ولم يكن بُدٌّ لهذه البلاد الواسعة، وقد ترامَتْ أطرافُها، وتباعدتْ أقطارُها، من أن تتنوَّعَ أقاليمُها، وتختلفَ مُناخَاتُها، وتَتعدَّدَ ثَمَراتُها، وتَتكاثَرَ مَعَادِنُها. فقد اقْتَسَمتْها الوِدْيانُ المُخْصِبةُ والأَنْجادُ المُعْشِبَةُ، وتَوزَّعتْها البوادي الغَبْراءُ والسهولُ الخضراءُ، والجبالُ الراسِيَاتُ والصحارى المُقْفِرات، وكان فيها حَرٌّ يكوي الأبدانَ، وريحٌ سَمُومٌ[4] تَلذَعُ الجُلودَ، ومياهٌ تغلي فتفورُ من أعمق الأغوار، وفيها ثلوجٌ تُكلِّلُ هامات الجبال، وبَرْدٌ يُجمِّدُ الدماءَ، وريحٌ صَرْصَرٌ[5] عاتِيَةٌ تهبُّ فتلسَعُ الوُجوهَ، وفيها ما بين هذه وتلك، مُنَاخٌ مُعتدلٌ، وجَوٌّ طيِّبٌ، ونسيمٌ عليلٌ، وظلٌّ ظليل... فكان من

---

(١) مهد العرب: ٣٨.
(٢) معجم البلدان: ١/ ٢٣٨.
(٣) العرب قبل الإسلام: ٤١.
(٤) السَّمُومُ: الريحُ الحارَّةُ تنفذ في مَسَامّ الجسم، أو تُؤثِّرُ فيه تأثير السُّمّ.
(٥) الصَّرْصَرُ: ريحٌ شديدةُ البرد.

الطبيعي أن تقوم المدُنُ والقُرى والأرْيَافُ في واحاتها ورُبوعها، وأن تكتنِفَها المرافىءُ والثغورُ من مُعْظم جهاتها، وأن تتوافرَ فيها المرافقُ وطرقُ المواصلات وأن يكون بها من كل الثمرات والأموال والسِّلَع والعُروض، مما تُنتِجُه أرْضُها، أو تَجْلِبُهُ من البُلدانِ الأُخرى.

ولقد كانت جزيرةُ العرب كما أَشَرْنا في موقع متوسط بين الأمم، وكانت حدودُها مُفتَّحةَ الأبواب على كل البحار الرئيسة في العالم القديم، فكانت على اتِّصال وَثيق بمُعظم دول العالم من حولها، وكان لا بدَّ أن تكون طريقاً تجتازه التجارةُ الدوليةُ من الشرق والجنوب إلى الغرب والشمال، وأن تلتقي في مُدُنها وواحاتها وأسواقها قوافلُ التجارة للبيع والشراء، وكان لا بدَّ لهذه التجارة فيها من تُجّارٍ يبذُلون من أموالهم في شرائها، وآخرين يُسْهِمون بجهودهم في نقلها وخفارتها، أو يُشاركون بخبراتهم في تَسْويقها وبَيْعها، وتنظيم أمورها وتهيئة وسائل ازدهارها، فنشأت من ذلك عندهم أسواق للتجارة، بعضها داخلي مَوْسميٌّ يقومُ غالباً مع وُصول القوافل، والبعضُ مَحلِّيٌّ دائم يقوم في وسط المُدن والقُرى. كما نشأت تجارةٌ خارجيةٌ مع دول العالم، تخرجُ من جزيرة العرب على شكل قوافلَ كبيرةٍ قاصدةً البلدانَ المجاورةَ... فالعاملُ الأولُ إذن في ظهور الأسواق الموسمية عند العرب هو الموقعُ الجغرافي لبلادهم، وطبيعةُ أقاليمها، وما تَوافَر فيها من المياه العَذْبَة بالواحات والقُرى على طول طُرق القوافل ومَنازِلها، خلال أَرْضِينَ شاسعة من الصحارى والجبال والفَلَواتِ.

* * *

الفصل الثاني

العرب والتجارة

يَـتَّفِقُ معظمُ المؤرخين على أن العربَ كانوا أَقْدَمَ تُجَّارٍ في العالم، وأن جزيرتهم كانت أَوَّلَ المواضع التي شَهِدَتْ أقدمَ حركة للتجارة بين الدول، وتَبادُلِ السِّلَع، وأن مُعْظم أُمم العالم القديم، كاليونان والروم والفُرس ومصر والحبشة والشام والعراق، كان جُلُّ اعتمادها على العرب في ما كانت تحتاج إليه من المتَاجِر والعُرُوض المختلفة[1]، ولا سيما ما كانوا يترفَّهون به في ملابسهم ومطاعمهم، كالحرير وأنواع النسيج والأحجار الكريمة والذهب والفضة، والتوابل والبخور والعُطور والأدْوية وغيرها، ومن هذه العُروض ما كان العربُ يجلبونه من بلاد الشرق الأقصى كالصين والهند وجزائر الهند الشرقية، أو من بلاد شرق أفريقية، ومنها ما كانوا يُنتجونه في بلادهم، وهو كثيرٌ، أخبارُهُ مَبْثُوثةٌ في عشرات المراجع القديمة، ويكاد يقفُ سبباً رئيساً لوحده في قيام كثير من الأسواق الموسمية!.. فقد عَرفت أقاليمُ جزيرة العرب، على تعدُّدها واختلافِ مَوَاقِعها ومُنَاخِها، أنواعاً كثيرةً من الزروع

(١) العُروضُ: ج عَرْض، وهو المتَاعُ وكلُّ شيءٍ يُنتفعُ به من عُروض الدنيا سوى الدراهم والدنانيرِ والفضةِ والذهبِ. أو كلُّ ما يَلبسُه الإنسانُ أو يَبسطه أو يستعمله مما لا بقاء له. والسِّلَعُ: ج سلعة وهي المتاعُ وكل ما يُتَّجر به. والغَلَّةُ: الدَّخل الحاصلُ من الزرع والثمر واللبن والإجارة والنتاج ونحو ذلك.

والصناعات اشتُهرت بها، وأحْسَنَتْ إنتاجَها وعَمَلَها، فسعَى إليها التجَّارُ يحملونها معهم إلى كل مكان... وقد ذكر المرزوقي أن سوق دَبَا بعُمَان، حينما ينعقد مَوْسمُها، كان «يجتمعُ بها تُجَّارُ الهند والسِّنْد والصين وأهل المشرق والمغرب. فيشترون بها بُيُوعَ العرب»[1]، وما كان يحمله إليها التجارُ عبر البحار.

ونُقِل في المراجع التاريخية نصٌّ، عن صاحب كتاب الطواف حول البحر الأريتري (٥٠ ـ ٦٠ م)، وصفَ به ما كان يتوافر في سوق مَخَا، وهي ميناء باليمن بين زَبِيد وعَدَن، من أنواع السِّلَع، كالأقمشة الأرجوانية ناعِمها وخَشِنها، والألْبسة العربية ذاتِ الأرْدان، البسيطةِ منها والمطرَّزَة أو الموشَّاة بالذهب، والأنسجة القطنية الشفَّافة، والعباءات، والأغْطِيَة، والمناطق الجلدية الملوَّنة، والحِنْطة، والخمر، والزَّعْفَران، والدُّهُون العِطْريَّة، والمُرّ، والصمغ المَعِينيّ، والذَّرِيرَةِ وهي من أنواع الطيب، والرخامِ الليّن أي المرمر[2].

وكان البخُور الذي اشتُهرت به بلادُ العرب في العالم القديم، على رأس المتاجر الثمينة التي يسعَىٰ إليها الملوكُ ورجالُ الدين والأثرياءُ، فكانت قيمتُهُ تَعْدِلُ قيمةَ الذَّهَبِ والنفطِ في العصور الحديثة... وقد نُقِل عن المؤرِّخ بلينيوس الرومانيّ المتوفىٰ سنة (٧٩ م) أنه كان يشتكي من تبذير نيرون إمبراطور رومة (٥٤ ـ ٦٨ م)، ومن إسْرافِهِ في حَرْق البخور واللبّان من أجل الشعائر الدينية التي أقيمت في جنازة زوجته، فقد كلَّف ذلك خزينة الدولة ثمناً باهظاً، نظراً لارتفاع أسعار البخُور واللبان

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٢) حِتّي وجبّور وجرجي ـ تاريخ العرب: ٨١ ـ ٨٢.

يومئذٍ[١]. وكان العربُ يُدركون شدَّة حاجة أولئك الملوك ورجال الدين والأثرياء وغيرهم إلى البخّور الجيّد الذي تُنتجه بلادُهم، وسائِر أنواع الطيب والعطور، فكانوا يُغَالون في أثمانها، ويرفعون أسعارها كلما اشتدَّ الطلبُ عليها... ويَتَبَيَّنُ من اسْتقراءِ الأخبار الموزَّعة بين عددٍ من الموارد والمراجع القديمة، أنه كانت هناك شهرةٌ واسعةٌ لكثير من العُروض والسلع، التي كان العربُ يَصْنعونها أو يُنْتجونها في بلادهم.. من ذلك مثلاً أن العطور التي كانت تُصنَعُ في بلاد العرب، لم يكن أحدٌ يعلمُ أسرارَ صُنْعِها غير العرب، فكانوا يتَّجِرون بها إلى مختلف البلدان، وقد ثبت عند بعض المؤرخين، أن بلاد فارس كانت تُصَدِّرُ عطورَ العرب إلى الصين تحت إسم «بضائع پرسي» أي بضائع فارس[٢]، مع أن الفرس كانوا يجلبونها من اليمن في قوافل تجاريةٍ خاصة، بحمايةٍ من عرب الحِيرة وحلفائهم في جزيرة العرب، ويبدو أن حرص التجار العرب على الاحتفاظ بأسرار صناعتهم وحرفتهم، ومواردهم من الحبشة والهند وغيرهما كان شديداً حتى جعل اليونان والرومان يعتقدون أن جميعَ البضائع التي يُتاجِرُ بها العربُ هي من حاصلات بلادهم[٣]... ومنه أيضاً قولُ الأصمعي: «أربعةُ أشياءَ قد مَلأَت الدنيا، ولا تكون إلا باليمن: الوَرْسُ والكُنْدُرُ والخِطْرُ والعَقِيقُ»[٤]، ولعلَّه أراد أن أجْوَدَها ما كان باليمن. والوَرْسُ نباتٌ أصفرُ، شديدُ الصُّفْرة، يُصْبَغُ به، ويُتَّخَذُ منه الزعفرانُ، والغُمْرَةُ التي يُطْلَى بها وجهُ العروس، وهو نافعٌ للكَلَفِ طِلاءً، وللبَهَقِ أو الوَضَحِ شُرْباً. والكُنْدُرُ هو الْلُبَانُ، يتحلَّبُ من شجرةٍ شَوِكَةٍ، نَافعٌ

---

(١) المفصَّل: ٢/٦٦.

(٢) علوي بن طاهر الحداد ـ المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى: ٤٢ ـ ٤٤.

(٣) تاريخ العرب: ٧٨.

(٤) القزويني ـ آثار البلاد وأخبار العباد: ٤٣.

لقطع البلغم. والخِطْرُ نباتٌ يُستعمل ورقه في الخضاب الأسود، يختضِبُ به الشيوخ. وأما العَقِيقُ فنوعٌ من الحُليّ، تُتَّخذُ منه الفُصُوصُ، واحدتُه عَقِيقَة[1]، يشبه الخَرزَ الأحمر... واشتُهِرت اليمن كذلك بنوعٍ ثمين من الحجارة الكريمة، يُسمَّى «البَقَران»، والنوعُ المثلَّثُ منه كان جميلاً جداً ونادراً، وهو ذو وجهٍ أحمرَ فوق عِرْقٍ أبيضَ فوق عرقٍ أسودَ[2]. وقد ذكر الزبيدي أن البَقَران وادٍ أو جبلٌ في مخْلافِ بني نَجيدٍ من اليمن، تُجلَبُ منه الفُصُوصُ البَقَرانيَّة[3]. واشتُهِر من الحجارة الكريمة أيضاً «لؤلؤُ البحرين» و «الدرُّ التُّوَّاميُّ» نُسِب إلى تُؤَام بعُمَان[4]، و «جَزْعُ ظَفَار»، وهو حجرٌ شفَّافٌ مصقول، فيه بيَاضٌ وسواد، تُشبَّهُ به الأعيُنُ، سُمِّيَ جَزْعاً لأن سَوَادَهُ قُطع ببَياضِهِ[5]... وظفارُ التي يُنسب إليها الجَزْعُ تقع قُربَ صنعاء، وبها كان مسكنُ ملوك حِمْيَر[6]. أمّا ظَفَارُ الأُخرى المشهورة، فهي مدينةٌ من أعمال شِحْر مَهَرة، وكان يُجْلَبُ منها إلى الصين وجزائر الهند الشرقية: اللُّبَانُ، والعَنْدَمُ وهو ثمرٌ أحمر يدخل في الأدوية، والكافورُ، وأنواعٌ من السمك المجفَّف، والتمرُ، والتوابلُ، والثيابُ الحريريَّةُ الملوَّنةُ، والمنسوجاتُ الصوفيَّةُ، إلى جانب الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والحديد والرصاص وغيرها من المعادن والعُروض[7]... وقد اشتُهرت الظهرانُ بالثياب

---

(١) تاج العروس: ٨/١٧ ـ ٩ (ورس)، ولسان العرب: ٤/ ٢٥٣ (خطر) و ٣٢٤ (زعفر)، ٥/ ٣٢ (غمر)، و ١٥٣ (كندر)، ١٣/ ٣٧٧ (لبن)، ١٠/ ٢٦٠ (عقق)، والمنجد في اللغة: ٨٩٦.

(٢) جورج حداد وراتب الحسامي ـ تاريخ الحضارة العربية: ٩.

(٣) تاج العروس: ١٠/ ٢٣٥ (بقر)، وانظر كذلك معجم البلدان لياقوت: ١/ ٤٧١.

(٤) معجم البلدان: ٢/ ٥٤، والمُفَضَّليّات: ١٩٦.

(٥) لسان العرب: ٨/ ٤٨ (جزع).

(٦) معجم البلدان: ٤/ ٦٠.

(٧) المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى: ٣٢٤ ـ ٣٢٥، وتاريخ العرب: ٧٧ ـ ٧٩.

الظهرانية، وقَطَرُ بالنَّجائب القَطرِيَّة[1]، كما نُسِبت إلى شِحْر مَهرة الإبِلُ المَهْرِيَّةُ وهي النَّجَائِبُ التي تُتَّخَذُ للأسْفار، والعَنْبرُ الشِحْرِيُّ، وأنواعٌ من الأدَم.. واشْتُهِرت عُمَانُ أيضاً بالعَنْبر، يستخرجُهُ أهلُها من بحرها، ثم يَصْنعون منه الغَالِيَةَ، وهي نـوعٌ من الطِيب مُرَكَّبٌ من عَنْبرٍ ومِسْكٍ وعُودٍ ودُهْنٍ ولُبَانٍ[2]، فكانوا يُضيفـون إلى العنبر اللُّبانَ المجلوبَ من تِهامة وظفار، والمِسْكَ المصنوعَ في دَارِين، ثم يُصدِّرونه إلى مختلف البلاد[3]، بعد صُنْعِه على النحوِ الذي ذكرنـاه. . . واشتُهرت الطائفُ بالدباغـة، وفيها كانت الأُهُبُ الطائفيَّةُ المعروكـة، تُدْبَغُ وتُليَّنُ، ويُزَالُ ما بهـا من رطوبة ونتن، ثم تُعْرَضُ للبيع والتصديـر إلى البلـدان الأخرى، وكانت «صَعْـدَةٌ بلـدَ الدُّبَّاغ في الجاهلية. . . وهي مدينةٌ عامرةٌ آهِلَةٌ، يقصدها التجار مِن كل بلد»[4]، ويشترون منها الأَدَمَ وجُلودَ البقر[5]. واشتُهرت عكاظُ بالأديم

(١) معجم متن اللغة: ٣/ ٦٧٠.

(٢) العَنْبَر: طِيبٌ يُعطي الروائحَ ثباتاً ودَوَاماً، مصدرُهُ حوتٌ كبير يُسمَّى حوتَ العنبر، يبلعُ أحياناً ما لا ينهضمُ فَيهيجُ أمعاءَهُ، فيُفرز مادةً تُغَلِّفُه فتحميه منه، ثم لا يلبث حتى يَقِيئَهُ في البحر، فيَتَلَقَّفُهُ البحّارة. والمِسْكُ: طِيبٌ مصدره نوعٌ من الأيائل يُسمَّى أَيِّلَ المسك، وهو كالغزال. يوجد المسكُ في الذُّكُورِمنه فقط، يُفْرزه في غُدَّةٍ، تُفْصَلُ عنه إذا قُتل، وتُعالَجَ حتى تصير مِسْكاً، وهو مُرُّ المذاق، رائحة المركَّز منه غيرُ طيّبة، فإذا خُفِّفَ صارت طيّبةً. والعُودُ: طِيبٌ يُتَبخَّر به، أجْوَدُهُ المَنْدَليُّ، نُسِب إلى بلد بالهند. والدُّهنُ: ما يُدهَنُ به الرأسُ من طيبٍ، وأُرَجّح هنا أنه دهنٌ يُضاف إلى مزيجٍ من الطيب ليصيرَ دُهْنياً يُدْهَنُ به للتطيُّب. واللُّبَانُ: معروف. . . والمُرُّ: مادَّةٌ طيِّبةُ الرائحة، مُرَّةُ الطعم، تُسْتخرج من شجرةٍ شَوِكَةٍ من فصيلة البخُوريَّات، تنمو في جنوب جزيرة العرب والحبشة.

(٣) الإزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤، ومعجم البلدان: ٣/ ٣٢٧، ومهد العرب: ١١٢ـ ١١٣، وآثار البلاد وأخبار العباد: ٣١ و ٣٧، ولسان العرب: ١٥/ ١٣٤ (غلا).

(٤) معجم البلدان: ٣/ ٤٠٦ و ٤/ ١٤٢، و ٥/ ٧٠.

(٥) الأَدَمُ: الجلدُ المدبوغ. والأُهُبُ: واحِدُها إهَابٌ، وهو الجلدُ لم يُدْبَغ بعدُ.

العُكـاظـيّ[١]، والبحـريـن بـالـرمـاح الخَطِّيَّـة[٢]، نُسبـت إلـى مـدينـة الخَـطّ بالأحْسَاءِ، وصُحَارُ بالثياب الصُّحَارِيَّة[٣]، وعَدَن بالمُسَيَّر العَدَنيّ وهو ثوبٌ وَشْيُهُ مثلُ السُّيُورِ أو الخُطوطِ تُعمل من الحرير، وذكر المرزوقيُّ أنّ «طِيبَ الخَلْق جميعاً كان يُعَبَّـأُ بها، ولم يكن أحدٌ يُحسِنُ صُنْعَهُ من غير العرب، حتى أن تُجَّارَ البحر لترجعُ بالطيبِ المعمولِ بعَدَنٍ، تَفْخر به في السِّنْدِ والهند، ويَرْتَحلُ به تُجّارُ البرِّ إلى فارس والروم»[٤]. . . وعُرِفت صنعاءُ بآلة الخَرزِ[٥]، وبصُنْع البَزّ والحرير، واستيراد القطن والزعفران والأصباغ لاستعمالها في الصناعة[٦]. . كما عُرفت هَجَرُ بأنواع التمور الفاخرة، وبُصْرَى بالسيوف التي تُسَمَّىٰ صفائحَ بُصرى[٧]، والحيرةُ بالسُّيوفِ الحارِيَّة، والرِّحَالِ الحارِيَّة، والأنماط الحارِيَّة وهي ضَرْبٌ من البُسُطِ لها خَمْلٌ رقيق، ومنها ما كان تُزَيِّنُ به الرِّحَال، كلُّ ذلك كان يُصنع بالحيرة[٨]. واشتُهرت اليمنُ بنوع من البُرودِ سُمِّي البرودَ المُرَحَّلةَ، لأن عليها تصاويرَ رَحْلٍ[٩]، كما اشتُهرت بإنتاج الملح البحري والصخريّ، والشبّ اليماني الذي يُستعمل لِدَبغ الجلود[١٠]. . . وكانت السِّلَعُ الرئيسةُ في تجارة قريش: الفِضَّةَ وهي من

---

(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٨ (عَكظ).

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد: ٦٠، ولسان العرب: ٧/ ٢٩٠ (خطط).

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٧٦. ولسان العرب: ٤/ ٤٤٥ (صحر).

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤، ولسان العرب: ٤/ ٣٩٠ (سَير)، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٥) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥.

(٦) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٧) لسان العرب: ٤/ ٦٨ (بصر)، والمفضليات: ٦٦.

(٨) لسان العرب: ٤/ ٢٢٥ (حير).

(٩) المرجع نفسه: ١١/ ٢٧٨ (رحل).

(١٠) المفصَّل: ٧/ ٥٢٠ و ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

أَغْلى سِلَعِهم، ومُعْظَمُ تجارتهم، وكان صفوان بن أمية[1] يحمل «آنيةً من فضة» في تجارته لمّا هاجمه المسلمون، فكان نصيبُ الرسول عليه الصلاةُ والسلام منها، وهو الخُمُس، عشرين ألفاً[2]. ومن مَتَاجرهم كذلك العطر[3]، وأنواعُ الأَدَم يحملونها من اليمن والطائف إلى الشام والعراق، وكان منها نوع عُرِف بالمَذَاهِب وهي من أجْوَدِ الجُلود وأغلاها ثمناً، يحرصُ الزعماء والأغنياء على اقتنائها إذ كانت تُنْقَش بالذهب بعد صَقْلِها. وكانوا يتجرون أيضاً بالطِيب والتِّبْر والبُرود والأسلحة ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى[4]. . . وكانت الخمرُ من أَشْهَرِ ما اتَّجَرَ به العربُ، وقد عُرِفت مُدُنٌ عربية عديدة بصُنْعِها وتصديرها مثل: غزَّة، وأَذْرِعَات، والحيرة، وأندرين وكانت جنوبيَّ حلب. واشتُهرت مدنُ الشام عامّةً بالزيت والحِنطة والخمر والزبيب، وأنواع من المنسوجات الحريريَّة والقطنية، والأواني الزجاجيّة، وكان الزيتُ المجلوبُ منها يُسمَّى الزيتَ الرِكابيَّ[5]، لأنه كان يُحمل على الإبل من الشام مع الركبان. . .

وقد اشْتُهِرَ العربُ في شكلٍ عامٍّ بتجارة العُطور والطِيبِ والمُرِّ والبَخُّور والقَرَنْفُلِ والبَلْسَم والغَارِ والقرفة والْلُبَانِ، وكثيرٍ من أنواع النبات، للأدوية والخِضَاب والأَصْباغ وغيرها، فضلاً عن الأَمْتعة والجُلود والتمر والزيت، وما تُخْرِجُه مَنَاجِمُهم من الذهبِ والفضةِ والحجارة الكريمة،

---

(١) صفوانُ بنُ أميّة الجُمَحيُّ: من أهل مكة، ومن أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، وقد أسلم بعد الفتح، وشهد اليرموك. مات بمكة سنة (٤١ هـ = ٦٦١ م).

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٣، والكامل: ٢/ ١٤٥.

(٣) الأغاني: ١٦/ ٩٩.

(٤) المفصَّل: ٧/ ٢٩٣ و ٣٠٧.

(٥) لسان العرب: ١/ ٤٣٠ (ركب).

كالزَّبَرْجَدِ والزُّمُرُّدِ والعَقِيقِ والجَـزْعِ، وما يصنعونه بأيديهم كالبُسُطِ العربية المصنوعةِ من الصوف وشَعَرِ الماعِزِ، عليها نقوشٌ وتَصاويرُ وأَصْباغٌ مختلفة[1]... وكانوا يستوردون من الأمم الأخرى، كالصين والهند وسيلان وكشمير وشرق أفريقية، سِلَعاً مختلفةً كالعَاج، وأخشابِ الصَّنْدَلِ[2]، والأبَنُوس[3]، والحرير، والفَرْو، وأنواعٍ من التوابل والأفَاويه، وضُروبٍ من الثياب والنسيج، والقطن، وريش النعام[4]... وكانوا يجلبون الزنوجَ، يَشْترونهم من أسواق النخاسة، أو يقتنصُونَهم من السواحل، ويبيعونهم في الأسواق، لحاجة البلاد إليهم في أداء الأعمال التي يأنفُ العربُ من القيام بها[5]...

وهكذا يتَّضِحُ أن التنوُّعَ في تلك السِّلَع والعُروضِ والغَلَّات، المحليَّةِ والمستوردة، مع التفاوت في أزمنة إدْراكها أو صُنْعِها، والاختلافِ في أمكنة تَوافُرِها ووجودها، لا بُدَّ أن تُؤدّي إلى نشوء تجارة مزدهرة، ثم لا بُدَّ أن تكون عاملاً في ظهور الأسواق الموسمية، ولا سيما إذا صادفت موقعاً مُميَّزاً، ومواضِعَ صالحةً، وطُرُقاً جيِّدةً للقوافل.. وفي بعض ذلك قال

---

(١) تاريخ العرب: ٧٧ ـ ٧٩، وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣، والمفصَّل: ٧/ ٢٣٤ و ٢٣٦ ـ ٢٣٩ و ٥١٢ ـ ٥١٩ و ٥٢٨ ـ ٥٢٩ و ٥٣٢، ولسان العرب: ٤/ ٥٣٥ (عبقر)، والإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٥٣٣، الترجمة رقم ٢٨١٧، وأبو المحاسن عصفور ـ تاريخ الشرق الأدنى: ٢٥٠.

(٢) الصَّنْدَلُ: شجر هندي، خَشَبُه طيبُ الرائحة، وهو من الأدوية القلبية.

(٣) الأَبَـنُوس: شجر يعيش في البلدان الحارَّة، خَشَبُهُ من أجود أنواع الخشب وأثمنها، أسودُ اللون، صُلبٌ جداً.

(٤) العرب قبل الإسلام: ٢١٢، المفصَّل: ٧/ ٢٧٥.

(٥) المفصَّل: ٧/ ٢٦٢.

الهمداني[1]: «لولا أن الله أعطى كلَّ إقليم أشياءَ مَنَعَها عن غيره، لَبطَلتِ التجاراتُ، وذَهبتِ الصناعاتُ، ولمَا اغْتَربَ أحدٌ، ولا سافر رجُلٌ، ولَتَركُوا التَّهادي، وذهب البيعُ والشراء والأخذُ والعطاء... إلا أن الله أعطى كلَّ صَقْعٍ، في أوقات مُعيَّنةٍ، نوعاً من الخيرات مَنَعَهُ عن الآخرين، لِيَرحَلَ هذا إلى بلدِ ذاك، ويَستمتعَ قومٌ بأمتعة قوم آخرين، وهكذا ينتظمُ التدبيرُ وتنشأُ التجارة...»[2]، ثم تقوم الأسواقُ في مواسِمَ مُعيَّنة، لها علاقةٌ وثيقةٌ بالفُصول التي تنضج فيها الثمراتُ، وتُجنَى الحاصلات، وتُعَدُّ المصنوعات، وتصلُ فيها من البلدان البعيدة أنواعُ الغَلَّات.

وإذ كانت التجارةُ الدولية قديماً إنما هي في مُعْظمها تجارةَ البخُور والتوابل وأنواع الطيب والعطور، وهو ما كان مُتَوافراً بكثرة في جزيرة العرب، نَباتاً أو صناعةً أو جَلْباً، كما رأينا فيما قَدَّمناهُ من الأمثلة، تبيَّن لنا بعضُ العِلَّة في اعتماد أُمم العالم القديم على العرب في توفير ما تحتاجه من تلك المَتَاجر، شِراءً أو تَبادُلاً ومُقَايَضَةً[3]... أمّا أكثرُ العِلَّةِ في ذلك فيعودُ إلى توسُّط جزيرة العرب بُلدانَ العالم القديم، في زمنٍ كانت طرُق البحار غالباً غير آمِنةٍ، تحفلُ باللصوص الذين كانوا يأخُذون كلَّ سفينةٍ غَصْباً، فضلاً عما كان في البحور من عوائقَ طبيعيةٍ، لم يكن فنُّ الملاحة يومئذٍ بلغ ما يُمكِّنُهُ من السيطرة عليها، وفوق هذا لم تكن شعوبُ أوربا تعرفُ طريقاً إلى

---

(١) الهمداني: أبو محمد، الحسن بن أحمد، المعروف بابن الحائك. وُلد بصنعاء، وأقام مدَّةً بمكة، واشتُهر بالتاريخ واللغة والشعر والجغرافية، وله كتُبٌ منها: صفَةُ جزيرة العرب، والإكليل. توفي سنة (٣٣٤ هـ).

(٢) الإكليل: ٨/ ١٢٠.

(٣) المُقَايَضَةُ: بَيْعُ عَرَضٍ من العُروض بِعَرَضٍ آخر، أي مُبَادَلَةُ شيءٍ بشيءٍ آخَرَ مُعادِلٍ له بالثمن أو القيمة، وهي كالمُعَاوَضَةِ.

بلدان الشرق الأقصى، ولا تعلم أنها مَصدرٌ لأنواع من الأفَاوِيهِ والتوابل[1] والحرير، بل كانت تعتقد أن مَوْطنَها جزيرةُ العرب! . ولذلك كانت قوافلُ العرب تحملُ إليهم متاجِرَ اليمن والهند والصين وسائر بلدان الشرق الأقصى، أو كانت قوافلُهم تعبرُ الجزيرةَ بحماية العرب ودلالتهم. ولئن ردَّ بعضُ الباحثين في الغرب تلك الحركةَ التجاريةَ العظيمة، التي شَهِدَتْها مَوَانىءُ البحرين وعُمَان والشِحْر وحضرموت وعدن، إلى عَظَمة إيران، فما كان ذلك منهم غير توهُّمٍ وغَلَط، لأن إيران نفسها كان جُلُّ اعتمادها فيما تحتاجه من المتَاجر، وكذلك في حماية قوافلها، على العرب دون غيرهم[2]. . . ولذلك كان النزاع مستمراً بين الفُرس والروم للسيطرة على جزيرة العرب، موطنِ التوابل والعُطور والبخُور، والمَمَرِّ البرّي الوحيد الصالح يومئذٍ لانتقال قوافل التجارة.

وهكذا انْحَصَرتِ التجارةُ الدوليةُ، أو كادت، في أيدي قبائل العرب وأسواقها، وسارت طرُق القوافل عَبْر ربوعها ووِدْيَانها، وقامت محطاتُ التجارة الكبرى في مُدُنها وقُراها.

* * *

(١) التوابِلُ: ما يُطيَّبُ به الطعامُ كالفلفل والقرفة والزعفران وغيرها، والأفَاوِيهُ: ما يُعالَجُ به الطِيبُ من ضروب الرياحين والعطور.

(٢) المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى: ٣٠، ٣٢ ـ ٣٣، ٤٣ ـ ٤٤، وتاريخ العرب قبل الإسلام: ٢١٢، وفجر الإسلام: ١٣.

الفصل الثالث

طرق التجارة والقوافل

لم يكن بُدٌّ، وجزيرةُ العرب على ما قررنا في موقعها الجغرافي المميَّز من العالم القديم، وفي مركزها التجاري المتفرِّد بين الأمم، من أن يكون بها طرُقٌ صالحةٌ لمسير القوافل[1]، ما دامت الممرَّ البريَّ الوحيدَ وقتئذٍ لتبادل المتاجر والسلع بين الدول، وتأمين انتقالها إلى كل منها.

ومن المعلوم أن وجود طرق صالحة لقوافل التجارة في جزيرة العرب، لم يكن من الأمور التي تقعُ اتفاقاً أو مصادفةً، ولا كان في الوقت نفسه اختياراً مَحْضاً خاضعاً لرغبة التجار، وحرية أرباب القوافل وقادتها، فالجزيرة كما قدَّمنا واسعةٌ، مترامية الأطراف، كثيرةُ الفَلَوات والمجاهل والجبال الوعرة، فكان لا بُدَّ لمن يقود قافلةً أن يسلك بها طريقاً واضحَ المعالم، بعيداً من مجاهل الصحارى ووعورة الجبال، تتوافَرُ فيه الآبار أو الينابيع للتزوُّد بالمياه، ويمرُّ بمنازِلَ مأهولة في مراحِلَ مُعيَّنة، ويتوقَّفُ في محطات تقع على المراكز الرئيسة للحياة في أرجاء الجزيرة، وهي غالباً قُرى ومُدُن تنشأُ على طول الطريق.

---

(١) القوافل: إذا كانت فيها إبلٌ وخيلٌ وحَمِيرٌ تحملُ الميرةَ فهي العِيرُ، والميرةُ: الطعامُ والمُونَةُ. فإذا كانت تحمل أزْوادَ قوم خرجوا لحرب فهي القَيْروانُ، فإذا كانت راجِعةً إلى حيث انطلقت فهي القافِلةُ لا غير، فإذا كانت تحملُ البَزَّ والطِيبَ فهي اللطيمة. «فقه اللغة للثعالبي»: ١/ ٢٢٣».

طرق التجارة والقوافل في شبه جزيرة العرب

وقد ظهر للمؤرخين أنه كانِ في جزيرة العرب قديماً، طريقان رئيسَانِ للقوافل بين حَدَّيْها الجنوبي والشمالي، وذكروا أنهما كانا ينطلقان من مدينة «ظَفَار مَهرة»، أكثرِ المواضع شهرةً بإنتاج أَجْوَدِ أنواع البخور واللبان، فكان أحدُهما يأخذُ إلى الشرق، والآخَرُ إلى الغرب، مُبْتعِدَيْن عن صحراء الربْع الخالي. فأمّا الأولُ فيمضي مُتاخِماً سواحلَ عُمَان، ثم يمرُّ بالسَّبَخَةِ وكانت من قُرى البحرين[1]، فقَطَر فالعُقَيْر فهَجَر فالقَطِيف، وينعطفُ هنالك غرباً مَن يُريدُ التوجُّهَ إلى قُرى نجد والحجاز عن طريق بُرَيْدة ـ فَيْد، ثم إلى مُدُن الشام، ويمضي طريقُ الشرق صُعُداً إلى عَبَّادان فالأُبُلَّة فالعراق، ثم ينتقل إلى تدمر، ومنها إلى صُور وغزَّة، وغيرهما من مُدن الشام.. وأما طريقُ الغرب، فيمضي من ظَفار سالكاً وادي حضرموت إلى شَبْوَة، أو شَبَام، ثم إلى مأرب، فصنعاء، فصَعْدَة، فنَجْرانَ، فبِيشَة، فتُرَبَة، فالطائف، فمكة، ثم يمضي شمالاً، فيمرُّ بيَثْرِب، ثم يسلك وادي القُرى إلى مدائن صالح، فالبتراء حيث تَتَشعَّبُ الطرُق إلى الشام وفلسطين والعراق ومصر[2].

وقد كانت بالجزيرة أيضاً طرُق داخلية كثيرة، كالطريق الذي يصلُ مكَّةَ بالطائف، مارّاً بقرن المنازل، أو مارّاً بعرَفات، فبَطن نُعمان، فعقبة حِرَاء[3]، فالطائف. أو الطريق الذي يربطُ مكة بالقطيف، دائراً حول الحدّ الشمالي للرَّبْع الخالي، مارّاً بِفَيْد، أو اليمامة. أو الطريق الذي يصلُ اليمامةَ في نَجْدِ

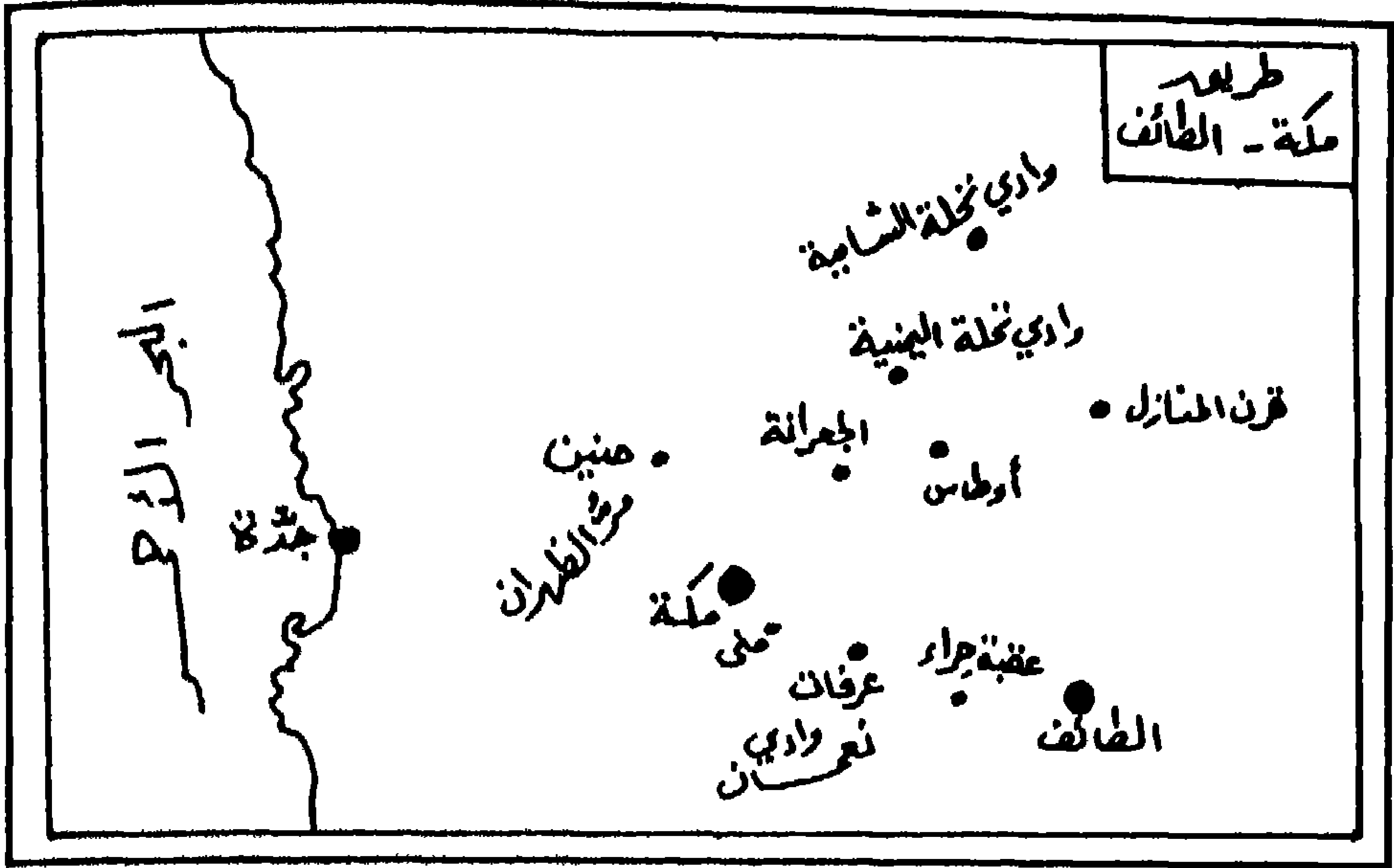
---

(١) معجم البلدان: ٣/ ١٨٣.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢١٣ ـ ٢١٤، وفجر الإسلام: ١٢، والمفصَّل: ٧/ ٣٣١ ـ ٣٦٤، والشعراء الصعاليك: ١٢١ ـ ١٢٦، وتاريخ الحضارة العربية: ١٠، وتاريخ العرب: ٨٢.

(٣) عقبة حِرَاء: وهي غير جبل حِرَاء بمكة، وتقعُ على مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصفِ يومٍ للهابط من الطائف.

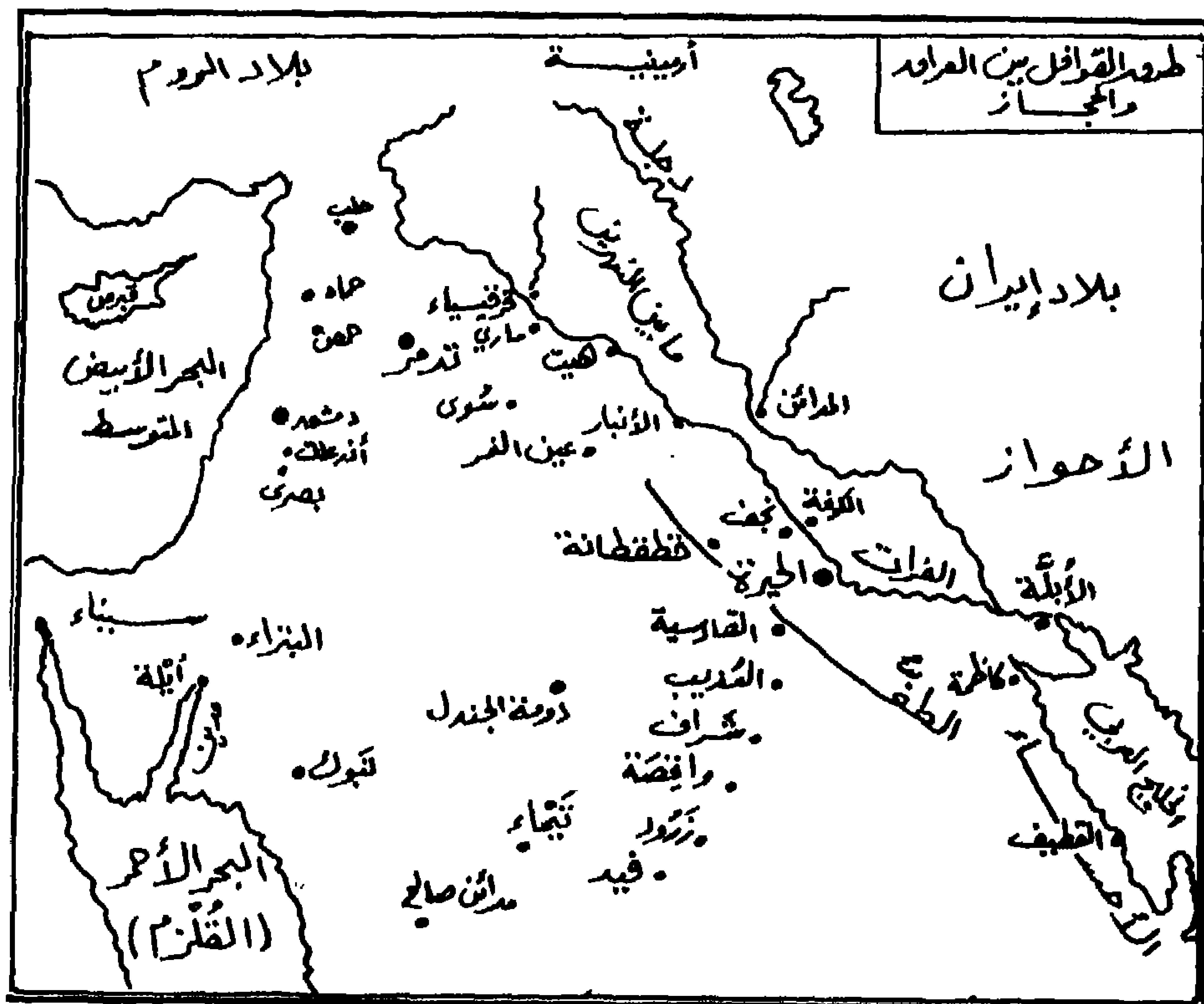
بالأُبُلَّة على شَطِّ العرب، ماراً بالنِباج والصِمَّان وكاظمة.



وكان مَن يريدُ، من أهل الجزيرة في الجاهلية، قَصْدَ العراق أو الشام، يَسِيرُ مُحاذِياً نهر الفرات، كيلا يبتعدَ عن الماء والغذاء والحواضر، ثم يَسْلكُ الطرق الشمالية التي مهَّدها الروم بين العراق والشام، وكانت تحت سيطرتهم غالباً، وقد تقع أحياناً بأيدي الفُرس. وكان الرومُ يَتَشدَّدُون في مراقبة مَن يسلكها مِن التجار والقوافل، سواءٌ أكانوا قادمين إلى الشام، أو مُغادِرين إلى العراق، لما كان لها من قيمة اقتصادية وخطر عسكري. وكانوا يخرجون من الحيرة إلى بلاد الشام، من طريق القُطْقُطانَة، وهي موضعٌ به عينُ ماء، يقع غربَ الحيرة، في الطَّفِّ المُشْرِفِ من أرض العرب على ريف العراق، ثم يتجهون إلى أذرعات، ومنها إلى دمشق. أو يخرجون من العراق إلى الشام، من طريق عين التمر، ويمرُّون بِسُوَىٰ، ثم إلى بُصْرى. وكان من يريدُ بلاد العرب الشرقية مِن أهل العراق، يبدأ من الأُبُلَّة على شطّ العرب، ويُساحِلُ

خليجَ العرب حتى يصل إلى عُمَان، مارّاً بعبادان، وهَجَر، والعُقَيْر، وقَطَر، والسَّبْخَة(١). ولكن طريق البحر كانت أكثر سهولةً ويُسْراً.

وكان هنالك طريقٌ بين الحيرة وعكاظ، يمرُّ بالقادسيّة، فالعُذَيْب، فشَراف، فواقِصَة، فزَرُود، ففَيْد، ثم يأخذ على وادي الرِّمَّة، فخَيْبَر، فوادي القُرى، فيَثْرب، ثم إلى مكة، فالطائف، فعُكاظ. وطريقٌ آخَرُ بين الحيرة ومكة، يمرُّ بدُومَة الجَنْدل، فتَيْماء، فخَيْبَر، فيثرب. وطريقٌ بين عُمَان ومكة، يُسَايِرُ الساحلَ، ويمرُّ بالشِّحْر، فالمُكلاَّ، فعَدَن، فالمَخَا، فزَبِيد، فَعَثَّر، فجُدَّة، ويتَّجهُ منها إلى مكة، وهو طريق، ذكر ياقوت أنه صعبٌ وَعِرٌ،



(١) المفصَّل: ٧/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣، ومعجم البلدان: ٤/ ٣٧٤ و ٤/ ٣٥ ـ ٣٦.

وطويلٌ، فكانوا يأخذون طريق البحر غالباً من عُمَان إلى جُدَّة، فمكَّة[1]. . . وكان بَدْرٌ طريقَ رُكْبَان قريش مَن أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام[2].

وفي حديث قريش بعد وقعة بدرٍ الكبرى أنها «خافت طريقَها التي كانت تَسلُكُ إلى الشام. . . فسلكوا طريق العراق، وخرج منهم تجارٌ فيهم أبو سُفيانَ بنُ حرب، ومعه فضَّةٌ كثيرة وهي عُظْم تجارتهم، واستأجروا رجُلاً من بكر بن وائل. . . يَدلُّهم على الطريق. . . وقالت قريش يومئذٍ: قد عَوَّرَ علينا محمدٌ مَتْجرَنا وهو على طريقنا. . . وإن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا. . .»[3]. وهذا النصُّ يؤكدُ خَطَرَ طرُق التجارة عند العرب، وضرورةَ بقائها آمنةً سالكةً، كما يُشِير إلى تَعدُّدِها وإمكانِ الاخْتيارِ بينها لما هو أكثر أَمْناً وفاقاً للأحوال السائدة أو الطارئة.

* * *

على أن طُرقَ البرِّ، وإن كانت أكثر أمناً وأسهلَ مدخلاً من طرق البحر[4]، لكنها طويلةٌ، ولم تكن تخلو في بعض نواحيها من المخاطر والصِّعَاب، شأنُها في ذلك شأنُ سائر بلاد العالم كافةً! ولكن العرب عكفوا عليها، فأحاطوها بكثير من الرعاية، وتَحوَّطوا من مخاطرها بتوفير الحماية اللازمة للقوافل التي تسلكها، وأَصْحَبُوها برجالٍ يخفرونها طولَ الطريق، وعقدوا الأحلافَ والمواثيق مع القبائل التي تمرّ الطرُقُ بمنازلها، لحمايتها، ورَدِّ الأذَى عنها، وجعلوا لها في ذلك جُعْلاً[5]، يُدفع إليها عَيْناً أو نقداً، أو

(١) معجم البلدان: ٥/ ١٨٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٢.
(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢١٣.
(٥) **الجُعْل والجُعَالَةُ**: ما جعلتَهُ للعامل أجراً على عمل خاصّ.

جعلوا لها نَصِيباً في المتْجَر ربما عاد عليها بقَدْرٍ من الربح أكبرَ من الجُعْل... وكثيراً ما كان الخفراءُ يُعِيدُون الجُعْلَ إلى أصحابه، إذا ما عدا عادٍ على القافلة، ولم يستطيعوا له رَدّاً[1]... وجعلوا في المفازات أعلاماً مرفوعةً يُهتَدى بها، يُسمَّى الواحدُ منها نَعَامةً[2]. وكأنه شُبِّه بالنعامة في ارتفاعها! كما عالجوا مشكلة طول الطرُق في الصحراء، فقسموها إلى مَراحِلَ، والمرحلةُ عندهم مسافةٌ يقطعُها المسافِرُ في نحو يوم، واليومُ يُساوي أربعةً وعشرين ميلاً[3]، وأقاموا عليها محطاتٍ، جعلوا فيها مرافقَ وعُدَداً تُعِينُ القوافلَ على صِعَابِ الطرق، وقد ذُكر في هذا الأمر أنه كان بين اليمن وبلاد الشام ومصر طرُقٌ خاصَّةٌ بالقوافل، أُنْشِئت بها محطاتٌ، يخفرها زعماء البادية[4]. ويبدو أن معظم هذه المحطات أُقيم على مواضِعَ مُقدَّسة، نُصِبَت فيها أصنامٌ وتماثيلُ وحجارةٌ وغيرُها من الأنْصَاب التي كان العربُ يُعظِّمُونَها[5]، أو يتقرَّبُون بها إلى الله زُلْفَى، وهو ما أضْفَىٰ عليها حُرْمَةً وأَمْناً. وقد تطوَّر فريقٌ من هذه المحطات فصار قُرىً ومُدُناً ومراكز تجاريَّةً رئيسةً لا بُدّ لقوافل التجارة من أن تمرَّ بها. ولهذه العِلَّة حَقَّقَتِ الطرُق التجارية للعرب «فائدةً كبيرةً، وفتحت لهم باباً للرزق كبيراً، فمنهم من كان يسكن المدنَ الواقعة على الطريق فيتاجر لنفسه، ومنهم من كان يُستخدَمُ في قوافل التجارة سائقاً أو حارساً أو دليلاً»[6].

---

(١) فجر الإسلام: ١٣.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٥٨٣ (نعم).

(٣) معجم متن اللغة: ٢/ ٥٦٤، والمنجد: ٢٥٣.

(٤) مجلة الكتاب القاهرية ـ المجلد ١٢/ ١٩٥٣ م: ٧٢٠ ـ ٧٢١.

(٥) المفصَّل: ٧/ ٣٨٣، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢ و ٥/ ١٨٥.

(٦) فجر الإسلام: ١٣.

وقد ذُكر في هذا الصَّدَدِ، أن التجّار كانوا يخرجون بمَتَاجِرهم في قوافِلَ عظيمةٍ، مع اسْتِعدادٍ كبير، وحِيطةٍ واسعة، تَتقدَّمُها طائفةُ الكشّافة تكتشفُ ما قد يكون في الطريق، يتبعهم الأدِلاَّءُ يُرشِدُونها إلى المسالك الصالحة، ويكتنِفُها من جانِبَيها ومن خَلْفِها الحُمَاةُ والخُفَراءُ يحرسونها، ويدفعون عنها الأذَى إن أصابها[1]. . . فكانت القافلةُ من هذه القوافل تشبه الجيش، وقد ذكر الطبريُّ أن إحدى القوافل بلغت أَلْفَين وخمس مئة بعير، يحرسها مئة رجُل من قريش[2]. وكان من تقاليدهم أن يكون لكل قافلة رئيس من أشراف القوم، أو قائدٌ كقادةِ الجيوش، يخضع له كلُّ مَن في القافلة سواء أكان تاجراً أم مسافراً، وكان من هؤلاء الرؤساء أجْوادٌ كِرام، إذا كانوا على رأس قافلة لم يَخْتَبز معهم أحدٌ ولم يطبخ، لأنهم كانوا يُطعمون المسافرين والمتاجرين على موائدهم، ولذلك سَمَّتْهُم العربُ: أزْوَادَ الرَّكْب[3]. . . وقد أَهَّلَهم للنجاح في التجارة وقيادة قوافلها عِلْمُهم بالصحراء وسُبُلِها، ومَوَاضِعِ الأمنِ والخوفِ فيها، وقُدرتُهم على احتمالِ القيظِ وعَناء السفر وجفاف الأرض، وحِرْصُهم على الوفاء وأداء الأمانة إلى مَن إئتَمنَهم عليها من أصحاب المتاجر.

ولم تكن قيادةُ القوافلِ أمراً خلْواً من كل شرط، فهي لا تُناط عادةً إلا بالشجعان الأقوياء، الأجْوادِ من أشراف القوم وزعمائهم، وأهل البيوتات الذين عُرِفوا بالحكمة، ورباطة الجأش، وقوة العزيمة، وبُعْدِ النظر، ففي القافلة أموالُ الناس ومصدرُ أرزاقهم، وعلى قيادة رئيس القافلة، وحُسْنِ

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، وفيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٤٣٣، وفجر الإسلام: ١٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٧.

(٣) المحبَّر: ١٣٧، واللسان: ٣/ ١٩٨ (زود).

تصريفهِ شؤونَها في الطريق، يتوقَّفُ مصيرُها. وقد وجدنا في أخبار الجاهلية، أن ملوك الحيرة، وكذلك ملوكُ الفُرس، كانوا يُتاجِرون في الأسواق، ويُرسلون إليها قوافل مَلأَى بالبضائع الثمينة ولم يكن سلطانُهم طبعاً يمتدُّ ليشملَ مختلف المواضع، ليأمنوا بذلك على أموالهم ومتاجرهم، فكانوا يختارون لقيادة قوافلهم من أشراف العرب وسَادَتهم من يَرَوْن فيه الشجاعةَ والحكمة والكفاءةَ لقيادتها وإيصالها بسلام إلى الأسواق كلما أقبلت مواسِمُها[1]. . . ولاحظنا أن أهلَ مكة، حينما تقاسموا وظائفَها، جعلوا قيادة القوافل والحروبِ واحدةً، وكانت في بني أمية[2]، وأن أهل تدمر كانوا يُكرِّمون قادةَ القوافل، ويصنعون لهم تماثيلَ تُرفَعُ على أعمدة في الشوارع، تخليداً لذكراهم، ويمنحونهم ألقابَ الشرف تقديراً لخدماتهم وحسن قيادتهم. وكان لقبُ «رئيس القافلة، أو شيخها»، ولقبُ «رئيس السوق» من الألقاب المستعملة في الجاهلية[3].

وقد أدَّى بهم حِرْصُهم على وصول قوافلهم بسلام إلى اعتقادهم بوجود إلَهٍ خاصٍّ بالقوافل، يَرعاها ويَسْهرُ على حمايتها، فكانوا يتقرَّبون إليه، ويُقدِّمون له النُّذُورَ والقَرابين، رجاءَ أن يحميَ قوافلهم وأموالهم، أو شكراً له على سلامتها وعَوْدَتها غانمةً.

* * *

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٣٠ ـ ٣١.

(٣) تدمر والتدمريون: ١٠٦ ـ ١٠٨، وتاريخ العرب: ١١١.

الفصل الرابع

المحطات التجارية الكبرى في بلاد العرب

يَتّفِقُ المؤرِّخون على أن عرب الجنوب كانوا منذ العصور القديمة يحتكرون الأعمال التجارية في جزيرة العرب، وظَلُّوا يُمسِكون بأَزِمَّةِ التجارة الدولية زماناً طويلاً، كانت قوافلُهم خلاله، وكذلك مَواكبُهم، تحملُ مَتاجِرَ اليمن وحضرموت والشِحْر وظفار وعُمَان وسائر بلاد العرب، فضلاً عن عُروضِ الصين والهند وجاوة وجاكرتا وسومطرة وشرق أفريقية، وتنقلها إلى بلاد الشام والعراق ومصر والحبشة، ثم تُنقل من هناك إلى الأُمم الأخرى كاليونان والرومان والفرس وشمال إفريقية وغيرها، يحملها إليها تجارُ الشام وبلادِ حوض البحر الأبيض المتوسط.

كان أهلُ اليمن وحضرموت والشِحْر تُجّارَ العرب، ورُوّادَ السفر والاغتراب منذ قديم الزمن، امتدَّتْ رحلاتُهم إلى بلاد الشرق الأقصى، وكانوا صِلةَ الوصل بينها وبين جزيرة العرب[1]، ويوجد اليوم بدار الآثار في «جاكرتا» بأندونيسيا حجرٌ ضخمٌ، عليه نقشٌ بالخطّ الحِمْيريّ المُسْنَدِ، تبين أنه من أصل بناء حجريّ كان مركزاً تجاريّاً أقامهُ عربُ الجنوب! وهذا يؤكد أن العرب كانوا هناك منذ ما قبل الميلاد، ينقلون إلى الشرق الأقصى

---

(١) مهد العرب: ١١٣.

سِلَعهم، ويحملون منه ما يُنْتِجهُ من العُروضِ والمتاجِر[1]. وكانت بينهم وبين الهند علائقُ تجاريةٌ قديمة لا يُعرف أَوَّلُها، فكان ما يحتاج إليه المصريّون والآشوريّون والفينيقيُّون وغيرهم من مَتَاجِر الهند، يحملُهُ إليهم تُجَّارُ اليمن على مراكب البحر أو قوافل البرّ[2].

وقد ظلَّت أعمالُ التجارة حكراً على العرب، تَتداوَلُها أيديهم كلما قامت لهم دولةٌ في الأزمنة القديمة، فكانت ممالكُ مَعِين وسبأ وحضرموت وقتبان وحِمْيَر وغيرها من الدول التي قامت في جنوب جزيرة العرب، مراكزَ التجارة الكبرى في العالم، وكانت أسواقُها المحطات الرئيسةَ على طرق التجارة الدولية، حتى انتقلت في نحو القرن الخامس الميلادي إلى الحجاز.

المطلب الأول ـ دولةُ مَعِين:

تُعَدُّ دولةُ مَعِين من أقدم دُول العرب التي بَلَغَتْنا أخبارُها، ويُرجِّح بعضُ المؤرخين أنها ظهرت إلى الوجود في زمن قديم جداً، ولكنها ازدهرت بين (١٣٠٠ ـ ٦٣٠ ق. م). وكان موقعُها في منطقة الجوف التي تمتدُّ بين نجران وحضرموت، وعاصمتُها مدينة «قَرْنُو ـ القَرْن». وتُشير نقوشٌ وآثارٌ مَعِينِيَّةٌ متعددة، اكتُشِفت في مواضعَ كثيرةٍ. إلى أن دولة مَعِين كانت تحتلُّ مركزاً تجارِياً كبيراً، وأن قوافلها وصلت إلى بلاد الشام والبحر المتوسط ومصر، وكانت لها جالِيَةٌ بمصر، لعلها كانت تقوم بدَوْرِ الوساطة التجارية بين مصر ومَعِين. وتؤكد بعضُ الآثار التي اكتُشِفت في جزيرة ديلوس وصولَ المَعِينيّين إلى الجُزُرِ اليونانية، وإقامتَهم بها، واتّجارَهم مع اليونان بواسطة جاليةٍ كانت

---

(١) المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى: ٤٤ و ٣٧٢.
(٢) العرب قبل الإسلام: ٢١٢.

تستوطنُ الجزيرة، وتتعاون مع اليونانيين في تصدير حاصلاتهم إلى بلاد العرب، واستيراد حاصلات العرب والهند وإفريقية وغيرها من البلدان[1].

وكان المَعِينيُّونَ يسيطرون على مُعْظم وادي القرى، وكانت لهم هنالك مراكز شيَّدوها لحماية قوافل التجارة التي تمرُّ بين اليمن والشام، منها مدينةُ «مَعَان» في شمالي الحجاز على مشَارِفِ الشام، وكانت مركزاً تجارياً وسياسياً لدولة مَعين، مُزَوَّداً بالمسَالح والخفراء، لحماية قوافل التجارة المعِينيَّة، ومخازنِ أموالها ومَتَاجِرها في مَعَان والعُلا والحِجْر وغيرها من المدن الواقعة على طريق وادي القُرى، والتي كانت تخضعُ لسلطان دولة مَعين، وهو ما كشفت عنه آثارُها في تلك المواضع، ومواضعَ أُخرى كثيرة، وأكَّدت سيطرتها على الطريق الغربي للقوافل في جزيرة العرب، وعلى المناطق التي تَمرُّ بها... وكان تجَّارُ مَعين، كغيرهم من شعوب العالم وقتئذٍ، يتعاملون في بيُوعهم بالمقايضة، أو بالنقود، وكانت لهم نقودٌ خاصَّةٌ ضَرَبُوها في بلادهم، وكانوا في الوقت نفسه يتعاملون بالنقود الأجنبية من فضةٍ وذهب.

وقد أَطبق المؤرخون على أن أهل مَعِين كانوا يعيشون حياةً مُتْرفةً، تزدانُ مدنُهم بالقصور الفخمة والهياكل الضخمة، وهو ما توقَّف عنده كتَّابُ اليونان والرومان بإعجاب كبير جعلوا العربَ معه أغْنَىٰ شعوب العالم[2]... ثم بدأ الانحلالُ يفتك بدولتهم، والضعفُ يُصيبُ حُكامَهم، فاستطاع جيرانُهم ملوك سبأ، وهم في أوج مجدهم، أن يَمُدُّوا سلطانَهم إليهم إلى أن قَضَوْا على حكومتهم، فانتهى دورها.

---

(١) المفصَّل: ٢/ ٧٧، ١٢٤، والعرب قبل الإسلام: ١٥٠.

(٢) العرب قبل الإسلام: ١٥٣، والمفصَّل: ٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦ و ٢٤٦، وتاريخ العرب: ٧٨ و ٨٧ ـ ٨٨.

المطلب الثاني ـ دولة سَبَأ:

عاصرت مملكةُ سَبَأ في قسم كبير من تاريخها دولة مَعِين، وقد ثبتَ من بعض النقوش أن قوافلها التجارية كانت في القرن العاشر ق. م تصلُ إلى بلاد الشام، مما يشير إلى أن أهلها كانوا أصحابَ تجارة وأسفار... ومعنى ذلك أن نُشوءَها يعود إلى ما قبل القرن العاشر ق. م، ولكن المؤرِّخين يذكرون أن ازدهارها كان بين (٧٥٠ ـ ١١٥ ق. م).

وكانت مملكةُ سبأ تقع جنوبَ نجران في اليمن، وقد اشتُهرت بالعُمران والبناء وإقامة السُّدود والمعابد الضخمة، وكانت عاصمتُها «مأرب» أعظمَ مُدُن اليمن، تقعُ على بُعد ستين ميلاً من صنعاء، تلتقي عندها طرق التجارة التي تصل بلدان البخور واللبان بغَزَّة وسائر مرافىء البحر المتوسط. وكان أعظم ما فيها سدّ مأرب، فهو من عجائب الفن الهندسي التي تشهدُ بارتقاءِ العرب وعنايتهم بأعمال الزراعة إلى جانب حرصهم على النشاط التجاري، فكانت المملكة التي أقاموها دولةً تجاريةً اقتصاديةً، لا دولةً حربيةً، وكان أهلُها مجتمعاً مُحِبّاً للسلام، عريقاً في الحضارة، مُتَفوِّقاً في الأعمال الفنية، تفوُّقَه في أعمال التجارة.

وقد سَبَر السبئيون غَوْر البحار المحيطةِ بهم، فعرفوا طُرُقَها وتَعرُّجَاتِ سواحلها ومَوَانيها، وسيطروا على رياحها، فاحتكروا تجارة البحر ردحاً طويلاً من الزمن قبل الميلاد، بينما كان بحّارةُ اليونان والرومان يَروْن الإبحَار في تلك المناطق أمراً صعباً مكروهاً. وسيطر السبئيون كذلك على طرق البر، فكانت طريقُ التجارة تنطلق من حضرموت إلى مأرب وتمرُّ بمكة، ثم تصل إلى البتراء، ومنها تتشعَّبُ إلى الشام ومصر وما بين النهرين[1]. وبذلك كانت

(١) تاريخ العرب: ٨٢، ٨٧ ـ ٨٨، والمفصَّل: ٢/ ٢٦٠ و ٢٦٤.

عُروضُ العرب وسِلَعُهم، وما كانوا يجلبونه بمراكبهم، أو يُجَلبُ إليهم من الهند وجاوة والصين وغيرها من بلدان الشرق وشرق أفريقية، تُنقَلُ على قوافل السبئيين إلى مصر والشام والعراق، ثم إلى بلاد فارس والروم.

وما زالت مملكة سَبَأ في تَرفٍ وازدهار وعُمران حتى اشتدَّ سلطانُ جيرانهم بني حِمْيَر، أصحابِ «ريْدان»، أي ظَفَار الواقعة على الساحل شرقَ حضرموت، وهم في الأصل فرعٌ كبير من السَّبَئيّين. ولعلَّهم اتَّحدُوا معاً في دولة واحدة في بداية الأمر، فصار ملكُ سبأ يُسمَّى «ملك سبأ وذو ريْدان»، وكان ذلك أواخر أيام دولتهم، فما لبثوا حتى انتقلت الحكومةُ إلى حِمْيَر[1].

المطلب الثالث ـ حَضرموتُ وقتبان:

ومن الدول التي عاصَرتْ دَوْلتَيْ مَعِين وسَبَأ مملكةُ حضرموت، وقد كانت أيضاً من مراكز التجارة الكبرى في جزيرة العرب. ومع أن مبدأ ظهورها لم يُحدَّدْ بعدُ، إلا أن بعض الآثار تعودُ بتاريخها إلى ما قبل القرن العاشر ق. م[2]. . . وقد عَثر المُنَقِّبون في مدينة «شَبْوة» عاصمتها، على آثار القصور والمعابد وأَقْنِيَة المياه وبَقَايا السدود التي كانت قائمة بها، وهي تَدلُّ على شِدَّة عنايتهم بعُمران بلادهم ورَيِّها وزراعتها، كما تبيَّن من بعض النقوش المكتشَفَةِ أن ملوكها كانوا يستقبلون وفودَ الدول في عاصمتهم، وقد عُرِفَ منها وفودٌ كانت من الهند، وتدمر، ومن بني إرَم، ومن قريش. . . وذلك يُشِيرُ إلى ما كان لدولة حضرموت من علائق بالدول والأقوام الأخرى، لعلَّها في مُعْظمها علائقُ تجاريةٌ واقتصادية. يؤكد هذا شُهْرَتُها عند اليونان

(١) العرب قبل الإسلام: ١٦١ ـ ١٦٤.
(٢) المفصَّل: ٢/١٣٦.

والرومان بالتوابل والأفَاويه، كما اشتُهرت بأنها أرضُ البخور واللبان، ويؤكده أيضاً السفُنُ التي عُرِف أنها كانت تَرسُو في موانئها، أو تُبحِرُ منه في أسْفَارِها بين حضرموت وموانىء شرق إفريقية، وعُمان، وفارسَ، والهند. . . فضلاً عن وقوعِ عاصمتها شَبْوَة على طريق التجارة الذي يمرُّ بمأرب ثم صنعاء، والطريقِ الآخر، الذي يمرُّ بمدينة «تمْنَع» عاصمة مملكة قتبان، ثم ينتهي بعَدَن.

ويبدو أن مملكة حضرموت عاشت زماناً طويلاً، قبل أن تَتَقوَّضَ حكومتُها أواخرَ القرن الثالث الميلادي، حينما اندمجت بدولة حِمْيَرَ، وصارت من ضمن البلاد التي يحكمها ملوكُ حِمْيَر[1].

ومن الدول التي عاصَرتْ دَوْلَتَيْ معين وسبأ في قسم كبير من زمن وجودهما، وتُعَدُّ كذلك من مراكز التجارة في بلاد العرب الجنوبية: مملكةُ قتبان، وكان مَوْضعُها جنوبيَّ سبأ، في الأجزاء الغربية من جنوب جزيرة العرب، وتمتدُّ منازلها حتى باب المندب، وتقع عاصمتُها «تمْنَع» إلى الجنوب الغربي من مدينة «مأرب». وقد أكدَّتِ الآثارُ المكتشَفَةُ أن مملكة قتبان كانت دولةَ تجارةٍ، كما وُجِدت في نقوشها نصوص تشريع مُتَقدِّمٍ، ينظم فيها أعمال المتاجرة وطرُقَ تسديد الضرائب[2]. وعدَّ ياقوت قِتْبانَ من نواحي عَدَن[3].

---

(١) المفصَّل: ٢/ ١٤٥، ١٥٣ ـ ١٥٤، وتاريخ العرب: ٦٤، ٨٩.

(٢) العرب قبل الإسلام: ١٦٦ ـ ١٦٧، والمفصَّل: ٢/ ١٩٦.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ٣١٠.

المطلب الرابع ـ دولةُ حِمْيَر:

كانت «حِمْيَرُ» في عصر الميلاد من القبائل العربية المعروفة في جنوب جزيرة العرب، تحدَّث عنها كتَّابُ اليونان والرومان، وذكروا أنها كانت أكثرَ الشعوب العربية عَدَداً. وكانت منازلُها أولاً منطقة «رَيْدان» في المواضع الوسطى من جنوب الجزيرة على بحر العرب. ثم غلبَ على هذه المنطقة إسمُ «ظَفَار»[1]، وكانت فيما أرى حاضرةَ ملوكها، وأعظمَ مُدُنها، ثم اتَّسَعت منازلُها، وامتدَّتْ ما بين البحر الأحمر غرباً، وحضرموتَ شرقاً، وسبأ شمالاً، وبحر العرب جنوباً، وكان ملوكُها يُلقَّبُون بالأذْواءِ، يُقال للملك منهم: ذو رَيْدان[2].

ويرى بعضُ الباحثين أن سنة (١١٥ ق. م) هي مبدأُ ظُهور حِمْيَرَ ودَوْلتِهم إلى الوجود، بدليل أنهم كانوا يُؤرِّخون بها، ولولا أهميّتُها عندهم ما جعلوها بدايةً لتاريخهم[3]... على أنهم كانوا ما يزالون وقتئذٍ في نزاعٍ مع السَّبَئِيِّينَ سيطروا خلاله على مَأْرِب، ثم أُخْرِجوا منها عدَّة مرات... وقد كان ملوكُهم يتلقَّبُون بلقبِ مَلكِ سبأ وذي ريْدان، في وقتٍ كان ملوكُ سَبَأ يحملون اللقبَ نفسَه[4]. ومع ذلك أطلق المؤرخون على هذه الدولة إسمَ الدولةِ الحِمْيَرِيَّة الأولى، التي ينتهي دَوْرُها سنة (٣٠٠ م)، حينَ ظهرتِ الدولةُ الحميريَّةُ الثانية، وهي التي عُرفت بمملكة: سبأ وريدان وحضرموت واليمن، وظلَّت قائمةً حتى سنة (٥٢٥ م)، وكانت قبل ذلك توسَّعتْ وضَمَّتْ

---

(١) تاريخ العرب: ٨٩. والمفصَّل: ٢/ ٥١٦.

(٢) المفصَّل: ٢/ ٥١٠ ـ ٥١١.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٥١٨.

(٤) محمد عزة دروزة ـ تاريخ الجنس العربي: ٥/ ٦٠، والمفصَّل: ٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢١.

إليها مناطق الجبال وساحل تهامة على البحر الأحمر، وظهر ملوكُها وقتئذٍ بلقب جديد، هو «ملكُ سبأ وريدان وحضرموت واليمن والجبال وتهامة»[1].

ويُذكر أن النصرانية انتشرت في بعض مواضِعَ من هذه الدولة، كما لجأ إليها أعدادٌ من اليهود فراراً من الاضطهاد، فأدَّى التنازع بينهما في عهد الملك يوسف ذي نواس، وكان قد تَهوَّد، إلى تعذيب النصارى وتحريقهم، فاستغلَّها الرومُ فرصةً، وأَمَدُّوا الأحباش، وأَوْعَزُوا إليهم بغَزْوِ بلادِ حِمْيَرَ، فاحتلُّوها، وظلُّوا فيها حتى سنة (٥٧٥ م)، حين حرَّرها منهم الملكُ سيفُ بنُ ذي يَزَنٍ الحِمْيِريُّ، بعدما لبثوا فيها زهاءَ خمسين عاماً. ولم تكن تلك أوَّلَ غارةٍ للأحباش على جنوب بلاد العرب، فقد غَزَوْها من قبلُ، وأقاموا فيها بين (٣٤٠ ـ ٣٧٨ م)، ردّاً على غَزْوِ الحِمْيريين أرضَ الحبشة أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي[2].

وكان الحِمْيريُّون كأسْلافهم يملكون نزعةً قويةً إلى أعمال العُمْران والبناء والرفاهية، فاشتُهِروا بمبادرتهم إلى ابتناء القصور والمعاقل المنيعة، ومن قصورهم قصرُ غُمْدان بصنعاء، وكان مُشَيَّداً من عشرين طبقةً، سقفُ الطبقة العُليا منه كان قطعةً واحدةً من البلُّور الشفَّاف، وقد بُنِيَ بالرخام والحجارة المُلَوَّنة وزُيِّن بالتماثيل المختلفة، وظلَّ قائماً حتى عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان. كما اشتُهِروا بإقامة السُّدود وأَحْواضِ المياهِ وحَفْر الآبار لريّ الأَرْضين، وتحسين الزراعة وغَلَّاتها. . . وكان لاجْتِناءِ العَسَل عندهم مواضعُ خاصَّةٌ يُولُونها عنايةً كبيرةً، مثلما كان لاستخراج الذهب مناجِمُ معروفةٌ في منطقة «عَسِير»، وكانت لهم أيضاً نقُودٌ مَضْروبةٌ ببلادهم،

---

(١) المفصَّل: ٢/ ٥٢٦.

(٢) تاريخ العرب: ٨٩ ـ ٩٥، والمفصَّل: ٢/ ٥٣٠، وتاريخ الجنس العربي: ٥/ ٧١.

خاصَّةٌ بهم. وقد عِرُفوا بين العرب، ولا سيما أهل الحجاز، بمصَانِعهم الكثيرة، واشتُهِرت عاصمتُهم «ظَفَار» التي بَنَوْها على طريق صنعاء، بالجَزْعِ الظَّفَارِيّ، وهو نوع من الحُلِيّ، يُوضَعُ قِلادَةً في العُنُق، أو خاتَماً باليَدِ، تَفنَّنَ الحِمْيَرِيُّون في صَقْلِهِ، وتجميله، ونَقْشِهِ برسومٍ للأزهار والنبات والحيوان[1]. ولكن مَوْرِدَهم الرئيسَ كان من ضُروبِ الأفَاوِيه والعُطور والبخُور، وكانت لهم في اللُّبَان صناعةٌ ممتازة.

وقد أَمْسَكَ الحِمْيَرِيُّون بأَزِمَّةِ التجارة في جزيرة العرب زماناً طويلاً، وشمل سلطانُهم معظمَ قبائل العرب في الجنوب والشمال، وكانت قبائلُ الحجَاز تتولَّىٰ نقلَ تجاراتهم، وخَفارتَها، وتعملُ لحسابهم. وكان طريقُ التجارة الغربي، الذي ينطلق من بلاد العرب الجنوبية، ويخترقُ الحجازَ، ذاهباً إلى الشام، مَشْمولاً بحمايتهم عموماً، ومُمْتَلِئاً، على طُولِهِ، في أيامهم بمحطَّاتٍ أَنْشَؤُوها فيه، كانت القوافلُ تَتوقَّفُ عندها، للتزوُّدِ بالماء والطعام، وتَبادُلِ البريد، أو للتجارة، وتَبَادُلِ البضائع، أو خَزْنِها في مخازِنَ خاصةٍ. وكانت القوافلُ تقطعُ ذلك الطريقَ بين اليمن وأَيْلَة في نحو سبعين يوماً[2]. وأَيْلَةُ يومئذٍ، أي العَقَبَةُ، مدينةٌ على ساحل البحر الأحمر، هي آخِرُ الحجاز وأوَّلُ الشام، وكانت محطةً تجاريةً، تَرْسُو في مَرْفَئِها السفُنُ القادمةُ من مرافىء عُمَان والشِحْر وحضرموت وعَدَن واليمن، أو من موانىء إفريقية والمحيط الهندي، وتنزلُها القوافلُ الآتيةُ برّاً من اليمن والحجاز[3]، فمن شاء اتخذَ سبيلَهُ منها إلى بُصْرى، ومن شاء انعطف إلى غزَّة، وهي مدينةٌ عربيَّةٌ

---

(١) المفصَّل: ٢/ ٥٢٧، ومعجم البلدان: ٤/ ٦٠.

(٢) تاريخ العرب: ٩٣.

(٣) العرب قبل الإسلام: ٢١٥، وفجر الإسلام: ١٥، ومعجم البلدان: ١/ ٢٩٢.

في أقصى الشام من ناحية مصر[1]، على ساحل المتوسط، تنتهي إليها قوافلُ الحِمْيَريِّين وأهلِ الحجاز، وغيرِهم، يسوقون إليها بضائعَ بلادِ العرب، ويجلبون منها بضائعَ بلاد البحر المتوسط. ويذكر المؤرخون أن الإسكندر لمّا أراد احتلالها سنة (٣٣٢ ق. م)، كانت مأهولةً بالقبائل العربية المنتشرة حتى طور سيناء، فتصدَّتْ له بقيادة رجُلٍ عربي، جاء في الكتابات النبطيّة أن اسمه: «بَطِشُو» أي البَاطِشُ، وقد استعان على اليونان بجيوش عربية، وقاومهم مقاومة شديدة مدة خمسة أشهر، ثم فتحت المدينةُ أبوابها، فاستولى اليونان على مقَادِيرَ عظيمةٍ من المُرِّ واللُّبَانِ وسائر غلَّات بلاد العرب، وأوْقَعُوا بالتجار العرب خسارةً كبرى، ويزعم بعضُ المؤرِّخين أن ذلك القائد العربيَّ كان إيرانياً، وهو افْتِراءٌ أثْبَتَتِ الكتاباتُ النبطيةُ بُطلانَه، وزعموا أيضاً أن الإسكندرَ إنما أخذ تلك المقادير الكبيرة، من البَخُّور والمُرِّ واللُّبانِ وغيرها، من اليمن، وهو غير صحيح قطعاً، لأن جيوش الإسكندر لم تتمكَّنْ من اختراق جزيرة العرب، ولم تصل إلى أرض البَخُّور[2]. . .

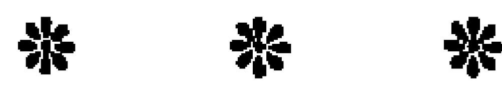
ولا بُدَّ أن يَحْمِلَنا مثلُ هذه المزاعم على الحديث، اسْتِطْراداً، عن معونة كسرى أنُو شُرْوَانَ (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) للملك سيف بن ذي يزن، في تحرير مملكة حِمْيَر من الحبشة، وذلك لِما دَخَلَ فيها من المبالَغاتِ والأوهام، ولِما لها من علاقةٍ وثيقة بمواسم العرب وتجاراتهم، ولا سيما أن الأخباريّين، ومن نقَلَ عنهم من المؤرخين، ذهبوا إلى أن اليمن دخلت نحو سنة (٥٧٥ م) في حَوْزَةِ الفُرس، وأن أنُو شُرْوَانَ قَصَدَ اليمنَ، فقتل فيها وغَنِم، ومَلَكَ ما بين عُمَانَ والبحرين وبلادِ فارس، وامتدَّ نفوذُهُ حتى شمل

---

(١) معجم البلدان: ٤/٢٠٢.

(٢) المفصَّل: ٢/٨ ـ ٩.

اليَمامةَ والطائِفَ وسائرَ بلادِ نَجْدٍ والحجاز[1]. . . ولا شك في أن هذا الخبر موضوعٌ جملةً، ومنقولٌ من غير نقد أو محاكمةٍ عن المراجع الفارسية في الحيرة، إذ لم يَرِدْ، كما حقَّق الباحثون في أخبار تلك الحقبة، خبرٌ واحدٌ على الأقلِّ، أو إشارةٌ تُؤَكِّدُ أن نفوذَ دولة فارس بلغَ كلَّ هذه البلدان، أو أن كسرى أنو شروان وصل إلى اليمن، وغَزاها! ولو صحَّ ذلك كلُّه، أو حتى بعضُه، لحفظت ذاكرةُ أهلِ الأخبار منه شيئاً كثيراً، ونَقَلتْه إلينا مُسْنَداً إسْناداً قويّاً، لا يأتيه الباطلُ، إذ لم يكن زمنه بعيد عهدٍ من ظهورِ الإسلام[2].



والمعروف من وقائع التاريخ أن النزاعَ كان مستمراً بين الفُرسِ والروم على غَلاَّت اليمن وأقطار العرب الجنوبية، من البخُّور واللُّبَان والمُرِّ وسائر السِّلع التي اشتُهِرتْ بها، واغْتَنَتْ من تَصْنِيعها وتَرْوِيجِها، فسمَّاها اليونانُ والرومانُ بلادَ العرب السعيدة. . . وكانت البضائعُ المجلوبة من الشرق الأقصى إلى بلاد الروم، عبر المناطق التي تُسيطر عليها دولةُ فارس، مُعَرَّضَةً غالباً للأخْطارِ، والاحْتِكار، وارتفاع الضرائب عليها كلَّ حين، وغلاء أسعارها، وهو ما جعل جُسْتِنْيَانَ قيصر الروم (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) يُقرِّرُ اعتمادَ البحر الأحمر طريقاً أفَضلَ لاسْتِجْلابِ السِّلَع مباشرةً من الأسواق الكبرى. وكان بأيدي الروم وقتئذٍ القسمُ الشمالي من البحر الأحمر، ولا سيما مرفأ «أيْلَة»، وكانت تُنْقَل منه مَتاجِرُ الشرق إلى فلسطين وشرق الأردن وسورية، ومرفأ «القُلْزُم» وكانت تُحمَلُ منه المتاجِرُ المرسَلةُ إلى موانىء البحر المتوسط، وكانت جزيرة «تيران» مركزاً للعرب، تُؤدِّي فيه السفُنُ إلى بعض

(١) تاريخ الطبري: ٢/١٣٩ ـ ١٤٠، ١٤٣، ١٤٩، والكامل: ١/٤٣٨ ـ ٤٣٩، ٤٤٨.
(٢) المفصَّل: ٣/٢٢٣ ـ ٢٢٤.

زعمائهم ضرائبَ على ما تحمله من البضائع، فأمَرَ جُسْتنيانُ أن يقوم عُمَّالٌ من الروم بهذا الأمر، منعاً للتهريب، ومُقدِّمةً لإحْكام سلطانهم على مرافىء البحر الأحْمَر كافةً، فكان عليهم إذن أن يَسْعَوا حتى يُسَيطروا على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. . . وقد اتفق إذ ذاك أن قام اليهودُ بذَبْح النصارى وتحريقهم في نَجْران باليمن، فانتهزها البيزنطيون فرصةً، وأوْعَزُوا لحلفائهم الأحباش باحتلال اليمن وحماية النصارى، فقامت الحبشةُ بحملة عسكرية كبرى، وقضت على مملكة حِمْيَر، واحتلَّتِ اليمنَ نحو سنة (٥٢٥ م). وبذلك تمكَّن الرومُ من نقل تجاراتهم بالبحر الأحمر، بعيداً من تحكُّم الفُرس ونفوذهم[١]. . . ولا شك في أن حملة أَبْرَهَة للاستيلاء على مكة، وهي وقتئذٍ أعظمُ محطة تجارية في بلاد العرب، إنما كانت خطةً سياسيةً عسكريةً، وضَعَها الرومُ للسيطرة على طريق التجارة الغربي في جزيرة العرب، ولوَصْلِ سورية باليمن، ولكن الخطة فشلت، وظلَّت حدودُ الأرضين الخاضعة للروم، تنتهي عند اتصال المقاطعة العربية الجنوبية بجزيرةِ العرب[٢].

ثم نشط أهلُ اليمن إلى تحرير بلادهم من الحبشة، فقام فيهم الأمير سيفُ بنُ ذي يزن، وهو من أبناء ملوك حِمْيَر، يقودُهم إلى التحرُّر، وكان لا بُدَّ له من حِلْفِ دولةٍ كبرى، فقصد إلى أنو شُرْوانَ يسألُه العونَ والحِلْفَ، وبعد تردُّدِه في الأمر، زعم أهلُ الأخبار: «أنه أَمَدَّهُ بثماني مئةِ مُقَاتلٍ، أطلقهم من السجون، وأَمَّر عليهم قائداً إسمُهُ: وهْرِزُ، فخرجوا من البحر مع ابن ذي يزن، فغرق منهم مئتان، وخَلُصَ الناجُونَ إلى اليمن، فسأل وهرزُ سَيْفاً: ما عندك، فقد جئنا بلادَك؟ فقال: ما شئتَ من رجُلٍ عربي وفَرَسٍ

---

(١) المفصَّل: ٤/١٦٩ ـ ١٧١.
(٢) المرجع نفسه: ٢/٦٣١.

عربي، ثم اجعلْ رِجْلي مع رِجْلك حتى نموتَ أو نظفرَ، فالْتَحق بهم من قبائل حِمْيَرَ خَلْقٌ كثير، فسار إليهم مَسْروقُ بنُ أبرهة في جيش كبير من الأحباش والأعراب، وكان قائدُ الفُرس عجوزاً مُسِنّاً، سَقَط حاجِبَاهُ على عينيه، فمنَعَاهُ الرؤيةَ، فأمر صحبَهُ فَعَصَبُوهما على رأسه، ثم أخرج نُشَّابةً ووضَعَها في قوسه، ولم يكن أهلُ اليمن رَأَوا النُّشَّابَ قبل ذلك[1]، فأشاروا له إلى مسروق، فأثْبَتَهُ ثم رماهُ فقتله، فنشب القتالُ، فهُزِم الأحباشُ، وطُرِدوا من اليمن، فانصرف وَهرزُ إلى بلاده، وتملَّكَ سَيْفٌ على اليمن نحو سنة (٥٧٥ م)، وطَفِقَتْ وفودُ العرب تأتيه في قصر غمدان بصنعاء، تُهنِّئُهُ بالنصر والمُلْكِ. . . وبعد حينٍ من الزمن، أصاب منه بعضُ عبيده من الحبشة غِرَّةً، فاغتالوه وهربوا، فطلبهم أصحابُه حتى قتلوهم، فرجع وهرزُ على رأس جيشٍ إلى اليمن، عاملاً لأنو شُروانَ عليها، فدخلت إذ ذاك في حَوْزَةِ دولة فارس»[2]، على خلافٍ شديد بين أهل الأخبار فيمن تولَّى حُكمها بعد مقتل الملك سيف، وسُقْمٍ أشدَّ في أخبار تلك الحقبة من تاريخ اليمن. وقد تفرَّد ابنُ قتيبة بالإشارة إلى أن أهل اليمن لم يُملِّكوا عليهم أحداً بعد مقتل ملكهم، وإنما كان أهلُ كلّ ناحيةٍ، أو قبيلة، يُملِّكُون عليهم من حِمْيَرَ رجُلاً من

---

(١) يبدو الوضعُ في هذا الكلام واضحاً، فالفُرس والرومُ كانوا يستعينون في جيوشهم بكتائبَ من الرُّمَاةِ المَهَرَة من العرب، وكانت العربُ تَعُدُّ الرمايةَ بالقِسِّي والسِّهام من سجايا الكامل من رجالهم، وكانوا يُعلِّمون أولادَهم الرميَ بالنُّشَّاب ليَحْذقوهُ، ويُحْسِنوا إصابةَ عُيون أعدائهم، ويُسمُّونهم رُمَاةَ الحَدَق.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/١٣٩ ـ ١٤٦، والكامل: ١/٤٤٧ ـ ٤٥١، وسيرة ابن هشام: ١/٦٨ ـ ٦٩، والمسعودي ـ مروج الذهب: ٢/ ٥٥ ـ ٥٨، والأغاني: ١٧/ ٢٢٩، وتاريخ اليعقوبي: ١/١٦٥، ٢٠٠، والمفصَّل: ٣/٥٢٧ و ٥/ ٤١٤، وتاريخ العرب: ١٠١، والعرب قبل الإسلام: ١٧٧، وموسوعة تاريخ العالم: ١/٣٤٨.

رؤسائهم، أو أبناء ملوكهم[1]... ولمّا ظهر الإسلام كانوا ما يزالون على ذلك، فكتب الرسولُ عليه السلام إلى أولئك الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإيمان، ولم يكن فيهم فارسيٌّ[2]، بل يُفهم مما ذكره ابنُ هشام عن الملوك الذين كتب إليهم رسول الله يدعوهم إلى الإسلام، أن الحارث بن عبد كلال الحميري كان وقتئذٍ ملكَ اليمن[3]. وهذا دليلُ صحّةِ ما قاله ابنُ قتيبة، وإن جاء في الأخبار أن «باذان» وهو من أبناء الفُرس، كان عاملَ كسرى أبرويز على اليمن، وأنه أسلم سنة (٦٢٨ م) بعدما قتل شيرويه أباهُ أبرويز[4]، فانتهى بذلك عهدُ الفرس باليمن.

وقد تبيَّن للمؤرخين أن حكم الفرس لليمن في الحقيقة لم يكن حكماً فعليّاً، وإنما كان حكماً إسميّاً اقتصر على صنعاءَ لا غير، أما سائر المواضع فكان الحكمُ فيها لرؤسائها وأبناءِ ملوكها الأقدمين[5]. وذهب بعضُ المحقِّقينَ إلى أن مَن تَولَّىٰ من الأعاجم أمرَ اليمن «لم يكونوا خاضعين مباشرةً لسلطان ملوك فارس»[6]، وأنهم، بالرغم مما انتحلوه لأنفسهم من النفوذ والسلطان، لم يتركوا أثراً واحداً على الأقلّ في اليمن، مَبْنيّاً، أو مُدَوَّناً، أو منحوتاً، يُفيد في معرفة شيءٍ من تاريخ اليمن في عهدهم[7]، أو

---

(١) المعارف: ٦٣٨ ـ ٦٣٩

(٢) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥، ٢٨٣، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧٩ ـ ٨٠، ولسان العرب: ١١/ ٤٢٢ (عَبْهَلَ).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧.

(٤) المعارف: ٦١٢، ٦٣٩، والطبقات الكبرى: ١/ ١٦٠، والمفصَّل: ٣/ ٥٢٨، وتاريخ العرب: ١٠٢.

(٥) المفصَّل: ٣/ ٥٣٠ ـ ٥٣١، ٤/ ١٨٠، ٥/ ٢٤٥.

(٦) د. محمد حسين هيكل ـ حياة محمد: ٩٣.

(٧) المفصَّل: ٣/ ٥٢٩.

ممّا قَدَّمُوه لها من أسباب الحضارة والعمران، مع أن حكم الحبشة خلَّفَ آثاراً، وجُملةَ نصوصٍ مكتوبةٍ كشفتْ عن بعض تاريخ اليمن في عهدهم!

ولعل ابن ذي يزنِ لم يَبْتَغِ من الذهاب إلى دولة فارس أكثر من إقامَةِ حلفٍ، يقفُ للحلف بين الحبشة والروم، ويُوفِّر له السلاحَ اللازمَ لتحرير اليمن، وكانت حروبُ النزاع بين دولتيْ فارس وبيزنطية مستمرةً، وكان أنوشروان يحرصُ على أن يظلَّ نفوذُ الروم بعيداً من الحجاز بعد أن اقترب من اليمن[1]، واتصل بالنصارى في نَجْرانَ وغيرها، وقدَّم لهم المساعدات، وأَمَدَّهم بالبَنَّائين والفَعَلة لإقامة الكنائس، وكان لبعض أشراف نجران حَظْوةٌ عند ملوك الروم[2]، وقد وجَدَ أنو شروان في عقد حلفٍ مع الملك سيف، فرصةً تُبْلِغُهُ مَداخِلَ البحر الأحمر، وتُحقِّق له اتصالاً مباشراً من اليمن مع عرب الحجاز، وكانوا إذ ذاك أكثرَ تجار العرب نشاطاً، ليضْمنَ انتقال تجاراته في جزيرة العرب بسلام[3]. أما الرجالُ الذين أُرسِلُوا مع ابن ذي يزن، فكانوا، على عادة الملوك يومئذٍ رهائنَ تُعَدُّ رَمْزاً إلى الإلْتِزام بالحِلْف، وكانوا يُسمُّونهم «الوضائع»، وهم، كما ذكر ابنُ منظور، قومٌ كان ملوك فارس يختارونهم، وينقلونهم إلى بلادٍ أخرى، يُرْتَهَنُونَ بها تأميناً على الوفاء بالعهد[4]. ويبدو أن بُعْدَ ما بين فارس واليمن جعلَ أنُو شروان يشترط أن يُزوِّجَهم العربُ من بناتهم[5]، وكانت العربُ تكرهُ تزويجَ بناتها من الأعاجم، فنشأ من هذا التزاوج جيلٌ غَلَبَ عليه اسمُ «الأبناء»، وكان له شيءٌ

---

(١) د. عمر فروخ ـ العرب والإسلام: ٢٤.

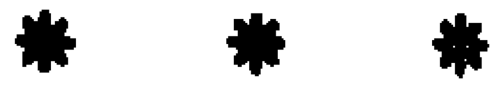
(٢) المفصَّل: ٣/ ٥٣٣.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٦٤٧.

(٤) لسان العرب: ٨/ ٣٩٩ (وضع)، ١٤/ ٩١ (بني).

(٥) مروج الذهب: ٢/ ٥٦.

من النفوذ لم يتجاوز صنعاءَ[1]، وذِمارَ، وهي قرية من أعمال صنعاء فيها أفْنَاءٌ من الأبناء[2]، أي أخلاطٌ، ولم يكن لهم أكثرُ من ذلك، فقد ظلت دولة بيزنطية متفوّقةً عليهم في البحر[3]، وظلت قوافلُ ملوك فارس، التي لا تُؤدِّي جعالة المرور بأرض العرب إلى زعماء القبائل، عرضةً للنَّهب على طريق الحجاز أو على طريق البحرين (الأحْسَاء)، وهو دليل على أن وجودهم باليمن لم يُنْشِىء لهم سلطاناً على أحد.



● تلك كانت الدولَ العربيةَ القديمةَ المشهورةَ، التي قامت في جنوب جزيرة العرب، وكانت مدنُها وقُراها مراكزَ كبرى للتجارة، وأسواقُها محطاتٍ للقوافل. وقد أمسكت بمقاليد التجارة الدولية، وأحْكَمْت سُلطانَها على طِرُقها دهْراً طويلاً وكانت كلما ازداد حرصُ الأمم الأخرى على العطور والبَخُّور واللُّبَان وسائِر الأفاوِيه والتَّوابل، واشتدَّ وَلَعُها بالمنسوجات العربية والشرقية، أسرع العربُ إلى رَفْع أثْمان بضائعهم، وزيادة نسبة المكوس والضرائب على التجارات التي تمرُّ ببلادهم، فصاروا بذلك أكثر الأمم ثروةً وغنىً وتَرفاً. . . ولم يكن ذلك حالَ دُوَلِ الجنوب وحَسْب، وإنما أسْهَمَتْ فيه أيضاً دولٌ عربيةٌ أخرى نشأت في عصور الجاهلية، وازدهرت في شمال بلاد العرب ووَسَطِها، وكان عمرانُها، كعُمران دول الجنوب، قائماً على التجارة والسيطرة على طُرُقها، وإحْكام وسائل احتكار السِّلَع والعُروض التي يحتاج إليها أبناء الأمم الأخرى. . . وكان أقْدمَ هذه الدول: مملكةُ الأنباط،

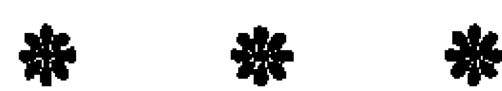
---

(١) المفصَّل: ٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) المفصَّل: ٤/ ١٩٠.

ومملكةُ تدمر، وكانت كلٌّ منهما حلقةً في سلسلة ذلك الطريق التجاري الشهير، ومحطَّةً كبرى من محطات التجارة التي تمتَّعتْ بنصيب وافر من الثروة والرخاء[1]، ويمكن أن نُلحِقَ بِدَوْلَتَيْ الأنباط وتدمر كُلًّا من مملكتي اللخميِّين بالعراق، والغساسنة بالشام، ثم أعظمَ محطات التجارة في بلاد العرب قاطبةً: مكَّة وأسواق الحجاز ونَجْدٍ.



المطلب الخامس ـ مملكة الأنباط:

الأنباط شعب عربيٌّ قديم سكن شمالَ الحجاز، ثم أقام دولةً امتدت من مِدْيَن على ساحل البحر الأحمر إلى المواضع الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران، ثم شملت دمشقَ وسهلَ البقاع[2]، وتشهدُ آثارُ مدينة الحِجْر (مدائن صالح) أنها كانت في حوزة الأنباط، وكذلك بُصْرَىٰ وصَلْخَد. وتُعَدُّ دولتُهم من أقدم الدول العربية في عصور الجاهلية، وكانوا يتكلمون العربية، ويكتبونها بالخط الآرامي.

وكانت مدينةُ «البتراء»[3] قاعدتَهم وحاضرةَ مُلْكِهم، أقاموها على جبل يرتفع نحو ألفِ متر، ونَحَتُوها في الصخور، وقد ازدهرت أواخرَ القرن الرابع ق. م، وظلَّتْ أربع مئة سنة تشغَلُ مركزاً خطيراً على طريق القوافل الذي يصل جنوب جزيرة العرب ببلاد الشام وثُغُور المتوسط، فكانت القوافلُ

---

(١) تاريخ العرب: ٩٣، ١٠٣.

(٢) المفصَّل: ٣/ ١٥.

(٣) البتراء: لفظة يونانية معناها الصخرة، يُقابلها في العبرية كلمة: سَلَع، وفي العربية: الرَّقيم، وتعرفُ اليوم بِوَادي موسى، وما تزالُ آثارُ قُصورِها وبُيوتها حتى اليوم، تبدو منحوتةً في الصخور وكأنها حجرٌ واحد.

تحطُّ بها لتتزوَّدَ من مياهها العذبة، وتستبدلَ بالإبل المُتْعَبة إبلاً جديدةً نَشيطَةً، تستعينُ بها على المراحل الباقية من رحلتها، فضلاً عمّا تقومُ به من أعمال التجارة والمبادلة في أسواقها. وقد بلغت البتراءُ قمَّةَ مَجدها وغِنَاها في القرن الميلادي الأول، إذ غَدَتْ حلقةً هامَّةً في سلسلة المحطات التجارية الكبرى التي انتشرت على طريق التجارة، ومركزاً رئيساً تتفرَّعُ منه الطرُقُ إلى غَزَّة ومصر والشام والمدن الفينيقية وخليج العرب والعراق[1].

وكان الأنباطُ تجّاراً مَهَرة، وصُنَّاعاً حِذَاقاً، يُجيدون لُغَتَيْن أُخْرَيَيْن على الأقلّ إلى جانب العربيّة، كاليونانيّة والآرَامِيَّة، وكانوا يرحلون بمَتَاجِرهم إلى الشام ومصر والعراق والحجاز وبلاد الروم، وكان منهم أطبَّاءُ وشعراء. وكانت لهم علائقُ وثيقةٌ بعرب الحجاز ظلَّت مستمرةً إلى ما بعد ظهور الإسلام[2]. وعُرِف عنهم أنهم كانوا يُشاركون فيما تحمله قوافلُ العرب من المتاجر، ويفرضون ضرائبَ مُعيَّنةً على البضائع المجلوبة إلى بلادهم أو المحمولة منها، ويُمارسون أحياناً نوعاً من الاحتكار لأصنافٍ من السِّلَع والعُروض التجارية، ويَحْمُونَ طريقَ القوافل الذي يمرُّ خلال ديارهم. ولم تكن لهم حاصلاتٌ من بلادهم، لأن أرضهم ليست زراعيَّةً، باستثناء ما كانوا يُنتجونه من الذهب والفضة وزيت السمسم... وسائرُ مَتَاجرهم كانت تُحمل إليهم من العراق والشام وجنوب الجزيرة وغزَّة وعسقلان وصيدا وصور وخليج العرب وغيرها من البلدان[3].

وقد ظلَّت البتراءُ في تَرَفٍ ونَعيمٍ حتى دَمَّرها تراجان الروماني سنة

---

(١) تاريخ العرب: ١٠٤ ـ ١٠٥، ١١٠، والمفصَّل: ٣/ ٢٠.
(٢) المفصَّل: ٧/ ٣١٣.
(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

(١٠٦ م)، وكانت سورية صارت ولاية رومانية منذ سنة (٦٤ ق. م) وظلت أجزاؤها الجنوبية بأيدي ملوك النبط، ولما قضى تراجان على مملكتهم، جعلها مع بلاد شرق الأردن ولايةً عربيةً واحدةً، وألحقها بالإمبراطورية الرومانية، ونقل مقرَّ الحكم إلى مدينة بُصْرى[١]، فتَضَاءَل شأنُ البَتْراء، وما لبث أن اضْمَحلَّ مع القرن الثالث للميلاد. ولكن الأنباط استمرُّوا في ممارسة التجارة وقيادة القوافل، وتبيَّن من بعض الكتابات التي عُثِر عليها، والتي تعودُ إلى سنة (٢٦٦ م) أنهم كانوا حينذاك ما يزالون أصحابَ تجارةٍ يتَّجرون بها بين مصر وجزيرة العرب ومرافىء البحر الأحمر[٢]، على الرغم من سقوط دولتهم، وتَحوُّلِ طريق القوافل عن عاصمتهم.

* * *

المطلب السادس ـ مملكةُ تَدمُر:

لعلَّ أكمْلَ مِثَالٍ لمحطَّاتِ التجارة ومُدُنِ القوافل في بلاد العرب إنما هو مدينةُ تدمر... إن الأساس الجغرافي لهـذه المدينة نبعٌ من المياه العَذْبة، تفجَّر عند مَعْبَر جبليّ، في مَوْضعٍ تَوَسَّط باديةَ الشام، فأنشَأَ فيه واحَةً خضراء، تحوَّلت منذ مطلع الألف الثاني ق. م إلى محطةٍ تجاريةٍ، لا بدَّ للقوافل التي تعبرُ باديةَ الشام من التوقُّف عندها، والنزول بها، طلباً للراحة والمِيَاه العَذْبة والطعام. وقد تقلَّبتْ عليها شعوبٌ وقبائلُ مختلفةٌ من العرب البائدة، كالعَمُّوريين والكنعانيين والآراميِّينَ، قبل أن تَغْلِبَ عليها قبائلُ من العرب الباقية، لِتُصبحَ مملكةً عربيةً منذ مطلع القرن الثاني

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٣١٨ ـ ٣١٩، وتاريخ العصور القديمة: ١٧٤ ـ ١٧٥.
(٢) المفصَّل: ٣/٤٩ ـ ٥٠.

ق. م[1]... ويذهبُ البعضُ إلى أن تدمر دخلت دائرة النفوذ الروماني في أوائل القرن الميلادي الأول، ولم يكن ذلك قطعاً نتيجة فتح عسكري، وربما كانت العِلَّةُ فيه تعلُّق مصالح تدمر التجارية بمصالح الرومان، وقد كانوا يسيطرون على الطرق والموانىء في مصر وسورية وبلاد الأناضول[2]... والمعروف أن كتائب الرماة التدمريين هي التي كانت تحمي للرومان قوافلهم من غارات اللصوص وقُطَّاع الطرق[3]، مع وُجود حاميةٍ رومانيةٍ في المدينة، لم يكن لها في الحقيقة دَوْرٌ فعليٌّ إزاءَ أهلِ المدينة والقبائل المحيطة بها[4]... وإنما الدوْرُ الفعَّالُ كان للمدينة نفسها باعتمادها على قُوَّاتها الخاصة من الرماة التدمريين الشهيرين، فحَمتِ المدينةَ، ومصالحَها، وطُرُقَ البادية، والقوافلَ المارَّةَ بها[5].

وقد ازدهرت تدمرُ، وعَظُم خَطَرُها في فترة النزاع بين دولتي الرومان وفارس، لحاجة الفريقين إليها في مَوْقعها. ثم بلغت قمةَ المجد الاقتصادي في القرن الثاني للميلاد، ولا سيما بعد سقوط دولة الأنباط سنة (١٠٦ م)، إذ تحوَّلت إليها من البتراء «كلُّ الطرق التجارية في الشرق بين مصر وجزيرة العرب من جهة وفارس والهند والصين من جهة أخرى، وصارت حلقةً رئيسةً في طريق الحرير بين الصين والرومان...»[6]، فرفَعَتْها التجارةُ

---

(١) الحوليات الأثرية السورية: المجلد ٣٢ لسنة ١٩٨٢، ص ١٥٩، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٤٣٢. ود. عدنان البنّي ـ تدمر والتدمريون: ٦٨.

(٢) تدمر والتدمريون: ٧١.

(٣) المفصَّل: ٣/ ٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ٣/ ٨٣.

(٥) تدمر والتدمريون: ٧١.

(٦) المصدر نفسه: ٧٣.

وقوافلُها من محطة في واحةٍ وسط البادية إلى مدينة مُتَميِّزَةٍ لا بُدّ للقوافل القادمة من العراق إلى الشام، أو الذاهبة من الشام إلى العراق، من أن تمرَّ بها. . . فصارت سوقاً كبرى للتجارة، تحفلُ بأجْوَدِ السِّلَع والعُروض وأَثْمِنِها، فاغْتَنَى أهلُها، وكَنزُوا الذهبَ والفضة، وتَزَيَّنُوا بالجواهر واللآلىء، ونَصَبُوا التماثيلَ في الشوارع، كما أصبحت مَثابةً لعبادة الأصنام، تحجُّ إليها مختلفُ القبائل المقيمةِ حولَها. ويبدو من كتابةٍ مُؤرَّخة في شهر أيلول (سبتمبر) من سنة (١٣٢ م)، أن نفوذ تدمر بلغ شرقاً مدينةَ «عانَة» على الفُرات، وكانت لتدمر حامِيَةٌ فِيها، وذُكرت في الكتابة مدينةُ الحيرة، وهو دليل على وجودها في ذلك الزمن، كما ذُكر فيها «الإِلَهُ شيع القوم الذي لا يشربُ الخمرَ»، وهو حامي القوافل، مما يدل على أن عانة كانت مدينةً للقوافل[(١)]، وأن تدمر كانت مركزاً لبلاد امتدَّت من الفرات إلى جبال لبنان.

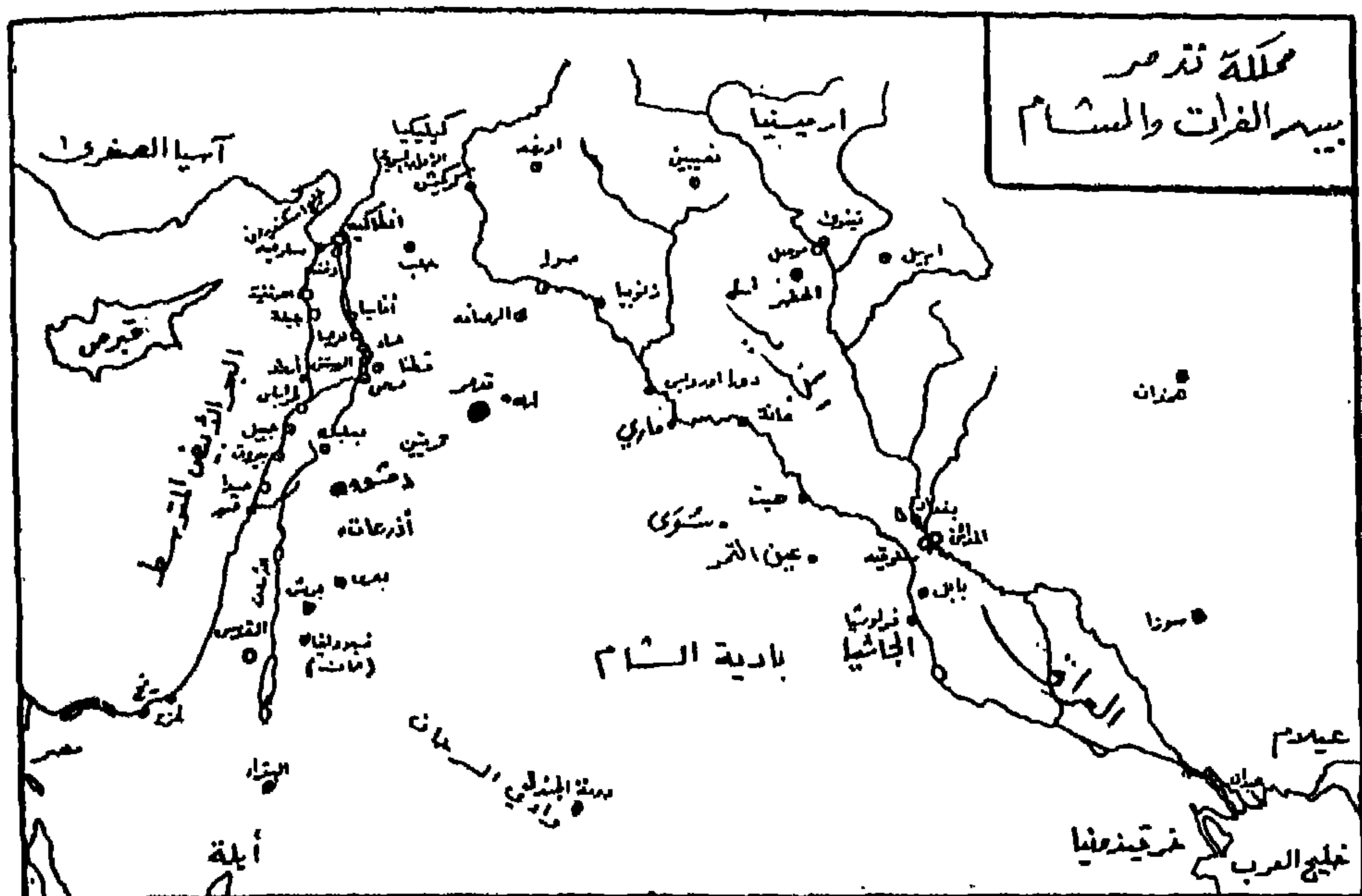
وفي القرن الثالث للميلاد، وصلت تدمر إلى أوج عظمتها، حينما غَدتْ عاصمةً مزدهرةً لمملكةٍ امتدت من قلب الأناضول شمالاً، حتى الاسكندرية جنوباً، وتُعَدُّ الفترةُ ما بين (١٣٠ ـ ٢٧٠ م) أزْهَىٰ أيام تاريخها[(٢)]، ولا سيما ما كان منها في عهد ملكها «أُذَيْنة»، ثم في عهد ملكتها «زنوبيا»، فظلَّت على ذلك حتى قضى عليها الرومانُ سنة (٢٧٢ م)، بعدما هدَّدتْهم زنوبيا، فخافوا أن تقتحم عليهم روما، وتقضي على دولتهم. . . وحينئذٍ بدأت مدينةُ «بُصْرَىٰ» في الظهور لِتَحلَّ محلَّ تدمر، في زَمن مُلْكِ الغساسِنَة بالشام[(٣)].

* * *

(١) المفصَّل: ٣/ ١٣٨ ـ ١٤٠، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ٤٤٦، وتدمر والتدمريون: ٢٦.

(٢) المفصَّل: ٣/ ٨٤، ٨٨ وتاريخ العرب، ١١٢، وتدمر والتدمريون: ٦٦.

(٣) تاريخ العرب: ١١٤ ـ ١١٥.



وقد بلغ من قوة مملكة تدمر في عهد أُذَيْنَة، أنه أحبَّ مجاملةَ شابور الأول ابن أردشير، حينما انتصر على الرومان، وأسَر قيصرهم ڤاليريان، وغنم منهم مغانمَ كثيرةً، فأرسل إليه من تدمُرَ، قافلةً كبيرةً مُحمَّلةً بالهدايا الثمينة، فلما أُبلِغتْ إليه، غضب غضَباً شديداً، وتساءَل كيف يَجْرُءُ صاحبُ واحَةٍ في البادية، على مُهاداةِ ملكِ الملوك ومُخاطبتهِ، وأمر بإلقاء هداياهُ في النهر، وأن يُساقَ إليه مُكبَّلاً، لِيَسْجُدَ بين يديه مُعْتذِراً! وعلم أذينةُ بهذه الإهانة، فقام من فَوْرِهِ على رأس جيش، وتوجَّه إلى بلاد فارس، وقاتلهم قتالاً ألقىٰ الرُّعبَ في نفوسهم، فاندحروا إلى ما وراءَ الفرات، فاتَّبعَهم، واحتلَّ الجزيرة، وهزم شابور، وحاصر عاصمتَهُ المدائنَ، فترك له الفرسُ معظم ما غنموه من الرومان، ووقعت بعضُ نساء شابور أسيراتٍ في يديه، ثم عاد إلى تدمر. . . وقد حاول الفرسُ بعدئذٍ الانتقام من أُذَينة، وأقاموا على حربه سنينَ طويلةً، فلم يظفروا منه بشيء[1] . . .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم: ١/٣٤٢، والمفصَّل: ٢/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥.

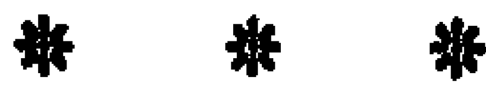
وكانت عَظمةُ تَدْمُر على هذا النحْوِ، أو أكثرَ منه شِدَّةً وألَقاً، على عهد زنوبيا[1]، واسمها الأصليُّ «بنتُ زباي»، الملكة العربية المشهورة في العصر الجاهلي ببلاد الشام،صاحبة تدمُر، وملكة الشرق. وَليت المُلكَ بعد وفاة زوجها أُذَيْنة سنة (٢٦٧ م)، ولم تلبث أن تمرَّدت على الرومان، وقاتلتْهم فهَزَمْتهم، واستقلَّتْ بالملك، فامتدَّ سلطانُها من الفرات شرقاً إلى المتوسط غرباً، ومن صحراء العرب إلى آسية الصغرى، وضمَّت إليها مصر. ثم حشد لها الرومانُ، وهاجموها بقيادة أورليان، وبعد معاركَ ضاريةٍ، وحصارٍ شديد، انهزمت، وقيل إنها سيقت أسيرةً إلى روما حيث توفيت سنة (٢٨٥ م). لم ينبغ مثلُ الملكةِ زنوبيا في النساء شجاعةً وعقلاً ودهاءً، فضلاً عن الجمالِ، والهيبة، والحَزْم، واحتمالِ المَشَاقِّ والمصاعبِ، إلى ما تميَّزَتْ به من العفَّة، وأناقة المَلْبَس، وسِعة الثقافة، وغزارة المعرفة. وكانت تُحسِنُ إلى جانب العربية التدمريَّةِ أكثرَ اللغاتِ المعروفة في عصرها كاليونانية والمصريّة وأخَواتِ التدمريّة من الساميَّات.



وكان تُجّارُ تدمر يتولَّوْن جانباً كبيراً من أعمال التبادُل التجاري بين أُمَم الشرق وبلاد حَوْض المتوسط، وكانت لهم علائقُ تجاريةٌ منظمة بكل البُلدان المعروفة يومئذٍ، والمواطنُ التدمريُّ كان تاجراً قبل أن يكون شيئاً آخر، بل كان، بتعبير أكثر دِقَّةً، صاحبَ قافلة تجارية، أو شريكاً بها، أو مرتبطاً بشأنٍ من شؤونها. وكانت تدمُرُ نموذجاً لمدُنِ القوافل، فقد هُيِّئَتْ فيها كلُّ

(١) يخلط معظمُ المؤرخين بين زنوبيا ملكة تدمر، وزينبَ الزبّاء ملكةِ الجزيرة الفُراتية، التي قتلت جذيمةَ الأبرش ملكَ الحيرة، ثم انتقم منها ابنُ أخته عمرو بن عديّ، واحتال حتى حَصَرها في حِصْنها، فتناولتْ سُمّاً وقتلت نفسها، وقالت قَوْلتَها: بِيَدي لا بِيَدِ عمرو!

الأسباب لتسهيل وصول القوافل إليها، ونُزُولِها بها، أو مُرُورها وانتقالها وتَزوُّدها بما تحتاج من المؤَنِ. وكانت لها في تدمر مخازِنُ عاليةُ السقوف، مُعَدَّةٌ لِدُخُول الإبِلِ بأحْمَالها، كما كانت لها طرُقٌ خاصةٌ تسلكها، وكان لكل قافلة قائدٌ يقودُها، وجماعةٌ من الخفراء يحرسونها، وكشَّافَةٌ يتقدَّمُونها. وقد حصل التدمريون من شيوخ القبائل في البادية على أُذُون بمرور قوافلهم سالمةً في مناطقهم، ولم يكن هذا ليمنعَ قائدَ القافلة من مُبَاغَتَةٍ يقوم بها بعضُ الصعاليك، فكان يستعدُّ لمثل ذلك، ويحمل معه الهدايا يُقدِّمها إليهم على سبيل المجاملة ودَرْءِ الأذَى. وكان تجارُ القوافل في تدمر من الطبقة العليا في المجتمع، وقد أُقيمت لهم، ولقادَةِ القوافل وحُمَاتِها، تماثيلُ رُفِعَتْ على أعمدةٍ في شوارع المدينة وساحاتها وسوقها الرئيسة العامّة (الآغورا)، تكريماً وتخليداً لذكراهم[١].



المطلب السابع ـ مملكةُ الحِيرَة:

وهي من الدُوَلِ التي أقامها العربُ في العراق، وكانت تشملُ غالباً: الحيرة والأنبار وبَقَّة وهِيت وعين التمر والقطقطانة، وخَفِيَّة وما والاها، والرقَّة، وتمتد إلى سِنْدَاد والأُبُلَّة، ومن نواحيها: الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ وبارق. وكانت منازِلَ لكثير من قبائل العرب[٢]، منذ أوائل القرن الثالث للميلاد[٣]،

---

(١) تدمر والتدمريون: ١٠١ ـ ١٠٤، ١٠٦ ـ ١٠٨، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٤٣٣.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٢٦٩ـ ٢٧١، وتاريخ العرب: ١٢١، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٥، وتاج العروس: ٨/ ٢٢١(سند)، و ١١/ ١٢٠ (حير)، والأغاني: ٢٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤، والشعر والشعراء: ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ومعجم البلدان: ١/ ٤٧٣.

(٣) تاريخ العرب: ١٢٠.

وكانت مدينةُ الحيرة حاضِرتَها، وعاصمة ملوكها من بني لَخْم، تقع على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ جنوبَ الكوفة، بين بحيرة النجف وتخوم البادية، أرضُها خصبة جداً، كثيرةُ المياه والأشجار، طيِّبةُ الهواء. وكان أهلُها أكثر العرب ثقافةً، حذقوا الصناعات، ودَرَسُوا بعض العلوم، وأتْقَنَ بعضُهم الفارسية والآرامِيَّةَ إلى جانب العربية(١)، فكانوا يجوبون الأقطار يُتاجِرون ويُعلّمون إخوانهم القراءةَ والكتابة. وكانوا مُسْتقلِّين في إدارة شؤونهم، لا يلتزمون حِيَال دولة فارس، إلا بما تُوجبه المعاهداتُ عليهم، وهو غالباً الوقوفُ إلى جانبها في الدفاع عن حدودها ضدّ غارات الأعراب، أو حروب الروم. وكانوا في رخاءٍ كبير ونعيم مُقيم، يعملون وُسَطاءَ في التجارة، يحملون متاجرَ الفرس إلى مكة، وبعضِ أقاليم جزيرة العرب، وينقلون متاجرَ العرب إلى فارس(٢)، ويتعهَّدون حمايةَ القوافل الفارسية بأجْرٍ هو، عادةً، جُعْلٌ كبيرٌ يأخذونَه منهم(٣)، وذكرت بعضُ الروايات التاريخية أن الفرس استكثروا مرَّةً هذا الجُعْلَ، وأبَوْا أن يدفعوه، فاستولى العربُ على القافلةِ كلِّها. . .

---

(١) المفصَّل: ٣/ ١٧١.

(٢) فجر الإسلام: ١٦ ـ ١٧.

(٣) المرجع نفسه: ١٤، والمفصَّل: ٧/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

دولة بني لخم في العراق

ويبدو من استقراء أخبار ملوك بني لخم بالعراق «أنهم كانوا يتمتَّعون باستقلال وسيادة في المناطق والقبائل والمدن التي كانت تحت سلطانهم وحُكمهم، وأنهم كانوا يُعيِّنُون العمال، ويَجْبُونَ الضرائب فيها لحسابهم، وأن صِلتَهم بملوك الفرس كانت صِلَةَ محالفةٍ، ومنافعَ مُتَقابلة في مُعْظم الأحيان، أكثرَ منها صلةَ خاضعٍ، تابعٍ، أو عاملٍ، وإن كان يُستفاد من ثنايا الروايات أيضاً، أن ملوك الفرس كانوا يتمكنون أحياناً من بَسْط سلطانهم على الدولة اللَّخْمِيَّةِ وملوكها، ويتدخَّلون فيها عَزْلاً ونَصْباً في ظروفٍ تَرتَبِكُ فيها حالةُ الدولة، بسبب انكسار حربي، أو تنافسٍ على العرش»(١)، ولكن ذلك لم يكن قاعدةً، فقد اشتدت سيطرة فارس أواخر عهد بني لخم، واجْتَرأ

(١) تاريخ الجنس العربي: ٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

كسرى أبرويز على قتل الملك النعمان، ثم حاول أن يحكم الحيرةَ مباشرةً بِعُمَّالٍ من الفرس، فأخفق في محاولته، واضْطُرَّ إلى استعمال «إياس بن قبيصة الطائي» مُداراةً للعرب، ووقتئذٍ وقعت موقعةُ ذي قار، وانتقم فيها العربُ من الفُرس ثأراً لمقتل ملكهم النعمان.

ويؤكد استقلالَ دولة العرب بالحيرة غالباً عن دولة فارس، النصُّ الذي دوَّنَهُ «أبْرَهَةُ» باليمن، بعد انتهائه من ترميم سَدِّ مأرب نحو سنة (٥٤٣ م)، وذكر فيه أسماء الوفود التي أَتَتْهُ مُهنِّئةً، فكان فيها: رسولٌ لملك الحيرة المنذر الأكبر ابن ماء السماء، ورسولٌ لملك الغساسنة بالشام الحارث بن جبلة، وكذلك رسول لقيصر الروم جُسْتِنْيان، وآخَرُ لكسرى الفُرس أنو شروان[1]. . . وقد كان المنذر الأكبر (٥١٤ ـ ٥٥٤ م) من عظماء ملوك العرب بالعراق، ومن أرْفَعِهم قَدْراً، وأشدِّهم بأساً، وهو الذي انتصر على «بليزاريوس» أحدِ أبطال الروم، وكبيرِ قُوَّاد جُسْتنيان، وأَسَرَ اثنين من قادته[2]. . . وهنالك أيضاً أخبار عن وجود عُمَّالٍ أحياناً لملوك الحيرة على بلاد البحرين وغيرها، والعاملُ عند العرب عادةً نائبُ الملك[3]، وعن وُجودِ سفراءَ لهم أيضاً عند ملوك الفرس والروم، ولا سيما في أيام عظمائهم، كامرىء القيس بن عمرو بن عَدِيّ اللخميِّ، فقد جاء في النقش الذي عُثِرَ عليه بالنَّمَارة من أرض حوران، وكانت في حَوْزَةِ الروم: «هذا قبرُ امرىء القيس بن عمرو، مَلكِ العرب كلِّهم، الذي تقلَّدَ التاجَ، وأخضعَ قبيلتَيْ أسد ونزار وملوكَهم، وهَزَمَ مَذْحِج، ووصل إلى أسوار نجْرانَ مدينةِ شَمِر، وأخضع مَعَدّاً، واستعمل بَنِيهِ على القبائل، وأنَابَهم عنه لدى الفُرس والروم. . .»[4]. ويتضح من هذا النقش، المكتوب بالحرف

---

(١) المفصَّل: ٥/٣٢٨، ٣/ ٤٨٤.
(٢) المفصَّل: ٣/٢١٩ ـ ٢٢١، والأعلام: ٧/ ٢٩٢.
(٣) المفصَّل: ٥/٢٨٧.
(٤) العرب قبل الإسلام: ٢٦٩ ـ ٢٧١.

النبطي واللهجة العربية الشمالية، أن جزيرة العرب كلَّها كانت وقتئذٍ بين مَلِكَيْن: شَمِر يرعش (٢٧٥ ـ ٣١٦ م)، ملكِ سبأ وريدان وحضرموت واليمن، وامرىء القيس بن عمرو (٢٩٣ ـ ٣٢٨ م)، وأن هذا الأخير ملَّكَ أبناءَهُ على قبائل العرب[١]، وأرسل بعضَهم نُوَّاباً عنه لدى ملوك فارس والروم... والعجيبُ أن زَيْدانَ، بعدما أثبتَ نصَّ هذا النقشِ الخطير، نقل عن ابن خلدون قوله: «إن امرأ القيس كان عاملاً للفُرس على مَذْحِجَ وربيعة ومُضَر، وعلى سائر بادية العراق والجزيرة، والحجاز»[٢]! ولا بدَّ لنا من الإشارة هنا إلى أن المقصود بالجزيرة في هذا النصّ، هو القسمُ الشماليُّ من بلاد الرافدين، وهو ما سمَّاهُ الرومانُ «ميزوبوتاميا». أي ما بين النهرين[٣]، وهو المنطقة التي تقع بين أشُور وبابل، التي سمَّاها العربُ: الجزيرةَ، أو جزيرةَ أقُور، وكانوا تَوغَّلُوا فيها وغلبتْ قبائِلُهم على مُعْظمها[٤]، فلمَّا ظهر قورشُ الفارسي[٥]، وضمَّها إلى مُلكه، سمَّاها: العربيَّةَ، وكذلك فعلَ حفيدُه دارا ابنُ قُمبيز[٦]، فقد ذُكرتِ «العربيَّةُ» في البلاد التي خضعتْ له[٧]، وتوهَّم

(١) المفصَّل: ٢/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٢٧١.

(٣) ويُسمَّى القسمُ الجنوبيُّ: بلاد بابلَ، والعراقَ العربيَّ، والسوادَ، وسهلَ شنعار، وحدوده من موقع بغداد إلى الأُبُلَّة على رأس الخليج العربي.

(٤) موسوعة تاريخ العالم: ١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨، وتاريخ أوروبة في العصور القديمة: ١٢٦، ١٧٥. ومعجم البلدان: ١/ ١٣٨، ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥، والمفصل: ١/ ٦٢١.

(٥) قورش: (٥٥٧ ـ ٥٢٩ ق.م)، مؤسس الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، التي قضى عليها الإسكندر المقدوني سنة (٣٣١ ق.م).

(٦) دارا ابن قمبيز: (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق. م)، وقد بلغت الإمبراطورية في عهده أقصى اتساع لها، من الهند إلى مصر.

(٧) المفصل: ١/ ٦٢٠، ٦٢٥، ٦٢٨، وتاريخ سورية وفلسطين: ١/ ٢٤٠، ٢٤٢، والحوليَّات الأثرية ٣٢/ ١٠٨.

البعضُ أنها جزيرةُ العرب، بينما هي في الحقيقة الجزيرةُ الواقعةُ بين دجلة والفُرات[١]، ولم يَثْبُتْ أن الفُرس أوِ اليونان أو الرومان أخضعوا جزيرة العرب، وكلُّ ما جاء في الأخبار على خِلاف هذه الحقيقة، وهْمٌ أو لَبْسٌ وقع لأهل الأخبار، بعد انقضاء أكثر من ألف عام، فجعلوا يخلطون بين الأسماء، ويحسبون الجزيرةَ الفُراتيةَ، التي كانت تخضع بين حينٍ وآخَر إلى بعض ملوك إيران، والتي نَعَتَتْها المراجعُ الفارسية بالعربية، إنما هي جزيرةُ العرب! هذا، ويجب الحذَرُ أيضاً من المراجع الفارسية ومَن أَخَذ عنها، حينما تتحدَّثُ عن خضوع العرب إلى الفرس، لأن ذلك لا يعني في الحقيقة سوى عرب العراق والجزيرة الفراتية، كما أنه لايدلُّ على خُضُوعٍ فعليٍّ ودائم، بل على تحالُفٍ في معظم الأحيان[٢].

والواقع أن العرب تَمدَّدُوا حتى إلى بلاد فارس، في عهد ملوك الطوائف بإيران، وقد استمرَّ أكثر من خمس مئة سنة، لم يكن للفُرس فيها شأنٌ يُذكر، حتى قام فيهم أردشير الأول ابنُ بابك (٢٢٦ ـ ٢٤٠ م)، فقضَى على ملوك الطوائف، ووحَّد البلادَ، وأقام الإمبراطورية الساسانية[٣]، وكان العربُ وقتئذٍ مُسْتَقِرِّين في مَيْسَانَ، والأحْواز[٤]، وكَرْمان[٥]، وكان حاكمُ ميسان عربياً حينما سار إليها أردشيرُ الأول ليُخضِعَهَا، مما يدلُّ على أن

(١) المفصَّل: ١/ ٦٢٦.

(٢) تاريخ العرب: ٧٠، والمفصل: ١/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣، ٦٢٦.

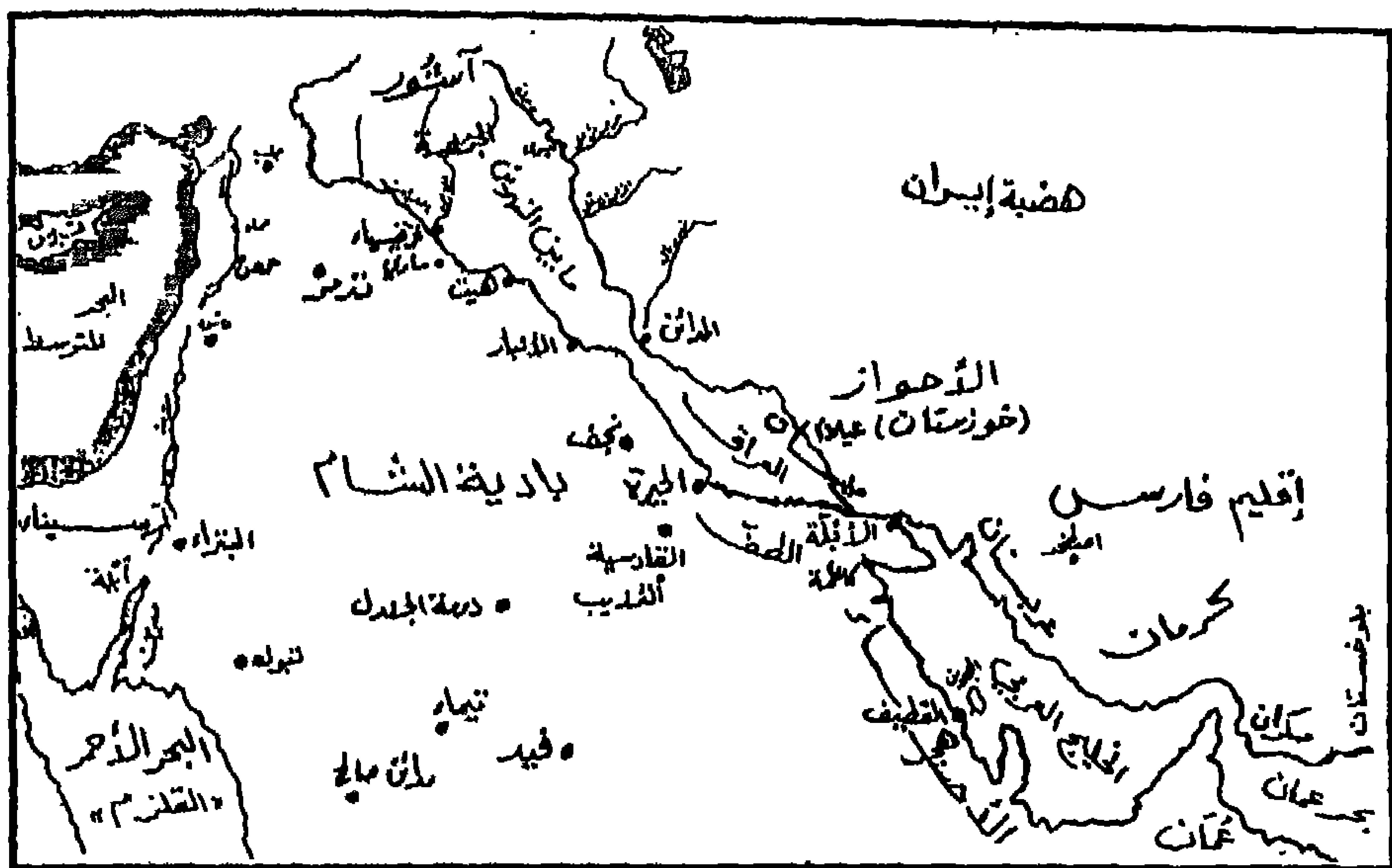
(٣) موسوعة تاريخ العالم: ١/ ٢١٥، ٢١٧، ٣٤١، وتاريخ الطبري: ١/ ٥٨٤، ٦١١، والكامل: ١/ ٢٩٣، ٣٤١، وأبو الفداء ـ المختصر في أخبار البشر: ١/ ٤٦، والمعارف: ٦٥٣، وتاريخ العصور القديمة: ١٤٥.

(٤) الأحْواز: ج حَوز، من حاز الأرضَ إذا مَلَكَها وبيَّن حدودها، فلا يكون لأحدٍ غيره حقٌّ فيها، ولبِس في كلام الفرس حاءٌ فقالوا: الأهواز وخوزستان.

(٥) كَرْمَان: إقليم يقع بين فارس ومكران، ويُتاخِم البحرَ.

وجودهم هناك كان قبل قيام دولة بني ساسان بأَمَدٍ طويل. ولم يكن العربُ ينتقلون إلى فارس من العراق وحسب، بل كانوا يُبْحِرون من سِيفِ[1] عُمَان، ومن قُرى الخطِّ وعبد القيس وكاظمة في سِيف البحرين (الأحْسَاء)[2]. والعجيبُ أن في إمارات الخليج اليوم، جَوَاليَ قَدِمَتْ إليها من إقليميْ كرمان وبلوخستان، يدَّعي بعضُها أنهم من نَسْل العرب الذين استوطنوا كرمان وأسيافَ فارس في العصر القديم[3].

توطُّن العرب شاطِئَيْ الخليج في عهد ملوك الطوائف



وقد بدا مقدارُ ما بلغَهُ العربُ في العراق وجنوبِ فارس من النفوذ حينما هَلَكَ الملك يَزْدَجِرْدُ الأثِيم (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م)، وكان سَيِّىءَ السيرة،

---

(١) سِيْف: ج أسياف، وهو ساحل البحر.

(٢) المفصَّل: ٢/٦٣٣، ٦٣٨ ـ ٦٣٩.

(٣) عُمَان والإمارات السبع: ١٤.

فكَرِه كُبَراءُ فارس أن يُملِّكُوا أحداً من أولاده، ولا سيما ابنه بهرام جور، الذي أنْشَأهُ أبوهُ في بادية العرب، وأرْضَعتْهُ نساؤهم. وكان يزدجردُ دفَعَهُ إلى ملك العرب في العراق النعمان بن امرىء القيس (٤٠٥ ـ ٤٣١ م)، لِيَربُوَ في حِجْرِهِ، فلم يتأدَّبْ بأدب الفُرس، وإنما كان أدبُه أدبَ العرب، وخُلُقه كخُلقِهم، فأجمعوا على تمليك ابن عمٍّ له... فأرسل بهرامُ إلى النعمان يستنصِرُهُ، فوجَّه إلى المدائن جيشاً جعل عليه ابنَه المنذر، فعَسْكَر قريباً منها، وبعد مفاوضات وافق الفُرس على خَلْع من نصَّبُوهُ، واعتلى بهرامُ جُور العرش (٤٢٠ ـ ٤٤٠ م)، بفضل سلطان العرب في إيران يومئذٍ[1]... ولولاوجودُ جاليةٍ كبرى منهم، مُسْتقرَّةٍ داخلَ إيران[2]، فضلاً عن قوة دولتهم في العراق، لما استطاع جيشُ النعمان الوصولَ إلى عاصمة الإمبراطورية، ولما كان له ذلك النفوذُ الذي أنزل عن العرش ملكاً، ورفَعَ آخَرَ مكانَه...

على أن هذه الواقعة يجب ألا تحمِلَنا على الاعتقاد بأن الأمور بين الفرس وعرب العراق كانت تجري هكذا دائماً، فالعلاقة الطبيعية بينهما كانت غالباً علاقةَ حلفٍ وتعاهُد، وما لم يقُمْ في أحَدِهما مَلِكٌ قويٌّ طموح، فيخرج عن هذه القاعدة، ويتمرَّدُ عليها، كالذي ذُكر عن تنكيل شابور ذي الأكتاف (٣٠٩ ـ ٣٧٩ م) بالعرب الذين توغَّلوا في بلاد فارس، من العراق والجزيرة الفراتية والبحرين وعُمَان[3]... ولعلَّ الذي جرى في عهد قبَاذ بن

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٧٠ ـ ٧٣، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ١٦٢، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٤٩ـ ٥٠، والمفصَّل: ٢/ ٦٤٥ ـ ٦٤٦، ٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧، والأعلام: ٨/ ٣٥.

(٢) المفصَّل: ٢/ ٦٣٣.

(٣) المعارف: ٦٥٦، والكامل: ١/ ٣٩٢، وموسوعة تاريخ العالم: ١/ ٣٤٣، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٤٨، والعرب قبل الإسلام: ١٣٣.

فيروز (٤٨٥ ـ ٥٣١ م)، يمكن أن يُتَّخَذَ دليلاً على طبيعة العلاقة، التي كانت بين الفُرس، والعرب في العراق، كما يُمكن أن يُفهم منه أنه لم يكن للفرس سلطانٌ مباشر على بادية الشام، ولا على جزيرة العرب. . . فقد تعاقَبَ، في زمن قباذ، على مُلك العرب في العراق، سبعةٌ من الملوك، أولهم: الأسودُ بن المنذر الأول (٤٧٤ ـ ٤٩٤ م)، ثم المنذر الثاني بن المنذر الأول، ثم النعمان الثاني بن الأسود، ثم أبو يعفر علقمة بن مالك اللخميُّ، ثم امرؤ القيس الثالث بن النعمان الثاني، ثم المنذر الثالث بن امرىء القيس الثالث، وهو المنذر الأكبر الشهير بابن ماء السماء. . . ولسببٍ ما، تَنحَّىٰ عن المُلك، واسْتبدَّ به الملِكُ الحارثُ بن عمرو بنِ حجر الكنديُّ بضعَ سنين، فأرسل إليه قباذُ: إنه كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلَكَ عَهْدٌ، وأُحبُّ لِقَاءَكَ. . . فخرج إليه الحارثُ في عَددٍ وعُدَّة، والتقيا بقنطرة الفَيُّوم، قربَ هِيت في العراق، واصطلحا على أن لا يجوزَ الفراتَ أحدٌ من العرب، أي أن يمنعَ الحارثُ القبائلَ التي كانت تتقلَّبُ في البادية، بين العراق والشام، من غزو الفُرس، وقد تقاضَىٰ من قَبَاذَ إتَاوةً على ذلك، بعدما أنبأَهُ بأنه لا يستطيعُ ضَبْطَ العرب إلا بالأموال(١). . .

ولا شك في أن هذا الخبر، على إيجازه، يُؤكد، كما ذكرتُ آنِفاً، أن العلاقة بين الفرس والعرب كانت غالباً علاقة حِلْفٍ وتعاهُدٍ، ما لم يظهر أحياناً في أحد الفريقين مَن يطغى على الآخَر(٢). وأن الفُرس هم الذين كانوا

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٩٥ ـ ٩٦، والكامل: ١/ ٤١٣ ـ ٤١٥، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٥١، وموسوعة تاريخ العالم: ١/ ٣٤٥، والعرب قبل الإسلام: ٢٧٦، والمفصَّل: ٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، و ٣/ ٣٣٦ ـ ٣٤١.

(٢) برنارد لويس ـ العرب في التاريخ: ٤١.

يُؤَدُّون الإتاوةَ إلى العرب مُقاربةً وتألُّفاً. وأن الملوكَ الستَّةَ الذين سبقوا الحارثَ، كانوا على «العهد» نفسِه الذي أحبَّ قَباذُ عَقْدَهُ مع الحارث. وليس في النصِّ، ما يُشِيرُ إلى تَبَاعَةِ العرب للفُرس، ولو كانت القاعدةُ أن يكون العربُ عُمَّالاً لملوك فارس على العراق، لكان حَسْبُ قَباذَ أن يُرسلَ إلى الحارث يأمره بضبط الحدود، ومنع غارات الأعراب.

وقد كان موقعُ الحيرة بين بادية الشام والعراق مركزاً تجارياً له أهميَّةٌ كبرى، لأن كثيراً من بضائع الشرق الأقصى والهند كانت تُنقل إلى سورية عن طريق بادية الشام مُروراً بالحيرة، فكانت بذلك من محطات التجارة وأسواقها الشهيرة، وكانت قبائلُ العربِ وتُجَّارُهم يقصدون سوقَها لِمَا كان فيه من العُروض والسِّلَع والغَلَّاتِ المختلفة[1]، ولما كان في المدينة من المُتَنَزَّهات والحانَاتِ والملاهي... والمعروف أن الحيرةَ بلغتْ ذروةَ الازْدِهار في أيام الملك المنذر الأول (٤١٨ ـ ٤٦٢ م)، وهو ابنُ الملكِ النعمانِ الأول (٤٠٠ ـ ٤١٨ م)، الذي يُنسب إليه بناءُ قصرِ الخَوَرْنَق، وكان من بدائع الفن. وقد انتهت هذه المملكةُ مع الفتح الإسلامي سنة (٦٣٣ م) حين استسلمتْ للجيش الذي يقودُه خالدُ بُن الوليد[2].

* * *

المطلب الثامن ـ مملكة الغساسنة:

وهي من دول العرب في الشام، بدأت بالظهور أوائل القرن الثالث للميلاد بين حوران والبلقاء، وامتدَّت إلى الجنوب الشرقي من دمشق، على

---

(١) المفصَّل: ٣/٣٠١.

(٢) تاريخ العرب: ١٢١ ـ ١٢٢ و ١٢٥.

مَقْربةٍ من الطرف الشمالي لطريق القوافل العظيم الذي كان يربط مأرب بدمشق[1]. . . فكانت بذلك الموقع «حلقةَ الوصل بين بلاد الروم وجزيرة العرب»[2]. وقد قيل إن جَفْنَةَ بنَ عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء من أَزْد كهلان، هو أولُ من تولّى قيادةَ الغسّانيين إلى أطراف الشام الجنوبية، وهو الذي أسَّس دولتهم، «وكانت عاصمتُهم الجابِيَةُ من قُرى الجولان، بين دمشق والمزيريب»[3]، وقد اشتُهرت بجَابِيَة الملوك وجابية الجولان[4]. وكانوا على جانب كبير من الترقي، مُتَّصِلين بالثقافة اليونانية والحضارة الرومانية، اتّصالَهم بحضارات من تعاقَبَ على بلاد الشام من الأُمَم والشعوب، ولا سيما الكنعانيين والآراميِّين، وعُمِّرتْ دولتُهم قروناً طويلةً[5] ثم انتهت في عهد جَبَلة بن الأيْهم آخر ملوكها، بعدما انتصر العربُ على جيوش الروم في معركة اليرموك.

ولا شك في أنهم لعبوا دوراً خطيراً في التجارة بين بلاد العرب وسورية وبلاد الروم، يبدو ذلك فيما كانوا عليه من الثَّراء والترف، وفيما شادوه من القصور والمنازل والمرافق العامة، كالحمامات العامَّة والأقْنِية الأرضيَّة والمسارح والأدْيَار، ولا تزالُ آثار قصورهم ظاهرةً في مدينة بُصْرى، وفي أنحاء الشرق والجنوب من جبال حوران، ويُقال إن نحواً من ثلاثِ مئةِ مدينةٍ وقريةٍ، كانت عامرةً في أيامهم، وهي اليومَ أطلالٌ حول منطقة حوران. ومن المواضع التي يُنسب إليهم بناؤها: القسطل بالبلقاء،

---

(١) تاريخ العرب: ١١٥ ـ ١١٦، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٧٢، والعرب قبل الإسلام: ٢٥٣.

(٢) تاريخ الحضارة العربية: ١٩.

(٣) الأعلام: ٢/ ١٣١.

(٤) المفصَّل: ٣/ ٤٣٨.

(٥) فجر الإسلام: ١٩ ـ ٢١.

وأذرح من أعمال الشراة، وقصر المشْتَىٰ والقصر الأبيض، والقلعة الزرقاء، وعذراء (عدره)، وجلَّق، والسويداء[1]. ويتبيَّن من مطابقة مختلف الروايات أن حدود مملكة الغساسِنة لم تكن ثابتةً، بل كانت تتَّسعُ تارةً، وتضِيقُ أخرى، على قَدر قوَّة أو ضعف مُلوكها، وربما امتدت أحياناً إلى مقربة من دمشق، وإلى فينيقية لبنان، وفلسطين والأردن وقسمٍ كبير من البادية. لكن هذا لا يتعارض مع القول بأن ملكهم الثابت كان بين حوران والعقبة، حيث تُعدّ منطقة الجولان أكثرَ بلادهم شهرةً[2]. وكانت بُصْرى فى أيامهم محطةً تجاريةً ضروريةً جداً للقوافل القادمة من الحجاز واليمن، بعدما تحوَّلت طرقُ التجارة إليها إثْرَ سقوط البتراء، كماكانت موضعَ سوق موسمية تُقام فيها كلَّ سنةٍ في موعدٍ معيَّن. وجاء في الأخبار أيضاً، أنه كان بها سوقٌ تجاريةٌ مَسْقُوفةٌ، مساحتُها نحوُ مئةٍ وأربعين متراً مربَّعاً، وكانت بها كنيسةُ الراهب بَحِيرَا. وإذاكان انتقالُ الأنباط إلى بُصْرى، بعد انتهاء دولتهم، قد حوَّل طرُقَ التجارة إليها، فوسَّعُوها، وشادوا بها كثيراً من الأبنية الرائعة، غير أن سقوط تدمر هو الذي أنْعَشَ تجارتَها، فظلَّتْ على ذلك في زمن الغساسنة، وعَظُم خَطَرُها، حتى قال فيها خالدُ بنُ الوليد: بُصْرى ميناءُ الشام والعراق[3]... ويُذكَرُ أن الإدارة الرومانية أقامت على طول الحدود السورية مع الصحراء العربية، سلسلةً من الحصون، كان حُمَاتُها غالباً من قبائل العرب، لحماية حواضرها من غزو الأعراب، وهجرة القبائل إليها[4]، وهو ما كفل للأسواق

---

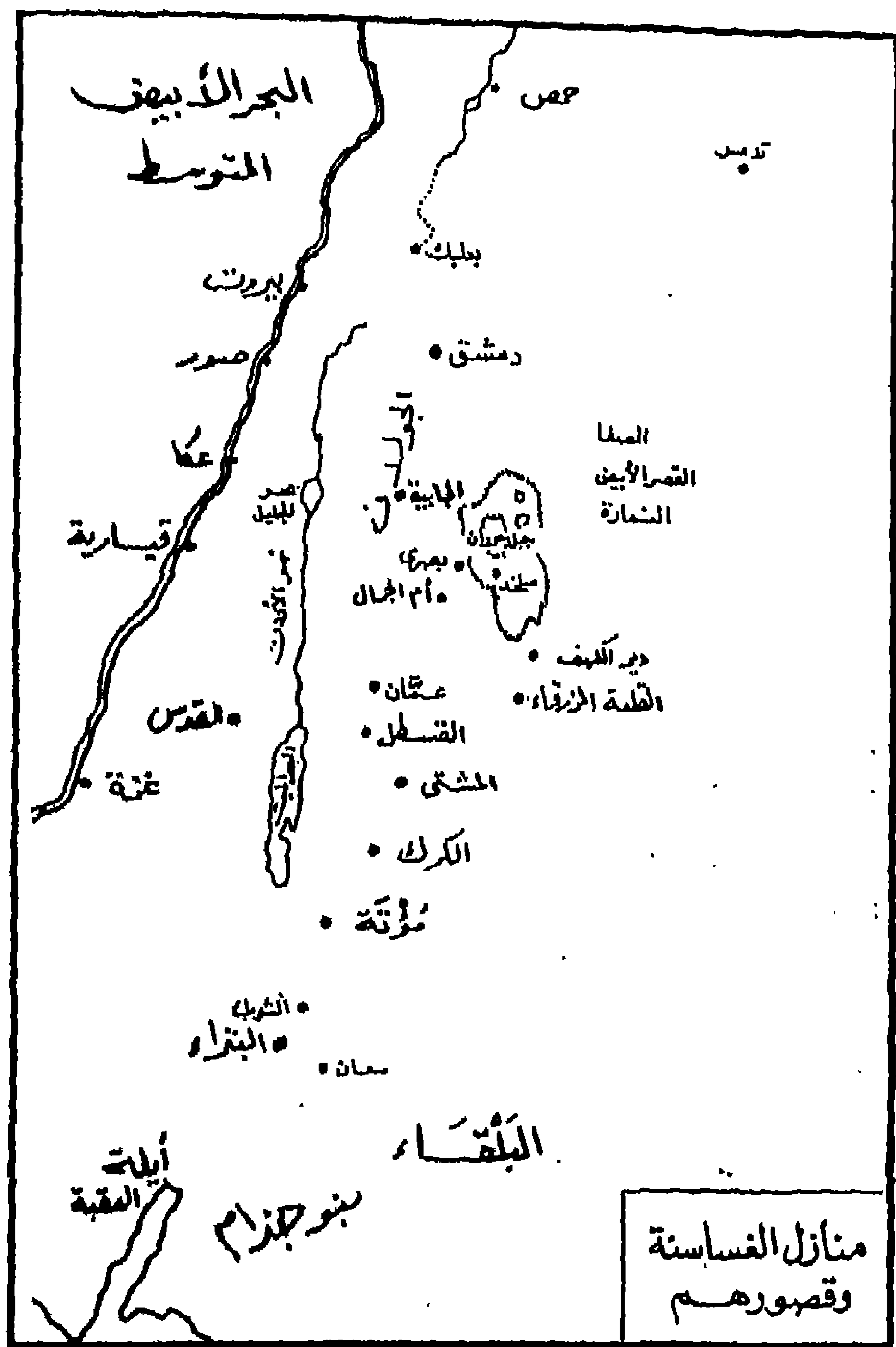
(١) تاريخ العرب: ١١٩، والعرب قبل الإسلام: ٢٦٠ ـ ٢٦١، والمفصَّل: ٣/٤٣٨؛ وتاريخ الحضارة العربية: ١٩.

(٢) المفصَّل: ٣/ ٤٤٠.

(٣) معالم الحضارات: ١٣٥.

(٤) المفصَّل: ٢/٦٢٩.

السورية عهداً طويلاً من الرخاء والازدهار، وفتح للتجار السوريين أسواق العالم[1].



---

(١) تاريخ سورية: ٣١٩/١.

وأخيراً لا بُدَّ من التنويه بما حقَّقَهُ محمد عزّة دَرْوَزَة في كلامه على مملكة الغساسنة، إذ أكَّد أنها لم تكن عمَالةً روميَّةً مُرْتَهنةً برضاء الروم، وإنما كانت مملكةً قامت في أساسها، ثم استقرَّتْ، واستمرَّت بالاستناد إلى عصبيَّة قوميَّةٍ، وقوةٍ ذاتيَّة، فرأى الرومُ أن يستفيدوا منها في حماية معمورة الشام من هجمات البادية، وفي حرب أعدائهم من الفُرس وبني لخم، ورأى الغساسنةُ مصلحةً لهم في التعاقُد والتوافُق مع الروم على ذلك. وكان ملوكُ الغساسنة في الوقت نفسه يمارسون الحكم الفعليَّ في أنحاء مملكتهم، ويُوَلُّون العمَّالَ، ويجبون الضرائب، وظَلُّوا على هذا الأمر حتى أواخِرِ حُكمهم، وكانوا يتلقَّبون بألقاب الملوك، ويتوارثون الملك في ذُرِّيَّتِهم، ويُرسلون الرسُلَ والوفودَ إلى الدول الأخرى تُمثِّلُهم، وكلُّ ذلك يُعَدُّ من آيات الحكم الفعليّ، والسيادة، والسلطان، والاستقلال(١).



المطلب التاسع ـ مدينةُ مكَّة عاصمةُ العرب ومفخرتهم القومية:

ثمَّةَ مدنٌ أخرى للقوافل كانت محطاتٍ تجاريةً كبرى في بلاد العرب، نشأتْ على الطريق التجاري العظيم بين اليمن والشام، في بعض مناطق نَجْدٍ والحجَاز، وهي كثيرةٌ، نذكر منها مكةَ والطائف ويثربَ واليمامةَ ودُومةَ الجندل. . . وكان لها جميعاً آثارٌ قويَّةٌ في ظهور الأسواق الموسمية وازدهارها. ولكنّ أعْظَمَها أثَراً، وأكثرها نشاطاً، وأَوْسَعَها شُهْرةً كانت مدينة مَكَّة بما اجتمع لها من حُرْمَةِ الموضع، وحُسْنِ الموقع، وإحْكَامِ التدبير. . .

---

(١) تاريخ الجنس العربي: ٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

فالكعبةُ فيها كانت للعرب جميعاً، على اختلاف قبائلهم، وتَبَايُنِ دياناتهم، وتَعدُّدِ أرْبابِهم، وهي بيتُ الله، واللّهُ عندهم ربٌّ فوق الأرباب جميعاً، والأمرُ كان فيها، خلافاً لِما كان في غيرها، إنما يَقُومُ على التعميم دون التخصيص، وعلى تمثيل العرب بجُمْلةِ مَأْثُوراتهم ومعبوداتهم[1]، وليس على تمثيل أهل مكة وحدَهم وما كان لهم من الشعائر والسُّنَن. وقد كانت مدينةُ «الطائف» على طريق القوافل، وكانت أطيبَ هواءً، وأجْوَدَ تُرْبةً، مَلأىٰ بالعُيون الجارية، والمياه العَذْبة، والأودية الخصبة، والمزارع المُثْمِرة من النخيل والأعْنابِ والموز والرمّانِ وسائر أنواع الفواكه والنبات، وكانت تسكنها قبيلةُ ثقيف، وهي من كُبْريَات قبائل العرب، ومعها فيها أحياءٌ من قريش وحمْيَر وأزْدِ السراة وكنانة وعُذْرة وهوازن وغيرهم[2]، وكانت «اللاتُ» معبودةً في الحجاز كما في تدمر والبتراء[3]، فأقاموا لها في الطائف بيتاً على وادي وَجّ، له حَجَبةٌ وكسْوةٌ، وكانوا يُحرِّمون موضعَه يُضَاهُونَ به الكعبة[4]، وكانت سوقُ عكاظ، وهي أعظمُ أسواق العرب الموسمية، تقومُ على سهلٍ واسع من الأرض، مُتَّصلٍ في كثير من جوانبه بسُفُوحِ الطائف ووِدْيانها، ومع هذه المزايا كلها، وبالرغم من أن بني ثقيف أحْسَنُوا استخدامها، وجعلوا من الطائف مدينةً غَنِيَّةً مزدهرةً، ومحطةً تجاريةً كبرى، نافَسَتْ مكة في كثير من الأمور، لكنها لم تبلغ مَبْلَغَها من المكانة الدينية، أو المنزلة السياسية والاجتماعية والتجارية عند سائر العرب.

* * *

---

(١) مطلع النور: ١٥٦.

(٢) معجم البلدان: ٤/٩.

(٣) تدمر والتدمريون: ٢٩٧.

(٤) المحبَّر: ٣١٥.

١ ـ مَوْقعُ مكة ونشأتُها:

في وسط طريق القوافل العظيم، الذي يمتدُّ بين جنوب جزيرة العرب وبلاد الشام، مُحاذِياً البحرَ الأحمرَ، وعلى بُعْدِ نحو خمسين ميلاً من ساحله عند مرفأ جُدَّة، تقومُ بضعُ سلاسِلَ من الجبال الصخريّة، وتُحيطُ بِوَادٍ تكادُ تَسُدُّهُ لولا منافِذُ ثلاثةٌ، يَصِلُهُ أَحَدُها بجُدَّة، والثاني بوادي القُرى وطريق الشام، والثالثُ بمدائن الجنوب. وفي هذا الوادي المحصور بالجبال قامتْ مكةُ وتَوَسَّعتْ حتى صارت أعظم مركز ديني، وأكبر محطة تجارية في تاريخ العرب، ثم غَدَتْ بموقعها بين الحضارة والبداوة أكملَ مِثَالٍ لِمُدُنِ القوافل التي كانت مَهْداً للرسالات النبوية، فالتاريخُ لم يعرفْ رسالة نَبَوِيَّةً في الحضارةِ دون غيرها، أو في البداوةِ المنعزلةِ دون غيرها[1]، وإنما عرفَ تلك الرسالات جميعاً في حاضِرةٍ تتوسَّطُ البادية، أو في باديةٍ على مَقْرُبةٍ من الحاضرة، ولذلك كانت مُدُنُ القوافل وما في حُكْمِها، ومكةُ أعظمُها، مهداً لقيام الدعوات الدينية، وكانت المواضِعُ الأُخرى مهداً للحُكَمَاءِ والنُسَّاكِ والفلاسفة، على مثال كونفوشيوس في الصين، وبوذا في الهند، وزرادشت في إيران، وسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم في اليونان.

وما يزال الغموضُ يكتنفُ تاريخَ مكة في أوائله، وإنما يمكن القولُ إنها كانت في أول عهدها منزلاً للقوافل، تأْوي إلى يَنَابيعَ فيه تَعْصِمُها من العطش، فتؤدِّي صلاةَ الشكر لله على هذه النعمة... ثم ما لبثت أن صارت محطةً على طريق التوابل والطيوب والأَفَاويه المنقولة من اليمن وظفار وحضرموت، وسائر العروض الأخرى المحمولة من بلاد الشام. وأسْهَمَ في تقدُّمها وازدهارها قيامُها في موقعٍ حَسَنٍ، تلتقي عنده طُرُق المواصلات بين

---

(١) عباس العقاد ـ إبراهيم أبو الأنبياء: ١٣٨ ـ ١٥١.

الجنوب والشمال والشرق والغرب. ويرى كثير من المؤرِّخين أنها «مَكُّورَابا» أي بيتُ الربّ، التي أشار إليها الجغرافيُّ اليونانيُّ بطليموس[1]، وأنها كانت في أول عهدها مُقَاماً دينياً ومركزاً للعبادة[2]، حتى قبل أن يسكنَها إسماعيل[3]... فمكَّةُ هي بَكَّةُ التي ذُكِرتْ في القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعالَمِينَ ﴾[4]، وإبْدَالُ الميم بالباء معروفٌ في لغات العرب. وتلك هي «بَعْلَبَكُّ» مُرَكَّبةٌ من كلمتين: بَعْلُ ومعناها الربُّ أو الإلَهُ، وبَكُّ ومعناها البيتُ، أي إلَهُ البيت، وهو الإسْمُ الذي أُطلق على مَعْبدٍ في البِقَاع الشرقيّ بلُبنان، فغَلَبَ على المدينة التي تُسمَّى بعلبك[5]. فإذا كانتِ الكعبةُ أوَّلَ بيتٍ أُقِيم لعبادة الله، في حين كانت الشعوبُ والقبائلُ في مختلف أنحاء الأرض، تُقيم البيوتَ لعبادة الأوثان والأصنام، فإنها بلا شك سابقةٌ في وُجودها قُدومَ إبراهيمَ وإسْماعيلَ إليها، يؤيِّدُ ذلك دُعاءُ إبراهيمَ ربَّه بقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾[6]... ولعلّ الطوفان كان قد أتى عليه، فأعاد إبراهيمُ وإسماعيلُ بناءَهُ، ورَفَعا قواعِدَه، وطَهَّرَاهُ للطائِفينَ والعاكِفينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ امتثالاً لأمْرِ الله جَلَّ شأنُه[7]. والمعروفُ أن نبيَّ الله إدريس كان قبلَ نُوحٍ وهُودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ، وقد قال بالتوحيد ودعا إلى عبادة الله والعمل الصالح، فهو أَقْدَمُ منهم جميعاً، بينما لا يعودُ العهدُ بإبراهيم إلى أبعدَ من

---

(١) العرب في التاريخ: ٤٣، وحياة محمد: ١٠١، ومطلع النور: ١٥٤.
(٢) تاريخ العرب: ١٥١.
(٣) حياة محمد: ١٠١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.
(٥) عبد الوهاب النجار ـ قصص الأنبياء: ١٠٣ ـ ١٠٩.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٧) أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ شرح القصائد السبع: ٢٥٣، تاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٣.

القرن التاسع عشر ق. م، ويُقال إنه ظهر في أرض كنعان بعد أكثر من ثلاثة قرون على انهيار مملكة إيبلا في تلّ مرديخ، نحوَ سنةِ (٢٢٥٠ ق. م)[١]، بل هناك من يذهب إلى أنه كان قريبَ العصر من حَمُّورابي ملك بابل (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق. م) أي في نحو القرن الثامن عشر وأواخِرِ القرن التاسع عشر ق .م[٢]. . . وقد عُرِفَ عن الصابئة أنها تَدِينُ بعقائد «سابقةٍ لجميع الأديان الكتابية، وعقائدَ سابقةٍ لدين الخليل. . .»[٣]، وأن أصحابها كانوا «يُوَقِّرونَ الكعبةَ في مكة، ويعتقدون أنها من بناء إدريس عليه السلامُ. . .»[٤]، وربما كان هذا دليلاً على أن الكعبة أقدمُ عهداً من زمن إبراهيم.

وعلى ذلك لا يمكننا أن نُعيِّنَ تاريخاً مُحدَّداً لنشوء مكة، وإنما نكتفي بالقول إنها قديمةٌ جدّاً، وأبعدُ عهداً من إبراهيمَ وإسماعيل، ونَجْتَزِىءُ بما تواترت به الأخبارُ عن أهلها في زمنِ إسماعيل، وكانوا غالباً من بني جُرْهم، أقبلوا من اليمن، فلمّا وصلوا إلى مكة، وجدوا «بَلَداً ذا ماءٍ وشَجَر. . .»[٥]، فأعجبهم، فنَزَلُوا به، وكانوا يَتقاضوْنَ ضريبةَ العُشْرِ ممن يدخلُ مكةَ، من شمالها أو من جنوبها. وقد تزوّج إسماعيلُ فيهم، وظلَّت سِدَانَةُ الكعبة بأيدي أبنائه، حتى آلَتْ إلى أخوالهم من بني جُرْهم، فاجتمعت لهم ولايةُ البيت المحرَّم وأَمْرُ مكةَ كلِّه، ومُلْكُ الحجاز[٦]. ثم إن جُرْهُماً بَغَوْا بعدئذٍ

(١) د. عمر الدقاق ـ إيبلا: ٥٨، ٦١، ٧٧.
(٢) أندريه بارو ـ ماري: ١٧١، إبراهيم أبو الأنبياء: ١٨٣، ١٨٥.
(٣) إبراهيم أبو الأنبياء: ٨٨.
(٤) المرجع نفسه: ٩١.
(٥) أخبار مكة: ١/ ٨٥، معجم البلدان: ٥/ ١٨٥، السيرة لابن هشام: ١/ ١١٢، المعارف: ٣٤.
(٦) الأعلام: ٢/ ١١٨.

بمكة، واسْتَحلُّوا فيها خِلالاً من الحُرْمَةِ، وظلموا مَنْ دَخَلها من غير أهلها، فقام إليهم بنو خُزَاعَة، وأَخْرَجُوهم منها، فصارت ولايةُ الكعبة ومُلْكُ مكةَ والحجاز إلى بني خُزَاعَة[1]، وبدأتْ بهم مرحلةٌ جديدةٌ من تاريخ مكة، شَهِدتْ فيها نهضةً كبرى قامت على حريّة التجارة والحرية الدينية. . . ولكن لا بُدَّ لنا قبل الحديث عن ذلك من التعرُّفِ إلى أهل مكة وبعضِ من كان حولهم من قبائل العرب، فهو يُعينُنا على تَبيُّنِ النظام الذي كان يَسُودُ الحجازَ يومئذٍ، وفَهْمِ الأُسسِ التي قامت عليها نهضةُ مكة بعد انتهاء عهد جُرْهم.

* * *

٢ ـ أهلُ مكة:

إن الأقوام التي نريدُ الحديثَ عنها، تعودُ أوَائلُها كما نعتقدُ إلى فترةٍ زمنية تقعُ في عصر الميلاد، قدَّرنا ذلك باستقراء حوادث التاريخ، وتَتَبُّعِ سلاسل الأنساب، وليس باعتماد تاريخ عَيَّنهُ أحدٌ من المؤرِّخين. ومن أجلِ ذلك رجعنا إلى عشرات المراجع، وكُتُبِ الأخبار، واسْتَخلصْنا منها جُملةً كبيرةً من المعلومات، فأَجْرَيْنا مُوازَنةً بينها، وأسْقَطْنا منها ما بدا لنا ضعْفُه وسُقْمُه، وأبْقَيْنا على ما رَجَّحْنا قوَّتَهُ وصِحَّته، فخرجنا من كل ذلك بما نعتقده صواباً، أو أقرب إلى الصواب.

والمعلومُ أن قبائل مُضَر بن نزار بن مَعَدّ، من أولاد إسماعيل، كانوا أصحابَ الكثرة والغَلَبة في الحجاز، دون سائر بني عدنان، وكانت الرئاسة لهم بمكة والحَرَم[2]. وقد أَعْقَبَ مُضَرُ بنُ نزار وَلَدَيْن هما: عَيْلانُ

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٢.
(٢) الأعلام: ٧/ ٢٤٩.

وإلياسُ[1]، فكان من وَلد قيس بن عيلان قبائلُ كثيرةٌ أشهرها: هوازنُ، وغَطَفان، وعَبْسٌ، وذُبْيانُ، وفَهْمٌ، وعَدْوَانُ، وثقيف[2]. . . وكانوا لكثرتهم إذا قيل اليمنيَّةُ والقَيْسِيَّةُ، دخلت قبائلُ عدنانَ كلُّها في قيس بن عَيْلانَ، نَسَباً أو عَصبيَّة[3]. أمّا إلياسُ فكان له من الولد: طابخةٌ واسْمهُ عمرو، ومُدْركة واسمُه عامر، وقَمَعَة واسمه عُمَيْر، وأمُّهم خِنْدِفُ بنتُ حلوان واسمُها ليلى، وهي يمنيةٌ من قُضَاعة، نُسِب إليها أولادُها[4].

وقد وَلدَ لطابخة بن الياس: أَدُّ بن طابخة، وكانت منازلُ بَنِيه في تهامة، ثم خرجوا إلى ظواهر الحجاز ونَجْد، وتفرَّعت منهم قبائلُ كثيرة[5]، أَشْهَرُها تميمُ بنُ مُرّ بنِ أَدّ، وكانت فيهم الرئاسةُ والعَدَدُ والمَنَعَةُ والنجدَةُ والبأسُ والشِّعْرُ والفَصَاحةُ، وأوّلُ من تَرأَّسَ فيهم سعدُ بن زيد مَنَاة بن تميم[6]، وتُعَدُّ تميم قاعدةً من أكبر قواعد العرب، امتدَّتْ منازلهم إلى خليج العرب من رَأْسِهِ إلى أصْقَاعِ الأَحْسَاءِ والبحرين وقطر ويبرين وعُمَان، ونزلت بطون منهم ريفَ العراق، وانتشرت في كثير من الحواضر والبوادي[7]. . .

أما مُدْركةُ بنُ الياس فكان من ولده: خُزَيْمةُ وهُذَيْلٌ. . . وكانت هُذَيْلُ من كُبْرِيَاتِ قبائل العرب، وكانوا في عَدَدٍ ومَنَعةٍ، وقد اشْتُهِروا بكثرة من كان فيهم من الشعراء، وكانت منازلُهم في جبال السَّرَاة، ووادي نخلة في جوار

---

(١) المختصر في تاريخ البشر: ١/ ١٠٥، شرح القصائد السبع: ٥٠٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٧.

(٣) الأعلام: ٥/ ٢٠٧.

(٤) تاج العروس: ٢٢/ ٧٦ ـ ٧٧ (قمع)، ولسان العرب: ٩/ ٩٨ (خندف).

(٥) الأعلام: ٣/ ٢١٧.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٩.

(٧) الأعلام: ٢/ ٨٨ و ٣/ ٨٥.

مكة، ولهم منازلُ بين مكة والمدينة[1]، وفي مواضِعَ أُخرى... ووَلَدَ خُزَيمْةُ ابنُ مدركة: كنانةَ بنَ خُزَيْمة، وكان منهم: عبدُ مناة بن كنانة، وفيهم القِيَافَةُ والعِيَافةُ[2]، ومالكُ بنُ كنانة، وفيهم النَّسَأَةُ والمُفْتُونَ[3]، والنَّضْرُ بنُ كنانة، وفيهم التجَّارُ وأَدِلاَّءُ القوافل، وكانت منازلُهم حول مكة وما وَالاَها، إلى تهامة، وعَرَفات، وكبكب، ووادي نُعمان[4]. ويرى معظمُ النسَّابين أن النَّضرَ بنَ كنانة هو قريش، سُمِّيَ بذلك لِتَقرُّشِهِ، أي لِتكَسُّبِهِ وتجارته، «ومَن لم يكن من وَلَد النَّضر فليس بِقُرَشيّ»[5]، وكانت أمُّ النَّضر: بَرّةَ بنتَ مُرٍّ، وهي أختُ تميم بن مُرّ، وكانت زوجةَ خُزَيْمة، فَخَلَفَهُ عليها ابنُه كنانة فولَدتْ له النَّضْرَ، فصار بنو تميم أخْوَالَ قريش[6]... وقد ذكر زيدان أن بعض كتب اليونان في القرن الميلادي الأول، أشارت إلى وجودِ بني كنانة في تهامة وجوارها[7]... وهي إشارةٌ مُهمَّةٌ جداً، إذ تؤكد أن العهد بأبناء مُضَر من الياس وقيس بن عَيْلان يعودُ إلى مطلع الميلاد، وربما إلى ما قبل ذلك.

---

(١) المرجع نفسه: ٨/ ٨٠، والشعراء الصعاليك: ٨٠ ـ ٨١.

(٢) القِيَافةُ: معرفةُ الآثار وتَتَبُّعها، والعِيَافَةُ: التكهُّنُ وهو صدقُ الحدْس والظن، أو زَجْرُ الطير والتفاؤل بأسمائها أو أصواتها أو مَمرِّها.

(٣) المحبَّر: ١٥٦، وجمهرة أنساب العرب: ١٨٧ و ١٨٩، والمعارف: ٦٦.

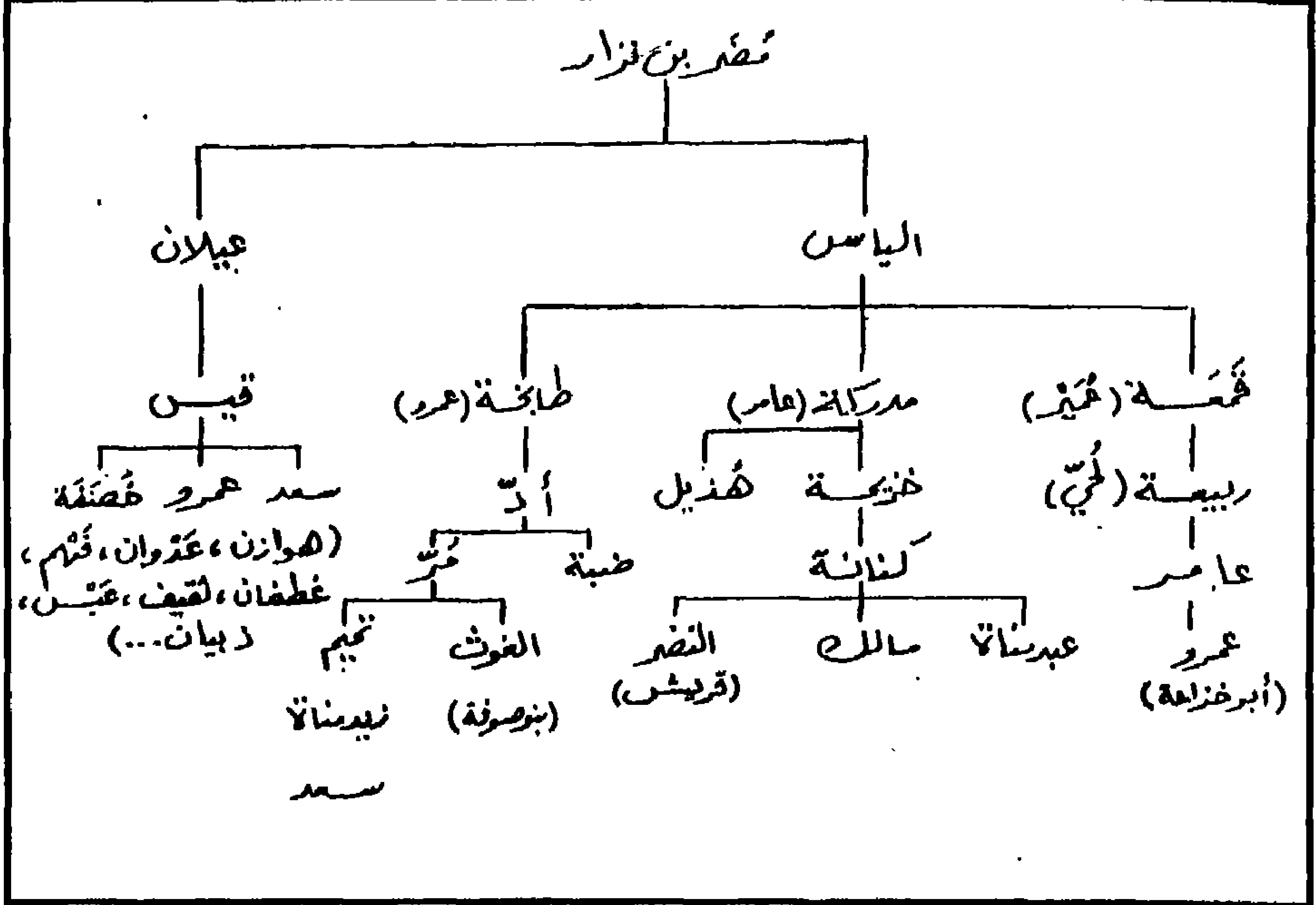
(٤) الأعلام: ٧/ ١٩٧، ٨/ ٣٣.

(٥) المعارف: ٦٧، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣، وانظر: أسواق العرب ٩١ ـ ٩٥، والسيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٩٣، ونهاية الأرب: ٣٩٨، وجمهرة أنساب العرب: ١٢، والعقد الفريد: ٣/ ٣١٢، وعمدة الطالب: ٤٤، وتاريخ صدر الإسلام: ٤٦، والمفصَّل: ٤/ ٣٢ ـ ٣٣.

(٦) المحبَّر: ٥٠، والمعارف: ٦٧.

(٧) العرب قبل الإسلام: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

أشهَرُ القبائل المتفرعة من مضر بن نزار بن مَعَدّ



وأمّا قَمَعَةُ بنُ الياس بن مُضَر، فكانت من بَنِيهِ قبيلةُ خُزاعَة، وهم بَنُو عمرو بنِ لُحيّ بنِ قَمَعة، واسْمُ لُحيّ ربيعةُ بنُ قَمَعَة. وكانت مواطنُهم مكةَ ومرَّ الظهران وما بينهما، وكانوا حلفاءَ قريش. وكانت لهم ولايةُ الكعبة بعد قبيلة جُرْهم أخْوالِ إسماعيل(١).

ويقول بعضُ النسَّابة إن عمرو بنَ لُحَيّ نُسِبَ إلى جَدِّه، وإنما اسْمُهُ: عمرو بنُ عامر بن لُحيّ بن قَمَعَة. وهنالك دليلٌ على كلا القَوْلَيْن في الحديث

(١) نهاية الأرب: ٢٤٤ ـ ٢٤٥، وجمهرة أنساب العرب: ٢٣٥ ـ ٢٣٦، وأنساب الأشراف: ١/ ٣٤. والسيرة لابن هشام: ١/ ٧٥، ٧٦.

النَّبَوِيّ الشريف، فقد أثبت الإمامُ البخاريُّ حديثاً رواهُ أبو هريرة[1]، عن رسول الله عليه الصلاةُ والسلام، قال فيه: «عمرو بنُ لُحيّ بن قَمَعَة بن خِنْدِف: أبو خُزَاعَة»، وفي حديث آخرَ قال: «رأيتُ عمرو بن عامر بنِ لُحيّ يَجُرُّ قُصْبَهُ (أي أمعاءَه) في النار. وكان أوَّلَ من سَيَّبَ السَّوَائب»[2].

وفي إشارته إلى محاولة الحبشة غَزْوَ مكة، ذكر فيليب حِتّي وصاحباه، أن «مكة كانت إذ ذاك مقام جالِيَةٍ حبشية، لعلَّها نصرانية، يُدْعَى أفرادُهَا: الأحابيش!..»[3]، وهو قول باطل ليس له سَنَدٌ من التاريخ، ولا سيما أنه يخالفُ كلَّ المراجع التاريخية عند العرب، فالأحابيش بطونٌ من كنانة وخُزَيْمة وخزاعة، اجتمعوا في جبل بأسفل مكة، وتحالفوا أن يكونوا يداً واحدةً على غيرهم، فسُمُّوا أحَابِيشَ لاجتماعهم، والتجمُّع في كلام العرب هو التحبُّش[4]... وعلى ذلك فالأحابيش أحياءٌ من العرب كانت تسكن مكة أو أطرافها، وليسوا أيضاً كما قال عمر فروخ «مزيجاً من العرب والأحباش

---

(١) أبو هريرة: كُنِّيَ بِهِرَّةٍ صغيرةٍ كان يلعب بها، على اختلافٍ في اسمِهِ واسم أبيه وأقوالٍ فيهما بلغت أربعةً وأربعين قولاً، من أشهرها: عبد شمس بن صخر الدَّوسي، وقد سمّاه الرسول في الإسلام: عبد الرحمن. كان خفيف الروح، مُحبّاً للمزاح.

(٢) صحيح البخاري ـ الجزء الرابع ـ باب المناقب: ٢٢٣، والتجريد الصريح للإمام الزبيدي: ١٤٠٢ (قصة خزاعة).

والسائبة: الناقةُ تُسَيَّبُ للأصنام نَذْراً، فَترعَى وتَرِدُ الماء حيث تشاء، ويُحرَّم لحمُها وركوبُها والحملُ عليها. وعُدّ هذا الفعلُ من أعمال الجاهلية خروجاً على دين إبراهيم عليه السلام.. «تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٦٣».

(٣) تاريخ العرب: ١٥٥.

(٤) المعارف: ٦١٦، جمهرة أنساب العرب: ١٨٨، المحبَّر: ٢٤٦، لسان العرب: ٦/٢٧٨، نهاية الأرب: ١٦٤، معجم البلدان: ٢/ ٢١٤، الطبقات الكبرى: ٥/ ٥٧، الكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٣، المختصر في أخبار البشر: ١/ ١٠٧.

والزَّنج. . . »[1]، وإنما هم عرب لا غير ذلك[2].

* * *

٣ ـ عهدُ خُزَاعَة بمكة:

ذكرنا أن أبناءَ إسماعيل كانوا، في نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد، مع أخوالهم من بني جُرْهم مُقِيمينَ بمكة، وظَلُّوا على ذلك حتى قامت خزاعة مع بعض بني كنانة، فأخْرَجُوا جُرْهُماً عن مكة، أو من بقيَ منهم فيها، وتولَّتْ خزاعةُ وقتئذٍ ولايةَ البيت الحرام ومُلْكَ مكة. . . ويبدو أنها أولُ من نظَّم الأمور في مكة والحجاز، فقامت بقِسْمَةِ الوظائف والأعمال، ووزَّعتْها على قبائل مُضَر[3]، فجعلَتِ الإفْتَاءَ في شؤون الدين، ونَسِيءَ الشهور[4]، وحسابَ السنين في بني مالك بن كنانة، وإمامةَ المواسم والقضاءَ بسوق عكاظ في بني تميم بن مُرّ، وإجازةَ الناس بالحجّ من عَرَفة في بني الغوث بن مُرّ، والإفاضَةَ بالحاجِّ من جَمْعٍ إلى مِنَى غَداةَ النَّحْرِ في بني زيد بن عَدْوان من قيس بن عيلان[5]، وتنظيمَ القوافل وأعمال التجارة في بني النضر بن كنانة. . .

---

(١) تاريخ صدر الإسلام: ٤٧.

(٢) على أوزان: عَرَبَة، وأعراب، وعَرَب. وفي رأيي أن العرب هم الذين أطلقوا على بلاد «أثيوبيا» إسمَ: الحَبَشَة، وعلى أهلها: الأحباشَ والحَبَش، لما كانوا يَرَوْنَهُ من المخالطة بين قبائلهم وقبائل المناطق المجاورة، ومنها اليمن. .

(٣) العرب قبل الإسلام: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٤) النسيء بالمعنى اللغوي: التأخير، وبالمعنى الاصطلاحي: الكبْسُ، وهو شهرٌ يتكوَّن من الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية كلَّ ثلاث سنوات تقريباً، فيُكبَسُ في السنة الثالثة، تثبيتاً للشهور في الفصول الطبيعية، وسيأتي شرحه مُفَصَّلاً في بحثٍ آتٍ بالكتاب.

(٥) المحبّر: ١٨١ ـ ١٨٢، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦، والكامل: ٢/ ٤٣، ومروج الذهب: ٢/ ٣٠ ـ ٣١، ومعجم البلدان: ٥/ ١٨٧، وشرح القصائد السبع الطوال: ٢٥٧.

وإذا نظرنا في كتب أهل الأخبار وجدنا أنه لم يَرِدْ فيها شيءٌ قبل خزاعة، يُشير إلى تنظيمٍ للأمور بمكة، أو تقاسُمٍ للوظائف بين أهلها على هذا النَّحْو، إلاَّ ما علمناهُ من اسْتِئْثارِ جُرْهُم بولاية البيت وحُكم مكة، وتعسُّفِها في استيفاء العُشُور ممَّن يدخلُ مكة، وأولادُ إسماعيلَ لا يُنازعونهم في ذلك، لخؤُولتهم وقرابتهم، وإعظاماً للحَرَم أن يكون به نِزَاعٌ أو قتال[1]. . . ولكننا مع ابتداء عهد خزاعة بمكة، بدأنا نسمعُ أخباراً تَذْكرُ أنَّ أوَّلَ النَّسَأَةِ بمكة هو مالكُ بنُ كنانة، أو بعضُ ولده[2]، وأن أوَّلَ من جُمعت له إمامةُ الموسم والقضاءُ بسوق عكاظ هو سعد بن زيد مناة بن تميم، ولعلّ إحداهما كانت في زيد مناة بن تميم، والأُخرى كانت في عمرو بن تميم وَرِثاها عن أبيهما تميم بن مُرّ، فورثهما معاً سعدُ بن زيد مناة إذ كان رئيسَ تميمٍ في أيامه[3]. وكان ذلك فيما بعدُ يكون في أحيائهم كلها، إمامةُ الموسم على حِدَةٍ، وقضاءُ عكاظ على حِدَة[4]. . . وربما جُعِلَ إلى بني عمرو بن تميم أيضاً الذَّوْدُ عن الحُرمات، فكان يُبَاحُ لهم مع آخرين لباسُ السلاحِ في الأشهر الحُرُم والمواضع المحرَّمة لِيَدْفَعوا عن الناس أَذَىٰ المُحِلِّينَ للحرُمات والعابثين بها[5]، بينما سائرُ العرب تضعُ السلاحَ في المكان الحرام والشهر الحرام، فلا يبغي أحدٌ على أَحَدٍ، ولا يجري قتالٌ.

وأظن أن خزاعة جعلت إلى بني النضر بن كنانة أيضاً، فوق القوافل وتنظيم التجارة، شيئاً كانوا يُسَمُّونَه: البَسْلَ، وأوَّلُ من عَرَفناهُ فيهم: بنو

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ١١٢ ـ ١١٣.
(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٨.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٩.
(٤) المحبَّر: ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧١.

مُرَّة بن عوف بن لؤيّ[1]، وكانوا من قريش أصلاً، ولكنهم دخلوا في بني ذبيان من قيس بن عَيْلان[2]. . . وأعتقد أن عوف بن لؤيّ ورثه عن أبيه لؤي بن غالب بن فهر، وظلَّ في ولده رغْمَ انتقالهم إلى بني ذبيان. . والبَسْلُ فيما ذكر ابنُ إسحاق هو الحلالُ والحرامُ، فكان لهؤلاء القوم، دون العرب جميعاً، ثمانيةُ أشهر حُرُم من كل سنة، فوق الشهور الأربعة الأُخرى المحرَّمة، و «قد عرفتْ ذلك لهم العربُ، لا يُنكرونه ولا يَدْفَعُونه، يسيرون به إلى أيّ بلاد العرب شاؤوا، لا يخافون منهم شيئاً. . .»[3]، فكانت قريشٌ بذلك قوَّامةً على حُرُمات العرب، تمتلكُ حَصَانَةً تسمحُ لها بالتنقُّل في بلادهم، للتدقيق في الحلال والحرام من أعمالهم، أو عقائدهم، وربما للنظر في حُرُمات المواضع والأزمنة، من غير أن تخشَى شيئاً تكرهه من أحد، فتمتَّعتْ من دون سائر العرب، بعهد سلام طويل، راجت فيه تجاراتها، وعظمت قوافلها، ووصلت إلى مختلف البلدان القريبة والبعيدة. . . يؤكد ذلك قولُهم إن من اسْتَحلَّ معبدَ القُلَّيْسِ بصنعاءَ، ونَجَّسَهُ، وكان أبرهةُ الحبشيُّ أراد أن يُحوِّلَ حجَّ العرب إليه، إنما كان قُرَشيّاً من بني فُقَيْم[4]، من كنانة بن خُزَيْمة. . وقد سكن بنو مُرَّة بن عوف بوادي الرَّقَم، دون مكة، في ديار غطفان[5]، وذكر ابن الأثير أن قبيلة من غَطَفان انتصرت على قبيلة من مذحج اليمنية، فأثْرَتْ وكثرت أموالُها، فقالوا: والله لنتَّخِذَنَّ حَرَماً مثلَ حَرمِ مكة، لا يُقْتَل صَيْدُهُ، ولا يُهاجُ عائِذُه، فَبَنَوْا حَرَماً ووَلِيَ سِدَانَتَهُ أصحابُ

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ١٢٤.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ١٣.
(٣) السيرة لابن هشام: ١/ ١٠٢، ولسان العرب: ١١/ ٥٥، وبطرس البستاني ـ محيط المحيط: ٤٠.
(٤) الكامل: ١/ ٤٤٢.
(٥) معجم البلدان: ٣/ ٥٨.

البَسْلِ في الحجاز، بنو مُرَّة بنِ عَوْف[1]. فهذا هو البَسْلُ فيما أرى. . .

* * *

ويبدو أن تعسُّفَ جُرْهم في معاملة مَن كان يدخل مكةَ مِن غير أهلها، وعَبَثَهم بالحُرُمات، وفُسُوقَهم في الكعبة، على ما يروي الرواة[2]، أفضَتْ إلى عُزُوفِ العرب عن قَصْدِ مكةَ في مواسمها الكبرى، كالحجِّ والعُمْرة وأسواقِ عكاظ والمجنَّة وذي المجاز، وكانت مواردَ رزقٍ كبرىٰ لأهل مكة ومَنْ في جِوارهم، فلما آلَتِ الولايةُ إلى خزاعة، بادرت إلى تنظيم تلك المواسم على نحوٍ يُعيدُ الطمأنينةَ إلى قلوب الحُجَّاج والزائرين، ويُعَظِّمُ حُرْمتَها في نفوس الناس. فكانت لنا من ذلك أُولَى الإشارات الصريحة الواضحة إلى طقوس الحجِّ في الجاهلية، على الرغم من تكلُّفٍ تعوَّدْناهُ من بعض الرواة في تفسير كثيرٍ من الوقائع على غير حقائقها، كِنِسْبتهم الغَوْثَ بنَ مُرّ والي الإجازة بالحجِّ زَمنَ خُزاعة، إلى بني جُرْهم، وإلحاقه باليمن، ظناً منهم أن قُصيّاً وحدَهُ نظَّم مكة، لم يَسبقْهُ، ولا يجوزُ أن يَسْبقَهُ أَحَدٌ إلى ذلك، أو اتِّكالاً منهم على حكايات بني العباس! وإنما بدأ تنظيمُ ذلك فعلاً زَمنَ خزاعة، فلمّا قَدِمَ قصيٌّ مكةَ وتولَّى أمرها، أكمل النظامَ بما أحْدَثَه من شؤونٍ سيأتي الكلامُ عليها في حينه.

● **ولاةُ الحجِّ والإفاضة:**

في تقديرنا أن الغَوْثَ بنَ مُرٍّ وولدَهُ من بعده، ويُسَمَّوْن بني صُوفَة، كانوا يَلُونَ الإجازةَ بالناس في الحجّ غالباً منذ أواخر القرن الثاني الميلادي،

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/٥٠٣، ٦٤٢.

(٢) شرح القصائد السبع: ٢٥٤، وتاريخ اليعقوبي: ١/٢٢٢.

ومثلُهم زَيْدُ بنُ عَدْوانَ وبنوهُ مِن بَعده، الذين كانوا يَلُونَ الإفاضة. فأمَّا الغوثُ أو بنو صوفة، فكانت العربُ إذا حجّت ووقفت بعَرَفة، لا تَدْفعُ منها حتى تدفعَ بهم بنو صُوفَة، وتُجيزُهم إلى المزدلفة، وهي مِشْعَرٌ حَرامٌ سُمِّيت «جَمْعاً» لاجتماع الناس بها بعد عرفة، فإذا كان يومُ النَّفْر في «مِنَى» وأتى الناسُ لِرَمْي الجِمَار[1]، كان رجُلٌ من صُوفَة حين تميل الشمسُ يبدأ بالرمي فيرمي الناسُ معه، فإذا فرغوا من رمي الجِمَار، وأرادوا النَّفْرَ من مِنى إلى مكة، أخذ بنو صوفة بجانِبَيْ الممرّ، لا يجوز أحدٌ من الناس، حتى يمضيَ أمامهم بنو صوفة، فإذا مَضَوْا خَلُّوا سبيلَ الناس فانطلقوا على أثَرِهم إلى مكة. فكان بنو صوفة يَلُونَ الإجازةَ في الحجِّ، فيدفعون بالناس من عَرفَة، ثم يَنفِرُون بهم من مِنىً، وظَلُّوا على ذلك حتى انقرضوا، فوَرِثهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، وكانت منهم في صفوانَ بنِ جناب بن شجنة، ثم في ولده من بعده، حتى كان آخِرَهم كَرِبُ بنُ صَفْوانَ الذي قام على عهده الإسلامُ.

وأمَّا زيدُ بنُ عَدْوان وبَنُوهُ من بعده فكانوا يَلُونَ الإفاضة بالناس من المزدلفة أي «جَمْع» غداةَ النَّحْرِ، إلى مِنَى، وكان آخِرَ مَن تولَّى ذلك منهم أبو سيَّارة عُمَيْلَةُ بنُ الأعْزَلِ العَدْوانيُّ الذي قام الإسلام في زمنه[2].



وفي عهد خزاعة حدَّثَتْنا الأخبارُ كذلك، على ما قاله الأزرقيُّ، «أن

---

(١) الجِمَارُ: الحَصَى التي يرمي بها الحُجَّاجُ في «مِنىً»، والجَمْرةُ: موضعُ الجِمار بمِنىً، وهي ثلاثٌ: الجمرةُ الأولى، والجمرةُ الوسطى، وجمرةُ العَقَبة.

(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ١١٩ ـ ١٢١، ومعجم البلدان: ٢/ ١٦٣، وأخبار مكة: ١/ ١٨٧، والمعارف: ٧٥ ـ ٧٦، والمفصَّل: ٤/ ٢٠٩ و ٦/ ٣٨٧، والعقد الفريد: ٣/ ٣٤٤، وجمهرة أنساب العرب: ٢٠٦، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٩، ٢٨٥، والشعر والشعراء: ٦٨٧، ولسان العرب: ٩/ ٢٠٠ (صوف)، وشرح القصائد السبع: ٢٥٧.

أول من أَطْعَم حُجَّاجَ بيت الله بمكة، سَدَائِفَ الإبل ولُحْمَانَها على الـثَّرِيد[1]، هو عمرو بن لُحَيّ الخُزَاعيُّ، سادِنُ الكعبة، وسيِّدُ مكة في زمانه، وأنه أوّلُ مَن عَمَّ في سنةٍ جميعَ حاجِّ العرب، بثلاثة أثوابٍ من بُرودِ اليمن لكلٍّ واحدٍ منهم، وأنه أوّلُ من قَسَمَ بين العرب عشرةَ آلاف ناقة، في حَطْمَةٍ حُطِمُوها[2]، أي في سنةٍ شديدةٍ أصابتْهم، سُمِّيت كذلك لأنها تَحْطِمُ كلَّ شيءٍ تأتي عليه. فهو إذن أوّلُ مَن سَبَق إلى إطْعَام حُجَّاج بيت الله بمكة أطيبَ الطعام وأشْهَاهُ، وكِسْوَتِهم أَفْخرَ الثياب وأغْلاها، من ماله الخاصّ، دون أن يُكلِّفَ أحداً من أهل مكة شيئاً يُسْهِمُ به في هذا الصَّنِيع، فذهَبَ شَرَفُه في العرب كلَّ مذهب، وكان فيهم سَيِّداً مُطاعاً، وقولُه دِيناً مُتَّبعاً لا يُخَالَف ولا يُعْصَى، يُطعِم الطعامَ، ويحملُ المَغْرَمَ، فبلَغَ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربيٌّ قبله ولا بعده في الجاهلية...»[3]، هذا خلاصة ما قاله الأزرقيُّ!، وقد عدَّهُ الجاحظُ أيضاًمن القدماء في الحكمة والخطابة والرياسة[4].

ويبدو أن «الرفادة» سُنَّتْ فيما بعد، لمّا عَجَز حَجَبَةُ الكعبة، من بني خزاعة أو ممن جاء بعدهم، أن يَصنعوا كما صَنَع، ففَرَضَ قصيُّ بن كلاب مثلاً، بعدما آلت إليه ولايةُ الكعبة، خَرْجاً على أهل مكة، يُخْرجونه من أموالهم كلَّ سنة لإطعام الحُجَّاج، معتذراً بأنَّ مالهُ لم يكن يَتَّسعُ لجميع

---

(١) الثريدُ: طعام من خبز يُفَتُّ ويُبَلُّ بمَرَقٍ من دُهْن أو لحم، فإذا كان عليه قِطَعُ اللحم والشحم فهو من المطاعم الشهيَّة الفاخرة والدَّسمة. وقولُه: سدائفُ الإبل أي أسْنِمَتُها، مُفردها، سنام، وهو خِيَارُ ما في البعير وألَذُّ ما يأكلونه منه. وسدائفُ الإبل: سِمَانُها.

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٠٠.

(٣) المرجع نفسه: ١/٨٨، ٩٦، ١٠٠، ١٩٣، ومعجم البلدان: ٥/ ٤.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٢.

ذلك[1]... فالرِفادَةُ إذن أثَرٌ من آثار النظام الذي أبْدَعَهُ عمرو بن لُحيّ في مكة... ولكن الرجُلَ، كما يظهر من استقراء حوادث التاريخ التي دُوِّنتْ أيامَ بني العبَّاس، حُسِدَ على شرفه ورِفْعةِ قدره في العرب، وحُسْنِ تَوَفُّره على مصالحهم وتقدُّمهم، فنُسِبَ إليه بعدئذٍ أنه «هو الذي غَيَّر دينَ الحنيفيَّة»[2] في جزيرة العرب، وأولُ من أدخل عبادةَ الأوثان والأصنام إليها، وكأنَّ الناسَ كانت ما تزالُ منذ عصر إبراهيم عليه السلام على الحنيفيَّة، حتى ظهر فيهم عمرو بنُ لُحيّ بعد نحوِ ألفَيْ سنة، فحَمَلَهُم على عبادة الأوثان!.. وخلاصةُ ما قيل في ذلك، أنه بعدما تولَّى حجابةَ البيت الحرام بمكة، زار بلاد الشام، ودخل أرضَ «مُآب» في وادي الأردن بالبلقاء، فوجد أهلها يعبدون الأصنام، فأخذ عدداً منها، فنَصَبها بمكة، ودعا الناسَ إلى تعظيمها، فكان أولَ من فعل ذلك من العرب[3] وهذا كلام كما يقول الشيخ أحمد رضا: «يفتقر إلى دليل، وهو إلى الأسطورة أقربُ منه إلى التحقيق»[4]... وقد ذكر «هيرودوتس» المؤرِّخُ الرحّالةُ اليونانيّ (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق.م) أن عبادة «اللات» كانت في أيامه معروفةً ببلاد العرب[5]، وهو ما يدلُّ على قِدَم الوثنيّة في شبه الجزيرة، وعلى أن دين إبراهيم لم يكن مُستقرّاً حتى غَيَّرهُ رئيسُ خزاعة.. كما ذكر البلاذريُّ أن الذي نَصَبَ الصنَمَ «هُبَلَ» على الكعبة هو خزيمة بن

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٦٠، وأنساب الأشراف: ١/ ٥٢.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٣٤، والسيرة لابن هشام: ١/ ٧٦، واقتضاء الصراط المستقيم: ١١٤، وأخبار مكة: ١/ ١٩٣، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٧٦، وجمهرة أنساب العرب: ٢٣٥.

(٣) الأعلام: ٥/ ٨٤، واقتضاء الصراط المستقيم: ١١٥.

(٤) معجم متن اللغة: ١/ ٤٤.

(٥) حياة محمد لهيكل: ١٠٨.

مُدركة، «فكان ذلك الصنمُ يُنسَبُ إليه، فيُقال: هُبَلُ خُزَيْمة»[1]، وهُبَلُ بالآراميَّة تعني: الروح[2]، فكأنه هو الذي جاء به من الشام، وخزيمةُ سابقٌ في الوجود بأكثرَ من سبعين سنةً على عمرو بن لُحيّ... كما ذكر اليعقوبيُّ أن عدنانَ، الجدَّ العربيَّ القديم، كان «أوَّلَ من وضَعَ الأنصابَ» بالكعبة[3]، وأن إلياسَ بنَ مُضَر كان «أوَّلَ من أنكر على بني إسماعيل ما غَيَّروا من سُنَن آبائهم»[4]، فأين عمرو بنُ لُحيّ من عدنان، ثم من بني إسماعيل، وهم قطعاً قبل إلياس؟.. وربما كان من الحقِّ القولُ بأن أبناء إسماعيلَ تعوَّدُوا عبادةَ الأنصاب، لأنهم كما ذكر الذين أرَّخوا ظهورَ الأصنام، كانوا من قبلُ قد تعوَّدوا أن يحملوا معهم بعضَ حجارة الحَرَم كلما ابتعدوا منه، تبرُّكاً بها، ثم انتقلوا من التبرُّك إلى العبادة وإلى الطَوافِ حولَها مع طول الزمن، وكان ذلك شأنَ أتباع إبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء في الأماكن الأخرى[5]. فإذا صحَّ أن عمرو بنَ لُحيّ نقل بعضَ الأصنام إلى مكة، فالثابتُ أنه لم يكن أول من فَعَلَ ذلك، وما فعله لم يكن إلا كما قال العقاد: «وسيلةً من وسائلهِ لتعظيم شِأن الكعبة عند أهل الشمال، وإيناسِهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز، وتقريبِ ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام، وهم جميعاً حريصون على تحريم هذه الشقَّة، وحمايةِ رُوَّادها من كل قَبيل...»[6]. والكعبةُ كانت، كما حقَّق الدكتور علي الخربوطلي: «مصدرَ رزْقِ أهل مكة، وهي محجٌّ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٣٧، والطبقات الكبرى: ١/ ٦٩.

(٢) تاريخ العرب: ١٤٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٣.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٢٧.

(٥) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٧٨، والأعلام: ٥/ ٨٤.

(٦) مطلع النور: ٨٠، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١١٥.

العرب، يقصدونها من كل حَدبٍ وصَوب، فنَصَبتْ قريشٌ أصنامَ جميع القبائل عند الكعبة، لِيَرىٰ الحاجُّ معبودَهُ عندما يحجُّ، فيتبرَّك، ويرضى، ويُقدِّم القرابين. . .»[1]. فقوله: إن قريشاً نَصَبتْ أصنامَ جميع القبائل، يؤكِّدُ أن عمرو بنَ لحيّ الخُزَاعيَّ حُمِّل وَحْدَهُ وِزْرَ الأمرِ كلِّه، ولا سيما إذا تذكَّرْنا أنه كان إلى قريش شأنُ «البَسْلِ»، وهو التحقُّقُ من الحلال والحرام في عقائد العرب، فوق ما كان إليهم من قيادة القوافل وتنظيمها، أيَّام كانت خُزَاعةُ تتولَّى شؤونَ العربِ بمكة، فما بالُهم سكتُوا عن انتشار الأصنام يومئذٍ لو لم يكونوا شركاءَ في الأمر؟ ثم جاؤوا بأَخرةٍ، فأضافوا إلى الرجُل أوْزارَ السابقين واللاحقين، وبَرَّؤُوا أنفُسَهم من تلك الأصنام وعبادتها، فكأنهم لم يَرَوْها بمكَّةَ، وفي بيوتهم قَطُّ، إلا ساعةَ هَدَمَها رسولُ الله عليه الصلاةُ والسلام وأعاد إلى القلوب عقيدةَ التوحيد في أكمل صُوَرِها. .

ولم يُفْضِ الاضطرابُ الواقعُ على تاريخ بني خزاعة إلى الانتقاص من دَوْرِهم في الحِفَاظِ على الكعبة، وفي نهضة مكة وتنظيم شؤونها، وحَسْبُ، بل إلى اضطراب أصاب أنسابَ بني قَمَعة بن الياس، فلسْتَ تجدُ مرجعاً يتفق وآخَرَ في سلسلةٍ من تلك الأنساب، ولو غُصْتَ على ذلك في بُطون الكتبُ كافةً! وهو ما أدَّى إلى غموضٍ في عصر خُزَاعة، وولايتها أمورَ الحكم بمكة، وحجابةَ الكعبة، فكان لا بُدّ لنا من البحث حتى نعرف متى كان زمنُ خُزَاعةَ، ومتى كان ابتداؤه. . .

٤ ـ زَمَنُ خزاعة:

يُعيِّن بعضُ كتب التاريخ سنة (٢٠٧ م) تاريخاً لانتهاءِ عهد جُرْهُم

---

(١) تاريخ الكعبة: ٣٦.

وجَلائها عن مكة، وابتداء عهد خُزَاعة بها[1]... من غير أن يذكر أيَّ سَنَدٍ لهذا التعيين! وفي ترجمته «جُرْهُمَ»[2]، اعتمد الزركليُّ بحثاً نُشِر في مجلَّة الزهراء[3]، يُعيِّنُ عهدَ بني جُرْهم في مكة من القرن (٢٦ ق. هـ) إلى سنة (٤٢٩ ق. هـ)، أي ما يُوافق بالتقويم الميلادي: (١٩٠٠ ق. م ـ ٢٠٧ م)... وسبق لزَيْدانَ أن جعل عصر إسماعيلَ يعودُ إلى تسعةَ عشَرَ قرناً قبل الميلاد[4]، بينما عيَّن معظمُ المُنقِّبينَ تاريخَ أبيه إبراهيم في زمنٍ متوسط بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ق. م، وقال بعضُهم إنه كان يُعاصِرُ الملكَ حَمُّورابي (١٨٤٠ ق. م)، أو أنه كان في زمنٍ قريب من عصره[5]. وعلى ذلك فإن عصر إسماعيل يعود إلى ما بعد ذلك.

وقد جاء في بعض المراجع أن «الحكم في مكة كان بأيْدي العمالقة منذ أقْدم الأزمنة، ثم خَلَفَتْهم قبيلةُ جُرْهُم اليمنيَّةُ، واستمرَّتْ ولايتُها إلى عام (٢٠٧ م)، كما ذكر المستشرقُ الفرنسيُّ سِيدِيُّو[6]، ثم أَجْلَتْهم قبيلةُ خزاعةُ عن مكة، وظلَّت على ولاية البيت نحواً من ثلاث مئة سنة... إذ استَولَى قصيُّ بنُ كلاب على أمرِ مكة، والبيتِ الحرام، نحو سنة (٤٤٠ م) وأَجْلَى خُزاعةَ عنها»[7]... ومن هذا النصِّ يتَّضِحُ أن المصدر الذي نقل عنه كلُّ

---

(١) معالم الحضارات: ١٦٠.

(٢) الأعلام: ٢/١١٨.

(٣) مجلَّة الزهراء: ٥/ ٤٦٠ ـ ٤٧٤.

(٤) العرب قبل الإسلام: ٣٢٨.

(٥) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٢٦، ١٨٣، ١٨٥.

(٦) لُوِي پيير سِيدِيُّو: مولده ووفاته بباريس (١٨٠٨ ـ ١٨٧٥)، صاحب كتاب «تاريخ العرب العام»، ترجمه إلى العربية عادل زعيتر.

(٧) مختصر تاريخ الحضارة العربية: ٢٥.

أولئك واحدٌ، ولكنَّ أحَداً منهم لم يُحاول أن يَحسُبَ كيف تبدءُ ولايةُ خُزَاعةَ سنة (٢٠٧ م)، وتَسْتمرُّ ثلاثَ مئة سنة، ثم تنتهي بانتقال الولاية إلى قُصيّ سنةَ (٤٤٠ م)..؟ إذ لو صحَّ الرقمُ الأولُ لكانت ولايةُ قصيّ بدأت سنة (٥٠٧ م)، ولو صحَّ الرقم الثاني لكانت ولايةُ خزاعة بدأت سنة (١٤٠ م)!.. فأيُّهما الصوابُ؟

أمّا زمنُ قصيّ فالاتفاقُ يكاد يكون تامّاً على أنه كان يُعاصِرُ المنذرَ الأولَ بنَ النعمان، ملكَ الحيرة (٤٣١ ـ ٤٧٣ م)، وبهرامَ جور ملكَ فارس (٤٢٠ ـ ٤٣٨ م)[1]، والتقديرُ السليم إذن أن تكون ولايتُه بدأت في أواخر النصف الأول من القرن الخامس، أي نحو (٤٣٥ م)، وهذا تاريخ قريبٌ من التقدير السابق.

وأمّا مُدَّةُ ولاية خُزَاعةَ ففيها خلافٌ، وبينما ارتفع بها بعضُهم إلى خمس مئة عام[2]، وهو رقم مُبَالغٌ فيه كثيراً، نزل بها آخرون إلى أَقلَّ من مئة وخمسين عاماً... وقد ذهب أبو الفداء مذهباً لعلَّه الأقربُ إلى الحقيقة، فذكر أن عمرو بنَ لُحيّ، مَلِكَ الحجاز، كان قبل الإسلام بنحو أربع مئة سنة، أي نحو (٢١٠ م)، وأضاف أنه ربما كان في أيام سابُورَ ملك فارس، وعَنَى بذلك سابُورَ بنَ أردشير (٢٤٠ ـ ٢٧١ م)، وليس سابور ذا الأكتاف ابن هرمز (٣٠٩ ـ ٣٧٩ م) لأن هذا أَبْعدُ عن الصواب[3]. ومع ذلك فإن جواد علي رجَّح أن تكون رئاسةُ عمرو بن لحيّ في زمن سابور ذي الأكتاف[4]،

---

(١) المفصَّل: ٤/٥٦، والعرب قبل الإسلام: ٢٦٤.
(٢) أخبار مكة: ١/١٠١.
(٣) المختصر في أخبار البشر: ١/٧٦.
(٤) المفصَّل: ٨/٥٢١.

فنزل بمدَّةِ الولاية إلى نحو مئة وعشرين عاماً، وهو ما تَتَضافَرُ الأخبارُ على عدم صَوَابه.

وإني أرى أن مذهب أبي الفداء أقربُ إلى القَبُول، وأعتقد أن الرجُلَ كان من أبناء الجيل الثاني في القرن الثاني، تولّى أمرَ مكة والحجاز ونجد نحو سنة (١٧٥ م)، وكان ما زال قائماً بها سنة (٢١٠ م)، ومن تمام هذا الحديث نذكر أن مراجع أهل الأخبار مُتَّفقةٌ في مُعْظمها على أن خزاعة وَلِيَتِ الكعبةَ والحُكْمَ بمكة ثلاث مئة سنة، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى قَدِم مكةَ قصيٌّ بنُ كلاب، وخطب إلى حُلَيْل بن حُبْشِيَّةَ الخزاعيّ إبنتَهُ حُبَّىٰ، فزوَّجَهُ بها، وحُلَيلٌ يومئذٍ يَلي أمرَ مكةَ، والحُكمَ فيها، وحجابةَ البيت[1]. ثم هَلَكَ حُلَيلٌ، فحجبَ البيتَ إبنُه، أو أَحَدُ أبناء خُزَاعة، قبل أن تنتقلَ الحِجَابةُ إلى قريش بغَلَبَةِ قُصيٍّ بن كلاب عليها نحو سنة (٤٤٠ م)[2]، وتنتهي بذلك ولايةُ خزاعة، وكان بيتُ الله خلالها عامِراً لم يخربْ فيه شيءٌ، ولا نقص منه شيءٌ، تَرافَدُوا على تعظيمه، والذَّبِّ عنه، والحِفَاظِ عليه، والقتالِ دونه[3].

وننتقلُ الآن إلى التحقيق الذي قمنا به، للبرهان على أن عمرو بنَ لُحيّ الخزاعيَّ، كان مَن أبناء الجيل الثاني في القرن الثاني، أي أن مولده كان نحو (١٣٥ م). وقد أردنا بهذا الفَـرَضِ، أن يكون الرجلُ أَتمَّ الأربعين من عمره

---

(١) أخبار مكة: ١٠٣/١ ومروج الذهب: ٣٢/٢، وتاريخ الطبري: ٢٥٦/٢، والبداية والنهاية: ١٧٤/٢، ومعجم البلدان: ٥/ ٤، ١٨٦، والسيرة لابن هشام: ١١٧/١.

(٢) معالم الحضارات: ١٦٠، والسيرة النبوية: ٧٣، وحياة محمد: ١١١، ومختصر تاريخ العرب: ١١، ومختصر تاريخ الحضارة العربية: ٢٥.

(٣) أخبار مكة: ١٠٢/١ ـ ١٠٣.

لمَّا تولَّى شؤونَ مكة نحو (١٧٥ م)، دون النظر إلى حقيقةِ مُعَاصَرته سابورَ أو عَدمِها، فهي مَبْنِيَّةٌ على التقدير، ولعلَّ أحدَهما لم يكن بعيداً جِدّاً عن الآخر. وإذا كانت ولايةُ خزاعة لا تَبلغُ بهذا التقدير ثلاثَ مئةِ سنةٍ تماماً، فإنَّ تمامَها قد يكونُ في ولاية لُحيٍّ، جَدِّ عمرٍو، الذي يبدو أنه أوَّلُ من حكم مكةَ بعد جُرهم[1]، وأن عَمْراً نُسِب إليه، لأنه خَلَفَهُ مباشرةً على ولاية مكة، لأمرٍ ما لا ندري عنه شيئاً... ونحبُّ أن نعترفَ ابتداءً بأن التحقيق في هذا الموضوع صعبٌ، عَوِيصٌ، بسبب الاضطراب الكبير الواقع على أنساب بني خُزَاعة خاصَّةً، وبني قَمَعَة وسائرِ إخوانهم عامّةً، وللتناقُض الشديد بين الأخبار المُتعدِّدَةِ عن الحادث الواحد.

وأوَّل ما يجبُ علينا في هذه المحاولة، أن نصِلَ إلى معرفةِ زمنِ قَمَعَةِ بن الياس، الذي انتسب إليه لُحيٌّ أبو عمرو، أو جَدُّه، ومكانِ وجودِه في ذلك الزمن. وقد سبق لنا أن ذكرنا أنَّ بعض كتُب اليونان في القرن الأول للميلاد، أشارت إلى وجود بني كنانة بن خزيمة حينئذٍ بتُهامة[2]. والمعروفُ أن مُدْركةَ، جَدَّ كنانة، هو أَخُو قَمَعَة وطابخة، فهؤلاء جميعاً إذن أبناءُ عصر واحد، ومواضِعَ واحدة... فأمَّا عصرهم فهو ما بين القرنين الأول والثاني، وأمَّا مَواضِعُهم التي كانوا بها فهي مناطقُ مكةَ، وما اتَّصَلَ بها من أرض الحجاز حتى تهامة على ساحل البحر الأحمر، وهي مواضعُ كان بها آباؤهم، وظلَّت لحَفَدَتِهم من بعدهم.

وهنالك دليلٌ آخَرُ، توصَّلنا إليه، بالرجوع إلى عشرات المراجع من

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٩٥.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

كُتُبِ الأنساب والتاريخ والأخبار[1]، إذ أخرجنا منها كلَّ ما يُحدِّثُ بأخبار أولئك القوم، ولا سيما ما تعلَّق منها بأنسابهم، ثم قُمنا ببحثِها ودَرْسِها والموازنة بينها، في عملٍ اقتضى جُهداً، وكلَّفَ مَشقَّةً. وقد أسقطنا منها ما تبيَّن سُقْمُه، واعتمدنا ما ثَبَتَ رُجْحانُ صوابه، فاستوى عندنا من كلِّ ذلك، جُملةٌ من أنسابهم، نعتقدُ أنها أقربُ شيءٍ إلى المنطق التاريخيّ السليم.

وقد أخذنا، فيما توصَّلْنا إليه، بما تواترت به الأخبارُ، وأَجْمعَ عليه المؤرخون أو كادوا، وسلكنا المعلومَ طريقاً إلى العلم بالمجهول، واعتمدنا في تعيين الأزمنة القاعدةَ التي تجعلُ الجيلَ الواحِدَ من الناس في نحو ثلاثين إلى خمسٍ وثلاثين سنةً، وتجعلُ تعاقُبَ ثلاثة أجيال يكون في قَرْنٍ من الزمان... كما اعتمدنا في نَسَبِ خزاعة إشارةَ ابن حزم[2] إلى أنها من ولد قمعة بن الياس بن مُضَر بلا شكّ، وأن عمرو بن لُحَيّ نُسِبَ إلى جَدِّه وهو

---

(١) تاج العروس: ١٥/٥٥٦ (حمس)، و ١٧/١٢٨(حبش)، وجمهرة أنساب العرب: ١٨٠، ٢٣٤ ـ ٢٣٦، ٤٦٧، وتاريخ اليعقوبي: ١/٢٢٩، ٢٣٢ ـ ٢٣٣، ٢٣٨ ـ ٢٣٩، و ٢/١١٨، ومعجم البلدان: ٥/١٨٦، وأخبار مكة: ١/٩٥ ـ ٩٦، ١٠٠، ١٨٦، ١٩٣، والمحبَّر: ١٣، ١٨، ٥٢، والمختصر في تاريخ البشر: ١/٧٦، والاشتقاق: ١/٤٦٨، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٤، ولسان العرب: ٨/ ٧٠ (خزع)، والأعلام: ٥/ ٨٤، والمعارف: ١٣٠، وحياة محمد: ١٢٣، وصحيح البخاري: ٤/٢٢٣ ـ ٢٢٤ (باب المناقب)، والأغاني: ١٤/١٣٧، و ١٨/٢٤٠، والعرب قبل الإسلام: ٢٤٣، ٣٢٨ ـ ٣٢٩، والمفضَّل: ٤/ ١٥، و ٨/ ٥٢١، واقتضاء الصراط المستقيم: ١١٤، ونهاية الأرب: ٢٤٤، وشرح القصائد السبع: ٥٠٥، وابن كثير ـ البداية والنهاية: ٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) ابن حزم: علي بن أحمد الظاهري الأندلسي. عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمَّة العرب المسلمين. ولد بقرطبة (٣٨٤ هـ)، وكانت له رياسةُ الوزارة وتدبيرُ المملكة، فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتصنيف، فكان من أبرز العلماء فقهاً وحفظاً واستنباطاً للأحكام، له مؤلَّفات كثيرة، منها كتابُ جمهرة الأنساب. توفي سنة (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م).

ربيعةُ بنُ قَمَعة. واعتمدنا كذلك تأكيدَ الزَّبيديّ[1] في تاج العروس على أن لُحيّ هو ابنُ قمعة وليس من حَفَدتِهِ، كما جاء في بعض المصادر، فذلك أقربُ إلى الحقيقةِ والعقلِ والصوابِ، إذْ لا يُعقَلُ أن يُوزِّعَ عمرو بنُ لُحيّ الأعمالَ الرئيسةَ في مكة، على رجالٍ، إن لم يكونوا في زمنه وعصره، كالغَوْثِ بن مُرّ، وتميم بن مُرّ، ومالكِ بن كنانة، والنَّضْرِ بن كنانة، وغيرهم، وهو ما سبق لنا بيانُه، فيكون الرجلُ بذلك هو: عمرو بنَ عامر بن لحيّ (ربيعة) بن قمعة بن الياس[2].

ولاحظنا أخيراً ما أَثْبَتَهُ صاحبُ معجم قبائل العرب عن انفراد بني مُضَر بن نزار بولايةِ مكّةَ في أوائلِ القرن الثالث الميلادي[3]، وهو ما جعل سلطانَهم، فيما أرى، يمتدُّ إلى تهامة وسائر الحجاز ونَجْد، فأفْضَى ذلك إلى نزوح بني إياد بن نزار عن تهامة إلى العراق، ونزوحِ بني عبد القيس بن أفْصَى من أسد بن ربيعة بن نزار إلى مناطق الأحْسَاءِ والبحرين في القسم الشرقيّ من جزيرة العرب.

---

(1) مُرْتَضَى الزَّبيديُّ: (١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ = ١٧٣٢ ـ ١٧٩٠ م). محمد بن محمد بن محمد الحسينيّ الزبيديّ، أبو الفيض، الملقَّب بمُرْتَضَى. علاَّمةٌ باللغة والحديث والرجال والأنساب. أصله من واسط بالعراق، ومولده بالهند، ونشأتُه في زَبيد باليمن، وإقامته بمصر حيث اشتُهر فضلُه وكاتَبَهُ الملوك ووزارته الوفود. أشهر مؤلَّفاته: تاج العروس في شرح القاموس، وله كُتُبٌ كثيرة أخرى.

(2) انظر جدول أنساب قبائل مضر: الصحيفة رقم ١٦٥.

(3) عمر رضا كحالة ـ معجم قبائل العرب: ٥٣.

جدول أنساب مُقارَن لتعيين أزمنة خزاعة وأبناءِ مُضَر

مُضَر بن نزار

٠								
١		الياس			عيلان			
٢	قَمَعة (عُمَير)	مُدرِكة (عامر)		طابخة (عمرو)	قيس			
٣	ربيعة (لُحَيّ)	خُزَيمة		أُدّ	سعد		عمرو	خَصَفة
١٠٠								
١	عامر	كِنانة		مُرّ	غطفان		عَدوان	عِكْرِمة
٢	عمرو (أبو خزاعة)	النضر	مالك	تميم	رَيْث		زيد	منصور
٣	حارثة	مالك	الحارث	زيد مناة	بغيض			هوازن
٢٠٠								
١	ربيعة	فهر	ثعلبة	مالك	ذبيان			يشكر
٢	عمرو	غالب	عامر	حنظلة	سعد			معاوية
٣	كعب	لؤي	عَدِيّ	مالك	عوف			صعصعة
٣٠٠								
١	سَلُول	كَعب	فُقَيم	دَارِم	مُرّة			عامر
٢	حُبْشِيّة	مُرّة	عبد	مُجاشع	غَيْظ			ربيعة
٣	حُلَيل	كِلاب	حذيفة	سفيان	يربوع			كِلاب
٤٠٠								
١	عبد نُهم	قصيّ	قلع	محمد	جابر	جذيمة		جعفر
٢	جُرَيْبة	عبد مناف	عبّاد	عقال	ضباب	ظالم		مالك
٣	هلال	هاشم	قلع	ناجية	معاوية	الحارث		الطفيل
٥٠٠								
١	علقمة	عبد المطلب	أُمَيّة	أبو حمار	زياد (النابغة الذبياني) (٥٣٥ – ٦٠٤)			عامر (٥٥٠ – ٦٣٢)
٢	كُرْز (٥٩٥ – ٦٦٥)	عبد الله	عَوف	حمار				
٣			(ت ٦٢٥) جُنادة	عياض (ت ٦٢٥)				

ومن الواضح أننا توصَّلْنا إلى تَعْيين أزمنة الآباء، بالبناء على ما عرفناه من أزمنة الأبناء، فالمعلومُ أن الرسول عليه الصلاةُ والسلام وُلِدَ عامَ الفيل، وذلك نحو (٥٧١ م)، وتُوفي والدُه قبل ولادته عن عمر لم يُجاوزْ على أَشْهَرِ الروايات الخامسةَ والعشرين، فمولدُه كان إذن نحو (٥٤٥ م)، ومات

عبد المطلب بعد ثماني سنين من ولادة الرسول[1]، أي سنة (٥٧٨ م)، عن بضْعٍ وثمانين سنةً[2]، فمولده كان نحو سنة (٤٩٥ م)، وفي السنة نفسها ماتَ أبوه هاشم بن عبد مناف[3]، عن عمر جعله البعضُ عشرين عاماً، وارتفع به إبنُ الأثير والبَلاذَرِيُّ[4] إلى خمسةٍ وعشرين[5]، فإذا أخذنا بأقصى الرقم كان مولده نحو (٤٧٠ م)، ثم إذا طبقنا قاعدة الجيل في ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة، وانتقلنا بها صُعُداً، كان مولدُ عبد مناف نحو سنة (٤٣٥ م)، وقصيّ بن كلاب نحو (٤٠٠ م)، وهو ما كاد يُجمع عليه المؤرخون، وكان النضرُ بن كنانة في أواسط القرن الثاني، وكنانة بن خزيمة في أوائل القرن الأول.

ومثال آخر: عِيَاضُ بن حمار المجاشعيُّ، كان صديقاً لرسول الله في الجاهلية، وكان إذا قَدِم مكة للحجّ، طاف بالكعبة في ثياب رسول الله، وقد توفي سنة (٦٣٥ م)، فَهُما إذن من جيل واحد. وعلى ذلك فإن النضر بن كنانة وتميم بن مُرّ كانا من جيل واحد أيضاً.

ومثال آخر: جُنَادَةُ بنُ عَوْف من بني مالك بن كنانة، كان آخر النَّسَأَةِ، وقد أَبْطل الإسلامُ النَّسِيءَ في أيامه، سنة (٦٣١ م)، وقيل: إنه نَسَأَ أربعين

---

(١) تاريخ صدر الإسلام: ٥٠، والسيرة النبوية للنَّدْوي: ٨٦، ٨٨، وحياة محمد: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٣٠، ومطلع النور: ١٩٨، ٢٠١، والمحبَّر: ١٠ . . .

(٢) أنساب الأشراف: ٨٤.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/٧٩، وأنساب الأشراف: ١/٦٤.

(٤) البلاذري: أحمد بن يحيى. مؤرخ، جغرافيٌّ، نسَّابة، من أهل بغداد. كان يجيدُ الفارسية من أشهر كتبه: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف. توفي سنة ٢٧٩ هـ.

(٥) الكامل في التاريخ: ٢/١٦ ـ ١٧، وأنساب الأشراف: ٦٣، ومعجم البلدان: ٤/٢٠٢.

سنة[1]، أي منذ (٥٩٠ م)، ولا بُدَّ أن يكون في نحو الأربعين لمَّا صار ناسِئاً، فيكون مَوْلدهُ بذلك نحو سنة (٥٥٠ م)، ويكون جَدُّهُ مالكُ بنُ كنانة في أواسط القرن الثاني، كأخيه النَّضْر، أي قريش.

ومثالٌ آخَرُ أيضاً: كُرْزُ بنُ علقمة الكعبي الخزاعي، وهو الذي أقام معالم الحَرَم في خلافة معاوية[2]، وكان من المُعمَّرين، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم يوم فتح مكة، وهو الذي قَفَا أَثَر الرسول عليه الصلاةُ والسلام حتى انتهى إلى الغار، فرأى عليه نَسْجَ العنكبوت[3]، وقدَّر الزركلي وفاتَه نحو سنة (٦٦٥ م)[4]، فإذا علمنا أن المُعمَّرَ هو مَن عاش مئةً وعشرين سنةً فما فوق، أمكن تقدير ولادته نحو سنة (٥٤٥ م)، فإذا أَجْرَيْنا القاعدة السابقة على أسلافه، تبيَّن أن جَدَّه أبا خزاعة: عمرو بن لُحيّ، أو عمرو بن عامر بن لُحيّ كان في أواسط القرن الثاني موجوداً.

والمعروف عند النسَّابين أن قاضي الشعراءِ في سوق عكاظ النابغةَ الذبياني، هو زيادُ بنُ معاوية بن ضِبَاب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان من غطفان[5]. وقد رَجَحَ عندي أن وفاته كانت قُبَيل مقتل الملك النعمان بن المنذر، وذلك نحو (٦٠٣ ـ ٦٠٤ م). بينما قُدِّرَ مولدُه نحو سنة (٥٣٥ م)[6]، فإذا أَجْرَيْنا القاعدةَ نفسَها، توصَّلْنا إلى صواب

---

(١) تاج العروس: ١/٤٥٦، وجمهرة أنساب العرب: ١٨٩، وأخبار مكة ١/١٨٣، والسيرة لابن هشام: ١/٤٤ (وقيل إن جُنادَة توفي سنة ٦٣٥ م)، والإصابة: ٦١٣٠.

(٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب ـ حاشية الإصابة: ٣/٢٩٣.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٦، والإصابة: ٧٣٩٩، وشرح القصائد السبع: ٢٥٩.

(٤) الأعلام: ٥/٢٢١.

(٥) جمهرة أنساب العرب: ٢٥٣.

(٦) محمد زكي العشماوي ـ النابغة الذبياني: ١١٢، ١١٥ ـ ١١٧.

تقديرنا لزمان وجود جَدِّه ذُبْيان في مطلع القرن الثالث، وإلى تقدير وجود ابن عمِّه الفارس العربي: الحارث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غَيْظ بن مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذبيان، أواخر القرن الخامس[1].

وهذا كلُّهُ من شأنه أن يؤكد ما ذهبنا إليه في تعيين زمان خزاعة بمكة، من نحو أواخر القرن الثاني إلى أواسط القرن الخامس للميلاد... وليس من قبيل المصادفة أن يكون جميعُ مَن وُزِّعَتْ عليهم الوظائفُ بمكة في عهد خزاعة، من الجيل الرابع بعد الياس بن مُضَر، فقد وقعت إمامةُ المواسم والقضاء بسوق عكاظ في تميم بن مُرِّ بن أدِّ بن طابخة، والإجازةُ بالحجِّ في الغَوْث بن مُرّ بن أدِّ بن طابخة، والتجارةُ والبَسْلُ في النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، والنَّسِيءُ والإفتاءُ في مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، والإفاضةُ بالحاجّ في زيد بن عَدْوان بن عمرو بن قيس... ولا بُدَّ إذن أن يكون حاكمُ مكة، الذي وزَّع هذه الأعمال في بني مُضَر، هو عَمْروَ بنَ عامرِ بنِ لُحيٍّ بن قَمعة، وليس من العقل في شيء التسليمُ بأنه عمرو بن ربيعة بن حارثة، أي ابنُ حفيده، كما زعم كثير من الرواة وأهل الأخبار.

على أن من شأن هذا التحقيق الذي قمتُ به، وإن كان فيه بعضُ المَشَقَّة، أن يُقدِّمَ إلينا معلوماتٍ قَيِّمةً عن سوق عكاظ، فبينما معظمُ الباحثين على أن عُكاظاً اتُّخِذَتْ سوقاً في الجاهلية بعد عام الفيل بخمسة عشر عاماً[2]، أي نحو سنة (٥٨٥ م)، يرتفع تحقيقُنا بزمانها إلى نَحْوِ القرن الثاني، مع أن هنالك وقائع ربما جعلتها أَقْدَمَ من ذلك عهداً، ولعلَّ عمرو بنَ لُحيّ الخُزاعيَّ هو أوَّلُ من عكفَ على تنظيمها، جَرْياً على خُطَّتِهِ في النهوض

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٢) في منزل الوحي: ٣٦٣ ـ ٣٦٤، وبلوغ الأرب: ١/ ٢٧٠.

بمكة وما حولها، وترغيبِ سائر العرب في قصْدِها، وحضورِ مواسمها، سواء أكانت للحجِّ أو للتجارة والاجتماع، فعيَّنَ لها إماماً يفتتحُ موسمَها، ويُجيزُ للناس الشُرُوعَ بالصَّفْقِ والمتاجرة[1]، وقاضياً يتولّى فَضَّ المشاكلِ، التي ربما شَجَرتْ بين الناس في السوق، إذ لم تَرِدْ قبل عهدِ خُزاعةَ بمكة أيَّةُ إشارةٍ إلى وُجود قُضاةٍ أو أئمَّةٍ بعكاظ.

٥ ـ عهد قريش:

هنالك رواياتٌ كثيرة، وحكايات مختلفة تصفُ انتقال ولاية مكة وحجابة الكعبة من بني خزاعة إلى قُرَيش، ولكثرة ما بها من الاختلاف والاضطراب والعصبيّة، اختصرناها جميعاً في رواية واحدة نحسب أنها أقربُ إلى العقل، ووافيةٌ بالغرض الذي نبتغيه.

كان قصيٌّ بن كلاب طفلاً صغيراً حين مات أبوه كلابُ بنُ مُرَّة، فتزوجت أمه برجُلٍ من قُضَاعَة، رَحَل بهما إلى بلاده في أطراف الشام، فنشأ قصيٌّ هناك حتى بلغ سنَّ الشباب، فجهَّزَتْهُ أمُّهُ وعاد إلى الحجاز في أحد مواسم الحج، مع حُجَّاج بني قضاعة، فأقام بمكة، وكان موصوفاً بالذكاء والدَّهاء والحزم.. ثم تزوَّجَ حُبَّى الخُزاعيَّة، وكان أبوها حُلَيْلُ بنُ حُبْشِيَّة يَلي يومئذٍ حُكمَ مكة وحِجابةَ الكعبة. ولما مات حُلَيْلٌ حجَبَ الكعبةَ إبنُهُ المحترشُ، وهو أبو غُبْشَان... ويبدو أن أهل مكة كانوا يجعلون لحاجبِ البيت جُعْلاً، يَدْفعونَه إليه في الموسم، فقَصَّروا به في بعض المواسم، ومَنَعوهُ شيئاً منه، فغضب، وكان في الوقت نفسه مَضْعُوفاً فقيراً، فاهْتَبَلها قصيٌّ فرصة، ودعَاهُ واشترى منه حقَّهُ في حجابة الكعبة، وحَمَلَهُ بطريقةٍ ما

---

(١) الصَّفْقُ والصفقةُ: ضربُ اليد على الأخرى علامةَ وُجوبِ البيع وانعقاد العقد.

على التنازل عنها، فأنكر بنو خزاعة هذه الصفقةَ، وهَبُّوا للدفاع عن حقوقهم، وكان قصيٌّ إذ ذاك شَرُفَ في قومه وعَزَّ، ورأى أنه أَوْلَى بالكعبة وأمْرِ مكة من خُزَاعة، فجمع إليه قومَه من قُرِيشٍ، وبعضَ بني قُضَاعة، وحَشَدَ لِبَني خزاعة، فكان بينهما قتالٌ ما لبث أن انتهى بتحكيم «يعمر بن عوف» أحد حُكَّام العرب من بني عبد مَنَاة بن كنانة، فقضى لِقُصيّ بحجابة البيت وأمر مكة[1]، ولِخُزَاعة أن تبقى إذا شاءت بمساكنها من مكة. . . ويبدو أن يعمر بن عوف سُمِّي «شُدَّاخاً» لأنه شَدَخَ ما بين الفريقين من دماء، أي أَبْطَلها ولم يُبِحْ لأحدهما أن يُطالب الآخَرَ بِدِياتِ القتلى، وقد أكَّد الأزرقيُّ أن بني خُزاعة ظَلُّوا بمكةَ على رِبَاعِهم لم يخرجوا منها[2].

ويُفهم من بعض ما ذكره اليعقوبي أن قُرَيشاً كانت بمكة لم تُفارِقْها، كسائر أبناء الياس بنِ مُضر، ولكن لم تكن هنالك يومئذٍ بيوتٌ في حَرَم مكة، ولا في بَطْحَائِها[3]، وإنما كانوا ينزلونها نهاراً، فإذا أمْسَوْا خرجوا إلى بيوتهم في شِعَابِ مكة خارجَ الحَرَم، فلمَّا وَلِيَ قصيٌّ حجابةَ الكعبة وأُمورَ مكة، أنْزَلَهم أرضَ الحرَم، وقَسَمَ بينهم بطحاءَ مكة رِبَاعاً[4]، لكل أسرةٍ رَبْعٌ[5]، فصارت قبائلُ قريش طائفتين: قريش البِطَاح وهم الذين نزلوا بطحاءَ مكة بين

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٦٨، أخبار مكة: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦، تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩، أنساب الأشراف: ١/ ٤٩ ـ ٥١، لسان العرب: ٣/ ٢٨ (شدخ)، الأعلام: ٥/ ١٩٨ و ٨/ ٢٠٥.

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٠٧، المفصَّل: ٤/ ٢٩.

(٣) البطحاء والأَبْطح: أرض في مَسِيلِ الوادي يُغطيها دُقَاقُ الحصَى والتراب ممّا تجرُّه السيولُ معها.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٥) الرَّبْعُ: المحلَّةُ أو المنزلُ أو الحيّ، وهي أرض مربَّعةٌ غالباً.

جَبَلَيْها، وقريش الظواهر وهم الذين نزلوا ما حولها[1]. . . وكان البلدُ كثير الشجر، فضاق بهم إذ هابت قريشٌ قطْعَهُ في الحَرَم، فقطعه قصيٌّ بيده ففعلوا فِعْلَه[2]. . . فكان أوّلَ رجُلٍ من بني كنانة أصابَ مُلكاً أطاع له به قومُه، ولم يُنازِعُوهُ في شيءٍ منه قطُّ، إلا أنه أَقَرَّ لقبائل مُضَر ما كانت عليه منذ عهد خزاعة، فأَقَرَّ آلَ صفوانَ من بني تميم في إجازة الحاجّ من عَرَفَة ومِنَى، وكانوا ورثوها عن بني صُوفَةَ وَلَدِ الغوث بن مُرّ، كما أَقرَّ بني عَدْوَانَ في الإفاضة بالناس من المزدلفة، وبني مالك بن كنانة في الإفتاء والنَّسِيء، وبني مُرَّة بن عوف في البَسْلِ، فظلُّوا جميعاً على ما كانوا عليه حتى قام الإسلام[3]، بمن فيهم بنو تميم، وكانوا أئمة العرب في مواسمهم وقضائهم بسوق عكاظ[4].

---

(١) المحبَّر: ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٠ ـ ٧١. (ويُفهم من مختلف الروايات أن حَرَمَ مكة كانت به غوطةٌ من الأشجار، غطتْ سطحَ الوادي، وأنهم كانوا يُقدِّسونها، وأن بعض بيوت مكة كانت بها أشجار من شجر الحَرَم، فكانوا يهابون قطعَها، حتى ظهر قصيّ، فخالف عقيدتَهم فيها، وأقْدَم على قطعِها، ولم تزل بها أشجارٌ حتى فَتْح مكة، بدليل قول الرسول: «ولا يُعْضَدُ شجرُها» ـ المفصل: ٤/٤٦، ٥١، ٥٢، والطبقات: ١/ ٧٠ ـ ٧١).

(٣) السيرة لابن هشام: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٩.

(٤) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٢.

توزيع الوظائف بمكة على أحياء قريش

خزيمة بن مدركة
كنانة — أسد (المشورة)
النضر (قريش)
مالك
فهر
غالب
لؤي
عوف (البسل) — كعب (التجارة والقيادة)
عدي (السفارة) — مرة — هصيص
جمح (الأيسار) — سهم (الحكومة والأموال المحجرة)
يقظة بنو مخزوم (القبة والأعنة) — كلاب — تيم (الأشناق والمغارم)
الحجابة واللواء والقيادة والرفادة والسقاية
قصي — زهرة بنو زهرة بن كلاب
عبد الدار — عبد مناف — عبد العزى — عبد قصي
أسد
هاشم — عبد شمس — نوفل — المطلب

وهنالك بعضُ الشؤون الأخرى تركها قصيٌّ لعَدَدٍ من أُسَرِ قريش، لكل أسرة عملٌ تقوم به فتُمْضِيهِ لها سائرُ قريش، فكانت «السِّفَارةُ» في بني عَدِيّ، وصاحبُها رسولُ قريشٍ عادةً في الصُّلْح بينهم وبين أَحياء العرب، ويُنَافِرُ عنهم إذا فاخَرَهُم أَحَدٌ منها، ويُنذِرُ مَن أرادوا إنْذارَهُ بشيء، وكانت «المشورةُ» في بني أسَد، وصاحِبُها يُستشارُ في الأمور الخطيرة، وكانت

«**الأشْنَاقُ**» في بني تَيم، وهي «**الدِّيَاتُ والمَغَارم**»، وكان صاحبُها إذا احْتَمَل شيئاً عن قريش من الدِّيَات والمغارم، ثم سألهم فيه صَدَّقُوهُ وأمضوا ما احْتَمَلهُ من غير معارضة، وكانت «**الأيْسَارُ**» في بني جُمَح، والأيْسَارُ: الداخِلُونَ في الميْسِر، وهم أشرافُ القوم، وهو قمار العرب في الجاهلية، وكان على جَزُورٍ ينحرونها، ولا ينالُ الرابحون من لحمها شيئاً، وإنما يُعطَى فقراءَ الحيِّ، يَتَولَّى ذلك منهم صاحبُ الأيسار، ومن ثَمَّ كان الدخولُ في الميْسِر عندهم من آيات النبل والكرم، وعُدَّتِ «**الأيْسَارُ**» مَكْرُمةً من مآثِر الجاهلية[1]. وكانت «**القُبَّةُ والأعِنَّة**» في بني مخزوم، وصاحبُها يُشرِفُ على تجهيز الجيش، ويقودُ فُرسانَ قريش في الحرب، وكانت في بني سَهْم «**الحكومةُ**» وهي القضاءُ بين الناس، و«**الأموالُ المُحَجَّرةُ**» وهي أموالٌ من نقود وحُليّ كانوا يُسَمّونها لآلهتهم[2]، وتُحفَظ عند بني سهم، ولعلَّها نوع من الوقف... وضمَّ قصيُّ بنُ كلاب إليه من تلك الشؤون: «**الحجابةَ**» وهي السلطة الدينيةُ، وصاحبُها عادةً يستفيدُ من النُذورِ والقَرابين، فضلاً عن العُشُور، و«**اللواءَ**» وهو رايةُ الحرب، و«**القيادةَ**» وهي قيادة قريش في الحرب، وقيادةُ قوافلها وفيها أموالها وأرزاقُها[3]، و«**السقايةَ**» وهي سقايةُ النبيذ، يُوضع في حِيَاضٍ إلى جانب زمزم[4]، أو بفناء الكعبة[5]، ويُسْقَى منه

---

(١) هنالك تفسير آخر للأيْسَار يزعم أنها الأزْلامُ، التي كانوا يَسْتقْسِمون بها، وكانت تكون في بيوت العبادة عند السَّدَنة، وهو غلط ظاهر، وما أثبتناه هو الصواب.

(٢) العقد الفريد: ٣/٣١٣ ـ ٣١٤، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: ٧٥٠، والاستيعاب في أسماء الأصحاب: ٢/ ٤٥١ (كتاب الإصابة)، والمحبَّر: ٣٣٣.

(٣) أخبار مكة: ١/١٠٧.

(٤) الطبقات الكبرى: ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٥) أخبار مكة: ١/ ١١٠، ١١٤.

الحجيجُ أيام المواسم، وقد ذكر ابن منظور أن السقاية هي ما كانت قريشٌ تسقيه الحجاجَ من الزبيب المنبوذ في الماء، وأنها أيضاً الموضِعُ الذي يُتَّخذُ فيه الشرابُ، في المواسم وغيرها، وأن معاوية بن أبي سفيان باع سِقايةً من ذهبٍ بأكثر من وزنها[١]، وهي إشارةٌ إلى تعدُّدِ السِّقَايات، ومُغَالاتهم في التنافُس والتفاخُرِ فيها، وليس صحيحاً أن الماء كان عزيزاً جدّاً بمكَّةَ، ففي أخبارها ذِكْرٌ لعشرات الآبار، وكثير من الينابيع، وإلاَّ فما تَوقُّفُ قوافل التجارة الدولية بها، إن لم يكن فيها ماءٌ ولا شَجَرٌ؟ وإذا فَرضنا أن أهلها، والناسَ الذين يقصدونها للحجّ، يَتبلَّغُونَ[٢] بجرعاتٍ قليلة من الماء، فمن أين كانت تُرْوَى دَوَابُّهم وهي تُعَدُّ بعشرات الألوف؟...

وقد كانت كذلك إلى قُصيّ «الرِّفَادَةُ»، وهي خَرْجٌ كانت قريشٌ تُخرِجُه في الموسم من أموالها، يترافدون في جَمْعِهِ، أي يُعِينُ بعضُهم بعضاً، ويدفعونه إلى قصيّ، فيشتري به الجُزُرَ[٣] والدقيقَ للطعام، والزَّبيبَ للنبيذ، فلا يزالون يُطعمون الحاجَّ ويَسقونهم حتى تنقضي أيامُ موسم الحجِّ[٤]... ويبدو أن قُصيّاً آنَسَ في ماله عجزاً عن الوفاء بمثل هذا العمل، ففَرَضَهُ ضريبةً على قريش، وهو معنى قوله لهم: «فلو اتَّسَعَ مالي لجميع ذلك لَقُمتُ فيه دونكم»[٥]، وهو دليلٌ على أن إكرامَ الحاجِّ وإطعامَهم وسِقَايتَهم أيامَ الموسم كانت سُنَّةً قديمةً، لعلَّ أوَّل من سنَّها عمرو بنُ لُحيّ، ثم كان من يَسُودُ مكةَ

---

(١) لسان العرب: ١٤/ ٣٩٢ (سقى).
(٢) تَبلَّغَ: بالشيء، اكتفى وقَنع.
(٣) الجُزُرُ: مفردها جَزُور وهي ما يُجْزَرُ من النُّوقِ والغَنَم.
(٤) السيرة لابن هشام: ١/ ١٣٠، الطبقات الكبرى: ١/ ٧٣، لسان العرب: ٣/ ١٨١ (رفد)، معجم البلدان: ٥/ ١٨٦، أخبار مكة: ١/ ١١٠، والأبْشيهي ـ المستطرف: ٢/ ٨٢.
(٥) أنساب الأشراف: ١/ ٥٢.

بعدئذٍ يقومُ بها من ماله، ولا يُكلِّف أحداً رِفْداً، إنِ اتَّسع مالُه لها، فعُدَّتْ بذلك مَكْرُمَةً من مكارم الجاهلية التي أَقَرَّها الإسلامُ فيما بعد وجَرَى عليها[1] . . . والغريبُ في هذا الأمر أن قُصيّاً، كما ذكر بعضُ أهل الأخبار، كان يتقاضَىٰ العُشُورَ ممَّن يدخلُ مكةَ تاجراً مِن غير أهلها[2]، ولم تكن هذه العشورُ قليلةً، لأن التجارةَ كانت مزدهرة! . . ! وكانت العادة يومئذٍ أن السَّدَنَةَ يستفيدون من النُّذُورِ والقَرابين، التي تُقَدَّمُ إلى بيوت العبادة والأصنام، فهي من حَقِّهم ونصيبهم[3] . . . وقد ابتنَىٰ قصيٌّ بمكة داراً سمَّاها «دارَ الندوة»، وجعل بابَها إلى الكعبة، فكانت قريشٌ تقضي فيها أُمورها جميعاً، ولا يدخلُها إلا من توافَر له بلوغُ الأربعين وشَرفُ المولد[4]، فكان شيوخ قريش يجتمعون فيها برئاسة قصي، وينظرون في شؤونهم، فلا يُبْرَمُ قرارٌ، ولا يُتَّخذُ تدبير إلا عند وِفاقهم ومشورتهم، فكأنَّ مكة كانت أيامَ قصيّ جمهوريةً صغيرةً يَسُودُها الأشرافُ والموسرون[5]، وكانت نَدْوتُها مجلساً للشيوخ على نحو ما كانت عليه مجالسُ الشيوخ عند اليونان، أو في المدن الكنعانية والفينيقية[6] . . . ولا بدّ أن نُشيرَ أخيراً إلى أن قُصيّاً هو الذي بَنَى المِشْعَرَ الحرامَ بمُزْدَلفة، وأحدث فيه وقودَ النار، ليهتديَ بها من يقفُ بعرفات إذا انصرفوا إلى مزدلفة، وقد جعله الله في الإسلام مِشْعَراً، وأمَر بالوقوف عنده والدعاء[7].

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٣.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٢، الطبقات الكبرى: ١/ ٧٠.

(٣) المفصَّل: ٦/ ٢١٤.

(٤) أخبار مكة: ١/١٠٩، المفصَّل: ٤/٤٧ ـ ٤٨.

(٥) تاريخ العرب: ١٥٢.

(٦) معالم الحضارات: ١٦٠.

(٧) المحبَّر: ٢٣٦، الطبقات الكبرى: ١/ ٧٢.

وكـان لقصـيّ أربعـةُ أولاد: عبـدُ الـدار وعبـدُ مَنَـاف وعبـدُ العُـزَّى وعبدُ قصي[1]، فلما كبُرَ قصيٌّ ورقَّ، وكان عبدُ الدار بِكْرَهُ وأحَبَّ ولدِهِ إليه، وكان ضعيفاً، جَعلَ الأمرَ كلَّه إليه بعده، فلا يدخلُ الكعبةَ أحدٌ حتى يكون هو الذي يفتحها له، ولا تَعقد قريشٌ لواءً لحربٍ إلا كان هو الذي يعقدُه بيده، ولا يشربُ رجلٌ بمكة إلا من سِقَايته، ولا يأكلُ أحد من أهل الموسم طعاماً بمكة إلا من طعامه، ولا تقطعُ قريشٌ أمراً من أمورها إلا في داره، فأعطاه بذلك دار الندوة والرفادة والسقاية واللواء وحجابةَ البيت[2]... ويذكر بعضُ أهل الأخبار أن قُصيّاً إنما فعل ذلك لابنه عبد الدار، ليُلْحِقَهُ بسائر إخوته في الشرف، وكانوا قد شَرُفوا عليه وتقدَّموه[3]... ولكن الحقيقة غيرُ ذلك، فالرجلُ كان ضعيفاً، مُفْتقِراً إلى موارد الرزق، لا إلى مكارم الأخلاق، ولعلّ في بعض ما ذهب إليه الدكتور عمر فَرُّوخ شيئاً من الحقيقة، حينما عَدَّ الرفادةَ والسقاية من «المنافع الإقتصاديّة»، وأنهما «إسْقاءُ الناسِ وإطعامُهم في المواسم بثَمنٍ...»[4]! غير أنه لم يَثْبُتْ عندي أن السقاية كانت بثَمنٍ، ولعلّ الرِفادةَ هي ما كانت بثَمنٍ، ولكن الثمنَ في اعتقادي لم يكن حاجبُ الكعبة يَتقاضاهُ من الحجّاج، وإنما من أهل مكة، فقد كانوا يَترافَدون على جمع المال الذي فَرضهُ قصيٌّ عليهم، ويدفعونه إليه، فيلتَزِمُ إطعامَ الحاجّ وإسْقاءَهُم النبيذَ أيامَ الموسم بذلك المال، فإن زاد المالُ على ثمن الطعام والزبيب المنبوذ في الماء، كانت الزيادةُ من حقِّهِ،

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ١٤.

(٢) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٣، الكامل في التاريخ: ٢/ ٢١، معجم البلدان: ٥/ ١٨٧، أنساب الأشراف: ١/ ٥٣، السيرة لابن هشام: ١/ ١٢٩.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٣، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٤) تاريخ صدر الإسلام: ٤٦، ٤٨.

وإن قَصَّر، فربما أَكْمَلَ النقص من ماله إن كان ذا مال، فإن لم يكن، أَكْثَرَ في الطعام من الخبزِ وأَقَلَّ من اللحم والدَّسَم... ولا شك في أن الالتزام كان رابحاً مُعظمَ الأوقات، بل كان أيضاً مُغْرِياً ومُحرِّضاً على الحسد. فلمّا هلك قصيٌّ قام بالأمر بَعْدَهُ عبدُ الدار، ثم بَنُوهُ من بعده يَجْنُون ثمارَ ما جعله إليه جَدُّهم، وكانوا فوق ذلك يَخْتَطُّونَ في مكة رِبَاعاً من أرضها، ويبيعونها من قومهم وحُلفائهم[1]، فأثار ذلك حَسَدَ أبناءِ عمهم عبدِ مناف، وكانوا أربعةً: عمرو وهو هاشم، وعبدُ شمسٍ، والمطَّلِبُ، ونوفلٌ، فأجمعوا على أن ينتزعوا من بني عبد الدار ما ورثوه من امتيازات الكعبة ومكة، إذ رَأَوْا أنفُسَهم «أَحَقَّ به منهم لِشَرَفهم عليهم وفضلهم في قومهم...»[2]، كما زعم أهلُ الأخبار، وهو زعمٌ باطل، فإن كانوا قد شَرُفوا عليهم حقاً، وسبقوهم في الفضل، وهم حَفَدَةُ جَدٍّ واحد، فما حاجتُهم إلى الرفادة والسقاية، والشرفُ فيهما إنما هو لأهل مكة جميعاً، لأنهم أصحابُ المال الذي يُشْتَرى به الطعامُ والشرابُ لحجَّاج بيت الله، وأيُّ امْتِياز لامْرِىءٍ يُطعم الناسَ من أموال غيره؟... وقد أَوْشَكَ الفريقانِ على الاقتتالِ لولا سَعْيُ العُقَلاءِ بينهما في الصُّلْح، فاصْطلحا على أن يحتفظَ بنو عبد الدار بالحجابةِ واللواءِ ودارِ الندوة، وأن يتنازلوا لبني عبد مناف عن الرفادة والسقاية[3]، فرَضَوْا بهما لأنهم كانوا مع أَحْلافهم أضعفَ من بني عبد الدار مع أَحْلافهم[4]...

غير أني أعتقد أن الإرْثَ قُسِمَ مناصفةً بين الفريقين، فأُعْطيَ بنو عبد مناف مع الرفَادةِ والسِّقَايَةِ شأناً خطيراً آخَر هو القِيَادةُ، وصاحِبُها كان

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ١٣١.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٥٥، والطبقات الكبرى: ١/ ٧٧، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٣١.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١١١، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٣٢.

(٤) تاريخ صدر الإسلام: ٤٨.

يقودُ قريشاً في الحرب، مثلما يقودُ تجارتها وقوافِلها في السَّلْم، ويُؤْتَمنُ على أموالها وأرزاقِها[1]، وقد أَغْفَلَ الرواةُ هذا الشَأنَ لأنه آلَ إلى بني أُميَّة، فَعَلُوا ذلك تعصُّباً عليهم لبني هاشم، أيام العباسيّين. .

وبينما وَليَ هاشمٌ الرفادةَ والسِّقَايةَ، وَليَ أَخُوه عبدُ شمس بنُ عبد مناف القيادةَ، ثم وَلِيَها من بعده أُميَّةُ بنُ عبد شمس، ثم حربُ بنُ أُميَّة وهو الذي قادَ قريشاً يومَ عكاظ في حربها مع هوازن، ثم كان أبو سفيان بنُ حرب يقود قريشاً في الحرب، ويُؤْتَمن على قوافلها وتجارتها ويقودُها حتى قام الإسلام[2]. . . وقد ذكر الفقيه الحافظ القرطبي أن أبا سفيان كان من أشراف قريش في الجاهلية، وكان تاجراً يُجهِّز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها، وكان يخرج أحياناً بنفسه، فكانت إليه رايةُ الرؤساء المعروفةُ بالعُقَاب، وكان لا يَحْبِسُها إلا رئيسٌ، فإذا حَمِيَتِ الحربُ اجتمعت قريشٌ فَوَضَعَتْ تلك الراية بيد الرئيس[3]. . . ولمَّا هَلَكَ هاشمٌ تولَّى الرفادةَ والسِّقَايةَ بعدهُ أخوهُ المطَّلِبُ بنُ عبد مناف، ثم عبدُ المطلب بنُ هاشم، ثم الزبيرُ بن عبد المطلب، ثم أبو طالب ولم يكن له مالٌ، وكانت قريشٌ يومئذٍ بعَدَاوتها للإسلام في شُغْلٍ عن الرفادة، مَنعَ عنها التجَّارَ والحجَّاجَ، فادَّانَ أبو طالب سن أخيه العباس وكان مُرَابِياً، ثم لم يستطعْ وَفاءَهُ الدَّيْنَ، فأَخَذَ العبَّاسُ منه الرفادةَ والسقايةَ بما لَهُ عليه[4]. . . ولم يثبتْ أن العباس أطعم أحداً من ماله، وإنما ثبت أن الرسول عليه السلام، لمّا حجَّ أبو بكر بالناس سنةَ تِسْعٍ،

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٢٥٠.

(٢) أخبار مكة: ١/ ١١٥، المفصَّل: ٤/ ١١٠، الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٦، الأعلام: ١/ ٢٣، المحبَّر: ١٦٥، ٢٤٦ ـ ٢٤٨، الكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٤.

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب: حاشية على الإصابة: ٤/ ٨٦.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٥٧.

أرسل معه مالاً صُنِعَ به طعام الحجّاج، ثم فعل الشيءَ نفسه في حجَّة الوداع، وقام بعدَه بالأمر أبو بكر وسائرُ الخلفاء[1]. وكان الرسولُ عليه السلام ألْغَى عامَ الفتح كلَّ مَآثِرِ الجاهلية، إلا سِدَانةَ الكعبة وسِقَايةَ الحاجّ[2]. أمّا دارُ الندوة فصارت بعد بني عبد الدار إلى حكيم بن حزام بن خُوَيْلد، وهو ابنُ أخي خديجة أمّ المؤمنين، وصديقُ الرسول، وقد أسلم يومَ الفتح، وعُمِّر طويلاً[3]، وهو مَنْ باع دارَ الندوةِ من مُعاوية بن أبي سفيان[4]، فجعلها دار الإمارة بمكة[5].

صفوةُ الكلام أن النزاع بين أبناء الأسرة الواحدة على الرفادة والسقاية، وإن فرضنا أنه لم يكن من أجل المصالح والاسْتِئثارِ بالمنافع، لا يُبرِّرُهُ زعمُ الرواة أيامَ بني العباس، بأنه كان تنافُساً على الكرم والبَذْلِ، فالكريمُ لا يحتاج إلى مَنْصِبٍ إذا أرادَ إطعامَ الفقراءِ وقَضاءَ حاجاتِ الناس، فهذا عبدُ الله بنُ جُدْعان التَّيْميُّ، سيِّدُ قريشٍ في زمانه[6]، لم تكن بيده رِفادةٌ ولا سِقَاية، ومع ذلك كانت له جَفْنةٌ عظيمة، وهي وعاء كبير للطعام، يضعُها على بابِ منزله مملوءةً لحماً وشحماً، وكانت لِعِظَمها وضَخامتِها يأكلُ منها الفارِسُ وهو على فَرَسِهِ، والراكبُ وهو على بعيره، وكان له مُنَادِيانِ، أحدُهما ينادي بأسفل مكة: من أراد اللحم والشحم فلْيَأْتِ دارَ ابنِ جُدعان. والآخر يُنادي بأعلى مكة: من أراد الحلواء فليأتِ دارَ ابن جُدعان، وكانت حَلْوَاؤُهُ تُصنع من

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١١٢.
(٢) الشيخ محمد الخضري ـ تاريخ الأمم الإسلامية: ١/ ١٣١.
(٣) الأعلام: ٢/ ٢٦٩.
(٤) جمهرة أنساب العرب: ١٢١.
(٥) أنساب الأشراف: ١/ ٥٣، معجم البلدان: ٢/ ٤٢٣.
(٦) جمهرة الأنساب: ١٣٦.

لُبَابِ القمح والعَسَلِ وزُبْدةِ الحليب أو خالصِ السَّمْن، وتُسمَّى «الفالوذج»، وفي الحديث أن رسول الله كان يَسْتَظِلُّ بظلِّ جَفْنَةِ عبد الله بن جُدْعان في شِدَّة حَرِّ الظهيرة، إشارةً إلى عِظَمِها، وكان إلى ذلك يحضُرُ موائدَهُ في دارِهِ المعروفةِ بمكة، وحينما الْتُمِسَ أبو جهلٍ في قتلى بَدْر، أَمَرهم رسولُ الله، إن خَفِيَ عليهم، أن ينظروا أثَرَ خدْشٍ بركبته، وقال: «فإني ازْدَحمتُ يوماً أنا وهو على مأدبةٍ لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنتُ أشَفَّ منه بيَسِيرٍ، فدفعتُه فوقع على رُكبتَيْه»! وفضلاً على ذلك كله كان ابنُ جُدعانَ يعتقُ العبيد، ويُعِينُ الناسَ في مَصائِبهم، ويقضي حاجاتهم مهما بلغت[1]. . . ويُروَىٰ أنه كان، لشَرَفهِ بمكة، في الوفد الذي ذهب لتهنئة الملك سيف بن ذي يزن بعد طَرْدِه الأحباشَ من اليمن، وكان في الوفد أيضاً عبد المطلب بن هاشم وأميَّةُ بنُ عبد شمس وأَسَدُ بن عبد العُزَّى[2]. كما يُذكر أنه قدَّم في حرب الفِجَار بعُكاظ مئةَ بعيرٍ وسلاحاً تامّاً من مالهِ الخاصِّ إلى مئةِ رجُلٍ من بني كنانة[3]، وأنه كان وراءَ حلف الفُضُول، الذي عُقِدَ بداره لإنصافِ المظلومين، والتآسي في المعاش، أي المساواة بين الناس[4]. . .

وبعدُ، نريد أن نسأل، أَلَيْسَ فيما كان يصنعُهُ ابنُ جُدْعان مكْرمةٌ من المكارم التي يتيهُ بها العربُ على كثير من الأمم؟ ويفخرُ بها بنو تَيم على سائر القبائل؟ وهل يُسوَّى في الكَرَمِ بين مَن أَطعم الناسَ الشَّهْدَ والزُّبْدَ ولُبَابَ القمح والتمرَ واللحمَ والشحمَ، ومَن أطعمهم الخبزَ والكعكَ بالمَرَق؟. . . وإذا كنا لم نعلم بأن أحداً من بني تَيم قام يُنازِعُ ابنَ جُدْعان على تلك

---

(١) المحبّر: ١٣٧ ـ ١٣٨، ومعجم البلدان: ٥/ ١٨٥، ولسان العرب: ١٠/ ٤٥٧ (صكك)، و ١٢/ ٢٣٧ (رذم)، والسيرة لابن هشام: ١/ ٦٣٥، والمفصل: ٥/ ٩٧ ـ ٩٨ و ٢٥٠.

(٢) العقد الفريد: ٢/ ٢٣.

(٣) العقد الفريد: ٥/ ٢٥٧، والكامل: ١/ ٥٩٣، والأغاني: ٢٢/ ٦٦.

(٤) أحمد أمين ـ الصعلكة والفتوة: ٤٨.

المكرمة لينتزعَها منه، فالعِلَّةُ بَيِّنَةٌ، وهي أنها امتيازٌ بالبذل والعطاء، وليست امتيازاً للتكسُّب والربح! . . .

ومثلُها مكرمةٌ كانت في بني شيبان، وهي قُبَّةٌ عظيمة، أي خيمةٌ كبرى، ضَرَبها عوفُ بن أبي عمرو من بني ذُهْلِ بن شيبان، فلا يدخلها جائعٌ إلا أُشْبِع، ولا خائفٌ إلا أَمِنَ[1]. . . وكانت تُسمَّى «قُبَّةَ المعَاذَة»، يُجَارُ كلُّ من عاذَ بها أو لجأَ إليها[2]. فانظرْ إلى هذه المكرمة العظيمة جَعَلَتْها العربُ لبني شيبان، حينما أقرَّت بحُرْمةِ خيمةٍ رفَعَها أحدُ زعمائهم، لإطعام الجَوْعَىٰ وتأمين الخائفين، وإجارَةِ المستجيرين، ويكفي العائذَ بتلك الخيمة أن يلوذَ بأحَدِ أعمدتها، فضلاً عن دُخولها، حتى تشمَلَهُ حصانةٌ ضدَّ الجوعِ والخوفِ وطُلَّابِ الثأر، يحترمُها سائرُ العرب فلا يجرؤ أحدٌ على اللحاقَ به! . . . أوَليست مكرمةً يحقُّ لبني شيبانَ أن يفخروا بها على سائر العرب؟ ومع ذلك، لم يُؤْثَرْ أن بني عوف تنازعوا عليها بعد أبيهم، بل حرصوا على بقائها مَكْرمةً لبني شيبان.

ومثلُها أيضاً مكرمةٌ لِعَامِرِ بن الطُّفَيْل فارسِ العرب، وأحَدِ سادات هوازن، إذ كان يأمُر منادياً يطوفُ في المواسم بسوق عكاظ يُنادي في الناس: هل من مُتْعَبٍ فنحملَهُ، أو جائع فنُطعِمَهُ، أو خائفٍ فنُؤَمِّنَه[3]. . . ؟

ومثلُها مكرمةٌ كانت كذلك في بني بَجِيلَة، لم ينزل بهم نازِلٌ قَطُّ، ضيفٌ أو لاجِئٌ أو مُسْتجير، إلاّ عَمَدوا إلى ماله فحسَبُوهُ وحَفِظُوه له عندهم، وأنفقوا عليه من أموالهم ما دام مقيماً بينهم، فإذا ارتحل أَدّوا إليه ماله، ورحلوا معه إلى دِيَاره، فإن مات في الطريق، دفعوا إلى أهله دِيَتَهُ،

---

(١) المحبَّر: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) المفصَّل: ٤/ ٣٦٣.

(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٦، الأعلام: ٣/ ٢٥٢.

وإن قُتِل طلبوا بدمه، وإن سَلِمَ ألْحَقُوه بأهله[1].

وإذا كان عبدُ الله بنُ جُدْعان مَثَلاً طيّباً على عادةِ بعض أشراف العرب وسادتهم إكرامَ الناسِ وإطعامَهم بمكة، فهنالك أيضاً إشارةٌ في بعض أخبار الجاهلية إلى أنه كانت بمكة أكثر من سِقَايةٍ للحَجِيج، فقد ذُكر أن عديَّ بن نوفل بن عبد مناف، كانت له سِقَايةٌ بين الصَّفا والمروة، يَسْقي الحجيجَ عليها الحليبَ والعَسَلَ، عُرِفت بسِقَاية عَدِيّ[2]. وقدَّر الزركلي وفاة عديّ بن نوفل نحو سنة (٥٩٤ م)[3]، أي أنه كان مُعَاصراً عبدَ المطلب، ابنَ عَمِّه هاشم، وكانت لعبد المطلب حينئذٍ سِقَايةُ الحاجِّ ورثها عن أبيه مع الرفادة، وكان يسقي عليها اللبنَ والعسلَ كما يذكرُ أهلُ الأخبار، وفي ذلك أشار الأزرقي أنه كانت لعبد المطلب إبلٌ كثيرة، فكان إذا جاء الموسم يجمعها، ويسقي لبنَها بالعسَل، في حوضٍ من أَدَمٍ، عند زمزم، وكان يشتري الزبيبَ فينبذهُ في ماء زمزم ويسقيه الحاجَّ[4]... كما ذُكر كذلك أن سُوَيْدَ بن هرمي بن عامر من بني جُمَح، كان أوّلَ من وَضَعَ الأرائِكَ للناس، وسقَى اللبنَ والعسلَ بمكة، ثم كان بَعدَهُ أبو أمية بنُ المغيرة من بني مخزوم، وأبو وداعة بن ضبيرة من بني سهم يسقيان العسلَ بمكة[5]. فالسِّقَايَةُ إذن كانت مَكْرُمةً تتنافَسُ عليها بُيُوتاتُ قريشٍ كافّةً، كبني عبد مناف، وبني هاشم، وبني تَيْم، وبني جُمَح، وبني مخزوم، وبني سَهْم...

* * *

(١) المحبَّر: ٢٤٣.

(٢) المفصَّل: ٤/ ٦٦.

(٣) الأعلام: ٤/ ٢٢١.

(٤) أخبار مكة: ١/ ١١٣ ـ ١١٤.

(٥) المحبَّر: ١٧٦ ـ ١٧٧.

سقْنا تلك الأمْثالَ لِنَخلُصَ إلى أن ما كان بين بني عبد مناف وبني عبد الدار لم يكن سوى تنازعٍ على المنافع، أخرجه الرواةُ في عهد بني العباس إخراجاً يحطُّ من شأن قوم، ويرفعُ من شأنِ آخَرين، ثم ما لبثوا حتى زَوَّرُوا رواياتٍ أخرى زعمتْ وجودَ نزاعٍ بين هاشم بن عبد مناف وأخيه عبد شمس، تارةً على السيادة، وأخرى على الكرم والبذل، واضْطُروا من أجل ذلك إلى اختلاق أخبارٍ، لا يكادُ يثبتُ منها إلا القليلُ، على شكٍّ، عند التحقُّق والموازنة!. ولكن كثيراً من الباحثين وكتَبَةِ التاريخ نقلوها وأثبتُوها كما جاءت في مراجع أهل الأخبار، فصارت كأنها من الحقائق التي لا تقبلُ الجدَلَ فيها أو الرِيبةَ... وهو ما دَفَع الدكتور فرُّوخ إلى القول: «وهكذا انقسمتِ الأسرةُ الواحدةُ في الحياة فريقين، فريقاً يتكسَّبُون بالتجارة والحرب، وفريقاً يتكسَّبُونَ بالرفادة والسقاية، فكان آلُ هاشم من أجل ذلك أقلَّ ثروةً من بني عبد شمس...»[1]، فأكّد بذلك ما ذهب إليه رواةُ الأخبار من التنازع بين الأخوَيْن، شأنُه في ذلك شأنُ سائرِ من كتب في هذا الأمر...

وفي اعتقادي أن ذلك التنازع لم يكن في الأصل موجوداً، وإنما اخترعه بعدئذ أصحابُ المصالح السياسية والعصبية، وليُبرِّرُوا به نِزاعاً وقع فعلاً بين الحَفَدَةِ بعد أيام بني عبد مناف بنحو مئة وستين عاماً أو أكثر، يوم قامت دولةُ بني أمية... وإلا، فإذا كان هاشمٌ وعبد شمسٍ أخَويْن شقيقين، وكانا على أشهر الروايات تَوْأَمين[2]، والمعهودُ في التوائم شدَّةُ الشبَهِ، فكيف يمكن للعقل أن يَقبل روايةً غريبةً زعمت أن أحدَهما كريمٌ وَسيمٌ، والآخَر لئيمٌ ذَمِيم، «وأن بينهما فارقاً في الطباع ملحوظَ الأثَر في خلائق

(١) العرب والإسلام في حوض المتوسط: ٣٥.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ١٤، تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٢.

الأسْـرتيـن مـن أيـام الجـاهليـة إلـى مـا بعـد الإسـلام بعِـدَّة قـرون. . . »[1].
ويُحدِّثونك أيضاً أن أحدهما وُلد وأصبعُه ملتصقةٌ بجبهة الآخر، وكان ذلك دليلاً على ما سيكون بينهما من دماء وقتال[2]. . . ويزعمون كذلك أن أمية بن عبد شمس، لمّا تولّى عمُّه هاشمٌ السقايةَ والرفادةَ، حَسَدَهُ على رياسته، وكان أُميةُ مُثْرِياً من المال والولد، فتكلَّف أن يصنعَ صَنيعَ هاشم في إطعام قريش، فعجز عن ذلك، فشَمِتَ به ناسٌ من قريش، فغضب ونال من هاشم ودَعاهُ إلى المُنَافَرة، أي إلى الاحتكام في الشرفِ والحَسَبِ، فكَرِه هاشمٌ ذلك لِسنِّهِ وقَدْرِهِ، فلم تتركه قريش حتى نافَرَهُ على خمسين ناقةً والابتعادِ عن مكة عشرَ سنين، فرضي أمية، وجعلا بينهما حَكَماً من بني خزاعة، فقضى لهاشم بالغَلَبة في الشرف والحَسَب، فأخذ الإبلَ ونَحرها وأطعمها من حَضَر، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، وتلك كانت أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية. . . ثم يُنْبِئُونَك بكل بساطة أن هاشماً مات بغزَّة وعمرهُ عشرون سنة، ولكن البلاذريَّ يؤكد أنه خمسٌ وعشرون، وكذلك ابن الأثير وياقوت وغيرهم[3].

هذه الحكاية جاءت في مختلف المراجع القديمة والحديثة كما ذكرتُها تماماً، وأكاد أجزم أن أحداً لم يكلف نفسه مشقَّةَ التحقُّق من صحتها، أو على الأقـل، صِحَّةِ شيء واحدٍ منهـا! بل إن الدكتور هيكل قرر أن هاشماً كان كبير قومه، وجعله يعيش طويلاً حتى تتقدَّمَ به السن، ومع ذلك قَدَّر

---

(١) مطلع النور: ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٤٢.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٦١ ـ ٦٣، الكامل في التاريخ: ٢/ ١٦ ـ ١٧.، معجم البلدان: ٤/ ٢٠٢، الطبقات الكبرى: ١/ ٧٦، السيرة لابن هشام: ١/ ١٣١، ١٣٥، تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٣، حياة محمد: ١١٥، المفصَّل: ٤/ ٧١ ـ ٧٣، محاضرات الخضري: ١/ ٣٧.

ولادتَهُ سنة (٤٦٤ م)، وموته بعد ولادة ابنه عبد المطلب سنة (٤٩٥ م) بعدَّةِ سنين[1]... وعلى الرغم من أننا لا نعلم شيئاً عن سَنَدِ هيكل فيما قدَّرهُ، لكننا نسأل: أين هو التقدُّم في السنّ عند رجُل لم يعشْ أكثرَ من اثنين وثلاثين عاماً، إن صحَّ أنه عاشها؟... والغريب في الأمر أيضاً أن ابن الأثير والبلاذري وغيرهما أجمعوا على أن هاشماً كرِه منافرةَ ابن أخيه «لسِنِّهِ وقَدْره»، فجَعَلُوهُ من ذوي العمر المديد، والرجلُ لم يعش كما أثبتوا جميعاً سوى خمسةٍ وعشرين عاماً، وهو ما حقَّقه الزركلي في ترجمته هاشمَ بنَ عبد مناف، ولكنه أخطأ إذ قدَّر ولادته سنة (٥٠٠ م)[2]... فالمعروف أن عبد المطلب بن هاشم توفي بعد مولد الرسول بثماني سنين، أي سنة (٥٧٩ م) عن عمر ناهز الثمانين. فولادته كانت نحو (٤٩٥ م)، وفي السنة نفسها مات أبوه هاشم[3]، فتكون ولادةُ هاشم نحو سنة (٤٧٠ م). فإذا كان تَوْأَماً لعبد شمس، أو كان عبدُ شمس أسَنَّ منه قليلاً كما قال ابنُ إسحاق[4]، فكلاهما كان في الزمن نفسه، ولو فَرضنا أن عبد شمس تَزوَّجَ في السادسة عشرة، لا أكثر، أي نحو (٤٨٥ م)، وأن أُميَّة بن عبد شمس وُلد في السنة التالية، وأن المُنَافَرة المزعومة لا بُدَّ أن تكون وقعت قبل موت هاشم بسنةٍ على الأقل، لكان معنى ذلك كله أن أمية بن عبد شمس، حينما جعلوه يحسدُ عمَّه ويَتَحدَّاهُ، كان عمرهُ على أبعد التقدير تسعَ سنينَ فقط، فهل هذا مما يقبله العقلُ السليم؟...

---

(١) حياة محمد: ١١٢، ١١٦، ١٢٣.

(٢) الأعلام: ٨/٦٦، وجعل وجود عبد المطلب بين (٥٠٠ ـ ٥٧٩ م)، فكأنه وُلِدَ مع أبيه في سنة واحدة! وجعله أيضاً يمارس حكومةَ مكة سنة (٥٢٠ م)، أي قبل الزمن الذي قدَّره لموت هاشم بخمس سنين، وهو غلط واضح. (الأعلام: ٤/ ١٥٤).

(٣) انساب الأشراف: ١/ ٦٤.

(٤) السيرة لابن هشام: ١/ ١٣١.

وإذا عرفنا أن المنافرةَ في الأصل إنما هي ادِّعاءُ كل فريق بأنه أَعَزُّ نَفَراً، وأن ذلك لا يقع إلا بين مُتَباعِدَيْن، لا بين قريبَيْن يعتزَّانِ بالنَّفَر عَيْنه، والأُسرةِ نفسِها، تبيَّن لنا أن الحكاية من أساسها واهِيَةٌ، وأنها وُضِعت بقصد إيقاعِ الفتنة والفُرْقة بين العرب. . . هذا مع العلم بأن هاشماً هو أوَّلُ من مات من بني عبد مناف، ثم مات عبدُ شمس[1]، ولا نعتقدُ أن عبد شمس كان يسمحُ لابنه أن يتحدَّى عمَّه ويُنافِرَهُ، لو كانت الواقعةُ صحيحةً، وما دُمْنا نؤكد على أنهما معاً من أُسرة واحدةٍ عريقةٍ في الشرف والسمُوِّ ومكارم الأخلاق. ونحن على شِبْه اليقين بأن هاشماً كان أكبر الأبناء، لأنه خَلَفَ على امرأة أبيه واقدة، وهي أمُّ أخيه نوفل، واسْتَولَدَها بنتين هما: خالدة وضعيفة[2]، وهذا لا يمكن إلا إذا كان أكبرَ الأولاد.

ويظهر لنا تهافتُ تلك الحكاية فيما نقله البلاذريُّ مثلاً بقوله: «كان أُمية بن عبد شمس ذا مالٍ، فتكلَّف أن يفعل فعلَ هاشم في إطعام قريش، فعجز عن ذلك. . .»[3]، فإن كان الرجلُ ذا مالٍ حقاً، فلماذا يعجز عن إطعام الناسِ؟ . . . هذا إن كان الخبرُ صحيحاً، وكيف يصحُّ إذا كانت ولادةُ أميَّة بن عبد شمس نحو سنة (٤٨٦ م)، وكانت سنُّهُ نحو أربع سنين لمّا كان عمُّه هاشم في العشرين؟

على أن الأزرقي، وهو أقدمُ من صنَّفَ في تاريخ مكة، تحدَّث بهذا الأمر، فذكر أن هاشم بن عبد مناف كان يُطعم الناس في الموسم، بما يجتمعُ عنده من تَرافُدِ قريش، ولم يزل على ذلك حتى أصاب الناسَ في سنةٍ

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢/ ١٧.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ١٤، والمعارف: ١١٢.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٦٠ ـ ٦١.

جَذْبٌ، فخرج إلى الشام، فاشترى بما اجتمع عنده من مال، دقيقاً وكعكاً، وقَدِمَ مكةَ، فنَحَرَ جَزوراً، وهَشَمَ ذلك الكعكَ وطبخَه وجَعلهُ ثريداً، وأطعم الناس[1]. . . وكان «يَسْتكثر من الخبز والكعك»[2] في طعامه، وهو ما دفع الدكتور فَرُّوخ يذهب إلى أنه إنما لُقِّبَ هاشماً، وكانَ اسمُه عَمْراً، بما كان يُكثِرُ من هَشْم الكعك، ويجعلُ في الثريد من الخبزِ أكثرَ من اللحم[3]، ولولا ذلك لكانوا لَقَّبُوهُ بالمُطْعِم مثلاً. . . وقديماً حَمَلَ ابنُ إسحاق تلك الروايةَ على الزَّعْم، إشـارةً منه إلى ضعف اليقين، وأثْبَتَ قولَ هاشم لأهل مكة حينما كلَّفَهم جمعَ المال لشراء الطعام: «فلو كان مالي يَسعُ لذلك ما كلَّفتُكُموهُ. . »[4]، وهي إشارةٌ إلى أنه لم يكن مُوسِراً![5]. كما حَمَلَ على الزَّعْمِ سائِرَ الروايات التي تنسبُ الأُولَيَاتِ كلَّها إلى هاشم، وهي كثيرةٌ، لا تتفقُ كثرتُها والعُمرَ القصيرَ الذي عاشَهُ ولم يتجاوزِ الخامسة والعشرين. كقولهم: إنه أولُ من أطعم الثريد بمكة، وأوَّلُ من حفر الآبار لأهل مكة، وأنه أولُ من سنَّ الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١١١.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨.

(٣) تاريخ صدر الإسلام: ٤٨.

(٤) السيرة لابن هشام: ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٥) أرجو ألاّ يَحْمِلنَّ أحدٌ ما قلتُه في هذا الشأن على محمل الشكّ والريبة! فما قلتُه ناقداً، مُحقِّقاً، إنما هو للتاريخ لا أكثر، ولا أبتغي من ورائه حَطّاً من قدْرِ أحَدٍ، ولا رفعاً لأحَد. وقد ذكر الإمام البخاريُّ في صحيحه (الجزء الثامن: ٧ ـ كتاب الأدب)، عن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، جهاراً غيرَ سرٍّ، يقول: «إن آل أبي ليسُوا بأوْليائي، إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين، ولكنْ لهم رحمٌ أَبُلُّها بِبَلالِها» يعني أصِلُها بصِلَتِها. وقد ذُكر هذا الحديث في التجريد الصريح للزبيدي ـ كتاب الأدب ـ (رقم الحديث: ١٩١٨).

والعراق، وترحل الأخرى في الصيف إلى الشام، وأنه صاحبُ إيلاف قريش، وقد فسَّر ابنُ عباس الإيلافَ بالعهد والذمام، يعني بذلك أن هاشماً هو أول من أخذ العهود من ملوك الشام والروم كي تختلفَ قريشٌ بتجارتها آمِنةً إلى بلادهم، فكتب له قيصر الروم كتاباً بذلك، وكتب إلى ملك الحبشة يأمره أن تدخل قريشٌ أرضَه[1] . . . ولم نجد في مختلف الأخبار أن ملوك الروم أو الشام منعوا أحداً من الاتجار في بلادهم، أو أنهم غَصَبوا قافلةً لأهل مكة مرَّتْ بهم، بينما وجدنا أن ملوك الشام والروم، وكذلك ملوك العراق وفارس، كانوا يَسْعَون غالباً إلى توفير الأمن لقوافلهم في بلاد العرب، فكانوا يَتألَّفُون[2] سادةَ القبائل على طرق التجارة، بالأتاوات والهدايا، ليطمئنوا إلى سلامة تجاراتهم، وكان ما يحتاجون إليه من العُروضِ التي يُجهِّزُها العربُ، أو يجلبونها من الأمم الأخرى، أكثر مما يحتاج إليه العربُ من عُروضهم[3].

ويضيف أهلُ الأخبار أن عُهوداً أُخْرى مُمَاثِلةً، أخذها لقُريشٍ في تجارتها، عبدُ شمس بن عبد مناف من ملك الحبشة، ونوفلُ بنُ عبد مناف من ملوك العراق وفارس، والمطَّلِبُ بنُ عبد مناف من ملك حِمْيَر باليمن، وبذلك أَلِفَتْ قريشٌ رحلةً في الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وأُخرى في الصيف إلى الشام، وربما بلَغت أنقرة في بلاد الروم، تنتقلُ قوافلها بمتاجرها إلى تلك البلاد، آمِنَةً مُطْمئِنَّةً لا يعترضُها أحدٌ بسُوء[4]، بفضل الاتفاقات التي

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٥، ٧٨، وأنساب الأشراف: ١/ ٥٩، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٢، ولسان العرب: ٩/ ١٠ ـ ١١ (ألف).

(٢) تألَّفَ: الرجلَ، قارَبَهُ وتكلَّفَ أُلْفَتَهُ ودارَاهُ، وأَلِفَ: المكانَ، تعوَّدَهُ واستأنَسَ به.

(٣) المفصَّل: ٤/ ١١٦، ٧/ ٢٩٤.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٥٩، تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٢، الطبقات الكبرى: ١/ ٧٥، الكامل في التاريخ: ٢/ ١٦، تاريخ صدر الإسلام: ٤٨، المحبَّر: ١٦٢.

عقدها بنو عبد مناف مع ملوكها، فازدهرت تجارةُ الحجاز، وأثْرى تُجَّارُ مكة. . .

ولا نريد التوسُّعَ في مناقشة هذا الخبر، إذ أننا نَعدُّهُ من قبيل التكلُّفِ والتزَيُّدِ في المعاني، اصْطنَعهُ أهلُ الأخبار في تفسير «الإيلاف» الذي ورد ذِكرُهُ في القرآن الكريم(١)، وتوسَّعُوا فيه فجعلوه عقوداً وحِبَالاً وعُهوداً أخذها أبناء عبد مناف من أولئك الملوك. . . ونعتقدُ، إن صحَّ الخبرُ، أن الأمر لم يكن أكثر من اتفاقاتٍ أَبْرَمُوها مع رؤساء القبائل في بلاد العرب، تسمح بمرور قوافل أهل مكة في مناطقهم بسلام. . . هذا هو الإيلافُ، لا معنى آخَر له سوى الأُلْفَةِ بمعنى التعوُّدِ والدَّأْبِ واللزوم، أو التأليف بمعنى التهيئَة والتجهيز(٢)، والفضل فيها لله جلَّ شأنهُ لأنه جعلهم يألَفون ويتَعوَّدون هذه الرحلة من غير خوف. . . فاتفاقاتُهم مع رؤساء القبائل كانت تأليفاً لهم على خفارة قوافل قريش وتُجَّارِها، مُقابلَ إشْراكهم في رأس مال القافلة، أو إعطائهم نصيباً من الأرباح، أو جُعَالةَ مُرور، أو هدايا خاصَّةً، أو استعمالِ إبِلهم في نقل المتاجر، ورجَالِهم في خفارتِها بأجور مُعيَّنة(٣). . . وبفضل بيت الله القائمِ بمكة، وهذه الاتفاقات التي أبرمها أبناءُ عبد مناف أمِنَتْ قريشٌ على نفسها وتجارتها، فكانت قوافلُها تسير إلى أيّ البلاد شاءت، في شهور الحِلّ كما في شهور الحرم، لا تخشى بأساً من أحد. . . أقول هذا وأنا أعتقد أن بعض الفضل في ذلك، إن لم يكن مُعْظمهُ، يعود إلى النظام الذي أوْجدهُ بمكة عمرو بنُ لُحيّ أواخِرَ القرن الثاني للميلاد، وجعل فيه إلى النضر بن كنانة وقتئذٍ شأنين من شؤون مكة، أحَدُهما: التجارةُ، وبه سُمِّيَ النَّضْرُ

(١) سورة قريش.

(٢) لسان العرب: ٩/ ١٠ (ألف)، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٣٧٨.

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٠١.

قُرَيْشاً، من التقرُّشِ أي التكسُّب[1]، والآخَرُ: البَسْلُ، وهو الحلالُ والحرام كما شرحنا آنفاً، وكانت لقريش به من بين العرب، ثمانيةُ أشهر حُرُم، فوق الشهور الأربعة التي كانت للعرب جميعاً، «قد عرفت ذلك لهم العربُ، لا يُنكرونه ولا يدفعونه، يسيرون به إلى أيّ بلاد العرب شاؤوا، لا يخافون منهم شيئاً. . .»[2]، لأنهم قَوَّامُونَ على الحُرمات! وهو ما فَتَح لهم الطرُق المغْلَقَةَ، وذَلَّل لهم الصِّعَابَ. ويبدو أن هذين الشأنين افترقا بعد هلاك لُؤَيّ بن غالب، فكانت التجارةُ في كعب بن لؤي، والبَسْلُ في عوف بن لؤيّ، ثم أَقَرَّهُ قصيٌّ، لمَّا غَلَب على مكة، لآلِ مُرَّة بنِ عوف بن لؤي، وظلَّت التجارةُ والقيامُ على قوافل مكة في بني كعب بن لؤيّ، ولذلك سُمِّيَتْ نَفْرةُ أهل مكة، لمّا أتاهم خبرُ اعتراض المسلمين لقافلة أبي سفيان: «نَفْرَةَ بني كعب بن لؤيّ»[3]. . . فالتجارةُ في مكة كانت إليهم، وتُجّارهم كانوا القَوَّامينَ عليها والمؤتمَنين على أموال المُسْهِمينَ فيها، فكان كلُّ راغب في التجارة من أهل مكة يُسْهِم بما أراد في رأس مال القافلة، وتجّارُ بني كعب بن لؤي يُجَهِّزُونها، ويسيرون بها بين الحجاز والشام والعراق واليمن، وعندما تنتهي الرحلة، تُوزَّعُ الأرباح على المُسْهِمين وتعاد إليهم أموالُهم، وقيل إن قريشاً كانت تربح في تجارتها للدينار ديناراً[4]. . . وعلى ذلك فالقافلةُ كانت لقبائل قريش كلها، فيها أموالُهم وتجارتُهم[5]، وبنو كعب لم يكونوا كلَّ قريش، وإنما بطوناً منها، فنَفْرَتُهم يومئذٍ كانت نَفْرةَ التجّار

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥ (قرش).

(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ١٠٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٤) المفصَّل: ٧/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠، ٣٠٠.

(٥) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢٧.

يريدون الحِفَاظَ على سُمْعَتِهم وثقةِ الناس بهم، وهي دليلٌ على أمرين قَرَّرْناهمُا، أحَدُهما أن التجارة كانت شأناً من شؤون مكة اخْتصَّتْ به قريشٌ، فعُرِفَتْ بقُريش التجار، وكان معظمُ تُجَّارِ مكة والحجاز منهم. والأمرُ الآخَرُ أن تنظيم التجارة وتجهيز القوافل وتَألُّفَ القبائل، تعود إلى زمنٍ أبْعَدَ في القِدَم من عهد بني عبد مناف، ولكن هؤلاء نهضوا بها نهضةً كبرى، في وقتٍ لم يَبْقَ على مسرح التجارة الدولية أحَدٌ غيرهم تقريباً، فعزَّزُوا مركز مكة التجاريَّ، ووَسَّعُوا تجاراتهم، وأحسنوا الإفادةَ من قيامهم على الكعبة، وبالغُوا في الدعوة إلى تقديس الكعبة بين العرب، ووفَّرُوا الأمنَ لمدينتهم وزُوَّارِها بجُملةٍ من التقاليد الدينية والاجتماعية، والأحلاف السياسية مع سائر قبائل العرب[1]. ويمكنُ أن نَعُدَّ هذه النهضةَ الكبرىٰ نتيجةً لما آلت إليه الأحوالُ في مملكة حِمْير في مطلع القرن السادس للميلاد، حينما اضطربت أمورها، وأدَّتْ فتنةُ اليهود بها إلى تحريق النصارى في الأُخدود، ثم إلى إشارة الروم على الأحباش باحتلال اليمن، فاحتلُّوها سنة (٥٢٥ م) بعد صراع مرير مع أهلها، فانْحسَرَ بذلك كلُّ نفوذ سياسي أو عسكري أو اقتصادي كان لحكومات اليمن في نَجْدٍ والحجَاز، وبات أهلُ مكة أكثر تُجَّار العرب نشاطاً، وأوْسَعَ أصحاب القوافل رحلةً، ينقلون تجارات اليمن وظفَار وحضرموت إلى الشام، ويعودون منها بمتاجر بلاد الشام وحَوْض المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن والحبشة. . . وكانت لهم علائقُ خاصةٌ بملوك الحيرة وتجَّارها، يحملون إليهم عُروضَ الحجاز واليمن والحبشة، ويرجعون بحاصلات العراق وفارس، وكان بعضُ تُجَّارهم يَفِدُ على ملوك فارس،

(١) أفردْنا باباً خاصّاً للحديث عن الأمن والأحلاف عند العرب بسبب علاقته الوثيقة بالتجارة ومواسم الأسواق والحجّ والأعياد.

فيستقبلونهم ويحتفلون بهم، فقد كان من مصلحة فارس مقاربةُ أهل مكة، لموقع مدينتهم من طرق التجارة، وخَطرِ مَوْضعهم من قبائل العرب في الدين والسياسة، وكان لبعض ملوك الفُرس تجارةٌ مع بلاد العرب، وقوافِلُ يرسلونها إلى أسواقهم في مواسمها[1]. . .

وليس من قبيل المصادفة أن يكون تجارُ مكة من بُطون كعب بن لؤي قصْراً، على كثرة مَن كان بها من قبائل قريش وغيرها، لو لم يكن الاتفاقُ منعقداً بينهم على أن يكون إليهم شأنُ التجارةِ، والقيامِ على تجهيز قوافل قريش، لِحسَاب كل من كان يريدُ الإسْهام في رؤوس أموالها. . . ولو مَضَيْنا نُعَدِّدُ أسماء مَنِ اشتُهر من تجَّار مكة، لوجدنا أصحابها جميعاً من بني كعب بن لؤي، وهم كُثُرٌ بلا ريْب وإن لم تُشِرِ الأخبار إلاّ إلى بعضهم، منهم: هاشم وعبدُ شمسٍ والمطَّلب ونوفل أبناءُ عبد مناف، ومَخْرَمَةُ بنُ نوفل وعبد الرحمن بن عوف من بني زُهرة، وأبو طالب بن عبد المطلب من بني هاشم، وأبو أُحَيْحة سعيد بن العاص وأبو سفيان بن حرب ومُسَافر بن أبي عمرو من بني أمية، وأبو العاص بن الربيع من بني عبد شمس، والسيدة خديجة بنت خُوَيْلد أمُّ المؤمنين والأسودُ بن المطَّلب وزَمعةُ بن الأسود ويزيدُ بنُ زَمعَة من بني أسد بن عبد العُزَّى، وعبد الله بن جُدْعان من بني تَيْم، والعاص بن وائل وعمرو بن العاص من بني سهم، وأبو أمية بن المغيرة من بني مخزوم، وأُمية بن خَلَف وصفوانُ بنُ أمية من بني جُمَح. . . وغيرُهم، وهؤلاء جميعاً كانوا من بني كعب بن لؤي، وهو دليلٌ على أن التجارة كانت شأناً موروثاً في بني النضر بن كنانة، انتهى إلى كعب بن لؤي، مثلما انتهى إلى أخيه عَوْف شأنُ «البَسْل»، ثم انتقل إلى بَنِيهِ من بعده، حتى صار إلى أبناء

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٢٩٤.

عبد مناف. . . ولا شك في أنه كان لكعب بن لؤي أَثَرٌ كبير في أمور مكة، ولا سيما في تجارتها، وكان عظيمَ القَدْرِ عند العرب، فأرَّخوا بموته إعظاماً له، إلى أن كان عامُ الفيل فأَرَّخُوا به[1]، وذكروا أن اليوم الذي اعتادت العربُ أن تجتمع به من كل أسبوع كان يُسمَّى يومَ العَروبة، فكان كعبٌ أوّلَ من سمَّاهُ يومَ الجمعة، إذ كانت قريشٌ تجتمع فيه إليه، فيخطبهم ويَعِظُهم[2]. . .

وقد اشتُهِر من تجار قريشٍ طائفةٌ كانوا يُسَمُّونَهم «أزْوادَ الرَّكْبِ»، لأنهم كانوا أَجْواداً كُرماءَ، إذا سافروا على رأس قافلة، لم يَخْتَبِزْ معهم أحَدٌ ولم يطبخ، ولم يكن يتزوّدُ بزادٍ للرحلة، إذ كانوا يأخذون على أنفُسِهِم زادَ المسافرين والمتاجرين جميعاً[3]. . . وهذا تقليدٌ يدلُّ على قِدَم التجارة في أهل مكة، وأصالة الكرم في تجارها، وهو أمرٌ يَدخلُ في الأخلاق، ولا يمكنُ التخلُّقُ به في مدة قصيرة من الزمان، ويعودُ بالتجارة في مكة إلى زمنٍ أقدم من عهد بني عبد مناف!. . . بل إلى ما قبل أيام قصي. . . وقد مرَّت بنا إشارةُ ابن حبيب إلى أن أئمَّة العرب في مواسمهم، وقضاتَهم في سوق عكاظ، كانوا من بني تميم بن مُرّ، يتولَّى أحدُهم الإمامةَ، ويتولَّى آخَرُ القضاءَ، وأول من جُمع له القضاءُ والإمامةُ معاً هو سعد بن زيد مناة بن تميم، وكان سيّدَ بني تميم ورئيسَهم في عصره، أي في أوائل القرن الثالث للميلاد. وعكاظُ كانت في أساسها سوقاً تجاريةً، أُنْشِئت لمتاجرة العرب بها قبل حلول موسم الحجّ، لأنهم كانوا يتأثَّمون من الجمع بين الحج والتجارة

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤١.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٦، والأعلام: ٥/ ٢٢٨، وقد غلط صاحبُ الأعلام إذ قَدَّر ما بين موت كعب والفيل بمئةٍ وعشرين سنة، فجعله مُعاصراً قصيَّ بن كلاب بن مُرَّة بن كعب، فكعبٌ أبو جدِّه إذن، ولعلّ الصواب أن يكون بين موت كعب والفيل نحوٌ من مئتي سنة.

(٣) تاج العروس: ٨/ ١٥٤ (زود)، المحبَّر: ١٣٧.

في وقت واحد، وأُقيم القضاةُ بها للفصل فيما يقع بين الناس والتجار من المشاكل، ومن شأن ذلك كله أن يحملنا على الاعتراف بأن النظام في مكة كان أقدمَ من عهد قريش، وقبل غَلَبة قصي على شؤونها، وأن التجارة كانت شأناً من تلك الشؤون، جُعل إلى قريش مع البَسْل في أيام أبيهم النضر بن كنانة، وأن قريشاً كانت، وسائر بني كنانة، من أهل مكة منذ القرن الثاني للميلاد وربما قبله، وإن كانت وقتئذٍ تسكنُ حولها وفي شِعَابها وظواهرها، وأن نهضة مكة وتقدُّمها وعمرانها في القرن السادس وأوائل القرن السابع إنما هي ثمرةُ النظام الذي أوْجَدهُ بها عمرو بن لُحيّ في أواخر القرن الثاني للميلاد. ثم تابعه على النهوض به من بعدُ قصيٌّ بن كلاب بما زاد عليه من الشؤون والوظائف. وقد ذكر أبو بكر الأنباري أن قريشاً لم يُفَارِقوا مكةَ منذ خُلِقُوا، ولكنهم لمَّا كثُروا وقَلَّتِ المياهُ عليهم تفرَّقوا في شِعَابِ مكة وجبالها[1]، ثم عادوا إليها في أيام قصيّ.

٦ ـ نهضةُ مكة:

إذا نظرنا في حوادث التاريخ التي رافقت الحِقْبَةَ الأخيرة من عهد جُرْهم بمكة، والحقبة الأولى من عهد خُزَاعة بها، وجدنا أن أهل مكة شرعوا وقتئذٍ يستفيدون من موقع مدينتهم على طريق التجارة، كمحطةٍ كبرى للقوافل بين الشمال والجنوب، ومن موضعها في أرضٍ حرام مُتَّفَقٍ على حُرْمتها بين العرب جميعاً[2]، ومن وقوع مواسمها في الأشهُرِ الحُرم والأمنِ الإلّهيّ، حيث يُوضَع السلاحُ، ويعمُّ السلامُ رُبوعَ بلاد العرب كافة[3]، وتنعقد مواسمُ أسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز، ثم موسمُ الحج الأكبر إلى الكعبة. . .

(١) شرح القصائد السبع الطوال: ٢٥٨.

(٢) معالم الحضارات: ١٦٢.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٥ ـ ٢٦.

تلك هي الأُسُس التي قامت عليها نهضةُ مكة، وقد أحْسَنَ أهلُها استعمالها، فأحْكموا علائقَهم بالقبائل الأخرى، وضبطوا سياسة أمورهم، ونظموا شؤون بلدهم، فجعلوا للمواسم أئمَّةً يأذَنُون بانعقادها ثم يُعلنون انفضاضها، ويَؤُمُّون الناس في مناسِكهم، وأقاموا للأسواق قضاةً يحكمون بين الناس فيما يَشْجُر من المشاكل، ونَصَبُوا «القلامِسَ»[1] يُفْتُونَهم في دينهم، ويحسُبون لهم الشهورَ والسنين لِيُثْبِتُوا مواعيدَ المواسم من كل سنة، ولا سيما موسم الحج، وبالغوا في الوقت عينه بنَشْرِ قُدسيَّة الكعبة بين العرب، ليوفِّروا الأمنَ والحمايةَ لأنفسهم ومدينتهم وتجارتهم، ولزُوَّارهم من العرب وغير العرب على السواء. وكان هنالك اعتقادٌ عامٌّ بأن قداسة الكعبة هي القداسةُ التي لا خلاف عليها بين العرب، على تعدُّدِ مِلِلِهم ومذاهبهم، واختلاف مَواطنهم، فكانت تحجُّ إليها العربُ كافةً، ومنهم: حِمْيَرُ وكندة وسائر قبائل اليمن، وغسَّانُ ولخمٌ وإيَادُ ونزارٌ وربيعةُ وتميمٌ وكلبٌ وقضاعةُ وجُذَام وغيرهم[2]... وكان فيهم: «الحُنَفاءُ والمشركون والصابئون والمجوسُ، وربما بعض أهل الكتاب، يجمعهم الحجُّ على اختلاف مِلِلِهم وأهوائهم وعقائدهم وبيئاتهم لأداء هذه العبادة، وللاجتماع في موسم الحجِّ وأسواقه، في أمْنِ الأشهر الحرُم، وأَمْنِ الحَرَم الذي شمل الناس جميعاً، كما شمل الحيوان والنبات»...

وعلى ذلك كانت مكة عربيةً لجميع العرب، تلوذُ منها القبائلُ بمثَابةٍ للعبادة والتجارة أو الامْتِيار، فتجدُ فيها من يقومُ لها بأمر عبادتها، ومن يُبادِلها وتُبادِلُه على حُكم المصلحة المشتركة، لا على حكم القهر والإكراه

(١) القَلامِسُ: واحدُهم قَلَمَّسٌ، وهو الداهيةُ من الرجال، البعيدُ الغَوْر، الواسع الخُلق، وكان يُطلق على فقهاء العرب من بني مالك بن كنانة.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ١٨٣، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٧، أخبار مكة: ١/ ١٨٩...

والتعسُّف، فلم يكن فيها من يستبدُّ بالناس، ولا سيما بعد انقضاء عهد جُرْهم، وقيام خُزَاعة على رعاية شؤونها، ثم قريش، فبلغت من الازدهار والإثراء ما لم تبلغه مدينةٌ في جزيرة العرب، فكانت الأسواقُ تقامُ فيها للبيع والشراء، وأَتْقَن أهلُها أعمال التجارة وما يتعلق بها من المرافق والوظائف، وجعلوا مدينتهم مركز عُمران وثروة، فأصبحت «جمهوريةً صغيرةً، تجاريةً، يرئسها الموسرون من أكابر قريش ومُقَدَّميها، الذين أتاحت لهم مواردُ التجارة ومناصِبُ البيت الحرام جاهاً ووسائلَ للترفِ على أوسع نطاق. . . »[١]. وكانت كلما ازدادت تجارتُها ازدهاراً واتساعاً، تَوطَّدَ مركزُها في العرب، حتى باتتِ العاصمةَ المعترفَ بها للعرب، والمفخرةَ القوميَّةَ عندهم جميعاً. . . وقد سَمَتْ، في الوقت عَيْنه، منزلةُ سوق عكاظ، فأصبحت ملتقى الخطباء والشعراء والمُبَشِّرين، وقُطبَ الدائرة الفكريَّة في جزيرة العرب، وهو أمرٌ لم يسبق له مثيلٌ في ثقافة اليمن القديمة، ولا في مجالس الأدب وحلقاته الزاهرة في قصور الغساسنة وملوك الحيرة[٢]، ونكاد نقول إنها كانت أكثر ارتقاءً من موسم أُلِمْبُس عند اليونان بعُموميَّتها وخُصوصِيَّته.



بدأ عربُ الحجاز العملَ في التجارة بخفارة قوافل عرب الجنوب وحمايتها، وخدمتها حينما تصل إلى مكة، ثم بالإسهام في رؤوس أموالها ومشاركة أصحابها في تجاراتهم، ثم صاروا يشترون منهم، أو من الحبشة، مَتاجِرَ اليمن وظفار وحضرموت، وما كان يُجلَب إليهم من عروض إفريقية وشرق آسيا، وينقلونها إلى أسواق الشام في غزة وبُصْرى وغيرهما. ولمّا

---

(١) تاريخ العرب: ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه.

صارت ولايةُ مكة إلى قريش، قامت على التجارة بكفاءة ومقدرة، وأشرفت على طرق التجارة بأساليبَ أكثر إحكاماً، ونظمت القوافلَ الكبرى بدراية وخِبْرة، حتى غدت مطمعَ الدول الكبرى، يبتغون السيطرةَ عليها لِضَمان تجاراتهم ووصولها إليهم بسلام وانتظام، وبأسعار أقلّ مما كانوا يدفعون.

ولا شك في أن أهل مكة والحجاز ساروا في طريق تلك النهضة منذ القرن الثاني للميلاد، واستفادوا من الأحداث التي كانت تقع حولهم، ولا سيما في اليمن والشام، فقد سقطت دولةُ الأنباط سنة (١٠٦ م)، وأَفَلَ نجمُ عاصمتها «البتراء»، ففَقَدَ طريقُ التجارة أعظمَ محطَّةٍ كانت القوافلُ تأوي إليها في رحلاتها. وكانت تشدُّ الأنباط إلى أهل مكة علائقُ وثيقةٌ من القُربىٰ والدين والتجارة، ظلت قائمةً إلى الإسلام، وكانوا يحملون إليهم من الشام الزيت والدَّرْمَكَ، وهو دقيقُ القمح الأبيض، وينقلون من الحجاز التمر والأَدَمَ. وقد حلَّت وقتئذٍ مدينةُ «بُصْرى» على طريق القوافل محلَّ البتراء، وأضحينا نجد في الأخبار أن قوافل مكة كانت تنزلُها[١]، وأن تجار الحجاز وغيرهم كانوا يقصدون أسواق بصرى وأذْرِعات (درعا) ودير أيوب في مواسمها[٢].

ثم سقطت مدينةُ «تدمر» سنة (٢٧٢ م)، فتَوطَّدَ مركزُ مكةَ مدينةً رئيسةً للقوافل، وازداد اعتمادُ الروم وأهل الشام عليها... ثم غزا الأحباشُ اليمنَ بين (٣٤٠ ـ ٣٧٨ م)[٣]، أي في عصر كعب بن لؤيّ سيّدِ قريش في زمانه، فأَحْسَنَ الاستفادة من اضطراب الأمور في اليمن، وتقدَّم بتجارة مكة وحقَّق

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/٢٩.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣) تاريخ العرب: ٩٥.

لقومه منافع كبيرة، فعَظُم شأنُه فيهم، وأرَّخوا بسنة موته إعظاماً له، وتقديراً لما حقَّقه لهم في تجاراتهم. . . وفي اعتقادي أن قُصيّاً لمَّا قَدِمَ مكة من الشام، رأى ما كانت عليه تجارةُ قريش من الرَّواج وما كان عليه كبارُها من الغِنَى، فأحبَّ أن يُوَطِّد مركزَه وقومَهُ بمكة، فسعى أولاً إلى التقرُّب من حُلَيْل بن حُبْشِيَّة الخزاعيّ سيِّد مكة وصاحبِ الأمر فيها يومئذ، وكان رجُلاً عجوزاً، فتزوَّج ابنته حُبَّى، ثم ما لبث الرجلُ أن مات، وخَلَفَهُ ابنُهُ وكان مضعوفاً فقيراً، فاسْتولى قصيٌّ على حجابة الكعبة، وآلتْ إليه أمورُ مكَّة على نحوِ ما ذكرنا آنفاً.

وقد استردَّتْ دولةُ حِمْير سيادتَها في الجنوب إلى نحو سنة (٥٢٥ م)، وكانت وقَعتْ مذبحةُ نصارى نَجْران سنة (٥٢٣ م)، وكان قيصرُ الروم إذ ذاك يُعَدُّ حامِياً للمسيحية، فكتب إلى نجاشي الحبشة، فأرسل جيشاً قوامه سبعون ألفاً من الأحباش، بقيادة «أرياط» سنة (٥٢٣ م)، ثم بقيادة «أبرهة» سنة (٥٢٥ م)، واحتلوا اليمن خمسين سنةً حتى أَجْلاَهُم عنها الملك سيف بن ذي يزن سنة (٥٧٥ م). وكان محور هذه الحملة «سعي بيزنطة إلى الاستعانة بالحبشة، كيما تبسط سلطانها على قبائل العرب، وتتوسَّل بهم في مناوأة الفرس»(١). . . وقد دخل الأحباشُ في اليمن أعواناً للنصارى، فانقلبوا بعدئذٍ فاتحين، واستأثروا بالأرض والحُكم، وعَقَد أبرهة العزمَ على تنصير البلاد، فابتنى بصنعاء كنيسةً عُدَّتْ من أفخم الكنائس في ذلك العصر، سمَّاها: «القُلَّيس»، وكتب إلى النجاشي يقول: إني بنيتُ لك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك قطُّ، ولستُ بمُنْتَهٍ، حتى أصرف إليها حاجَّ العرب كافةً. . . وكان يرى أهل اليمن يتأهَّبون كل سنة في موسم الحجِّ للذهاب إلى مكة، على اختلاف

---

(١) تاريخ العرب: ٩٧.

عباداتهم، ومكةُ يومئذٍ قِبلةُ العرب جميعاً، ومفخَرتُهم القومية، ومحطُّ تجاراتهم وقوافلهم، فقام بعضُ الفقهاء من بني مالك بن كنانة، وتوجَّه إلى كنيسة القُلَّيس، ودَنَّسَها تحدِّياً لأبْرهة وشِيعَته، فاتصل ذلك بأبرهة، فعزم على السير إلى مكة لهدم الكعبة، فحاصرها، فجاءه عبد المطلب بن هاشم، وفي ظنّ أبرهة أن القوم سيقاتلون دون كعبتهم، ولكنه بُغِتَ إذ سمع عبد المطلب يُطالبه بردّ إبلٍ له أخذها بعضُ جنوده، فسأله أبرهة: والبيت؟ فقال: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه... ثم حَمَى الربُّ بيتَهُ، وسلَّط على أبْرهَةَ وجَيْشِه وباءَ الجُدَريِّ، ففَتَك بِهم فتكاً ذريعاً، وجعلهم كعصْفٍ مأكول، وأصابت العدوى أبرهة، فما بَلَغ صنعاءَ إلا وقد تناثر جسمهُ من المرض حتى هلك ولحق بمن قضى من جُنْده، وهكذا فشلتِ الحملة، وسُمِّيت تلك السنةُ عامَ الفيل[1]... وفي هذا قال تعالى: ﴿ **ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل، ألم يجعلْ كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيْراً أبابيلَ، ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول** ﴾[2] والأرْجحُ أن ذلك كان سنة (٥٧١ م)، ويقال (٥٧٠ م)...

ومن الطبيعي أن يستفيد أهلُ مكة من تلك الأحداث التي أدَّت إلى احتلال اليمن خمسين سنةً من الأحباش، ثم من موت أبرهة بعد فشل مشروعه للقضاء على مكة... وفي رأي جواد علي أن حملة أبرهة على مكة لم تكن غايتها هدم الكعبة كما يذكر أهلُ الأخبار، وإنما كانت لها أسباب اقتصادية وسياسية، إذ كانت مكة قد برزت وعظُم شأنُها، واستثمر أهلُها مواهبهم في جمع الثروات، فصاروا تجاراً ووسطاءَ في التجارة بين الدول،

---

(١) أنساب الأشراف: ١/٦٧، مطلع النور: ٨٤، تاريخ العرب: ٩٩، تاريخ الطبري: ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١، ١٣٧. وحياة محمد لهيكل: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) سورة الفيل.

يتاجرون بين اليمن والشام والحبشة والعراق، وكثرت أموالهم، واغتنوا من الذهب والفضة، فظنَّ أبرهة أنه إذا استولى على مكة، سَهُل عليه المسيرُ إلى بلاد الشام، فيتصل هنالك بالروم أصحاب المصلحة في هذا المشروع، والمحرِّضين عليه في الأصل، وتغدو بلادُ العرب في قبضة دولة الروم[1].

وتبعاً لذلك كان لأهل مكة اهتمام خاصٌّ بما كان يقع حولهم من الأحداث، ولا سيما بين الفرس والروم، أو بين الفرس وبلاد العرب الشرقية والعراق، أو بين الحبشة واليمن، أو بين الشام والروم، لأن تجاراتهم كانت متصلةً بتلك البلدان، تتأثَّر بما يقع فيها، وهو ما حضَّهم على اتخاذ موقف الحياد بين الفرس والروم ومن يتشيَّعُ لهما، ولم يميلوا إلى دولة منها على أخرى، كما دَفَعهم إلى تألُّفِ سادة القبائل، والتحالف معهم، والتقرُّب منهم بالهدايا والأعطيات أو بإشراكهم في تجارة القوافل ورؤوس أموالها، فضمنوا بذلك سلامةَ أنفسهم وبلدهم وأموالهم. وكان يَفِدُ عليهم في مواسمهم تجَّارٌ من الشام والعراق وبلاد الروم وفارس والحبشة، وكان منهم من يُقيم بمكة، ويتَّخِذُ لبضاعته مَخازِنَ لحفظها حتى تُباع، وذُكر أن بعض تجار الروم كانت لهم بيوت تجارية بمكة ترعى مصالحهم، وربما كان بعضُهم عَيْناً للبيزنطيين على العرب يتجسَّسُ الأخبار، ويراقبُ نشاطَ الفرس في صِلاَتهم بالقبائل، ويكتب بذلك إلى دولته، لتظلَّ على علمٍ بخطط الفرس ونواياهم، والعالم وقتئذٍ بين دولتي فارس والروم[2]... وكان لتجَّار الحيرة حُلَفاءُ من تجَّار مكة وسَادتها، فكان أحدُهم إذا قَدِمَ مكة ببضاعة، نزل على حَليفه بها، ثم باع واشترى ورجع إلى الحيرة. وكان بعضُهم يُقيم شركاتٍ مع تجار مكة،

(١) المفصَّل: ٧/ ٢٨٣.
(٢) المفصَّل: ٤/ ١١٥ ـ ١١٦.

تعملُ في كلا البلدين لصالح الفريقين. . . وهناك من يرى أنه كان لتجّار مكة من يُمثِّلهم ويرعى مصالحهم في البلدان التي كانوا يتاجرون معها، ومنها الحبشة[1]، وأنه كانت لبعضهم، فوق رحلتيْ الشتاء والصيف، رحلاتٌ تجارية خاصة إلى أسواق الشام والعراق والبحرين واليمامة ودومة الجندل وعُمان وظفار وحضرموت وعدن وصنعاء وغيرها من المواسم والأسواق.

وكانت قوافلُ قريش كبيرةً، وربما بلغت القافلةُ منها أحياناً ألفين وخمسَ مئة بعير، كالقافلة التي اعترضها النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام في السنة الثانية للهجرة، وكان يقودها أميةُ بن خَلَف، ومعه مئةٌ من رجال قريش[2]. . . وبعضها كان ألفَ بعير، كالتي كان يقودها أبو سفيان قبيل معركة بدر[3]. وكان من تقاليد أهل مكة أن يخرجوا لوداع قوافلهم يومَ تُغادر مكة، داعِينَ لها ربَّ البيت أن يُبارك رحلتها، ويُحيطها بالعناية، ويَقِيَها شرَّ السَّفَر، وأذى اللصوص وقُطَّاع الطرق، ويُعيدها سالمةً رابحةً، فإذا عادت خرجوا فَرِحين يحتفلون برجوعها، بينما يتوجَّهُ رئيسُها وتُجَّارها إلى الكعبة يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من التوفيق والسلامة[4]. . . وذكر أهلُ الأخبار أن قوافل قريش كانت تنطلق من دار الندوة بعدما بناها قصيٌّ[5]، لأنها كانت مجمعَ القوم إذا اجتمعوا لأمر عام، شأنُهم في ذلك شأنُ سائرِ مُدُن القوافل والتجارة، وكانت القافلة إذا عادت، أناخت أيضاً إزاء دار الندوة، ليشهدَ عودتَها عامّةُ الناس، ويكونَ لهم من ذلك فرحةٌ كفَرَحِ العيد.

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧ و ٤/ ١١٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٧.

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٠١.

(٤) المرجع نفسه: ٧/ ٢٩٠.

(٥) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٠.

وكانت بمكة دُورٌ فخمةٌ مَبنيَّةٌ بالحجر، وكان أصحابها من الأغنياء المُتْرَفين، يأكلون ويشربون بصِحَافٍ وآنيةٍ من ذهب وفضّة، ويلبسون الحرير، ويتَطيَّبُون بأغلىٰ أنواع الطِيب، ويتحلَّوْن بخواتمَ من ذَهبٍ، تزينها الأحجارُ الكريمة[1]، وذكر الندويُّ أنه كانت لهم مُتنزَّهات ينتجعونها في الأصائل من شُهور القَيْظ، ويَصْطافُ المُنعَمُون منهم بالطائف، ويَشتُون بمكة، وأضاف: أنه كان بمكةَ أسواقٌ يُستدلُّ بها على ما وصلوا إليه من مدنية وتقدُّم قبل الإسلام، منها سوق للعطَّارين، وسوق للفاكهة، وسوقٌ للرُّطَب، وسوقٌ للبزَّازين، وكان بها مواضِعُ للحذَّائين والحجَّامِينَ وغيرهم، ورَحْبةٌ واسعةٌ تباع فيها الحنطة والسمنُ والعسل والحبوب مما تحمله إليهم قوافلُ التجارة[2].

وظلَّت تجارةُ أهل مكة في ازدهار، وتُجَّارُها في ثَراءٍ، حتى بدأ المسلمون بعد الهجرة باعتراض قوافلهم ومُصَادرة أموالهم والتحرُّش بتُجَّارهم، فأُصِيبوا بنكبةٍ عظيمة، فقالوا: قد عَوَّر علينا محمدٌ مَتْجَرنا، وإن أقمنا بمكة أكلنا رؤوسَ أموالنا[3]... فباتت الطرقُ غير آمنة، والأحوالُ مضطربةً، والمواسمُ ضعيفةً، وأخذت إشراقةُ التجارة بمكة تمضي نحو المغيب، وما عتَّمَتْ حتى أَفَلَتْ.

* * *

وأخيراً، تكلَّفنا من القول في مكة، فوق ما قلناه في غيرها من محطات التجارة ومُدُن القوافل، وذلك لأمرين، أحدُهما أن مواسم عكاظ ومجنَّة

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٥٢ و ١٢٤.

(٢) السيرة النبوية للندوي: ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

وذي المجاز، وهي أعظم أسواق العرب، وموسمَ الحجِّ الأكبر إلى الكعبةِ بيتِ الله، كانت إمَّا في مكَّة، أو في جِوارِها، والأمرُ الآخَرُ أن معظم ما رُوي عن تاريخها وأخبارها في الجاهلية، ينقضُ بعضُه بعضاً، ولا يكاد الباحثُ فيه يقع على شيء، فأردنا بالتوسع في بحثنا أن نُسْهِم ببعض الجهد في تصويب تلك الأخبار وتقويمها وتنسيقها لِيَصحَّ البناءُ عليها واستقراءُ وقائعها، وذلك أن مكة كانت عاصِمةَ العرب الدينيَّة والقوميَّةَ.

* * *

الباب الثالث

الحالة الدينية

الفصل الأول: ديانات العرب وعقائدهم في الجاهلية

الحنيفية، اليهودية، المسيحية، المجوسية، الصابئة، الكواكب والنجوم، الأصنام والأوثان، شرائع نوح وهود وشعيب.

الفصل الثاني: المشاركة في الشعائر والعبادات

المطلب الأول ـ المشاركة في العبادات على مبدأ المقاربة والتطوع.

المطلب الثاني ـ نصارى العرب كانوا يشاركون سائر القبائل في كثير من عقائدها.

المطلب الثالث ـ المشاركة في الشعائر غلبت على من تهوّدوا من العرب. لم تكن مملكة حمير في عهد ذي نواس يهودية.

المطلب الرابع: العرب والمجوسية.

المطلب الخامس: العرب وعقائد الصابئة وعلاقتها بعبادة الكواكب.

المطلب السادس: الاعتقاد في منازل النجوم.

الفصل الثالث: الحرية الدينية.

كان الأمر في عقائد العرب ودياناتهم قائماً على الحرية الدينية فضلاً عن مبدأ المشاركة للمقاربة أو التطوع.

الباب الثالث

الحالة الدينيّة

ما أردتُ من هذا البحث أن يكون تاريخاً لعقائد العرب وأديانهم في عصر الجاهلية، وإنما أردتُ أن أَجْلُوَ الحالة التي كانوا يمارسون فيها شعائرهم وعباداتهم، توصُّلاً إلى بيان العلاقة الحقيقة بين المواسم والمناسبات الدينية والأسواق الموسمية، ودَوْر كلٍّ منهما في قيام الآخر واستمراره وازدهاره. وذلك انطلاقاً من اعتقادي بأن الأسواق الموسمية الكبرى، إن كانت مواسمُها وليدةَ مناسبة دينية خاصة، لا يمكن أن يُكتَب لها البقاءُ أو الإزدهار، ولا سيما حين يكون زُوّارُها من دياناتٍ مختلفة، وعِبَاداتٍ مُتباينة، ويكونُ العَصرُ عصرَ التعصُّبِ، واضطهادِ الناس بسبب مُعتَقَدَاتهم. . فالموسمُ الدينيُّ الخاصُّ بطائفةٍ مُعيَّنة ومذهبٍ منفرد، في زمن التعصُّب وبُعْدِ المسافات وصُعوبة الانتقال والسفر، لا يمكن أن يُنشِئَ أكثر من سوق مَحليّةٍ محدودة، تُوفِّر المطاعم والمشاربَ للناس، على نحو ما تخيَّلَهُ جرجي زيدان في تعليله نُشوءَ أسواق العرب الموسمية[1]. أمّا سوقٌ موسميةٌ كبرى كسوق عكاظ يقصدُها العربُ من مختلف ديارهم على بُعْدِها، ومن مختلف الديانات والنِّحَل على كثرتها، فلا بُدَّ أن يكون وراء قيامها

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣/ ٣٧.

واستمرارها وازدهارها شيءٌ آخَرُ فوق المناسبة الدينية، يجعلُ زوّارها مُطْمئنينَ إلى سلامتهم والحفاظِ على أموالهم. ومن الممكن أن يكون بعضَ العِلَّة في ذلك اتفاقُ العرب عامّةً على حُرْمة أربعة أشهر من السنة قضتْ بها الحنيفيَّةُ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، يحرمُ فيها حملُ السلاح والقتالُ والبغيُ والعدوان، فإذا لقِيَ الرجلُ فيها قاتلَ أبيه أو أخيه أو ابنه ما عَرَضَ له بسُوءٍ أو أذى. ولكن أسواق العرب الموسمية لم تكن كلُّها تنعقد في الشهور المحرَّمة، وإنما ينعقد معظمُها في شهور الحِلّ! . . . فربما كان بعضُ العِلَّة أيضاً في الأحلاف والمواثيق المعقودة بين قبائل العرب كي تُوفِّر الأمنَ لأبنائها أو جيرانهم، ولكنَّ هذا غيرُ كافٍ كذلك، ولا يقفُ في وجه العصبية الدينية والمذهبية، ولا بدَّ لنا إذن من الوقوف على عقائد العرب وأديانهم في عصر الجاهلية، قبل أن نُقرِّرَ السببَ الرئيسَ في قيام أسواقهم الموسمية، وبقائها زمناً طويلاً، وازدهارها مع ازدهار التجارة في بلادهم، أو في مُعْظمها.

* * *

الفصل الأول

ديانات العرب وعقائدهم في الجاهلية

ليست هنالك ديانةٌ أو نِحْلَةٌ أو شَعِيرَةٌ من شعائر العبادة لم تكن معروفةً في بلاد العرب، فقد عرفوا الحنيفيَّة، والمجوسِيَّةَ، واليهودية، والمسيحية، والصَّابِئةَ، وعَبَدوا الكواكبَ والنجومَ والأصنام[1]، ومنهم من كان على دين نُوحٍ أو هُودٍ أو شُعيبٍ أو غيرهم، ويبدو من المأثور أنهم عرفوا من عقيدة التوحيد الوحدانيةَ التي يغلبُ فيها إلَهٌ واحدٌ على سائر الآلهة[2]، فهو الذي خلق الأحياء والأشياء كافةً، ولكنه خلق معها أرباباً أو آلهةً آخرين[3]، صِغاراً، كالأجرام السماوية، وكان أشْهَرها عندهم القمرُ، فعمَّت عبادتُه أقوامَ العرب من اليمن إلى بلاد الرافدين والشام مروراً بسيناء، وكان منهم من يُسمِّيه «سين»، ومنها أُخِذَ اسم سيناء[4]. وأشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكبُ الزهرة «عشتار، عشتروت، عثتار». ولم تكن عبادة الشمس «شماس» عامَّةً بينهم كعبادة القمر[5].

لقد عرف العربُ كلَّ هذه الديانات، فمَا اسْتَأثَر دينٌ واحدٌ منها جميعاً

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٢٢.

(٣) المرجع نفسه: ١٧٥.

(٤) المرجع نفسه: ١٦٨.

(٥) المرجع نفسه: ١٦٩.

بضمائر العرب كافةً، على اختلاف قبائلهم ومنازلهم، بل لم تكن عبادةٌ واحدةٌ لِتَستأثِرَ بضمير صاحبها كلِّه، أو لِتُشعِرَهُ بكفايتها، وتُغْنِيَهُ عن النظر في عبادةٍ أخرى، لعلَّهُ يختارُ منها ما يراهُ خيراً له، فيَضُمّه إلى سائر شعائره، ويتعبَّدُ على النحو الذي يعتقد أنه الحقُّ، وكأن الدين يومئذٍ كان انتقائياً، كلُّ امرىءٍ حُرٌّ في أن يختار منه ما يشاء، ويَدَعَ ما يشاء، فلم تكن الحدودُ بين الديانات عند العرب حدوداً مُتَحجِّرةً صلبةً لا تأذَنُ بالتبديل أو الزيادة أو التأويل، ولم يكن المؤمنُ منهم بديانةٍ يُنكِرُ الابتداعَ فيها، إلا إذا كان في الابتداع خروجٌ على عادات قومه، وزِرايةٌ بشِرْعة آبائه، فحينئذٍ ينقلب الأمرُ عنده من تصرُّفٍ في شعائر الدين، إلى قَدْحٍ في شرف الآباء، ونَيْلٍ من الأحْسابِ، وما تلبث البِدْعَةُ الجديدة حتى تُدافِعَها الغَيْرةُ والنخوةُ، وتتصدَّى لها العَصبيَّةُ القوميَّةُ... ولمَّا دُعِيَتْ قريشٌ إلى الإسلام فأبتْ وأَعْرضَتْ قام نفرٌ من المسلمين فسَبُّوا آلِهَتَها، وذَمُّوا دينَ آبائها، ورَمَوْهم بالكفر والضلال وسوءِ المآل، وإذ ذاك أبْغَضَتْهم قريشٌ، وتمالأتْ عليهم وأَنْذَرتْهم، وكانت مِن قَبلُ لا تُنكرُ من أمرهم شيئاً، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1]، فقريشٌ إنما أنكرت سبَّ المسلمين لآلهتها ذهاباً مع العصبية القوميةِ، وحَمِيَّةً لتُراثِ الآباء، ودفاعاً عن الأحْسَابِ والأنساب، ولم تفعل ذلك ذَوْداً عن ديانةٍ آمنتْ بها، واسْتَأثرتْ منها بالضمائر والمشاعر[2]، أو تعصُّباً لِصَنمٍ مَلَكَ عليها التدبير والتفكير... وما كان العربُ وقتئذٍ يعبدون الأصنامَ إلا لتشفَعَ لهم عند الله[3]، فهي تماثيلُ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١١٥ ـ ١١٦، ومطلع النور: ٩٣.

(٣) محمد محمود حمزة ورفاقه ـ تفسير القرآن الكريم: ٧/ ١٣٠.

رجالٍ صالحين من أسْلافهم، كانوا يُطعِمون الجائعَ، ويُؤمِّنُون الخائفَ، ويُغيثون الملهوفَ، ويُصلحون بين الناس، ثم ماتوا، فظَنُّوا أن التعبُّدَ لهم، أو التوسُّلَ بهم إلى الله يَشفعُ لهم عنده أو يُقَرِّبُهم منه، بدليل ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى ﴾[1]. وكذلك كان منهم من يعتقد أن الملائكة إنما هي بناتُ الله، فكانوا يعبدونها لِتشفعَ لهم إلى الله[2]. . . وكان اعتقادُهم أيضاً بقداسة بعض المواضع يُفْضي بهم غالباً إلى تقديس ما بها من المياه كبئر زَمْزَم، أو ما بها من الشجرِ كأشجار الحرم بمكة، أو الحجارةِ يجعلون منها أوثاناً يتبرَّكون بها. وقيل إنه بلغ من تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجُّون البيتَ، ويَعْتَمرون، ويَطوفون، فإذا أرادوا الانصرافَ أخذ الرجلُ منهم حجراً من حجارة الحرم فنحتَهُ على صورة صنَم من أصنام البيت، فيَحْفَى به في طريقه، ويتفاءَلُ خيراً[3]. . . على أنهم كانوا يُقرُّون بوجود الله، ويُعَظِّمُونه، بدليل قوله تعالى عن أهل مكة: ﴿ وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . . ﴾[4]، وكانوا «على وَثَنِيَّتهم وشِركهم يؤمنون بأن الله هو المُغيثُ الذي يُنَزِّلُ الماء»[5]، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ نَزَّل مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[6].

ويُفهم من نصٍّ ذكره ابنُ منظور في كلامه على الدهر، أنه لم يكن أحدٌ من العرب يَسُبُّ الله في الجاهلية، واسْتدلَّ على ذلك بقول الأعشى:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ١٠٣.

(٣) معجم البلدان: ٥/ ١٨٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

(٥) الإسلام ومستقبل الحضارة: ٣٤٩.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٦٣.

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بالوفاءِ، وبالحـــ ـمْدِ، وَوَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلا

وإنما كان شأنُهم إذا نزلت بهم مصيبةٌ من موت أو هَرمٍ أو عجز، أن يَسُبُّوا الدهرَ ويَذُمُّوه، تأدُّباً أن يَسُبُّوا مُسَبِّبَها وهو اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فيجعلون الدهرَ مَنْ يفعلُ ذلك، فإذا كان الأمرُ حَسَناً رَدُّوهُ إلى الله. . . وقد أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾[1]، ولكن الرسولَ نَهىٰ عن سبِّ الدهر، لأنهم إذا فعلوا، فإنما يقعُ السبُّ على الله لأنه الفعَّال لما يُريد، لا الدهر[2]. وهو ما أراده المسعودي بقوله: «ومنهم من أَقَرَّ بالخالق، وكذَّبَ بالرسُلِ والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر»[3]. . ولكن أكثرهم، كما أكَّدَتْ أخبارُهم، كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، ويُحرِّمون نكاحَ البنات والأمهات والأخوات والخالات والعمّات، وكانوا لا يُورثون البنات والنساء، فكان أولَ من فَرضَ للأُنثى سهماً وللذَّكرِ سهمين ذو المجاسد عامرُ بنُ جُشَم اليَشْكُريّ، أحدُ قضاة العرب في الجاهلية، ثم أقرَّ الإسلامُ ذلك[4]. . وكانوا يقطعون يد السارق، ويصلبون قاطعَ الطريق، ويغتسلون من الجنابة، ويكفنون موتاهم، ويُصَلُّون عليهم[5]، إلى أشياءَ أخرى كثيرةٍ، عُدَّت من بقايا الحنيفية فيهم، كانوا يتمسَّكون بها من عهد إبراهيم عليه السلام، منها «تعظيمُ البيت، والطوافُ به، والحجُّ، والعُمْرة، والوقوفُ على عَرَفة والمُزْدَلفة، وهَدْيُ البُدْنِ[6]، والإهْلالُ بالحجّ

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٩٢ (دهر).

(٣) مروج الذهب: ٢/ ١٠٣.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ٣٠٨، والأعلام: ٣/ ٢٥٠.

(٥) المحبّر: ٣٢٠ ـ ٣٢٥، ونهاية الأرب: ٤٥٢.

(٦) الهَدْيُ: جمع هَدْيَة وهي ما أُهدي من النَّعَم إلى الكعبة، والبُدْنُ: جمع بَدَنَة وهي الناقة السمينة.

والعُمْرَة»[1]، أي رَفعُ الصوت بالتَّلْبِيَة[2]، غير أنه كان لكل قبيلة تلبيةٌ، وكان مُعْظَمُهم يُشْرِكُ في تلبيته. وكانوا يستلمون الحجر الأسودَ، ويَسعَوْن بين الصفا والمروة، ويُعظمون الأشهر الحرُمَ، ويُحرِّمونها إلا طَيِّئاً وخَثْعَمَ فإنهم كانوا يُحلُّونها[3]. . . «وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تُعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجُملةِ معناها، كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة، ومَنَاطُها كلُّها أنها حَسَنَةٌ عند ربِّ البيت أو عند الله. . .»[4]، فكان بعضُهم يُصلّي كأبي ذَرٍّ الغِفَاري، ومثلُه زيدُ بنُ عمرو بنِ نُفَيْل العَدَوِيّ، وكان يستقبل الكعبة في صلاته[5]، وكان على دين إبراهيم، «اعتزل عبادة الأوثان، وامتنع من أكل ذبائحهم»[6]، لأنها تُذبح أحياناً لغير الله، وكذلك كان ورقةُ بنُ نوفل بن عبد العُزَّىٰ[7]. وذكر البلاذريُّ أن الرسول عليه الصلاةُ والسلام كان في بدء دعوته «يخرج إلى الكعبة أولَ النهار ويُصلّي صلاةَ الضحى، وكانت تلك صلاةً لا تُنكرها قريشٌ»[8]، ويبدو أنهم كانوا يصلُّون صلاةً أخرى وقتَ العَشِيَّةِ، ذكرها الأعشى بقوله:

وصَلِّ على حين العَشِيّاتِ والضُّحَىٰ ... ولا تَعْبُـدِ الشيطـانَ واللّـهَ فـاعْبُـدَا

---

(1) السيرة لابن هشام: ١/ ٧٨.

(2) لسان العرب: ١١/ ٧٠١ (هلل).

(3) المحبَّر: ٣١١، ٣١٩. (ويبدو أن المقصود بعضُ طيِّء وخثعم، لا كُلُّهم، ففي الأخبار ما يُشير إلى إيمانهم بالتحريم).

(4) مطلع النور: ١٥٧.

(5) أنساب الأشراف: ١/ ١١٧.

(6) الأغاني: ٣/ ١١٧.

(7) المرجع نفسه: ٣/ ١١٣، ولسان العرب: ٩/ ٥٧ ـ ٥٨ (حَنَف).

(8) أنساب الأشراف: ١/ ١١٣.

وهو من قصيدةٍ قيل إنه مدحَ بها رسولَ الله، ويُروَى عُجُزُ البيت بشكل آخر[1]، يقول فيه: ولا تَحمَدِ الشيطانَ واللَّهَ فاحْمَدا... وقوله: فاعْبُدَا أي فاعْبُدَنْ وهنالك شكٌّ في أن الأعشى قال هذه القصيدة!

وأكَّد العقادُ أنهم في الجاهلية كانوا: «يعرفون إلّهاً أعظم من سائر الآلهة، يتوجَّهون إليه بالدعاء... فإذا قالوا: ربُّ البيت، أرادوا به ربّاً فوق الأرباب جميعاً»[2]... وهذا النابغةُ الذبيانيُّ، وكان أكملَ مثالٍ لشعراء الجاهلية، وأوْضَحَ مَن صَوَّرَ الحياة فيها من الشعراء في ذلك العصر، يحلفُ بالله في اعتذاره للنعمان، ويقول:

حَلَفْتُ، فلم أتركْ لنفسِكَ رِيبةً ... وليس وراءَ اللّهِ للمرءِ مَذْهبُ[3]

وكان الأحنافُ يعرفون أن الإيمان بالله الواحد أهْدىٰ وأحْكَمُ من الإيمان بالنُّصُبِ والأوثان. وقد أظهرت البحوثُ أن من بين الآلهة التي تعبَّد لها العربُ في الجنوب، الإلّه «ذو سموى»، أي ربّ السماء، ويرى بعضُ المؤرِّخين أن عبادته تدلُّ على ظهور عقيدة التوحيد عند عرب الجنوب، منذ ما قبل الميلاد، وكان الناس يُقدِّمون إليه النُّذُورَ والقرابين عبادةً للإلّه الواحدِ ربِّ السماء[4].

وكانوا في الجاهلية يصومون يومَ عاشوراء[5]، وكان صيامُهم من

(١) ديوان الأعشى: ٤٨، ولسان العرب: ٢/٤٧٣ (سبح)، و ١/٧٥٩ (نصب)، و ١٣/٤٢٩ (نون).

(٢) مطلع النور: ١٥٨.

(٣) ديوان النابغة: ٢٣.

(٤) المفصَّل: ٦/٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٥) سيد سابق ـ فقه السنة: ١/٤٥١.

الفجر إلى مغرب الشمس، وكانوا يفعلون ذلك لأنه يوم من أيام الله[(١)]. . . وذكر جواد علي أنه «عُثِر على كتابات جاهلية تبيَّن منها أن الجاهليّين كانوا يَعُدُّون طهارةَ الملابس، وطهارةَ الجسم من الأمورالمُلازِمة لمن يريدُ دخولَ المعبد، فإذا دخَل إنسانٌ معبداً وهو نَجِسٌ عُدَّ آثماً»[(٢)]. . . كما عُثِر في بعض الأحافير على أحْواضٍ حجريَّةٍ، كانت تُجعَلُ في مَدَاخِل المعابد، مملوءَةً ماءً يَتطهَّرُ به من يبتغي العبادة قبل دخوله حَرَم المعبد[(٣)].



وإذا أخذنا بما قاله ابنُ قتيبة عن ديانات العرب في الجاهلية، وما قاله ابنُ حَزْم أيضاً، وجدنا أن المسيحية عُرِفت في قبائل غسَّان ولخم وتميم وربيعة وإياد وبكر وتغلب وطيّىء وكلب وعبد القيس، وأن اليهودية عُرِفت في بعض حِمْيَر وكندة وبني كنانة، وأن المجوسية عُرفت في بني تميم وبعض قبائل البحرين والأحْسَاء، وكانت قبيلة خَثْعَم لا تَدِينُ بشيءٍ، وكانت سائرُ قبائل العرب عُبَّادَ أوثان[(٤)]. . .

ومن الطبيعي أَلاَّ نأخذَ هذا الكلام مأخَذَ التخصيص، فالوثنيةُ يومئذٍ كانت غالبةً على كل شعوب العالم، حتى على أهل الديانات السماويـة، وكان لكل قبيلة، مهما كانت مِلَّتُها، صَنَمٌ تتعبَّدُ له، وتتقرَّبُ به إلى الله زُلْفَى. . . فكان لبني كلب بن وبرة «وَدٌّ» ولعبد القيس «ذو اللبا»، ولطيِّىء «الفَلْسُ»، ولبكر وتغلب وربيعة وإياد «ذو الكعبات»، ولقضاعة ولخم وجذام

---

(١) اقتضاءُ الصراط المستقيم: ١٧٣.

(٢) المفصَّل: ٦/ ٤٠٧.

(٣) المرجع نفسه: ٦/٤١٨.

(٤) المعارف: ٦٢١، وجمهرة أنساب العرب: ٤٩١.

«الأُقَيصر»، وهؤلاء كما ذكر ابنُ قتيبة وابنُ حزم كانوا نَصارى، وكان لبني حِمْيَر بنجْران «نَسْرٌ»، وبصنعاء «رِئامٌ»، وكان لكندة «ذِرِّيح»، ولبني كنانة «هُبَل»، وهؤلاء ظهرت في بعضهم اليهودية... وكان لبني تميم، على نصرانية من كان منهم بالحيرة، ومجوسيَّة مَن كان بالخليج، وحَنيفيَّة من كان بالحجاز: «شُمْسٌ» يتعبَّدون له كغيرهم من عَبَدةِ الأوثان[1]... كذلك كان حالُ أهل الديانات، وفي المُقابل كان «عَبَدَةُ الأوْثانِ في الجاهلية يقولون: نحنُ حُنَفَاءُ على دين إبراهيم»[2]، وكان يُقالُ حينذاك: كلُّ مَنِ اخْتَتَنَ، وحجَّ البيت، واغتسل من الجنابة، وعَدَلَ عن الشِّرْك، وأسلم لأمر الله فلم يَلْتوِ في شيءٍ من دينه فهو حَنيفٌ على مِلَّة إبراهيم[3]... وكانوا أيضاً على شِرْعة نوحٍ، ويقال: إن نوحاً هو أولُ من أتى بتحريم البنات والأخوات والأمَّهات[4]، وكانوا إلى ذلك يُحرِّمون نكاحَ العمَّات والخالات[5]. وعَرَفُوا أربعةً من الأنبياء كانوا من العرب، فكان شُعَيبٌ وقومُه بأرض مدْينَ في الحجاز، وكان صالحٌ وقومُه بأرض ثَمود في ناحية الحِجْر من وادي القُرى، وكان هُودٌ وقومُه بالأحقاف في شمال حضرموت، وكان إسماعيل في مكة[6]... ولكل من هؤلاء كانت شِرْعةٌ بُعِثَ بها، ظلَّ بعضُ أركانها مُتوارَثاً في قبائل العرب وإن غلبت عليها الوثنية... وكانت العرب تقول إن الصابئين قوم يزعمون أنهم على دين نوحٍ عليه السلام[7]، وهو دليل على أن

---

(١) المحبَّر: ٣١٦ ـ ٣١٨، واليعقوبي: ١/ ٢٥٥، وجمهرة أنساب العرب: ٤٩٢ ـ ٤٩٤.
(٢) لسان العرب: ٩/ ٥٧ (حنف).
(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١٥٩، ولسان العرب: ٩/ ٥٨ (حنف).
(٤) لسان العرب: ٨/ ١٧٦ (شرع).
(٥) المحبَّر: ٣٢٥.
(٦) حياة محمد: ١٠٨ ـ ١٠٩، ولسان العرب: ١/ ٥٨٧ (عرب).
(٧) لسان العرب: ١/ ١٠٧ (صبأ).

شِرْعة نوحٍ كانت معروفةً بين العرب، وأن ديانة الصابئة قديمة جداً.

* * *

وهنالك شيءٌ آخَر لم يكن بدٌّ من جَلائه فيما ذهبنا إليه من نَفْي الخصوصية عن ديانة العرب، سواء أكانوا أفراداً أم شعوباً، إذ بينما أضاف ابنُ قُتَيبة اليهوديةَ إلى بني الحارث بن كعب، وهم من قبائل «مَذْحِج» اليمنية، جعلهم ابنُ حزم نَصَارى نَجْران، ونَسَبتْهم مصادرُ أخرى إلى دين النبي شُعيب عليه السلام، وكان أُرْسِل إلى أهل مِدْيَنَ بعدما عَبَثُوا بالكَيْل والميزان، وبَخَسُوا الناسَ حقوقهم في البيع والشراء، وقيل في ذلك إن الحارث بن كعب لمَّا حَضَرتْهُ الوفاةُ جمعَ بَنِيهِ فأوْصاهم، فكان في وَصَاتِه ما فُهم منه أنه كان على دين شعيب، وأن بني تميم بن مُرّ، وبني أسَد بن خُزَيْمة كانوا كذلك[1]. . . فبَنُو تميم إذن لم يكونوا جميعاً على المجوسية، وإنما كان فيهم أيضاً نصارى وعلى دين شعيب وعَبَدَةُ أوثانٍ وحُنَفَاءُ. . . وبنو الحارث بن كعب، ربما كان فيهم يهودٌ، ولكنَّ بني الديَّان، وهو يزيدُ بنُ قَطَن من بني الحارث بن كعب، كانوا رؤساء نجران، وكانوا نصارى، وقد أقام بنو عبد المُدَان بن الديَّان في نجْرانَ باليمن معبداً سَمَّوْهُ «كعبةَ نَجْران» مُضَاهاةً للكعبة في مكة، وكان فيها أَسَاقِفةٌ مُعْتَمُّونَ، وكان إذا جاءها الخائفُ أَمِنَ، أو طالبُ حاجةٍ قُضِيَتْ، أو مُسْتَرفِدٌ أُرْفِدَ، وكان موقعُها على نهرٍ يمرُّ بنجران، وذُكر من أساقفتها عبد المسيح بنُ دارس بن عدي[2].

* * *

(١) المفصَّل: ٩/٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٢) معجم البلدان: ٥/٢٦٨.

الفصل الثاني

المشاركة في الشعائر والعبادات

المطلب الأول ـ العبادةُ على مبدأ التطوُّع للمُقَاربة أو المَثُوبة:

ويَدخلُ في نفي الخُصوصيَّة عن عقائد العرب في عصر الجاهليَّة، المشاركةُ الدينيةُ التي كانت تقومُ بينهم، على ما كان من اختلافهم وتَعدُّدِ مذاهبهم في العِبَادة. وخيرُ وجهٍ تمثَّلتْ فيه تلك المشاركةُ تَلاقِيهم في الحجّ إلى مكة، واتفاقُهم على تعظيم حُرْمتِها، وتقديس بيتها، وقيامُهم جميعاً، وعلى نَحْو واحد؛ بمناسك الحجّ وشعائره[1]، مع أن قلوبهم ذاهبةٌ في الديانات والعقائد على أنحاء كثيرةٍ مُتعدِّدة. وكان أحدُهم ينتقي من كل عقيدةٍ ما يحسَبهُ خيراً يُرضي ربَّهُ، وكان بعضُهم يتعبَّدُ آلهةَ الآخَرين مُقارَبةً لهم، أو تطوُّعاً، لعلَّها تُقرِّبُه إلى الله، فكانت قريشٌ مثلاً تعبدُ «هُبَل» صاحبَ بني كنانة، وكان بنو كنانة يعبدون «إسَاف» صاحبَ قريش[2]. . . وكان لقبيلة خَثْعَم صَنَمٌ تتعبَّدُ له يُسمَّى «ذا الخُلَصَة»، أقامتْه في موضعٍ بين مكة واليمن، ودَعَتْ بيتَهُ: «الكعبةَ اليمانية»، ومع أن خَثْعَمَ، كما مرَّ بنا، لم تكن تدينُ بشيءٍ مما كانت العربُ تَدِينُ به، أو تُجمع عليه، فإن قبائلَ بَجِيلةٍ، والأَزْدِ، ودَوْسٍ، وبني الحارثِ بن كعب، وزَبيدٍ، وبني الغَوث بن مُرّ، كانوا يُشاركونها فيه[3]، ويتعبَّدون له على

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ١٨٣، والمفصَّل: ٨/ ٥٢١.

(٢) المحبَّر: ٣١٨.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٩٣. والمحبَّر: ٣١٧، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٨٣، والأعلام: ٢/ ٣٠٢ (خثعم)، والمفصَّل: ٤/ ٤٤٢.

مبدأ المُقَارَبة والتطوُّع!... بل إن بعض العرب كما ذكر الأزرقي كانوا يَسْتَقسِمُون[1] عند ذي الخُلَصَة، ولمَّا خرج امرؤ القيس بن حجر الكنديّ يطلب ثأر أبيه، اسْتَقْسَمَ عنده، فخرج له ما يَنْهاهُ عن الثأر، فَسَبَّهُ وانصرف[2].

وإذا ذكرنا أن بني الغوث بن مُرّ كانوا أئمَّةَ العرب في حجِّهم إلى مكة، يُجيزُونَهم من عَرفَة، ويَنْفِرُون بهم من مِنَى على مِلَّةِ إبراهيم، وأنهم كانوا يتعبَّدون مع سائر بني مُرٍّ بن أَدّ صنماً إسمهُ «شُمْسٌ»، وأن قبيلة كندة كانت تتعبَّدُ صنماً خاصّاً بها إسمه «ذِرِّيح»، وكان أَوْلَىٰ لامْرِىء القيس أن يَسْتقسِمَ عنده، وأن قبائل الأَزْدِ وزَبِيدٍ ودَوْسٍ كان لكل منهم صنمٌ خاصٌّ بها، وأن بني الحارث بن كعب كانوا أساقفةَ كعبة نجران[3]... إذا ذكرنا كلَّ ذلك تبيَّن لنا ما قصدناه بقولنا إن أحدهم كان ينتقي من كل نِحْلَةٍ ما يحسَبُهُ خيراً مُقَرِّباً من الله، وأن بعضهم كان يتعبَّدُ آلهة الآخَرين على سبيل المقاربة أو التطوُّع، فالاختلافُ في الديانة يومئذٍ لم يكن يُؤدِّي إلى أيّ نزاعٍ بين العرب، وإنما كانت المشاركةُ الدينيةُ بينهم عاملاً رئيساً في توحيد الأفكار والعادات، وفي الوقت نفسِه سبباً في رَواج التجارات، وقيام المواسم، وازدهار الأسواق، ولا سيما في مكة حيث حافظتِ الكعبةُ على مكانتها عند العرب كافةً، لأن الأمر فيها كان قائماً على التعميم دون التخصيص، وعلى «تمثيل جُمْلة العرب بمأثُوراتِهم ومعبوداتهم»[4].

* * *

(١) اسْتَقْسَم: فكَّر ورَوَّىٰ بين أمرين ليختارَ أحدَهما.

(٢) أخبار مكة: ١/ ٣٧٩.

(٣) المحبَّر: ٣١٦ ـ ٣١٨، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٥، والمفصَّل: ٤/ ٤٤٢.

(٤) مطلع النور: ١٥٦.

المطلب الثاني ـ نصارى العرب كانوا يشاركون سائر القبائل في كثير من عقائدها:

فالتخصيصُ لا يجوزُ إذن حينما نتحدَّثُ عن ديانات العرب في عصر الجاهلية، إذ نَدَر فيهم أن تكون قبيلةٌ كلُّها على ديانةٍ واحدةٍ أو مذهبٍ واحدٍ من تلك الديانة، فالنصارى كانوا فئاتٍ مُتفرِّقةً، تغلبُ عليها مذاهبُ مختلفةٌ، انتقلت إليهم من بيزنطية وفارس والحبشة، فكان فيهم أتباعُ «نسطور» بَطْرَقِ القسطنطينية الذي قال بطبيعتَيْن في المسيح، إحداهما إلَهيَّة، والأخرى بَشَريَّة، ورَفَضَ القولَ بتأليهِ مريمَ، لأنها والدةُ المسيح ذي الطبيعة البشرية(١). وكان فيهم أتباعُ «يعقوب البَرادِعيّ» القائل بطبيعةٍ واحدةٍ في المسيح نشأت من تَجسُّدِ الطبيعتين البشريَّة والإلَهيَّة، فصار بعد التجسُّد إلَهاً(٢)... وفيهم مَن كان على مذهب «أرْيُوس» الذي رفض القولَ بأن الأبَ والإبنَ من جوهرٍ واحد، لأن المسيح مخلوقٌ بأمر الإلَه الأبِ. ومَن كان على مذهب «أو ريجين» القائل بأن الكلمةَ مخلوقٌ مُحَدَثٌ، له الشرفُ على سائر المخلوقات، وأنَّ هذه الكلمةَ تجسَّمتْ في المسيح، فظهرتْ على مِثَال الإنسان، وفيهم آخَرون قالوا بأن جسد المسيح يُشبه الجسدَ، ولكنه ليس كجسَدِ الإنسان، وأنه في لاهُوتِهِ أجَلُّ من أن يتألَّم أو يَتَضرَّعَ، وصَيْحتُه عند الصَّلْب لم تكن: ربّي، ربّي! بل كانت: قُوَّتي قُوَّتي!... كلُّ هذه المذاهب عَرفها نصارى العرب من غير أن يَسْتأثِرَ مذهبٌ منها بضمائر أتباعه. فقد كان نصارى الشام من غسَّان وقُضَاعة وطيِّىء، ونصارى الحيرة من لخم وتميم وإيَاد وبكر وتغلب، ونصارى نجران، يُشَاركون سائرَ قبائل العرب في كثير من عقائدهم وسُنَنِهم، وكانوا غالباً يحجُّون إلى بيت الله في مكة، ويُؤَدُّون

---

(١) المذهب النسطوري مذهب الكنيسة السورية الشرقية.

(٢) مذهب اليعاقبة هو مذهب الكنيسة السورية الغربية.

المناسِكَ على النحو الذي يؤمن به جميعُ العرب، ويحلفون بربّ البيت، ويلتزمون حُرْمَتَه، وحُرْمَةَ الشهور المحرَّمة... من ذلك مثلاً ما ذكره الأزرقي من غير طريق، وبروايات أسندها إلى عدد من الرواة مِمَّن أدركوا الكعبة قبل أن تُمْحىٰ منها الصوَرُ، وتُهدمَ الأصنامُ والتماثيلُ، أن «قريشاً كانت قد جعلت في الكعبة صُوَراً، فيها عيسى بنُ مريم، ومريمُ عليهما السلام»[1]... وأن بعضهم[2] أدرك فيها «تمثالَ مريم مُزَوَّقاً، في حِجْرها عيسى ابنُها قاعداً مُزوَّقاً، وكانت في البيت أعمدةُ ستٌّ سواري، وكان تمثالُ عيسى بن مريم، ومريم عليهما السلام في العمود الذي يلي الباب...»[3]، وذكر برواية عن ابن شهاب: «أن امرأةً من غسَّان حَجَّت في حاجّ العرب، فلما رأت صورةَ مريم في الكعبة قالت: بأبي أنتِ وأُمي إنك لعربية...»[4]. ومن ذلك أيضاً أن عَديَّ بن زيد العِبَاديَّ، وكان نصرانياً، أنشد النعمانَ قصيدة قال فيها:

سَعَىٰ الأعـداءُ لا يَـأْلُـونَ شـرّاً عليكَ، وربِّ مكَّةَ والصَّليبِ[5]

ولو لم يكن عديُّ بنُ زيد، والنعمانُ بن المنذر كلاهما مؤمناً بالكعبة وقداستها لمَا أقسم الأولُ للثاني بربِّها الذي هو اللّهُ ربُّ الأرباب جميعاً.

ويبدو مما ذكره ابن الأثير في كلامه على «يوم السُّلَّان» بين حلفاء الملك النعمان بن المنذر وبني عامر، أن النعمان كان مؤمناً بحُرْمَة الشهور

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٦٩.

(٢) عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨، ومطلع النور: ٨٤.

(٤) أخبار مكة: ١/ ١٦٩.

(٥) المفصَّل: ٦/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

المحرَّمة، مُلْتزماً بها، فقد أمر حلفاءَهُ يومئذٍ ألا يعرضُوا لبني عامر إلا بعد فراغهم من «سوق عكاظ» وانْسِلاخ الأشهر الحرم[1].

* * *

المطلب الثالث ـ المشاركة غلبتْ حتى على من تَهوَّدَ من العرب:

وأمَّا زعمُ من حَسِبَ أن مملكة حِمْيَرَ على عهد ملكها ذي نُوَاس كانت دولةً يهودية[2]، فهو زعمٌ باطلٌ لأنه قائم على التوهُّم، ولو كانت كذلك حقّاً لمَا صار اليهودُ فيها إلى القِلَّة القليلة التي غمرتها الكثرة العربيةُ بعدئذٍ. والواقع أن اليهود في اليمن، وفي يثرب، كانوا غرباء عن جزيرة العرب، هاجروا إليها بعد أن ظهرت الرومُ على بني إسرائيل، ودُمِّر بيت المقْدِس سنة (٧٠ م)[3]، فهاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو قينقاع جملةً واحدةً إلى يثرب، ودخلوا في جوار الأوس والخزرج، وأكَّد أبو الفرج الأصفهاني[4] أنه في البحث عن أصولهم لم يجد لهم نَسَباً يذكره «لأنهم ليسوا من العرب فَتُدوِّنَ العربُ أنسابهم، إنما هم حُلَفاؤهم»[5]. وهاجَرَ منهم آخَرُون متفرقين إلى اليمن منذ بدأ تَشْتيتُهم على أيدي الروم، حتى صار لهم جمعٌ فيها على مدى أربعة قرون، ولمَّا اعْتَلَى «يوسف ذو نُوَاس» عرشَ حِمْيَر، وكان يهودياً، اشْتدَّتْ به شوكتُهم، ثم ما لبثوا أن وجدوا أنفسَهم

---

(١) الكامل: ١/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠.

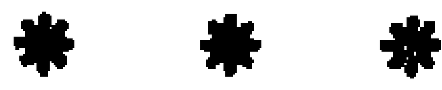
(٢) تاريخ العرب: ١٥٨.

(٣) تاريخ العرب: ٩٧.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين الأمويُّ القُرَشيُّ. وُلد في أصفهان سنة (٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م)، ونشأ وتُوفي ببغداد (٣٥٦ هـ= ٩٦٧ م). كان من أئمة الأدب، الأعلام في التاريخ والأنساب والسِّيَر والآثار واللغة. أشهر كتبه: الأغاني ويقع في ٢٥ مجلّداً مع الفهارس.

(٥) الأغاني: ٣/ ١١٠.

مُهدَّدِينَ بالخطر، في مُوَاجهة حِلْف بين نصارى اليمن والحبشة والروم، فعقدوا حلفاً مع فارس، وكانت فارسُ تُنازِعُ الرومَ والحبشةَ في أرض اليمن، وتُرحِّبُ في بلادها بهجرة اليهود إليها، كما تُرحِّب بالنصارى المضطهَدين من الروم. ويهمُّنا من كل ذلك أن نقول، إن اليهود خارج جزيرة العرب كانوا يُنكرون وجودَ يهودٍ فيها «ويقولون إن الذين يَعُدُّون أنفسهم من اليهود في جهات خَيْبَر ليسوا يهوداً حقاً، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلَهية التوحيدية»[١]، فإذا كان القولُ هكذا في يهود بني إسرائيل، فمعنى ذلك أن العرب الذين تهوَّدُوا لم تستطع الديانةُ اليهودية أن تستأثر بضمائرهم، بل أخذوا منها بأَشْتاتٍ ضَمُّوها إلى أشْتاتٍ من دياناتٍ وعقائدَ أخرى[٢]، وجَرَفُوا معهم في هذا المذهب يهودَ بني إسرائيل المهاجرين إليهم[٣].



المطلب الرابع ـ العربُ والمجوسية:

والقولُ نفسُهُ يمكن أن يُقال فيمن تَمجَّسُوا من العرب، فهؤلاء أيضاً لم يأخذوا من المجوسية إلا ما كان مُتفقاً مع عاداتهم. والمعروف أن المجوسية ديانةُ إيرانَ القديمة، جاءهم بها «زرادشت» في نحو القرن السابع قبل الميلاد، وقامتْ في جوهرها على عبادة النار، والإيمان بربٍّ للنور والخير،

(١) مطلع النور: ٥٨.

(٢) المفصَّل: ٦/ ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٣) إن قيام المسيحية في معقل اليهودية الأكبر دليلٌ على انتهائها إلى الجمود والانحلال، وقد كان اليهود في عصر الميلاد طوائف مختلفة، كل طائفة لها مذهب في التوراة أو التلمود أو تقاليد الأحبار والربَّانيين، وتفرَّقت بذلك مراجع الديانة مع كل طائفة ومعبد ومجمع، وتحوَّلت أشتاتاً وشراذِمَ جمدت على النصوص والحروف على حسب المذهب الذي تنتمي إليه.

وربٌّ للظلمة والشرّ في عالمٍ واحدٍ، واختلطت فيها شعائر العبادة بفنونٍ مختلفةٍ من الوثنية والتنجيم والخرافة، والاعتقاد بالأرواح الخفيَّة والشياطين، وتأليه الملوك. وقد سعى «ماني» في القرن الثالث للميلاد إلى إصلاحها، فأعلن أن اختلاط الظلمة بالنور شرٌّ يجب الخلاصُ منه، ولا يكون ذلك إلا بتحريم النكاح ومنع النَّسْل، استعجالاً لفناءِ العالم. ثم ظهر «مَزْدَك» في القرن الخامس، فقال: إن النزاع بين الناس إنما يقع بسبب النساء والأموال، فدعا إلى إباحتها وجَعْلِ الناس شركاءَ فيها، وأحلَّ نكاح المحَارِم، وبلغ من دهائه أنه أقنع «قَباذَ بنَ فيروز»، إمبراطورَ إيرانَ يومذاك، أن يَبذُلَ زوجتَه لمن يَشْتهيها، فيعلمَ الناسُ صِدْقَ إيمانه، ويقتَدُوا به في ترك التنازع على النساء[1].

ولعل العرب لم تكن تُنكر من أمر عبادة النار شيئاً، وربما كانوا يقدسونها، فكان بعضُهم إذا عقد حِلْفاً، وأراد توثيقهُ، أوْقَدَ له ناراً يتحالفُونَ عليها، وكانوا إذا انْحَبَسَ المطرُ عنهم، وأرادوا الاسْتِسْقاءَ أشعلوا ناراً، وكان إشعالُ نار القِرَى ليلاً من آيات الخُلُق الكريم والشرف[2]. ولعلهم لم يكونوا يلتفتون إلى من اعتقد بالمجوسية منهم أصلاً، إلا إذا أحدث ما تُنكره عقائدهم وعاداتُهم، كالزواج بالمحارم، فكان الفرسُ يُحِلُّونَهُ، والعربُ يُحرِّمونهُ، إلا ما كان من عادة بعضهم تحليلَ الزواج بامرأة أبيه إذا طلَّقها أو مات عنها. وهي عادةٌ فارسية كان سائر العرب يكرهونها[3]، ويَعُدُّونها «أشْنَعَ ما كانوا يفعلون»[4] في الجاهلية، فكانوا «يَعيبُونَ المتزوِّجَ بامرأة أبيه

---

(١) السيرة النبوية للنووي: ٢٧ ـ ٢٨، ومطلع النور: ٤٣ ـ ٤٥.
(٢) نهاية الأرب: ٤٦٢ ـ ٤٦٣.
(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٩٠.
(٤) المحبَّر: ٣٢٥.

ويُسَمُّونَهُ: الضَّيْزَن»[1]، ويَذُمُّهُ شعراؤهم. ومن ذلك قولُ شاعرِ مُضَر أَوْسِ بنِ حجْر التميمي في بعضهم:

والفارسيَّةُ فيكم غيرُ مُنكَرَةٍ   فكلُّكم لأبيهِ ضَيْزَنٌ سَلَفُ

والضَّيْزَنُ: الشريكُ في المرأة، أو الذي يُزَاحِمُ أباهُ في امرأته[2]... يريدُ أنهم على عادة الفرس، يَخلُفُ الرجلُ منهم أباهُ على امرأته فلا يُنكرون عليه فعله.

إلى ذلك كانت المجوسيَّةُ تُحِلُّ نكاحَ البنات والأخوات والعمَّات والخالات وسائرِ المحارم، والعربُ تراهُ حراماً، وتكرهُ فِعلَهُ، ولكن بعض أهل الأخبار، ممَّن تحكُمه العصبيَّةُ القبليَّةُ أو القوميَّةُ، أرادوا أن ينصرفَ الوهمُ عند الناس إلى أن مَن تمجَّسُوا مِن العرب كانوا أيضاً يفعلون فِعْلَ الفرس في المحرَّمات، وكانت الفرسُ كما قال اليعقوبي: «تنكح الأمهات والأخوات والبنات»، وتعتقد ذلك برّاً بهنّ، وتقرُّباً إلى الله فيهن[3]. ومن ذلك ما ساقَهُ ابنُ قتيبة بقوله: «وكانت المجوسيةُ في تميم، ومنهم زُرَارَةُ بنُ عُدُس، وابنُه حاجِبُ بنُ زُرَارَة، وكان تزوَّج ابنته ثم ندم...»[4]! ونقل ابنُ الأثير الخبرَ بشكل آخر فقال: «إن المجوسيةَ كان يدين بها بعضُ العرب بالبحرين، وكان زرارةُ بنُ عُدُس وإبناهُ حاجِبٌ ولقيطٌ والأقرعُ بنُ حابس وغيرُهم مَجُوساً... وإن لقيطَ بنَ زُرارة تزوَّج ابنته دُخْتَنُوس، وسمَّاها بهذا الإسم الفارسي، وقُتِل وهي تحته...»[5]، وكان ذكر في موضع آخر أن

(١) نهاية الأرب: ٤٥٢، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٩٩.
(٢) لسان العرب: ١٣/ ٢٥٤ (ضزن).
(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ١٧٤.
(٤) المعارف: ٦٢١.
(٥) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٨٧.

زوجَ دخْتَـنُوسَ إبنةِ لقيطِ بنِ زُرَارة بن عُدُس، إنما هو ابنُ عمها عمرو بن عمرو بن عُدُس، وذهب إلى رُجْحانِ صحة هذا الخبر على ذاك[1]. . .

وتتفق المراجعُ على أن دُخْتَـنُوسَ لم تكن ابنة حاجب بن زُرارة، وإنما هي إبنة أخيه لقيطٍ، لم يكن له غيرها[2]، سمَّاها باسم بنت كسرى[3]. . . ويُضيف الأصفهاني أنها كانت زوجة عمرو بن عمرو بن عُدُس التميميّ[4]، وهو ما حقَّقهُ الزبيدي أيضاً في معجمه، فأكَّد أنها بنت لقيط بن زُرارة، تزوَّجها عمرو بن عمرو التميميُّ، ثم طلَّقها فتزوَّجها عُمَيْر بن عُمارة بن مَعْبَدِ ابن زُرارة[5]. كما ذكر ابنُ قتيبة أنها زوجةُ عُمير بن معبد بن زرارة، وأن أباها لقيطَ بن زرارة قال فيها يوم مقتله:

يـا ليـت شِعْـري عنـكِ دُخْتَنُـوسُ ... إذا أتــاهــا الخبــرُ المــرمُــوسُ
أتخمِــشُ الخــدَّيْــنِ، أَمْ تَميــسُ ... لا بــلْ تَمِيــسُ إنهــا عَــروسُ[6]

وهو الشعر الذي توصَّل به بعضُ الرواة إلى الزعم بأن الرجل تزوَّج ابنتَه، فقاله نَدماً، وذهب بعضُهم إلى أن قائله هو حاجبُ بنُ زُرَارة يوم نكح ابنته[7]!. . . مع أن الشعر واضح ليس فيه أكثرُ من حسرةِ أبٍ ولوعتِهِ على فراق ابنته الوحيدة، بدليل قوله: إذا أتاها خبرُ رَمْسِهِ، أي دَفْنه في التراب،

---

(1) المرجع نفسه: ١/ ٥٨٥.
(2) العقد الفريد: ٥/ ١٤٣، الكامل: ١/ ٥٨٥ ـ ٥٨٧، معجم البلدان: ٢/ ١٠٤، الأعلام: ٥/ ٢٤٤، الشعر والشعراء: ٧١٠. . .
(3) لسان العرب: ١٠/ ٣٩٢ (ألك).
(4) الأغاني: ١١/ ١٣٧.
(5) تاج العروس: ١٩/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦ (ضرط).
(6) الشعر والشعراء: ٧١٠ ـ ٧١١.
(7) المفصّل: ٥/ ٥٤٤.

وتساؤلِهِ إن كانت تخمشُ خَدَّيْها حُزْناً أم تفخرُ بأبيها، وتميسُ تِيهاً كأنها عروسٌ، وليس فيه ما يعني، قصداً أو تلميحاً، أنها زوجته.

والمعروف أن لقيط بن زرارة وحاجب بن زرارة كانا كلاهما من سادة العرب وحكامهم وقادتهم[1]، وكانا من أشدِّ أشراف العرب تمسُّكاً بمكارم الأخلاق وتقاليد العرب، ولا يمكن أن يُنْسَب إليهما فِعلٌ كالذي زعمه أهلُ الأخبار، إلا أن يكون خبراً من الأعداء مُزوَّراً مَصْنوعاً، دُسَّ على بني تميم كيْداً لهم، فتلقَّفَتْهُ الشعوبيةُ ونشرته قدحاً وذمّاً في العرب[2].

على أن هذا الخبر، وإن فرضنا صِحَّته، وهو غيرُ صحيح قطعاً، يبقى خبراً وحيداً، فردياً، لم يُذكر غيرهُ في موضوعه، ولا يصلحُ إذن أن يكون أساساً للحكم على بعض العرب من خلاله فضلاً عن جميعهم. . . ولا يمكن أن نعُدَّهُ عادةً لأن العادة لا تتحقَّقُ في مكانٍ إلا إذا اطَّردَتْ أو غلبت بحيث يرعاها، أو يجري عليها جمهورُ ذلك المكان أو معظمُ أهله. وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من تخيُّر العرب في الجاهلية للاعتقادِ، ما يتَّفقُ وعاداتِهم وأخلاقَهم، وكانت المرأةُ عندهم مَناطَ الأغراض، والعِرْضُ مَوْضعُ المدح والذمّ في أنفُسهم وآبائهم، وفي كل ما يُحَامُون عنه خوفَ العيبِ والمنقَصة، ولا يستوي هذا الخُلُقُ الكريم مع قول الفُرس بشُيوعِ المرأة وبَذْلها لكل مَن يَشْتَهيها! . ويُحكى عن حاجب بن زُرَارة أنه قَتَل قُرَادَ بنَ حنيفة لأنه شَبَّبَ بامرأته[3]، وقُرَادُ من بني زيد بن عبد الله بن دارم التميمي، وخالُ حاجبٍ، ولو كان حاجِبٌ معتاداً ابتذالَ المرأة وشُيُوعَها على شريعة الفرس لمَا قتله.

* * *

---

(١) المحبَّر: ١٣٤، ٢٤٧.

(٢) المفصَّل: ٥/ ٥٤٥.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢.

المطلب الخامس ـ العربُ وعقائد الصابئة وعلاقتها بعبادة الكواكب:

أما الصابئةُ فالمحقَّقُ من أمرهم أنهم يرجعون إلى أصل قديم، يتَّصِلُ بتاريخ الكلدان في العصر الذي ظهر فيه إبراهيمُ عليه السلام، وربما قَبلهُ، فالمعروف عنهم أنهم يؤمنون بعقائدَ «سابقةٍ لجميع الأديان الكتابية، وعقائدَ سابقةٍ لدين إبراهيم»[1]. . . وكانوا يسكنون «كُوثَى» بالأقاليم الجنوبية من العراق[2]، حيث كان إبراهيم[3]، وتحجُّ طائفةٌ منهم إلى «حرَّان» حيث هاجر، ويشتركون مع الديانات الأخرى في شعائرَ كثيرةٍ، فلا يُعرفُ دينٌ تخلو عقيدةُ الصابئة من مُشَابهةٍ له في بعض الشعائر، فهم يَتَحرَّجُونَ كالبراهمة من مُلامَسَةِ غيرِهم، ويَتطهَّرُون إن فعلوا، ويَتوجَّهُون في صَلَواتهم كالمجوس إلى نجم القطب، ولكنهم لا يعبدون الكواكب، وإنما يعتبرونها ملائكةً نورانيةً، ويَدِينُون كالمسيحيّين بالعِماد ويُبجِّلُونَ يوحنا المعمدان، وعندهم ذبائحُ كاليهود، ويُصلُّون كالمسلمين حُفَاةً، بلباسٍ طاهرٍ، وإنما صلاتُهم ثلاثَ مراتٍ في اليوم، قُبَيل شروق الشمس وعند الزوال وقُبَيل الغروب، وليس في صلاتهم سجود، بل قيام وركوع ثم جلوس، ويُصلُّون جماعةً في الأعياد، ويَغتسِلُون من الجنابة، ويُوجِبُونَ الوضوءَ بعد الاغتسال وقبل كل صلاة، ويَعُدُّون البولَ والغائط والريح ولمسَ الحائضِ والنُّفَسَاءَ نواقضَ للوضوء، ويُغَالُون فيها، ويصومون ثلاثين يوماً موزَّعةً على أشهُر السنة. ومع أنهم يُنَزِّهُونَ الله غايةَ التنزيه، لكنهم يُنكرون الرسُلَ، ويقولون إن الله لا يُخاطِب البشر. وكانوا يُوَقِّرون الكعبة في مكة، ويعتقدون أنها بيتُ

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء: ٨٨، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٨٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ١٨١، وفي ضحى الإسلام: ١/ ٢٥٧ (بين واسط والبصرة في البَطِيحَة).

(٣) معجم البلدان: ٤/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

زُحَل أَعْلاَ الكواكب، ويذهب فريقٌ منهم إلى أنها من بناء إدريس عليه السلام. . . وكان منهم مَن يُحرِّمُ أكلَ بعض الأطعمة كالبصَل والكرنب، لأنها تمنعُ الرؤيا الصادقة إذا كان المرءُ يستوحي الغيبَ في الرؤيا(١).

ولا بُدَّ أن نقول أخيراً قولاً في علاقة هذه الطائفة بالكواكب، إذ نقل ابنُ كثير عن بعض علماء المسلمين تارةً أنهم كانوا يعبدون الكواكب، وتارة أخرى أنهم يعتقدون تأثير النجوم وفِعْلَها، بمعنى أن الله جعلها قِبْلَةً للدعاء والعبادة، أو بمعنى أن الله فوَّضَ إليها تدبيرَ أمْرِ العالم(٢). وهو ما ذكرهُ القلقشنديُّ عن العرب بقوله: «وكان منهم من يميل إلى الصابئة، ويعتقدُ في أنواء المنازل اعتقادَ المنجِّمينَ في الكواكب السبعة، وفي أنها فعَّالةٌ بأنْفُسها. . .»(٣). والحقيقة أن الصابئة ليْسُوا من عَبَدةِ الكواكب والنجوم ولكنهم يَروْنَ أن الله خلق الروحانيّات، أي الملائكة، من أنوارٍ مَحْضَةٍ لا ظلامَ فيها ولا مادَّة، وقد تلبَّسَتْ هذه الروحانيَّاتُ بالكواكب العُلْوِيَّة، مثلِ زُحَلٍ والمُشْتري والمرِّيخِ والشمسِ والقمرِ وعُطارِد والزُّهَرةِ، فجعلوا لهذه الكواكب هياكلَ من أشكال هندسيةٍ مختلفةٍ، منها المدوَّرُ والمربَّعُ والمكعَّبُ والمثمَّنُ والمستطيلُ والمثلَّثُ والمسدَّسُ، وكانوا يتوجَّهون إليها تقرُّباً من الله تعالى، لا عبادةً لها(٤). . .! ولا شك في أن ظهور الصابئة بجنوب العراق يعود إلى أكثر من عشرين قرناً قبل الميلاد، فلما جاء عصرُ التدوين، كان زمانٌ طويلٌ انقضى ضاعت فيه الأصولُ، واختلط الأمرُ على علماء

---

(١) الموسوعة المُيَسَّرةُ في الأديان: ٣٢٠ ـ ٣٢١، وإبراهيم أبو الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٣، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٨١ ـ ٨٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٢.

(٣) نهاية الأرب: ٤٥٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ١/ ١٨١ ـ ١٨٢، وإبراهيم أبو الأنبياء: ٩٠، ومروج الذهب: ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

المسلمين، فتكلَّفُوا في بيان شعائرهم أقوالاً كثيرةً ينقضُ بعضُها بعضاً، وتَحمِلُ عليهم أشياء ليست في صميم عقائدهم. ويمكن أن نَخلُصَ من موازنة ما قاله العلماءُ فيهم إلى أنهم كانوا مُوحِّدين، يَدْعون إلى الإيمان بالله الواحدِ الأَحَد، ويُنَـزِّهونَهُ غايةَ التنزيه، وكانت العربُ على علم بمذهبهم في التوحيد، وهو ما جعلهم يُشَبِّهون النبيَّ عليه الصلاةُ والسلام بالصابئين لمَّا دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ربّاً واحداً ليس كمثله شيء[1]. وكانت مكةُ إذ ذاك «تعملُ على تمثيل جُمْلةِ العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم»[2]، وكانت كعبتُها بيتاً محرَّماً يحجُّ إليه العربُ على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم، ويقصدهُ الصابئون كذلك حيث يجدون فيه، على السمَاحَةِ والحرية، محلاً لممارسة شعائرهم والقِيَام بعباداتهم[3]... كما يجدون فيه مَن يُشاركُهم في تلك الشعائر على مبدأ المُقَارَبةِ والتطوُّعِ، أو التَنَفُّلِ في العِبادة، أمَلاً في مَزِيدٍ من الأَجْر أو التقرُّب إلى الله زُلْفَى... وإن لنا في اسْم الكعبة دليلاً بيِّناً جَليّاً، فالكعبةُ من التكعيب وهو النُّهُودُ والارتفاع، والكعبةُ: البيتُ المربَّعُ، وكلُّ بيتٍ مُربَّع عند العرب كعبةٌ، فالكعبةُ إنما سُمِّيتْ كذلك إذن لِتَربُّعها وارتفاعها[4]، والبناءُ المربَّعُ أو المكعَّبُ من البيوت التي أقامها الصابئةُ للعبادة، ومن هنا كان اعتقادُهم بأن كعبة مكة إنما هي بيتُ زُحَل أعلا الكواكب السيارة[5]، فكانوا يقصدونها للعبادة فيها كلما تردَّدُوا إلى مكة في مواسم الحجّ والأسواق والعُمْرة... فإذا كان الصابئةُ من رَصَدَةِ النجوم، العالِمين بأحوالها، كسائر العرب ومَن كان حولَهم، وإذا كانت عبادةُ

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٢.
(٢) مطلع النور: ١٥٦.
(٣) المرجع نفسه: ١٥٤.
(٤) لسان العرب: ٧١٨/١ (كعب).
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٦، ٢٣٦.

الكواكب والنجوم منتشرةً يومئذٍ في العرب وغير العرب، فلا يلزمُ من ذلك أن يكون الصابئةُ من عَبَدَةِ الكواكب فقط، من دون الله، ولا يلزمُ من اعتقاد بعض العرب بالكواكب وأنْواءِ النجوم أن يكونوا جميعاً من الصابئة.

* * *

وعلى ذلك كان العربُ في الجاهلية يعرفون الصابئة، وكان فيهم من يميلُ إليهم، أو يذهبُ في الاعتقاد مَذهبَهم. ولا شك في أنهم عرفوا كذلك عبادةَ الكواكب حتى أن ديانة العرب في جنوب الجزيرة كانت تقوم في جوهرها على عبادة القمر «الإلّه سين» كبير الآلهة جميعاً، وكانوا يُسَمُّونَه «وُدّاً» إشارةً إلى صفةٍ اعتقدوا أنها من صفاته الحُسْنَى، وهي المحبَّةُ والمودَّةُ. وربما كان الصنمُ «ودٌّ» بدُومة الجندل يرمزُ إلى القمر، وكان بنو كلب بن وبرة يتعبَّدُون له، ويُشَاركهم فيه قبائلُ كثيرة منها: قريش وتميم وطيّيء وهُذَيْل والخزرج ولخم. وقيل: إن ثموداً كانوا يعبدونه وكان اسمُهُ عندهم «أَدَدْ»، ومن ذلك أسماءُ عَبْدِ وُدٍّ، وأُدٍّ بن طابخة، وغيرِهما عند العرب[1]. وعَبَد عربُ الجنوبِ الشمسَ أيضاً، وجعلوها زوجةً للقمر، وجعلوا «عَثْتَرَ» أي كوكب الزُّهَرة إبنَهما، وهو عشْتارُ عند البابليين، وعَشْتَرْت عند الفينيقيين، وفِينُوس عند اليونان. ويُقال إن صنم «اللات» عند عرب الشمال كان يرمز إلى الشمس، أو أنه إسمٌ لها[2]... وكانت اللاتُ رَبَّةً رئيسةً في الحجاز، وكان لها بالطائف بيتٌ على وادي وَجٍّ، يَسْتُرونه ويُضَاهُونَ به كعبةَ مكة، ويجعلون له حَجَبَةً وكسوةً، ويُحرِّمُونَ

(١) تاريخ العرب: ٩٥، والمفصَّل: ٦/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ولسان العرب: ٣/ ٤٥٥ (ودد)، والمحبَّر: ٣١٦، وتاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٥، ومعجم البلدان: ٥/ ٣٦٧.

(٢) تاريخ العرب: ٩٦.

مَوضِعَه»[1]. وكان لها المَقامُ نفسُه عند الأنباط، وكان أهلُ تدمر «كعادة قبائل العرب يشاركون في عبادة أرباب القبائل الأخرى، فكانوا يعبدون من أرباب العرب: اللاتَ والعُزَّىٰ ومناةَ»[2]. . . وكان في العرب طائفةٌ عَبَدَتِ «الشِعْرَىٰ العَبُور» التي في الجوزاء، ولعلَّهم عَبدوها لأنه لم يَعْبُرِ السماءَ عَرْضاً غيرُها، فأنزل الله تعالى: «وإنه هو ربُّ الشِعْرَىٰ»، أي التي تعبدونها[3].

* * *

المطلب السادس ـ الاعتقاد في منازل النجوم:

ويتَّصلُ بعبادة الكواكب والنجوم، قولُ بعض أهل الأخبار، إن العرب كانوا يرون أن المطر الذي يجيءُ بسُقوط نجمٍ في جهة المغرب، إنما هو من فِعْل النجم نفسه، لا من فِعْل الله عزَّ وجلَّ. . . وهو ما أشار إليه القلقشندي من اعتقاد بعض العرب في أَنْواءِ المنازل، أي الكواكب والنجوم التي ينزلُها القمرُ في مسيره، وفي أن تلك النجوم فعَّالةٌ بأنْفُسِها[4]، وعَدَّهُ المرزوقيُّ مذهبَ جُهَّالِ العرب[5]، وقال عنه ابنُ الأَجْدابيّ إنه: «مذهب أهل الجاهلية، وهو مذهبٌ فاسدٌ، واعتقادُهُ كُفْر»[6]. . . وحُجَّةُ هؤلاء في مذهبهم أمران:

---

(1) المحبَّر: ٣١٥، وَجٌّ: كانت الطائفُ من قبلُ تُسمَّى وَجّاً، وهو وادٍ به مزارعُ ونخل وأعنابٌ ورُمَّان وموز وسائر الفواكه، ومياه جارية، جُلُّ أهله ثقيفٌ وحِمْيَر وقومٌ من قريش، وهو على ظهر جبل غَزْوان، وبغَزْوان قبائلُ من هُذَيْل.

(2) تدمر والتدمريون: ٩٣، ٢٩٧.

(3) لسان العرب: ٤/٤١٦ (شعر).

(4) نهاية الأرب: ٤٥٢.

(5) الأزمنة والأمكنة: ١/١٧٨.

(6) الأزمنة والأنواء: ١٣٦.

١ ـ الأمرُ الأوَّلُ: تأويلُهم قولَ العرب في الجاهلية: «مُطِرْنا بِنَوْءِ الثريّا. . .»، فجعلوا الباءَ فيه سَبَبِيّةً، وكأن العرب قالوا: مُطِرنا بسبب مَغِيبِ الثريا، أو أن المطر من فِعْل الثريّا لا من فعل الله عزَّ وجلَّ! ولعلَّ الحقيقةَ أن الباءَ ظَرْفِيَّةٌ، والمعنى إنما هو: مُطِرْنا وقتَ مَغيبِ الثريّا[١]. . . والأدِلَّةُ على هذا كثيرة، أهمُّها قولُه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[٢]، ومنها أن العرب، سعياً إلى معرفة الأزمنة والمواسم، اختاروا ثمانيةً وعشرين نجماً، رَأَوْا أنها منازلُ، ينزِلُ القمرُ في كل ليلة منزلاً منها، فيعلمون بالنظر إليها كم انقضى وكم بقي من أيام الشهر، ويَسْقطُ منها في كل ثلاثَ عشرة ليلةً نجمٌ في المغرب مع طلوع الفجر، ويَطلعُ آخَرُ يُقَابِلُه في الشرق من ساعته، ما خلا واحداً فإن له أربعة عشر يوماً، فتنقضي جميعُها بانقضاء ثلاثِ مئةٍ وخمسةٍ وستين يوماً وهي عِدَّةُ السنة الشمسية، وقد جعلوا من سقوطها وطلوعها معالمَ زمنيةً، يستدلُّون بها على فصول السنة، وحُلولِ المواسم والأوقات، ومواعيدِ المطر والرياح والحرِّ والبردِ. وقيل: إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اسْتَسْقى يوماً بالمُصَلَّىٰ، وسأل كم بقيَ من نَوْءِ نجم الثريَّا؟ فقيل: سَبْعٌ، فما مَضَت تلك السَّبْعُ الليالي حتى أغاث اللَّهُ الناسَ بالمطر[٣]. . . فليس في هذا الأمر اعتقادٌ بأنْواءِ المنازل، ولا إقامةٌ لعلاقةٍ سَبَبِيَّة بين مَغِيبها وهطولِ المطر أو هُبوبِ الرياح، وما زاد العربُ بقولهم ذاك على أن جعلوا سُقوطَ الثريَّا في المغرب، مَعْلَماً زمنياً، يعلمون بوُقوعِهِ قُرْبَ سقوط المطر، والله أعلم. .

---

(١) لسان العرب: ١/ ١٧٦ (نوأ).

(٢) سورة العنكبوت: ٦٣.

(٣) لسان العرب: ١/ ١٧٥، ١٧٧ (نوأ)، والأزمنة والأنواء: ٦٠ ـ ٦١، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠٢.

على أن هذا كلّه لا يمنع من الاعتراف بأن طائفةً من العرب ربما كانت تعتقد بأثر النجوم في الأنواء، ولكننا لا نملك الدليل على أنها كانت تُنكر وجودَ الله، ربِّ الكعبة، وربِّ الناس جميعاً، ومصْداقُ ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وسخَّرَ الشَّمْسَ والقمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ . . . ﴾[1].

٢ ـ **الأمرُ الآخَرُ**: ما نُقِل عن تعظيم عرب الجاهلية لبعض النجوم، وتفاؤلهم بأنْوائها، وما يعقبها من المواسم، كالثريَّا والجبهة وغيرهما من المنازل. . . وإني أرى وراء ذلك حضارةً متقدِّمةً، وعلماً دقيقاً بحركة الأفلاك، وتقلُّبِ الفصول والمواسم والأزمنة، لا جهلاً بطبيعة النجوم، وحقيقة الأمطار والرياح، والحرّ والبرد. . . وقد أقسم الله تعالى بالنجوم فقال: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾[2]، وجاء في التفسير أن النجم هو الثريَّا، وهَوَى: أي سقط في المغرب، وقال: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾[3]، والنجمُ الثاقبُ هو زُحَل[4]. . . وقال: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾[5]، ومَوَاقِعُها هي مَغَارِبُها أو منازِلها[6]، أو مَسَاقِطُها في جهة المغرب، وقال: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾[7]، أراد الكواكبَ الخمسة: زُحل والمشتري والمرّيخ والزُّهرة وعُطارِدَ، وسمَّاها

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.
(٢) سورة النجم، الآية: ١.
(٣) سورة الطارق، الآيات: ١ ـ ٣.
(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ٦٤٦، ولسان العرب: ١٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠ (نجم).
(٥) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.
(٦) حسنين محمد مخلوف ـ كلمات القرآن: ٣٥٣.
(٧) سورة التكوير، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

جَوارِيَ لأنها سيَّارةٌ تجري في الفَلَك[1]... فإذا كان اللَّهُ تعالى أقسم بالنجوم ومواقعها، وهي من مخلوقاته، فلا شيءَ يدعو إلى لَوْم العرب إن جعلوا من مَسَاقطها ومطالعها معَالمَ يستدلُّون بها على المواسم والأزمنة والفصول، وإنما اللومُ على من اعتقد جهلاً بأثَرِها، في وقتٍ كانت الحَيْرةُ الاعتقـاديـةُ تشمـلُ النـاسَ جميعـاً، مـن أهـل الشِّـرْكِ وأهـل الكتـاب علـى السواء... وقد نقل الزبيدي أن من قال مُطِرنا بنَوْءِ كذا، وأراد الوقت، ولم يقصد إلى فعل النجم، فذلك جائزٌ والله أعلم[2].

* * *

صفوةُ القول في ديانات العرب قبل الإسلام أنهم عرفوا مختلفَ المِلَلِ والنِحَلِ والعبادات، فما اسْتَأثَرت واحدةٌ منها بضمائرهم كلها، ولا أَغْنَتْ بعضَهم عن مُشاركةِ الآخَرين في شعائرهم وعقائدهم، فكان أحَدُهم حُرّاً في أن يختار من الديانات كلَّ ما يحسبُهُ خيراً أو يُقرِّبُه إلى الله، لا يُنكر شيئاً من الابتـداع فـي الـديـن، إلا أن تكـون البـدعـةُ زِرايـةً بشـرائـع الآبـاء وعـادات الأسْلاف، فكان من أثَرِ ذلك كلِّه الحريةُ الدينيةُ في مجتمعات الجاهلية، وهي التي أَفْضَت إلى ازدهار التجارة وقيام المواسم والأسواق.

* * *

(١) الأزمنة والأنواء: ٩٤.

(٢) تاج العروس: ١/ ٤٧٤ (نوأ).

الفصل الثالث

الحرية الدينية

أشَرنا في مطلع هذا الفصل إلى مقدار ما كان بين المواسم الدينية وظهور الأسواق الموسمية من ارتباطٍ ومُلازَمةٍ في كثير من الوجوه، كما أوضحنا دور العامل الديني في نشوء تلك الأسواق، وأردنا من ذلك أن دور العامل الديني مُتعلّقٌ بالحالة الدينية العامة أكثرَ مما هو مُتعلّقٌ بالمناسبة الدينية، أو الموسم الديني، إذ لا يمكن لكل موسم ديني، مهما كان لونُه، أن يُنشِىءَ سوقاً موسمية لكل الناس كيفما كانت مذاهبهم، إلا إذا توافرت شروطٌ مُعيَّنةٌ في مجتمعات أولئك الناس، تسمح لهم بالتلاقي في المواسم العامة، وإن اختلفت عباداتُهم، من غير أن تخشَى طائفةٌ منهم عدواناً عليها من أحد بسببٍ أو بآخَرَ من شعائرها الدينية الخاصة، على نحو ما كان يقع من اضطهادٍ للمسيحيّين في المجتمع الروماني الوثَنيّ، ولا سيما في المواسم العامة، خلافاً لمَا كان يعمُّ من الأمانِ والسلامِ في مواسم العرب العامة، كمواسم الحجِّ الأكبر إلى الكعبة، ومواسم الأسواق في عكاظ والمجنَّة وذي المَجَازِ ودُومَةِ الجَنْدل وغيرها، على كثرة زُوَّارها وقاصديها، وتعدُّدِ مذاهبهم وطوائفهم، فكان «يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناسٌ من العرب يأخذون بأشْتاتٍ مُتفرقةٍ من المجوسيَّة واليهوديَّة والمسيحيَّة وعباداتِ الأمم المختلفة»[1]، فضلاً عمَّن كانوا يأخذون بالحنيفية،

(١) مطلع النور: ١٥٧.

والصابئة، وعبادة الأوثان، فما كان أحدٌ يُؤذي أحداً، ولا كانت طائفةٌ تَبغي على أُخرى لاختلاف الديانات والمذاهب، بل إن المؤرِّخين سجَّلوا أن الحكماءَ والأَحْبَار والرُّهْبانَ كانوا يَرِدُون أسواقَ العرب، فيَعِظُونَ الناسَ، ويُبَشِّرُونَهم، ويُذكِّرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار[1]، من غير أن يعترضَهم أحدٌ بسوء، أو ينالهم بأذًى. وجاء في الحديث أن رسول الله عليه الصلاةُ والسلام «لبِثَ عشْرَ سنين يتَّبعُ الحاجَّ بالمواسم»[2]، ويُوَافي القبائلَ في منازلها بأسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز[3]، يدعوهم إلى الإسلام والإيمان بما أُنزِل عليه من القرآن... وإذا نظرنا في أسماء القبائل التي ذكر ابنُ سعدٍ أن الرسول عليه السلام كان يُوافيها في منازلها بمواسم الحج في أسواق عكاظ ومجَّنةٍ وذي المجاز، وجدنا بينها قبائلَ غسَّان وكندة وكلب والحارث بن كعب والحضَارمة[4]... وهو دليل على اشتراك جميع العرب في مواسم مكة على اختلاف دياناتهم. وتذكر حوادثُ التاريخ أن أرض العرب كانت ملاذاً «لكثير من أصحاب الرسالات والدعوات الذين ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ، وتنكَّرتْ لهم أوطانُهم، فلم يجدوا مأوىً إلا في هذه الأرض، البعيدة من نفوذ الملوك الجبارين والرؤساء الظالمين، كما كان الشأن مع إبراهيم في مكة، وموسى في مِدْيَنَ»[5] وغيرهما. ومن المحقَّق كذلك، كما نَقل العقاد عن جورج سيل مُترجم معاني القرآن: «أن ما أَلَمَّ برعايا الكنيسة الشرقية من الاضطهاد، واختلال الأحوال في صدر المئة الثالثة

---

(1) فجر الإسلام: ٢٧.

(2) لسان العرب: ١٢/ ٦٣٧ (وسم).

(3) معجم البلدان: ٤/ ١٣٤، والطبقات الكبرى: ١/ ١٦.

(4) الطبقات الكبرى: ٥/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

(5) السيرة النبوية للندوي: ٦٠.

للميلاد قد اضطُرَّ كثيرين من النصارى أن يلجؤوا إلى بلاد العرب طلباً للحرية»[1]. . . ومن ذلك أيضاً هجرةُ اليهود إلى اليمن ومدينة يثرب هرباً من ظلم الرومان.



وعلى ذلك يبدو لنا جَلِيّاً، من عرض عقائد العرب ودياناتهم في الجاهلية أن الحالة الدينية عندهم كانت تقوم على رُكنين مُتَلازِمَيْن مترابِطَيْن، لا انفصالَ بينهما، أحدُهما حريةُ الاعتقاد والتديُّن، والآخَرُ مبدأ المشاركة في الشعائر والعبادات بين القبائل والطوائف على اختلاف نِحَلِها ومَذَاهِبها. . . وهو ما تحدثنا عنه مفصَّلاً في الفصل السابق، وربما كانت المشاركةُ على سبيل المُقَارَبة، أو على سبيل التطوُّع تَقرُّباً إلى الله، وهو ما أدَّى إلى قيام وحدة بين العرب قبل الإسلام «في أفكار الديانة والعادات، جعلت منهم أمةً واحدةً»[2]، تتفاهم بلغةٍ قومية واحدة وإن اختلفت لهجاتُها، مثلما قامت الأحلافُ والمواثيقُ بين قبائلهم مقامَ النظام والقانون في الدول الأُخرى، فأَحْكَمتْ مُعْظَم علائقهم، وضبطتْ كثيراً من أمورهم، فصاروا كأنهم دولةٌ واحدةٌ عاصمتُها القوميةُ مكةٌ، حيث يتلاقون جميعاً حول الكعبة على اختلاف عقائدهم ومَواطنهم، مُطْبِقينَ على قداستها، مُتَّفِقينَ على إعْظامها، لأن الأمر فيها كان قائماً على التعميم، والمشاركة، وتمثيل جملة العرب بكل مَأثُوراتهم، وشعائرهم، ومعبوداتهم، وليس على تمثيل قريش أو خُزَاعة بما كانوا يؤمنون به، أو يتعبدُّون له وحَسْبُ. . . فقد كانت قداسةُ الكعبة هي القداسة التي لا خلاف عليها بينهم، أمّا الأوثانُ والأصنامُ والأنصاب، فكان

(١) مطلع النور: ٨٨.
(٢) كارل بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي: ١/ ٤٢.

كلُّ امْرِئٍ منهم حرّاً في أن يَتَوجَّه إلى ما يشاءُ منها، فربما اتفق بعضُهم على تعظيم وثَنٍ، وأجمع آخَرون على التهوين من شأنه وازْدِرائه، لكنّ هذا لا يُثير بينهم فتنةً، ولا يُشعل حرباً، ولا يَغضُّ من مكانة مكة وبيتها عند المُعظِّمين والمُزْدَرِينَ على السَّواء. ومع أن الشعائر والمُعتَقَدات التي كان يدَّعيها كلُّ فريق لِصَنَمِهِ أو وَثَنِهِ كثيرةٌ ومختلفةٌ، غير أنه كان من الجائز عندهم أن يحكموا بالضلالة على أتباع صنَمٍ، ويتَّهِمُوهم بما شاؤوا، وأن يَرُدَّ هؤلاء بأَشَدَّ مما قاله أولئك، ولكنهم جميعاً من ناقدٍ ومَنْقود مؤمنون بالحرية الدينية، ومُتَّفِقون على التسامح، ومُلْتَزمون في الوقت نفسه بمناسك الحجّ والعُمرة كما كان يَتولأها أَئمةُ المواسم من بني تميم وبني عَدْوان، وسَدَنَةُ الكعبة من جُرْهُم، أو من خُزَاعة، أو من قريش... فإذا أخَذْنا بأن الحجَّ والعُمرةَ والطَّوافَ والسَّعْيَ إنما هي من الحنيفية دينِ إبراهيم عليه السلام، ولاحظنا أن بني تميم كانوا على المجوسية، وقريشاً بين زنادقةٍ وعَبَدةٍ للأَوْثانِ وحُمْسٍ[1]، أي مُتشدِّدينَ في الدين، عرفنا ما كان يتمتَّعُ به الناسُ يومئذ من الحرية في الدين والعبادة، سواء في مواسم الحجّ والعُمْرة، أو في مواسم الأسواق التي تنعقد بانعقاد الموسم الديني كما في دُومَةِ الجندل، أو تسبقه كما في عكاظ ومجنَّة وذي المجاز!... ويُذكر في هذا السبيل مثلاً، أن الأقرع بن حابس، وهو من بني تميم، كان مجوسياً[2]، وكان مع ذلك قاضي العرب بسوق عكاظ[3]... ويُذكر أيضاً أن امرأ القيس بن حجر الكندي لمّا اسْتَقْسَم عند ذي الخُلَصَة يطلبُ الخِيرَةَ، خرج له ما ينهاهُ عن

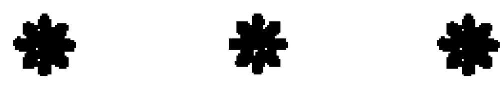
---

(١) المعارف: ٦١٦ ـ ٦٢١، وجمهرة أنساب العرب: ٤٩١، والمستطرف: ٢/ ٨٢.
(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٨٧، والمعارف: ٦٢١.
(٣) المحبَّر: ١٨٣.

الثأر لأبيهِ، فغضب وسَبَّ الصنمَ، ورماهُ بالحجارة، وأنشد قائلاً:

لو كنتَ ياذا الخُلَصَ المَوْتُورا مثلي، وكان شَيْخُك المقْبُورا
لم تَنْهَ عن قتل العُداةِ زُورا[1].

وكان ذو الخُلَصَة في مَعبدٍ يُسمَّى الكعبةَ اليمانية، يتعبَّدُ له بنو خَثْعَم، وكان له سَدَنَةٌ وحَجَبةٌ، وكان فيه مُتعبِّدون، قطعاً، حينما سبَّهُ امرؤ القيس، ورَماهُ بالحجارة حانقاً، فما غضب أحدٌ من هؤلاء جميعاً، ولا اهْتَمُّوا لفعل امرىء القيس، وكأنَّ الأمرَ لا يعنيهم... وكان «ذو اللبا» صنماً تتعبدهُ قبيلةُ عبد القيس بالمشقَّر[2]، فكانوا إذا طافوا به يَدْعُون على مُضَر ومُلوكِ هَجَر، ويقولون: «لبيك اللهم لبيك، لبيك ربِّ فاصْرِفَنْ عنا مُضَر، وسَلِّمَنْ لنا هذا السَّفَر، إنّ عمَّا فيهمُ لَمُزْدَجَر، واَكْفِنَا اللهم أربابَ هَجَر...»[3]، فما كانت قبائلُ مُضَر يَهيجُها دُعَاؤهم، ولا كان أربابُ هجر، وهم سادةُ المشقَّر أيضاً، يُعلنون الحربَ عليهم.



إن حاجة الأُمم إلى الأفَاوِيهِ والطيُوب التي اخْتَصَّ العربُ بصُنْعها أو الاتجار بها، وإن أُضيف إليها موقعُ بلاد العرب في مركز وسَطٍ من العالم القديم، لم تكن تكفي وحدَها لتجعلَ مراكز التجارة الدولية كلَّها بأيدي العرب... فلولا تلك الحالةُ الدينية المتميِّزَةُ، القائمةُ على حرية الاعتقاد والمشاركة، والتي تفرَّد بها العربُ في عصر الجاهلية دون سائر الأمم، لمَا

---

(١) أخبار مكة: ١/٣٧٩.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٩٣.
(٣) المحبَّر: ٣١٤.

ازدهرت التجارةُ في بلادهم، ولمَا ظهرت تلك الأسواقُ الموسميةُ الكبرى عندهم، ولما أَمَّها الناسُ من كلّ فجٍّ عميقٍ، مُطْمئنين إلى أن أحداً لن ينالَهم بأذَى، إن اختلفوا معه في ديانةٍ أو عقيدة.

ومن الممكن أن نَعُدَّ هذه الظاهرةَ أساساً للوحدة القومية، التي قامت عند العرب على تسَانُدٍ واتفاقٍ بين رُكْنَيْها اللَّذَيْنِ لا قَوَامَ لها بغيرهما، وهما: **الحريةُ الدينيةُ، واللغةُ القوميةُ**، وكلاهما كان تمهيداً صالحاً لظهور الدعوة الإسلامية.. فأمَّا **اللغةُ** فما كان من المكن تحقيقُ وحدتها، لولا انعقادُ مواسم الحجّ والأسواق في مواعيدها، واجتماعُ مختلف قبائل العرب فيها، فكانت بذلك أثراً من آثار المجامع العربية العامة. وأما **الحريّةُ الدينيةُ** فما كان من الممكن في عَدَمِها انعقادُ تلك المجامع العامة، مع ما كانوا عليه من الشِّرْك وتعدُّد الديانات والنِحَل والمَنَازِع، وتعصُّبِ كلِّ طائفةٍ لمذاهبها وشعائرها وقومها... فكان كلاهما إذن أكْمَلَ تعبير عن ظهور الوحدة القومية للعرب قُبَيْل ظهور الإسلام تُمهِّدُ له الطريق. ولولا هذه الوحدةُ لمَا كان انتصارُ العرب على دولة الفرس في موقعة ذي قار سنة (٦١٠ م)،لمّا غَدَرَ كسرى أبرويز بالملك النُعمان، فقتله بعدما أَمَّنهُ، وأرسل إلى بني شَيْبانَ يطلبُ سَلَبَهُ وما اسْتَأْمَنَهم النعمانُ عليه من الأهل والمال والسلاح، وكأنه وريثُهُ، أوكأنه قتله قتالَ الشرفاء، فثارت بنو شيبان، وثارتْ معها قبائلُ العرب للنخوة العربية، وأبَوْا أن يُعطوه شيئاً مما عندهم، وتَصَدَّوا لجيشه، فقاتلوه بكفايةٍ عالية، ويقظةٍ حادّةٍ، وشجاعةٍ رائعة حتى هزموه هزيمةً مُنْكَرة، أوْدَت بِكبَارِهِ وحَطَمت كبرياءَهُ، ويومئذٍ قال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام: «اليومَ انْتَصَفَ العربُ من الفُرس، وبي نُصِروا...»[1]، وحينذاك كانت بدأت دعوةُ الإسلام.

---

(١) المفصَّل: ٣/٢٩٦، ومجمع الأمثال: ٢/٥١٩، وتاريخ الطبري: ٢/١٩٣ وما بعدها.

ولا شك في أن إبقاء الإسلام على مكانة الكعبة يُعَدُّ دليلاً على مكانتها عند العرب جميعاً، ويمكن أن نقول «إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجاً حين صارت الكعبة إلى يديه، وأصبحت عاصمةُ العروبة عاصمةً للدين الجديد. . . ولو لم تكن للعرب وحدةٌ معروفةٌ بينهم قبل البعثة الإسلامية، لما اعتزُّوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعْتِزازَ»[1]، يُقْبِلون عليه من الشمال والجنوب والشرق والغرب، يُعظّمونَه ويُقَدِّسونه من غير اختلاف بينهم على تعظيمه وقداسته، وهو ما أكَّدهُ تِيُودُور الصِّقِلّي، المؤرِّخُ اليونانيُّ في القرن الأول للميلاد[2]. ولو لم تكن الحريَّةُ الدينيَّةُ مَرْعِيَّةً بينهم لمَا كانت تلك الوحدة، ولا كانت الأسواقُ أو المواسمُ العامَّة. . . ولعلَّ خيرَ دليلٍ على صحّة هذا القول أن أيام العرب في الجاهلية، وهي جملةُ حروبهم ووقائعهم، على كثرتها، ليس بينها جميعاً يومٌ واحدٌ كانت أسبابُ الحرب فيه دينية. . . وقد نقل الآلوسي أن أبا الفرج الأصفهاني اسْتَقصَى أيام العرب في الجاهلية، وجعلها في كتاب، فكانت أيامهم ألفاً وسبع مئة يوم[3].

ويمكن أن يُعَدَّ ما وقع في اليمن قبل أن يحتلها الأحباش سنة (٥٢٥ م)، وبعدما احتلُّوها، برهاناً آخَرَ قاطعاً على صواب ما ذهبتُ إليه من تلازُمِ الحرية الدينية وظهورِ المواسم التجارية والدينية وازدهارها. فالمعروف أن مملكة حِمْيَر كانت أكثر بلاد العرب ارتقاءً وعُمراناً وتجارةً وأسواقاً، وكان بها نصارى ويهودٌ وعَبَدةُ أوثان وعَبَدَةُ كواكبَ ونجومٍ، وعلى شِرْعَةِ نوحٍ وشُعَيبٍ وهُودٍ وغيرهم، والأمرُ فيها كان يجري على قاعدة الحريّة الدينية،

---

(١) مطلع النور: ٧٧.

(٢) معالم الحضارات: ١٦٢.

(٣) بلوغ الأرب: ٢/٦٨.

حتى اعتلى عرشَها الملكُ يوسف ذو نُواس (٥١٥ م)، وكان يهودياً، فزَيَّنَ له اليهودُ، ومُعْظمهم من سُلالةِ أولئك الذين لَجؤُوا إلى اليمن بعد تدمير بيت المقدس سنة (٧٠ م)، أن يُكره النصارى على اليهودية، فلما أبَوْا ذُبِحُوا في نجران سنة (٥٢٣ م)، ثم أُحْرِق مَن نجَا منهم أو رفَضَ التهوُّدَ، في الأُخدُود[١]... وكان قيصرُ الروم يومئذٍ جوستنيانُ الأولُ (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م)، حاميَ النصرانية، فأوعز إلى الحبشة وأَمَدَّهم لنُصْرَةِ نصارى اليمن، فقام الأحباشُ بحَمْلةٍ يَقودُها أَبْرهَةُ، واحتلوا اليمنَ بعد قتال مرير، وظلُّوا فيها نحو خمسين سنةً، وبذلك سقطت دولةُ حِمْيَر، وكسَدَتْ أسواقُها، وبارَتْ تجاراتها، وانتقلت إلى أسواق الحجاز.

وزاد الأمرَ سُوءً أن الأحباش عقدوا النية على تنصير اليمن كله[٢]، ونظر أَبْرَهَةُ فرأى أهلَ اليمن يتأهَّبُونَ للسفر، فسأل عن أمرهم، فقيل له: هو موسمُ الحجّ، يتوجَّهُ فيه العربُ كافةً إلى مكة، يزورون بيتَها المحرَّمَ، ويُؤَدُّونَ مناسِكَ الحجّ والعُمْرة يتقرَّبون بها إلى الله[٣]، ويُقيمون الأسواق للتجارة ومختلف الشؤون الاجتماعية والسياسية... فتأكَّد العزمُ عند أبرهة على مُزاحمةِ مكةَ أيضاً، وجَعْلِ صنعاءَ قِبلةَ العرب ومحجَّهم ومركزَ تجاراتهم، فأنشأ فيها مَعْبداً كبيراً سُمِّيَ «القُلَّيس»، وفَّر له كثيراً من الفخامَةِ والعظمة، وأمَر بتحويل حجِّ العرب جميعاً إليه، مُبْتَغِياً أن يَصْرِفَهم عن مكة[٤]... وكان من الممكن أن يتعبَّدَ في القُلَّيسِ مَنْ يشاءُ مِن العرب،

---

(١) تاريخ العرب: ٩٧.

(٢) المرجع نفسه: ٩٨.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٦٧.

(٤) تاريخ العرب: ٩٩، ولسان العرب: ٦/ ١٨٠ ـ ١٨١، ودائرة معارف القرن العشرين: ١٨/١ (أبرهة)، والقُلَّيْس: من التقليس وهووضْعُ اليدين على الصَّدْر خُضوعاً قبل السجود، وهو كذلك الضَّرْبُ بالدفِّ، والغِناءُ.

مُشَارِكةً أو تطوُّعاً، جَرْياً على عادتهم في اختيار الشعائر وحرية العبادة، أمَّا أن تكون عبادتُهم فيه، أو حجُّهم إليه بالإكْراهِ، فهو ممَّا تأباهُ نفوسُهم، وأَشَقُّ منه عليهم أن يستبدلوا معبداً آخَر غريباً مهما كان شأنُه، بكعبتهم في مكة، وقد ظلت عشراتِ القرون المفخرةَ القوميَّةَ لهم جميعاً، والحرمَ الإلَهيَّ المشتركَ بينهم كافةً، بعيداً من سيطرة الروم، ونُفوذِ الفُرس، وتقلُّبِ الحبشة، وسُلطانِ الملوك.

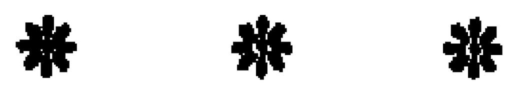
ويبدو أن فقيه العرب ومُفْتِيَهُم في شؤون ديانتهم، ولعلَّهُ جُنَادةُ بنُ عوف من بني مالك بن كنانة، أفْتَى بمقاطعة القُلَّيْسِ مَعْبدِ الحبشة، فقام بعضُ العرب بتَدْنيسِهِ علامةَ احتقارِهِ، فغضب أبْرَهةُ، وسار نحوَ سنة (٥٧١ م) على رأس جيشٍ، يريدُ هَدْمَ الكعبة، وإكراهَ العرب على الحجِّ إلى مَعْبدِهِ، ولكنه سقط دون ذلك بعدما ابْتَلاهُ اللهُ بوباءِ الجُدَريِّ ففتك به وبجيشه على أبواب مكة، فعاد خائباً... وبينما بارتْ أسواقُ اليمن وتحوَّلت تجاراتها إلى الحجاز، شهدت مكَّةُ في ظلِّ الحريَّة الدينيَّةِ والسماحَةِ ازدهاراً تجاريّاً لم تعرفْ له مثيلاً في تاريخها، ويذكرُ المرزوقيُّ أنه لمّا دخلت سنة (٦٠٥ م) حَضَرَ سوقَ عكاظ من قبائل الشمال والجنوب، ما لم يَرَوْا أنه حضَر مثلُه في سائر السنين، فباع الناسُ كل ما كان معهم، وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق[1]...

ويُعَدُّ من هذا القبيل ما شهدتْهُ مملكةُ تدمر من ازدهار اقتصادي وعمراني، في عصرها الذهبي بين القرنين الثاني والثالث للميلاد، حين مَنَعَ ملكُها أُذَيْنَةُ التعصُّبَ الدينيَّ، ومَنَح كلَّ طائفةٍ حريَّتَها في ممارسة شعائر

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

دينها، وإقامة معابدها كما تشاء. . . وكان في تدمر جاليةٌ من اليهود جاءت إليها مُهاجرةً بعد خراب القدس سنة (٧٠ م)، وكانت تعمل في التجارة وتُمارس شعائرها بكل حريّة، فلما آنَسَتْ من نفسها قوةً، بدأت تَحِيكُ المؤامراتِ كراهِيَةً للحرية الدينية، لأن زنوبيا بتأثيرٍ من أفكارها الفلسفية، سمحت بالزواج بين اليهود وغيرهم، فنشأ جيلٌ جديدٌ ضيَّع على اليهود زعمهم بأنهم شعبُ الله المختار، وأَفْقَدهم كثيراً من تقاليدهم[١].



نخلص من كل ما قدَّمناهُ إلى أن الحالة الدينية التي كانت سائدةً عند العرب في عصر الجاهلية، برُكْنَيها المتلازِمَيْن: الحرية الدينية، والمشاركة في الشعائر والعبادات بين القبائل والطوائف، كانت عاملاً رئيساً في قيام الأسواق الموسمية والمواسم الدينية على السواء، وفي ازدهارها وبقائها أزْماناً طويلة[٢]. . .

(١) المفصَّل: ٣/ ٩٧ ـ ٩٨، ١٠٨، ١١١.

(٢) إنني إذ أؤكد أن كلَّ المِلَلِ والنِحَل والعباداتِ التي عرفها العربُ وغيرُ العرب، في الحِقْبة التي أُؤرِّخ لها، كانت بين كافرةٍ أو مُشركةٍ بالله الواحد الأحَد، أرجو ألاَّ يُفَسَّرَنَّ أحدٌ كلامي على الحالة الدينيَّة في عصر الجاهلية بأنه تَزْيينٌ لها، وما فعلتُه لم يكن أكثرَ من تحقيقٍ ووصْفٍ وتأريخ، فتلك الحقبةُ، على ما كانت به من الوثنيَّة والضلال، كانت مقدمةً لا بدَّ منها لظهور الإسلام، دينِ الحقِّ والهُدى والتوحيد.

الباب الرابع

الحالة الاجتماعيّة

مجتمعات العرب في عصر الجاهلية وتنوعُها

الفصل الأول

أحوال الاجتماع عند العرب

المطلب الأول ـ اختلافُ المجتمعات باختلاف عوامل الطبيعة:

من المعروف أن بلاد العرب كانت، على سَعَتِها، مُتنوِّعَةَ الأقاليم، ومختلفةَ المُنَاخَاتِ، وكانت كذلك مُفَتَّحةَ الأبواب على البحار الرئيسة في العالم، في موقعٍ وسَطٍ تميَّزَتْ به من سائر أُمم العالم القديم، فوصَلَتِ الشرقَ بالغرب، وأمَدَّتِ الشمالَ بما في الجنوب، والْتَقَتْ في ربُوعها طرُقُ التجارة وقوافلُها، وقامت في مُدُنها وقُراها أعظمُ مراكزِ التبادلِ التجاريّ والحضاريّ، الداخلي والدوليّ، فكان لا بُدَّ لهذه العوامل من أن تُؤثِّر تأثيراً كبيراً، ومباشراً، في نُشوءِ المجتمعات البشرية بجزيرة العرب، وتطوُّرِها، وتنوُّعِها، وارْتِقاءِ بعضِها، وتأخُّر البعض. . .

وقد أثْبتَ التحقيقُ أن آثار اختلاف العوامل الطبيعية، على سكان جزيرة العرب، جعلت لأهل المدُن والقُرى مجتمعاً يختلفُ في شكْلِهِ وتكْوينهِ عن مجتمع أهل البوادي والفَلَوات. . . بل جعلتْ من مجتمع أهل المُدنِ والقُرى جُملةَ مجتمعاتٍ، تبايَنَتْ بتبايُنِ العوامل المحليَّة والخارجيَّة التي تَعرَّضَتْ لها، فكان لكلٍّ من اليمن، ومكة، ويثرب، والطائف، والحيرة وغيرها من حواضر العرب، مجتمعٌ خاصٌّ، وشخصيةٌ مُتَمَيِّزَةٌ. . . فمُجتَمعُ اليمن مثلاً أنشأ حضارةً ليس لها مَشَابِهٌ في سائر أنحاءِ بلادِ العرب، فاشْتُهِرَ بالعُمران، وبناءِ القُصورِ والحُصُونِ، وإقامةِ السُّدُود، واسْتِزْراع الأرضِ،

وإنتاج الغَلاَّتِ، واسْتخراجِ المعَادنِ، وتربيةِ الحيوان. . . وبينما كان العربُ في وسَطِ الجزيرة وشمالِها، يُعبِّرون عن أنفُسِهم، ومَشَاعِرِهم، وأفكارهم، بصناعة الشِّعْرِ، وصَوْغِ الحِكمِ والأَمْثَالِ، والدعوةِ إلى مكارم الأخلاق والتجمُّلِ بها، واشْتغالِ فريقٍ منهم بالتجارةِ وفريقٍ آخَرَ بالزراعةِ، وبعضِ الصناعاتِ، كان أهلُ الجنوب في صنعاءَ، وظَفَار، وصُحَار، وحضرموت، وعَدَن وغيرها من حَواضِرِ العربِ هنالك، يُعَبِّرون عن ذَوَاتِهم بالنقشِ على المَرْمَرِ، والمعادنِ الثمينة، والخَشَب، وبالحِذْقِ في الصناعات، كالبُرودِ، والبُسُطِ، والسيوف، والعطور، وصِياغَة الحُلِيِّ من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. . . ومع ذلك فإن مجتمع الحضارة في جنوب بلاد العرب لم يكن مجتمعاً على شاكلةٍ واحدةٍ، بل كان أيضاً مُؤَلَّفاً من عدَّة طبقاتٍ، مُتَفَاوِتَةِ الحظوظ من الإرْتقاءِ، والمكانة الاجتماعية. وكذلك كانت جُملةُ المجتمعاتِ الحضَاريَّةِ في اليمن، وحضرموت، وعُمَان، وهَجَر البحرين، والقطيف، والخَطِّ، ومكة، ويثرب، ومدائن وادي القُرى، وغيرها، تختلفُ خصائصُ حضارتها عن المجتمعات المتقدِّمة التي أنشأها العربُ في مَشارِفِ الشام، ومَشَارِفِ العراق، على شكل قُرىً، ومُسْتَوطَناتٍ، وأَخْبِيَةٍ، جَمعتْ بين الحضارة والبداوة في آنٍ معاً، فلم يكن أهلُها مُنعَزِلين عن العالم الخارجي، ولا عن أُصُولهم في جزيرة العرب، بل كانوا مُنْفتِحين على كل العناصر الحضارية من حولهم، وكان العربُ يُطلقون عليهم إسمَ عرب الضواحي، لأنهم أقاموا على تُخوم البادية في ضواحي العراق والشام.

وقد تميَّزَتْ مجتمعاتُ الحضارة عند العرب كافةً، بأنها لم تكن على شاكلة المجتمعات المماثلة في بلاد فارس والروم، وإنما ظلَّتْ في أنْمَاطِ العَيْشِ، وطرائقِ التفكير، والتقاليد الاجتماعية، والمُثُل العليا، على شاكلة المجتمعات البادية، التي نشأت فيها، وفُطِرَت عليها، فكان أهلُها يعيشون

في قُراهم ومُدُنِهم وأريافهم، قبائلَ وأُسَراً، تربط أفرادَ كلٍّ منها عصبيَّةُ الولاء لأسرته أو قبيلته، وتُحْكِمُ سلوكَهمُ التقاليدُ والأعرافُ التي تَلَقَّوْها عن آبائهم[1].

آيةُ ذلك أن المواسم العامَّةَ الكِبَارَ، مثلاً، قامت في اليمن، مثلما قامت في حضرموت، وهَجَر، وعُمَان، والحجاز، ونَجْد، وتهامة، والحيرة، وبُصرى، بالوظائف والخصائص نفسِها، ولكنها كانت في سوق عكاظ، بين مكة وسُفُوح الطائف، أَعْظمَ مجمعٍ حضاريٍّ عَرَفَتْهُ بلادُ العرب، وكان مَثَلُه مَثَلَ موسمِ الحجّ إلى مكة، يستهوي قلوبَ العرب جميعاً، على اختلافِ مَوَاطِنهم، وطوائِفهم، وقبائلهم. . . وهذا دليلٌ على أمريْن:

الأول: وجودُ طبقة اجتماعية حضارية في الحجاز، أحْسَنَتِ القيامَ على المواسم.

الثاني: أن التبايُنَ الحضاريَّ بين مجتمعات العرب لم يكن أمرَ تقدُّمِ قَوْمٍ وتَخلُّفِ آخَرين، وإنما هي خصائصُ من آثار الطبيعة، اخْتصَّ بها كلٌّ من تلك المجتمعات، ولو كان الأمرُ أمرَ صناعةٍ وزراعةٍ وعُمرانٍ وفُنون، لكانت مواسمُ عَدَن، وظَفَار، وحضرموت، وصنعاء، أحْرَىٰ بأن تَسْتهوي قلوب العرب في مختلف أقطارهم، ولم تكن في الواقع تستهوي غيرَ التجَّارِ وأصحابِ المآرِب.

وأخيراً، إذا شئنا مَزيداً من الأدِلَّة والوضوح، في موضوع تعدُّدِ مجتمعات الجاهلية، وتنوُّعِها، فإنَّ علينا العودةَ بالتعابير إلى أصولها، وتَتَبُّعَ ما صارت إليه معانيها، وما استقرَّ عليه الاصطلاحُ بعدئذٍ في استعمالها. ذلك

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٠.

أن سكان جزيرة العرب، وإن غَلَبَ عليهم جميعاً إسْمُ العرب، لكنهم كانوا في الحقيقة فريقين، فريقاً يُسمَّىٰ العربَ، وفريقاً يُسمَّىٰ الأعراب، وكانت الحضارةُ في العرب، والبداوةُ فيهما معاً، والارتحالُ من مكانٍ إلى آخَرَ من غير استقرارٍ في الأعراب لا غير.

* * *

المطلب الثاني ـ العربُ والأعراب:

أمَّا العربُ فهم أهلُ الحَضَرِ عموماً. . . وكلُّ من كان مُقيماً على مياهٍ دائمةٍ، لا تنقطع أبداً، يُسمَّىٰ حاضِراً، فإذا تباعَدَ عن أعْدادِ[1] المياه، ذاهباً في النُّجع[2]، إلى مَسَاقِطِ الغَيْثِ، ومَنَابِتِ الكَلأ، صار بادياً[3]. . . وكلُّ مَن نَزَلَ مِن العرب على ماءٍ عِدٍّ، لا يتحوَّلُ عنه إلا ليعودَ إليه، يُعَدُّ من الحَضَر، سواء نزلوا في القُرى والمدُن، أو الضواحي والأرياف، وسكنوا الدُّورَ المَدَرِيَّةَ[4]، أو بَنَوا الأخْبِيَةَ[5]، فقَرُّوا بها، ورَعَوا ما حواليها[6]. . . فالأصلُ في معنى الحَضَر إذن هو القومُ الذين يحضرون المياه، وينزلون عليها[7]، ويَثْبُتُونَ في مَوَاضِعها، ويَتَّخذونَها مَوْطناً دائماً، يتعلَّقُونَ به، ويَحْمُونَه،

---

(١) الأعْدادُ: ج عِدٍّ، وهو الماءُ الدائمُ لا انقطاع له، مثل ماء العين، وماء البئر، ويقال لمَا نَبَعَ من الأرض: العِدُّ، ولما نزل من السمَاء: الكَرَعُ.

(٢) النُّجَعُ: ج نُجْعَة، وهي الذهابُ في طلب الماء والكلأ، وكانت لها أوقاتٌ مُعَيَّنةٌ من السنة.

(٣) لسان العرب: ٤/١٩٦ ـ ١٩٧ (حضر).

(٤) المَدَرُ: مفرده مَدَرَةٌ، وهي البِنْيَةُ من حجر أو طين. وإنما سُمِّي سكانُ القُرى والمدُن أهلَ المَدَر، لأنهم اتخذوا بيوتهم منها.

(٥) الأخْبِيَةُ: مفردها خِبَاءٌ، وهو بيت صغير من الصوف أو الشَّعَر، يُرْفَعُ على عُمُدٍ.

(٦) لسان العرب: ٤/١٩٨ (حضر).

(٧) المرجع نفسه: ١٤/٦٧ (بدا).

ويُقاتلون دُونَه حتى الموت. ثم جرى الاصطلاحُ على أن يُسمَّىٰ سكانُ المدُنِ والقُرى «أهلَ الحَضَر»، والمقيمون بجوارهم في الضواحي والأرْياف «أهلَ البادية»، ولكنهم تَفرَّدُوا جميعاً باسْم العرب، تَميُّزاً من «الأعراب»، واستعلاءً عليهم، فكانوا يقولون: إن الذي لا يَفرقُ بين العرب والأعراب، ربما كان يتحامَلُ على العرب! وكان الأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيُّ، فَرِحَ بذلك، وهَشَّ له، وإذا قيل للعربيّ: يا أعرابيُّ، غضب[1]... والأصلُ في معنى البَدْوِ أن القوم الذين يحضرون المياه الدائمة، كانوا إذا بَرَدَ الزمانُ في مواسم الربيع، يخرجون إلى المَبَادِي[2]، يطلبون القُرْبَ من الكلأ، ويشربون الكَرَعَ من الغُدْرانِ[3]، ويَرْعَوْنَ الماشيةَ، فالقوم حينئذ جميعاً باديةٌ بعدما كانوا حاضرة. فإذا نَشَّتِ الغُدْران رجَعُوا إلى مَحاضِرِهم على أعداد المياه التي كانوا عليها في القُرى والضواحي والأرياف[4]... وهذا البَدْوُ هو ما يُسمِّيهِ العربُ النّجْعَةَ، يخرجُ إليها أهلُ الحاضرة والبادية على السواء، فلا يُقال فيهم: إنْتَوَوْا، فالإنْتِواءُ تحوُّلٌ عن مكانٍ، للسَّكن في مكانٍ آخَر، وهو ما يفعلُه الأعرابُ، وإن كانوا كذلك ينتجِعُون في مواسم النجعة! ومن هنا كان حرص الحجّاج بن يوسف الثقفي في خطبته أهلَ العراق، على أن يصفَ نفسَهُ بأنه مُهَاجِرٌ وليس بأعرابيّ، أي أن هجرته ليست كهجرة الأعرابِ، أهلِ الانتواءِ ومَن لا يستقرُّ في وطن. ولذلك كانوا يقولون: إن جارَ البادي

---

(١) لسان العرب: ١/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧ (عرب)، و ٩/ ١٢٨ ـ ١٢٩ (ريف).

(٢) المبادي: مفردها مَبْدَىٰ وهو خلافُ المَحْضَر، وهو الباديةُ التي ينتجعونها، وكلُّ مُنْتَجَعٍ مَبْدَىٰ.

(٣) الكَرَعُ: ماءُ السماء، والغُدْران: مفردها غَدير وهو القطعة من الماء يتركها المطرُ أو السيلُ، وهو عادةً لا يبقى إلى القيظ.

(٤) لسان العرب: ١٤/ ٦٧ ـ ٦٨ (بدا)، و ٨/ ٣٤٧ (نجع).

يتحوَّلُ، بخلافِ جَارِالمقيم[1]، فالمُقِيمُ ساكنُ القُرى والأمصارِ، وجارُه هو البادي ساكنُ الضواحي والأرياف، وجارُ البادي هو الأعرابيُّ صاحبُ الرحلةِ الدائمة، والانْتِواءِ من موضع إلى آخَر، وهو الذي يتحوَّل. . .

وكان أَحَدُهم إذا اهتمَّ لشيءٍ، أو أراد أن يخلوَ بنفسه، ويبتعدَ عن الناس، يخرجُ إلى البادية[2]، يطلبُ الهواءَ النقيَّ، وراحةَ النفسِ، وهدوءَ البال، فيما يشبه انتقالَ الناسِ إلى المصيف أيام الحرّ، ولا يُقال فيهم ارتحلوا عن ديارهم، وتحوَّلُوا عنها. . . وقد كان «من عادة أشراف قريش وغيرهم من أشراف العرب، أن يدفعوا أبناءَهم إلى مَراضِعَ من نسَاءِ أهلِ البادية، في اليوم الثامن لمؤْلِدِهم، فلا يستعيدونهم قبل أن يبلغوا الثامنةَ، أو العاشرة من عمرهم. . .»[3]، ذلك أنهم كانوا يُؤْثِرونَ الباديةَ لنشأة أولادهم، لمَا في البادية من الصفَاء، وسلامة اللغة، ونقاءِ الخُلُقِ، والبُعْدِ عن وباءِ القُرى والحواضِر. والمعروف أن قبيلةَ بني سَعْدٍ كانت أوسعَ قبائل البادية شهرةً في المَرَاضِع، وحليمةُ السعديَّةُ التي أرضعتْ رسولَ الله عليه السلام كانت منهم[4]، وذكر ابنُ إسحاق أن الرسول لمّا كان في بني سعد رعىٰ الغنم في باديتهم[5]، ثم رعاها أيضاً بمكة بعدئذٍ[6]. وليس من العقل أن يُبْعَثَ بالرضيع إلى قومٍ رُحَّلٍ، لا أرضَ لهم يثبتُون عليها، ولا مساكن دائمة تُعْرفُ بهم، ويُعْرفون بها، ويستقرُّون فيها. . . وهذا دليلٌ على أن أهلَ البادية،

---

(١) لسان العرب: ١٤/ ٦٨ (بدا).

(٢) المرجع نفسه: ١٤/ ٦٨ (بدا).

(٣) عبد العزيز خير الدين ـ السيرة العطرة: ٧٤.

(٤) السيرة النبوية للندوي: ٨٧.

(٥) السيرة لابن هشام: ١/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٦) المرجع نفسه: حاشية رقم ٢/ ١٦٧.

جيرانَ أهلِ القُرى والمدن، كانوا مجتمعاً مُتَّصِلاً بالحضارة، ولم يكونوا أعراباً، مع سُكْنَاهم في البوادي. وقد عُرِف عن بعض ملوك فارس أيضاً أنهم كانوا يُرسِلون أولادَهم إلى البادية لِيَنْشَؤوا فيها، وكان فيهم من أَعْجَبَتْه مروءةُ العرب، وأَنَفَتُهم، فعَهِدُوا إليهم بتربية أولادهم في البادية، ومن هؤلاء يزدجردُ الأثيم الذي دفع إبنَهُ بهرام جور إلى الملك النعمان بن امرىء القيس (٤٠٥ ـ ٤٣١ م)، ليُرَبِّيَهُ في البادية، ويُنشِئَهُ على أخلاق العرب وعاداتهم[١].

* * *

وأمّا الأعرابُ فهُم أهلُ الانْتِواءِ، وهو التحوُّلُ من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، والانتقالُ من دارٍ إلى دارٍ غيرها في البوادي والفَلَوات[٢]. يعيشون حياتَهم رُحَّلاً، لا يُطيقون الاستقرارَ في أرضٍ مُعيَّنة، ويعتقدون أن الوطنَ هو الأرضُ التي نَـزَلُوها في ارتحالهم ما داموا فيها، فإذا ارتحلوا عنها إلى غيرها، صارت الأرضُ الجديدةُ وطناً جديداً لهم، ولا يجدون في الدنيا كلها مكاناً أطيبَ من باديتهم أو صحرائهم، على ما بها من الشُّحِّ والفقر والشِّدَّة، ينقطعون عن القُرى والمدن، إلا للامْتِيَارِ[٣]، حين تشتدُّ حاجتُهم إليه[٤]. مسَاكِنُهم الخِيَامُ والمضَارب، يُقَوِّضُونَها متى شاؤوا التحوُّلَ إلى مواضِعَ جديدةٍ، طلباً للماء والكلأ، أو في أيام النّجعَة.

وقد يُعَدُّ بعض الأعراب من أهل البادية، إذا جاوَرُوا البادِينَ، وظَعَنُوا

---

(١) العرب قبل الإسلام: ٢٧٣، ٢٧٩، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ٥٠، والمفصَّل: ٢/ ٦٤٦، و ٣/ ٢٠٦.

(٢) لسان العرب: ١٥/ ٣٤٧ (نوى).

(٣) الامتيار: جمع الطعام والمونة، والميرةُ: الطعام.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٢٧٨، ٢٨٨.

بظَعْنِهم[١]، في زمن النجعة[٢]. . . ولكن الأعرابَ عموماً أهلُ ارتحالٍ وهجرة، لا يثبتُون في مكانٍ واحد، وهم أبعدُ في القِفَارِ مجالاً من أهل البادية. وكان أهلُ الباديةِ أَخفَّ على نُفوسِ الحَضَرِ من الأعراب، لمَا في هؤلاءِ من الجفَاءِ والغِلْظَةِ والخُشونةِ، وكانوا يقولون: إن مَن بَدا جَفَا، أي مَن نزلَ الباديةَ مع الأعرابِ صار فيه جَفاؤُهم[٣].

وكان الأعرابُ من جانبٍ آخَر، على ما بهم من الفَقْرِ والشحِّ وقسْوةِ الحياة، يُحِبُّون الباديةَ، ويَحنُّونَ إلى مَرابِعها، ويؤمنون بأن العَيْشَ إنما هو أن يمشي أحَدُهم في حمراءِ القَيْظِ، حتى يَرْفَضَّ عَرَقاً، فينصبُ عصاهُ، ويُلقي عليها كِسَاءَهُ، ويجلسُ في ظِلِّه. . . وكانت أنماطُ حياتهم، على تعدُّد قبائلهم، وتباعُدِ مَوَاطِنها، واحدةً، لأن الظروف الطبيعية التي سيطرت على مجتمعهم كانت واحدةً، فكادت آثارُها فيهم تكون متشابهةً، إلا ما كان من أمْرِ مَنْ جاوَرُوا منهم أهلَ الضواحي، وتأثَّروا بهم[٤]. . .

* * *

وإذا نظرنا فيما قلناه عن العرب والأعراب، وجدنا أن أهل البَدْوِ من العرب كان مَثَلُهم كمثَلِ أهل القُرى والمدن في لُزومِهم مَواطِنَهم، وحُضُورهم على ينابيع المياه وآبارِها، لا يبرحونها إلا في مواسم الربيع، ولكن أهل البدو أَحَبُّوا نقاءَ الهواء، وصفاءَ الطبيعة، فسكنوا ما بدا من القرى، والضواحي المتصلة بها. ووجدنا أيضاً أن البداوة تجمعُ أهلَ البادية من العرب، إلى

---

(١) الظعنُ: السيرُ في البادية للنجعة، أو حضور الماء، أو طلب المرابع، أو للتحوُّل من بلد إلى بلد.

(٢) لسان العرب: ١/٥٨٦ (عرب).

(٣) لسان العرب: ١٤/٦٧ (بدا).

(٤) المفصَّل: ٤/٢٩٤، ٣٠١ ـ ٣٠٢.

الأعراب، وإن كان هؤلاء أبعدَ في القِفَارِ مكاناً. ولكنْ، إذا كان كلُّ أعرابيّ بادِياً، بمعنى الإقامة في البادية، فليس كلُّ بادٍ أعرابيّاً، بمعنى الجفَاءِ، والانتواء، والرحلة من غير قرار. . .

* * *

المطلب الثالث ـ تَنوُّعُ مجتمعات الجاهلية وتَعدُّدها:

لعلَّ خير دليل يؤكِّدُ تَنوُّعَ مجتمعات العرب في الجاهلية، وتعدُّدَها، خبرٌ نَقَلَهُ ابنُ سعد، مَرْوِيّاً عن السيدة عائشة أم المؤمنين قالت فيه: «لمَّا قَدِمْنا المدينةَ، نهانا رسولُ الله أن نَقْبَلَ هَدِيَّةً من أعرابيّ[1]، فجاءت أمُّ سُنْبُلَةَ الأَسْلميَّةُ[2]، بلَبنٍ، فدخلتْ به علينا، فأَبَـيْنا أن نَقْبلَهُ، فنحن على ذلك، جاء رسولُ الله معه أبو بكر، فقال: ما هذا؟ فقلتُ: يا رسولَ الله، هذه أمُّ سُنْبُلة أَهْدَتْ إلينا لَبَناً، وكنتَ نَهيْتَنا أن نَقْبلَ من أَحَدٍ من الأعراب شيئاً! فقال: خُذُوهُ، فإن بني أَسْلَم ليسوا بأعراب، هم أهلُ بادِيَـتِنا، ونحن أهلُ قارِيَـتِهم، إذا دَعَوْناهم أجابُوا، وإن اسْتَنصَرْناهُم نَصَرُونا. . .»[3].

ومن السَّهْل أن نُميِّزَ في هذا الخبر ثلاثةَ مجتمعاتٍ كانت للعرب، كالتي تحدَّثنا عنها في الفقرة الأولى: أهل القارِيَة، وأهل البادية، والأعراب، ولا أعتقد أن هنالك بياناً، أصدقَ دلالةً من بيان رسول الله، أو أَوْثَقَ حُجَّةً من قوله عليه السلام، ولا سيما أن هذا المذهبَ في تقسيم مجتمعات العرب يتَّفِقُ وما صارت إليه دلالةُ إسْم العرب في الجاهلية القريبة.

---

(١) ربما كان ذلك لما عُرِفَ عن الأعراب من الطمع والمَنّ والغِلْظة.

(٢) لعلها من بني أَسْلَم بن أَفْصَى، وهم بطنٌ من خُزَاعة، كانت لهم قريةٌ وَبْرَة في أعراض المدينة، وكان بها زرعٌ ونخيل.

(٣) الطبقات الكبرى: ٨/ ٢٩٤.

١ ـ فأهلُ القارِيَة:

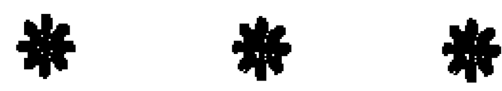
سكانُ المدُن والقُرَى، والقارِيَةُ هي الحاضِرةُ الجامِعَةُ، وكلُّ مكانٍ اتصلتْ فيه الأبنيةُ المَدَرِيَّةُ، واتُّخِذَ موطناً ومُسْتقَرّاً[1].

٢ ـ وأهلُ البادية:

سُكَّانُ الضَّواحي والأرْياف، والضاحِيَةُ أولُ ما يبدو لمن يُغادِرُ القريةَ أو المدينةَ، ومن ذلك سُمِّيت باديةً، فهي ظاهِرُ القرية، والناحيةُ البارزةُ منها، ويقال للبرِّيَّةِ أيضاً: باديةٌ، لأنها ظاهرةٌ بارزة، والباديةُ خلافُ الحاضِرة، وإذا خرج الناسُ من الحَضَر إلى المراعي في البادية، قيل: قد بَدَوْا[2]...

٣ ـ والأعـــراب:

سكانُ البوادي والقِفَار، قبائلُ رُحَّلٌ، ليس لهم منزلٌ دائم يُعرفون به، أو يُعرفُ بهم، إلا مَن كان يُجاوِرُ منهم أحياناً أهلَ البادية، ويعيشُ في كَنَفِهم...



ولم يعرفِ العربُ في الجاهلية قبائلَ مُستقِرَّةً في الحواضر، وأُخرى في البوادي وحَسْبُ، بل عرفوا أيضاً القبيلةَ الواحدةَ، التي كانت طائفةٌ منها تعيش حياةَ الحضارة، وطائفةٌ تعيشُ حياةَ البداوة... وقد كانت قريشٌ، مَثَلاً، طائفتين: الأباطِحُ، وهم حاضِرةٌ يسكنون بطحاءَ مكة، والظَّواهِرُ،

(١) لسان العرب: ١٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨ (قرا).

(٢) لسان العرب: ١٤/ ٦٧ (بدا).

وهم باديةٌ يسكنون ضواحي مكةَ وظواهِرَها[1]. وفي أخبار مدينة الطائف، أنها صارت في زمنٍ ما، بين بني ثقيف بن مُنَبِّه، وبني عامر بن صَعْصَعَة، وهما حَيَّانِ عظيمان من أحياء قبيلة هَوازِنَ الكبرى، فلمَّا كثُر الحيَّانِ، وانتشَرتْ بُطونُهما، قال بنو ثقيف لبني عامر: إنكم اخترتُم العُمُدَ[2] على المُدُنِ، والوَبَرَ[3] على المَدَرِ والشَّجَرِ، فلستُم تعرفون ما نعرف، ولا تُلْطِفُونَ ما نُلطِفُ، ونحن ندعوكم إلى حظٍّ كبير: لكم ما في أيديكم من الماشِيَةِ والإبِل، أمَّا الذي في أيدينا من هذه الحدائق، فلكم نصفُ ثَمرِهِ، فتكونوا «بادين حاضِرين»، يأتيكم ريفُ[4] القُرى، ولا تتكلَّفُون مَؤُونةً، وتُقيمون في أموالكم وماشِيَتِكم في باديتكم، ولا تَتَعرَّضُون للوباء، فتَشْتَغِلُونَ عن المرعَى[5]. . . ويتبيَّنُ لنا من هذا النصّ، أن أبناء القبيلة الواحدة كانا فريقين مُسْتقِرَّيْن، يعيش أحدُهما في مجتمع أهل الحاضرة بالمدينة، ويعيش الآخَرُ في مجتمع أهل البادية بالضواحي القريبة من المدينة، يحترفُ أوَّلُهما الزراعة في الحدائق والبساتين وبعض الصناعات، ويشتغلُ الثاني بتربية الماشية والأنعام. . . وهنالك نصٌّ آخَرُ لا يقلُّ دلالةً عن هذا، جاء في كلام ياقوت على «السَّوارِقيَّة»، نقلاً عن عَرَّام السُّلَمي[6]، ذكر فيه أنها كانت قريةً نَجْديّةً غنَّاءَ كبيرةً لبني سُلَيْم، لهم فيها «مَزَارعُ نخيلٍ كثيرةٌ، وفواكهُ من مَوْزٍ وتينٍ

---

(١) المحبَّر: ١٦٧ ـ ١٦٨، ولسان العرب: ١٤/ ٤٧٧ ـ ٤٨١ (ضحا)، والمعارف: ٦٨.

(٢) العُمُدُ: مُفْرَدُها عِمادٌ وعَمُودٌ، ويقال لأصحاب الأَخْبية الذين لا يسكنون غيرها أهلُ العُمُد.

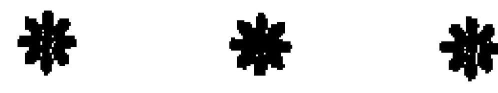
(٣) الوَبَرَ: صوف الإبل، وتُصنع منه الأَخْبِية.

(٤) الريف: الخِصْبُ والسعة في المآكل، وكلُّ أرضٍ فيها مياهٌ وزرعٌ ونخيلٌ وخصبٌ.

(٥) معجم البلدان: ٤/ ١١.

(٦) عرَّامُ بنُ الأَصْبغ السُّلَميُّ: من بني سُلَيْم بن منصور، من قبائل قيس بن عيلان. كان ثقةً في معرفة جبال تهامة وقراها وأهلها ومياهها ونباتها، وله كتابٌ في هذا الموضوع، معروفٌ ومطبوع. توفي سنة (٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م).

وعِنَبٍ ورُمانٍ وسَفَرْجل وخوخ. . . ولهم إبِلٌ وخَيْلٌ وشاءٌ، وكُبَراؤهم باديةٌ، إلا مَن وُلِدَ بها، فإنهم ثابتون فيها، والآخَرون بادُونَ حولَها، وكانوا يَمِيرُونَ الحاجَّ في طريق الحجاز ونَجْد»[1]! . والمعروف أن بني سُلَيم قبيلةٌ كبرى من القبائل العدنانية، كانت منازلُها في عالِيَةِ نجدٍ، بالقُرب من خَيْبر[2]. . . ويتَّضِحُ من النصّ أن بعضَها كان حَضَراً، والبعضَ كانوا بادِينَ حولَها، وأنهم كانوا يشتغلون بالزراعة والرَّعْيِ والتجارةِ في آن معاً. ومثلُهم كانت قبيلةُ خَثْعَم، بعضُها حاضِرٌ في قرية «بِيشَة»، والبعضُ بادٍ حولها، وهو ما يُفهم من كتاب الرسول إلى بني خثعم[3]. . . وبِيشَةُ، كما ذكر ياقوت، قريةٌ غنَّاء، في وادٍ كثير الأهل والشجر[4]. وفي أشعار الجاهلية إشاراتٌ كثيرةٌ إلى أن فريقاً كبيراً من قبائل العرب كان يعيش حالتَيْ الحضارة والبداوة في وقت واحد[5].



رُبَّ مُنكِرٍ، يُنكِرُ علينا اتخاذَ هذا المِعْيارِ في التفريق بين مجتمعات الجاهلية، ويَحتجُّ بأن معظم ما قلناه في البحث الأخير، يَنْدرجُ في باب الشرح اللغوي لألفاظ الحضارة والبداوة والأعراب، وأنه كما قال د. صبحي الصالح «أَدْخَلُ في المدنيَّةِ منه في الحضارة بمفهومها الشامل»[6]. . . وهو مأخَذٌ صحيح في بعض جوانبه لو كنا أغفلنا الكلامَ في هذا الأمر جُملةً،

---

(١) معجم البلدان: ٣/ ٢٧٦.

(٢) معجم قبائل العرب: ٥٤٣، والأعلام: ٣/ ١٢٠.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٨٦.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٥٢٩.

(٥) الأغاني: ١٠/ ٦٢ (عمرو بن شأس الأسدي)، و ٢/ ٨٧ (عدي بن زيد العِبَادي)، و ١١/ ٢٦٣ (الأعشى التغلبي)، والمفضليات: ١٦٦، ومعجم البلدان: ٢/ ١٤٨.

(٦) الإسلام ومستقبل الحضارة: ١٧.

ولكننا بحثنا فيه، وتوصَّلنا إلى أنّ مَن نَفَوا الحضارةَ عن العرب جميعاً، كانوا يتحدَّثون عن الأعراب في الصحاري والقِفَار، ولم يتحدَّثوا عن العرب في حَوَاضرهم وأريافهم، وما بلغوه من التَفَنُّنِ في التَّرفِ، وإحْكامِ معظم الصنائع المستعملَةِ في وجُوهه. . . على أن الشرح اللغويَّ أساسٌ لم يكن منه بُدٌّ، فاللغةُ سجلٌّ صادقٌ وأمينٌ لِتُراثِ الأُمَّةِ، رجعنا إليه، فاستَوْفَيْنا به الحُجَّةَ على كلِّ من زعم أن عربَ الجاهلية كانوا مجتمعاً واحداً من الأعراب الجُفَاةِ المتوحِّشين، وأثبتنا بالبراهين الناصعة، أنهم كانوا، في معَايير الحضارةِ واللغةِ والاجتماع، مُوَزَّعين بين مجتمعاتٍ ثلاثةٍ على الأقلّ، لا تَصِحُّ معها التسْوِيةُ بين تاجر مُتْرَفٍ من أهل الحواضر، وهي كثيرة كما رأينا، وأعرابيٍّ فقيرٍ جِلْفٍ من أهل الصحراء، ولا يستقيم كذلك أن تُوزَنَ أيامُ العرب ومآثرهم بميزان اللصوصية والغارات. . . وإذا كان من الطبيعي أن تكون هذه المجتمعاتُ مختلفةَ الحظوظ من الارتقاءِ والتقدُّم، لكنه من غير الجائزِ أن يُنظَرَ إليها نَظَراً واحداً، وتُرْمَىٰ بالبدائية والجهالة والتخلُّف، من غير أن تُراعَىٰ الفروقُ الطبيعيةُ بينها، «فإن صحَّ أن بعض الأعراب في صحراوات الجزيرة، كانوا في مَعْزِلٍ عن العالم المتقدِّم آنذاك، فالصحيح كذلك، أن البيئات الاجتماعية الأخرى، كانت مُتَّصِلةً بالمدنية، مُوَاكبةً لركب الحضارة. . .»[1]، مُستعدَّةً بما ورثَتْهُ من الحضاراتِ القديمة، وبما اكتسبتْهُ من اتصالها بالمدنيَّات المجاورة لأنْ تَتَوفَّرَ بكفايةٍ على إقامةِ المواسم التجاريَّة والدينيَّة الكبرى، ورعايتها، وإحسانِ التصرُّف في وُجوهِ إدارتها، وهو ما يَشْهدُ لها بالتقدُّم والارْتِقاءِ.

* * *

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي: ١٠، ١٦.

المطلب الرابع ـ العربُ في مَعَايير الحضارة والتمدُّن:

يجبُ أن نذكر ابتداءً، أن فريقاً من العلماء عَمَدُوا إلى التفريق بين الحضارة والمدنيَّة، وذهبوا إلى أن الحضارة تتمثَّلُ غالباً في الفِكْر، والآداب، والفُنون، والأخلاق، والدِيَانات... بينما تقومُ المدنيَّةُ على ظواهِرَ أُخرى اصطِناعيَّة، لا بُدَّ أن تأفُلَ في أَجَلِها المحتوم، ولو بعد مراحِلَ طِوَالٍ من النَمَاءِ والإزدهار. وقالوا إن هذه المدنيَّةَ تتمثَّلُ غالباً في الترفِ والعُمران، والتقدُّم الاقتصادي، والسياسة، والعلوم التطبيقيَّة، والصِنَاعات المختلفة... وهنالك من يختصِرُ ذلك كلَّه بالقول: إن الحضارة هي ما نحن، والمدنية هي ما نستعمل[1]...

أما ابنُ خلدون فرأى أن الحضارة «تَفَنُّنٌ في التَرَفِ، وإحكامُ الصنائع المُسْتعملةِ في وجوهه ومذاهبه، مثل المطابخ، والملابس، والمباني، والفُرُشِ، وسائر عوائد المنزل وأحواله»[2]، كما رأى في موضع آخر أن أمور الحضارةِ من توابع التَرفِ، والترف من توابع الثروة[3]... وعلى ذلك فمذهبه، كما هو واضحٌ، أدْخَلُ في المدنيَّة منه في الحضارة.

ولم يكن العربُ، بالمِعْيارِ الذي عَرَضْناهُ أولاً، ولا بالمِعْيارِ الذي اعتمدهُ ابنُ خُلدون، بعيدين عن كثير من ألوان الحضارة ووجُوهِ المدنيَّة... ومن تحقَّق تاريخَ العرب وآثارَهم وبُنْيانَهم وأشعارَهم وأمثالَهم ودياناتهم ومآثِرَهم، بعيداً عن التعصُّب والهوى، وَجَدَ الدليل على ذلك، ولا سيما إذا

---

(١) الإسلام ومستقبل الحضارة: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ١٧٢.

(٣) المرجع نفسه: ١٧٤.

لاحظ أن تجّار العرب كانوا أعظمَ تجّار العالم نشاطاً، وأكثَرهم ثراءً وتَرَفاً، وأن مراكزَ التجارة الكبرى، وأَشْهَرَ مواسمها، كانت في قُراهم ومُدُنهم ومَوانِئِهم وأرْيافِهم!

غير أن ابن خلدون أُنْسِيَ مِعْيارَهُ في الحضارة عندما تحدَّث عن العرب، وكأنه كان يتحدَّثُ عن أعراب خَرجُوا تَوّاً من فَيافِيهم، فقال: إن العرب لمّا كان الفتحُ، ومَلَكُوا فارسَ والرومَ، لم يكونوا لذلك العهد في شيءٍ من الحضارة، فقد حُكيَ أنه قُدِّمَ لهم المُرَقَّقُ فكانوا يحسَبُونَه رِقَاعاً، وعَثُروا على الكافور في خزائن كسرى، فاستعملوهُ في عجينهم ملحاً[1] . . .

والرِقَاعُ: جمعُ الرُقْعَةِ، وهي قطعةُ الورق التي تُكتَب. . . والعجيبُ في أمرِ ابن خلدونَ، ومَن ذهب مذهبه من المؤرِّخين، أنهم لمَّا أرادوا وَصْمَ العرب بالجهل، نَفَوْا عنهم المعرفةَ بالرِّقَاع وسائر أدوات الكتابة، ولمَّا أرادوا وَصْمَهم بالتخلُّفِ في حضارة المطابخ والأطعمة، أَثْبَتُوا لهم معرفتَهم بالرِقاع المكتوبة، وجَهْلَهم بالخبز المُرَقَّق! والأكثَرُ غرابةً في هذا الأمر، أنهم حكموا على العرب جميعاً بذلك، سَنَدَاً إلى خبرٍ عن واقعة لعلَّها في الأصل لم تقع، وهو كحكايةِ الكافُور التي وردتْ في بعض موارد التاريخ[2] . . . وقد ذُكرتْ مَرْوِيَّةٌ عن رجُلٍ مجهول، قيل إن اسمَهُ: حبيبُ بنُ صُهْبَانَ، كان جُنديّاً، وليس من الرواة، ولا من أهل الأخبار، شَهِدَ فتْح المدائن في جيش سعد بن أبي وَقَّاص، وكان الجيشُ من نحوِ أربعينَ ألفِ مُقَاتل، يَنْتَمُونَ إلى مختلف قبائل العرب، ومعهم نساؤُهم وأبناؤُهم وعَبيدُهم وإماؤُهم، فليس كثيراً أن يُوجَدَ بينهم رجُلٌ، أو عشرةُ رجالٍ، أو مئةٌ، أو أكثر، يلتَبِسُ عليهم التمييزُ

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٧٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/١٧، ١٨، والكامل في التاريخ: ٢/٥١٥. .

بين الكافور والملح، وهما مُتشَابِهان في المَظْهرِ والملْمَسِ! ولا يجوز بحالٍ أن يَتَّخِذَ منها مورِّخٌ كابن خلدون حجَّةً للحُكم بجهل العرب جميعاً، وبابتعادهم عن ألوان الحضارة ووجوهها. ثم يأتي مِن بَعده مَن يَعُدُّ كلامه مُوَثَّقاً، فيأخذ عنه، ويزيد عليه في ذَمّ العرب، مثلما فَعَل مثَلاً «فيليب حتي ورفيقاه»، فقد وصفوا الحكايةَ بأنها طُرْفةٌ مُسْتَملَحةٌ، ثم ما لبثوا حتى جعلوا منها دليلاً، سَجَّلُوا به للفُرس ثقافةً وحضارةً، وللعرب سَذاجَةً وجهلاً[1]... وكذلك فَعَلَ كثيرٌ من الباحثين!

وإذا نظرنا في هذه المسألة نَظَرَ المُتَثبِّتِ المُنْصِفِ، وجدنا أنَّ الكافُورَ كان من العُروض التي يتَّجِرُ العربُ بها، وينقلونها مع البَخُور والمُرِّ واللُّبَانِ والوَرْسِ والصَّمْغِ وغيرها من أنواع الطيب إلى الأُمم الأُخرى[2]... فكيف يستوي في العقل السليم أن يُتَاجِروا بمادَّةٍ لا يعرفون عنها شيئاً؟ فضلاً عن أن كلمةَ «كافُور» عربيّةٌ، معناها: وِعاءُ الطَّلْع، اشتُقَّتْ من الكَفْر أي التغْطِيَة، لأن الوعاءَ كَفَرَ الطلْعَ أي غَطَّاهُ، كالكافِر يُغطّي ما في قلبه من النفاق، بما يُظهر على لسانه من الإيمان. وفي القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾[3]... والكافورُ في مختلف الأقوال أخلاطٌ من الطِيب، تُجمَعُ وتُرَكَّبُ من أَوْعيَةِ الطلْع في نباتٍ طيِّبِ الريح[4]... وهو من العُروض الثمينة التي كان الملوكُ والزعماءُ والأثْرِياءُ يحرصون على حيازتها.

هذا، وليس في معجم اللغة الفارسية كلمة «الكافُور» مُجرَّدةً كما في العربية، وإنما هي تُؤدِّي معنى اسم الفاعل إذا أُضيفتْ إليها لاحقةُ «بار»، أي

---

(١) تاريخ العرب: ٢١٤.

(٢) تاريخ الشرق الأدنى: ٢٥٠.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٥.

(٤) لسان العرب: ١٤٩/٥ (كفر).

كافور بار، فتصير كنايةً عن كل شيءٍ كثير البرودة والعَبير، وإذا أُضيفت إليها كلمةُ «جودانه» صارت تعني نوعاً من الكافور الجيد[1]. . . فيُقال: كافور جُودانَه أي كافورٌ جيِّدٌ، ويبدو الأصلُ العربيُّ، للكلمتَيْن في الفارسيَّة، واضحاً لا لَبْسَ فيه، فكيف يتَّفِقُ أن يكون الإسمُ عربيّاً، والمُسَمَّىٰ مجهولاً من العرب، ومعلوماً من الفُرس؟

ثم إن القاعدة عند العرب في الفُتوح، أن الغنائمَ تُجمع كلُّها من غير استثناءٍ عند «والي القَبْضِ»، فيُدَوِّنَها ويحفظَها، وهو ما يُعرف اليومَ بأمين المخازن أو المستودعات. ثم يقومُ «والي القَسْم» بإحْصَائها بعد انتهاءِ الحرب، فيُخْرج الخُمْسَ منها، ويُرسله إلى بيت المال، ويَقْسِمُ الأخماسَ الأربعةَ بين المُقاتلين بالعَدْلِ[2]، ويُؤدِّي إلى كل صاحب حقٍّ فيها حِصَّتَهُ منها. . . ولن تَعْتَدِلَ القِسْمةُ إذا كان ما يُقْسَمُ في أصحابِ الحقوق مجهولَ القيمة، أو غير معروفٍ له وجهٌ من وُجوه الاستعمال، وهذا لا يستقيم إذا وُلّيَ القيادةَ أو القَبْضَ أو القِسْمةَ جاهِلٌ، ومن غير المعقول أن يتَّفق الجهلُ لهم جميعاً، ولا سيما أن الكافُورَ أخلاطٌ من الطيبِ لها رائحةٌ نافِذَةٌ قويَّةٌ، ويزيدُها شِدَّةً توافُرُها بكثْرةٍ في خزائن كسرى، وأن الملح ليست له رائحةٌ معروفةٌ، لا قويَّةٌ ولا نافذة، فكيف انْسَدَّتْ أُنوفُ أربعينَ ألفاً من جُنْدِ العرب، ووراءَهم عشراتُ الألوف من الأتْباع، فلم يُميِّزُوا الكافورَ من الملح، ولم يَشمُّوا ريحَهُ؟ وكيف فَسَدَتْ أذواقُهم فلم يُدركوا طعْمَ الكافورِ مع مرارتهِ، وحَسِبُوه ملحاً؟

ثم إن عُثُورَ العربِ على الكافور في خزائن كسرى، دون غيرها من الخزائن الكثيرة التي غلبوا عليها في المدائن، دليلٌ على أنه من العُروضِ

---

(١) المعجم الذهبي، عربي ـ فارسي، تأليف د. محمد التونجي: ٩٥، ٥١٨، (دمشق ١٩٩٣ م).
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٠، ٢١.

الثمينةِ النادرة، التي يُتاح للملوك وسَراةِ الناس حيازتُها، وليس دليلاً على توافُرِه عند عامَّة الفُرس، أو حتى على معرفتهم به! وعلى ذلك فالموازنةُ التي أقامها ابنُ خلدون وغيرُه من المؤرِّخين ليست مُتوازنةً، لأنها كانت بين ملكٍ وسُوقَةٍ، ولم تكن بين أُمَّتَيْن، ولا بين مَلِكَيْن.

هذا على فرض أن عامَّةَ العرب كانت تجهلُ الكافورَ ورائحتَه، ولكننا نستطيع أن نؤكد معرفةَ العربِ بالكافور، من طُرقٍ ثلاثةٍ: **أوّلُها**: وُرودُ الكلمةِ في القرآنِ الكريم، وفي جُذورِ اللغة العربية، فلا يُعقَلُ أن يكونَ الإسمُ معروفاً، والمُسَمَّىٰ مجهولاً. **وثانيها**: إطْباقُ مَراجعِ التاريخ على أنه كان من مَتَاجِرهم مع الأُمم الأخرى. **وثالثها**: حِرصُ مُعظم العربِ على حِيَازَةِ الطِّيبِ بأنواعه، حتى لقد كان من عادتهم في الجاهليَّة، استعمالُ الكافُورِ في غَسْلِ الميتِ، تَطْييباً لِريحِهِ، وإلى ذلك أشار راجِزُهم بقوله في مَيّتٍ:

وحَظُّــهُ ممَّــا حَــوَىٰ ومــا خَــزَنْ مسْحَةُ كافُورٍ وغسْلٌ وكفَنْ[1]...

وفي أخبار الجاهلية أن «مَنْشِم» إسمُ امرأةٍ عطَّارةٍ، كانت تبيع الكافور والطِيبَ بمكة، وقد اشتُهِرت بذلك حتى ضُرِبَ بها المثلُ[2]! ونعتقد أننا بهذه الأدلَّة، وبما قَدَّمناهُ قبلها، قد أسْقَطنا حُجَّةً أُسْنِدتْ إلى حادث فرديّ، ما هَمَّنا أن نَنْفِيَ وقوعَه، فربما وقع فعلاً لِفَرْدٍ أو بضعة أفراد، وإنما أَثبتْنا أن وقوعه، على ذلك النحو، لا يُعطي أحداً الحقَّ في اتّخاذِهِ معياراً للحكم بسَذاجة العرب، أو جهلهم بأسباب الحضارة.

* * *

---

(١) المحبَّر: ٣٢٢.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٧ (نشم)، وشرح القصائد السبع: ٢٦١.

أما القـولُ بأن العرب لم يُحكِمُـوا الصنائعَ المستعملَةَ في وُجُوه الترف، فذلك لا يرجعُ إلى كونهم «أعْرقَ في البدو وأبْعَدَ عن العُمرانِ الحضَريّ»(١)، كما ذهب ابنُ خلدون، ولا إلى نقصٍ في قُدْرتهم عليها، وإنمـا بسببٍ مـن تقـاليـدهـم الاجتمـاعيـة، يَعُـدُّ بعـضَ الصنـائـع ممَّـا يليـق بالأشراف، فاحْتَرفُوه، ولم يأنَفُوا من احْتِرافِهِ، وبعضَها الآخَر «ممّا يقومُ به العبيدُ دُون السادةِ من الرجال، والإمَاءُ دُون الحَرائرِ من النساء...»(٢)، فالمهنةُ للخَدَم، وامْتَهَنَ الشيءَ احتقرهُ، وامْتُهِنَ الرجلُ: استُعمل للخدمة، والماهِنُ هو الخادم أو العبدُ... وكانت حَرائِرُ النساءِ يُنَزِّهْنَ أَنفُسَهنَّ عن الخدمة، فالمرأةُ العربيةُ أَعَزُّ مكانةً من أن تقومَ بما يقومُ به العبيدُ والخَدَمُ، فكان أولَ ما يفعلهُ العربيُّ كلما اجتمع له بعضُ المال، أن يشتريَ عبداً أو أَمَةً، لخدمة بيته، والقيامِ بالأعمال التي يراها لا تليقُ به أو بأهل بيته... والمراجعُ التاريخية والأدبية مملوءَةٌ بالإشارات إلى هذا الشأن، وهو ما يُفسِّرُ لنا وجودَ جَوَالٍ كبيرةٍ من الأعاجم في بعض حواضر خليج العرب، اسْتُقْدِموا للعمل في الحِرَفِ والصنائع التي يأنفُ العربُ من مزاولتها، ثم ظلُّوا هنالك وتكاثَروا، حتى ظنَّ من يجهلون حقائق التاريخ، أنهم أصحابُ البلاد وحُكَّامُها، وهو قطعاً من الأخطاء الشائعة، أشاعها الرواةُ الأعاجم في غياب المصادر العربية أثناء عملية التدوين.

ولقد كان ازدراءُ العرب للحِرَفِ أو المِهَنِ من أنواع مُعيَّنةٍ، من ضمن عقيدةٍ اجتماعية كانوا يروْنَ فيها أن بعض الحِرَف إنما يجبُ أن تُؤدِّيَهُ الطبقاتُ الدنيا من الناس، ولا سيما العبيد والإمَاء والسِّفْلَة، ولا يَجْمُلُ بالأحرار من

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٤٠٤.

(٢) د. ناصر الدين الأسد ـ القِيَان والغناء في العصر الجاهلي: ٢٣.

الرجال والحرائر من النساء أن يقوموا به أو بمثله[1]. . . «وكذلك كانت نظرة قُدماءِ اليونان إلى الحِرَفِ، فهي عندهم من الأعمال التي يقوم بها سوادُ الناس والرقيق»[2]. . . لذلك كان العربُ يجلبون الرقيق من البلاد المجاورة والبعيدة، وكانوا يُفضِّلون المستورَدَ من بلاد فارس والروم، لمَا يمتازُ به من صفاتٍ وخصائصَ، لا تتوافر عادةً للرقيق المجلوب من إفريقية[3].

فالأمرُ إذن كان أمرَ عقيدةٍ في عدم إحْكام الصنائع عند العرب، لا أمرَ عجزٍ عن ذلك الإحْكام، وليس لأنهم أعرقُ في البدو، وأبعدُ عن العمران الحضَريّ، وإنما لأنهم كانوا يرون الرقيَّ سُمُوّاً في مكارم الأخلاق، ونُبْلاً في فعال المرءِ. وكان أحَدُهم يجدُ في إشْعَالِ نارٍ تَهْدي ضَالاً في البادية، وتَقُودُه إلى الأمن إن كان خائفاً، أو إلى الطعام إن كان جائعاً، مُنتهىٰ الحضارة والارتقاء. ولعلَّهم كانوا، ولا سيما في نجد والحجاز وتهامة وما اتصل بها، يرون في بناء القصور حضارةً ليست من شأنهم في شيء، فالقصورُ لا بُدَّ لها من بُناةٍ، ونفوسُهم حيثما كانت طبقتُهم الاجتماعية، تأبىٰ لهم غالباً أن يَحْتَرِفوا هذه المهنةَ الدُّنْيا، وهو ما يُوضِحُ سِرَّ ما ذُكر من اسْتِقْدامهمُ الأعاجمَ أحياناً إذا أرادوا إقامةَ بُنْيَانٍ، أو نَحْوِهِ. . .

على أن كراهةَ الصناعاتِ، والحِرَفِ، والزراعة، لم تكن في جميع العرب، فكثير من حاضِرتهم، الذين توافرتْ لهم المياهُ الجارِيَةُ من الينابيع، والأرضُ الخصبةُ، غَرسُوا الأشجارَ، وانكبُّوا على الزراعة، والذين توافَرتْ لهم الأدواتُ والعناصِرُ المطلوبةُ، اشتغلوا بالحِرَف والصناعات المختلفة، كأهل اليمن، وعُمَان، وظفَار، والطائف، واليمامة، وقُرَى الخليج، ويثرب،

---

(١) د. حسين عطوان ـ مقدمة القصيدة العربية: ٤١ ـ ٤٢.

(٢) المفصَّل: ٧/ ٥٤٤.

(٣) المرجع نفسه: ٦/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩.

وبعض أهل مكة، ولم يجدوا في ذلك حَرَجاً[1]... ويتبيَّنُ من أخبار الجاهليَّة، أن العربَ، حاضِرينَ وبادِينَ، احترفوا التجارةَ عامَّةً، بمختلف جوانِبِها وأنواعها، ولم يأنَفُوا جميعاً من احْتِرافِ الصناعات، وإنما احترفوا منها ما وجدوه في تقاليدهم يليقُ بالأشراف[2]. وقد عرفوا الأسواق التجاريَّةَ الدائمةَ والموسميَّةَ على السواء، وكانوا يُميِّزُون بين تاجرٍ مُقيمٍ وآخَرَ مُتَنَقِّلٍ، وبين مُسْتَوْرِدٍ للبضائع وناقلٍ لها على إبله، فكانوا يُسَمُّون التاجِرَ يكونُ في سوقٍ لا يَبْرَحُها: الضَّيْطارَ، والتاجِرَ يطوفُ في القُرَىٰ والنواحي يبيعُ السِّلَعَ: العِنْقَاشَ، ويُسَمُّون التاجِرَ يجلبُ المِيرةَ والمتاعَ من مَعْدِنِها، أي يحملُها من مَواطِنِها إلى القُرى والأمصار: الضَّفَّاطَ، وكانوا يقولون للأنباط، يحملون دقيق القمح الأبيض، والزيتَ وغيرهما: الضَّافِطَة[3]. وقد ذكر ابنُ سعد أن النبيَّ عليه السلامُ، غزا دُومةَ الجندل، بعدما بلغَهُ أن بها جَمْعاً يظلمون مَن مَرَّ بهم من الضَّافِطَة[4]، أي التجار الذين يحملون الأَمْتِعَةَ والميرةَ إلى القُرى والمواضع الأخرى. وذكر الواقديُّ أن الضَّافِطَةَ كانت تنزلُ المدينةَ في الجاهلية والإسلام، يَقْدَمُون بالبُرِّ والشعير والزيْت والتِّين والقماش، وما يكون في الشام[5]... وكانوا يُسَمُّون أيضاً التجَّارَ يتَّجِرون بغير أموالهم: الصَّعَافِقَ، أو الصَّعَافِقَةَ[6]، ويُسَمُّون مَنْ يُكرِي التُّجَّارَ دَوَابَّهُ لنقل البضائع من

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) المعارف: ٥٧٥.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٤٨٩ (ضطر)، و ٧/ ٣٤٤ (ضفط)، وتاج العروس: ١٢/ ٣٩٦ (ضطر)، و ١٧/ ٢٨١ (عنقش)، و ١٩/ ٤٥٤ (ضفط)، والإفصاح في فقه اللغة: ٦٧٣.

(٤) الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٢.

(٥) الواقديُّ ـ فتوح الشام: ١/ ٨.

(٦) لسان العرب: ١٠/ ١٩٩ (صعفق)، والإفصاح في فقه اللغة: ٦٧٣.

قريةٍ إلى أخرى: المُكارِي. وهنالك إشاراتٌ كثيرةٌ، في أخبار الجاهلية، إلى أن بعض أهل مكة احْتَرفُوا، على شَرَفهم ورفعةِ قَدْرِهم، صناعاتٍ مختلفةً، لم يأنَفُوا من احْتِرافها، فكان فيهم نَخَّاسٌ، وخيَّاطٌ، وحدَّادٌ، وجَزَّارٌ، وبَيْطارٌ، ونَجَّارٌ، وزيَّاتٌ، وعَطَّارٌ، وخَمَّارٌ[1]... وكان اسمُ التاجر في الأصل خاصّاً بالخمَّار[2]، ثم اتَّسَعَتْ دلالتُه لتشملَ كلَّ عاملٍ في البيع والشراء طلباً للربح[3]. وكان من أشراف الأَزْدِ جادِرٌ، مُوكَلٌ بإصْلاحِ جُدُرِ الكعبة وبنائها إذا وَهَتْ، وكان فيهم مَنْ يُحلِّي السيوفَ بالذهب والفِضَّة[4]. وكانوا يقولون لبنيَ أسد بن خُزَيْمة: القُيُونُ[5]، لأنهم أول من عمل صناعة الحديد بالبادية[6].

خلاصةُ القول: أن العرب أحْكَمُوا من الصنائع ما وَجَدوهُ مُتَّفِقاً وعقيدتَهم في الحياة، واحْتَرفوا التجارةَ بكلِّ وجوهها، ولم يأنَفُوا جميعاً من الزراعة، بل كان فيهم زُرَّاعٌ حيثما تَوافرتِ المياهُ العَذْبَةُ والأرضُ الطيبة. وإن وفرة الألفاظ الدالَّة على تنوُّعِ المتاجرة وأنواعِ التجَّار برهانٌ واضح على تقدُّمٍ في هذا الحقلِ لا شك فيه.

* * *

وإذا كان التفنُّنُ في الترفِ حضارةً، كما قال ابنُ خُلدون، فقد ثبتَ أن

---

(١) المعارف: ٥٧٥ ـ ٥٧٧.

(٢) لسان العرب: ٤/ ٨٩ (تجر).

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ٧٩.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨.

(٥) القَيْن: الحدَّادُ والصانع الذي يُحْسِن الصناعة، جمع قيون.

(٦) لسان العرب: ١٣/ ٣٥١ (قين)، وجمهرة أنساب العرب: ١٩١.

كثيراً من حاضرة العرب في الجاهلية كانوا، لشدَّة التَّرفِ، يستعملون «أَوَانيَ الشراب المصنوعة من الزجاج والبَلُّورِ، ومن الذهب والفضة... وكانت لهم مجالسُ للسَّمَرِ، تُغنِّيهم فيها القِيَان[1]، وكان لبعضهم قِيَانٌ خاصَّةٌ به، كما كانت لهم مطاعمُ لذيذةٌ، ومطابخُ مشهورةٌ»[2]... وقد ذُكر أن النابغة الذبياني لم يكن يأكلُ أو يشربُ إلا في صِحَافٍ من الذهب والفضة وأَوَانِيهما[3]... كما أُطلق على عبد الله بن جُدْعان لقَبُ «حاسي الذهب»، لأنه كان لا يشربُ إلا بأوانٍ مصنوعةٍ من الذهب، ولمَّا ضربوا المَثَلَ بكرمه قالوا: أَقْرَىٰ من حاسي الذهب[4]. فإذا قال قائلٌ: إن هذا مَثَلٌ فردٌ لا يصحُّ اتخاذُهُ معْياراً، قلنا: وكذلك حكايةُ الكافور! ومن الممكن بالتوفُّرِ على درس الشعر الجاهلي، والبحث في معاجم العربية، أن نقفَ على كثيرٍ من وجوه الترف عند عرب الجاهلية، من خلال ما تدلُّ عليه المفرداتُ والأشعارُ، التي تُحدِّثُ عن مجالس الشراب والطعام واللهو، وصُنُوف الزينة واللباس والحُليّ، ومرابع الرقص والغناء، وحانات الخمر واللذات... ولولا خَشْيةُ الإطالة، لقدَّمتُ الكثير من الأخبار والروايات التي تصِفُ ما كان يَنْعمُ به عربُ الجاهلية من ألوان التَّرَفِ والحضارة، نكاد «نفتقدُ جُلَّها في عصرنا الحديث، في هذه البيئة العربية نفسها...»[5]، وقد وَصَفَ لنا الشاعرُ حسان بن ثابت، مجلساً من مجالس جَبَلَة بنِ الأَيْهم في الجاهلية، وهو آخرُ

---

(١) القَيْن: العبد، والقَيْنةُ: الأَمَةُ، أو الأَمَةُ المغنِّيَةُ، وإنما قيل للمُغنِّيَة: قَيْنةٌ لأن الغناء من عَملِ الإمَاءِ دون الحرائر من العربيات.

(٢) المفصَّل: ٤/ ٦٧٠.

(٣) د. عائشة عبد الرحمن ـ قِيَم جديدة للأدب العربي: ٤٩.

(٤) مجمع الأمثال: ٢/ ٩٦، ولسان العرب: ١٤/ ١٧٧ (حسا).

(٥) القِيان والغناء: ٦٤ و ١١٠ و ١١٣...

ملوك بني غسَّان بالشام، فقال: إنه «كان إذا جلس للشُّرْبِ، فُرِشَ تحتَه الآسُ، والياسمينُ، وأصنافُ الرياحِين، وضُرِبَ له العَنْبَـرُ والمِسْكُ، في صِحَافِ الفِضَّة والذهب، وأُوقِدَ له العودُ المُنَدَّىٰ[1]، وأُتِيَ بالفِراء الفَـنَكِ[2]، وما أشْبَهَهُ إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً، أُتيَ بِكِسَاءٍ صيفيَّةٍ يَتفضَّلُ بها هو وأصحابه، وبُطِّنَ المجلسُ بالثلج. . .»[3]! وكان المُغَنُّونَ يأتونَهُ من بلاد العرب، ولم يكن الشِّعْرُ في هذه المجالس يُنشَدُ وحَسْب، بل كان يُغَنَّى أيضاً. . . فهل بعد هذا التَّرفِ تَرَفٌ نتحدَّثُ عنه من أخبار الجاهلية؟ شيءٌ واحدٌ أُحبُّ أن أُضِيفَهُ، فقد كنتُ أَتتبَّعُ بعضَ الكلمات في المعاجم، فأَعْجبني أن النِسَاء في الجاهلية كانت تعرفُ نوعاً من الحَلْي، ما أَظنُّنا في العصر الحديث نعرف مثله، وكانوا يُسَمُّونَه: الكَبِيسَ المُلَوَّبَ، سُمِّي بذلك لأنه كان يُصَاغ مُجَوَّفاً، ثم يُلَوَّبُ بأنواع من الطِيب أو العِطْر، أي يُحْشَى بها، ثم يُكْبَسُ[4]، فيكون في عُنُق المرأة، وعلى صدرها، أداةَ زينة وتَأَنُّقٍ، ويَشعُّ منه في الوقت نفسه شذا الطِيب، فيُكْسِبُها فوق الأناقة ريحاً طيبةً.

صَفْوةُ الكلام، أن مَنْ نَفَوْا عن العرب في الجاهلية كلَّ لونٍ من ألوان الحضارة، وأضافوا إليهم التوحُّشَ والجهلَ والعُزلةَ، لم ينظروا إليهم في حواضرهم وأمْصَارِهم، بل طَمَحتْ أبصارُهم إلى الأعراب في الصحارى، واستقرَّت عليهم، لا تبغي عنهم حِوَلاً، فابتعدوا عن الحق والعدل فيما

---

(١) العودُ المندَّى: بخُور يُفْتَقُ بالطيب وماء الورد، ويقال أيضاً: العودُ المنْدَليُّ، نُسب إلى مَنْدَلَ بالهند، وتُطلق كلمةُ «مَنْد» في الفارسية إسماً على نوع جيد من العنبر، لونه أسود، ويُنسب إليه العودُ المَنْدِيُّ.

(٢) الفَـنَكُ: حيوانٌ صغير يشبه الثعلب، فروتُه من أحسن الفراء وأجملها.

(٣) الأغاني: ١٧/ ١٠٥.

(٤) لسان العرب: ٦/ ١٩٠ (كبس)، و ١/ ٧٤٦ (لوب)، وكلُّ عطرٍ مائعٍ فهو المَلابُ.

حَكمُوا به على العرب جميعاً من غير استثناء... ونعتقدُ أننا أَسقطْنا هذا الحكمَ، بما أَبطلناهُ من الحجَّة التي أُقيم عليها، وأَوْضحنا أن السنَدَ فيه إنما كان تأويلاً غير صحيح، لواقعةٍ فرديَّةٍ، لا تَصْلُح وإن صَحَّتْ أساساً للحكم على أُمَّةٍ بالتخلُّفِ والجهل.

* * *

وهنالك بيِّنَةٌ أُخرى لا تَقِلُّ عمَّا قدَّمناهُ في دَلالتِها على حضارة العرب وارتقائهم... فقد عَدَّ بعضُ المؤرِّخين ظُهورَالأسواق الموسميَّة العامَّة في إحدى المناطق علامةً من علامات الحضارة، وذلك لمَّا ذكروا أن بلاد العرب التي توافرت فيها المياهُ، من العُيونِ أو الآبارِ أو الأمطارِ، ظهرت فيها الحضارةُ على شكلِ قُرىً، أو مُسْتوطَناتٍ، وأسواقٍ موسميَّةٍ كان لها جميعاً آثارٌ عميقةٌ في حياة العرب عامَّةً، من الحَضَرِ، والبادينَ حولهم، لما كان يجري فيها من تَلاقٍ بين قبائل العرب على اختلافِ مجتمعاتهم وطبقاتهم، وما كان يقعُ من اتصال بين العرب، والأعاجم الذين يَؤُمُّونَها للاتجار، فيقيمون بها إقامةً مُوقَّتةً، أو الأعاجم الذين يُجْلَبونَ إليها رقيقاً يُباع في المواسم... ففي هذه المواضع كان يتمُّ تبادُلُ الثقافات والعقائد والأفكار، وامتزاجُ العاداتِ والتقاليد، وفيها تكوَّنَ تاريخُ العرب قبل الإسلام[1].

ولا شك في أن المواسم العامَّة الكِبارَ، التي أَنْشَأها العربُ في عصر الجاهلية، إنما كانت عملاً من أعمال الحضارة، ووجْهاً من وُجُوهِ الارتقاء، إذ يَلْزمُ من ذلك أن يكون في المناطق التي قامت على إنشائها، وتدبيرِ شُؤونها، والتوفُّرِ على حُسْنِ إدارتها، وانتظامِ انعقادِها في مواعيدها،

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

مُجتمعاتٌ على قَدْرٍ كافٍ من الحضارةِ والتمدُّنِ والسلام... وما عرفنا في التاريخ القديم مواسِمَ كِبَاراً، كالتي كانت تقوم في بلاد العرب، للتجارة والاجتماع والسياسة والحجّ والأدب، نشأت في مجتمعاتٍ مُتخلِّفةٍ عن أسباب الحضارة، مفتقرةٍ إلى الأمن!

وإنَّ لنا فيما كانت عليه أُمّةُ الإغريق حجةً ودليلاً، فقد أنشأتْ سنة (٧٧٦ ق. م)، وكانت وقتئذٍ منارةَ الفِكْرِ والفلسفةِ والعُمران، موسماً دينيّاً واجتماعياً كبيراً، عُدَّ من أبرزِ وُجوهِ الحضارة القديمة، امتزجتْ فيه الاحتفالاتُ الدينيّةُ بالألعاب الرياضيّة والشِعْر والموسيقى... وكان الإغريقُ يعتقدون أن آلِهَتَهم، وعلى رأسها «زِيُوس» ربُّ الأربابِ وأبو الآلهةِ والناسِ، تسكنُ جبلَ «أُلِمْبُس» المقدَّس(١)، فكانوا يُقيمون عليه مَوْسِمَهم، ويحجُّون إليه مرَّةً كلَّ أربع سنين، ويُعْلنون يومَ انعقادِهِ هدنةً مُقَدَّسةً، يَحْرُمُ فيها القتالُ، ويسودُ السلامُ بينهم ما دام الموسمُ قائماً، كالأشهُرِ الحُرُمِ عند عرب الجاهليّة. وكان موضعُ الموسم عندهم، مثلما كان موضعُ كلِّ موسمٍ عند العرب، مَجْمعاً يقصدهُ الإغريقُ من جميع أنْحَاءِ العالم الإغريقيّ، فيَلْقَىٰ بعضُهم بعضاً، وتشتدُّ بينهم أواصِرُ الوحدة، وعُرَىٰ الصداقة، وتمتزج العاداتُ والأفكارُ، ويتنافَسُونَ في الألعاب الرياضيّة المختلفة، كالعَدْوِ، والقَفْزِ، والمصارعة، والملاكمة، ورَمْيِ القُرْصِ، وقَذْفِ الرُّمحِ، وسِبَاقِ المركبات(٢)...

وكانوا يعتقدون أن لهذه الألعاب خُطورةً دينيةً، وأن أفضلَ طريقةٍ لتكريم «زِيُوس» هي في التأليف بين أمجاد الروح والجسد، فكانوا يُكرِّمون الفائزين بها في احتفالاتٍ دينيّةٍ خاصّةٍ، ويُتَوِّجُونَهم بأكاليلَ من شجر الزيتون

---

(١) أُلِمْبُس: جبلٌ يقع في إقليم تُسَالْيَا، في الجانب الشرقي من اليونان، بجوار مقدونيا.

(٢) هذه هي الألعابُ الأُلِمْبِيَّة، وقد بُعِثَت من جديد ابتداء من سنة (١٨٩٦ م)، وما زالت تُقام مرَّةً كلَّ أربع سنين في إحدى عواصم العالَم.

المقدَّس، تقديراً لِتَفَوُّقهم، وكان الشعراءُ ينظمون القصائد في الثناءِ عليهم، والمُغَـنُّونَ يُنْشِدونها، وكانت تُصْنَعُ لهم التماثيلُ تخليداً لِذكْرهم، ويُعْفَوْنَ من الضرائب، ويُرفعون إلى مرتبةِ أصحابِ الشرفِ في المجتمع[1].

وفي حديثه عن سُوق عُكاظ، ذكر جرجي زيدان، أن شأن العرب فيه كان كشأن أولئك الإغريق القدماء، حينما كانوا يجتمعون في موسم الألعاب الأُلِمْپِيَّة الدينيّة، وكان «فيهم الفلاسفةُ والعلماءُ، فكانوا يغتنمون فرصةَ وجودهم هناك، ويتباحَثُون، ويتناظَرون، ويَتَنَافَرُون، كما كان العربُ في عُكاظٍ»[2] يفعلون. بل إن هنالك وَجْهَ شَبَهٍ بين المَوْسِمَيْنِ لعلَّهُ أكثرُ خَطراً وأَبْعدُ دلالةً، فقد كان اليونانيون يتَّخذُون من موسم أُلِمْپُس، أو السنوات الأربع الفاصلة بين الموسم والآخر، مقياساً لمعرفة الأزمنة وتَعْيينها في تقويمهم، حتى أن العلاَّمةَ اليوناني الإسْكندريَّ «إراتُوسْتِين» المتوفَّى سنة (١٩٦ ق. م)، أَلَّفَ كتاباً في تاريخ الأزمنة، استناداً إلى تواريخ قيام مواسم الألعاب الأُلِمْپِيَّة[3]... وكان العربُ كذلك، يتَّخذون من المدة الفاصلة، بين الموسم والموسم الذي يليه من مواسم عكاظ، مقياساً زمنيّاً يُعَيِّنُون به مواعيدَ الوفاءِ بالديون، وأداءِ الخَرَاجِ والإِتاوات، وفكَاكِ الرُّهُون، وحُلُولِ الآجال المتَّفَقِ عليها في التجاراتِ والمعاملات، وهو ما تُؤَكِّدُه إشاراتٌ كثيرة وردت في مختلف النصوص التاريخيّة والأدبيّة، وسيأتي الحديثُ عنها مُفَصَّلاً في الكلام على موسم عكاظ، لكنَّ أَشَدَّها وضوحاً وبياناً، قولُ النبيّ

---

(١) موسوعة كومبتون: ١٠/٤٥٣ ـ ٤٥٤، و ١٥/٣٥٤ ـ ٣٥٥.
COMPTON'S ENCY. VOL. 10 (O), p: 453 - 454, VOL. 15 (Z). p: 354 - 355، وتاريخ الأمم القديمة: ٩٥ ـ ٩٦، ومجلة العربي (تموز ـ يوليو ١٩٨٠): ٢٨ ـ ٣٣، ، وحضارات العالم في العصور القديمة: ٩/٢٠٩، وموسوعة المورد: ٦٣١.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/٣٩.

(٣) المنجد في الأدب والعلوم: ١٢ و ٤٨.

عليه السلام في كتابه لبني ثقيف، كما نقله ابن منظور[١]، وحقَّقَهُ محمد حميد الله[٢]: «. . . وإن ما كان لهم من دَيْنٍ في رَهْنٍ وراءَ عكاظ، فإنه يُقْضَىٰ برأسه إلى عكاظ، ولا يُؤَخَّر»، وهو يُثْبتُ أنهم كانوا يتخذون من قيام مواسم سوق عكاظ مِعْياراً يُعَيِّنون به حُلُولَ الأزمنة وانقِضاءَها.

وإني لأعتقدُ أن موسم عكاظ كان أكثر خَطَراً في حياة العرب، من موسم أُلِمْبُس في حياة الإغريق. . . فقد كان هؤلاء يؤمنون بأن جَسَدَ الإنسان يُعظَّم كما تُعظَّم الروحُ، وتكريمَ «زِيُوس» يكونُ بالعمل على إنْمَاءِ الأجساد، بالتساوي والتوازي مع العقول والأرواح[٣]. . . وعلى ذلك كانت الألعابُ الرياضيَّةُ أساسَ الموسم، ومحْوَرَ نشاطه، وكانت الفلسفةُ والشعرُ والموسيقى والغناء شؤوناً تجري على حَواشِي الموسم. . . وفوق ذلك كان أُلِمْبُس مَجْمَعَ اللون الواحد، ينعقدُ على قمة جبل، بعيداً من طرق التجارة ومراكزها، يقصدهُ الإغريقُ لا غير، وهم على مُعْتَقَدٍ واحدٍ، وثقافةٍ واحدة، همُّهم الألعابُ الرياضيَّة من خلال الاحتفال الدينيّ بالموسم.

أمّا في سوق عكاظ فكانت الحياةُ بكلّ جوانِبِها وألوانها أساسَ الموسم، ومِحْورَ قيامه وانعقاده، فضلاً عن وقوعه على طريق التجارة الدوليّة، تحطُّ فيه قوافلُ التجّار آتِيَةً إليه من المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، ومعها ألوانٌ مختلفةٌ من حضَاراتِ الأُمم الأخرى وثقافاتِها. . . على أن التسليم بوجود حَدٍّ أدنَى من التشابُه بين الموسمين يحملُ في جوهره بَيِّنَةً على أن بعضَ مجتمعات العرب في الجاهلية، مِمَّن توفَّر على تلك المواسم، كان من الارتقاء والحضارة في مَنْزلةٍ محمودة.

(١) لسان العرب: ٧/ ٣٩٧ (ليط).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية: ١٦٠.

(٣) موسوعة كومبتون: ١٠/ ٤٥٤.

الفصل الثاني

أبرز وجوه التحامل على العرب

خَلُصنا في الفصل السابق إلى أن مجتمعات العرب اختلفتْ وتنوَّعتْ تَبَعاً لتأثير عوامل الطبيعة، ولئن غَلَبَ اسمُ العربِ عليهم جميعاً، لقد كانوا في الحقيقة فريقيْن كبيرين: أوَّلُهما: العربُ، وهم الحَضَرُ أهلُ الأمصار والقرى، والبادُونَ حولَهم أهلُ الضواحي والأرياف. وثانيهما: الأعرابُ أهل الرحلة الدائمة في الفيافي والقِفَار. وقد لاحظنا أن من نَفَوْا الحضارةَ عن العرب عامّةً، إنما كانوا يتحدَّثون عن الأعراب، ويتحاملون على العرب. ورأينا أن العرب لم يكونوا في عُزْلةٍ عن العالم، ولا بَعيدِينَ عن كثيرٍ من ألوان الحضارة، ووجُوه المدنيَّةِ، وقد أَحْكموا من الصنائع ما وجدوه متوافقاً مع عقيدتهم في الحياة، واحترفوا التجارةَ بكل جوانبها، ولم يأنَفُوا من الزراعة كلُّهم، بل كان فيهم زُرَّاعٌ يَتَوفَّرون على حَرْثِ الأرضِ وزراعتِها واجتناءِ ثمارها. ووجدنا كذلك أن ظهور المواسم العامَّة في إحدى المناطق يُعَدُّ ظهوراً للحضارة والارْتقاءِ، وما كان أكثرَ هذه المواسم في بلاد العرب.

على أن تحامُلَ بعضِ المؤرِّخين على العرب قد بدا بارِزاً في أمْرَيْن: الأول: خَلْطُ العربِ بالأعْرابِ في مجتمعٍ واحدٍ. الثاني: تأوُّلُ مُفْرَدات العربيَّة على غير معانيها الأصليَّةِ في الجاهليَّة، وذلك يُعَزِّزُ مذهبَهم إلى أن مجتمعاتِ العربِ في الجاهليَّةِ لم تكن سوى مجتمعٍ واحدٍ من الأعرابِ الرُّحَّلِ «استحكمتْ فيهم عوائدُ التوحُّشِ وأسبابُه، فصارَ لهم خُلُقاً وجِبِلَّةً»[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٤٩.

المطلب الأول ـ خَلْطُ العرب بالأعراب في مجتمع واحد:

يبدو من الواضح أن مَن حاول، مِن المؤرخين القُدماءِ والمتأخّرين، أن يُفرِّق بين مجتمعات العرب، ما لبث حتى انتهى به الأمرُ إلى تغليب الأعراب عليهم جُملةً...

ومن هؤلاء جرجي زيدان، فقد ذكر أن البداوةَ تقومُ، إمَّا على الفِلاحَةِ، أو على تربية الحيوان، فأمَّا البادُون أهل الفِلاحَةِ فكانوا قِلَّةً في بادية العرب، وأما البادون الذين احترفوا تربيةَ الحيوان، فهم صِنْفانِ: أصحابُ الماشية من الغَنَم والبَقَرِ، وأصحابُ الإبِلِ، وهم أكثرُ ارتحالاً وانتقالاً، وأبْعَدُ في القِفَار مجالاً من أصحابِ الماشية. وأشْهَرُ أصحاب الإبل بُداةُ العرب، وهم ينزلون من أهل الحواضر منزلةَ الوحش غير المقدور عليه، والمُفْتَرِسِ من الحيوان، لِتَفرُّدِهم عنِ المجتمع في القِفَار، وتَوَحُّشهم في الضواحي، وسكانُ جزيرة العربِ مُعظَمُهم من البُداة الرحَّل[1]... ولا شك في أن زَيْدانَ أخطأَ في رأيه، وأنه نقل رأيَ ابنِ خلدون، وإن حاول صِيَاغَتَه صِياغَةً مختلفةً! ويكفي أن نُشيرَ إلى أن كثيرين من أهل الحواضر عند العرب كانوا أصحابَ قطعانٍ كبيرةٍ من الإبِل، وكان يقومُ على رعايتها ورعْيِها لهم أهلُ باديتهم أو ضواحيهم، وكلاهما لم يكن مُتفرِّداً في القِفار، ولا كان بمنزلةِ المفْتَرِسِ من الوحْشِ أو الحيوان!

ورأى أحمد أمين[2] الرأيَ نفسَه، وعبَّر عنه بصيغةٍ أخرى، فذكر أن

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) د. أحمد أمين: ابنُ الشيخ إبراهيم الطباخ. باحث وكاتب مصري، تخرج بمدرسة القضاء الشرعي ودرَّس بها، ثم عُيِّن قاضياً فمُدرِّساً بكلية الآداب في الجامعة المصرية فعميداً لها، ثم مديراً للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. مولده ووفاته بالقاهرة (١٨٧٨ ـ ١٩٥٤).

العرب تأخَّروا عمَّنْ حولهم في الحضارة، وغلبت عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشَ القبائل الرحَّل، لا يقرُّون في مكان، ولا يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بأرض نزلوها، كما يفعلُ الزرَّاعُ، بل يَظلُّون يرتحلون بنسائهم وأولادهم، يطلبون المراعي والمياه، ولا يبذلون جهداً عقلياً في تنظيم بيئتِهم الطبيعية. . . ثم رأى أن الحَضَرَ من العرب أكثر رُقيّاً من البُدَاةِ، وأنهم يسكنون المدن، ويقرّون فيها، ويعيشون على التجارة أو الزراعة[1]. . . والعجيبُ أنه أكَّد تخلُّفَ العرب عن الحضارة، وغَلَبَةَ البداوةِ عليهم، وتَقَلُّبهم المستمر في الأرض، ثم رجع فأضاف إليهم الرقيَّ، وسُكْنَى المدن، والاشتغالَ بالتجارة والزراعة، وهو كلام في جُملته ينقضُ بعضُه بعضاً!

وذهب فيليب حِتّي ورفيقاهُ إلى قِسْمة سُكانِ جزيرة العرب، نظرياً لا أكثر، إلى مُجتمعَيْنِ، بُداةٍ رُحَّلٍ، وحَضَرٍ مُقِيمينَ، ثم جعلوهم عمليّاً مجتمعاً واحداً عندما أكَّدُوا أن الحدَّ الفاصل بينهما غامضٌ، لا يكاد يَبِينُ، لما في الحَضَر من رَوَاسبِ البداوة، ولما قد يكون في البُدَاةِ أحياناً من آثار الاتصال بالحَضَر، وقرروا أن البُدَاةَ جنسٌ من أجناس البشر، لا يزال حتى اليوم على حاله التي كان عليها في نشأته[2]. . . وهذا المذهبُ بعيدٌ عن الواقع كما رأينا!. . . وهنالك مَن آثَرَ قِسْمةَ العرب بالقياس إلى مساكنهم، فأهلُ المدُنِ حَضَرٌ، وأهلُ البادية بُدَاةٌ، بيوتُهم من الشَّعْر، وغذاؤهم من الشَّاءِ والإبل، وهؤلاء عنده الأعراب[3]. . .

* * *

(١) فجر الإسلام: ٤ و ٩ و ١١.
(٢) تاريخ العرب: ٥١ ـ ٥٣.
(٣) الشيخ محمد الخضري ـ تاريخ الأمم الإسلامية: ١/ ١٦ (الدولة الأموية).

لا أريد الترسُّلَ في ضرب الأمثالَ، إذ يبدو أن أكثر من عالجوا هذا الموضوع، ردُّوا العربَ إلى أطوار نشأتهم الأولى، يوم كان الناسُ جميعاً قبائلَ رُحَّلاً، ثم تقدَّمُوا بسائر الناس، وجعلوا العربَ وحدهم يتأخَّرون دونَهم، ويَظلُّون على ذلك، وكأن جزيرة العرب لم تعرف قطُّ في جنوبها وشمالها دولاً قوية، ومُدُناً مشِيدَةً، وحضارةً تَليدة! ولمّا عكفوا على تاريخ الجاهلية حَمَلَهُ مُعْظمُهم في جُمْلتهِ، على مَعَايير التوحُّشِ، والبدائية، والانحطاط، من غير دليلٍ قَدَّموهُ سوى العصبيَّة والهوى. . . وانْظُرْ إلى كتُب التاريخ والأدب إذ تُحدِّثُك عن العرب في عصر الجاهلية، تَجدْ أنها جَعَلتْهم جميعاً أعْراباً جُفَاةً، حُفاةً، يعيشون في الخِيَام، ويَضْرِبُون في البوادي والقِفَار، يُغِيرُون على قوافل التجَّار والمسافرين، ويَغْصِبُونَ الناسَ أموالهم!. . . وقد ذهب حِتّي ورفيقاه إلى أن شَنَّ الغارات كان «نموذجاً للأعمال التي تليق بذوي الرجولة منهم. . . وأن الغزو من أركان البناء الاقتصادي عندهم»[١]، وجعل برنارد لويس «السَّطْوَ مهنةً طبيعية وشرعيةً طبقاً لمبادىء العرب الأخلاقية»[٢]، وحَصَر زيدانُ مصادرَ الارْتِزاق في بلاد العرب بالغَزْو والنَّهْب لا غير[٣]، وذكر أحمد أمين أنها كانت على ضَرْبَيْن: أحدهما: ما كانوا يأكلونه من لحوم ماشِيَتهم. والثاني: هو «الغارةُ والسَّلْبُ، يُغِيرون على قبيلة مُعادِيَةٍ، وكثيراً ما تكون المعاداةُ»، فيأخذون أموالهم ونسَاءَهم وأولادَهم، ثم تنتقم هذه القبيلةُ لنفْسِها، فتُغِير على مَن أغار عليها، في دورةٍ لاتنتهي[٤]. . . وكُتُبُ التاريخ مَلأَى بمثل هذه الأقوال، وإذا مَضَيْتَ

---

(١) تاريخ العرب: ٥٣.

(٢) العرب في التاريخ: ٥٧.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٢٤ و ٢٨.

(٤) فجر الإسلام: ٩.

تُفتِّشُ عن دليلٍ، استند إليه أولئك المؤرخون والباحثون، في أحكامهم، لم تجدْ أكثرَ من بيت شعرٍ وضَعُوهُ في غير مَوْضعه، أو قولٍ لبعض الأخباريين لم يُحْسِنُوا فهمَهُ، أو تَزيّدوا في معناه، كقول ابن حبيب مثلاً: إن العرب «ربما كانت تعيشُ من سيوفها ورماحها...»[1]، ومع أن الرجل استعمل كلمةَ «ربما» إشارةً إلى قِلَّةِ الفعل، فإنه أراد الأعرابَ بقوله، وليس العربَ جميعاً، فالأعرابُ، دون العرب المُقِيمينَ في الحواضر والأمصار والأرْيافِ، كانوا يُضْطرُّون إلى الغَزْو في سِني الجَدْبِ والجفاف إبقاءً على حياتهم، وتلك كانت سُنَّةَ سائر القبائل حينئذٍ في جميع أُمَم العالم، وليست خاصَّةً بأهل القِفَار والفَلَوات من قبائل العرب!... وهذا ما تَنَبَّه له اليونان والرومان، فأطلقوا اسمَ: العربية السعيدة على مناطق جنوب جزيرة العرب ووسطها، والعربية الصخرية على بلاد الأنباط وسيناء وبعض وادي القرى، والعربية الصحراوية على شمال الجزيرة وبادية الشام[2]... وكانت العربية السعيدة والصخرية على جانب كبير من الرقيّ!... وقد عَرَضَ الدكتور ناصر الدين الأسد لأقوال أولئك المؤرخين بالبحث والنقد، وقال: إنها جميعاً «تَفْرِضُ أن الجاهلية العربية بداوةٌ بدائية، لا تعرفُ، ولا ينبغي لها أن تعرف، لوناً من الحضارة والمدنية، وأن العرب في ذلك العهد إنما هم قبائلُ رُحَّلٌ، مُتَأَبِّدُونَ في فَيافِيهم، مُنقطعون عن أمم العالم من حولهم، فلم يعرفوا قراراً يُعِينُهم على أن يَبلُغُوا ما بلغَهُ سُكّانُ الحواضِر المستقرُّون، ولم تَتَّصِلْ لهم أسبابٌ بغيرهم من الأُمم ذات الحضارة، حتى يأخذوا لأنفُسهم حَظّاً من رُقيّ أو تقدُّمٍ...»، وانتهى إلى القول بأن ذلك كلَّه «فَرضٌ باطلٌ، لا سَنَدَ له من

---

(١) المحبَّر: ١٥٧.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٣٩ و ٤٢.

الحقيقة أو التاريخ»[1]. . .

ويبدو لي أن وَرَاءَ ذلك المذهبِ عَصَبيَّةً، لكنها لم تكن وحدَها عِلَّةَ التحامُلِ على عرب الجاهلية، وإنما كان هنالك فوقها عقيدةٌ ضَالَّةٌ مُضَلِّلَةٌ، تزعمُ أن العرب جميعاً مجتمعٌ واحدٌ من الأعراب، بمعنى البداوة البدائية الجافية للكلمة، وليس بالمعنى الاصطلاحيّ الذي استَقَرَّتْ عليه بعد الأطْوار التي مرَّتْ بها مجتمعاتُ العرب في الجاهلية. ويقفُ على رأس هذا المذهب مع الأسف عالمٌ جليلٌ من علماء العرب هو ابنُ خُلدون في مُقدّمته، وقد تابَعَهُ على مذهبه جمعٌ كبير من الباحثين والمؤرخين، من غير نظَرٍ فيه، أو نَقْدٍ، أو تَحَقُّق.

ومن الواضح أن ابن خلدون تحامل على العرب كثيراً، في عِدَّة مَواضِعَ من مقدمته، بأسلوب كان فقيراً فيه إلى مُعْظم شروط العلماء، وغنيّاً بكل أدوات العصبيَّة والحقد والكراهية. فالعربُ عنده، لم يبلُغوا حتى أن يكونوا بُدَاةً، وإنما هم «أكثرُ بداوةً من سائر الأُمم. . . وهم، لخُلُقِ التوحُّشِ الذي فيهم، أصعبُ الأُمم انقياداً. . . وهم أَبْعَدُ الناس عن الصنائع، لأنهم أعْرَقُ في البَدْوِ، وأَبْعَدُ عن العُمران الحضَريّ، وما يدعو إليه من الصنائع. . .»[2]!

وفي موضعٍ آخَر، يصِفُ العربَ بأنهم «أشدُّ الناس تَوحُّشاً، ينزلون من أهل الحواضر منزلةَ الوحْشِ غير المقدور عليه، والمُفْتَرس من الحيوان العُجْم، وهؤلاء هم العربُ. . .»[3]! وحوشٌ كاسرة، وحيواناتٌ مُفْتَرسة، «أهلُ انْتِهابٍ وعَيْثٍ، ينْتَهِبُونَ ما قَدروا عليه، من غير مُغَالَبةٍ، ولا ركوب

(١) القِيَانُ والغناءُ في العصر الجاهلي: ١١٧.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ١٥١، ٤٠٤.
(٣) المرجع نفسه: ١٢١.

خَطَرٍ، ويَفِرُّون إلى مُنْتَجعِهِم بالقَفْر. . . وإذا تغلَّبُوا على أَوْطانٍ، أَسْرَعَ إليها الخرابُ، والسببُ في ذلك أنهم أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ، باسْتِحْكام عَوَائِدِ التوحُّش، وأسبابِه فيهم، فصار لهم خُلُقاً وجِبِلَّةً. . .»[1]!

وهكذا كان كل حديثِ ابن خلدون عن العرب، يَنضَحُ بالتحامُل عليهم، من غير سببٍ، سوى عَصبيَّةٍ ذهبت به هذا المذهب، وهَوَىً مال به عن الحق. . . ومن هنا، ربما اتَّضَحَ لنا سِرُّ اهتمام الأجانب الشديد بمقدّمته، وعنايتهم بنظرياته، وإعجابهم بأفكاره، وترجمتها إلى مختلف اللغات! ويَحْلو في هذا المقام السؤال، أكان اهتمامُ الأجانب بمقدمة ابن خلدون، هو نفسُهُ لو أنه مدحَ العربَ فيها، وأَثْنَى على فعالهم، وتَحدَّثَ عن مكارم أخلاقهم؟. . .

وقد فَتَّش عددٌ من الباحثين عن السببِ الكامِنِ وراءَ تحامُلِ ابن خلدون على العرب، وتجريدهم من كل فضيلة، وحماستِهِ الشديدة للبربر، وعَقْدِهِ فصلاً خاصّاً لفضائلهم، فتبيَّن لأحدهم أن ابن خلدون، وإن كان عربيَّ النسب، إنما هو في الواقع بربريُّ النَّشْأة والمَرْبَىٰ والهوى[2]، يميلُ إلى قبائل البربر، ولا سيما في كراهَتِهم يومئذٍ أن يكون العربُ أصحابَ السلطان عليهم في شمال أفريقية. . . ورأى ساطع الحُصَري أن كلمة العرب التي استعملها ابنُ خُلدون في مقدمته، أَوْقَعتْ كثيراً من الدارسين في الخطأ، وهو إنما كان يعني بها الأعرابَ، لا عامَّةَ العرب[3]. . . وعَدَّ جواد علي إشارة ابن خلدون إلى أن العرب إذا دَخلوا بلداً أَسْرَعَ إليه الخرابُ، إنما أراد بها الأعراب،

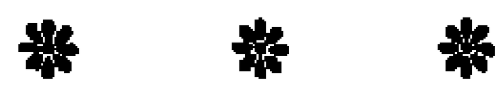
---

(١) المرجع نفسه: ١٤٩.

(٢) محمد عبد الله عنان ـ ابن خلدون: ١١٩ ـ ١٢١، ١٤١، ١٤٢.

(٣) دراسات عن مقدمة ابن خلدون: ١٥١ ـ ١٦٨.

وليس حاضِرةَ العرب[1]. . . أما سَلاَمة موسى فوجَد أن «الخطأ البارز في ابن خلدون هو تَنقُّصُهُ حضارةَ العرب. . . وأن حملتَه عليهم ترجعُ إلى جهله لا أكثر، فإنه رأى الأعراب، ولم يَرَ العربَ. . . فأنكر عليهم ارتقاءَهم، وتَجاهَلَ فضْلَهم في الوصل بين أُمم العالم القديم، بما كانوا يُحْكِمونَهُ من فنون التجارة، ويحتكرونه من أصنافها، ويُسَيِّرُونَهُ من القوافل إلى البلدان القريبة والمجاورة والبعيدة»[2]. . . ورأى الدكتور جبرائيل جَبُّور أن ابن خلدون لمَّا تحدَّث عن العرب كان يقصدُ بحديثه الأعرابَ أي البادين[3]. . ويبدو أن جَبُّور جعل الأعرابَ والبادِينَ جماعةً واحدةً لا فرق بينهما، وجعل البداوةَ أنواعاً ثلاثةً، أدناها الرُّحَّلُ أصحابُ الإبِل، ثم أصحابُ الإبل والغنَم، وهم أقلُّ بداوةً وأَقلُّ رحلةً، ثم أصحابُ الماشية، وهم بُداةٌ لهم عَلاِئقُ وثيقةٌ بالحَضَر[4]، وهذا كلُّه مُستَمدٌّ من فكر ابن خلدون[5]، ولا يخرج عن مذهبه.



هذا، ويجبُ ألا نُغفِلَ أيضاً، أن سوء العبارة أحياناً عند بعض المؤرخين، كان عِلَّةَ كثير من الشُّبْهَةِ[6]، التي أفْضَتْ إلى اعتبار العرب جميعاً أعْراباً رُحَّلاً جُفَاةً، ليس لهم شغلٌ غير الغزوِ والإغَارةِ والسلْبِ والنَّهب! وعلى سبيل المثال، فإن جواد علي فَرَّقَ في معظم أبحاثه بين العرب

---

(١) المفصَّل: ٤/٢٩٨.

(٢) ابن خلدون والعرب: مجلة الكتاب ١١/٢٧٢، ٢٧٥.

(٣) البَدْوُ والبادية: ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٤) المرجع نفسه: ٣٣ ـ ٣٤.

(٥) المقدمة: ١٢١.

(٦) الشُّبْهَةُ: الالْتِباسُ، ما يَلْتَبِسُ فيه الحقُّ بالباطل.

والأعراب، وأكَّدَ أن الإنصافَ في الحكم يقضي بذلك، وما يُقال عن الأعراب يجب ألاَّ يُتَّخَذَ قاعدةً تجري على العرب، لما بين العرب والأعراب من تَبَايُنٍ في أساليب المعيشة، كما في العقول والنفوس... بل ذهب إلى وجوب التفريق بين عَرَبِ مَوْضعٍ ما، وعَرَبِ موضعٍ آخر، وذلك لاختلاف الأحوال المُؤَثِّرة في بيئة كل طائفة منهم، كالاختلاف الذي كان بين عرب العراق وعرب الشام، وعرب اليمن وعربِ عالِيَةِ نَجْدٍ مثلاً[١]... ولكنه عندما كان يبحثُ عن أصل كلمة «عرب» ومعناها ودلالَتِها في الكتابات القديمة، جَزَمَ بأنها، أينما وُجِدت في وثائق التاريخ القديم، وكيفما كانت صِيغَتُها، لم تكن سوى تَسْمِيَةٍ صريحةٍ لقبائل الأَعْراب، أهلِ الصحراء والفَلَواتِ والخِيَام، واستدلَّ على ذلك بأن القدماء كانوا إذا أرادوا الحديث عن أهل الحاضرة من تلك الديار، ذكروهم بأسماء قبائلهم، فإذا تَحدَّثوا عن أهل البادية من القبائل الرحَّل استعملوا كلمةَ «العرب» بصِيَغٍ مختلفةٍ مثل: عَرِيبي أو أَريبي، عَرَبُو، عَرِيبُو، عَرَبي أو أَرَبي، إلى ما هنالك من الصِّيَغ، مما يَدُلُّ على أنها لم تكن تعني غيرَ الأعرابيّةِ والبداوةِ[٢]... وإني أعتقدُ أن الدقَّة في التعبير قد فاتَتْهُ، وإنما قصْدُهُ أن «العربَ» هو الإسمُ الذي عُرفتْ به القبائلُ المتنقِّلَة في البوادي الممتدَّة من الفُرات حتى وادي عَرَبَة وسيناء ونهر النيل، ومن وسط جزيرة العرب حتى التخُوم الجنوبية لبلاد الهلال الخصيب[٣]، ولم يَقصدْ أن كلمةَ «العرب» تعني البداوةَ، وسَكَنَ الصحراءِ،

---

(١) المفصَّل: ٤/٢٩٨ـ٢٩٩. وعالِيَةُ نَجْد: جَنُوبُه مع مَيْل نحو الغرب.

(٢) المرجع نفسه: ١/١٦، ١٨، ١٩، ٢٦، ٥٧٥، ٦٢٩ و ٤/٢٧٤.

(٣) الهلال الخصيب: مُصْطَلَح أطلقه المؤرخ برستيد، وأراد به القوسَ التي تُشكِّلُها بلاد الرافدين في اتصالها ببلاد الشام، ابتداء من رأس الخليج العربي حتى سيناء، وتقع في باطنها باديةُ الشام، التي تُعَدُّ امتداداً لجزيرة العرب.

والتقلُّبَ فيها[1]، كما يُفهم من عبارته... وليس في الأصول الحِسِّيَّة أو الوضْعيَّة لهذه الكلمة ما يُفِيد معنى البداوة، ولا تكاد معانيها تخرجُ عن الإبانَةِ والوضوحِ والإفصاحِ، والكـثْرةِ، وسُرعةِ الجَرْيِ، والخُلوصِ والنقاء[2]... وتُفيدُ لفظةُ «عَرَبُو» في البابلية والآشورية أيضاً معنى الإعراب والإفْصاح[3]. وقد جاء في النصوص الآشورية أن سَنْحَريب ملكَ آشُور (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق. م) توغَّل في عُمْق البادية، وأخْضَعَ «أَدُّومَاتُو» أي دومةَ الجَنْدَل[4]، مَعْقِلَ «أَرِيبي» أي معقلَ العرب[5]. والمعروفُ أن القبائل الرحَّلَ، بيوتُها من الصوف والشَّعر، يُقوِّضُونَها متى شاؤوا، ويرتحلون، والمعاقِلُ إنما تُبنَىٰ بالطين والحجارةِ العِظَام، وكان يكون فيها عادةً بيوتٌ وقُرى ومعبدٌ ومَرافِقُ، ويحيط بها حِصْنٌ منيعٌ يحميها من الغزو والغارات. وهذا يعني أن العرب لم يكونوا يومئذٍ جميعاً مُتَنقِّلين، بل كان فيهم أقوامٌ مستقرَّةٌ، في قُرى منيعةٍ مُحَصَّنَةٍ، وذلك يُسْقِط فَرضَ أن تكون كلمةُ العربِ مُساويةً لكلمة البداوة، أو أن تكون البداوةُ، بمعنى عدمِ الاستقرار في مكانٍ واحدٍ، أو بمعنى الارتحالِ الدائم، من معانيها.

وقد كانت مواضعُ كثيرةٌ من جزيرة العرب مملوءَةً بالقُرى وأهلِ القُرى من العرب المستقرِّين، وكانت لهم أبنيةٌ من الحجر والطين، ومما يُذكر في

---

(١) التقلُّبُ: التنقُّلُ طلباً للرزق.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ٤١٧، ولسان العرب: ١/ ٥٨٦ ـ ٥٩١ (عرب).

(٣) د. عبد الحميد زايد ـ لغات الشرق الأدنى: ١١٥٥ مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني ٩٧١/ ٩٧٢.

(٤) دومة الجندل: تقع شمالَ نجد على حدود الشام، ويلاحظ أنها كُتبت بالآشورية كما تُنطق بالعربية: أَدُّومَاتُو، ليس فيها ال التعريف ولا الحركات، أي الدُّومَةُ.

(٥) تاريخ الجنس العربي: ٣/ ١٣١.

هـذا السبيـل، أن بيتَ ذي الخُلَصَـة فـي سَـرَاةِ الحجـاز، وهـو مـن معـابـد الجاهلية، كان مبنيّاً بالحجارة العِظَام والطين، ولمَّا قَصَدهُ جريرُ بنُ عبد الله البَجَليَّ يريدُ هدمَهُ في الإسلام، كما أمره رسولُ الله، لم يَقْوَ على حجارته، فاكتفى بهَدْمِ الأوثان، وتَركَ البُنْيانَ قائماً، حتى هُدِمَ، كما حَقَّق رُشْدي مَلْحَس، في عهد الملك عبد العزيز الفيصل آل سعود، سنة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م)، ونَقَل عمَّن حضروا الحملةَ، أن حجارة البنيان كانت من الضخامة بحَجْمٍ، احتاج معه الحَجرُ الواحدُ إلى نحوِ أربعينَ رجُلاً ليُزحْزِحُوهُ عن مكانه، وأن متانتَهُ تدلُّ على حِذْقٍ ومَهارَةٍ في البناء، وأنه لمّا جَرَىٰ هَدْمُهُ كان تامّاً غير ناقص[١]. . . ويُحدِّثونَكَ بعد هذا عن التخلُّفِ، وبُيوتِ الشَّعْر، وأن العرب لم يعرفوا البناءَ الحجريَّ!

المطلب الثاني ـ تَأوُّلُ مفردَات العربية على غير معانيها:

ويبدو لنا التحاملُ على العرب جَلِيّاً، في تأوُّل عددٍ من مُفْرَداتِ الجاهلية، على غير ما وُضِعَت له من المعاني في الأصل، كالغزو، وأيام العرب، والسَّلْب، والنَّهْب، وغيرها، والخَلْطِ بين معانيها في دَلاَلَةٍ واحدة، لا تكادُ تخرجُ عن العدوان والسرقة واللصوصية. . . كالذي لاحظناه في حديث بعض الباحثين والمؤرخين، ممَّن جعلوا شنَّ «الغارات» مثَلاً أعلى للرجولة عند العرب، و «الغزوَ» من أركان بنائهم الاقتصادي، و «السَّطْوَ» مهنتَهم الطبيعيةَ والشرعيةَ في مبادئهم الأخلاقية، و «النَّهْبَ» مصدرَ ارْتزاقِهم الوحيدَ، و «السَّلْبَ» وسيلتَهم إلى الحياة[٢]. . . وهو غَلَطٌ قطعاً، لو صحَّ بعضُه لما

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢.

(٢) تاريخ العرب: ٥٣، والعرب في التاريخ: ٥٧، وتاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٢٤ و ٢٨، وفجر الإسلام: ٩. . .

راجت تجارةٌ في بلاد العرب، ولا قامت أسواقٌ، ولا انعقدتْ مواسمُ، ولا تحرَّكت قافلةٌ من مَوْضِعها. . ومع هذا قَلَّ أن تجدَ باحثاً في تاريخ الجاهلية، أو أدَبِها، لم يُتْبِـعْ تلك المفرداتِ، بعضَها بالبعضِ الآخَرِ، في جُملةٍ واحدة، وكأن ذِكْر إحداها يَسْتَتْبعُ ذِكْرَ الأخرى بعدَها لُزوماً! فكلما ذُكر يومٌ من أيام العرب في واقعةٍ، أو ذُكر الغَزْوُ في موضع، أُتْبِعَ بالسَّلْب والنَّهب والغارات والسَّطو، وسُوِّيَ في ذلك بين أيام العرب وغارات الصعاليك والأغْرِبَة والشُذَّاذ، أو الخارجين على شريعة العرب وتقاليدهم. كقول أحدهم في حديثه عن العرب: «فتاريخ البُداةِ في غالبه سجلٌّ للحروب المعروفة عندهم بأيام العرب، التي كانت تشيعُ فيها الغاراتُ والنَّهْبُ. . .»[1]، ومَثَّلَ لهذه الأيام، فذكر منها: أيامَ الفِجار، والبَسُوس، وداحسٍ والغَبْراء، واستقلالِ عربِ نَجْدٍ والحجاز عن اليمن، وهو اليومُ الذي اشْتُهِرَ بيوم خَزاز[2]، على الرغم من أنه ليس وراء أيِّ يومٍ من هذه الأيام، ما يمكن أن يُسمَّىٰ رغبةً في الغارات، أو قصداً إلى الانتهاب، وإنما هي وقائعُ حربية، يجري عليها من القواعد ما يجري على الحروب عادةً، ومن حق الغالب فيها يومئذٍ الفوْزُ بسَلَبِ المغلوب. ولو حاول الباحثُ الكريمُ التثبُّتَ، لا مجرَّدَ النقل، لعَرَفَ أن أيام الفِجَارِ الأخير أسبابُها الحقيقيةُ محاولةُ النعمانِ ملكِ الحيرة، حِرْمانَ بني كنانة حَقَّهم في الإفادة من مُرور قوافله التجارية ببلادهم، وأن أيام البَسُوسِ كانت غَيْرَةً على الجِوارِ وثورةً على الظلم، وأيام داحِسٍ والغَبراء كانت بسبب الغدر، وأن يومَ خَزازٍ كان «أعظمَ يوم للعرب في الجاهلية، تحرَّرَتْ فيه قبائلُ نزار من سيطرة اليمن، فلم تَزَلْ نزارٌ مُمْتَنِعةً، قاهرةً لليمن في كل يوم التقوا

---

(١) د. محمد طاهر درويش ـ حسان بن ثابت: ٥٨.

(٢) خَزَازُ: إسمُ موضعٍ، ربما كان جبلاً، بين البصرة ومكة.

به بعد خَزَازِ»[1]. . . والغريب في أمر هذا الباحث، أنه سمَّى يومَ خَزازٍ بيوم استقلال عرب نجْدٍ والحجاز عن اليمن، وصنَّفَهُ مع ذلك في أعمال النَّهْب والغارات!

وأعتقد أن هذا المَثَل كافٍ للدلالة على ما امتلأتْ به مُصَنَّفاتٌ كثيرةٌ، من أغَالِيطَ نُقِلت من غير تحقُّق أو تَثبُّتٍ، بل من غير معرفةٍ غالباً بمعاني المفردات في العربية، ومنها: أيامُ العرب، والغَزْوُ، والغاراتُ، والسَّطْوُ، والسَّلْب، والنَّهب. . . وأرى من الضروري أن نتعرَّضَ للمعاني المقصودةِ أصْلاً بهذه المفردات، لأن معرفتَها تجلُو غموضاً، ما يزال يجعلُ من عرب الجاهلية كافةً، أمةً مُتفرِّدةً في تَوَحُّشِها، متخلِّفةً في وسائل معيشتها.

١ ـ فأما أيامُ العرب: فهي وقائعُ التنازُع، التي كانت بينهم في الجاهلية، ومنها ما كان مُنَاوَشاتٍ، يخرجون إليها، «فيَترامَوْن بالحجارة، ويتَضارَبُون بالخشَب»[2]، ومنها ما كان معارِكَ حربيةً، وقد لا يبلغُ عددُ المتنازعين فيها أحياناً عشرةً، أو خمسةَ عشَرَ رجُلاً، ولا يزيد غالباً على مئةٍ أو بضع مئاتٍ، ونادراً ما تجاوزَ ألْفاً، وكانت العربُ تُسمِّي الرجُلَ إذا قاد ألْفاً: جَرَّاراً[3]. وقد سئل عنترة: كم كنتم يومَ الفَرُوق[4]؟، وهو يومٌ من أيام العرب كان لبني عَبْسٍ على بني سعد بن زيد مناة بن تميم، فقال: كنا مِئةً، لم نكثُرْ فنتَّكِلَ، ولم نَقِلَّ فنَذِلَّ[5]. . . وإنما سُمِّيَت هذه الوقائعُ أيّاماً، لأن

(١) معجم البلدان: ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) الأغاني: ٣/ ٩.

(٣) المحبَّر: ٢٤٦، ولسان العرب: ٤/ ١٣٣ (جرر).

(٤) الفَرُوق: عقبةٌ دون هَجَر، إلى نَجْد، في ديار بني سعد.

(٥) العقد الفريد: ١/ ١٠٤، ومعجم البلدان: ٤/ ٢٥٨.

الواقعة منها كانت، مهما عَظُمتْ، تقع في يوم واحدٍ غالباً، فيفْرَغُ الناسُ من القتال مع غروب الشمس، ويَعُودون إلى مِثله من سنةٍ أخرى إذا لم يتمَّ الصلحُ بينهم في ذلك اليوم، إذ من العيب أن يُسَلِّم العربيُّ بالهزيمة، أو يفرَّ من المعركة، أو يكفَّ عن المطالبة بالثأر، وبين الموعدين ترجعُ الحياة إلى طبيعتها، وكأن شيئاً لم يكن. ولكن الباحثين توسَّعوا في أمر تلك الأيام، توسُّعاً جاوَزَ حدودَ العقل، وبالغوا في قتلاها، مُبالغةً بلغتْ حدود الكذب! فحربُ البَسُوسِ بين بكرٍ وتغلب مثلاً، لم تكن أربعينَ سنةً من القتال «ما تهدأ إلا لتبدأ. . .»[1]، كما يتوَّهمُ الباحِثُونَ في تاريخ الجاهليَّة! وإنما كان لهم فيها خمسُ وقَعاتٍ، وبعضُ المُغَاوَراتِ على مدى أربعين سنةً، كان الرجُلُ فيها يَلْقَى الرجُلَ، والرجُلانِ الرجُلَيْن، ونحوُ هذا، فيُحْسَبُ ذلك وقعةً أو غارةً[2]. . . ولمّا مَلُّوا النزاعَ مَضَتْ جُموعُ تَغْلب فصالحتْ بني بكر، وانتهتِ الحربُ بينهم نحو سنة (٥٢٥ م) برعاية المنذر الثالث ملك الحيرة[3]. . . وقد أسْنَدَ الأصفهانيُّ إلى أحد الرواة قولَهُ: «إنه لم يكن بينهم من قَتْلىٰ تُعَدُّ، أو تُذكَرُ، إلا ثمانيةَ نَفَرٍ من تغلب، وأربعةً من بكر. . .»، فزاد بعضُهم على هؤلاء أربعةً، فتعجَّب الراوي وقال: «وما أربعةٌ إن كنتُ أغْفَلْتُهم، فيما يقولون إنهم قتلوا يوم كذا ثلاثةَ آلاف، ويوم كذا أربعةَ آلاف؟ واللّهِ ما أظنُّ جميعَ القوم كانوا يومئذٍ ألْفاً!»[4]. والقولُ نفسُهُ يُقال في حرب داحِسٍ والغبراء، فقد هاجت بين بني عَبْسٍ وبني ذُبْيان أربعين سنةً، بمعنى أنهم ظلُّوا مُخْتَصِمينَ كلَّ تلك المدَّة، لا مُشْتَبكِينَ في قتالٍ استمرَّ أربعين سنةً من غير

(١) حسان بن ثابت لدرويش: ٥٩.
(٢) الأغاني: ٥/ ٣٤.
(٣) تاريخ العرب: ١٣١.
(٤) الأغاني: ٥/ ٤٥ ـ ٤٨.

توقُّف!، إذ لم يكن بينهم فيها سوى سِتِّ وقائع مَشْهورةٍ، في ستة أيام لا أكثر، وفي اليوم السابع اصطلحوا، وانتهت الحربُ[1]، وحَمَلَ الدِّيَاتِ عنهم جميعاً في مَالِهِ الحارثُ بنُ عَوْفٍ المُرِّيُّ[2]... وفي حرب الفِجَار الأخيرة بين قريش وكنانة من جانب، وقبائل قيس بن عَيْلان من جانب آخَر، كانت لهم فيها خمسةُ أيام من القتال، مُتفرِّقةً على أربعة أعوام، وفي اليوم الخامس منها تمَّ الصلحُ بينهم[3]، ولم تذكر لهم مختلفُ المراجع في هذه الوقائع أكثر من بضعةَ عَشَرَ قتيلاً.

ولم تكن أسبابُ الوقائع تخرجُ غالباً عن ثورة الناس على تَعسُّفِ القبائل الكبيرة في فَرضِ الأتاوات، أو تشدُّدِ الزعماء في جباية الضرائب، وكثيراً ما كانت نِزَاعاً على المياه والمراعي في أيام العُسْرِ والجفاف، أو تمرُّداً على الظلم، أو طلباً للثأر[4]... وهذه كلُّها أسبابٌ طبيعيّةٌ في المجتمعاتِ القديمةِ، وليس فيها ما يدعو إلى التعجُّبِ والاستغرابِ، وكأن العالم لم يعرفْها إلا في العرب. وإذا اتخذنا حربَ البَسُوسِ هنا أيضاً مَثَلاً، تبيَّن لنا مما ذكرهُ الأصفهانيُّ عنها، أنها كانت في حقيقتها ثورةً على البَغْي والظُلم، وإن كان سَبَبُها المباشرُ غَيْرةً على الجِوار، ودفاعاً عن الجار. ذلك أن كُلَيْبَ بنَ ربيعة زعيمَ بني وائل، عَزَّ وسَادَ قبائلَ ربيعةَ كلَّها، فبغَىٰ فيها بَغْياً شديداً، وسَامَ أبناءها ضُروبَ الخسْفِ والذُّلِّ، وبلَغَ من بَغْيِهِ أنه أخذ يُذِلُّ بني مُرَّة بن ذُهْل بن شيبان، وكانوا عشرةَ رجالٍ، أصغرُهم جَسَّاسٌ، وكانت أختُهم زوجةَ

(١) العقد الفريد: ٥/ ١٥٠ ـ ١٦٠.

(٢) المعارف: ٦٠٧.

(٣) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٨٨ ـ ٥٩٥.

(٤) المفصَّل: ٥/ ٣٤٣.

لِكُلَيْب، فما رَعَىٰ لهم حُرْمَةَ الصِّهْر، بل قتل ناقةً لخالة جسّاس كانت تَرْعَى من غير إذْنِهِ، فثار به جسّاسٌ عندئذٍ، وقتله للخلاص من ظلمه وبَغْيِهِ، ثم كان بعد ذلك من النزاع ما كان[1]. . . وقُتِل من الفريقين، على ما ذكرنا آنفاً نحوُ ستةَ عشَرَ رجُلاً في أربعين سنةً من الاختصام، فيما قَتَل كسرى أنو شروان، أعظمُ ملوك الأسرة الساسانية بإيران، والذي اشْتُهر بالعادل، جميعَ إخوته وأبنائهم من الذكور في وقعةٍ واحدةٍ، ولم يَسْتَبْقِ منهم غير واحدٍ، وكانوا بالعشرت، كما قَتَل في يومٍ واحدٍ مئةَ ألفٍ بدعوى أنهم من أتباعِ «مَزْدَك» داعِيَةِ الزَّنْدقة[2]. . .

وإذا كانت أيامُ العرب وقائعَ بين القبائل، إلا أن حُكْمَها فيهم حُكْمُ الحروب، وما كان يجري فيها من غزوٍ وغارات، وهجوم ودفاع، وغنائمَ وأسْلابٍ، وقتلٍ وأَسْرٍ وفداء، وما إلى ذلك، يُعَدُّ كلُّه من الأمور المشروعة في قواعد الحرب، لم يَنْفردِ العربُ به دون سائر الأُمم، ولا سيما الفرس واليونان والرومان، إن لم يكن عند هؤلاء أكثر قسْوةً وغِلْظةً، فقد تَميَّز العربُ بما كان يُحْكِمُ وقائعَهم من مَكارم الأخلاق، فكانت كما قال فيها ابنُ عبد ربه: «مَآثِرَ الجاهليَّة، ومكارِمَ الأخلاق السَّنِيَّة»[3]. . . ومن ذلك ما أَثْبَتَهُ الأصفهانيُّ عن يوم عُكاظ، وهو يومٌ من أيام حربِ الفِجَار، فذكر أن «مسعود بن مُعَتّب الثقفيَّ» وهو من قبائل قيس بن عيلان، أَحَدِ فريقَيْ الحرب، ضَربَ خِبَاءً على امرأته «سُبَيْعَة بنت عبد شمس بن عبد مناف»، وهي من قريش، أي من الفريق الآخَرَ، وكانوا يصطحبون نساءَهم إلى الحرب، ثم نَظَرَ، فرآها تبكي حين تَدانَىٰ الفريقان للقتال، فقال لها: ما

---

(١) الأغاني: ٥/ ٢٩ ـ ٣٤، والمعارف: ٦٠٥.

(٢) موسوعة تاريخ العالم: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧، والأغاني: ٩/ ٧٨.

(٣) العقد الفريد: ٥/ ١٣٢.

يُبْكيكِ؟ فقالت: أن يُصابَ قومي! فقال: لا عليكِ، كلُّ مَن دَخَل خِبَاءَكِ من قومك، فهو آمِنٌ... ثم اتفق يومذاك أن دارت الدائرةُ على قومه، فانهزموا، فأسرعوا، ودخلوا خِباءَها يستجيرون بها من قريش وكنانة، فأَجَارتْهم، فَأَمْضَى لها جوارَها حربُ بنُ أمية بن عبد شمس، وهو ابنُ أخيها وصاحبُ القيادة، وقال لها: يا عَمَّه! من تَمسَّكَ بأطْنَابِ خِبَائِكِ، أو دار حوله فهو آمِنٌ... فقامت تُنادي بذلك، وأمَرتْ به أبناءَها، وكانوا غِلْماناً لِتُكْسِبَهم فخراً، فطافوا بقوم أبيهم يقودون الخائفين منهم، والمستجيرين، إلى خِبَاءِ أُمّهم، فلم يبق أحدٌ من بني قيس لم يجدْ لنفسه نجاةً، إلا دار بخبائها، حتى زوجُها لمّا انهزم، خَرَجَ من القتال، فأتى خِباءَها وقال لها: أنا بالله وبكِ! فقالتْ: إجلسْ فأنتَ آمِنٌ[1]...

فانظُرْ كيف أمْضَى لها قومُها إجارتَها أعداءَهم، وقد مَلَكُوا رِقابَهم، فكَفُّوا أيْدِيَهم عنهم وفاءً لوعدها، وكذلك كانت مكارمُ الأخلاق في الجاهلية مِعْيَارَ حضارتهم، ومقياسَ رُقيِّهم، فكانوا يُؤَمِّنُونَ الخائفَ، ويُغِيثُونَ المُسْتَجيرَ بهم ولو كان لهم خصيماً، وكان حَسْب المستجيرِ أن يدخل خيمة المُجير كما رأينا، أو يُمسِكَ بأحَدِ أطرافها، أو يدورَ حولَها حتى يكون آمناً من القتل، أو الأسْرِ، أو الجُوع، أو الخوف، وليس عليه في ذلك أن يحمل ذُلَّ السؤالِ والرَّجاء، وهَوَانَ الطلبِ والاسْتِجْداءِ... هذا ما كان عليه سَرَاةُ العرب وسَادتُهم ورؤساؤهم في الجاهلية، وهو ما يُعوَّلُ عليه في كتابة تاريخها، وليس على ما كانت تَنْتهِكُه من حُرمات الأمن أحياناً، فئاتٌ قليلةٌ منهم، خرجت على شِرْعَتِهم وتقاليدهم... وفي أحاديث الجاهلية أن بعض الصحابة سُئِلَ: ما كنتم تتحدَّثون به إذا خَلَوْتُم في مَجالِسكُم؟ فقال: كنا

---

(١) الأغاني: ٢٢/٧٣ ـ ٧٥، و ٧٩ ـ ٨٠، والمفصَّل: ٥/٣٨٣.

نتناشَدُ الشعرَ، ونتحدَّث بأخبارِ جاهِليَّتِنا... وأن بعضهم قال: وَدِدْتُ أنَّ لنا مع إسْلامنا كَرَمَ أخلاق آبائنا في الجاهلية[1].

٢ ـ وأمَّا الغَزْوُ: فالأصلُ في مَعْناهُ عند العرب الطَّلَبُ، وهو إرادةُ شيءٍ ما، والخروجُ في طلبه، وقَصْدِهِ في محلِّهِ. والمَغْزَىٰ: موضعُ الغَزْوِ، والمغَازِي: مَناقِبُ الغُزَاةِ، وفعالُهم، وغَزَواتُهم[2]. لكنَّ الاصْطِلاحَ صَرَفَهُ إلى مَعَانٍ مُتعدِّدةٍ، أساسُها جميعاً الطلَبُ، وأبْرزُها إثنان:

الأول: السَّيْرُ إلى قتال العدوّ، في دياره، وانْتِهابه[3]. وأسبابُهُ مختلفة، منها: نقضُ العهود، وإنكارُ الحقوق، والطمع، والتعسُّفُ، والثأر، وغيرُها، وعُدَّتْ منه أيام العرب[4].

الثاني: الخروجُ في طلبِ الرزقِ والمَعَاش، وأسبابه: الفقرُ، وشُحُّ السماءِ بالماء، وإمْسَاكُ الأرض عن العطاء. فكانت القبيلةُ من قبائل العرب إذا امْحَلَتْ، قَصَدتْ مَوْضِعاً آخَرَ، يتوافَرُ فيه الماءُ والكَلأُ، فإن وجدتْ قوماً نَزَلُوا به، عَرَضَتِ الجِوارَ والشَّرِكةَ، فإن أبَوْا، أَنْذَرتْهم بحربٍ بعد ثلاثة أيام، ولم تُباغِتْهم بها، لِئَلاَّ يُحْسَبَ ذلك غَدْراً، فالغدرُ عند العرب عارٌ ولُؤْمٌ، وكانوا «يرَوْنَ في الإنذار بالحرب قوَّةً وشجاعةً، وفي المُباغَتَةِ جُبْناً وضَعْفاً...»[5]، وكانوا يكرهون في الغَزْو عادةً «أن تُراقَ الدماءُ، إلا في حالة الضرورة القصْوَىٰ...»[6]، ويُحرِّمونَ إتْلافَ الزَّرْعِ، وحَرْقَ الشجَرِ،

---

(١) نهاية الأرب: ١٥/ ٣٣٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٢.
(٢) لسان العرب: ١٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤ (غزا).
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المفصَّل: ٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٥) المرجع نفسه: ٥/ ٤٣٤.
(٦) تاريخ العرب: ٥٤.

وسَدَّ عُيونِ المياه، وكان سلاحُهم في مثل هذا الغَزْوِ غالباً العِصِيَّ والحجارةَ وما شاكَلها. . .

ويدخلُ في هذا المعنى غَزْوُ الأعرابِ أرْياف الحواضرِ الغَنِيَّةَ، المتَّصِلةَ بالبلاد المجاورةِ للبادية، حيث الفقرُ والجوعُ والعطشُ، ولا سيما في زمن القحط والجَدْبِ. ويتميَّزُ هذا الغَزْوُ بما كان يُشِنُّهُ الأعرابُ الغزاةُ من غاراتٍ سريعةٍ ومُباغِتَةٍ على الأرياف، فيغنمون منها ما يُعِينُهم على قسوة الحياة في الصحراء، ويُقيمُ أَوَدَهم في أيام الشحِّ والجفاف[1]. . . ولعلّ هذا الضَّرْبَ من الغزو الذي شَهِدَتْهُ المناطقُ الخصبةُ، المُتاخِمَةُ لبلاد العرب، كان في بعض أشكاله نوعاً من كراهية الحدود، ورفضاً لاحتكار شعبٍ أرضاً خِصْبَةً غَنِيَّةً من دون جِيرانهِ المُمْحِلينَ الجَوْعَى، والمعروفُ أن أهلَ الفَلَواتِ لا يعترفون بالقُيود أو الحدود، ولا يعتقدون بخُصوصِيةٍ في الأرض وما عليها من الأشياء.

وشَبيهٌ بهذا الغزو أيضاً، غاراتٌ كان يُشِنُّها، بدافع الجُوعِ والفقرِ، في البادية، صعاليكُ العربِ على تُجّارٍ أغنياء، أو أحياءٍ مُوسِرَةٍ من قبائل العرب في البادية، رَجَّالةً حيناً، وفُرساناً حيناً آخَرَ، فُرادَىٰ تارةً وجماعةً تارةً أخرى، يبتغون بها توفيرَ الرزق لأنفُسِهم وعِيَالِهم، في مجتمعٍ نَبَذَهم، وغَلَّق في وجوههم أبوابَ الحياة، على أن هذا لا يجعلُ من الغَزْوِ في جميع أشكاله كالإغارة، وإن كان في بعضها إغارةٌ تَسبِقُ الغزوَ أحياناً، أو تُعْقِبُه أحياناً أخرى. . . فالغزوُ في مُعظم ضُروبهِ، كالهجرةِ والحربِ والجهادِ، يسبقُه إنذارٌ، وليست الغارةُ كذلك، إذ يُباغِتُ المغيرُ فيها من يَقصدُهم، ويأخُذُهم

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٤٠٤.

على غَفْلةٍ، فيَغْنَمُ منهم، ويرجعُ عنهمَ مُسْرعاً قبل أن يطلبوهُ بالقِصَاص والانتقام[1].

وعلى ذلك، فالغزو بهذا المعنى، وفي صُوَره الثلاثِ المذكورة، إنما هو نتيجةٌ أدَّتْ إليها ظروفٌ طبيعيَّةٌ، واجتماعيَّةٌ، واقتصاديَّةٌ، نزلتْ بالبادينَ والأعرابِ، وأَجْبَرتْهم على رُكوبِ هذا المركبِ الخَشِنِ، وإن كانوا له كارهين، فليس لهم إذا شاؤوا المحافظةَ على حياتهم، وتَوْفيرَ معاشِهم، إلا هذا الغَزْوُ يتوسَّلُونَهُ عادةً في زَمَنِ القَحطِ والجَدْبِ[2]. ولم يكونوا في ذلك بِدْعاً من الأمر، فالغزو كان فاشِياً وقتئذٍ في سائر الأمم، وقد ظلَّت قبائلُ من بلاد الروم تُغِيرُ، برّاً وبحراً، على مواضِعَ في شمال الشام أيامَ معاوية بن أبي سفيان، وكانت الأحداثُ الداخليةُ شَغَلَتْه عن التصدِّي لهم، فاضْطُرَّ إلى إرضاء قسطنطين ملك الروم، بإتاوَةٍ سنويةٍ أَدَّاها إليه، ليمنع عنه إغارةَ تلك القبائل[3]. وكذلك فَعل الرومُ والفرسُ من قَبلُ في الجاهلية، فكانوا يُقِيمُونَ المسَالحَ على حدودهم، ويحفرون الخنادق، ويُقدِّمون الهدايا والأموالَ إلى رُؤساءِ القبائل في البادية، ويَدعمون مُلوكَ العرب بالمعُونات المختلفة، لِيُسْهِمُوا في حماية مناطق الحدود، وكَفِّ الأعراب الغُزَاة عنها[4]، فقد كان الغزوُ في أزمان القحط والجَدْبِ، يكون باتجاه مناطق الخِصْبِ في بلاد الرافدين ورُبُوع الشام، وكان أَقَلُّهُ يأخذ شكل الغارات المُبَاغِتَةِ السريعة، والعودةَ بالغنائم، وأكثَرُهُ يقصدُ التمدُّدَ إلى مناطقَ جديدةٍ للسَّكَن بها وتَوَطُّنِها.

* * *

(١) المفصَّل: ٥/ ٤٠٣، وتاج العروس: ١٣/ ٢٧٤، ٢٨٢ (غور).

(٢) المفصَّل: ٥/ ٣٣٤.

(٣) د. أسعد طلس ـ تاريخ العرب: ٤/ ٢١، والعقد الفريد: ١/ ١٣٢.

(٤) المفصَّل: ٥/ ٤٠٤.

٣ ـ ومن الطبيعي إذا كان في أيام العرب، أو الغَزْوِ، أو الغاراتِ قِتالٌ، أن يكون فيهـا سَلْبٌ، ونَهْبٌ، وسَطْوٌ وغيرُهـا، فتلك هي سُنَّةُ الحرب، وهي أمور مشروعةٌ فيها... غير أنه ليس في أصول معاني تلك المفردات، ما ينصرفُ إلى السرقة واللصوصيَّة، كما تَوَهَّم أولئك الباحثون والمؤرخون لعصر الجاهلية...

فالسَّلْب: من السَّلَب، وهو جُملةُ الثيابِ والسلاح والدابَّة تكون للمُقاتِل، فإذا قُتِل في المعركة سُمِّيَتْ سَلَباً[1]، وصارت من حقِّ قاتله. والسَّلَبُ أيضاً: الشيءُ الذي يَسْلبهُ الرجلُ من الغنائم ويَتَولّى عليه[2]. والاسْتِلابُ: الاخْتِلاسُ، وهو أن يأخذَ القِرْنُ قَرِينَهُ الذي يُبَارِزُهُ في المعركة، بِحذْقٍ وحَذَرٍ وشجاعة، لِيَأسرهُ أو يقضيَ عليه، والخُلْسَةُ هي النُّهْزَةُ والفُرْصَة والحِذْقُ، والخَليسُ والخَلْسُ والمُخَالِسُ: الشجاعُ الحَذِرُ[3]... وكانوا يقولون أيضاً: حَرَبَهُ، وتركه مَحْروباً، إذا سَلَبَهُ كلَّ مالِهِ في الحرب، والحَرِيبةُ كالسَّلَبِ، هي المالُ الذي يُؤخَذُ من الحرب، والمَحْروبُ: المَسْلوبُ المنْهُوبُ[4].

والنَّهْبُ: هو الغنيمةُ، ولا يُعَدُّ غنيمةً إلا ما أُخِذَ في حربٍ أو قتالٍ[5]، وكانوا يقولون: ولا يَؤُوبُ بالنَّهْبِ إلا الشجَاعُ[6]... وكثيراً ما كانوا يأتون

---

(١) لسان العرب: ١/ ٤٧١ (سلب).

(٢) تاج العروس: ٣/ ٦٩ ـ ٧٠ (سلب).

(٣) لسان العرب: ٦/ ٦٥ (خلس).

(٤) تاج العروس: ٢/ ٢٥١، ولسان العرب: ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ (حرب).

(٥) لسان العرب: ١٢/ ٤٤٦ (غنم).

(٦) الأصمعيّات: ٢٢٦.

الأسواق في مواسمها، يطلبون الشُّهْرَةَ والحمدَ في مجامع العرب، فكانوا يُنْهِبُونَ أموالهم[1]، أي يجعلونها كالغنمية حَقّاً لمن يَنْتَهِبُها، فالإنْهابُ: إباحةُ الرجُلِ مالَهُ، والانتهابُ: أن يأخُذَهُ من شاء[2].

والسَّطْوُ: هو البطشُ والقَهْرُ، وسَطَا به وعليه: صَالَ، والمُصَاوَلَةُ: المُواثَبَةُ، وأكثَر ما تكون في الصراع والقتال[3]. . . هذا هو معنى السَّطْوِ في أصله، فكيف يمكن أن يكون مِهْنَةً طبيعيّةً وشرعيّةً يحترفُها شعبٌ بكامله، كما زعم برنارد لويس[4] عن العرب؟ وهو ما أشرنا إليه في المطلب الأول من هذا الفصل أو ما معنى أن يكون هذا الشعبُ كلّه بطّاشاً، قهّاراً، صَؤُولاً[5]، ولم يَذكرِ التاريخُ أن العرب كانوا يوماً كذلك؟ . . .

* * *

تلك هي أصولُ المعاني للمُفْردات، التي تَأوَلّها أهلُ العصبية في تحامُلِهم على العرب، وصَرَفُوها إلى معاني العُدْوان واللصُوصِيَّة والسَّرِقة، حتى أن أحمد أمين أراد أن يكشف العِلَّةَ في الغزو عند العرب، فردَّهُ إلى مَيْلٍ فُطِرتْ عليه نفوسُهم، كان يَدفعُهم «إلى الغَزْوِ، والنَّهْبِ، وتَهديدِ الممالكِ المُمدَّنةِ على التخوم، والهجوم عليها من حينٍ لآخَر. . .»[6]، كما كان

---

(١) الإصابة: ت ٧٩١٩/ ٣/ ٣٨٥، ومجمع الأمثال: ٢/ ٢١٣، ولسان العرب: ٥/ ٥٤ (فزر).

(٢) تاج العروس: ٤/ ٣١٨ ـ ٣١٩، ولسان العرب: ١/ ٧٧٣ (نهب).

(٣) لسان العرب: ١٤/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤ (سطا)، و ١١/ ٣٨٧ (صال)، و ٦/ ٢٦٧ (بطش).

(٤) برنارد لويس: كان أستاذاً لتاريخ الشرق الأوسط بجامعة لندن، وهو صاحب كتاب «العرب في التاريخ»، ألّفَهُ بالرجوع إلى علماء الاستشراق، ونقله إلى العربية سنة (١٩٥٤ م) د. نبيه أمين فارس، ود. محمود يوسف زايد المدرِّسان بالجامعة الأميركية في بيروت.

(٥) الصَّؤُولُ: الذي يبطشُ بالناس ويتطاول عليهم.

(٦) فجر الإسلام: ١٣.

يدفعهم إلى القتال والعُدْوان، فإذا «لم يجدوا عَدُوّاً من غيرهم، قاتلوا أنفُسَهم...»[1]!، وذهب آخرون إلى أن الغزو عند العرب كان ضَرْباً من الرياضة القومية، ونوعاً من اللصوصيَّة، رَفَعتْهُ أحوالُ البادية إلى مَرْتبةٍ، يُقِرُّها النظامُ القوميُّ، فأصبح من أركان البنَاءِ الاقتصادي في المجتمع البدويّ[2]... وقال بعضُهم: إن العرب كانوا «إذا أعْوَزَهُم النّهبُ، أغارُوا على الجِيران...»[3]، وأن شأنهم كان منذ عصر الجاهلية أن يُشِنُّوا الغارات، وينهبوا القُرى، ويغزو بعضُهم بعضاً[4]... إلى غير ما هنالك من أقوال، يحسَبُ قارِئُها أن الغَزْوَ والغاراتِ والانتهاب أمورٌ لم يعرفْها أحدٌ من شعوبِ العالم إلا العرب! وهذا غير صحيح قطعاً. وعلى سبيل المثال، فقد حَقَّق المؤرِّخُ الإنكليزي «فِشِر» أن شعوب الدانمارك والنرويج كانت منذ أواخر القرن الثامن الميلادي تندفع جماعاتٍ إلى أوربة الغربية، تنهبُ ما امتلأت به كنائسُها من ذهبٍ وفضة، بعدما اكتشفت أن الأدْيِرةَ والكنائسَ في أيرلندا وانجلترا وفرنسا تزخَرُ بالتماثيل الدينية، والأدوات والأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وتمتلىءُ بالأقمشة المطرَّزَةِ، والستائر الثمينة، والأحجار الكريمة، فظلت تُغير عليها، وتَنْتَهِبُها حتى القرن العاشر[5]... وذكر أيضاً أنهم كانوا يتوغَّلُون في المناطق الزراعية، ويستولون على ما بها من الخَيْل، فينتشرون في أرجائها، يحرقون الغَلاَّت، ويَذبَحُون الفلاحين، ويسرقون كلَّ ما وقعت عليه أبصارُهم وأيديهم، ثم يأفُلُون راجعين بسرعة من حيث أتَوْا... وقد نجم من إغاراتهم على غرب أوربة دَمارٌ وخَرابٌ وذُعْرٌ، عَمَّتِ الشواطىءَ والأطرافَ

---

(١) فجر الإسلام: ٩.

(٢) تاريخ العرب: ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) معالم الحضارات: ١٤٣.

(٤) د. جبرائيل جَبُّور ـ البدو والبادية: ٥٦.

(٥) تاريخ أوربة في العصور الوسطى: ١١٣ ـ ١١٤ و ١١٦ ـ ١١٧.

وبَلَغَتْ جَوْفَ القارَّةِ الأوربيَّة، وكادَتْ تُودِي بكل معالم الحضارة فيها، بعدما اهتَزَّتْ لها أركانُ إنجلترا وفرنسا[1]. . . هذا مثالٌ صغيرٌ لما كان من أمر بعض الغارات في أوربة، فأين منه كلُّ ما كان من غَزْوِ القبائل، في انْتِجَاعِها مواضِعَ الماء والكلأ من بلاد العرب؟ أو ما كان من غارات الصعاليك، ولم يكونوا غير فئةٍ قليلةٍ، خارجَةٍ على مجتمعات العرب، تكاد لا تزيدُ على العَشَرات عَدّاً، في أرضينَ واسعةٍ، تبلغُ عشرةَ أضْعافِ الجُزر البريطانية، وأكثرَ من أربعة أضعاف فرنسة[2].

وبينما أكَّدَ فِشِر أن أهلَ النرويج والدانمارك كانوا قَراصِنةً قُساةَ القلوب، ليس في نفوسهم وازِعٌ من ضميرٍ أو ذِمَّةٍ أو خُلُقٍ، يُشْعِرُهم بالخطيئة، وأنهم كانوا يُدَمِّرون، حُبّاً في الدَّمَار[3]، أَجْمعَ الباحثون وأهلُ الأخبار على أن صعاليك العرب كانوا أَجْواداً كرماءَ، وأن لهم في الغزو فلسفةً اجتماعيةً خاصة، تقوم على البَذْلِ والعَطاءِ والتضحية. . .

والعجيب أن أحمد أمين، وهو ممن تحاملوا على العرب في أمر الغزو، هو الذي دافع عن الصعاليك، وأثْبَتَ أن الغارات التي كانوا يُشِنُّونَها على الأغنياء، كانت تَسْتهدِفُ البخلاءَ منهم، ولم يكن الغرضُ منها جمعَ المال وكَنْزَهُ، بل كانوا يُوزِّعونه حِصَصاً مُتَساويةً، حتى على رِفَاقِهم الذين أقْعَدَتْهم الشيخوخة، أو المرضُ، فلم يشتركوا في الغزو[4]. . .

وإذا مضَيْنا نفتشُ عن دليلٍ اسْتَنَد إليه مَن ذهبوا مذهبَ التحامُل على

---

(١) تاريخ أوربة في العصور الوسطى: ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) أطلس العالم: ٦١، ٩٣، ٩٤.

(٣) تاريخ أوربة في العصور الوسطى: ١١٣.

(٤) الصعلكة والفتوة: ٢٨.

العرب في أمْرِ الغَزْو، لم نجدْ غير أبياتٍ من الشعر، تعمَّدُوا الاسْتِدْلالَ بها على نَحْوٍ يُسيءُ إليهم، ويجعلُ العدوانَ والسرقةَ واللصوصيةَ وراءَ وقائعهم جُملةً، من غير تمييزٍ بينها، أو بين أسبابها. . . كأبياتٍ للشاعر القُطَاميّ «عُمَيْر بن شُيَيْم الجُشَميّ» وكان من نصارى تغلب، ثم أسلم، وتُوفي سنة (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)[١]، يقول فيها:

وكُـنَّ إذا أغَـرْنَ علـى قبيـلٍ ... فأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيث كانا
أَغَرْنَ من الضِبَابِ على حِلاَلٍ ... وضَبَّةَ، إنـه مـن حَـانَ حَـانـا
وأحيـانـاً علـى بكْـرٍ أَخِينَـا ... إذا مـا لـم نَجِـدْ إلاّ أخـانـا[٢]

وقد أراد الشاعرُ بها، أن قومه من بني تغلب، كانوا إذا أغاروا على جماعةٍ، فأَعْجَزَتْهُم الغنيمةُ على شِدَّة حاجتهم إليها، أغاروا على بيوتٍ مُجـاورةٍ مـن قبيلتَـيْ الضبَـاب وضبَّـة، أو علـى إخـوانهـم مـن بنـي بكـر أحيانا[٣]. . . فإذا كان الشاعرُ تحدَّث عن غارات قومه في عصره، بعدما ألغَى الإسلامُ أسبابَها[٤]، فذلك عجيبٌ، وأعْجَبُ منه أن يكون حديثُه عنهم في عصر الجاهلية، وبينه وبينهم نحوُ مِئَتَيْ سنة على الأقل، من غير أن يذكر لنا أسبابَ إغارتهم! ومع ذلك فإن أحمد أمين اتَّخَذَ من هذه الأبيات دليلاً على اعتمادِ العربِ الغارةَ والسَّلْبَ والسَّبْيَ وسيلةً إلى الرزق، وخيرَ ما يُمثِّلُ حياتَهم في الجاهلية[٥]، كما استند إليها فيليب حِتّي ورفيقاهُ في تبرير

---

(١) الأعلام: ٥/ ٨٨.

(٢) القبيل: الجماعة من ثلاثةٍ فصاعداً. الحِلاَلُ: واحدتُها حِلَّة وهي مجتمعُ القوم المجاورين أو جمعُ البيوت. وقوله: مَن حان حان، أي من جاء أجلُه فلا بُدَّ هالِكٌ.

(٣) لسان العرب: ١١/ ١٦٥ (حلل)، و ٥/ ٣٨٥ (عوز).

(٤) الشعراء الصعاليك في العصر الأموي: ١٥.

(٥) فجر الإسلام: ٩.

تحامُلِهم على العرب، فذكروا أن «الغزوَ أصبح من أركان البناء الاقتصادي في المجتمع البدوي، وأن حُبَّ القتال استولى على نفوس أهل البوادي حتى صار حالةً عقليةً مُزْمنةً، دفَعَتْ حتى القبائلَ النصرانيةَ، كبني تَغْلب، إلى مُمارسَةِ الغزو، من غير أن تَتَقيَّدَ بوازعٍ عقليٍّ أو دينيٍّ»[1]. . . ومثلُهم فعلَ برنارد لويس لمّا «جعل السَّطْوَ مهنةً طبيعيَّةً وشرعيَّةً عند العرب طبقاً لمبادئهم الأخلاقية». متأثِّراً بما نقله في كتابه عن المستشرقين المتعصّبين على العرب والإسلام[2].

ومن الواضح أن أولئك جميعاً تَأوَّلُوا مُفْرَداتِ الغَزْوِ والسَّطْوِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ، باللصوصيَّة والسرقة، افْتِئاتاً على العربية، وتحامُلاً على العرب. والغريبُ أن مُعْظَمهم يَشهَدُ لعرب الجاهلية في مواضِعَ أُخرى، بالشَّرفِ، والأَنَفَةِ، والمروءة، والكرم، والوفاء، وحماية الجار، والالتزام بالعهد، وحُسْنِ التعامُل مع من حولهم من الأُمم[3]. . . فكيف يستوي في المنطق السليم أن يكون المرءُ لِصّاً، والسرقةُ عارٌ وخِسَّة، ويكونَ في الوقت نفسِه أَنُوفاً، والأَنَفَةُ عِزَّةٌ وشرف؟ وكيف يكونُ قاطعَ طريقٍ، يَعتدي على الناس، ويَغْصِبُهم أشياءَهم، ويكونُ في آنٍ واحدٍ وَفيّاً بالوعد، حافظاً للعهد، صاحبَ نَخْوةٍ ومُروءَة؟

ولعلَّ مُعْظَم العِلَّة في هذا التأوُّلِ، إنما كان من اعْتِسَافِ المستشرقين[4]، ومن نَقَل عنهم[5]، تفسيرَ مُفْرداتِ الغزو ومُصْطَلحاته، على نَحْوٍ يتفق غالباً

---

(١) تاريخ العرب: ٥٣.

(٢) العرب في التاريخ: ٥٧، ٧٠.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٢٤، وتاريخ العرب: ٥٤، وفجر الإسلام: ٩ و ١٣ . . .

(٤) اعْتَسَفَ: الأمرَ، ركبَهُ على غير هداية أو دِراية.

(٥) أمثال طه حسين وأحمد أمين وجرجي زيدان وفيليب حتي وغيرهم.

ومعانيها في اللغات الأجنبية[1]... ففي الإنكليزية مثلاً، تشتركُ مفرداتُ الغزوِ والسَّطْوِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ جميعُها في التعبير عن السرقة واللصوصيَّة والاغتصاب والعُدوان[2]! بينما هي في العربية الفُصْحَى عموماً، وفي مصطَلَحات الجاهلية خصوصاً، وكما شَرحنا ابتداءً، ليست كذلك، فالسَّارقُ عند العرب، هو اللصُّ، أو السَّلاَّلُ[3]، وهو مَن جاءَ مُسْتَتِراً، مُسْتَخْفِيَاً، إلى «حِرْزٍ»[4]، فَهَتَكَهُ، وأَخَذَ منه ما ليس له، وكانوا يكرهون السرقة، ويأنَفُونَ من فِعْلها، ويعُدُّونَها خِسَّةً ونَذَالةً وجُبناً، وكانوا يُعَيِّرون من يقومُ بالإسْلالِ أو السَّلَّةِ[5]، «ويقطعون يدَ السارق اليُمنَى، ويصلبون قاطعَ الطريق...»[6]. أما إذا أَخَذَ من «ظاهرٍ»، فليس بسارقٍ، وإنما هو مُخْتَرِسٌ أو مُسْتَلِبٌ، فالمحتَرِسُ: مَن أَخَذَ شيئاً ليس له، من موضع ظاهرٍ، كأَخْذِهِ شاةً أوناقةً من مَرْعىً في جبلٍ، فالجبل ليس حِرْزاً، ولا في حِمَىٰ أحد، وعلى الفاعل الغُرْمُ أو رَدُّ ما أَخَذَ، ولا تُقطع يَدُهُ فيما فَعل[7]. والمُسْتَلِبُ: كالمُنْتَهِبِ والمُخْتَلِسِ في الوقائع والحروب، يأخذُ ما يأخذهُ من سَلَبِ القتيل، وغنائم المعركة أو الحرب، وما أَشْبَهَ ذلك، مُسْتَحقّاً له، إذ لم يَعُدْ في مِلْكِ أحَدٍ، أو في حِرْزِهِ وحِماهُ، بل آلَ إليه بالقواعد والسُّنَنِ المتَّبعةِ يومئذ عند الأُمم كافة، وليس عند

---

(١) مطلع النور: ٧٠.

(٢) معجم المورد: ٤٧٩ ـ (INVASION)، ١٣٧ ـ (BURGLARY)، ٧٠٠ ـ (PLUNDER)، ٧١٦ ـ (PREDATION)، ٨٩٠ ـ (SPOILAGE)، ٩٠٤ ـ (STEALING)...

(٣) السَّلاَّلُ: السارقُ خُفيةً، وقد أَسَلَّ يُسِلُّ إسْلالاً أي سرق.

(٤) الحِرْزُ: موضعٌ تُحفَظُ به الأشياءُ والأموالُ كالبيت أو المخزن أو الصندوق، أو الأرضُ تُزرع، أو تُجعل فيها المواشي.

(٥) لسان العرب: ٧/٨٧ (لصص)، و ١٠/١٥٦ (سرق)، و ١١/٣٤١ ـ ٣٤٢ (سلّ).

(٦) المحبَّر: ٣٢٧.

(٧) لسان العرب: ٦/٤٨ (حرس).

العرب وحدهم. . . وفي المراجع التاريخية، أن كسرى أبرويز، بعد قَتْلِهِ النعمانَ بنَ المنذر ملكَ العرب في العراق، أرسل يُطالب بني شيبانَ بتسليمه «سَلَبَ» النعمانِ، لأنه صار من حَقّهِ بعدما قَتَله، وكان النعمانُ، قبل تَوجُّهِهِ إلى «المدائن»، اسْتَودَع بني شيبانَ سِلاحَهُ وأهلَهُ وأموالَهُ، فأبَوْا تسليمها، لأن النعمان قُتِل غَدْراً، فلا يُعَدُّ ما اسْتَأمَنَهم عليه سَلَباً، فكانت بين العرب والفرس بعدئذٍ وقعةُ ذي قار، وهي من أيام العرب المشهورة[1]، انتصروا فيها على الفرس، ورَدُّوهم على أَعْقابهم، دون أن يُمكِّنُوهم من سَلَبِ النعمان! ثم لمّا كان فَتْحُ المدائن، وُجِدتْ في قصر كسرى، دِرْعُ النعمان التي كانت عليه يوم قَتْله، وسَيْفُه، فأُرسِلَ السيفُ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأعطاهُ إلى رجل من بني لخم، بقرابته من النعمان[2]. . . فذلك إذن امبراطورُ مملكة كبرى، يقتلُ ملكاً عربياً غدراً، ثم يَسْتَلِبُ ما كان عليه من لباس، ويُرسِلُ مطالباً بسائر السَّلَب، فما وجدنا أحداً من المؤرخين الأفاضل عَدَّهُ لِصّاً سارِقاً، أو عَيَّرهُ بسوءِ ما فعل، وإنما وجدناهم يَتَمالؤُون على عرب الجاهلية، ويتَّهِمُونهم باللصوصية والسرقة، في أمورٍ هي من طبيعة المجتمعات القديمة وسُنَنِها، لم يَسْلَمْ منها أحدٌ من الأُمم المتقدِّمة والمتخلِّفة على السواء، بل كانت قواعدُها في العرب خيراً منها عند الآخرين، وأكثرَ رحمةً. أما إذا كانوا قد نزعوا عربَ الجاهلية من بيئتهم وزمانهم، وحاكموهم وكأنهم في القرن العشرين، فذلك شأنٌ آخَر، وله كلام آخر!

* * *

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٤٨٨ ـ ٤٩٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ١٨، ٢٣.

هذا، وقد سبق القولُ، بأن الغزو عموماً خروجٌ في طلب الرزق والمعاش، من طريق التقَلُّبِ والارتحال، أو الحرب والقتال، وأن **«غارات الصعاليك»** تدخلُ في معاني الغَزْو. ولكن لا بُدَّ أن نُضِيفَ هنا، أن هذه الغارات، دون سائر أشكال الغزو الأخرى، تُعَدُّ عُدْواناً يُعاقَبُ فاعِلُه، وإن كان الدافعُ إليها أيضاً الفقرَ والجوعَ والمَحْلَ، ذلك بأن الصعاليك طائفةٌ نُبِذَ أفرادُها من قبائلهم، أو تمرَّدُوا عليها، وخَرجُوا عن شِرْعَة المجتمع وعاداته وتقاليده، وعاشوا حياةً مختلفةً عن حياة القبائل ومصالحها في كثير من الأمور. غير أن أولئك الصعاليك، على هَوَانِ أفرادهم شأناً وعَدَداً، كانت لهم فلسفةٌ اجتماعيةٌ خاصَّة، عَبَّر عنها شُعَراؤهم في شِعْر جَزْلٍ فصيح، تحدَّثوا فيه عن الفروسِيَّة، والشجاعة، والجُرْأَة، وبُعْدِ الغارَة، والكمائن، والصداقة، والإيثار، والتضحية[1]، وغيرها من شؤون الحياة الاجتماعية كما كانوا يَرَوْنها... ومع أن ظاهرة الصَّعْلَكَةِ تُعَدُّ حادثاً تاريخياً ضَيِّقاً، خاصّاً، لا يجوزُ القياسُ عليه، أو اتخاذُهُ أساساً في المحاكمة، فإن تميُّزَ صعاليك العرب بذلك النوع من الشعر الفُروسيّ، وسَّعَ دائرةَ شُهْرتهم إلى حدود بعيدة، تَوهَّم معها أولئك المؤرخون، أو تكلَّفُوا الوَهْمَ، في أن شعر الصعاليك يُعبِّرُ عن حال العرب جميعاً، وأن شنَّ الغارات كان نموذجاً للأعمال التي تليقُ بذوي الرجولة منهم، وأن الغزوَ رياضةٌ قومية، وأن القتال كان هوىً في نفوسهم... وغير ذلك من الأوصاف والأعمال، التي أضافوها إلى العرب زُوراً وظُلماً. وعلى الرغم من أني سَأَبْسُطُ موضوع الصعاليك في كلامي على قواعد الأمن عند عرب الجاهلية، فقد آثَرْتُ الإشارة إليه، في هذا الموضع، لِتَعلُّقِهِ بالتأوُّل الذي تكلَّفَهُ الباحثون في تاريخ العرب،

---

(١) الشعراء الصعاليك؛ ٣٤٠.

لمُفْرَداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولكي أؤكِّدَ على وُجوب التَّمييز بين غَزْوٍ تخرج إليه القبائلُ أحياناً، وفاقاً لنظامٍ اجتماعيٍّ معيَّن، يَسمحُ باعتباره حادثاً تاريخياً عامّاً، وبين غاراتٍ مُتَفرِّقةٍ، سريعةٍ، فرديَّة، يُشِنُّها أفرادٌ مُتمرِّدون على ذلك النظام، كانوا في العرب فئةً قليلةً جداً، ولا يصحُّ في القياس السليم اتِّخاذُها، ولا اتخاذُ غاراتها على بعض التجار، مِثالاً لما كانت عليه عامّةُ القبائل... ثم إن ما يُجْرَى من الأحكام على الأُمم في هذا الصَّدَدِ يجب أن يكون واحداً، ومجتمعاتُ العرب لم تنفرد بظهور طائفة الصعاليك في بعض جبالها، وصَحْراواتها، وإنما يذكر بعضُ الباحثين مثلاً: «أن سكان الجبال القدماء في الألْب، وشمالِ إسبانيا، والبلقان، وإيطاليا، والمرتفعات الشمالية المُشْرِفَة على نهرَيْ دجلة والفرات... كلُّهم كانوا قُطَّاعَ طرُق، يعيشون على النَّهْبِ والسَّلْب، نظراً لجدْبِ بيئتهم الطبيعية، وما يُسبِّبُه لهم ذلك من شُحٍّ في موارد العيش، وما يتبعُ الشحَّ من الفقر والجوع...»[1]، ومع ذلك لم يشملْ أحدٌ من المؤرخين مجموعَ أبناءِ أمّةٍ من تلك الأُمم، بنُعُوتٍ جرَّاءَ ما فعله بعضُ أبنائها، كتلك التي نُعِتتْ بها أمّةُ العرب بجُمْلةِ شعوبها وقبائلها.

ومن المعروف أن «يوشع بن نون» نبيٌّ من ذُرِّيَّة يوسف بن يعقوب، وهو فتى موسى وصاحبُه، وخليفتُه على بني إسرائيل من بعده، وهو الذي خرج بهم من التيه إلى بيت المقدس، وظلَّ يحكم بينهم سبعاً وعشرين سنةً[2]... وقد وُجد اسمُه منقوشاً على حَجرٍ، حيث أقام الفينيقيون القادمون من مدينة صُور مستعمرتَهم قرطاجة «قارية حداشة»، في تونُس،

(١) الشعراء الصعاليك: ٨٠.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٢/١٩٧، ٢١٣.

بكتابةٍ فينيقيةٍ قال كاتبوها: «إننا خرجنا من ديارنا لِنَنْجوَ بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون»[1]! ومع أن هذا الحجر اكتُشف سنة (٥٤٠ م)، فالعجيب أن أحداً من المستشرقين أو المؤرخين لم يذكرْهُ أو يُشِرْ إليه.

ويبدو أن بعض ملوك العرب، كانوا يستعينون أحياناً في حروبهم أو غزواتهم، بجماعة من الصعاليك يستأجرونها، تُسمَّى: «شُذَّاذَ العرب»[2]، والشُّذَّاذُ والشُّذَّانُ هم المتفرقون من الناس، يكونون في قومٍ مع أنهم ليسوا من قبائلهم ولا منازلهم[3]، فيظنُّ الباحثُ ممّن يجهلون هذه الأمور، أن القوم كلَّهم صعاليكُ وشُذَّاذٌ، ومن هنا ربما كان أيضاً بعضُ اللَبْسِ الذي وقع فيه المؤرخون، إذ حَسِبُوا سواءً غاراتِ الصعاليك وغزوَ القبائل أو حروبَها مع الآخرين...



خلاصةُ القول: إن تحامُلَ المؤرخين على العرب حَمَلَهم على خَلْطِ الأعْرابِ بالعرب في مَعَايير الحضارة، واعتبارهم جميعاً مجتمعاً واحداً من الجُفاةِ المُتوحِّشينَ في البوادي والفَلَواتِ، هَواهُمُ القتالُ، وشُغْلُهم الغَزْوُ، وهَمُّهُم النَّهْبُ والسَّلْبُ... وعلى ذلك، كان من الضروري أن يُعادَ البحثُ في حالة الاجتماع عند عرب الجاهلية، وأن يُبحثَ بشكل خاصٍّ في حياة القبيلة العربية، بحثاً مُنَزَّهاً عن العَصبيَّة في التعليل، والهوى في التأويل، مُعتَمِداً لغةَ العرب، وما صَحَّ من أخبارهم، فهي مستودعُ تُراثِهم وأفكارِهم وعاداتهم... ولو لم يكن في البيئة العربية يومئذٍ حالٌ على قَدْرٍ حَسَنٍ من

---

(١) حياة المسيح للعقاد: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) شرح القصائد السبع: ٥، والأغاني: ٩/ ٨١، ٩١.

(٣) لسان العرب: ٣/ ٤٩٤ (شذذ).

الارْتقاءِ، ومنَاطِقُ اجتماعيةٌ مُتقدِّمةٌ، لمَا انعقدتْ تلك المواسمُ الكبرى للتجارة والحجّ والأعياد، في مَوَاضِعَ كثيرةٍ منها، ولا استمرَّ قيامُ بعضها عِدَّةَ قُرونٍ، ولا قَصدَها أحدٌ من الناس، ولا سيما تجَّارُ الأمم الأُخرى، وقد كانوا يَحرِصُونَ على الاشْتِراك فيها، كموسم مدينة «دَبَا»، وهي إحدى فُرَضِ[1] العرب على خليج عُمَان، فكانوا كلما أَزِفَ مَوْعدُهُ، اجتمع في السوق «تجارُ الهندِ، والسِّنْدِ، والصين، وأهلِ المشرق والمغرب. . . ثم ساروا بجميع مَن فيها مِن تُجَّارِ البحرِ والبرِّ، إلى الشِحْر، شِحْرِ مُهْرَة»[2]، حيث يقوم موسمُ سوق أخرى هنالك. والمواسمُ الدينيةُ لم تكن أيضاً لِتَسْتهويَ أحداً إليها، قريباً أو غريباً، مُتعبِّداً أو تاجراً، لو لم يكن قيامُها في مجتمع مُتقدِّم، وبيئةٍ آمِنَةٍ مُستقرَّة. ولو لم يكن الأمرُ كذلك، وقام الموسمُ مرَّةً أو أكثرَ في بيئةٍ مُضطربةٍ مُتخَلِّفةٍ، لمَا أمكن أن يتوالى قيامُه عشراتِ السنين، وأن يزدادَ مرَّةً بعد أخرى عددُ الزائرين، حتى فاضت سوقُ عكاظ سنةَ (٦٠٥ م)، على ما قيل، بمن حَضَرها من الجنوب والشمال، وباع الناسُ فيها كلَّ ما كان معهم من عُروض التجارة[3]. . .

* * *

(١) الفُرَضُ: مُفردها فُرْضَةٌ، وهي مَحَطُّ السفُن من البحر.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٨.

الفصل الثالث

مسألة تجهيل الجاهلية

بعد أن اسْتَوْفَيْنا الكلامَ على مجتمعات العرب في عصر الجاهلية، لا يَسعُ الباحثَ في مواسم العرب، وهي في بعض جوانبها ظاهرةٌ ثقافيّةٌ بارزةٌ، إلا أن يبحثَ في مسألةِ «تجهيل العرب في عصر الجاهليَّة»، وقد أُوِّلَتِ «الأُمِّـيَّةُ» التي نُسِبوا إليها في القرآن الكريم، و «الجاهِلِيَّة»، التي وُصِفتْ بها حياتُهم قبل الإسلام، إلى جهلٍ بالقراءة والكتابة والحساب، وتخلُّفٍ عن كل عِلْم معروفٍ في زمانهم، وكأنَّ الجاهلية من الجهلِ بكلِّ علْمٍ! فكان لا بدَّ من البحث في هذا الموضوع في فصلٍ مستقلٍّ، وإن كان مُتَّصلاً في أكثر من جانب بالحالة الاجتماعية.

لقد كانت مواسمُ العرب في الجاهلية حادثاً خطيراً، جَليلَ الشأن، بما كان لها من الآثار والنتائج في حياة العرب الاجتماعية، ووحدة لغتهم. . . ولكنَّ خَطرها يِنْتَفي، إن ثبتَ أن المتوفِّرين على إقامتها كانوا جَهَلةً، لا يُحْسِنون كتاباً، ولا يُتْقِنُون حساباً. ! فالتجارة تتطلَّبُ معرفةً بالقراءة والكتابة، وعِلْماً بالحساب والقُيود، ودِرَايةً بالصُّكُوك. . . والمواسمُ تقتضي فوق ذلك كله، إلْمَاماً باللغات الأجنبية، أو ببعضها، وخبرةً في التعامل مع مختلف الناس، وضَبْطاً للمواعيد والمواقيت، وقُدْرةً على الإدارة وحُسْنِ التدبير. . . فإذا كان العربُ في الجاهلية، كما ذهبت معظمُ كُتب التاريخ والسِّيَر والأدب، أُمَّةً جاهلةً، لا تَفْقَهُ من عِلْم شيءٍ شيئاً، فكيف صاروا تُجَّاراً، يملكون معظم مَتاجر الأُمم من حولهم، ويسيطرون على مراكز التجارة

الدولية، وطُرقها، وقوافلها؟... بل كيف كانوا يُقيمون تلك الأسواق في مواسمها، ويُوفِّرون لها عناصرَ الإزدهار والنجاح، على ما كانت تحفلُ به من مختلف الأقوام، والعُروض والمَتاجِر، والشؤون والشُّجُون، وسائرِ الأغراض والمقاصد؟...

على أن بعضَ المؤرِّخين والباحثين من المُحْدَثين، أدركوا خَطَر تلك المواسم، فَنَوَّهُوا بها، وسجَّلوا تقديرهم لآثارها، فأشار بعضُ المؤرخين إلى أن سوق عكاظ في الحجاز، سَمَتْ منزلتُها حتى أصبحت مُلتقَى الشعراء والخطباء، «وقُطبَ الدائرة الفكرية في جزيرة العرب، وهو أمرٌ لم يَسبق له مثيلٌ في ثقافة اليمن القديمة، أو في مجالس الأدب، وحلقاته الزاهرة، في بلاط الحيرة والغساسنة...»[1]، وقال بروكلمان: «إن الأسواق التي كان العربُ يُقيمونها في الجاهلية، ارتبطت بالاحتفالات الدينيّة، ومن هنا كانت مجالاً لتبادل النتاج الروحيّ، فضلاً عن البضائع والعُروض المادية... وإلى هذه الأسواق، وبالتالي إلى الدين بصورة غير مباشرة، يعود معظمُ الفضل في توحيد نظرة عرب الجاهلية إلى العالم، وصهْرِ عاداتهم، ومفاهيم الشرف عندهم في بوتقةٍ واحدة، ومَنْحِهم لغةً شعريةً مُركَّزةً، تَسْمو على جميع اللهجات، وتَسْتغرقُها...»[2].

فإذا كانت مواسمُ العربِ كذلك حقيقةً، أو كانت بعضَ ذلك، فهي إذن كما وصفها الرافعيُّ: «حالةٌ من حالات الحضارة...»[3]، ومن لوازم تلك الحضارة، أن يكون القومُ الذين أَنْشَؤُوها، على قَدْرٍ من الثقافةِ والمعرفةِ،

---

(١) تاريخ العرب: ١٥٢.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٦.

(٣) مصطفى صادق الرافعي ـ تاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥.

يُؤهِّلُهم لإقامتها، والتوفُّرِ على إدارتها ورعايتها. لا على قَدْرٍ كبيرٍ من الجهل والتخلُّف، أُضِيفُوا إليه ظُلماً، أو أُلْحِقَ بهم جهلاً من عَددٍ من المؤرِّخينَ والباحثين والرواةِ وأهلِ الأخبار! . . . وإنما أُتيَ أكثرُ هؤلاء من غَلَطِهم في فهم معاني الجاهليَّة والأميَّة، وأُتيَ بعضُهم من هوىً دفينٍ حَملَهم على العرب، أو من تَوَهُّمٍ دفَعتْهم إليه الحماسةُ الدينية، فظنوا أنهم كلما أَمْعَنُوا في تجهيل العرب، والقَدْحِ في خِصَالهم، وتجريدهم من فضائلهم، كانت معجزةُ الإسلام فيهم أكبر وأعظم. . . وقد انتهز الشعوبيون هذا الاتجاه، فعَمدُوا إلى عِبَارات «الجاهلية» التي وصف القرآنُ الكريمُ بها حياةَ العرب قبل الإسلام، و «الأُمِّيَّة» التي نَسَبهم إليها، وشِدَّةَ الكُفْر والنفاق التي ذمَّ بها بعضَ الأعراب، وطَفِقُوا يَتَزيَّدون في معانيها، ويتوسَّعُون في تفسيرها على نحوٍ يُحقِّق لهم أغراضهم في النَّيْل من العرب، فكان من ذلك كله الافْتِئاتُ على حقائق التاريخ، ونَعْتُ عَربِ الجاهلية بأنهم كانوا أُمَّةً جاهلةً، لا تَقْرءُ ولا تكتبُ ولا تَحْسُبُ، وهو ما سنُفَنِّدُه. . .



المطلب الأول ـ حقيقة الجاهلية:

الجاهليةُ كلمة وردت في القرآن الكريم، ولم يكن للعرب عهدٌ باستعمالها من قبلُ، على النحو الذي أراده القرآنُ منها. وقد استُعملت في الإسلام إسماً للعصر الذي سبق البعثة النبويَّة، فلما جاء عصرُ التدوين، توسَّع الرواةُ وأهلُ الأخبار في دلالتها ومعانيها، حتى جعلوا عربَ الجاهلية شرَّ الأُمم.

وقد رجَّح الشيخ أحمد رضا أن تكون الجاهليةُ أُطلقت على العرب

لِعبادتهم الأوثان قبل الإسلام، وذلك ظاهر من كثرة إطلاقهم الجاهليةَ على ما يُقابِلُ الإسلامَ، «فكأنّ معنى قولهم عَصر الجاهلية وعصر الإسلام هو عصرُ الضلالة وعصرُ الهدى...»[١]. فالجاهليةُ بهذا المعنى هي «الحالةُ التي كانت عليها الأمةُ قبل أن يجيئَها الهدىٰ»[٢] بالإسلام، وهي ليست مُشتقَّةً من الجهل الذي هو نقيضُ العلم، وإنما كما أشار أحمد أمين، من الجهل الذي هو «الخِفَّةُ والأَنَفَةُ والحميَّةُ والمفاخرةُ»[٣]... وقد فسَّر ابنُ منظور الجاهلية في الحديث «إنك امرؤٌ فيك جاهلية»، بأنها الحالُ التي كان عليها العربُ قبل الإسلام، من الجهل بالله وشرائعه، والمفاخرة بالآباء، والتجبُّر وغير ذلك[٤]... وتبدو هذه المعاني واضحةً في الآيات القرآنية، التي تحدثتْ عن: «**تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى**[٥]، و**حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**[٦]، و**حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ**»[٧]، وقد ذهب المفسرون إلى أنها تعني ما كانوا عليه، من إظهارِ النساء زَينَتَهُنَّ للأجانب[٨]، والأَنَفَةِ والغَيْرةِ[٩]، والخروجِ عن حُكم الله إلى حُكم الجهالة والأهواء[١٠]...

وعلى ذلك، فالعصرُ الذي سبق الإسلام، بنَحْو مئةٍ، أو مئةٍ وخمسين

(١) معجم متن اللغة: ١/ ٤٤.
(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١١٥.
(٣) فجر الإسلام: ٦٩ و ٧٠.
(٤) لسان العرب: ١١/ ١٣٠ (جهل).
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٦) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٥٠.
(٨) لسان العرب: ٢/ ٢١٢ (بَرج).
(٩) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١٥٨.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٩٠.

سنة[1]، سُمِّيَ عصرَ الجاهلية، لِمَا كانت عليه حالُ العرب فيه، من عبادة الأوثان، والتعصُّب للآباء، والحميَّة، والتبرُّج، وحُكم الأهواء، وليس لأن العرب كانوا يجهلون فيه القراءة والكتابة والحساب... وإلا، فهل يصحُّ أن نُفسِّر تلك الآيات بقولنا: تبرُّجَ الذين يَجهلُون القراءة؟... أو حَمِيَّةَ الجاهلينَ بالكتابة؟... أو حُكْمَ من لا يعرفون الحسابَ؟. ذلك غيرُ صحيح قطعاً، وقد حقَّق الدكتور عمر فَرُّوخ أن عرب الجاهلية كانوا على قَدْرٍ جيّدٍ من العلم[2]، بالقياس إلى مُعَاصِريهم من الأُمم الأخرى... ثم ألم يتحدَّث المؤرِّخون وكتَّابُ السيرة عن الصحيفة التي كتبتها قريشٌ بمقاطعة بني هاشم، وعلَّقتْها على جدار الكعبة[3]؟ ألم يتحدثوا عن سُوَيْدِ بن الصامت، وكان قومُه يُسَمُّونَه الكاملَ، وقُدومِهِ مكةَ مُعْتَمِراً ومعه مجلَّةُ لقمان، فعَرَضَها على النبي عليه الصلاةُ والسلام، فقال له: إن هذا لكلام حَسَنٌ، ومعي أفضلُ منه، قرآنٌ أنزله الله[4]... أليس هذا دليلاً على علمهم ومعرفتهم بالكتابة؟



المطلب الثاني ـ دُعَاةُ التجهيل:

كثيرون هم دُعَاةُ التجهيل من المؤرخين والباحثين، بين قدماءَ ومُحْدَثين، ولعلّ أشدَّهم للعرب عداوةً كان ابن خلدون، الذي ذهب في تجهيلهم مذاهبَ شَتَّى، وجعل العربَ كلَّهم أعراباً جُفَاةً غِلاظاً، يحلُّ الخرابُ أينما ارتحلوا وحيثما نزلوا[5]... وهو ما بُحِثَ في الفصل

(١) مصادر الشعر الجاهلي: ١٨.
(٢) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية: ٤٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٦.
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٥) مقدمة ابن خلدون: ١٤٩.

السابق. . . ومع أنه عدَّ الكتابةَ من خَواصّ الإنسان، التي يُمَيِّزُ بها عن الحيوان[1]، لكنه قرر أن «العرب لم يكونوا أهلَ كتابٍ ولا علم، وإنما غلبتْ عليهم البداوةُ والأُمِّيةُ. . .»[2]، وذهب في التجهيل شوطاً أبعدَ، حينما جعل الصحابة جميعاً جَهَلةً، وردَّ السبب في جهلهم إلى كونهم عرباً، فقال: «لأن الأمـيَّة يومئذ صفة عامة في الصحابة، بما كانوا عَرَباً، فقيل لحَمَلةِ القرآن: قُرّاءٌ»[3] تمييزاً لهم من «الأُمِّيين».

ولم يكن ابنُ خلدون أولَ من جَهَّلَ العربَ، ولا كان آخرهم، وإنما نحَا نَحْوَهُ كثيرٌ من القدماء والمحدَثين، وغَلاَ بعضُهم في ذلك غُلُوّاً كبيراً، وإذا اتفق لأحَدِهِم بعضُ الميْلِ إلى الإنصاف، جعل من نفسه خبيراً في الإحْصَاء، واعترف لعرب الجاهلية بوجود بضعةَ عشَرَ كاتباً بينهم، لا أكثر، وربما أقلّ! . . . وتجاهَلَ مئاتِ الأخبار والإشَارات، التي تُؤكد وجودَ عددٍ جَيِّدٍ من الكَتَبَة في زمن مُعيَّن من عصر الجاهلية، وكأن الذين أرَّخُوا للفُرس أو لليونان والرومان، استندوا إلى إشارات أكثر، أو إلى وثائق في الإحصاء، حينما نَسَبُوهم جُملةً إلى المعرفة والثقافة والحضارة. . .

والأمثلةُ على ما قُلنا أكثر من أن تُسْتَقصَى، وحَسْبُنا أن نَجتَزِىءَ[4] بما يُمثِّلُها، دُونَ إسْهابٍ في التفصيلات[5]، فما قيل في تجهيل عرب الجاهلية،

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٤١٧.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

(٣) المرجع نفسه: ٥٤٣.

(٤) اجْتَزَأَ: اكتفى وقنع.

(٥) عالج الدكتور جواد علي، في المجلد الثامن من كتابه: «المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، هذا الموضوعَ بكثيرٍ من التفصيل والشمول، وكذلك فعل الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه: «مصادر الشعر الجاهلي»، والأستاذ نجيب البَهْبِيتي في كتابه: «تاريخ الشعر العربي»، فليرجعْ إليها من شاءَ التوسُّعَ.

صَدَر من غير تثبُّتٍ أو رَوِيَّة، وكثيرٌ منه قيل عن خُبْثٍ وسوءِ نيَّة، كالذي قدَّمناه من أقوال ابن خلدون، فهو يُغْني في التمثيل عن كل تفصيل...

ومن المُحْدَثينَ الذين ذهبوا إلى تجهيل العرب: أحمد أمين[1] في كتابه «فجر الإسلام» حيث قال: «... وقد كان الجهلُ فاشِياً فيهم، والأميةُ شائعةً بينهم، خصوصاً في الأقطار البدوية... والحجازِيُّونَ والمُضَرِيُّونَ كانوا أشدَّ بَداوةً، وأكثرَ أُمِّيَّةً»[2]...!، ثم نقل عن البلاذري[3] قوله في كتاب «فتوح البلدان»: إن الإسلام دخَل وفي قريش سبعةَ عَشَرَ رجُلاً يكتبون، وقليلٌ من نسائهم كنَّ يكتبنَ، وأن الكتابة في الأوْس والخَزْرج كانت قليلةً، ولمّا جاء الإسلامُ كان عددُ الكاتبين منهم أحَد عشر...

ومنهم أيضاً الخُضَريُّ[4]، إذ قال: «إن الكتابة في اليمن والحيرة ومكة لم تكن ذائعةً مُتَداولَة، وأن البادية لم تكن تَخطُّ، حتى أنها لترىٰ ذلك عيْباً، ولقلَّةِ انتشار الكتابة، وانحِصَارها في أفراد قليلين، يسهُلُ القولُ إن العرب أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، أي لا تقرأ ولا تكتب، وبذلك سمَّاها القرآنُ حينما جاء الإسلام..»[5].

---

(١) سَبقتْ ترجمته.

(٢) فجر الإسلام: ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) سَبقتْ ترجمته.

(٤) الشيخ الخضري: محمد بن عفيفي الباجوري. باحث مصري، خطيب، من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام. وُلد وتوفي بالقاهرة (١٨٧٢ ـ ١٩٢٧). عمل بالقضاء الشرعي قاضياً ومُدرِّساً، ثم عُيِّن أستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية. له عِدَّة مؤلَّفات أشهرها: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، وتاريخ التشريع الإسلامي.

(٥) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: ١/ ٤٨، (الدولة الأموية).

ومنهم كذلك جرجي زيدان[1] الذي قال عن عرب الجاهلية: «إنهم كانوا أُمِّيين لا يقرؤون ولا يكتبون...»[2]!

وكان من هؤلاء وأولئك من وقع في التناقض، إذ حَكَم بجهل العرب في موضع، ثم قرَّر أنهم يكتبون في موضع آخر... مثل أحمد أمين، الذي أكَّدَ شُيوعَ الجهل والأمية فيهم، ثم ذكر في موضع آخر من كتابه أنهم «عرفوا الكتابة والتدوين قبل الإسلام، وأن ذلك كان كثيراً في الحواضر، وقليلاً في البوادي[3]... مما يُشير إلى قِلَّة الرَّوِيَّة، وضعفِ الحُجَّة.

ومن قبله قال الجاحظُ[4]، في معرض رَدِّه على الشعوبية: «وكلُّ شيءٍ للعرب، فإنما هو بديهةٌ وارْتجالٌ، وكأنه إلْهام... وكانوا أُمِّيين لا يكتبون، ومَطْبوعين لا يتكلَّفُونَ...»[5]، فكأنما أراد تأكيدَ التفوُّق للعرب، فجعله فيهم سَجِيَّةً، ونَسَبَهم إلى الجهل بالكتابة! على أنه في موضع آخر، أكَّد معرفتَهم الكتابة لمَّا قال: «وكانوا يَدْعُون في الجاهلية مَن يكتبُ لهم ذِكْرَ الحِلْفِ والهُدْنَة...»[6]، وعندما قال أيضاً: «وليس في الأرض أُمَّةٌ... إلا ولهم خَطٌّ...»[7]. ولا شك أنّ الذي يُدْعَى للكتابة كان منهم، إذ لا يُعقل

---

(١) سَبقتْ ترجمته.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ١٢.

(٣) فجر الإسلام: ١٦٦.

(٤) الجاحظ: أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (١٣ ـ ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م). وُلد في أسرة فقيرة بالبصرة، فكان في نشأته يبيع الخبز والسمك، ثم أقبل على العلم يأخذه عن أهله، حتى صار من أئمته. له تصانيف كثيرة أشهرها: البيان والتبيين، البخلاء، الحيوان.

(٥) البيان والتبيين: ٣/ ٢٠، ٢١.

(٦) الحيوان: ١/ ٣١٤. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٧٩.

(٧) المرجع نفسه: ١/٣١٧.

أن يطلبوه من بلاد فارس أو الروم.

ومثلُه كان أيضاً ابنُ عبد ربه[1]، فقد قال: «وجاء الإسلامُ وليس أحدٌ يكتب بالعربية غيرَ سبعةَ عشرَ إنساناً!»[2]، ثم لمَّا تحدَّث عن كُتَّاب الرسول، زاد عليهم تسعةَ آخرين[3]، فصار عددُهم ستّةً وعشرين كاتباً، وهذا لا يعني أنهم كانوا كلَّ من كان يعرفُ الكتابةَ في العرب، فهؤلاء كانوا كَتَبَةً بين يديْ الرسول فقط... ولا شك في أن معظمهم تعلَّم الكتابة في الجاهلية، إن لم يكن كلهم. فحِذْقُ العرب للكتابة في عصر الجاهلية، كان حادثاً هامّاً في تاريخ الفِكر، لم يَظهر خَطرُهُ إلا بظهور الإسلام، فالكتابةُ كانت الوسيلةَ الوحيدةَ إلى تدوين كلام الله[4]، كما كانت وسيلة الرسول عليه الصلاةُ والسلام إلى الاتصال بالملوك والزعماء والقبائل، لدعوتهم إلى الإسلام وشرح أحكامه.

صَفْوَةُ القول في دُعَاةِ التجهيل، أنهم كانوا، بين مُتَحامل ومُتَجاهل، لا يفعلون سوى التزيُّد في معاني كلمة الجاهلية، والتوسُّع في تفسير الأُمية، على غير قاعدة معروفة، ودون أن يَشْفَعَ أحدُهم قوله بِبُرهانٍ يُؤَيِّدهُ.

* * *

المطلب الثالث ـ مَعْنَى الأُمِّيَّة:

لم يَظهر في مُفرَدات العربية، ولا في جُذورها، ولا في شواهدها من الشِعْر القديم، ما يُؤَيّد مذهبَ القائلين بأن معنى الأُمِّية هو الجهلُ بالكتابة

(١) سَبقتْ ترجمته.

(٢) العقد الفريد: ١٥٧/٤.

(٣) العقد الفريد: ١٥٨/٤، ١٦١.

(٤) د. إبراهيم جمعة ـ قصة الكتابة العربية: ٣١.

والقراءة والحساب[1]. . . وقد أَعْيَا المفسِّرين إيجادُ مَخْرجٍ لُغَويٍّ للكلمة، فزعموا أن العرب إنما نُسِبُوا إلى الأُميَّة، لأنهم ظَلُّوا على ما وَلَدتْهم أُمَّهاتُهم، «ولم يتعلموا الكتابة. . . فالأُمِّي هو الذي لا يكتبُ، ولا يقرأ المكتوبَ. . . وهو العَيِيُّ، الجِلْفُ الجافي، القليلُ الكلام. . . والأُمِّية أيضاً قِلَّةُ الكلام وعُجْمَة اللسان. . .»[2]، واتخذوا على ما قالوا دليلاً، تَأْويلَهم معناها الذي جاء في عدد من آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّيْنَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ** . . .﴾[3]، فاعتقدوا أن «الكتاب» تعني: الكتابةَ، فذهبوا إلى أن العرب لا يكتبون، بينما هي في الحقيقة تعني الكتابَ المُنْزَلَ من عند الله. . . والدليل واضح، فإذا كان الأُمِّيُّ «مَن لا يكتب ولا يقرأ»[4]، والرسولُ عليه الصلاةُ والسلام أُمِّيٌّ بُعِثَ في أُمِّيين، فكيف يُعلِّمهم الكتابة، ولم يَثْبُتْ في كتب السيرة، ولا في مراجع أهل الأخبار والتاريخ، أنه خطَّ بيده ليُعلِّم أحداً من الصحابة أو غيرهم الكتابةَ؟. . . وقد أحسَّ ابنُ خلدون أنه وقع في التناقض لمَّا أخذ بهذا المذهب، وهو من أَشدِّ دُعاة التجهيل، ففرَّق بين أُمِّية الرسول وأمِّية العرب، وعَدَّ أُمِّيةَ الرسول كمالاً في حَقّه، لأن الكتابة صناعةٌ معاشية. وهو مُنَزَّهٌ عن الصنائع جملةً، ولكنها ليست كمالاً في حق العرب، إذ هم مُنْقَطِعون إلى أسباب المعاش والحياة الدنيا[5]. . . وهو تعليل

---

(١) المفصَّل في تاريخ العرب: ٨/ ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٣٤ (أمم).

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم: ٢٦.

(٥) مقدمة ابن خلدون: ٤١٩، وقد كان على هذا الرأي أيضاً ابن عبد ربه، أنظر العقد الفريد: ٤/ ١٦٠.

ضعيف، ينقُصهُ الدليلُ، ويُنكره العقل، ويخالف ما جاء في آيات أخرى من القرآن الكريم.

ولو نظرنا في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّنَ أَأَسْلَمْتُمْ...﴾[1]، لَوجدنا المعنى جَليّاً واضحاً... فقد كان في العرب يومئذٍ يهودٌ ونصارى، وهم أهل الكتاب الذين أُوتُوا التوراة والإنجيل، وآخَرونَ وَثَنِيُّون لا يؤمنون بكتاب أنزله الله، أو لا كتاب لهم، وكلا الفريقين كان مَدْعُوّاً في الآيةِ إلى الإسلام، وهذا هو وجهُ التفريق بينهما، لا كونُ أحدهما كاتباً والآخَرُ جاهلاً... فلم يكن أهلُ الكتاب جميعاً يكتبون، ولا كان الوثنيون جميعاً يجهلون الكتابة، بل كان في الفريقين، كما في سائر الأمم حينذاك، كَتَبَةٌ وجَهَلَةٌ، وهذا يُوضحُ أن وجه التفريق بينهما لم يكن معرفةَ الكتابة، وإنما الكتب المنزلة من عند الله، وأن «الأُمِّيين هم الوثنيون الذين لا كتابَ لهم»[2]، وليس الذين يجهلون القراءة والكتابة...

ويتبيَّنُ لنا هذا المعنى أكثر وضوحاً، إذا تَدبَّرنا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِم وَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[3]... فقد ذكر أن الأُمِّيين كانوا يكتبون كتاباً بأيديهم، ثم يزعمون أنه من عند الله، فأُمِّيتُهم إذن لم تكن جهلاً بالكتابة، وإنما كانت جهلاً بكتاب الله وشرائعه، وجُحُوداً لها، وإعْراضاً عنها[4]...

---

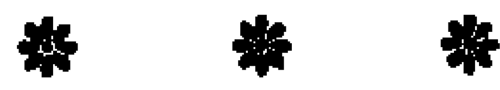
(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٤) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٠٤.

وهكذا يتبيَّن لنا، أن الأُمِّيَّة التي نُسِبَ العربُ إليها، لم تكن تعني عندهم الجهلَ بالقراءة والكتابة والحساب، كما تَأَوَّلها بعضُ المؤرخين وأهلُ الأخبار، ولكنها كانت تُطلق على الوثنيين، وكل مَن لم يكن من أهل الكتاب، وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم... أما تفسيرها بأنها الجهلُ، فأمرٌ وقع فيما بعد[١]، بقصد تجهيل العرب في عصر الجاهلية، وهو تفسيرٌ كما رأينا، مُصْطَنعٌ ليس له أصلٌ في اللغة، ولا سَنَدٌ من التاريخ[٢]...



المطلب الرابع - الجاهليةُ وارِثَةُ الحضارات:

يَقْتَضِينا الإنصافُ أن نعترفَ لعرب الجاهلية بقدرٍ من المعرفة والعلم، يتناسَبُ والحالةَ التي كانوا عليها في حياتهم وقتئذٍ... فقد كانوا تُجّاراً، والتجارُ هم حَمَلةُ الثقافة وناقِلوها حينذاك، وكانت مراكزُ التجارة تقومُ في مُدُنهم وقُراهم وواحَاتهم، وطُرُقُها تمرُّ خلال ديارهم، وقوافلُها تنتقلُ بقيادة زعمائهم، وحراسةِ رجالهم، وهداية أَدِلَّتِهم... وفي الوقت نفسه، كان عرب الجاهلية يُدركون أنهم وَرَثةُ حضارات تَليدَةٍ[٣]، تعاقبت منذ فجر التاريخ على مَواطنهم، ومُتَقلَّبِهم[٤]، ومَهاجِرهم[٥]... فكان منها: الحضاراتُ المَعِينيَّةُ والسَّبئيَّةُ والعَادِيَّةُ والثمودِيَّةُ والنبطيةُ والتدمريَّةُ

(١) المفصَّل في تاريخ العرب: ٨/١٠٥.

(٢) وانظر أيضاً: الأُميَّةُ والأُمِّيُّون للأستاذ محمد خليفة التونسي - مجلة العربي، العدد: ١٨٨، تموز ١٩٧٤ - الصفحات: ٤٤ - ٤٩.

(٣) التليدُ: المال القديمُ الذي وُلد عندك أو ورثتَه عن آبائك.

(٤) المُتَقلَّبُ: أماكن التنقُّل والإقامة في الأرض.

(٥) المَهاجِر: مَواضِعُ الهجرة.

والحِمْيَريَّةُ، فضلاً عن حضارات الرافدين والشام، التي أنشأها إخوانُهم في تلك البلاد، فكُتِبَ لها أن تعيشَ ما عاشت مزدهرةً، يرفلُ أصحابها في دُوَلهم بالنعيم والترف وألوان الحضارة، ثم أصابها ما يُصيب الدولَ عادةً من عوامل الضعف، فَهلَكَتِ الدولُ، ووَرِثها قومٌ آخرون، فظلت تعيشُ فيهم بعضُ خصائصها، وبقيت من بعدُ مُتَوارثَةً في الأجيال، لأن الشعوب تبقى، وإن زالتِ الدول.

إن مملكة الحيرة مثلاً لم تَقُمْ، حيث قامت، مُصادفةً، وإنما وُجِدت حيث يجب أن توجد، وبجوارها قبائلُ بكْرٍ وتَغْلِبَ وربيعةَ ومُضَر وإياد وغيرهم، يَتَبَحْبَحُونَ أرضَ الخليج صُعوداً حتى أعالي دجلة والفرات،. . . فهذه الأرضون ظلَّت مَواطنَ الأسْلاف منذ كانوا، ويجب أن تَظَلَّ موطنَ الوَرَثَةِ من أجيالهم. . . وقُلِ الشيءَ نفسَه في مملكة الغساسنة بالشام، ودُولِ العربِ التي قامت في شمال إفريقية وإسبانية، حيث كان الكنعانيون والفينيقيون من قبل.

ولو لم يكن عربُ الجاهلية على عِلم بحضارت أسْلافهم الأقدمين، يتداولون أخبارهم، ما خاطبهم اللَّهُ تعالى في القرآن يلومُهم بقوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِن وَاقٍ** ﴾[1].

إن هذه الآية، ومثلها آياتٌ عِدَّة، تؤكدُ أن عربَ الجاهلية، ولا سيما جاهلية ما قبل الإسلام، كانوا يسيرون في الأرض يُلِمُّونَ بأخبار من مَضَى من

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢١.

آبائهم وأجدادهم، «ويعرفون شيئاً عن تلك الحضارات التليدة، التي ورثوا بعضَ بقاياها ورواسبها»[١]، ويتحدَّثُونَ بأيامها، ويُدركون آثارها وما كانت عليه من العقائد والثقافات... وقد تكشَّفت الأبحاثُ الأثريةُ في «تل مرديخ»[٢] بسورية مؤخراً، عن قيام مملكة عربية كنعانية هناك بين (٢٤٠٠ ـ ١٧٥٠ ق. م)، سُمِّيت «إيبلا»، وعُثِر فيها على نحو ستَّةَ عشَرَ ألفِ لوحةٍ مخطوطةٍ كُتِبَتْ باللغة الإيبْلَوِيَّة، من بينها مجموعةُ نصوصٍ تتضمنُ «فُروضاً مَدْرسيَّةً»، وكلُّ فرضٍ يحملُ إسمَ التلميذِ، وتوقيعَ المُدرِّسِ ومُديرِ المدرسة، وهو ما يحملُ على القول بأن هذه الألواح الأثرية، هي أولُ وثيقةٍ تاريخيَّة، تشهدُ على وُجود أقْدم مدرسةٍ في العالم عند العرب الكنعانيين! وقد لُوحظَ شَبَهٌ كبير بين لغة إيبلا ولغتنا العربية، وما تزال مفرداتٌ منها حيَّةً في عربيَّتنا حتى اليوم[٣]... ويمكننا أن نتخيَّل مقدارَ تأثير مدارس إيبلا وحضارتها بواسطة تُجّارها الذين كانوا «يَجُوبونَ البلادَ من رُبوع الرافدين إلى سواحل المتوسط، ومن الأناضول حتى سيناء ووادي النيل والبحر الأحمر»[٤]... وقد ثبت أن الكنعانيين قدِمُوا إلى بلاد الشام وسواحلها، من شرق جزيرة العرب وسواحل الخليج العربي[٥]، فهل يُعقل ألا يَحِنَّ الأبناءُ إلى مواطن الجدود، أو أن تتنكَّر الفروعُ للأصولُ، فلا يجري بينهم اتصالٌ وتبادلٌ ومُقَابَسَةٌ، ولا سيما أن طرقَ التجارة المحليَّة والدولية، وأسواقَها،

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي: ١٥ ـ ١٦.

(٢) تل مرديخ يقعُ جنوب مدينة حلب.

(٣) د. عمر الدقاق ـ إيبلا منعطف التاريخ: ٤٤، ٥٤ ـ ٥٥. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٧٩.

(٤) المرجع نفسه: ٦٣.

(٥) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/١٠٧، الطبعة الثانية ١٩٥٨ بيروت. والمفصَّل في تاريخ العرب: ١/٥٦٦، ٥٦٧.

ومراكزها، تجمعهم وتربطُهم بمختلف العلائق؟ . .

وقد تأكد أنه كان لعرب الجاهلية سهمٌ موفورٌ، في الاتصال بالأُمَم المُجاوِرَة لهم، والوُفودِ عليها، طلباً للتجارة، أو سعياً إلى عقد المواثيق والأحلاف التي تضمنُ حرية التجارة، وحماية القوافل، وتنظيم انتقالها. . . كما كانوا كذلك يستقبلون وفودَ الأُمم في عَددٍ من أسواقهم الموسمية، التي كانوا يقيمونها بانتظام في قلب الجزيرة حيناً، وفي أطرافها أحياناً، فَيَؤُمُّها التجارُ من العرب، ومن الهند والسِّنْدِ وفارسَ ومصْرَ والحبشة والصين وبلاد الروم[1]، «فكان كلُّ أولئك يلتقون في صعيد واحد، يأخذون ويُعطون، ويتبادلون ما عندهم من مَتَاع وعُروضٍ، ومن أفكار وآراء، ومن مظاهر الحضارات المختلفة. . .»[2].

وقد أَضْحَى من المؤكَّدِ أن عرب الجاهلية لم يكونوا طبقةً اجتماعيةً واحدةً، كي يُرْمَوْا بالجهل جملةً، فقد كان فريق كبير منهم، رغم ما أصابهم من وهَنٍ في الجاهلية الأخيرة، قُبَيل الإسلام، على مستوى من الحضارة، يؤكد شيوع الكتابة فيهم، ولعلَّ بعضهم تجاوز هذه المرحلة، حينما كانت الظروفُ المعاشِيَّةُ، والشؤونُ التجاريةُ والثقافية، تضطرُّهم إلى تَعلُّم اللغات الأخرى وإتقانها[3]. . .

إن النقوش العربيةَ، المكتشَفَة في مدائن صالح، والنمارة، وسيناء، وأم الجمال بحوران، وغيرها، أكَّدتْ أن عرب الجاهلية «عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي، وكتبوا بهذا الخط العربي

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣، ١٦٤.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي: ١٦، ١٧.

(٣) نجيب محمد البهبيتي ـ تاريخ الشعر العربي: ١٩٦، ١٩٧.

نحو ثلاثة قرون قبل الإسلام على الأقل!. وكانت معرفتُهم بالكتابة على شيء من الانتشار يُبعد عنهم ما وُصِموا به من الجهل...»[1]، والوثائقُ التاريخيةُ المدوَّنةُ بالخَطِّ المُسْنَدِ، والمكتشَفةُ في الحجاز والعروض ونَجْدِ والشام، أثبتتْ أنهم عرفوا الكتابةَ بهذا الخطِّ اليمنيِّ القديم، عدَّةَ قرون قبل الميلاد[2]، وأنه كان الخطَّ المُسْتعْمَلَ في أنحاء بلاد العرب، وليس في اليمن وحَسْبُ، وقد استعمله العربُ أيضاً خارج بلادهم، لأنه قَلَمُهم القوميُّ الذي كانوا يكتبون به، قبل ظهور أقلام أخرى، نشأت بعد الميلاد على الظن.

والكتاباتُ التي عُثِر عليها في بادية الشام، بحَرَّة الصَّفا وغيرها، تدلُّ على أن «أعرابَ الجاهلية كانوا أحسن حالاً من حيث عِلمُهم بالكتابة والقراءة من أعراب اليوم...»[3]، فالنقوش التي خَلَّفوها نقوشُ أعرابٍ مُتجَوِّلين، كانوا يَرعَوْن الماشِيَة، فكانوا يُسَلُّون أنفسهم بالكتابة والتصوير على الحجارة!... ذلك أن بادية العرب «لم تكن معزولةً عن ثقافة الأمم المحيطة بها...»[4]، لأن التبدّي عند العرب في حقيقته، لم يكن عزلةً في الفَلَوات والبراري، وإنما كان حاجةً اجتماعيةً واقتصادية، وربما حالةً فريدةً خاصة... فهل يُصدَّق بعد هذا، قولُ من زعم أن عرب الجاهلية كانوا في جهالة عمياء، لا يكتبون ولا يحسُبون؟...

لم يكن مُسْتنكَراً إذن على عرب العصر الجاهلي، بما كان لهم من حظٍّ مَوْروثٍ في حضاراتٍ قديمة، وما كان لهم من سهمٍ مَوْفُور في الاتصال بالأُمَم المُجَاورة، أن يحيَا قسمٌ كبير منهم، حياةً راقيةً، مُتعدِّدةَ الجوانب

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي: ٣٣، ٤٦، ١٠١.

(٢) المفصَّل في تاريخ العرب: ٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٦، و ٨/ ٢١٣.

(٣) المرجع نفسه: ٨/ ١١٣.

(٤) عباس محمود العقاد ـ عبقرية الإمام علي: ١٨٤. طبعة دار الهلال بالقاهرة.

والألوان[1]، مُحِيطاً بثقافة العصر، ومُحْسِناً القراءة والكتابة والحساب، وخليقاً بأن يُنْشِيء أسواقاً موسمية، تجتذبُ الناس إليها من مختلف أنحاء الجزيرة والدول المجاورة.

وما خَلَصْنا إليه، لا يعني بالطبع أن العرب كافةً كانوا كاتبين، وأن المدارس عندهم كانت منتشرةً في كل مكان، بحكم ما وَرِثُوه وما اكتسبوه، فقولٌ كهذا باطل، لأن شُيوع الكتابة على ذلك النحو لم تعرفْهُ أمةٌ من الأمم وقتئذٍ، حتى اليونانُ والرومان... فمعظمُ الناس كانوا لا يعرفون الكتابة، والبعضُ كان متعلِّماً[2]... ولكنه يعني أن العربَ قد عَرَفوا الكتابةَ والتدوين في الجاهلية...

المطلب الخامس ـ الكتابة في الجاهلية:

ولو أنْشَأنا نبحث في المراجع التي تحدَّثتْ عن أخبار الجاهليَّة، لوجدنا فيها إشاراتٍ كثيرةً إلى الكتابة، مَبْثُوثةً بين السطور، لكنَّ تَقصِّيها يَسْتَعصي على الباحث العَجُول، ويَنْقَادُ للمُتَأنِّي الصَّبُور... وهي بجُملتِها تدلُّ على وجود الكتابة والكتَبة والمعلِّمين والكتاتيب في الجاهلية، دلالةً واضحةً تُغْني عن الإحْصَاءِ، وما عَهِدْنا في مراجع التاريخ القديم أن تكون بياناتٍ إحصائيةً، فَحسْبُها أنها أشارت إلى هذا الأمر في تَضَاعِيف صفحاتها، وما أكثر ما أشارت!...

١ ـ كَتَبَة وكاتبات:

ذُكِر مثلاً أن «وَرَقَة بنَ نوفل»، كان أحدَ الذين اعتزلوا عبادةَ الأوثان في

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي: ١٦ ـ ١٩.

(٢) تاريخ العرب: ٨/ ١٠٧.

الجاهلية، وكان شاعراً كاتباً، قرأ الكتب، وكان يكتبُ الكتابة العبرانية[1]، فضلاً عن العربية...

وأن «لَقِيطَ بنَ يَعمُر الإياديّ»[2]، كان يكتب بالعربية، ويُحسِنُ الفارسيةَ، وكان من كُتّاب الملك سابور، ومن مُقدِّمي تراجمته[3]...

وأن «حرب بن أمية بن عبد شمس» كان من قضاة العرب في الجاهلية، وكان يكتب الكتابة العربية[4]...

وأن «عبد الرحمن بن جبر الخزرجي» كان يكتب الكتابة العربية في عصر الجاهلية[5]...

وأن «عبد الله بن عمرو»[6]، كان يُحسِنُ الكتابة العربية، وكان يقرءُ

---

(١) الأغاني: ٣/ ١١٣، ١١٤، والسيرة لابن هشام: ١/ ٢٢٣، ٢٣٨. ورقة بن نوفل بن أسد: حكيم جاهلي من قريش، قيل إنه تنصَّر وقرأ كتب الأديان. أدرك أول عصر النبوة، ولم يُدرك الدعوة. وهو ابنُ عم السيدة خديجة أم المؤمنين. توفي (٦١١ م).

(٢) لقيط بن يعمر: شاعر جاهلي فحل من بني إياد، من أهل الحيرة، اتصل بكسرى «سابور ذي الأكتاف»، فكان من كَتَبَتِهِ والمطَّلعين على أسرار دولته. أرسل يوماً إلى قومه شعراً يُنذرهم فيه بأن كسرى سيغزوهم، فعلم كسرى، فغضب عليه وقطع لسانه، ثم قتله نحو سنة (٣٨٠ م).

(٣) الأغاني: ٢٢/ ٣٩٣، والأعلام: ٥/ ٢٤٤، والشعر والشعراء: ١٩٩، وشرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر بن الأنباري: ٤٨٢.

(٤) الأعلام: ٢/ ١٧٢.

(٥) ابن قتيبة ـ المعارف: ٣٢٦.

(٦) عبد الله بن عمرو بن العاص السهميُّ: كان في الجاهلية عالماً بالكتب المتقدمة، يجيد الكتابةَ العربية والسريانيةَ. أسلم قبل أبيه، وكان صحابياً فاضلاً، عالماً بالقرآن والسنَّة، كثير التعبُّد. شهد الحروب والغزوات، وكان شجاعاً، يضربُ بسَيْفَين معاً. اشترك في موقعة اليرموك وفتوح الشام. توفي سنة (٧٣ هـ).

السريانية[1]. . .

ولم تكن الكتابةُ في الرجال وحسب، وإنما أُشير في بعض المراجع إلى أسْماء نسَاءٍ عربيات، كنَّ أيضاً يكتبن في الجاهلية، منهن: «قتيلةُ بنتُ نوفل الأسدية» أختُ ورقة، كانت تنظر في الكتب[2]. . . و «الشفاءُ بنتُ عبد الله العَدَويّة»[3]، كانت تكتبُ في الجاهلية، ثم علَّمت في الإسلام أمَّ المؤمنين حفصةَ بنتَ عمر الكتابة[4]. . . و «فاطمةُ بنتُ مُرّ الخثعميَّة»، قرأت الكتب، واشتُهرت، وكانت شاعرةً كاهنةً عائفةً من أهل مكة[5]، وكانت من أجمل النساء وأَعَفِهنَّ، وكان شبابُ قريش يتحدَّثُون إليها[6] في مَجلِسها. . .

* * *

٢ ـ الكَمَلَةُ في العرب:

ويبدو أن الكتابة كانت في الجاهلية، من الخِصَال الحميدة، التي لا بدَّ منها للرجُل الذي يطلب الرِّفعةَ والكمال. . . فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني[7]، في معرض حديثه عن الأوْس والخزرج، أن «سُوَيْدَ بن

---

(١) الأعلام: ٤/ ١١١، والطبقات: ٢/ ٣٧٣، والمعارف: ٢٨٧، والإصابة في تمييز الصحابة: ٢/ ٣٤٣ (ت ٤٨٤٧).

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٨١.

(٣) الشفاء بنت عبد الله: أم سليمان، قرشية من بني عَدِيّ. أسلمت قبل الهجرة، وكانت عاقلةً فاضلة، وكان عمر بن الخطاب يُقدِّمها في الرأي ويرعاها، وربما وَلّاها شيئاً من أمر السوق. توفيت نحو سنة (٢٠ هـ).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٣٣٣ (ت ٦٢).

(٥) الأعلام: ٥/ ١٣٢، وأنساب الأشراف: ١/ ٧٩.

(٦) الطبقات: ١/ ٩٦.

(٧) سَبقتْ ترجمته .

الصامت الأوْسيّ» كان يُسمَّىٰ في الجاهلية: «الكامل، فالرجلُ عند العرب، إذا كان شاعراً، شجاعاً، يُحْسِنُ الكتابةَ والسباحةَ والرَّمْيَ، سَمَّوْهُ الكاملَ، وكان سُوَيْدٌ أَحدَ الكَمَلَةِ»[1].

ومثلُه «سعدُ بنُ عُبادَة الخَزْرجيُّ»[2]، كان يكتبُ في الجاهلية، وكان من الكَمَلَةِ[3]... وكان كذلك «الربيعُ بنُ زياد العبسيُّ»[4]، يُقال له مع إخوته: الكَمَلَة[5]... وهم: «عمارةٌ الوهَّابُ، وقيسُ الحِفاظ، وأَنَسُ الفَوارس»[6]. وما أكثرَ مَن كانوا يطلبون الرِّفعةَ والكمالَ في العرب! ومن المُفِيد أن يُضافَ هنا هذا الحِوارُ الطريفُ، جرى بين عبد الله بن جُدْعان التَّيميّ، ووالدةِ هؤلاءِ الكَمَلَةِ فاطمة بنت الخُرْشُبِ الغَطَفانيَّةِ، في أحد مواسم الحجِّ بمكة، وهو لا يمكن إلا أن يدلَّ على ارتقاء وتقدُّم ومعرفةٍ.

قيل: إن عبد الله بن جُدْعان لقي فاطمةَ بنتَ الخُرْشُبِ، وهي تطوفُ بالكعبة، وكانت من نساءِ العرب المنْجِبَات، فقال لها: نَشَدْتُكِ بربِّ هذا البيت، أيُّ بَنيكِ أفضلُ؟ قالت: الربيعُ، لا بل عُمَارة، لا بل أَنَس، ثَكِلْتُهم إن كنتُ أدري أيَّهم أَفضَلُ، أَمَا واللّهِ ما حَمَلْتُ واحداً منهم «تُضْعاً»، ولا

---

(١) الأغاني: ٣/ ٢٥.

(٢) سعد بن عبادة: سيدُ الخزرج، وأحد الأمراء والأشراف في الجاهلية والإسلام، مات بحوران سنة (١٤ هـ/ ٦٣٥ م).

(٣) المعارف: ٢٥٩، وفتوح البلدان للبلاذري: ٤٥٩.

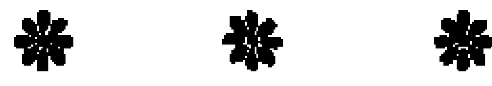
(٤) الربيع بن زياد: أحَد دُهَاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم في الجاهلية. اتصل بالنعمان بن المنذر ونادَمَهُ مدَّةً، ثم أقام في ديار عبس، وحضر وقائع حرب داحس والغبراء. توفي نحو سنة (٥٩٠ م).

(٥) الأغاني: ١٧/ ١١٦.

(٦) المحبَّر: ٣٩٨.

وَلَدْتُه «يَـتْناً» ولا أَرْضعتُه «غَيْلاً»، ولا مَنَعْتُه «قَيْلاً»، ولا أَبَـتُّهُ «مَئِقاً»[1]. . .

فأمَّا التُّضْعُ: فهو الحَمْلُ في آخِرِ الطُّهْر ومُقْتَبل الحَيْض، وهو غير محمود. . . وأمَّا اليَتْنُ: فأن تخرجَ رِجْلا المولودِ قبل رأسه، وهو مكروهٌ عادةً، وغير مأمون. وأمَّا الغَيْلُ: فهو أن تُرضِعَ المرأةُ ولدَها وهي حامل، فالحليب في ثديها وقتئذٍ يكون فاسداً. . . وأمَّا القَيْلُ: فهو الرضاع عند منتصف النهار في القائلة أو القيلولة. وأمَّا المِئَقُ: فهو المُغْضَبُ المُغْتَاظُ، وهذا غير مُسْتَحبٍّ حين ينام الطفلُ، فربما أفْضَى إلى مرض الطفل أو تخلُّفِهِ. . . فانظر إلى ثقافةٍ عند هذه المرأة البادية، قلَّما وجدنا مثلها اليوم في مجتمعات الحضارة.



حتى الأسواقُ الموسميَّةُ كانت، فيما رُوِيَ، تحرصُ أيضاً في مواسم انعقادها على استيفاء شروط الكمال، فكانت تحفل بالكَتَبة، ومنهم الخطباء والشعراءُ والقضاةُ، ومنهم كذلك كَتَبةٌ محترفون، يكتبون بين الناس في حوائجهم وعُقودهم، وربما كانوا يتقاضَوْن على كتابتهم أجراً. . . فقد ذكر المرزوقي أن «عمرو بنَ الشَّريد السُّلَميّ» أحبَّ أن يُكافىءَ «معمرَ بنَ الحارث» على حفاوته به في سوق عكاظ أثناء موسم سنة (٦٠٥ م)، فدعَا إليه «بكاتبٍ وصحيفةٍ»، وكتب كتاباً يمنحهُ به قطعةَ أرضٍ يملكُها في أطرافِ يثربَ[2]. . . وهذه إشارةٌ صريحةٌ، ليس إلى معرفة الكتابة والصُّكُوك والتوثيق في الجاهلية وحَسْبُ، وإنما إلى تَوافُر الكَتَبةِ المحترفين في المواسم العامَّةِ كسوق عكاظ،

---

(١) الأغاني: ١٧/١١٧.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨، ١٦٩.

وإلى وجود وثائق للملكية والتمليك، وإلى أن بني سُلَيْم، وهم باديةٌ، كانوا مُسْتَقِرِّينَ، يملكون أرضَهم ملْكَ قرارٍ دائم، ولم يكونوا رُحَّلاً كما يُقال عن بادية العرب عموماً، من غير تمييز بين مختلف مُجتمعاتهم.

* * *

٣ ـ العقودُ والحسابات:

وقد تَأكَّد أن العرب كانوا يكتبون العقودَ والعُهودَ والمواثيق والأحلاف، وكلَّ ما يتفقون عليه من الأمور العظيمة، في سِجلّات خاصة يحفظونها في أماكنَ خاصَّة، للرجُوع إليها عند الحاجة، وقد عُرفت هذه السجلات عندهم بالمَهَارِق والكُتب والصحف[(١)]. . . وقد ذكر البلاذري أن قُرَيشاً لمَّا قاطعت أبا طالب وسائر بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف، «كتبوا كتاباً عليهم، أن لا يُناكحوهم، ولا يُبايعُوهم، ولا يخالطوهم في شيء، ولا يكلموهم، وعَلَّقوا الصحيفةَ التي كتبوا ذلك فيها بالكعبة. . . وقطعوا عنهم المِيرةَ، فكانوا على ذلك ثلاث سنين، لا يخرجون من الشِّعْب إلا في الموسم. . .»[(٢)].

وكان العربُ أيضاً يُسجِّلون حساباتهم على صُحُفٍ خاصة، يذكرون فيها ما لهم من حُقوقٍ وما عليهم، وكانت تُسمَّىٰ: الصُّكوك، فإذا اختلفوا في شيء من ذلك، رجعوا إلى ما كتبوا في الصكوك[(٣)]. . .

* * *

---

(١) المفصَّل في تاريخ العرب: ٥/ ٥٢٣.

(٢) أنساب اوشراف: ١/ ٢٢٩، ٢٣٤.

(٣) المفصَّل: ٥/ ٥٢٣.

٤ ـ العلامات التجارية:

وقد بلغ من تقدُّمهم، أنهم كانوا إذا خافوا التَّطْفيفَ[١] بالمكاييل، أو العبثَ بالطعام، أو بزِقَاقِ الخمر، وأكياس البُرّ وغيره من أصناف الحبوب، خَتَموها بخاتَمٍ خاصّ يُقال له: الرَّوْسَمُ أو الرَّوشَم، وهو خشبةٌ فيها كتابةٌ منقوشةٌ[٢]... ولعلّ هذا النوع من الكتابة، هو عينُه ما يُكتب على العلامات التجارية والصناعية في هذا العصر. وقد أشار ابنُ منظور إلى كُتب كانت معروفةً أيضاً عند الجاهليين تُسمَّى: «الرَّوَاسيم»[٣]، وربما كانت تُسمَّى بها المعاملاتُ التجارية.



٥ ـ أشراف المُعلِّمين:

على أن هنالك مَن ذهب إلى أبعدَ من كل ذلك، لمَّا سَرَدَ أسماء جماعةٍ من وُجوه العرب، سَمَّاهُم: «أشراف المعلّمين وفقهاءَهم»[٤]، مُشِيراً إلى أن الجاهلية كانت تعرفُ المعلِّمين الذين يُعلِّمون الناسَ الكتابة... ومن أشهر هؤلاء: بِشْر بنُ عبد الملك السَّكُوني الكِنْديُّ في دومة الجندل، وسفيانُ بن أمية بن عبد شمس في مكة، وغَيْلانُ بن سَلَمة بن مُعَتّب الثقفي في الطائف، وعمرو بن زرارة الدارمي التميميّ في هَجَر البحرين، وكان يُسمَّى الكاتبَ، وأبو قيس بن عبد مناف الزُّهري في مكة، وكان يُسمَّى

---

(١) التطفيف: البَخْسُ في الكَيْل والوزن، ونقصُ المكيال.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٢٤٢، وانظر المفصَّل أيضاً ففيه شرحٌ وافٍ لهذا الأمر: ٧/ ٥٥١.

(٣) المرجع نفسه: ١٢/ ٢٤١.

(٤) المحبَّر: ٤٧٥، والمعارف: ٥٥٣.

المعلِّم، وهو الذي كتب كتابَ الحِلْف بين عبد المطلب وخزاعة في دار الندوة[1]. . . وكان الحكَمُ بنُ سعيد بن العاص كذلك مُعلِّماً في الجاهلية، وقد ذكر ابنُ حَزْم أن النبيَّ أمَرَهُ في الإسلام بتعليم الكتابة في المدينة[2]، وقيل أيضاً: إن النبيَّ جعله يُعلِّم الحكمةَ[3]. . . كما ذُكر أن جُهَيْم بنَ الصلت بن مخرمة المطَّلبي كان يُعلِّم الخطَّ في الجاهلية، فجاء الإسلام وهو يكتب، وقد كتب لرسول الله، وهو الذي كتب كتاب الصلح بين الرسول ويوحنه بن رُؤْبَه صاحب أيْلَةَ[4].

كما أشار الأصفهاني أيضاً إلى وجود مُعلِّمين في الحيرة زمنَ الجاهلية، يُعلِّمون الأولادَ في بيوت أهْلِيهم، أو في الكُتَّاب[5]. . . ذلك لمَّا ذكر أنّ حمّادَ بن زيد بن أيوب التميمي، أحضرت له أُمُّهُ من علَّمه الكتابةَ في دار أبيه، فخرج مِن أكتبِ الناس، وصار كاتبَ الملك النعمان الأكبر. . . ثم حذق ابنُهُ زيدٌ الكتابةَ العربيةَ، وبعدَها الكتابةَ الفارسيةَ، فجعله كسرى على البريد في فارس. ولمّا أيفع إبنهُ عَدِيٌّ[6]، طَرَحَهُ زيدٌ في الكُتَّاب، حتى إذا حذق العربيةَ، أرسله إلى كتَّاب الفارسية، ليتعلَّم الكلامَ والكتابةَ بالفارسية[7].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢، وأنساب الأشراف: ١/ ٧١، والمحبَّر: ٤٧٥.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٨٠.
(٣) المحبَّر: ٤٦٠.
(٤) الإصابة: ١/ ٢٥٧ ت ١٢٥٦، والطبقات: ١/ ٢٦٨، ٢٨٩.
(٥) الكُتَّاب: موضع تعليم الكتابة، يُجمع على: كَتاتِيب.
(٦) عَدِيٌّ بن زيد العِبَادِي: شاعر جاهلي، نشأ في الحيرة، وتولَّى الكتابة والترجمة في ديوان ملك الفُرس أبرويز. قُتل نحو سنة (٥٩٠ م). وعلماءُ العربية لا يرون شعره حُجَّةً.
(٧) الأغاني: ٢/ ٨٢، ٨٣، والشعر والشعراء: ٢٢٨.

وذُكر أيضاً أن الشاعرَ المرقِّشَ الأكبر[1] كان يكتبُ، وكان أبوه دَفَعهُ وأخاه حَرْمَلَة إلى مُعلِّم من أهل الحيرة فعلَّمهما الخطَّ[2]. . . وقال ابنُ قتيبة[3]: إن المرقّشَ كان يكتبُ بالحِمْيَرِيَّة[4]، أي بالخطِّ المُسْنَد.

وجاء في الطبريّ: أن خالدَ بنَ الوليد لمّا فَتَح الأَنْبارَ[5] سنة (١٢ هـ)، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلَّمونها، فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قومٌ من العرب. . . فقال: مِمَّن تعلَّمتُم الكتابة؟ فقالوا: تعلَّمنا الخَطَّ من بني إِيَاد[6]. . . وقد وجَد كذلك في النُّقَيْرَةِ، وهي من قُرى عَيْن التمر بالعراق،

---

(١) المرقِّش: عمرو بن سعد، من بني بكر بن وائل. شاعر جاهلي، وُلد باليمن ونشأ بالعراق. اتصل مدةً بالحارث أبي شمر الغساني في الشام، ونادمه ومدحه، فاتخذه الحارثُ كاتباً له. عشق أسماءَ بنت عمّه، وقال فيها شعراً كثيراً. لُقِّب مُرَقِّشاً لقوله:

الـــدارُ قَفْرٌ والرســـومُ كما   رَقَّشَ في ظهر الأَدِيم قَلَمْ

ورقَّشَ: زَيَّن وأحْسَنَ. توفي نحو سنة (٧٥ ق. هـ/ ٥٥٠ م)، وقيل: إنه كتب على خشب رَحْلِهِ قبيل وفاته أبياتاً من الشعر، فعرف قومُه منها سببَ موته.

(٢) الأغاني: ٦/ ١٢٤.

(٣) ابن قتيبة: (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ = ٨٢٨ ـ ٨٨٩ م)، أبو محمد، عبد الله بنُ مُسْلم بن قتيبة الدِّينَوَرِيُّ. من أئمة الأدب، ومن المؤلِّفين الموسوعيّين، وُلد في بغداد، وسكن الكوفةَ، ثم ولي قضاء مدينة الدِّينَوَر مدةً فنُسِبَ إليها، وتوفي ببغداد. من كتبه: أدب الكاتب، المعارف، عيون الأخبار، الشعر والشعراء.

(٤) الشعر والشعراء: ٢١١.

(٥) الأنبار: مدينة على الفرات في غرب بغداد، فُتحت أيام أبي بكر، والأنبار: ج نَبْر وهو الهَرْيُ الذي يُجمع فيه القمح، سميت بذلك لأنه كان يُجمع بها أَنَابيرُ الحنطة والشعير وغيرها.

(٦) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٥، (وإِيَادُ قبائلُ عربية كثيرة، خرجوا إلى العراق بعد أن تكاثر المُضَريون، وكان من مَوَاطنهم فيه الأنبار وعين أباغ وتكريت وغيرها. . .).

صِبْياناً يتعلَّمون الكتابةَ في الكنيسة[1]...

* * *

٦ ـ أدوات الكتابة:

وهنالك أيضاً فوق كل ما سَلَف، دليلٌ على انتشار الكتابة في الجاهلية، نعتقد أن الشكَّ لا يمكن أن يَرْقَىٰ إليه. فقد تبيَّن من اسْتِقْراءِ[2] كلماتِ الكتابة ومُشتقَّاتها وأشْبَاهِها، وتَتَبُّع أسماء أدَوَاتها ووسائلها في لغة الجاهليين وأشعارهم، أنهم كانوا يعرفون النَّسْخَ والرَّقْمَ والسَّطْرَ وغيرَها من المفردات الدالَّةِ على الكتابة، ويستخدمون مختلفَ أدَوات الكتابة المعروفة والمُتَوَافِرَةِ حينذاك مثل: القلم، والصحيفة، والقِرْطاس، والسِّجِلّ، والدَّوَاة، والمحْبَرة، والمِدَاد، واللوح، والمجلَّة... وأنهم «لم يُغَادروا وسيلةً يكتبون فيها إلا الْتَمَسُوها»[3]، فكتبوا في الجلد الرقيق الأبيض، وكانوا يُسَمُّونَه: الرَّقّ[4]، أو الأديمَ، أو القَضِيمَ[5]... وكتبوا في القماش، وكانوا يُسَمُّونَ الصحفَ البيضاءَ المصنوعةَ منه: المهَارِقَ، وهي من حرير أبيضَ يُسْقَى الصَّمْغَ ويُصقَل[6]... وكتبوا في ورق البَرْدِيّ، وكانوا يُسمُّونَهُ أحياناً: القُرْطاسَ وهو الصحيفةُ الثابتةُ التي يُكتب فيها[7]، كما كتبوا في الحِجَارة

---

(١) معجم البلدان: ٥/٣٠١.

(٢) استقرأ: تتبع الأمر لمعرفة أحواله وخَواصّه.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي: ٩٢.

(٤) لسان العرب: ١٠/١٢٣ (رقق)، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾. (سورة الطور: ٢).

(٥) لسان العرب: ١٢/٤٨٨ (قضم).

(٦) لسان العرب: ١٠/٣٦٨ (هرق).

(٧) لسان العرب: ٦/١٧٢ (قرطس)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ﴾. (سورة الأنعام: ٧).

والخَشَبِ والعِظَام وسَعَفِ النخل... وكانوا يصنعون الأقلامَ من القَصَبِ غالباً، ويعضَها من الحديد، وللقلم أسماءٌ منها: المِزْبَرُ والمِرْقَمُ[1]... وكانوا يصنعون الحبرَ أو المِدَادَ، ويحفظونه في الدّوَاةِ أو المحبرة...

وأشْبَاهُ هذه الكلمات في لغة الجاهليين وأشعارهم أكثرُ من أن نُحيطَ بها خُبْراً في هذا البحث المختصَر، لكنها في جميع الأحوال دليلٌ حاسِمٌ على معرفة الكتابة في الجاهلية وشُيوعها، ولا سيما إذا أضفنا إلى ذلك أن معظم تلك المفردات، استعمله القرآنُ في مواضِعَ كثيرةٍ مِئَاتِ المرَّات... وإلاّ، فما معنى أن تحفلَ لغةُ قومٍ وأشعارُهم بعشرات الكلمات والأسماء إن كانوا لا يفهمون لها معنى أو دلالةً، ولا يعرفون فيمَ استعمالُها؟ بل ما معنى أن يُخاطِبهم القرآنُ بكلمات يجهلون معانيها، ولا يمكن بالتالي أن يقدروا قيمتَها وبلاغتَها والغَرَضَ منها؟ بل ما معنى أن يُقْسِمَ اللَّهُ بالقَلَم وبما يُسَطِّرُه الكاتبون في قوله تعالى: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[2]، إن كان المخاطَبُونَ لا يفقهون ما يسمعون؟ وهل تستطيع أمةٌ لا تعرفُ الكتابةَ، أن تفهم معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَو كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾[3]...؟ أومعنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾[4]...؟

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٢٥٤.

(٢) سورة القلم، الآية: ١، وانظر تفسير ابن كثير: ٧/٧٨، ولسان العرب: ١٣/٤٢٧، ٤٢٨ (نون)، وفيها: (ن) تعني الدَّوَاة.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

إن استعمال القرآن الكريم تلك الكلمات والأسماء[1]، دليلٌ قويّ على أن عرب الجاهلية كانوا يعرفون مُسَمَّياتها، ويستخدمونها منذ أجيال ليست بالقليلة، وأن معرفة الكتابة والقراءة كانت منتشرةً فيهم، على نَحْوٍ هَيَّأَهُم أن يَفْقهوا كلام الله، ويُدْركوا أسرارَ بلاغته وإعْجَازِهِ، ويَعلَموا معانيَهُ ومَقَاصِدَهُ. . .



٧ ـ كتبة الوحي والحوائج المختلفة:

وأخيراً نحبُّ أن نشير إلى أنه كان لرسول الله، غيرَ كُتَّاب الوحي، عددٌ كبير من الكَتَبَةِ اختصَّ كلُّ فريقٍ منهم بعمل من أعمال الكتابة. . . فريق يكتبُ بين يَديْه في حوائجه، وفريق يكتبُ بين الناس في شؤونهم، وفريق ثالثٌ يكتب المُدايَناتِ والعقودَ والمعاملات، وآخَرُ يكتب المغانم، وكاتبٌ يُقدِّرُ ثمارَ الحجاز، وكاتبٌ يكتب إلى الملوك بلُغاتهم، ويترجمُ عنهم، وهنالك فوق كلّ ذلك كاتبٌ عامٌّ، يخلُفُ كلَّ كاتب إذا غاب عن عمله، وكان يَلْزمُ النبيَّ ويُذكِّره بكل شيء هو فيه، ويحتفظ بخاتمه[2]. . . وقد قدَّر بعضُهم أنه كان لرسول الله في ديوانه «نيِّفٌ وثلاثون كاتباً. . .»[3].

فأين هي «الأُمِّيَّةُ» التي فسَّروها جهلاً، وأيُّ انتشار للكتابة يُرْجَى في ذلك الزمان، أوسعُ من أن يكون لكل جانب من جوانب الحياة اليومية،

---

(١) انظر على سبيل المثال الآيات: ١٥٤/ الأعراف، ١٣٣/ طه، ١٠٤/ الأنبياء، ٥٨/ الإسراء، ٩ و ٢٠/ المطفِّفين، ٦/ الأحزاب، ٢٩/ الجاثية، ١٨ و ١٩/ الأعلى. . .

(٢) العقد الفريد: ٤/ ١٦١، ١٦٢.

(٣) صبح الأعشى: ١/ ٦٥، ٦٦ طبعة وزارة الثقافة بدمشق، وفتوح البلدان: ٤٥٧ ـ ٤٥٩.

كاتبٌ خاصٌّ يتولّى شؤونه؟... فإن قيل: إن بعض أولئك ربما تعلَّم الكتابة في الإسلام، كالذي ذكروه عن تعلُّم «زيد بن ثابت الأنصاري»[1]، العبرانية والسريانية في نحو شهر[2]... قلنا: فذاك لا يَنْفي عن الآخَرين معرفتَهم بها زمَنَ الجاهلية، بل هو دليلٌ على وجود الكتابة في المجتمع الجاهلي، بالعربية وغيرها، ودليلٌ على صحة ما أثْبتناه عن وجود المعلِّمين، وإمكانِ التعلُّم في الحاضرة والبادية على السَّوَاء! وقد ذكر ابنُ سعد نحواً من مئة كتاب، أرسلها النبيُّ إبَّانَ الدعوة إلى قبائل العرب، في الحواضر والبوادي، يدعوهم إلى الإسلام، أو يشرحُ لهم فيها «فرائضَ الإبل والبقر والغَنَم والثمار والأموال...»[3]، من أجل حساب الزكاة... فما كانت قيمةُ تلك الكُتُب لو أن القوم لا يعرفون القراءةَ والحسابَ، وكانوا ما يزالون قريبي عهدٍ بالجاهلية؟ أليس في هذا دليلٌ على أن الكتابة كانت معروفةً عند الجاهليين؟... وهذه إحدى الروايات التي أثبتها ابنُ سعد تقول: إن رسول الله كتب إلى بني زهير بن أُقَيْش، وهم من قبيلة عُكْل بالبادية، فوقف حاملُ الكتاب في سوق الإبل، فسأل: أَفِيكُم من يقرءُ؟ فقال أحدُهم: نعم، أنا أقرءُ، فقال: دُونَك هذا، فإن رسول الله كتبه لكم[4]... ومن هذه الرواية وأمثالها يتأكَّدُ لنا أنه كان، حتى في بوادي العرب، من يُحسِنُ القراءةَ والكتابة، وأن أُمِّية العرب لم تكن جهلاً بالكتابة...

* * *

---

(١) زيد بن ثابت: صحابي، وُلد بالمدينة ونشأ في مكة. أسلم، ثم هاجر مع النبي وعمره إحدى عشرة سنة. تفقَّه في الدين حتى صار إماماً في الفُتْيا والقضاء والفرائض. توفي سنة (٤٥ هـ).

(٢) الطبقات الكبرى: ٢/ ٣٥٨.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٣.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٧٩.

المطلب السادس ـ عربُ الجاهلية والحساب:

ولا بُدَّ لنا بعدُ من قَوْلةٍ نقولها في معرفة عرب الجاهلية مبادىءَ الحساب، ردّاً على من زعم أنهم كانوا وقتئذٍ يجهلونها، أو أنهم ما كانوا يعرفون عدداً فوق الألف. . .

ولئن كنا لا نملك أَدِلَّةً حِسِّية، على مدى تقدُّمهم في علم الحساب، لكنّ المحقَّقَ أنهم كانوا، كما أكَّد جواد علي، يُعلِّمون أبناءَهُم مع الخطِّ، مبادىءَ الحساب المعروفة في ذلك الزمن، وهي الجمعُ والطرحُ والضربُ والقِسْمةُ، وذلك لحاجتهم إليها في شؤونهم اليومية، ولا سيما التجارية منها[1]. . . وقد عرفنا أن أكثر العرب في الجاهلية، كانوا إمّا تُجّاراً، أو عامِلينَ في جانب من جوانب التجارة، وكانوا يُنظمون قوافلَ عظيمةً، تنتقل إلى البلاد القريبة والبعيدة، حاملةً مَتاجِرَ وعُروضاً وأمتعةً تُقدَّر أثمانُها بعشرات الألوف، وربما أكثر، وكانوا يشتركون فيها، فريق بأموالهم، وفريقٌ بما عندهم من البضائع المختلفة، وآخرون بالسَّعْي والعمل، أو بالخفارة وتوفير الأمن في طُرق المواصلات. . . ولا بُدَّ في مثل هذا النوع من الاتّجار، من ضَبْط حسابه بالكتابة والصكوك، مخافةَ أن يضيع فيه حقٌّ، وقد وردت أسماءُ كثيرين من قريش كانوا يقومون بهذا النوع من التجارة. . . فهذه أيضاً حُجَّةٌ تُسقِط دَعْوىٰ من زَعم أن عربَ الجاهلية كانوا يجهلونَ الحسابَ، أو أنهم ما كانوا يعرفون عدداً فوق الألف! . . .

على أن في القرآن آياتٍ كثيرةً، ذكرت فِئَاتٍ مختلفةً من الأعداد، فيها الآحَادُ والعشَراتُ والمِئَاتُ والأُلوفُ وعشراتُ الألوف ومئاتُ الألوف. . .

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٣٠٢.

ومنها الثُلُثُ والثُلُثانِ والرُبْعُ والثُمْنُ والنِّصْفُ والسُّدسُ والعُشْرُ[1]. . . وهي إن دلّتْ، فإنما تدلُّ على أن العرب كانوا قبل نزول القرآن يعرفون معاني تلك الكلمات، ويستعملونها في معاملاتهم، ولا سيما التجارية منها[2]. وقد اعتمد القرآنُ عِلْمهم بالحساب في بيانِ السِّهام والفرائض والزكاة. . . وأحاط الأعْدادَ والأرقامَ والحسابَ والموازينَ بأهميَّةٍ بالغةٍ، ومَجَّدها في كثير من الآيات، التي تحدَّثَتْ عن خَلْق السماوات والأرض، والأفْلاكِ، ومنازل الشمس والقمر[3]، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4]. . . وقد ذكَّر غيرَ مرَّةٍ بأنه إنما يُفصِّلُ الآيات لقوم يعلمون، لا لِقومٍ جَهَلَةٍ، لا يكتبون ولا يحسُبون، ولا يعقلون ما يُتْلَى عليهم من آيات ربِّهم. . . وهذا أيضاً دليلٌ آخر على أن العرب كانوا في جاهليتهم يعرفون الحسابَ، ويعلمون مواضِعَ استخدام الأعداد والأرقام. . . وهو دليلٌ يَدْحَضُ كلِ المزاعم، لأنه فوق الأدِلَّة كافةً مهما بلغتْ حُجَّتُها، وكثيرٌ من أدِلَّة التجهيل أُقيم على حوادثَ فرديَّةٍ، لا يَصحُّ اتِّخاذُها مِعْياراً للموازنة والقياس، ولا بِناءُ حُكم منها يُطلق على العرب عامَّةً. . .

ومن ذلك مثلاً، روايةٌ ذكرها عددٌ من المؤرخين القُدَامى، تُفِيدُ أنه كان في شروط صُلْح الحِيرَة، أن تكون بنتُ أَحَدِ رؤسائها، من نصيب أَحَدِ الأعراب، فافْتَدَتْ نفسها منه بألف درهم، فاسْتَقلَّ أصحابُهُ المبلغَ، ولامُوهُ

---

(1) انظر الآيات: ١١ و ١٢ و ١٧٦/ النساء، و ١٤٧/ الصافات، و ٤/ المعارج، و ٩/ الأنفال، و ٤٧/ الحج، و ٩٦ و ٢٤٣/ البقرة، و ١٢٤ و ١٢٥/آل عمران. . . وغيرها.

(2) تاريخ الجنس العربي: ٥/١٧٦.

(3) الإسلام ومستقبل الحضارة: ٥٨ و ٥٩.

(4) سورة يونس، الآية: ٥.

في ذلك، إذ هي قادرةٌ أن تدفعَ إليه مبلغاً أكبر! . . . فقال لهم: ما كنتُ أرى أن عدداً يزيدُ على ألفٍ. . . أو: كانت نيّتي غاية العدد[1].

وقد اتَّخَذَ بعضُ الباحثين والمؤرخين من هذه الحادثة الفردية، دليلاً على جهل العرب كافةً وسذاجتهم. . . ومن هؤلاء: فيليب حِتّي، الذي عَدَّها طُرْفةً، ثم جعلها مِعْياراً لسذاجة العرب، فقال: «ومن الطُّرَفِ المُسْتملَحة، التي سَجَّلتْها مُدَوَّناتُ العرب، فجاءَتْ معْياراً يُوازَنُ به بين ثقافة الفرس المغلوبين، وسذاجة العرب الظافرين»[2]، أن أعرابياً دُفعت إليه بنتُ أحد كبراء الحيرة، فباعها بألف درهم! ثم ذكر بقية الحكاية. . .

والعجيب أن فيليب حتي، عدَّ الحادثةَ من الطُّرَفِ الظريفة، ولكنه جعلها في الوقت نفسه مِعْياراً، بَنَى عليه حُكماً بسَذاجة العرب عامّةً، وجَهلهم بالأرقام والأعداد، أو بما فوق الألف، مع اعترافه من جهة أُولى بأن الحادثة فرديةٌ، فلا يصحُّ بهذا اتخاذُها معياراً للحُكم على الجمهور، وأنها من جهة أُخرى وقعتْ لأعرابي، هو مَعْذُور بطبيعته إن كان حقاً يجهل شيئاً. . . والأكثَرُ غرابةً من ذلك، هو اتّخاذُ قولِ الفَرْدِ حُجَّةً في الحكم على الجماعة، وإهمالُ قول الجماعة الذين اسْتَقلُّوا الألْفَ، لِعلْمهم طبعاً بما هو فوق الألْف من الألوف، وهؤلاء هم أنفسُهم الذين أَجْرَوْا صُلْحَ «الحِيرة» يومئذٍ على مئتين وتسعين ألف درهم، ثم صُلحَ «بانقيا» على ألْفِ ألْفٍ[3]، أي مليون درهم! . . . وإذا كان مُؤرِّخو العرب القُدامَى أَثْبتُوا تلك الحكاية في مُصَنَّفاتهم، فذلك لا يعني أنهم ساقُوها اعتقاداً بصحَّةِ وقوعها، أو دليلاً على

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٦٦، والكامل: ٢/ ٣٩١، وفتوح البلدان: ٣٤٤.

(٢) تاريخ العرب: ٢١٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٦٣، ٣٦٤. وبانِقْيا: ناحيةٌ من نواحي الكوفة.

جهل العرب، وإنما التزاماً منهم بصدق النقل والرواية، وتسجيل الوقائع اليومية كاملةً كما وصلتْ إليهم.

* * *

صَفْوةُ ما قَدَّمناهُ أنّ جاهليةَ العرب لم تكن جهلاً، وأن معرفتَهم الكتابةَ والحسابَ معرفةٌ قديمةٌ، أمرٌ يُقرِّرُهُ البحثُ العلميُّ القائمُ على النزاهة، والأدِلَّةِ الحِسِّيَّة[1]... فقد كان في عصر الجاهلية كتابةٌ وكَتَبَةٌ، وحِسَابٌ وحَسَبَةٌ، وفيه مُعلِّمون يُعلِّمون القراءةَ والكتابةَ، ومَبَادِىءَ الحساب، وتجويدَ الخطِّ، وأخبارَ الأوَّلين، والحِكمةَ، وفيه كتَاتيبُ للتعليم قامت في المُدن والقُرى العربية، مثل: مكة ويثرب والطائف ودُومَة الجندل والحِيرَة والأَنْبار وعَيْن التمر وغيرها[2]، واستُخْدِمتْ فيه كلُّ وسائل الكتابة المعروفة يومَذَاك... ومن شأن ذلك كله، أن يُؤَكِّدَ جَدَارةَ عرب الجاهلية، بإقامة الأسواق الموسميَّة، والتوفُّرِ على إدارتها ورعايتها، وتأمينِ مختلف أسباب النجاح لها، فضلاًعن إقامة المواسم الدينيَّة والاجتماعية المختلفة.

* * *

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي: ٣٣، ٥٢.

(٢) المفصَّل: ٨/ ١١٠، ١١١، ٢٩٨.

الباب الخامس

قواعد الأمن في مجتمعات العرب قبل الإسلام

مقدمة: الحالة العامة للأمن في بلاد العرب

الفصل الأول: الحرمات الدينية

ـ رعاية الحرمات أولى قواعد الأمن

المطلب الأول: الشهور المحرَّمة

١ ـ النصوص التاريخية

٢ ـ المأثور من أخبار الجاهلية وحوادثها

المطلب الثاني: الأمكنة المحرَّمة

المطلب الثالث: المُحِلّون والمُحَرِّمون في العرب، والذَّادَةُ المُحرِّمون

١ ـ جماعة المُحلِّين: انتهاك حُرمة الأمكنة المحرَّمة

انتهاك حُرْمة الشهور المحرَّمة:

الحوادث القَبلية، وقائع الفِجَار، الحوادث الفردية، الحوادثُ غيرُ المحدَّدة والمُحِلُّون.

٢ ـ طائفة الذادة المُحَرِّمين

المطلب الرابع: التقاليد الدينية

الفصل الثاني: الأحلاف والمواثيق

ـ الأحلاف والعهود قامت مقام الدولة عند القبائل

ـ الحلف عقد وعهد وذمة وأمان: حلف ذي المجاز، حلف الفضول، حلف الأحابيش، حلف التنوخ

ـ الأحلاف والمواثيق كالقوانين والأعراف

الفصل الثالث: الجوار والخفارة

المطلب الأول: معنى الجوار

المطلب الثاني: حقوق الجار

المطلب الثالث: أشكال الجوار

المطلب الرابع: الجوار حلف وعهد

المطلب الخامس: الجوار والخفارة

المطلب السادس: الخفارة المأجورة

المطلب السابع: المصاهرة.

الفصل الرابع: حقيقة دعوى الأعاجم في حماية أسواق العرب

المطلب الأول: التفريق بين مواقع بلاد العرب

١ ـ جزيرة العرب، ٢ ـ بلاد الشام، ٣ ـ بلاد العراق،

المطلب الثاني: تَـفْنيد زَعْم القائلين بالحماية الفارسية لمعظم بلاد العرب

١ ـ حديث الأسواق

٢ ـ حكاية يوم المشقر أو يوم الصفقة: الوضع والتزيد في وقائعها، أسطورة عامل الفرس على مدينة هجر، انتهاب قافلة كسرى، أسطورة المكعبر، الحماية الفارسية دعوى باطلة.

الفصل الخامس: طائفة الصعاليك

المطلب الأول: الصعاليك والتصعلك

البعابعة، بنو الغبراء، الهُلاَّك، الجُمَّاع، الذُّؤبان، العَدَّاؤون...

المطلب الثاني: مادة الصعاليك

١ ـ خُلَعاء القبائل

٢ ـ الشُّذَّاذ

٣ ـ الأَغْربة والعبيد

المطلب الثالث: مقدار خطر الصعاليك على الأمن.

الحالةُ العامّةُ للأمن في عصر الجاهلية ومُجتمعَاتُ العرب

لا شك في أن مواسمَ الحجِّ والأسواقِ والأعيادِ، التي كانت تقومُ في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ من السنة، على مختلف المواضع من بلاد العرب، في عصر الجاهلية، وما كان يجري فيها من تجارةٍ وتَبادُلٍ للعُروضِ والسِّلَعِ، وانتقالٍ للقوافل والناسِ عَبْرَ الفَلَواتِ والصحارى، إنما كانتِ الوجْهَ الصادِقَ الذي تَتَجلَّىٰ فيه الحالةُ العامَّةُ للأمن، والمِعْيارَ الدقيق الذي يُوزَنُ به مِقْدارُها... ذلك أن غَلَبَةَ الأمن على المجتمعات تُعَدُّ سبباً رئيساً، وأساساً صالحاً، لازْدِهارِ التجارات، واطِّرادِ المواسم، وانتظام الأسواق. بينما تُؤدّي غَلَبَةُ الخوفِ، وانتشارُ الفوضى والعَيْثِ، واضطرابُ الأحوال، إلى كَسَادِ التجارة، وبَوَارِ الأسواق، وتَعثُّرِ المواسم وانقطاع قيامها.

● **القواعد المطلوبة لاعتبار الأمن غالباً على بلاد العرب كانت متوافرة:**

والناظِرُ في أخبارِ المواسِم الكِبَارِ عند العربِ في عصر الجاهليَّة، يجدُ أنها كانت تَتَميَّزُ بشُيُوعِ الأمنِ في مُعْظمِها إن لم يكن فيها جميعاً. وكان الناسُ الَّذينَ يقصدونها، أيامَ قيامِها، آمنينَ على أنفُسِهم وأموالهم فيها، مُطْمئنِّينَ إلى سَلامتِهم في السفَرِ والإقامة، مع احْتِرازٍ لا بُدَّ منه لكل مُرْتحلٍ في الدُروبِ البعيدةِ المُمتدَّةِ وسطَ الفَيَافي والبوادي، تحوُّطاً لكل طارىءٍ.

وسنجدُ في اسْتقراءِ حوادثِ التاريخ وأخباره، أن القواعدَ الضروريَّة

اللازمةَ لاعْتِبارِ الأمن غالباً على بلاد العرب، كانت مُتَوافرةً في عصر الجاهلية، في حُدودٍ جَيِّدةٍ، خَيرٍ منها عند كثير من الأُمم الأُخْريَاتِ.

ولعلَّ أصدقَ دليلٍ على ذلك، نُقدِّمُه ابتداءً، هو الآيةُ الكريمةُ من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ ﴾[1]... ومعنى هذه الآية كما أَطْبَق عليه المُفَسِّرون، أنه كان على الطريق الممتدِّ من اليمن إلى الحجاز فبلاد الشام قُرى مُتَواصِلةٌ، قريبٌ بعضُها من بعض، جُعل السَيْرُ بينها على مَراحِلَ، والمرحلةُ مسافةٌ قَدرُها نحوُ أربعة وعشرين ميلاً، كان الراكبُ على الإبل يَقْطعُها في يوم، فكانوا يسيرون فيها بتجاراتهم آمِنينَ من كل مَكْروهٍ، لا يخافون شيئاً في ليلٍ أو نهار[2]... وأضاف ابنُ منظور أنهم كانوا لا يحتاجون في سَفَرِهم هذا إلى زادٍ، من لَدُنْ وادي سبأ باليمن إلى الشام[3]. وهو دليلٌ على كثرة ما كان في الطريق من مَرافِقَ وقُرى يجدون فيها الزادَ والمأوَىٰ والأَمانَ... وقد أكَّدَتِ الآثارُ المَعينيَّةُ التي وُجِدَتْ قريباً من مدينتَيْ العُلا وتَبُوك بوادي القُرى، في الحجاز، أنه كانت هنالك جُملةٌ من المُسْتَوْطَناتِ استُعمِلتْ مراكزَ لتبادُلِ البُرُدِ، وعَنابِرَ لخزن البضائع[4].

● **انتشار بيوت التجارة على طول الطريق الغربي للتجارة:**

فهل هنالك دليلٌ خيرٌ من هذا على أن طرُق التجارة كانت آمِنَةً، وأن

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/٥٤٣ ـ ٥٤٤، وتفسير القرآن الكريم: ٢٢/٦٩، وتفسير الجلالين: ٥٦٥، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: ٤٩٦، وكلمات القرآن: ٢٦٢.

(٣) لسان العرب: ١٥/١٧٨ (قرا).

(٤) تاريخ العرب: ٨٨.

العُمْرانَ كان بذلك مُتَّصِلاً بينَ اليمن ووادي القُرى إلى بلاد الشام؟... بل هنالك دليلٌ آخَرُ من القرآن الكريم أيضاً... ذلك أنه لمّا نَزل قولُه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾[1]، قال أبو بكر: يا رسولَ الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفونَ بين مكة والمدينة والشام، ولهم «بيوتٌ مَعْلومَةٌ» على الطرق، فكيف يستأذِنون، وليس فيها سُكَّانٌ[2]...؟ فنزلت الآيةُ الكريمةُ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾[3]... وإذا تَدبَّرْنا هذا الكلامَ وجدنا فيه إشاراتٍ بَيِّنَاتٍ إلى عِدَّة أمورٍ، أهمُّها أربعةٌ جديرةٌ بالاهتمام والبحث...

الأول: وجودُ بيوتٍ على طريق التجارة الغربي في جزيرة العرب، ينزلها تُجّارُ القوافل في أسْفَارهم، للراحة والتزوُّد بالماء، وربما للتجارة ومُقايضة أهل المنطقة بالسِّلَع والعُروض.

الثاني: أن تلك البيوت كانت مَرافِقَ عامَّةً، ولم تكن مِلْكاً خاصّاً لأحَدٍ يَنْزِلُها، أو يَسْتثمِرُها بالإجَارَةِ، وإلاّ لوَجَبَ عليهم اسْتِئذانهُ أيضاً في النزول بها.

الثالث: أنها لم تكن مَضَارِبَ أو خِيَاماً من صوف أو وَبَرٍ أو سَعَفِ نخيل، ولو كانت كذلك لَقَوَّضُوها وحملوها معهم، وإنما كانت مَبْنيَّةً على نحوٍ ما، يُبْقيها قائمةً على حالٍ ثابتةٍ «مَعْلُومةٍ»، تسمحُ للتجار والحجّاج أن يَأْوُوا إليها كلَّما مَرُّوا بها.

الرابع: أنها كانت تظلُّ خاليةً «غير مَسْكونَةٍ» من الناس، إلا في أيام

---

(1) سورة النور، الآية: ٢٧.

(2) تفسير الجلالين: ٥٨٤.

(3) سورة النور، الآية: ٢٩.

المواسم ومُرور قوافل التجار والحجَّاج والمسافرين، وهو دليلُ استقرار المناطق التي كانت تقومُ بها، أو ثباتِ القواعد التي تُنظم العلائق بين التجار وأهل تلك المناطق.

ويُفهم مما ذكره ابنُ كثير في تفسير الآية، وكذلك ابنُ منظور، أن تلك البيوت كانت كالخانَاتِ وحوانيت التجار، أو كالفنادق ومنازل الأسفار التي تنزلُها السَّابِلَةُ عادةً، ولا يُقيمون فيها إلا مُقامَ الظاعِن. وكلُّ شاخِصٍ للمسير من مدينةٍ إلى أخرى ظاعِنٌ، وهو ضدُّ المقيم، والسَّابلةُ هم أبناءُ السبيل، المختلفون على الطرقات في حوائجهم، المسافرون يقصدون بلداً لأمور تلزمهم[1]... وعلى ذلك يمكن القولُ إذن، بأن تلك البيوت لم تكن لِتُنْشَأَ مصادفةً وعَبَثاً، من غير نظام وراء إنشائها، ولم تكن لِتُقامَ على طريق طويلٍ، مُمتدٍّ عبرَ الجبال والصحارى والوديان، لو لم يكن الأمنُ مكفولاً لها، في حُدودٍ مقبولةٍ، تجعلُ التجارَ والحُجَّاجَ والمسافرين مُطمئنين غالباً إلى نزولهم بها، مُرتاحين إلى الحماية التي يُوفِّرها لهم: جِوَارُ أهلِ المناطق التي تقعُ البيوتُ فيها، وأَخْذُهم في سفرهم بقواعد الاحْتراز الضرورية لكل مسافرٍ في قافلةٍ، على طُرقٍ بعيدة، في أَرْضينَ واسعةٍ مُتَرامِيَة... فإذا كان الأمنُ والنظامُ أكثَرَ حالِ الطُرق في عصر الجاهلية، فلا رَيْب أن حالَ المجتمعاتِ المستقرَّةِ يومئذٍ في المدن والقُرى والأرياف كان خيراً منه، إذ لو لم يكن الأمنُ غالباً عليها، لما انتشرتْ تجارةُ القوافلِ في مُختلفِ رُبوعها، ولا انْعَقَدتْ مواسمُ الحجِّ والتجارةِ بالمواعيدِ المقرَّرةِ لقيامِها من كلّ سنةٍ، ولا استمرَّ قيامُ بعضِها في مواعيده قُروناً طويلةً، ولا قصدَها أحدٌ من العربِ،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ٨٥، ولسان العرب: ٢/ ١٤ (بيت)، و ٨/ ٣٣٢ (متع)، و ١١/ ٣٢٠ (سبل).

فضلاً عن تُجّار الأُمم الأخرى، على نحوِ ما كان في مكَّةَ، وعُكَاظَ، وهَجَرٍ، وعُمانَ، والشِحْرِ، وعَدَنٍ وغيرها من مواسم العرب.

* * *

● **من عيَّروا العرب بالغزو لم يعيِّروا غيرهم بما هو أشدُّ وأعتى:**

ما اجْتَزَأْتُ بهذا الكلام عن البحث في قواعد الأمن عند العرب، وإنما قدَّمتُه مدْخَلاً إليه، وأنا لا أجهلُ ما كان من قبائل الأعراب، وبعض قبائل البادية، مثلما كان في مجتمعات سائر الأُمم قديماً، من أعمال الغَزْوِ والغارات، وما كان يَتخلَّلُها ويُعْقِبُها من السَّلْبِ والنَّهْبِ، ولا سيما في حالاتِ القحطِ والجدْب...

والعجيبُ أن المؤرِّخينَ والمُسْتشرِقينَ عيَّروا العربَ جميعاً بما قام به بعضُ قبائلهم من الغزو، كما عيَّروا القبيلةَ كلَّها بما قام به بعضُ أبنائها، بينما بُرِّرَ هذا الأمرُ لِغَيرهم من الأمم.!

يقول بْرِسْتِد: «... والشعبُ الذي تجتمعُ فيه قوَّةُ البنْيةِ، والجَلَدُ، والبأسُ، يميلُ غالباً إلى الغَزْوِ والنَّهْبِ، والذي يميلُ إلى الغزو والنهب، يَجْنَحُ إلى الارْتحالِ من مكانٍ إلى آخَر. وعلى هذا كانت قبائلُ الجرمان في أوربة، يتَّبِعُون مَيْلَهمُ الفِطريَّ إلى الغزو والنهبِ والتنقُّلِ من مكانٍ إلى آخَر، ومعهم نِسَاؤُهم وأولادُهم وأقرباؤهم...»[1].

ولم يكن للجرمان حتى مطلع العصور الوسطى، أي أوائل القرن السادس للميلاد، قُرىً أو مُدُنٌ أو مُسْتوطَناتٌ يعيشون فيها، وإنما كانوا ما يزالون رُحَّلاً، يَتَقلَّبُونَ في الأرض، يَغْزُون الرومان حيثما وجدوهم، حتى

---

(١) العصور القديمة: ٦٤٨ ـ ٦٤٩.

ضَعُفَ الرومانُ عن صدِّ غَزواتهم، وسَلْبِهم أسْلابَهُم، ونَهْبِهم أرزاقهم، فعَمَدَ إمبراطورُ الرومان إلى تدبيرٍ جديدٍ، سُمِّيَ «مبدأَ الضيافَةِ الإلزاميَّةِ»، كما قال المؤرِّخُ الإنكليزيُّ فِشِرْ، فصار كلُّ رومانيّ بموجبه مُكْرَهاً على التخلّي عن ثُلُثَيْ ما يملك، إلى مَن ينزلُ به من الجرمان البرابرة غَصْباً وعُنْوةً! وقد بَرَّرَ الإمبراطورُ هذا التدبير بأن عشائر الجرمان تُعَدُّ حليفةً للإمبراطورية الرومانيَّة[1]، فاستحقَّتْ بالحِلْفِ ما يُؤدَّىٰ إليها!

فتأمَّلْ كيف برَّرَ برسْتِد الميلَ الفِطْريَّ إلى الغَزْوِ عند قبائلِ الجرمان، بالقوَّةِ والبأسِ والجَلَدِ، وكيف سمَّاهُ فِشِرْ مبدأ الضيافة الإلزاميَّة... ثم انظُرْ فيما زَعَمهُ المؤرِّخُ الإنكليزيُّ برنارد لويس عن الغزو عند العرب، فقد سمَّاهُ سَطْواً، وقال: إن «السطْوَ مهنةٌ طبيعيَّةٌ وشرعيَّةٌ طِبقاً لمبادىء العربِ الأخلاقيَّة»[2]... وانظرْ كذلك إلى فيليب حِتّي ورفيقَيْه يجعلون الغزو عند قبائل العرب نوعاً من اللصوصيَّة، ورُكْناً من أركان الاقتصاد في مجتمعاتهم، ورياضةً قوميَّةً خاصَّةً بهم، ونموذجاً للأعمالِ التي تليقُ بذوي الرجولة منهم[3]... وقريبٌ من هذا قاله مُؤرِّخونَ عربٌ وأعاجم، ولا سيما ابن خلدون!

وكأن قبائلَ العرب الغازِيَةَ كانت بِدْعاً في تاريخ العالم القديم، لا مثيل لها في الغَزْو بين سائر الأمم، أو كأن العالمَ لم يشهدْ قبل العرب جماعةً من الصعاليك الفقراء، تكْمُنُ في الجبال للأغنياء، فتُغِير على أموالهم لِتُوَفِّرَ معيشتَها، فأخذَ العربَ جميعاً بِفِعْل فئةٍ قليلةٍ منهم، مع أن ذلك وقع في

(١) تاريخ أوربة في العصور الوسطى: ٢٠، ٢٥.
(٢) العرب في التاريخ: ٥٧.
(٣) تاريخ العرب: ٥٣.

العصور القديمة[1]، ولم يأخُذِ الإنكليزَ بما فعلهُ نُبلاؤهم في القرن الخامس عشر الميلادي، حينما ضاقُوا ذَرْعاً بحياة السِّلْم، بعد انتهاء حرب المئة عام مع فرنسا، فأقاموا جيوشاً من المرتزقة، يحاربُ بعضُهم بعضاً، ويَسْتَخدِمُونها في الإرْهاب، والعُدوانِ على المسافرين، واغتصابِ النساء والأموال، وقتْلِ الأبرياء... وكان أكثَرَهم شهرةً فيها نبيلانِ يتنافَسانِ على عرش انكلترا، شِعارُ أحدهما وردةٌ حمراءُ، وشعارُ الآخَر وردةٌ بيضاءُ، فعُرِفت حروبُهما بحروب الوردتين[2]... وشتَّانَ ما بين قوم، في القرن الخامس عشر، يذهبون إلى الغَزْو كراهةً للأمن والسلام، وقومٍ، في القرن الخامس أو السادس، يدفعُهم شُحُّ الطبيعةِ، وجَذْبُ الأرضِ، على كُرْهٍ منهم، إلى الغارة والغَزْو.

● **لم يكن العربُ جميعاً صعاليك:**

وإذا طُرِح الغلُوُّ في إضافة أعمال «الغارة والغزو»، وما يُرافقها أو يُعْقِبها من «النَّهب والسَّلْب» إلى العرب كافةً، في حُكم عامٍّ لا يستثني منهم أحداً، وكأنه لازِمةٌ تَلْزَمُهم، دون سائر الأُمم، كلما ذكرهم باحثٌ أو مُؤرِّخٌ، فإن المحقِّق في أخبار الجاهلية، مع بعض النزاهة والرَّوِيّة، يستطيع أن يستقصيَ عدداً كبيراً من ضَوابط الأمن عندهم، كانت من غير شك تُوفِّر لهم سلاماً وأمناً ضمن حدودٍ مقبولة ومعقولة، ولا سيما في مجتمعاتهم بالقُرى والأرياف، كما في الأسواق العامّة، وطرُق التجارة، ودُورِ العبادة. وهو ما

---

(١) العصور القديمة: ٣٥٠٠ ق. م ـ ٤٧٦ م (تاريخ سقوط روما)، والعصور الوسطى: ٤٧٦ م ـ ١٤٥٣ م (تاريخ سقوط القسطنطينية)، وتبدأ العصور الحديثة منذ ١٤٥٣ م، وهو المعروف عند المؤرخين كافة.

(٢) تاريخ أوربا في العصور الوسطى: ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

أتاح للعرب وغير العرب، أنِ يُنظِّمُوا قوافلَ التجّارِ والمسافرين والحجّاج، ويَتنقَّلوا في أصْقَاعِ شبه الجزيرة، آمنينَ على أنفسُهم، ومُطْمئنِّينَ إلى سلامة أموالهم غالباً. . .

ولا شك في أنه كانت عند العرب، كما عند سائر الأمم، حالاتٌ شاذَّةٌ، تُعَدُّ نواقِضَ للأمن، يخرجُ فيها بعضُ الناس على تقاليد مجتمعاتهم، وينتهكون القواعدَ التي تُحْكم ضوابطَ الأمن، بأعمالٍ سبق أن تحدَّثنا عنها في كلامنا على مجتمعات العرب، وهي تتفاوتُ بين غاراتٍ يُشِنُّها بعضُ الصعاليك، وغزوٍ تنهض له القبيلةُ لأسباب مختلفةٍ مُبَرَّرةٍ.

* * *

الفصلُ الأول

الحرمات الدينية

لا بُدَّ قبل استقصاء القواعدِ، التي كانت تُوفِّر الأمنَ في مجتمعات الجاهلية، من التفريق بين نوعين من المناطق كانا في جزيرة العرب: **النوع الأول**: ما كان يُسمَّى: «أرضَ مملكة وأمرٍ مُحْكَم»[1]، أي أرضَ دولةٍ لها مَلِكٌ يُحْكِمُ ضَبْطَ الأُمورِ فيها، ويحفظُ الأمنَ والسَّلامَ لها ولمن يقصدُها وينزلُ بها... وإذا نظرنا وجدنا أن هذا النوع كان يُغَطي منطقةً واسعةً من بلاد العرب، تشملُ ممالكَ اليمنِ وعُمَانَ والبحرين ودُومةِ الجَنْدل والحِيرة والشام. **والنوعُ الآخَرُ**: ما كانت أرضُه مُوَزَّعةً بين جُمهورٍ من قبائل العرب، ويشملُ نَجْداً والحجاز وبعضَ تهامة، والباديةَ الممتدَّةَ من شَمالِ شِبْه الجزيرة إلى مَشَارف الشام والعراق... فكأن كلَّ قبيلة فيها كانت دولةً صغيرةً، لها رئيسُها وشيوخُها وأبناؤُها، وديَارٌ خاصَّةٌ بها معلومةٌ، ولا سيما إذا كانت من القبائل المستقرَّة في القُرىَ والأرْياف. وكانت تربطُ القبائلَ في هذه المناطق، فضلاً عن الوحدة في اللغة والعادات والعبادات، عهودٌ أحْكَمتْ كثيراً من علائقهم، فقامت بينهم مقامَ الدولة، وبينما كان الملوكُ يتقاضَوْن العُشُورَ في المناطق الأولى مُقابل توفير الأمن للتجّار في الأسواق الموسمية، كان رؤساءُ

---

(١) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

القبائل وسادتُها يتقاضَوْن جُعَالَةً من قوافل التجّار مُقابلَ مُرورها بسَلامٍ في مناطقهم، وكان بعضُهم ينصب نفسَهُ حاكماً للسوق التي تقوم بأرضه، ويتقاضَى من التجار ضريبةَ العُشُور مقابل توفير الأمن لهم في السوق.

على أن حالةَ سَلْمٍ شاملٍ كانت تعمُّ بلادَ العرب جميعاً، من أَدْناها إلى أقصاها، في أربعة شهور حُرُمٍ من كل سنة، مثلما تعمُّ الأماكنَ المقدسةَ في سائر شهور السنة... وفيما خَلا هذه الحالة، كانت تُنظِّم شؤونَ الأمن قواعدُ مختلفةٌ، أَهمُّها: أَحْلافُ القبائل ومَواثيقُها، والإيلافُ، والجِوَارُ، وخِفَارةُ القوافل، والمصاهَرةُ بين سادات القبائل، وكثيرٌ من العادات والتقاليد، التي يمكنُ اسْتخلاصُها من مذهب العرب في اعتبار الأَمْن والأَمَان والأمانة من مكارم الأخلاق، فالأمنُ: نقيضُ الخوف، والأمانةُ: نقيضُ الخيانة، والأَمانُ: العهدُ والحمايةُ والذِمَّةُ والطمأنينةُ، والإيمانُ: التصديقُ[1]... وفي رأس هذه جميعاً تأتي قاعدةُ الحُرمَات.

● رعايةُ الحُرُمات أُولى قواعدِ الأمن:

وتُعَدُّ رعايةُ الحرُمات وما اتصل بها من التقاليد الدينية والاجتماعية، قاعدةً رئيسةً كبرى، من قواعد توفير الأمن والأمان عند العرب في عصر الجاهلية، وهي من الشعائر الدينية المقدَّسة، التي كانت من شِرْعَةِ الحنيفيَّة فيهم، فظلُّوا عليها «يُعَظِّمون أن يأْتُوا شيئاً من المحَارِم، أو يَعْدُوَ بعضُهم على بعضٍ في الأشهُر الحرُم، أو في الحَرَمِ... فكانوا يأْمَنُونَ في الأشهُر الحرُم، وفي الحَرَم...»[2]، وكان فيهم حُنَفَاءُ، ومُشْرِكون، ووَثَنِيُّون، وصابِئَةٌ، وعَبَدَةُ نجومٍ وملائكةٍ وجِنٍّ، وبعضُ أهلِ الكتاب، وغيرُهم.. فكان

(١) لسان العرب: ١٣/٢١ ـ ٢٢ (أمن).
(٢) أخبار مكة: ١/١٩٢.

جميعُ أولئك يقصدون كعبةَ مكة، يجمعُهم الحجُّ، على اختلاف مِلَلِهم، وأهوائهم، وعقائدهم، وبيئاتهم، لأداءِ هذه العبادة، وللاجتماع في موسم الحجّ، وأسواقه، في أَمْنِ الأشهُر الحرُم، وأمْنِ الحَرَم، الذي شملَ الخَلْقَ جميعاً، حتى الحيوانَ والنباتَ[1]... وهذا ما أكَّدهُ اليعقوبيُّ لمَّا ذكر أنهم كانوا يجتمعون في الأسواق كلما انعقدت مواسمُها، فيأمنون فيها على أموالهم وأنفُسِهم[2]، لا يخشَوْنَ من أحد شيئاً يكرهونَه، من ظُلمٍ، أو بَغْيٍ، أو ثأرٍ، أو عُدْوان[3]... ويُعَدُّ كذلك دليلاً على تَمَسُّكِهم بالحُرُمات، قولُ الملك النعمان بن المنذر في ديوان كسرى أبرويز، يفتخرُ بالعرب: «وأمَّا دِينُها وشَريعتُها، فإنهم مُتَمسِّكونَ به، حتى يبلغَ أحدُهم من تَمسُّكهِ بدينه، أنَّ لهم أشْهُراً حُرُماً، وبَلَداً مُحرَّماً، وبيتاً مَحْجُوجاً يَنْسُكُونَ فيه مَناسِكَهم، ويذبحون فيه ذبائحهم، فيَلْقَىٰ الرجلُ قاتلَ أبيه أو أخيه، وهو قادرٌ على أخْذِ ثأره، وإدْراكِ رغبتِهِ منه، فيحجزهُ كَرَمُه، ويمنعُه دِينُه عن تناوُلِهِ بأذًى»[4].

وعلى ذلك، فالحرُماتُ التي كان يعمُّ فيها الأمنُ والسلامُ جميعَ بلاد العرب، كانت على ضَرْبَيْن: **أحدُهما**: أزمنةٌ مُحرَّمةٌ، **والآخَرُ**: أمْكِنَةٌ مُحرَّمة، وكان من أكبر العار عند عرب الجاهلية، أن يتجاوَزَ أحَدُهم حدودَ

---

(١) مطلع النور: ١٥٤، ١٥٧، وأخبار مكة: ١/ ٧٢ ـ ٧٣، ١٣٧ ـ ١٣٨، ١٦٩، وتاريخ الكعبة: ٤٦، ٤٧، ١١٠، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، والمفصَّل: ٨/ ٣٢٦، وانظر سورة التوبة: الآيات ٢٨ ـ ٣١... وقد حَرَّمتْ على المشركين أن يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام بعد العام الذي كانت فيه حجة الوداع، وهي دليلٌ على أنهم كانوا يأتونه في المواسم على اختلاف مذاهبهم.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٣) العقد الفريد: ٥/ ٢٥٣.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٧.

المكان الحرام، أو الشهر الحرام، بفِعْلِ شيءٍ من المحرَّمات. . . وقد جاء في أخبار الجاهلية أن بعض بني يربوع بن ثعلبة، من قبيلة تميم، نَهبوا يوماً ما أهْدَاهُ أحدُ ملوكِ حِمْيَر من كسْوَةٍ إلى الكعبة، ثم قصدوا مكةَ في موسم الحج، فلما كانت أيامُ «مِنَى»، بَلَغَ العربَ هنالك ما فَعَلُوهُ، فهجموا على بني تميم وهم آمنون في الموسم، وغَدَرُوا بهم، فسُمِّيَ ذلك العامُ: «عامَ الغَدْرِ»، فأرَّخُوا به، إذ عَدُّوهُ من الحوادث العِظام في تاريخهم، لأن مَن يَدخلِ الحرَمَ، مهما بلغت جنايتُه، يُصبحْ آمِناً، و«مِنَى» من الحرَم، ومَوْسِمُها من شعائر الحجّ، وزَمَنُهُ في الأشهُر الحرُم. . . والغَدْرُ عندهم مَنْقَصَةٌ عظيمةٌ، يُعَيَّرُ بها الغادِرُ، فهو خيانةٌ، وتَضْيِيعٌ للعهد، والمحرَّماتُ دِينٌ، وسُنَّةٌ، وتقاليدُ آباءٍ وأجداد، ونَقْضُها أشَدُّ نُكْراً من نَقْضِ العهد!

على أن هذا الحادث، يجب ألاّ يَحْمِلَنا على الظنّ بأن العرب قتلوا أحداً من بني تميم في «مِنَى»، وإنما هو عُدوانٌ عليهم بالضَّرْب والأذَى لا أكثر، فما كان يُمكن شَهْرُ السلاحِ في المكانِ الحرام والشهرِ الحرام، ولم تذكر الرواياتُ التاريخيَّةُ شيئاً من ذلك، مع أنهم ظلُّوا يُؤَرِّخُونَ بعام الغَدْرِ حتى كان عام الفيل (٥٧١ م)[١]، وكان بينهما، على ما زعم ابنُ حبيب، مئةٌ وعَشْرُ سنين[٢]، أي أن الغدرَ وقع نحو سنة (٤٦٢ م) في عهد قصيّ بن كلاب.

ويُفهم من مُطابقة نصوص وردت عن الأزرقي وابن منظور والزَّبيديّ، أنه بلغ من تَعْظيمهم حُرْمةَ الحرَم في الجاهلية، أن الرجل يكون أحياناً جاهلاً آدابَ الحرَم وتقاليدَ الحُرْمة، فيُحْدِثُ حَدَثاً في الحرَمِ أيام الحجّ، كأَنْ

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٢١، وتاج العروس: ١٣/ ٢٠٣ (غدر).

(٢) المحبَّر: ٧ ـ ٨.

يضربَ أحداً أو يلطِمَهُ أو نحو ذلك، ثم يبرِّرُ فعلهُ بقوله: إني صَرُورَة!... أي ما حَجَجتُ قطُّ، ولا عرفتُ حُرْمةَ الحرَم[1]، فلا يَعْرِضُ له أحدٌ بسوء، ويمتنعُ على المَوْتُورِ منه أن يطلبهُ بالقِصَاص أو الثأر، ويقولون له: هو صَرُورة، فإيَّاكَ أن تَهِيجهُ... فكانوا يَعدُّون الجهلَ بتقاليد الحرَم والحُرْمةِ عُذْراً، ومنه قولُهم: «دَعُوا الصَّرُورةَ بجهله، وإن رَمَىٰ بجَعْرِهِ في رَحْلِهِ»[2]، حتى جاء الإسلام، فقال الرسول عليه السلام: لا صَرَورةَ في الإسلام، وإن من أَحْدثَ حَدَثاً أُخِذَ بحَدَثِهِ، أي أن الجهل بالقانون لا يُعَدُّ عُذْراً[3].

ويتصل أيضاً بتقاليدهم في تعظيم الحرُمات، وما يُؤَدّي إليه ذلك من شُيوع الأمن والطمأنينة، أن الرجل كان في الجاهلية، إذا لَقِيَ في الشهر الحرام رجُلاً يخافُه، فكان حَسْبُهُ أن يقول له: «حِجْراً مَحْجُوراً...»، أي حراماً مُحرَّماً عليك في هذا الشهر، فلا يبدؤه منه شَرٌّ[4].



---

(١) صَرُورٌ وصَرورةٌ: أي لم يحجَّ قَطُّ، وأصلُه، من الصَّرِّ: الحَبْسُ والمنعُ، والصَّرورةُ أيضاً: الذي امْتَنَع من النساءِ، وتَركَ النكاحَ، وهو فِعلُ الرهبان.

(٢) الجَعْرُ: ما تَيبَّسَ من الثُّفْلِ أو العُذْرَةِ.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٩٢، ولسان العرب: ٤/ ١٤٠ (جعر) و ٤/ ٤٥٣ (صَرر)، وتاج العروس: ١٢/ ٣٠٨ (صرر)، وفقه اللغة: ٥٩.

(ويبدو أن تصحيفاً وقع على النص في كتاب الأزرقي، فأصابت نقطةٌ حرفَ الصادِ في كلمة «صَرُورَة»، فصارت «ضَرورة» بالضاد، بمعنى الاضطرار، فنقله الأفغاني في كتابه (أسواق العرب: ٧٩) كما وجده، من غير تحقُّق، وهو غلطٌ واضح، ولو كان الأمرُ كذلك لما قالوا: دَعُوا الضَّرورةَ بجهله، كما ذكر الأفغاني، وإنما باضطراره... فتكون الضرورةُ هي التي حَمَلتْه على ما فعل، وليس الجهل، إذ يُفْترضُ بالمُضْطَرِّ معرفةُ ما هو مُقْبِلٌ عليه من المخالفة، ولكنه يفعله اضطراراً. فالصواب إذن هو: الصَّرُورة، بالصاد). ـ المؤلف ـ.

(٤) لسان العرب: ٤/ ١٦٧، وتاج العروس: ١٠/ ٥٣١ (حجر).

المطلب الأول ـ الشهورُ المحرَّمة:

وهي، كما نصَّ ابنُ حبيب، من السُّنَنِ التي كانت الجاهليةُ سنَّتْها، ثم أبقاها الإسلام[١]... وكانوا يُعظمونها، ولا يُخْفِرون فيها ذِمَّةً[٢]، ولا يَظلِمونَ أحداً[٣]. ومَن كان له أعداءٌ يخافُهم على نفسه، كان يأمَنُ فيها منهم، حتى أن الرجلَ كان إذا لقيَ فيها قاتلَ أبيه أو أخيه، لم يَعْرِضْ له بسوءٍ، تعظيماً لحرمة تلك الشهور[٤]، التي تُعَدُّ هدنةً دينيَّةً مُقدَّسة، يحرُمُ فيها حملُ السلاح، والقتلُ أو الثأرُ، والظلمُ والبَغْيُ والعُدوان. ولا يَحِلُّ فيها شَهْرُ السلاح إلا في حالة واحدة هي الذَوْدُ عن الحرمات، والدفاع عن المحرمين.

والمعروف أن الشهور المحرَّمة عند العرب كانت أربعةً، ثلاثةٌ منها سَرْدٌ مُتَعاقِبةٌ هي: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، وواحدٌ فَردٌ هو: شهرُ رجَب الذي بين جُمادَى الآخرة وشعبان[٥]... وكانت العربُ إذا فَرغَتْ من أداءِ فريضة الحجّ، اجتمعتْ إلى «القَلَمَّسِ الكِنانيّ»، وهو فَقِيهُ العرب ومُفْتِيهم في شؤون دينهم، فكان يَخطبُهم، ويُذَكّرهم بحرمة الشهور الأربعة، ويحضُّهُم على تعظيم حُرُماتهم وشعائرهم[٦]. وقد حقق جواد علي، في

---

(١) المحبَّر: ٣١٩.

(٢) خَفَرَ: الرجُلَ يَخْفِرُهُ أجارَهُ وأَمَّنَهُ، وأَخْفَرَهُ يُخْفِرُهُ: نَقَضَ عهدَهُ وذِمَّتَه.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٤، وأخبار مكة: ١/ ١٨٤، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٩، وعجائب المخلوقات: ١٠٩، ولسان العرب: ١٢/ ١٢١ (حرم).

(٥) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٨٦، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٢١، وشرح القصائد السبع: ٥٢١...

(٦) المحبَّر: ١٥٦، وسيرة ابن هشام: ١/ ٤٤ ـ ٤٥، وأخبار مكة: ١/ ١٨٤.

مُصَنَّفاتِ الروم والسريان، أن عرب العراق والشام كانوا، كعرب الجزيرة، يُحرِّمون القتالَ في الشهور المحرَّمة، ويحجُّون مرتين في السنة، إحداهما في وسط الربيع (نيسان ـ أبريل)، والأخرى في الصيف (تموز وآب ـ يوليو وأغسطس)[1]، وأن النبط كانت لهم كذلك أشهرٌ حرُمٌ ثلاثة، أوَّلُها في أول السنة، والآخَرانِ في نهاية الصيف، كانوا يحجُّون فيها، ويعمُّ بينهم الأمنُ والسلام[2].

ولا شك في أن العرب كانوا على قدرٍ كبير من الحِيلَةِ وحُسْنِ التدبير، لمّا جعلوا مواسِمَ مُعْظَم أسواقِهم الكبرى، تقومُ في الأشهُر الحرُم. ليَضْمنوا الأمنَ والسلامَ للتجّار والزوّار، فيها أو في الطرُق الموصِلَةِ إليها... ففي شهر رجب تقومُ أسواقُ حُبَاشَة وصُحَار ودَبا، وفي شهر ذي القعدة تقومُ أسواقُ حضرموت وعكاظ والمجنَّة، وفي شهر ذي الحجة تقومُ سوق ذي المجاز، وفي شهر المحَرم تقوم سوقُ حَجْرٍ وسوقُ نطَاةٍ... ولكنْ، يستوقفُنا هنا قولٌ نقله المرزوقي عن ابن دُرَيْدٍ يذكر فيه، أن الأسواق الموسمية عند العرب، منها ما يقومُ في الأشهُر الحرُم، ومنها ما يقوم في غيرها، «لكنه لا يصلُ أحدٌ إليها إلا بخَفِيرٍ، ولا يرجعُ إلا بخفير»[3]، فجعل الخفارةَ لازمةً لزوماً مطلقاً على الطرُق في شهور الحِلّ كما في شهور الحرم! وهو أمرٌ لا يَسَعُنا القبولُ به على إطلاقه، مع تسليمنا بأن الخفارة كانت قاعدةً رئيسةً من قواعد الأمن في الجاهلية، وغير الجاهلية، عند العرب وغير العرب... ذلك أن من شأن الإقرار به مُطْلقاً من كل قَيد، أن ينفي عن

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٢) المرجع نفسه: ٦/ ٣٩٦.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

العرب جُملةً، ومن غير استثناء، تعظيمَهُم للشهور المحرَّمة، والتزامَهُم بحُرُماتها، وأن يُوحيَ في الوقت نفسه أن اضطرابَ الأمن عند عرب الجاهلية كان القاعدةَ، واستقرارَهُ شُذوذ عنها، وذلك أمرٌ فيه نظرٌ، ويمكنُ نَقدُهُ، ثم نَقْضُهُ من طريقين، أحدهما: النصوص التاريخية، والآخَرُ: المأثور من أخبار الجاهلية وحوادثها.

١ ـ النصوص التاريخية:

ولعلَّ أهمَّها ما نقله المرزوقيُّ نَفْسُه بعدئذٍ في حديثه عن الأسواق، فقد ذكر أن الناس كانوا يرتحلون إلى سوق صُحَار «في غير خفارةٍ»[١]. . . ومن الطبيعي ألاّ يكونَ في سوق دَبا خفارةٌ أيضاً، إذ كانتا تقومان بأرض مملكة عُمَان، في شهر رجب، ويقال إنه سُمّيَ رجَباً لشِدَّة تعظيمهم حُرْمتَهُ، وكانوا يُسَمُّونه رجَباً المحرَّمَ، والأَصَمَّ، لأنه إذا دخل أنْصَلُوا الأسِنَّةَ من الرِمَاح، فلا تُسمع به قَعْقعةُ السلاح[٢]. فعدَمُ الحاجة فيهما إلى الخفارة ثابتٌ إذن بأحَدِ أمرَيْن، أو بكليهما معاً: قيامهما في شهرٍ حرَام، أو وقوعهما في أرضٍ مملكةٍ وأمْر مُحْكَمٍ، بدليل أن سوق عكاظ لم يكن فيها خفارة[٣]، لانعقاد موسمها في ذي القعدة، وهو من الشهور المحرَّمة، وأن الناس في سوق عَدَن «كانوا لا يتخفَّرون بأحَدٍ، لأنها أرضُ مملكةٍ وأمرٍ مُحْكَمٍ»[٤]. . . وهناك حالةٌ أخرى أشار إليها اليعقوبي حينما ذكر أن سوق الشِّحْرِ لم تكن بها خفارةٌ، إذ كانت قبيلةُ مهرة صاحبةُ السوق تقوم بها[٥]، وتُوفّر الأمن

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٢) لسان العرب: ١/ ٤١١ (رجب)، وشرح القصائدالسبع: ٥٤٥، والأغاني: ١١/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) المحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

لزوّارها، وهو ما يجعلُنا نُقرِّرُ أن عدمَ الحاجةِ إلى خفارةٍ ثابتٌ إذا كان وراءَهُ سببٌ من ثلاثة: قيامُ السوق في شهرٍ حرَام، أو في أرضٍ مملكةٍ، أو بكفالة أصحاب السوق وجِوَارِهم... وكلُّ ذلك من شأنه أن ينقُضَ ما نقله المرزوقيُّ عن وُجُوب الخفارة وُجوباً مطلقاً في كل شهور السنة، وأن يجعلها تدبيراً، إنِ اتَّخذَهُ بعضُهم في الأشهر الحرُم، فعَلَىٰ سبيل الاحْتراز لا أكثر...



٢ ـ المأثور من أخبار الجاهلية وحوادثها:

وما أُثِرَ عن العرب في عصر الجاهلية من حوادِثَ كثيرةٍ، تُثبتُ أنهم كانوا، على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم، يُوَقِّرون حُرْمَةَ الشهور، ويطمئنُّون في ظلّها إذا حَلُّوا أو ارْتَحلُوا... وسنضربُ على ذلك بعضَ الأمثال:

● يُحكىٰ أن الملكَ النعمانَ بنَ المنذر[1] كان يُجهِّزُ كلَّ سنةٍ قافلةً، ويبعثُ بها لتُباعَ بسوق عكاظٍ في موسمهِ، بِجوارِ حُلَفائه، ومَن كان يَضْطنِعُهم من العرب، فأرادوا في أحد المواسم أن يجتازوا بالقافلة منازلَ بني عامر بن صَعْصَعة[2] في نَجْدٍ، من غير إذْنِهم، وكان هؤلاء قوماً لَقَاحاً، أي

---

(١) النعمان بن المنذر: أبو قابوس، من أَشهَرِ ملوك الحيرة في الجاهلية. كان داهيةً شجاعاً كريماً، قصَدهُ شعراء العرب ومَدحوهُ، منهم النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وحاتم الطائي. بلغت المملكةُ في عهده (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م) مبلغاً عظيماً من الترف والرخاء والحضارة.

(٢) بنو عامر بن صعصعة: بطن من قبيلة هوازن، من قيس بن عَيْلان، منازلهُم نَجْدٌ والطائف، كانوا يَتصيَّفون الطائف لِطيبها وثمارها، ويَتَشتَّوْن نَجداً لِسَعتها وكثرة مراعيها.

لم يُملَكُوا ولا يَدِينُون للملوك[1]، فعَرضُوا لبعض ما في القافلة وانتهبوهُ، فغضب النعمانُ، وأَحبَّ أن ينتقم منهم، فأرسل إلى حلفائه يَستنفِرُهم، فاجتمع له منهم جيشٌ كبير، فجهَّزَ معهم قافلةً حَمَّلها بعُروض التجارة، وأمرهم أن يتوجَّهُوا بها إلى سوق عكاظ في موسمه التالي، وقال لهم:

ـ إذا فَرَغْتُم من عُكاظ، وانْسَلَختِ الأشهُرُ الحرُم، ورجع كلُّ قوم إلى بلادهم، فاقْصُدوا بني عامر. . .

فلما فرغ الناسُ من عكاظ، علمت قريشٌ بما بَيَّتُوا لبني عامر، فأرسل عبد الله بنُ جُدْعان يُحذِّرُهم، فتحرَّزُوا، ورَصَدوا العيونَ، واستَعدُّوا للقتال. . ثم التقى الفريقان، فانهزم جيشُ النعمان، وكان أخوه لأُمّهِ وَبَرة بن رومانُس الكلبي فيمن أُسِرَ من الرؤساء، فافتدى نفسَهُ يومئذٍ من آسِرِهِ يزيد بن الصَّعِق بألف بعير، واغْتَنَى يزيدُ بذلك[2]. . .

ومن الواضح في هذه الواقعة حرصُ الملكِ النعمان غالباً على تعظيم الحرمات، إذ أَمَرَ حُلَفاءَهُ ألاّ يُقاتِلوا بني عامر إلا بعد انقضاء موسم عكاظ، وانتهاءِ الأشهر الحرُم، وخروج الناس من الأماكن المحرَّمة. . . على أن ابن منظور ذكر بيتاً للمُخَبَّل السعدي[3]، يتهم فيه النعمانَ بالعدوان على بني عوف بن كعب[4]، في الشهر الحرام، إذ بعث إليهم جيشاً فقتل فيهم وسَبَى،

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٥٨٣ (لقح)، ومعجم قبائل العرب: ٢/ ٧٠٨ ـ ٩٠٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠، وأيام العرب: ١٠٧، والمفضَّل: ٣/ ٢٧٥.

(٣) المخبَّل السعدي: ربيع بن مالك بن ربيعة بن عوف السعدي، من بني تميم، شاعر فحل من مُخَضْرمي الجاهلية والإسلام، وله شعر يمدحُ فيه بني قُرَيْع ويذكر أيام قبيلته من بني سعد.

(٤) عوف بن كعب بن سعد: من تميم، بَنُوهُ بطون كثيرةٌ ومن نَسْله: بنو عطارد وجُشَم وقُرَيْع وغيرهم.

وهم آمِنُون غافلون[1]... ولم أجد هذا الخبر في المراجع الأخرى! وربما كان المخبَّلُ مُتحاملاً على النعمان لهجومه على بني عوفٍ، وهم قومُه...

● ويُذكر كذلك أن قصيَّ بنَ كلابٍ لمّا أَجْمع الخروجَ إلى قومه بمكة، وكرِهَ الغُرْبةَ بأرض قُضَاعة في الشام، قالت له أمُّه:

- يا بنيَّ لا تَعْجَلْ بالخروج حتى يدخُلَ الشهرُ الحرامُ، فتخرج في حَاجِّ العرب، فإني أخشَىٰ عليك أن يُصيبَكَ بعضُ الناس...

فأقام قصيٌّ حتى إذا دخل الشهرُ الحرامُ، خرج حاجُّ قُضَاعة، فخرج فيهم، حتى قدِمَ مكة، فلما فرغ من الحج أقام بها[2]... ومن ذلك يتَّضحُ أنهم كانوا، إذا أرادوا سفَراً، انتظروا دخولَ الأشهر الحرُم ليرتحلوا في أَمْنها وسلامها، ويتأكَّدُ أيضاً أن قبائل الشام كانت تحجُّ.

● وفي أخبار مَعبد بن زُرَارة، وهو سيد من سادات بني تميم، أنه أُسِرَ في معركة مع بني عامر من قيس بن عيلان، فانتظر أخوه لقيط بنُ زُرَارة حتى دخل شهرُ رجب، فوفَدَ على عامرِ بن مالك، فارسِ قيْسٍ وأحَدِ أبطالِ العَربِ في الجاهلية، وعَرَضَ أن يَفْديَهُ، فطلبوا منه فِدْيةً ألفَ بعير، فقال لقيط: إن أبانا أمرنا ألاَّ نزيدَ في الفداء على المئتين، فتطمع فينا ذُؤْبان العرب[3]... ثم رجع لقيطٌ ولم يعرِضْ له أحدٌ بشيءٍ يكرهه.

● وفي أخبار عديّ بن زيد العِبَادِيّ لمّا سَجَنَهُ الملكُ النعمانُ، أنه أرسل إلى أصحابه يقول:

---

(١) لسان العرب: ١٠/ ٤٧٣ (فتك)، و ١٢/ ١٢٢ (حرم).

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٥، والكامل: ٢/ ١٩.

(٣) الأغاني: ١١/ ١٢١ - ١٢٢، وأيام العرب: ٣٤٧.

فارْكَبُوا في الحَرام فُكُّوا أخاكُم إنَّ عِيـراً قـد جُهِّـزَتْ لانطـلاقِ

يعني الشهرَ الحرامَ، وكان عديٌّ نصرانيا[1].

● وفي أخبار الجاهلية أن حنظلة بن عثمان، من بني أسد، كان فاتكاً من فُتّاكِ العرب المشهورين، وكانت قبائلُ كثيرةٌ مَوْتورةً منه، فكانت تطلبه وترصُدُ له لتثأرَ منه، فكان كثيراً ما يَتبرقَعُ خشيةَ أن يُعرفَ وجهُهُ فيُقتل، وكان من أجمل الناس. واتفق يوماً أن نزل في بعض تنقُّله، في بني سعد بن ضَبَّة، وكان الوقتُ حراماً، ومعه امرأتُه وأولادُه وإبلٌ كثيرةٌ وَرَاعٍ، فعرفه بنو ضبَّة، فقالوا: إن حنظلة فاتكٌ من أغْدَرِ الناس، ولو سلَّم عليه أحدٌ لسَلَّم عليه قومُه، وما جاور قوماً قطُّ إلا وقعوا منه في بليَّة! وأجمع رأيُهم على قتله، وإنما منعهم من ذلك الشهرُ الحرام... ثم سمعوا يوماً بكاء امْرأتِه، وكان يُؤْذيها ويضربها، فَرَقُّوا لها، وأرسلوا إليها في غيابه امرأةً تُواسِيها فسألتْها: ما يُبْكِيك؟ فقالت: هذا الخبيث يضربني ويُسيءُ صحبتي... فأنبأتْها المرأةُ أن القوم أجمعوا على قتله، وإنما ينتظرون به أن تنتهيَ الحرُم، وما بقي على ذلك إلا أربع ليالٍ... فلمّا رجعَ حنظلة أخبرتْه زوجتُه بما بَيَّتَ بنو ضَبَّة، فقام إلى ناقةٍ من إبلهِ فنَحَرَها، وأرسل لحمها إليهم هدِيَّةً، فاطمأنُّوا، ثم دعاهم إلى بيته فجاؤوهُ، فغَدَر بهم، وفرَّ بأهله وإبلهِ[2].

ويتضَّحُ من هذه الحكاية أيضاً أن بني سعد بن ضبَّة عظَّموا حُرْمةَ الشهر الحرام، فكفُّوا عن الثأر من فاتكٍ، مع أنه مطلوبٌ من قبائلَ كثيرة مَوْتُورةٍ منه بما أنزلهُ بهم من الجرائر[3].

---

(١) الأغاني: ٢/ ٩٧.

(٢) المحبَّر: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) المَوْتُورُ: مَن قُتل له قريبٌ فلم يُدركْ بدَمهِ. الجرائر: الجنايات.

● وفي أخبار الصعاليك، وقد اشْتُهروا بِغَاراتهم على الأغنياء البخلاء، ما يؤكد أنهم كانوا أيضاً يُعَظِّمون حُرمةَ الشهور المحرَّمة، فيكفُّون عن الفَتْكِ والغارة، ويتنقلون في البلاد من غير أن يَعْرِضَ لهم أحدٌ بسُوءٍ، وإن كان مَوْتوراً منهم. . .

● ومن حديث عُروة بن الوردِ العَبْسيّ[1]، أنه أغار مرَّةً على بعض بني كنانة، فأصابَ منهم بنتاً بِكراً، إسمُها سلمىٰ، فأعجبَتْهُ، فأعتقها واتخذها زوجةً، فمكثت عنده بضعَ عشرةَ سنةً، ووَلَدتْ له. وكان لا يشك في حُبّها له، وأنها أرغبُ الناس فيه. . . فقالت له يوماً:

ـ لو حَجَجْتَ بي، فأمُرُّ على أهلي وأراهم!

فأتى مكة في موسم الحج، وحَجَّ بها، ثم قصد يثرب، وكان يُخالط قوماً من أهلها، فيُقْرضونه إن احتاج، ويُبايِعُهم إذا غنم، فنزَلَ بهم، وأرسلوا إلى قوم سلمى، فأتَوْهم، والتقوا ابنتهم، فقالت لهم:

ـ إنه عازمٌ على الخروج بي، قبل أن يخرجَ الشهرُ الحرامُ. . . فتَعالَوْا إليه، وأخْبِروهُ أنكم تَسْتَحيُونَ أن تكون امرأةٌ منكم، معروفةُ النسَب، سَبِيَّةً، وافْتَدوني منه، فإنه يعتقدُ أني لا أفارقه، ولا أختارُ عليه أحداً! . . .

فأتَوْهُ، فسَقَوْهُ شراباً، ثم قالوا له:

ـ فادِنَا بابْنَتِنا، فإن علينا سُبَّةً أن تكون سَبِيّةً، فإذا صارت إلينا وأردتَ مُعاوَدَتَها، فاخْطُبْها إلينا نُـزَوِّجْكها!

---

(١) عروة بن الورد: من بني عَبْس بن بغيض، من غَطَفان. شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المُقَدَّمين الأجْواد، وكان يُلقَّبُ «عروةَ الصعاليك» لجمعِهِ إياهم، وقيامِهِ بأمرهم إذا لم يكن لهم معاشٌ يعيشون منه.

وأَطْمَعُوهُ بفِدْيةٍ كبيرة، وكان قد سَكِر، فقال:

ـ ذلك لكم، شرطَ أن تُخيِّروها، فإذا اختارتني انطلقتْ معي إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتُم بها...

فلما كان الغَدُ من ذلك اليوم، جاؤوه بالفِدْية، وكان صحا من سُكرِه، فامْتَنَع من فدائها، فأشهدوا عليه مَن حضر مجلسَهم، فلم يقدرْ على الامتناع، وفاداها، فخيَّروها كما شَرَطَ عليهم، فاختارت أهلَها، ثم أقبلتْ عليه فقالت له:

ـ يا عروة! أمَا إني أقولُ فيك الحقَّ وإن فارقتُك، واللّهِ ما أعلمُ امرأةً من العرب ألقتْ ستْرَها على بعْلٍ خيرٍ منك، وأغَضَّ طَرْفاً، وأقلَّ فُحشاً، وأجْوَدَ يداً، وأَحْمىٰ لحقيقةٍ[1]... وما مرَّ عليَّ يومٌ منذ أَسَرْتَني، إلا والموتُ فيه أَحَبُّ إليَّ من الحياة بين قومك، وأنا أسمعهم يقولون: قالت أَمَةُ عروة كذا، وفعلَتْ أَمَةُ عروة كذا... وواللّهِ لا أنظرُ في وجه غَطَفانيّةٍ أبداً، فارْجِعْ راشداً إلى ولدك، وأَحْسِنْ إليهم[2].

● ومن حديث عروة بن الورد أيضاً، أنه كان يُوَافي سوق ذي المجاز في موسمه، مطلَعَ ذي الحجة حتى الثامن منه[3]... فكان، بالرغم من جرائره، مطمئناً إلى أنه يكون آمِناً في قدومه، ثم في رحيلِهِ، لا يمَسُّهُ أحدٌ

(١) حقيقة الرجُل: الحُرْمَةُ، وما يحقُّ عليه أن يحمِيَهُ، ويُدافعَ عنه من أهل بيته، وكلُّ ما يلزمُه حِفظُهُ ومَنْعُه. ومن ذلك قولُ عامر بن الطفيل فارس هوازن:

لقد علمتْ عُلْيَا هَوازنَ أنني ... أنا الفارسُ الحامي حقيقةَ جعفرِ

أي بني جعفر بن كلاب، وهم قومُه من هوازن، وهو حامي حُرُماتِهم وأعْراضِهم وشَرَفِهم.

(٢) الأغاني: ٣/ ٧٢ ـ ٧٤.

(٣) المرجع نفسه: ٣/ ٨٣.

بما يكره، ما دام في الأشهُر الحرُم.

● وكان كذلك تأبَّطَ شرّاً، ثابتُ بنُ جابر، أحدُ بني فَهْم من قيس بنِ عيلان، صُعلوكاً من صعاليك العرب، وفاتِكاً شديداً، وعَدَّاءً مشهوراً. . .
ومن حديثه أنه أغار وصاحِباهُ يوماً على قوم، فقُتِل صاحِبَاهُ وسَلِمَ هو من القتل، ونجَا بنفسِهِ، فرثاهما بشِعْرٍ، طَلَب فيه من صَحْبِهِ أن ينتظروا انْقِضاءَ شهور الحرم، ثم ينتقموا لهما، فقال:

فَعَدُّوا شُهورَ الحُرْمِ، ثم تعرَّفوا قتيلَ أُنـاسٍ، أو فتـاةً تُعـانَقُ[1]

وقولُه هذا برهانٌ على تعظيمِهِ الأزمنةَ المحرَّمةَ أن يكون بها ثأرٌ أو قتلٌ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى أن صعاليك العرب، وإن اتخذوا الغارات وسيلةً إلى المعاش، إلا أن ذلك كان في أشهُر الحِلّ لا في أشهُرِ الحرَم.

* * *

وأخيراً، إذا كانت عِلْيَةُ العرب وسِفْلَتُهم، ملوكُهم وصعاليكُهم، الْتقَوْا كما رأينا على تعظيم الشهور الحرُم، واطمأنُّوا إلى ما تُشِيعُهُ في بلادهم من الأمن والسلام، وإذا كانت الأمورُ مُحْكَمةً، والخفارةُ مكفولةً في مناطق الملوك وبعض رؤساء القبائل، أمكنَ القولُ إذن بأن الخفارة في الأشهر الحرُم لم تكن، كما نقل المرزوقي، لازمةً لُزوماً مُطلقاً، وإذا وُجِدَ من كان يأخذُ بها، فهو إنما يفعلُ ذلك على سبيل الاحتراز، مِمَّن سُمِّيَ بالمُحِلِّين للحُرمات من بعض العرب، غير المؤمنين بحُرمة الشهور المحرَّمة، وهو أمرٌ تبيَّن لي أنه مُبالَغٌ فيه كثيراً، بما دخله من التأوُّلِ في التفسير، والتكلُّفِ في الشرح، كما سنراه في موضعه من هذا الفصل إن شاء الله.

* * *

(١) الأغاني: ١٥٦/٢١.

المطلب الثاني ـ الأمكنةُ المحرَّمةُ:

وهي البيوتُ التي كانوا يُقيمونها في الجاهلية للعِبادة والحجّ، والأرَضُونَ التي كانوا يجعلونها حِمَىً حولَها، فتلك كانت كلُّها حَرَماً دائماً في جميع شُهور السنة، لأنها بيوتُ الله، مَن دخَلها أو لاذَ بِحِمَاها فهو آمِنٌ، يحرُمُ على الناس أن يَعرِضَ له أحَدُهم بشيءٍ يكرهُه أو يُخيفُهُ، كما يحرُم عليهم فيها أن يظلمَ بعضُهم بعضاً، أو تَعْدُوَ طائفةٌ على أُخرى.

وكان الحجِيجُ يقصدون تلك البيوت الحرامَ، في مواسِمَ معلومةٍ من كل سنة، يشترك فيها القبائلُ من سكان البقاع القريبة والمجاورة، ويتعاهدون على الأمن والمُسَالَمةِ في جوارها[1]... وكانت في بلاد العرب عدّةُ بيوت مشهورة، منها: بيتُ الأُقَيْصِر في مَشَارِفِ الشام، وكان لقبائل قُضَاعة ولَخْم وجُذام وعامِلة وغَطفان، فكانوا يحجُّون إليه ويحلقون رؤوسَهم عنده[2]... وبيتُ رِئام في صنعاء، كانوا يحجُّون إليه، ويُعظمونه، وينحرون عنده[3]... وبيتُ ذي الخُلَصَة، وكان يُدعى بالكعبة اليمانية، وهو في أرض خثعم بين مكة واليمن[4]... وقصرُ سِنْداد بين الحيرة والأُبُلَّة، وكانت العربُ تحجُّ إليه، وهو لربيعة وإياد، ويسمَّى ذا الكعبات[5]... وكعبةُ نجران باليمن، وكانت إذا جاءها الخائفُ أمِنَ، أو طالبُ حاجَةٍ قُضِيتْ، أو مُسْتَرفِدٌ أُعْطي[6]... وبيتُ اللات بالطائف، أقامته ثقيفٌ بوادي وَجّ،

---

(١) مطلع النور: ١٥٠.
(٢) معجم البلدان: ١/ ٢٣٨.
(٣) مطلع النور: ١٥١، ومعجم البلدان: ٣/ ١١٠.
(٤) المحبَّر: ٣١٧، والأعلام: ٢/ ٣٠٢.
(٥) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٥، ومعجم البلدان: ٣/ ٢٦٦.
(٦) معجم البلدان: ٥/ ٢٦٨.

وجعلوا له كسوةً وسَدَنةً، وكانوا يُحرِّمون وادِيَه[1]. ولكنَّ بيت مكة أشْهرُها، وأبْقاها على الدهر، وأكثَرُها قداسةً وتعظيماً عند جميع قبائل العرب، على اختلاف أهوائهم.

ويقال إنه كان من شعائر أهل الجاهلية كذلك، اعتبارُ الأسواق الموسمية أَمْكنةً مُحرَّمةً[2]، يأتيها الناسُ حجيجاً، فيأمنون فيها على أنفُسِهم وأموالهم، ما داموا مُقِيمينَ بها.. وهو ما يُفهم من قول اليعقوبي، لمّا ذكر أن أسواق العرب الموسمية في عصر الجاهلية كانت عشرةً، «يجتمعون بها في تجاراتهم، ويجتمعُ فيها سائرُ الناس، ويأمَنُونَ فيها على دمائهم وأموالهم...»[3]. وكأنَّ حُكمَ الأمن في الأسواق كان حُكمَ الأماكن المحرَّمة في مواسم انعقادها! ويدخلُ في هذا المذهب قولُ ابنِ الأثير: «وكان عكاظُ وذو المجاز ومجنَّةٌ أسواقاً، تجتمعُ بها العربُ كلَّ عام إذا حَضَر الموسمُ، فيأمَنُ بعضُهم بعضاً حتى تنقضيَ أيامُه»[4].

ولعلَّ ذلك هو ما جَعلَ «بروكلمان» يذهبُ إلى القول بأن بعض الأماكن المقدَّسة، «حَظِيتْ بشُهرةٍ خاصّةٍ، فكانت القبائلُ المختلفةُ، تحجُّ إلى عكاظٍ مثلاً، وإلى مكة من مطارِحَ نائِيَةٍ. وكان السلامُ الإلَهيُّ يُخيِّمُ على الجزيرة في المواسم الدينية، فيكفُّ الناسُ عن القتال والحرب! والواقع أن الأسواق التي كانت العربُ يُقيمونها في الجاهلية، ارتبطت بالاحتفالات الدينية»[5].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٤٩١، والمحبَّر: ٣١٥.

(٢) المفصَّل: ٦/ ٤١٨ و ٧/ ٣٨٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٤) الكامل: ١/ ٥٩٠.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٥ ـ ٢٦.

والحقيقةُ التي تظهرُ لنا من استقراء ما توافَر من أخبار الجاهلية، أن بعض الأسواق أُقِيمَ في مواضِعَ اعتقدوا أنها مقدَّسة، وأن البعضَ الآخَر أُقيمتْ فيه أَنْصَابٌ، أو حجارةٌ، أو أصنامٌ يُعظِّمونها[1]، وجعلوا لها مواسِمَ للاحتفالات الدينية، فأَضْفَتْ على الأسواق قداسةً وحُرْمَةً، فكانوا، إذا انعقدت مواسمها، يقصدونها للعبادة والحجّ والتجارة والاجتماع والفرح واللهو في آنٍ معاً، ينعمون بالسَّلام والأمن ما داموا فيها، وكأنهم في حَرَمِ بيوتِ الله وأماكنِ العبادة. . .

آيةُ ذلك مثلاً، أن الناظِرَ في مواسم أسواق عكاظ، ومجنَّة، وذي المجاز، يجدُ أنها وافقت موسمَ الحج إلى كعبة مكة، وأن أمْرَها اختلط بشعائر الحج حتى عُدَّت منها! وهو ما ذهب إليه الأزرقي بقوله: «إن مواسم الحج هي: مِنَى وعَرَفَة وعكاظ ومجنَّة وذو المجاز، فهذه مواسمُ الحج»[2]. . . ولكنهم «كانوا لا يتبايعون في يوم عرفة، ولا أيام مِنَى»[3]، ثم أضاف في موضع آخر، أن قريشاً وغيرها من العرب كانوا يقولون: «لا تَحضُروا أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، إلا مُحْرِمين بالحجّ. . .»[4]، ويتصلُ بذلك ما نقله ياقوتُ عن وجود صخورٍ مقدَّسة بعكاظ، كانوا يطوفون بها، ويحجُّون إليها[5]، وما ذُكر عن مُوافقة موسم سوق الشِحْر موسمَ زيارة قبر النبي هود[6]، وقيامِهما في الموضع نفسِه. . . ولعلّ هذه الموافقة بينهما

---

(١) المفصَّل: ٦/٤٠٦، ٤١٨ و ٧/٣٨٣.

(٢) أخبار مكة: ١/١٨٩.

(٣) المرجع نفسه: ١/١٨٨.

(٤) المرجع نفسه: ١/١٩٢.

(٥) معجم البلدان: ٤/١٤٢.

(٦) الأعلام: ٨/١٠١ ـ ١٠٢.

هي التي جعلت للسوق حُرْمَةً أضْفَتْ عليه أَمْناً، فلم تكن به خفارة، وجعلتْ منه منطقةً حُرّةً، فلم يكن به عُشُورٌ تُجبىٰ من أحدٍ، وذلك على شاكلة أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز التي كانت مناطقَ حُرَّةً محرَّمةً، لا خفارة فيها ولا عُشُور[1]، بل حريةٌ ينعمون بها، في حِمَى أمْنٍ شاملٍ، يعمُّ الناسَ فيها ما دام الموسمُ قائماً.

* * *

المطلب الثالث ـ المُحِلُّونَ والمُحرِّمون في العرب:

يُفْهم من اسْتِقراء أخبار الجاهلية أن العرب جميعاً كانوا مُحرِّمين، إلا فئةً قليلةً منهم، خرج بعضُها على شِرْعة التحريم هوىً وخِيرَةً، والبعضُ مُكْرَهاً من غير قصد، فاسْتَحلُّوا أُموراً من المحرَّمات، كالثأر والقتال والظلم والغَزْوِ، في الأمكنة أو الأزمنة المحرَّمة... لكنّ هذا الخروجَ لم يكن أكثرَ من شُذوذٍ عن القاعدة، ولا يُبَرِّرُ قِسْمةَ العرب عامّةً إلى قِسمَيْن: مُحرِّمِينَ ومُحِلِّين، وكأنهما فريقان مُتكافِئان، فهي قِسْمةٌ غيرُ دقيقة، ولا سيما إذا علمنا أنه كان من المحرِّمين طائفةٌ تَعْدِلَ المحلِّين أو تزيدُ عليهم، كان مُباحاً لها حملُ السلاح، حتى في الأشهُر الحرُم، لقِتالِ المُحِلِّين وكَفِّ أَذَاهُم عن الحرُمات والمحرِّمين... فكأنهم كانوا ضُبَّاطَ أمنٍ، يحفظون السلامَ الذي تُوفِّرُهُ رعايةُ الحرماتِ، والالتزامُ بموجباتها، وهو ما عَنَاهُ المرزوقي بقوله: «وكانت العربُ جميعاً تنزعُ أَسِنَّتَها في الأشهُر الحرُم، إلا المُحِلِّين، والذين يُقاتلونهم، فإنهم كانوا يُقاتلونهم حتى في الأشهر الحرُم»[2]. ولو مَضَينا نفتِّشُ عن المُحِلِّين، الذين استحلُّوا الحرمات، المُكْرَهِين منهم على ذلك

---

(١) المحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٥.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٧، (وأراد بالأسِنَّة جميعَ السلاح).

والراغبين فيه معاً، لوجدنا أنهم ما كانوا أكثر من بضع قبائلَ، فوق جماعةٍ من الخارجين على قبائلهم أو المخلوعين منها! فليس من العدل أن يُجعَلوا فريقاً في مقابل فريق آخَر يشمل سائر العرب.

وإذا لم يكن بدٌّ من التحقيق في أمر المُحِلِّين، لمعرفتهم، والوقوفِ على حقيقتهم، ومقدارِ حجمهم بالقياس إلى المُحرِّمين، فيجب علينا التفريقُ بين حالتين، **إحداهما**: انتهاكُ حُرمة الأمكنة المحرَّمة، وهذا يكون فردياً غالباً، وحادثاً عارِضاً غير دائم، ولا يمكن تكرارُه. **والأخرى**: انتهاكُ حُرمةِ الشهور الحرُم، وفي هذه الحالة يجب التمييزُ بين مَن استحلُّوا الحرمةَ هوىً واختياراً عن كُفْرٍ بهاواسْتهزاء، ومَنِ استحلُّوها في حوادثَ وقَعتِ اتِّفاقاً، على كُرْهٍ منهم. ويمكنُ في هذه الحالة أن يكون الانتهاكُ حادثاً فرديّاً أو جَماعِيّاً، وأن يكون عارضاً أو دائماً... فإذا استوْفَيْنا التحقيق في طائفة المحلّين، انتقلنا إلى البحث في أمر مَن تَصَدَّوْا للمُحِلِّين مِن المحرِّمين، وهم الذين سمَّاهم اليعقوبي: الذَّادَةَ المحرِّمين، عندما ذكر أنه كان في العرب قومٌ يستحِلُّون المظالمَ فسُمُّوا المحلِّين، وكان فيهم من يُنكر ذلك، وينصبُ نفسهُ لنُصْرةِ المظلوم، فسُمُّوا الذَّادَةَ المحرّمين، وكانت العربُ جميعاً بين هؤلاء وأولئك تضَعُ أسلحتَها في الأشهُر الحرُم[1]... أي تَنْزَعُها.

أمّا قولُ المرزوقي: «وكانت العربُ في الأشهر الحرُم على ثلاثة أهْواء: منهم مَن يفعلُ المُنكَرَ، وهم المحِلُّون الذين يُحِلُّونَ الحُرُمَ، فيغتالون ويسرقون، ومنهم مَن يكفُّ عن ذلك ويُحرِّمونَ الأشهر الحُرُمَ، ومنهم أهلُ هوىً... أُحِلَّ لهم قتالُ المحلّين»[2]، فهو قولٌ لا يُعْتَدُّ به، لأنّ فيه من

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦.

رداءة التعبير، ما يحمل على التوهُّم بأن العربَ كانوا أَفْرقاءَ ثلاثةً، وأن الأصل في شُهورِ الحِلِّ عندهم فِعلُ المنكَرِ والاغتيالُ والسرقةُ، ثم يكفُّون عنها مراعاةً للشهور المحرَّمة فقط.

ويبدو أن الأفغاني أخذ بمذهب المرزوقي، وجمعَ إليه ما قاله اليعقوبي من غير أن يَعْزُوَ إليه، وزاد على ذلك عباراتٍ من عنده، فقال في المُحِلِّين: إنهم استحلُّوا المظالم في الأسواق «في أشهُر الحج، ففَعلُوا المَنَاكِرَ، وأَحَلُّو الحرام، وفتكوا، وسرقوا، ولم يحفظوا للمكان، ولا للشهر، ولا لقريشٍ حُرمةً ما، فَسُمُّوا المحلِّين لِمَا استحلُّوا من الحُرُم...»[1]، ولمَّا تحدَّث عن المحرِّمين ذكر أنهم كفُّوا عن فعْلِ ما أضافه إلى المحِلّين، وعدَّدَ العبارات نفسَها، وكأن الأصلَ في العرب الظلمُ والفتكُ وإحْلالُ المحرَّمات! ثم لستُ أدري لمَ حَشَرَ قريشاً في هذا الشأن، وجعل لها حُرمةً كحُرْمةِ بيت الله والشهرِ الحرام!... مع أنها في أسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز كغيرها من قبائل العرب، تقصدُها للتجارة، ولا تملكُ من أمورها شيئاً، وهي كما سنَرىٰ مِن الذين أحَلُّوا الحُرُمات في المكان الحرام والشهر الحرام... هذا، ويجبُ أن نُنوِّه بأن حديثَ أهل الأخبار والمؤَرخينَ عن وَضْع العربِ سِلاحَهم في الأشهُر الحُرُم، لا يعني أنهم كانوا في أشهُر الحِلّ يحملونه للسرقة والعدوان والقتل، وإنما هو عادةٌ يُقصَدُ بها الدفاعُ عن النفسِ والعِرْضِ والمال، كانت تسودُ مختلفَ المجتمعات في العالم، وما تزال موجودةً حتى اليوم في أكثر البُلدان تقدُّماً وارتقاءً. كما أن العرب كانوا في الجاهلية يفخرون بالشجاعة والفروسية ومكارم الأخلاق، ويكرهون السرقةَ لأنَّ فيها جُبْناً وخِسَّةً ونَذَالةً، وكانوا يقطعون يد السارق، ويَصْلِبونَ قاطِعَ الطريق[2].

---

(١) أسواق العرب: ٨٠.

(٢) المحبَّر: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

١ ـ جماعةُ المُحِلِّين:

ذكرتُ في مطلع كلامي على المُحلِّين، أن الحوادث التي اسْتُحِلَّتْ فيها المحرَّمات، منها ما وقع على حُرْمة الشهور الأربعة، ومنها ما وقع على حُرْمة الأماكن المقدَّسة. ولكن الأخيرة كان معظمُها فرديّاً، عارضاً، وقعَ من غير تَدْبير. أما الأولى فكان منها حوادثُ وقعت مُدَبَّرَةً بإرادة المُحِلِّين، ومنها ما وقع على كُرْهٍ منهم... ولذلك وجدنا أهلَ الأخبار والمؤرخين، إذا تحدثوا عن المحلِّين، قَصَدوا بهم أولئك الذين انتهكوا حُرمةَ الأشهُرِ الحرُم، لأن حُرْمةَ الأمكنة المقدَّسة قلَّما انتُهِكتْ، وليس في أخبار الجاهلية ما يُشير إلى حوادثَ ذاتِ شأنٍ وقعت فيها، إلا ما كان منها بمكة، ولعلَّها أُثِرَتْ لِمَا رسَخَ في النفوس من قداستها عند العرب جميعاً، ولِزَعْمهم أنها كانت لا تُقِرُّ فيها ظلماً ولا بغْياً، ولا يبغي فيها أحدٌ على أحدٍ إلا أَخْرَجَتْه[1]، ومَنْ دخلها كان آمِناً، ومَن أَحْدَثَ حَدثاً في بلدٍ ثم لجأَ إليها فهو آمِنٌ[2]...

● انتهاكُ حُرمةِ مكة:

من تلك الحوادث ما جاء في أخبار بني جُرْهُم وآخِر عهدهم بمكة، من تَعسُّفٍ في حقوق الناس، وعَبَثٍ بالحُرُمات، وفُسُوقٍ في الكعبة[3]. ويذكر أهلُ الأخبار، من فُجورهم، أسطورةً تزعُمُ أن إسَافاً بَغَىٰ بِنَائلةٍ في جوف الكعبة، وكانا من بني جُرْهم، فمُسِخَا حَجَرَيْن، ثم وُضِعَا على الصَّفا والمرْوَةِ تجاه الكعبة، فهُما الوثَنانِ اللذان كانت قريشٌ تذبحُ عندهما

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ١١٤، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٤، وشرح القصائد السبع: ٢٥٥.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ١٨٣، ١٨٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٢.

ذبائحها[1].

ومنها ما ذكرتهُ عن انقضاض بعض العرب على بعض بني تميم، وضَرْبهم في «مِنَى»، وهي مَوْضعٌ حَرَام، وفي الشهر الحرام، فسُمِّيت تلك السنةُ: عامَ الغَدْرِ. ولكننا لم نعرف مَن مِن قبائل العرب أَحَلَّ الحرمات يومئذٍ، وإنما عرفنا أن الحادث وقع نحو سنة (٤٦٢ م)، أي في ولاية قُصَيّ أُمورَ مكة.

ومنها أيضاً، ما أشار إليه ابنُ قُتيبة بقوله، في أسباب حلف الفضول: «إن قريشاً كانت تَتظَالم بالحُرُم»[2]... ومثَالُ ذلك أن رجُلاً من أهل زَبيدٍ باليمن، قَدِمَ مكةَ في الجاهلية مُحْرِماً مُعْتَمِراً، ومعه تجارةٌ له، فاشتراها رجلٌ من بني سَهْم، ومَطَلَهُ بحقّه في قيمتها، ثم أنكرهُ عليه، فجاء إلى بني سهم يستَعِينُهم على صاحبهم فردُّوهُ، فلَجَأ إلى بعض بطون قريش، فتخاذلوا عنه، فقام في حِجْرِ الكعبة، فقال يُعَرِّضُ بأهل مكة، ويُذكّرهم بأنه محرمٌ لا يَحِلُّ ظلمه، وأن بلدهم حرامٌ، والحرامُ لا يكون لفاجِرٍ غُدَرٍ، وإنما لمن تمَّتْ كرامتُه...

يا آلَ فِهْرٍ لمظلومٍ بضاعتَهُ ... ببطنِ مكةَ نائي الدارِ والنَّفَرِ
ومُحْرِمٍ شَعِثٍ لم يقضِ عُمْرتَهُ ... بين المقام وبين الحِجْرِ والحَجَرِ
إن الحرام لمن تَمَّتْ كرامتُهُ ... ولا حرامٌ لثوب الفاجِرِ الغُدَرِ

فلما نزل، تداعت بطونٌ من قريش، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدعان، فتعاقدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً، من أهلها أو من غيرهم، إلا قاموا معه على مَن ظَلَمَهُ، حتى تُرَدَّ عليه مَظْلمتُه، وتعاهدوا على التآسي في

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٤١، ٢٨٤، ولسان العرب: ٩/ ٦ (أسف).
(٢) المعارف: ٦٠٤.

المعاش[1]، أي المساواة في الرزق، فمَن كان مُوسراً ذا مالٍ، أعطى منه الفقيرَ، وجعلهُ فيه أسوةً. وكانوا يُسَمُّونَهُ «حلفَ الفُضُول»، وهو حلفٌ في غاية السُموِّ، إذ يقضي بتحقيق العدالة والمساواة، والأَخْذِ من الظالم للمظلوم[2]. . . ويُقال إنه عُقِد في شهر ذي القعدة سنة (٥٩٠ م)، وأن الرسول عليه السلام قال: «شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفاً، ما أُحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم، ولو أُدْعَى إليه اليومَ لأَجَبتُ»[3]. . . ولئن كان الظلمُ والتظالمُ في أسباب هذا الحلف، لقد كان في نتائجه إقرارُ العدالةِ والحُرْمَةِ والأمنِ بمكة، وشُمولُ الفقراءِ المُعْوَزِينَ بفُضُولِ أموالِ الأغنياءِ القادرين، الزائدةِ على حاجاتهم منها.

أمّا إشارةُ اليعقوبي إلى قومٍ، كانوا يستحِلُّونَ المظالم، إذا حَضَروا الأسواق الموسميةَ[4]، فإنه أراد بها المُحِلِّينَ لحُرْمة الشهور الأربعة، وكانوا يتربَّصُونَ بالناس على الطريق إلى الأسواق، وليس في الأسواق ذاتها، فهذه كان الناسُ، كما ذكر اليعقوبي في الموضع نفسه، «يأمَنُونَ فيها على دمائهم وأموالهم. . .»، إذ كانت عموماً حَرَماً آمِناً، أو كالحَرَمِ، شأنُها في الحُرْمَةِ والأمن شأنُ الأماكن المقدَّسة.

وإذا نظرنا في تلك الحوادث، على قِلَّة أمْثَالِها، وتَباعُدِ ما بينها، وجدنا أنها حوادثُ وقعت عَرَضاً من غير قصد، ثم مَضَت ولم تَدُمْ، ولم

---

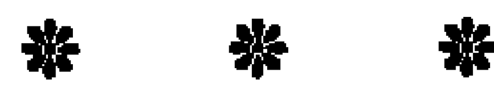
(١) المحبَّر: ١٦٧، والأغاني ١٧/ ٢١٠ ـ ٢١٦، والكامل: ٢/ ٤١، ولسان العرب: ١١/ ٥٢٧ (فضل).

(٢) الصعلكة والفُتوّة: ٤٨.

(٣) الطبقات: ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٣٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

يكن فيها تكرارٌ وتَتابُعٌ، فليس فيها إذن مَن يَصحُّ أن نُطلِقَ عليهم صِفَةَ «المُحِلِّين»، لعَدَمِ توافُر قَصْدِ الإحْلالِ، وتَتابُعِهِ، وتكرارِهِ دائماً فيما فَعلوهُ. . . وهذا يعني أن قاعِدَة الحُرمات كانت قويّةً ثابتةً في إشاعَةِ الأمن والسلام بين الناس في الأماكن المحرَّمة، وأن الحوادثَ التي وقعت كانت أمراً طبيعياً، يمكن وقوعُ مثله في سائر المجتمعات، وفي كل زمان.



● **انتهاكُ الأَشهُر الحُرُم:**

إن الحوادث المعروفة، التي انتُهِكت فيها حرمةُ الشهور الأربعة، يُمكن تقسيمها إلى قسمين:

الأول: حوادثُ قَبَلِيَّةٌ، وقعت من غير قصد الانتهاك، وإنْ تَتابَع تكرارُها عدَّةَ سنين، وهي وقائعُ حرب الفِجَار.

الثاني: حوادثُ فرديةٌ وقعتْ عَرَضاً في الأسواق، وتدخُلُ في أعمال الثأر غالباً.

وهنالك حوادثُ غيرُ محدَّدة، ولا نعرف عنها شيئاً، زعم أهلُ الأخبار أن طائفةً من القبائل والأفراد قاموا بها استهزاءً بالأشهر الحُرُم، وأطلقوا عليهم إسمَ المُحِلِّين.

أمّا ما زعمه أهلُ الأخبار عن القبائل التي كانت تَنْتسِيءُ فقهاءَ العربِ الشهرَ الحرامَ، أي تطلبُ تأخيرَهُ ليَحِلَّ لها فيه الغزوُ والغارةُ، فهو زَعمٌ غير صحيح، لأن الانْتِسَاءَ إنما كان طلباً لتَثْبيتِ المواسم في مواقيتها من أزمنة الشمس.

①ـ الحوادث القبليّةُ ـ وقائعُ الفجار:

وهي حوادثُ قتالٍ وحربٍ كانت بين قريشٍ وسائر كنانة وأسد بن خزيمة والأحابيش من جهة، ومُعْظم قبائل هوازن من قيس بن عيلان من الجهة الأخرى[1]. وإنما سُمِّيتْ فِجَاراً، لأنهم تَفاجَرُوا في الأشهُرِ الحُرم بسوق عكاظ، فاستحلُّوا الحُرُمات وسَفكوا الدماء[2]... ومن ذلك قولُهم: بعُكاظٍ فعلوا إحدى الإحَد[3]، إشارةً إلى فُجُورهم بتلك الحُروب. ويَقسِمُها المؤرخون إلى فِجَارَيْن، أحَدُهما لم يكن للوقائع فيه من الخَطَر، ما يَصحُّ أن تُسمَّىٰ به حَرْباً، والآخَرُ كانت الحربُ فيه خمسةَ أيام، وقعت في أربع سنينَ مُتتابعةٍ، ثم تداعَوْا إلى السلم، فاصطلحوا، ووضعوا الحربَ بينهم، وتعاهدوا ألاَّ يؤذيَ بعضُهم بعضاً[4]، وكان ذلك نحو سنة (٥٩٠ م).

● **الفِجَارُ الأول:**

وهو ثلاثةُ أيامٍ، مُتفرِّقة على عددٍ من السنين غير معروفٍ، ولم يكن لتلك الأيام أسماءٌ اشتُهِرتْ بها.

اليوم الأول: وهو بين كنانة وهوازِن، وكان الذي هاجَهُ أنَّ بَدْرَ بنَ مَعْشَرٍ الغِفَاريَّ، من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة، جُعِل له مجلسٌ بسوق

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/٥٨٨ و ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

(٢) أخبار مكة: ١/١١٥، وتاج العروس: ١٣/٣٠٢، ولسان العرب: ٥/٤٨ (فجر).

(٣) لسان العرب: ٣/٧٠ (أحد).

(٤) الأغاني: ٢٢/٦٠ ـ ٧٧، والعقد الفريد: ٥/٢٥١ ـ ٢٦٠، والطبقات: ١/١٢٦ ـ ١٢٧، والسيرة لابن هشام: ١/١٨٤، ١٨٦، والكامل: ١/٥٨٨ ـ ٥٩٤، والمعارف: ٦٠٣ ـ ٦٠٤، والمحبَّر: ١٩٥ ـ ١٩٦ و ٢٤٦، وأنساب الأشراف؛ ١/١٠٠ ـ ١٠١، وجمهرة الأنساب: ١٨٥ و ٢٨٦، وتاج العروس: ١٨/٢٣٧ (برض).

عكاظ، وكان رجُلاً مُعتزاً بنفسه، مَنيعاً، فطَفِقَ يتكبَّر على الناس ويُعَظِّم من شأنه، ومَدَّ رِجْلَه، وقال: أنا أعَزُّ العرب، مَن زَعَم أنه أَعَزُّ مني فلْيَضرِبْها، فضَربها له الأُحَيْمرُ بنُ مازن النصْريّ، من بني هوازن، فشَجَّها قليلاً فصاحَ كلٌّ منهما مُسْتنجداً بقومه، فتَحاوَرُوا حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم رأَوْا أن الخَطْبَ يَسِيرٌ فاصطلحوا.

اليوم الثاني: وهو بين قريش وهوازن، وسَببهُ أن فِتْيَةً من قُريشٍ رأَوْا في سوق عكاظ امرأةً من بني عامر بن صعصعة من هوازن، وسيمةً حُسَّانَةً، وقد اكْتَنَفَها شَبابٌ من العرب وهي تُحدِّثُهم، فجاء فِتْيَةُ قريش فأطافوا بها، ثم سألوها أن تُسْفِرَ لينظروا إلى وجهها، وكان عليها بُرْقع، فأبتْ، فقام أحدُهم من خَلْفِها، فشدَّ ذَيْلَ ثوبها بشَوْكةٍ إلى ظهرها، ولم تَشعر، فلما قامت انكشف ثوبُها عن دُبُرها، فضحكوا وقالوا: مَنَعْتِنا النظرَ إلى وجهك وجُدْتِ لنا بالنظر إلى دُبرك!... فصاحت المرأة: يا بني عامر فُضِحْتُ! فثاروا وحملوا السلاح، فاشْتَجَرُوا، ثم كانت بينهم دماءٌ يَسِيرةٌ، حملها حربُ بن أمية في ماله، وأصلح بينهم.

اليوم الثالث: وهو بين كنانة وهوازن، وكان الذي هاجَهُ أن رجُلاً من بني كنانة كان عليه دَيْنٌ لرجُلٍ من هوازن، فعجز الكِنَانيُّ عن الوفاء، فقَدِمَ الهوازنيُّ سوق عِكاظ، وقام فيها يُعَيِّرُ بني كنانة بما فعله صاحِبُهم، فضَربهُ أحدُهم، فهاج الناسُ حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم أمسكوا لمَّا وجدوا الخَطْبَ يسيراً، وحَمل عبد الله بن جُدْعان الدَّيْن عن المَدِين.

● **الفِجَارُ الأخير:**

وهو الوقعةُ العُظمى، وكانت بين قريش ومَن معها من كنانة وأسد بن خزيمة والأحابيش من جهة، وقبائل هوازن من جهة أخرى. وكان الذي

هاجَهُ أن البَرَّاضَ بنَ قيسٍ الكِنَانيَّ، من بني ضَمْرة بن بكر بن عبد مناة، كان رجُلاً فاتِكاً سِكّيراً، خَلَعهُ قومُه، وتَبرَّؤوا منه لكثرة جَرائِره، وكان يُضْربُ المثَلُ بفتْكهِ، فيقال: أفْتَكُ من البرَّاض[١]. فخرج من قومه وقَدِمَ مكةَ، ونزَل بِجوارِ حَرْبِ بن أميَّة، فحالَفَهُ حربٌ، وأحْسَنَ جِوارَهُ، ولكنه رجع إلى السُّكْرِ بمكة حتى هَمَّ حربٌ أن يخلعَهُ، فقال البرَّاضُ: إنه لم يبق أحدٌ ممن يعرفني إلا خَلَعني، سِواكَ، وإنك إن خَلَعْتَني لم ينظرْ إليَّ أحدٌ بعدك، فدَعْني على حِلْفك، وأنا خارجٌ عنك، فتركه، فارْتحل ولحِقَ بالنعمان بن المنذر مَلكِ الحيرة[٢].

وكان من عادة النعمان وقتئذٍ، أن يَبعثَ كل عامٍ إلى سوق عكاظ بالموسم لَطِيمةً، وهي الإبِلُ تحملُ المِسْكَ والبرَّ، فتُباع هناكَ، ويُشْتَرى له بثَمنِها الأَدَمُ والحريرُ والحذاءُ والوِكاءُ والبُرودُ من العَصْبِ والوَشْي والمُسَيَّر العَدَني[٣]، وكلُّ ما كان يحتاجُ إليه من معروضات عكاظ. وكانت عِيراتُ النعمان ولطائمهُ إذا دخلتْ تهامةَ لم يَعترضْها أحدٌ بأذى، حتى قتل النعمانُ أخاً لِبَلْعَاء بن قيس الكناني، وكان بَلْعَاءُ فارساً شجاعاً من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة، وسيداً من سادتهم، فجعَلَ يعترضُ لطائم النعمان، وينتَهِبُها انتقاماً لمقتل أخيه، ويقال إنه فعل ذلك مرتين[٤]. . . فبات النعمانُ يخشاهُ على لطائمه.

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٧.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) الأَدَم: الجلد المدبوغ. الوِكَاءُ: ج أَوْكِيَة، وهو رِبَاطٌ جلديٌّ لِغَلْقِ القِرْبَة وغيرها من الأوعية. البُرود: م بُرْد، وهو كِسَاءٌ من الصوف الأسود، ويكون مُخططاً، وهو من الثياب اليمانية الثمينة. العَصْبُ: نوع من البُرود، سُمّي كذلك لأن غزله يُعْصَبُ، أي يُجمع ويُشَدُّ، ثم يُنْسَجُ. الوَشْيُ: تحسينُ الثياب بالألوان والنقوش والنَّمْنَمة. المُسَيَّرُ: نوع من الثياب مُخطَّطٌ على شكل السُّيُور.

(٤) المحبَّر: ١٧٠ و ١٩٥ ـ ١٩٦. وجمهرة الأنساب: ١٨١.

وفي نَحو سنة (٥٨٦ م)، جَهَّز النعمانُ لطيمةً، وأحبَّ أن يبعث بها إلى عكاظ، في جوار سيّدٍ من أشراف العرب، يُجيزُها له حتى يُبْلِغَها سوقَ عكاظ. وكان في مجلسه يومئذٍ بعضُ وفودِ العرب ووُجُوههم، منهم سيّدُ هوازِنَ عروةٌ الرحّالُ[1]، فقال النعمان، والبرَّاضُ عنده يسمع: مَن يُجِيرُ لطيمتي هذه حتى يُبلِغَها عُكاظاً؟ فقال البرَّاضُ: أنا أُجِيرُها على بني كنانة! فقال النعمانُ: إنما أريد مَن يُجيرُها على أهل نَجْدٍ وتهامة... فقال عروة: أَكَلبٌ خليعٌ يُجِيرُها لَكَ؟ أَبَيْتَ اللعْنَ، أنا أُجِيرُها! فقال البرّاضُ: وعلى بني كنانة تُجِيرُها يا عروة؟ قال: نعم، وعلى الناس جميعاً!...

فدفَعَها النعمانُ إلى عروة، فخرج بها يَتبعُهُ البراضُ، فكان يراهُ ولا يخشى منه شيئاً ما دام في بلاد غَطفان[2]، وكانت منازلهم بنجْدٍ مما يلي وادي القُرى وجبل طيّىء، فلمّا بلغ وادي «تَيْمَن»[3] نَزَل، فأكل وشرب وغنَّتْه قَيْنَةٌ كانت معه، فأدركه البراضُ ثمَّةَ، فسأله عروة: ما تصنع يا برَّاض؟ فقال: أسْتَخِيرُ في قتلك!... فسخر منه عروةُ وأعرض عنه، فوثب إليه البراضُ وقتله. فلما رآه الذين يقومون على العِيراتِ والأحْمالِ قتيلاً، انهزموا فراراً، فاستاق البراضُ اللطيمة إلى خَيْبَر. وتَبِعهُ رَجُلانِ من قيس بن عَيْلان،

---

(١) عروة الرحّال: هو عروة بن عُتبة بن جعفر بن كلاب، من بني عامر بن صعصعة من هوازن. كان من جُلَساءِ الملوك، وسُمّي رحّالاً لكثرة وِفَادته عليهم. ساد قبيلة هوازن بكل بطونها، ولم تجتمع هوازنُ في الجاهلية إلا على أربعة من أبناء جعفر بن كلاب: خالد بن جعفر، وعروة الرّحّال، والأحْوص بن جعفر، وعامر بن مالك بن جعفر.

(٢) قيس بن عَيْلان: بَنُوهُ قبائلُ كثيرةٌ أشهرها: هَوازِنُ وغَطَفانُ وعَدْوانُ وفَهمٌ وغَنيٌّ وباهِلةٌ... وهوازِنُ: بنوه بطون كثيرة أشهرها ثَقِيفٌ وعامِرٌ وكِلابٌ وجُشَم وهلال وعُقيل وخَفَاجة... ومن غطفان: عَبْسٌ وذبيان.

(٣) معجم البلدان: ٢/ ٦٨، ومعجم قبائل العرب: ٨٨٨، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٨٥.

أحدهما من غَطَفان، والآخَرُ من غَنيٍّ، يَبغِيَانِ الثأرَ منه في مقتل عروة، وهما لا يَعْرفانه، فكان أولَ من لَقِيَهما في خَيْبر، وعرف منهما ما قَدِما فيه، فاحتال لهما حيلةً، فخَدَعَهما، وقتَلهما معاً.. ثم لقيَ رجُلاً من قومه، من بني أسد بن خُزيمة، فجعَلَ له عشراً من الإبل، وقال له: هل لك أن تمضيَ مُسْرعاً إلى حرب بن أمية، فتُخْبِرهُ أن البرَّاضَ قَتَل عروةَ؟ فإني أخشى إنْ يسبقِ الخبرُ إلى بني هوازنَ أن يكتموهُ، حتى يقتلوا به رجلاً من قومنا عظيماً...

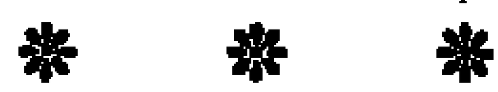
وبَلغَ قريشاً الخبرُ بعُكاظ، فتشاوروا مع بني كنانة والأحابيش سِرّاً، فاتفقوا على الرجوع إلى مكة، قبل أن يصل النبأُ إلى هوازن... فقام نَفَرٌ من قريش فقالوا: يا أهلَ عكاظ، إنه قد حدثَ في قومنا بمكة حَدَثٌ أتانا خَبرُهُ، ونخشىٰ إن تخلَّفْنا عنهم أن يَتَفاقَمَ الشرُّ، فلا يَرُوعَنَّكُم ارْتحالُنا!... ويُقال: إن العرب إذ ذاك كانت، إذا قَدِمتْ عكاظَ، دَفَعتْ أسلحتَها إلى عبد الله بن جُدْعان، فيحفظها لهم حتى يَفْرَغُوا من أسواقهم وحجِّهم، فيردُّها عليهم... فنادى يومئذٍ في الناس: مَن كان له عندي سلاحٌ فَلْيأخُذْهُ، ثم ارْتَحل القومُ راجعين إلى مكة. فلما كان آخر اليوم، أَتَى عامرَ بنَ مالكٍ، سيِّدَ هوازِنٍ، الخبرُ، فقال: خَدَعَني حربُ بن أمية، وغَدرتْ قريشٌ، واللّهِ لا تنزلُ كنانةٌ عُكاظَ أبداً! ثم عَبّأَ قومَهُ، وركبوا في طلبِهم، فأدركوهم بوادي نَخْلَةٍ[1]، قبل دخولهم الحرَمَ، فاقْتَتَلوا قتالاً يَسِيراً حتى أظلم الليلُ، فدخلت قريشٌ وكنانةُ

---

(١) نَخْلَة: وادٍ بالحجاز، قريبٌ من مكة، بينهما مرحلتان، أي (٤٨) ميلاً تقريباً، وهو مَوْضِعان، النخلةُ الشامية، وبه ذاتُ عِرْقٍ وهي ميقاتُ الإحْرام بالحجِّ لأهل العراق، والنخلةُ اليمانية، وبه قَرْنُ المنازل، وهو ميقاتُ الإحْرام للقادمين من نَجْدٍ والطائف واليمن.

حدودَ الحَرَم المكِّيِّ عند وادي نخلة اليمانية، فكَفَّتْ عنهم هوازِنُ وأَمْسَكتْ تعظيماً لحُرْمَةِ مكة. ونادى مُنادِيها: يا مَعْشَرَ قريش، إن مِيعادَنا وإيّاكم بعُكاظ في مثلِ هذه الليالي من العام المقبل... فكانت بينهم بعد يوم نَخْلةٍ، أربعةُ أيام في أربع سنين مُتَتَابعةٍ، جَرتْ وقائِعُها كلُّها في مواضِعَ من عكاظ، وهي: يومُ شَمْطة، ثم يومُ العَبْلاء، ثم يومُ شَرِب، ثم يومُ الحُرَيْرة[1]، وهو آخِرُها، إذ تداعَىٰ الناسُ إلى السَّلْم، وتعاهَدوا على الصُّلْح، وهَدَمُوا ما كان بينهم من العداوة والشرّ، وعادت الحياةُ إلى ما كانت عليه قبل الحرب.

وإذا لاحظنا هنا، أن بني هَوازِنَ كفُّوا عن قتالِ قريش، وبني كنانة، عندما صاروا إلى وادي نخلة اليمانية، لأنها في حدود الحَرَم المكّيِّ، تبيَّن لنا أن القوم كانوا أشدَّ رعايةً للأمكنة المحرَّمة، منهم للشهور المحرَّمة... وكانت العربُ في الجاهلية تعرفُ أعلامَ الحرَم حول مكة، وتعرفُ أن ما دُونها إلى مكة من الحَرَم، وما وراءها من الحِلِّ.



● **تحقيق في زمن الفِجَار:**

نقل البلاذري عن الواقدي أنه كان بين عام الفيل ونهاية الفِجَار عشرون سنةً، وبين الفِجَار وبَعْثةِ الرسول عليه السلام عشرون سنةً[2]، والمعروف أن الرسول بُعِث سنة (٦١٠ م)، وأن عام الفيل كان نحو سنة (٥٧١ م)، وأن حِلْف الفضول، كما قال ابنُ سعد، كان «مُنْصَرَفَ قريشٍ من الفِجَار، ورسولُ الله يومئذٍ ابنُ عشرين سنةً»[3]. ومن شأن هذا كله أن يؤكد أن الفجار

---

(١) معجم البلدان: ٣/ ٣٣٢ و ٣٦٣، و ٤/ ٨٠، وموقع عكاظ: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٠٣.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ١٢٨.

الأخير بدأ سنة (٥٨٦ م)، ثم استمرّ الخِصَامُ أربعَ سنين، وانتهى سنة (٥٩٠ م). ولعلّ ابن الأثير ذهب إلى ذلك بقوله: «وأما الفجار الثاني، فكان بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة، ولم يكن في أيام العرب أشْهَرُ منه...»[١]، والمعروف أن الرسول وُلد عام الفيل، وأن عبد المطلب هَلَك بعد ولادته بثماني سنين، فيكون الفجار سنة (٥٩٠ م)، ولا شك في أن المقصود بقولهم إنه كان بعد الفيل بعشرين سنة، ونحو ذلك، إنما هو انتهاءُ الحرب وليس ابتداءَها... فقد جاء في الحديث: كنتُ أيامَ الفِجَار أَنْبُلُ على عمومتي، أي أنه كان يلقطُ لهم النَّبْلَ ثم يدفعها إليهم ليرموا بها[٢]، وليس هذا صنعَ رجُلٍ في العشرين من عمره، وإنما هو من عمل شابّ في نحو الخامسةَ عشرةَ. وقد ذكر ابنُ حبيب أن النعمانَ بنَ المنذر مَلَكَ اثنتين وعشرين سنةً، وعلى رأس ثلاث سنين وثمانية أشهر مَضَتْ من مُلكِهِ، كان الفِجَارُ الأكبر[٣]، فيكون هذا الفجارُ وقع نحو سنة (٥٨٦ م) وسِنُّ الرسول يومئذٍ نحو خمسَ عشرةَ سنةً، إذ تَحقَّق أن مُلْكَ النعمان كان بين سَنَتَيْ (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م) تقريباً[٤].

تِلْكُمُ كانت جملةَ الوقائع القَبليَّة، التي حَفظتْها لنا أخبار الجاهلية، عن انتهاك بعض قبائل العرب حُرْمةَ الشهر الحرام. وإذا نظرنا فيها وجدنا أن الوقيعة منها لم تكن تَسْتغْرِقُ سوى بعضِ يومٍ في الفِجَار الأول، ويومٍ واحدٍ فقط في كل سنةٍ من سِني الفِجار الثاني. أمّا سائر أيام السنة، فكان الناسُ فيها يرجعون إلى تجاراتهم وأعمالهم يُزاوِلُونها، من غير أن يكون لحرب

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٥٨٩.

(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ١٨٦، ولسان العرب: ١١/ ٦٤٣ (نبل)، والعقد الفريد: ٥/ ٢٥٣.

(٣) المحبَّر: ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٤) المفصَّل: ٣/ ٢٦٠، ٢٦٢، وتاريخ العرب: ١٢٤.

اليوم الواحد في نفوسهم من الأثَر ما يُعِيق سَعْيَهم إلى الرزق والمعاش، أوَ يَحُولُ بينهم وبين الأخْذِ من مختلف فنون الحياة واللهو والمرح بأوفَرِ نصيب. وهو دليلٌ على أن الأمن في ظل الحرمات هو الأوْكَدُ، وأن اضطرابه كان عارضاً زائلاً، لا يبلغ أن يتجاوز يوماً واحداً، وموضعاً مُحدَّداً، ولا يتناول غير المتحاربين. . . وإذا نظرنا في عدد القبائل المتحاربة وجدنا أنها لا تبلغ عُشْرَ العُشْرِ من مجموع قبائل العرب، وأنها لم تفعل ما فعلته استهزاءً بالحُرُمات، وإنما فعلْته مُكْرَهةً، وللحرب أعْذارُها. . . وأنها لم تجرؤ على التقاتل في المكان الحرام، وإنما أمْسَكتْ عن القتال حينما اقتربت من حدود مكة. ويبقى أن نقول: إن اقْتِتَالَهم على أرض عكاظ وما اتَّصَل بها، يجعلُنا نُقرِّرُ أنه كان انتهاكاً لحُرْمة الشهر الحرام لا غير، وأنّ أرضَ عكاظ لم تكن موضعاً مُحرَّماً، وإذا كان فيها بيتُ عبادةٍ لِصَنَمٍ أو وَثَنٍ أو حجارةٍ مُقَدَّسة، فذلك البيتُ هو المحرَّمُ، لا أرضَ عكاظٍ كلَّها! ولا يسعُنا بذلك أن نُصنِّفَ هؤلاء القومَ في جماعة المُحِلّين، لأنهم في حقيقة أمرهم مُحرِّمون مُؤْمنون، حريصون على تعظيم الحرمات، وإشاعَةِ الأمن والسلام، ولكنهم غُلِبوا على أمرهم، ثم عادوا إلى الصلح والرشاد.

* * *

(٢) ـ الحوادث الفردية:

وهي حوادثُ كانت تقعُ عَرَضاً في المجامع العامَّة، ولا سيما في الأسواق التي تقومُ مواسمُها في الأشهُر الحرُم، حيث يلتقي أكبر حشد من قبائل العرب، وهي تدخلُ غالباً في أعمال الثأر. فالموْتُورُ، إذا كان يجهل واتِرَهُ، يظلُّ يبحث عنه حتى يجدَهُ ليثأرَ منه، وليس كالمجامع العامَّة مكانٌ للعُثور عليه. . . ومن هذا القَبِيل مثلاً ما ذُكر عن رجُل قُتِل غِيلةً من بني

مُحارب بن فِهْر، وهم من قبائل قريش البادية، وظلَّ قاتِلُهُ مجهولاً، حتى قام رجلٌ يوماً في عكاظ، فادَّعَىٰ قتلَهُ مفتخراً به، فسمعه بعضُ بني محارب، فشدَّ عليه أحدُهم فقتله[1].

ولعلَّ خيرَ ما يُمثِّلُ حوادثَ الانتهاك الفردية، التي تقعُ على كُرْهٍ من أصحابها، قصةُ مَثَلٍ سائرٍ، رواها الميدانيُّ فقال: الحديثُ ذو شُجُون[2]... وأولُ مَن قال هذا المثَلَ «ضَبَّةُ بنُ أدّ بن طابخة»[3]، وكان له ولدان: سَعْدٌ وسُعَيْد، وكانت له إبِلٌ فَنَفَرَتْ تحت جُنْح الليل، فَوَجَّه إبْنَيْهِ في طلبها، فتَفَرَّقا، كلٌّ منهما في طريق، فوجدها سعدٌ وعاد بها، ومضَى سُعَيْدٌ يطلبها حتى لقِيَهُ رجلٌ لعلَّهُ قاطعُ طريق، وكان سُعَيدٌ غلاماً وعليه بُرْدَانِ، فسأله الرجلُ هذين البُردَيْن، فأبَىٰ عليه، فقتله وأخَذَهما ومضَى... فكان ضَبَّةُ كلما أَمْسَى فرأى تحت الليل سواداً قال: أَسَعْدٌ أم سُعَيْد؟ فذهب قولُه مثَلاً يُضْرب في النجاح والخيبة. ومَكث ضَبَّةُ حزيناً بذلك ما شاء اللَّهُ له أن يمكث، ثم إنه قصد الحجَّ، فوافَىٰ أولاً سوقَ عكاظ في موسمها، فلقِيَ رَجُلاً وعليه بُرْدَا إبنه سُعَيد، فعرف أنه ضَالَّتُه، فقال له: هل أنت مُخْبِري ما هذانِ البُرْدَانِ عليكَ؟ قال: بلى، لقيتُ غلاماً وهُما عليه، فسألتُه إيَّاهما، فأبَىٰ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

(٢) الحديث ذو شُجون: أي ذو طُرُقٍ متعددة، أَحَدُها يُفْضي إلى الآخَر. يُضْرب في الحديث يُذكِّر بحديث آخَر. قال الفرزدق:

لا تَـأْمَنَـنَّ الحـربَ إنَّ اسْتِعَـارَهـا ... كضَبَّةَ إذ قال: الحديثُ شُجُونُ

وقال آخر:

تـذكَّـرَ نَجْـداً والحـديـثُ شُجُـونُ ... فجُـنَّ اشْتِيـاقـاً والجنـونُ فُنـونُ

(٣) ضَبَّة بن أدّ: جدٌّ جاهلي قديمٌ، وهو أخو مُرّ بن أدّ، وعمُّ تميم بن مُرّ. وكان عقب ضبّة من ابنه سعد، وكانت منازلهم شماليَّ نَجْد، ثم في الجزيرة الفراتية.

عليٍّ، فقتلتُه وأخذتُهما... فقال ضَبَّة: لله دَرُّكَ، أَبِسَيْفِكَ هذا قتلتَه؟ قال: نعم! فقال: فأَعْطِنِيهِ أَنْظُرْ إليه فإني أظنهُ صارماً، وأظُنُّكَ جَلْداً، فأعطاهُ الرجلُ سَيْفَهُ، فلما أخذَه ضَبَّةُ من يَده، هَزَّهُ وقال: الحديثُ ذو شُجُون، ثم ضَرَبَهُ به حتى قتله، فقيل له: يا ضَبَّةُ أفي الشهر الحرام؟ فقال: سَبَقَ السيفُ العَذَلَ[1]... فهو أولُ من سارت عنه هذه الأمثالُ الثلاثة[2].

لا شك في أن هذا الحادث يُعَدُّ خيرَ مثَالٍ على الحوادث الفردية، التي كان من الممكن أن تَقَع، وتُنتَهكَ فيها حُرمةُ الشهر الحرام. ومن الواضح أنها كانت تقعُ مصادفةً، دون أن يكون وراءَها نِيَّاتٌ مُبَيَّتةٌ على انتهاك الحرمات أو الاسْتِهزاءِ بها. فأصحابها كانوا إذن مُحرِّمين، ولا يجوز أن نُصنِّفهم في جماعة المحلِّين، ولا سيما أن فِعْلَ الانتهاكِ وقع منهم مرةً واحدةً من غير تكرار.



③ ـ الحوادثُ غير المُحدَّدة والمُحِلُّون:

وهي حوادثُ انتهاكٍ لحرمةِ الشهور الأربعة، غيرُ مُعَيَّنةٍ، أضَافَها أهلُ الأخبار إلى طائفةٍ مُعَيَّنةٍ من قبائل العرب وبُطونها، زعموا أنها كانت تستحلُّ المظالم، وتفعلُ المنكر، وتُحِلُّ الحُرُمَ، كُفْراً واسْتِهزاءً، فأطلقوا عليها إسمَ: المُحِلِّين، من غير أن يُقدِّمُوا لنا دليلاً واحداً على صحة ما ذهبوا إليه، أو مِثَالاً على ما كان أولئك المحِلُّون يقومون به في الأشهُر الحُرُم، بل إن بعضهم قدَّم لنا أدِلَّةً، تُثبتُ وجودَ تقاليدَ عند المحلِّين، تجعلُهم أشدَّ تعظيماً

---

(١) العَذَلُ: اللوم.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٢٧٥، وجمهرة أنساب العرب: ١٩٨ و ٢٠٣، والمفصَّل: ٤/ ٥٢٣.

للحُرُم من الَّذين تقاتلوا في الشهر الحرام، والَّذين كانوا يتظالمون في الحرم.

وبينما قال اليعقوبي إن المحلّين كانوا «قبائلَ من أَسَدٍ، وطيّىءٍ، وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقوماً من بني عامر بن صعصعة»[1]، ونقل المرزوقي أنهم: طيّىءٌ وخَثْعَم وأناسٌ من بني أسد بن خُزَيْمة[2]، فإن سائر المراجع أَطْبَقتْ على أن العرب جميعاً كانوا يُعظمون الأشهر الحُرُم إلا طَيِّئاً وخَثْعَمَ، فإنهم كانوا يُحِلُّونها[3]...

وإذا أخذنا بظاهر هذه الأقوال، على عُموميَّتِها، وافْتِقارِها إلى دِقَّةِ التعبير، وكذلك إلى وُجودِ حوادثِ انْتِهاكٍ مُحدَّدةٍ اقْتَرفَها أولئك القومُ، فالمُحِلُّون عند أهل الأخبار والمؤرخين هم: طيِّىءٌ، وخَثْعَمُ، وأُناسٌ من بني أسد بن خُزَيمة، وبني عامر بن صعصعة، وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة... فما هؤلاء جميعاً بالقياس إلى سائر قبائل العرب، وفي أرضٍ تبلغُ مساحتُها أكثرَ من مليون ميلٍ مربَّع؟ وأنّىٰ لهم أن يُزَعْزِعُوا الأمنَ والسلامَ، في ظلِّ حُرْمَةٍ مُحتَرَمَةٍ من العرب جميعاً، تمتدُّ أربعة أشهُرٍ في مختلف مَواطِنهم؟ ولا سيما إذا عرفنا أن الأمور لم تكن تخلو من الضوابط، فثَمَّةَ جُملةٌ من التقاليد الدينية والاجتماعية، كانت تُلْزِمُ المُحِلِّين بالانْصِيَاع إلى مُوجِبات الحُرْمَة، وكفِّ الأذَى عن المحرِّمين، وهنالك طائفةٌ من نَحو خَمسٍ قبائلَ كانت تَتصدَّىٰ للمحلِّينَ بالسلاح، لتمنعَ أذاهم عن الناس، سيأتي ذكرُها.

ولا بدَّ أن نذكر ما قاله جواد علي في موضوع المحلِّين قبل المُضيّ في

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧١.

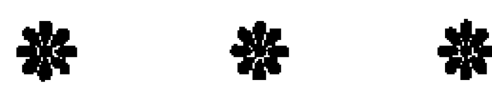
(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦.

(٣) المحبَّر: ٣١٩، ولسان العرب: ١٢/ ١٢١ (حرم)، وتاج العروس: ١/ ٤٥٧ (نسأ)، وأخبار مكة: ١/ ١٨٤.

مُتابعته ودَرْسِهِ، فقد نقَل كلَّ ما وجدهُ في مراجع أهل الأخبار، وأثْبَتَه في كتابه، كعادته، من غير تَحقُّق. ولكن الغريب في أمره قولُه بعدئذٍ: «يجب أن نُضيف إلى المحلِّين: العربَ الذين لم يكونوا على دينِ أهلِ الشِّرْكِ، مثلَ النصارى واليهود... فهؤلاء لم يكونوا على شِرْكٍ، لذلك لم يُراعوا حُرْمَةَ تلك الأشهر، ولم يَحجُّوا إلى مَحجَّات المشركين»[1]! وهو قول غريبٌ، وكأن اليهودَ والنصارى كانوا يومئذٍ مُوَحِّدين لا يُشْركون بالله شيئاً، ولم يكونوا وَثَنِيِّين كالمشركين... وقد مرَّ بنا في بحث الحالة الدينية أنه كان في الكعبة تمثالٌ، أو صورةٌ لعيسى ومريم عليهما السلام، وأن امرأةً من بني غسَّانَ، وهم نصارى، حجَّتْ في حاجِّ العرب، فلمَّا رأت صورةَ مريم قالت: بأبي وأمي إنك لعَربيَّةٌ[2]... وفي أخبار زمن الرشيد، ذكر الأصفهاني نصرانياً كان يحلف بالحنيفيَّة أنه لا يكذب[3]. وفي أخبار الجاهلية أن قبائل لَخْمٍ وغسَّانَ وكندة كانوا يحجُّون، وكانوا على النصرانية، أو كان بعضُهم، وأن ملوكَ حِمْيَر كانوا يحجُّون، ويُهْدُون إلى الكعبة ويَكْسُونها، وكانوا على اليهودية، أو كان بعضهم[4]، وأن ملوكَ الحيرة من بني لخم كانوا مُحرِّمين، يُعظمون الأشهر الحُرم كسائرالعرب[5]، وأن «العِبَادَ» كانوا يُقْسِمُون بربِّ الكعبة والصليب معاً[6]، وأن قضاعة كانوا يحجون أيضاً[7]، وأن بني شيبان

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٧٥.
(٢) أخبار مكة: ١/ ١٦٩.
(٣) الأغاني: ١٢/ ٢٨٦.
(٤) معجم البلدان: ٥/ ١٨٣.
(٥) الكامل: ١/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠.
(٦) المفصَّل: ٦/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦.
(٧) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٥.

كانوا فريقاً في الذَّادَةِ المُحرِّمين، يَذُودُونَ المحلِّين عن العَبَثِ بالحرُمات، ويدفعون أذاهم عن المحرِّمين... وقد عدَّ جواد علي هؤلاء جميعاً في المحلِّين، لا يؤمنون بحُرْمةِ مكانٍ ولا زمان، ولا يمتنعون من القتال في جميع الشهور والأمكنة، لأنهم كانوا على دين! وكأنَ التحريم بدعةٌ ابتدعها المشركون، ولم تكن من بقايا الحنيفيَّة فيهم. وهو مذهبٌ في القول لا دليلَ عليه فيما أرَى، بل الدليلُ القائمُ في أخبار الجاهلية إنما هو على بُطْلانِهِ، ولا سيما أنه اعتمد التعميم في الحُكْم، مع أن عدم توافُر الدليل يُوجِبُ التخصيص.



وبالرجوع إلى أقوال أهل الأخبار، نُقلِّبُها وننظرُ فيها، نجدُ أن المقصود فيها بالمحلِّين أفرادٌ من بعض القبائل، وليس القبائلَ كلَّها... فقد ذكر ابنُ الأنباري أن فقيه العرب من بني كنانة، كان يخطبُ العربَ بعد فَراغِهم من مناسك الحج كلَّ سنة، فيحضُّهم على تعظيم حرماتهم، ويقول لهم: «اللهم إني قد أحْلَلْتُ دماءَ المُحِلِّين من طيّئٍ وخَثْعَم، إحْلالَ دَم ظَبْيٍ، فاقتُلوهم حيث وجدتُموهم إذا عَرَضُوا لكم...»[1]!، وهو قولٌ يجعلُ المحِلِّين نَفَراً، أو أفراداً من قبائلِ طيّئٍ وخَثْعَم، وليس كلَّ أبناء هذه القبائل، ويُخرِجُ في الوقت نفسِه من المُحِلِّين، مَنْ ذكَرهم اليعقوبيُّ والمرزوقيُّ من بني أسد بن خُزَيمة، وبني بكر بن عبد مناة، وبني عامر بن صَعْصَعة... ولعلَّ المحلِّين في هؤلاء الأقوام كانوا أفراداً من الخُلَعاءِ[2]، أو

(١) شرح القصائد السبع: ٢٥٧، وتاج العروس: ١/ ٤٥٧ (نَسَا).
(٢) **الخُلَعاءُ**: جمعُ خليع، وهو الرجلُ يجني الجنايات يُؤخَذُ بها قومُه أو أولياؤه، فيتبرَّؤون منه، ويُعلنون في الأسواق والمجَامِع العامة خَلْعَهُ، فلا يُؤخَذون بجنايته، ولا يُؤخَذُ بجنايتهم.

الفُتَّاكِ الخارجين على تقاليد قبائلهم! هذا، ويجب أن نلاحظ أن فقيه العرب لا يملك في الواقع أن يُبِيحَ دِماءَ قبائلَ بجميع أبنائها، مثل طيّيء وخَثْعَم، وهما من كُبْرِيَات قبائل العرب! وإذا صَحَّ هذا القولُ على إطلاقه، فمعناهُ أنه أعلنَ عليهم حربَ إبادةٍ، وهو غير معقول طبعاً، ولا طاقة لأحَدٍ من قبائل العرب به حينئذٍ، ولم يكن الإطلاقُ هنا إلا من قبيل التعميم الذي اتَّبعهُ أهلُ الأخبار في رواياتهم أخبارَ الجاهلية، والدليلُ على ذلك أن العربَ كانوا في تَدَيُّنهم على مَذْهَبَيْن: الحُمْسِ، والحِلَّة[1]، فأما الحُمْسُ فقد ذهبوا في ديانتهم مذهبَ التشدُّدِ والزُّهْد والتألُّهِ، وابتدعوا لأنفسهم شعائِرَ في اللباس والطعام والشراب أيامَ الحجِّ والعبادة، لم تكن لهم في الأصل، وكان من الحُمْسِ: قريشٌ وخُزَاعَة وكنانةٌ وعامرُ بنُ صَعْصَعة[2]. . . وأما الحِلَّةُ فكانوا إذا دخلوا مكة في موسم الحج، تصدَّقُوا بكل حذاءٍ، وكلّ ثوبٍ لهم، ثم استَكْروا من الحُمْس ثياباً يطوفون بها، تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثيابٍ جُدُدٍ، إلى تقاليدَ أخرى كانت لهم. . . وكان من الحِلَّة: قبائلُ خَثْعَم، وطيّيء، وأسدَ، وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وهُذَيْل بن مدركة، والغوث بن مُرّ وغيرهم[3]. . . وهذا يعني أن الذين صُنِّفُوا في طائفة المحِلِّين، كانوا جميعاً، من حُمْسٍ وحِلَّةٍ، يقصدون مكةَ، ويحضرون مواسمَها، ويقومون بمناسك الحج، في الشهور الحُرم، ويعني في الوقت نفْسِهِ أنهم كانوا، على ما زَعَم أهلُ الأخبار، يستمعون كذلك خاشِعين مُحْتَسِبين إلى فقيه العرب وهو يُحِلُّ دماءَهم في خطبته السنوية، ويُبيحُ للناس قتلَهم حيثما وُجِدوا، فلا يُحرِّكون ساكناً، ثم يعودون إلى منازلهم، من غير أن يَمسَّهم سوءٌ من أحَدٍ

---

(1) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٥٦.

(2) السيرة لابن هشام: ١/١٩٩ ـ ٢٠٠، والمحبَّر: ١٧٩ ـ ١٨١.

(3) المحبَّر: المرجع نفسه.

في الطرُق، أو في حَرَم الكعبة، أو في أسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز!... فهل يستقيم هذا مع العقل السليم؟ طبعاً لا! والحقيقةُ أن تصنيف تلك القبائل بكاملها في طائفة المحِلّينَ إنما هو تعميمٌ اعتادَهُ العربُ، يأخذون فيه الجميعَ بفِعْلِ واحدٍ منهم، أو يُضيفُون فيه فِعلاً دائماً إلى قبيلةٍ، لم يكن فِعْلُهُ منها سوى مرّةٍ في الزمان... وهو ما تحدَّث عنه الجاحظُ، فقال: «والعربُ إذا وجدتْ رجُلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً، ألْزَمَتْ ذلك القبيلةَ كلَّها، كما تَمدحُ القبيلةَ بفعلٍ جميلٍ، وإن لم يكن ذلك إلا بواحدٍ منها»[1]، فالقبيلةُ وحدةٌ متماسِكةٌ يجري عليها جميعاً ما يجري على كل فردٍ من أبنائها، وربما قال شاعرُها قصيدةً يفخر بها على آخَرينَ، فتفخرُ بفَخْرِهِ القبيلةُ كلُّها... وكانوا يحكمون لشاعرٍ بأنه أشعَرُ الناس كافةً لبيت شعرٍ واحدٍ قاله يوماً، ويُقدِّمون قبيلةً بمجموعها إذا نَبغَ فيها شاعرٌ أَعْجَبَ الناسَ قولُه[2].

وعلى ذلك يمكن أن نَقطعَ بأن قبائل طيِّىء وخَثْعَم لم تكن في جُمْلتها مُحِلَّةً، وإنما كان فيها أفرادٌ خَرجُوا عليها، وعلى سُنَّةِ العرب في التحريم، فكانوا يَعْدُونَ على الناس حتى في الأشهُر الحُرُم، فأفْتَى فقهاءُ العرب بإباحة دمائهم حيثما وُجِدوا، إذا عَرَضُوا للناس في الأشهُر الحرُم. ولا شك في أن هذه الفتوى كانت بموافقةٍ من قبائلهم، إذ لولاها لاشْتَعلت حروبُ الثأر بين العرب وقبائل طيِّىءٍ وخثْعَم، وليس في أخبار الجاهلية ما يُشِير إلى حوادثَ من هذا القبيل... ولكن ابن إسحاق يذكر أن أَبْرَهَةَ الحَبَشَيَّ، لمَّا حَمَل على مكة يبتغي هدمَ الكعبة وتحويلَ الحجّ إلى كنيسة القُلَّيْس بصَنْعاء، لم يَعْرِضْ له أحَدٌ من قريشٍ أو غيرهم من العرب، إلا بني خَثْعَم عندما بلغ أرضهم،

---

(١) البخلاء: ٢٣٤.

(٢) الأغاني: ٩/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

قاتلوهُ ذَوْداً عن حُرْمَةِ البيت[1]، فكانوا أشدَّ العرب تعظيماً لها! حتى أن الواحديَّ صنَّفَهم في قبائل الحُمْس المتَشدِّدينَ في دينهم[2]. ومع ذلك فإن ابن حزم لمّا تحدَّث عن ديانات العرب في الجاهلية قال: «وكانت خَثْعَمُ لا تَدِينُ بشيءٍ أصلاً...»[3]، وقوله غير صحيح قطعاً، فالقومُ كما رأينا كانوا على دين العرب من طائفة الحِلَّة، وليس من المُحِلِّين، بل كانوا يُعظِّمون حُرْمَةَ الكعبة والأماكن المقدَّسة، وأعتقدُ أنهم كانوا يُعظمون أيضاً حُرْمَة الشهور الحرُم، وإذا كان فيهم نَفَرٌ استحلُّوا هذه الحرمة، فليس من العدل أن تُؤخَذَ القبيلةُ كلُّها بجريرة نَفَرٍ منها، وقد عرفنا نفَراً من الحُمْسِ استحلُّوا الحُرُمات، فما قيل فيهم مثلُ ما قيل في أهل الحِلَّة... وقد سبق القولُ بأن بعض أخبار الجاهلية أشارت إلى ظلمٍ كان يقعُ أحياناً على الناس في الحرُم بمكة، ولم نطَّلعْ على حوادثَ مُعيَّنةٍ تُشير إلى انتهاكٍ ما للحرمات قامت به خَثْعَمُ في الأشهُر الحرُم، وإنما وجدنا ما يشير إلى أن بني خثعم كانوا بعضَ مَن ظُلِم بمكة!. ويذكر الأصفهاني في ذلك أن رجُلاً من بني خثعم، قدِمَ مكة تاجراً، ومعه إبنةٌ له يُقال لها: القَتُول، وكانت وَضِيئةَ الوجه، جميلةً، فعَلِقَها نُبَيْهُ بنُ الحجّاج السَّهْميُّ من قريش، فلم يَبرحْ حتى أخذها من أبيها قَهْراً، ونَقَلها إلى بيته، فقيل لأبيها: عليك بحِلْفِ الفُضُول! فأتاهم وشكا إليهم أمرَهُ، فخرجوا معه وأتَوْا نُبَيْه بنَ الحجاج وهو مُتَبَدٍّ يومئذٍ بظاهِرِ مكة، فقالوا: أَخْرِجْ إبنةَ هذا الرجُلِ، فقال: لا أفعل، ولكن مَتِّعوني بها الليلةَ، فقالوا: قبَّحكَ اللّهُ ما أجْهَلَكَ، وما زالوا به حتى أخذوها منه، ورَدُّوها إلى

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/٤٦.

(٢) أسباب النزول: ٥٧ (١٠١).

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٩١.

أبيها[١]... والمعروفُ أن خَثْعَم كانت تنزلُ مناطق تُرْبة وبيشَة وتَبَالة على طريق اليمن من مكة، وهي مناطقُ خصبةٌ، فكانت صعاليكُ فَهْم والأَزْدِ يُغِيرونَ عليها ويُصيبون منها[٢]... فما عُدَّتْ فَهْمٌ ولا الأَزْدُ في المحلّين. وعُرِفَ في هُذَيلٍ أكبر عددٍ من صعاليك العرب بين أبنائها، ومع ذلك عُدَّت في طائفة الذادة المحرِّمين[٣].

وتذكر الأخبارُ أيضاً أن قبيلة طيِّىء لم تكن تَعْرِضُ لأحَدٍ من التجار، إذا كان قادماً من اليمن أو الحجاز، مُتَخفِّراً بقُريشٍ، أي مُتَزوِّداً بعَهدِ حمايةٍ أو جِوارٍ من أحَدِ أبنائها... ذلك بأن قريشاً كانوا حُلَفَاءَ بني أَسَد بنِ خُزَيمة، وأن بني أسَدٍ كانوا حلفاءَ طيِّىء[٤]، وكانت منازلُهم في بلاد نَجْدٍ بجوار منازل طيِّىء[٥]... فإذا كانت طيِّىءٌ تُوفِّر الأمنَ لمُتَخفِّرٍ بحليفِ حَليفِها في كل شهور السنة، فهل يُعقَلُ أنها كانت تعتدي على الناس في الأشهُر الحرُم؟... وثمَّة دليلٌ آخر، فقد ذكر الأصفهاني أن حاتم بن عبد الله الطائيَّ، سيّدَ طيِّىءٍ، كان إذا أَهَلَّ شهرُ رَجَبٍ الحرامُ، ينحرُ في كل يوم عَشْراً من الإبل، فيجتمع إليه الناسُ، فيُطعمهم ويُكرِمهم[٦]... فهل هذا فِعْلُ رجُلٍ مُحِلٍّ لحُرْمَةِ الشهور المحرَّمة؟ على أن هذا لا ينفي أن يكون في طيِّىءٍ مُحِلُّونَ من أبنائها أو خُلعائها وصَعاليكها، وإنما ينفي أن تكون القبيلةُ كلُّها مُحِلَّةً.

---

(١) الأغاني: ١٧/٢٠٧.

(٢) الشعراء الصعاليك: ٨٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٧١.

(٤) المحبَّر: ٢٦٤، ولسان العرب: ٩/٥٥ (حلف).

(٥) نهاية الأرب: ٣٧.

(٦) الأغاني: ١٧/٢٨١..

نَخلُصُ من كل ما قَدَّمناهُ إلى أن «المُحِلِّينَ» لم يكونوا غيرَ أفرادٍ خرجوا على قبائلهم، أو أُخرِجُوا منها خَلْعاً، فلم يجدوا لأنفسهم سبيلاً إلى الرزق، غير الإغارة على أموال الأغنياء، فاسْتَحلُّوا في ذلك التمرُّدَ على شِرْعَةِ العرب في التحريم، فكانوا ينتهكون حُرْمةَ الشهورِ المحرَّمةِ لا غير، بغَاراتٍ يخرجون إليها مرةً بعد أخرى، فُرادَى وعصاباتٍ، كانت من قبائلَ مُختلفةٍ، لا من قبيلتَيْ خَثْعَمٍ وطيّيءٍ وحَسْبُ. وكانت مادَّتُهم غالباً من أولئك الذين تُطلق عليهم العربُ أسماءَ الخُلَعاءِ، والذُّؤْبانِ، والأغْرِبة، والجُمَّاع، والشُّذَّاذِ، والهُلاَّك[1]، وتَجمعُهم جميعاً طائفةُ الصعاليك، أي الفقراء، التي سنتحدَّثُ عنها في آخر هذا الباب، حديثاً مُفصَّلاً لما كانت تَنْقضُه من الأمن عامّةً في مواضِعَ مُعيَّنةٍ من بلاد العرب. ولكن تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أن أولئك المُحلِّين لم يكونوا مُنْفَلِتينَ من كل قَيْد، فقد كانت هنالك طائفةٌ مُسَلَّحةٌ من المُحرِّمين تَترَصَّدُ لهم، لِتمنَعَ الناسَ من أذاهم، وهي طائفة الذَّادَة المحرِّمين. كما كانت هنالك أيضاً تقاليدُ دينيّةٌ، تضبطُ سُلوكَهم في قطع الطرُق والإغارة على الناس، وتتصل بحرصهم على رعاية الكعبة، وحُرْمتها، والحجِّ إليها، وتؤكد في الوقت نفسه أنهم لم يكونوا من الخَطَر بالقَدْرِ الذي يُتيح لهم تعطيل قاعدة الحرمات من إشاعة الأمن والسلام... ولكن حكايات غاراتهم وفتكهم انتشرت بين الناس، لما كان فيها من الدَّهَاءِ والشجاعة والخَتْل، فظنوا أنهم طائفةٌ كبيرة، تشكِّلُ خَطَراً كبيراً لا مَنْجَاةَ وراءَهُ لأحد.

* * *

(١) ومثلُ هؤلاء أيضاً: العَمارِيطُ، والعَمَارِطةُ، جمعُ: العُمْرُوط، وهو الصُّعْلوكُ الذي لا يَدَعُ شيئاً إلا أَخذَهُ، وعَمَّ بعضُهم به اللصوصَ جميعاً. ويقال كذلك: قومٌ عَضَارِيطُ:، أي صعاليك، والأصل فيها: التُّبَّاعُ ونحوُهم، والخَدَمُ على طعام بطونهم. «لسان العرب: ٧/ ٣٥١ ـ عضرط، ٣٥٦ ـ عمرط».

٢ ـ طائفةُ الذَّادَة المُحرِّمين:

ذكرتُ من قبلُ أن اسْمَ المحِلِّين إنما يَصحُّ أن يُطلقَ على مَن كانوا ينتهكون الشهورَ المحرَّمةَ عَمداً وهَوىً، لا غير، وأن هؤلاء كانوا جماعةً مؤلَّفةً من أفراد ينتمون إلى بضع قبائل، ولم يكونوا، كما زعم أهلُ الأخبار ومَن نَحا نحوَهم، قبائلَ وأقواماً[١]... وذكرتُ أن فقهاء العرب أباحُوا دماءَهم بما اسْتَحلُّوهُ من ظُلم الناس، والعُدوانِ عليهم في الأشهُر الحرُم، وأَفْتَوا بجواز قتلهم حيثما وُجِدوا إذا عَرَضوا للمُحرِّمين، فكان من ذلك قيامُ طائفةٍ من أبناء بعض القبائل، كانت تحملُ السلاحَ، حتى في الأشهر الحرُم حيث يَحْرُمُ حملُ السلاح، لتدفعَ المحلِّين وأَذاهم عن المحرِّمين، وتمنَعَهم من سفك الدماء وظُلم الناس، فسُمِّيتْ كما ذكر اليعقوبي: طائفةَ الذَّادَةِ المُحَرِّمين، وكانت من «بني عمرو بن تميم، وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وهُذَيل، وبني شيبان، وبني كلب بن وَبَرة»[٢]... وقد سمَّاهُم المرزوقي: أهلَ هَوَىً، وأثْبَتَ قولاً يزْعُم أن الذي شَرَعَ لهم هذا الهَوىٰ في قتال المحلِّين إنما هو «صُلْصُلُ بنُ أوْسٍ التميميُّ»[٣]، وكان قاضياً بسوق

---

(١) ذكر الأفغاني المُحِلِّينَ في كتابه كما وجدهم عند اليعقوبي والمرزوقي من غير أن يُحقِّق في أمرهم شيئاً، سوى ما استخلصه من ذلك بقوله: وكثيرٌ من القبائل انتهكت حرمةَ الشهر! فأين هو الكثير؟ أم أنه حسِبَ نفسَه يكتب كلاماً في درس الإنشاء؟ والغريبُ أنه لمَّا عدَّد طائفة الذادة المحرمين قال: «وكان في هؤلاء أيضاً قبائلُ من طيِّيء وخثعم وأناسٌ من بني أسد بن خزيمة»، وعَزَا ذلك إلى المرزوقي، وهو غيرُ صحيح قطعاً، فالمرزوقي لم يذكر هؤلاء سوى مرةٍ واحدة في المُحِلّين! كما غلط أيضاً لمَّا توهَّم أن الذَّادة المحرمين الذين ذكرهم اليعقوبي، إنما هم طائفةٌ، غيرُ أهلِ الهوى في قتال المحلِّين الذين ذكرهم المرزوقيُّ، مع أن الإسْمَيْن لمُسَمّىً واحدٍ، وطائفةٍ واحدة! (أسواق العرب: ٨١ ـ ٨٤).

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦.

عكاظ، ومُحكَّماً من حُكَّام العرب في الجاهلية، وهو ممَّن اجتمعتْ لهم إمامةُ الموسم والقضاءُ بسوق عكاظ معاً من بني تميم[١]... ولكن ابن الكلبي علَّق على هذا الزَّعْم بقوله: إنه «قولُ بني تميم، فأمَّا الثبتُ عندنا فهو القَلَمَّسُ الكنانيُّ وأجْدادُه مِن قَبله...»[٢]، ولا شك في أن قولَ ابن الكلبي هو القولُ الحقُّ، فالإفتاءُ بإباحَةِ دماءِ المحلِّين، وجَوازِ قتالهم حتى في الأشهر الحرُم التي حُرِّمَ فيها القتال، إنما هو شأنٌ من شؤون الدين، لا من شؤون الموسم أو القضاء أو الحكومة! فالحقُّ في سَنِّهِ والحُكمِ بجَوازِهِ أو عَدَمِهِ يعودُ إلى فقهاء العرب لا إلى قُضَاتهم، وهذا ما كانوا يفعلونه في خُطبتهم الناسَ كلَّ سنة بعد فراغهم من مناسك حجّهم... وقد غَلب لقَبُ القَلَمَّس، عند بعض أهل الأخبار، على «حُذَيْفَة بن عبد بن فُقَيْم الكنانيّ»[٣]، وهو في تقديري عَصريُّ صُلْصُلِ بنِ أَوْسٍ التميميَّ، فكلاهما يُفْتَرضُ وجودُهُ في أواسط القرن الميلادي الخامس، أيامَ ظهور قصي بن كلاب بمكة، وهذا مذهبُ من لا يَروْن شيئاً من النظام في مكة قبل قصيّ! وإذا أخذنا بقولِ مَن ذَهَبَ إلى أن لقَبَ القَلَمَّس غَلَبَ على كلّ مَن صارت إليه هذه الرُّتْبةُ من بني مالك بن كنانة[٤]، وقولِ ابن الكلبي بأن أصحابَ الشَّرْع في إباحة قتال المحلِّين إنما هم أجْدادُ حُذَيْفَة بن عبد الكناني، فقيامُ طائفة الذَّادَةِ المحرِّمين إذن، يعودُ به العهدُ إلى ما قبل ذلك، وربما إلى القرن الثاني، فالمعروفُ أن أوَّلَ مَن تولَّى رتبةَ القَلَمَّس من بني كنانة بنِ خُزَيمة: مالكُ بن كنانة[٥]...

---

(١) المحبَّر: ١٨٢.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٢، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٦، وشرح القصائد السبع: ٢٥٧...

(٤) جمهرة أنساب العرب: ١٨٩، وتاج العروس: ١/ ٤٥٧ (نَسَأَ).

(٥) أخبار مكة: ١/ ١٨٢.

ولكن إشارة اليعقوبي إلى اشتراك بني عمرو بن تميم، وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم في هذه الطائفة يجعلُ العهدَ بها في النصف الثاني من القرن الثالث تقريباً. والجديرُ بالذكر أن حنظلة بن مالك كان أيضاً ممَّن اجتمعت لهم إمامةُ الموسم، والقضاءُ بعكاظ من بني تميم، وأن بني عمرو بن تميم إنما هم جُدودُ صُلْصُل بن أَوْس، فإذا نظرنا في قبائل كلبٍ وهُذَيْل وتميم وشيبان، التي تألَّفَتْ من أبنائها وأَحْيائها طائفةُ الذادة المحرِّمين، وجدنا تميماً أكثَرها عدداً، وأوْسَعَها انتشاراً، امتدَّتْ منازلُها في نَجْد والأحسَاءِ واليمامة والعُذَيْب والحيرة وكثير من الحواضر والبوادي[1]، وكانت إذ ذاك قاعدةً من أكبر قواعد العرب[2]، لها إمارةُ البحرين، وإمامةُ مواسم الحج بمكة، والقضاءُ بعكاظٍ، والرِّدَافَةُ بالحيرة[3]. . . ولعلَّ رئاسة الذَّادَة المحرِّمين كانت فيهم أيضاً، وهو ما أنشأَ اللَّبْسَ عند حَفَدَتِهم، فظنوا جُدودَهم أصحابَ تلك الشِّرعَةِ، وإنما هم جُنودها في الحقيقة وربما زعماؤها. . .



ومن المُهمِّ ألاَّ تَخْدَعَنا الصورةُ المظلمة، التي نقلها إلينا كثير من أهل الأخبار والمستشرقين عن عصر الجاهلية، فَنَظُنَّ أن أخباراً، تُحدِّثُ بقيام طائفةٍ من أبناء بعض القبائل على الذَّوْدِ عن الحُرُمات والمظلومين، تعملُ بموجب فتوى أصدرها لهم فقهاؤهم، ولا بُدَّ أن ينظرَ في حوادثها قضاتُهم،

(١) الأعلام: ٢/ ٨٧ ـ ٨٨، ومعجم قبائل العرب: ١/ ١٢٦.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢٠٧.
(٣) الرِّدَافَةُ: أن يجلسَ الرِّدْفُ عن يمين الملك، ويشربَ بعدَهُ وقبل الناس، ويخلفَهُ إذا غاب، ويأخُذَ المِرْباعَ منه إذا غَنِمَ، أي رُبْعَ الغنيمة.

قد تكون تدبيراً ليس وراءَهُ فكرٌ أو نظامٌ مُعيَّن... ومن الطبيعي أن قراءة تلك الأخبار، لا يمكن أن تُجْدِيَ نفعاً، إلا إذا جُمِعَ بعضُها إلى بعض، واستُبْعِدَ منها ما يخالفُ منطقَ التاريخ والعقل، ثم جرتْ مقابلتُها بما توافَر من حوادث الجاهلية، ليتمَّ بعد ذلك استِقراؤُها والاستدلالُ بها على ما عَسَاهُ أن يكون جوهرَها أو حَقِيقتَها... فالفتوى التي يُعْلِنُها قلامِسَةُ العرب، أو فقهاؤهم، في الناس كلَّ عام، بجواز قتل المحلِّين للحُرُمات إذا عَرَضُوا للمُحرِّمين في الأشهُر الحرُم، لا يمكن أن تكون شِرْعةً مُطلَقةً من كلّ قَيْد، وإلا كان معناها أن يظلَّ العربُ جميعاً على سلاحهم، في الشهور والمَواضِع المحرَّمة، كما في سائر الشهور والمواضع، وأن يَقتُلَ أَحدُهم الآخَر، ثم يَدَّعي أنه مُحرِّمٌ، وأنَّ القتيلَ مُحِلٌّ عَرَضَ له بسوءٍ فقتَلَهُ، فتَعْمَدُ قبيلةُ المقتول، وهي تعلمُ أنه لم يكن مُحِلاًّ، إلى الطلب بالثأر أو الدِّيَة، وتعودُ الأمورُ في ظلّ الحرمات إلى أسْوأَ مما كانت عليه في أيام الحِلِّ، وقبل فتوى الفقهاء بإباحة دماءِ المُحِلِّين!... وهذا غير صحيح قطعاً، والفتوى لم تكن مُطْلَقةً من كل قَيْد، ولا شك في أنها لمْ تصدرْ عن الفقهاءِ، إلا والمحِلُّونَ معروفون من الناس، مَشْهُورةٌ غارَاتُهم وغزواتُهم بينهم كافةً، فقد كان معظمُهم من خُلَعاءِ القبائل وأَغْرِبَتِهم وشُذَّاذِهم[1]، يعرفونهم لأن خَلْعَهم من القبائل لا يتمُّ إلا إذا جَرَىٰ شَهْرُهُ وإعْلانُهُ في المواسم العامة والأسواق والمجامع الكبرى، ليكون الناسُ جميعاً علىٰ علم به. وإذا حالفتِ القبيلةُ قبيلةً أخرى، أو رجُلاً منها، ثم

---

(١) أغْرِبَةُ العرب: سُودانُهم، شُبِّهُوا بالأغْرِبَة لشِدَّةِ سوادهم، والمشهور منهم ثلاثة: عنترة بن شداد العبسي، أمُّه زَبيبة وهي سوداء، وخُفَافُ بنُ عُمير السُّلَمي، أمه نُدْبَة وهي سوداء ويقال له خُفَافُ بنُ نُدْبة، والسُّلَيْك بن السُّلَكَة السعدي، أمه سُلَكَة وهي سوداء، وإليها يُنسب، والسُّلَكُ: الحَجَلُ، والسُّلَكَةُ: أُنْثاهُ وبهما سُمّي السُّلَيْكُ. الشُّذَّاذُ: ما تَفرَّقَ من أبناء القبائل، قوم أخلاطٌ ليسوا في قبائلهم ولا منازلهم.

شاءت نقضَ الحلف، فلا بُدَّ أن تُعلن ذلك أيضاً في الأسواق والمواسم العامّة، لأنهم «كانوا يتعاهدون ويتعاقدون على النُّصْرة والإعانة، وأن يُؤخَذَ كلُّ واحدٍ منهم بالآخَر، فإذا أرادوا أن يتبرَّؤوا من إنسانٍ قد حالفوه، أظهروا ذلك للناس، وسَمُّوا ذلك الفِعلَ خَلْعاً، فلا يُؤْخَذُون بعدَها بجنايةِ المخلوع، ولا يُؤخَذُ بجنايتهم»[1].

وعلى سبيل المثَال، ومن أجل جلاء هذا الجانب من الموضوع، نذكر أن «قيسَ بن الحُدَادِيَّة الخُزَاعيّ»[2]، كانَ شاعراً من شعراء الجاهلية «وفاتكاً شجاعاً صعلوكاً خليعاً، خَلَعَتْهُ خُزَاعةُ بسوق عكاظ، وأَشْهَدَتْ على نفسها بخَلعِها إيَّاهُ، فلا تحتملُ جريرةً له، ولا تُطالِبُ بجريرةٍ يَجرُّها أحدٌ عليه»[3]. . . وكان أكثرَ بني خزاعة سَعْياً في خَلْعِهِ بنو قُمَيْر بن حُبْشِيَّة، فجمع لهم قيسٌ شُذَّاذاً من العرب، وأغار بهم عليهم، فغَنِمَ منهم، فلحِقَهُ سيِّدٌ من قومه، وأقْسَمَ عليه أن يَرُدَّ ما غَنِمَهُ، فقال قيس: أمَّا ما كان لي من الغنيمة فقد أبْرَرْتُ قَسَمَكَ فيه، وأمّا ما صار بأيدي هؤلاء الصعاليك فلا حيلةَ لي فيه، ثم ردَّ عليه ما عنده. . . وكان بعد ذلك من خبر مقتله، أنه لقيَ يوماً جَمْعاً من بني مُزَيْنَة أصابوا منه غِرَّةً، فقالوا له: اسْتَأْسِرْ، فقال: وما ينفعُكم مني إذا اسْتَأْسَرتُ وأنا خليعٌ؟ واللَّهِ لو أسَرْتموني ثم طلبتُم بي من قَومي عَنْزاً جَرْباءَ ما أُعْطِيتُموها، فقالوا: اسْتَأْسِرْ لا أُمَّ لك! فقال: نفسي عليَّ أكرمُ من ذلك، وقاتلَهم حتى قُتِل[4].

---

(1) لسان العرب: ٨/ ٧٧.

(2) قيس بن منقذ: من بني خُزاعة، والحُدادِيَّةُ أمه، وهي من بني حُدَاد من قبيلة محارب بن خصفة، من قيس بن عيلان، نُسب إليها بعدما خلعته خزاعةُ منها.

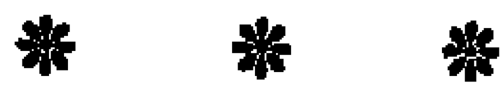
(3) الأغاني: ١٣٧/١٤.

(4) الأغاني: ١٣٨/١٤، ١٥١.

وإذا لم يكن في هذا الخبر ما يُشِيرُ إلى أن الرجل كان مُحِلاًّ أو مُحرِّماً، لكنَّ مُعظمَ المُحِلِّين كانوا غالباً على هذه الشاكلة، من خُلَعاءِ القبائل وفُتَّاكِها، أو من صعاليك العرب وشُذَّاذِهم، يعرفُهم الناسُ، ويتداولون أخبارَهم، ويحذَرُون غَدْرَهم بهم حتى في الأشهُر الحرُم، كالذي ذكرناه من أمر فاتك بني أسد، حنظلة بن عثمان، لمّا نزل على بني سعد بن ضبّة في الشهر الحرام. . . فإن لم يكونوا على هذه الشَّاكِلة، فقد كانت لهم علامةٌ أخرى تُميِّزهم فعُرفوا بها، وعلامتُهم أنهم كانوا يُبْقُون على سلاحهم مرفوعاً بأيديهم، بينما سائرُ العرب تضَعُ السلاحَ في الأشهُر الحرُم، إلا الذَّادةَ المحرِّمين كانوا يحملونه في وجه المحلِّين لدفعهم عن الناس. ولا شك في أنه كان للذَّادَةِ علامةٌ يُعْرفون بها، غيرُ حَمْلِ السلاح في الأشهُر الحُرُم، وتجعلُ الناس مطمئنين إليهم. . . وعلى ذلك كان الذادةُ يتربَّصُون بالمحلِّين لقتالهم وهم يعرفونهم، وإذا قتلوا منهم أحداً، لم يكن عليهم في قَتْلهِ تَبِعَةٌ، فالفتوى بإباحة دمائهم تعني سقوطَ حقّ أوليائهم في الثأر أو الدِّيَةِ، إن لم يكونوا من الخُلَعاء، وكان لهم أَوْلِيَاءُ يطلبون بدمائهم، لأن القتل كان قِصَاصاً لهم على ما اسْتحلُّوهُ من الحُرْمَة، وإنفاذاً لحُكْم الفقهاء فيهم. . . أما إذا كانوا من الخُلعاء، فأولياؤهم أسقطوا عنهم حقوقهم في الثأر والدِّيَة حينما أعلنوا براءتهم من جناياتهم، وخَلْعَهم من قبائلهم.

على أن ما قلتُهُ في أمر الذادَةِ المحرِّمين يجبُ ألاَّ يحملَ أحداً على الاعتقاد بأن جِهادَهُم المحلِّين كان دائماً، أو شامِلاً كلَّ ديار العرب!. . . وفي اعتقادي أنه لم يكن يتجاوَزُ الأشهُرَ المحرَّمَةَ، أو الأسواقَ الكبرى التي تنعقدُ مواسمُها فيها، كأسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، والطرُق المؤدِّية إليها، وربما امتدَّ إلى أسواق حُباشَة وحَجْرٍ ونطَاةٍ. وإذا نظرنا إلى الأقوام التي تألَّفت منها هذه الطائفة، وجدنا أن منازلها كانت تَنتشِرُ في الحجاز ونجْدٍ وبادية الشام، وتصِلُ إلى خليج العرب والحيرة والسَّمَاوَة. . . وهي

المواضِعُ التي كانت تمرُّ بها تجاراتُ اليمن والعراق والشام، وتقومُ فيها أعظمُ الأسواق الموسمية وأوسَعُ مَجامِع العرب، وتمتدُّ فوقها أشَدُّ الرُّبُوع خِصْباً في وسَطِ الجزيرة وشمالها، وأكثَرُها ثرواتٍ، وهي التي شَهِدتْ في الوقت عَيْنِه أكبرَ عددٍ من خُلَعاءِ العرب وصعاليكهم وفُتّاكِهم... وقد حَسِب المُحِلُّون من هؤلاء أن إلقاءَ السلاح في الأشهُر الحرُم فرصةٌ مُواتِيةٌ لهم، يُغِيرون فيها على الناس، ويَسْتَلِبون أموالهم، ولكنَّ الذادةَ المحرِّمين أفْسَدُوا عليهم خُطَطهم، فكانوا لهم بالمِرْصادِ، يكفُّون أذاهم عن الناس، ويُسْهِمون بذلك في إشاعة الأمن والطمأنينة، ورُسُوخِ قاعدة الحرمات في ضمائر العرب.



المطلب الرابع ـ التقاليد الدينية:

وفضلاً على الشهور المحرَّمة، والأمكنة الحَرَام، وطائفةِ الذَّادَةِ عن الحُرُمات، فقد كانت هنالك قاعدةٌ أخرى رئيسةٌ، تُساعِدُ على ضبط الأمن عند العرب في عصر الجاهلية، وتُعَدُّ من صُلْب الحُرماتِ المقدسة، وهي جُملةٌ من التقاليد الدينية، تؤكدُ الْتِزامَ المُحلِّين رعايةَ البيت المحرَّم، واحترامَ كلِّ ما كان يتَّصِلُ به من الأشياء، وتَضَعُ عنهم بالتالي كثيراً ممّا عُزِيَ إليهم، من الغُلُوِّ في قطع الطرُق، وتعكير الأمن، ونشر الفوضى والرعْب، من غير مُراعاةٍ لأيّة حُرمةٍ.

ومن ذلك ما نقله المرزوقي عن ابن الكلبي، بقوله: «كان الرجُلُ إذا خرج من بيته حاجّاً، أو داجّاً[1]... أَهْدَىٰ وأَحْرَمَ، ثم قَلَّدَ وأَشْعَرَ، فيكون ذلك أَمَاناً له في المُحِلِّين...

---

(١) الدَّاجُّ: الذين يخرجون مع الحاجّ للتجارة، أو الذين يكونون معهم من الأُجراء والمكارين والأعوان.

«وكان الداجُّ إذا انفرد، وخَشِيَ على نَفْسِه، ولم يَجِدْ هَدْياً، قلَّدَ نفسهُ بقِلادَةٍ من شَعْر، أو وَبَرٍ، وأَشْعَرَ نفسَهُ بصُوفةٍ فيأمن بها[1]. . .

«وإذا صدر عن مكة، تَقلَّدَ من لِحَاءِ شجر الحرَم[2]. . .

«وكان الداجُّ وغيرُهُ إذا أَمَّ البيت، وليس له عِلمٌ بذلك، ولا هو في سِيَماءِ[3] المُحْرِم، أخَذَ المحِلُّونَ ما معه. . .»[4].

والمعنى في ذلك أن الحاجَّ والتجَّار في الشهر الحرام إذا شاؤوا الأمانَ في المُحِلِّين، فَعَلَيْهم أن يَسْتَوفُوا هذه العلامات:

ـ أن يُحْرِموا بالحجِّ، أي أن يكونوا في سِيمَاءِ المُحْرِمين.

ـ أن يَسُوقُوا معهم الهَدْيَ، وهو ما يُهْدَى من النَّعَم إلى الحرَم، ليُذْبَح قُرباناً إلى الله.

ـ أن يجعلوا في أعناق النَّعَم قَلائِدَ من جِلْدٍ ونَحْوِه، أو أن يُشْعِروها بشعارٍ أو علامةٍ، كأنْ يَحزُّوا سَنامَ الناقة حتى يظهرَ منه الدمُ، فيُعرف أنها هَدْيٌ إلى الكعبة.

فإن كان الرجلُ ممَّن يخرجون في رَكْب الحاجِّ، من الأعْوان والخَدم والمُكَارِين، ثم وجد نفسَه منفرداً، وخشيَ عليها العُدوان، ولم يكن يملكُ هَدْياً، فحَسْبُهُ أن يجعلَ في عنقه قلادةً من شَعْر أو وَبَرٍ، أو يُعْلِمَ نفسَه بصُوفَةٍ تكون له أماناً في المحلِّين.

---

(١) الشعَر: ما ينبتُ من مَسَامّ البدن، ليس بصوف ولا وبَر، فالصوفُ للغَنَم والوَبَرُ للإبل.

(٢) اللِحَاءُ: قِشْرُ الشجر.

(٣) السِّيمَاءُ: العلامة.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٦ ـ ١٦٧.

وإذا رجع من مكة، أَخَذَ معه قِشْرةً من شجر الحرم، وجعَلها في عُنُقِهِ كالقِلادَةِ، يُعرف بها أنه قادم من أرض الحرم، فيكون ذلك أيضاً أماناً له، ولا يَهِيجُهُ أحدٌ[١]. . . أمّا إذا كان جاهلاً بتلك التقاليد، ولم يكن في سِيمَاءِ المُحْرِم، فربما عَرَضَ له بعضُ المُحِلِّين في الأشهر الحرُم، وأخذوا ما معه. . .

ولا أظنُّ هذا يقعُ إلا على قِلَّةٍ ونُدْرَةٍ، إذ لا يمكن لامْرِئٍ، مهما كان جاهلاً، أن يُقْدِمَ منفرداً على عبور الصحراء، من غير أن يُلمَّ بما قد يُباغِتُهُ، أو يَلْقاهُ فيها من المصاعب، ليُعِدَّ العُدَّةَ اللازمةَ لمواجهتها، ويَتخِذَ الاحْترازَ الضروريَّ منها. وهو ما يجعلنا نذهبُ إلى أن أمر المُحِلِّين أمرٌ مُبالَغٌ فيه كثيراً، وأنه لم يكن بالخَطَرِ الذي يضطرب معه أَمْنُ المجتمعاتِ المستقرة، وطُرُقِ القوافل، والأسواقِ الموسمية. ولذلك نجدُ الجاحظ أقربَ إلى العقل بقوله: «وكانت سِيماءُ أهلِ الحرَم، إذا خرجوا من الحرَم إلى الحِلّ، في غير الأشهُر الحرُم، أن يَتقلَّدوا القَلائدَ، ويُعلِّقُوا عليهم العلائق[٢]. . . وإذا أَوْذَمَ أَحَدُهم الحجَّ[٣]، تَزَيَّا بزيِّ الحاجِّ، وإذا ساقَ بَدَنَةً[٤]، أَشْعَرَها. . .»[٥]. فقد جعل ثيابَ الإحْرامِ، وإشْعَارَ الناقةِ بعلامة الإحْرام، عادةً مُسْتحكِمةً من غير النظر فيما وراءها من الأسباب. . . بينما جعل القَلائِدَ والتَّعاوِيذَ علامَةَ الحُرْمَةِ، يُعَلِّقُها الحُجّاجُ والتجارُ وغيرُهم في أعناقهم، أو على ثيابهم، إذا

(١) لسان العرب: ١٥/٣٥٨ ـ ٣٥٩ (هَدى)، و ٤/٤١٣ ـ ٤١٤ (شعر)، ٢/٢٢٧ (حجّ)، و ٢/٢٦٣ (دجّ).

(٢) العلائق: التَّعاوِيذُ والتمائم وأشباهها.

(٣) أَوْذَمَ الحجَّ: أَوْجَبَه على نفسه.

(٤) البَدَنَةُ: ج بُدْنٍ، وهي الناقةُ أو البقرةُ المُسَمَّنَةُ، تُساق قُرباناً إلى الحَرَم.

(٥) البيان والتبيين: ٣/ ٦٥ ـ ٦٦.

انْقَضَتِ الأشهُرُ الحرُمُ، وأرادوا الخروجَ من أرض الحرَم إلى منازلهم، فتَعْصمهم التقاليدُ المتَّصِلَةُ بأرض الحرَم، إن فاتَتْهم عصمةُ الشهر الحرام. . . وهذه إشارةٌ جيدةٌ من الجاحظ إلى أن القَلائِدَ والتعاويذَ لم تكن تُتَّخَذُ إلا في شهور الحِلّ، ففي حُرمةِ الشهور الحرُم غَنَاءٌ عنها، وأن تعظيم الحرَم وما اتصل به من الأشياء، كان عميقاً في كل النفوس. . . وهو ما تؤكدهُ روايةٌ نقلها ابنُ منظور تقول: إنهم «كانوا يُقلِّدُونَ الإبِلَ بلِحَاءِ شَجَرِ الحرَم، ويعتصمون بذلك من أعدائهم. . .»[1]، ويضمنون ألاّ يُغِيرَ عليهم أَحَدٌ، في شهور الحِلّ كما في شهور الحرام، وهذا هو معْنَى النصّ. ومِثْلُه في تقاليد التحريم، عادتُهم إذا لقيَ الرجلُ منهم، في الشهر الحرام، أحداً يخافُهُ على نفسه، أن يقول له: حِجْراً مَحْجُوراً. . . فيكفُّ عنه، أي حرامٌ مُحرَّمٌ عليك في هذا الشهر[2]، وهو ما ذكرتُه سابقاً عند بدء كلامي على قاعدة الحرمات.

وصفوةُ القول فيما قدَّمتُهُ، أن التقاليد الدينية كانت قاعدةً رئيسةً من قواعد الأمن في الجاهلية، يأمَنُ بها مَن كان خائفاً على نفسه أو ماله، ولم يكن له أحدٌ يحميه، ولكنَّ خير ما فيها هو الالتزامُ الشديدُ بها، سواء من المُحِلِّين أو من الآخَرين، في شهور الحِلّ كما في الشهور الحُرُم، وأنها في جوهرها تُقلِّل من الخَطَرِ المزعوم للمُحِلِّين، ومن المقدار الكبير الذي حُمِل عليهم في أعمال القتلِ والبغي والعدوان.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٣/ ٣٦٧ (قلد).

(٢) المرجع نفسه: ٤/ ١٦٧ (حجر)، وإصلاح المنطق لابن السِكّيت: ١٧ و ١٨.

الفصل الثاني

الأحلاف والمواثيق

وهي، بعدَ الحُرُمات، قاعدةٌ رئيسَةٌ أخرى من قواعد الأمن في الجاهلية... وأصلُ **الحِلْف**: المُعاهَدةُ والمُعاقَدةُ على التَّعاضُدِ والتسَاعُدِ والاتفاق، وإنما سُمّيَ بذلك لأنه لا يُعقَدُ إلا بالحَلْفِ، وهو اليمينُ أو القَسَمُ، ذلك أن المتَحالِفين يُقْسِمونَ بالأَيْمان أن يكون أمرُهم بالوفاء واحداً... **والعَهْدُ**: المِيثاقُ، واليمينُ التي يُسْتوثَقُ بها ممن يُعاهِد، وهو الذِمَّةُ، والأمانُ، وكلُّ ما بين الناس من المواثيق فهو عَهْدٌ... **والميثاقُ**: العهدُ المُحْكَمُ المؤكَّدُ بالحَلْفِ أو اليمين. **والعَقْدُ**: توْكيدُ العهدِ والميثاقِ، بالعَزْم والنيَّةِ والحلفِ على الوفاء، وهو أوْكَدُ العهود... **والحَبْلُ**: الرِبَاطُ، وهو أيضاً العهدُ والميثاقُ والذِمَّةُ والأَمَانُ والجِوارُ، **والجَارُ**: الحليفُ والناصِرُ والخفيرُ، **والخِفَارةُ**: الأمانُ والذِمَّةُ، وخَفِيرُ القوم مُجِيرُهم الذي يكونون في ضَمانِهِ وجِواره ما داموا في دياره، يُؤَمِّنُهم ويمنعُهم لأنهم في عَهدِهِ وذِمَّتِهِ وحِلْفِهِ[1]...

وإذا نظرنا في هذه المعاني وجدنا أن بعضها مُتَّصلٌ بالآخَر، ومُؤَدِّ

---

(1) لسان العرب: ٣/ ٢٩٧ (عقد)، و ٣/ ٣١١ ـ ٣١٢ (عهد)، و ٤/ ١٥٣ (جور)، و ٤/ ٢٥٣ (خفر)، و ٩/ ٥٣ ـ ٥٥ (حلف)، و ١٠/ ٣٧١ (وثق)، و ١١/ ١٣٥ (حبل)، و ١٣/ ٤٦٣ (يمن)...

إليه، وكأنّ مضمونَها جميعاً واحدٌ، تَوخّى العربُ من تَعدُّدِها تَعدُّدَ الوسائلِ التي تُوفِّرُ أكبرَ قَدْرٍ مُمكنٍ، من الأمان والطمأنينة، في مجتمعاتٍ كان من الطبيعي أن يكثر فيها تنازُعُ القبائل على أسباب الحياة، ما دامت الطبيعةُ بخيلةً، والأرضُ مُجْدِبةً في كثير من أوقات السنة. وجعلوا لها فوق ذلك، بالأيْمانِ، حُرْمةً كحُرمة الشعائر الدينية، وقداسةً كقداسَتِها، كيلا يجرؤَ أحدٌ على نَقْضها، فالحِنْثُ في اليمين يُعَدُّ إثماً وذنباً عظيماً عند العرب[١]، يُعَابُ به الحانِثُ، ويُعَيَّرُ بالغَدْر والخيانة، ويُفضَحُ فِعلُه في مواسم الحجِّ والأسواق والمجامع العامّة، فيحتقره الناس. . . وزادوا على توكيد الأحلاف والمواثيق بالأيْمان، تَوْكيدَها برسُومٍ وتقاليدَ دينيةٍ خاصّة، تُعقَدُ في ظلّها، فتُشدِّدُ من مَهابتها وإجْلالها. . . من ذلك «التماسُحُ بالأكُفِّ، والتحالفُ على النار، وأخْذُ العهدِ المؤكَّد، واليمين الغَمُوس»[٢]. فكانوا مثلاً إذا أرادوا عَقْدَ حِلْفٍ، أوْقَدوا ناراً، وعقدوا الحلفَ عندها، وذكروا خيرها ومنافِعَها، ودَعَوْا بالحِرمان منها على من ينقضُ العهدَ، ويُحلُّ العقدَ! إذ كانوا يعتقدون أن منفعة النار خاصّةٌ بالإنسان دون غيره[٣]. . . وكانوا أحياناً يطرحون في النار مِلْحاً يفقعُ، يُهوِّلون بذلك تأكيداً للحِلْف، ويُسَمُّونها نارَ المُهَوِّل وهو المُحلِّفُ[٤]. وكانوا يُعظمون أمرَ الملح والنار والرماد، ويحلفون بها، ومن معاني الملح عندهم: الحُرْمةُ والذِمَامُ، فإذا قالوا: بيننا ملحٌ أو مِلْحةٌ أرادوا الحرمةَ والجوار[٥]. وكانوا يُحضِرون كذلك، في جَفْـنَةٍ، طِيباً أو دماً أو

(١) لسان العرب: ٢/ ١٣٨ (حنث).
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٦، وصبح الأعشى: ١/ ٤٦٦.
(٣) نهاية الأرب: ٤٦٢.
(٤) لسان العرب: ٥/ ٢٤٣ (نور) و ١١/ ٧١٣ (هول).
(٥) المرجع نفسه: ٢/ ٦٠١ و ٦٠٥ (ملح).

رماداً، فيُدْخِلون فيه أيْديهم عند التحالف، ليتمَّ عقدُهم عليه باشتراكهم في شيءٍ واحد[1]. وأرى أن هذه هي اليمينُ الغَمُوسُ، بمعنى الشديدة المؤكَّدَةِ أو المغلَّظة... وفوق ذلك كله «كانوا يَدْعُونَ في الجاهلية من يكتبُ لهم ذِكْرَ الحِلْفِ والهُدنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان...»[2]، فيكون الكتابُ توكيداً وتعظيماً وإعلاناً للحِلْف، كما يُضْفي عليه عَقدُهُ، أو حِفظُه في الأماكن المقدسة، ولا سيما في الكعبة، صفةَ القداسة والإلْزام الدينيّ. وقد نقل جواد علي عن هيرودُتُس المؤرِّخ اليونانيّ (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق. م)، أنه وجَد «العربَ يحافظون على العهود والمواثيق محافظةً شديدةً، لا يُشاركهم في مثلها أحدٌ من الأُمم، لأن لها قداسةً عندهم كأنها من الأمور الدينية...»[3].

وكانت الأحلافُ بين قبائل العرب كثيرةً، حتى أوْشَكت في بعض صُوَرها أن تقوم مقامَ كثير من مؤسَّسات الدولة في الأُمم الأُخرى، وكانت لها أسماءٌ اشتُهرت بها، منها: «حلفُ الفُضول» الذي أقرَّ الأمنَ في مكة، وأنصفَ الفقراء والمظلومين[4]، وحلفُ «الأحابيش» الذي ألَّفَ بين جماعات من قبائل مختلفةٍ[5]، وجعل منهم فريقاً واحداً مُتماسكاً في وجْهِ القبائل الكبرى، وحلفُ بني أسد بن خزيمة وطيّيء[6]، وحلفُ «ذي المجاز» الذي أصلح فيه ملكُ الحيرة عمرو بنُ هند بين بني تغلب وبكر بن وائل، وأخذ عليهم العُهودَ والمواثيقَ والرُّهُنَ، ضماناً لوفائهم به... وإليه أشار

(١) لسان العرب: ٦/ ١٥٧ (غمس).
(٢) الحيوان: ١/ ٣١٤.
(٣) المفصَّل: ٤/ ٣٧٩.
(٤) لسان العرب: ١١/ ٥٢٧ (فضل)، والطبقات الكبرى: ١/ ١٢٨.
(٥) المعارف: ٦١٦.
(٦) لسان العرب: ٩/ ٥٥ (حلق).

الحارثُ بنُ حِلِّزَة[1]، وهو من بكر بن وائل، يُذكِّرُ به بني تغلبٍ في قوله:

واذْكُروا حِلْفَ ذي المجازِ وما قُـدِّمَ فيـه العُهـودُ والكُفَـلاءُ
حَـذَرَ الخَـوْنِ والتعـدِّي، وهـل يَنقضُ ما في المَهارِقِ الأَهْواءُ

وذو المجاز موضعٌ مقدَّسٌ قربَ عَرَفَة، كان من مواسم الحجِّ في الجاهلية، تُقام به سوقٌ ثمانية أيام[2]، والمَهَارِقُ المواثيقُ والعهودُ المكتوبة، ولا يُقال للكتُب مَهارِقُ إلا إذا كانت كُتُبَ دَيْنٍ، أو كُتُبَ عهودٍ ومواثيقَ وأمَانٍ[3]... وبذلك يتَّضِحُ أن الحلف عُقِدَ وكُتِبَ في مكانٍ أو موسمٍ مُقدَّسٍ، فهو أشدُّ وأقوى من أن تنقضَهُ الأهواءُ... وفي أخبار الجاهلية أيضاً حديثٌ عن حلفٍ كان بين بعض ملوك اليمن وقبائل ربيعة بن نزار، جرى عقدُهُ وتدوينُهُ في شهر رجَبٍ المحرَّم[4]... وحلفٍ كان بين خُزاعة وبني هاشم بن عبد مناف، كُتِبَ وعُلِّق في جوف الكعبة[5]، توكيداً، وتثبيتاً له.

وهنالك إشاراتٌ كثيرةٌ، إلى أحلافٍ كانت بين بعض قبائل العرب، أو بين قبيلة وأُخرى، أو بين بعضها وملوك العرب، أو دُوَلِ الأعاجم... ومعظمُها أحلافٌ كانت تُعقَدُ بالدوافع نفسِها، التي تدفعُ الدولَ عادةً إلى التحالف، ومنها رعايةُ المصالح السياسية والاقتصادية للقبائل، كالذي ذُكر عن حلف «التَّنُوخ» بين قبائلَ من العرب نزلتِ الخليجَ العربيَّ، ثم أقامت

---

(١) الحارث بن حِلِّزة اليَشْكريّ: من فحول شعراء الجاهلية، أصحاب المعلَّقات. توفي نحو سنة (٥٧٠ م)، وزعم الأصمعي أنه عُمِّر مئةً وخمساً وثلاثين سنة.

(٢) شرح القصائد السبع: ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٣) الحيوان: ١/ ٣١٥.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٣٨٣.

(٥) مصادر الشعر الجاهلي: ٦٦.

دولةً بالحيرة[١]. . . أو كأحلاف قريش مع بعض القبائل، وما قيل عن تحالفها مع مناذرة الحيرة، وغساسنة الشام، وملوك حِمْيَر، والحبشة[٢]. . . ولعلَّ ابرزَ تلك الأحلافِ وخيرَها ما كان منها للحِفَاظِ على الأمن، والدفاع عن الحقوق والمصالح المشتركة، وإنصاف المظلومين. . . إذ يكون فيها بين قبائل الحلف سلامٌ، يُمكِّنُ لأبناء كلٍّ منها المرورَ بديار الأُخرى، آمِنينَ لا يخافون شيئاً، ويَجُوزُونَ أرضَها بقوافلهم وتجاراتهم، لا يَعرضُ لهم أحدٌ بأذى ولا تُجْبَى منهم أتاوةٌ، إلا ما كان مُتَّفقاً عليه، أو جَرَتْ به العادة. . . كما يُقدَّمُ لهم العونُ والحمايةُ والضيافةُ ما داموا في أرض الحليف، وتظلُّ الحمايةُ واجبةً حتى خارجَ أرضِهِ، فإذا وقع عليهم عدوانٌ وَجَبتْ عليه نَجْدتُهم، فالتعصُّبُ للحِلْفِ واجبٌ كالتعصُّب للقبيلة، وكثيراً ما كان مثلُ هذا الحلفِ يتحوَّلُ إلى نَسَبٍ، ويصبحُ الحُلفاءُ وكأنهم قبيلة واحدة[٣]. . . ولم تكن الحمايةُ والعونُ والرعايةُ واجبةً على المتحالفين أَحَدِهم قِبَلَ الآخَر وحَسْبُ، بل كانت واجبةً أيضاً على أحَدِهم قِبَلَ حُلَفاءِ الآخَرِ والمُتَخفِّرين به. فكانت قريشٌ مثلاً إذا خرجت بتجارتها من مكة قاصدةً سوق «دُومَةِ الجَنْدل»، لم تَتخفَّرْ بأحَدٍ من قبائل العرب، لأن طريقها إليها يمرُّ على أَحْياءٍ من مُضَر[٤]، ومنازلَ لحلفائهم. . . وعامَّةُ قبائل مُضَر لم تكن تتعرَّضُ لتجار مُضَر، ومنهم قريشٌ، ولا يُؤْذِيهم حليفٌ لمُضَريٍّ، كان ذلك مُتَّفقاً عليه بينهم. . .

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٢.

(٢) الكامل: ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣، ٣٨٥، والمحبَّر: ١٦٨ ـ ١٦٩، والمعارف: ٦٩.

(٤) مُضَرُ بنُ نزار: بَنوهُ أهلُ الكثرة والغَلَبة في الحجاز ونجد. أعظمُ قبائلهم قيسُ بنُ عَيْلان، وتميمُ بنُ مُرّ، وخُزَاعةُ، وكنانةُ بن خُزَيْمة، وأسَدُ بنُ خزيمة، والمعلوم أن بني قريش هم من قبيلة كنانة بن خُزَيْمة.

وإذا خرجوا من ديار مُضَر، فورَدُوا منازِلَ بني كلب[1]، كانت بنو كلبٍ ترعاهم، ولا تتعرَّضُ لهم بسُوءٍ، لأن لها حِلْفاً مع بني تميم، وتميمٌ من مُضَر. فإذا أخذوا طريقهم على بني طيِّيء، لم تعرِضْ لهم طيِّيءٌ بأذى، بل تُقدِّمَ لهم العونَ، وتَدُلُّهم على ما أرادوا، لأن لها حلفاً مع بني أسد بن خُزيْمة، وأسَدٌ من مُضَر. . . فإذا أخذوا طريق العراق يريدون سوق «الحيرة» مثلاً، تخفَّرُوا ببني عمْرو بن مَرْثَد من قيس بن ثعلبة[2]، فتُجيزُ لهم ذلك قبائلُ ربيعة بن نزار جميعاً[3]. . . ومعنى الخفارة هنا أنهم دخلوا في جِوَارِهم وذِمَّتهم وعهدِهم، فكأنهم عقدوا حلف حماية معهم، يظلُّ قائماً ما داموا في ديار ربيعة.

وعلى هذا النحو كانت الأحلافُ والمواثيقُ المعقودةُ بين العرب، قاعدةً رئيسةً كبرى، أسهمت في إشاعة كثير من الطمأنينة والسلام في نفوس التجار والمسافرين، وأدَّتْ إلى ازدهار التجارة وقيام مواسم الأسواق في مواعيدها، ولا سيما أنهم أضافوا إليها من القداسة والإشْهَارِ، ما جعل أمرَ الخروج عليها صعباً جداً عند المتحالفين[4]. وقد لاحظنا في حرب الفِجَار الثاني، أن زعيم هوازِنَ عُرْوَةَ الرَّحال، حاول إجازةَ قافلة النعمان بن المنذر، على غير العُرفِ المعهود، أو خلافاً للمحالفات المتفق عليها بين القبائل، وعلى كُرْهٍ من بني كنانة، ومن غير أن يُراعي شأنَهم في ديارهم، وكان فريقٌ

---

(١) كلْبُ بن وَبَرة: من قضاعة، من عرب الجنوب، وأشهر قبائلهم: طيِّيء، والأزْدُ، وغسان، ولخم، وجذام، وهمدان، والأوس والخزرج، وخثعم، وعاملة.

(٢) قيس بن ثعلبة: من ربيعة بن نزار، من العدنانية. منازلهم بين اليمامة والبحرين والعراق. منهم بنو عبد القيس، وأسد، وبكر بن وائل، وتغلب بن وائل، وحنيفة بن لُجَيم، وشيبان.

(٣) المحبَّر: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٤) المفصَّل: ٣٨٨/٤.

منهم ما يزال مَوْتُوراً من النعمان، لقتله رجُلاً من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة، فهاجت لذلك حربٌ استمرَّ النزاعُ فيها خمسَ سنين، ثم انتهت بالصلح على أن تعود الأمورُ إلى ما كانت عليه[1].

ومن الممكن أن نَعُدَّ الأحلافَ والمواثيقَ كالقوانين والأعراف، كانت تُحْكِمُ علائق الأمن بين القبائل، وتُنظّم علائقها بالآخرين، ولا سيما المسافرين وقوافل التجار المرتحلين عَبْرَ مناطقها. فقد كانت كلُّ قبيلة تحظرُ دخولَ الغرباء في أرضها، إلا إذا كانوا من قبيلةٍ حليفةٍ، أو كانوا في جِوَارِ أحد أبنائها... أما قوافلُ التجارة فلم يكن لها بُدٌّ من أن تُؤدِّيَ إلى زعماءِ القبيلة ضريبةَ المرورِ بأرضهم، كي تَجُوزها في أمنٍ وسلام بحمايتهم.. وقد ذكرت الأخبارُ أنه كانت للمُلوك في بلاد الفُرس والروم والحبشة والعراق والشام وغيرهم، تجاراتٌ في أسواقِ اليمن وغيرها من أسواق التجارة الكبرى في بلاد العرب، وكانت لهم عهودٌ، وعُقودٌ، وحِبَالُ جِوَارٍ مع كثير من زعماء القبائل، لحماية تجاراتهم وقوافلهم من أن يَعْرِضَ لها أحدٌ بسوءٍ في الطرُق التي تمرُّ عبر مناطقهم، وكانت هذه العُهودُ في حُكم المواثيق والمعاهدات التي تُعْقَدُ بين الدول، وتُنظِّم أصولَ التجارة وحقوق المرور[2]...

وكثيراً ما كان زعماء القبائل يُعِيدُون ما جُعل لهم أجْراً على الحماية، إذا عجزوا عن توفير الأمن المطلوب للقافلة[3]... فقد كانت تلك القوافلُ، بما تنقلُهُ من التجارات والأموال، هَدَفاً مُغْرِياً لقُطَّاع الطرُق واللصوص

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء: ١٤٥.

(٢) المفصَّل: ٥/٦٢٨ ـ ٦٢٩.

(٣) فجر الإسلام: ١٣.

والصعاليك، أو لأبناء قبيلةٍ أخرى مُعادِيَةٍ لأصحاب العُهود من القبائل الأُخرى، ولم تكن المواثيقُ والعقودُ كافيةً دائماً لحماية القوافل من الغارات المُباغِتَة التي قد تقع عليها، فكان قادتُها يحملون معهم الهدايا والألطافَ والرُّشَىٰ، يُقدّمونها إلى من يَعْتَرِضُهم، أو يَزِيدون في الجُعَالاتِ المتَّفق عليها مع زعماء القبائل، لِيَبْذلُوا مَزيداً من الجهد في توفير السلام والأمن للقافلة... ولذلك كانوا يَعدُّون يومَ عودةِ القوافل سالمةً بتجاراتها وأموالها ورجالها إلى ديارها، يومَ عيدٍ وفَرَحٍ عند أهل تلك الديار، وأصحاب الأموال منهم، لما كانوا يُصادِفُونه من مخاطِرِ الغزو والغارات[1].

* * *

(١) المفصّل: ٢/ ٩٠.

الفصل الثالث

الجوار والخفارة

المطلب الأول ـ معنى الجوار:

ثَمَّةَ قاعدةٌ أخرى خطيرةٌ كانت عند عرب الجاهلية كالقانون، أو أشدَّ منه قوَّةً وحُكْماً في توفير الأمن وإشاعة السلام، هي الجِوَارُ أو الخفارة، وكانت تُعَدُّ من مكارم الأخلاق[1]، والعادات النبيلة، وعلامات المروءة، استفاد منها المظلومُون والخائفون، والمسافرون المُنفَرِدون، والغرباءُ المُنقَطِعون[2]، والخُلَعاءُ لا يجدون مَن يُؤْويهم أو يحميهم. . . فالمرءُ من هؤلاء كان يلجَأُ إلى أَحَدِ أشراف العرب وسادتهم، ويطلب منه أن يكون في جِوارِه، أي في ذِمَّتِه، فإذا أعطاهُ عهداً بذلك، وَجَبتْ عليه حمايتُه ونُصْرتُه ممّا يحمي منه نفسَهُ وأهلَه، وإذا قَصَّرَ في ذلك عُدَّ ناقِضاً للعهد والذِمَام، وهو أمرٌ يُعَيَّرُ به فاعلُه بين العرب. . . «وقد اشتُهر بعضُ أشراف العرب بإجارة الخلعاءِ وحمايتهم»[3]، كما كانت العرب «تُمتدح بالذَّبِّ عن الجار، فيقولون: فلانٌ منيعُ الْجار، حامي الذمار»[4].

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٢) المفصَّل: ٤/ ٣٦٤.

(٣) الشعراء الصعاليك: ٩٤.

(٤) العقد الفريد: ١/١٣٥.

فالجوار حِلفٌ، وذِمَّةٌ، وعهدٌ، وأمَانٌ، وخفارةٌ[1]... والذِمَّةُ عهدٌ، وكفالةٌ، وحُرْمَةٌ، وأمَانٌ، وضَمَانٌ... وتَلْزَمُ المَذَمَّةُ كلَّ مُضَيِّعٍ للذِمَّة والذِمَام[2]. وخَفِيرُ القوم مُجيرُهم، الذي يكونون في جِواره وضَمانِهِ ما داموا في بلاده، يدفعُ عنهم، ويحميهم حتى يُبلِغَهم مَأْمَنَهم، ولو كلَّفهُ ذلك حياتَهُ، وحياةَ أبناءِ قبيلته[3]. وكانوا يَعُدُّون الضيفَ النازلَ بهم جاراً، يجِبُ عليهم رعايتُه وحمايتُه وغَوْثُه حتى يُفارِقَهم[4]. وعَدُّوا المرأةَ كذلك جارةَ زوجها، لأنه مؤتَمنٌ عليها، مُلتَزِمٌ بالإحسان إليها، والدفاع عنها ما بَرِحَتْ في حُرْمَتِهِ وحَريمهِ، وكان من عادتهم في التحية أن يقولوا: سلام عليكم، فكأنه علامةُ المُسالَمةِ، وأنه لا حربَ هنالك[5]... وإن قال أحدُهم: أَصْحَبتُ فلاناً، فإنه أراد: أَجَرْتُه وحَفِظتُه ومَنَعْتُه[6]... ولمّا كانت القبيلةُ وحدةً مُتَماسِكةً، لزِمَ أن يتضامَنَ أبناؤها جميعاً في الوفاء بحقوق الجار، وخَفَارتِهِ، ولو أجارهُ واحدٌ منهم لا أكثر، وهو ما ظلَّ مَرْعيّاً في الإسلام، فكان الرجلُ من المسلمين إذا أعطى جيشَ العدوّ أماناً، جاز ذلك على جميع المسلمين، وليس لهم أن ينقضُوا عليه عهدَه، ولا أن يُخْفِروا ذِمَّته[7].

* * *

---

(١) لسان العرب: ٤/ ١٥٤ (جور)، و ٤/ ٢٥٣(خفر)، وتاج العروس: ١١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ (خفر).

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٢٢١ (ذمم).

(٣) العقد الفريد: ٢/ ٧ ـ ٨.

(٤) لسان العرب: ٩/ ٢٠٩ (ضيف).

(٥) المرجع نفسه: ١٢/ ٢٨٩ (سلم).

(٦) المرجع نفسه: ١/ ٥٢٠ (صحب).

(٧) المرجع نفسه: ١٢/ ٢٢١ (ذمم).

المطلب الثاني ـ حقوق الجار:

ولا شك في أن «قانون الجوار» عند العرب كان وَجهاً مُشْرقاً من وُجوهِ الارْتقاءِ النفسيّ، والسُموِّ الخُلُقيّ، وعلامةً مُميّزةً يجبُ التوقّفُ عندها، والتأمُّلُ فيها، لكي نُدركَ مقدارَ ما كانوا عليه من المروءة والشهامة والوفاء، حتى أن بعضَ صُورِ الجِوار في الجاهلية كادت أن تُشبه الضمانَ الاجتماعي في عددٍ من البلدان الأكثرِ ارتقاءً في العصر الحاضر!

من ذلك مَكْرُمَةٌ في بني بَجِيلة[١]، وقد عُدَّتْ من مناقب العرب في الجاهلية، لم ينزلْ بهم ضَيفٌ قط، إلا عَمَدوا إلى مالِهِ فحَسَبُوهُ، ودَفَعُوه إلى رجُلٍ منهم يرضَوْن أمانته، ومانُوهُ بأموالهم ما أقام بين أظْهُرهم[٢]، فإذا أراد السَّفَر، أَدَّوْا إليه مالَهُ، ورحَلُوا معه ليكونَ في خِفَارتهم وجِوارهم، فإن مات في الطريق دفعوا دِيَتَهُ إلى أهله، وإن قُتِل، طلبوا بدمه حتى يثأروا له، وكأنه منهم، وإن سَلِمَ ألْحَقُوهُ بمَأْمَنِهِ وأهله[٣]. . .

ومن ذلك أيضاً أن الأعْشَى امتَدحَ الأسْود العَنَسيَّ[٤]، فأعطاه جائزةً كبيرةً من الحُلَلِ والعَنْبر وغيرها، ولمّا رجع خافَ الطريقَ على ما معه من الأموال، فقَصَد إلى عَلْقَمة بنِ علاَثَة، وهو سيدٌ من زعماء بني جعفر بن كلاب، فقال له: أَجِرْني. . . فقال: قد أجَرْتُك. قال: من الإنْسِ والجِنّ؟.

---

(١) بَجِيلة: حيٌّ كبير من اليمنيّةِ، وهم إخوةُ خَثْعَم. كانت منازلُهم سَرَواتُ اليمن والحجاز إلى تَبالة. تفرعت منهم أربع قبائل كبرى.

(٢) مَانُوُه: احتملوا مُونَتَه وقاموا بكفايته. بين أظهرهم: في وسطهم.

(٣) المحبَّر: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٤) الأَسْوَدُ العَنَسيُّ: عَبْهَلَةُ بن كعب، من مَذْحج. كان رئيساً بطّاشاً من رؤساء اليمن. أسلم ثم ارتدَّ وتنبّأ واستهوى قومَهُ بالأعاجيب، وكان يكره أبناء الفرس.. اتسع سلطانُه حتى غلب على صنعاء ونجران وحضرموت والبحرين وغيرها. قتل سنة (١١ هـ).

قال: نعم! قال: ومن الموت؟.. قال: لا.. فأعاد الأعشى إليه جِوارهُ، وأَحَلَّهُ منه، ومضى إلى عامر بن الطفيل، وهو فارسٌ وسيدٌ من سادات بني جعفر بن كلاب أيضاً، فقال له: أَجِرْني! قال: قد أَجَرْتُك. قال: من الإنْسِ والجنّ؟ قال: نعم. قال: ومن الموت؟ قال: نعم... فقال الأعشى: وكيف تُجِيرني من الموت؟ قال: إذا مِتَّ وأنتَ في جِواري بعثتُ إلى أهلك الدِّيَة من مالي!. فقال الأعشى: الآن علمتُ أنك أَجَرْتَني حقاً... ثم مَدَح عامراً وهجا علقمةَ، فقال علقمة: لو علمتُ الذي أراد كنتُ أعطيتُه إياه[1]...

وكان الرجلُ منهم إذا أجار أحداً، ثم اقْتضَاهُ الوفاءُ بحقوق الجِوار، أن يقتلَ أخاهُ ثأراً لجارِهِ، فَعَل... وقد جاء في أخبار الجاهلية، أن رجُلاً من بني عامر بن كلاب اسْتَجارَ عُمَيْرَ بنَ سُلمى الحنفيَّ، وكانت معه امرأتُه، فجعل قرينٌ، أخو عُمير، يتحدثُ إليها، فبلغ ذلك زوجَها فنَهاها عن الحديث معه، فانتهتْ. فلما رأى قرين ذلك وثَبَ على زوجها فقتله، وعُميرٌ غائبٌ... ثم قَدِم فأَخَذَ أخاهُ يبتغي القصاصَ منه بجاره المقتول، فأتاهُ وجوهُ بني حنيفة فكلَّموهُ في الأمر، فقال: والله لا أَدَعُهُ، أو يعفُوَ عنه جاري! فأتَوا أخا المقتول وزادوا له في الدِّيَة، فأَبَىٰ! فأتتْ عُميراً أمُّهُ، وهي أمُّ قرين، فكلَّمتْه في الأمر، فأَبَىٰ، ثم عَمَدَ إلى أخيه، فأخْرَجَه من الحيّ حتى قَطَع به وادي اليمامة، فربَطهُ إلى نخلة، وقال لأخي المقتول: أمَا إذ أَبَيْتَ أن تعفُوَ، أو تأخذَ الدِّيَةَ، فأمْهِلْني حتى أَقطعَ الوادي راجعاً، ثم اقْتُلْهُ ولا أَرَيَنَّك!... فأمْهَلَهُ، ثم فَعَل[2].

ومما يذكر في هذا السبيل أيضاً، أن يزيدَ بنَ المهلَّب لمّا هرب من

---

(١) الأغاني: ١١٧/٩.

(٢) المحبَّر: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

سجن الحجاج، اسْتَجارَ بسليمان بن عبد الملك، فكتب الحجاجُ في قتله إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فلم يزل سليمانُ يُكلّمه فيه، والوليدُ يقول: لا بدَّ أن تُسْلِمَهُ إليَّ، ففَعل سليمانُ، ووجَّه إبنَهُ أيُّوبَ معه، وقال له: لا تُفارِقْ يدُكَ يَدَهُ، فإن أُريد بسوءٍ، فادْفَعْ عنه حتى تُقْتَلَ دُونَه.

* * *

المطلب الثالث ـ أشكال الجوار

وكانت للجوار في الجاهلية أشكالٌ متعددةٌ، ولكن تأمين الخائفين كان خيرَ وجوهها، وأكثرَها مروءةً ونُبلاً... فكان من عادة أشراف العرب إذا حضروا المجامعَ العامَّةَ، والمواسم الكبرى، أن يُجيروا الخائفين، ويُطعموا الجائعين، مثلما كان يصنعُ عامرُ بنُ الطفيل في سوق عكاظ[1]. وبعضُهم كان يُقيم موضعاً، يجعل منه ملجأً يعوذُ به كلُّ من كان يبحث عن مُجيرٍ يُؤَمِّنُه، أو يُعينه على مكروهٍ أصابه، كقُبَّةِ المعَاذَةِ، وهي قُبَّةٌ من جلد، رَفعها عوفُ بنُ أبي عمرو من بني شيبان، كان لا يدخلها خائفٌ إلا أَمِنَ، ولا جائعٌ إلا شَبِع، وكانت تُعَدُّ من مناقب العرب في الجاهلية[2]... وكان من عاداتهم أن المستجير إذا أتى بيتَ رجُلٍ يطلبُ جِوارهُ فلم يجدْهُ، عَقَدَ طرفَ ثوبه بحبلٍ إلى جانب البيت، فإذا فعل ذلك وجَبَ على صاحب البيت أنْ يُجيرَهُ، وأن يَطلبَ له بظُلَامته[3]. وفي هذه الحال تكون خفرةُ الجار ثلاثة أيام، تنتهي بانتهائها واجباتُ المجير في حماية جاره إلا إذا جَدَّدَ له جواره، وسأله البقاء[4]... وفي أخبار الجاهلية أن الرجل إذا أتى قوماً يستجيرُ بهم،

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٦.
(٢) المحبر: ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٣) الأغاني: ٣/ ٥٧.
(٤) المفصَّل: ٤/ ٣٦٤.

أو يأخذَ منهم عهداً، كانت له عليهم حصانةٌ مُوقَّتة حتى ينظروا في أمره، فهو، ما لم يُجَرْ أو يأخُذِ العهدَ، هَدْيٌ، له حُرْمَةٌ كحُرْمة الهَدْي إلى الكعبة، فإذا أخذ العهد منهم فهو حينئذٍ جارٌ لهم، وفي هذا المعنى قال زهير:

فلم أرَ مَعْشراً أَسَرُوا هَدِيّاً ... ولم أرَ جارَ بيتٍ يُسْتَباءُ[1]

يريدُ أن الهَدِيَّ من الرجال لا يمكن أن يُؤْسَرَ بما لَهُ من الحُرمة، وأن الجارَ لا يمكن أن يُقتَل[2]، وإن كان قاتلاً، لأن قتله محرَّمٌ بأحكام الجِوار. وتسميتهم طالبَ الجوار هَدياً تشير بوضوح إلى القداسة التي كانت للجوار في نفوسهم، ولا سيما أن بعضهم كان يُقْسم على حماية جارِهِ في بيوت الله، وكان القَسَمُ عادةً يتخذُ شكلَ إعلان في المجامع العامة أو الأسواق الموسمية الكبرى، ليَعْلَم به الناسُ جميعاً، وليكونَ المجيرُ مُلْزَماً بالحفاظِ على جارِهِ، فإن قصَّر في شيءٍ من ذلك ازْدَراهُ العربُ واحتقروه[3].

ومن طريف ما يُذكر في هذا القبيل، أن السُّلَيْك بنَ السُّلكةِ أغار يوماً على قومٍ، فأحاطوا به، فلما علم أنه مأخوذٌ لا محالة، قصد إلى أقرب بيوتهم، ودخَل على امرأةٍ منهم واستجار بها، فأجَارتْهُ، وأدْخَلتْهُ تحت ثوبها، واسْتَلَّتْ سيفاً، وقامت دُونه تمنعُه منهم، فأبَوْا إلا أن يأخذوه، فكشفت خِمَارَها عن شَعرها، وصاحتْ تستغيثُ بإخوتها، فجاؤوها ودَفَعُوا القومَ عن جارها، وخَلُّوا عنه حتى بلغ مَأْمَنَهُ ونجا من القتل، ثم مَدَحَها بقصيدة من شعره، ذكر فيها حُسْنَ جِوارِها له[4]. هذا على الرغم من أن

---

(١) يُسْتَبَاءُ: من البَواء أي القَوَد وهو القِصَاصُ أو قتلُ القاتل بدل القتيل.
(٢) لسان العرب: ١٥/ ٣٥٩ (هدي).
(٣) المفصَّل: ٤/ ٣٦٠.
(٤) الأغاني: ٢٠/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

السُّلَيْك كان صعلوكاً صاحبَ غاراتٍ، وَاتِراً لكثير من الأحياء.

* * *

المطلب الرابع ـ الجوار حلفٌ وعهد:

فالجوارُ إذن حِلْفٌ، وكلاهما له حُرْمَةٌ شديدةٌ، وقداسةٌ عند العرب، غير أن الحلف قد يكون اتفاقاً على حربٍ ضد عدوٍّ مُشترك، أو عقداً على عدم التقاتل بين المتحالفين، أو تعهُّداً بنُصْرة الحليفِ حليفَه إن أصابه مكروهٌ أو وقع عليه اعتداء... أمّا الجِوار فهو عهدٌ بالدفاع عن الجار، وحمايته، وضمانٌ بخفَارتِهِ ما دام في ذِمَّة المجير، حتى يُبْلِغَهُ مَأْمَنَهُ، أو يرفعَ عنه الظلمَ، أو تنقضي مدةُ الجِوار، ويلتزمُ المجيرُ بكل ذلك وإن كلَّفَهُ حياتَه وحياةَ أهله وعشيرته، بينما يلتزمُ الجارُ ألاّ يُسِيءَ إلى مَن أجاروه، أو يُسبِّبَ لهم الأذى، فإن فعل شيئاً من ذلك عُدَّ لئيماً، وحقَّ لهم خَلْعُه من جِوارهم، وعليهم إشهارُ هذا الخلع في الأسواق والمجامع العامَّة، كي تَسقُطَ الحقوقُ التي نشأتْ له عليهم بالجوار، ويَسقطَ عنهم التزامُهم تَبِعاتِ أعماله قِبَلَ الآخرين.

وقد أَبْدَعَ صُنْعاً زهيرُ بنُ أبي سلمى في شِعْره، حينما ذكر أن الجِوار عقدٌ من العقود المُلزِمَة للمُجِير يُنْشِيءُ حقوقاً عليه للجار، يمكن التقاضي بشأنها لإثباتها، فقال:

وجارُ البيتِ، والرجُلُ المُنَادي أَمـامَ الحـيِّ، عَقْـدُهُـمـا سَـواءُ
جِـوارٌ شـاهِـدٌ عَـدْلٌ عليكـم وسِيَّـانِ الكفـالـةُ والتَّـلاءُ
فـإن الحـقَّ مَقْطعُـهُ ثـلاثٌ يميـنٌ أو نِفَـارٌ أو جَـلاءُ[1]

---

(١) الشعر والشعراء: ١٤٠.

فجعَلَ الجِوارَ جِوارَيْنِ، الأولُ: جِوارُ المُقِيم، وهو الذي يأتي القومَ يستجيرُ بهم، فيُجيرُونَه، فيُقيم بينهم، وعقدُ هذا الجارِ عقدُ كفالةٍ، ومنه المُكافِلُ والكفيلُ بمعنى المُعَاقِدِ والمُعاهِد والمُجَاوِر[١]. . . والثاني: جِوَارُ المُسَافِرِ العَابِر، وكان من عادة العرب في الجاهلية، إذا أراد أحدُهم سفَراً، وكان يَخْشَىٰ الطريق، «أخَذَ عهداً من سيِّدِ كل قبيلةٍ، فَيأْمَن به ما دام في تلك القبيلة، حتى ينتهيَ إلى الأخرى، فيأخذ مثلَ ذلك أيضاً، يريدُ به الأمَانَ، فهذا حَبْلُ الجِوار»[٢]، وعَقْدُهُ، كما يبدو من شعر زهير، هو عقدُ التِّلاَءِ، والتِّلاَءُ: الضَّمَانُ والجِوارُ والذِّمَّةُ، وهو شيءٌ يَكتُبُ عليه المُتْلي إسْمَهُ، ويُعطيه للرجُلِ المسافِرِ، فإذا صار إلى قبيلةِ المُتْلي، أو حُلَفائِه، أراهم ذلك الشيءَ، وجازَ أرضَهم فلم يُؤْذَ. . . ومن ذلك قولُهم: أَتْلَيْتُهُ سهماً، أي أعطيتُه إيّاهُ لِيَستَجيزَ به، ويأمَنَ على نفسه وماله[٣]. . . وكلا النوعين: الكفالةُ والتِّلاءُ واحدٌ، مُنْشِيءٌ لحقوق الجِوار، لأن عَقْدهما في الأصل سواءٌ، والحقُّ إنما يَثْبُتُ بإحدى ثلاثٍ: يمينٍ، أو محاكمةٍ إلى حاكم يَقْطعُ بالبيِّنات، أو جَلاءٍ بِبُرهانٍ، فَتَتَّضح القضيَّةُ وينجلي الحقُّ[٤].

* * *

المطلب الخامس ـ الجوار والخفارة:

ولا بُدَّ من عودةٍ إلى حديث الخفارة، إذ ذكرنا أنها شكلٌ من أشكال الجِوار، يَضمنُ فيه الخُفَراءُ سلامةَ المتخفِّرينَ بهم، أو حُلَفائهم ومَن كانوا

---

(١) لسان العرب: ١١/ ٥٩٠ (كفل).

(٢) لسان العرب: ١١/ ١٣٥ (حبل).

(٣) المرجع نفسه: ١٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥ (تلا).

(٤) الشعر والشعراء: ١٤٠، والبيان والتبيين: ١/ ٢٠٣.

في ذِمَّتِهم وعَهْدِهم أو جِوارهم، ما داموا في ديارهم، حتى يَجُوزَوا أرضَهم أو يَبلُغُوا مَأمَنَهُم... ومنه قولُ ابن حبيب في سوق المشقَّر بهَجَر: «فكان مَن يَؤُمُّها من التجار يَتَخفَّرون بقريش، لأنها لا تُؤْتَى إلا من بلاد مُضَر»[1]، يريدُ أنهم كانوا يستجيرون بقُريشٍ، إن لم يكونوا من قبائل مُضَر، فإذا مَنَحتْهم حقَّ الجِوار، أمْضَتْ أحياءُ مُضَر وحُلَفاؤها كفالةَ قريشٍ لهم، ولم يُؤْذِهم أحدٌ منها... وبذلك جعل ابنُ حبيب خفارة التجار، المرتحلين إلى سوق المشقَّر، مَكْرُمةً خَصَّتْ بها أحياءُ مُضَرٍ قُريشاً، لأنهم كانوا القَوَّامين على الحرمات بمكة[2]... بينما اكتفى المرزوقي بالقول: «وكان جميعُ من يأتيها لا يَقْدر عليها إلا بخفارة...»[3]، ذلك أن السوق كانت تقومُ بجِوار كلٍّ من: عبد القيس، وهي من قبائل ربيعة بن نزار، وتميمٍ، وهي من قبائل مضر بن نزار[4]، فالطريق لم تكن كلُّها إذن من بلاد مُضَر، بل كانت هنالك أحياءٌ من ربيعة ومن غيرها، ولا بُدَّ من التخفُّر بها، إلا إذا كانت لقريشٍ، أو حلفائها من مُضَر، عقودٌ مع أحياءِ ربيعةٍ، أو مع بعضها، على نَحوِ ما سَبق ذِكرهُ.

ومن ذلك قولُهم أيضاً، إن جميع من كان يختلف إلى سوق الشِّحْرِ من العرب، بتجارةٍ، كان يَتَخفَّرُ ببني محارب[5]، من قبيلة مَهْرَة بن حَيْدان[6].

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٤) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٥) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٦) **مهرة بن حيدان:** قبيلة عربية كبرى من قضاعة، من الجنوب. كانت منازلها في ناحية الشِحْر، بين عُمَان وحضرموت وعدن، والشِحْر في العربية الجنوبية معناه الساحل، فاشتُهر الإقليم كلُّه باسم شِحْر مَهْرَة، وإلى مَهْرَة يرجع كلُّ مهريّ. =

وهذا كان قُبيل ظهور الإسلام على ما ذكر الرواة، أما قبل ذلك، فلعلَّ الخفارةَ كانت في أحْياءٍ أُخرى من مَهرة. والعِلَّةُ في وُجوبِ الخفارة على مَن يَقْدمُ شِحْرَ مَهرة، أن الطريق إليه طويلةٌ وعرة، يقطعُها المسافِرُ في نحوِ شهرٍ، سواء أكان قادماً من عُمَان، أو قادماً من عَدَن. وكانت سوقُ الرابية بحضرموت كذلك، لا يصلُ إليها أحدٌ إلا بخفارة، أي بجِوارِ إحدى قبائلها وكفالتها، لأن طريقها شاقَّةٌ أيضاً، وطويلةٌ، يَسلَخُ المسافرُ إليها من عَدن نحوَ شهرٍ، ومن صنعاءَ نحوَ أَحَدَ عشَرَ يوماً، وكانت أحْيَاءٌ من بني كِنْدَة تَخْفِرُ الناسَ فيها، وتكْفَلُهم حتى تُبْلِغَهم السوق آمنين، وكان ذلك يُعَدُّ مَكْرُمَةً لبني كِنْدة[١]. . . وإذا نظرنا في هذه الحالات، وجدنا أن الخفارة فيها إنما هي عهدٌ من عهود الجِوار، موضوعُهُ كفالةُ التجار أو المسافرين أو العابِرين، وهو مَوْقُوتٌ بمقدارٍ مُحدَّدٍ من الزمن، أي أنَّ له أَجَلاً ينقضي باجْتياز هؤلاء بلادَ الخفير، أو بُلوغِهم مَأْمَنَهم. وحُكمهُ حُكمُ الوفاءِ بالعهد، والحفاظِ على حُرْمةِ الجار، والالتزام بمكارم الأخلاق.

* * *

المطلب السادس ـ الخفارة المأجورة:

غير أن للخِفَارة عند العرب معنىً آخَرَ هو: جُعْلُ الخَفِير[٢]. . . والجُعْلُ هنا، أو الجُعَالةُ: ما يُعْطىٰ للخفير أجراً على خِفَارته. ومن ذلك نتبيَّنُ أن عرب الجاهلية عرفوا شكلاً آخَر من عهود الخفارة يقومُ على حُكم المنفعة، وكان رؤساءُ القبائل أو أشرافُها يلتزمُونَ فيه بحماية قوافل التجارة

---

(١) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥، ومعجم البلدان: ٢/ ٢٧٠.

(٢) لسان العرب: ٤/ ٢٥٣ (خفر).

وخفارتها، في مُقابل جُعْلٍ يُجْعَلُ لهم أجراً على عملهم. وكانوا كثيراً ما يُعِيدونَ الجُعْلَ إلى أصحابه، إذا عجزوا عن توفير الأمن للقافلة[1]. ويُذْكر أنهم كانوا أحياناً، في هذا الشكل من الخفارة، يُصْحِبُونَ القوافِلَ بعضاً من رجَالِهِمُ الأشِدَّاء، يعملون لها عملَ الخُفَراءِ، أي الحُمَاة، ويَدْفَعون عنها ذُؤْبانَ العرب وصَعَاليكَهم، ويُوَفّرون لها سلامةَ الطريق[2]، بما كان لهم من دِرايةٍ بمواطن الخوف والحَذَرِ، وعِلْمٍ بِمسَالكِ النجاة، ومواقع المياه، ولا سيما في مَفَازاتِ الصحراء، وشِعَابِ الجبال وآكامِها، أو في المواضع التي لم تكن تَدِينُ بالطاعة لأحد. فكان في استعمال أبناء القبائل التي تنتشرُ على طرُق التجارة، خُفَراءَ أو أَدِلأّء للقوافل، كثيرٌ من الأمان للتجّار والمسافرين، كما كان فيه منافعُ كبيرةٌ للقبائل، تجعلها حريصةً على توفير الأمن في مناطقها وحيث يمتدُّ سلطانُها.

على أننا لا بدَّ أن نُميِّزَ في «الخفارة المأجورة» بين نوعين من الجُعَالات:

الأوّلُ: جُعالةٌ تُعَدُّ رشوةً أو هديَّةً يُقَدّمها قادةُ القوافل إلى القبائل التي تُجيرُهم عند مرورهم ببلادها.

والآخَرُ: إتاوةٌ، أو ضريبةٌ يفرضها زعماءُ القبائل على قوافل التجارة، إذا ما عَبَرتْ أرضَهم، على نحو ما تفعله الحكوماتُ اليومَ في اسْتيفائها الضرائبَ على تجارة المرور، أو العُبور. غير أن واجبَ سادة القبائل يومئذٍ، كان حمايةَ القافلة، على الحالَيْنِ، ما دامت في أرضهم، وإذا اعتَدىٰ عليها

---

(١) الشعراء الصعاليك: ١٣٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٣٨.

مُعْتَدٍ تَعقَّبُوهُ ليأخذوهُ بذَنْبِهِ، ويُعِيدُوا ما اسْتَلَبه إلى أصحابه[1]، وإلا لحِقَ بهم العارُ بين القبائل.

ويمكن أن يدخلَ في معاني الخفارة المأجورة «الإيلافُ» الذي اشتُهرت به قريشٌ في رحلتيْ الشتاء والصيف، إلى اليمن والشام، فهو إن لم يكن بمعنى أُلْفَةِ الرحلة وتَعوُّدِها، كان بمعنى المُقَارَبَة والمُدَارَاةِ والتأنيس، لا بمعنى العُقود والعُهود والحِبال، التي زعم الإخباريون أن بني عبد مناف أبْرَمُوها مع الملوك والرؤساء... وما هو في الحقيقة بأكثرَ من تألُّفٍ لرؤساءِ القبائل على طُرُق التجارة، بالرُّشَىٰ والهدايا والألْطافِ، أو بإشْراكهم في رؤوسِ أموال القوافل، وإعطائهم نصيباً من الأرباح، أو بمنحهم جُعالةَ مُرورٍ مُعيَّنة، واستئجارِ إبلِهم في نقل المتاجِر، واستعمالِ أبنائهم في حراستها. وبهذا التدبير أَمِنُوا على أنفُسهم وأموالهم، وأَلِفُوا رحلات القوافل، من غير خوف، إلى أيّ مكان شاؤوا. وقد منَّ اللهُ تعالى عليهم إذ يَسَّرَ لهم أُلْفَةَ الرحلة في الشتاء والصيف، وتعوُّدَها، فأمرهم بقوله: ﴿... **فلْيَعْبُدوا ربَّ هذا البيت الَّذي أطعمهم من جُوعٍ وآمَنَهم من خوف**﴾[2]

* * *

فتَوْفيرُ الأمن في طرُق القوافل كان غالباً مصلحةً حيويةً للقبائل، لم يكن لها بدٌّ من الحرص عليه، حِرصَها على سائر مصالحها، ومن شأن ذلك أن يُفْضِيَ إلى الاعتراف بأن معظم الحوادث، التي انتُهِبتْ فيها بعضُ قوافل التجارة في أرض العرب، مَرَدُّهُ إلى امتناع قادة القوافل عن أداءِ ما عليهم من

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٥.

(٢) سورة قريش: الآية ٣ و٤.

إتاوات المرور، أو الرُّشَىٰ، إلىٰ سادة القبائل، أو إلى استعمال وسائل الحِيلَة لحرمانهم من حقوقهم فيها، وربما كان السببُ أحياناً مُغَالاةَ رؤساء القبائل في مَقَادير الإتاوات، أو كان بدافع الثأر والانتقام في حوادثَ شخصيةٍ خاصَّةٍ.

وقد جاء في أخبار الجاهلية، أن بعض قبائل الحيرة كانوا يلتزمون حمايةَ قوافل التجارة الفارسية، لدى عُبُورها بلادَ العرب، ويَتقَاضَوْنَ عليها جُعْلاً كبيراً من الفرس، واتفق يوماً أن اسْتكْثَر الفرسُ ذلك الجُعْلَ، وأَبَوْا أن يُؤَدُّوهُ، فهجم العربُ على قافلتهم، وهَزَمُوا حُمَاتَها، واستولوا عليها[1].. وجاء على هذه الشاكلة أيضاً، حديثُ قافلةٍ أَنْفَذها مرةً كسرى أبرويز، ملك فارس (٥٨٩ ـ ٦٢٨ م)، إلى بلاد اليمن، أو أُنفِذَتْ إليه منها، على خلافٍ بين الرواة في ذلك. وكانت قوافلُه وقتئذٍ تُخْفَرُ من المدائن حتى تصل إلى أرض العرب بالحيرة، فيخفرها مَلِكُ الحيرة بخُفَراءَ من قبائل ربيعةٍ ومُضرَ، حتى تصلَ إلى اليمامة، فتكون بخفارةِ بني حنيفة حتى تخرجَ من أرضهم إلى بلاد بني تميم، فيخفرها هؤلاء حتى يدفعُوها إلى اليمن، وكانت لهم عليها جُعَالةٌ كبيرةٌ، طمِعَ بها سيّدُ بني حنيفة يومئذ «هَوْذَةُ بنُ علي»[2]، فأحبَّ أن يستأثر بها، فاتفق مع قادة القافلة، فجعلوا له كاملَ الجعالة، وحَرموا منها بني تميم، فخفَر القافلةَ بنفسه وسار بها، فلما كان في بلدة «نَطَاع» من بلاد تميم، واثَبَهُ بعضُ أحيائهم، وانقضُّوا على القافلة، فهزموا حُمَاتَها، واسْتَلَبوها، وأَسَرُوا هَوذةَ بنَ عليّ، ثم افتدى نفسَه منهم بثلاث مئة بعير[3]... وفي كلامنا على دَوْرٍ زَعَموهُ للأعاجم في توفير الأمن، سنعود

---

(١) فجر الإسلام: ١٤.

(٢) هَوْذَةُ بنُ عليّ: صاحبُ اليمامة، وشاعرُ بني حنيفة وخطيبُها ورئيسُها، يُلقَّب بذي التاج، من أهل قُرّان من قرى اليمامة. أدرك الإسلام ولم يُسْلم. توفي سنة (٨ هـ).

(٣) الأغاني: ١٧/ ٢٣٧ ـ ٢٤٠.

إلى هذا الخبر الذي جاء عند الإخباريين في صِيَغٍ مختلفةٍ، وروايات أشدَّ اختلافاً. . . أمَّا قافلةُ النعمان بن المنذر ملك الحيرة التي انتُهِبَتْ مَرَّتين في أرض تِهَامَة، فلم يكن انْتِهابُها نتيجةً لاضطراب الأمن في بلاد تِهَامة، أو لِسُوءِ العلائق بين ملوك الحيرة وبني كنانة، ولا كان كذلك غَرَضاً مقصوداً بعَيْنِهِ، وإنما كان تعبيراً عن السخط على الملك النعمان لاسْتبدادِهِ، وتجاوُزِهِ حقوقَ فريقٍ من بني كنانة في أرضهم، قام به «بَلْعَاءُ بنُ قيسٍ الكِنَانيُّ»، إثارةً لِغضَبه وإغاظَتِهِ، بعدما قَتلَ النعمانُ أخاهُ ظُلماً[1]. . . وبَلْعَاءُ يومئذٍ سيِّدُ قومِهِ بني لَيْثِ بن بكر، وفارسُهم، وشاعِرُهم، ومن حَفَدَةِ «يَعمر الشدَّاخ» حَكَم العرب وقاضيهم المشهور أيام قُصيّ بنِ كلاب[2]، وكان أَوْلَىٰ للنعمان مراعاةُ هذا الشأن قبل أن يقتل الرجلَ! فالانتهابُ هنا إذن عملٌ فرديٌّ، ضيِّقُ الحدود، دافِعُه الثأر والانتقام لا أكثر، ولو كان الأمرُ على غير ذلك، لمَا تطوَّع، في السنة التالية، لخِفَارةِ القافلة في أرض تِهامة البرَّاضُ بنُ قيس، وهو كِنَانيٌّ أيضاً من بني ضَمْرة بنِ بكر، ولكن العلائق بين الحيرة وتهامة ظلَّت جيدةً، والطرُقُ بينهما آمِنَةً، بدليل استمرار النعمان في إرسال قوافله إلى سوق عكاظ.

والصَّفْوةُ فيما قدَّمتُه، أن الجِوَار في الجاهلية، على اختلاف وجوهه وأشكاله، كان ركناً قوياً ثابتاً، من أركان الأمن والسلام في مجتمعات العرب، البادية منها والحاضرة. وكان في رعايته لهم حرصٌ شديدٌ على مكارم الأخلاق، مثلما كان فيها حرصٌ على المصالح الحيوية للقبائل، ولا سيما التي كانت تَتَوطَّنُ مراكزَ التجارة ومواقعَ الطرُق.

* * *

(١) المحبَّر: ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ١٨١، ١٨٥، ومعجم قبائل العرب: ٩٩٦.

المطلب السابع ـ المصاهرة:

ثمَّة عنصرٌ رئيسٌ آخَرُ أسْهَمَ في توطيد قواعد الأمن عند العرب في الجاهلية هو: المصاهرة، إذ كان من عادة ملوك العرب ورؤساء القبائل أن يُصْهِروا إلى القبائل القوية الكبرى، اعتزازاً بِمَنَعَتِها وكثْرةِ أفرادها ومَوْقِعِها. ولم تكن تلك القبائلُ تجهلُ هذه المآرِبَ عند الملوك والرؤساء، فكانت تشترطُ تحقيقَ بعضِ المصالح، كأنْ يُطعِمَهم الملوكُ أرضاً، أو يجعلوا لهم جبايةَ طريق، أو أن يُجيرَ رؤساءُ القبائل أبناءَهم وتجّارهم وقوافلهم[1]... ومن ذلك مانقلَهُ الأصفهانيُّ في أخبار حاتم الطائيّ، فذكر أن الحكَم بن أبي العاص، من بني عبد مناف، خرج من مكة ومعه عِطْرٌ يريدُ الحيرةَ، وكان بالحيرة سوقٌ يجتمع فيها العربُ كلَّ سنة، وكان النعمانُ بنُ المنذر قد جعل لبني لأمٍ بن عمرو، من قبيلة طيّيء، رَيْعَ الطريق إلى الحيرة طُعْمةً لهم، وذلك لأن بنت سعد بن حارثة بن لأم كانت عند النعمان، وكانوا أصهارَهُ... فمرَّ الحكَمُ بن أبي العاص بحاتم الطائيّ، فسأله الجِوارَ في أرض طيّيء حتى يصيرَ إلى الحيرة، فأجارَهُ، وسار معه، فلما كانوا في بعض الطريق أتاهم بنو لأمٍ فقالوا لحاتم: من معك؟ قال: هؤلاء جيراني. فقالوا: فأنتَ تُجيرُ علينا في بلادنا؟ فقال: أنا ابنُ عمِّكم فلا تُخْفِرُوا ذِمَّتي[2]!... أي لا تَنْقضُوا عهدي.

ويُفهمُ من النصِّ أن ملك الحيرة أَصْهَرَ إلى بعض بني طيّيء، وجَعل لهم إتاوةَ المرورِ بطريق الحيرة طعمةً لهم، كما نفهم أن جِوَار حاتم الطائيّ، وهو ابنُ عمهم، رفَعَ عن الحَكَم إتَاوةَ المرور، وأَغْضَب بني لأمٍ على ابن

---

(١) المفصَّل: ٣٠٦/٧.
(٢) الأغاني: ٢٨٣/١٧.

عمهم، في قصةٍ طويلة ذكرها صاحبُ الأغاني، ولا محلَّ لتفصيلها في هذا الموضع، وسنُفصِّلها في كلامنا على سوق الحيرة.

وفوق ذلك كان للنسب أهميةٌ كبرى عند العرب، فكان لأوَاصِرِ القُربىٰ أَثَرٌ في التأليف بين القبائل، والمحافظة على السلام والأمن فيما بينها، ويُذكر على سبيل المثال أن العلائق بين قريشٍ وتميم كانت ممتازةً، وما ذاك لأنهم يلتقون عند جَدٍّ واحد هو الياسُ بنُ مُضَر، وحَسْبُ، بل لأن بني تميم كانوا أخْوالَ قريش، إذ كانت «بَرَّةُ بنتُ مُرٍّ» أختُ تميم بنِ مُرّ، زوجةَ خُزيمة بن مُدركة، فلما مات عنها، خَلَفَهُ عليها ابنُهُ كنانةُ بنُ خزيمة فولدت له النَّضْرَ أبا قريشٍ كلِّها. وقد أَصْهَرتْ قريشٌ إلى قبائلَ أخرى كثيرة، منها هوازنُ، والخزرجُ، وهُذَيلٌ، وخُزاعةُ، وعَدْوانُ، وقُضَاعَةُ، والأَزْدُ[1]. . . وكلُّ ذلك كان من شأنه أن يُرسِّخَ قواعد الأمن بين قبائل العرب، وأن يُطمْئِنَ قوافلَ التجار والمسافرين إلى أنها تسيرُ بأمانٍ في مُعْظم الأحيان.

* * *

---

(١) المحبَّر: ٥٠ ـ ٥٢، والمعارف: ٦٧.

الفصل الرابع

حقيقة دور الأعاجم في حماية أسواق العرب

المطلب الأول ـ التفريق بين مواقع بلاد العرب:

لم أجِدْ في المراجع التاريخيّة، أو في الرواياتِ الكثيرة عند أهل الأخبار، ما يُشِيرُ صراحةً إلى حمايةٍ كانت تُوفِّرها جِهَاتٌ أَجْنَبيَّةٌ مُعيَّنةٌ لأسواق العرب الموسميَّة، أو لِطُرق التجارة والقوافل في بلادهم... غير أن الوضوح في هذا الأمر يقتضي التفريقَ بين ثلاث مناطق: جزيرة العرب، وبلاد الشام، وبلاد العراق والجزيرة بين دجلة والفرات.

(١) ـ جزيرة العرب:

المعروفُ عند المؤرخين أن جزيرة العرب ظلَّت قديماً مُتَأَبِّيَةً على الأجانب، بعيدةً من سيطرتهم، بالرغم من كل المحاولات التي قاموا بها، إذ لم يكن أحدٌ من غير أهْلِها يُطِيقُ طبيعتَها، أو يُحْسِنُ معرفةَ مواضِع المياه ومَسَالكِ النَّجَاةِ والأمانِ في فَلَواتها ومَفَازاتِها... وقد كان العربُ يُدركون أن في جزيرتهم، وبأيديهم دون غيرهم، مادَّةَ الحياة لكلِّ تاجرٍ أو مُسَافرٍ يعبرُ أرضَهم، وأن الطرق البريَّةَ التي تمُرُّ خلال ديارهم إنما هي شرايينُ التجارةِ العالميَّة، فأَحْكَمُوا سيطرتَهم على تلك الطرُق، وأَحْسَنُوا استغلالَ منابع المياه في الصحراء، وفَرَضُوا على الفُرْس، مثلما فرضوا على الرومان والبيزنطيِّين،

الشروطَ التي كانت تُوَفِّرُ لهم أكبرَ قدْرٍ من المنافع المادية[1]، أجْراً على خدماتهم التي يُقدِّمونها إلى الأجانب، وفي رأسها حمايةُ قوافلهم التجاريَّة، وضمانُ انتقالها ووصُولِها بسَلامٍ إلى مَأمَنِها، وكلُّ إخْلالٍ بهذه الشروط، كان معناهُ الإغارةَ على القوافل، وانتهابَها. . . ومن الممكن أن نَعُدَّ المواسِمَ العامَّة الكِبَارَ، التي كان العربُ يُقيمونها على طرُق التجارة ومراكزِها الرئيسَة، رحمةً لقوافل التجَّار والمسافرين، تُرِيحُهم من جَفافِ الصحراء، وقِلَّةِ المياه، ونُدْرَةِ الكلأ، وتُتِيحُ لهم فُرَصَ البيع والشراء، وتبادُلِ السِّلَع والعُروض. . . وإذا ذهبنا مذهبَ القائلين بأن العرب لم يخضعوا قَطُّ لأجنبيٍّ، حتى حينما بلغتْ إمبراطوريةُ فارس أقصى اتِّساعها في عهد دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق. م)، أو حينما بلغت إمبراطوريةُ الرومان أقصى تَمدُّدِها في عهد تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م)[2]، فإنه لا بُدَّ لنا من التَّنْويه بالوقائع التالية:

١ ـ خُصُوصيَّةُ العلاقةِ بين بلاد اليمن والحبشة، وهي تَرُدُّ أُصُولَ قسْمٍ من الأحباش إلى قبائل اليمن[3]، وتَرُدُّ أصُولَ اللغة الجعْزِيَّةِ الحبشيَّة إلى اللهجات العربية الجنوبية[4]، وتُفَسِّرُ بالتالي تَمدُّدَ إحداهما أحياناً في أرض الأُخرى. ولكن الأخبار لم تُشِرْ قطُّ إلى أن الأحباش تحكَّمُوا في طرق التجارة والقوافل، وما ذكرهُ بعضُ المؤرخين عن جاليةٍ حبشيَّة كبرى في الحجاز تفسيرٌ غيرُ موفَّق لكلمة الأحابيش، وهم جُملةُ بطونٍ من عدة قبائل عربية[5].

---

(١) المفصَّل: ٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

(٢) تاريخ العرب: ٧٠، ٧٦ ـ ٧٧، والمفصَّل: ١/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣، و ٢/ ٩، والعرب قبل الإسلام: ٢٩٦.

(٣) المفصل: ٣/ ٤٤٩ ـ ٤٥٢.

(٤) دراسات في فقه اللغة: ٥٣ ـ ٥٤، ولغات الشرق الأدنى: ٢/ ١١٢٨ (عالم الفكر).

(٥) المعارف: ٦١٦، وجمهرة أنساب العرب: ١٨٨. . .

٢ ـ اتخاذُ اليونان مراكزَ لهم في بعض جُزرِ البحر الأحمر، وثُغُورِهِ، لحماية مراكبهم من لصوص البحار، وجبايةِ الضرائب من السفُن القادمة إلى ميناء القُلزم بمتاجر بلاد العرب الجنوبية والهند وشرق إفريقية[١]، وهو ما فعله الرومانُ والبيزنطيُّون بعدهم. غير أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على شيءٍ من جزيرة العرب، وظلَّت التجارةُ وطرُقُها في أيدي العرب، من الجنوب حتى النهاية القُصْوىٰ لطريق القوافل في الشمال[٢]. وكان الفشلُ عاقبةَ الحملة الكبرى التي قادها إيليوس غالوس سنة (٢٤ ق. م) من مصر لغزو جزيرة العرب، والسيطرة على طرُق القوافل وغَلاَّت اليمن، فرجع خائباً بعدما فتك العطشُ والمرضُ والحَرُّ بجنوده[٣]...

٣ ـ تحكُّمُ الفُرس غالباً بثَغْر «الأُبُلَّة» في رأس الخليج العربي، وكذلك ببعض الثغورِ والجُزُرِ الأخرى فيه، حينما كانت تتوافَرُ لهم القوةُ البحريَّةُ الكافية، وفيما خلا ذلك، لم يثبت أنهم توغَّلُوا في جزيرة العرب، ولم يكن في وُسْعهم «مهما بلغ جيشُهم من التدريب والتنظيم، تحمُّلُ العطشِ، وحرارةِ البادية»[٤]، وطبيعتِها القاسية، فالعربُ كانوا وقتئذٍ سادةَ البوادي من غير مُنَازِعٍ. وما قيل عن وُجودٍ كان لهم باليمن لم يُمكِّنْهم من السيطرةِ على طُرُق القوافل، أو الأسواق، وظلَّت قوافلُهم التي لا تُؤدِّي إلى زعماء القبائل جُعالةَ المرور بأرضهم، تُنتَهبُ ولو كانت لكسرى الفُرسِ نفسِهِ.

٤ ـ إن وجود جاليةٍ من الفرس في البحرين أو عُمَان، يجبُ ألاَّ

---

(١) المفصل: ٢/ ١٣ ـ ٢٠، ٢/ ٦٥٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٣٤.

(٣) تاريخ العرب: ٧٧، والمفصل: ٢/ ٤٣.

(٤) المفصَّل: ٢/ ٦٤٠.

يَحْملَنا على الاعتقاد بخضوع العرب للفُرس، أو بحكم دولة فارس للعرب، فقد كانت للعرب كذلك قبائلُ كثيرةٌ استوطنت مَيْسانَ وما بين كرمان ومكران من أرض فارس[1]، وكان لها نفوذٌ يتعاظم كلما ضَعُفَ شأنُ ملوك الفُرس. وإن صحَّت الأخبارُ القائلةُ بأن الفُرسَ كانوا يحكمون الساحلَ الغربيَّ للخليج العربيّ من كاظمة إلى عُمَانَ، حينما ظهر الإسلام، فإنها، مع ضَعْفِها وافتقارِها إلى التوثيق، لا يمكن أن تُتَّخَذَ دليلاً على أن الأمر كان كذلك دائماً، فخضوعُ بعضِ العرب زمناً إلى أحَدِ الأكاسِرَة لا يعني خضوعَ كلّ العرب في كلّ الأزمان، إلى جميع الأكاسرة... ولا حاجة بنا إلى التذكير بما قاله اليعقوبيُّ عن ادِّعاء الفُرس لملوكهم كثيراً من العجائب والخوارق، مما تَدفَعُه العقولُ وتأبىٰ قَبُولَه[2]، وهو ما يجعلنا نشكُّ في معظم أخبارهم، ولا سيما تلك التي لم تَرِدْ إلا في مَراجِعهم.

② ـ بلاد الشام:

إذا استَثْنينا باديةَ الشام، فقد تداوَلَ الفرسُ واليونانُ والرومانُ السيطرةَ على سورية، في فترات متعاقبة، تكرَّرَتْ في بعضها وقائع الحروب بين الفرس والرومان، وكان ملوكُ العرب في العراق والشام يشتركون فيها غالباً، بنو لَخْمٍ مع الفُرس، وبنو غسَّانَ مع الروم. واستطاع الفرسُ أكثر من مرة الاستيلاءَ على بلاد الشام، أو على بعضِها، فضلاً عن الجزيرة الفراتية، واحتفظوا بسُلطانهم عليها في أزمنة متفاوتة، آخرُها سنة (٦١٤ م) حينما احتلَّها أبرويز[3]، ثم تمكَّن هِرَقلُ، آخِرُ قياصرة الروم، من إجلائهم عنها سنة

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦١.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ١٥٨، والمفصَّل: ٥/ ٣٣٥.

(٣) احتلَّ دمشق سنة (٦١٤ م)، ثم احتل بيت المقدس سنة (٦١٥ م).

(٦٢٨ م). ولكن آثار الفُرس فيها قليلةٌ جداً، وغامضةٌ، لأن الحضارة السورية كانت وقتئذٍ مُتَفوِّقةً ومُزْدَهرة... وفيما خلا ذلك، كانت سورية عموماً ولايةً رومانية منذ سنة (٦٤ ق. م)، وكانت قبل ذلك في حال من الفوضى والاضطراب، فأفادت من السلام والاستقرار والنظام في العصر الروماني، وصارت تُعَدُّ من أعظم ولايات الإمبراطورية، وأكثَرِها خَطَراً، وكان بها أربعُ فِرَقٍ من الجيوش الرومانية، تُدافع عنها، وتحمي حدودها من مصر حتى الفُرات. وكان السوريُّ إذ ذاك مواطناً رومانياً، له الحقوقُ نفسُها التي كانت للرومان، وكان في الفِرَق العسكرية عددٌ كبير من السوريين، وقد تمكَّن أربعةٌ منهم من الوصول إلى عرش الإمبراطورية وحُكمِها. واهتم الرومان بفتح الطُرُق ورَصْفِها، وبناءِ الجسور، وإقامة المُدن، وتوفير المرافق العامة، وأنشَؤُوا على حدود سورية مع الصحراء سلسلةً من الحصون والمراكز، كان حماتُها وولاتُها من قبائل العرب المُوَالية لهم، وذلك لحماية أماكن الحضَر من غارات البادية، وجباية الضرائب من قوافل التجارة القادمة إلى بلاد الشام، ومراقبة حركة المسافرين...

وكان من آثار ذلك كله أن شَهِدَت التجارةُ في سورية عصراً من الإزدهار لم تَشْهَدْهُ من قبلُ، صارت فيه كلُّ تجارة المتوسط بأيدي التجار السوريين، لا يُنافِسُهم في مهارتهم وخِبْرتهم أحدٌ. وكان حبُّهم للتجارة يدفعُهم إلى ركوب المخاطر، ويَحْمِلُهم على الارتحال إلى مختلف بلدان العالم الروماني والأُوْرُوبّي، ومعهم متاجِرُهم من السلع والعُروض والصناعات التي يُنتجونها، أو يَستوردونها من بلاد العرب الجنوبية وغيرها... وكان مألوفاً أن يكون التجارُ السوريون في مدُن كثيرةٍ مثل روما ونابولي وقرطاجة ومرسيليا وبُورْدُو وغيرها من المراكز التجارية الكبرى.. وقد بلغت المبادلاتُ التجاريةُ مبلغاً عظيماً حينما كانت مُدُن القوافل

كـالبتـراء، وأيْلَـة، وغـزَّة، وبُصـرى، وجَـرَش، وتـدمُـر، ودورا أوروپُـس (الصالحية)، وصيدا، وصور، وغيرها مراكزَ تجاريةَ مُزْدَهرةً تقصدها قوافلُ التجارة، قبل أن تنشط السفُنُ في نقل التجارات بالبحار. وقد أدَّى ازدهارُ التجارة في سورية إلى تقدُّمٍ في الثقافة والعُمران والتَّرف والرفاهِ، ولولا توافُر الأمن في مراكز التجارة، كما في الطرق المُوصِلَةِ إليها، لما تحقَّق كلٌّ ذلك. وسواء أكان ولاةُ الأسواق، وحُمَاةُ الطُّرق والقوافل، من العرب، أو منهم ومن الرومان، فإن الفضل في استقرار الأمور يرجع من غير شك إلى النظام الذي فرضَتْهُ الإدارةُ الرومانيةُ، وأحْسَنَتِ القيام عليه[1].

(٣) ـ بلاد العراق:

إن العرب كانوا في العراق، وغلبوا على الجزيرة بين دجلة والفرات، قبل أن يؤسِّسَ قورشُ الفارسيُّ إمبراطوريته في القرن السادس ق. م، ولمَّا ضمَّهم إلى مُلكه، أطلق على الجزيرة وما اتصل بها من البادية إسمَ: العربية، وظلَّ العراقُ على ما كان. وقد ذكر هِيُرودُتُسُ (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق. م)، وهو مؤرِّخٌ كان مُعاصِراً، أن جميع الشعوب التي أخضعها قورشُ، ثم قمبيزُ بعدهُ، اعترفت بسلطان دارا ابن قمبيز، إلا العربَ، فهؤلاء لم يخضعوا البتَّةَ لسلطان الفُرس، إنما كانوا أحْلافَهُم، وأصدقاءَهم، ولولاهم لما تمكَّن قمبيزُ من الوصول إلى مصر[2]. وكان العربُ حينئذٍ منتشرين في العراق وما بين النهرين وبادية الشام وسورية وفلسطين حتى سيناء والمناطق الشرقية من مصر، بين النيل والبحر الأحمر، وهؤلاء هم الذين أرادهم المؤرِّخُ بكلامه،

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٣٠٨ ـ ٣٠٩، ٣١٨ ـ ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٨ ـ ٣٢٩، ٣٧٤ . . .، العصور القديمة لبرستد: ١٧٢ ـ ١٨٠.

(٢) تاريخ العرب: ٧٠، والمفصَّل: ١/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣.

وذكر أن فريقاً منهم كان يُقدِّمُ جِزْيَةً سَنَوِيَّةً من أنواع الطِيب إلى دارا[1]، ولكنَّ هذه الجزيةَ لم تكن بالمعنى السياسي الذي يدلُّ على خضوع العرب للفرس، فالمؤرِّخُ أثبْتَ قبل قليل أنهم لم يخضعوا لهم، وإنما كانت بالمعنى التجاري، وهو جُعَالةٌ سنويةٌ كان التجارُ عادةً يُؤَدُّونها إلى حكام الأسواق، أو مُلوكِها، كي يُسمحَ لهم بالمتاجرة وتبادُلِ السلع فيها[2]. وبعد سقوط امبراطورية قورش سنة (٣٣١ ق. م)، تواترت الأخبارُ التاريخيةُ على أن وادي الفرات، وأرض الجزيرة في شمال العراق، وما اتصل بها من بادية الشام، كانت كلُّها في حُكم سادة قبائل العرب، وأن هؤلاء كانوا يَعْشُرون التجَّارَ ويَخْفرون القوافل، ويَجْبُون الضرائب، ويَشتغِلُ فريق منهم بالتجارة، أو في نقلها وتقديم الحماية اللازمة لانتقالها بسلام[3]، وظل الحالُ كذلك حتى قيام الامبراطورية الفارسية الثانية سنة (٢٢٦ م)، فكان أكاسرة الفرس وقياصرةُ الرومان والبيزنطيين على السواء، يَرَوْن قتالَ العرب في البوادي، وهم أهلُها وأسيادُها، من الحُمْق وخَطَلِ الرأي، فكانوا يُؤْثِرون الاتفاق معهم، وإرضاءهم بالهدايا والأتاوات، ليُعِينُوهم على ضبط الحدود وحمايتها من غارات الأعراب[4].

وجاء في الأخبار أن العرب، بعدما نكَّل شابورُ ذو الأكتاف بقبائل بكر وتغلب وتميم وعبد القيس وغيرهم، انتهزوا الحرب بين الفرس والروم سنة (٣٦٢ ـ ٣٦٣ م)، فانضمُّوا إلى الرومان في جيش كبير من مختلف القبائل،

---

(١) المفصَّل: ١/ ٦٢٦.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ٦٢٥.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٨.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٦٠٣، ٦٢٧.

وقاتلوا شابور حتى فَضُّوا جموعَه، وقتلوا منهم مقتلةً كبيرةً. . . وهو ما حمله بعدئذٍ على استصلاحهم، فأسكن تلك القبائلَ حيث كانت، في نواحي فارسَ والأَحْوازِ وكرمان، ومُدُنِ البحرين[1]. . . ولمّا يئس من منع غارات الأعراب على ريف العراق والجزيرة وما وراءَه، أَمَرَ بحفر خندق غربَ الفرات[2]، من هِيت إلى كاظمة، رُفع في جانبه الغربي جدارٌ ضخمٌ، بُنيَ بالحجارة، وأُقيمت عليه المسَالحُ والمناظِرُ لمراقبة البادية منها، وكان عليها بعضُ قبائل العرب، وقد أباح لهم شابورُ استغلالَ ما تحتَهم من الأرض، دون أن يُؤَدُّوا ضريبةً عنها، على أن يَحْمُوا مَن وراءَهم من الغزو والغارات[3].

وكان عمرو بن عَدِيّ، جدُّ الملوك من بني لخم، أولَ من اتخذ الحيرةَ قاعدةً لمُلْكه بالعراق، وقد أطْبقتِ الأخبارُ على أنه لم يكن يَدينُ لملوك الطوائف من الفرس ولا يَدينون له، واستمر في المُلْك على هذا النحو مُستقلاً، منفرداً به أكثرَ من خمسين سنةً، حتى قام في إيران أردشير بن بابك[4]، فبدأ عهدٌ جديدٌ من العلائق بين الأكاسِرَة ومُلوك العرب في العراق، قام في معظم الأوقات على الاستقلال والتحالف، وكان يكون لدى ملوك الحيرة عادةً خمسُ كتائبَ يُقاتِلُون بها، **الأشَاهِبُ**: وهي من أهل بيت الملك، **والصنائعُ**: وهي ممَّن كان يأتي ملوكَ الحيرة من قبائل العرب مُتطوِّعاً، وكان أكثرهم من بكر بن وائل، **والرهائنُ**: وكان الملوك يأخذونهم من القبائل التي تُؤيِّدهم فيكونون عندهم رهناً بالوفاء، **والدَّوْسَرُ**: وهي كتيبةٌ

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٨ ـ ٥٩، ٦١، والكامل: ١/ ٣٩٤.

(٢) أول من أمر بحفر هذا الخندق، الذي اشتُهر بخندق سابور، ملك بابل نبوخذ نُصَّر (٦٠٥ ـ ٥٦١ ق. م)، وأجرى فيه الماء، فجعله نهراً طوله نحو ستّ مئة ميل.

(٣) المفصَّل: ٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٩٢.

(٤) الكامل: ١/ ٣٤١، والأعلام: ٥/ ٨٢، والمفصَّل: ٣/ ١٨٦.

ثقيلةٌ من الفرسان والشجعان والمغاوير من مختلف القبائل. والوَضائعُ: وقَوامُها قومٌ من الفُرس، كان ملكُ فارس يضَعُهم في الحيرة رَهائنَ، تأميناً للوفاء بالتحالُفِ بين البلدَيْن، فإذا كان رأسُ السنة، أُعِيدوا إلى أهلهم، وأُرسِلَ غيرُهم[1]. . . فكانت هذه الكتيبةُ بإمْرةِ ملوك الحيرة، رمزاً للتعاهد مع ملوك فارس، ولم تكن ترمزُ إلى خضوع العرب للفُرس، أو قيام الفُرس بحماية العرب وأسواقِهم وطُرُقِ التجارة في بلادهم، فالمُحقَّقُ أن عربَ الحيرة كانوا يَتَولَّوْنَ حمايةَ قوافل التجارةِ الفارسية عند مرورها في بلاد العرب، ولم يُعرف أن الفُرس كانوا يقومون بهذا الأمر[2]. وعلى ذلك كانت دولةُ الحيرة تظلُّ مستقلَّةً، تتمتَّعُ بحقوقها كافةً، وتُصِرُّ على بلوغها، ما لم يتملَّكْ على فارسَ ملكٌ قويٌّ طموح[3]، أو طاغيةٌ مثلُ كسرى أبرويز ابن هرمز الرابع (٥٨٩ ـ ٦٢٨ م)، فكانت حينئذٍ تفقدُ شيئاً من استقلالها، لتُتَابِعَه في بعض رغباته، دون التسليم بالحرية والكرامة.

وفي الأخبار، لمَّا هلك أنُو شروانَ، خَلَفَهُ ابنُه هرمزُ الرابع (٥٧٩ ـ ٥٨٩ م)، فعادتِ العربُ في زمنه إلى غَزْوِ بلاد فارس، والاجْتراءِ عليها، ومَلَك بعده إبنُهُ أبرويزُ، فكان آخرَ مَشْهوري الأسرة الساسانية، وكان له نفوذٌ كبير عند العرب، ولا سيما في العراق، وقد بلغت الإمبراطوريةُ في عهده أقصى تَوَسُّعها (٦١١ ـ ٦٢٠ م)، ثم ما لبثتْ حتى أصابها الضعفُ والانحلالُ[4]. . . وكان أبو قابوس النعمانُ بنُ المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م) وفَدَ

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٤١٠، والعقد الفريد: ٥/ ٢٣٤، ولسان العرب: ٤/ ٢٨٥ (دسر).

(٢) فجر الإسلام: ١٤، والمفصَّل: ٧/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٣) العرب في التاريخ: ٤١، وفجر الإسلام: ١٧.

(٤) موسوعة تاريخ العالم: ١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ٢/ ٣.

عليه، وعنده وفودُ الروم والهند والصين، يذكر كلٌّ منهم ما يحبُّ عن بلاده وأُمَّتِه، فافتخر النعمانُ بالعرب، وفضَّلهم على جميع الأمم، لم يَسْتَثْنِ أحداً، فكَرِهَ كسرى منه ذلك، وحَمَلَهُ عليه في نفسه[1]. فلما رجع النعمانُ جمع إليه زعماءَ تميمٍ وبكرٍ وشيبانَ وهوازِنَ وسُلَيْمٍ وزَبِيدٍ وبني مُرَّة، وقال لهم: إنما أنا رجلٌ منكم، وإنما مَلَكْتُ وعَزَزْتُ بمكانكم... وقد سمعتُ من أبرويزَ مقالاتٍ تخوَّفتُ أن يكون لها غَوْرٌ، أو أن يكون أظهرها، لأمرٍ أراد أن يتَّخذَ به العربَ خَوَلاً[2]، كبعض رَعيَّته في تأدِيَتهم الخَراجَ إليه، وكما يفعلُ بملوك الأمم الَّذين حوله! ثم أشار عليهم النعمانُ بالوُفودِ على أبرويز، والحديث إليه، لِيعلمَ أن العرب على غير ما ظنَّ، أو حدَّثَتْهُ به نفسُه[3]. فعمد كِبَارُ زعماء العرب إلى الوفادة على أبرويز، وحدَّثوه بما تحرصُ العربُ عليه، وتفخرُ به من الحرية والكرامة والإباء[4]. واتفق ذلك مع تعمُّدِ النعمان، ومَن كان قِبَلَهُ، التَّهْوينَ في ضَبْط الحدودِ مع الأعراب، والتغافُلَ عن حماية قوافل أبرويز بين العراق واليمن، ثم قَتْلَهُ عَدِيَّ بنَ زَيْد العِبَاديَّ[5]، في السجن، مُتَجاهِلاً طلباً لأبرويز بإطلاقه، وكان عَدِيٌّ يقول للناس إن النعمان صَنِيعَتُه، ولولاهُ ما صار ملكاً[6]... وكان النعمانُ من أشْهَر ملوك العرب، داهيةً، شجاعاً، مَلَكَ العراق إرْثاً عن أبيه المنذر الرابع في عهد هرمز بن أنو شروان

---

(1) العقد الفريد: ٢/ ٤.

(2) الخَوَلُ: ج خَوْليّ، وهم العبيدُ والإماء.

(3) العقد الفريد: ٢/ ٩ ـ ١٠.

(4) المرجع نفسه: ٢/ ١١ ـ ١٩.

(5) عديُّ بنُ زيد: من نصارى الحيرة، من بني تميم. أرسله المنذر الرابع (٥٧٩ ـ ٥٨٣ م)، مع أَخَويْه ليعملوا في ديوان هرمز يترجمون له، ويكتبون بالعربية. قتل في سجن النعمان نحو سنة (٦٠٠ م).

(6) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤، والمعارف: ٦٤٩، والأعلام: ٤/ ٢٢٠.

سنة (٥٨٣ م)، وظل على الحِلف مع دولة فارس[١]، وبلغت الحيرةُ في زمنه مُنتَهىٰ التَّرَفِ والرَّخاء والازدهار. ويبدو أن أبرويز أراد مُقَاربةَ النعمان، بعدما لمسَ أنه مُصِرٌّ على الاستقلال والتفرُّد، فكتب يخطبُ إليه أختَهُ أو ابنتَهُ، وكانت العربُ تأنَفُ من تزويج بناتها إلى الأعاجم، فرفض النعمانُ مُصَاهرتَه[٢].

وكان كلُّ ذلك ممّا أَوْغَرَ صدرَ أبرويز على النعمان، فأرسل من يدعوه إلى لقائه في المدائن، وكأن النعمان أوْجَسَ شرّاً من هذه الدعوة، فاستودع سِلاحَهُ وأموالَه ونساءَهُ بني شيبان، وسارَ إلى لقاء أبرويز، فلما وصل إلى المدائن، غَدَرَ به، وقَتَلهُ بعد أن أَمَّنَهُ، وأرسل يطلبُ من بني شيبانَ ما استودعهم، فأَبَتْ عليهم النخوةُ العربيةُ أن يُذْعِنُوا له بما أراد، فبعث يُخَيِّرُهم بين ثلاثٍ: أن يُسَلِّموا ما بأيديهم ويحكمَ فيهم بما شاء، أو يرتحلوا عن ديارِهم، أو يَأْذَنُوا بحربٍ، فاختاروا الحربَ، وكانت بعد ذلك موقعةُ «ذي قار»، في عِدَّة أيام من القتال الشديد بين جُموع العرب وجيش الفُرس، وانتهت بيوم ذي قار[٣]، نحو سنة (٦٠٥ ـ ٦٠٦ م)، وقد مزَّق العربُ الأعاجمَ شرَّ مُمزَّقٍ، وقتلوا كِبَارَهم، وكسَرُوهم كسْرَةً هائلةً ذهبت بِهَيْبتهم[٤]،

---

(١) العرب قبل الإسلام: ٢٧٩، والأعلام: ٨/ ٤٣.

(٢) المعارف: ٦٥٠.

(٣) ذوقار: منازِلُ بني بكر بن وائل قربَ الكوفة. وقُراقِرُ، وحِنْوُ قُراقر، وحِنْوُ ذي قار، وذاتُ العُجْرُم، والبطحاء، والجُبَابَاتُ. .. كلُّها مواضِعُ حول ذي قار جرى فيها القتالُ بين العرب والفرس.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٠٧ ـ ٢١٠، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢١٥، ٢٢٥، ومعجم البلدان: ١/ ٤٤٦، ٤/ ٣٦، ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ٣١٧ ـ ٣١٨، والمفصَّل ٣/ ٢٦٧، ٢٩٣ ـ ٢٩٧، والمحبر: ٣٦٠.

وبكل ما كانوا يدَّعُونَه من خُضوع العرب لهم، ثم كان لها الأثَرُ الأكبرُ في فتح العرب بلادَ فارسَ كلَّها بالإسلام، والقضاءِ على إمبراطوريتهم بعد معركة القادسية نحو سنة (٦٣٤ م)[١]... وبعد مقتل النعمان، اختلَّت الأمورُ في مملكة الحيرة، مثلما اختلَّت في المناطق المتصلة بها، أو التابعة لها، وعادت العرب إلى الاجْتراء على بلاد الفرس، والتوغُّل في مناطقهم، ولا سيما بعد مقتل أبرويز على يَدَيْ إبنه شيرويه سنة (٦٢٨ م)، واختلال الأمور في فارس[٢].



الخلاصة:

خلاصةُ الكلام، على ما يبدو لنا من العَرض التاريخي السريع للأحوال التي كان العربُ عليها قبل الإسلام، أن مناطق جزيرةِ العرب والباديةِ المتصلة بها بين الشام والعراق، ظلَّت بمنْأىً عن سلطان الأجانب عليها، وبينما «اقتصر حكمُ الحبشة في اليمن على مُدُنٍ رئيسَةٍ، كوَّنتْ منطقةً مُتَّصِلةً، كان الحكمُ خارجَها بيد الأقْـيَال[٣]، الَّذين ركزوا حكمهم بتآزُرهم وتعاوُنهم»[٤]، فإن الفُرس لم يبلغوا فيها أكثرَ من مركز تجاريّ، أو سياسيّ، لم يُجاوِزْ حُدودَ صنعاءَ إلا قليلاً. والأخبارُ القليلةُ التي أشارت إلى وجود حُكمٍ فارسي في البحرين وعُمَان أيام ظهور الإسلام، أخبارٌ ضعيفةٌ، لا يمكن الركونُ إليها لأنها لم تَرِدْ إلا في المراجع الفارسية، ولو أنَّا فَرضْنا صِحَّتَها، فإنها لا تَصلُحُ

---

(١) موسوعة تاريخ العالم: ١/٣٤٩.

(٢) المرجع نفسه: ١/٣٥٠، والمفصَّل: ٤/١٦٤.

(٣) الأقْيَالُ: ج قَيْلٍ، وهو الملكُ من ملوك بني حِمْيَرَ.

(٤) المفصَّل: ٥/٢٤٥.

أن تُتَّخذَ مِعْياراً لما كانت عليه الأمورُ قبل ذلك الزمن، إذ لم يَثْبت خضوعُ العرب للفُرس كما رأينا آنفاً. أما بلادُ الشام، فإذا كانت سيطرةُ الرومان عليها مُحْكَمةً غالباً، فإن سيطرة الفُرس على العراق كانت ضعيفةً، وأَقَلَّ إحْكاماً، ولعلَّها في الجزيرة بين دجلة والفُرات كانت أكثرَ ظُهوراً وقوَّةً منها في العراقِ والباديةِ المتَّصِلةِ به.

وعلى ذلك يَصِحُّ القولُ بأن أسواق الشام كانت تنعقِدُ مواسمُها في حمايةٍ من الإدارة الرومانية، وإن كان أهلُ البلاد يَتولَّوْنَ أمورَها، ولا يَصحُّ القولُ بأن أسواق الحيرة وهَجَر وعُمَان وصنعاء وعَدَن كانت تقومُ بإدارة ثابتةٍ من الفرس، ولا في حمايتهم، لأن قوافلَ ملوك الفُرس أنفسِهم، ما كان ليَتَسنَّىٰ لها أن تجتازَ بلادَ العرب، إلا بحماية أشرافها وزعمائها، وبعد أن تُؤدِّي جُعالةَ المرور لأصحاب الأرض، مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ الرومان وسائرِ أصحاب القوافل.



المطلب الثاني ـ تَفْنِيدُ مذهب القائلين بالحماية الفارسية:

لكنَّ العجيبَ أن معظم الباحثين في أسواق العرب يذهبون إلى أن الفُرس كانوا يُوفِّرون الأمنَ والنظامَ لعددٍ من الأسواق الموسمية في جزيرة العرب، وأن بعضَ ملوكهم كان يتحكَّمُ بإقامتها أو تَعْطيلها كما يشاء، وحُجَّتُهم في هذا المذهب بضعةُ أخبارٍ ضعيفةٍ عن الأحوال التي غَلَبتْ على نواحٍ من بلادالعرب، بعد مَقتل مَلِكِ الحيرة، وقُبَيْل ظهور الإسلام... ويُعَدُّ الأستاذُ سعيد الأفغانيُّ أوضَحَ مثَالٍ على هؤلاء الباحثين، لما أضافه إلى ملوك فارسَ من نُفُوذٍ في بلادِ العرب، وأسواقِهم، وتحكُّمِهم بها، حيث قال:

«إن بعض الأسواق كانت تقعُ إلى سلطان دولةٍ أجنبية، كسُوقِ المشقَّر، الذي تحكَّمَ كسرى بأهله، وتجارته...»[١]، ثم أضاف إلى ذلك قولَه بأن أسواق العرب كانت ثلاثةَ أقسام:

الأولُ: أسواقٌ خاضعةٌ لنُفوذٍ أجنبيٍّ، تُدارُ بنُظُمٍ خاصَّةٍ، وتتضاءَلُ فيها الصبغةُ العربية، كما في أسواق الحيرة، وهَجَر البحرين، وعُمَان، وغيرها من المَواطِن التي تَرِين عليها السيطرةُ الفارسية. وكما في أسواق بُصْرى وأذْرِعَات وغَزَّة وأيلة وغيرِها ممّا يُدار بالإدارة الرومانية. والذي ينظرُ في هذه الأسواق عُمَّالٌ عربٌ، يُعيِّنُهم ولاةُ الفُرس، وولاةُ الرومان، وهؤلاء العُمَّالُ الذين يَتَولَّونَ الأسواق، هم الذين إليهم أعْشَارُ أهلها[٢]...

الثاني: أسواقٌ لا أَثَر للنفوذ الأجنبي عليها، ولا عاشِرَ فيها، لأنها منطقةٌ حُرَّةٌ، مثلُ سوق عكاظ...

الثالث: أسواقٌ ذاتُ صبغةٍ مختلطة بسبب موقعها، كتلك التي كانت على البحر، مثل أسواق عَدَن وصُحَار ودَبَا، فكان يكون فيها تجَّارٌ من العرب والحبشة والهند والصين وفارس، ويتضاءل فيها الطابعُ القوميُّ بمقدار ما يَقْوىٰ شأنُها التجاريُّ[٣]...



ربما كان فيما قاله عن أسواق الشام كثير من الحقيقة، فآثارُ الرومان ما تزالُ ماثِلةً في كثير منها، أمّا ما قاله عن أسواق الحيرة وهَجَر البحرين وعُمان

---

(١) أسواق العرب: ١٩٥.
(٢) المرجع نفسه: ٢١٢.
(٣) المرجع نفسه: ٢١٣.

وعَدَن فينقصُه كثير من الحقيقة، لأن فيه غُلُوّاً كبيراً، فضلاً عن افتقاره إلى الحُجَّة والسَّنَد الصحيح، وهو أقربُ إلى الكتابة الإنشائية منه إلى التحقيق التاريخي! وبينما صنَّفَ عُمَانَ في الأسواق الخاضعةِ للنفوذ الأجنبي، والسيطرةِ الفارسية، عاد فصنَّفَ صُحَارَ ودَبَا، وهما في عُمان، في الأسواق ذاتِ الصبغة المختلطة!... ثم إني لست أرى في الأسواق التي جعلها ذاتَ صبغةٍ مُختلَطةٍ، أيَّةَ علاقةٍ سَبَبِيَّةٍ بين كثرة التجار الأجانب فيها، على تعدُّدِ أجناسهم ومَوَاطِنهم، والنُّفُوذِ الأجنبي الذي اتَّخَذَهُ مِعْياراً في قِسْمةِ الأسواق، ما دامتِ السوقُ عربيَّةً، وتقومُ في أرض مملكةٍ، مَلِكُها عربيٌّ، وأمْرُها مُحْكَمٌ، وتدبيرُها مُنظَّم، كالبحرين واليمن وعُمَان... إن كثرةَ الأجانب في مَوْسم من مواسم العرب، لا يمكن أن تُتَّخَذَ دليلاً على تضاؤل الطابع القومي، وبالتالي على تَعَاظُم النفوذ الأجنبي، وإنما هي في الحقيقة دليلٌ على تمكُّنِ حُكَّام الأسواق وأصحابها العرب، من إحْكام سيطرتهم على الأسواق، وعلى الطرُق المُؤَدِّيَة إليها، وهو ما أغْرَىٰ الأجانبَ بقَصْدِها من مختلف البلدان، فوق ما كان يتوافَرُ فيها عادةً من السِّلَع والعروض والصناعات الثمينة. أمّا إذا كان المؤلِّفُ الكريمُ إنما أراد بكلامه الفترةَ القصيرةَ الغامِضَةَ، التي سبقت ظهورَ الإسلام، فربما كان له بعضُ العُذْر، فهي فترةٌ يستعصي تأريخُها على الباحث إن لم يكن مُحقِّقاً مُتَأنِّياً، يتوسَّلُ الرَّوِيَّةَ، والنزاهةَ، واسْتِقْراءَ حوادث التاريخ بمنطق العقل والعلم، ولا سيما أن غُلاةَ الشعوبيين انتهزُوا شُغْلَ العرب بالفتوح، وبُعْدَ ما بينهم وبين أخبار سَلَفِهم، فنشطوا إلى اخْتراع الأخبار، وتلفيق الوقائع المُزْرِيَة بالعرب في الجاهلية، وتزوير الأسْنَادِ المُثْبِتَة لها.. ولكنْ ما لا عُذْرَ له فيه قطعاً، أن يجعل من خبرٍ ضعيفٍ، غيرِ مُسْنَدٍ إسناداً صحيحاً، أو من حكاية أُجْرِيَت روايتُها مجرى الأساطير، قاعدةً، أو مِعْياراً لما كانت عليه أحوالُ العرب في كل تاريخهم قبل الإسلام!

فقد ذَهب، بعد حديثه عن النفوذ الأجنبي في بعض الأسواق، مذهباً غريباً جعل للفُرس فيه نحوَ نصف جزيرة العرب، يُوَلُّون عليه ويَعْزِلُون، ويتحكمون بأهله وأسواقه كيفما يشاؤون. . . ففي كلامه على سوق المشقَّر قال:

«. . . وفيه كانت وقعةٌ من الوقائع المشهورة في أيام العرب، إذ حاصر كسرى بني تميمٍ فيه، وأغلق عليهم بابَهُ، ثم قتل المُقَاتِلَةَ، وسبَى الذَّرارِيَ، بعد أن امتنعوا فيه مدةً»[1]، وأضاف إلى ذلك أن صاحبَ الأغاني ذَكَر ما يُسْتَدَلُّ منه على أن كسرى كان له النفوذُ على هذه السوق، شأنُه في سوق هَجَر وعُمان، يُقيمها متى شاء، ويُعطِّلُها متى شاء. . . ثم خَتَمَ بقوله: «ولا ريب أن ملوك هذه السوق تَرْضَخُ[2] إلى حكومة فارسَ، ممَّا يَحْصلون عليه، بالنصيب الأَوْفَى»[3]. ثم تحدَّث عن سوقٍ سمَّاها سوق هَجَر، فكرَّر الحكايةَ نفسها، وقال: «أغارت بنو تميم على لطيمةٍ لكسرى، فيها مسكٌ وعنبرٌ وجوهرٌ كثير، فأرسل جيشاً أَوْقَع بهم، فأَخَذَ الأموالَ، وسَبَى الذَّرارِيَ بمدينة هجر، وسُمِّيت تلك الوقعةُ يومَ الصفقة. . . ولعلّ نفوذَ كسرى في هذه السوق كان غير ضئيل»[4]. . . ثم انتقل إلى الكلام بعد ذلك على ما سَمَّاهُ سوقَ عُمَان فقال: «. . . وقد ظلت تحت نفوذ الفرس الفعليّ، وكان ملوكُ فارس هم الذين يُوَلُّون عليها الأمراء، على رواية المرزوقي، وقد تقدَّم أن لهم نفوذاً على هَجَر، وعلى المشقَّر كما سبق، فتكون فارسُ قد بَسَطتْ سلطانَها على سواحل الخليج الفارسي كلّه، وعلى سواحل بحر اليمن، حين

---

(١) أسواق العرب: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) الرَّضْخُ: في الأصل كسرُ الرأس، ومن معانيه العطاء، ورضخ له من ماله أي أعطاه، ولعلَّه عطاءُ الخاضِع المُجبَر لا عطاءَ الحرّ المختار.

(٣) أسواق العرب: ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

(٤) المرجع نفسه: ٢٥١.

أرسلوا الأحرار فطردوا الحبشةَ منها، وبذلك يكون لهم نصفُ سواحل جزيرة العرب. . . »[1].

فانْظُرْ إلى الرجُل كيف جعل خليجَ العرب كلَّه فارسياً، وأعطى الفُرسَ نصفَ سواحل جزيرة العرب، وغفل، أو تغافَل عن وقائع التاريخ، التي أكَّدَتْ، كما رأينا، تمدُّدَ العرب إلى السواحل الشرقية من خليج العرب، وتَوَطُّنَهم هنالك ما بين مَيسانَ (المحمَّرة) ومُكْرانَ، ونفوذَهم فيها الذي طالما أزْعَجَ ملوكَ الفُرس! ولو صحَّ أنهم كانوا يملكون سواحلَ خليج العرب كلَّها، وسواحِلَ بحر اليمن، كما زعم الأفغاني، لكان معنى ذلك أنهم كانوا يسيطرون على طريق القوافل الشرقي كلّه في جزيرة العرب، ولمَا كان بِوُسْعِ أحدٍ أن يتصدَّىٰ لقوافلهم، وينتهبَ أموالَ ملوكهم. . . وإذا كانوا أعْجَزَ من أن يُوَفِّروا الحمايةَ لقافلةِ مَلِكهم، في أرض جماعةٍ صغيرة من قبيلة تميم، فكيف كانوا يُوَفِّرون الحمايةَ لبعض أسواق العرب؟

وقد ذهب الأفغاني أولاً إلى أن العُشُورَ في الأسواق التي زعم أنها خاضعةٌ للفُرس، تظلُّ لملوكها ووُلاتِها من العرب، ولكنه في ختام حديثه عن سوق المشقَّر، بَدا لَهُ، فغيَّر رأيه، وجعل أولئك الملوكَ أو الوُلاةَ يَرْضَخُون بنصيبٍ كبير منها إلى حكومة فارس، ونَقَضَ بذلك ما ذهب إليه آنفاً.

وبالرغم من أن حديث الأسواق عند أهل الأخبار خلا من شيءٍ إسمُهُ سوقُ عُمَان، فإن الأفغاني أوْجَدَها من غير دليل، وصنَّفها في الأسواق التي خضعت للنفوذ الفارسيّ، والإدارة الفارسيّة، ولمَّا تحدَّثَ عن الأسواق ذات الصبغة المختلطة، ذكر فيها سوقيْ صُحَار ودبَا، مع أن دبَا كانت عاصمةَ عُمَان، وصُحَارُ أكبرَ مُدُنِها! فكيف يستوي أن تكون البلادُ كلُّها تحت الإدارة

---

(١) أسواق العرب: ٢٥٤.

الفارسية، وأن تكون عاصمتُها وأكبر مُدُنها تحت نفوذ مشترك؟ وذلك مثلما توهَّم أن في البحرين سوقين: المشقَّر وهَجَر، وإنما هما إسمانِ لسوق واحدة، هي سوقُ المشقَّر التي كانت تنعقد في مدينة هَجَر عاصمة البحرين[1]. وقد دفعه هذا التوهُّم إلى تكرار حكاية يوم الصفقة، مرةً في كلامه على المشقَّر، ومرةً أخرى في كلامه على هَجَر، وهو غلطٌ منه لأن الوقعة التي عُرِفت بيوم الصفقة، هي نفسُها التي سُمِّيتْ بيوم المشقَّر[2]... وهذا كلُّه يدفع إلى الريبة فيما ذهب إليه من أمر الحماية الفارسية، ونفوذِ كسرى فيها، على ما قال، من غير أن يذكر أيَّ كسرى أرادَ بكلامه.



وإذا فتَّشْنا عن دليل استند إليه الأفغاني، ومَنْ ذَهَبَ مذهبَه، في أمر الحماية الأجنبية، لم نجد أكثر من عبارة غيرِ مُحقَّقةٍ وردت في حديث الأسواق عند ابن حبيب والمرزوقي، وحكايةٍ عن يوم المشقَّر جاءت عند أهل الأخبار مضطربةً متناقضة، مع أن مَرْجِعَ أولئك جميعاً يكاد يكون واحداً...

١ ـ حديث الأسواق:

كلُّ ما جاء في حديث الأسواق عند أهل الأخبار عِبَارةٌ عَرَضتْ في الكلام على سوق المُشَقَّر، اتفقوا فيها جميعاً على أن ملوكها كانوا من بني تميم، وهم ملوكُ البحرين[3]، وكانوا يسيرون فيها بِسيرة الملوك في غيرها، يَسْتَوْفُونَ العُشُورَ، أي الضرائبَ، من التجار، ويبيعون متاجِرَهم قبل الناس جميعاً، وانفرد ابنُ حبيب بالقول: «وكانت ملوكُ فارس تَسْتعملُهم عليها كما

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

(٢) العقد الفريد: ٥/ ٢٢٤، ومعجم البلدان: ٣/ ٤١٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، ونهاية الأرب: ٤٦٤، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

تستعملُ بني نَصْرٍ على الحيرة، وبني المُسْتَكبِرِ على عُمَان. . .»[1]، وقد تابعه المرزوقيُّ على هذا القول، فكلاهما نَهَلَ من مورد واحد هو ابنُ الكلبي، غير أنهما أكَّدا أن قبائل عبدِ القيس وتميمٍ كانوا جيرانَها[2]، أي أن موسمَها كان ينعقدُ بحمايتهم وجِوَارِهم، كما أشارا إلى أن جميعَ من كان يأتيها لا يقدِرُ على الوصول إليها إلا بخفارةٍ من بني مُضَر، لأنها لا تُؤْتَى إلا من بلادهم، بينما كان تجّارُ فارس يقطعون البحرَ إليها بِبيَاعاتهم[3].

وهكذا يبدو واضحاً أن سوق المشقَّر بهَجَر لم تكن في حمايةٍ، أو بإدارةٍ فارسية، وأن ملوكها كانوا يستوفُونَ الضرائبَ لأنفُسهم من المتاجرين فيها، ولا يرضَخُون إلى حكومة فارسَ بشيءٍ منها. والمعلوم أن جُلَّ سكان البحرين كانوا من بني عبد القيس وتميم وبكر بن وائل، وأن مَلِكَها لمّا ظهر الإسلامُ كان المنذرَ بنَ ساوَىٰ بن الأخْنَسِ التميمـيّ، وإذا فَرضْنا صِحَّة ما جاء في خبر ابن حبيب والمرزوقي عن تَباعَةِ ملوك البحرين إلى حكومة فارس، فلعلَّ ذلك كان في فترة الضعف التي أعْقَبت انحلالَ دولة العرب بالعراق، ولا يمكن اتخاذُه دليلاً على ما كان قبلَها، فالإجماعُ مُنعقِدٌ عند الأخباريّين على أن ملوك البحرين كانوا من بني عبد الله بن دارم التميميّ[4]، أي منذ مَطَالِع القرن الخامس الميلادي، في الوقت نفسِه الذي جُعِلت لبني رِيَاحِ بنِ يربوع التميمي رِدَافَةُ ملوك الحيرة، والرديفُ هو نائبُ الملك[5]. والردافة كالوزارة، وأرْداف الملوك في الجاهلية بمنزلة

(1) المحبَّر: ٢٦٥.

(2) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣، وانظُرْ معجم البلدان: ١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(3) المحبَّر: ٢٦٥.

(4) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢، والمفصَّل: ٤/ ٢٠٣، ٢١٠، ونهاية الأرب: ٤٦٤، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤، والطبقات الكبرى: ١/ ٢٦٣. . .

(5) المعارف: ٦٥١، وأيام العرب: ٩٤.

الوزراء[1]. وهذا يعني أن ملوكَ البحرين كانوا يتبعون ملوكَ العرب بالعراق، لا ملوكَ فارسَ، فلما قُتِل النعمانُ، ادَّعَىٰ هؤلاء الأمرَ لأنفسهم[2].

٢ ـ حكاية يوم المشقَّر:

وهو يومُ الصَّفْقَةِ، زعم الأخباريون أنه سُمِّيَ بذلك لأن عامل كسرى في هَجَر، وقد جَهلوا إسمَهُ فلقَّبوهُ بالمُكَعْبِر، دعا قوماً من بني تميم، كانوا أغاروا على قافلةٍ لكسرَىٰ، فيها مِسْكٌ وعنبرٌ وفضةٌ وجَوْهَرٌ كثير، وانتهبوها، فأَدْخَلَهُم حِصْنَ المشقَّر، وأَصْفَق البابَ عليهم، أي غَلَّقَهُ، وقتَلهم، وأخَذَ الأموالَ، وسَبَىٰ الذَّرَارِيَ[3]... وقد ذكر هذه الحكاية كثير من المؤرخين وأهل الأخبار[4]، ورجَع فيها بعضُهم إلى روايةٍ وجدها ابنُ الكلبي عند حمَّاد الراوِيَة[5]، والآخَرُون إلى روايةٍ عن أبي

(١) فقه اللغة: ١١.

(٢) ومن قبلُ زَعَمتِ المراجعُ الفارِسية أن «بختَ نصَّر: ٦٠٥ ـ ٥٦١ ق. م»، وهو أعظمُ ملوك الإمبراطورية البابلية الحديثة، كان مُرْزُباناً، أي والِياً أو قائدَ عسكرٍ، من قِبَلِ ملوكهم على العراق وما بين النهرين، مع أن الفُرس لم يَحْتَلُّوا بابلَ إلا في عهد قورش سنة (٥٣٨ ق. م). بعد وفاة بخت نصَّر بنحو ثلاثة وعشرين عاما! فليس عجيباً أن يجعلوا ملوكَ الحيرة، وعُمَان والبحرين عُمَّالاً لملوكهم... أنظُرْ: مروج الذهب: ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، والمعارف: ٦٥٢، وموسوعة تاريخ العالم: ١/ ٥٧، ٩٣.

(٣) الكامل: ١/ ٦٢١، والعقد الفريد: ٥/ ٢٢٤، ومعجم الأمثال: ٢/ ٥٢١، والمفصَّل: ٣/ ٥٢٧...

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧١، والأغاني: ١٧/ ٢٣٧ ـ ٢٤٠، ومعجم البلدان: ٣/ ٤١٣، و ٥/ ٢٩١، والكامل: ١/ ٤٦٨، و ١/ ٦٢١، وآثار البلاد وأخبار العباد: ٧٣، ولسان العرب: ٩/ ٣٣٦ (نطف)...

(٥) حمَّادُ بنُ سابور: أصله من الدَّيْلم، ومولده بالكوفة (٩٥ هـ) من أبٍ كان سَبِيّاً. يُعدُّ حمادُ من أعْلَمِ الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم وأنسابهم ولغاتهم، لكنه متَّهمٌ بالتزيدُّ والنَّحْل. توفي سنة (١٥٥ هـ).

عبيدة[1]، وأُخرى عن المفضَّل[2]... لكنها جميعاً جاءت مُتَبايِنةً، ليس فيها روايةٌ تُطابِق الأُخرى، يُحدِّثُ اضطرابُها وتَناقُضُ أخبارها بما دَخَلها من الوَضْع والتزيُّد، ولا سيما إذا عرفنا أن ابن الكلبي مُتَّهمٌ بالوَضْع والكذب واعتمادِ المراجع الفارسية دون غيرها[3]، وأن أبا عبيدة اشتُهر بكراهته للعرب[4].

ويتَّضِحُ الوضْعُ والتزيُّدُ في هذه الحكاية من التبايُنِ الشديدِ بين وقائعها عند أهل الأخبار كافةً، حتى ليَصْعُبَ على المحقِّق، مهما كان مُتأنِّياً، أن يجزمَ برأيٍ واحدٍ فيها، لكثرة ما أصابها من الاضطراب والتناقض والغُلُوّ، ولا سيما فيمن بعثَ القافلةَ، ومتى بُعِثَتْ، وما كانت تحملُه، ومَن أغار عليها من بني تميم، ومَنْ هو ذلك العاملُ الفارسيُّ على هَجَر، الذي لم يَرِدْ ذِكْرُهُ إلا في هذه الحكاية، من غير اتفاقٍ على إسمه، ومَن هو كسرى صاحبُ القافلة، أنو شروانَ أم حفيده أبرويز...

وعلى الرغم من كل ذلك، يمكنُ أن نَسْتخِلصَ من مختلف الروايات، أن قوافل ملوك فارس كانت تُرسَلُ من المدائن، لِتُباعَ في مواسم العرب،

(١) أبو عبيدة مُعمَّر بنُ المثنى: من أئمة العلم بالأدب واللغة. مَوْلدُه ووفاتُه بالبصرة (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ). كان مَوْلىً لبني تَيم، وأبَواهُ من يهود فارس، فكان شعوبياً يُبغض العربَ، وصنَّفَ في مَثالبهم كُتُباً، فكرِهَهُ الناسُ، ولما مات لم يحضر جنازتَه أحد (بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) المفضَّل بنُ محمد الضبيُّ: راويةٌ مُوَثَّق في روايته، علاَّمةٌ بالشعر والأدب وأيام العرب، من أهل الكوفة. توفي نحو سنة (١٧٨ هـ).

(٣) المفضَّل: ١/ ٧٧، ٨٨ ـ ٨٩، و ٣/ ٣٠٤، ٣٠٦، والأغاني: ١٠/ ٤٠، وتاريخ آداب العرب: ١/ ٩٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

ويُشتَرىٰ لهم بها كلُّ غالٍ ونفيسٍ، ممّا اشتُهِرت به بلادُ العرب من الغَلاّت والمعادن والسِّلَع. . . وأن ملوك الحيرة كانوا يكِلُونَ أمرَ خُفَارتها إلى خُفَراءَ من قبائل ربيعة ومُضَر[1]، وكانت ربيعةُ بين العراق والبحرين واليمامة[2]، ومُضَرُ أهلَ الكثرة والغَلَبةِ في نَجْدٍ والحجاز وتهامة[3]. وكانت تلك القوافلُ تَتَّخِذُ طريقَ التجارة الشرقيَّ تارةً، وهو يمرُّ باليمامة والبحرين، أو الطريقَ الغربيَّ تارةً أخرى، وهو يمرُّ بالحجاز[4]، وتحتاجُ لسلامتها، كغيرها من القوافل، إلى خُفَارةِ زعماءِ القبائل وجِوارِهم، وتخضعُ كذلك إلى أداءِ ضريبة المرور بمناطقهم. فكانت إذا خرجت من صنعاءَ، يخفرها بنو مُراد بن مَذْحِج[5]، ومنازلُهم بين صنعاء ونجران[6]، حتى يدفعوها إلى أرض اليمامة، فيخفرها بنو حنيفة حتى يدفعوها إلى بني تميم[7]، وكانت منازلُهم ممتدةً بين اليمامة والبحرين والعُذَيْب والحيرة[8]، فيخفرونها على طريق البحرين حتى تُدفَعَ إلى الحيرة، وتُجعل لهم على ذلك جُعَالةٌ كغيرهم. . .

وقيل في هذه الواقعة: إن «باذان» بعث من صنعاء إلى «كسرى أبرويز» قافلةً تحملُ مِسْكاً، وعَنْبراً، وجوهراً كثيراً، وسبائكَ فضَّةٍ، وثياباً وطُرَفاً من

---

(١) الأغاني: ١٧/ ٢٣٨.
(٢) الأعلام: ٣/ ١٧.
(٣) معجم قبائل العرب: ١١٠٧.
(٤) المفصَّل: ٣/ ٥٢٧.
(٥) الأغاني: ١٧/ ٢٣٧.
(٦) معجم قبائل العرب: ١٠٦٦.
(٧) الكامل: ١/ ٦٢١، ومعجم البلدان: ٥/ ٢٩٠، والأغاني: ١٧/ ٢٣٨.
(٨) نهاية الأرب: ١٨٨، ٢٨٥، ومعجم قبائل العرب: ١٢٦، ٥١٤ ـ ٥١٥، (غير أن صاحب المعجم أخطأ إذ حَسِبَ أن لتميمٍ ولداً اسمه: سعد، وإنما هو ابنُ زيد مناة بن تميم، ولعله نقل ذلك عن معجم البلدان: ٥/ ٢٩١).

صُنْع اليمن[1]، يَصْحَبُها أسَاوِرَةُ الفُرس[2]، ويَخْفُرها بنو مراد... فلما بَلَغتْ أرضَ بني حنيفة باليمامة، قال هَوْذَةُ بنُ عليّ للأساورة، وهو إذ ذاك صاحبُ اليمامة: انظُروا الذي تجعلونه لبني تميم، فأَعْطُونيه، فأنا أكفيكم أمرَهم، وأسيرُ فيها معكم حتى تبلغوا مَأْمَنَكم. ثم خرج هوذةُ مع الأساورة بالقافلة من «حَجْرٍ»[3]، حتى إذا صاروا إلى «نَطَاع» بين البحرين والأُبُلَّة[4]، خرج إليهم بعضُ بني تميم، وقد علموا بما فَعلَ هوذةُ، فقاتلوهم حتى هزموهم، وقيل إنهم قتلوا عامَّةَ الأساورة، وسلبوهم، وانتهبوا ما كان في القافلة، واقْتَسَمُوهُ، وأسَرُوا هوذةَ، فاشترى نفسَهُ منهم بثلاث مئة بعير، فساروا معه إلى حَجْرِ اليمامة، وأخذوا منه فداءَهُ، ثم أطلقوه. وكان فيمن أغار على القافلة طائفةٌ من فرسان تميم، منهم صَعْصَعَةُ بنُ ناجِيَة المُجَاشِعيُّ، وكان نَصيبُه يومئذٍ وعاءً مملوءً بسبائك الفضة، ومنهم النَّطِفُ بنُ خَيْبَريّ اليربوعيُّ، وكان نصيبُهُ خُرْجاً كبيراً فيه جوهرٌ كثيرٌ، ظلَّ يُعطي منه يوماً حتى غابتِ الشمسُ ولم يَنْفَدْ، فضُرِب به المثَلُ، فصاروا يقولون فيمن اغْتَنَى: أصاب كنزَ النَّطِف[5]... ويزعم الأخباريون أنَّ أبرويز لمّا علم بما أصابَ

(١) تاريخ الطبري: ٢/١٦٩، والأغاني: ١٧/٢٣٧، والعقد الفريد: ٥/٢٢٤، والكامل: ١/٤٦٨...

(٢) الأَسَاوِرةُ: ج أَسْوار، وهو القائدُ، الجيِّدُ الرَّمْي بالسهام، الثابتُ على ظهر الفَرس.

(٣) حَجْر: قاعدةُ اليمامة، وأمُّ قُراها، وهي لبني حنيفة، وقد صُحِّفَتْ في الأغاني (١٧/٢٣٨ - ٢٣٩) إلى «هَجَر»، فأثْبَتَها الأفغاني في أسواق العرب (٢٤٣) كما وجدها، وهو غلطٌ، إذ ليس لبني حنيفة وهَوْذَةَ شيءٌ في هَجَر، وإنما هي قاعدةُ البحرين، وأهلُها من عبد القيس وتميم وبكر بن وائل.

(٤) معجم البلدان: ٥/٢٩١.

(٥) تاريخ الطبري: ٢/١٦٩، ولسان العرب: ٩/٣٣٦ (نطف)، ومجمع الأمثال: ٢/١٧٧، والمعارف: ٦١٢، والأعلام: ٨/٣٤.

قافلتَه، غضب غضباً شديداً، وأرسل إلى عامله بِهَجَر البحرين يأمرُهُ بالانتقام من بني تميم، وزعَمُوا أن عاملَ كسْرىٰ على البحرين إنما سُمِّيَ المُكَعْبِرَ، لأنه كان يقطعُ الأيدي والأرْجُلَ! واتفق أن قَدِمَتْ طائفةٌ من بني تميم بعد ذلك إلى هَجَر للامْتِيَارِ، وكانت السنةُ شديدةً، فاحتال المكَعْبِرُ حتى أدْخَلَهم حصْنَ المشقَّر، وأمرَ بغَلْق الباب، ثم قتلهم جميعاً، وأخذ الأموالَ، وسَبَى الذَّرارِيَ! ولكنْ، أضاف أهلُ الأخبار، صادف يومئذٍ عيدُ الفصح عند النصارى، وكان هوذةُ نصرانياً، فاسْتَوْهَبَ المكعْبِرَ مئةً منهم، فأطلقهم بعدما كسَاهم وأحْسَنَ إليهم[1]!



لا شك في أن الوَضْعَ واضحٌ من سِيَاق الكلام، وأن القصدَ منه إظهارُ الفُرس، بعد ذُلِّهم في يوم ذي قار، بمظهر القويّ البطَّاشِ المُسَيْطر، وإظهارُ بني تميم، وكانوا قاعدةً من أكبر قواعد العرب[2]، غُفْلاً، بُلْهاً، لا يَدْرُون ما يُبَيَّتُ لهم في أرضِهم، وإظهارُ هَوْذَةَ الحَنفيِّ، رَحيماً عَفُوّاً غَفُوراً لأنه على النصرانية! . وبعدما جعلوا المكعبرَ يقتلُ كلَّ مَن كان بالحِصْن، جعلوه يَهَبُ لِهَوْذَةَ مِئةً ليُطلِقَهم في عيد الفصح! ومن العجيب أن يُنْسَى اسمُ رجُلٍ حكمَ إقليمَ البحرين (الأحْسَاء) على سَعَتِه، وقطعَ الرؤوسَ والأيْديَ والأرْجُلَ، وسبَى الذَّرَارِيَ، في زمنٍ وعَتْ ذاكرةُ الناس كلَّ الحوادث لقُرْبِ عهدها بظهور الإسلام، ويُذْكرَ في الوقت نفسِهِ إسمُ باذانَ الذي لم يكن له حَوْلٌ ولا طَوْلٌ باليمن! والأكثر غرابةً أنهم جعلوا ما وقع إذ ذاك يوماً من أيام العرب، كان للفُرس على العرب، مع أنه لم يكن فيه قتالٌ بينهم، وإنما كان فيه غَدْرٌ

---

(١) الكامل: ١/٤٦٨، ٦٢١، وتاريخ الطبري: ٢/١٧١، ومعجم قبائل العرب: ١٢٧ .

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢٠٧، والمفصَّل: ٤/٥٢٦ .

وقتلٌ، والعربُ لا تُسمِّي الغَدْرَ حرباً أو يوماً، ومن هنا يبدو أن الأمر كلَّه تكلُّفٌ وتَزَيُّدٌ لا أكثر، ولا سيما إذا عرفنا أن المكَعْبِرَ لقبٌ للمُعلَّىٰ بن حَنَش العَبْديّ، وأنه كان عاملاً على البحرين للملك عمرو بن هند اللخميّ(١)، وليس لملوك فارس، وكان ملْكُه بين (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، أي قبل أبرويز. .

ولو فرضنا أن ذلك كلَّه كان صحيحاً، فما يهمُّنا منه أن قوافلَ ملوك فارسَ، كانت تخضعُ إلى ما كانت تلتزمُ به سائرُ القوافلِ، من أداءِ ضريبة المرور في بلاد العرب، وما كان هذا ليكون لو أن نفوذَ الفرس كان حقيقةً واقعةً في جزيرة العرب، ولا عبرةَ لما يُكثِرُ أهلُ الأخبار ذِكرَهُ، كما رأينا، عن مُصَاحَبة الأساوِرَة قوافلَ التجارة الفارسية، فهؤلاء القومُ ما كانوا يُخِيفُون أحداً في بوادي العرب وحَواضِرهم، وإنما العبرةُ في ذلك لما كانوا يلتزمون به من العهود، ويُؤَدُّونه من الأتاوات والهدايا والألطاف.

وصَفْوةُ الكلام أن قافلةَ أبرويز بنِ هرمز اتَّخَذَتْ في هذه الرحلةِ، طريق التجارة الشرقيَّ(٢)، وجرى انتهابُها في «نَطاع» بين البحرين والأُبُلَّة، أي في المنطقة التي جعلها الأفغاني تحت حُكم فارسَ، حينما زعم أنها «بَسَطتْ سلطانَها على سواحل الخليج الفارسي كله، وعلى سواحل بحر اليمن. . .»(٣)، فأين هو ذلك السلطانُ ما دام أصحابُه عاجزينَ عن حماية قافلةٍ يكتنفُها قادتُهم، ويُجيرُها بعضُ العرب على كُرْهٍ من الآخرين؟ وإذا كان الفُرسُ أضْعَفَ من أن يحموا قافلةَ ملكهم، إلا إذا كفَلَها لهم سادةُ العرب وأشرافُهم، كلٌّ ضمنَ أرضه، ووفاقاً للنظام المعْهودِ في الخفارة والجِوار، فكيف يُصَدَّقُ أنهم كانوا يُوفِّرون الحماية لبعض أسواق العرب في الحيرة

(١) المفصَّل: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، وشرح القصائد السبع: ١١٦.
(٢) المفصَّل: ٣/ ٥٢٧.
(٣) أسواق العرب: ٢٥٤.

والبحرين وعُمان واليمن؟ مع أن التحقيق التاريخي لم يتوصَّل إلى أكثرَ من إشارة ضعيفةٍ غير موثَّقة، عن وجود قوةٍ للفُرس في عُمَان حين ظهور الإسلام[1]، ولعلَّها من اختراع الغُلاة الشعوبيين، كإشارةٍ أخرى مثلِها إلى أن البحرين كانت تخضعُ لحكم الفُرس، بينما كان حاكمها في الحقيقة رجلاً من العرب، على دين النصرانية[2]، هو المنذر بن سَاوَىٰ بن الأَخْنَس التميمي[3]، الذي زعموا أنه كان يحكمُها باسْمِ ملوك فارس، من غير دليل يؤكدُ ذلك[4]. وفي اعتقادي أن حماية دولة فارس لبعض أسواق العرب دعوى باطلة، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق.

* * *

(١) المفصَّل: ٢/ ٦٤٧.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٦٤٨.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٠٧.
(٤) المفصَّل: ٤/ ٤٨٦، و ٢/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩.

الفصل الخامس

طائفة الصعاليك

وهي التي كانت تعتمدُ الإغارةَ على الأغنياء وسيلةً إلى كسْبِ الرزق، وتُشَكِّلُ نَقْضاً لضوابط الأمن في مجتمعات العرب، ولا سيما في الطرُق المُؤدِّيَة إلى الأسواق الموسميّة، والمناطقِ التي اشتُهِرتْ بالخصب والثراءِ في البادية... ولم يكن في بلادٍ، كجزيرة العربِ، بُدٌّ من أن يكون بها فقراءُ يُغِيرون في زمن الجَدْبِ والشُّحِّ على الأغنياء، لما كان فيها من اختلافٍ في طبيعة الأرض، وتَفَاوُتٍ في الرزق، وتبايُنٍ بين طبقات المجتمع، ومن هنا نشأت طائفةُ الصعاليك.

المطلب الأول ـ الصَّعَاليكُ والتَّصَعْلُك:

الصُّعْلوكُ في اللغة هو الفقير، الذي لا مال له، ولا مَوْردَ رِزقٍ..، وقد تَصَعْلَكَ الرجلُ إذا كان كذلك... قال حاتمُ طيّيء:

غَنِينا زَماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فَكُلاً سَقَاناهُ بكأسَيْهِما الدهرُ
فما زادنا بَغْياً على ذي قَرابةٍ غِنَانا، ولا أَزْرَىٰ بأَحْسَابنا الفقرُ

أي: عِشْنا زماناً بالفقر والغِنَى. وكان عُرْوَةُ بن الوَرْد العَبْسيّ يُسمَّى عُروةَ الصعاليك. لأنه كان يجمعُ الفقراءَ في حَظِيرةٍ، فيرزقُهم مما يَغْنَم[1]... وكان

(١) لسان العرب: ١٠/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦ (صعلك).

الناس إذا اجدبوا في سنه شديدة، ارتحلوا يَسْعَوْن إلى الرزق، وتركوا في ديارهم المريضَ والكبير والضعيف، فكان عروةُ بنُ الورد يجمعُ أشْبَاهَ هؤلاءِ من الفقراء في أيام الشدَّة، ويتَّخِذُ لهم مواضِعَ يُؤْويهم إليها، ويقوم على أمورهم، ويُوفِّر لهم أسبابَ مَعِيشَتهم، فمن قَوِيَ منهم، أو بَرِىءَ من مرضه، خَرَج به معه فأغار وغنم، وجعل في الغنيمة نصيباً للباقين، حتى إذا أخْصَبَ الناسُ، وذهبت الشِدَّةُ، ألْحَقَ كلَّ رجُلٍ بأهله، وقَسَم له نصيبَهُ من الغنائم، إن كانت، بالعدل والمساواة، وربما عاد أحدُهم إلى أهله وقد اسْتَغْنى، ولذلك سُمِّيَ عروةَ الصعاليك[1]. . . ويُحكىٰ أن ناساً من بني عَبْس أجْدَبُوا في سنةٍ أصابتْهم، فأهلكتْ أموالهم، وأنْزَلَتْ بهم بُؤساً، وجوعاً شديداً، فأتَوْا عروةَ بنَ الورد، فجلسوا أمام بيته، فلمّا بصروا به، صَرَخُوا وقالوا: يا أبا الصعاليك أَغِثْنا! فَرَقَّ لهم وخرج بهم غازياً[2]. . . والمعنى في ذلك أنه كان أبا الفقراء، ومنه قولُهم في الأمثال: كلُّ صُعْلوكٍ جَوادٌ[3]، أي كلُّ فقيرٍ كريمٌ في طبعه، والأصلُ أن يكون الصعلوكُ من ذوي المروءة والنجدة والشهامة، يسعى في الأرض يطلبُ رِزْقَه ورِزْقَ غيره من الفقراء، يُغِيرُ على الأشِحَّاءِ البخلاءِ من الأغنياء، ويعفُّ عن الكرام منهم، بل يحافظُ عليهم وعلى أموالهم، ما داموا قد أَدَّوْا ما عليهم إلى الفقراء، فذلك ما تقتضيه المروءة[4]. . . والإغارةُ عنده ليست لِكَنْزِ المال، وإنما هي وسيلتُه إلى البذلِ والعَطاءِ واكتسابِ الحمْدِ. وقد كانت الإغارةُ يومئذٍ كالصيد، ومثلما كان صيدُ الطير والسَّمكِ حلالاً مُبَاحاً، كانت الإغارةُ من أجل توفير الرزق مُبَرَّرةً

---

(١) الأغاني: ٣/ ٧٥.

(٢) المرجع نفسه: ٣/ ٧٨.

(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ١٣٨.

(٤) سيد حنفي ـ الفروسية العربية في العصر الجاهلي: ص ٨٣، (دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.

ما كانت ناجحة[1]، فإذا أخفقتْ فالويلُ للمُغِير. وقد بلغ من شهرة عروة بن الورد بالكرم والمروءة والإيثار، أن عبد الملك بن مروان قال يوماً: من زعم أن حاتماً أسْمَحُ الناس، فقد ظَلم عروةَ بنَ الورد! وقال: ما يَسرُّني أن أحداً من العرب وَلَدَني، ممَّن لم يَلِدْني، إلا عروةَ بنَ الورد لقوله:

إني امْرؤٌ عافي إنائي شِرْكةٌ وأنتَ امْرُؤٌ عافي إنَائِكَ واحِدُ
أُقَسِّمُ جسمي في جُسُومٍ كثيرةٍ وأحْسُو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ[2]

وذُكر أيضاً أن معاوية بن أبي سفيان قال يوماً: لو كان لعروة ولدٌ لأحْببتُ أن أُصْهِرَ إليهم[3]...

كلُّ هذا من شأنه أن يدلَّ على أن التصَعْلُكَ في أصل معناهُ لم يكن يعني شيئاً غيرَ الفقر، مع الكرم والمروءةِ والنجدَةِ، والمساواة في الرزق والمعاش. أما الإغارة فليست من لوازم التصعلك، وإذا كان كلُّ صعلوكٍ فقيراً، فذلك لا يعني أن يكون بالضرورة لصّاً، أو قاطعَ طريق، أو مُغِيراً، وإن اسْتَعَانَ يوماً على الرزق بالغزو، ثم اسْتَغنَى، لم يَعُدْ إليه مرةً أخرى. كالذي كان من أمْرِ عبد الله بن جُدعان، سَيِّدِ بني تَيم بنِ مُرَّةَ في عصْره، فقد بدأ حياتَه على مذهب الصعاليك، وكان مُغِيراً فاتكاً، ما زال يجني الجناياتِ تُؤخَذُ بها عشيرتُه، وتحتملُها عنه حتى ضجرت منه، فنَفاهُ أبوهُ، فخرج هائماً في شِعَابِ مكة، حتى أتىٰ جبلاً رأى فيه شقّاً، فدخل منه، فإذا هو في غارٍ

(١) الصعلكة والفتوة: ٢٥، ١٠٤، ١١٢.

(٢) أراد أنه كريمٌ يُشاركه في طعامه كثير من الناس، بينما البخيلُ يأكلُ وحدَهُ من إنائه، وأراد أنه يُقَسِّمُ قُوتَ جِسْمِهِ في أجسام الفقراء، ويكتفي بالماء البارد، مُؤْثِراً لهم على نفسه بما عنده من الزاد.

(٣) الأغاني: ٣/ ٧٠ ـ ٧١.

كبيرٍ، وجَدَ فيه مقبرةً من مَقَابر ملوك بني جُرْهم، دُفِنَت معهم كنوزُهم من الذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت، فأخذ منها قَدْرَ طاقته وحاجته، ثم خرج وعَلَّم الشقّ بعلامةٍ حتى يرجعَ إليه كلما كان في حاجةٍ، وأرسل إلى أبيه من المال ما أرضاهُ به، وعاد إلى مكة، فأكرم أهلَهُ وعشيرتَه، وأطعم الناسَ على موائده، وواسَىٰ الفقراءَ والمحرومين، وأجار الخائفين، وأعْتَق العبيد، وحَمل الديونَ والمَغارم عن أصحابها، حتى ساد قومَه[1]. . . ولمّا تنادَى أشرافُ مكة إلى حلف الفُضول لإنصاف المظلومين، عُقِدَ في داره، وعلى مائدته، وكان فيما يبدو صاحبَ الرأي في دَعوة الحلفِ الناسَ إلى «التَّأَسِّي في المعاش»، أي إلى المساواة بين الأغنياء والفقراء[2]، وإنعاشِ حياة المحتاجين بفُضُول أموال القادرين، وذلك من فِعْل كِرام الصعاليك.



وإذا كان الفقرُ هو الأصل في الصعاليك، لكن الفقرَ جعل منهم غُزَاةً ولصوصاً وقُطَّاعَ طرُقٍ، اتخذوا الغَزْوَ والإغارةَ والسرقةَ نمطاً من أنماط الحياة، عَبَّروا به عن سُخْطِهم على المجتمع، وكراهَتِهم للشُحّ والأشِحَّاءِ، وتمرُّدِهم على النظام القَبَليّ. ولذلك نلاحظ أنه كان في هذه الطائفة فئاتٌ كثيرةٌ مختلفة، لكل فئةٍ منها إسمٌ خاصٌّ بها، ولكن الفقر يجمعها كافةً في طائفة الصعاليك.

١ ـ فالبَعَابِعَة:

إسمٌ للصعاليك الّذين لا مالَ لهم، ولا ضَيْعَة[3]. والضَّيْعَةُ الأرضُ

---

(١) عجائب المخلوقات: ٣٢، والمفصَّل: ٤/ ٩٤ ـ ٩٦.

(٢) الصعلكة والفتوة: ٤٨.

(٣) لسان العرب: ٨/ ١٧ (بَعَعَ).

المُغلَّةُ، والحِرْفَةُ أو الصناعةُ. وإني أرى هذا تخريجاً، فالأصلُ في البَعْبَعَةِ التَّتَابُعُ في عَجَلةٍ، والفرارُ من الزَّحْفِ[1]، وهو حالُ الصعاليك في غاراتهم.

٢ ـ بنو الغَبْراء:

إسمٌ للصعاليك الّذين يَفْتَرِشُونَ ترابَ الأرض[2]، ليس لهم وِطَاءٌ ولا غِطَاء، وقيل إنه اسمٌ للفقراء المجتمعين بلا تعارُفٍ، ومن لم يكن لهم قبائلُ يُعرفون بها[3].

٣ ـ الهُلاَّك:

إسمٌ للصعاليك الّذين يَنْتَابُون الناسَ ابتغاءَ المعروف، من سوء حالهم[4]، وفي أخبار عروة أنه خرج مع قوم من «هُلاَّكِ» عشيرته، في شتاء شديد، فوجد ناقتين، فنَحَر لهم إحداهما، وحَمَل متاعَهم وضُعَفاءهم على الأخرى، وجعل ينتقلُ بهم من مكان إلى آخَر[5].

٤ ـ الجُمَّاعُ:

فريق من الصعاليك، كما يُفهم من خبرٍ ساقهُ ابنُ سعد، ذكر فيه أنه كان بجبل تهامة «جُمَّاعٌ» من قبائل كنانة، ومُزَيْنة، والحَكَم، والقارَةِ، ومَن اتَّبَعهم من العبيد، وكانوا قد غَصَبوا المارَّة، فلما ظهر الإسلام، وفَدَ على النبيّ وفدٌ منهم، فكتب لهم كتاباً، إن آمنوا فعَبْدُهم حُرٌّ... وما كان فيهم من دمٍ

---

(١) محيط المحيط: ٤٥ (بعع).

(٢) لسان العرب: ٥/٥ (غبر).

(٣) محيط المحيط: ٦٥٠.

(٤) لسان العرب: ١٠/٥٠٦ (هلك).

(٥) الأغاني: ٣/٧٦.

أصابوه، أو مالٍ اغتَصَبوه فهو لهم، وما كان لهم من دَيْنٍ في الناس رُدَّ إليهم[1]. فالجُمَّاعُ أفرادٌ من قبائلَ شَتَّى متفرِّقة[2]، وعبيدٌ آبِقُونَ، تجمَّعُوا، وانضمَّ بعضُهم إلى بعضٍ، وأنْشَؤوا عصاباتٍ تحصَّنتْ في جبل تهامة، وجعلوا يُغِيرون على الناس، ليُصِيبُوا منهم مغنماً[3]. . .

وعلى ذلك يُعَدُّون من الصعاليك، إذ لم يكن لأحدهم ولاءٌ إلى قبيلةٍ يحميه، أو يعتمدُ عليه، ولا مالٌ يعيشُ منه، ولا أرضٌ مُغِلَّةٌ، ولا حِرْفةٌ يستعين بها على الحياة. مثلهم في ذلك مثل «القُطَّاعِ»، وهم اللصوصُ يقطعون الطريق، ريُعارضون أبناءَ السبيل[4]، ويَغْصبونَهم ما قد يكون معهم من مال أو طعام.

* * *

وكان من الطبيعي أن يُوصَفَ الصعاليكُ عموماً بالقوة الجسديَّة الفائقة، إذ كان فيهم فُتَّاكٌ وفرسانٌ اشتُهِروا بالشجاعة والجرأة والإقدام على المكَارِهِ والصِّعَابِ، غير أنه كانت لبعضهم أوصافٌ خاصَّةٌ عُرِفوا بها، أشْهَرُها: الذُّؤْبانُ، والعَدَّاؤون.

١ ـ الـذُّؤْبـانُ:

لأنهم كالذئاب[5]، كانوا يُغِيرون على الناس بخُبْثٍ، وخَتْلٍ شديد،

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٧٨.
(٢) لسان العرب: ٨/ ٥٦ (جمع).
(٣) المفصَّل: ٧/ ٤٦٧.
(٤) لسان العرب: ٨/ ٢٨٢ (قطع).
(٥) المرجع السابق: ١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨ (ذأب).

وقلّما أخطَؤوا قصدهم في غاراتهم. والذَّأْبُ أيضاً: كثرةُ الحركة بالصُّعُودِ والنزول، والشدَّةُ، والسرعةُ في المسير[1]... وهذه في الحقيقة حالُ أصحابِ الغارات عادةً. ولمّا نَصح سيِّدُ بني شيبانَ المِلكَ النعمانَ بن المنذر بالذهاب إلى المدائن للقاء كسرى أبرويز، قال له: «... فالموتُ خيرٌ من أن يَتَلعَّبَ بك صعاليكُ العرب، ويتَخطَّفَك ذِئابها»[2]، وهي إشارةٌ إلى مَقْدرتهم وقُوَّتهم ونفوذهم. ولمّا قَدِمَ مَعْبدُ بنُ زُرَارة التميميّ على عامر بن مالك، ليَفُكَّ أَسْرَ أخيه لَقِيط، طلب منه فِدْيةً ألفَ بعير، قال معبد: إن أبانا أوْصَانا ألاَّ نَزيدَ في الفداء على المِئَتَيْن، لِئلاّ تطمعَ فينا «ذُؤْبانُ العرب»[3].

٢ ـ العَــدَّاؤُون:

لأنهم كانوا أشدَّ الناس عَدْواً، يَعْدُون على أَرْجُلهم، فلا تُدركهم الخيلُ. وقد حفظت لنا كتبُ الأخبار وقائعَ بعضهم، منهم: تَأَبَّطَ شَرّاً، ثابتُ بنُ جابرِ الفَهميُّ المُضَرِيُّ، وكان صعلوكاً شاعراً فاتكاً جريئاً، قُتِل نحو سنة (٥٤٠ م)، ويُحكى أنه كان إذا جاع لم تَقمْ له قائمة، فكان ينظرُ إلى الظِبَاءِ فيَنْتَقي على نَظَرِهِ أسْمَنَها، ثم يجري خَلْفَهُ، فلا يَفُوتُه حتى يقعَ عليه، فيأخذه ويذبحه بسيفه، ثم يَشْوِيه فيأكله[4]... وقد بلغ من شِدَّة الصعاليك العَدَّائين في سرعة العَدْوِ أن ضَرَبت العربُ المثَلَ بجماعة منم، فقالوا: أعْدَىٰ من الشَّنْفَرَىٰ[5]، وهو عمرو بنُ مالك الأزديُّ، شاعرٌ صُعلوكٌ، من فُتَّاك

---

(١) محيط المحيط: ٣٠٤ (ذأب).

(٢) الأغاني: ٢/ ١٠٥.

(٣) المرجع نفسه: ١١/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٤) الأعلام: ٢/ ٩٧، والأغاني: ٢١/ ١٤٦.

(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٦٧٨.

العرب وعَدَّائيهم المشهورين، قيست قفزاتُه ليلة مقتله، نحو سنة (٥٢٥ م)، فكانت الواحدةُ منها قريباً من عشرين خطوة[١]. وقالوا أيضاً: أعْدَى من السُّلَيْكِ[٢]، وهو ابنُ عُمَير من بني زيد مناة بن تميم، أُمُّهُ أَمَةٌ سوداءُ، اسمُها سُلَكَة، فنُسِبَ إليها، وهو أحَدُ صعاليك العرب من الهُجَنَاءِ الأَغْرِبَة، وكان أدلَّ الناس بالأرض، وأَعْلَمَهم بمسالكها، وأشَدَّهم عَدْواً على رِجْليه، لا تَعْلَقُ به الخيلُ. وكان من أصحاب البأس والنجدة والشهامة، وكان لا يُغِير على قبائل مُضَر، لأنه مُضَرِيّ، وإنما يُغِير على اليمن، فإذا لم يُمْكنه ذلك أغار على بني ربيعة، قُتل نحو سنة (٦٠٥) م، وهو مَعْدودٌ من شعراء الجاهلية[٣].

ويُوصَفُ الصعاليكُ، على العموم، بأنهم كانوا أقوياءَ البُنْيَة، شجعاناً أَشِدَّاءَ، ذوي عَزائمَ ماضِيَةٍ، وقدرةٍ على الاحتمال كبيرةٍ، فكأن أحَدَهم أُعِدَّ إعْداداً طبيعياً للنهوض بأثقال الحياة التي خُلِق لها، أو وجد نفسَهُ فيها، فكانت سرعتُهم في الإغارة والغزو، وشِدَّتهم في الحركة والخَتْل والعَدْوِ على الأَرْجُل، مظهراً من مظاهر القوة والمقدرة عندهم[٤].

* * *

المطلب الثاني ـ مادَّةُ الصعاليك:

إذا فَتَّشْنا في مجتمعات الجاهلية عن الفئات، التي أَمَدَّتْ عناصِرُها

---

(١) الأعلام: ٥/ ٨٥.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٦٧٩.
(٣) الأغاني: ٢٠/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧، والأعلام: ٣/ ١١٥.
(٤) الشعراء الصعاليك: ٣٨ ـ ٤٠.

طائفةَ الصعاليك بمُعْظم مادَّتها، وجدنا أنها لا تزيدُ على ثلاثٍ هي: **خُلَعَاءُ القبائل، والشُّذَّاذُ**: المُتَمرِّدونَ على قبائلهم، **والهُجَناءُ أو الأَغْرِبةُ والعبيدُ** الهاربون من أسْيَادهم. . . والجامعُ المشتركُ بين هؤلاء كافةً: الفقرُ، والكفرُ بالنظام الاجتماعي والاقتصادي، والتمرُّدُ عليه، والفَرارُ من الظلم والعُبوديّة.

١ ـ خُلَعاءُ القبائل:

وهم الَّذين تَبرَّأتْ منهم قبائلُهم، ونَفَتْهم عنها، لئلاّ تُؤْخَذَ بِجَرائِرهم. وكانت القبيلةُ في الجاهلية وحدةً اجتماعيةً متماسكةً، يتضامَنُ أبناؤها، ويتعاهدون على النصْرة والإعانة، وأن يُؤخَذوا جميعاً بجناية واحدٍ منهم، أو حليفٍ لهم. وكان يقعُ أحياناً أن يظلَّ الرجلُ منهم يجني الجنايات، ويُؤخَذَ بها قومُه أو أولياؤه، حتى يُكلِّفَهم ما لا طاقةَ لهم به، ويُعرِّضَ مصالح القبيلة للأذى، فيَعْمدُون حينئذٍ إلى خَلْعِهِ من القبيلة، والبراءة منه ومن تَبِعَةِ أعماله، فلا يُؤخَذون بعدها بجناية يجنيها على أحد، ولا يُؤْخَذُ بجنايتهم، فكأنهم خَلَعُوا العَهْدَ أو الحِلْفَ الذي كانوا لَبِسُوهُ معه[1].

ويُشْتَرطُ في تَبْرِئَةِ القبيلة من تَبِعَةِ أعمال الخليع، أن تُجْري الخَلْعَ عَلانِيَةً، وتُشْهِدَ الآخَرين عليه. ولم يكن هنالك مَوْضعٌ للإعلان والإشْهاد، خيراً من مواسم الأسواق الكبرى، كسوق عكاظ، ومواسم الحجّ[2]. . . فكان أولياءُ الخليع يذهبون به غالباً إلى سوق عكاظ في موسمه، ويُشْهِدُون الناسَ على أنفُسِهم بخَلْعِهم إيّاهُ، فلا يُؤخَذُون بعدُ بجريرته، ولا يُطالِبُون بجريرةٍ يجرُّها أحدٌ عليه[3]. وقد يبعثون بذلك مُنادِياً يطوفُ بمجامع الناس

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٧٧ (خلع)، والشعراء الصعاليك: ٩٣.

(٢) المفصَّل: ٤/ ٤١١.

(٣) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.

فِي المواسم، أو يكتبون به كتاباً توكيداً له[1]، فكأنّ الكتابَ إذ ذاك وثيقةٌ رسميةٌ لإثباتِ أمرِ الخَلْع، أو نَزْعِ «جِنْسيَّة القبيلة»[2] عن المخلوع... ويمضي الخليعُ بعدئذٍ هائماً في البوادي والقِفَار، ليس له سَنَدٌ، ولا اعتماد، غير كِنَانَتِه أو سيفه، ويعيش حياةً قاسيةً، لا يجدُ فيها مَن يُؤْويه أو يُعِينُه، فلا يلبث حتى ينضمَّ إلى طائفة الصعاليك مع أمثاله من خُلَعاء القبائل الأخرى، أو يُنْشِيءَ عصابةً تجعل همَّها الإغارةَ على الأغنيَاءِ، وانتهابَ أموالهم، كما كان من أمر قيس بن الحُدَادِيَّة الخُزاعيّ[3]، فقد خَلَعتْه خزاعةُ بسوق عكاظ، بعدما جرَّ عليها ما لا طاقةَ لها بحمله، فألَّفَ عصابةً من الخلعاء والشذَّاذِ[5]، وجعل يُغِير بهم على الناس، وظلَّ كذلك حتى قُتل[4]... ولكن الخليعَ قد يجدُ أحياناً قبيلةً أخرى تَقْبلُ ولاءَهُ إليها، فتُحالِفُه وتُجِيرُه وتحميه، كالذي كان من أمر البَرَّاضِ بن قيس، وكان فاتكاً مشهوراً، تحدَّثنا عنه في كلامنا على حرب الفجار، فقد خلعه قومُه بنو ضمرة، فحالَفَ بني الدُّئل، فما لبثوا أن خلعوه، فالْتَحق بقريشٍ فحالفتْه وأحْسَنَتْ جِوارَه، ثم هاجت بسببه حربُ الفِجَارِ[5].

على أن الخَلْعَ قد يكون أحياناً تدبيراً احْترازِيّاً، ولا يُسْهِم بذلك في طائفة الصعاليك، وإنما ينتهي بانقضاء الحاجة إليه، ويعودُ المخلوعُ إلى حِمَى قبيلته وجِوَارها. ومِثَالُ ذلك الاتفاقُ بين بني سَهْمٍ وبني مخزوم، في الجاهلِيةِ، على خَلْعِ كلٍّ من عمرو بن العاص السَّهْمي، وعمارة بن الوليد

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/٢٩٩.
(٢) الشعراء الصعاليك: ٩٣.
(٣) الأغاني: ١٤/١٣٨.
(٤) الشعراء الصعاليك: ٩٦ ـ ٩٨.
(٥) الأغاني: ٢٢/٦٣ ـ ٦٤.

المخزوميّ، وكانا قد ذهبا في تجارةٍ إلى الحبشة، فاختصما في الطريق، فخافوا أن يَعْتديَ أحدُهما على الآخَر، فتؤخذ عشيرتُه بعُدْوانِهِ، ويهيجُ القتال بين العَشِيرتين، فتبرَّأتْ كلُّ عشيرةٍ من صاحبها، ومما قد يجنيه من الجنايات في سفره، وبعثوا مُنادِياً طاف بأسواق مكة، مُعْلِناً قرار الخَلْع[١].

٢ ـ الشُّـذَّاذ:

وهم أخلاطٌ من قبائلَ شتَّى، أعْجَزَهم الفقرُ وأَضْجَرهم، فخرجوا عن قبائلهم، وتمرَّدُوا على نظامها، فدخل فريق منهم في طائفة الصعاليك، يُغيرون معهم لِيُوفِّروا موارد رزقٍ يعيشون منها، وكان فيهم ناسٌ من بني خثعم، وأسد بن خزيمة، وطيّىء[٢]، وهذيل[٣]. وفريق كانوا يلتحقون بالملوك، صَنَائِعَ لهم[٤]، يَصْحَبُونَهم، ويُقاتِلون دُونهم، وفي أخبار امرىء القيس بن حجر الكندي أنه كان «يَسيرُ في أحياء العرب، ومعه جماعةٌ من شُذَّاذِ العرب، أو شُذَّانِهم، وهم أخلاطٌ من قبائل طيّىء، وكلب، وبكر بن وائل»[٥]، خرجوا من قبائلهم، ودخلوا في خدمة الملوك.

٣ ـ الأَغْرِبةُ والعبيدُ:

أغْرِبَةُ العربِ سُودَانُهم وهُجَناؤُهم الذين وَلَدتْهم إمَاءٌ غيرُ عربيات، وكان العربيُّ يكرهُ أن يكون له أولادٌ من أَمَتِهِ، ولا يَهْتمُّ لأمورهم، فلا يلبثُ

---

(١) الأغاني: ٩/٥٦.
(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٦.
(٣) الشعراء الصعاليك: ٥٦.
(٤) تاج العروس: ٩/٤٢٤، ولسان العرب: ٣/٤٩٤ (شذذ)، والأغاني: ٩/٨١، وشرح القصائد السبع: ٥.
(٥) الأغاني: ٩/٨٦-٩١.

بعضُهم حتى ينضمَّ إلى الصعاليك، وقد اشتُهر منهم: السُّلَيْكُ بن سُلكة، والشَّنفَرى، وتأبَّط شرّاً[1]... وقد شُبِّهَ هؤلاء بالأغْرِبَة في لَونها الأسود. أمّا العَبيد، فكان بعضُهم يفرُّ من أصحابه، فلا يجدُ لنفسه مَنْجاةً في الصحراء إلا بالإنضمام إلى طائفة الصعاليك.

* * *

المطلب الثالث ـ خَطَرُ الصعاليك:

سبق أن أشَرْتُ إلى خطر الصعاليك على الأمن، في غير موضع من كلامي على مجتمعات العرب، ثم في بعض أبحاث هذا الفصل، وذكرتُ أن غاراتهم كانت غالباً على حظائر الأنعام ومخازن الطعام عند الأحياء الموسِرَة من القبائل في بوادي العرب، أو على قوافل التجار في الممرّات الجبلية والصحراوية، وذلك كلما لَمَسُوا من هؤلاء وأولئك غفلةً عن حماية أموالهم، أو عَجْزاً في خفَارتها. وكانوا يخرجون إلى الغارة فُرادَى أحياناً، وعصاباتٍ أحياناً أخرى، وكان أكثَرُهم يُغير على رِجْليه، وبعضُهم يُغِير على الخيْل[2]... وكان خطَرُهم مُنْصَبّاً على مناطق الخِصْب في البوادي، والمناطق المُحْدِقَةِ بطُرُق التجارة، والأسواقِ الموسميَّةِ الكبرى، كسوق عكاظ. فكانوا يرصدون التجارَ في مَقْدَمِهم إليها، وفي مُنْصَرَفهم عنها، لعلَّهم يقدِرُون منهم على شيءٍ يغنمونه إن كانوا مُقَصِّرين في أسباب الاحْتِرازِ، وهو نادرُ الوقوع. أما أهلُ القُرىٰ فكانت لهم حصونٌ تحميهم، وتحفظُ مخازِنَ مِيرَتهم، وحظائرَ أموالهم من غارات الصعاليك[3]. وذكرتُ

---

(١) لسان العرب: ١/ ٦٤٦ (غرب)، والشعر والشعراء: ٢٥١، والشعراء الصعاليك: ٥٦.
(٢) الشعراء الصعاليك: ٥٠، ١٣٠.
(٣) المفصَّل: ٧/ ٤٥٨.

أيضاً أن تلك الغارات لا تُعَدُّ من الغزو إلا في مَعْناهُ اللغويّ، وهو الخروجُ إلى طلب المعاش، ولكنها في المُصْطَلَح الاجتماعي كانت غَدْراً، وسرقةً، وقطعاً للطرُق، يُقْتَلُ فاعِلُها، أو يُصْلَبُ، أو تُقْطَعُ يَدُه وفاقاً للجناية التي ارتكبها، لأنها ليست قتالاً شريفاً، ولا هي من معارك الثأر، وإنما من أعمال اللصوصية.

ولعلَّ منطقةَ جبالِ السَّرَاة، بين مكة والطائف وأولِ الطريق الصاعد إلى اليمن، شهدتْ أكبر عدد من صعاليك العرب[1]، فهي منطقة جبليةٌ مَنِيعةٌ، تقعُ بالقُرب من الطريق التجاري الذي يصلُ اليمنَ بالشام، وتُشْرِفُ على موقع مكةَ، حيث تقومُ ثلاثٌ من كُبْرَيَاتِ أسواق العرب الموسمية، وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز، وتتوسَّطُ مناطقَ شديدةَ الخِصْب كالطائف وجنوبِ مكةَ، وهذا كلُّه مما يُغْري صعاليك العرب بالتجمُّع فيها، لأنها تُساعدهم على المباغتة، والإغارة على الهدف، فالانتهابِ، والفَرارِ بالغنيمة، والاختفاءِ في شِعَابِ الجبال وكُهوفها[2]... والباحثُ في أخبار الصعاليك يجدُ أنهم استهدفوا بغاراتهم مختلفَ مناطق الخصب في الجزيرة، فكانت لهم غارات على أرياف اليمن، ونجد، ويثرب، وبعض مناطق السراة بالحجاز، وتهامة[3]. وكان من الصعب تَتَبُّع آثارهم غالباً، أو اللحاقُ بهم، لما يعمدون إليه من أساليب الاحتيال، وما اشتُهروا به من سُرْعة العَدْوِ، ومتانة التركيب، والقدرة على المصاعب، والعلم بمسالك الصحارى والجبال.

ولكن العجيب أن المنطقة التي شَهِدتْ أكبر عددٍ من صعاليك العرب

---

(١) الشعراء الصعاليك: ٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ٨٠.

(٣) المرجع نفسه: ٧٦.

في الحجاز، كانت في الوقت نفسه تشهدُ ازدهارَ التجارة بمكة والطائف، وازدهارَ أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بشكل لم تعهدْ له مثيلاً في تاريخها القديم. وهو دليلٌ على أن المُبالغةَ في أَعْدادِ الصعاليك ودائرةِ نشاطهم كانت كبيرةً، وأن أسبابَ التحوُّطِ والاحترازِ والخفارةِ كانت مُحْكَمةً وكثيرةً، مما فَوَّتَ على الصعاليك فُرَصَ تَقْويضِ ضَوابط الأمن كافةً عند العرب، ولا سيما في حَرَم الأسواق ومواسم الحجّ. وإذا حاولنا أن نَسْتقْرِىءَ الأخبار لِنعرفَ مقدارَهم في وقت من الأوقات، وجدنا أنهم في نحو القرن السادس الميلادي، وهو ذروةُ الإزدهار الاقتصاري، كانوا يُعَدُّون بالعشرات، ومُعْظمهم من العَدَّائين! وقد أحصى الأصمعيُّ ممن كان بالحجاز والسراة نحو ثلاثين صعلوكاً من العدَّائين، أكثَرُهم من بني فَهْم، ونحو أربعين من قبيلة هُذَيْل[1]. وفي أخبار عُروةِ أبي الصعاليك، وتأبّط شرّاً، والشَّنْفَرَى، والسُّلَيْك، وهم من أشْهَرِ زعماء الصعاليك، أنهم كثيراً ما كانوا يُغِيرون فُرادَى، وقليلاً ما كان يَصْحَبُهم في غاراتهم رَجُلان أو ثلاثةٌ، وهو دليلٌ على قِلَّةِ أعدادهم في بلادٍ مترامية الأطراف كجزيرة العرب، ودليلٌ في الوقت نفسه على أن اتِّساعَ دائرة شُهْرتهم إنما كان بأسبابٍ أخرى، منها شجاعتُهم، وضُروبُ دَهائهم، وشِعرُهم الذي يحكي قصص بطولاتهم، وفلسفتُهم التي تميَّزُوا بها في العمل على العدل والمساواة. وقد كان فيهم شعراءُ فُصَحاءُ مُقَدَّمون، يدلُّ شعرهم على أنهم استبدلوا بالعصبية القَبليَّة عقيدةً أساسُها غزوُ البخلاء من المَيْسُورين، وتوزيعُ الغنائم بالعدل والمساواة على الفقراء المُعْسِرين، وكفُّ الأذى عن الأغنياء المُحْسِنين، وحمايةُ أرواحهم وأموالهم، وإذا لم يكن الصعلوك كذلك، كان صعلوكاً رديئاً

---

(١) الشعراء الصعاليك: ٧٨، ٨٠، ٨٤.

مَذموماً من أصحابه، ومَرْفوضاً في مجتمعهم[1]. وكانوا ينطلقون في غاراتهم من فلسفةٍ ترى أن المجتمع الّذي وُجِدوا فيه ظالمٌ لهم، وأن توزيعَ الثروة غيرُ عادل، وأن الأنعام من إبلٍ وبقر وأغنام، إنما هي من خَلْقِ الله للناس جميعاً، وليس من حقّ أحدٍ أن يختصَّ بها دون غيره، ولا سيما أن كثيراً ممن يملكون منها فوق حاجتهم، بُخَلاءُ، أشحَّاءُ، لا يستفيدون منها، ولا ينفعون بها أحداً، فلا بُدَّ من اعتمادِ القوة إذن وسيلةً إلى انتهاب هذه الأنعام، واغتنامها، وتوزيعها على الصعاليك الفقراء، لتوفير أسباب الحياة لهم جميعاً[2]. ولئن كان ذلك يُسمَّى لُصُوصيَّةً، لقد كان له في فلسفتهم ما يُبرِّرُهُ، فالخَلَّةُ تدعو إلى السَّلَّةِ، أي أن الفقر يبعثُ على السرقة[3].

وهنالك سببٌ آخَرُ وسَّع دائرةَ خطرهم، هو المبالغةُ التي يعمدُ إليها الدارسون، في الحديث عنهم! من ذلك على سبيل المثال أن مؤلِّف كتاب الشعراء الصعاليك، كان يتحدث عن الخفراء الذين يصحبون قوافل التجارة فقال: «ويدفعون عنها ذُؤْبانَ العرب، وصعاليكَ الأحياء، وأصحاب الغارات...»[4]، مع أنها جميعاً تدخل في اسم الصعاليك. وفي موضع آخر قال: «ويحدثنا الرواةُ أن لطائم النعمان، التي كان يبعثُ بها، كلَّ عامٍ، للتجارة في عكاظ، كان يعترضُها بعضُ بني كنانة فينتهبها»، وعَزَا قوله إلى ابن حبيب في المحبَّر، ثم علَّق عليه بقوله: «وليس من شك في أن لطائم النعمان كانت ضخمةً، كثيرةَ العدد والرجال»[5]، وذلك تعظيماً منه للجناية

(١) الشعراء الصعاليك: ٨٠، والصعلكة والفتوة: ٢٢، ٢٨.

(٢) الشعراء الصعاليك: ٤٤ ـ ٤٥، ٨٠.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣٣٥، ولسان العرب: ١١/ ٢١٥ (خلل).

(٤) الشعراء الصعاليك: ١٣٨.

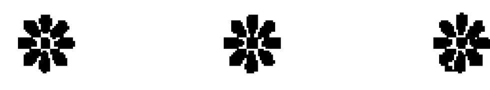
(٥) المرجع نفسه: ١٤٣

التي حَسِبَ أن الصعاليك كانوا يقومون بها، وردَّ سببَها إلى خَلَلٍ في التوازن الاقتصادي!... مع أن كلَّ ما قاله ابنُ حبيب هو: «وكان للنعمان لطيمةٌ يبعث بها كلَّ عام للتجارة إلى موسم عكاظ، فخرج النعمانُ فجلس للناس بالحيرة، وكانت عِيراتُ النعمان ولطائِمهُ، التي تُوافي سوقَ الموسم، إذا دخلتْ تهامة لم تُهَجْ، حتى قتل النعمانُ أخاً لِبَلْعَاءَ بن قيس الكناني، فجعل بلعاءُ يعترضُ لطائمه، فينتهِبُها، ففعل ذلك مرتين، فخاف النعمانُ على لطيمته، فقال يومئذٍ: مَن يُجِيرُ هذه العِير؟»[1]... فالانتهابُ إذن وقع مَرَّتين لا أكثر، وكان انتقاماً لقتل النعمان رجُلاً من بني كنانة، وبلعاءُ لم يكن من الصعاليك، وإنما كان، كما ذكرتُ في حديثي عن الجوار والخفارة، سيِّدَ قومه، وفارِسَهم، وشاعِرَهم! ولو أن الباحثَ الكريم كان أكثرَ دِقَّةً في اختيار تعابيره، مُتأنّياً في إطلاق أحكامه، لما توهَّم أن الانتهاب كان من فعل الصعاليك، كانوا يقومون به كلَّ عامٍ بسبب الخَلَل الاقتصادي، وما في قافلة النعمان من المُغْرِيَات.

والواقع أن خطر الصعاليك على الأمن في مجتمعات العرب لم يكن يتجاوزُ الباديةَ، وبعضَ الطرُق الجبلية أو الصحراوية. أما في مواسم الأسواق فلم يُعرفْ لهم خطرٌ قطُّ، لأن شؤون الأمن فيها كانت مُحْكَمةً بعدَدٍ كافٍ من الضوابط التي تحدَّثتُ عنها في هذا الفصل، كوقوع السوق في أرض مملكة، أو بجوار إحدى القبائل، أو قيامها في حمى الحرمات الدينية وغيرها، وقيامِ الذادة المحرِّمين بحماية الناس فيها... على أن خطر الصعاليك لم يكن مطلقاً من كل قيد، وقد لاحظنا في أخبارهم ما يؤكد أنهم كانوا يُعظمون الشهورَ المحرَّمةَ، ويَطمئِنُّون إلى ما كانت تُشِيعهُ من السلام، ويَكفُّون، أو

(١) المحبَّر: ١٩٥ ـ ١٩٦.

يكفُّ معظمُهم عن الفتك والغارة فيها، ويتهزونها للتنقُّل بحرية من غير أن يَعْرِضَ لهم أحدٌ، ولو كان مَوْتُوراً منهم. وكانوا يُعظِّمون كذلك الأماكنَ المحرَّمة، ويُراعُون ما اتَّصل بها من التقاليد الدينية، ويحجُّون إلى الكعبة، ويحترمون زُوَّارها، ويكفُّون أذاهم عنهم، حتى في أشهُر الحِلّ، إذا كان مع أحدهم ما يُثبت أنه كان في الكعبة. وهذا لا يمنع أن يكون فريقٌ منهم ربما أَحَلَّ الشهور المحرَّمة، لكنه لم يثبتْ أن أحدهم حاول أن يُحِلَّ حُرْمةَ الأماكن المقدَّسة. . . ولعلَّ ذلك كان تديُّناً منهم، وإعلاناً في الوقت ذاته أن كُفْرهم إنما هو بالنظام الاجتماعي والاقتصادي لا أكثر. . .



وفي ختام الفصل، يمكن أَنْ نُقرِّرَ باطمئنان أن القواعد الضرورية المطلوبة لتوفير الأمن في حواضر بلاد العرب، وفي مواسم الأسواق والعبادة، وطُرُق التجارة، كانت مُتَوافرةً بأشكالٍ وضوابطَ مختلفة، أَهمُّها: الحرماتُ الدينيةُ، والأحلافُ والمواثيقُ، وأحكامُ الجوارِ والخفارة، وكثيرٌ من التقاليد المرْعِيَّة. . ولو لم يكن الناسُ الَّذين كانوا يقصدونها يومئذٍ للتجارة أو العبادة، آمِنينَ فيها على أنفُسِهم وأموالهم، مُطْمئنِّينَ إلى سلامتهم في السَّفَر والإقامة، لما انعقدت مواسِمُ، ولا ازدهرتْ تجارةٌ، ولا رحلَ إنسانٌ من أهله إلى أيّ مكان. أما نواقضُ الأمن الدائمةُ والموقَّتةُ، من غزوٍ أو إغارةٍ، فلم تكن غير شذوذٍ عن القواعد، في حوادثَ محدودةٍ، يقعُ مثلُها، أو أكثر منها في كل زمانٍ ومكان، حتى في الدول المتقدِّمة، فلا يجوز القياسُ عليها، أو اتخاذُها معياراً لما كانت عليه حالُ الأمن في بلاد العرب منذ أكثرَ من خمسة عشَرَ قرناً، والتغافُل عن القواعد الثابتة.

الباب السادس

المواسم وحساب الشهور والسنين عند العرب

مقدمة: المواسم والأزمنة الطبيعية

الفصل الأول: الأصلُ في حساب الزمان عند العرب

المطلب الأول: علم الفلك والنجوم عند العرب ـ منازل القمر

المطلب الثاني: مذهب العرب في تقسيم الزمان

الساعة ـ اليوم ـ الشهر ـ السنة

الفصل الثاني: شهور العرب ومواقعُها من الفصول الطبيعية

المطلب الأول: شهور العرب، أسماؤها ومعانيها ودلالاتُها على طبائع الأزمنة.

المطلب الثاني: مَذاهبُ العرب في قسمة الفصول الطبيعية

المطلب الثالث: وجوهُ التوافُق بين التقويميْن العربيّ والشمسيّ

الفصل الثالث: النّسِيءُ والنَّسَأَةُ

مقدمة: معنى النسيء في اللغة والمُصْطَلَح

المطلب الأول: النَّسَأَةُ أو القلامِسَةُ فقهاءُ العرب ومُفْتوهم

المطلب الثاني: النسيء عند أهل الأخبار والمفسِّرين

المذهب الأول ـ النسيء تأخيرٌ لشهرِ المحرَّم وحُرْمتهِ

المذهب الثاني ـ النسيء تأخيرٌ لموسم الحجّ

المذهب الثالث ـ النسيء كبسٌ صحيح لإلحاق السنة القمريّة بالسنة الشمسيّة

خلاصةٌ وملاحَظاتٌ وتَعْقيب

مقدمة

المواسم والأزمنة الطبيعية

اتَّخذْتُ المواسمَ أساساً في هذا البحث، لأن تَبْسِيط الأمور يقتضي رَدَّها إلى أُصولها، وأصلُ الحاجةِ إلى العلم بالأزمنةِ والأوقاتِ ناشِئٌ من الحاجة إلى معرفة مواسم الأمطار والرياح والبرد والعِبَادات ونحوها... والموسِمُ من الوسْم أي العَلامَة، فالموسمُ بذلك مَعْلَمٌ، والمَعْلَمُ هو ما يُسْتَدَلُّ به، فكأنَّ وقتاً مُعيَّناً من السنة حُدَّ بوَسْمٍ، أو أُعْلِمَ بعلامةٍ، فصار مَوْسِماً، أو مَعْلَماً، كلما رآهُ الناسُ، أو أدْرَكَهم أوَانُهُ، اجتمعوا إليه، وأقْبَلُوا عليه، كالعِيد، ومواسم العِبَادةِ والحجّ، والأسواق الموسميَّة العامَّة.

وعلى ذلك، فالمَعْلَمُ يجبُ أن يكونَ معلوماً، مُعيَّناً وثابتاً، سواءٌ أكان زماناً أو مكاناً، إذ لا يُمكن أن يُستَدلَّ بمجهولٍ على معلومٍ، وإذا كان ما أُسْنِدَتِ الدَّلاَلَةُ إليه مجهولاً، أو مُتَقلِّباً غيرَ ثابت، فهو ليس مَعْلَماً، ولا يمكن أن يكون موسماً، لأنه فَقَدَ الأساسَ الذي جَعَلَ منه ذلك المَعْلَمَ، أو الموسمَ، وهو العلامةُ الثابتةُ المحدَّدَةُ، والوَسْمُ المميِّزُ، وصار كالأعمى الذي يَقُودُ البصِيرَ في قول بشَّار[1]:

أعمى يَقُودُ بصيراً، لا أَبا لكُمُ ... قد ضَلَّ من كانت العُميانُ تَهْديهِ

---

(1) بشَّارُ بن بُرْد: (٩٥ ـ ١٦٧ هـ = ٧١٤ ـ ٧٨٤ م). أبو مُعَاذ، شاعر ضَرِيرٌ، نَشَأَ في البصرة، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. يُعَدُّ شعره من الطبقة الأولى، وهو كثير متفرِّق، جُمع بعضُه في ديوان. إتُهِم بالزندقة، فضُرِب بالسِّياط حتى مات.

فكيف يُستدَلُّ بمَعْلَمٍ زمنيٍّ، إذا كان مُتَقلِّباً غيرَ ثابتٍ، على مَوْعِدِ اجتماع قومٍ، الأصلُ فيه أن يكون مُحدَّداً وثابتاً، يعرِفُه الناسُ إذا أَزِفَ، على تَباعُدِ أقطارهم، واختلاف بلادهم وطوائفهم وتَبايُنِ طرائِقهم في تقسيم الأزمنة وحسابها، فيَسْعَون إلى التَّلاقي فيه، والاحتفال بِمَوْسِمِهِ؟...

فالأساسُ في المواسم إذن أن تكون مواقيتُها معروفةً، ولكي تكون معروفةً لا بُدَّ أن تُحَدَّ مواقيتُها في أزمانٍ ثابتةٍ، غيرِ مُتَقلِّبةٍ، إلا بالقَدْرِ الذي يتمكَّنُ معه كلُّ امرىءٍ من حسابِها، ومعرفةِ حُدودها، إن كان يُريدُ قَصْدها لِشُهُودِها، قادماً إليها من مَطارِحَ بعيدةٍ...

والمعنَى في ذلك أن مواسم العرب، إذا كانت على النحو الذي بَيَّنَّا معالمه، وجهاً من وُجوهِ الحضارة في عصر الجاهلية، لا يكفي أن تكون مواعيدُها معروفةً، وأيامُ قيامها وانقضائها معلومةً، بل يجب أن تكون لها مَوَاقِيتُ ثابِتَةٌ، لا تدورُ في الأزمنة، دَوَرانَ الشهور في السنة القَمَرِيَّة، تكونُ مرةً في الشتاء، وأُخْرى في الصيف، تارةً في الربيع، وأُخْرى في الخريف، بينما تظلُّ الشهورُ في السنة الشمسيَّة ثابتةً في مَوَاقِعها من الأَزْمِنَة الطبيعية... والمعروفُ أن السنة القمريَّة، ومقدارُها ثلاثُ مئةٍ وأربعةٌ وخمسون يوماً وثُلُثُ يومٍ، تنقصُ أَحَدَ عَشَر يوماً عن السنة الشمسية، وعِدَّتُها ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستون يوماً ورُبْعُ يومٍ، فإن لم يَجْرِ التوفيقُ بين السنتين بكَبْسِ هذا الفَرْق[1]، صارتِ الشهورُ القمريَّة دائرةً في الأزمنة، دورةً تمتدُّ ثلاثاً وثلاثين سنةً قمريةً تقريباً، حتى تعودَ إلى مَواقِعها التي كانت عليها في ابتداءِ الدورة، وصارتِ المواسِمُ في الشهور القمرية، مناسَباتٍ غيرَ مُنْتظمةٍ، يُكلِّفُ الناسَ

(١) الكَبْسُ: تأخيرُ كُسُورِ اليوم حتى تصير يوماً، أو الأيام حتى تصير شهراً، ثم زيادتُهُ على السنة. يقال: كَبَسَ السنةَ أي زاد فيها يوماً أو أياماً أو شهراً.

شُهودُها نَصَباً، لعلَّهُ لا يلبثُ حتى يُؤَدِّيَ بهم إلى إغفالها، ونسيانِ أمرها، أو إهْمالها. . . ولذلك كان العربُ في الجاهلية يقومون بفِعْل «الكَبْسِ»، تثبيتاً لمواسمهم في الأزمنة، ويُسَمُّونهُ: «النَّسِيءَ» بمعنى التأخير، ولكنّ أهلَ الأخبار وبعضَ المستشرقين أنكروا عليهم معرفةَ هذا الأمر، لأن في الإقرار به إقْراراً لهم بالعلم، وهو ما لا يُريدونه! مع أنِ نزول القرآن بإبطالِ النَّسِيء دليلٌ على أنه ظلَّ قائماً حتى حَرَّمَه الإسلام، وهو دليلٌ تُؤكِّدهُ المعاني التي تُشِيرُ إليها أسماءُ الشهور العربية، وقد اشتُقَّت جميعُها من طبائع الأزمنة التي كانت تقعُ فيها، قبل أن أَخذتْ تدورُ في الفُصول بعدما أُبْطل النَّسِيءُ. ولذلك أيضاً كانوا في صدر الإسلام، يُسْقِطون سنةً عند رأس كل ثلاثٍ وثلاثين سنةً هجريةً، ويُسَمُّونَها سنةَ الازْدِلافِ، أي التقريب، «وإنما حَمَلهم على ذلك، الفَرارُ من اسم النسيء، الذي أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى أنه زيادةٌ في الكِفر»[1]. . . ولا يمكن القبولُ بمذهبِ من قال إن العرب، لمّا أطلقوا الأسماءَ المناسِبةَ على شهورهم وفاقاً لمواقعها من الأزمنة، لم يكن في حُسْبانهم أنها ستدُور في الأزمنة، وتقعُ شهورُ الشتاء في الصيف، وشهورُ الصيف في الشتاء، فالقبولُ بمذهبٍ كهذا يعني إضافة الجهلِ والغَباءِ والغَفْلة إلى العربِ، وهو أمرٌ غيرُ صحيح، لأن فيه ظُلماً، وافْتِئاتاً على العقل والحقّ معاً.

وعلى ذلك كان لا بُدَّ لنا في هذا الباب من البحث في مَوضُوعَيْن، أولاً في تقسيم الأزمنة عند عرب الجاهلية، ثم في أمور النَّسِيء والنَّسَأَة، حتى نقفَ على الحقيقة في هذا الشأنِ الذي كانت تتعلَّقُ به مواسمُ أسواقهم وحَجِّهم وزراعتهم وأسفارهم، وهو مَطْلبٌ دقيقٌ جدّاً، وعَسِيرٌ، أعْيَا بحثُهُ كثيرين قَبْلي، وسيَظلُّ يُعْيِي الباحثين بعدي، لكثرة ما قيل فيه من روايات

---

(١) صبح الأعشى: ٢/٤٢٦.

وأخبار، ينقضُ بعضُه بعضاً، إلا إذا ظهر يوماً دليلٌ من التُّراثِ، يَقطعُ الشكَّ باليقين، ويضعُ الأمور في نِصَابها. وإلى أن يظهر مثلُ هذا الدليل، ليس لنا إلا أن نُقلِّبَ تلك الروايات والأخبار، ونبحث فيها على طريقة الاسْتِقراء والاسْتِدْلال، كي نخلُصَ إلى ما يمكن أن يكون أقربَ الأمور إلى الحق والعقل، وأكثَرها اتفاقاً مع منطق التاريخ، ووقائعِهِ التي كُتِب لها أن تُدَوَّنَ عند العرب... ولا أرى، في غياب النصوص، ما يمنع أن يكون استقراءُ الوقائع المأثورة، دليلاً على ما كان يجري في التاريخ القديم، ولا سيما إذا خلا ذلك التاريخُ من رواياتٍ وأخبارٍ يقينيَّةٍ أو ظَنِّيَّةٍ!. على أن تاريخنا لم يخلُ كلَّ الخُلُوِّ من تلك الروايات والأخبار، بل جاءت فيه نصوصٌ كثيرةٌ، منثورةٌ خلال موضوعاتٍ أخرى، ومُصَنَّفاتٍ مختلفة، يمكن بالرجوع إليها تحقيقُ الكثير.



الفصل الأول

الأصل في حساب الزمان عند العرب

المطلب الأول ـ علم الفلك والنجوم عند العرب:

إن مما لا خلاف فيه، أن شعوب العرب كانت، في جُمْلتِها، من أكثر الأمم تأمُّلاً في السماء، ورَصْداً للكواكب والنجوم، اهْتِداءً بها في ظلمات البرِّ والبحر، وتَوصُّلاً إلى معرفة الأجواءِ والأنواء، والعلمِ بطبائع الأزمنة، ومواعيد الأمطار، لما لذلك كله من علائق وثيقةٍ بحياتهم، ومواسِمِهم الدينيَّة والزراعيَّة والتجاريَّة، وتَقَلُّبِهم في الأرض بأنعامهم وغَلَّاتهم ومَتَاجِرهم، وهو ما حَملهم على مُتابعةِ حركة الأفلاك، وتعيين منازل الشمس والقمر، ومراقبة مطالع النجوم ومَغَاربها، ومَوَاقيتِ كلِّ أولئك، ومَوَاقِعهِ من تَقلُّبِ الأزمنة، واختلاف ظواهر الطبيعة، من حَرٍّ وبَرْدٍ، ورِيَاحٍ، وأمطارٍ، وثلوجٍ، وغير ذلك[1]. . .

ويُعَدُّ الكلدانيون، أو البابليون، «أساتذةَ العالم في علم النجوم، هم وضعوا أُسُسَهُ، ورفعوا عُمُدَهُ، ساعدهم على ذلك صفاءُ سمائهم، وجفافُ هوائهم، واستواءُ آفاقهم، فرصدوا الكواكب، وعيَّنُوا أَماكِنَها، ورسموا الأبراجَ، ومنازلَ الشمس والقمر، وحَسَبُوا الخُسوفَ والكُسوف بآلاتِ فلكية

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥، والحوليّات الأثريّة السورية لعام ١٩٨١ ـ معاني النجوم: المجلّد ٣١/ ١٨.

منذ بضعةِ وأربعين قرناً، وعنهم أخذ اليونانُ والهنودُ والمصريون وغيرُهم من أهل التمدُّن القديم...»[1]. ولمَّا فتح الفرسُ بِلادَ بابل (٥٣٨ ق. م)، وقضوا على الإمبراطورية البابلية الحديثة «الكلدانية»[2]، هاجر كثير من الكلدانيين إلى بلاد العرب، وكانت وقتئذٍ ملاذَ المهاجِرين من العراق ومصر والشام، لامتناعها على الغُزَاةِ بما كان فيها من البوادي والفَلَواتِ الشاسعة، ولِسُهولة السُّكْنَى بها على أهلِ بابلَ، لما كان يجمع بينهم وبين أهلها من قَرابةٍ في اللغة والأُصُول. وكان في جُملة المهاجرين طائفةٌ من الكُهَّان[3]، وأصحابِ النجوم، اكتسب العربُ منهم علماً كثيراً بمواقع الأبراج، ومنازل الشمس والقمر، وعقائد النجوم والتنجيم، وأضافوه إلى ما سبق لهم كشْفُه، والعلمُ به، في هذا الموضوع[4]. وكان من أشدِّ مزايا الديانة البابلية ظهوراً، فضلاً عن الأساطير الدينية، تفسيرُ الظواهرِ الطبيعيةِ «العِرَافَةُ»، والعِلمُ بالأجرام السماوية، والتنجيمُ، والتعاويذُ السِحْريَّة[5]. وقد ذكر «پرستيد» أن الكلدانيين حقَّقوا في علم الفلك نجاحاً كبيراً، وأنهم كانوا قبل ذلك مُولَعين بعلم التنجيم لكشف أسرار الغيب، فوضعوا خريطةً للأجرام السماوية، وقسموا الكواكب إلى إثنتيْ عشرة مجموعةً، كلُّ مجموعة منها تُسمَّى بُرْجاً، وكان من عقائدهم أن للسيَّارات الخمسِ: عُطارِدَ والزُّهرة والمرِّيخ والمُشْتري وزُحَل، سلطاناً على الناس وأحوالهم[6]، وأن لها ارتباطاً بالمعيشة اليومية،

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ١٢.

(٢) موسوعة تاريخ العالم: ١/ ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) الكاهِنُ: هو في الأصل من يدَّعي العلم بالأسرار وأحوال الغيب، ويستوي معه في هذا المعنى العرَّافُ والمُنَجِّمُ.

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ١٣ و ١٩.

(٥) موسوعة تاريخ العالم: ١/ ٥٦.

(٦) العصور القديمة: ١٨٤.

وطوالع الأوقات، وحوادث الأيام[١]... وكانوا يُقدِّسون هذه الكواكبَ، ومعها الشمسُ والقمرُ[٢]، ولذلك صار رقمُ السبعة مُقدَّساً[٣]، وأصبح عندهم عقدةً حسابيةً، يَشْهدُ لها جعلُهم أيَّامَ الشهر أربعَ مجموعاتٍ، كلُّ مجموعةٍ سبعةُ أيام[٤]. وكان حسابُ الزمن عند أهل بابل، من الأكَّادِيين والعمُّوريين والكلدانيين، يقوم على دورة القمر، وكانت سنَتُهم (٣٥٤) يوماً وبعضَ اليوم، فكانوا يستعملون الكَبْسَ، لِيَضْمنوا التوافُقَ بين دَوْرَتَيْ القمر والشمس، وهو ما أخذه عنهم العربُ والعبرانيون واليونان، وكذلك الرومانُ في بداية أمرهم[٥].

وقد جاءت الكلماتُ: «يرخ» في الآرامية والفينيقيَّة، و «ورخ» في العربية الجنوبية، و «أرخ»، و«ورخ» في العربية الفصحى، لتُؤدِّيَ جميعاً المعنى نفسَهُ، أي الشهرَ، أو القمرَ، أو التأريخ بمعنى تعيين الزمن[٦]، مما يعني أنهم كانوا يومئذٍ على شاكلةٍ واحدةٍ في قياس الزمن. ومن المحقَّق أن

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية: ١٦.

(٢) كانت دياناتُ الوثنيين تقوم في الأصل على الاعتقاد بأن القمر سيِّدُ الآلهة، وزعيمُها، فقدَّمُوهُ عليها جميعاً، بما في ذلك الشمسُ. ويُسمَّى القمرُ الإلَه «سين»، ويُرمَز إليه بالصنم «وَدٌّ» عند عرب اليمن والحجاز، كما يُرمَزُ إلى الشمس بالصنم «اللات»، وقد جعلوها زوجةً للقمر، أوْلَدَهَا الزُّهرة. ومن هنا نُدرك علَّةَ الابتداءِ بالتقويم القمريّ عند مختلف الأمم القديمة، ثم انتقالها أُمّةً بعد أُخرى إلى التقويم الشمسيّ في تطوُّرٍ لاحقٍ.

(٣) قد اكتُشف بعدها كوكبُ أورانوس (١٧٨١ م)، ونبتون (١٨٤٦ م)، وبلوتون (١٩٣٠)، فصارت عشرةَ كواكب.

(٤) الحوليات الأثرية السورية: ٣١/١٨، والمفصَّل: ٨/٤٦٢ ـ ٤٦٣.

(٥) تاريخ الجنس العربي: ٣/٢٠٣.

(٦) لغات الشرق الأدنى القديم ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثاني: ٨٤٩، ١١٠٧، والمفصَّل: ٨/٤٤٦.

تقسيم الشهور والأيام، كما عُرِفَ في بلاد الرافدين والشام وجزيرة العرب، قد كان عليه طابعُ اللغات العربية القديمة[1]، وهو ما يُشِير إلى أصل واحدٍ له، قديمٍ، نجِدُ مِصْداقَهُ أيضاً في أسماء الكواكب، والنجوم، ومنازل الشمس والقمر، والبروج، فإنها عند العرب كما كانت عند الكلدانيين تماماً[2]، مع بعض الفروق في النطق، والاختلاف في بعض الحروف. ويبدو من قِدَمِ أسماءِ تلك النجوم في العربية، قِدَمُ معرفةِ العرب بها، وبمواقعها، وما يتَّصلُ بها من العلوم، والمعارف، والعقَائدِ، وتقسيم الزمن. وهكذا يمكن القولُ بأن العرب كانوا مَدِينين في كثيرٍ من عِلْمهم بالنجوم والأنواء والأزمنة للبابليِّينَ، أو الكلدانيِّين، وكانوا يُسَمُّون مَن قَدِمَ إليهم منهم الصابئة[3]. . . ولعلَّ الصابئة طائفةٌ من بقايا الأقوام العربية القديمة في بلاد الرافدين وشمال سورية[4]، انتشرت في بلاد العرب بعدما قضى الفرسُ على إمبراطورية بابل، تحملُ معها عقائدَها وديانتَها وعلومَها وأساطيرها.



ولا نريد التوسُّعَ فيما كان يُحيط به عربُ الجاهلية من علم النجوم والأفلاك، وإنما حَسْبُنا الاجْتِزَاءُ بخُلاصةِ ما كانوا يعرفونه عن الشمس والقمر، وبعض النجوم الثابتة، التي تنتقلُ فيها الشمسُ في فصول السنة، وينتقلُ فيها القمرُ من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه[5]، والتي اتخذوها

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية: ١٤.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ١٤ ـ ١٥.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٣.

(٤) الصابئة: قوم يُقال إنهم على دين نوح، ويزعم بعضُ الباحثين أنهم طائفة من النصارى، وهو غير صحيح، لأن القرآن الكريم جعلهم طائفةً مُستقلَّةً عنهم.

(٥) صبح الأعشى: ٢/ ١٦٨، ١٧٣.

أعلاماً على تعاقُبِ الأزمنة، وتَقلُّبِ الأنواء، واختلافِ الفُصول، مما يتعلق به انتظامُ مواعيد المواسم الزراعية والدينية والتجارية.

والفَلَكُ عند العرب مدارُ النجوم[١]، سُمِّي فَلَكاً لاسْتدارته[٢]، وسُمِّيَتِ الدائرةُ التي ترسمها الشمسُ، بحركتها الخاصَّة في دورةٍ لها، تامَّةٍ، فلَكَ البُروج[٣]، وهي إثنا عَشَر بُرْجاً من النجوم الثابتة[٤]، تقطَعُها الشمسُ في دورةٍ تامَّةٍ، مُدَّتُها ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وسِتُّونَ يوماً ورُبْعُ يومٍ، سُمِّيَتْ سنة الشمس. ولمَّا كان القمرُ، كما قال المرزوقي[٥]: «يجتمعُ مع الشمس في مُدَّة هذه الأيام، اثنتَيْ عشرةَ مرَّةً، فقد جُعِلت سنةُ الشمس اثنَيْ عشَرَ شهراً، وسُمِّيت الشهورَ القمريَّةَ، كما جُعل الفلكُ اثنَيْ عَشَرَ بُرْجاً، لكلِّ شهرٍ برجٌ»[٦].

فكأنَّ المرزوقيَّ أراد بهذا القول، أنهم كانوا يَعْتدُّون في الفُصول الطبيعية، وعَدَدِ السنين بدورة الشمس، ويَعْتدُّون في حساب الشهور والآجال والمواعيد بدورة القمر. ذلك أن الفصول الطبيعية تنفصِلُ بمسير الشمس، لا

---

(١) لسان العرب: ١٠/٤٧٨ (فلك).

(٢) صبح الأعشى: ٢/١٦٣.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/١٧٠.

(٤) النجوم الثابتة: هي الكواكب التي تظلُّ ثابتةً في مكانها من الفلك، لا تتحرَّكُ من المغرب إلى المشرق، كما تتحرَّك الكواكبُ السيَّارة، وإنما تتحرَّكُ بحركة الفَلَك كلِّه من المشرق إلى المغرب، في اليوم والليلة. وأشْهَرُها الكواكب التي تُعرف بها الأزمنةُ والأنواء، وهي نجومُ البروج التي تنتقلُ فيها الشمس، ونجومُ المنازل التي ينتقل فيها القمرُ كل ليلة في منزل، ونجومٌ أخرى مثلُها، كانوا يستدلُّون بها على شؤونٍ مختلفةٍ من شؤون حياتهم، منها: سُهَيْلٌ، والسُّهَا، والفَرْقَدان، والشِّعْرَيَان: الشِّعْرىَ العَبُور والشِعْرىَ الغُمَيْصَاء..

(٥) سبقت ترجمته.

(٦) الأزمنة والأمكنة: ١/١٧١، و ١/٢٠٥.

بمسير القمر[١]، والشهورُ إنما تُشْهَرُ وتَظْهَرُ بظهور القمر[٢]، لا بمسير الشمس وظهورها. وعلى هذا المذهب كان اعتمادُ العرب واليونانيين والعبرانيين، وهو مذهب البابليين في الأصل، كما ذكر بعضُ المؤرخين[٣]. ولعلَّهم كانوا يتَّخِذُون في تقويمهم السنة الشمسيَّة في الفصول الطبيعية وتَقَلُّبِها، والشُهورَ القمريَّةَ في المواعيد والآجال... ويبدو واضحاً في الإنكليزية أن كلمتَيْ: قمر «MOON»، وشهر «MONTH» من أصل واحد، وهو دليل على أن شهورهم قديماً كانت قمريَّةً، مع أن سنتهم شمسيَّة، وهو شأن الناس جميعاً...

ومن ذلك أن العرب، كما ذكر ابنُ منظور، كانت إذا نظرتْ إلى الهلال، قالت: لا مَرْحباً بمُحِلِّ الدَّيْن، مُقَرِّبِ الأَجَل[٤]... ومنه أيضاً، أن مواعيدهم كانت تُبنَى على رؤية الأهِلَّة، كقول الأزرقي، مثلاً، في خروج العرب إلى مواسمهم: «فيُصْبِحُونَ بعُكاظ يومَ هلال ذي القعدة، فيقيمون به عشرين ليلةً، تقومُ فيها أسواقُهم بعُكاظ... فإذا مضَتِ العشرون، انصرفوا إلى مَجَنَّةٍ، فأقاموا بها عَشْراً، أسواقُهم قائمةٌ، فإذا رأوا هلالَ ذي الحجَّة، انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمانَ ليالٍ، أسواقُهم قائمةٌ...»[٥].

ومنه كذلك، أن اليونان كانوا يجعلون موسمَ **الألعابِ الأُلِمْپِيَّةِ** الدينيةِ عندهم، «عقب ظهور البَدْرِ التالي للانقلاب الصيفيّ»[٦]، أي في أوَّلِ يومٍ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٧.
(٢) لسان العرب: ٤/٤٣١ (شهر)، وأسماء الأشهر: ١٠.
(٣) الأزمنة والأنواء: ٢٩، وتاريخ الجنس العربي: ٣/٢٠٣.
(٤) لسان العرب: ١١/١٦٧ (حلل).
(٥) أخبار مكة: ١/١٨٧ ـ ١٨٨.
(٦) قصة الألعاب الأُلِمْپِيَّة ـ مجلة العربي (تموز ـ يوليه ١٩٨٠): ٢٨.

يأتي مباشرةً، بعد اكتمال أوَّلِ بَدْرٍ في فصل الصيف، الذي يبدأُ في الثاني والعشرين من شهر حزيران، حينما تَحلُّ الشمسُ في برج السَّرَطان[1]. وبذلك يكون موعدُ قيام موسم أُلِمْپُسْ مَبْنيّاً على تقويم شمسيٍّ قمريٍّ في آنٍ معاً، غيرَ ثابتٍ في يومٍ مُعيَّن، بل في فصلٍ مُعيَّن.

ومثلُهُ أيضاً موسمُ الصوم الكبير عند النصارى، فقد كان وما يزال يقومُ على ميقاتٍ شمسيٍّ قمريٍّ معاً، غيرَ ثابتٍ في يومٍ مُعيَّن، بل في زمنٍ أو فصلٍ مُعيَّنٍ من السنة. فأوَّلُه عند نصارى الشرق يُلْتَمسُ ابتداءً من ثاني شباط ـ فبراير حتى الثاني من آذار ـ مارس، ويجب أن يقع أبداً في يومِ الإثنين، الأقْربِ إلى اجتماعِ الشمسِ والقمر في آخر الشهرِ القمريّ، إمَّا قبلَ الاجتماع، وإمَّا بَعْدَهُ. وفِطْرُهم أبداً يكون يومَ الأحد، وهو التاسعُ والأربعون من ابتداء الصَّوْم[2]... كما أن مَجْمَعَ كنيسة نِيقْيَةَ بالأناضول، قرَّر سنة (٣٢٥ م)، أن الاحتفال بعيد الفِصْح[3]، وهو ما يأخُذُ به الغربيُّون، يكون في اليوم السابع والأربعين من ابتداءِ الصوم، ويجب أن يكون في أوَّل يوم أحَدٍ، يأتي بعد البَدْرِ الأول في فصل الربيع[4]... وهو ما يجعلُ موعدَ قيامه مُعيَّناً في شهر قمريّ وفَصْلٍ شمسيّ، فيكون موسمُ الفصح بذلك مُتنقِّلاً بين

---

(١) الأزمنة والأنواء: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) مختصر تاريخ البشر: ١/ ٩١. واقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٠.

(٣) عيد الفصح: يحتفل فيه اليهودُ بذكرى خَلاصِهم من فرعون، وخُروجهم من مصر بقيادة موسى، واتفق لهم ذلك ليلة الخامس عشر من نيسان (القمري)، والقمرُ تامُّ الضوء، والزمانُ زمانُ ربيع، فظلُّوا يحفظون ذلك اليوم. ثم صار عند نصارى الشرق عيدَ قيامةِ المسيح من القبر، بعد الصَّلْبُوت والموت، ويُسَمُّونَهُ أَحَدَ القيامة، وهو بالتقويم الشمسيّ غير ثابت في يوم مُعيَّن، بل يدور من ثاني عشر آذار إلى خامس عشر نيسان.

(٤) موسوعة كومپتون: ٤/ ٢٤٣ ـ Compton's Ency. D, E, 4/243، والمنجد في الأدب والعلوم: ٣٩٠.

(٢٢) آذار ـ مارس، و (٢٥) نيسان ـ أبريل، وموسمُ الصوم الكبير مُتَنقِّلاً أيضاً بين (٢) شباط ـ فبراير ومطلع آذار ـ مارس من كل عام. . . ويُلاحظ كذلك أن «عيدَ النصارى ليس يوماً محدوداً من السنة الشمسيَّة، وإنما هو يتقدَّمُ فيها، ويتأخَّر في نحو ثلاثة وثلاثين يوماً»[1].

ومن شأن ذلك كله، أن يؤكد لنا اعتمادَ مُعْظم الأُمم وقتئذٍ تقويماً شمسيّاً قمريّاً لِمَواسمها، وأن العرب لا يمكن أن يَشذُّوا وحدهم عن هذا التدبير، لأنهم لم يكونوا في عُزْلةٍ عن الناس، وكيف يكونون كذلك وهم زعماءُ التجارة، وأصحابُ المواسم الكبرى؟. . . على أن هنالك نصّاً في حديث الأسواق الموسمية، يؤكد أن مواعيد مواسمهم كانت ثابتةً، باعتمادها حركةَ منازل القمر، فقد نقل المرزوقيُّ أن أهل الشام كانوا، كلما أَفَلَتِ الثريَّا، أي غابت في العَشِيَّةِ مع غروب الشمس، اعْتَدُّوا خمسةً وعشرين يوماً، ثم أقاموا في اليوم التالي موسمَ سوق «دير أيوب»[2]، وهذا الموعدُ مُقدَّرٌ عندهم نحو الثالث والعشرين من نيسان ـ أبريل[3]، لكنه يعني أن العرب في الجزيرة كانوا إذا أرادوا شهودَ ذلك الموسم في موعده، كان عليهم أن يَلْحَظُوا موعدَ أُفُولِ الثريَّا، أو أن يُقدِّرُوهُ على حساب أهل الشام، ليعلموا ميقاتَ قيامه، الذي يكون ثابتاً غالباً، ضمن حدود الفرق في حساب النجوم بين أهل الحجاز مثلاً وأهل الشام.

* * *

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٥.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٩.

(٣) عجائب المخلوقات: ١١٨.

وتَقْتضِينا النزاهةُ أن نشير إلى أن ابن تيميَّة[1]، عَدَّ مُراعاةَ التوقيتِ الشمسيِّ الهلاليِّ بِدْعةً، «أَحْدَثها اليهودُ والنصارىٰ، باتّفاقٍ منهم، خالَفُوا بها الشـريعـةَ التـي جـاءتْ بهـا الأنبيـاءُ، فـإن الأنبيـاء مـا وَقَّتـوا العبـادات إلا بالهلال»[2]. . . فكيف ذلك والصلواتُ الخمسُ مَنُوطةٌ بالشمس؟ والزكاةُ لا يستقيمُ أمرُها إلا بالتوقيت الشمسيّ، عَنَيْتُ الفصولَ الطبيعيةَ لسَنَة الشمس؟ والوقوفُ بعَرَفَة والنَّفْرُ والإفاضةُ كلُّها مَنُوطةٌ بالشمس؟ والصيامُ إنما هو، في الشرع، إمْسَاكٌ عن شَهْوَتيْ البطن والفَرْج من الفجر إلى غروب الشمس مع تَبْييتِ النيَّة. أمَّا شُهودُ هلالِ رمضان، وإن كان مُوجِباً للدخول في شهر الصوم، فإن عدمَ شُهوده لا يرفعُ عن المسلم فريضةَ الصوم، فهو مُجْبَرٌ على الصوم إن رأى الهلالَ أو غُمَّتْ عليه رؤيتُه.

* **حسابُ منازل القمر:**

ويبدو أن العرب في الشمال والجنوب، لم يعتمدوا صُوَرَ البروج فقط كما رصدها القدماءُ، بل رَصَدوا نجوماً أخرى ثابتةً، يدخلُ في صُوَرِها معظمُ كواكب البُروج[3]، فكانوا يَسْتعينون بها على العلم بفصول السنة وأزْمنتِها، بطريقةٍ أشدَّ وضوحاً، وأكثر سهولةً. فقد وجدوا أن ما تَقْطعهُ الشمسُ في جميع السنة من الفَلَك، يقطعه القمرُ في ثمانيةٍ وعشرين يوماً، فقسموا نجومَ هذا الفَلَك على مِقْدار الأيام التي يقطعها القمرُ فيها، وطلبوا في كلِّ قسم

(١) ابنُ تَيميَّة: أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، الحرّانيُّ، الدمشقيُّ، الحنبليّ، شيخ الإسلام. كان آيةً في العلم والتفسير والأصول، فصيح اللسان، أفتى ودرَّس وناظَر العلماء، وهو دون العشرين. مات مُعْتَقَلاً بقلعة دمشق سنة (٧٢٨ هـ = ١٣٢٨ م).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢١٠.

(٣) صبح الأعشى: ٢/١٦٨، ١٧٣، ١٨١ ـ ١٨٢، والأزمنة والأنواء: ٦٣.

علامةً تكون أبْعادُ ما بينها وبين العلامة التي تليها مِقْدارَ مَسِير القمر في يوم، وسَمَّوْا ما بين كلِّ علامَتَيْن منزلةً، فتَحقَّق لهم بذلك ثمانٍ وعشرون منزلةً، سَمَّوْها منازلَ القمر[1]. وجعلوها قسمين: أحدهما شماليٌّ، والآخَرُ جنوبيٌّ، في كلٍّ منهما أربع عشرةَ منزلةً، فالشماليُّ ما كان طلوعه من ناحية الشام، والجنوبيُّ ما كان طلوعه من ناحية اليمن. وهي جميعاً مَقْسومةٌ كذلك على البروج الإثْنَيْ عَشَر، مُوزَّعةٌ عليها بمقدار منزلتين وثُلُث منزلةٍ لكل بُرْجٍ منها[2]. والمنازِلُ للقمر كالبُروج للشمس، ومثلما جعل الله «في مسير الشمس وانتقالها في البُروج عَلَماً على انتقال الزمان، واختلاف أحواله في الطُّول والقِصَر، والحَرِّ والبَرْدِ»[3]، فإنه جعل في حركة منازل القمر أيضاً أعلاماً أُخرى ثابِتَةً، دقيقةً، استدلَّ العربُ بها على توالي فصول السنة، ومواسم المطر والرياح والحَرِّ والبرد، ومواعيد الأعياد والأسْفَارِ والدُّيون وغيرها. فقد وجدوا أن منزلاً من تلك المنازل يسقطُ في أُفق المغرب مع الفجر، كلَّ ثلاثة عشر يوماً، ويطلعُ آخَرُ يُقابِلهُ في أُفُق المشرق، من ساعته، سوى واحدٍ، فإنَّ له أربعةَ عشَر يوماً، وهو منزلُ «الجبهة»، فتنقضي جميعُها بانقضاء ثلاثِ مئةٍ وخمسةٍ وستين يوماً تقريباً، وهي عِدَّةُ أيام سنة الشمس[4]... وعَرَفُوا أن لكل منزلةٍ في السنة طُلوعاً وسُقوطاً، بينهما مئةٌ واثنانِ وثمانون يوماً تقريباً، وكلاهما معلومٌ مُسَمًّى، وعليه مُعَوَّلُ العرب في حساب الأزمنة والأنواء[5]... ومن ذلك مثلاً: **تَنْجِيمُ الدَّيْن**، وهو أن يُقَدَّرَ

---

(١) صبح الأعشى: ٣٩٨/٢.

(٢) المرجع نفسه: ٣٩٩/٢، ولسان العرب: ١٧٦/١ (نوأ).

(٣) الأزمنة والأنواء: ٨٢.

(٤) لسان العرب: ١٧٦/١ (نوأ)، والأزمنة والأمكنة: ١٨٦/١، وصبح الأعشى: ٣٧٧/٢، ٣٨٢.

(٥) الأزمنة والأنواء: ١٠٧ ـ ١٠٨، ولسان العرب: ١٧٦/١.

عَطاؤُه، في أوقاتٍ معلومةٍ مُتتابعةٍ، تعتمدُ مطالعَ النجوم ومسَاقِطها، والأصلُ في ذلك كما قال ابنُ منظور: «أن العرب كانت تجعلُ مَطالعَ منازلِ القمر، ومسَاقِطَها، مَواقيتَ حُلولِ دُيُونها وغيرها»[1]، وكانوا، كما يُفهم مما نقله المرزوقي، يعلمون أن «بين طُلوع الثريَّا مع الفجر، وعَوْدِهِ إلى طُلوع مِثْلِهِ» سنةً شمسيةً تامّةً، وقد كانوا يُسَمُّونها حَوْلَ الثُّريَّا[2]... ومنه أيضاً، أن النجوم التي تنسب العربُ إليها الأنْواءَ هي منازلُ القمر، ذلك أنهم نظروا فوجدوا للأمطار والرياح زماناً تكثُر فيه، وزماناً تَقِلُّ فيه، فرتَّبُوا معرفتهم بها على أنواءِ تلك الكواكب[3]. ومذهبُهم في ذلك «أن تُجعل الأَنْواءُ أعلاماً للأمطار، وأوقاتاً لها...»[4]، ومعنى النَّوْء في الأصل النهوضُ، ولكنه هنا سقوطُ نجمٍ في المَغرب وطلوعُ آخَرَ في المشرق[5]، فإذا ناءَ النجمُ من هذه المنازل، وكان في مُدَّة نَوْئهِ مطرٌ أو ريحٌ أو بردٌ، فهو منسوبٌ إليه عند سقوطه، أمَّا ما كان من حَرٍّ وسَمُومٍ فإنما هو عند طلوعه[6].

صفوة القول في معرفة عربِ الجاهلية شؤونَ الأفلاك والنجوم، أنهم كانوا على علمٍ غير قليل بها، لحاجتهم إلى الاهتداء بها في ظلمات البرِّ والبحر، وفي تقلُّبِ الطبيعة وفُصولها، وفي أقسام الوقت وتَتابُعِها.

* * *

(١) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٠ (نجم).
(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠٢.
(٣) صبح الأعشى: ٢/ ١٨٨.
(٤) الأزمنة والأنواء: ١٣٦.
(٥) لسان العرب: ١/ ١٧٧ (نوأ).
(٦) الأزمنة والأنواء: ١٣٥، ولسان العرب: ١/ ١٧٧، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ٧٦ ـ ٧٧.

مَنازلُ القمر الثمانيةُ والعشرونَ وأيامُ مَطالِعها ومَسَاقِطها ابتداء من أول السنة

الرقم	اسم المنزل	يوم الطلوع وابتداءُ نَوْئه	يوم السقوط وابتداءُ نَوْئه	ملاحظات
١	الفَرْغ الثاني أو المؤخَّر	٢١آذار	٢٠ أيلول	وهو فَرْغُ الربيع، ويقع في برج الدَّلو مع الفَرْغ الأول. يُؤذِنُ طلوعُه بابتداء الربيع، وسقوطُه بابتداء الخريف، وهو أول الأزمنة عند العرب.
٢	بطن الحوت أو الرشاء	٣ نيسان	٣ تشرين الأول	
٣	الشَّرَطان	١٦ نيسان	١٦ تشرين الأول	
٤	البُطَيْن	٢٩ نيسان	٢٩ تشرين الأول	
٥	الثُّريَّا	١٢ أيَّار	١١ تشرين الثاني	طلوعُ الثريَّا مؤذِنٌ بإقبال الحرِّ وشِدَّته، وسقوطُها مُؤْذِنٌ بانتهاءِ الوَسْميّ.
٦	الدَّبَران	٢٥ أيار	٢٤ تشرين الثاني	
٧	الهَقْعَةُ	٧ حزيران	٧ كانون الأول	إذا طلعت الهَقْعَةُ رجع الناسُ عن النُّجْعَة، وعند طلوعها تطلع الجوزاء، وحينئذ يكون التهابُ الحرِّ.
٨	الهَنْعَة	٢٠ حزيران	٢٠ كانون الأول	
٩	الذِّراع	٣ تموز	٢ كانون الثاني	
١٠	النثرة	١٦ تموز	١٥ كانون الثاني	
١١	الطَّرْفُ أو الطَّرْفَةُ	٢٩ تموز	٢٨ كانون الثاني	
١٢	الجَبْهَة	١١ آب	١٠ شباط	
١٣	الزُّبْرَة أو الخُرْتان	٢٥ آب	٢٤ شباط	إذا طلع الخُرْتان جُنِيَ البُسْرُ بكل مكان، وطاب الزمان.
١٤	الصَّرفَةُ	٧ أيلول	٩ آذار	وفي ١٩ أيلول ينتهي نَوْءُ طلوعها إيذاناً بانصراف الحرِّ، وفي ٢١ آذار ينتهي نوءُ

الرقم	اسم المنزل	يوم الطلوع وابتداءُ نَوْئه	يوم السقوط وابتداءُ نَوْئه	ملاحظات
				سُقوطها مُؤْذِناً بانصراف البرد، وفي كليهما علامةٌ على انصرام نصف السنة.
١٥	العَوَّاء	٢٠ أيلول	٢٢ آذار	إذا طلع العَوَّاء طاب الهواء
١٦	السِّماك	٣ تشرين الأول	٤ نيسان	
١٧	الغَفْرُ	١٦ تشرين الأول	١٧ نيسان	إذا طلع الغَفْرُ ذهبت النضارةُ عن الأرض والشجر
١٨	الزُّبانَى	٢٩ تشرين الأول	٣٠ نيسان	إذا طلعت الزُّبَانَى فاجمعْ للشتاء ولا تَتَوانَ
١٩	الإكليل	١١ تشرين الثاني	١٣ أيّار	
٢٠	القلب	٢٤ تشرين الثاني	٢٦ أيّار	
٢١	الشَّوْلَة	٧ كانون الأول	٨ حزيران	
٢٢	النعائم	٢٠ كانون الأول	٢١ حزيران	
٢٣	البلدة	٢ كانون الثاني	٤ تموز	يشتدُّ في نَوْءِ طلوعها بردُ الشتاء، ويجمد الماء.
٢٤	سعد الذابح	١٥ كانون الثاني	١٧ تموز	يشتدُّ في طلوعه الصقيع
٢٥	سعد بلع	٢٨ كانون الثاني	٣٠ تموز	تأخذ الأرضُ في طلوعه بالاخضرار
٢٦	سعد السعود	١٠ شباط	١٢ آب	في طلوعه ينكسر الشتاء
٢٧	سعد الأَخْبِيَة	٢٣ شباط	٢٥ آب	يُؤْذن طلوعُه باقتراب موسم الربيع، والانتقال من الأبنية في المحاضِر إلى الأَخْوِيَة في المبادي
٢٨	الفَرْغ الأول	٨ آذار	٧ أيلول	طلوعُه إرْهاصٌ بموسم الربيع، وسقوطُه إرهاصٌ بموسم الخريف

المطلب الثاني ـ مذهب العرب في قسمة الزمان:

من المتفق عليه أن الزمان ينقسم عند جميع الأمم بأربعة أقسام: القسمُ الأول منها يُسمَّى ساعةً، والثاني يُسمَّى يوماً، والثالث يُسمَّى شهراً، والرابعُ يُسمَّى سنةً[1]. وقد ذهب العربُ في تقسيم الزمان مذهبَ سائر الأمم، مع بعضِ الاختلاف في التفاصيل.

١ ـ الساعـة:

جزءٌ من أجزاء الليل والنهار، والليلُ والنهارُ معاً أربعٌ وعشرون ساعةً[2]، زمانُ كلٍّ منهما اثنتا عشرة ساعةً طالَ أو قَصُر[3]، ولكل ساعةٍ من ساعات الليل والنهار عند العرب إسمٌ يُميِّزُها[4]، فأولُ ساعاتِ الليل الشَّفَقُ وآخرها الفجرُ، وأولُ ساعات النهار الشُّروقُ وآخِرُها الغروبُ[5].



٢ ـ اليـوم:

اسم للزَّمانَيْنِ معاً، الليلِ والنهارِ، وابتداؤه عند العرب بالليل[6]، من

---

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٨.

(٢) لسان العرب: ٨/ ١٦٩ (سوع).

(٣) لا يتساوىٰ الليلُ والنهارُ في الحقيقة إلا مرتين في السنة، في الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي، ويكون النهار أطولَ في الانقلاب الصيفي، وأَقْصَرَ في الانقلاب الشتوي.

(٤) صبح الأعشى: ٢/ ٣٨٤.

(٥) فقه اللغة: ٣٢٨ ـ ٣٢٩، ولسان العرب: ٥/ ٤٥ (فجر).

(٦) وابتداؤه عند أهل الكتاب كذلك، ولكن اليونان والفرس يفتتحونه بطلوع الشمس ويختمونه بطلوعها في اليوم التالي، أما الرومان فيَعُدُّون منتصف الليل مبدأ اليوم، ومنتهاهُ عند منتصف الليل التالي.

غروب الشمس، وانقضاؤه حين غُروبها من اليوم القابل[1]، ولذلك صار التأريخُ عندهم بالليل من دون النهار[2]، لأن شهورهم مُقدَّرةٌ بمسير القمر، وأوائلَها مقدَّرةٌ برؤية الأهِلَّة[3]، والهِلالُ أوَّلُ ما يُرَىٰ عند مغيب الشمس[4]. ومُدَّةُ الليل من لَدُنْ غروب الشمس إلى طلوعها وظُهورِها من الأُفُق[5]، ومدَّةُ النهار أوَّلُها طلوعُ الشمس، وآخرها غُروبُها[6]. وقد جاء ذِكرُ «اليوم، والليل، والصبح» في نصوص المُسْنَدِ، دليلاً على أن عرب الجنوب عرفوا هذا التقسيم، على نحوِ ما عرفه عربُ الشمال، إنما لم يردْ فيها أسماءٌ خاصَّةٌ للأيام[7]، كما جاءت كلمةُ «اليوم» باللفظ نفسه في جميع اللغات السامية القَديمة[8].



وكانت العربُ، في الجاهلية الأخيرة، تستعملُ لأيام الأسبوع أسماءً، قيل إن معانيها تُشير إلى أنها مَبْنيَّةٌ على قصة الخَلْقِ، كما ذُكرت في التوراة[9]... فالأحَدُ بمعنى الأول، والإثنين بمعنى الثاني، والثلاثاء بمعنى الثالث، والأربعاء بمعنى الرابع، والخميس بمعنى الخامس[10]، والجُمُعَةُ

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٨، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٦٦، والمفصَّل: ٨/ ٤٦٥.
(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥.
(٣) صبح الأعشى: ٢/ ٣٦٦، والمفصَّل: ٨/ ٤٤٥.
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٣٩٤.
(٥) المرجع نفسه: ٢/ ٣٦٧.
(٦) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٧٦.
(٧) المفصَّل: ٧/ ٤٦٥، ٤٦٨.
(٨) لغات الشرق الأدنى القديم ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثاني: ١١٦١.
(٩) مروج الذهب: ٢/ ١٩١، والمفصَّل: ٨/ ٤٦٧.
(١٠) صبح الأعشى: ٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، وشجر الدرّ: ١٨٦ ـ ١٨٧.

بمعنى الجمع، وكان اسْمُهُ من قبلُ: عَرُوبَة، وأوَّلُ من سمَّاهُ الجمعةَ: كعبُ بن لُؤَيّ[1]، زعيمُ قريش في مطلع القرن الرابع الميلادي، وكلمةُ عَرُوبَةَ تعريبُ «أَرُبَا» النبطيَّة، أو «عَرُوبْتَا» السريانية[2]، أو «عريب» العبرانية، ومعناها جميعاً: «الغُروبُ»[3]، أو العَشِيَّةُ. وقد انتبه علماءُ العربية إلى هذا الإسم، فقالوا هو إسْمٌ قديمٌ ليوم الجمعة، وكأنه ليس بعربيّ[4]. . . أما اليوم السابع فهو السبت، وإنما سُمِّيَ بذلك لأن الخَلْق انقطع فيه[5].

ولم يكن العبرانيون يُسَمُّونَ أيام الأسبوع بأسماءٍ خاصَّةٍ، وإنما كانوا يعدُّونها حسب ترتيبها، فيقولون اليوم الأول، فالثاني، فالثالث. . . كما هي معانيها عند العرب، إلا يومَيْ الجمعة والسبت، فكانوا يسمُّون الجمعة: عريب شَبات، أي عَشِيَّة السبت، ويُسَمُّون السبت: يوم ـ ها ـ شبات، ومعناه يومُ الراحة، لاعتقادهم أن الله خلق العالم في ستة أيام، واستراح في السابع[6].

وإذا لاحظنا أن السُّبَاتَ في العربية معناهُ: الراحةُ، والنومُ، والانقطاعُ عن الحركة[7]، وأن اللغات العربية، والسريانية، والنبطية الإِرَميّة، والعبرية تنتمي كلُّها إلى أسرة اللغات السامِيَّة، ذات الأصول المشتركة، رَجحَ لدينا أن أسماء الأيام عند العرب بُنِيَتْ معانيها على عقيدةٍ دينيةٍ، لعلها أصلُ قصة

(١) الأعلام: ٥/٢٢٨، وصبح الأعشى: ٢/٣٨٩.
(٢) محيط المحيط: ٥٨٦ (عرب)، والمنجد في اللغة: ٤٩٥.
(٣) المفصَّل: ٨/٤٦٩.
(٤) لسان العرب: ١/٥٩٣ (عرب).
(٥) مروج الذهب: ٢/١٩١.
(٦) المفصَّل: ٨/٤٦٧ ـ ٤٦٨.
(٧) لسان العرب: ٢/٣٧ (سبت).

الخَلق، وربما كانت تعود إلى زمن إبراهيمَ عليه السلام، أو إلى مَن كان قبله[1]، ثم تَلقَّتْ عنها تلك الشعوبُ جميعاً عقائدها، ولا محلَّ للزَّعم إذن بأن العرب في الجاهليَّةِ نقلوا عِلْمهم بتقسيم الأيام، وتسمية كلٍّ منها، عن العبرانيين، لأن هؤلاء كالعرب، أخذوا جُلَّ عِلْمِهم عن البابليين والسريانيين[2].



٣ ـ الشهرُ:

الشَهْرُ في الأصل من الشُّهْرة، وهي وضوحُ الأمر، سُمِّيَ بذلك لأنه يُشْهَرُ بالقمر، وفيه علامةُ ابتدائه، وعلامةُ انتهائه، وكانت العربُ إذا أَهَلَّ القمرُ قالت: رأيتُ الشهرَ، أي رأيتُ هِلالَه[3]. وتعني كلمة «سَهْرا» بالسريانية: القمر، والشهرَ القمريَّ[4].

وعددُ أيام الشهر العربي، كما رسمه أهلُ الحساب، تسعةٌ وعشرون يوماً ونصفُ يومٍ على التقريب. ولمّا كان إثباتُ هذا الكسْرِ غيرَ مُمكنٍ، جعلوا ستة أشهُرٍ من السنة تامَّةً، أي ثلاثين يوماً، وستةً ناقصةً، أي تسعةً وعشرين، وكلَّ شهرٍ تامٍّ يتلوه ناقص، وابتدؤوا بالمحرَّم فجعلوه

(١) تشهد الكتاباتُ المحفورة على الألواح المكتشَفة في مملكة إيبلا بسورية، والتي يعود زمنها إلى (٢٤٠٠ ـ ٢٢٥٠ ق. م»، أن الكنعانيين إخوانَ العرب، دوَّنوا قصة الخلق والطوفان مفصَّلةً في تلك الألواح، أي قبل نحوِ ألف سنة من ورودها في التوراة، وقبل أكثر من ثلاثة قرون على ظهور إبراهيم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

«إيبلا منعطف التاريخ: ٣٨، ٧٢، ٧٧».

(٢) أسماء الأشهُر في العربية: ٣، ١٣، والمفصَّل: ٨/ ٤٣١، ٤٦٧.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٤٣١ ـ ٤٣٢ (شهر).

(٤) لغات الشرق الأدنى ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثاني: ١١٠٣، ١١١٦، ١١٥٤.

تامّاً[١]، وفي كل ثالثةٍ من سِني العرب يومٌ زائدٌ يُكبَسُ على ذي الحجَّة، فيصير ثلاثين يوماً[٢] وتُسمَّى تلك السنةُ كبيسةً. . . «فهذا الذي رسمه أهلُ الحساب في الشهور العربية، وهو مبنيٌّ على حساب المُفَارقة[٣]، ولم تكن العربُ تعملُ به، وإنما كان اعتمادُهم على الأهِلَّةِ، فكانوا يفتحون الشهر إذا رأوا الهلالَ. . . ثم لا ينقضي الشهرُ عندهم حتى يروا الهلالَ كَرَّةً أُخرى، فيبتدئون حينئذٍ شهراً ثانياً. . . ثم جاء الإسلامُ، فثبَّتَ ذلك، وأَلْزَمَ به في الصَّوْم والفِطْر والحجِّ»[٤]. . . وحسابُ المفارقة ربما وافق الرؤيةَ، وربما خالفَها، وخِلافُه لها هو الأكثر[٥].

فمُدَّةُ الشهر عند العرب في الجاهلية كانت إذن «من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وذلك أسهلُ الطرُقِ وأقربُها»[٦]، والقمرُ يقطعُ الفلكَ في هذه المدَّة مرَّةً، فيأخذ كلَّ ليلةٍ في منزلٍ من منازله، ويقطعُها جميعاً في ثمانيةٍ وعشرين يوماً، فإن كان الشهرُ تسعةً وعشرين يوماً، اسْتَسَرَّ ليلةً، تُسمَّى ليلةَ السِّرَار، أي يختفي فيها عن الأبصار فلا يُرَى، فإن كان الشهرُ ثلاثين اسْتَسَرَّ ليلتين، قبل أن يَظهر هلالاً كرَّةً أخرى. وهو يُسمَّى هِلالاً إلى ثلاث ليالٍ، ثم هو قمرٌ إلى آخر الشهر، ويُسمَّى بَدْراً في ليلة أربع عشرة لتمامه[٧].

---

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٩، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، وعجائب المخلوقات: ١٠٩.
(٢) الأزمنة والأنواء: ٣٤.
(٣) أي مُفَارقة كلّ شهر ما قبلَهُ بزيادة يوم أو نقصانه.
(٤) الأزمنة والأنواء: ٣٥ ـ ٣٦.
(٥) المرجع نفسه: ٣٨.
(٦) صبح الأعشى: ٢/ ٣٩٤.
(٧) الأزمنة والأنواء: ٨٤ ـ ٨٥، ٨٩، والأزمنة والأمكنة: ٦/ ٢٠٢، وصبح الأعشى: ٢/ ١٦٦، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ٧٦.

وكانوا يُميِّزون لياليَ الشهرِ، بالأسماء التي أطلقوها عليها، فكلُّ ثلاثِ ليالٍ منها لها اسمٌ خاصٌ بها، على حسب حالة القمر فيها. . . **فالثلاثُ الأولى**: **غُرَرٌ**، لأن بياضَها قليلٌ كالغُرَّة. **والثانيةُ**: **نُفَلٌ**، لأن الغُرَرَ كانت أصلاً وهذه زيادةٌ عليها، **والثالثة**: **بُهْرٌ**، يغلبُ فيها ضوءُ القمر ضوءَ النجومِ، **والرابعةُ**: **زُهْرٌ**، لبياضِها، **والخامسةُ**: **بِيضٌ**، لأن القمر يطلعُ فيها من أولها إلى آخرها، **والسادسةُ**: **دُرَعٌ**، لسواد أوائلها وبياضِ سائرها، **والسابعةُ**: **ظُلَمٌ**، لغَلبةِ السَّوادِ عليها، **والثامنةُ**: **حَنَادِسُ**، لشِدَّة سَوادِهِنَّ، **والتاسعة**: **مِحَاقٌ**، يَمَّحِقُ فيها الهلالُ، **والعاشرةُ**: **الدَّآدِءُ**، والدَّأْدَأَةُ شِدَّةُ الظلمة، وفيها يَسْتَسِرُّ القمرُ ليلةً أو ليلتين، فلا يُرَى غدوةً ولا عشيةً، وتُسمَّى ليلةُ الثامن والعشرين **الدَّعْجاءَ**، والتاسعِ والعشرينِ **الدَّهْماءَ**، والثلاثينَ **الليلاءَ**، وهي الثلاثُ الدَّآدِءُ[1].

وعِدَّةُ الشهور عند العرب إثنا عشر شهراً، أوَّلُها: المحرَّمُ[2]، وكان أهلُ الجاهلية يُسَمُّونَ المحرَّمَ صَفَراً، فيقولون: صَفَرٌ الأولُ، وصَفَرٌ الآخِرُ، وربيعٌ الأولُ، وربيعٌ الآخِرُ، وجُمادَىٰ الأُولى، وجُمَادَى الآخِرةُ، ورَجَبٌ، وشَعْبانُ، ورَمَضانُ، وشَوَّالٌ، وذو القَعْدَةِ، وذو الحجة[3].

---

(١) الأزمنة والأنواء: ٨٥، ٨٧، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٩٦، ولسان العرب: ١/ ٧٠ (دأدأ)، و ٤/ ٨١ (بهـر)، و ٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ (زهـر)، و ٦/ ٥٨ (حنـدس)، و ٧/ ١٢٤ (بيـض)، و ٨/ ٨٣ (درع)، و ١٠/ ٣٣٩ (محـق)، و ١١/ ٦٧٣ (نفـل)، و ١٢/ ٢١٠ (دهـم)، و ١٢/ ٣٧٨ (ظلم)، ومروج الذهب: ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ١٨٨، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠١.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٣، والأزمنة والأنواء: ٣٤ ـ ٣٥، والسيرة لابن هشام: ١/ ٤٤، وتاج العروس: ١٢/ ٣٣٠ (صفر).

٤ ـ السَّنَــةُ:

كلمةٌ من المُفْرَداتِ العربية القديمة، جاءت بلَفْظها ومَعْناها في كل لهجات العرب، وجاءت كذلك في اللغات الساميَّةِ كافةً[١]، مثلما جاءت كلمةُ الشَّهْرِ أيضاً واحدةً فيها جميعاً. وهو ما يَقْطعُ بأنَ دلالَتها في الأصل كانت واحدةً، في جزيرة العرب كما في بلاد الشام والعراق. أي أن السنة عندهم مُدَّةٌ معلومةٌ ثابتةٌ من الزمن، وهي مِقْدارُ دورةٍ تامَّةٍ للشمس، عند مَن يتَّخِذون الشمسَ وبُروجَها مِعْياراً لقياسِ الزمن، ومعرفةِ الفصول واختلافِها. وهي كذلك المِقْدارُ نَفْسُه لِدَوْرةٍ تامَّةٍ يَقْطعُها منزلٌ من منازلِ القمر الثمانيةِ والعشرين، عند مَنْ يتَّخِذُونَ القمرَ ومنَازِلَه أعلاماً على انتقال الزمان، وتَقَلُّب الفُصول، ومن هؤلاءِ كان العربُ، وهذا ما أكَّدهُ قولُه تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ ﴾[٢]، فالعلمُ بعدَدِ السنين يقومُ على دورة منازل القمر، وليس على دوْرة القمر نفسِه، ومَسِيرُ القمر إنما هو للعلم بعَددِ الشهورِ، لا للعِلْم بعَددِ السنين، أو بالمقدار الصحيح الثابت لأيام السنة.

ويأتي في العربية بمعنى السنةِ: العامُ والحَوْلُ. وربما وقع استعمالُ السنةِ على زَمن الجَدْبِ، والعامِ على زمن الخِصْب، والحَوْلِ على الخِصْب والجَدْبِ جميعاً[٣]. وحال عليه الحَوْلُ، أي أتَتْ عليه سنةٌ تامَّةٌ[٤]، فالحَوْلُ سنةٌ بأَسْرِها، يأتي على شَتْوةٍ وصَيْفَةٍ[٥]، وكانت العربُ تجعلُ السنةَ نصفين:

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

(٣) صبح الأعشى: ٢/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٤) لسان العرب: ١١/ ١٨٤ (حول).

(٥) المرجع نفسه: ١٣/ ٥٠١ (سنه)، و ١٢/ ٤٣١ (عوم).

شتاءً وصيفاً[1]، فسُقوطُ منزلة «الصَّرْفة» في أُفُق المغْربِ علامةٌ على انصرام نصفِ السنة الشَّتوي، وطلوعُها علامةٌ على انصرام نصف السنة الصيفي[2]، وقد سُمِّيتْ صَرْفَةً لانصرافِ البرد عند سُقوطها، وانصرافِ الحَرِّ عند طلوعها[3]. . . وهذا يُثبتُ أن تقدير العرب للسنة التامَّة، قائمٌ على النظر في طلوع منازل القمر وسُقُوطِها، وحسابُ هذه النجوم كحساب سنة الشمس تماماً، في الفُصول، وفي عَددِ الأيام.

وتأتي كلمة الخريف أيضاً بمعنى السنة، أو العام والحَوْلِ، في لغات العرب الشمالية والجنوبية على السواء[4]. ولعلَّ العِلَّةَ في هذه التسْمية أن فصل الخريف كان أوَّلَ الأزمنة عند العرب، وأوَّل السنة، كما عند كثيرٍ من الأمم، وهو الفصلُ الذي تُخْتَرفُ فيه الثِّمارُ، أي تُصْرَمُ وتُجْتَنَى[5]، وهو إلى ذلك من أكثر الأوقات وضوحاً في جزيرة العرب، ولا سيما في جنوبها. . .

والسنةُ عُموماً هي المدَّةُ الجامعةُ للفُصول الأربعة، ومقْدارُها عند السريانيين والروم إثنا عشر شهراً شمسيةً، فيكون عَدَدُ أيامها ثلاثَ مئة وخمسةً وستين يوماً ورُبْع اليوم، ومقدارُها عند العرب واليونانيين والعبرانيين إثنا عشَرَ شهراً قمريَّةً، فيكون عددُ أيامها ثلاثَ مئةٍ وأربعةً وخمسين يوماً وثلث اليوم، أي أنْقَصَ من عِدَّة السنة الطبيعية بأحَدَ عشَر يوماً تقريباً، فكان هؤلاء يزيدون شهراً كلَّ ثلاثِ سنين، وربما كلَّ سنتين، فتكون الثالثةُ، أو

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٣، والأزمنة والأنواء: ٩٧.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٠.

(٣) عجائب المخلوقات: ٨٠، والأزمنة والأنواء: ١٥٠، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٩١، ولسان العرب: ٩/ ١٨٩ (صرف).

(٤) المفصَّل: ٨/ ٤٣٨.

(٥) لسان العرب: ٩/ ٦٤ (خرف).

الثانيَةُ من سِنِيهم ثلاثَةَ عشر شَهْراً قمرياً، وكانوا يُسَمُّونَها الكبيسَة، يفعلون ذلك في كلِّ تسع عشرة سنةً، سبعَ مرّاتٍ، فيستوي لهم بذلك حسابُ شهور القمر مع حساب الشمسِ ومنازلِ القمر على السواء، فتكون شهورُهم ثابتةً في الأزمنة، غيرَ منتقلةٍ عن أوقاتها التي حُدِّثَتْ فيها من الفصول الأربعة، فإن لم يفعلوا ذلك، صارت شهورُهم دائرةً في الأزمنة، غيرَ مُسْتَقِرَّةٍ فيها، يكونُ الشهرُ منها في زَمَنِ شِدَّةِ البرد، فلا يلبث حتى يُرَى بعد ذلك في زَمَن شدَّة الحرِّ[1]. وهو ما سنبحثه مُفصَّلاً في الفصل الذي عَقَدْناهُ للكلام على النَّسِيء والنَّسَأة.



وقد كانت العربُ في الجاهلية تكْبسُ سِنِيها على هذا النَّحْوِ، وتُسَمِّيهِ النَّسِيءَ، أي التأخير، لأن كلَّ سنةٍ كبيسةٍ، إذا زيد عليها شهرٌ، تقتضي تأخيرَ مطلعِ السنة التي تليها شهراً، فكانت شهورُهم بذلك ثابتةً في الفصول، ومواسِمُهم مُستقِرَّةً في الأزمنة، لكلٍّ منها زمنٌ معلومٌ لا يَعْدوهُ، لما يتعلَّق به من الحقوق والواجبات... ومن مُصْطَلحاتِهم في الجاهلية كَلِمتا: «الأَوْزُ والأَزْزُ، وكانت دَلالتُهما على حسابٍ من مجاري القمر، وهو فُضُولُ ما يدخلُ بين الشهور والسنين»[2]... أي الشهور القمرية والسنة الشمسية. ولكنَّ المستشرق «نِلِّينو»[3]، نَفَى أن يكون العربُ في الجاهلية عرفوا

(١) الأزمنة والأنواء: ٣٠ ـ ٣٢، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٨، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٤.

(٢) لسان العرب: ٥/ ٣٠٨ (أزز)، و ٥/ ٣٠٩ (أوز).

(٣) كارلو ألفونسو نِلِّينو: (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨ م)، مستشرق إيطالي، عالم بالجغرافية والفلك عند العرب، عارف بالإسلام ومذاهبه، مُطَّلع على تاريخ اليمن القديم وخطوطه ولهجاته. درس العربية والسريانية والعبرية، وألقى محاضراتٍ في مصر بالعربية، جُمعت خلاصتُها في كتاب سُمِّي «علم الفلك ـ تاريخه عند العرب في القرون الوسطى».

النَّسيءَ، أو وَقَفُوا عليه[1]، وعَدَّ أخبارهِ في كُتُب العرب، من قبيل الظنِّ والتخمين[2]. ولعلَّ خير ما يَدْحَضُ ما ذهب إليه هذا الرجُل، أن القرآن الكريم نزل بإبطال النَّسيء، وذَمَّ فِعْلَه، ولولا وجودُه لم يَنْهَ عنه، ولا أكَّد أن عِدَّةَ الشهور عند اللَّهِ إثنا عشر شهراً لا غير. . .

ولا أَسْتبعِدُ، في غياب النصوص الواضحة، ومع التشَابُهِ في أسماء بعض الشهور والفصول، أن يكون عربُ الجنوب قد اتَّخَذُوا، على شاكلة عرب الحجاز، تقويماً شمسيّاً في حسابِ السنين ومعرفةِ الفُصول، وقمريّاً في حسابِ الشهور ومعرفةِ الآجَال المتعلِّقَة بأعمالهم اليوميَّة، وأن يكونوا اعتمدوا الكَبْسَ، على نحوٍ ما، لإلْحَاق حساب القمر بحساب الشمس.

ويقال إن المصريين كانوا أَقْدمَ مَنِ اعْتَمَدَ حسابَ السنة الشمسيَّة في تقويمهم، وكان ابتداءُ السنة عندهم في اليوم الذي يطلع فيه كوكبُ الشِّعْرىٰ اليمانيَّة أو العَبُور، وقتَ شروق الشمس أو قبله بقليل. وكانت عِدَّةُ السنةِ هذه ثلاثَ مئةٍ وخمسةً وستين يوماً ورُبْعَ اليوم. وكانت الشِّعْرىٰ تطلع في التاسع عشر من شهر تموز، ثم لاحَظَ الفلكيون بعد ذلك أن طلوع الشِّعْرى لم يعد مُتَّفِقاً وشروق الشمس في الوقت نفسه، فكان لا بُدَّ من استعمال الكِبْس أو النسيء لإلْحاق سنة الشِّعْرى بسنة الشمس[3]. وقد ذكر القلقشندي فيما بعد أن المصريين اصطلحوا على أن جعلوا شَهْرَهم ثلاثين يوما، فإذا انقضَتِ الإثنا عشر شهراً، أضافوا إليها خمسة أيام يُسَمُّونها أيام النسيء، يفعلون ذلك ثلاثَ سنين متوالية، وفي الرابعة يضيفون ستة أيام، أي بزيادة

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٢٧.

(٢) الأزمنة والأنواء: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) أسماء الأشهُر في العربية: ٨ ـ ٩.

يومٍ تكوَّن من رُبْع اليوم في السنين الأربع. وكانوا من قبلُ يتركون هذا الرُّبْعَ إلى أن تجتمعِ منه أيامُ سنةٍ كاملة، في مُدَّةَ ألفٍ وأربع مئةٍ وإحدىٰ وستّينَ سنةً[1]. . . ذكرتُ هذا لأؤكِّدَ أن العرب كانوا قطعاً مُطَّلِعين كذلك على تقويم المصريين، ولا سيما أن طائفةً منهم كانت تعبُدُ الشِّعْرَى، وأن التجارة كانت قائمةً بين الأُمَّتَيْن، يتردَّدُ فيها العربُ إلى مصر، والمصريُّون إلى بلاد العرب.

* * *

(١) صبح الأعشى: ٢/٤٢٦.

الفصل الثاني

شهور العرب ومواقعها من الفصول

المطلب الأول ـ شهور العرب، أسماؤها ومعانيها ودلالتها:

إن الشهور التي نبتغي الحديثَ عنها في هذا الموضع، هي شهورُ العرب في مناطق نَجْدٍ والحجازِ وتهامة والعَروض وما اتصل بها، وهي التي أجمع أهلُ الأخبار على أنها كانت مُتَّبعَةً عند العرب في الجاهلية الأخيرة، ثم ثَبَّتَها الإسلامُ على ما كانت عليه، من حيثُ الترتيبُ والتعاقُبُ، ولكنه أبْطَلَ النسيءَ، فصارتْ دائرةً في الفُصول، وخَلَتْ أسماؤها من معانيها، وباتَتْ لا تعني شيئاً مما وُضِعَتْ في الأصل للدلالة عليه... ولا بُدَّ لنا من الإشارة إلى صعوبة الحديث عن الشهور التي كانت مُتَّبَعَةً عند عرب الجنوب، لأن أسماءها وُجِدت، في النصوص السَّبَئيَّةِ والحِمْيَريَّة، مُتفرِّقةً، مُنْفَلِتةً من المواقع الزمنيَّةِ التي حُدِّثَتْ فيها، وما يزالُ عَسِيراً حتى الآن، تثبيتُ هذه المواقع في ترتيبٍ زَمَنيّ يُعِيدُها إلى مثل ما كانت عليه. غير أن البحث في معاني بعض أسمائها، دَلَّ على أن منها ما كان له علاقةٌ بالمواسم الدينية، ومنها ما له علاقةٌ بالمواسم الطبيعية، فإنَّ «وَرْخُنْ ذو الألت»[1] مثلاً، معناهُ

---

(١) ورخن: إضافةُ النون أو الميم إلى آخِر الأسماءِ، في اللغات السبئيّة والحِمْيَريّة والبابليّة، كالتنوين في العربية، والواو في آخر الكلمات البابلية كالضمَّة في العربية. فقولهم: وَرْخُن، قَيْظن مثلاً، كقولنا: وَرْخٌ، قَيْظٌ... وربما كان شهر ذو الألت يقابل شهر رجب أو المحرَّم.

شهرُ الإلّه، و «ذو حجتن» معناه شهرُ الحجّ، وهو يُقابِلُ شهرَ ذي الحجة عند عرب الحجاز، و «ذو عَثْتَر» معناهُ شهرُ عشتار، أو عشتروت، وهي كوكبُ الزُّهرة، وربما كان يُقابل شهرَ أيلول عند البابليين والسِّريان. . . ومن الواضح أن هذه الشهور تُشِير إلى بعض المواسم الدينية، وهنالك شهورٌ أخرى تُشِير معانيها إلى المواسم الطبيعية، مثل «وَرْخُنْ ذو دَثَأ» وهو من شهور الربيع، و «ذو خَرفن» وهو من شهور المطر والشتاء، و «ذو قَيْظُنْ» وهو من شهور الحرِّ، ولعله يُقابل شهرَ «رمضانَ» عند عربِ الحجاز، وشهرَ «حَزيران» عند أهل الشام والعراق. ويُلاحَظُ أنهم كانوا يُضِيفُون لفظتَيْ: «قدمنْ وأخرُنْ» إلى بعض الشهور، وهما بمعنى: المُقَدَّم أو الأول، والآخِر أو الثاني، مثل: «وَرْخُنْ ذو نسور قدمُنْ، ووَرْخُنْ ذو سور أخرُنْ»، وذلك على غِرَارِ شُهورِ العرب الأُخرى، مثل: ربيع الأول وربيع الآخِر، وشُهورِ السريان، مثل: تشري قِدْمُ وتشري أحري[1]، أي تشرين المقدَّم أو الأول، وتشرين الآخِر أو الثاني[2]. وهذا كلُّه دليلٌ على وحدة الأُصول في التقسيم الزَّمَنيِّ عند شعوب العرب جميعاً.

أمّا الشهورُ السريانيَّةُ، فمنذ عَمَدَ السريانيُّون حتى لا يلحقَهم النسيءُ إلى جَعْل سنتهم إثنيْ عشَرَ شهراً اسْتَوفوا فيها أيامَ السنةِ الشمسيَّةِ كلِّها، فكانت وما تزالُ مُتَّبعةً عند أهل الشام والعراق، وهي ثابتةٌ في الأزمنة التي حُدِّتْ فيها لم تتحوَّلْ عنها، لأن حسابها قائمٌ على مسير الشمس، بمقدار

(١) إن الحروفَ: «ث خ ذ ض ظ غ» غير موجودة في السريانيّة والعبريّة والكلدانيّة، فالحاءُ في كلمة «أَحْرَيْ» هي خاء، فيكون معناها: الآخر. وقد جاءت كلمة «قِدْمُو» في البابلية بمعنى المقدَّم.

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ٢٦ ـ ٣٠، والمفصَّل: ٨/ ٤٤٨ ـ ٤٥١.

بُرْجٍ من بروج الفلك، وهو ثلاثون يوماً ونصفُ يوم على التقريب، وقد أُكمل الكَسْرُ في بعضها فصار واحداً وثلاثين يوماً، وأُسْقِطَ من بعضها فصار ثلاثين يوماً لا غير[1]، وجُعل شهر شباط ثمانيةً وعشرين يوماً، وفي كل رابعة من سنيهم يكبسون به يوماً فيصير تسعةً وعشرين يوماً ويُسَمُّون تلك السنةَ كبيسةً، لأن في كل سنة فضْلَ رُبْعِ يومٍ يَصيرُ يوماً كل أربع سنين[2]. . . بينما حسابُ شهور العرب قائمٌ على مَسير القمر، من حينِ يُفارقُ الشمسَ، إلى أن يُفارقَها المرةَ التاليةَ، فيكونُ بين الحِسَابَيْن فرقُ أَحَدَ عَشَرَ يوماً[3]، إنْ لم يَجْرِ كبْسُها صارت شهورُ العرب دائرةً في الفُصول الأربعة.

وقد لاحظ أهلُ الأخبار أن شُهورَ العرب، لم تَعُدْ معانيها، كما في الجاهلية وصَدْر الإسلام، تَصِحُّ للدَّلالة على الزمن الذي حُدَّتْ فيه أصلاً، فرمَضَانُ مثلاً إنما هو من الرَّمَضِ، أي شدَّة الحرِّ، وهذا يعني أنه من شهور الصيف، بينما هو اليوم مُتَنقِّلٌ في كل المواسم الطبيعية، فعَمَدُوا إلى تَكلُّفِ التفاسير، والتَّزَيُّد في المعاني، من أجل تبرير ذلك الدَّوَران، كعادتهم عندما يُواجِهون أسماءً لا يعرفون عن أصلها شيئاً[4]، أو لا يُريدون أن يعرفَ الناسُ عنها شيئاً. ومن الممكن رَدُّ أقوالهم في هذا الأمر إلى وَجْهين، أحَدُهما: أن العربَ، حينما سمَّوْا شهورَهم، كانوا من الغَفْلةِ بحيث لم يلحظوا أنها ستدور في المواسم والفصول. . . والآخَرُ: اصطناعُ مَعَانٍ غريبةٍ لأسماء الشهور، تَخرجُ بها عمَّا وُضِعتْ للدلالة عليه من أقسام الزمن.

(١) الأزمنة والأنواء: ٢٩ ـ ٣٠، ٤٩، ٥١.
(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٢، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٢٧.
(٣) صبح الأعشى: ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٤) المفصَّل: ٨/ ٤٥٩.

والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد أكَّدَ الشيخُ السَّخَاويُّ[1]: «أن جُمَادَىٰ سُمِّيَ بذلك لجمود الماء فيه، وكانت الشهورُ في حسابهم لا تَدُورُ»، أي أن الشهور في الجاهلية كانت ثابتةً لا تَدورُ في الفصول، فعلَّق عليه ابنُ كثير بقوله: «إن شهورهم كانت مَنُوطةً بالأهِلَّة، فلا بُدَّ من دَوَرانها، فلعلَّهم سمَّوْهُ بذلك أوَّلَ ما سُمِّي، عند جُمود الماء في البرد. . .»[2]. ومثلهُ قولُ المسعوديّ، في شَهْرَيْ جُمَادَى إنهما سُمِّيا بذلك «لجمود الماء فيهما، في الزمان الذي سُمِّيت به هذه الشهور، لأنهم لم يعلموا أن الحرَّ والبردَ يدوران، فتنتقلُ أوقاتُ ذلك. . .»[3]، والمعلوم أن الحرَّ والبرْدَ مَوْسمانِ ثابتان في زَمَنَيْهما لا يدوران، وهذا دليلٌ على جهله هو لا جهلَ العرب! ومِثلُه قولُه في شَهرَيْ ربيع إنهما إنما سُمِّيا بذلك لارْتباع الناس فيهما، في وقتِ تَسْميَتِهما بذلك، وقد لَزِمَهُما الإسمُ مع انتقال الزمان واختلافه[4]. . . مع أنه ذكر في مطلع كلامه أن العرب في الجاهلية كانت تكبسُ، في كل ثلاث سنين، شهراً[5]. . . ومن المؤكد أنها كانت تفعلُ ذلك لتثبيت شهورها في الأزمنة، ولكنه لم يَفْطُنْ للأمر، لأنه رأى الشهور العربية كما صارت إليه في أيامه، ولم يعلم بأن إبْطَالَ النَّسِيء، أو الكبسِ، هو الذي أطْلَقَها من حُدود الأزمنة التي رُسِمتْ لها، ورُتِّبَتْ فيها[6]، فقال: إن «شهور الروم

---

(١) السَّخاوي: (٥٥٨ ـ ٦٤٣ هـ = ١١٦٣ ـ ١٢٤٥ م)، عليُّ بنُ محمد الهمدانيُّ المصريُّ، أبو الحسن، علمُ الدين. عالم بالقراءات والأصول واللغة والتفسير. أصله من سَخَا بمصر، وسكن بدمشق، وتوفي فيها، ودُفن بقاسيون. له مُصنَّفاتٌ فقهيةٌ ودينيةٌ.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥.

(٣) مروج الذهب: ٢/ ١٨٩.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥) المرجع نفسه: ٢/ ١٨٨.

(٦) المفصَّل: ٨/ ٤٦٢.

مرسومةٌ على فصول السنة، دون شُهورِ العرب، وشهورُ العرب ليست مُرَتَّبةً على فصولِ السنة، ولا حسابِ سنةِ الشمس، بل المحرَّمُ، وغيرُه من الشهور العربية، قد يقع تارةً في الربيع، وتارةً في غيره من فصول السنة»[1]. وهذا نفسُه ما ذهب إليه القلقشندي، بقوله في شهريْ جُمادَى: إنهما سُمِّيا بذلك لجمود الماء فيهما، ثم تذكَّر أنهما في زَمَنَهِ لا يَثْبُتَانِ على هذه الحال، فاستدرك قائلاً: «. . . لأن الوقت الذي سُمِّيا فيه بذلك، كان الماءُ فيه جامداً لشِدَّة البرد»[2].

وهكذا، إذا استثنينا السَّخَاويَّ، الذي أدرك أن شهورَ العرب كان يجري تثبيتُها لئَلاّ تدورَ في الفصول، فإن الآخَرينَ جميعاً أضافوا الغَفْلَةَ إلى العرب، وزعموا أنهم لم يَفْطُنوا لِدَورانِ الشهور القمرية، فما لبثت حتى فقدت أسماؤها معانيها. وأشدُّ غرابةً من هذا المذهب، أن بعضهم جَعل القتالَ، والكَفَّ عنه، عِلَّةً في تسمية بعض الشهور بأسمائها! من ذلك زَعْمُهم أن شهر شعبانَ سُمِّيَ بذلك لتَشَعُّبِ القبائل فيه من أجل الغارات والقتال، أو لكثرة غاراتهم فيه، بعد امتناعهم عنها في شهر رجب المحرَّم، وأن شهر صفَرٍ سُمِّيَ بذلك لخُلُوِّ ديارهم منهم حين يخرجون إلى القتال، أو لأنهم كانوا يُغِيرون فيه على بلادٍ يُقال لها الصَّفَرِيَّةُ، وأن شهر ذي القعدة سُمِّي بذلك لِقُعودهم فيه عن القتال[3]. . . وكأن القتالَ أمرٌ محتومٌ، أو قَدَرٌ مَقْدورٌ على هذه الأُمَّة، فكان لا بُدَّ لها من تنظيم أوقاته، فجعلتْ له مواسمَ ثابتةً في

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ١٩٢.

(٢) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٢، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٨، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨، ٢٧٧.

شهورٍ مُعيَّنةٍ، تخرجُ فيها من ديارها، ليُغِيرَ بعضُها على بعض، فما يزالون على قتالهم وغاراتهم، حتى يَرَوْا هلالَ الشهر الجديد، فيمتنعون من القتال، ويعودون إلى ديارهم! . . . ثم إننا نفهمُ الصَّفَريَّة أنها مَنسُوبةٌ إلى الصَّفَر، والنِّسْبَةُ، كما نَعلمُ، إلحاقُ آخرِ الإسم ياءً مُشَدَّدَةً للدلالة على نِسْبَةِ شيءٍ إليه، فإن كان صدقاً زَعْمُ أهل الأخبار، فالصَّفَريَّةُ مَنْسُوبةٌ إلى الصَّفَر، مُسَمَّاةٌ به، وليس العكس، ويكون كلامُهم في ذلك باطلاً إذن، وتكون الصَّفَريَّةُ إسماً لزمنٍ مُعيَّن، أو فصلٍ ثابتٍ من فصول السنة، يقع في شهرَيْ صَفَر، وليست قطعاً إسماً للتفاهات التي زعموها.

لا شك في أن كلَّ هذه المذاهبِ لَغْوٌ، وتَزَيُّدٌ في التأويل، وتكلُّفٌ للمعاني، ولا أساس لها من الصِحَّة أو الحقيقة، وسَنتبيَّنُ ذلك بوضوحٍ وجلاءٍ في استقرائنا أسماءَ شهور العرب، ومُتَابَعتِنا أصولَ معانيها في مختلف المراجع، ولا سيما اللغويَّةِ منها، لأن اللغة مستودَعُ تُراثِ الأمة، وتقاليدِها، وثقافتها. وإنَّ لفي تسمية الشهور وترتيبها، وتثبيت مواعيدها في الفصول، وجهاً جَلِيّاً واضحاً من وجوه الارتقاءِ والتقدُّم.

* * *

(١) ـ شَهْرا صَفَر:

الصَّفَرانِ شهرانِ من السنة عند العرب في الجاهلية، سُمِّيَ أَوَّلُهما في الإسلام المحرَّم[١]. وكان أهلُ الجاهلية يقولون: صَفَرٌ الأوَّلُ، وصَفَرٌ الآخِرُ[٢]. وكان صَفَرٌ الأولُ مُحرَّماً عندهم، ويبدو أن اسْمه كان وقتئذٍ صَفَراً

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٤٦٣، وتاج العروس: ١٢/ ٣٣١ (صفر).

(٢) أخبار مكة: ١/ ٢٨٣، وصحيح البخاري: ٥/ ٥١.

الأولَ المحرَّم، بدليل أن فقيه العرب كان، إذا أراد رَفْعَ الحُرْمَةِ عنه وجَعْلَها فـي شهـرٍ آخَـرَ، يقـول: اللهـم إنـي قـد أحْلَلْـتُ أحَـدَ الصَّفَـريْـن، الصَّفَـرَ الأوَّلَ[1] . . . وقيل إنه كان يُعْرفُ أيضاً بشَهْرِ الله[2]، وذكَر ابنُ منظورٍ أن النبيَّ عليه السلامُ سُئِل: «أيُّ الصَّوْم أفضلُ بعد شهر رمضان؟ فقال: شهرُ اللَّهِ، المحرَّمُ»[3]، أضافَهُ إلى الله تأكيداً لحُرْمته. فالمحرَّمُ نَعْتٌ لهذا الشهر، لا إسْماً له، وإنما صار في الإسلام له إسماً، لا يُعرَفُ بغيره[4]، لئلاَّ يستمرَّ التقلُّبُ به تحليلاً وتحريماً[5]. وهو الشهرُ الأوَّلُ من السنة العربية، هكذا كان في الجاهلية، وعلى ذلك أبقاهُ الإسلامُ[6].

والعِلَّةُ في تسمية هذين الشهرين بإضافتهما إلى الصَّفَرِ، لا تخرج عند أهل الأخبار عن أمريْن، الأولُ: زَعْمُهم أن العربَ كانت في الجاهلية تغزو مواضِعَ تمتارُ منها الطعامَ، تُسمَّىٰ الصَّفَرِيَّة. والثاني: أن ديار العرب كانت تخلو في هذا الوقت من أهلها بخُروجهم إلى الغَزْوِ أو الحرب[7]. وعَرَضَ ابنُ منظور لهذه الأقوال، وقد فَطِنَ إلى بعض ما فيها من الخَلَل، فحاول سَدَّهُ، فذكر أن بعضهم قال في عِلَّة التسمية: لأنهم كانوا يمتارون الطعامَ فيه من المواضع! ولم يُعيّن الصفَرِيَّة، وبعضهم قال: لإصْفار مكةَ من أهلها إذا

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ٤٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٩٠، ولسان العرب: ١٢/ ١٢١ (حرم)، وأسماء الأشهر في العربية: ٥٦.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٤٣٢ (صفر).

(٤) المفصَّل: ٨/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩،

(٥) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥.

(٦) المفصَّل: ٨/ ٤٦٠، ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٧) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٧، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠١، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٨، وعجائب المخلوقات: ١١١ . . .

سافروا! وبعضهم قال: لأنهم كانوا يغزون في هذا الزمن القبائلَ، فيتركون مَن لَقوا صِفْراً من المتاع، ويقولون صَفِرَ الناسُ منا صَفَراً[1]... وقد ذَهبَ الزبيديُّ المذهبَ نفسَه[2]، ولم نخرج من كلامه بطائل... فما علاقةُ الصَّفَرِ بامْتِيارِهم الطعامَ من المواضع؟ وماذا لو لم يُسافِرْ أهلُ مكة؟ وإذا سافروا، وظلَّ أهلُ نجْدٍ في ديارهم، فهل يكون اسمُ الشهر عند هولاء عِمَارَةً، وعند أولئك صَفَراً؟ وإذا تركوا مَنْ غَزَوْهُم مرةً صِفْراً من المتاع، وقالوا صَفِرَ الناسُ منا صَفَراً، فصار الصَّفَرُ إسماً للشهر، فماذا لو انهزموا ووَلَّوا مُدْبِرينَ من غير متاع، فماذا يُسَمُّون الشهرَ حينئذٍ؟ وماذا لو قَدَّمُوا موعدَ الغَزْوِ في السنين التالية، أو أَخَّرُوهُ، أو لم يخرجوا إلى الغزو، هل يُغَيَّرُ اسمُ الشهر، أم يَظلُّ على حاله؟ وأمّا الصفَرِيَّةُ، فليس في معاجم البلدان موضعٌ بهذا الإسم، ولقد كان ياقوتُ الحمويُّ[3]، بحَّاثـةً مُـدَقِّقاً، فنصَّ في أول هذه المادة، أن الصَّفَر هو الخُلُوُّ أو الخَلاءُ، ولم يَرِدْ على أن هنالك جبلاً بنجْدٍ إسمه صَفَر[4]...

ومن الواضح أن هذا الكلام كلَّه هَذَرٌ لا يُعْبَـأُ به، إلاَّ إشارةً للمرزوقي، في موضعٍ آخَر، إلى أن شهرَيْ صَفَرٍ نُسِبَا إلى الزمان الذي يُسمَّى الصَّفَرِيَّ[5]، وهي إشارةٌ جيِّدةٌ، لكنها مقلوبةٌ، فالزمنُ الصفَريُّ نُسِبَ إلى شهريْ صَفَر، وليس العكس، وهو دليل على ثبات هذين الشهرين وقتئذٍ في مَوْقعهما من

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣ (صفر).

(٢) تاج العروس: ١٢/ ٣٣٠ (صفر).

(٣) **ياقوت الحموي**: أبو عبد الله، شهابُ الدين ياقوتُ بن عبد الله. مؤرِّخٌ ثِقةٌ، من أئمة الجغرافيين والمؤرِّخين، عالم بالأدب واللغة. أشهر كتبه: معجم البلدان. توفي سنة (٦٢٦ هـ).

(٤) معجم البلدان: ٣/ ٤١٣.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨.

الزمن. . . وإلا فكرةً أُخرى هي خُلُوُّ الديارِ من ساكنيها، ولكنْ لغَرضٍ آخَر غير القتال والغزو. ويجب علينا إذا أردنا الْتِماسَ العِلَّةِ الصحيحة وراءَ تلك التسْمِيَة، أن نعودَ أولاً إلى فقه اللغة، ثم إلى ما جرت به عادةُ العرب في مواسمهم. فإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا فيها ثلاثةَ معَانٍ رئيسةٍ تدلُّ عليها كلمةُ «صَفَر»: **الأولُ** ـ الصُّفْرَةُ، وهي لونُ الأصفر، **الثاني** ـ الصُّفُورَةُ، وهي الخُلُوُّ والفَراغُ، **والثالث** ـ الصَّفِيرُ[1]، وهو حِدَّةُ الصَّوْتِ، كالصوتِ الخارج عن ضَغْطِ ثُقْب[2]. وإذا رجعنا إلى ما جرت به عادةُ العرب في مواسمهم، وجدنا أن لهم مَوْسِمَيْن للظَّعْن، والظَّعْنُ هو الارتحالُ عن الديار، طلَباً للكلأ، وتَتَبُّعاً لمساقط الغيث، واجتناءً للثمار، ويُسمَّىٰ أيضاً موسمَ التَبدِّي أو التَربُّع، لأنه مُراجَعةٌ للبَداوَةِ، وانتجاعٌ للمَرَابِع في البوادي والأرياف. فأمّا **الموسم الأولُ**: فيقعُ في الخريف، بين إدْبارِ القَيْظِ وإقْبالِ الشتاء، وقد سمَّتْهُ العربُ تَبَدِّياً، لأنه خروجٌ إلى البادية. كما سَمَّتْهُ تَربّعاً، لأن الخريفَ عندهم هو الربيعُ الأوَّلُ، بما يكون فيه من هواءٍ طيِّبٍ، ووُقوعِ لأوَّلِ الغَيْث، وإدْراكٍ للثمار، واجتناءٍ للنخل. وأما **الموسِمُ الثاني**: فيكونُ بين إدْبار البَرْدِ وإقْبالِ الصيف، وهو ربيعُ الزَّهْر والأنوار والكمأة[3]، يرتحلون فيه عن منازلهم إلى الأرياف، والبوادي، ويكونُ فيه إيراقُ الشجر ولِقَاطُ الكمأة، ورَعيُ الكلأ، وحَصَادُ الحِنطة والشعير، وكانوا يُسمُّونه: الربيعَ الثاني وهو يقعُ غالباً بين سُقوط منزل «الصَّرْفَة» في التاسع من آذار ـ مارس، موعدِ انصراف البرد، وطُلوعِ منزل «الهَقْعَةِ» مَوْعدِ التهاب الحرِّ في

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٤٦٢، ٤٦٤، وتاج العروس: ١٢/ ٣٣٢ (صفر)، وفقه اللغة: ٥٨.

(٢) ابن الطحّان ـ مخارج الحروف وصفاتُها: ٩٠، ٩٤.

(٣) الأنـواء: ٩٦ ـ ٩٨، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٩، و ١/ ١٧٤، ولسان العرب: ٨/ ١٠٣، وتاج العروس: ٢١/ ٣٤ ـ ٣٥ (ربع).

السابع من حزيران ـ يونيو، وانتهاءِ موسم التبدِّي الثاني[1].

وما يَعْنينا هنا هو موسمُ الظَّعْنِ الأول... ذلك أن العربَ جَعَلتِ الخريفَ أوَّلَ الأزمنة، وافتَتَحتْ سنتَها به[2]، مثلما جعلت شَهْرَيْ صفَرٍ أوَّلَ الشهور، وابتدأت سنَتَها بهما، وبذلك يكون الزمنُ الذي يقعُ فيه شهرا صَفَر هو فصلَ الخريفِ، ويكون شهرا صَفرٍ الزمنَ الذي يقعُ فيه موسمُ التربُّعِ الأوَّل، وارتحالِ الناس من ديارهم في المحاضر إلى مَرَابِعهم في البوادي. ومن ذلك قولُ النابغة الذبياني[3]:

لقد نَهيْتُ بني ذُبْيانَ عن أُقُرٍ وعن تَرَبُّعِهم في كلِّ أصْفَارِ[4]

أراد أنه نَهىٰ قومَهُ عن تربُّعِ وادي أُقُرٍ[5]، في كلِّ شهور صَفَر، وهو دليلٌ على أن موسمَ التربُّعِ في الخَريف مَوعدُهُ ثابتٌ في شَهرَيْ صَفَرٍ من كلِّ سنة، وأن زمنَ شهريْ صَفَر ثابتٌ في فصل الخريف.. ومنه أيضاً قولُهم في صَفَرٍ: صَفَرُ الخير[6]، لما يكونُ فيه من الطلِّ والنَّدىٰ والكلأ والغَيْث. ولو لم يكن الخيرُ ثابتاً عُمومُه في هذا الشهر، لَـمَا أُضيف صفرٌ إلى الخير..

وعلى هذا، فإني أرى أن وجه التسمية في شَهْرَيْ صَفَرٍ قائمٌ على

---

(١) الأزمنة والأنواء: ١٥١، ١٥٧ ـ ١٥٨، ١٦٥، ١٧٧، (والصَرْفَةُ والهَقْعَةُ من منازل القمر).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٤.

(٣) النابغة الذبياني: أبو أُمامة، زياد بن معاوية، من بني ذبيان، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كان قاضي الشعر في سوق عكاظ. توفي نحو (٦٠٥ م).

(٤) تاج العروس: ١٢/ ٣٣١ (صفر)، ومحمد زكي العشماوي ـ النابغة الذبياني: ٣٩.

(٥) وادي أُقُر: من ديار غطفان، قريب من وادي الشَّرَبَّة، مملوءٌ حمضاً ومياهاً، حَماهُ الملكُ النعمانُ بن الحارث الغساني، فتربَّعَهُ بنو ذبيان من غير إذنه، فنهاهم النابغةُ عن ذلك خوفَ بطش الملك بهم.

(٦) أسماء الأشهر في العربية: ٥٩.

المعاني الثلاثة جميعاً، فديارُ العرب كانت تَصْفِرُ منهم فيهما حقّاً، ولكنْ بارْتحالهم عنها إلى المرابع والمناجع في البوادي، وليس للغزو أو القتال. والصُّفْرَةُ هي اللونُ الذي يغلبُ على أوراق الشجر في الخريف، ثم ما تَلْبثُ حتى تَصْفِر فيها ريحُ الشتاء، وتَذْرُوها. ويُقال إن الشعوب السلافية كانت تُسمِّي تشرينَ الأولَ (أكتوبر): الشهر الأصْفَرَ، والأنكلوسكسون يُسَمُّون تشرينَ الثاني (نوڤمبر): شهرَ الريح[1]... وأخيراً، إذا كان ابتداءُ فصل الخريف في نحو الواحد والعشرين من أيلول (سپتمبر)، فقد كان شهرا صفَرٍ يقعان إذن بين شهري أيلول وتشرين الثاني (سپتمبر ونوڤمبر)، ثم صارا فيما بعدُ يُوافقان في طَرَفَيْهما شهريْ تشرين الأول وتشرين الثاني (أكتوبر ونوڤمبر).

وهناك دليلٌ آخرُ على أن الصَّفَرِيَّةَ زمنٌ يكون في الخريف وأوائل البرد، ويؤكد أن موقعَ شَهريْ صَفَرِ الأوّلِ والآخِرِ هو موقعُ شَهْرَيْ تشرين الأول والثاني (أكتوبر ونوڤمبر)... فقد جاء في الحديث: أن قادماً قَدِم عليه من مكة، فقال: كيف تركت الحَزْوَرَةَ؟ قال: جادَها المطرُ، فأَغْفَرتْ بطحاؤها[2]... أي أن المطر نزل عليها حتى أَغْفَرَ رِمْثُها.

والحَزْوَرَةُ: الرابيةُ الصغيرة، وكانت بمكة موضعَ سوقِها ثم دخلتْ في المسجد[3]... **والرِّمْثُ**: من شجر الحَمْضِ، كانَ في بطحاء مكة. **وأَغْفَرَ رِمْثُها**: أي أخرج مَغَافيرَهُ. **والمغَافيرُ**: سائلٌ صَمْغيٌّ شبيهٌ بالناطِفِ يسيلُ من شَجَرِ الرِمْث، من أطرافِ عِيدانِها، مثل الدبس في لونه، وهو حلوٌ يُؤكل،

---

(١) أسماء الأشهر في العربية: ١٤.

(٢) اللسان: ٥/ ٢٨ (غفر).

(٣) معجم البلدان: ٢/ ٢٥٥.

واحِدُها مُغْفُور. ويقال: خرج الناسُ يتَغفَّرُون أي يَجْتَنُون المغافيرَ مِن شجره. . .

والمهمُّ في هذا الخبر قولُهم من بَعْدُ: وإنما يُغْفِرُ الرِّمْثُ في «الصَّفَرِيَّة» إذا أَوْرَسَ. . . وقولُهم: كلُّ شَجر الحمض يُورِسُ عند «البَرْدِ»، والرِّمْثُ والعُرْفُطُ والطَّلْحُ من الحمض[1]. . . وأَوْرَسَ الرِمْث: أي اصْفَرَّ ورقُه بعد النُضْج والإدراك، والوَرْسُ أيضاً شيءٌ أصفرُ يخرجُ على الرِمْثِ بين آخِرِ الصيف وأوّلِ الشتاء[2].

فانظر إلى هذه النصوص كيف حَدَّدتْ، بدقَّةٍ ووضوح، زمنَ الصَّفَرِيَّة عند العرب، بين آخِرِ الصيف وأَوَّلِ الشتاء، أي كما قلنا في زمن الخريف، حينما يبدءُ البردُ، فيَصْفَرُّ الورَقُ، وينضجُ الثمر. . . ومن طرائف العرب أنهم سَمَّوْا منزلَ القمر الذي يطلعُ نحو منتصفِ شهر تشرين الأول (أكتوبر)، منزلَ «الغَفْرِ»[3]، ولعلَّ ذلك لأن أشجار الحمضِ تُغْفِرُ فيه. وهو ثلاثة أنجُم صِغار تقعُ في بُرْج الميزان، والمعروف أن برج الميزان في النظام الشمسيّ أوَّلُ بروج الخريف، وابتداؤهُ نحوُ الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر)، وأعتقد أن في هذا كفاية. . .

* * *

② ـ شَهْرا رَبيع:

وهما الشهرانِ الثالثُ والرابعُ في سنة العرب. والشهورُ كلُّها تُذْكر

---

(١) تاج العروس: ١٣/٢٥٢ ـ ٢٥٣، واللسان: ٥/٢٨ ـ ٢٩ (غفر).

(٢) اللسان: ٦/ ٢٥٤ (ورس).

(٣) اللسان: ٥/ ٢٩ (غفر).

مُجرَّدةً، إلا شهرَيْ ربيع، يجب حين ذِكْرِهما إضافةُ كلمةِ شهرٍ إليهما، فلا يُقال فيهما إلا شهرُ ربيعِ الأوَّلُ، وشهرُ ربيعِ الآخِرُ. فإذا قيل: ربيعٌ الأوَّلُ، أو ربيعٌ الثاني مُجرَّداً، انصرف القولُ إلى معنى آخَر[١]... فالربيعُ عند العرب لفظةٌ لها دلالةٌ عامَّةٌ على مَعَانٍ، لا يَحدُّها زمنٌ واحدٌ مُعَيَّنٌ من أزمنة السنة، على نحو ما هو معروفٌ من دلالة فصل الربيع، الذي يأتي بعد الشتاء، وقبل الصيف. فالطَلُّ، والنَّدىٰ، والمطرُ، والسَّحَابُ، والنَّوْرُ، والعُشْبُ، والكَمْأَةُ، والثمارُ، كلُّها ربيعٌ[٢]... وعلى ذلك فالخريفُ ربيعٌ، والشتاءُ كلُّه ربيعٌ، ومُقَدَّمُ الصيفِ ربيعٌ[٣]... فما العِلَّةُ إذن في اخْتِصَاصِ هذين الشهرين باسْم الربيع، مع أنَّ معانيه أوْسعُ من أن تُحَدَّ فيهما دون سائر الشهور؟

لا نريدُ أن نَتوقَّف كثيراً عند مَن قال، إنهما حُدَّا في زمن الربيع حين تَسْميتهما، فلمَّا دارا في الفصول، لَزِمَهُما الإسمُ، وضاعَتْ دلالتُه[٤]... فهو كلام يحملُ بُطْلانَه في أحشائه، فإن كانا حُدَّا في فصل الربيع، وهو بعد شهرَيْ جُمَادَىٰ، فكيف قَفَزا من بين الشهور، ووقَعَا بعد شهري صَفَرٍ؟ ذلك أن شهورَ السنة القمرية، وإن كانت تَدُورُ في الفُصول الأربعة جميعاً، لكنَّ الشهرَ منها يظلُّ ثابتاً في مَوْضِعه من الترتيب الذي يَنتظِمُ شُهورَ السنة، ولا يمكن أن يتحوَّلَ عن موضعه إلى مَوْضعٍ آخَر، على غير ما رُسِمَ له في تَتَابُع تلك الشهور!. ونقل القلقشنديُّ قولاً آخَرَ، غريباً عجيباً، ذكر فيه أن شهريْ

---

(١) لسان العرب: ٨/ ١٠٣، وتاج العروس: ٢١/ ٣٤ (ربع).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٤، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠١، ولسان العرب: ٨/ ١٠٣ ـ ١٠٤ (ربع)، و ٩/ ٩٣ (خرف)، و ١٤/ ٤٢١ (شتا).

(٣) تاج العروس: ٢١/ ٣٤ ـ ٣٥.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٧، وتاج العروس: ٢١/ ٣٤، ولسان العرب: ٨/ ١٠٣ (ربع).

ربيع سُمِّيَا بذلك لأن العرب كانت تُحصِّلُ فيهما ما أصابتْه في صَفَر[1]، وهو مُتَابَعَةٌ لقول من جَعلَ شهرَ صفَرٍ للغارات والغَزْوِ، وحُجَّتُه في ذلك أن الخِصْبَ من معاني الربيع. . . أما القولُ بأنهما سُمِّيَا ربيعاً باسْم المطر الواقع فيهما[2]، فليس فيه غَنَاءٌ، لأن المطر عند العرب ربيعٌ متى جاء[3]. ويبقى هنالك قولٌ أخير، جديرٌ بالتوقُّفِ عنده، فيه إجماعٌ على أن هذين الشهرين سُمِّيَا ربيعاً: «لارْتِبَاعِ الناسِ فيهما، أي إقامتِهم»[4]، فما الارْتِبَاعُ؟ وما الإقامَةُ؟ وكنا، في كلامنا على شهريْ صَفَرٍ، عَرفنا الارْتباعَ ارتحالاً لا إقامةً! أَتَرىٰ سِرَّ العِلَّة يكمُنُ هنا؟ رُبَّما! . . .

وعلى ذلك يجبُ، من أجل المُضِيِّ في الْتِماس الجواب، أن نُقلِّبَ معاني الربيع عند العرب مرَّةً أخرى، لعلَّنا نجدُ ما يُعِينُنا على التفريق بين عُموميَّتِها، وخُصُوصِيَّة دلالتها في المُصْطَلَح، ولا نكادُ نَعْثُر في المصطَلح إلا على قولهم: الربيعُ عند العرب ربيعان: ربيعُ الشهور، وربيعُ الأَزْمنة. فربيعُ الشهور شهرانِ بعد صَفَرٍ، سُمِّيا بذلك لأنهما حُدَّا في هذا الزمن. وربيعُ الأزمنة ربيعانِ: الربيعُ الأوَّلُ، وهو فصلُ الخريف، وفيه تُدْرِكُ الثمارُ، وتبدءُ السماءُ تَقْطُرُ الطَلَّ، والأَرْضُ تَنْدَىٰ. والربيع الثاني، وهو الفصلُ الذي يتلو الشتاءَ، وتُسمِّيه العربُ صيفاً، ويأتي فيه النَّوْرُ والنباتُ والكمْأَةُ. وكلُّهم مُجْمِعُون على أن الخريفَ هو الربيع[5]. . . فإذا قيل: الربيعُ الأوَّلُ، مُجرَّداً،

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠١.
(٢) تاج العروس: ٢١/ ٣٨ ـ ٣٩ (ربع).
(٣) لسان العرب: ٨/ ١٠٣ (ربع).
(٤) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٧، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠١، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٨، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، وعجائب المخلوقات: ١١١.
(٥) تاج العروس: ٢١/ ٣٣ ـ ٣٤.

فمعناهُ فصلُ الخريف، وإن قيل: الربيعُ الثاني، فمعناهُ الفصلُ الذي يأتي بانقضاءِ الشتاء. ولا يُمكن أن ينصرفَ معنى كلٍّ منهما إلى الشهر، إلا إذا أُضيفَت إليه كلمةُ شهرٍ، فينصرف معناهُ إذ ذاك إلى شهر ربيعِ الأوَّل، أو شهر ربيعِ الآخِر. وهذا هو مِعْيارُ التفريق بين تلك الأَرْبِعَة، وهو مِعْيَارٌ لَفْظِيٌّ لا أكثر، ليس فيه حقيقةُ الفرقِ بينها. فشهرا صَفَرٍ يقَعانِ في الخريف، وهو الربيع الأولُ عند العرب، فهُما إذن من شهور الربيع، وشهرا ربيعٍ يقَعانِ بعدَهما، فهما استمرارٌ لهما في الزمن، وفي طبيعةِ الفَصْل، فما العِلَّةُ في تَمْييز شهريْ ربيع بهذا الإسم، دون شهريْ صَفَر، ودون شهور الصيف كذلك، وهي الربيعُ الثاني؟ وما الفرقُ بين هذا الربيع وذاك الربيع؟

ونعودُ إلى عُموميَّة معاني كلمة: رَبَعَ، وننظرُ فيها، فنَجِدُ أن بالإمكان رَدَّها إلى أربعة أُصولٍ رئيسة:

الأول: الغَيْثُ، بمعنى النَّدى والمَطَرِ والسَّحَابِ.

الثاني: الخِصْبُ، بمعنى كثرة العُشْب والنبات، والثمار، ونِتَاجِ الأنعام.

الثالث: الإقامةُ، بمعنى السَّكَنِ أو التوطّنِ والاطمئنانُ فيه.

الرابع: العَدَدُ أربعةٌ أو أَرْبَعُونَ ومَا في حُكمه كالأربعاء، والمُربَّع، والرُّبَاع، والرُّبْع[1] . . .

ثم نعودُ إلى ما ذكرناه، في كلامنا على شهريْ صَفَر، عن وُجُودِ مَوسِمَيْن كبيرين عند العرب، يرتحلون فيهما عن ديارهم، للتربُّعِ والانتجاع في البوادي، وقد عَلمنا أن الموسمَ الأولَ منهما يقعُ في فصل الخريف، أي فيما يُسَمُّونَه الربيعَ الأولَ، ثم لا يزالون في النُّجْعَةِ حتى طُلوعِ منزل «الشَّوْلَةِ»

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٩٩ ـ ١٠٨، وتاج العروس: ٢١/ ٢٢ ـ ٥٩ (ربع).

نحو التاسع من كانون الأول[1]، فيَدخلُ الشتاءُ، وأوَّلُهُ أربعون ليلةً يشتدُّ فيها البردُ بكل مكان[2]، وحينئذٍ ينتهي الموسمُ، ويتتابعُ الناسُ في العودة إلى بيوتهم، للإقامة فيها، إتِّقاءً للبرد، وطلباً للدِّفْءِ[3]. ثم لا يكون ارتحالٌ للنُجْعَة والتربُّع إلا بانقضاءِ الشتاء، وابتداءِ فصل الربيع الثاني. ذلك أن العرب كانت تُسمِّي المُجَاعَةَ شتاءً، فالمُجَاعاتُ أكثرَ ما تُصِيبُهم في الشتاءِ البارد، ويُسَمُّون الشتاءَ جَدْباً، لأن الناس يلتزمون فيه البيوتَ، ولا يخرجون للانتجاع[4]. وما كان من غَيْثٍ يَرجُونه إذ ذاك، فهو «غَيْثٌ مُرْبِـعٌ، يحمِلُ الناسَ على أن يَرْبَعُوا في ديارهم، ولا يَرتادُونَ»[5] مواقعَ المطر في البادية، لأن الغَيْثَ المُرْبِـعَ، يكون عامّاً، مُغْنِياً لهم عن الارْتيادِ والنُجْعَةِ[6]، لِعُمومهِ البلادَ إن صَدَق نَوْءُهُ، فيُقيمون في مَرابِعهم حيث كانوا وكانت[7]، ولا يلزمُ من الارتباعِ، أو التربُّع، أن يكون دائماً في البادية، ولا سيما في أيام البرد والشتاء.

وبذلك نفهمُ قولَهم: إن شهريْ ربيعٍ سُمِّيا بالربيع «لارْتباع الناس فيهما، أي إقامتهم»، فالارْتِبَاعُ فيهما يكون بالإقامة، حيث تكونُ ديارُهم أو محاضِرُهم أو مَرَابِعُهم، وليس بالارْتحال إلى البادية، كما في موسِمَيْ الربيع

---

(١) عجائب المخلوقات: ٨٢.

(٢) وتُسمَّىٰ هذه الليالي في بلاد الشام: مُرْبِعَانِيَّةَ الشتاء! لاحظْ كلمةَ مُرْبِـع كيف صارت في المُصْطَلَح الشاميّ.

(٣) الأزمنة والأنواء: ١٧٧، ١٤٢، وصبح الأعشى: ٢/ ٤١٢.

(٤) لسان العرب: ١٤/ ٤٢٢ (شتا).

(٥) تاج العروس: ٢١/ ٥٥.

(٦) لسان العرب: ٨/ ١٠٤.

(٧) تاج العروس: ٢١/ ٥٠.

الأول والربيع الثاني. . . ويَغلبُ في اعتقادي أن يكون المُتَربَّعُ، أو المُرْتَبَعُ في البادية عامّاً، ينزله الناسُ في مواسم الربيع، ويشتركون فيه، ويَتَجاوَرُون. أمّا الرَّبْعُ، أو المَرْبَعُ فيغلبُ أن يكون خاصّاً بأهله، ملكاً لهم، لا يُنازِعُهم فيه أحدٌ، وهو المنزِلُ عادةً، ودارُ الإقامة، والمحلَّةُ، ومنه قولُهم: يَرْبعُونَ، أي يُقيمون في رَبْعِهم، أو مَرابعهم، عن الارْتيادِ والنُجْعَة، لعُموم الغَيْثِ[1]. أي لعِلَّةِ عُموم الغيث كلَّ الرِبَاع.

وهكذا بات واضحاً، أن الربيع في فَصْلَيْ الربيع الأول والربيع الثاني عند العرب، إنما هو موسمُ ارْتحالٍ عن المحاضِر إلى المناجِع، وجْهُ التسمية فيه قائمٌ على معاني الغيث والنَّدى والخِصْب. وأن الربيع في شهرَيْ: ربيع الأول وربيع الآخِر، إنما هو زمنُ إقامةٍ في المنازل، واطمئنانٍ بها، وَجْهُ التسمية فيه قائمٌ على معاني: الغَيْثِ، والإقامةِ، وأرْبَعينيَّات الشتاءِ القاسية، جميعاً.

وأرى أن شهريْ ربيعٍ عند العرب كان يُقابِلُهما شهرا كانون عند إخوانهم أهل الشام (ديسمبر ويناير)، وجَذْرُ «كَنّ» ساميٌّ مُشْتَرِكٌ، من معانيه: الاستقرارُ والإقامةُ والثباتُ[2]، والكِنُّ في العربية هو البيتُ، والكانونُ: المَوْقِدُ والمُصْطَلى[3]، وهذا يعني أنَّ هذين الشهرين سُمِّيا بذلك، لأنهم كانوا يرجعون فيهما إلى أَكْنَانِهم، يستترون بها من المطر والبرد، ويَصْطَلُون بنار الكانُون طلباً للدفء. وهكذا يكون الارتباعُ في شهري ربيع بمعنى الإقامة في البيوت، كالْكَنِّ في شهريْ كانون.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٨/١٠٢، ١٠٤، وتاج العروس: ٢١/٢٣، ٢٤، ٥٠ (ربع).

(٢) أسماء الأشهر: ٣٣.

(٣) لسان العرب: ١٣/ ٣٦١ ـ ٣٦٢ (كنّ).

③ ـ شَهْرا جُمَادَى:

وهما الشهرانِ الخامسُ والسادسُ من شهور العرب، وكانوا في الجاهليَّة يقولون: جُمَادَى خمسةٍ، وجُمَادَى سِتَّةٍ. فأمّا جُمَادَىٰ خمسةٍ فهي شهرُ جُمادَى الأُولى، وهو الخامسُ من شهور السنة، وأمّا جُمَادَىٰ ستَّةٍ فهي شهرُ جُمادَى الآخِرة، وهو تَمامُ ستَّةِ أشهُرٍ من أوَّلِ السنة[1]... ومنه قولُ الشاعر لَبِيد[2]:

حتى إذا سَلَخا جُمادَىٰ ستةٍ　　جَزْءًا فطال صِيَامُهُ وصيامها[3]

أضاف جُمادَى إلى ستةٍ، وأراد جُمَادَى الآخِرة، لأنها تَمامُ ستةِ أَشْهُرٍ[4]، ابتداءً من شهر صَفَر الأوّل المحرَّم. ويُعَدُّ الجُمَادَيانِ من شُهور البَرْدِ والنَّدى والشتاءِ عند العرب، ومن ذلك قولُ شاعرهم يصفُ شِدَّةَ البرد، وكثرة الأنْداءِ في إحدى ليالي جُمادَى:

وليلةٍ من جُمَادَىٰ ذاتِ أَنْدِيَةٍ　　لا يُبْصِرُ العبدُ في ظَلْمائها الطُّنُبا[5]
لا يَنبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ　　حتى يَلُفَّ على خرطومه الذَنَبا[6]

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٢٩ ـ ١٣٠ (جمد).

(٢) لبيد بن ربيعة: أبو عقيل العامريُّ، شاعر جاهلي من الفُرسان الأشراف. من أصحاب المُعلَّقات، كان كريماً، نَذَر أن لا تَهُبَّ الصَّبا، إلا نَحَرَ وأطعم الناسَ. أدرك الإسلام، وأسلم، وهذا البيت من مُعلَّقته المعروفة. توفي نحو (٦٦١ م).

(٣) سَلَخَ: الشهرَ، أي خرج منه بعدما أمضاهُ جَزْءًا، أي مُجَزَّءًا، يَسْلَخُ كل ليلةٍ جُزءًا من الشهر حتى تكاملت لياليه.

(٤) شرح القصائد السبع: ٥٤٦، ولسان العرب: ٣/ ٢٥ ـ ٢٦ (سلخ)، وتاج العروس: ٧/ ٥١٩ (جمد).

(٥) الطُّنُبُ: حبلُ الخِبَاء، وما يُشَدُّ به البيتُ من الحِبَال.

(٦) تفسير ابن كثير: ~~٣/ ٣٩٥، والأزمنة والأمكنة~~: ١/ ١٦٨.

ولكنَّ الأخباريين، كما أشرنا من قبل، لمّا وجدوا أن شهريْ جُمادى صارا يأتيان في شِدَّةِ الحرِّ، كما في البرد، عَزَوْا ذلك كعادتهم إلى جهل العرب بدَوَران الشهور القمريَّة، مع إطْبَاقِهم جميعاً على أنهما سُمِّيا بذلك: «لجُمود الماء فيهما من البرد والشتاء...»[1]، بل إن بعضهم ذهب إلى أن «جُمادَى شِدَّةُ القُرِّ... وفيها كان يكونُ أوَّلُ المطرِ»، وحُجَّتُهُ أن الشتاءَ هكذا كان في ذلك الزمان[2]. وبعضهم نَظَر فوجد كثرةَ ذِكْر العرب شهريْ جُمادَى، إمّا ببرد الزمان، أو بوَفْرة الأَنْدِيَةِ والجَمَدِ، ولم يتفق أن وُصِفَا بالحَرِّ قَطُّ، فأراد أن يُبرِّرَ وقُوعَهما في زمانِ الحرِّ، بعد إبطالِ الكَبْس ودَوَرَانِهما في الأزمنة، فزعم أن «جُمادَى عند العرب الشتاءُ كلُّه، في شَهريْ جُمَادى كان الشتاءُ، أو في غيرهما...»[3]، ولكن هذا الزَّعْم لا يُوقفُ انتقالَ الشهور القمريَّة في الفصول، فإن كانت جُمادى إسماً للشتاءِ، أو كانت إسماً لِشَهْرٍ منه، فستكونُ بالدَّوَران إسماً، يحملُ معنَى البرد الشديد، على زمَنٍ يقعُ في الحرِّ الشديد. وأمّا القولُ بأن «الشتاءَ عند العرب جُمَادَى، لجُمودِ الماء فيه»[4]، فمعناهُ أن فصلَ الشتاءِ كلَّه كشَهريْ جُمادَى في «الجَمَد»، وأن الماء يجمدُ في الشتاء جُمودَهُ فيهما، أو أنه جعل الجَمَدَ علامةً للشتاء، فما لم يكن جَمَدٌ فلا شتاء. ويبدو أن كلمةَ الجَمَدِ، وما وُصِفَ به شهرا جُمادَى من البرد الشديد، حَملتِ البعضَ على تقديم مَوْقِعهما في زَمنِ الشتاء، وجَعْلِهِ من منتصف كانون الأول إلى منتصف

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨، ٢٧٧، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠١، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩، وعجائب المخلوقات: ١١١، وتاج العروس: ٧/ ٥١٩.

(٢) شرح القصائد السبع: ٥٤٤.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨.

(٤) تاج العروس: ٧/ ٥٢٠، ولسان العرب: ٣/ ١٣٠ (جمد).

شباط ـ فبراير[1]، مُسْتَنداً إلى أن الجَمَد هو الثلجُ وما جَمَد من الماء، وأن العربَ أرادوا هذا المعنى دون غيره، من التَّسْمِيَة!

* * *

والواقع أنني لا أتفق مع من ذَهبَ إلى أن الجَمَدَ بمعنى الثلج وجُمودِ الماءِ، هو وحدَهُ وراءَ تسْميةِ العرب هذين الشهرين بجُمَادَى، فقد رأينا أنهم ذهبوا في تسمية الشتاء مُجَاعةً، وقَحْطاً، لأنه يُلْزِمُهم الإقامةَ في بيوتهم، لا يبرحونها من شدَّة البرد، ويَحْرِمُهم من النُّجْعَة والارْتِيَاد. وغيرُ بعيدٍ أنهم سَمَّوا الشتاءَ، على المجاز أيضاً، جُمَادَى لما يقعُ فيه من جَمَدٍ، ولِعِلَّةٍ أُخرى، فوق الجَمَدِ، يُمكن أن نَتبيَّنَها من مُراجعة معاني الجَمد... ومن أقوال العرب: أَجْمَدَ القومُ، إذا قَلَّ خَيرُهم، وبَخِلُوا... وسنةٌ جامدةٌ: لا كَلأٌ فيها، ولا خِصْبٌ، ولا مَطَر... وأرضٌ جَمَادٌ: لم يُصِبْها مَطَرٌ... وشاةٌ جَمَادٌ: لا لبنَ فيها... ورَجُلٌ جَمَادٌ ومُجْمِدٌ: بخيلٌ. كما قالوا في المُجْمِد: الرَّجُلُ البخيلُ المُتَشَدِّدُ، أي أنه أمينٌ مع شُحٍّ، لا يخدع... وقالوا: عَيْنٌ جُمادَى، أي جامدةٌ لا تدمع[2]... ومنه قولُهم: شَتْوةٌ جُمَادى، أي شتاءٌ فيه جَمَدٌ وبَرْدٌ، ولكنه بخيلٌ لا يُمْطر. لكن هذا يجب أن لا يصرفَنا عن الإشارة إلى أن موسم التربُّع الثاني عند العرب يبدأ في جُمادى، ولعلَّها الآخرةُ، وحينئذٍ يكون اجتناءُ الكمأة، وإيراقُ الشجر.

ويبدو من أشعار العرب أن جُمَادَى وُصِفَتْ بكثرة الأَنْدِيَةِ وشِدَّةِ البرد[3]، على قِلَّةٍ في المطر غالباً. وليس هذا غريباً في جزيرة العرب،

---

(١) أسماء الأشهُر في العربية: ٦٥.
(٢) لسان العرب: ٣/ ١٢٩ ـ ١٣١ (جمد).
(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨.

فبادِيَتُها تكون في ليالي الشتاء شديدةَ البرد، تهبطُ فيها درجةُ الحرارة أحياناً إلى الصِفْر، ولا سيما في أجزائها الشمالية. وتزدادُ الرطوبةُ فيها ليلاً، وتَتَقَطَّرُ نَدىً يكادُ يُغطي معظمَ الأرضِ، وما بها من النبات، ويجمدُ من شدة البرد. وتختلفُ الحرارةُ في فصل الربيع بين الليل والنهار، ويصلُ الفرقُ أحياناً ثلاثينَ درجةً، فيكون النهارُ شديدَ الحرارة، والليلُ شديدَ البرودة[1].

وكانوا إذا قالوا: ليلةٌ جُمَادِيَّةٌ، أرادوا أنها شديدةُ البرد، في جُمادَى كانت أو في غيرها. وهي إشارةٌ إلى ما كان من شدَّة البرد في شهري جُمَادى، ومنه قولُ الشاعر: ليلةٌ إذا هاجَتْ جُمادِيَّة... أي ليلةٌ باردةٌ من ليالي الشتاء[2]. وكانوا كذلك يَصِفُون جُمادَى بالقَحْطِ، واحتباسِ المطر. ومن ذلك قولُ الشاعر: همُ الأيْسَارُ إن قَحَطَتْ جُمادَى[3]... أراد أنهم يَظلُّون أغنياءَ كُرَماءَ، وإن احْتَبَست جُمادَى مطرَها. ومنه أيضاً قولُ أُحَيْحَة بن الجُلاح[4]:

إذا جُمــادَىٰ مَنَعــتْ قَطْــرَهــا زان جَنَابي عَطَنٌ مُغْضِفُ[5]

أراد أن محلَّتَهُ، وإن بَخُلتْ جُمادَى بمطرها، تَزِينُها أشجارُ نخيله، الراسخةُ في الماء، الكثيرةُ الحَمْل، المُتَدلِّيَةُ الثمار[6]... ومن المفيدِ هنا،

(١) د. جبرائيل جبور ـ البدو والبادية: ٤٦، ٤٨.
(٢) تاج العروس: ٧/ ٥٢٠ (جمد).
(٣) لسان العرب: ٢/ ٤٠٦ (بحح).
(٤) أُحَيْحَةُ بن الجُلاح: أبو عمرو، شاعر جاهلي، من دهاة العرب، وشجعانهم، كان سيدَ الأوس، وسيدَ يثرب في الجاهلية، وكانت سَلمى بنت عمرو الخَزْرَجِيَّة زوجَهُ قبل أن يخلف عليها هاشم بن عبد مناف.
(٥) لسان العرب: ٩/ ٢٦٨ (غضف).
(٦) تاج العروس: ٢٤/ ٢١٦ (غضف)، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٧.

الإشارةُ إلى أن الشاعرِ جمعَ في كلامه، بين ذِكْرِ جُمَادَىٰ، ولعلَّها الآخِرةُ، لِشُحِّها بالمطر وقُربِها من آخِرِ الشتاء، وذِكْرِ النخيل التي أوقِرَتْ بكثرةِ الحَمْل، فَـتَدلَّىٰ ثَمرُها مُسْتَرخياً. . . وهذا يجعلُ موقع جُمادى الآخرة في شهر آذار (مارس)، وليس بين كانون الأول وشباط (ديسمبر وفبراير)، كما قَدَّر «أنيس فريحة»[1]، ويجعل تقديرَهُ وقوعَ شهر رجب في مُقابل شهر نيسانَ صحيحاً، وهو ما سنعود إلى الحديث عنه في مَوْضِعه من هذا البحث إن شاء الله.

صَفْوةُ الكلام في الجُمَادَيَـيْن أن الزمن فيهما كان، كما يبدو من البحث، كريماً بالبرد القاسي، وجَمَدِ النَّدىَ في الليل خاصَّةً، ولكنه شَحِيحٌ غالباً بالغَيْثِ، إذهو آخر الشتاء، إلا ما كانوا يَرْجُونَه من نَوْءِ منزل «الجبهة» في نحو الثاني عشر من شباط (فبراير)، فهو أشرفُ الأنواءِ عند العرب، وإن صَدَقَ كانوا يقولون: ما امْتَلأ وادٍ من نَوْءِ الجبهة ماءً، إلا امْتَلأَ عُشباً. . . وإذا أَخْلَفَ، ولم يكن فيه مطرٌ، كان ربيعُ العرب ناقصاً[2].

وعلى ذلك أرى أن وجه التسمية في جُمَادَى قائمٌ على اثنين من معاني الجَمَدِ:

١ ـ الجَمدُ بمعنى جمود الماء من شِدَّة البردِ، ولا سيما في الليل، وليس بمعنى هطول الثلج، وإنِ اتَّفَق وقوعُ ذلك يوماً في بعض السنين، أو في هامات الجبال، لا في الصحراء.

٢ ـ الجَمدُ بمعنى البُخْل، أي البخل بالغيث والقَطْر.

---

(١) أسماء الأشهر: ٦٥.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٤٧، وعجائب المخلوقات: ٧٩ ـ ٨٠.

ولا أرى هذا المعنى بعيداً من معنى «آذار ـ مارس» عند البابليين والسِّرْيَانيين والعبرانيين، وهي كلمةٌ من أصلٍ بابليّ معناها «الهَدرُ والصَّخبُ»، سُمِّي بها هذا الشهرُ لكثرة بُروقِهِ ورُعودِهِ، ولها صِيغَتا تعريب أُخْريان: أذار وأدار، وكان آذار الثاني الشهر الثالث عشر من السنة الكبيسة عند اليهود، لأن سنتهم قمريّة[1]... وذلك يؤكد أن الظرف الطبيعي لشهر جُمادى الآخرة عند العرب كان يتفق وموقع شهر آذار (مارس) من السنة، ويكون شهرُ شباط (فبراير) الظرفَ الطبيعيَّ لشهر جُمادَىٰ الأولى.

* * *

④ ـ شَهرُ رَجَب:

وهو الشهر السابع من شهور السنة العربية، هكذا كان في الجاهلية المتأخِّرة، وعلى ذلك أَقَرَّهُ الإسلام. ولكنه كان في الجاهلية المتقدِّمة الشهر الأوَّلَ في السنة، حينما كانت الأُمَمُ تفتتحُ سِنِيها مع قُدوم فصل الربيع، في نحو الواحد والعشرين من شهر آذار (مارس)، بالتقويم العربي السريانيّ، وقد نُقِل بعدئذٍ إلى الأول من شهر نيسان (أبريل). وكان شهراً مُحرَّماً عندهم جميعاً، جَرْياً على عادة الشعوب وقتئذٍ في تحريم الشهر الأول من السنة، وتكريسه لعبادة الآلهة، وشُكرها على ما أنعمتْ به عليهم من تجدُّد الحياة بعودة الربيع.

وكانت العربُ تُسمِّيه رَجَباً الفَرْدَ، لأن الشهور المحرَّمة الثلاثة الأخرى، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، وصَفَرٌ الأوَّلُ المحرَّمُ، جاءت سَرْداً متعاقبةً وانفرد رجبٌ لوحده في وسط السنة، كما نقل جواد علي[2]... بينما هو في

---

(١) عبد الله العلايلي ـ المعجم: ١٢٤ (آذار)، القسم الثاني من المجلد الأول.

(٢) المفصَّل: ٨/ ٤٧٧.

الحقيقة منفردٌ بنفسه سواء أكان في وسط السنة أم في أَوَّلها. ويقال إنهم كانوا يُسَمُّونَه أيضاً: رَجَباً المحرَّمَ[1]، ويبدو لي أن ذلك كان في الجاهلية الأولى، فلما انتقل رأسُ السنة إلى صَفَرِ الأوّل غلب على هذا نَعْتُ المحرَّمِ دون سائر الأشهُر المحرَّمة، تأكيداً لحُرْمَتِهِ.

ويعتقد علماءُ المسلمين، كابن كثير، أن شهر رجَبٍ حُرِّم في وسطِ السنة، لأجل زيارة البيت، والاعْتمار به، لمن يَقْدَمُ إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره، ثم يعود فيه إلى وطنه آمِناً[2]... وهذا قولٌ فيه نظر، فهو غيرُ دقيق، لأن زائر مكة من أقصى بلاد العرب، كان يحتاج يومئذٍ إلى أكثر من شهرٍ في قُدومه إليها، ومُقَامِهِ بها، وعودتِهِ منها، ولأن أَمَانَهُ في العُمرة لا يقومُ على حُرْمةِ الشهر وحَسْبُ، بل على قَصْدِهِ بيتَ الله، وعلى ما يسوقُه إليه من الهَدْي والنُّذُور. وما يتحرَّزُ به من الأحلاف والجِوار وما إلى ذلك.

وقيل كذلك إنه سُمِّيَ رَجَباً من الترجيب، أي التعظيم، لخوفهم إيّاه[3]، فكانوا يُعظِّمون فيه آلهتَهم، ويذبحون لها القرابين، ويُعظِّمون الشهر نفسَه، ويقولون: شهرُ الله الأَصَمُّ، لأنهم لا يسمعون فيه قَعْقَعةَ سلاح، ولا صوتَ مُسْتغيثٍ[4]... فيقعدون فيه عن القتال، ولا يغزو بعضُهم بعضاً... كما كانوا يَنْعتُونَه بمُنْصِلِ الأَلِّ، والأَلُّ: الأَسِنَّةُ. ويُقال إن قبائل مُضَر هي التي نَعَتَتْهُ بهذا النعت، لأنهم «كانوا إذا دخَل رجبٌ، أَنْصَلُوا الأَسِنَّةَ من الرِمَاح حتى يخرجَ الشهرُ»[5]، أي حتى ينقضي...

---

(١) شرح القصائد السبع: ٥٤٥، والمفصَّل: ٨/ ٤٨٤، وسورة البقرة: ٢١٧.
(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٦.
(٣) مروج الذهب: ٢/ ١٨٩.
(٤) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٨، ٢٨١ ـ ٢٨٢، ولسان العرب: ١٢/ ٣٤٤ (صمم).
(٥) الأغاني: ١١/ ١٢١ ـ ١٢٢.

وذكر ابنُ منظور أن الرَّجَبَ هو التعظيمُ، والمَهَابَةُ، والاسْتِحْيَاءُ، وأن شهر رجَبٍ سُمِّيَ بذلك في الجاهلية، لتعظيمهم إيَّاهُ عن القتال فيه، وأنه، كما جاء في الحديث، رَجَبُ مُضَر الذي بين جُمَادَى وشعبان، وإنما قيل رجبُ مُضَر، إضافةً إليهم، لأنهم كانوا أشدَّ تعظيماً له من غيرهم، فكأنهم اختصُّوا به[1]. وكانت قبائل مُضَر أهل الكثرة والغَلَبَةِ في الحجاز ونجد وتهامة.

ويبدو لي أن القول بأنه الشهرُ الذي بين شَهْرَيْ جُمادَى الآخِرة وشعبان، إنما هو تثبيتٌ له في موقعه بينهما، من غير تقديم أو تأخير، ذلك أن العرب لمّا كانت تفتتحُ سنتَها قديماً بشهر رجب، كانت تؤخِّر ابتداءَها به أحياناً، مُدَّة شهرٍ، يُضاف إلى السنة المُنْقَضِية، وراءَ جُمادى الآخرة، فتصير ثلاثَةَ عشَر شهراً، أي سنةً كبيسةً، فيأتي الشهرُ المُضَافُ ليفصِلَ بين جُمادَى ورجب. وكانوا يُحرِّمون الشهر المُضَافَ، أو المكبوسَ، ويرفعون الحُرمةَ عن رجَبٍ، فجاءتِ السُّنَّةُ بتحريم ذلك، وتثبيت رَجَبٍ في موقعه وحُرْمته. ومن شأن هذه الملاحظة أن تؤكد أنَّ شهور العرب كان يجري تثبيتُها بالكبس والنسيء لئلا تدورَ في الفصول الأربعة.

وفي اعتقادي أن تحريم رجب كان كتحريم صَفَر الأوَّل، فكلاهما شهرُ ربيع، ورَجَبٌ استمرارٌ لموسم التربُّع الثاني عند العرب، وهو موسمُ نعمةٍ وخيرٍ وبركة، لا بُدَّ لهم فيه من شكرِ الآلهة، والتعبُّدِ لها، على ما أنعمتْ به عليهم من الغَيْثِ والنباتِ والثمارِ والأنعام. ولذلك كانوا في الجاهلية يَذْبَحُونَ العَتَائِرَ في شهر رجَبٍ، يتقرَّبُونَ بها إلى الآلهة. والعَتِيرَةُ شاةٌ، هي

---

(١) لسان العرب: ١/ ٤١١ (رجب).

أوَّلُ ما يُنتَجُ في الربيع، وتُسمَّى الرجَبِيَّة[1]. ومن هنا نفهمُ أن شهر رجب كان مُنْصَرَفَ الشتاءِ وأوَّلَ فصلِ الربيع عند العرب، وما يزالُ بعدُ في البادية بردٌ وجَمَدٌ... آيةُ ذلك قولُ بِشْرِ بن أبي خازم، وهو شاعرٌ جاهليٌّ من بني أسد بن خُزَيمة، كانت ديارُ قومه ببادية نَجْدٍ[2]، يصفُ ثوراً وحشياً، صار إلى القَفْرِ:

فبـاتَـتْ عليـه ليلـةٌ رَجَبِيَّـةٌ تُكَفِّئُـهُ ريـحٌ خَـرِيـقٌ، وتُمطِـرُ
فأضحى وصِئْبَانُ الصقيعِ كأنها جُمَـانٌ بِضَـاحـي مَتْنِـهِ يَتَحـدَّرُ[3]

يقول: إن ذلك الـثَّورَ بات ليلةً من ليالي رَجب، تَضْربُه فيها فتُمِيلُه، ريـحٌ بـاردةٌ، شـديـدةٌ تخـرقُ الأجسـادَ، وتُمطِـرُ، فـأصبـح وحَبَّـاتُ النَّـدىٰ المتجمِّدِ، تَتَحدَّرُ على جلد ظَهْرِهِ كأنها حبَّاتُ اللؤلؤ. والصِئْبَانُ ما يَتَحبَّبُ من الجليد كاللؤلؤ الصِغَار[4]. وهذا وصفٌ صريحٌ لزمن يأتي عند انصراف الشتاء وإقبال الربيع، ولا أعتقد أن هنالك أكثر منه وضوحاً.

وأشار جواد علي إلى أن بعض الموارد اليونانية القديمة، ذكرت أن العـرب كانوا يُحـرِّمُونَ شهراً واحداً منفرداً، من شهور الربيع، وشهرين آخَرين مُتَّصِلَيْنِ يقعان في القيظ، أما الشهرُ الثالثُ الذي أُلْحِقَ بهذين الشهرين، فصارتْ به ثلاثةً سَرْداً، فيبدو أنه حُرِّم في وقتٍ مُتأخِّرٍ[5]... ومن الواضح أن الشهرَ المنفردَ هو شهرُ رجَبٍ، والشهرين الآخَرَيْن هما ذو القعدة

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٥٣٧ (عتر).
(٢) الأعلام: ٢/ ٥٤.
(٣) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ـ تحقيق د. عزة حسن: ٨٢ ـ ٨٣ (البيتان: ٨ و ١١).
(٤) لسان العرب: ١/ ١٤٠ ـ ١٤١ (كفأ)، و ١/ ٥١٤(صأب)، وفقه اللغة: ٢٧٨.
(٥) المفصل: ٨/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وذو الحجة، والشهرَ الثالثَ هو المحرَّمُ أي صَفَر الأول، وقد حُرِّم بعدما نُقِل رأسُ السنةِ من رجَبِ إليه. ومن شأن هذا التأكيدُ على أن شهرَ رجَبِ شهرُ ربيع، وهو ما ذكره مؤرِّخٌ يونانيٌّ آخَرُ بقوله: إن العرب يحجُّون إلى معبدهم مرتين في السنة، مرةً في وسط الربيع، عند اقتران الشمس ببُرج الثور، أي في نيسان (أبريل)، وذلك لمدة شهر واحد، ومرةً أُخرى في الصيف لمدَّة شهرين[1]. وهذا يعني أن شهر رجب كان يقعُ في فصل الربيع الذي يأتي بعد الشتاء، أي بين آذار ونَيْسَان (مارس وأبريل)، ذلك أن أول نَيْسان كان يقع قديماً في الواحد والعشرين من آذار، قبل تأخيره عن ذلك. . .

يُؤيِّدُ هذا المذهبَ أن مادَّةَ «رَجَب»، لم تكن في الأصل تعني التعظيم، أو التقديس أو المَهَابَةَ، وإنما صارت تعنيها لأن «الشهر كان مُقدَّساً في الجاهلية، يَذْبَحُونَ فيه العَتائِرَ، ويُقيمونَ بعضَ مناسك الحجّ الجاهلي القديم. . .»[2]، والأصلُ في الترجيب: أن تُدْعَمَ النخلةُ الكريمةُ بالرّجْبَةِ، إذا خِيفَ عليها أن تقعَ وتتكسَّرَ أغصانُها حين يكثر حَمْلُها[3]. . . ومنه قولُ بعضهم مُفْتَخِراً بقبيلته: أنا عُذَيْقُها المُرَجَّبُ[4]. . . أي أنَّ لي عشيرةً تَعْضُدُني، وتَمنعُني، وتُرْفِدُني. والعُذَيْقُ: تصغيرُ العَذْقِ، وهو النخلةُ بحَمْلِها عند أهلِ الحجاز. والترجيبُ هنا معناهُ: إرْفادُ النخلةِ لِئَلَّا تَسقُطَ، أو يقعَ حملُها، ويقالُ: إنه ضَمُّ أعْذاقِ النخلةِ إلى سَعَفَاتِها، وشَدُّها بالخُوصِ[5]، لِئَلَّا تَنْفُضَها الريحُ، فَتُسقِطَ ثَمرَها. وهو أيضاً: تَسْوِيَةُ سُرُوغِ

---

(١) المرجع نفسه: ٨/٤٨٦.

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ٦٦.

(٣) دراسات في فقه اللغة: ١٩٧.

(٤) هو الحُبَابُ بن المنذر الأنصاريُّ، قاله عند بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، يومَ السقيفة.

(٥) الأعذاق: مُفْرَدُها عَذْقٌ، وهو من النخل كالعنقود من العنب. والسَعَفُ: مُفْردُهُ سَعَفَةٌ وهي أغصان النخلة. والخُوصُ: ورق النخل. ويقال أيضاً: العَذْقُ كلُّ غصنٍ له شُعَبٌ.

الكَرْمِ، أي قُضْبانِه الرطبةِ[1]. . . ذلكم هو الترجيبُ في أصل معناهُ: أعمالُ دَعْمٍ وشَدٍّ وإصْلاحٍ على النَخْلِ والزَّرْع، تُجْرَىٰ في مطلع الربيع. وقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين، أن العادة استقرَّتْ منذ أقدم العصور، على رَبْطِ عَراجينِ النخيل في شهر نيسان (أبريل) من كل عام، منعاً للريح أن تُسْقِط ثمارَها[2]. . . ومن شأنِ ذلك كلِّه إثْباتُ أن شهرَ رجَبٍ هو ابتداءُ الربيع عند العرب، وأن وَجْه التسميةِ فيه قائمٌ على العناية بالثمار، والأغصان التي تحملُها وقتئذٍ، للحفاظِ عليها، وأنه يُقابِلُ شهرَ نَيْسَانَ عند أهل الشام والعراق، وإبريل عند أهل مصر وشمال أفريقية، في وقوع أوَّلِ زَمَنِهِ في بداية فصل الربيع.



⑤ ـ شَهْر شَعْبَان:

وهو الشهرُ الثامنُ من أوَّل السنة عند العرب. قيل إنه سُمِّيَ بذلك لِتَشَعُّبِهم فيه، أي تفرُّقِهم في طلب المياه، وقيل في الغارات[3]. . . وقيل لِتَشَعُّبِ العُودِ، أي لتفرُّعِ الأغصان عن الأشجار، فالشهر من شهور

---

(١) لسان العرب: ١/ ٤١١ ـ ٤١٣، وتاج العروس: ٢/ ٤٨٥ (رجب).

(٢) محمد فريد وجدي ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ دار المعرفة ـ بيروت (١٩٧١ م): ١٠/ ١١١ (نخل). «وقد جرت العادةُ منذ عهد بعيد جداً، بالاستعانة على إخْصَابِ النخل، بأن يُؤخَذَ عُرجونٌ صغير من زهر الذَّكَر، المعروف بالطَّلْع، قبل تمام نُضْجه مباشرةً، ويُوضَع بين ثَمَرِ الأنثى لمنع الأخطار والخسائر التي تنشأ من طريقة الإخصاب بالريح، ويجب ربط عراجين الذكر لمنع الريح من إسقاط محصولها، وتجري هذه العملية في شهر نَيسان ـ أبريل».

(٣) لسان العرب: ١/ ٥٠٢، وتاج العروس: ٣/ ١٤٢ (شعب)، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، وعجائب المخلوقات: ١١١، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٠٢، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩.

الربيع[1]. وزاد المرزوقيُّ على ذلك قولَهُ: لاشْتِعَابِ الظَّعْنِ إيَّاهم عن المرابعِ إلى المحاضر[2]، أي لأن الارْتحالَ إلى ديارهم في المحاضِر، يُفرِّقُهم بعدما كانوا مجتمعين في موسم التربُّع بالبادِيَة. ويكونُ وجهُ التَسْمِيةِ إذ ذاك مأخوذاً من التَشَعُّبِ، بمعنى التفرُّقِ والتَصَدُّعِ، ومن ذلك سُمِّيَ العَدَدُ من القبائل شَعْباً[3]، وفيه قال الشاعر:

لا أَحْسِبُ الدهرَ يُبلي جِدَّةً أبداً ولا تَقَسَّمُ شَعْباً واحداً شُعَبُ

- أراد أن يصفَ أحياءً مجتمعين في موسم الربيع، فلما قصدوا العودةَ إلى المحاضر، تَقَسَّمَتْهُم مِيَاهُهم، فقال: ما كنتُ أظنُّ أن شُعَباً مُتَفرِّقةً مختلفةً، تُفَرِّقُ شَعْباً واحداً مُجتَمِعاً، وذلك أنهم كانوا في مَنَاجِعهم ومَرابِعهم مُجتمعين على نيَّةٍ واحدةٍ، فلمَّا يَبِسَ العُشْبُ، ونَشَّتِ الغُدْران، توزَّعَتْهُم أعْدادُ المياه في ديارهم بالمحاضِر، فصاروا شُعَباً، على نِيَّاتِ كثيرةٍ[4]، أي فِرَقاً وقبائلَ منتشرةً في أوطانٍ مُتَباعدةٍ...

وكان التشعُّبُ يبدءُ مع دُخول الزمن الذي حُدَّ فيه هذا الشهرُ، فاشْتُقَّ له إسمُ شَعْبانَ، في دلاَلةٍ دقيقةٍ على التفرُّق بعد الاجتماع، فالشَّعْبُ: التفريقُ والتصْدِيعُ، والتَشَعُّبُ: التفرُّقُ والتصدُّع، والشَّعْبُ: الجمعُ والإصلاح... ومن الواضح أن الأمر لا علاقةَ له بالغارات، وما ذاك أكثرَ من اختراعِ زَوَّرَهُ أهلُ الأخبار.

ومن عادة العرب، أنهم لا يزالون في موسم التربُّع، يَنْتجعُونَ البوادي،

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠٢.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٨، ٢٧٨.

(٣) لسان العرب: ١/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨ (شعب)، و ٣/ ١٣٠ (جمد).

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٥٧، ولسان العرب: ١/ ٥٠٠، وتاج العروس: ٣/ ١٤٠ (شعب).

حتى يطلُعَ منزلُ «الشَرَطَيْنِ»، وطلوعُهُ في السادس عشر من نيسان (أبريل)، فذلك أوَّلُ تَفَرُّقِهم عن البوادي، ورُجُوعِهم إلى مَواطِنِهم، ومِيَاهِهم في مَحاضِرهم، ثم يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً في الرجوع، حتى يَطْلُعَ منزلُ «الهَقْعَةُ» في السابع من حزيران (يونيه)، فلا يبقى أحدٌ منهم في البادية، لأن الغُدْرانَ بالبوادي قَلَّتْ وخاسَتْ[1]. وفي ذلك يقول ساجِعُ العرب: إذا طَلَعَ الشَرَطانِ، استوى الزمان، وحُضِرتِ الأوْطانُ، وتهادَتِ الجيرانُ[2]... وهو كنايةٌ عن اعتدال الزمان، وانتهاءِ موسم التبدِّي، وشُروعِ البادِينَ في هذا الوقت بالعودة إلى مَحَاضِرهم ومِيَاهِهم، التي يُقِيمونَ عليها عادةً، ثم يأخذُ الجيرانُ منهم بالتَّهادِي، لكثرة النعَم والخير في موسم الربيع. وجاء في قولٍ آخَر: وحُضِرَتِ الأعْطانُ[3]... وهي مَبَارِكُ الإبِلِ حول الحِيَاضِ التي تُسْقَى منها في غير أوقات التبدِّي والنجعة، وإنما تُعْطِنُ العربُ الإبِلَ على الماء، حين تطلعُ «الثريَّا»، ويرجعُ الناسُ من المناجع إلى المحاضِر[4]، وطلوعُ «الثريَّا» يكون في نحو الثاني عشَرَ من أيَّار (مايو)، وهو مُؤْذِنٌ بإقْبال الحرِّ وشِدَّته[5]. وإذا أخذنا بما ذكره ابنُ منظور عن طلوع الثريَّا بالحجاز، في العَشْرِ الأوْسَطِ من أَيَّار[6]، فمن شأن ذلك التأكيدُ على أن شهر شَعْبانَ حُدَّ في الزمن الواقع بين طُلوع الشَّرَطَيْن وطُلوعِ الثريَّا، وأنه كان يُقَابِلُ شهرَ أيَّار، وقد كان ثابتاً في موقعه، لارتباطه بالزمن الذي ينتهي فيه موسمُ الربيع،

(١) الأزمنة والأنواء: ١٥٨.
(٢) المفصَّل: ٨/ ٤٢٩.
(٣) الأزمنة والأنواء: ١٥٧.
(٤) لسان العرب: ١٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ (عطن).
(٥) عجائب المخلوقات: ٧٧ ـ ٧٨.
(٦) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٠ (نجم).

ويأخذُ الناس فيه بالعودة عن النُجْعَةِ في البادية إلى الإقامة في المحاضِر، ولم يكن قطعاً شهراً للغزو والغارات.

* * *

٦ ـ شَهْرُ رَمَضَان:

وهو الشهرُ التاسعُ من أوَّل السنة عند العرب، وهنالك إجْماع على أن وجه التسْمِيَة فيه قائمٌ على الرَّمَضِ والرَّمْضَاءِ، أي شِدَّة الحَرّ، عندما سُمِّيَ بذلك[١]. وأضاف المسعودي وجهاً آخَرَ للتسمية، فزعم أنه إسْمٌ من أسماء الله، ولا يجوز أن يُقالَ فيه إلا شهر رمضان[٢]. ولكن ابنَ كثير خَطَّأَ من قال إنه اسمٌ من أسماءِ الله، وطلب أن لا يُلتَفَتَ إليه، ولايُعَرَّجَ عليه[٣]، وكذلك فَعل الزبيديُّ[٤]. وقولُهم: عندما سُمِّيَ بذلك، هَذَرٌ قُصِدَ به تَبريرُ فُقْدانِه معناهُ، بعدما صار دائراً في جميع الفصول! والأصلُ فيه أنه كان ثابتاً في موقعه من الأزمنة، لأنه كان موسماً للتحنُّثِ والعبادة في عصر الجاهلية. . . وقد ذكر البلاذريُّ[٥]، أن قُرَيشاً كانت «إذا دخل رمضانُ، خرج من يُريدُ التَحنُّثَ منها إلى حِرَاءٍ، فيُقيمُ فيه شهراً، ويُطعِمُ من يأتيه من المساكين، حتى إذا رَأَوْا هلالَ شَوَّال، لم يَدْخُلِ الرجلُ على أهله، حتى

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠٢، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩، وعجائب المخلوقات: ١١١، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨، ٢٧٨.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ١٨٩.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥.

(٤) تاج العروس: ١٨/ ٣٦٣ (رمض).

(٥) البلاذري: أحمد بن يحيى. مؤرِّخٌ، جغرافيٌّ، نسَّابة. كان يُجيد الفارسية، ونقل عنها كثيراً. بقي من مصنَّفاته التاريخية: كتابُ فتوح البلدان، وكتاب أنساب الأشراف. توفي سنة (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م).

يطوفَ بالبيتِ أسبوعاً»[1]، أي سبعَ مراتٍ، والتحنُّثُ: التعبُّدُ واعتزالُ الأصنامِ وعبادتِها، وهو موسمٌ لا بُدَّ أن يكون ثابتاً وقتئذٍ. يؤكدُ ذلك أن من معاني الرَّمَضِ، فضلاً عن الحَرِّ، الرُّجُوعَ من البادية إلى الحاضرة[2]، وشاهِدُهُ قولُ الشاعر:

إذا الجَـوْزاءُ أرْدَفَـتِ الشـريَّـا ظَنَنْـتُ بـآلِ فـاطمـةَ الظُنُـونـا

ومعناه أن «الجوزاء» تَرْدُفُ «الثريَّا» في اشتداد الحرِّ، أي تأتي بعدَها، وعند ذلك تجِفُّ المياهُ، فتَتَفرَّقُ الناسُ في العودة إلى محاضِرهم، فتَغيبُ عنه محبوبتُه، فلا يَدري أين مضَى بها أهلُها، وهو كان الْتَقاها في موسم التربُّع، أيامَ تخرجُ القبائلُ من منازلها، وتجتمع في مَنَاجِع البادية[3].

والواقعُ أن «الجوزاء» تطلعُ في التاسع من حزيران (يونيه)، بُعَيْدَ طُلوع «الهَقْعَة»، وحينئذٍ تبدأُ حَمارَّةُ القَيْظِ، والتهابُ الحَرِّ. وفي ذلك يقول ساجعُ العـرب: «إذا طَلَعـتِ الهَقْعَـةُ، تَقَـوَّضَ النـاس للقُلْعَـةِ، ورَجَعُـوا عـن النُجعَة...»، أي أنهم يُقَوِّضُونَ خِيَامَهم في البادية، ليَرجعوا عن النُجْعَةِ إلى أوطانهم، فذلك الميقاتُ آخِرُ عهدهم بالبادية في تلك السنة[4]. وهذا مِصْداقُ قولهم: إن الرَّمَضَ هو الرجوعُ عن المبادي إلى المحاضِر، وهو في شهر رمضانَ قطعاً، ومعناهُ أن رمضان زمنُ قَيْظٍ، وأنه كان يُقَابِلُ شهرَ حَزيرانَ، وأن إسمه مأخوذٌ من المَعْنَيَيْنِ: شدَّةِ الحرِّ، وآخِرِ العهدِ بموسم التبدِّي لذلك العام.

* * *

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٠٥.

(٢) لسان العرب: ٧/ ١٦٠، وتاج العروس: ١٨/ ٣٦١، ٣٦٧ (رمض).

(٣) لسان العرب: ٩/ ١١٥ (ردف).

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٦٥ ـ ١٦٦.

⑦ ـ شهرُ شَوَّال:

وهو الشهرُ العاشرُ من شهور العرب، وأوّلُ أَشْهُرِ الحجِّ. وقولُه تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ . . . ﴾[1]، معناهُ: شَوَّالٌ، وذو القعدة، وعَشْرٌ من ذي الحجَّة، وذلك بإطلاق الجمع على شهريْن وبعضِ الثالث للتغليب، وهذا ما أَطْبَق عليه معظمُ الأئمَّة، بينما ذهب بعضُهم إلى أن معناهُ: شوَّالٌ، وذو القعدة، وذو الحجَّة بكماله[2]. وهنالك ثلاثةُ أقوالٍ في تسمية شوَّال.

الأول: يجعلُها من الشَوْلِ، أوالشَوَلان، وهو الرَّفعُ أو الارتفاعُ. . . يَعْني أن الإبِلَ كانت تَشُولُ فيه أذنابَها، أي ترفعُها علامةً على رغبتها في اللقاح. ولذلك كانت العربُ تكرهُ عقدَ الزواج في هذا الشهر، وتَتَشَاءَمُ به، حتى أَبْطَلَ النبيُّ عليه السلامُ تَشَاؤُمَهم. وهذا دليلٌ على أن الشهر كان ما يزالُ ثابتاً في زمنه، لم ينتقلْ في الفصول، حين صَنَعَ النبيُّ ذلك.

والثاني: يجعلُها من التَشْويل، وهو النقصُ والجفاف. وذلك أن ألْبَانَ الإبِلِ كانت تُشوِّلُ فيه، أي تَقِلُّ، وتَجِفُّ[3]، «وكذلك حالُ الإبل عند اشتدادِ الحرِّ، وانقطاع الرُّطْبِ»[4]، أيَ انقطاعِ العُشْبِ والكلأ لشِدَّةِ الحرِّ. وهو دليلٌ آخَرُ على ثبات الشهر في موقعه أيامَ الجاهلية.

والثالثُ: يجعلُ التسميةَ من الشَوْلِ أيضاً، بمعنى الرفع، ولكنْ ذهاباً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٨، ولسان العرب: ٢/ ٢٢٧ (حجج).

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٨، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩، وعجائب المخلوقات: ١١٢، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥.

(٤) لسان العرب: ١١/ ٣٧٧ (شول).

منه إلى أن الإِبِلَ كانت تَشُولُ بأذنابها، إذا حُمِّلتْ في هذا الشهر للرحيل إلى الحجِّ[١]. . . وهو قولٌ غيرُ دقيقٍ، لأنه، إذا صحَّ، أمْكَنَ وقوعُه متى حُمِّلَتِ الإبلُ في كل الشهور. . .

وإذا صرفنا النظَرَ عن اهتمامِ أهل الأخبار والمؤرِّخين بالإِبِلِ، وكأنها مَن سَمَّىٰ الشهرَ باسْمِهِ، وتَغَافُلِهم عن أصحابِها العربِ وفِكْرِهم، أمْكن أن نستخلِصَ من تلك الأقوال، ومن الرجوع إلى معاني مادَّة «شَوَلَ» في العربية، أن الزمن الذي كان يقعُ فيه شهرُ شوَّالٍ، زمنٌ تشتدُّ فيه الحرارةُ عادةً، وينقطع العشبُ والكلأُ، وتكونُ حالُ الإبل على تلك الصورة من حُبِّ اللقاح، وجفَافِ الألبان في الضُروع. . . ونحن نعلمُ أن هذا الزمنَ هو ابتداءُ ارتحال العرب إلى الحجاز، لِشُهُودِ مواسم الحجِّ الأكبر في مكة، وأسواقِ عكاظ ومجنَّةٍ وذي المجَاز، فهو زَمنٌ له آيَتَانِ إذن، إحداهما: الارتفاعُ، أي ارتفاعُ الحرارة واشتدادُها، وهذا هو المعنى الرئيسُ الأوَّلُ لمادَّة «شول»، وأمَّا ارتفاعُ الأشياءِ الأُخرى، كأذنابِ الإبل وغيرها، فهو مَعْنىً فَرْعيٌّ تَبَعيٌّ. والآيةُ الأُخْرى: الارْتحالُ، وهو المعنى الرئيسُ الآخَرُ للكلمة. وكانت العربُ تقول في القوم إذا خَفُّوا ومَضَوْا: شالَتْ نَعَامَتُهم، أي ارتحلتْ جماعتُهم، وخَفُّوا مُسْرِعينَ[٢]، والشَوْلُ هنا معناه الارتحالُ إلى مواسم الحجِّ، وشوَّال أوَّلُ أشْهُرِ الحجِّ. وإذا فتَّشْنا في أقوال العرب عن دليلٍ آخر، وجَدنا ساجِعَهم يقول: «إذا طلعَ الذِرَاعُ، حَسَرتِ الشمسُ القِنَاع، وأشْعَلتْ في الأُفُقِ الشُعَاع، وتَرقْرق السَّرَابُ بكل قَاع»، والمعنى أن شِدَّةَ الحرِّ لم تَدَعْ غايةً في التَوَقُّدِ والذَكاءِ[٣]. . . ويكون طلوعُ منزل «الذِراع» نحو الثالث من

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠٢.

(٢) لسان العرب: ١١/ ٣٧٦ (شول).

(٣) الأزمنة والأنواء: ١٦٨.

تمُّوز (يوليو)[١]، ويَتْبَعُهُ طلوعُ «الشِعْرى العَبُور» في التاسع عَشَر منه، وعند ذلك يبلغُ الحرُّ مُنْتَهاهُ، وتأخذُ شِدَّتُه بالتراجُع[٢]... ولعلَّ أطرفَ ما يُصوِّرُ شدَّةَ الحرِّ في شوَّال، قولُ الشاعر:

أَبا دُلَيْجَةَ، مَنْ لحَيٍّ مُفْرَدٍ صَقِـعٍ من الأَعْداءِ في شوَّال؟

أي مَن لإنسانٍ يكادُ يموتُ برداً، خوفاً من الأعداءِ، رغم كونه في شَّوالِ شهرِ الحرِّ! والصَّقِعُ مَنْ أصابه الصقيعُ، أي الجليد[٣].

وعلى ذلك يكون وجهُ التسمية في شوَّال قائماً على مَعْنَيَيْنِ من معاني الكلمة: هما: الشَوْلُ بمعنى الارتفاع أي اشتداد الحرّ، والشَوْلُ بمعنى الارتحال في سرعة. ويكون موقعُ هذا الشهر في تقديرنا موقعَ شهر تموز (يوليو) من السنة الشمسيَّة.

* * *

⑧ ـ شهرُ ذي القَعْدَة:

وهو الشهرُ الحادي عشر من أول السنة، والثاني من أشهُرِ الحجِّ. وأكثَرُ المفسِّرين والأخباريين على أنه سُمِّي بذلك لقُعودِ العرب فيه عن القتال، لأنه شهرٌ محرَّم[٤]... وفي قولٍ آخَر: لِقُعودِهم فيه عن الأسْفارِ والغَزْوِ وطلبِ الكلأِ والميرة[٥].

---

(١) عجائب المخلوقات: ٧٩.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣) لسان العرب: ٨/ ٢٠١ (صقع).

(٤) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠٢، وعجائب المخلوقات: ١١٢، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩.

(٥) لسان العرب: ٣/ ٣٥٧، وتاج العروس: ٩/ ٤٦ (قعد)، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٩.

ولا يبدو لي هذا التعليلُ في القَوْليْن كافياً أو مُقْنِعاً، فقعودُهم عن القتال، إن كان قتالٌ، كقُعودهم في سائر الأشهُرِ المحرَّمةِ على السواء، فما بالُ هذا الشهرِ سُمِّي بذلك دون غيره منها؟. . . وقُعودُهم عن الأسْفارِ وطلبِ الكلأ والميرةِ قولٌ غيرُ صحيح، ففي هذا الشهر يقومُ موسمُ سوقِ عكاظ، أكبرِ أسواقِ العرب، وأعظم منتدياتهم الاجتماعية، فكانوا يرتحلون إليه جماعاتٍ، من مختلف بلاد العرب، للمتاجرة والامتيار، ولقضاءِ حاجاتٍ شتَّى، أو ليكون لهم منه محطةٌ في طريقهم إلى كعبةِ مكَّة للقيام بمنَاسِك الحجِّ. . . وإذا كان المرادُ بقُعودهم عن الأسفار وطلبِ الكلأ، قُعودَهم عن الارتحال إلى البوادي لانتجاع مَواضِع الكلأ، فهو غير صحيح أيضاً، لأن التبدِّي في موسم الخريف الآتي يبدءُ أواسطَ هذا الشهر!

ويُقال إن مادَّة «قَعَد» لم تَرِدْ في كلِّ اللغات الساميَّة، ولكنها جاءت في السريانيَّة بمعنى «الرُّكُوع وثَني الرُّكَب»[1]، وهو معنىً يجعلُ لها صبغةً دينيَّةً. . . أما في العربية فمعناها القُعودُ من قيام، والقعْدَةُ: المَرَّةُ من القُعودِ، والقِعْدَةُ: مقدارُ ما يأخذُهُ القاعِدُ من المكان لقُعودِهِ، ويُقال: رجلٌ قاعِدٌ عن الغزوِ، إذا كان لا يمضي إلى القتال، ويقال لمَواضِع قُعودِ الناسِ في الأسواق: المقَاعِدُ[2]. . . وبالجمع ما بينَ العربية والسريانية يتبيَّنُ لنا أن شهر ذي القعدة إنما سُمِّي بذلك لأنه شهرٌ للنُسْكِ والعبادة، يقعدون فيه عن القتال، وتقعدُ طوائفُ كثيرةٌ منهم في الأسواق، تأخذُ مقاعِدها منها أثناء انعقاد مواسمها في هذا الشهر، كسوق عكاظ، وسوق مجنَّة، وسوق الرابية بحضرموت.

---

(١) أسماء الأشهُر في العربية: ٧٦.

(٢) لسان العرب: ٣/٣٥٧، وتاج العروس: ٩/ ٤٤ ـ ٤٦، ٦٠ (قعد).

ويغلبُ أن يكونَ شهرُ آبِ (أغسطس) الظرفَ الطبيعيَّ لموقع شهر ذي القعدة في الأصل، ولكنه في تطوُّرٍ لاحقٍ، وبعدما جرى تثبيتُ شهور السريانيين في سنة الشمس وأزمنتها، صار يتقدَّمُ أحياناً على شهر آب، ويأتي غالباً بين شهري تمُّوز (يوليو)، وآب (أغسطس)... ويُلاحظ هنا أمران:

الأول: ما كان لشهر آب من الصبغة الدينية عند الأقوام القديمة، وهو ما سنتحدث عنه في كلامنا على شهر ذي الحجَّة.

والثاني: أن نجم «سُهَيْلٍ» المشهور يَطْلُعُ نحو الرابع عشر من شهر آب[1]، أي في العَشْر الأخير من ذي القعدة، وحينئذٍ يبدأُ عند العرب موسمُ التربُّعِ في المناجِع والخروجِ إلى البادية، أو قصد كعبة مكةَ لأداءِ فريضَةِ الحجِّ في شهر ذي الحجة.

* * *

⑨ ـ شهر ذي الحجَّة:

وهو الشهرُ الثاني عشر والأخير من شهور العرب، سُمِّيَ بذلك لإيقاعِهِمُ الحجَّ الأكبرَ إلى مكة فيه، وعلى هذا كلُّ المؤرِّخينَ والأخباريين[2]. وكان مرَّ بنا أن عرب الجنوب كانوا يُسَمُّونَه: ذو حجتن، أي ذو الحجَّة، وذلك لقيامهم بأداءِ فريضة الحجِّ فيه إلى مكة. أمَّا قولُ جواد علي بأن مكة لم تكن مَحجَّةَ أهلِ اليمن[3]، فقولٌ فيه نظرٌ! ويمكنُ تَفْنيدُه من جانبيْن،

---

(١) الأنواء: ٩٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥، ومروج الذهب: ٢/ ١٨٩، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٨، وصبحُ الأعشى: ٢/ ٤٠٢، وعجائب المخلوقات: ١١٢، والمفصَّل: ٨/ ٤٦١، وأسماء الأشهر: ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) المفصَّل: ٨/ ٤٧٨، ٤٧٩.

أوّلُهما: إذا لم يكن عربُ الجنوب يحجُّون إلى كعبة مكة، فما الذي بدا لأبْرَهَةَ حتى بَنَىٰ معبدَ القُلَّيْسِ بصَنعاءَ، وفي نيَّتِهِ أن يصرفَ جميعَ العرب للتعبُّد فيه، والحجِّ إليه، لا إلى مكة، فلمَّا أَخْفَق في ذلك، قام بحملته المعروفة يريدُ هدمَ الكعبة؟ **وثانيهما**: ما معنى تواتُرِ الأخبار عن كسوة مُلوك اليمن بناءَ الكعبة في كثير من السنين؟ هذا، مع علمنا بأن كعبة نجرانَ كانت محجَّةً لأهل اليمن، ومثلها بيتُ رِئَام بصنعاء، ولكن كعبة مكة كانت محجَّةً لكل العرب، وشهر ذي الحجة، أو ذو حجتن، إنما كان لأداء فريضة الحجِّ إليها.

وفي تقديرنا أن هذا الشهر كان يُوافق شهرَ أيلول (سپتمبر) في التقويم السرياني والرومي، ثم صار في تطوُّرٍ لاحقٍ يقع بعضُه في شهر آب (أغسطس)، وبقيَّتُه في شهر أيلول. ويُؤَيِّدُ هذا التقديرَ أن «شهر آب كان في نطاق بعض الديانات ظرفاً لإيقاع طائفةٍ من الشعائر. ولليهود فيه، حسب محلِّهِ من سنتهم، ممارسةُ صيام إحياءً لتذكارات، وللمسيحيين فيه، حسب محلِّه من السنة الشمسيَّة، ثلاثةُ أعياد: عيدُ التجلِّي، وعيدُ العذراء، وعيدُ شهادة يوحنا المعمدان»[1]. . . وللعرب في ذي الحجة الحجُّ إلى بيت الله الحرام بمكة، ويبدو أنهم كانوا يحرصون على أن يظلَّ موعدُ حجِّهم موافقاً موعدَ نُضْج غلاَّتِهم، والمعروفُ أن «آب» جَذْرٌ بابليٌّ معناهُ الغَلَّةُ والثمرُ الناضج، ولذلك كانوا، كلما تقدَّمتْ سنةُ القمر على سنة الشمس، يطلبون من فقهائهم تأخيرها ليظلَّ موقعُ ذي الحجَّة ثابتاً بين شهريْ آب وأيلول، وليظلَّ موعدُ الحجِّ موافقاً موسمَ نضج الغَلاَّت. . .

وهنالك نصٌّ آخَرُ يؤيِّدُ هذا المذهبَ أيضاً في التقدير، وقد نُقِل عن

---

(١) معجم العلايلي: ١٧ (القسم الأول من المجلد الأول).

مُؤرِّخ روماني[1]، عاش في القرن السادس الميلادي، ذكر فيه أن عَربَ العراق كانوا يجعلون في السنة شَهريْن حَرَماً لآلهتِهم، لا يَغْزون فيهما، ولا يُقاتِلُ بعضُهم بعضاً، يقعان في تَمُّوز وآب (يوليو وأغسطس). . . وعَدَّ جواد علي هذا النصَّ إشارةً قيِّمةً إلى وجود الأشهر الحرُم عند عرب الشمال، ودليلاً واضحاً على أنها كانت ثابتةً لا تدور، فلا يقعُ حَجُّهم مرَّةً في الشتاء، ومرَّةً في الصيف، تارةً في الربيع، وتارةً في الخريف، فحجُّهم ثابتٌ، وأشهُرهم ثابتة[2].

وإذا نظرنا في هذا النصّ كرَّةً أُخْرى وجدنا أن شَهْريْ تمُّوزٍ وآبَ ربما كانا يوافقان وقتئذٍ شهري ذي القعدة وذي الحجَّة المحرَّمَيْن أيضاً عند عرب الحجاز، وذلك حينما «كان شهرُ آب الشهرَ الثاني عشر عند السريانيين»[3]، قبل أن يُنقل رأسُ السنة الشمسيَّة إلى تشرين الأول (أكتوبر)، وكان الشهرَ السادسَ في السنة لمّا كان آذارُ (مارس) رأسَ السنة[4]. وبينما صارت شهور العرب في العراق والشام ثابتةً في سنة الشمس، ظلَّت شهورُ العرب في

(١) پروكوپيوس ـ PROCOPIUS: أمين سرِّ القائد بليزاريوس أعظمِ قادة جستنيانوس. له كتابٌ في أخبار العرب، وآخَرُ في تاريخ عصره.

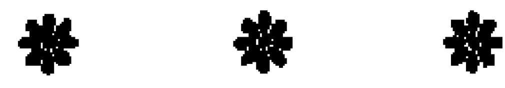
(٢) المفصَّل: ٨/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٣) معجم العلايلي: ١٧ (حرف الألف).

(٤) كان شهرُ رجَبٍ في زمانٍ مُتقدّم يُقابل شهرَ آذار في التقويم السرياني، وكان كلاهما رأسَ السنة: الأولُ عند العرب، والثاني عند أهل الشام والعراق وكثيرٍ من الأمم الأخرى. ثم صار شهرُ رجَبٍ بعدئذٍ يُقابل شهر نَيْسانَ لمَّا نُقل أولُ السنة إلى هذا الشهر. وكذلك كان شهرا ذي القعدة وذي الحجة يُقابلان شهريْ تموز وآب، وبانتقال أول السنة إلى نيسان، صارا بعدئذٍ يُقابلان شهريْ آب وأيلول. ومن هنا كانت ملاحظةُ المؤرِّخ الروماني عن تحريم عرب الشمال شهريْ تموز وآب، في مُقابلة ذي القعدة وذي الحجَّة عند عرب الوسط. . .

الحجاز قمريّةً، يجري تأخِيرُها بالكبس كلّما تقدّمتْ، ليظلَّ موسمُ الحجِّ ثابتاً في موعده من أزمنة الشمس.

وإذا كان القيامُ بشعائر الحجِّ والتقرُّب إلى الله وجْهَ التسمية لهذا الشهر بذي الحجة، فلا شك في أنها تسميةٌ قديمة، لأن الحجَّ في العرب قديم، يعودُ العهدُ به إلى أيّام النبيّ إبراهيم عليه السلام. والحجُّ في الأصل كلمةٌ سامِيَّةٌ مُشتَركة، كانت تفيدُ في الأصل معنى الرقص، ثم معنَى الطَّواف، ثم معنَى العيد... أمّا الحجُّ بمعنى القَصْد، وزيارةِ الأماكن المقدَّسة، فتَطوُّرٌ ثانويٌّ في الدلالة. ومن المعلوم أن الرقص كان طَقْساً، تُمارسه الشعوبُ القديمةُ، في المواسم والأعياد الدينية، ولم يَشِذَّ العربُ عن سائر الشعوب، بل إن الأخبار القليلة التي وردت عن الجاهلية تشيرُ إلى أنهم كانوا يرقصون في أعيادهم[1].



وأخيراً، وبعد عَرْضِ أسماء شهور العرب، وتقليبِ معانيها، والاستعانةِ بالمأثُورات لبيانِ حقيقةِ العِلَّةِ والدلاَلةِ في تسْميةِ كلِّ شهر منها، بات من الجَلِيِّ أن أهل الحجاز كانوا يتبعون تقويماً شمسيّاً قمرياً، وأن شهورهم كانت في الأصل ثابتةً، لا تدور في الأزمنة، أي في الفصول، وإلا فلم يكن هنالك معنىً لتَسْمِيتها بأسماءٍ لها كلُّ تلك الدِقَّةِ في الدلالة على حالات الطبيعة والاجتماع، والحرِّ والبردِ، والمواسم... ولا يُمكنُ لعاقلٍ أن يقبلَ بما زعمه أهلُ الأخبار عن ورود تلك الأسماءِ اتفاقاً ومُصَادفةً، من غير رَوِيَّةٍ أو علمٍ أو تحقيق. صحيحٌ أن العرب كانوا، كسائر الأُمم،

(١) أسماء الأشهر في العربية: ٧٧.

يعتمدون الأَهِلَّةَ لافتتاح شهورهم، ومُتَابعة شؤونهم اليوميَّة، ولكنهم كانوا أيضاً مِثْلَهم يعملون على تثبيت شُهورهم في الأزمنة، كي تظلَّ معانيها مُتَوافقةً مع مواسم زراعتهم، وتجارتهم، وعباداتهم، وحَجِّهم، وأسفارهم. وسنجدُ في القسم التالي بحثاً عن قسمة الفصول الطبيعية عند العرب، يؤيدُ ما توصلنا إليه في موضوع الشهور.

* * *

جدول أسماء الشهور

كما كانت عليه عند الأقوام القديمة

حينما نُقل رأسُ السنة من نيسانَ (أبريل) أو رجَبٍ إلى تشرين (أكتوبر) أو صَفَر

البابليّة	السريانيّة	الآرَاميّة ـ التدمريّة	العبريّة	العربية الشمالية	شهور العرب
تشرينو، تشرينُم	تشري قدم	تشري	تشري، تسري	تشرين الأول	صَفَر الأول المحرَّم
شمانو[1]	تشري أَحْرَيْ	كَـنُون	مرحشوان[2]	تشرين الثاني	صفَر الثاني
كسْلُو	كنون قدم	كسلول	كسلو	كانون الأول	ربيع الأول
طِبْتُ، تُمْطِرو	كنون أَحْرَيْ	طِبتُ	تبتُ	كانون الثاني	ربيع الآخِر
شَبَطُ، شباطُو	سباط، شباط	شبط	شباط، شبات	شباط[3]	جمادى الأولى
أدارو	أدر	أدر	أدر	آذار	جمادى الآخرة
نيسانو	نيسان	نيسن	نيسَن، أبيب	نَيْسَان	رجب
إيَارُو[4]	إِيَّر	إِيَر	إيَارا	أيَّار	شعبان
سِيوانُو	حزيرن	سِيوَن	سِيوَن	حزيران	رمضان
تَمُّوزو	تمُّوزُ	قنين	تموز	تموز	شوَّال
آبُو	آب	أبّ	أبّ	آب	ذو القعدة
أَلُولو	أيلول	أَلُول	أَلُول	أيلول	ذو الحجَّة

---

(١) شَمَانُو: أي ثَمانٍ، وكان الشهرَ الثامنَ ابتداءً من نيسان.

(٢) مرحشوان: أصل الكلمة «وَرْح شَمن» أي شهر ثمان، ثم انقلبت في النطق إلى مرحشوان.

(٣) شباط: معناها في الأكادية وَبَاءٌ، وكذلك في الآشورية، وسَبَاط في العربية تعني الحمى والوباء، وبذلك سُمِّي الشهر. وقد أثبتت الكشوفُ الأثرية أن اسمَ هذا الشهر كان معروفاً في القرن التاسع ق. م.

(٤) الإيرُ والإيَارُ: الريحُ الحارَّةُ، من الأُوَار، وهي كذلك في اللغات السامية، وفي شعبان الذي يُقابل أيَّار، تطلُعُ الثريَّا ويشتدُّ الحرُّ. وأيَّارُ الشهرُ الثامنُ في السنة السريانية، وكذلك شعبانُ في العربية.

جدول بمواقع شهور العرب من شهور السريانيين والروم، بعدما جرى تثبيتُها في الفصول الأربعة لِسَنةِ الشمس، وذلك على أساس أن الأوَّلَ من المحرَّم والأوَّلَ من تشرين الأول كليهما يقع في أول فصل الخريف، وعلى فرض أن هذا ما كانت عليه هَيْأةُ الزمان سنة (١٠ هـ = ٦٣٢ م).

الشهر العربي	موقعه من شهور الشمس مُقدَّراً علىالتقريب	عدد أيامه
صفر الأول (المحرَّم)	من ١ تشرين الأول إلى ٣٠ تشرين الأول	٣٠
صفر الآخِر	من ٣١ تشرين الأول إلى ٢٨ تشرين الثاني	٢٩
ربيع الأول	من ٢٩ تشرين الثاني إلى ٢٨ كانون الأول	٣٠
ربيع الآخِر	من ٢٩ كانون الأول إلى ٢٦ كانون الثاني	٢٩
جُمادَى الأولى	من ٢٧ كانون الثاني إلى ٢٥ شباط	٣٠
جُمادَى الآخِرة	من ٢٦ شباط إلى ٢٦ آذار	٢٩
رجب	من ٢٧ آذار إلى ٢٥ نيسَان	٣٠
شَعْبان	من ٢٦ نيسان إلى ٢٤ أيّار	٢٩
رمضَان	من ٢٥ أيّار إلى ٢٣ حزيران	٣٠
شوَّال	من ٢٤ حزيران إلى ٢٢ تموز	٢٩
ذو القعدة	من ٢٣ تموز إلى ٢١ آب	٣٠
ذو الحجَّة	من ٢٢ آب إلى ١٩ أيلول	٢٩
الأيام التي تتقدَّم بها سنةُ القمر على سنة الشمس، وهي ما يسمى بأيام النسيء.	من ٢٠ أيلول إلى ٣٠ أيلول	١١ يوماً

المطلب الثاني ـ مذاهب العرب في قِسْمةِ الفُصول والأزمنة:

لعلَّهُ من الواضح، أن العربَ أقامتْ عِلْمها بطبائع الأَزْمِنَة، وانفصال الفُصول، على ما كان يَصْحَبُ، أو يُعْقِبُ مَطالِعَ النجوم، ومسَاقِطها، من التقلُّبات الجَوِّيَّة، كالأمطار، والرياح، والحَرِّ والبرد. وجعلتْ بين ذلك كله علائقَ زَمَنيَّةً، تعرفُ بها الأوقات وتَتابُعَها، والفُصولَ وتَواليها. . .

أمَّا تَعْيينُ يومٍ مَخْصوصٍ لدُخولِ كلِّ فصلٍ، فأمرٌ ربما كان من صُنْع أهلِ الرصْد والحساب، لأن العرب كانوا يعرفون مواقيتَ انفصالِ الفصول، بمراقبتهم حركةَ النجوم، ولا سيما منها منازل القمر، فكلما طلع نجمٌ، سقَطَ نجمٌ، وأعْقَبَ ذلك نَوْءٌ مُدَّتُه معلومةٌ منهم، وصِفَتُه معروفةٌ عندهم، وكان فيهم خُبَراءُ بالنجوم والأنواء وتَقلُّباتِ الطبيعة، ذكر ابنُ كناسة منهم: بني مارية من قبيلة كلب، وبني مرَّة بن همام من شيَبْان[(١)]، وغيرهم، يَتوارثُون العلمَ بينهم. وعلى ذلك، يجبُ أن نُقرِّر ابتداءً أنَّ العرب، لمَّا قَسَمَتْ سنَتَها إلى فُصولٍ، وأزْمنةٍ طبيعيَّةٍ، جعلت ذلك بناءً على ما عرفتْه أوطانُها من هُطول الأمطار، وهُبوب الرياح، و «إقبالِ الحَرِّ والبرْدِ، وإدْبارِهما، وطلوع النبات واكْتِهاله[(٢)]، وهَيْجِ الكلأِ[(٣)]، ويُبْسِهِ»[(٤)]. كما جعلت أوقاتَهُ محدودةً بمَطَالعِ النجوم ومسَاقِطِها[(٥)]، على ما بين البُلْدان من تَفاوتٍ يَسيرٍ في أيام رؤيتها، فربما طلع النجمُ ببلدٍ في وقتٍ، وطلع ببلدٍ آخَر في وقتٍ آخَر، إما

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٩٩، والمفصَّل: ٨/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦.
(٢) اكْتَهَل: النباتُ، تمَّ طولُه ونماؤه.
(٣) الهَيْجُ: معناه هنا الاصفرارُ والجفاف.
(٤) الأنواء: ١٠٤، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٤.
(٥) الأزمنة والأنواء: ٩٨.

قبله، وإما بعده بأيام[1].

وذهبوا كذلك في عَدد الفُصول، وترتيبها، وتحديد أوقاتها، وفي تَسْميتها، مذهباً مختلفاً عن مذاهب أهل الحساب والرَّصْدِ... فمِنْهم مَن جعل السنة سِتةَ أزمنة، ومنهم من جعلها أربعةَ أزمنةٍ، ولعلها في حقيقة الأمر زَمَنانِ بارِزَانِ لا أكثر: شتاءٌ وصيف، مع قِصَر الأول وطُولِ الثاني...

١ ـ فأما من جعلها سِتةً، فإنه قسَم السنةَ نصفين: شتاءً وصَيْفاً، وبدأ بالشتاء فجعله أوَّلَ السنة، لأن الله قدَّمهُ في الذِكْر على الصيف، ولأنه زَمَنُ الأمطار التي يخرجُ بها النباتُ، وتحملُ الأشجارُ. ثم قسَمَ الشتاء على ثلاثةٍ، والصيفَ على ثلاثةٍ، فصارت السنةُ كلُّها ستةَ أزمنةٍ، سُمِّي كلُّ زمنٍ منها باسْمٍ يَتَّفقُ وطبيعةَ ما يكونُ فيه، وقُدِّرَ له من السنة شهرانِ، ومن منازل القمر أربعةٌ وثُلُثانِ[2]، فأمَّا أزمنة الشتاء الثلاثةِ فهي: الوَسْميُّ، ثم الشتاءُ، ثم الربيع، وكلُّها شتاءٌ، وأمَّا أزمنة الصيف الثلاثةِ فهي: الصَّيِّفُ، ثم الحميمُ، ثم الخريفُ، وكلُّها صَيْفٌ، إلا أن بعضهم يقول في أزمنة الشتاء: الوَسْميُّ، ثم الشَّتويُّ، ثم الدَّفَئِيُّ، ولا يذكر الربيع[3]... وأظنه لم يذكرْهُ، لأن الدَّفَئيَّ نُسِبَ إلى الدَّفَأ، وهو سُخونةُ الجوِّ، تأتي بعد انصراف البرد، في إقْبال الربيع، وهو بهذا المعنى زمنٌ يَقْدمُ بين يَدَيْ الربيع، وكأنه جزءٌ منه، ويأتي بمعناه أيضاً الدَّثَئِيُّ[4]. ويؤكِدُ ما ذهبنا إليه أن كلمة «دثأ» في السَّبَئِيَّةِ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠١.

(٢) صبح الأعشى: ٢/ ٤٤٣، والأزمنة والأنواء: ٩٨ ـ ٩٩، ولسان العرب: ٨/ ١٠٣ (ربع)، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥.

(٣) الأزمنة والأنواء: ٩٦ ـ ١٠٠، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٣ ـ ١٦٥، و ١/ ١٩٨ ـ ١٩٩، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٤٣، ولسان العرب: ١٤/ ٤٢١ (شتا)، و ٩/ ٦٣ (خرف).

(٤) تاج العروس: ١/ ٢٢٧، ولسان العرب: ١/ ٧٦، ٧٧ (دفأ)، و ١/ ٧١ (دثأ).

والحِمْيرية، معناها الربيع، أو مَطَرُ الربيع، وشهرُ «ذو دَثَأ» هو شهرُ الربيع[1]. أمَّا الوسْمِيُّ فسُمِّيَ بذلك لأنه أولُ المطرِ، ينزل في أول السنة، فَيَسِمُ الأرضَ بالنبات[2]. والشتويُّ نُسِب إلى الشتاء[3]، والصيِّفُ نُسبَ إلى الصيف، ويأتي عادةً بعد انصراف الربيع[4]. والحميمُ: القَيْظُ، وهو في الأصل ماءٌ شديدُ الحرارة[5]، سُمِّي به المطرُ يأتي في القيظ بعد اشتداد الحرِّ[6]. .

وإذا أردنا أن نقول شيئاً في هذه القسمة، فلا بُدَّ أن نُشير أولاً إلى أن تقديم العربِ الشتاءَ على الصيف، لا يعني تقديمَ البردِ على الحرِّ، وإنما تقديمَ المطَرِ والماءِ على الجفَافِ والقَحْطِ. وعلى ذلك كان أَحَقَّ أن يُبْتَدَءَ فيها بالخريف، لأنه، كما أكَّدَ الأصمعيُّ، أولُ ماءِ المطر في إقبال الشتاء[7]، ولأن نَوْءَ الوسميِّ، كما ذكر ابنُ كُنَاسة، أولُ أنواءِ الخريف[8]، والعربُ تُسمِّي الخريفَ ربيعاً لوقوعِ أوَّلِ المطر فيه[9]. وهكذا يكون أوَّلَ أزمنة الشتاء الثلاثة: الخريفُ، أو الوسميُّ وهو ربيع الماء والعُشْبِ، وأوّلَ أزمنة الصيف الثلاثة: الربيعُ، وهو ربيعُ الكمأة والكلأ والنبات، ويُفهم مما ذكره الزَّبيديُّ أنَّ الصيفَ إن لم يكنِ القيظَ نفسَهُ، فهو زمنٌ يأتي بعد الربيع

---

(١) المفضَّل: ٨/ ٤٤٤، ٤٤٩.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٧٩، وصبح الأعشى: ٢/ ١٩٢.

(٣) لسان العرب: ١٤/ ٤٢١ (شتا).

(٤) تاج العروس: ٢٤/ ٤٣ (صيف).

(٥) فقه اللغة: ٢٨٦.

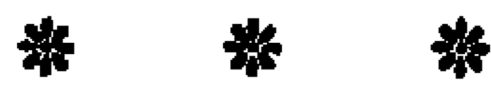
(٦) لسان العرب: ١٢/ ١٥٥ (حمم) ومحيط المحيط: ١٩٧.

(٧) فقه اللغة: ٢٨٣، وصبح الأعشى: ٢/ ١٩٢، ولسان العرب: ٩/ ٦٣ (خرف).

(٨) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠٠.

(٩) لسان العرب: ٨/ ١٠٣ (ربع)، و ١٢/ ٦٣٦ (وسم).

وقبل القيظ[1]، أي قبل الحميم، وهذا يتفق مع كَوْنِ أوَّلِ أزمنة الشتاء، وأوَّلِ أزمنة الصيفِ، كلَيْهما ربيعاً، كان للعرب فيه موسمٌ كبيرٌ للتبدِّي، والتَّربُّع، وانْتِجَاعِ مَسَاقِطِ الغَيْث، ومَواضِعِ الكلأ والكمأة والنبات... على أن هذا المذهبَ في قِسْمة السنة إلى ستة فصول، لم يكن ، فيما ذكر المرزوقيُّ، مذهباً عامّاً في العرب جميعاً، وإنما كان مذهبَ أهلِ الحجَاز فقط[2]. وربما لم يكن كلُّ أهل الحجاز كذلك، فقد كان من أقوالهم: أَغْبَطُ الناسِ عَيْشاً مَن كان يَتَربَّعُ جُدَّة، ويَتَقيَّظُ الطائفَ، ويَشْتُو بمكة[3]... ذكرَ التربُّعَ، والتقيُّظَ، والشَّتْوَ، وكأنه أراد أزمنةً ثلاثةً، وإنما أراد في الحقيقة أربعةً، فالتربُّعُ كما أوضحنا موسمٌ يقعُ في زَمَنَيْنِ: الخريف، وفيه الربيعُ الأوَّلُ، والصيف، وفيه الربيعُ الثاني، ويبدو أنهم كانوا ينتجعون فيهما جُدَّة، وكانت يومئذٍ باديةً، تمتدُّ من البحر الأحمر غرباً، إلى ذات عِرْقٍ ووادي نخْلة شرقاً، تسكنها أحياءٌ من قُضَاعَة، وترعى فيها أنعامها[4].



٢ ـ وأما مَن جعلَ السنةَ من العرب أربعةَ أزمنةٍ، فإنه بدأ فقسَمها أيضاً نصفين: شتاءً وصَيْفاً، وقَدَّم الشتاءَ على الصيف، وجَعل الفاصِلَ بينهما نجْمَ «الصَّرْفَة»، وهو من منازل القمر، فإذا طلَعَ مع الفجر فذلك فصلُ الخريفِ وأوَّلُ الشتاء، وإذا غاب مع الفجر فذلك فصلُ الربيع وأوَّلُ الصيف، ويكون

(١) تاج العروس: ٢٤/ ٤٢ (صيف).
(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥.
(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٢. و (تَقَيَّظَ الطائفَ: أي أقام بها زَمنَ القيظ، والقيظُ: شدة الحرارة).
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١١٥.

بين طُلوعِهِ نحو السابع من شهر أيلول (سپتمبر)، وغُروبِهِ نحو السابع من شهر آذار (مارس) ستةُ أشهُرٍ كاملة، هي نصفُ السنة. وكانت العربُ تقولُ: الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهر[1]، لأنها تفترُّ عن فَصْلِ الزَّمانيْن: البردِ والحَرِّ، وإنما سُمِّيَ هذا النجمُ بالصَّرْفَةِ لانْصرافِ الحرِّ عند طُلوعهِ، وانْصرافِ البَرْدِ عند سُقوطه.

ثم قسَمُوا الشتاءَ نِصفَيْنِ، والصيفَ نصفَيْنِ، فصارت السنةُ كلُّها عندهم أربعةَ أَزْمِنَةٍ، حِصَّةُ كلِّ زمنٍ منها ثلاثةُ شهور، وذلك عَددُ الفُصول الطبيعيَّة عند مُعْظَم الأُمَم. ولكنَّ العربَ فارقَتْهم في أسمائها، وتحديد أيامِ دُخولها، وذهبت في ترتيبها، كما ذهب السِرْيانِيُّونَ، إلى الابتداءِ بفصل الخريف، وسَمَّتْهُ الربيعَ الأوَّلَ، لأنه موسمُ النَدىٰ والمطر، وجعلت دُخولَه لثلاثة أيام تمضي من أيلول (سبتمبر). ويجب أن لا نَتوقَّفَ كثيراً عند تسميتهم الخريفَ ربيعاً، لأنهم يُسَمُّون المطرَ والطلَّ والنَدىٰ والزهر والعشبَ والكلأَ والكمأةَ كلَّها ربيعاً، وفي الخريف أيضاً يَخْتَرِفُون ما نَضَج وأدرك من الثمار.

ثم يأتي بعد الخريف فصلُ الشتاء، وجعلوا دخولَهُ لثلاثة أيام تمضي من كانون الأول (ديسمبر)، ثم فصلُ الصيف، وهو الذي يُسمِّيه الناسُ فصلَ الربيع، ويُسمِّيه العربُ الربيع الثاني، وفيه يبلُغُ النباتُ مُنْتَهاهُ، وتأتي فيه الكمأةُ والكلأُ والنَوْرُ، ودخولُه لخمسةِ أيام تخلو من شهر آذار (مارس). ثم فصلُ القَيْظِ، وهو صميمُ الصيف، ودخولُه لأربعة أيام تمضي من شهر

(١) لسان العرب: ٩/ ١٨٩ (صرف)، وصبح الأعشى: ٢/ ١٧٧، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٧، ١٧٠، ١٩١، ٢٠٢ ـ ٢٠٣، والأزمنة والأنواء: ١٥٠، ١٧٧، وعجائب المخلوقات: ٨٠، والأنواء: ملحق منازل القمر. ..

حزيران (يونيو)[1].

ويبدو أن هذا التقسيم كان مذهبَ العربِ في الشمال، وقد حقَّق ابنُ الأجدابيّ في هذا الأمر، وأكَّدَ على أن الأشْبه بمذهب العرب في وسط الجزيرة هو الابتداءُ في القِسْمة من لَدُن سقوط منزل «الفَرْغ الثاني أو المؤخَّر» في أفق المغرب نحو العشرين من شهر أيلول، وذلك يكون أوَّلَ السنةِ، ودُخُولَ فَصْلِ الخريف[2].

وكان العربُ في جنوب شبه الجزيرة، كالعرب في وَسَطها وشمالها، يَقسِمُون السنةَ أيضاً إلى أربعة أزْمنةٍ، بدليل ما جاء في تُراثهم من أسماء الفُصول. وكانوا يبتدئون بفصل الخريف، وهو عندهم: «خَرفُن»، أي الخريف، ثم فصل الشتاء، ويُسَمُّونه «ضَرْبُن»، ومن معاني الضرب والضريب في العربية: المطرُ والصقيعُ والبردُ الشديدُ والريحُ[3]. . . ثم فصل الربيع، ويُسمُّونه «دَثَأ»، ثم فصلُ القَيْظ، ويُسمَّى «قَيْظُن»[4].

غير أن الفصولَ الأربعةَ هناك تَتَقدَّمُ أزمانُها الأزمانَ المعهودةَ للفصول في التوقيت الشمسي، فالخريفُ هو الشتاءُ في الجنوب، والشتاءُ هو الربيع. والربيع هو الصيفُ، والصيف هو الخريف[5].

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٤، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٤ ـ ١٧٥، ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ومروج الذهب: ٢/ ١٩٢، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣، والأزمنة والأنواء: ٩٦ ـ ٩٧، ولسان العرب: ٨/ ١٠٣ (ربع)، و ٩/ ٢٠٢ (صيف)، و ٧/ ٤٥٦ (قيظ)، و ١٤/ ٤٢١ (شتا)، و ٩/ ٦٣ (خرف).

(٢) الأزمنة والأنواء: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) لسان العرب: ١/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧، وتاج العروس: ٣/ ٢٤٧، ٢٥٠ (ضرب).

(٤) المفصَّل: ٨/ ٤٤٣.

(٥) محمد بن أحمد الشاطري ـ أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة بجدَّة (١٩٨٣): ١٩.

ونقل جواد علي عن بعض المستشرقين، أن في عرب الجنوب مَن كانوا يقسمون السنةَ أيضاً ثمانيةً وعشرين قسماً، كلُّ قسمٍ منها مُدَّتُه ثلاثةَ عَشَر يوماً، وكانوا يعتمدون هذه القسمةَ في زراعتهم ومعاملاتهم، ويبتدئون هذه السنةَ من زمن «ذُو فَرْعم»[1].

ومن الواضح أن هذا التقسيم إنما هو مَنازِلُ القمر عند عرب الوسَطِ والشمال، وأن «ذو فَرْعم» هو نفسُه منزلةُ «الفَرْغ» المقدَّمِ أو المؤخَّرِ، فإن كان المؤخَّرَ، فهو ما كان يُسمَّى عندهم فَرْغَ الربيع، وبه كان ابتداءُ سنتِهم، وهو ما أكَّدهُ ابنُ الأجدابي كما أشرنا قبل قليل، وهذا يُـثْبت أن العربَ في الشمال والوسَط والجنوب كانوا يأخذون في حساب السنة بدورة منازل القمر، وهو مطابقٌ لحساب السنة الشمسيَّة. ويبدو أن أهل حضرموت ما يزالون يعتمدون منازلَ القمر في التأريخ، فقد وجدتُ نصّاً يصفُ الطقسَ هنالك جاء فيه «. . . وأشدُّ أيام السنةِ حرارةً الأربعينيَّةُ، وهي أربعون يوماً، تبدأُ من (٧) الغَفْر، أي (٤) أيار ـ مايو، وأشَدُّ من هذه الأربعينيَّة حرارةً المُثَمَّنَاتُ، وهي ثمانيةُ أيام: الأربعةُ الأيامِ الأوَاخِرُ من منزلةِ الشَّوْلة، والأربعةُ الأيام الأوائلُ من منزلة النعائم»[2]. . . وهو نصٌّ واضحٌ يُثبتُ أن القومَ ما يزالون يعتمدون منازلَ القمر إلى العصر الحاضر.

ووِفاقاً لما ذكرناه آنفاً عن مواعيدِ أنواءِ المنازل، واتخاذِها أعلاماً على انتقال الزمن، يتبيَّنُ لنا أن ابتداءَ نَوْءِ الغَفْرِ، وهو من المنازل الجنوبية، يكون في حضرموت يومَ الثامن والعشرين من نَيْسانَ (أبريل)، أي بعد رؤيته في

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٤٥.

(٢) أدوار التاريخ الحضرمي: ١٨.

الشمال ساقطاً في أُفُق المغرب بأحَدَ عَشَرَ يوماً، حيث يُرَىٰ هنالك يوم السابع عشر من نيسان.



٣ ـ والواقعُ أن تقسيم السنَةِ، ستَّةَ أَزْمنةٍ، أو أربعةً، ليس أكثرَ من تقسيمٍ نظريّ في جزيرة العرب، وهو لا يعني قطعاً أن الطبيعة هنالك تختلفُ اختلافاً بَيِّناً، كلما انقضَى زَمنٌ وأقْبلَ زَمن، أو أن يومَ دُخولِ الزَّمَنِ إنما هو حَدٌّ قاطِعٌ بينه وبين الزمن الذي بعدهُ، أو أن عِدَّةَ أيام الفَصْل مُسَاوِيةٌ لِعِدَّةِ أيام الفصل الآخر، مُتَميِّزَةٌ منها[1]. . . كلُّ هذا مَذهبٌ في القول بَعيدٌ من الدِقَّة والحقيقة، لأنَّ زَمَنَيْ الشتاءِ والصيفِ هما أكثَرُ الأزمنة ظهوراً في جزيرة العرب، والصيفُ أطْوَلُها مُدَّةً، وأشَدُّها وضوحاً، والشتاءُ أقْصَرُها وقتاً، ويكاد الخريفُ يسْتَغرِقُ معظمَ أيامه، ويَسْلَخُها بمواسمه وأمطاره. وبينما مناطق الغَوْرِ، وسهلُ رُكْبَة، والحجازُ، والطائفُ تُمْطَر في الخريف، فإن أهلَ اليمن يُمْطَرون في القَيْظِ، ويخْصِبُون في الخريف، وتِهَامَةُ في فصول السنة كلها طيِّبةٌ غداةً، ولياليها أطيبُ الليالي، لا تُؤذي بَحرٌّ مُفْرط، ولا قُرٍّ مُؤْذٍ، وفي الحديث: تِهامَةُ كبديع العسل، حُلْوٌ أَوَّله، حُلْوٌ آخِره. شبَّهها بزقّ العسل، لأن هواءهَا لا يتغيَّر، فأوَّلُه طيِّب وآخِره طيِّب، وكذلك العسل[2].

ولعل هذا ما جعلهم يقسمون السنة نصفين: شتاءً وصيفاً، ويُقدِّمون الشتاءَ على الصيف[3]، ثم يجعلون أواخِرَ القَيْظِ داخلةً في أوائل الخريف،

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) لسان العرب: ٨/ ١٠٣ (ربع)، و ٩/ ٦٣ (خرف)، و ٨/ ٧ (بدع)، ومهد العرب: ٢٨، والمفصَّل: ٨/ ٤٤٣.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٧.

قُبَيْلِ دُخُولِ أوَّلِ السنة، وهي «أربعون ليلةً، يختلفُ حَرُّها وبَردُها، تُسمَّىٰ المُعْتَدِلات»[١]، أوَّلُها طُلوعُ «سهيل»[٢]، وهو يطلعُ في الحجاز نحو الرابع عشر من آب (أغسطس)[٣]، وطلوعُه مُؤْذِن بانتهاء الحَرِّ، وشُروعِ الناس في الخروج من ديارهم في المحاضِر، إلى النُّجْعَةِ في المبادي[٤]، وكانت العربُ تقولُ: «إذا طلع سهيلٌ بَرَدَ الليلُ، وخِيفَ السَّيْلُ...»[٥]. ثم يتبعُ بعضُهم بعضاً في الخروج إلى المرابع في البادية، حتى إذا سقط «الفَرْغُ الثاني» في أُفُق المغرب نحو العشرين من أيلول (سبتمبر)، أي بانقضاء الليالي الأربعين المعتدلات تقريباً، أصبحوا جميعاً وقد تَوزَّعَتْهُم المَراتِع[٦]، واقْتَسَمتْهمُ المَنَاجع[٧]، وشَرَعُوا في موسم التبدِّي الأوَّلِ مع أوَّلِ السنة وابتداءِ الخريف...

وإذا كان الخريفُ، في الأصل، إسماً للمطر يأتي في آخِر القَيْظ[٨]، أو إسماً لأوَّلِ ما يقعُ منه في إقْبال الشتاء، أو كان إسماً للوقت الذي تُدْرِكُ فيه الثمارُ، فتُخْرَفُ، أي تُجْتَنَىٰ[٩]، لكنه في جميع الأحوال صار اسماً لِزَمنٍ تُفْتَتَحُ به السنةُ عند العرب، بل وتُسَمَّىٰ به أحياناً، ويأتي عند إقْبالِ الشتاء،

---

(١) المرجع نفسه: ١/ ١٩٩، وتاج العروس: ١٢/ ٣٣٤ (صفر).

(٢) سُهَيْلٌ: نجمٌ بَهِيٌّ طُلوعُه على بلاد العرب أواخِرَ فصل القيظ.

(٣) الأنواء: ٩٦، وعجائب المخلوقات: ٨٠.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٩٩، و ٢/ ١٢٥، ولسان العرب: ٤/ ٤٦٣ (صفر)، وعجائب المخلوقات: ٨٠.

(٥) الأزمنة والأنواء: ١٧٣.

(٦) الرَّتْعُ: الأكلُ والشربُ رَغَداً في الريف، والرَّعيُ في الخصب.

(٧) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٢٥.

(٨) الأزمنة والأنواء: ٩٦، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٠.

(٩) لسان العرب: ٩/ ٦٢ ـ ٦٣ (خرف).

بعد إدْبَارِ الحَرِّ. وإذا كانت قسمةُ السنة عند العرب قامت في الأصل على ستَّةِ أزْمنةٍ، أو أربعةٍ، أو اثنين فقط، فإن الخريف هو أوَّلُ ما يأتي فيها جميعاً، زَمَناً، أو فصْلاً، أو مَطراً وربيعاً، أو اخْتِرافاً للثمار. . . وأمَّا الليالي الأربعون المُعْتَدِلاتُ، فإنها تأتي والحَرُّ يمضي مُدْبِراً، والخريفُ يَقْدَمُ مُقْبِلاً، والزمانُ زمنُ نَدىً ورَوْحٍ وطَلٍّ وغَيْث، وحينئذٍ يكونُ إدْراكُ الثمارِ، وصِرامُ النخل، واجْتِناؤُهُ بُسراً كان أو رُطَباً، وشِيَارُ العسَلِ من خَلايَاهُ، ونِتَاجُ الإبِلِ والغَنَم[1] . . . وفيه يكون الوسْميُّ وانتجاعُ الكلأِ الذي تُنْبِتُه أمطارُ الخريفِ، وتَسِمُ به الأرضَ[2]، وَسْمَ الخُضْرةِ بعد الجَفاف، وهو ما جعل العربَ تَتَقلَّبُ في تسمية هذا الزمن، فتُسَمِّيه وَسْمِيّاً تارةً، وخريفاً أو ربيعاً تارةً أخرى، بينما سائرُ الناس تُسمِّيه خريفاً[3].

فالوسْميُّ إذن هو المطَرُ الواقعُ في زمن الخريف[4]، وابتداؤهُ أوَّلُ غُروبِ كوكبِ «الفَرْغ المؤخَّرِ» حواليْ العشرين من أيلول (سبتمبر)، وانتهاؤه آخِرُ غُروبِ «الثريَّا» نحو الثالث والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، ومُدَّتُه خمسةٌ وستون يوماً على التقريب، وكانت العربُ تقول: ليس قبل «الفَرْغِ المؤخَّر» وَسْميٌّ، ولا بعد «الثريَّا» وَسْميٌّ[5]، وأن الوَسْميَّ هو الخريفُ[6]، وكانت تُسمِّي أيامَه، ما بين تَوَلِّي القَيْظ إلى إقْبالِ البرد والشتاءِ: الصَّفَرِيّة،

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٢٧. والشِيَارُ: اجْتناءُ العسل، وأخْذُهُ من مواضعه، والشَّوْرُ: العَسَلُ المَشُورُ.

(٢) عجائب المخلوقات: ٨٤، ولسان العرب: ٩/ ٦٣ ـ ٦٥ (خرف).

(٣) الأزمنة والأنواء: ٩٦، ومروج الذهب: ٢/ ١٩٢.

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٧٩.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٨٣، ٢٠٠، وعجائب المخلوقات: ٧٧.

(٦) مروج الذهب: ٢/ ١٩٢.

وهي أوَّلُ الأزمنةِ عندهم[1]، والصَّفَرِيَّةُ: النباتُ ينبتُ في أول الخريف، والصَّفَرِيُّ: أوَّلُ السنة، وأوَّلُ الشتاءِ، والمطرُ يأتي في ذلك الوقت، ونِتَاجُ الإبِلِ والغَنَم[2]. . . كلُّ أولئك نُسِبَ إلى الصَّفَر، وهو نَفْسُه ما سُمِّيَ به شَهْرا أوَّلِ السنة عند العرب: صَفَرٌ الأوَّلُ وصَفَرٌ الآخِرُ، وهو ما سبق لنا الحديثُ عنه والبحثُ فيه، لمّا تكلمنا على الشهور عند العرب، فهل هنالك موضعٌ خيرٌ من هذا الزَّمنِ، يُمكن أن يقع فيه هذان الشهران؟ وإنما الصَّفَرُ، كما رأينا، من الصُّفْرةِ والصُّفُورَةِ، فأمّا الصُّفْرَةُ فلوْنٌ يعتري الأوراق في الخريف، قُبيلِ سقوطها في هجمة الشتاء، وأما الصُّفُورَةُ فهي الخُلُوُّ، وكانت ديارُهُم في المحاضِر تَخْلو منهم حينما يُغادِرونها في هذا الزمن إلى المرابع والمناجع في البادية، وهو موسمُ التربُّع الأوَّلِ عندهم، وموعدُ الخُروجِ إلى البَادية، وهو الربيع الأوّلُ، أي ربيعُ الطلِّ والنَّدى، وإدْراكِ الثمار. وجاء في معاجم اللغة أن شجر الغَضَا يُنْبتُ ثمرةً تُسمَّى «الحَتَرة»، تخرجُ فيه «أيامَ الصَّفَريّة». تَسْمَنُ عليها الإبِلُ وتُلْبِنُ، أي يكثر لَبَنُها. وهذا دليلٌ على أن الصفريَّةَ زمنٌ ثابتٌ من فصول السنة، يقع في شهريْ صَفَر، أيام خروج الناس إلى البوادي لانتجاع الكلأ. ومن أقوالهم: ما بالدار صافِرٌ، أي ما بها أحَدٌ[3]. . .

وعلى ذلك، فالخريفُ، والوَسْميُّ، والصَّفَريُّ، وموسمُ الربيعِ الأول أو التربُّعِ، كلُّها أسماءٌ لزمنٍ واحدٍ، هو أوَّلُ الأزمنة في سنة العرب، وابتداؤه

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٤٦٤ (صفر).

(٢) تاج العروس: ١٢/ ٣٣٤، ولسان العرب: ٤/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤ (صفر)، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٤٢، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٩٨، وعجائب المخلوقات: ٨٠، والأزمنة والأنواء: ١٧٩.

(٣) تاج العروس: ١٢/ ٣٣٢، (صفر)، و ١٠/ ٥٢٩ (حتر)، ولسان العرب: ٤/ ٤٦٢، ٤٦٤ (صفر)، وفقه اللغة: ٥٨.

غالباً في العشرين من أيلول (سبتمبر)، عند سقوطِ «الفَرْغ المؤخر» في أُفُق المغرب، وطُلوعِ رَقيبهِ «العَوَّاء» في الساعة نفسِها من أفق المشرق، فكانوا يقولـون: «إذا طَـلعَ العَوَّاءُ، طاب الهواءُ، وكُره العَراءُ، وضُرِبَ الخِبَاءُ»[1]، وذلك كنايةٌ عن اعتدالِ الزمان، وابتداءِ الخريف، وذهابِ الحرِّ، حتى صار النومُ في العَراءِ مكروهاً، والبَيَاتُ في الأَخْبِيَةِ مطلوباً، اتِّقاءً لبرد الليل في البادية... وحينئذٍ يَستوي الليلُ والنهار، ويكون في كلٍّ واحدٍ منهما إثنتا عشرة ساعة[2]... وقد حُدَّ شهرا صَفَرٍ أصْلاً في هذا الزمن، أي مع ابتداء فصل الخريف، وهو في الوقت نفسه ابتداءُ سنة العرب...

ويُؤَيِّدُ هذا المذهبَ في القول، فوق ما قدَّمناهُ، أن الأيام بعد انقضاءِ نَوْءِ الثريّا، وانتهاءِ زمن الوَسْميِّ، تكون قاسيةً غالباً على الناس، يشتدُّ فيها البردُ، وتعصفُ الرياحُ، ويَقلُّ الغذاءُ والمَرْعَىٰ، وتهزلُ الإبِلُ والأنعام. وسلطانُ البرد إنما يكون أواخرَ الخريفِ وأوائلَ فصل الشتاء. وهذا يكون حين يطلع منزلُ «القلب» نحو الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوڤمبر)، فكانوا يتشاءَمُون به، ويقولون: إذا طلعَ القلبُ، جاء الشتاءُ كالكلب، وصار أهلُ البوادي في كَرْب... ذلك أن الخريف يكون قد امتزج وقتئذٍ بالشتاء، فصار النهارُ عشرَ ساعات، والليلُ أربعَ عشرةَ ساعةً... ثم تطلعُ «الشَّوْلَةُ»، فيقولون: إذا طلعتِ الشَّوْلَةُ، أعْجَلَتِ الشيخَ البَوْلَةُ، واشتدَّتْ على العِيَال العَوْلَةُ... وهو كنايةٌ عن شِدَّة البرد، وشِدَّةِ الحاجة إلى الطعام، وفي آخر نَوْءِ الشَّوْلَة، نحو التاسع عَشَرَ من كانون الأول (ديسمبر)، دخولُ فصل الشتاء، وغايةُ قِصَرِ النهار وطُولِ الليل، حيث يأخذُ النهارُ بعد ذلك بالزيادة،

---

(١) عجائب المخلوقات: ٨٠ ـ ٨١، والأزمنة والأنواء: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٧٨.

والليلُ بالنقصان[1]... وكانت العربُ تُسمِّي هذه الأيامَ، تأتي بعد انقضاءِ نَوءِ الثريَّا: «شهرَ المُلَيْسَاءِ»، وذكروا أنه وقتٌ تنقطعُ فيه الميرةُ عنهم، ويشتدُّ البردُ، ويقعُ بين الصَّفَرِيَّةِ والشتاء[2]، وقالوا إن رجُلاً من العرب قال لآخَر: أكرهُ أن تزورَني في المُلَيْسَاءِ، فقال: لمَ؟ قال: لأنه يَفُوتُ الغَداءُ، ولم يُهَيَّأ العَشَاءُ[3]... كنايةً عن قِصَرِ النهارِ وطُولِ الليل... فإذا كانت غايةُ قِصَرِ النهار وطُولِ الليل تقعُ، كما عَرَضْنا قبل قليل، بين أواخر تشرين الثاني وأواخر كانون الأول، وإذا كانت المُلَيْسَاءُ تقعُ بعد شَهْرَيْ صَفَرٍ، وقبل شَهْرَيْ جُمَادَى، وهما الشتاءُ عند العرب[4]، فإن شهر المُلَيْسَاءِ هو شهرُ ربيعٍ الأولُ نفسُه، وهو أواخِرُ الخريفِ وأوائلُ الشتاء، وهو إذن دَليلُنا على صحة ما ذهبنا إليه في موافقة الأوَّلِ من فصلِ الخريف أو موسمِ الربيعِ الأوَّلِ أو الوسْميِّ للعشرين من أيلول، يومِ سُقوطِ منزل «الفَرْغ الثاني» في أُفُق المغرب.

وإذا لاحظنا أن العرب ابتدؤوا السنةَ بسقوط الفَرْغ الثاني، فإنهم خَتَموا نصفَ السنة بمنزل «الصَّرْفَة»، وجعلوا آخر نَوْئها الفاصِلَ بين نِصْفَيْ السنة: الشتويِّ والصَّيْفيِّ، وزَمَنَيْ البرْدِ والحَرِّ، فسقوطُها علامةٌ على انصرام نصف السنة الشتوي، وطلوعُها علامةٌ على انصرام نصف السنة الصيفيّ[5]... وهذا يُذَكِّرُنا بما جُعلت عليه أسماء شهور العرب، فجاء نصفُها أزواجاً

(١) الأزمنة والأنواء: ١٤٠ ـ ١٤٢، وعجائب المخلوقات: ٨٢، وصبح الأعشى: ٢/ ١٩٤، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠٤.
(٢) لسان العرب: ٤/ ٤٣٢ (شهر).
(٣) المرجع نفسه: ٦/ ٢٢٢ (ملس).
(٤) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٨.
(٥) الأزمنة والأنواء: ٩٩ ـ ١٠٠، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٠، وصبح الأعشى: ٢/ ١٧٧.

ثلاثةً، والنصفُ الآخَرُ ستَّةَ أفراداً، فأمَّا الأزْواجُ فهي: الصَّفَرانِ، وشهرا ربيعٍ، والجُمَادَيانِ، وأمَّا الأفرادُ فهي: رجَبٌ، وشعبانُ، ورمضانُ، وشوَّالٌ، وذو القعدة، وذو الحجة[1]. . . وهذا يعني أن الأزواج الثلاثة كلَّها تقعُ في نصف السنة الشتويِّ، وأن الأفراد الستة كلَّها تقعُ في نصف السنة الصيفيِّ، ولا أعتقد أن ذلك التقسيم الدقيق جاء عَفْواً واتفاقاً، بل هو حاصِلُ فِكْرٍ وتَدَبُّر، يتَّفِقُ كثيراً وواقعَ المُنَاخ في جزيرة العرب، ولا سيما في مناطق الحجاز ونجْدٍ وتهامة وما اتَّصل بها.

ومثلما جعلوا سقوطَ «الفَرْغ الثاني» مَبْدَءً لنصف السنة الشتوي، جعلوا طلوعَه في الواحد والعشرين من آذار مَبْدَءً لنصف السنة الصيفيِّ، وأوَّلُه الربيعُ، وقالوا في ذلك: إذا طَلَعَ الدَّلْوُ، فالربيعُ والبَدْوُ، والصَّيْفُ بعد الشَّتْو[2]، وكانوا يُسَمُّون منزلَيْ الفرغ الأول والثاني باسْم الدَّلْو. وكان شهرُ رجَبٍ من شهور الربيع وقتئذٍ، فكان أوَّلُه يقعُ في الواحد والعشرين من آذار (مارس)، وكان موسماً دينيّاً حُرِّمت أيامُه، وموسماً للتبدِّي والتربُّعِ، يخرجون فيه إلى البوادي، لاجتناء الكمأة ومُبَكِّر الثمار.

وفي الوقت نفسه عَدُّوا سقوط «الفرغ الأول» في نحو السابع من أيلول (سبتمبر) إرْهاصاً للوَسْميّ[3]، أي مُقَدمةً للخريف، وإيذاناً به، وبموسم التبدِّي الأول. ويُعَدُّ طلوعُ «الصَّرْفَة» في نحو السابع من شهر أيلول أيضاً،

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٣، والمفصَّل: ٨/٤٥٩.

(٢) عجائب المخلوقات: ٨٤، والأزمنة والأنواء: ١٥١ ـ ١٥٢، وانظرُ قولَ بشر بن أبي خازم:

جادَتْ له الدَّلْوُ والشِّعْرَىٰ ونَوْؤُهما ... بكلِّ أسْحَمَ داني الوَدْقِ مُرْتَجِفِ

والأسْحَم: الأسود، والوَدْقُ: المطر، والمرتجِف: المتحرِّك والمضطرب (الديوان: ١٥٧).

(٣) لسان العرب: ٧/ ٤٤ (رهص).

إرهاصاً للموسم نفسِه، بدليل قولهم: إذا طلَعتِ الصرفَة، احْتال كلُّ ذي حِرْفَة، وامْتِيزَ عن المياه زُلْفَة[1]. . . ومعناهُ أن الشتاء أَزِفَ وقتُه، فطفِقَ كلُّ صاحب حرفةٍ يحتالُ فيما يُعِدُّهُ للشتاء، وابتدأ الناسُ بالابتعاد عن مياههم الثابتة، للشروع في موسم التربُّع أو التبدي، وهو ما يسمونه الربيعَ الأول.



صفوةُ القولِ، فيما قدَّمتُه عن دلالةِ شهور العرب على حقيقة مواقِعها من الأزمنة الطبيعية، وما حَقَّقْتُه بعدئذٍ في مذهبهم إلى قسمة الفصول الطبيعية مع ما يتفقُ وترتيبَ شهورهم، أنَّ سنتهم كانت شمسيةً[2]، تعتمدُ حركةَ منازل القمر في حسابها، وإن كانت شهورُهم مَنُوطةً بالأهلَّة في افتتاحها، لأن القمر أكثرُ وضوحاً في الرؤية، وهو ما جعلها محكُومةً بالدوران من أجل ذلك، ولكنهم كانوا يُثبِّتُونها بالكبْسِ، أو النَّسِيءِ، كلَّ سنتين، أو ثلاثٍ، مرةً، فتظلُّ ضمن حدود الأزمنة التي حُدَّتْ فيها، والشهورِ التي تُقَابِلُها من سنة الشمس. وإذا فَرَضْنا أن أوَّلَ شهر المحرَّم (صفر الأول)، كان يقعُ عند ابتداءِ الخريف من سنة العرب، في نحو العشرين من أيلول، فهو مُطابِقٌ لما كانَ عليه عند السريانيين، فالأول من تشرين الأول كان يقع يومَ الاعتدال الخريفي[3]، في الزمَنِ نَفْسِه أيضاً، ومن شأن ذلك أن يجعل الأوَّلَ من المُحرَّم يُقَابِلُ الأوَّلَ من تشرين الأول، وإذا افترقا سنةً، عاد الكبْسُ بهما بعدها إلى المقابلة من جديد، وفقاً لما يقتضيه التقديمُ والتأخيرُ، وإحكامُ

---

(١) الأزمنة والأنواء: ١٧٧.

(٢) أسماء الأشهر في العربية: ١١، ٥٥ ـ ٥٦، والمفصَّل: ٥٠٦/٨.

(٣) أسماء الأشهر: ٣٩.

افتتاح الشهور بظهور الأهِلَّة. ومع اعترافي بأن الضَبْطَ في هذا الشأنِ اليومَ مستحيلٌ، لكنني سأقدِّم في القسم التالي من البحث مزيداً من الأدِلَّة.

* * *

المطلب الثالث ـ وجُوهُ التوافُق بين التقويميْن العربيّ والشمسيّ:

هنالك إشاراتٌ وقعتُ عليها خلال البحث، فحفظتُها، لِعَرضها ودَرْسِها في هذا الموضع، مُتَوخِّياً أن تكون أدِلَّةً إضافية، على مُوَافقة شُهورِ العرب شهورَ السريان، في ترتيبها، ومَوَاقعِها من الأزمنة، ودَلاَلاتها على تَقلُّب الطبيعة، فضلاً عن المواسم الثابتة في العبادة والزراعة والتجارة.

١ ـ التوافق في تحريم نيسان ورجب، ثم في تشرين الأول وصفر الأول:

لاحظتُ مثلاً أن نصفَ السنة الصيفيَّ عند العرب، يبدأُ بشهر رجَبٍ، وهو شهرٌ مُحرَّمٌ، يأتي في أول الربيع، وقد بلغ من حُرْمَتِهِ أنه كان يُسمَّى شهرَ الله الأَصَمَّ. وأن نصفَ السنة الشتويَّ، يبدأُ بشهر صَفَرِ الأول، وهو مُحرَّمٌ أيضاً، ويأتي في أول السنة، وبلَغَ من حُرْمَته كذلك أنه كان يُسَمَّى شهرَ الله المحرَّمَ، حتى غلب عليه اسمُ المحرَّم مُجرَّداً.

ثم نظرتُ فوجدتُ أن العرب لم ينفردوا في تحريم هذين الشهرين وتَقْدِيسهما، فالسوْمَرِيُّون والبابليُّونَ والسريانيُّون والعِبْريُّون والآرامِيُّون كان لسَنَتِهم رَأسَان، الأوَّلُ دينيٌّ يقعُ في شهر نَيْسَان (أبريل)، والثاني دُنْيَويٌّ يقعُ في شهر تشرين الأول (أكتوبر) وكلاهما كان مُقدَّساً، ومُكرَّساً على نَحْوٍ ما للنُسك والتعبُّد، كما في شهريْ رجب والمحرَّم (صفر الأول).

فأَمَّا نَيْسَانُ (أبريلُ)، فيبدو أن معظم الأمم القديمة كانت تبتدىءُ به

سنَتَها[1]، لأن الحياةَ بخُضْرَتها وأنْوارها وزَهرِها تعودُ فيه إلى الأرض من جديد. وكان السومَرِيُّون يُسَمُّونَه الشهرَ الأوَّل، وكان عندهم مُقدَّساً، فغلب عليه اسمُ شهرِ المَعْبَدِ أو المَزارِ المُقَدَّس، فلما أخذه البابليون عنهم، جعلوا إسمه: وَرْخ رَبُّوتي، أي شهرِ الربِّ العظيم، أو كبيرِ الآلهةِ، ثم سَمَّوْهُ بعد ذلك: نَيْسَانَ، أي البدءَ والتحرُّك، ونقله عنهم السريانيُّون والعِبْريُّون والآراميُّون بالإسم نفسه، وظلَّ مقدَّساً عندهم جميعاً، وكان أوَّلُه وقتئذٍ يومَ الاعتدال الربيعي، في الواحد والعشرين من آذار (مارس). غير أن اليهود لمَّا رجعوا من مَنْفَاهُم في بابل، جعلوا إسمه: أَبِيب، ويُقابله في العربية أَبٌّ، بمعنى الربيع والزهر أو السنابل[2].

وأعتقدُ أن العرب في الجاهلية الأولى كانوا على المذهب نفسه، يبتدئُون سنتَهم بشهر رجب المحرَّم، وربما كان قولُه عليه السلام في تعيين موضع رجب: بين جُمادَى وشعبان، بياناً لهذا الأمر، لأنهم كانوا إذ ذاك، لِعِلَّةِ الكَبْس، يُؤَخِّرونه، فيتحوَّلُ عن مَوْضعهِ الذي يختصُّ به[3]، وذلك قبل أن يُنْقَلَ رأسُ السنة عند تلك الأُمَم إلى فصل الخريف، ويَغْدُوَ شهرُ المحرَّم (صفر الأول) رأسَ السنة العربية، مثلما صار تشرين الأوَّلُ رأسَ السنة أيضاً عند البابليين والسريانيين والعِبْريّين والآراميّين، وغيرهم من الأُمم... ولعلَّ

---

(١) صار نَيْسَانُ (أبريل) الشهرَ الرابعَ في السنة الغربية، منذ أمر شارل التاسع ملكُ فرنسا، سنة (١٥٦٤ م). بجَعْل كانون الثاني أول السنة، ولكن نيسان قبل ذلك كان أول السنة، وكان عند بعض الرومان الشهر الثاني، وآذارُ أول السنة.

(٢) أسماء الأشهر: ٢٦، ٣٧ ـ ٣٩، ٦٦، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٦٤.

(٣) لسان العرب: ١/ ٤١١ (رجب).

في تعليق أبي بكر الأنباريّ[1]، وهو عالم مُدَقِّقٌ، على مُعلَّقَةِ لبيد بن ربيعة، في شَرحهِ أَحَدَ أبياتها، تأكيداً على ما ذهبتُ إليه في شأن رجب، إذ قال: الشهورُ الحرُم أربعةٌ «أوَّلُها رجَبٌ، ثم ذو القعدة، ثم ذو الحجة، ثم المحرَّمُ آخِرُها»[2]، وهي إشارةٌ واضحةٌ إلى أن سنة العرب كانت تَبتدِىءُ أولاً برجَبٍ، وأن الكبْسَ كان يجري وراءَ جُمَادَى. وكان العِبْريُّون يكبسون، كلما اقْتَضَتِ الحاجةُ، شهراً وراءَ آذار، يُسَمُّونَه آذار الثاني[3]. ومن هنا نشَأ تَوَهُّمُ من زعموا أن العرب أخذوا الكَبْسَ عن العبريين، وإنما الحقيقة أن الجميع أخذوا علمهم في ذلك عن السرياتيين أو الآراميِّين[4]، وربما اليونانيّين.

وأما شهر تشرين فيبدو أنه صار في تطوُّر لاحقٍ أوَّلَ شُهور السنة عند البابليين، أو سائر من أخذ عنهم كالسريانيين والعِبْريين والآراميِّن[5]، وهو شهرُ الشُّرُوعِ بما يهمُّ الناسَ في حياتهم الدنيا، من الزراعة والتجارة والامْتِيارِ والإعداد لفصل الشتاء. وكان عند البابليين شهراً مُقَدَّساً، يكرِّسُونَه لعبادة الإلَه شمش، أي الشمس، وكان عندهم نورَ السماء والأرض، وربَّ الأربابِ جميعاً[6]. ويُعَيِّدُ العبريُّون عيد رأس السنة في أول تشرين، ويصومون

---

(١) ابن الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم، ولد في بغداد (٢٧١ هـ)، وتلقَّى العلم عن أبيه وعدد من العلماء، وصار إماماً في اللغة والنحو والأدب، ثقةً ثبتاً صدوقاً، وكان سريع الحفظ، جيِّدَ القريحة. توفي سنة (٣٢٨ هـ).

(٢) شرح القصائد السبع: ٥٢١.

(٣) صبح الأعشى: ٢/ ٤٢٨، والمفصَّل: ٨/ ٤٥٣.

(٤) أسماء الأشهر: ٥٣.

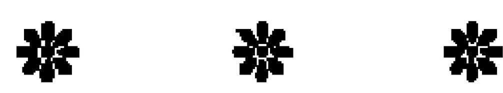
(٥) مروج الذهب: ٢/ ١٩٢، وصبح الأعشى: ٢/ ٤١٩، ١/ ٢٤٤، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٧٢، ولسان العرب: ١٣/ ٢٣٦ (شرن)، والأزمنة والأنواء: ٥٣.

(٦) أسماء الأشهر: ٢٩ ـ ٤١، (وجاء في رواية أخرى ذكرها العقاد في كتابه «الله»، أن البابليين كانوا يظنون أن الأرباب تجتمعُ كلَّ سنة، في يوم الاعتدال الخريفي، لِتنظرَ في السماء مقادير السنة كلها، وتسجِّلها في لوحٍ محفوظٍ لا يُمحَىٰ قبل نهاية السنة...): ٩١.

صومَ الكبور في العاشر منه، ثم يُعيِّدون في الخامس عشر منه سبعةَ أيام عيدَ المِظَلَّة، وآخِرُ يومٍ منها يُعَدُّ حجّاً لهم(١).

ومثلما سُمِّي شهرا تشرين بذلك عند السريانيين، بمعنى الشروع والابتداء، فإن شهري صَفَر كانا يُسمَّيان في الجاهلية المتقدّمة شهريْ ناجر(٢)، من النَجْرِ أو النِّجَار بمعنى الأصل والابتداء، وليس من النَّجْر بمعنى الحَرِّ كما ذهب البعضُ، فهُما الشهران اللذان يبتدءُ بهما العام، أي أنهما أصلُه(٣)... ومثلما كان الأوَّلُ من شهر نَيسان (أبريل) يقع في يوم الاعتدال الربيعي، كان الأول من تشرين الأول (أكتوبر) يقع في يوم الاعتدال الخريفي، ولا بُدَّ أن الأول من رجَبٍ والأوَّلَ من صَفَرالمحرَّم كانا كذلك...

كلُّ هذا التماثُلِ، من شأنه أن يقودَنا إلى الاعتراف بموافقة شهور العرب في الحجاز ونَجْدٍ وتهامة، شهورَ الشمس عند الشعوب الأخرى، في ترتيبها، ومواقعها من الأزمنة، فلا يُعقَلُ أن يَشِذَّ العربُ وحدَهم عن نظامٍ اعتمدتْه شعوبُ المنطقة جميعاً، بمن فيهم الرومُ قبل أن تبدأَ سنتُهم بشهر (يناير) كانون الثاني.



---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٦٤، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٦٦.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٨٠، ولسان العرب: ٥/ ١٩٤(نجر).

(٣) يُلاحظ أن معنى كلمة أكتوبر (تشرين الأول) هو الثامنُ، إذ كان الشهْرَ الثامنَ في التقويم الروماني القديم ابتداءً من شهر مارس (آذار)، ومعنى سبتمبر (أيلول): السابع، ونوفمبر (تشرين الثاني): التاسع، وديسمبر (كانون الأول): العاشر. ولكن التقويم الغريغوري قدَّم رأس السنة إلى الشتاء، ففقدت هذه الشهورُ معانيها الأصلية، وذلك حينما جعل (يناير) كانون الثاني أول السنة.

٢ ـ توافُق وقوع أيام العجوز بين شباط (فبراير) وآذار (مارس)، وكذلك في جُمادى:

حقَّقْتُ فيما قَدَّمتُه أن شهرَ جُمادَى الآخِرَة كان يُقَابِلُ شهرَ آذار، وربما كان يقعُ بين السادس والعشرين من شباط والسادس والعشرين من آذار... وبين يَدَيَّ نصٌّ أعتقدُ أن فيه بياناً لما قدَّمتُه، وتأكيداً على ما حقَّقتُهُ.

يقولُ علماءُ الأنواء إن «يوم الخامس والعشرين من شباط يكون أوَّلَ الأَعْجَازِ...»[1]، والأعجازُ أيامُ العجوزِ المشهورةُ بشِدَّة بردها ورِيَاحِها، ويُقال إنها سبعةٌ، منها أربعةٌ في شباط، وثلاثةٌ في آذار، ولها عند العرب أَسَامٍ، تُشير معانيها جميعاً إلى ما يكون فيها عادةً من بَرْدٍ قاسٍ، وريحٍ شديدةٍ[2]، ولا يَعْنينا هنا سوى اليوم الثاني منها، ويُسَمُّونَه: صِنَّبْراً، والصِّنَّبْرُ شِدَّةُ الريح في بَرْدٍ قاسٍ وغَيْم[3]. فتأَمَّلْ هذا الشِعْرَ للشاعرِ الطِرِمَّاحِ[4]، كيف رَبطَ فيه صِنَّبْراً بشهر جُمادَى، في صورةٍ واحدةٍ وصَفَ بها ليلةً شديدةَ البردِ والريح، فقال:

ليلـةٌ هـاجَـتْ جُمَـادِيَّـةٌ ذاتُ صِـرٍّ، جِـرْبِيَـاءُ النِسَـامْ
وردةٌ أدْلَـجَ صِنَّبْـرُهـا تحت شَفَّانٍ شَباً ذي سِجَامْ[5]

---

(١) الأزمنة والأنواء: ١٤٧، وصبح الأعشى: ٢/ ٤١٣، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٦.

(٢) الأزمنة والأنواء: ١٤٨ (ح).

(٣) لسان العرب: ٥/ ٣٧١ (عجز)، و ٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧١ (صنبر)، وتاج العروس: ١٢/ ٣٥٦.

(٤) الطِرِمَّاحُ حَكَمُ بنُ حكيم الطائي: شاعر إسلامي فحل، وُلد ونشأ في الشام، وسكن الكوفة، وكان فيها مُعلِّماً. توفي نحو (١٢٥ هـ = ٧٤٣ م).

(٥) الصِرُّ: البردُ الشديد، الجِرْبِيَاءُ: ريح الشمال الباردة، ليلةٌ وردةٌ: شديدةُ احْمرَّ أُفُقها، أدلج: سار أو هَبَّ ليلاً، الشفَّانُ: ريح باردة بَلِيلَةٌ كأنها تَنْضَحُ بالمَاء، الشَّبَا: البَرَدُ، السِجَامُ: الانصبابُ والسَّيَلان.

أي أنها ليلةٌ جُمَادِيَّةٌ، شديدةٌ، غائمةٌ، ريحُها شماليةٌ باردةٌ، أَدْلَجَ بَرْدُها تحت ريحٍ باردةٍ بِلَيلةٍ، تسيلُ بَرَداً من شدَّة صَقِيعها[1].

ولولا أن صِنَّبْراً كان من أيام شهر جُمَادَى، لما جعله الشاعِرُ من لوازمه في الوصف والتشبيه. . .

وفي حديث وفاة أبي بكر الصدِّيق أنه اغتسل لسبع ليالٍ خَلَوْن من شهر جُمادى الآخِرة، وكان يوماً بارداً، فحُمَّ خمسة عشر يوماً ثم تُوفي[2]، رضي الله عنه، لثمانٍ بَقِينَ من جمادى الآخرة سنة (١٣ هـ)، وهذا يؤكدُ صحَّةَ تقديرنا لموقع مُعْظم جُمادَى الآخِرة في آذار، وأوَّلِهِ في أواخر شباط. . . على أن ما ينبغي ذكرهُ هنا، هو أن مِن العرب مَن يعدُّ أيامَ العجوز خمسةً، ومنهم مَن يَعُدُّها ثلاثةً، ولكن بَرْدَها ربما استمرَّ أكثر من عشرة أيام أحياناً، وقد نُقِل عن أعرابي قولُه: «يقولون أيامُ العجوز ثلاثةٌ، وقد كانت أيامُ العجوز لنا شهراً»[3].



٣ ـ توافق قيام موسم المشقَّر في جمادى الآخرة وعيد الفصح عند النصارى:

في حديث يوم المُشَقَّر بهَجَرٍ، أن بعض بني تميم، أغاروا على قافلةٍ لكسرى، رفضتْ أن تُؤَدِّيَ إليهم أَتَاوةَ المرور، فانْتَهبوها، وكانت بخفارة ملك اليمامة هَوْذَة بن علي الحنفيّ، فبيَّتَ مع حُلَفاءِ الفُرس أن ينتقموا من

---

(١) ديوان الطِرِمَّاح ـ تحقيق د. عزة حسن: ٤١١ ـ ٤١٢، ولسان العرب: ١٤/ ٤٢٠ (شبا)، و ٤/ ٤٥٠ (صرر)، وتاج العروس: ٢/ ١٥٢ (جرب).

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠، ومختصر تاريخ البشر: ١/ ١٥٩.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٧٦.

بني تميم، حين تقوم السوقُ بالمشقَّر[1]. وكان بنو تميم يصيرون في ذلك الوقت إلى هجر، للميرة، ولُقَاطِ الكمأة، ويأتونَ حصنَ المشقَّر لِشُهودِ السوق. . . ويُقال إنهم لمّا دخلوا الحِصْنَ، غُدِرَ بهم، فقُتِل بعضُهم، وأُسِرَ الباقون. ثم تكلَّم هَوْذَةُ بنُ عليّ في مئةٍ من الأسرى، فأُطْلِقُوا يومَ الفصح[2]. وفي ذلك قال الأعشى، يمدحُ هوذة:

سـائِـلْ تميمـاً بـه أيـامَ صَفْقَتِهـم ... لمّـا أتَـوْهُ أُسَـارَىٰ كُلُّهـم ضَـرَعـا
فَفَـكَّ عـن مئـةٍ منهـم إسَـارَهُـمُ ... فـأصبحـوا كلُّهـم مـن غُلِّـهِ خُلِعَـا
بهـم تَقَـرَّبَ يـوم الفِصْـح ضـاحِيَـةً ... يرجو الإلَه بما أسْدَىٰ وما صَنَعا[3]

وتكادُ رواياتُ أهل الأخبار تُطْبِقُ على أن موسمَ سوق المشقَّر كان يقومُ أولَ يومٍ من جُمادَى الآخرة، إلى آخر الشهر[4]، وقد أشرنا في مطلع هذا الباب إلى أن يومَ الفِصْح مُتَنقِّلٌ بين أواخر آذار وأواخِرِ نيسان، فإذا أضفنا إلى ذلك أن موسم لُقَاطِ الكمأة يقعُ غالباً بعدما يطلعُ منزل «سعد السعود»، في الثانـي عشـر مـن شبـاط[5]، ويستمـرُّ حتـى أواخـر نيسـان[6]، وأن إطـلاقَ الأسرى، كان غالباً بُعيْد انقضاء موسم السوق، تبيَّن لنا صوابُ ما ذهبنا إليه من وقوع جُمادى الآخرة، أو مُعْظمه في شهر آذار.

* * *

(١) الأغاني: ١٧/٢٣٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ١٧١، والكامل: ١/ ٦٢١.
(٣) ديوان الأعشى: ١١١ ـ ١١٢.
(٤) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.
(٥) الأزمنة والأنواء: ١٤٦ ـ ١٤٧، وعجائب المخلوقات: ٨٣، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٨٠.
(٦) البدو والبادية: ٦٩.

٤ ـ **توافُق وقوع عاشوراء في العاشر من المحرَّم والعاشر من تشرين الأول:**

ثمَّة دليلٌ آخَرُ، لعلَّه القولُ الفصلُ في بُطلان كل الأقوال، التي زعمت بأن شهورَ العرب، لمّا سُمِّيَتْ ورُتِّبَتْ، لم يكن العربُ يَدْرُونَ أنها ستدورُ في الفصول، وتَفقِدُ بالتالي معانيها، ودَلالاتِها على الأزمنة التي وُضِعْت لها. . . فقد حقَّق ابنُ تَيميَّة من طرُق كثيرةٍ مختلفةٍ، أن أهل الجاهلية كانوا يصومون يومَ عاشُوراء، وأن النبيَّ عليه السلامُ كان يصومُه، ولمّا قَدِم المدينةَ صامَهُ، وأمَرَ بصَوْمِهِ، فلما فُرِضَ صومُ شهر رمضان، قال: إن عاشوراءَ يومٌ من أيام الله، فمن شاء صامَهُ، ومن شاء تَركه[1]. وهذا نفسُه ما جاء في مختلف مَوَارد الفقه والتاريخ[2]. . . وأضاف الأزرقيُّ أن النبيَّ عليه السلامُ خطب الناسَ يومَ عاشوراء فقال: هذا يومُ عاشوراء، يومٌ تنقضي فيه السنةُ، وتُسْتَرُ الكعبةُ، وتُرْفَع الأعمال، ولم يُكتَبْ عليكم صيامُه، وأنا صائمٌ، فمن أحبَّ منكم أن يصومَ فلْيَفْعَلْ[3]. وكانت الكعبةُ فيما مضى قبل الإسلام تُكْسَى يومَ عاشوراء، وقد ذهب آخِرُ الحاجّ، فكانوا يُعلِّقُون عليها حينئذٍ الأُزُرَ من الأنسجة الفاخرة[4]. ويومُ عاشوراءَ هو يومُ العاشر من شهر المحرَّم (صَفَر الأول)[5]، ذكر القزويني أنه يومٌ مُعظَّمٌ في جميع المِلَل[6]. ولمّا قَدِم المسلمون المدينة وجدوا اليهودَ يصومون اليومَ عَيْنَه، في العاشر من شهر

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ٣١، و ٥/ ٥١، والأمُّ للشافعي: ٢/ ٢٦، والكامل: ٢/ ١١٥، وفقه السنة: ١/ ٤٥١ . . .

(٣) أخبار مكة: ١/ ٢٥٢.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٩٠.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٥.

(٦) عجائب المخلوقات: ١٠٩.

تشري (تشرين الأول)[1]، اعتقاداً بأن الله نَجّىٰ فيه موسى وقومَهُ، وأَغْرق فيه فرعونَ وقومَه، فصامه موسى شكراً لله[2]. وكانوا يسمُّونَه يومَ عَشُور، أو العَاشُور، ويقولون: إن الله فَرض عليهم صومَهُ، ومُدَّتُه خمسٌ وعشرون ساعةً، تبدأُ من اليوم التاسع، قبل غروب الشمس بنصف ساعة، وتنتهي بعد غُروبها من اليوم العاشر بنصف ساعة[3]، وكانوا يتخذونه عيداً، ويُعظِّمونَهُ كثيراً[4]، وقيل إنه يُدْعَى يومَ الكفَّارة أيضاً[5]. وكان أهلُ خَيْبَر يصومون أيضاً «يومَ عاشوراء، ويتخذونه عيداً، ويُلبِسُونَ نساءَهم فيه حُلِيَّهم وشاراتهم»[6]، ويُقيمون فيه موسماً تجارياً واجتماعياً عامّاً، بحِصْنِ «نطاةٍ»، يظلُّ منعقداً إلى آخر الشهر. وكان لأهل اليمامة في نَجْد موسمٌ كبير ينعقدُ كلَّ سنة بمدينة «حَجْرٍ»، في العاشر من المحرَّم إلى آخر الشهر[7]، وهو الميقاتُ نفسُه المُقَدَّر لموسم نطاة.

على أن هذا التوافُقَ في صيام اليوم نَفْسِه، بين اليهود والعرب في الجاهلية، ثم في الإسلام، يجب أن لا يُفهم أنه تأثُّرٌ من العرب والمسلمين باليهود، فدعوى اليهود في صيامه شيءٌ من عقيدتهم، أما عند العرب فهو كما قال رسُول الله ﷺ: «يومٌ من أيام الله»[8]، وربما كان من سُنَنِ الحنيفيَّة

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٨٢.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧١ ـ ١٧٢.
(٣) المختصر في أخبار البشر: ١/ ٨٩، وصبح الأعشى: ٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤.
(٤) إقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٢.
(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية: ٤٧.
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٢.
(٧) المحبَّر: ٢٦٨.
(٨) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٣ ـ ١٧٤.

الباقية فيهم، أو من تقاليدهم الدينية القديمة[1]... وليس من هَمِّي أن أُحَقِّق المزيدَ في هذا الجانب من الموضوع، وإنما يَعْنيني منه أن العاشر من شهر المحرَّم (صفر الأول) كان يُوافِقُ العاشرَ من شهر تشري (تشرين الأول). وكانت شهورُ اليهود مكبُوسَةً[2]، أي كان يجري تَثْبيتُها بالكبس، لئلا تدورَ في الأزمنة، وهذا يعني أن شهور العرب كانت أيضاً مكبوسةً، وكانت ثابتةً لا تدور[3]، وإلا ما كان ذلك التوافُقُ في يوم عاشوراء... كما يعني أن شهر المحرَّم (صفر الأول) كان يُقابلُ، على حساب الشمس، شهرَ تشرين الأول عند السريانيين والآراميِّين والروم... وهنالك دليلٌ آخَرُ على التوافُق قولُ الرسول عليه السلام: لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأَصُومَنَّ التاسعَ، يعني مع يوم عاشوراء[4]، وإنما قال ذلك كراهةً لموافقة اليهود[5]، بعدما أَمَرهُ اللَّهُ بمخالفة أهل الكتاب[6]، وكان يقولُ للمسلمين: صُومُوا يومَ عاشُوراءَ، وخالِفُوا فيه اليهودَ، صُومُوا يوماً قبله، أو يوماً بعدَهُ[7]... وقد أكَّد القَلْقَشنديُّ أن شهور اليهود تُوافق شهورَ العرب في التقدير، ولا تُخالِفُ أوائِلَها إلا بيومٍ واحد في بعض الأحيان، لأسبابٍ في مِلَّتِهم[8].

* * *

(١) المفصَّل: ٦/ ٤٤٣.
(٢) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠٨.
(٣) الأزمنة والأنواء: ٣٢.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٥، والتاج الجامع للأصول: ٢/ ٨٩.
(٥) لسان العرب: ٨/ ٣٤ (تسع).
(٦) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٠، ١٤٥.
(٧) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٥.
(٨) صبح الأعشى: ٢/ ٤٠٨.

٥ ـ موسم الحج إلى مكة كان ثابتاً أبداً في ذي الحجة:

حقَّق ابنُ كثير في تفسيره آياتِ الحجّ والعُمْرة، وبعدما عَرَضَ لأقوال مختلف الرواة والأئمة، أن موسمَ العُمرة والحج كان ثابتاً، «لأنه قد ثَبت أن رسول الله ﷺ اعْتَمَر أربعَ عُمَرٍ في ذي القَعدة: عُمْرة الحُدَيْبيَّة في ذي القعدة سنة ستٍّ للهجرة، وعُمْرة القضاء في ذي القعدة سنة سبعٍ، وعمرة الجعرَّانة في ذي القعدة سنة ثمانٍ، وعُمْرته التي مع حِجَّتهِ، أَحْرَمَ بهما معاً في ذي القعدة سنة عَشْرٍ. . .»[١].

وذكر ابنُ إسحاق، أيضاً، أن رسول الله خرج في ذي القعدة سنةَ ستٍّ، مُعْتمراً لا يريد حرباً، فصدَّتْه قريشٌ، ويومئذ كان صلحُ الحُدَيْبيَّة[٢]. ثم خرج في ذي القعدة، سنة سبع، مُعْتمراً عمرةَ القضاء، مكانَ عمرته التي صَدُّوهُ عنها[٣]. ثم كانت عمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمانٍ، بعد فتح مكة في رمضان[٤]. ثم بعث الرسولُ أبا بكر، رضي الله عنه أميراً على الحجّ، من سنة تسعٍ، ليُقيم للمسلمين حجَّهم، في شهر ذي الحجة[٥]. ثم لمّا دخل ذو القعدة، تَجهَّزَ عليه السلامُ للحجِّ، فخرج لخمس ليالٍ بَقِينَ من ذي القعدة، من سنة عشر للهجرة[٦]. . .

وهذا ما أكَّدهُ الطبريُّ كذلك عندما أشار إلى أن عُمَرَ النبيّ عليه السلام

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٤٠٧ ـ ٤٠٨.
(٢) السيرة لابن هشام: ٢/٣٠٨.
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٣٧٠.
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٥٠٠.
(٥) السيرة لابن هشام: ٢/٥٤٥.
(٦) المرجع نفسه: ٢/ ٦٠١.

كانت كلُّها في ذي القعدة[1].

ولا أعتقد أن هنالك بياناً، أشدُّ من هذا البيانِ وضوحاً، يؤكدُ ثَباتَ موسم الحج في شهر ذي الحجَّة. ومع ذلك زعم أهلُ الأخبار أن العرب كانت تحجُّ في كل شهرٍ من شهور السنة، حِجَّتَيْن في عامَيْن، حتى يستديرَ الحجُّ في كل أربعٍ وعشرين سنةً، إلى الشهر الذي ابْتَدؤوا منه[2]!. وهذه صفةٌ عجيبةٌ في دَوَران الشهور والحجّ معاً، عدَّها الأزرقي، وابنُ سعد، من مَسَاوِىء الكبْسِ أو النَّسِيء[3]، وهو غلطٌ منهما، لأن الكَبْسَ يُثَبِّتُ الشهور، ولا ينقلها عن مَوَاضِعها. وأكثَرُ غَرابةً منها أن الأزرقيَّ عاد في موضعٍ آخَر، فقال: «فاعْتَمر رسولُ الله عُمَرَهُ كلَّها في ذي القعدة»[4]. واعترف بأنَّ الحج سنة تسعٍ وقع في ذي الحجّة[5]. ومن شأن ذلك كله أن يقطع بأن موسم الحجّ كان ثابتاً في شهر ذي الحجَّة، وميقاتُه مَنُوطٌ أبداً بانقضاء ثمانية أيامٍ على رؤية هِلاله، وفي اليوم التاسع يصبح الحجّاجُ على عَرَفَة. ولكن تقدُّمَ السنة القمرية على سنة الشمس بأَحَدَ عَشَر يوماً، يجعلُ الشهورَ نفسَها، بما فيها من المواسم، مُتَحوِّلَةً عن مَواضِعها من الأزمنة التي حُدَّتْ فيها، ما لم يَجْرِ تَثْبِيتُها بالكبْس. وإلى أن يجري الكبسُ فإن موسم الحجّ لا يتحرَّكُ في شهر ذي الحجة، بل في الزمن الشمسيّ المقابل له، مُتَقدِّماً عليه ما بين (١١) إلى (٢٢) يوماً، وربما إلى (٣٣) يوماً أحياناً.

* * *

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٢٠، ٦٣٦، و ٣/ ٢٣، ٩٤ ـ ٩٥، ١٤٨.
(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٣) الطبقات: ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧، وأخبار مكة: ١/ ١٨٣.
(٤) أخبار مكة: ١/ ١٩٢.
(٥) المرجع نفسه: ١/ ١٨٦.

وخلاصةُ هذا الحديث، أن التماثُلَ في تقسيم السنة وافتتاحها، وترتيب الشهور، ومواقِعها، كان تامّاً، وواضحاً، بين العرب وسائر شعوب المنطقة. وقد تأيَّدَ ذلك بالبراهين القاطعة. وكان منها بعد ذلك ما أثْبَتَ أن جُمادَى الآخرة شهرُ بردٍ حقاً، يُقابل شهرَ آذار، وكان ميقاتُه قريباً من موسم الصوم عند النصارى وفِصْحِهم، ومنها ما أثبت أن العاشر من شهر المحرَّم كان يُقابل العاشر من تشرين الأول، وربما تَقدَّمَهُ، أو تأخَّر عنه يوماً أو يومين، ومنها ما أثبت أن الكَبْسَ عند العرب في الجاهلية لم يكن ينتقلُ بالشهور والمواسم، بل كان يعملُ على تثبيتها في مواقعها، ومن ذلك موسمُ الحج، الذي كان ثابتاً في موعده لا يتحوَّلُ عنه من شهر ذي الحجة. وإذا أضَفْنا إلى هذا ما انتهينا إليه في حديثنا عن شهور العرب، ومعانيها، وحقائق دَلاَلاتها على المواسم والحرِّ والبرد والأمطار وما إلى ذلك، وما حقَّقْناهُ في الحديث عن قسمة السنة إلى فصول أو أزمنةٍ، تعتمدُ مطالعَ النجوم ومَسَاقِطها، تبيَّن لنا من ذلك كله أن العرب، في الحجاز ونجد وتهامة، كانوا يتَّبِعُون تقويماً شمسيّاً قمريّاً، وأن أشْهُرَهم كانت ثابتةً في الأزمنة، ومَوَاسِمَهم كانت معروفةً مُعَيَّنةً، لما كان لذلك من علائق وثيقةٍ بحياتهم، ومواسمهم الزراعيَّة والدينيَّة، وتقلُّبِهم في الأرض بأنعامهم، وغلاَّتهم ومحاصيلهم، وإلا لم تكن لمواسم أسواقهم الكبرى قيمةٌ عند عرب الأقاليم الأخرى كالعراق والشام واليمن، وكذلك عند تجار الأُمم التي كانت تحرصُ على شُهودِ تلك المواسم. وفي حديثه عن هذا الموضوع، انتهى جواد علي إلى أن شأن أهل الحجاز في تقويمهم كان كشأن سائر العرب في الشام والعراق واليمن، الَّذين كانوا يحجُّون في وقتٍ ثابتٍ واحدٍ هو شهرُ ذي الحجة، ولا يُعقَلُ خروجُهم على هذا الإجماع، وتفرُّدُهم باتخاذِ تقويمٍ قمريٍّ مَحْض[1].

(١) المفصَّل: ٨/٥٠٦.

وقد تبيَّن لنا من مُتابعة أخبارهم، أنهم كانوا يعتدُّون في الفصول الطبيعية بدَوْرَةِ منازل القمر، ومَطالع النجوم ومَساقِطِها، وفي حساب الشهور بدورة القمر، أي أنهم كانوا يتَّبِعُون تقويماً شمسيّاً قمريّاً.

كما تبيَّن لنا من البحث العميق في أسماء شهورهم، ومعانيها، ومواقِعِها من طبائع فصولهم، أنها كانت شهوراً ثابتةً في أزمنةٍ معيَّنةٍ، وإن تحرَّكت قليلاً أحياناً بقِصَرِ دورة القمر، ذلك أن فقهاءهم، كما سنرى في كلامنا على النسيء، كانوا يعملون على إعادتها إلى مواقعها وتثبيتها بالكبْس، وهو ما أكَّدَهُ لنا ما وجدناهُ من التماثُل بين عرب الحجاز وجيرانهم في موعد افتتاح السنة، وترتيب الشهور، وتحريم بعضِها... وإن من شأن ذلك كله أن يحملنا على القول بأن مواسم العرب الدينيَّة والتجاريَّة، والاجتماعيَّة، كانت في الجاهلية تقومُ في أوقاتٍ ثابتةٍ من الأزمنة الطبيعية.

* * *

الفصل الثالث

النسيء والنساة

مقَدّمـة:

يكاد يكون من المحقَّق أن النَسيءَ، وهو حسابُ الشهور والسنين، كان شأناً دينيّاً من شؤون العرب في عصر الجاهلية، مركزُه مكّةُ، العاصمةُ الدينيَّةُ والقوميَّةُ للعرب. ولمَّا غَلَبت قبيلة خُزَاعَة على زعامة مكة، جعلت النسيء إلى مالك بن كنانة بن خُزَيْمة، وبَنِيهِ من بَعدِه يتَوارثُونَه بينهم. وكان صاحبُ النَسِيء منهم يُسمَّىَ الناسِيءَ، والقَلَمَّسَ، وكان يتولّى إفتاءَ العرب في شؤون دينهم[1]، ويَحسُبُ لهم حسابَ الفَلَك، لإلْحَاقِ السنة القمرية بالسنة الشمسية، وتثبيتِ مواسمهم في مواقعها من الفصولِ الطبيعية. فالنسيءُ بهذا المعنى رُتْبةُ شرفٍ، دينيَّةٌ، وعِلْميةٌ، واجتماعيةٌ، وهي من الوظائف الرئيسَة الكبرى في مكة، كالحِجَابَة والقيادة والقضاءِ وغيرها[2]، وكان رجالُ الدين يومئذٍ يحتكرون العلمَ دون العامَّة، وتَتَوارَثُه الأُسْرةُ الواحدةُ في بَنِيها وحَفَدتِها، ليظلَّ شَرفُه فيها، لا يخرجُ عنها إلى غيرها.

والنَّسِيءُ في الأصْلِ التأخِيرُ، ومثلُه النُّسْأةُ، والنَّسَاءُ، والنَّسِيئَةُ، ويكونُ

---

(١) المحبَّر: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/٢٨٦.

في العُمر والدَّيْن، وفي أمورٍ أُخرى. والعربُ تقول: نَسَأَ اللّهُ في أَجَلك، وأنْسَأَهُ، أي أَخَّرَهُ. وفي الحديث: من سَرَّهُ النَّسَاءُ في الأَجَلِ، والسعَةُ في الرزق، فَلْيصِلْ رَحِمَهُ. ويُقال: بعتُه بنَسَاءٍ ونَسِيئةٍ، أي بتأخير. وأَنْسَأْتُهُ الدَّيْن، أي جعلتُه مُؤَخَّراً، واسْمُ ذلك الدَّيْن: النسيئة[1]... وإنما سُمِّيَ الفقيهُ، أو المُفْتي عند العرب ناسِئاً، لأنه كان يُؤَخِّرُ أولَ السنة شهراً، مرةً كلَّ سنتين أو ثلاثٍ، على حسب ما يستحقُّه تَقدُّمُ السنة القمرية على سنة الشمس، ويكبسُ بهذا الشهر السنةَ المُنْقَضِيَةَ، فتكون ثلاثةَ عَشَر شهراً، وذلك كيلا تدورَ الشهورُ في الأزمنة، وليكون حجُّهم ومواسمُهم في وقت واحد من السنة[2]. ويبدو من تَتبُّع أسماءِ النَسَأة، أن النسيءَ ظلَّ قائماً في العرب أكثرَ من أربع مئةٍ وخمسين عاماً قبل أن يُبْطِلَهُ الإسلامُ سنة (٦٣١ هـ)، ولو لم يكن النسيءُ موجوداً إذ ذاك، لم يكن هنالك نَسَأَةٌ تُذْكر أسماؤهم... وعلى ذلك نرى الحديثَ عن النَّسَأَةِ أولاً، أكثرَ فائدةً لنا في فَهْم حقيقة النسيء.



المطلب الأول ـ النَّسَأَةُ أو القَلامِسَةُ:

النسَأَةُ عند ابن إسْحاق هم الذين كانوا يَنْسَؤُون الشهورَ على العرب في الجاهلية، فيُحِلُّون الشهرَ من الأشهُر الحُرُم، ويُحرِّمون مكانَه الشهر من أشْهُر الحِلّ، ويُؤَخِّرون ذلك الشهر[3]، أي الشهر الذي أَحَلُّوهُ، وهم عند ابن

---

(١) تاج العروس: ١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٧، ولسان العرب: ١/ ١٦٦(نسأ)، والأمالي؛ ١/ ٤.
(٢) الأزمنة والأنواء: ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) السيرة لابن هشام: ١/ ٤٣.

حبيب: القَلامِسَةُ، واحِدُهم القَلَمَّسُ، وكانوا فقهاءَ العرب، والمُفْتِينَ لهم في دينهم، فكان القَلَمَّسُ من هؤلاء القَلامِسَةِ، يقومُ أيامَ التشريق[1]، في حِجْرِ الكعبة[2]، فيُفْتيهم، ولا يُسْأَلُ أحدٌ عن شيءٍ غيرُه[3]. وإذا عرفنا معنى «القَلَمَّسِ» أدركنا ما كان للناسِيءِ، أو الفقيه من قدرٍ كبير عند العرب. . . فالقَلَمَّسُ هو السيِّدُ العظيمُ، والداهيةُ من الرجال، البعيدُ الغَوْرِ، الواسعُ الخُلُقِ والعلمِ والمعرفةِ، والرئيسُ المُعَظَّم[4]. وقد ذكر ابنُ حزم أن كلَّ من صارت إليه هذه المرتبةُ، من بني مالك بن كنانة، كان يُسمَّى القَلَمَّس[5]، ولكنَّ ما كان بينهم من تفَاوُتٍ في العِلم والقَدْر والشُهرة، أَوْهَم بعضَ أهل الأخبار، بأن واحداً منهم دون غيره كان القَلَمَّس. وعلى ذلك عُدَّ النَسِيءُ مَكْرُمةً من المكارم، التي كانت قبائلُ مُضَرٍ تفخرُ بها على العرب، وقد اجتمع لها منها ثلاثُ خِلالٍ: إجازةُ الناس بالحجِّ من عَرَفَة، وكانت إلى الغَوْثِ بنِ مُرٍّ[6]، والإفَاضَةُ بالناس إلى مِنَىً، وكانت إلى عَدْوان[7]، والنسيءُ، وكان إلى القَلَمَّسِ من بني كنانة[8]، أي إلى العالم الفَقيهِ النَّابِهِ منهم، لأن مركزَ الفقهِ والفَتْوىٰ والعلمِ بحسابِ الفلك، كان يجعلُ منه مَلِكاً

---

(١) أيام التشريق: ثلاثةٌ بعد أيام النَحْر، سُمِّيت بذلك لأن لحم الأضاحي يُشَرَّقُ فيها للشمس.

(٢) حِجْر الكعبةَ: ما تركتْه قريشٌ في بناء الكعبة من أساس إبراهيم، وحجرتْ عليه، لِيُعْلَم أنه من الكعبة.

(٣) المحبَّر: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٤) لسان العرب: ٦/ ١٨٢ (قلمس)، وتاج العروس: ١/ ٤٥٧ (نسأ).

(٥) جمهرة أنساب العرب: ١٨٩.

(٦) هو الغوثُ بن مُرٍّ بن أَدّ بنِ طابخة بن الياس بن مُضَر، وكان يُسمَّى صُوفَةَ.

(٧) هو عَدْوَانُ بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مُضَر.

(٨) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦، ومروج الذهب: ١/ ٣٠ ـ ٣١، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٨.

في قومه، يحترمونَه، وتُجلُّه جميعُ القبائل التي كانت تحجُّ إلى مكة[١]. ويبدو أنه كان لأولئك الفقهاء كلامٌ جيِّدٌ، مأثورٌ، حَفِظَتْه العربُ عنهم، كقول أحدهم: من سَرَّهُ النَّسَاءُ، ولا نَسَاء، فلْيُخفِّفِ الرداء، ولْيُبَاكِرِ الغَدَاء، ولْيُقِلَّ غِشْيانَ النِسَاء[٢]. . . أي مَن سَرَّهُ طُولُ العُمُرِ، والبَقَاءُ[٣]، فَلْيَفْعَلْ ذلك، مع أنه لا بقاءَ لأحَدٍ.

ويبدو أن «مالِكَ بنَ كنانة»[٤] أخذ علمَ النسيء عن بعض ملوك كندة، وهو ما يُفهم من قولٍ للأزرقي ذكر فيه أن «النُسْأَةَ كانت قبل ذلك في كندة، لأنهم كانوا ملوكَ العربِ من ربيعةٍ ومُضَرٍ»[٥]، وعلَّل انتقالها إلى بني كنانة، بأن مالكَ بنَ كنانة كان قد تزوَّج بامرأةٍ من بني معاوية بن ثور الكنديّ، وهو يومئذٍ في كندة[٦]. ولم أجدْ سنداً لهذا القول سوى ما ذكره ابنُ منظور في روايةٍ عن ابن عباس قال فيها: «كانت النُسْأَةُ في كندة»، والنُسْأَةُ بالضمِّ وسكون السين: النسيءُ الذي ذكرهُ الله في كتابه من تأخير الشهور[٧]. . . وكيفما كان الأمرُ، فإني أعتقدُ أن رئيسَ خُزَاعَة، لمّا شرعَ في تنظيم شؤون العرب بمكة، عَهِدَ بالإفتاء والنسيءِ إلى مالك بن كنانة، فكان هذا أوَّلَ

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٥٠١.
(٢) لسان العرب: ١/ ١٦٦ ـ ١٦٧ (نسأ).
(٣) تاج العروس: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ (نسأ).
(٤) مالك بن كنانة: ذكر ابن حزم في جمهرة الأنساب (ص: ١١) أن اسمه «مَلْكُ بنُ كنانة» بإسكان اللام، وأنه ليس في العرب مَلْكٌ غيرُه، ولكن مُصحِّح الكتاب جعله، «مالك بن كنانة» في الصفحات (١٨٨، ١٨٩، ٤٦٥، ٤٩٤)، وحذا حذوه سائرُ الموارد، فأثبتناه كما اشتُهر.
(٥) أخبار مكة: ١/ ١٨٣.
(٦) المرجع نفسه: ١/ ١٨٢.
(٧) لسان العرب: ١/ ١٦٧.

جدولٌ بأسماءِ النَّسَأَة من بني مالك بن كنانة بن خزيمة مُقارَنٌ، لتقدير أزمانهم، بأسماءِ ملوك بني كنده[1]، وأسماءِ بني النضر بن كنانة

القرن		بنو مالك بن كنانة	بنو النضر بن كنانة		ملوك كندة
١٠٠ القرن الثاني	١	كنانة بن خزيمة		١	معاوية بن ثور (كندة)
	٢	مالك (أول النسأة)	النضر (قريش)	٢	مُرَتِّع (قيل إنه أول ملوكهم).
	٣	الحارث	مالك	٣	ثور (كندة)
٢٠٠ القرن الثالث	٤	ثعلبة	فهر	٤	معاوية
	٥	سُرَيْر — عامر	غالب	٥	الحارث الأكبر
	٦	عدي	لُؤَيّ	٦	معاوية
٣٠٠ القرن الرابع	٧	فُقَيم	كعب	٧	الحارث الأصغر
	٨	عبد	مُرّة	٨	معاوية
	٩	حذيفة	كلاب	٩	عمرو
٤٠٠ القرن الخامس	١٠	قَلَع	قُصَيّ (ت ٤٨٠)	١٠	حجر آكل المرار (ت ٤٤٥)
	١١	عبّاد	عبد مناف (ت ٤٩٠)	١١	عمرو (ت ٤٨٥)
	١٢	قَلَع	هاشم (ت ٤٩٥)	١٢	الحارث المقصور (ت ٥٣١)
٥٠٠ القرن السادس	١٣	أُميّة	عبد المطلب (ت ٥٧٨)	١٣	حجر بن الحارث (ت ٥٥٠)
	١٤	عوف (ت ٥٩٢)	عبد الله (ت ٥٧١)	١٤	امرؤ القيس (٤٩٧ ـ ٥٦٠)
٦٠٠	١٥	جُنادة (٥٥٠ ـ ٦٢٥) (آخر النسأة)		١٥	

(١) المراجع: المفصَّل: ٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠، والعرب قبل الإسلام: ٢٩١، وموسوعة الأعلام: ٢/ ١١، وجمهرة أنساب العرب، وغيرها...

القَلامِسَة أو النَّسَأة في ذلك العصر، ثم انتقل الأمرُ بعدَهُ في بَنِيهِ. وهو ما يُفهم من قول القلقشَنْدي: أوَّلُ من نَسَأَ النَّسيءَ. . . عمرو بنُ لُحَيّ، أبو خزاعة[1].

ويختلفُ أهلُ الأخبار في عدد القَلامِسَة من بني مالك بن كنانة، وفيمن كان أوَّلَهم، وهو اختلافٌ نشَأ من طول العهد بين إبطال النسيء سنة (٦٣١ م)، والعودةِ إلى ذِكْرِ أخباره بعد قرنٍ ونصفٍ على الأقل. غير أن الأزرقي أكَّد أن «أوَّلَ من نَسَأَ الشهورَ من مُضَرٍ هو مالكُ بن كنانة. . . ثم نَسَأَ ثعلبةُ بنُ مالك، وبعدهُ الحارثُ بن مالك»، وسمَّاهُ القَلَمَّسَ، ثم عَدَّد النَسَأةَ في اضطراب واضح، ليس هنا موضع تفصيله[2]. وذكر الزُبيريُّ أن سُرَيْر بن ثعلبة بن مالك هو أولُ من نسأ الشهور، لكنه لم يُعْقِبُ ولداً، فانتقل من بعده إلى ابن أخيهِ، وهو عَدِيٌّ بن عامر بن ثعلبة، ثم صارت في ولده من بعده[3]. وهو ما ذهب إليه ابنُ حزم أيضاً[4]، ولكنه ذكر في موضع آخر من كتابه، أن أولَ النَسأة هو القَلَمَّسُ حُذَيْفة بن عبد بن فُقَيم[5]. أما اليعقوبي فقال: «وكان سُرَيرٌ أولَ من نسأ الشهور. . .»[6]، ولكنه ذكر في موضعٍ آخَر أن أولَ النسَأة: حذيفة بن عبد بن فُقَيْم بن عدي بن عامر، وهو الذي يُسمَّى القَلَمَّس[7]، ثم قرَّر في موضعٍ لاحقٍ أن بني القَلَمَّس بن كنانة كانوا ينسؤون

---

(١) صبح الأعشى: ١/ ٤٩٦.

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٢، ١٨٣.

(٣) المفصَّل: ٨/ ٤٩٩.

(٤) جمهورة أنساب العرب: ١٨٩.

(٥) المرجع نفسه: ٤٩٤.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٧.

(٧) المرجع نفسه: ١/ ٢٣٢.

الشهور، ويُحِلُّونَ، ويُحرِّمون[1]، مُعْترفاً بأن مالك بن كنانة كان القَلَمَّسَ الأول، وأن النسيءَ صار بعدهُ في بنيه. وفي إحدى الروايات التي نقلها الزَّبيديُّ ذكر أن أوَّلَ النسَأة هو قَلَعُ بنُ حُذيفة بن عبد، وأن القَلَمَّسَ هو جُنَادَة بن أُميَّة، من بني فُقَيْم[2]. ونقل في روايةٍ أخرى أن نَسَأَةَ الشهور يُقال لهم القَلامِسُ، واحدُهم قَلَمَّسٌ، وهو الرئيسُ المُعَظَّم، وكان أوَّلَهم حُذَيْفةُ بنُ عَبْد بن فُقَيم[3]... وعلى هذا المذهب عددٌ آخَرُ من المراجع المختلفة[4]. وقد أَطْبَقَ الجميعُ على أن آخر النَسَأَة هو القَلَمَّسُ أبو ثُمامة، جُنَادَةُ بنُ عوف بن أمية، وهو الذي أبطل الإسلامُ النسيءَ على زمنه، وقيل إنه نسأ أربعين سنةً (٥٩٢ ـ ٦٣١ م)، وعاش حتى أدرك زمنَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[5].

فإذا قابلنا هذه الأقوالَ والرواياتِ، بعضَها ببعضٍ، لِنَرىٰ وُجوه التماثُل والتخالف بينها، وجعلنا أحَدَها مُكَمِّلاً للآخَر، وصحَّحنا الأغلاطَ الواقعةَ علىٰ عددٍ من الأسماء، وقَوَّمْنا العِوَجَ الذي أصاب عمودَ النسَب في بعضها، استوى لدينا ثَبتٌ بأسماءِ أربعةَ عشَرَ ناسِئاً، أو قَلَمَّساً، تعاقَبُوا على النسيء في مكة، وكان أوَّلَهم مالكُ بن كنانة، ثم خَلَفَهُ ولدُه الحارثُ بن مالك، ثم ثعلبة بن الحارث، ثم سرير بنُ ثعلبة، ثم عديُّ بن عامر بن ثعلبة، ثم فُقَيْم بنُ عديّ، ثم عبدُ بنُ فُقَيْم، ثم حُذَيْفَة بن عبد، ثم قَلَعُ بنُ حُذَيفة، ثم

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٨.

(٢) تاج العروس: ١/ ٤٥٦.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٤٥٧.

(٤) المحبَّر: ١٥٧، وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٦، والكامل: ٢/ ٤٣، والسيرة لابن هشام: ١/ ٤٤، وشرح القصائدالسبع: ٢٥٧، ومروج الذهب: ٢/ ٣٠...

(٥) تاج العروس: ١/ ٤٥٦، وأخبار مكة: ١/ ١٨٣.

عبّادُ بنُ قَلَع، ثم قَلَعُ بنُ عبّاد، ثم أميَّة بن قَلَع، ثم عوفُ بنُ أمية، ثم جُنَادة بن عوف، وهو آخِرُهم[1].

وإذا كان تقديرُ المؤرخين لزمن الشاعر امرىء القيس بن حجر الكندي نحو (٤٩٧ ـ ٥٦٠ م)، فإن زمن جَدِّه الأكبر معاوية بن كندة كان أواسطَ القرن الثاني، أي في الزمن الذي قدَّرناهُ لعصر كنانة بن خزيمة، وذلك يعني أن تقديرنا لزمن مالك بن كنانة نحو سنة (١٧٥ م) صحيحٌ، وأن زواجَهُ إلى معاوية بن كندة دليلٌ على صواب التقدير. ومن شأن هذا كله التأكيدُ على أن النسيءَ ظلَّ قائماً في العرب أكثر من أربع مئةٍ وخمسين عاماً، وأن شُهورَ العرب كانت تُثبَّتُ في مَواضِعها من الفصول الطبيعية، تَثْبيتاً لمواسم الحجِّ، والتجارة، والزراعة في مواعيدها. وكان فقهاءُ العرب ومُفْتُوهم يَتَوفَّرون على هذا الأمر، شأنُهم شأنُ أمثالهم في الأُمم الأُخرى، حيث كان ضبطُ المواقيت يومئذٍ شأناً دينيّاً، يُعَدُّ من واجبات رجال الدين[2]، وكان الذي يَتَولَّى تقديمَ الشهور، وتأخيرَها، وتعيينَ مواعيد الصيام والأعياد عند اليهود هو الرئيس الدينيّ، وكان بمنزلة رئيس القبيلة[3]، وذلك على نحو ما عرفناهُ عندَ عرب

---

(١) انظُرْ جمهرة أنساب العرب: ١١، ١٨٨، ١٨٩، ٤٦٥، ٤٩٤، وأخبار مكة: ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣، والمفصَّل: ٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠، و٨/ ٤٨٨ ـ ٥٠٢، والمحبَّر: ١٥٧، وتاج العروس: ١/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧، و١٦/ ٣٩٧، والأمالي: ١/ ٤، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٨، والسيرة لابن هشام: ١/ ٤٤، والعرب قبل الإسلام: ٢٩١، والأعلام: ٢/ ١١... ولاحظ ما وقع فيها على الأسماء مثلاً من التصحيف، كقولهم في فُقَيْم بن عَديّ: نُهم، ونُعيم بن ثعلبة، وقولهم في حذيفة: جذيمة، وغير ذلك، فضلاً عما أصاب سلسلة النسب من الاضطراب.

(٢) المفصَّل: ٦/ ٢١٥، و ٨/ ٤٣٥.

(٣) المرجع نفسه: ٨/ ٥٠٥.

الحجاز. وإذا كانت آثارُ اليمن لم تَتكَشَّفْ بعدُ عن وجود مثل هذه الظاهرة عند عرب الجنوب، فذلك لا يعني عدمَ وجودها[1].

* * *

المطلب الثاني ـ النَّسِيءُ عند المُفَسِّرين وأهل الأخبار:

قِيلَتْ في النسيء أقوالٌ كثيرةٌ مختلفةٌ، جاءت كلُّها تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ . . . ﴾[2]، وقولِ النبيِّ عليه السلامُ في حجَّة الوداع: «. . . وإن الزمان قد استَدارَ كهَيْأَتِه يومَ خَلَقَ اللَّهُ السمواتِ والأرضَ، وإن عِدَّةَ الشهور عند الله إثْنَا عَشَرَ شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ مُتَوالِيَةٌ، وواحدٌ فَرْدٌ: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّمُ، ورَجَبٌ الذي بين جُمَادَى وشعبان»[3]. وتلك الأقوالُ أوْسَعُ من أن تُبْسَطَ في هذا المقام الضيِّق، ولكنْ يمكنُ رَدُّها جميعاً إلى ثلاثة مذاهب، أوَّلُها جَعَلَ النسيءَ تأخيراً لحُرْمَةِ شهر المحرَّم (صَفَر الأول)، والثاني عَدَّهُ تأخيراً لموسم الحجِّ عن وقته من شهر ذي الحجَّة طلباً لتثبيته، والثالثُ أكَّد أنه كَبْسٌ صحيحٌ بالسنة القمريّة لإلحاقها بالسنة الشمسية.

(١) ـ المذهب الأول:

وهو مذهبُ القائلين بأن النسيءَ تأخيرُ حُرْمَةِ المحرَّم (صفر الأول) إلى

---

(١) المفصَّل: ٨/ ٤٣٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(٣) السيرة لابن هشام: ٢/ ٦٠٤، والسيرة النبوية: ٣٩٢، والبداية والنهاية: ٥/ ١٧٩.

شهر صَفَرِ الآخِرِ في سنة، ثم إعادتها إلى المحرَّم في السنة التالية، وقد اتفقوا جميعاً على هذا، ولكنهم اختلفوا في العِلَّة، أو أَمْسكَ بعضُهم عن ذِكْرِها... ويبدو أن ابن إسحاق كان أقْدَمَ من تحدَّث عن النسيءِ في الجاهلية، فقال:

١ ـ «وكانت العربُ إذا فَرَغَتْ من حجِّها، اجتمعت إلى الناسِيءِ، فحرَّمَ الأشهُرَ الأربعةَ: رجَباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرَّمَ، فإذا أراد أن يُحِلَّ منها شيئاً، أَحَلَّ المحرَّمَ فأَحَلُّوهُ، وحَرَّم مكانَه صَفَراً فحرَّمُوهُ، لِيُواطِئُوا عِدَّةَ الأربعة الأشهُرِ الحُرُم.

٢ ـ «فإذا أرادوا الصَّدَرَ، أي الرجوعَ من مكة، قام فيهم الناسىءُ فقال: اللهم إني قد أَحْلَلْتُ لك أَحَدَ الصَّفَرَيْن، الصَّفَرَ الأوَّلَ، ونَسَأْتُ الآخَرَ للعام المُقْبل...»[1].

ويُلاحَظُ أن ابن إسحاق لم يذكر شيئاً عن عِلَّة قيامِهم بالنسيء، وأنه أوضح، في الجزء الأول من كلامه، أن التحليل إذا وقع إنما كان يقعُ على شهر المحرَّم (صفر الأول)، فيُحَرَّمُ صَفَرٌ الآخِرُ مكانَه، ولكنه في الجزء الثاني من كلامه رَوَىٰ للناسىء قولاً لعلَّه لم يُحْسِنْ نَقْلَهُ! فإذا كان قد أَحَلَّ حُرْمَةَ صفر الأول، فما معنى قوله: ونَسَأْتُ الآخر للعام المقبل، وهو بطبعه كائنٌ في العام المقبل؟ لا شك في أن النصَّ قد أصابه نقصٌ أو تحريفٌ، فأَفْقَدَهُ معناه. والغريبُ أنه جاء بالشكل عيْنِهِ عند المسعودي[2]، وبالعبارة نفسها[3]، وكذلك

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، من ذرية عبد الله بن مسعود، مؤرخ، رحَّالة، بحَّاثة من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفي فيها سنة (٣٤٦ هـ).

(٣) مروج الذهب: ٢/ ٣٠ ـ ٣١.

عند ابن الأنباري[1]، وإن كان هذا أكثرَ تفصيلاً وأمانةً[2]. . . ذلك أن أبا علي القالي[3]، أراد الحديث عن النسيء فقال: «والمعنى فيه، على ما حدَّثني أبو بكر بنُ الأنباري، أنهم كانوا إذا صَدَرُوا عن مِنَىً، قام رجلٌ من كنانة، فقال: أنا الذي لا أُعاب، ولا يُرَدُّ لي قضاء! فيقولون: أنْسِئْنا شهراً، أي أَخِّرْ عنا حُرْمةَ المحرَّم، واجعلْها في صَفَر، وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثةُ أشهُرٍ، لا تمكنهم الإغارةُ فيها، لأن مَعَاشَهم كان من الإغارة، فيُحِلُّ لهم المحرَّمَ، ويُحرِّمُ عليهم صفَراً، فإذا كان في السنة المقبلة، حرَّم عليهم المحرَّمَ، وأحَلَّ لهم صَفَراً. . .»[4]، وقد أثبتَ ابنُ منظور هذا النصَّ كما ذكره القالي، وقال: فذلك هو الإنساءُ[5]. . .

والواقع أن ابن الأنباريّ لم يقُلْ في عِلَّة النسيء شيئاً عن حُبِّ العرب للإغارة والغزو، وكراهيتِهم لتوالي الشهور المحرَّمة، وإنما تحدَّث عن النسَأة فقال: «. . . فكانوا يُحِلُّون من الحُرُم ما شاؤوا، ويُحرِّمون من الحلال ما شاؤوا، ثم إذا أراد الناسُ الصَّدَرَ، قام الذي يلي ذلك منهم، أي الناسِىء أو القَلَمَّس من بني كنانة، فقال: اللهم إني لا أُحَابُ[6]، ولا أُعَاب، ولا مَرَدَّ لما قَضَيْتُ، اللهم إني قد أَحْلَلْتُ دماءَ المُحِلِّين من طيِّيءٍ وخَثْعَم إحْلالَ دَمِ

---

(١) سَبقتْ ترجمتُه.

(٢) شرح القصائد السبع: ٢٥٧.

(٣) أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم البغدادي. ولد في ديار بكر (٢٨٨ هـ)، وهو من ذرية مولىً لعبد الملك بن مروان. رحل إلى العراق لطلب العلم والتحصيل، فنُسِب إلى بغداد لطول مُقامه بها. زار الأندلس، فأكرمه خلفاؤها، وأقبل عليه علماؤها للاستفادة من علمه. برع في اللغة وعلوم الأدب. توفي بقرطبة (٣٥٦ هـ).

(٤) الأمالي: ١/ ٤.

(٥) لسان العرب: ١٦٧/١ (نسأ).

(٦) الحَوْبُ: الإثم، أراد أنه لا يأثم أو لا يُتَّهم بالإثم.

ظبْيٍ، فاقتلوهم حيث ثَقِفْتُموهم. اللهم إني أحْلَلْتُ أحَدَ الصَّفَريْن، الصَّفَرَ الأول، ونَسَأْتُ الآخر للعام المقبل»[1]. ثم ذكر ابنُ الأنباري أن الناسىءَ إنما أحلَّ دماءَ المُحِلِّين من قبائل طيِّىءٍ وخثعم، لأنهم كانوا لا يُحرِّمون الأشهُرَ الحُرُمَ، وأنه إنما قال أحد الصَّفَريْن لأنهم جعلوا المحرَّمَ الصَّفَرَ الأوَّلَ ليقولوا إنه حَلالٌ إذا أَحَلُّوه، فلما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في النسيء تلك الآيات، كانت الحُرُم عادتْ إلى أَصْلها[2]. ومن النظر في كلام ابن الأنباري يتبيَّنُ أن ما ذكرهُ القالي في عِلَّةِ النسيء غيرُ صحيح، فكيف يأمرُ الناسِىءُ الناسَ بقتل مَن يُحِلُّون حُرْمَةَ الشهور المحرَّمة، ثم يُحِلُّ لهم الشهرَ الحرامَ للإغارة والغزو؟

ثم وجدتُ بالبحث أن ابنَ حبيب ربما كان وراء هذه الفِكْرةِ المُزْرِيَة بالعرب، فقد أراد الحديثَ عن النسيء، فذكر أن «العرب كانوا يعيشون أحياناً من الغزو والغارة، فيَشقُّ عليهم مُوَالاةُ الأشهر الحرُم الثلاثة، فإذا أرادوا الغارة في شهر المحرَّم، جاؤوا الناسىءَ عند باب الكعبة، فسألوه أن يُؤَخِّر المحرَّم، فيَحسُبُ لهم، ثم يقول: هذا العام صفر الأول...وهو بالحساب الذي لا تدور عليه السنة.. وكانت العربُ لا تأخذُ بالأهِلَّةِ، ولا تدري ما ذاك! ثم يُؤَخِّرُ لهم المحرَّمَ، ويُقدِّمُ صفَراً، فيُحِلّ بذلك المحرَّمَ عاماً، ويُحرِّمُه عاماً»[3] انتهى كلامُ ابن حبيب...

فما هو هذا الحساب الذي لا تدور عليه السنة؟ وإذا كانت العربُ لا تأخذُ بالأهِلَّة، فذلك يعني أنها تأخذُ بمسير الشمس، وليست بحاجةٍ إلى النسيء، أمّا أن تكون لا تدري ما الأهِلَّةُ فتلك هي المصيبة، لأن ابن حبيب نزل بها إلى الجهل المُطبِق، والتخلُّفِ المُحْدِق، بعدما عجز عن فهم حقيقة النسيء!

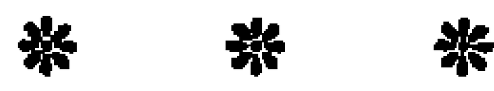
---

(١) شرح القصائد السبع: ٢٥٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٣) المحبَّر: ١٥٧.

وعَرَض الزَّبِيديُّ لموضوع النسيء، ولم يذكر في أسبابه شيئاً عن رغبة العرب في الغارة والغزو، وكراهيتهم مُوالاةَ الأشهُرِ الحُرم، وإنما ذكر أن النسيءَ الذي نهى الله تعالى عنه، شهرٌ كانت العربُ تُؤخِّرُه في الجاهلية، وأن هذا الشهر هو المحرَّم[1]، وأضاف في كلامه على الناسىء، أنه كان يقفُ عند جَمرةِ العَقَبة، أي في آخر مِنَى، ويقول: اللهم إني ناسِىءُ الشهور، وواضِعُها مَوَاضِعَها، لا أُعابُ ولا أُحاب، اللهم إني قد أحْلَلْتُ أحَدَ الصَّفَريْن، الصَّفَرَ الأوّلَ، وحَرَّمتُ الصَّفَرَ الآخِرَ[2]. وقريبٌ من هذا قولُ ابنِ كثير: «كانوا يُحِلُّونَ صَفَراً عاماً، ويُحرِّمُون المحرَّمَ عاماً، ويُحرِّمون صفَراً عاماً، ويُحِلُّون المحرَّمُ عاماً، فذلك النسيء»[3]. وذكر في تفسيره أنهم كانوا يُحلُّون المحرَّمَ ويؤخرونه إلى صَفَر، ليقضوا أوْطارَهم من قتال أعدائهم، إذ كانوا يَسْتَطيلون مُدَّةَ الأشهُرِ الثلاثة المتوالية في التحريم[4].



خلاصةُ القولِ أن تفسيرَ النَّسِيء بأنه تحليلُ شهرِ حرام، وتحريمُ شهرِ حلال، لإباحة الغزو والقتال، تفسيرٌ يبدو فيه التكلُّفُ ظاهراً[5]، لأنه إن جاز وقوعُه مرَّةً، فمن غير المعقول تكرارُهُ بانتظام مئاتِ السنين! ذلك أن شِرْعة التحريم كانت عامّةً في العرب، وعُموميَّتُها تقتضي نظاماً ثابتاً في التحريم، يلتزمُ به المقيمُ والظاعِنُ، والحاضِرُ والبادي، على السواء. فلو صحَّ أن

(١) تاج العروس: ١/٤٥٦ (نسأ).
(٢) المرجع نفسه: ١٦/٣٩٧ (قلمس).
(٣) البداية والنهاية: ٥/١٧٩.
(٤) تفسير ابن كثير؛ ٣/٣٩٨.
(٥) المفصَّل: ٨/ ٤٩٥.

الناسيءَ أَفْتَى بتأخير حُرْمَةِ المحرَّم، ليبيحَ فيه الغزوَ لبعض الناس، فمن أين لأولئك الذين لم يشهدوا فتوى الناسيء، أن يعلموا بها، لِيَحْتَرِسُوا، ويأمَنُوا المُباغَتَةَ والغدرَ، في شهرٍ يعلمون أنه زمنُ أمنٍ وسلام، فصار شهرَ قتالٍ وغَزْوٍ؟ بل من أين لمن شهدوا الموسمَ والفتوى، أن يمضوا بأمانٍ إلى بلادهم؟ ولا سيما أن الكعبة، كما ذكر الأزرقي، كانت تُكسَى في الجاهلية يومَ عاشوراء، وقد ذَهَبَ آخِرُ الحاجّ، فكانوا يُعلِّقُون عليها حينئذٍ الأُزُرَ من الأنسجة الفاخرة[1]. . . وهو يعني أن فريقاً من الحاجّ كانوا يَظَلُّون بمكة حتى مَطْلع المحرَّم، وهم مُطمئنُّون إلى سلامتهم في حِمَى الحرمات المقدَّسة، فإذا بهم بعد الفتوى باتُوا مُهدَّدِينَ في أنفسُهم وأموالهم، فهل كان من مصلحة قريشٍ وكنانة وثقيف وهَوَازِن، وسائرِ قبائل الحجاز ونجد وتهامة، وهم أكثرُ العربِ فائدةً من مواسم الأسواق والحجّ والعُمْرة، أن يَهِيجُوا الآمنين، ويُنَفِّرُوهم من شُهود مواسمهم، وهي سُبُلُ أرزاقهم، وعُمُدُ حياتهم؟ وفوق ذلك، كان هنالك موسمان ينعقدان في العاشر من شهر المحرَّم، الأوَّلُ موسمُ سوق اليمامة، وهو من المواسم الكبرى في نَجْدٍ، وكانوا يَعُدُّونَهُ كسوق عكاظ في تعدُّدِ أغراضه، والثاني موسمُ سوق نطاةٍ في خيبر، فهل كان من مصلحة التجار في الحجاز ونجد وتهامة والعَروض أن تُرْفَع الحُرْمَةُ عن شهر المحرَّم، عَبثاً ولَعِباً، وقد كان لهم فيها طمأنينةٌ وأَمَانٌ؟

ويُعَدُّ قولُ الزَّبيدِيّ بأن الناسِيءَ كان يُحِلُّ صفَر الأوَّلَ، ويُحرِّم مكانَهُ صفَر الآخِرَ، كقول من زَعَم بأن النسيءَ هو تأخيرُ صفَر الأول بحُرْمته إلى مكان صفر الآخِر، وتقديمُ هذا إلى موضع ذاك، وكأنه كان إجازةً للناس بالغزو والقتال، وهو غيرُ صحيح قطعاً، لأنَ شِرْعةَ التحريم نظامٌ دينيٌّ عامٌّ،

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

تتعلَّقُ به مصالحُ جميع القبائل في بلاد العرب، ولا يملِكُ فردٌ، أو جماعةٌ من ذوي الأَهْواءِ، أن يَعْبَثُوا به! وإنِ اتَّفَق لأحَدٍ أن يَعْبَثَ به في سنةٍ، فمن غير المعقول أن يستمرَّ العَبَثُ حتى يصِيرَ قاعدةً، وإلا فإن مواسم الحجِّ والعبادة، وكذلك مواسم الأسواق الكبرى، تُمْسِي كلُّها بلا معنى، وتفقدُ عاملاً كبيراً، ربما كان له الأثَرُ الفَعَّالُ في استمرارها مئات السنين، وإقْبَالِ الناس عليها من مختلف البِقَاع والأصْقَاعِ. . .

وإذا نظرنا في تعريف ابن كثير للنسيء، لم نجدْ فيه غَنَاءً! فما معنى أنهم يُحِلُّون صَفَراً عامَاً، وهو في الأصل حلالٌ، ويُحرِّمون المحرَّمَ عاماً، وهو في الأصل حرام؟ فكأنه قال إنهم لم يفعلوا شيئاً. . . وكذلك قولُه يُحرِّمون صَفَراً عاماً، ويُحِلُّون المحرَّمَ عاماً، لأنهم إذا حَرَّموا صَفَراً، أحَلُّوا المحرَّمَ في العام نفسِهِ، وليس في عامَيْن! وذلك يعني أنه لم يُقَدِّمْ شيئاً في تعريف النَّسِيءِ، أو أن النصَّ أصابه تصحيفٌ، فالرجلُ عالمٌ مُحقِّق، ولا أظنُّه يقولُ مثل هذا القول! ولكنه في كتابه «تفسير القرآن» ذكر صراحةً أن إحْلال المحرَّم وتأخيرَه إلى صَفَر إنما كان لإباحة القتال، وأنهم لمَّا كانوا يُحِلُّون شهرَ المحرَّم عاماً، كانوا يُحرِّمون عِوَضَهُ صَفَراً[1].

* * *

* تَعْقِيبٌ:

الرأيُ عندي في هذا المذهب، أن القائلين به كانوا يملكون شيئاً من حقيقة النسيء، ولكنهم لمّا أرادوا نقلَهُ إلينا، هَمُّوا بشرحه، فاصْطَنَعُوا له مَعَانِيَ وتَفاسِيرَ، حتى أَخرجُوهُ عن حقيقته، فأتْعَبُوا أنفُسَهم، وأتْعَبُونا معهم،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

ولا شك أن في أقوال بعضِهم، بعضَ عناصر الحقيقة، كقولهم: إن النَّسِيءَ شهرٌ كانت العربُ تؤخِّرُهُ في الجاهلية، فنهى اللَّهُ عنه، وإطْباقِهم على أن هذا الشهر هو المحرَّمُ (صفَر الأوَّلُ). وإنما نَهىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عنه، لأنهم كانوا إذا أخَّروهُ وَضَعُوا الحُرمةَ عنه، وقالوا: هو صَفَرٌ الأوَّلُ، فإذا كانت السنة التالية، عاد إلى مَوضعه من الحُرمة والزمن، وقالوا: هو شهرُ المحرَّم.

أمَّا قولُهم بأن الناسىءَ كان يُعلنُ في الناس أنه أحَلَّ صَفَراً الأوَّل، وأنْسَأَ الآخِرَ للعام المقبل، فلا يَصحُّ منه، كما قلتُ سابقاً، غيرُ العِبَارة الأولى، وهي إحْلالُه شهرَ صفَرِ الأول، وهو في الأصل مُحرَّمٌ، وأمَّا إنْسَاؤهُ صَفَراً الآخِرَ للعام المُقْبل فغيرُ صحيح، لأنه كائنٌ أصلاً في العام المقبل، والعبارةُ بذلك لا تعني شيئاً، وربما أصابها تحريفٌ نَقَصَ عنصراً من عناصر الحقيقة! فمضَيْتُ أبحثُ عنه لعلِّي أقعُ عليه، فوجدتُ الأزرقيَّ نقل عِبَارةً عن النَّسَأة، هي أقربُ إلى العقل والصواب، وإن كان تكلَّفَ في تفسيرها فوق ما في وُسْعِهِ، فأبْعَدَها عن غَرَضِها. فقد ذكر أن أهل الجاهلية كانوا يُسَمُّون المحرَّمَ صَفَراً الأوَّل، وصَفَراً صَفَراً الآخِر، وكان الناسِىءُ يفعلُ النسيءَ سنةً، ويتركُهُ سنةً، فإذا كانت السنة التي يريدُ الإنْسَاءَ فيها، قام في الناس، يومَ الصَّدَرِ بفنَاءِ الكعبة، فقال: «أيها الناسُ إني قد أنْسَأتُ العامَ صَفَراً الأوَّلَ» يعني المحرَّمَ. وفي السنة الثانية، يخطبُهم فيَحُضُّهم على تعظيم حُرُماتهم وشعائرهم، ويأمرُهم بقتال الذين يُحِلُّون الحرمات، ويُعلنُ عودةَ الحُرمَةِ إلى صفَرِ الأوَّلِ في ذلك العام. ثم حاول الأزرقيُّ شرحَ هذا، وكانت الحقيقةُ بين يديه يراها ولكنه لا يفهمُها، فذهب إلى أن العرب كانوا، حينما يُعلنُ الناسىءُ تأخيرَ صَفَرِ الأول، يَطْرحونَهُ من الشهور، ولا يعتدُّون به، ويبتدئون العِدَّةَ من صَفَر الآخِر على أنه صَفَرٌ الأولُ، وربيع الأوَّل على أنه صَفَرٌ الآخِر، وهكذا[1]... ولو

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

أنه تفكَّر في الأمر لوَجَدَ المعنى الصحيح قريباً جدّاً، ليس فيه طَرْحٌ، ولا نقصٌ، ولا تغييرُ أسماءٍ، وكلُّ ما هنالك أن الناسىءَ، بإعلانهِ تأخيرَ صفرِ الأول، أخَّر ابتداءَ العام المُقبل، بكل شهوره على ترتيبها وأسمائها، شهراً، كَبَسَهُ بالسنة المنقَضِيَة، فكأنها ابتدأت من الشهر الثاني في السنة: صَفَر الآخِر.

وهكذا يكون واضحاً، أن الناسىءَ، كان حينما يريدُ الإنْسَاءَ، يُعلنُ في الناس تأخيرَ شهرِ صَفَرِ الأول المحرَّم، وإحْلالَهُ، وليس، كما نُقِل عن ابن إسحاق وغيرِهِ، إحْلالَهُ وتأخيرَ صَفَرِ الآخِر. . . فالنسيءُ، كما هو مُقْتَضَى الآية الكريمة، وكما ثبت لدينا، شهرٌ كانت العربُ تُؤَخِّرهُ في الجاهلية، وهو شهرُ صَفَرِ الأوَّلُ المحرَّمُ، فكانت إذا أخَّرَتْه سنةً أَحَلَّتْهُ، ثم عادت في السنة التالية فحرَّمَتْهُ. ولم يكن هذا يجري عَبَثاً ولهواً، بل من أجل تثبيت موسم الحجِّ، والمواسم الأُخرى في أوقاتها، بالموافقة بين السنتين القمرية والشمسية. ذلك أن تأخير صَفَر الأول، وهو رأسُ السنة عند العرب، لا يعني تأخيرَ حُرْمته إلى صفر الآخِر، أو جَعْلَه في مكانِهِ، بل يعني تأخيرَ ابتداءِ العام المُقْبِل كله شهراً، وهو جُملةُ الأيام التي تقدَّمَتْ بها السنةُ القمريةُ على السنة الشمسية، في السنتين أو الثلاث المُنْقَضِيَة. على أن الشهور في العام المقبل تظلُّ، كما هو مرسومٌ لها، من حيث الأسماءُ والترتيب والتوالي، لا يتغيَّرُ فيها شيءٌ، إلا اسمَ صفَرِ الأول المحرَّم، فإنه إذ ذاك يصيرُ صفراً الأوَّلَ، من غير تحريم. ويُحرَّمُ مكانَه شهرُ التأخير، الذي تُكبَسُ به السنةُ المُنْقَضِيةُ، فيأتي وراء ذي الحجَّة وقبل صفَر الأول، وتصيرُ به تلك السنةُ ثلاثةَ عَشَرَ شهراً، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1]، أي لا يجوز أن تكون أكثر من ذلك،

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

ولا أقَلَّ. ويبدو لي أنهم كانوا يُسَمُّون الشهرَ الثالثَ عَشَر في السنة الكبيسة إسمَ شهر المحرَّم، وهو ما جعل البعض يتوهَّمُ أنهم كانوا يُقَدِّمون المحرَّم تارةً، ويؤخِّرونه تارةً، أو يُبدِّلون مكانَ صفر الأول، ولذلك جعل الله تعالى النسيءَ زيادةً في الكفر، لأن النَسَأة كانوا يحلُّون ما حرَّم الله، وهو شهر صفر الأول المحرَّم، ويُحرِّمونَ مكانَه الشهرَ المكبوسَ وهو في الأصل حلال، ليُواطِئوا عِدَّةَ الشهور التي حرَّمها الله، ويجعلون السنةَ ثلاثةَ عَشَرَ شهراً وقتَ النسيء، وإنما هي إثنا عشر شهراً في كتاب الله. ولعلَّ فيما قدَّمتُه الجلاءَ الوافي بكل ذلك المذهب...

* * *

(٢) - المذهب الثاني:

وهو مذهبُ من قالوا بأن النسيءَ تأخيرٌ لموسم الحج، والعِلَّةُ فيه، كما ذكرها الزبيدي في روايةٍ عن ابن كنَاسَة، أن العرب كانوا يُحبُّون أن يكون يومُ صَدَرِهم عن الحج، أي رُجوعهم منه، في وقتٍ واحدٍ من السنة، أي سنة الشمس، فكانوا يطلبون من النسَأةِ تأخيرَهُ، فيؤَخِّرونه في كل سنة أحَدَ عَشَرَ يوماً، وهو مقدارُ الفرق بين سنة القمر وسنة الشمس، ويفعلون كذلك في أيام السنة كلِّها، وكانوا يُحرِّمون الشهرين اللذَيْنِ يقعُ فيهما الحجُّ والشهرَ الذي بعدَهما، ليُواطِئوا في النسيء عِدَّةَ ما حرَّم الله، وكانوا يُحرِّمون رجَباً كيف وقع الأمرُ فيكون في السنة أربعةُ أشهُرٍ حُرُم[1].

ويُلاحَظُ في هذه الرواية أن الصوابَ فيها عبارةٌ واحدةٌ، هي رغبةُ الناس أن يكون موسمُ حجّهم ثابتاً، لا يدور في الأزمنة، أما الكلامُ الآخَرُ

---

(١) تاج العروس: ١/٤٥٦ ـ ٤٥٧.

فغيرُ صحيح، لأن التأخير الذي نهَىٰ اللَّهُ تعالى عنه شهرٌ واحدٌ مُحرَّمٌ، كانوا يُحِلُّونَه عاماً، ويُحَرِّمُونَه عاماً، ولا يفعلونه كلَّ عام، وفي كل الشهور.

ومثلُ هذا، ما ذكرهُ القلقشنديُّ من أن العرب كانوا يُؤَخِّرون الحجَّ في كلِّ عام أَحَدَ عَشَرَ يوماً، حتى يَدُورَ الدَّوْرُ إلى ثلاثٍ وثلاثين سنة، فيعود إلى وقته. فلما كانت سنةُ عَشْرٍ من الهجرة، عاد الحجُّ إلى وقته اتفاقاً في ذي الحجَّة، فأقام الرسولُ عليه السلامُ فيه الحجَّ، وكانت حجَّتُه تلك حجَّةَ الوداع، التي قال فيها: «إن الزمان قد استدار كَهيْأته يوم خلق اللَّهُ السموات والأرضَ»، بمعنى أن الحجَّ عاد في ذي الحجة[1]. لكنَّ ابن كثير ردَّ هذا التفسير، وقال: إن المعنى «أنَّ الأمر في عِدَّة الشهور، وتحريم ما هو مُحرَّمٌ منها، هو على ما سبق في كتاب الله من العَدَد والتوالي، لا على ما يقومُ به بعضُ جَهَلةِ العرب، من فَصْلهم تحريمَ بعضِها بالنسيءِ عن بعض»[2]، وكان ابنُ كثير، كما ذكرت من قبلُ، من القائلين بأن النسيءَ تأخيرٌ لحُرمة المحرَّم (صفر الأول) إلى صَفَر الآخِر، قضاءً للأَوْطارِ من قتال الأعداء. وقد فَنَّدْتُ هذا المذهبَ في تعليل النسيء، وأظهرتُ تَهافُتَهُ في كلامي على أقوال أصحابه. ومع ذلك، فإن ابن كثير عَرَضَ للقائلين بأن حجَّة الوداع وقعت اتفاقاً في ذي الحجَّة، وأن العرب كانوا يحجُّون في أكثر السنين في غير ذي الحجَّة، وأن حجَّة الصِدِّيق سنة تسْعٍ كانت في ذي القعدة[3]، كما عَرَضَ أيضاً للقائلين بأن العرب كانوا يحجُّونَ في كل شهرٍ عامَيْن، وأن حجَّة أبي بكر وافقت الآخِرَ من العامَيْن في ذي القعدة[4]، فقال: «وكيف تصحُّ حجَّةُ

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٢٥.
(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٠٠.
(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.
(٤) المرجع نفسه: ٣/ ٣٩٩.

أبي بكر وقد وقعتْ في ذي القعدة؟ وأنّىٰ هذا وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1]، وإنما نُودِيَ به في حجَّة أبي بكر؟ فلو لم تكن في ذي الحجَّة، لما قال تعالى: يومَ الحجِّ الأكبر»، ثم أضاف أنه لا يَلْزمُ من فِعْلِهم النسيءَ ما ذكره أولئك من دَوَرانِ السنة عليهم، وحَجِّهم في كل شهرٍ عامَيْن، فإن النسيءَ حاصلٌ بدون هذا، لأنهم لمّا كانوا يُحِلُّون شهر المحرَّم عاماً يُحرِّمون عِوَضَه صفراً، وتبقى الشهور بحالها، على نظامها، وعِدَّتِها، وأسمائها، لا يَتَغيَّرُ منها شيءٌ[2]. ويُفهم من جُملة ما قاله ابنُ كثير في هذا الأمر، أن النسيءَ الذي نَهىٰ اللَّهُ عنه، هو التلاعُبُ بحُرْمَةِ شهر المحرَّم (صفر الأول)، تأخيراً، أو تقديماً لا غير.

وكان الأزرقيُّ كذلك من القائلين بأن العرب كانوا يحجُّون في كل شهرٍ عامَيْن، حتى يَسْتَديرَ الحجُّ في كل أربع وعشرين سنةً إلى الشهر الذي بدأ فيه الإنساءُ[3]. . . وقوله هذا نشأ عن غلطه في فهم النسيء، إذ حسبه نَقْصاً من السنة، لا تأخيراً لها! والعربُ كانوا يشتكون قِصَرَ السنة القمرية، فجعلهم يطرحون منها فوق ما بها من القِصَر شهراً، ويتقلَّبُون في أسماء الشهور، وترتيبها، وتواليها، ظنّاً منه أن ذلك هو تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شهراً ﴾.

* * *

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣) ـ المذهبُ الثالث:

وهو مذهبُ من قالوا بأن النسيءَ كان كَبْساً، غايتُه الموافقةُ بين السنتين القمريّة والشمسية، لتّثبيت المواسم في مواعيدها من الأزمنة الطبيعية.

والواقع أن المسعوديَّ أشار إلى الكبْسِ، فقال: «وقد كانت العربُ في الجاهلية تكبسُ في كل ثلاثِ سنينِ شهراً، وتُسَمِّيه النسيءَ، وهو التأخير. .»[1]، وقال أبو الفداء: إنهم «كانوا يكبسون في كل ثلاثة أعوام شهراً»[2]، وذكر القلقشنديُّ أن العرب أرادت أن يكون حجُّها في أخْصَبِ وقتٍ من السنة، وأَسْهَلِ زمانٍ للتردُّد بالتجارة، فتعلَّموا الكبْسَ من اليهود[3]. . . وكان «أبو الريحان البيروني»[4]، عَرَض لموضوع النسيء بالتفصيل، فذكر أن موسم الحجِّ كان يدور في الجاهلية، فأحبَّ العربُ وقتئذٍ أن يحجُّوا في وقت إدراك سِلَعِهم من الأَدَم والجُلود والثمار وغير ذلك، وأن يَثْبُتَ ذلك على حالةٍ واحدةٍ، وفي أطيبِ الأزمنة، وأخْصَبِها، فتعلَّمُوا الكبْسَ من اليهود المجاورين لهم في يثرب، وذلك قبل تاريخ الهجرة بنحو مِئَتَيْ سنة، فأخذوا يعملون بها ما يُشَاكِلُ فِعْلَ اليهود، من إلْحاقِ فَضْلِ ما بين سَنَتِهم وسنةِ الشمس، شهراً بشهورها إذا تمَّ، ويُسَمُّون هذا من فِعْلهم: النسيءَ، لأنهم كانوا يَنْسَؤُون أوَّلَ السنة في كل سنتين أو ثلاثِ شهراً، على حسب ما يستحِقُّهُ التقدُّم[5].

---

(١) مروج الذهب: ٢/١٨٨.

(٢) المختصر في تاريخ البشر: ١/٩٩.

(٣) صبح الأعشى: ٢/٤٢٥.

(٤) أبو الريحان البيروني: محمد بن أحمد (٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ = ٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م)، عالم ومُصَنِّفٌ عربيٌّ من خوارزم. درس الرياضيات، والفلك، والطب، والتقاويم، وعلوم الهند واليونان وبرع فيها، من مُؤلَّفاته: الآثار الباقية عن القرون الخالية، نَشَرهُ المستشرقُ الألماني: كارل إدْوَرْد سَخَاوْ (١٨٤٥ ـ ١٩٣٠ م).

(٥) الآثار الباقية: ١١، ١٢، ٦٢، ٣٢٥.

وكنا حقَّقْنا أن وجود النسَأة عند العرب يعودُ إلى أَواسط القرن الثاني للميلاد، وهو دليلٌ على عودة النسيء إلى أَبْعدَ ممَّا قَدَّرَهُ البيرونيُّ. والمعروف أن يهودَ يثربَ، قَدِمُوا جزيرةَ العرب، بعد تَشْتِيتهم في القرن الأول أو الثاني للميلاد، فعاشوا ما عاشوا مع العرب، من غير أن يُؤْثَرَ عنهم أيُّ أَثَرٍ مكتوبٍ، لا بلُغتهم العِبريَّة، ولا بالعربية التي تعلموها من العرب، وكانوا خُلَقَاءَ بذلك، لو صحَّ ما نَسَبهُ إليهم المستشرقون وبعضُ الباحثين، من العلم والمعرفة والارتقاء[1]. ثم إن العِبْريين لم يخترعوا الكبْسَ أو النسيء، بل نقلوهُ عن البابليين، ويذكر المؤرخون أن البابليين اعتمدوا التقويم السَّوْمريَّ الذي يجعل السنة (١٢) شهراً قمرياً، ولمّا أدركوا أنها شهور متحركة، كانوا يكبسون بعد أيلول شهراً يسمُّونه أيلول الثاني، يفعلون ذلك كلما لزِمَ التأخيرُ، وقيل إن الذي شرَّع ذلك الملك حمُّورابي. ثم اكتشف الفلكيُّ الكلداني «نابو رمَّانو» أن عدّة أيام السنة (٣٦٥) يوماً و (٦) ساعات و (١٥) دقيقة و (٤١) ثانية، وتبين بعدئذ أن هذا التقدير يزيد على عدة السنة الحقيقية (٢٦ د، و ٥٥ ث)[2]. ولم يكن العربُ في عزلةٍ، كما يحلو للبعض أن يتوهَّم، بل كانت قوافلُهم تتردَّدُ إلى العراق والشام، وكان عربُ العراق والشام يشهدون مواسمهم، ولعلهم نقلوا العلمَ بالكبس أو النسيء عن أهل الشام أو العراق. وقد رجَّح «فُرَيْحة» أن يكونوا أخذوه عن الآراميِّين[3].

وعَرَضَ «ابنُ الأجدابي»[4] أيضاً لموضوع الكبس عند العبرانيين

---

(١) مطلع النور: ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى: ٧٤، ٨٢، ١٠٢.

(٣) أسماء الأشهر: ٥٣.

(٤) ابنُ الأجدابي: أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، المتوفَّى نحو (٦٥٠ هـ). نُسِبَ إلى أَجْدابِيَة وهي ناحية قرب طرابلس الغرب. فقيه، لغويٌّ، مُصنِّفٌ ومُحقِّق جيِّد. اشتُهر بالعلم والأدب. وله مصنَّفات عِدَّةٌ، امتازت بالاختصار والدِقَّة في الجمع والتحقيق. من كتبه: الأزمنة والأنواء، حقَّقه د. عزة حسن.

واليونانيين، فقال: «وقد كانت العربُ في الجاهلية تفعلُ مثلَ هذا، وتزيدُ في كل ثالثةٍ من سِنِيها شهراً، على نحو ما ذكرناه عن العبرانيين واليونانيين، وكانوا يُسَمُّون ذلك النسيءَ. وكانت سنةُ النسيء ثلاثةَ عَشَر شهراً قمريَّةً. وكانت شهورُهم حينئذٍ غيرَ دائرةٍ في الأزمنة، كان لكلِّ شهرٍ منها زمنٌ معلومٌ لا يَعْدُوهُ. فهذا كان فِعْلَ الجاهلية حينَ أَحْدَثُوا النسيءَ، وعملوا به...»، فلما حَرُمَ العملُ به صارت شهورُ العربِ دائرةً في الأزمنة الأربعة[1].

ومن الواضح أن النسيءَ الذي ذكرهُ البيرونيُّ وابنُ الأجدابي، وأشار إليه الآخَرون، هو كبْسٌ صحيح، أَخَذَ به العربُ ليَسْتَويَ لهم حسابُ القمر مع حساب الشمس، وليس مجرَّدَ تأخير حُرمةٍ أو شهرٍ على نحو ما رأينا[2]. وكانوا يفعلونه كلَّ سنتين، أو ثلاثٍ، على حسب ما يستحِقُّهُ التقدُّم، فيكبِسُون شهراً بآخر السنة سبعَ مراتٍ، في دَوْرٍ مُدَّتُه تسعةَ عَشَر عاماً، وذلك في السنة الثالثة منه، ثم السادسة، ثم الثامنة، ثم الحادية عشرة، ثم الرابعة عشرة، ثم السابعة عشرة، ثم التاسعة عشرة وهي آخِرُ الدَّوْر، ثم يتبدئون دَوْراً جديداً[3]...

ويقال إن مُكْتشفَ هذا النظام في النسيء، هو العالم الفلكيُّ اليونانيُّ «METON» الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد وجد أن كلَّ (٢٣٥) شهراً قمريّاً تُساوي عِدَّةُ أيامها عِدَّةَ أيام (١٩) سنة شمسية[4]... وأن

---

(١) الأزمنة والأنواء: ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) المفصَّل: ٨/ ٤٩١.

(٣) الأزمنة والأنواء: ٣١.

(٤) موريس بوكاي ـ التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: ١٤٦، (منشورات دار الكندي ـ بيروت ١٩٧٨ م).

القمر يظهرُ مُجدَّداً، عند ابتداءِ دَوْرٍ جديدٍ من (١٩) سنةٍ أخرى، في الوقت نفسه الذي ظهر فيه عند ابتداءِ الدَّوْرَة المُنْقَضِيَة[1]، أي أن أوَّلَ يومٍ في السنة الأولى من الدَّوْر الجديد، هو أوَّلُ يومٍ في شهرٍ قمريّ جديد، يُرَىٰ فيه الهلالُ حيث رُئِيَ عند ابتداءِ السنةِ الأولى من الدَّوْرِ السابق[2]... وهذا هو في اعتقادي معنى قَوْل رسول الله: «إن الزمان قد اسْتَدار كهَيْأَتِهِ يوم خلق الله السماواتِ والأرضَ...»، فكأنه أراد إلغاءَ حسابِ القمر، وما يُلازِمُه من النسيء، وزيادةٍ في عِدَّةِ شُهورِ السنة، وتلاعُبٍ بالحُرمات، والاسْتِعَاضةَ عنه بالدَّوْرةِ الزمنيَّةِ الثابتة في الكَوْن، المقسَّمةِ إلى إِثْنَيْ عَشَرَ شهراً، لا تزيدُ ولا تنقص، لأنها قائمةٌ في أصل الخِلْقَة على قانونٍ ثابتٍ في كتاب الله! فالاستدارةُ هنا الاسْتِواءُ، اسْتِواءُ حسابَيْ الشمس والقمر تلك السنة، في مُطابقةٍ تامَّةٍ، وليست دَوَرانَ القمرِ في كل الفصول، حتى عاد في اعتقاد البعض إلى موضعه، بعد ثلاثٍ وثلاثين سنةً قمريَّةً، زعموا أنها تُساوي اثنتين وثلاثين سنةً شمسيّةً، وإنما هي في الحقيقة تزيدُ عليها بضعةَ أيام[3]، ولا تُحقِّق بالتالي معنى المطابقة التامّة بين إهلالِ الشهر القمري وابتداء السنة الشمسية في اليوم نفسه، كما تفعلُ دورةُ النسيء التي تقعُ في تسعةَ عشَر عاماً

---

(١) موسوعة كومپتونز: ٩/ ٦٢٧ (M).

(٢) العصور القديمة: ٣٦٦، (وذكر پرسْتِد أن كَبْسَ اليونان، قبل ميتون، كان يعتمد دوراً من ثماني سنين، يكبسون فيها شهراً ثلاث مرات، في السنة الثالثة، ثم الخامسة، ثم الثامنة...)، ذلك أن عِدَّة ثماني سنين شمسية تساوي (٢٩٢٢) يوماً، وعِدَّةَ أيام ثماني سنين قمرية (٢٨٣٤,٩٥) يوماً، يضاف إليها عددُ أيام شهور الكبس الثلاثة وهي (٨٧) يوماً، فيكون المجموع (٢٩٢٢) يوماً، وهكذا يعود إلى الموافقة الأولُ من سنتيْ الشمس والقمر في أول السنة التاسعة، على التقريب.

(٣) إن (٣٣) سنة قمرية تُساوي (١١٦٩٤) يوماً، و (٣٢) سنة شمسية تساوي (١١٦٨٧,٧٥) يوماً، أي بفارق ستة أيام بين الحسابين.

شمسياً[١]. وإذا لاحظنا أن المرَّة السابعةَ في هذه الدَّوْرة هي الأخيرةُ، وأن النسيءَ يكون فيها بانْصِرام سنتين على المرَّة السادسة، وليس ثلاثاً كما في أكثر المرَّات، وجدنا أن ذلك يتَّفِقُ مع ما ذَكَرتْهُ آيةُ النسيء في القرآن الكريم، من أنهم كانوا يُحِلُّونَه عاماً ويُحرِّمونه عاماً، كما يتَّفق مع ما قاله الرسولُ عليه السلام عن استدارة الزمان كهَيْأته الأُولى، يوم خلق اللَّهُ السماوات والأرض، وذلك يوم خطبَ الناسَ في حجَّة الوداع سنة عَشْرٍ للهجرة. وهو ما يميلُ بنا إلى الاعتقاد بأن حجَّةَ الوداع كانت في السنة الأُولى من دَوْرٍ جديدٍ آخَر من أدْوار النسيء، وقد أَهَلَّ فيها قمرُ المحرَّم (صفر الأول) في الأول من تشرين الأول، وكانت سنةُ تِسْع السنةَ الأخيرة في دَوْرِ النسيء السابق، وفي تلك السنة أُبْلِغَ إلى الناس نزولُ القرآنِ بتحريم النسيء وإبْطالِ العملِ به، وكانت آخِرَ سنةٍ حجَّ فيها المشركون إلى الكعبة[٢].

ومن شأن ذلك كله أن يحمِلَنا على القول بأن النسيءَ كان في جوهره كَبْساً صحيحاً، الغَرضُ منه إعادةُ تثبيت الشهور القمريَّة، والمواسم العامَّة، في الأزمنة الطبيعيَّة، لئلا تنتقلَ عن أوقاتها التي حُدِّدَتْ فيها من الفُصول الأربعة ولم تكن غايتُه قطعاً إباحةُ الغَزْوِ وأعمالِ الثأر، فهذا التفسير تكلَّفَهُ

(١) إن عِدَّة أيام (٢٣٥) شهراً قمرياً + (٧) أيام تُكبس أثناءها بذي الحجة تُسَاوي (٦٩٣٩) يوماً وكَسْرَ يوم. وإن عِدَّة أيام (١٩) سنة شمسية تُساوي أيضاً (٦٩٣٩) يوماً وكَسْر يوم. ويجب أن نلاحظ أن عِدَّة أيام السنة العربية القمرية هي (٣٥٤ يوماً و ١١/ ٣٠ من اليوم)، وعدَّة أيام السنة الشمسية هي (٣٦٥,٢٤٢٢) يوماً. . . وإن عِدَّة (١٩) سنة قمرية تُساوي (٦٧٣٣) يوماً، يُكبَسُ بها سبعة شهورٍ عَدَدُ أيامها (٢٠٦) فيصيرُ المجموعُ (٦٩٣٩) يوماً مُساوياً لعِدَّة (١٩) سنة شمسية.

(٢) يُلاحظ أن القول بمُسَاواة ثلاثِ مئةِ سنة شمسيَّةٍ لثلاثِ مئةٍ وتسع سنينَ قمريَّةٍ غيرُ دقيق، فعِدَّة (٣٠٠) سنة شمسية هي: (١٠٩٥٧٢ يوماً و ١٣ ساعة و ٤٠ دقيقة)، وعدَّةُ (٣٠٩) سنوات قمريّة هي: (١٠٩٤٩٩ يوماً و ٧ ساعات و ١٢ دقيقة).

المتأوِّلُون من المؤرِّخين. وما حَسِبهُ بعضُهم فَصْلاً، بالنسيء، لتوالي الشهور المحرَّمة الثلاثة، إنما كان في الحقيقة إضافةَ شهرٍ على السنة المُنْقَضِيَة، يأتي بعد ذي الحجَّة وقبل المحرَّم (صفر الأول)، وهذا يقتضي تأخيرَ ابتداءِ السنةِ المُقْبلةِ شهراً. ولمَّا كان صَفَرٌ الأوَّلُ المحرَّمُ أوّلَ شهور السنة، فتأخير افتتاح السنة كان من شأنه أن يفصل بينه وبين شهريْ ذي الحجة، وذي القعدة المحرَّمين، فكانوا يُحِلُّونَه، ويُحرِّمون مكانه الشهرَ الذي كَبَسُوا به السنةَ المُنْقَضِيَةَ، فكأنهم جعلوا من صَفَرِ الأول المحرَّم إسْماً لِشَهْريْن: شَهْرِ المحرَّم، وهو الشهرُ الثالثُ عَشَرَ في السنة الكبيسة، وشهرِ صَفَرِ الأوَّل، وهو الشهرُ الأوَّلُ في السنة المُقْبِلةِ، الذي كان الناسِيءُ يقولُ للناسِ فيه إذ يَنْزِعُ الحُرْمةَ عنه: هذا العامُ صَفَرٌ الأوَّلُ! فإذا انقضت السنةُ المُقْبلَةُ هذه، وهي إثنا عَشَرَ شهراً، أُعيدت إلى صَفَرِ الأوَّل حُرْمتُه في السنة التي تليها... وبذلك تظلُّ الشهورُ المحرَّمَةُ ثلاثةً مُتَواليَةً في كلا الحالين، لا يفصِلُ النسيءُ بينها، وإنما هو يحافظ على تواليها، وعلى عَدَدِها فقط، دون النظرِ إلى أعْيَانِها حين الكبسِ وتأخيرِ افتتاحِ السنة الجديدة شهراً عند الاقتضاء.

ثم نزلت آيةُ النسيء في سورة التوبة، سنةَ تسعٍ، وهي من أواخر ما نزل على النبيّ عليه السلام، وجاء فيها:

● ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**... ﴾[1].

● ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ**... ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

ثم فَسَّر نبيُّ الله، عليه الصلاة والسلامُ، هذه الآيةَ، سنةَ عَشْرٍ، في حجَّةِ الوداع، فقال:

● «ألا إن الزمان قد استدار كهيأته يومَ خَلَق اللَّهُ السماوات والأرضَ، وإن عدَّةَ الشهور عند الله إثنا عَشَر شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ مُتَواليات: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، ورَجَبٌ الذي بين جُمادَىٰ وشعبان».

ومن الواضح أن الآيةَ المذكورةَ ذَمَّتْ فِعْلَ النَّسَأَةِ لأنهم كانوا يُحلُّون شهراً حَرَّمَهُ اللَّهُ بعَيْنِهِ، ويُحرِّمون شهراً هو في الأصل حَلالٌ يُضِيفُونَه إلى السنة المُنْقَضِيَة، وذلك ليُوَافِقُوا عِدَّةَ الأشهُرِ التي حَرَّمها اللَّهُ، فجعلوا كلَّ العِبْرَةِ في التحريم وُقُوعَهُ على عَددٍ مُعيَّنٍ من الشهور، وليس على أشهُرٍ مُعيَّنةٍ بأسمائها، وأزمنتها. أي أنهم كانوا يُراعون في التحريم عددَ الأشهُر التي حرَّمها الله، دون أن يلتزموا بخُصوصيَّتِها، وزادوا على عِدَّةِ شهور السنة الكبيسة شهراً، فصارت ثلاثةَ عشَرَ، وهي في كتاب الله إثنا عشر شهراً، فهذا هو النسيءُ الذي نَهىٰ الله تعالى عنه، فحَرُمَ العملُ به وقتئذٍ، ثم تُوفي الرسولُ، عليه الصلاة والسلامُ، في السنة التالية، ولم يُعتَمَدْ بعدُ تقويمٌ بديلٌ، فصارت شهورُ العرب بعد ذلك دائرةً في الأزمنة الأربعة.

ويُعلِّق سيِّدُ قطب على هذه الآية بقوله: «. . . إن هذا النصَّ القرآنيَّ يردُّ مِعْيارَ الزمن، وتحديدَ دَوَرانِهِ إلى طبيعة الكون التي فَطَرهُ اللَّهُ عليها، وإلى أصل الخِلْقَة، خِلْقةِ السماوات والأرض، ويُشير إلى أن هناك دورةً زمنيّةً ثابتةً، مُقْسَّمةً إلى اثنيْ عَشَرَ شهراً، يُسْتَدلُّ على ثباتِها بِثَباتِ عَدَدِ الأشهُر فلا تزيدُ في دورةٍ، وتَنقصُ في دَوْرةٍ، وأن ذلك في كتاب الله، أي في نامُوسِه الذي أقام عليه نظامَ هذا الكون، فهي ثابتةٌ على نظامها، لا

تتخلَّفُ ولا تتعرَّضُ للنقص والزيادة، لأنها تَتمُّ وفق قانونٍ ثابت»[1].

ومع أن الرجُلَ أشار بوضوح إلى أن هذه الآية تعني وُجوبَ الأَخْذِ بدورة الشمس، لأنها «الدورةُ الزمنيَّةُ الثابتةُ المُقَسَّمة إلى اثنَيْ عَشَرَ شهراً لا تزيدُ ولا تنقص»، لكنه لم يُوَفَّق في فهمه طبيعةَ النسيء! فقد ذكر في كلامه على أسبابِ نُزول الآية، أن الاسْتنفارَ لِغَزْوةِ تَبُوكٍ، سنةَ تِسْعٍ، كان في رَجَبٍ، وهو من الأشهُر الحرُم، ولم يكن في تلك السنة في موعده الحقيقيّ، بل كان في موقع جُمادَى الآخرة بسبب النسيء، وكان ذو الحجة أيضاً في موقع ذي القعدة[2]!

والواقع أن تقدُّمَ رجَبٍ إلى موقع جُمادَى الآخِرة، وتقدُّمَ ذي الحجَّة إلى موقع ذي القعدة، ليس من عَمَلِ النسيء كما وَهِم الأستاذ، بل من دَوَرانِ شهور القمر في الأزمنة وعدم ثباتها، فيأتي النسيءُ بعدئذٍ لِيُؤخِّرها ويُعيدَها إلى مواقعها، تثبيتاً لها في الأزمنة الطبيعيَّة التي حُدِّثْ بها أصلاً، وإلْحاقاً لحساب القمر بحساب الشمس... وها هو اليومَ رجَبٌ وغيرُه من شهور القمر، ما يزال، منذ أُبْطلَ النسيءُ وحَرُم العملُ به، يدورُ في كل فصول السنة، ويتقدَّم عن موقعه الحقيقي كلَّ سنةٍ أَحَدَ عَشَر يوماً، وذلك لأن علَّة دورانه ليست في النسيء، بل بإبطال النسيء... فالنسيء في أصل معناهُ: التأخيرُ، ولكنه في المعنى الإصْطلاحيِّ: تأخيرُ افتتاح سنةِ القمر شهراً، كلَّ سنتينِ أو ثلاثٍ، حَسْبما يقتضيه تقدُّمَ الشهورِ القمريّة على شُهور الشمس. والعِلَّةُ في إبطال النسيء وذَمِّ فِعْلِه إنما هي أمْرانِ:

(١) في ظلال القرآن: ١٦٥١ ـ ١٦٥٢.
(٢) في ظلال القرآن: ١٦٥٠ ـ ١٦٥١.

الأول: أن عِدَّة شهور السنة، كما هي في كتاب الله، إثنا عَشَرَ شهراً، والنسيءُ يجعلها كلَّ سنتين أو ثلاثٍ ثلاثةَ عَشَرَ شهراً لمساواة سنة القمر بسنة الشمس... وهذه إشارةٌ واضحةٌ إلى وُجوب الأَخْذِ بدورة الشمس أو بدورة منازل القمر، فكِلْتاهُما ثابتةٌ لا تزيد ولا تنقص.

الثاني: أن الشهورَ المحرَّمةَ يجبُ أن تظلَّ مُحرَّمةً ثابتةً على عِدَّتِها وتواليها ومَواقِعِها وأعيانها، كما شَرَعها اللَّهُ، ولا يحقُّ لأحَدٍ أن يضَعَ عن أحَدِها حُرْمَتَهُ، ويُحرِّمَ شهراً آخَرَ غيرَهُ لمُوَاطَأَةِ عِدَّةِ ما حرَّم اللَّهُ، فيُحلُّ بذلك ما حرَّم اللَّهُ، ويُحرِّمُ ما هو في الأصل حلالٌ... وهذه إشارةٌ أُخرى إلى وُجوبِ تَثْبيتِ الشهورِ المحرَّمةِ في الأزمنة التي حُدِّدَتْ بها يومَ جرى أمرُ الله بتحريمها، ولا يمكن هذا إلا بالأخذ بدورة الشمس أو بدورة منازل القمر... ذلك أن العرب ومَن كان يذهبُ مذهبَهم كانوا يعتدُّون بمنازل القمر في معرفة الفصول وحساب السنين، بينما كانت الأُمَمُ الأخرى تعتدُّ ببُروج الشمس، وهما سواءٌ في بيانِ مواعيد الفصول الطبيعية، وعِدَّةِ أيام السنة.



وهكذا يتبيَّنُ لنا أن مَذْهبَ من قال بأن النَسِيءَ كان كَبْساً صحيحاً، غايتُه إلْحَاقُ حساب السنة القمرية بالسنة الشمسية، لتثبيت المواسم في مواعيدها من الفصول الطبيعية، إنما هو أقربُ المذاهب إلى الحق والواقع والصواب...

وما دام النسيءُ ثابتاً إبْطَالُه وتحريمُهُ سنة (٩ هـ = ٦٣١ م)، فدليلُنا على أن هذه السنةَ كانت الأخيرةَ في آخِر دَوْرٍ للنسيء، وعلى أن العرب

كانت تأخذُ في النسيء بدوْرٍ مُدَّتُه تسعةَ عشَر عاماً، يَظْهرُ إذا رجعنا بالأمر إلى حيث كانت ولايةُ قبيلة خُزَاعة شؤونَ مكة نحو سنة (١٧٥ م)، وجَعْلِهَا شأنَ النسيء وقتئذٍ إلى مالك بن كنانة... فإذا فرضنا أن الإنْسَاءَ بدأ سنة (١٧٦ م)، أي في السنة التالية لولاية خزاعة، وجدنا بين ابتدائه وانتهاءِ العمل به مُدَّة (٤٥٦) سنةً، وهي تَعْدِل أربعةً وعشرين دوراً من أدوار النسيء، مدَّةُ كلٍّ منها (١٩) سنة... وهذا دليلٌ على صِحَّة ابتداءِ ولاية خُزَاعَة أمورَ مكة سنة (١٧٥ م)، وعلى وقوع إبطال العمل بالنسيء في السنة الأخيرة من آخِر دَوْرٍ له عند العرب سنة (٦٣١ م).

وإذا أخذنا بقولِ مَن زَعَم من المؤرخين أن النسيء إنما ابتدأ في ولاية قُصيّ بن كلاب، المقدَّرة نحو سنة (٤٤١ م)، فإن ذلك يعني ابتداءَهُ سنة (٤٤٢ م)، وربما كانت هذه هي السنةَ التي ابتدأت بها ولايةُ قُصيّ، وإن ذلك يعني أيضاً انقضاءَ (١٩٠) سنةً على العمل بالنسيء حين أبطله الإسلامُ سنة (٦٣١ م)، وهي مُدَّةٌ تُساوي عشرةً من أدوار النسيء.

ومن شأن ذلك كله أن يؤكِّدَ صوابَ ما رَجَّحناهُ من أخذ العرب بالنسيء لتثبيت المواسم والشهور في الأزمنة والفصول، وكذلك ما قَدَّرْناهُ من عُمُر النسيء، وابتدائه نحو سنة (١٧٦ م)، ثم انتهائه سنة تسع للهجرة (٦٣١ م).



خُلاصةٌ وملاحظاتٌ وتعقيب:

نَخلُصُ ممَّا قدَّمناهُ إلى أن النسيء كان قائماً في عصر الجاهلية، لتثبيت شهور العرب ومواسمهم الدينية والزراعية والتجارية، في مواقيتها من الأزمنة الطبيعية التي حُدَّتْ فيها أصلاً. وقد استمرَّ العملُ به حتى أبطله الإسلام،

سنةَ تِسْع للهجرة، فتَوقَّفَ العملُ به ابتداءً من السنة العاشرة، وهي التي حجَّ فيها الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ حجَّةَ الوداع. ومعنى ذلك أن موسم الحجِّ سنةَ تسع للهجرة، أُقيم في التاسع من ذي الحجة، الموافق للأول من شهر آب سنة (٦٣١ م)، مُتقدّماً موقعه من تقويم الشمس نحو شهرٍ، فكُبِسَ بتلك السنةِ شهرٌ وراءَ ذي الحجة، فصارت به ثلاثةَ عَشَرَ شهراً، وكانت السنةَ التاسعةَ عشرةَ والأخيرةَ في آخِر دَوْرٍ للنسيء عند العرب، ابتدأ بعدَها حسابُ القمر يسْتَوي مع حساب الشمس، ولمّا كانت سنةُ عَشْرٍ للهجرة، كان الأوَّلُ من المحرَّم (صفر الأول) قد عاد إلى مَوْقعِه في الأوَّلِ من تشرينِ الأول وهو ما كانت تُفْتَتَحُ به سنةُ الشمس عند أهل الشام والعراق وغيرهم[1]. وأُقيم موسمُ الحجّ وقتئذٍ في التاسع من ذي الحجة، الموافق للثلاثين من شهر آب سنة (٦٣٢ م). ثم تُوفي الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام سنة إحدى عشرة للهجرة، يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، الموافق للثلاثين من شهر تشرين الثاني سنة (٦٣٣ م)، وقد تقدَّمْت سنةُ القمر على سنة الشمس أَحَدَ عشر يوماً.

أمّا موسمُ سوق عكاظ، وكان يُقام عادةً في الأول من ذي القعدة، فأعتقد أنه أُقيم سنة عَشْر للهجرة في موعده الطبيعي من سنة الشمس، نحو الثالث والعشرين من شهر تموز (يوليو). وكان تنقُّلُه، باعتماده على الهلال، ربما قَدَّم مَوْقعَهُ من سنة الشمس حتى الثالث والعشرين من شهر حزيران، لكنَّ النسيء ما يلبث حتى يُعيدَهُ إلى موقعه الأصلي. فلما بَطُل النسيء، صار موعدُه دائراً في كل الأزمنة الطبيعية، فلا يعود إلى قريبٍ ممّا كان عليه في الأصل إلا بعد نحو ثلاثٍ وثلاثِين سنةً... ولعلّ هذا كان سبباً رئيساً في انحطاط السوق وخُمولِ ذِكْرِه...

---

(١) انظر جدول مواقع شهور العرب من شهور السريانيين والروم.

وأمّا الأوّلُ من شهر رمضانَ سنة عَشْرٍ، فقد وقع في الخامس والعشرين من شهر أيّار (مايو)، أي بعد طُلوعِ كوكب الثريّا أواسطَ هذا الشهر، وإيذانِهِ بابتداءِ زَمَنِ الرَّمَضِ واشتدادِ الحرِّ في بلاد العرب. . . وإذا تبيَّن صوابُ هذا القولِ، فذلك يعني أنَ الزمنَ الذي فُرِض على المسلمين صِيامُه، يقع موسمُه قطعاً في فصل الصيف، ويجب عليهم إذن الْتماسُ هلالِ رمضان كلَّ سنةٍ ما بين أوَّل شهر أيار (مايو)، وأول شهر حزيران (يونيو)، فالهلالُ الذي يُرَىٰ في أثناء ذلك هو هلالُ رمضان، فموسمُ الصوم في اعتقادي أيّامٌ مَعْدوداتٌ في زَمَنٍ طبيعيّ ثابتٍ، واعتمادُه على حساب الأهِلَّة لا يسمحُ بأكثرَ من انتقالٍ يسيرٍ يُلازِمُ تقدُّمَ شُهورِ القمر، ضمن هذا الزمن، لا في كل الأزمنة الطبيعيَّة! . . . والقولُ نفسُه أقوله في موعد موسم الحجِّ، فإذا صحَّ أنه كان سنةَ عَشْرٍ في الثلاثين من شهر آب (أغسطس)، فيجب الْتِمَاسُ هلالِ ذي الحجّة ابتداءً من مطلع شهر آب، وإن كنتُ أعترفُ بأن تحريم النسيء لم يَضُرَّ الحجَّ شيئاً بدوَرَانِ موسمه في الفصول الأربعة، لأنه صار فريضةً على المسلمين، ورُكناً من أركان الإسلام.



وأخيراً أُحبُّ أن أُعقِّبَ على ما سَبق بقَوْلٍ، لعلَّهُ يؤيِّدُ ما ذهبتُ إليه فيما رأيتُه في تحريم النسيء، وإلْزَامِ الناس بسَنَةٍ تامَّةٍ، مقدارُها إثنا عشر شهراً ثابتةٌ في مواقعها من الأزمنة الطبيعية، لا تنتقلُ عنها، ولا تزيدُ، ولا تنقص. . . وهذا ما لا يمكن تحقيقُه إلا إذا أخذنا بإحدى الدورتَيْن الطبيعيَّتَيْن: **دورة الشمس**، أو **دورةِ منازل القمر**، مع الاستمرار في اعتماد الأهِلَّة مواقيتَ للحجِّ والصومِ والفِطْرِ وعِدَدِ النساء وغيرها، على أن يجري تعيينُ مواقع الحجِّ والصوم من الأزمنة التي حُدِّدَتْ بها في الأصل، قبل أن يُبدِّلَ الدورانُ مواقعَها.

وقد نظرتُ فوجدتُ أنه ليس في القرآن نصٌّ يُلزِمُ الناسَ باتِّبَاعِ دَوْرةِ القمر في حساب السنين، وإنما باتِّباع دورة منازل القمر، وهي، كما قلنا، دورةٌ صحيحةٌ تامَّةٌ ثابتةٌ، وذلك في قوله تعالى:

* ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ ﴾[1].

أي أنه، جلَّ شأنُه، قَدَّرَ للقمر مَنَازِلَ، ليعلَمَ الناسُ بدورة هذه المنازل عَدَدَ السنين، وحسابَ الشهور. . . فالمنازلُ للقمر كالبروج للشمس، كلاهما يقطعُ الفَلَكَ في دورةٍ ثابتةٍ، مقدارُها ثلاثُ مئةٍ وخمسةٌ وستون يوماً ورُبْعُ اليوم. ومن مأثورات العرب أنهم كانوا يحسُبُون السنين بدورة كوكب الثريَّا، وهو من منازل القمر، ويُسَمُّون دوْرتَه سَنَةَ الثريَّا، وحَوْلَ الثريَّا. ذلك أن القَمَر يُقَارِنُ الثريَّا في كلِّ سنةٍ مَرَّةً، ينْزل بها في الخامس من آذار (مارس)، أو نحو ذلك، ويُقَارِنُها ثلاثَ ليالٍ، فإذا كانت الليلةُ الثالثةُ من قِرَانِهما، كان ذلك علامةً على انقضاء الشتاء وأوّلِ الربيع. . . وعليه قولُ الشاعر[2]:

إذا ما قَارَنَ القمرُ الثريَّا لثالثةٍ فقد ذهب الشتاءُ

ومن أقوالهم: ما أَلْقَىٰ فلاناً إلا عِدَّةَ الثريَّا من القمر! . . . أي، إلا مرَّةً في السنة[3].

ومعنى ذلك أن الثامن من آذار (مارس) كان أوَّلَ فصلِ الربيع عند العرب، وهو يُوافق في تقديرنا يومَ الثاني عشر من جُمادَىٰ الآخرةَ. والثامنُ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩.

(٢) أسيِّد بن الحُلاحِل.

(٣) تاج العروس: ٨/ ٣٦٦ (عدد).

من آذار هو موعدُ طلوع منزل «الفَرْغ الأول» من أُفُق المشرق، ومرَّ بنا أن طلوعَهُ إرْهاصٌ لموسم الربيع[1].

وكانوا ينظرون أيضاً إلى طلوع الثريَّا من أُفُق المشرق، في نحو الثاني عشر من أيَّار (مايو)، فيعلمون أن سنةً تامَّةً قد انقضت، وينظرون من بعدُ إلى سقوط الثريَّا في أُفُق المغرب، في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، فيعلمون أن نصف السنة قد انقضى. . . وكانوا يعتمدون حركةَ منازل القمر، إضافةً إلى معرفة الفصول والمواسم الطبيعية، في تعيين آجَالِ دُيُونهم، ومواعيد تجاراتهم، لأن تَتَبُّعَ المنازلِ أكثَرُ سهولةً من مُتابعة حركة الشمس في بُروجها، إلى أن معظم هذه البروج يقع في تلك المنازل، ويُعَدُّ جُزْءَ منها. . .

وهنالك آياتٌ كثيرةٌ في القرآن تأمُرُ باعتمادِ مواقيتِ الشمس، ولا سيما في أوقات الصلاة:

* ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ الْلَيْلِ . . . ﴾[2].
* ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ الْلَيْلِ . . . ﴾[3].
* ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا . . . ﴾[4].
* ﴿ وَمِنَ الْلَيْلِ فَسَبِّحْهُ وإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾[5]، أي عند جُنُوحِها . .

(١) انظر جدول منازل القمر.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣٠.
(٥) سورة الطور، الآية: ٤٩.

للغيبوبة[1]. كما تُعْتَمدُ مواقيتُ الشمس أيضاً في مناسِكِ الحجِّ، والإمْسَاكِ عن الطعامِ في الصيام والإفْطار... وإلى ذلك قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ﴾[2]، أي أَحْسِبَةً[3]، تدلُّ على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات[4]... ومن الواضح أنه قَرَنَ ما بين الشمس والقمر في حساب الأزمنة، فالشمسُ لحساب السنين وعددِ أيَّامها، والقمرُ لحساب الشهور ومعرفةِ أَهِلَّتها.

ويُلاحَظ أنَّ في القرآن ذِكْراً للشمس، مَقْروناً بها القمرُ، عشرين مرّةً، قُدِّم فيها ذِكْرُ الشمس على القمر تَسْعَ عشرة مرَّةً، وقُدِّم فيها ذِكْرُ القمرِ مرَّةً واحدةً فقط، في سُورة نوح[5]... وقديماً جعل المسلمون تقديمَ ذِكْرِ الليل على النهارِ، والشتاءِ على الصيف، في القرآن الكريم، دليلاً على صِحَّة الابتداءِ بهما في حساب الأزمنة[6]، فلمَ لا نجعلُ ذلك دليلاً على صِحَّةِ الحسابِ بدورة الشمس، وتثبيتِ شُهور العربِ في مواقعها الطبيعيَّة من الأزمنة الأربعة؟ على أن تظلَّ مواسمُ الحجِّ والصوم والفِطْرِ مَنُوطةً بالأَهِلَّةِ، ضمن الظروف الزمنيَّة التي نُرجِّح أنها حُدِّدَتْ بها في الأصل.

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٤٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.
(٣) الأَحْسِبَةُ: جمعُ الحِسَابِ.
(٤) لسان العرب: ١/ ٣١٤ (حسب).
(٥) سورة نوح، الآية: ١٦.
(٦) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٣ ـ ١٦٥.

ARAB'S ANCIENT SEASONS AND FESTIVALS



BY

IRFAN M. HAMMOUR

Al-Rihab Modern Establishment
Telephone: 03-359788
P.O. Box: 11/3847
Beirut - Lebanon

الفهرس التفصيليّ لمحتويات الكتاب

والمغرب. جُلُّ اعتماد اليونان والروم وإيران ومصر والحبشة والشام والعراق فيما كانوا يحتاجون إليه من المَتاجرِ، على العرب. كان البخُور الذي اشتُهرت به بلادُ العرب على رأس المتاجر الثمينة التي يسعى إليها الملوك ورجالُ الدين والأثرياء في العالم القديم.

- كانت إيران تُصدِّر عُطور العرب إلى الصين تحت إسم «بضائع پرسي» أي فارس.
- أربعة أشياء مَلأت الدنيا ولا تكون إلا في بلاد العرب: الوَرْسُ واللُّبَان والخِطْر والعَقيق.
- كلُّ إقليم من بلاد العرب الجنوبية وساحل تهامة وخليج العرب اشتُهر ببعض أنواع العُروض والسلع والصناعات والغَلاّت.
- كانت الخمر من أشهر ما اتّجر به العرب.
- يعود بعضُ العلَّة في اعتماد أُمم العالم على العرب في توفير ما تحتاج إليه من المتاجر، إلى توسُّط جزيرة العرب بُلدانَ العالم القديم.

- كانت جزيرة العرب الممرَّ البرّيَّ الوحيد قديماً لتبادل المتاجر.
- وكان بها طريقان رئيسَان للقوافل شرقيٌّ وغربيٌّ، ينطلقان من مدينة «ظفَار المَهَرة» في جنوب الجزيرة.
- وكانت بها طُرق داخليّةٌ كثيرة تصلُ بين القُرى والمدُن والأسواق.
- أحاط العربُ طرُق البرِّ وقوافلَ التجارة بكثير من الرعاية والأمن، وأقاموا عليها محطّاتٍ ما لبثت حتى صار معظمُها قُرى ومُدُناً.
- كانت القافلةُ من قوافلهم كالجيش، وقد بلغ بعضُها ألفَيْن وخمسَ مئة بعير. وكانت قيادةُ القافلة تُناط بالشجعانِ

الجزء الثاني

مواسم الأسواق والحجّ والأعياد في بلاد العرب

الباب الأول

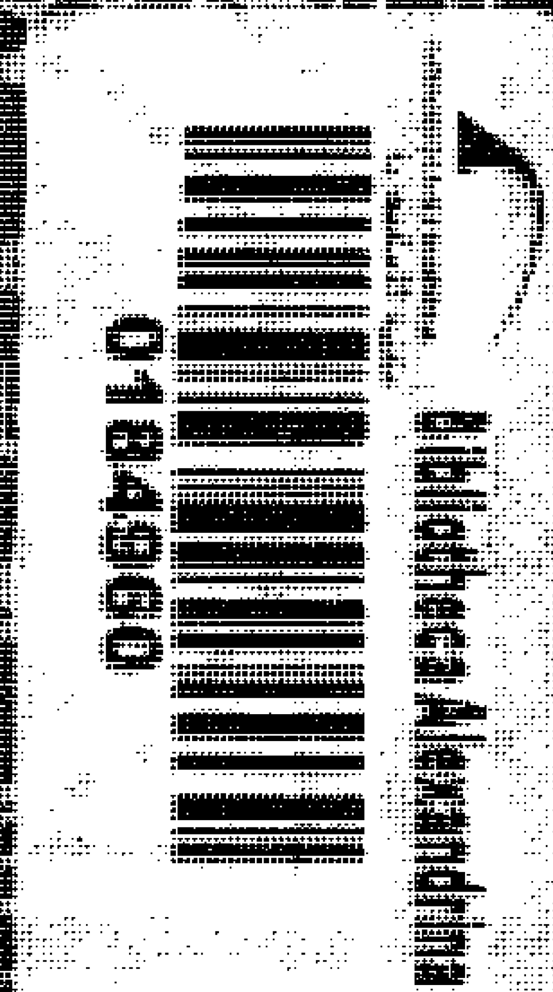
مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين

عرفان محمد حمور

مواسم العرب الكبرى

تاريخ المواسم العامة في بلاد العرب والقواعد التي
كانت عليها وأشهر أخبارها ومآثرها

الجزء الثاني





عنوان الكتاب

مواسم العرب الكبرى

المؤلِّفُ : عرفان محمد حمُّور

الناشِر والموزِّع

مؤسسة الرِحَاب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

المدير المسؤول : **أحمد فوَّاز**

هاتف : ٠٣/٣٥٩٧٨٨

ص.ب : ١١/٣٨٤٧

بيروت ـ لبنان

التنضيد والإخراج

مؤسسة غَوْر پْرِسْ

هاتف : ٠١/٦٥٢٣٤٨

العنوان : البربير ـ بناية كاملة ـ ط ٤

بيروت ـ لبنان

تصميم الغلاف

د. هدال عرفان حمُّور

الطبعة الأولى ١٩٩٩

عرفان محمد حمّور

مواسم العرب الكبرى

تاريخ المواسم العامة في بلاد العرب و القواعد التي قامت عليها و اشهر اخبارها و ءاثارها

الجزء الثاني

مواسم بلاد العرب و الشام و العراق



مؤسسة الرحاب الحديثة
بيروت - لبنان

الجزء الثاني

مواسم الأسواق والحجّ والأعياد في بلاد العرب

الباب الأول

مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين
عرض وموازنة وتحقيق

ـ الفصل الأول: مواسم الأسواق في موارد القدماء

١ ـ محمد بن إسحاق ٢ ـ محمد بن سعد ٣ ـ محمد بن حبيب
٤ ـ أبو الوليد الأزرقي ٥ ـ اليعقوبي ٦ ـ أبو الفرج الأصفهاني
٧ ـ ابن جرير الطبري ٨ ـ الهمداني ٩ ـ أبو حَيَّان التوحيدي
١٠ ـ أبو علي المرزوقي ١١ ـ ياقوت الحموي ١٢ ـ زكريا القزويني
١٣ ـ القلقشندي ١٤ ـ عبد القادر البغدادي * الخلاصة

ـ الفصل الثاني: مواسم الأسواق العامة في كتب المحدثين ـ عرض ومناقشة ونقد.

١ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي
٢ ـ تاريخ التمدن الإسلامي لزيدان
٣ ـ تاريخ آداب العرب للرافعي
٤ ـ عكاظ والمربد لأحمد أمين
٥ ـ أسواق العرب لسعيد الأفغاني
٦ ـ المفصل في تاريخ العرب لجواد علي
٧ ـ في منزل الوحي لهيكل
٨ ـ موقع عكاظ لعبد الوهاب عزام
٩ ـ الأطلس التاريخي للدولة السعودية
١٠ ـ الشعراء الصعاليك ليوسف خليف
ـ الخلاصة.

ـ الفصل الثالث: تصنيف المواسم العامة المعروفة في بلاد العرب والشام والعراق



مواقع الأسواق من شبه جزيرة العرب كما عيّنها المتقدِّمون

الفصلُ الأوَّلُ

مواسِمُ الأسواقِ في مواردِ القدماءِ
عرضٌ وموازنةٌ وتحقيقٌ

يبدو من مُتَابَعةِ أخبار العرب في عصر الجاهلية، أنهم كانوا يَعْقِدُونَ كثيراً من المواسم العامَّة الكبرى، في مختلف أنحاءِ بلادهم، ولا سيما ما كان منها للعبادة والحجِّ والتجارة معاً، فضلاً عن تَنَاوُلِها شؤونَ حياتهم على تعدُّدِ وجُوهها. غير أنه لم يظهرْ بعدُ حتى اليوم، فيما اطَّلعتُ عليه من كُتُب التراث، مُصَنَّفٌ قديمٌ، أُفْرِدَ كلُّه، أو بعضُه، للحديث عن تلك المواسم، نجِدُ فيه وصْفاً وافِياً لها، يُحيط بعدَدها كم كان، ومَوَاضِعِها أين كانت، ومَوَاقيتِ انعقادها من السنة متى كانت تأزِفِ، ومتى كانت تنقضي، ويُحْصي ما كان يجري فيها، ومَن كان يَشْهدُها من القبائل والتجار والأجانب، ويُؤَرِّخ زمنَ نُشوئها وانْدِثارها... وكلُّ ما وجدتُه من هذه الأمور إشاراتٌ قليلةٌ، وبضعةُ فصولٍ صغيرةٍ، في كُتبِ بعض المؤرخين وأهل الأخبار، أشارت إلى تلك المواسم بإيماء خَجُولٍ، أو تحدَّثتْ عنها حديثاً قصيراً مُقْتَضَباً، فضَمَمْتُها إلى شَذَراتٍ من الأخبار المتفرِّقَةِ، والروايات المختلفة، التي وجدتُها مَنْثُورةً في ألوف الصفحات، بعدما غُصْتُ عليها بطونَ العشرات من المراجع والموارد القديمة، أسْتَقْصيها، وألْتَقِطُها خبراً من هنا، وحكايةً من هناك، حتى جمعتُها، ثم عَكَفْتُ عليها أُقَلِّبها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال،

أُحَقِّقُ فيها، وأُفَاضِلُ بينها، وأَسْتَقرِئُها، حتى اسْتَوَتْ بين يديَّ موضوعاً مُتَماسِكاً، يَشُدُّ بعضُه أَزْرَ بعض، لِيُقَدِّمَ صورةً جَليَّةً واضحةً عن تلك المواسم، ويكشفَ من خلالها وجهاً مُشْرقاً من حضارة العرب في عصر الجاهلية، يوم كانوا خير أُمَّةٍ أُخرِجتْ للناس.

وإذا كان بعضُ مواسم الأسواق العامَّة إنما أُشِير إليه اتِّفاقاً في موارد القدماء، فجاء ذِكْرُهُ ناقصاً من كلِّ تفصيل عن مواقيته ووقائعه، فإن الفصول التي عقدها بعضُ المؤرِّخين والأخباريين للحديث عن هذه المواسم، لم تكن أحْسَنَ حالاً في جُمْلة عناصرها، فقد جاءت شَحِيحَةً، مُتباينةً في عَدِّ ما كان معروفاً من المواسم وقتئذٍ. وسنكتفي في هذا الفصل بذكر ما عثرنا عليه عند هؤلاء وأولئك، كما عَدُّوه أو أشاروا إليه، مع التحقيق فيه والتعقيبِ عليه كلما اقْتَضَى الحال.

* * *

المطلب الأول ـ محمد بن إسحاق:

لعلَّ أقْدمَ إشارةٍ إلى مواسم العرب في الجاهلية هي ما قال فيها ابنُ إسحاق[1]: «وكان بَدْرٌ موسماً من مواسم العرب، يجتمعُ لهم به سوقٌ كلَّ عام...»[2]، وذلك في حديثه عن غزوة بَدْرٍ الكبرى، من غير أن يذكر لنا موعداً لانعقاده، أو مُدَّة قيامه، أو شيئاً عن موقعه. ونعتقد أن البحث يمكن أن يؤدِّي بنا إلى معرفة ما غمض علينا من أمره.

---

(١) **ابنُ إسحاق**: محمد بن إسحاق بن يَسَار، من أهل المدينة. جَدُّهُ يَسَار من سَبْي عين التمر في شمال بادية الشام، يُعَدُّ من أقْدم مؤرخي العرب، وله السيرةُ النبوية التي عُرِفت بسيرة ابن هشام وقد رواها عنه. توفي سنة (١٥١ هـ = ٧٦٨ م).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٦١٨.

ونُقِل عنه أيضاً قولُه: وكانت **مجنَّةٌ** بمَرِّ الظَّهْران، إلى جبلٍ يُقال له الأصْفَرُ، وكانت **عكاظٌ** فيما بين نَخْلَةٍ والطائف، إلى بلدٍ يُقالُ له الفُتُقُ، وكان **ذو المجاز** ناحيةَ عَرَفَة، إلى جانبها. . . وهذه المواضعُ الثلاثةُ كانت من أسواق العرب في الجاهليَّة، وأعظمها شهرة[1].

وبذلك عَدَّ ابن إسحاق من مواسم العرب أربعةً هي: بدرٌ، وعكاظٌ، ومجنَّةٌ، وذو المجاز، ولم يُعيِّنْ مَوْضعَ سوق بدر، ولا مواعيدَ هذه المواسم.



المطلب الثاني ـ محمد بن سعد:

ثمَّةَ إشارةٌ قديمةٌ أُخرى، ذكر فيها «ابنُ سعد»[2] أن هاشم بن عبد مناف، خرج في عِيرٍ لقُرَيْش، تحمل تجاراتٍ، «وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسوق **النَّبَط**، فصادفوا سوقاً تقومُ بها في السنة، يحشدون لها، فباعُوا واشْتَرَوْا. . .»[3].

ولم نعثر على أية معلوماتٍ، فوق هذا النصِّ، يُمكن أن نستدلَّ بها في تَعْيينِ موضع سوق النَّبَط من مدينة يثرب، أو معرفةِ موسم قيامه وانقضائه!

---

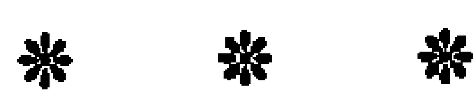
(١) موقع عكاظ: ٤٤.

(٢) **ابن سعد**: هو أبو عبد الله، محمد بن سعد بن منيع الزهري، المُتَوَفَّى سنة ٢٣٠ هـ. درس الحديث على كبار الأئمة. أهم تصانيفه «الطبقات الكبرى»، وهو تأريخ لسيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين حتى عصره. وقد نشرت كتاب الطبقات مطبعةُ بريل في لندن سنة ١٣٢٢ هـ، ولجنةُ نشر الثقافة الإسلامية، سنة ١٣٥٨ هـ.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٧٨.

وكل ما نعرفه أن الأنباط، أو النَّبَطَ، شعبٌ عربيٌّ قديم، أقام دولةً مُتقدِّمَةً بين الحجاز والشام، عاصمتُها مدينةُ الرَّقِيمُ، وهي البتراءُ، ومن مُدُنهم: بُصْرى، وصَلْخَدَ، والحِجْرُ، وكانوا تُجَّاراً مَهَرةً، يَجُوبون بمتَاجِرهم البلادَ القريبةَ والبعيدة[1]، وكانت لهم تجارةٌ مع المدينة، يحملون إليها دقيقَ القمح الأبيض والزيتَ وغيرَهما[2]. . . ويبدو أنهم كانوا يُتَاجِرون في موضعٍ مُعيَّن من أسواق يثرب، فعُرِفَ ذلك الموضعُ بسوق النَّبَط، وكان موعدُ قدومهم إليه موسماً يقومُ مرةً في السنة، فيجتمع إليه التجار للبيع والشراء[3].

ولا نعتقدُ أننا نملُكُ من المعلومات ما يسمح لنا بالذهاب في شأن هذا الموسم إلى أبعد مما فعلنا.



المطلب الثالث ـ محمد بن حبيب:

ولعلَّ ابن حبيب[4]، فيما وصل إلينا، أوَّلُ من عَقَد فصلاً، من نَحْوِ خمس صفحات، في كتابه «المحبَّر»، للحديث عن مواسم أسواق العرب المعروفة في زمن الجاهلية، وقد عَدَّ فيه منها اثنَتَيْ عشرة سوقاً، فذكر مواضِعَها ومواقيتها، وأشار إلى أنها كانت: «أسواق العرب المشهورة في الجاهلية. . .»، وهي كما سَرَدَها:

---

(١) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٣٤٤ (ضفط).

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣١٣.

(٤) **ابن حبيب**: أبو جعفر، محمد بن حبيب البغدادي، الهاشميُّ بالولاء. عَلاَّمةٌ بأخبار العرب، وأنسابهم، واللغة والشعر. وُلد ببغداد، وتُوفي بسَامُرَّاء (٢٤٥ هـ = ٨٦٠ م). له مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ، أشهرُهَا كتابُه المحبَّر.

سوق «دُومَة الجَنْدل»[١]، ومَوضِعُها بين الشام والحجاز، وقيامُها في أول يوم من شهر ربيع الأول إلى النصف منه، ثم تَرِقُّ، فلا تزال قائمةً إلى رأس الشهر، ثم يفترقون عنها إلى مثلِها من قابِل[٢]. . . ثم يرتحلون منها إلى «المُشَقَّر»[٣] بِهَجَر، فتقومُ سوقُها أول يوم من جُمادَىٰ الآخِرةِ إلى آخر الشهر. . . ثم سوق «صُحَار»[٤] بعُمَان، وكانت تقومُ أولَ يومٍ من رجب خمسَ ليالٍ. . . ثم سوق «دَبَا»[٥]، وهي إحدى فُرْضَتَيْ العرب بعُمان، فيقومُ سوقُها آخِرَ يومٍ من رجب. . . ثم سوق «الشِّحْر»[٦]، شِحْرِ مَهْرَةٍ، فتقوم السوقُ تحت ظلّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُودٍ عليه السلام، وكان قيامُها للنصف من شعبان. . . ثم سوق «عَدَن»، وكانت تقومُ أولَ يومٍ من شهر رمضان إلى عشر ليالٍ يَمضِينَ منه. . . ثم سوق «صنعاء»، وكانت تقوم في النصف من شهر رمضان إلى آخره. . . ثم سوق «الرابيَة» بحضرموت، وسوق «عكاظ» بأعلى نَجْدٍ قريباً من عرفات، وكانتا تقومان في يوم واحد، للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر، فكان بعض الناس يأخذ إلى الرابية، وبعضٌ إلى عكاظ. . . ثم سوق «ذي المجاز»، وهي قريبةٌ من عكاظ، فتقومُ أولَ يوم من ذي الحجَّة إلى يوم التَّرْوِيَة، وهو الثامنُ من ذي الحجَّة، ثم يصيرون

---

(١) دُومَةُ الجَنْدل: حِصْنٌ وقُرى لبني كلب، تقعُ في واحة الجوف، شمالَ الحجاز، على منتصف الطريق بين الحجاز والشام والعراق.

(٢) القابِلُ: إسمٌ للعام المُقْبِل.

(٣) المُشَقَّرُ: حِصْنٌ لبني عبد القيس بمدينة هَجَرَ البحرين (الأَحْسَاء).

(٤) صُحَار: قَصَبَةُ عُمَان مما يلي الجبل، والقَصَبَةُ: أعظمُ مدُن الإقليم.

(٥) دَبا: مدينة عربية قديمة، كانت قصبةَ عُمَان، ومَرْفَأها. والفُرْضَةُ: مَحَطُّ السفُنِ من البحر.

(٦) الشِّحْرُ: صُقعٌ في الجنوب، على ساحل بحرالعرب بين عُمَان وحضرموت، ومَهْرَة: قبيلة عربية كانت منازلُها في الشِحْر فأُضِيف إليها، والشِحْرُ في لغة الجنوب معناه الساحل.

إلى «مِنَى» لقضاء مناسك الحجِّ. . . ثم سوق «نَطَاة»[1] بِخَيْبَر، وسوق «حَجْر» باليمامة، وكانتا تقومان يومَ عاشُوراءَ إلى آخر المحرَّم[2]. . .

وإذا نظرنا في حديث الأسواق كما ذكره ابن حبيب، وجدنا الملاحظات التالية:

١ ـ التتابُع في شُهود الأسواق:

الملاحظة الأولى في حديث ابن حبيب أنه سَرَدَ مواسم الأسواق مُتَتابِعَةً، على مواقيت قيامها، فقال بعد كلامه على سوق دُومة الجندل: «ثم يرتحلون منها إلى المشقَّر. . .»[3]، وطَفِق بعد ذلك يستعملُ حرفَ «ثُمَّ» في الإشارة إلى انتقالهم من سوقٍ تَنفضُّ، إلى أخرى تنعقِدُ، وهو حرفٌ يُستعملُ عادةً للتَّشْرِيك في الحُكم والترتيب[4]، فكأنهم كانوا في رحلةٍ تجاريةٍ تظلُّ قائمةً طولَ السنة، ما خلا أربعةَ أشهُرٍ منها خَلَتْ من المواسم، وهي: صَفَرٌ، وشهرُ ربيعٍ الآخِرُ، وجُمادَى الأُولى، وشَوَّالٌ. . . غير أنها، على ما أرى لم تكن خاليةً تماماً، فبعضُها كانت الرحلةُ في الطرق البعيدة تَسْتغرِقُه، والبعض ربما كانت تنعقد فيه مواسمُ أخرى غفل عنها ابنُ حبيب.

٢ ـ غلطه في تعيين موعد صُحَار، والانتقال من هجَر إلى عُمَان:

إذا كانت سوقُ المشقَّر بهَجَر ينفضُّ موسمُها آخِرَ شهر جُمادى الآخِرة، وكانت سوقُ صُحَار بعُمَان يقومُ موسمُها أولَ يومٍ من رجب، كما زعم ابنُ

---

(١) نَطَاة: حِصْنٌ وعينُ ماء بخَيْبَر، وهي ضاحِيةٌ على أربعة أيام من يثرب، فيها مزارع ونخيل.

(٢) المحبَّر: ٢٦٣ ـ ٢٦٨.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥.

(٤) عبد الغني الدقر ـ معجم النحو: ١٢٤.

حبيب، مع قوله بالتتابُع في الانتقال من سوقٍ إلى أُخرى بعدَها، فكيف كانوا يرتحلون من هَجَرٍ إلى عُمَانَ في ليلةٍ واحدة، مع أن الطريق بينهما طويلٌ و «شَاقٌّ يصعبُ سلوكُه»[١]، ويقتضي السفرُ فيه مسيرةَ شهرٍ تقريباً على الإبِل[٢]، وربما نصفَ المدَّة إذا كان السفرُ بالبحر؟... وهذا ما يدفع إلى الشك في صحة الميقات الذي عيَّنه لقيام سوق صُحَار، وبعض المواقيت الأُخرى، أو يَدْفعُ إلى رفضِ قوله بارتحال الناس من موسمٍ يَنْفضُّ إلى موسمٍ يَتبعُه، لِشُهود المواسم جميعاً، فَلعلَّهم كانوا يختارون منها ما يريدون شُهودَهُ، فيرتحلون إليه ليكونوا فيه وقتَ قيامه.

٣ ـ الانتقال بالبحر من عُمَان إلى الشحْر وعَدَن:

إن المواقيت التي عيَّنها لقيام مواسم الشِحْر وحضرموت وعَدَن، تجعلُنا نميلُ إلى الاعتقاد بأن انتقال الناس بينها كان بالبحر، فطريقُ البحر أقصَرُ، وطريقُ البرِّ طويلةٌ وشَاقَّةٌ، ومواعيدُ قيام هذه المواسم قريبٌ أحَدُها من الآخر، فمَوْسِمُ سوق دَبا بعُمان يقومُ وينتهي آخرَ يوم من رجب، ثم ينعقد بعده موسمُ سوق الشِحْر في النصف من شعبان، ثم يليه موسمُ سوق عَدَن في الأول من شهر رمضان[٣]... وبين عُمَانَ والشِحْرِ مسيرُ شهرٍ[٤]، وبين الشِحْر وعَدَن مثلُ ذلك[٥]، فكان لا بُدَّ للتجّار من ركوب البحر لبُلوغ المواسم في مواعيدها... ويُؤيِّد هذا الاعتقادَ أن ابنَ حبيب قدَّم سوقَ صُحَار

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ١٨٨.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ٣٤٧، وقلائد الجُمان: ١٧ ـ ١٨.

(٣) المحبَّر: ٢٦٦.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ٢٣٤.

(٥) بلوغ الأرب: ١/ ١٨٦، وقلائد الجُمان: ١٧ ـ ١٨.

في ترتيب القيام على سوق «دَبَا»، مع أن «دَبَا» تقعُ على طريق القادم من البحرين إلى عُمَان أولاً، وتقع صُحَارُ ثانياً، ولكن الطريق رأساً إلى صُحَار أقصَرُ، فهو طريق مستقيم، وهذا سَبَبٌ في التقديم، أما السببُ الآخَرُ فهو أنه لم يكن للمرتحلين بُدٌّ من الانتهاء إلى «دَبَا» كيفما كانت رحلتُهم، وذلك للقاءِ تُجَّار البحر فيها، والارتحالِ من مينائها إلى شِحْرِ مهرة، وكانت «دَبَا» من موانىء العرب المشهورة وقتئذٍ.

٤ ـ غَلطُه في تعيين موقع عكاظ وربما في موعدها:

إن قوله بقيام موسم عكاظ للنصف من ذي القعدة، بأعلى نجْدٍ قريباً من عرفات، قولٌ غيرُ دقيق، ولا تطمئنُّ النفسُ إليه، فهنالك كما رأينا شكٌّ في بعض المواقيت التي عَيَّنَها، ومنها ميقاتُ عكاظ، ثم إن موقع السوق ربما كان حقّاً بأعلى نجْدٍ، ولكنه لا يمكن بذلك أن يكون قريباً من عرفات، فعرفاتُ ليست من نجدٍ بل من الحجاز. وقد أراد المحقِّقُ الفاضلُ الشيخُ حَمَدٌ الجاسِرُ أن يلتمسَ له عُـذْراً في غَلَطه فقال: ولعله سقطتْ من كتاب ابن حبيب، أو من الأصل الذي نقل عنه عبارةُ «وذو المجاز» بعد كلمة نَجْد[١]. . . ولكن يبدو لي أن العِبَارةَ جاءت كذلك في الأصل، بدليل أنه جعل بعدئذٍ موقعَ ذي المجاز قريباً من عكاظ[٢]، مع أنه إلى جانب عرفات، وهي قريةٌ كانت فيها مزارعُ وخُضَرٌ ومَبَاطِخُ، ودُورٌ حَسَنةٌ لأهل مكة، يَنْزِلونها يومَ عَرَفَة[٣]، في التاسع من ذي الحجَّة.

* * *

---

(١) موقع عكاظ: ٤٧، (أي: وسوقُ عكاظ بأعلى نجد، وذو المجاز قريبٌ من عرفات)، وعبارة ابن حبيب ليست هكذا. . وأعلى نَجْد هو الجنوبُ الغربيُّ من نجْد.

(٢) المحبَّر: ٢٦٧.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٠٤.

المطلب الرابع ـ أبو الوليد الأزرقي:

وقد أشار «أبو الوليد الأزرقيُّ»[1]، في كتابه «أخبار مكة»، إلى أربع أسواق فقط من مواسم العرب في الجاهلية، ثلاثٌ منها ذكرها لأنها كانت في مواسم الحجِّ وشُهوره، وهي: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، والرابعةُ: سوقُ حُبَاشَة، ذكرها عَرَضاً. . .

ونقل عن ابن الكلبي[2] أن الناس كانوا إذا خرجوا إلى مواسم الحجِّ أصبحوا في «**عُكاظ**» يومَ هلال ذي القعدة، فأقاموا به عشرين ليلةً، تقومُ فيها أسواقُهم بعكاظ، فإذا مضَتِ العشرون، انصرفوا إلى «**مجنَّة**» فأقاموا بها عشْراً، أسواقُهم قائمة، فإذا رأَوْا هلالَ ذي الحجَّة، انصرفوا إلى «**ذي المجاز**» فأقاموا به ثمانَ ليالٍ، أسواقُهم فيها قائمةٌ حتى اليوم الثامن، وهو يومُ التَّرْوِيَة، إذ تَنفضُّ أسواقُهم، ويخرجون من ذي المجاز إلى «عَرَفَة» حيث يُباشِرون مناسِكَ الحجّ. . . وإنما سُمِّي ذلك اليومُ يومَ التروية لِتَروِّيهم فيه من الماء بذي المجاز، لأنه لا ماءَ بعَرَفَة ولا بالمُزْدَلِفَة يومئذٍ، وكان يومُ التروية آخِرَ أسواقهم، فقد كانوا يتأثَّمون من الجمع بين التجارة والحجِّ في وقت واحد، فكانوا لا يتبايعون في عَرَفة، ولا في مِنَىً وهي من مواسم الحج[3]. . .

ثم زاد أبو الوليد الأزرقي على ما نقله عن ابن الكلبي، فعيَّن مواضعَ هذه الأسواق بقوله: «وعكاظُ وراءَ قرنِ المنازل[4]، بمرحلةٍ، على طريق

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) **ابن الكلبي**: أبو المنذر، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عالم بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم، من أهل الكوفة، له تصانيف كثيرةٌ، توفي سنة (٢٠٤ هـ).

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٩.

(٤) **قرن المنازل**: ميقاتُ أهل نجد والطائف واليمن، على يوم وليلة من مكة، أي نحو خمسين ميلاً وبينها وبين الطائف ستةٌ وثلاثون ميلاً «معجم البلدان: ٤/ ٣٣٢».

صنعاء، في عمل الطائف على بريدٍ منها، وهي سوقٌ لِقَيْسِ بن عَيْلان وثقيفٍ، وأرضُها لِنَصْر، ومجنَّةٌ سوقٌ بأسفل مكة، على بريد منها، وهي سوقٌ لكنانة... وذو المَجازِ سوقٌ لِهُذَيْل، على يمين الموقف من عَرَفة، قريبٌ من كبكب، على فرسَخٍ من عَرَفَة...»[1]. والمعنى في هذا القول أن سوق عكاظ كانت لقبائل قيس بن عَيْلان، وأرضُها من أعمال الطائف، على مسافة إثني عشر ميلاً منها، وهي لبني نصر بن معاوية، من هَوازِن، من قيس بن عيلان، وكانت تقعُ على طريق المسافر إلى صنعاء، بعد قرن المنازل، بنحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، أو مسيرةِ يومٍ واحد، بينما تقع سوقُ مجنَّة على مسافة اثنَيْ عَشَر ميلاً شمالَ مكة، وذو المجاز على بُعْد ثلاثة أميال من عَرَفة، قريباً من جبل كبكب. ولا شك في أن تحديد مواقع هذه الأسواق، يُعَدُّ سَبْقاً للأزرقي.

وقد تفرَّد الأزرقيُّ كذلك بالإشارة إلى سوقٍ لقبيلة الأزد، كانت تقومُ في تهامة، بين مكة واليمن، بديارِ بارقٍ، على ستِّ ليالٍ من مكة، وهي سوق «حُبَاشَة»، وهي آخِرُ سوق خَرِبتْ من أسواق الجاهلية. وذكر أنه إنما ترك ذِكْرَ حُبَاشَة مع أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، لأنها لم تكن في مواسم الحجِّ، ولا في أَشْهُره، وإنما كانت في شهر رجب، تقومُ فيه ثلاثة أيام مُتَواليةٍ من أوَّله[2].

ويجب أن نلاحظ هنا، أن الأزرقي جعل أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز من مواسم الحجِّ عند عرب الجاهلية، وأنه كان دقيقاً في تعيين مواضعها وموافيتها.

* * *

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المرجع نفسه: ١/١٩١ ـ ١٩٢.

المطلب الخامس ـ اليعقوبي:

ذكر «اليعقوبي»[(١)] في تاريخه أن أسواق العرب المعروفة في الجاهلية كانت عشراً فقط، فأغفل ممّا عدَّدَهُ ابنُ حبيب سوقَيْ نَطَاةٍ بخَيْبَر، وحَجْرٍ باليمامة، واتفق معه في سائرها، بأسمائها ومَواضِعِها ومواقيتها، إلا موسمَ المشقَّر، خالفه في موعده، وجعله شهرَ جُمادَى الأولى... هذا، وقد أصاب كلمةَ «دَبَا» في كتاب اليعقوبي تصحيفٌ جعلها «رَيًّا» بالراء والياء المشدَّدة، فنقلها البعضُ، على تَصْحيفها، مع أنها غلطٌ صوابُه: دَبَا[(٢)]...



المطلب السادس ـ أبو الفرج الأصفهاني:

ويبدو أن «الأصفهاني»[(٣)] انفرد في كتابه «الأغاني» بالإشارة إلى موسمٍ غفل عنه الآخَرون، كان ينعقد في «الحِيرة»، وهي حاضِرةُ ملوك العرب في العراق، وذلك في حديثه عن أخبار حاتم بن عبد الله الطائي[(٤)]، فقال إنه: «كان بالحيرة سوقٌ يجتمعُ إليها العربُ كلَّ سنة»[(٥)]، ولكنه لم يُعيِّنْ لنا موقعها من مدينة الحيرة، ولا موعدَ قيامها من السنة. وإذا كانت معرفة

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٣) **الأصفهاني**: أبو الفرج علي بن الحسين القرشيُّ الأمويُّ، من كبار العلماء في الأدب والتاريخ والأنساب والمغازي. وُلد بأصفهان (٢٨٤ هـ)، ونشأ ببغداد، وتوفي فيها (٣٥٦ هـ). له مؤلَّفات كثيرة، أعظمها شهرةً كتاب الأغاني.

(٤) **حاتم الطائي**: أبو عَدِيّ، فارس، شاعر، جواد من أهل الجاهلية، يُضرب المثلُ بجوده، أخباره كثيرة، ولا سيما في الكرم والمروءة والنجدة. توفي نحو سنة (٥٧٨ م).

(٥) الأغاني: ١٧/ ٢٨٣.

موقعها من مدينة الحيرة صعبةً، فترجيحُ قيام موسمها في وقت معيَّن، ربما كان ممكناً مع شيءٍ من البحث والتحقيق، وهو ما سنحاول أن نفعله عندما نتكلم على مواسم العراق.

* * *

المطلب السابع ـ محمد بن جرير الطبريُّ:

لم يَعْرِضِ «الطبريُّ»[1] في تاريخه إلى موضوع مواسم الأسواق في الجاهلية، إلا ما كان من أخبار الرسول عليه السلام في مواسم عكاظ. ولكنه في حديثه عن غزاة الأنبار، أشار إلى مَوسميْن لقبائل العرب، كانا يقومان في طرَف العراق، قريباً من مدينة الأنبار، وهما: **سوقُ الخَنَافِس**، **وسوقُ الكَبَاث**[2]. وسنحاول معرفة موعد قيام كلٍّ منهما في كلامنا على مواسم العراق.

* * *

المطلب الثامن ـ الحسن بن أحمد الهمدانيُّ:

ذكر «الهمدانيُّ»[3] في كتابه «صفة جزيرة العرب» إحدى عشرةَ سوقاً، عدَّها من أسواق العرب القديمة. وقد نظرتُ فوجدتُ سبعاً منها سُبِق إلى ذكرها، وهي: عكاظ، مجنَّة، ذو المجاز، بَدْرٌ، حَجْرُ اليمامة، عَدَن، هَجَر

---

(١) سبقت ترجمته.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥.
(٣) سبقت ترجمته.

البحرين. ولا أرى داعِياً إلى التعليق عليها، إلا بكلمة على سوق هَجَر البحرين. فيبقى أربعٌ أظن أنه سَبَقَ إلى ذكرها، وهي: مِنَى، مكّة، نجران، الجَنَد[1]، ولا بدَّ أن نقول فيها بعض الملاحظات. على أن للهمدانيّ فوق ذلك كلامٌ جيِّدٌ في تعيين موقع عكاظ، سنذكره في موضعه من حديثنا عن سوق عكاظ في الباب التالي.

١ ـ موسم هجر البحرين:

إن قوله: هجر البحرين، إنما أراد به موسمَ المشقَّر، الذي كان ينعقد بمدينة هَجَر، فالمشقَّرُ قاعدةُ هَجَر، وهَجَرٌ قاعدةُ البحرين، أي الأحْسَاء وقَصَبتُها. وقد أضافها إلى البحرين تمييزاً لها من مُدنٍ أخرى، كهَجَرِ نجران، وهَجَر جازان وغيرهما[2]. والقصدُ في ذلك أن هنالك موسماً واحداً بهَجَر البحرين هو موسمُ المشقَّر.

٢ ـ موسم مِنَى لا يجوز فيه الجمع بين الحجِّ والمتاجرة:

مِنَىَ موضعٌ جبليٌّ في شرق مكَّة، على طريق عَرَفَة، وكانت في الجاهليَّة من مواسم الحجِّ التي يمتنعُ العربُ فيها من المتاجرة، لأنهم كانوا لا يتبايعون في «يوم عَرَفَة وأيام مِنَى»[3]، ويتأثَّمون خلالها من الجمع بين مناسك الحجِّ والمتاجرة، إلى أن أباح لهم الإسلامُ ذلك، فلعلَّها صارت حينئذٍ سوقاً.

---

(١) أسواق العرب: ٢١١، عن صفة جزيرة العرب للهمداني.
(٢) معجم البلدان: ٥/٣٩٣.
(٣) أخبار مكة: ١/١٨٨.

٣ ـ سوق مكة غير موسمية:

لم تكن سوقُ مكة في الجاهلية موسميَّةً، فتُذْكر في عِدَادِ الأسواق الموسميَّة، بل كانت سوقاً تجاريَّةً دائمةً، ومحطةً كبرى من محطات القوافل، ويقال: إن المتاجرة فيها كانت تمنعُ أيامَ الحجِّ، ولذلك كان أهلها يتعاونون على إطعام الحاجِّ وسِقَايتهم ما داموا مُقِيمينَ بمكة في موسم الحجّ. وعلى ذلك لا يمكن أن نَعُدَّها في الأسواق الموسميَّة.

٤ ـ سوق الجَنَد موسمها غير معروف:

كانت الجَنَدُ من مُدُنِ اليمن الكبرى، تقع بين عَدَنٍ وتَعِزَّ(١)، على اثني عشر ميلاً شمالَ تَعِزَّ، وعلى ستة أيام من صنعاء(٢). ولم يُحدِّثنا أحدٌ عن موسم كان يقوم بها، إلا الهمدانيّ، ولكنه لم يذكر لنا شيئاً يُعينُنا على تعيين موعد قيامها من السنة، أو معرفة بعض ما كان بها، وبذلك لا يمكن لنا أن نزيدَ على ما قلناهُ فيها شيئاً.

٥ ـ سوق نَجْران:

المعروف أن نجرانَ مدينةٌ مشهورةٌ، تقعُ شمالَ صنعاء، في منتصف الطريق إلى بيشة(٣)، ومع أن الهمدانيَّ لم يذكر شيئاً يُفيد في معرفة موسمها، إلا أن البحث فيها، على ما أرى، مُوصِلٌ إلى بعض ذلك، ويمكن أن نتحدَّث عنها في كلامنا على مواسم اليمن.



---

(١) تاج العروس: ٧/ ٥٢٤ (جَنَد)، ومهد العرب: ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) صبح الأعشى: ٥/ ١٣.

(٣) بيشة: قريةٌ غنَّاءُ في وادٍ كثير الأهل، من جهة اليمن، فيها بطون من قبائل العرب كثيرةٌ، من خَثْعَم وهلال وسُوَاءَة وسَلُول والضِّبَاب وقريش.

المطلب التاسع ـ أبو حَيَّان التوحيديُّ:

عَرَضَ «التوحيديُّ»[1] في كتابه «الإمتاع والمؤانَسَة» لموضوع أسواق العرب المعروفة في عصر الجاهلية، فذكر منها عَشْراً، ضَربها مَثَلاً «على تحضُّرِهم في باديتهم، وتَبدِّيهم في حواضرهم، وتَحلِّيهم بأشرف أحوال الأَمْريْن...»[2]، ونَقَصَ ممَّا ذكره ابنُ حبيب سوقين هما: نَطَاةُ خَيْبر، وحَجْر اليمامة، مثلما فعل اليعقوبي. ولم يَبْدُ في حديثه أنه أراد أن يُحقِّق شيئاً في مواعيد تلك المواسم، بقدر ما كان مُهْتَمّاً بإبراز الجوانب الحضاريَّة فيها[3]. غير أن هذا لا يعني خَلاءَ نصِّه من بعض المعلومات، أو غَنَاءَهُ عن بعض الملاحظات...

١ ـ تعيينه موضعَ سوق دومة الجندل وموعدَها:

عيَّن موضعَ دُومة الجندل في منتصف الطريق بين العراق والشام، وكان ابنُ حبيب عيَّنَهُ فيما بين الشام والحجاز، وكلاهما واحد. واتفق مع الآخَرين في قيام موسمها شهرَ ربيع الأول إلى آخره.

٢ ـ الارتحالُ عن دُومَة في ربيع الآخر، وهَجَرٌ هي المُشقَّرُ:

ثم أَتْبَعَ التوحيديُّ كلامَه على سوق دُومَة الجندل وموقعِها وموعد قيامها، بنصٍ جَيِّدٍ قال فيه: «... ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر، وهو المُشَقَّر، في شهر ربيع الآخِر، فتقومُ أسواقُهم»[4]... وههنا ملاحظتان:

---

(١) سبقت ترجمته.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٣.
(٣) المرجع نفسه: ١/ ٨٣ ـ ٨٥.
(٤) المرجع نفسه: ١/ ٨٤.

الأولى: أن الارتحال من دُومة الجندل إلى مدينة هَجَرٍ بالأَحْسَاءِ، هو الذي يكون في ربيع الآخِر، وليس قيامَ الأسواق بهَجَرٍ! فقد كان التوحيديُّ يعلم قطعاً أن الانتقال بين البلدين يحتاجُ إلى شهرٍ في الطريق على الأقلّ، كما كان يعلمُ أن ابن حبيب قال بقيام المشقَّر في جُمادى الآخِرة، وأن اليعقوبيَّ جعله في جُمادَى الأولى، فأمْسَكَ هو عن تعيين موعدٍ مُحدَّدٍ لقيامها، وهو ما فعله في سائر الأسواق، مُكْتفياً بالنصِّ أن أسواق عكاظ وذي المجاز كانت تقوم في الأشهُر الحرُم[1].

الثانية: تأكيده على أن سوق هَجَر هي المُشَقَّر، وأنه لم يكن في مدينة هَجَر سوى موسمٍ واحدٍ هو موسمُ المُشَقَّر. وهذا ما عَناهُ ابنُ حبيب أيضاً لمَّا ذكر سوق المشقَّر، فقال: «والمشقَّرُ بهَجَر...»[2]، مُشيراً إلى أن السوق التي كان موسمُها ينعقد في مدينة هَجَر، كانت تقوم في المشقَّر قاعدةِ هَجَر.

٣ ـ تقديمه سوق دبا على سوق صُحَار:

لاحظنا أن التوحيديَّ قدَّم سوقَ دَبَا على سوق صُحَار في القيام، بقوله: «... ثم يرتحلون نحو عُمَان، فتقومُ سوقُهم بديَارِ دَبَا، ثم بصُحار»[3]! وربما كانت العِلّةُ في هذا المذهب اعتقادَهُ بأن القادم من البحرين، لا بُدَّ له أن يأخذَ إلى دَبَا، لأنها تقع أوّلاً على الطريق إلى عُمَان. ولكن الصوابَ ما ذهب إليه ابنُ حبيب في تقديم صُحَار، لأن التجار يسافرون عند انتهاء مواسمهم بعُمان من مرفأ دَبَا إلى أسواق الشحْر وعَدَن.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥.

(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

٤ ـ تَعْيينُه موضعَ سوق الشحر في مدينة إرَم:

لا شك في أن التوحيديَّ قد أحْسَنَ صُنعاً حيث نصَّ أنهم كانوا يرتحلون من عُمَانَ، فينزلون «إرَمَ» وقرى الشِّحْر، فتقوم أسواقُهم بها أياماً[١] . . .

إن تحديده قيامَ موسمها أيَّاماً فقط، يجعلني أعتقد أن أصْلَ النصِّ هو: إرَمُ من قرى الشحر، فذلك يعني أن موضعَ سوق الشحر كان مدينةَ إرَم، فالشِّحْر بلادٌ واسعةٌ وهي تقع بين ظفار ومِرْباط شرقاً، والأحقاف شمالاً، وحضرموت والمكلاَّ غرباً، وبحر العرب جنوباً، وإرَمُ جزءٌ منها. وكان ابنُ حبيب اجْتَزَأ بأنها كانت «تقومُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هود عليه السلام»[٢]، ثم تابعه اليعقوبيُّ على القول نفسه[٣]. على أن قبر النبي هود يقع على مَقْربةٍ من إرَم، كما سنبيِّنُ في كلامنا على أسواق الجنوب.

٥ ـ الملاحظة الأخيرة:

لاحظنا أن ابن حبيب جعلَ شُهودَ موسم صنعاءَ لازماً للجميع، قبل أن يأخذَ بعضُهم إلى سوق الرابية بحضرموت، والبعضُ إلى عكاظ[٤]. . . بينما جعل التوحيديُّ الناس تفترقُ بعد انقضاء موسم عَدَن، فيأخذُ بعضُهم طريقَه رأساً إلى حضرموت، «ومنهم مَن يَجُوزُها ويَرِدُ صنعاءَ. . .»[٥]، وبهذا يكون موسمُ صنعاء عنده غيرَ لازمٍ إلا لمن يريدون الارتحالَ إلى عكاظ وما بعدها.

* * *

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٢) المحبَّر: ٢٦٦.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.
(٤) المحبَّر: ٢٦٧.
(٥) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥.

المطلب العاشر ـ أبو علي المرزوقي:

وبعد ذلك جاء «المرزوقيُّ»[١] فأحْصَى من مواسم العرب في الجاهلية ثماني عشرة سوقاً، فزاد على ما ذكره ابنُ حبيب منها سِتّاً، إحداها سوقُ «مجنَّة»، وقد سبقه الأزرقيُّ إلى ذكرها، والثانية «مِنَى»، وهي التي أَقْحَمها الهمدانيُّ قبله في عِداد مواسم أسواق الجاهلية، والأربعُ الأُخَرُ تفرَّدَ بذِكْرهنَّ في مواسم الجاهلية، وهي: سوقُ «**الأَسْقَى**»[٢] في اليمن، وأسواقُ «**بُصْرَى**[٣]، **ودَيْر أَيُّوب**[٤]، **وأَذْرِعَات**[٥]. . .» في بلاد الشام، فتَميَّز بأنه أولُ من أشار إلى مواسم الشام، بين مَن سَبقه مِن أهل الأخبار، مثلما تَميَّز بأنه أول من ذكر لنا معلوماتٍ قَيِّمةً، أغْنَتْ موضوع الأسواق الموسميَّة، وأفادَتْنا، على قِلَّتِها، في كثير من جوانبه، مع أنه كان كغيره من سائر أهل الأخبار، لم يُوفِ الموضوعَ حقَّه من البحث والتحقيق والإحاطة، واكتفى غالباً بتعيين مواقيت بعض المواسم، ومَواضِعها، وذِكْرِ أشياءَ يسيرةٍ مما كان يَدورُ فيها، ولم يَشْغَلُ حديثُه عنها سوى عَشْرِ صفحاتٍ من كتابه «الأزمنة

---

(١) **أبو علي المرزوقي**: أحمد بن محمد بن الحسن، الأصفهاني. عالم بالأدب والفَلَك وأخبار العرب، من أهل أصفهان، وكان معلم أبناء بني بُوَيْه فيها. أشهرُ كتُبه: الأزمنة والأمكنة. توفي سنة ٤٢١ هـ.

(٢) **الأَسْقَىٰ أو الأَسْقَه**: مدينة يمانية، كانت تقع إلى الجنوب من نجران، جاء ذكرها في إحدى الحملات الرومانية على جزيرة العرب، أواخر القرن الأول قبل الميلاد.

(٣) **بُصْرَى**: من كُبْرَيَات المدن التاريخية في بلاد الشام، وهي قصبةُ حوران، تقع في الجنوب الشرقي منها، وما تزال باديةً فيها آثار سوقها وشوارعها وحوانيتها القديمة.

(٤) **دير أيوب**: مدينة كان لها شأن كبير في عصر الجاهلية وصدر الإسلام، موقعها حيث تقع اليوم قريةُ الشيخ سعد بحوران.

(٥) **أَذْرِعات**: هي اليومَ مدينةُ درعا في الشام، وهي من المدن التاريخية، تقع غربيَّ حوران، بالقرب من البلقاء.

والأمكنة»[1]، لاحظنا فيها مُشَابَهةً، كادت تكون تامَّةً، بين كثير من عِبَاراته وعِبَارات ابن حبيب في حديثه عن المواسم، على ما أصاب بعض نصوص المرزوقي، من سُقوط كلمةٍ وتصحيفِ أُخرى، وسُوءِ نَقْلٍ وطباعةٍ أَزْرَىٰ بمُعْظم الكتاب! ويبدو لنا هذا واضحاً في الفصل الذي عقده ابنُ حبيب للحديث عن «أئمّة العرب في مواسمهم، وقُضاتِهم بعُكاظ»[2]، وقد جعله المرزوقيُّ جُزْءاً من كلامه على سوق عكاظ، ولكنه أُصِيبَ بحذفٍ أنْقَصَ عددَ القُضَاة وخَلَط الأسماء، وصَحَّفَ بعضَ الكلمات، وغَيَّر معانيها[3]... فكان عند ابن حبيب أَوْثَقَ، وأكثَرَ دِقَّةً وضَبْطاً، وهو أمرٌ يحملُ تَبِعَتَهُ مَنْ حَقَّقُوا الكتابَ، ومَن تَولَّوا ضبطَهُ وتصحيحَ تَجارب الطباعة. وفيما خلا ذلك ثمَّة بعضُ الملاحظات على ما جاء به المرزوقي...

١ ـ مُوافَقَتُه ابنَ حبيبٍ في كل ما ذكره عن مواقيت قيام الأسواق، ومَواضِعِها إلا في أربعة أمور، سنذكرها تباعاً...

الأول: أنه اتفق معه في قيام سوق «دومة الجندل» أولَ يومٍ من شهر ربيع الأول، ولكنه تفرَّد عنه، وعن سائر أهل الأخبار، بالذهاب إلى أنها كانت أوَّلَ أسواق الجاهلية قياماً[4]، وهو ما جعلنا في شكّ من أمر الشهر الذي كانت تُفتَتَحُ به السنةُ في عصر الجاهلية، ولا سيما أن المرزوقي كان صاحب علم بالأزمنة والنجوم، وقد ذهب في كتابه إلى «أن أول السنة عند أهل الشام كان تشرين الأول (أكتوبر)، وأنه يُصادِفُ ابتداءَ فصل الوسْميّ عند

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٧٠.

(٢) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٣.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧، ١٦٨.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١.

العرب، وهو شهرا ربيع، ولعلَّ العرب كانت قد ابتدأت السنة على مثل ذلك، وجعلت مُفْتَتَحها في أول الوسميّ، أي في شهر ربيع الأول»[1]. وهذا غَلطٌ من المرزوقي، فالوَسميُّ عند العرب هو الخريفُ، ويُسمُّونه الربيعَ الأوَّلَ، لكنه غيرُ شَهريْ ربيعٍ، وهو سابقٌ لهما في الزمن، ومَوْقعُه شهرا صَفَر.

الثاني: صَوَّبَ الموعدَ الذي عيَّنَهُ ابنُ حبيب لقيام سوق «صُحَار» بعُمَان، وهو الأول من شهر رجب[2]، وكنت أشرتُ إلى هذا الغلط في تعليقي على حديث ابن حبيب... فقد أكَّد المرزوقي أن سوق «المشقَّر» كانت تَنْفَضُّ بانقضاء شهر جُمَادَىٰ الآخِرة، وقال: «ثم يرتحلون منها إلى صُحَار، أولَ يوم من رجَب... فيَقْدَمُونها لعشرين يوماً تمضي من رجب...»، فيشترون ويبيعون بها خمسةَ أيام[3]... أي أنهم كانوا يرتحلون من المشقَّر في الأول من رجب، فيصلون إلى صُحَار في العشرين منه، فتقوم سوقُهم هنالك في الواحد والعشرين، خمسةَ أيامٍ، يرتحلون بعدها إلى دَبا. وهذا في اعتقادي هو الصواب، إذ ليس من الممكن أن ينتقل الناسُ من المشقَّر في هَجَر، إلى صُحَار بعُمان، في ليلة واحدة كما يُفهم من نصِّ ابن حبيب، فالانتقالُ بالبحر يَقْتَضِيهم من خمسةَ عَشَرَ إلى عشرين يوماً، أما في البرِّ فيلْزَمُهم السفرُ نحوَ شهرٍ غالباً.

الثالث: وفي النصِّ نفسه الذي ذكرناه عن قيام سوق صُحَار قال المرزوقي: «... فيُوافيهم بها مَنْ لم يشهدْ ما قبلها من الأسواق، ومَن شُغِلَ بحاجةٍ ولم يكن له أَرَبٌ فيما يُباع في الأسواق التي قبلها...»، وفي موضعٍ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٧، ١٧٢.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣.

آخَرَ ذكر أن الناس كانوا يرتحلون من سوق الشِحْر إلى عَدَن، «إلا تُجّارَ البحر، فإنه لا يرتحل منهم إلا مَنْ بقيَ من بَيْعه شيءٌ ولم يَبِعْهُ»، فيُوافي سوق عدن مَن بقي معه من تجار البحر شيءٌ، ومَن لم يكن شَهِدَ الأسواق التي كانت قبلها[1] . . . وهي نصوصٌ تُعَدُّ في الواقع حُجَّةً قويَّةً، فبالرغم من استعمال المرزوقي حرفَ «ثم» في إشارةٍ منه إلى مُتابَعَة الناس ارْتحالَهم، بتَتَابُع قيامِ المواسم، مثلما فعل ابنُ حبيب، غير أنه تفرَّد بهذا التوضيح، وأكَّد أنّ المواسمَ، وإن كانت تقومُ تِبَاعاً، لم يكن من اللازم متابعةُ شُهودِها جميعاً، فقد كان للمرء أن يختار ماله أَرَبٌ في شُهوده فيشهده.

الرابع: لم يُحدِّدْ ميقاتاً معلوماً لقيام سُوقَيْ «نَطَاة» بخيبر، و «حَجْرٍ» باليمامة[2]، وقد جعله ابنُ حبيب في العاشر من المحرَّم. ويبدو لي أن العلة في ذلك سقوطُ جزء من النص في كتاب المرزوقي، لأنه جعلهما مع سوق ذي المجاز عنواناً، ثم تحدَّث عن ذي المجاز وعكاظ وأسواق الشام، ولم يتحدَّث عنهما بشيءٍ[3] . . .

٢ ـ والملاحظةُ الثانيةُ أن المرزوقي لم يَزِدْ في حديثه عن «مجنَّة»، على أنها سوقٌ للعرب في الجاهلية، كانت تقعُ بمَرِّ الظهران، قريبةً من ذي المجاز. ولم يذكر عن سوق «الأَسْقَى» سوى أنها تقعُ خلفَ حضرموت[4]، ولم يقُلْ شيئاً عن «مِنَىً» . . .

٣ ـ أما أسواقُ الشام فقد عيَّنَ مَوَاقيتَها، ومَواضِعَها، من غير أن يذكر

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١.

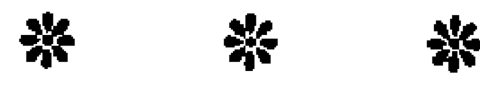
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٧٠.

لنا موَاقِعَها من تلك المواضع، أو معادلةً بين أزمنة الشام وأزْمنة العرب، واجْتَزَأ بالنصِّ أنَّ أهل الشام كانوا يُقيمون أسواقَهم، بانقضاء خمسةٍ وعشرين يوماً على أُفُولِ الثريَّا مع غروب الشمس، فتقومُ سوق «دير أيوب»، وهي أولُ أسواقهم، فإذا انْفَضَّتِ اعْتَدُّوا سبعين يوماً، ثم تقومُ سوق «بُصْرى»، ونَقَل أن قيامها أيامَ الأُمَويِّين كان ثلاثين إلى أربعين يوماً، وأيامَ العَبّاسِيِّين خمسةً وعشرين... فإذا انقضت اعتدُّوا سبعين ليلةً، ثم تقومُ سوقُ «أَذْرِعات»[1]...

وسأفصِّل معنى هذا النصِّ في حديثي عن أسواق الشام، وسيَرِدُ طرفٌ منه في تعليقي على ما ذكره في هذا الأمر بعضُ المُحْدَثين.

٤ ـ والملاحظة الأخيرة على المرزوقي أنه عيَّن موقع عكاظ في أعْلَىٰ نَجْد، وأضاف أنه قريبٌ من عرفات[2]، مثلما فعل ابنُ حبيب، ممّا يؤكِّد أنهما نَقَلا عن مَوْرِدٍ واحد، كان به هذا الغَلَطُ، فأثْبَتَاهُ كما وجداهُ.



المطلب الحادي عشر ـ ياقوت الحموي:

ليس من اليَسِير أن نَتتبَّعَ حديثَ الأسواق عند ياقوت[3]، لكنَّ البحث عن مواقع بعض المواضع التي كانت تقومُ فيها المواسمُ، أَوْقَعَنا في كتابه «معجم البلدان» على بعض المعلومات المفيدة...

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٣) سبقت ترجمته.

١ ـ ذكر في مقدمة كتابه أنه سُئل، في أحد المجالس، عن كلمة «حباشة»، إن كانت بضَمّ الحاء أم بفتحها، فأجاب: أنها بالضمّ، ومعناها الجماعةُ من الناس مِن قبائلَ شتَّى، وهي اسمُ «سوقٍ من أسواق العرب في الجاهلية». . . فانبَرىٰ له رجلٌ وقال: إنما هي حَباشَةٌ بالفتح، وصَمَّم على ذلك، وكابَرَ من غير حُجَّة، فأُلْقِيَ في رُوعِ ياقوتَ حينئذٍ افتقارُ الناس إلى كتاب في هذا الشأن يكون مُتْقَناً مَضْبوطاً، فعزم على جمعه وتأليفه، وكانت سوق حُبَاشة أول البواعث، كما ذكر في مقدمته، لتصنيف معجم البلدان[١]. . . ومع ذلك لم نظفر منه بشيءٍ عن موقع هذه السوق، وموضع قيامها، إلا أنها كانت بتهامة[٢]، وتهامة أوسعُ من أن تُحَدَّ! ولا شك في أن الأزرقيَّ ذكر عن سوق حُباشَة ما هو أكثر إحاطةً وفائدة.

٢ ـ نقل عن «الأصمعي»[٣] أن «دَبا» سوقٌ من أسواق العرب بعُمان، وهي غيرُ «دَمَا»، ودَمَا أيضاً من أسواق العرب[٤]. . . ثم ذكر ياقوتُ أن «دَمَا» كانت بلدةً من نواحي عُمَان، يَرِدُ ذِكْرها مع مدينة دبا، وهي من أسواق العرب المشهورة[٥]، تقعُ في أول بلاد عُمَان من جهة الشمال[٦]، ولعلَّها كانت بالقُرْب من «بَيْنُونَة» على الحدود بين عُمَانَ والأَحْسَاء[٧]. . . وقد جاء

(١) معجم البلدان: ١/ ١٠.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) **الأصمعي**: أبو سعيد، عبدُ الملك بن قُرَيْب الباهلي، راويةُ العرب، ونابغةُ الدنيا في الحفظ. طاف بلاد العرب، وتلقَّى أخبارها وعلومها، فوعاها ورواها، وأتْحَفَ بها الناسَ والملوك. مولده ووفاته بالبصرة (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ).

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٤٣٥.

(٥) المرجع نفسه: ٢/ ٤٦١.

(٦) المرجع نفسه: ٥/ ٤٤٨.

(٧) المرجع نفسه: ١/ ٥٣٦، و ٥/ ٤٤٧.

في الكامل أن «دَمَا» من أعمال عُمَان، كانت على مسافة أربعة أيام من صُحَار[1]، أي ما يُقَدَّر بنحو مئة ميل تقريباً. . . ولا أرى أننا نملك من المعلومات زيادةً تسمح لنا بالعودة إلى البحث في سوق دَما، وعندي اعتقادٌ بأن تصحيفاً وقع على كلمة «دبا» في الكامل فجعلها «دما»، لأن الأولى هي التي تقع على أربعة أيام تقريباً من صُحَار.

٣ ـ وذكر ياقوت أيضاً أن «**الخَنَافِسَ**» أرضٌ للعرب، تقعُ في طرف العراق، قربَ الأنبار، من ناحية البَرَدان. وكانت تُقام بها سوقٌ للعرب[2]. . . وهو ما سبق للطبريّ روايتُه.

٤ ـ وأشار كذلك إلى موضعٍ بالجزيرة، شمال العراق، يُسمَّى «**الكَبَاث**»، وهو لبني تغلب، «كان يُقام به سوق في الجاهلية»[3]، وهو ما سبق للطبري أيضاً الحديثُ عنه.

٥ ـ وذكر عن «**عَدَنٍ**» أنها مرفأُ المراكب القادمة من الهند، وأن التجار كانوا يجتمعون فيها لأجل ذلك، ونقل عن الهمداني أنها «أقدمُ أسواق العرب»[4].

٦ ـ ونقل عن الأصمعي أن «**عكاظ**» إسمُ سوقٍ من أسواق العرب في الجاهلية، وهو موضعُ نخْلٍ، يقعُ في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلة، أي أربعة وعشرون ميلاً. وبينه وبين مكة ثلاثُ ليالٍ، أي نحو اثنين وسبعين ميلاً، وبه كانت تقام سوقُ العرب، بمكانٍ منه يُقال له: الأُثَيْدَاءُ. . . وأن «**مجنَّة**» إسمُ

---

(١) الكامل في التاريخ: ٨/ ٦٤٧.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٣٩١.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٤٣٣.
(٤) المرجع نفسه: ٤/ ٨٩.

سوق للعرب في الجاهلية أيضاً، كانت بمَرِّ الظهران، قربَ جبل الأصفر، بأسفل مكة، على قدر بريد منها، أي اثنيْ عشرَ ميلاً، وكانت تقومُ عشرة أيام من آخر ذي القعدة، والعشرون منه قبلها سوقُ عكاظ، وبعد مجنة سوقُ ذي المجاز، ثمانية أيام من ذي الحجة، ثم يُعَرِّفون في التاسع إلى عرفة[١]. . . وذو المجاز موضعٌ به ماءٌ، ينبعُ من أصل جبل كبكب، خلفَ عرفة، على قَدْر فرسخٍ منها، أي ثلاثة أميال، والسوق تقومُ على ناحيةٍ من كبكب[٢]. . .

ونقل عن الواقديِّ[٣] قوله: «عكاظٌ بين وادي نخلة والطائف، وذو المجازِ خلفَ عرفة، ومجنَّةٌ بمرِّ الظهران، وهذه أسواقُ قريش والعرب، ولم يكن فيها أعظم من عكاظ. . . وقالوا: وكانت العرب تُقيم بسوق عكاظ شهر شَوَّال، ثم تنتقلُ إلى سوق مجنة، فتُقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز، فتُقِيم فيه إلى أيام الحج. . .»[٤]. والمعلوم أن شهر شَوَّال كان «من شُهور الحجِّ عند العرب. . .»[٥]، يقضيه في السفر إلى مكة، مَن أراد شُهُودَ مواسمها، ولا سيما موسم الحجِّ الأكبر إلى بيت الله في الكعبة، ولعلَّ الواقديَّ حَسِبَ تَوافُدَ الناس إلى عكاظ في شوَّال قياماً لموسمها حينئذٍ، وإنما هو استعدادٌ لانعقاد السوق، ذلك أن سوقاً كبرى كسوق عكاظ، «كانت أعظم أسواق العرب»[٦]، بما كانت تحفلُ به من

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) المرجع نفسه: ٥/ ٥٥.

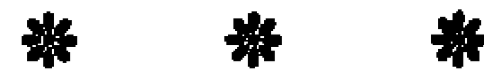
(٣) الواقديُّ: (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ = ٧٤٧ ـ ٨٢٣ م). أبو عبد الله، محمد بن عمر بن واقد. من أقدمِ المؤرخين وأشهرِهم، ولد بالمدينة ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد في أيام الرشيد، فوليَ القضاءَ فيها، حتى تُوفي. له مصنَّفاتٌ كثيرة.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٨.

(٦) المحبَّر: ٢٦٧.

مختلف قبائل العرب ووُفُود العجم، وبما كانت تعالجه من مختلف الشؤون والشجون والحاجات، لا يمكن أن تقومَ في ساعة، أو أن تُعْرضَ فيها العُروضُ والسِّلَعُ والأمتعةُ في يوم!... إلى أن إجماع المؤرخين وأهلِ الأخبار كان على قيام موسمها في شهر ذي القعدة.



المطلب الثاني عشر ـ القزويني:

وقد عثرنا على بضع إشارات متفرقات عند «القزويني»[١] في كتابه: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، جاء فيها ذِكْرُ ثمانية أسواقٍ موسمية كانت تقومُ بالشام، وذلك في أثناء كلامه على الشهور السريانية، فزاد على ما أَثْبَتَهُ المرزوقيُّ منها خمسةً، ولكنه سَرَدَها على النحو التالي:

«**أذْرِعات**» وتقوم في الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، «**تُوما**»[٢] بدمشق، وتقوم في اليوم الأول من كانون الأول (ديسمبر)، و «**الأُرْدُنّ**»، وتقومُ في الحادي عشر من كانون الأول، و «**فلسطين**» وتقوم في الحادي والعشرين من نيسان (أبريل)، و «**دير أيوب**» بالشام، وتقوم في الثالث والعشرين من نيسان، و «**بُصْرَى**»، وتقوم في العاشر من تموز (يوليه)،

---

(١) **زكريا بن محمد الأنصاري**: (٦٠٥ ـ ٦٨٢ هـ = ١٢٠٨ ـ ١٢٨٣ م). اشتُهِر بالقزويني لمولده بقزوين، ثم رحل إلى الشام والعراق. كان مؤرِّخاً وجغرافياً، وصنَّف كتُباً منها: آثار البلاد وأخبار العباد، وكتاب عجائب المخلوقات.

(٢) **تُومَاء**: قريةٌ كانت بغوطة دمشق، وهي اليوم ضاحيةٌ كبيرة منها، وإليها يُنسَبُ باب تُوماء، وهو من أبواب دمشق التاريخية القديمة.

و «عَمَّان»، وتقوم في العاشر من آب (أغسطس)، و «مَنْبج»[1]، وتقومُ في اليوم الأول من أيلول (سپتمبر)... ثم أكَّد على مَوْسميَّة تلك الأسواق بقوله: «... فهذه أمورٌ تتكرَّرُ في كل سنة، على رأي أصحاب التجارب، في الأوقات المذكورة»[2]، ولكنه لم يذكرلنا شيئاً عمَّن كان يشهدُ تلك الأسواق، وإن كنا نميلُ إلى أن تجار العرب، في الجاهلية، كانوا يشهدون منها أسواق بصرى ودير أيوب وأذرعات خاصةً، بدليل اهتمام المرزوقي بذكرها دون غيرها من أسواق الشام. ولم يذكرالقزويني كذلك شيئاً عمَّا كان يجري فيها، ولا أشار إلى مدة قيام كلٍّ منها! كما أنه لم يُعيِّن موقعَ سُوقَيْ الأردن وفلسطين، على كثرة ما فيهما من الكُوَر والقُرَىٰ والنواحي... وأخيراً، لا بُدَّ أن نلاحظ أنه عيَّن مواعيدَ الأسواق، على مذهب أهل الشام في السنة الشمسية، بالشهور السريانية، خلافاً للمرزوقي الذي أثْبَتَها على مذهب العرب في اعتماد طلوع النجوم وسُقُوطها لمعرفة الأزمنة، وبينما ذكر المرزوقي أن سوق دير أيوب، التي يقوم موسمُها في نيْسان (أبريل)، كانت أول أسواق الشام قياماً، ذكر القزويني أن أوَّلها إنما هي سوقُ أذْرِعات، التي ينعقدُ موسمها في تشرين الأول، ذلك أن السنة كانت وقتئذٍ تُفْتَتح عند أهل الشام، كما عند كثير الأمم، في شهر تشرين الأول[3]، أي في مطلع الخريف، وتُفْتَتَح أيضاً عند بعض الأمم في شهر نيسان، موعد انعقاد سوق دير أيوب، لأنه كان شهرَ الربيع، وكان القدماءُ يُقدِّسُونَه، ويعُدُّونَه رأسَ السنة الدينية[4]، ولذلك نصَّ المرزوقيُّ أنها كانت أول الأسواق قياماً.

---

(١) منبج: مدينة كانت تقع إلى الشمال والشرق من حلب، على طريق رئيسةٍ تمتد من أنطاكية إلى حلب، وتمرُّ بها. وكانت مركزاً قديماً لعبادة الإلَه «حَدَد».

(٢) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ١١٥ ـ ١٢٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٧، ١٧٢.

(٤) أسماء الشهور في العربية: ٢٩، ٣٨ ـ ٣٩.

المطلب الثالث عشر ـ القَلْقَشَنْديُّ:

ثم جاء «أبو العباس القلقشندي»[1]، فذكر في كلٍّ من كتابَيْهِ: صُبْح الأعْشَى، ونهايةِ الأَرَب، ثمانية أسواق من مواسم العرب في الجاهلية، ولم يأتِ بجديدٍ في هذا الموضوع، ولعلَّه نقلَ معظمَ عباراته عن أبي حَيَّان التوحيدي، ولكنه أغفلَ ذِكرَ سوق «ذي المجاز» بينها، وأطلق على سوق المشقَّر بهَجَر إسمَ سوقِ هجر بالبحرين، مثلما فعل من قبله الهمدانيُّ، وجعل سُوقَيْ «صُحَار ودَبَا» سوقاً واحدةً سمَّاها سوقَ «عُمَان»[2]، وجعل عُمَانَ مرفأً بلاد البحرين، تنتهي إليه مراكبُ الهند والسند والزَّنْج[3]... وهو ما أوْقَعَ الباحِثينَ المُحدَثين في وَهْمٍ، ظَنُّوا معه أنهم وقعوا على جديدٍ في مواسم العرب، فأضافوا إليها سوقاً أُخرىٰ، هي سوقُ عُمَان!. ومع أن الرجل وضَعها مَوْضِعَ سُوقيْ صُحار ودَبا، ومن غير أن يُعيِّن لها موسماً، فإنهم عَيَّنُوا لها موسماً يقومُ في شهر جُمادى الأولى حتى آخِره[4]... ولم أجد في مختلف المراجع التي اطلعتُ عليها سنداً يُثْبِتُ صحةَ ذهابهم هذا المذهب، فضلاً عن أن حديث الأسواق عند القَلْقَشنديّ جاء واحداً، مُتطابقاً في النصِّ والمضمون، في كلٍّ من كتابَيْهِ: صبح الأعشى ونهاية الأَرَب، إلا ما كان من تصحيف ربما أصاب أحدهما أكثر من الآخَر.

* * *

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٣) نهاية الأرب: ٩١، وصبح الأعشى: ٣/ ٢٥٥.

(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥، وأسواق العرب: ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٥، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧، وتاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٤، ٣٧٦...

المطلب الرابع عشر ـ البغدادي:

وأخيراً تعرَّضَ «عبد القادر البغدادي»[1]، في كتابه الشهير «خزانة الأدب»، إلى حديث أسواق العرب في الجاهلية، فعدَّ منها عَشْراً، عيَّن مَواضِعَها ومواعيدَها، فجاءت مُتَّفقةً مع ما ذكره ابنُ حبب، إلا في أمرين:

الأول: إغفالُ البغدادي ذِكْرَ سوقَيْ دَبَا بعُمان، وعَدَنٍ باليمن.

الثاني: جَعْلُه قيامَ موسم صُحَار في العاشر من رجب[2]، وليس في الأول منه كما فعل ابنُ حبيب، ولا في الواحد والعشرين منه كما فعل المرزوقي، وقد تبيَّن لنا بالتحقيق أن الصواب ما ذكره المرزوقي. وقد ذكر «بروكلمان» أن البغدادي استفاد في تأليف كتابه من مَصادِرَ قديمةٍ لم تصل إلينا[3].



(١) عبد القادر بن عمر البغدادي: (١٦٢٠ ـ ١٦٨٢ م)، عالم بالأدب والتاريخ والأخبار، وُلد وتأدَّبَ في بغداد، وأُولع بالأسفار، فرحل إلى دمشق ومصر وأدرنه، وجمع مكتبةً نفيسةً، وتوفي بالقاهرة. أَشْهَرُ كتبه: خزانةُ الأدب في أربعة مُجلَّدات، طُبع بمصر (١٢٩٩ هـ).

(٢) خزانة الأدب: ٤/ ٣٦٠.

(٣) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٨٦.

* **الخُلاصَة:**

إذا أردنا أن نَخْتصِرَ ما بَسَطناهُ من أقوال المُصَنِّفين القدماء، في مواسم الأسواق الكبرى، التي كانت معروفةً في بلاد العرب والشام والعراق قديماً، قلنا فيها ما يلي:

١ ـ ذكر ابنُ إسحاق أربعة مواسم فقط، هي: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، وبَدْرٌ.

٢ ـ وذكر ابنُ سعد موسماً واحداً هو: سوق النَّبَطِ بيَثْرِبَ.

٣ ـ وذكر ابن حبيب اثنَيْ عَشَر موسماً، جديدُه فيها: دومةُ الجندَل، والمشقَّر بهَجَر، وصُحَار، ودَبَا، والشِّحْرُ، والرابيةُ، وعَدَنٌ، وصنعاءُ، وحَجْرُ اليمامة، ونطاة.

٤ ـ وذكر الأزرقيُّ أربعة مواسم، الجديدُ فيها: سوقُ حُبَاشة.

٥ ـ وذكر اليعقوبيُّ عشرة مواسمَ، لا جَديدَ فيها، وإنما ذكرها من جاء قبله.

٦ ـ وذكر الأصفهانيُّ موسماً جديداً هو موسمُ سوقِ الحيرة.

٧ ـ وذكر الطبريُّ موسمين جديدين هما: الخَنَافِسُ والكَبَاث بالعراق.

٨ ـ وذكر الهمدانيُّ أحَدَ عَشَر موسماً، الجديدُ فيها خمسةٌ هي: هجر البحرين، وقد حقَّقْنا أنه المشقَّرُ نفسُه، فليس بجديد، ومِنىً، وهي موسمٌ داخِلٌ في مَنَاسِكِ الحجِّ ومَجامِعِهِ، ومكَّةُ، ولم تكن سوقُها موسميَّةً، والجَنَدُ، ولا نملك عنه من المعلومات شيئاً مُفيداً، وأخيراً نَجْرانُ اليمن.

٩ ـ وذكر التوحيديُّ عشرةَ مواسمَ لا جديد فيها، سوى أنه سَمَّىٰ سوقَ الشِّحْرِ في بلاد مَهَرَة سوقَ إرَمٍ.

١٠ ـ وذكر المرزوقيُّ ثمانية عَشَر موسماً، جَديدُه فيها أربعةٌ هي: الأسْقَىٰ باليمن، وليس لدينا معلومات عنها، وأسواقُ دير أيُّوب، وبُصْرى، وأذْرِعَات بالشام.

١١ ـ وذكر ياقوت معظمَ المواسم المذكورة آنفاً، لكنَّ الجديد عنده سوقُ دَمَا بعُمان، ولم يذكرعنها شيئاً أكثر من ذلك، يُفيدنا في تحديد موضعها أو تعيين موسمها.

١٢ ـ وذكر القزوينيُّ ثمانية مواسمَ، كانت تقوم بالشام، الجديدُ فيها خمسةٌ هي: عمَّان، وفلسطينُ، والأردنُّ، وتوماءُ، ومنبج.

١٣ ـ وذكر القلقشنديُّ ثمانية مواسمَ، جديدهُ فيها موسمٌ سمَّاهُ سوقَ عُمَان، حقَّقْنا أنه أراد به قطعاً سُوقَيْ صُحَار ودَبَا بعُمانَ، فلا يجوز أن يُضَافَ إلى المواسم.

١٤ ـ وأما البغدادي فلم يأتِ بجديدٍ، بل نَقَص من المواسم سوقَيْ دَبَا بعُمَان، وعَدَنٍ باليمن. . .

فيكون بذلك مجموعُ ما أحْصَيْناهُ عند هؤلاء المُصَنِّفِينَ المتقدِّمين، ستَّةً وثلاثين موسماً عامّاً، فإذا نَقَصْنا منها تسعةً، لم يَثْبُتْ بالتحقيق وُجُودُها، أو إمكانُ البحث فيها، وهي النَّبَطُ وهَجَرُ البحرين ومِنَى ومكة والجَنَد والشِحْر والأسْقَىٰ ودَما وعُمَان، بقيت لدينا سبعةٌ وعشرون موسماً، معروفةٌ مواعيدُ ومواضعُ مُعْظمِها، ويمكن معرفةُ باقيها، وهي مُوزَّعةٌ على النحو التالي:

١ ـ جزيرة العرب:

وفيها سَتَّةَ عَشَرَ موسماً هي: «عكاظ، مجنَّة، ذو المجاز، بدر، حُبَاشَة، حَجْر اليمامة، نَطاة، دُومَةُ الجنْدَل، المُشقَّر، صُحَار، دَبَا، إرَمُ

الشِحْر، عَدَن، صنعاء، نَجْرانُ، الرابية».

٢ ـ بلاد الشام:

وفيها ثمانيةُ مواسمَ هي: «بُصرى، أذْرِعات، دَيْرُ أَيُّوب، عمَّان، الأُرْدُنُّ، فلسطينُ، تُوماءُ، مَنْبج».

٣ ـ بلاد العراق:

وفيها ثلاثةُ مواسمَ هي: «الحيرة، الخنافس، الكَبَاثُ»، يُضَافُ إليها «سوقُ المِرْبَد»، وإن لم تكن موسميّة، لما كان لها من الآثار العميقة في علوم العربية، وآدابها، فتكون جُملةُ ما حقَّقنا من أسواق العراق أربعةً.

فهذه جميعاً كانت مواسمَ عامّةً كِبَاراً، تقومُ فيها أسواقٌ للتجارة، ويكونُ فيها غالباً مجامِعُ للشعر والخطابةِ والمُفَاخَرةِ والمُمَاجَدةِ واللهْوِ واللعِبِ، وقد يكونُ فيها نسكٌ وعبادةٌ، إلى ما هنالك من شؤون العرب ومجتمعاتهم، إلا ما كان من المواسم في بلاد الشام بعيداً عن وُصُول العربِ إليه... ولنَنْتقلْ إلى الفصل التالي لعلَّنا نلتمسُ جديداً، حقَّقهُ بعضُ المتأخِّرين في موضوع المواسم.

جدول المواسم العامَّة

حسب ما انتهى إليه تحقيقُنا في موارد القدماء

	مواسم جزيرة العرب			مواسم بلاد الشام	
	المَوْضِعُ	موعد قيامه وانقضائه		المَوْضِعُ	موعد قيامه وانقضائه
١	عكاظ في نجد	الأول من ذي القعدة، عشرون يوماً	١٧	أذرعات	تشرين الأول
٢	مجنة في مكة	بقية ذي القعدة	١٨	توماء بدمشق	كانون الأول
٣	ذو المجاز بجانب عرفة	الأول من ذي الحجة ثمانية أيام	١٩	الأُردنّ	كانون الأول
٤	حَجْر اليمامة	العاشر من المحرَّم إلى آخره	٢٠	فلسطين	نيسان
٥	نطاة خَيْبر	العاشر من المحرَّم إلى آخره	٢١	دير أيوب	نيسان
٦	دومة الجندل بنجد	شهر ربيع الأول إلى آخره	٢٢	بصرى	تموز
٧	المشقَّر بهجر	شهر جمادى الآخرة بتمامه	٢٣	عمَّان	آب
٨	حُبَاشة بتهامة	ثلاثة أيام من أول رجب	٢٤	منبج	أيلول
٩	صُحَار بعُمان	العشرون من رجب خمسة أيام			
١٠	دبَا بعُمان	اليوم الأخِر من رجب		مواسم العراق	
١١	إرَم أو شِحْر مَهرة	أيامٌ من منتصف شعبان	٢٥	الحيرة	؟. . .
١٢	الرابية بحضرموت	النصف من ذي القعدة إلى آخره	٢٦	خنافس	؟. . .
١٣	عدن باليمن	الأول من رمضان عشرة أيام	٢٧	الكباث	؟. . .
١٤	صنعاء باليمن	من منتصف رمضان إلى آخره	٢٨	المِرْبَد	على مدار السنة
١٥	نجران باليمن	؟. . .			
١٦	بَدْر بالحجاز	؟. . .			

الفصل الثاني

مواسم الأسواق في كتب المحدثين
عرض ومناقشة ونقد

● مقـدمــة:

إذا اسْتَثنينا «سعيدَ الأفغانيّ»، الذي نَشر سنة (١٩٣٧ م) كتابه «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام» فكان أوّلَ من صَنَّفَ كتاباً مُسْتَقِلاً في الأسواق الموسمية، قَدَّم فيه، على قَدْرِ ما في وُسْعِهِ، من أحاديثها وأخبارها، فإن سائر مَن كتَبوا في هذا الموضوعِ اجْتَزؤُوا بنقل ما وجدوه في موارد الأَوَّلين، فأَثْبَتُوه في بضع صفحاتٍ من بعض مُصَنَّفاتهم، مختَصَراً غالباً، أو مجموعاً بعضُه إلى بعض أحياناً، من غير أن يبحثوا فيه، أو يَسْتقرِئُوا شيئاً من وقائعه!

وعلى ذلك لن أتحدَّث عن أولئك جميعاً، فليس فيما فعلوا ما يستحقُّ التعليق عليه، وإنما سأكتفي بعَرْضِ ما كتبه بعضُهم في هذا الشأن، ووَضْعِهِ في ميزان النقد، للتحقُّقِ منه، ومُناقَشتِهِ، والكشفِ عمَّا قَدَّمَهُ من جديدٍ إلى موضوع المواسم في عصر الجاهلية.

* * *

المطلب الأول ـ بُلوغُ الأَرب في مَعْرفة أَحْوَال العرب:

لعلَّ أوَّلَ المُحَدَثين الذين تعرَّضُوا لمواسم الجاهلية هو «محمود

شكري الآلوسي»[1]، فكتب فيها فصلاً من نَحو سبع صفحات، في كتابه «بلوغ الأرب»، نقل فيه ما تَيسَّر له من حديث الأسواق، عن الموارد التي كانت مُتَوافرةً في أيامه، للقُدامى كالأزرقي والقلقشندي والبغدادي[2]، فأحْصَى خمسَ عشرةَ سوقاً، بدا من سِيَاق حديثه عنها أنه يَعُدُّها بعضَ مواسم العرب في الجاهلية، لا كلَّ المواسم. . . وقد عيَّن مواضِعَها، وبيَّن مواقعَ بعضِها، ومواعيدَ مُعْظَمِها، وشرح طرائق بُيُوعها، وذكر شيئاً من وقائع عكاظ، وأشار إلى أن العرب كانوا يحضرونها بما عندهم من المآثِر والمفاخر، وينتقلون من بعضها إلى بعض[3]. . .

ولو رجعنا إلى مواسم الأسواق في جزيرة العرب، كما انتهى إليه تحقيقنا، في خُلاصَةِ الفصل الأول، لوجدنا أن الآلوسيَّ نَقَصَ منها ثلاثةً هي: دَبا ونَجْرانُ وبَدْرٌ، وأقحم عليها اثنين سمَّاهُما: سوقَ هجر، وجعل قيامَها في شهر ربيع الآخِر، وهَجَرٌ عنده إسمٌ لجميع بلاد اليمن، وسوقَ عُمَان، زعم أنها تقوم بأرض البحرين إلى أواخر جُمادى الأولى[4]. . . وإلى

(١) محمود شكري بن عبد الله الآلوسي: عالم بالأدب والتاريخ والدين، مولده ووفاته في بغداد (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤). أشهرُ كتُبه: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، نال به جائزة لجنة اللغات الشرقية في استكهولم. طُبع في بغداد، ونُشِر أولَ مرةٍ سنة (١٨٩٨) في بغداد.

(٢) نُشِر كتابُ «المحبَّر» لابن حبيب أولَ مرةٍ سنة (١٩٤٢ م)، وكتابُ «أخبار مكة» للأزرقي سنة (١٨٥٨)، ثم حقَّقَهُ ونشره رشدي مَلْحَس سنة (١٩٣٣)، و «تاريخُ اليعقوبي» سنة (١٨٨٣) في ليدن، ثم في النجف سنة (١٩٣٩)، وكتابُ «الإمتاع والمؤانسة» للتوحيدي بين (١٩٣٩ ـ ١٩٤٤)، وكتابُ «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي سنة (١٩١٨)، وكتابُ «صبح الأعشى» للقلقشندي بين (١٩١٠ ـ ١٩٢٠)، وكتابُه «نهاية الأرب» سنة (١٩١٣) في بغداد و (١٩٥٩) بمصر، وكتابُ «خزانة الأدب» للبغدادي سنة (١٨٨١).

(٣) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٧٠.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٥.

ذلك لم يُعيِّن مدَّةَ قيام سُوقِ حُبَاشَة في رجب[1]، وعيَّن موقعَ سوق مجنَّة قربَ مكةَ من غير تحديد، وقيامَها قُبيل موسم الحجّ، من غير أن يذكر يوماً ولا مُدَّةً معروفة لقيامها[2]. . . كما أنه جعل قيام موسم صُحَار بعُمان في العاشر من رجب، خمسة أيام[3]، مُتَّبِعاً مذهبَ البغدادي، مع أن الصوابَ ما عيَّنَهُ المرزوقي لقيامها بانقضاء عشرين ليلةً من رجب. وذكر كذلك أن في قيام سوق عكاظ أقوالاً مختلفةً، منها أنها كانت تقومُ أوَّل شهر ذي القعدة إلى العشرين منه، ومنها أن العرب كانوا، حين يَقْدَمُونها في مَوْسِمِها، يقيمون بها جميع شهر شوَّال، أو من نِصْف ذي القعدة إلى آخره. . . وردَّ التبايُنَ في ذلك «لاختلاف العادة في السنين، أو لاختلاف القبائل في الإقامة في هذا الموسم»[4]. . . وقد أخَذَ بالقول الذي يجعلُ موقعَ عكاظ وراء «قرن المنازل» بنحو أربعة وعشرين ميلاً في الطريق إلى صنعاء، بين وادي نخلة والطائف في مكانٍ يُقال له «الأُثَيْداء»، وهو إلى الطائف أقربُ، بينهما عشرة أميال[5].

وهكذا يكون الآلوسيُّ أَغْفَلَ موسماً من مواسم الجاهلية هو سوقُ «دَبَا» بعُمان، على ما كان من خطره، وبالرغم من إطْباق الموارد القديمة على عَدِّه في مواسم العرب الكبرى، فضلاً عن إغفاله مَوْسمِيْ بدر ونجران. . . كما أَقْحَم في مواسم الجاهلية مَوْسِمين سمَّاهُما: سوقَ هجَرٍ وسوقَ عُمَان، من غير نصٍّ أو دليل على وُجُودِهما حقّاً، ويبدو أنه أخذهما عن القلقشنديّ أخْذاً

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٧.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٦.
(٣) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٦.
(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٧٠.
(٥) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٧.

هَيِّناً من غير تَدبُّر! وكنتُ ذكرتُ في ملاحظاتي على القلقشنديّ أنه أخذ حديث الأسواق عن التوحيديّ، فلئن أَطلق على سوق المشقَّر إسمَ سوق هجر، لقد كان يعلم قطعاً أنهما سوقٌ واحدة كانت في البحرين، بدليل أنه أمْسَكَ، كالتوحيديّ، عن تعيين موعدٍ لقيام موسمها، وذكر أن الانتقال إليها من دُومَة الجندل إنما يكون في ربيع الآخِر، وهو شهرٌ يَسْلَخُهُ المرتحلون في الطريق إلى هجر، وهذا ما يُفهم من نصّه: «... ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين، في شهر ربيعِ الآخِر، فتقوم أسواقُهم بها»[1]، ولكن سَيَاق الكلام أنشأ لَبْساً، توهَّم معه الآلوسيُّ أنه وقع على موسمٍ آخَرَ في البحرين، غير موسم المشقَّر الذي يقوم في جُمادَى الآخرة، هو موسمُ هَجَر، وقد ظن أن قيامَهُ هو ما يكونُ في ربيعِ الآخِر، وليس الارْتحالَ إليه، فأثْبَتَه على هذا النحو... والقـولُ نفسُه يُقـال فيما زعمه سوقـاً لعُمـانَ، فالتوحيدي ذكر أنهم كانوا «يرتحلون نحو عُمَان، فتقوم سوقُهم بديار دَبَا ثم بصُحَار»[2]، فاكتفى القلقشندي بالقول: «... ثم يرتحلون نحو عُمان بالبحرين فتقوم سوقُهم بها»[3]. فكان أولَ من أَغْفَل ذِكْر سُوقَيْ صُحَار ودَبَا، وسمَّاهُما معاً سوقَ عُمَان، فاعتقـد الآلوسيُّ أنها سـوقٌ أُخْرى، ولم يجـدْ لها موعداً، فعيَّن موسمها في شهر جُمادىٰ الأولى، ومَوْقعَها في أرض البحرين[4]، ذلك أن عُمَانَ عند القلقشندي مَرْفأُ بلاد البحرين[5]، بينما يذكر الآلوسيُّ في موضعٍ آخَر من كتابه، أن أَحَدهما يبعدُ عن الآخَر مسيرة شهرٍ تقريباً في

---

(١) صبح الأعشى: ١/٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

(٣) نهاية الأرب: ٤٦٤، وصبح الأعشى: ١/ ٤٦٨.

(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.

(٥) صبح الأعشى: ٣/ ٢٥٥، ونهاية الأرب: ٩١.

البَرّ[1]... فإذا كان ما سمَّاهُ موسمَ هجرٍ، ينقضي بانقضاء ربيع الآخِر، وموسمَ عُمانَ يقومُ في جُمادَى الأولى، فكيف كان يَتَسنَّى لهم الانتقالُ في ليلة واحدة من مدينة هَجَرٍ إلى عُمَان؟ إلا إذا كان السفرُ يومئذٍ على البِسَاط السحري!

وأخيراً، فإن المُحدَثين الذين جاؤوا بعد الألوسي يبحثون في موضوع المواسم حسبوا ما ذكره مُحقَّقاً، فنقلوه عنه، وتابعوه على كثير مما ذهب إليه، ومنهم جرجي زيدان[2]، ومصطفى صادق الرافعي[3]، وسعيد الأفغاني[4]، وجواد علي[5]، وغيرُهم...

* * *

(١) بلوغ الأرب: ١/ ١٨٦.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) تاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥.
(٤) أسواق العرب: ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٥.
(٥) المفصّل: ٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، ٣٧٦.

جدول بالأسواق الموسمية كما ذكرها الآلوسيُّ في بُلوغ الأَرَب		
	اسم السوق	قيامُ الموسم وانقضاؤه
١	دومة الجندل	أول ربيع الأول إلى نصفه وقد يمتد إلى آخره
٢	هَجَر	ربيع الآخِر (وهو من تَوَهُّم الباحث)
٣	عُمَان	إلى أواخر جُمادَى الأولى (وهو من تَوهُّم الباحث أيضاً)
٤	المشقَّر بالبحرين	أول جُمادَى الآخِرَة
٥	صُحَار	العاشر من رجب، خمسة أيام (وهو غلط)
٦	الشِحْر	النصف من شعبان
٧	عدن أَبْيَن	أيام من رمضان
٨	صنعاء	النصف من رمضان إلى آخره
٩	حضرموت	النصف من ذي القعدة
١٠	ذو المجاز	أول ذي الحجة ثمانية أيام
١١	مجنَّة	قُبيل أيام موسم الحجّ
١٢	حُبَاشَة	أيام من رجب
١٣	عكاظ	أول ذي القعدة إلى العشرين منه، أو من نصفه إلى آخره
١٤	نَطَاة	يوم عاشوراء إلى آخر المحرَّم
١٥	حَجْر	يوم عاشوراء إلى آخر المحرَّم

المطلب الثاني ـ تاريخ التمدُّن الإسلامي:

وقد تحدَّث «جرجي زيدان»[1] عن أسواق العرب في كتابه «تاريخ التمدُّن الإسلامي» مرَّتين، الأولى: في كلامه على «حكومة العرب في

(١) جرجي حبيب زيدان: (١٨٦١ ـ ١٩١٤). ولد في بيروت، ثم هاجر إلى القاهرة، وأنشأ مجلة الهلال، ودار الهلال للطباعة والنشر، وألَّف كثيراً من الروايات التاريخية والكتُب، أهَمُّها: تاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ التمدُّن الإسلامي، وقد كان يفتقر إلى الدِقَّة العلمية والأمانةِ التاريخية في كتاباته. توفي بالقاهرة.

الجاهلية»[1]، ولم يأتِ فيه بشيءٍ يستحقُّ العرضَ والمناقشة، والثانية: لمَّا تكلَّم على «مجالس الأدب وسوق عكاظ»[2] في الجاهلية، فعدَّدَ اثنتَيْ عشرةَ سوقاً، عيَّن موسمَ واحدةٍ منها هي «دُومَةُ الجندل»، وتَركَ سائِرَها، ربما لاعتقاده أن الناس كانوا ينتقلون بينها دِرَاكاً[3]، إذا فرغوا من سوقٍ أسرعوا ليُدرِكوا ما بعدها، وهو اعتقادٌ لم تَثبُتْ لنا صِحَّتُه كما رأينا في الفصل السابق. . . وقد زعم أنه أخذها عن نسخةٍ مخطوطة من كتاب «نهاية الأرب» للقلقشندي[4]، ولكن زَعْمَهُ غيرُ صحيح، لأن القلقشندي لم يذكر سوى ثمانيةِ مواسمَ، كما مرَّ بنا، فمن أين جاء زيدانُ بالأربعة الأُخَر؟ والحقيقة أنه أخذ أسواقَه عن كتاب «بلوغ الأرب» للآلوسي، ونَقَصَ مما وجدهُ فيه ثلاثةَ مواسمَ هي: ذو المجاز ونَطَاةُ وحَجْرٌ، فلم يذكرها في كتابه، واكتفى بسَرْدِ البقيَّة عَدّاً، من غير أن يزيدَ عليها شيئاً آخَرَ، إلا بعضَ الأخبار عن سوق عكاظ، أخذها من الأغاني للأصفهاني، وبذلك لم يُحقِّق في تأريخه أسواقَ العرب جديداً، يُغْني الموضوعَ، وينفعُ الباحثين.

وقد كنا الْتَمَسْنا له بعضَ العُذْرِ في تَقْصيره لو أنه اشْتَكىٰ نُدرةَ الموارد، لكنه، فوق التقصير، قَلَّل من قيمة مواسم العرب، واسْتَهَانَ بها عندما قال: «ولا تزالُ أمثالُ هذه الأسواق تُقامُ إلى اليوم، في القُرَىٰ، أو في البلاد البعيدة عن التمدُّن الحديث. . .»[5]، ثم لمَّا شَبَّهها بأسواقٍ تنعقِدُ يوماً في الأسبوع،

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) الدِّرَاك: المُتَلاحِقُ والمُتَّصِلُ.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٣٧، الحاشية (١).

(٥) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦.

«فيجتمع الناسُ إليها من الضواحي للبيع والشراء»[١]. . . !، يريدُ أن العرب كانوا يومئذٍ بعيدين من الحضارة والتمدُّن، مُفْتَقِرينَ إلى الأسواق التجارية الدائمة أو الثابتة، فكانت تُقامُ لهم تلك الأسواقُ للامْتِيَار[٢]، في مواسمَ مُعَيَّنةٍ يجتمعون إليها، فجعل منها تعبيراً عن تخلُّفِهم، وهي في حقيقتها رمزٌ لِتَقدُّمِهم، مع أنه اطَّلَعَ غالباً على كثيرٍ مما كان يجري في بعض المواسم، وجُلُّهُ مَذكورٌ في كتاب الأغاني للأصفهاني، الذي نشرتْه بمصر مطبعةُ بولاق منذ سنة (١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م)[٣]، وبعضُه مذكورٌ في كُتبٍ أُخْرى كانت متوافرةً وقتئذٍ، بدليل أنَّ الكُتُب الأدبيّة، التي كان مُقَرَّراً تدريسُها في المدارس الثانويَّة بمصر، مطلعَ القرن العشرين، كانت تشيدُ بأسواق العرب في الجاهلية، وتُنْصِفُها بإحْسَانِ وَصْفِها، ومنها كتابُ «أدبيَّات اللغة العربية»[٤] الَّذي نشرتْ المطبعةُ الأميريَّةُ بمصر طبعتَه الثانيةَ سنة (١٩٠٩ م)، ومماجاء فيه: «. . . فكانت هذه الأسواقُ أنْدِيَةً عِلميَّةً، ومجتمعاتٍ لُغَوِيَّةً أَدبيَّة، اهتدى بها العربُ إلى تهذيب لُغتهم لفظاً وأسلوباً، وجَعْلِ لُغةِ الشعر والخطابة لغةً واحدةً بين جميع القبائل، باذلين في ذلك جُهْدَ المستطيع، ومنها: مجنَّةٌ وذو المجاز وعكاظ. . . »[٥].

على أن زيدان عاد واعترف في موضعٍ آخَر بأن شأن العرب في موسم

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٧.

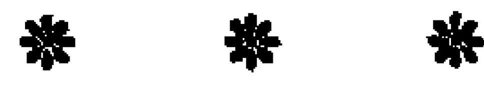
(٢) الامتيار: جمعُ الطعام والمُونَة. والمِيرَةُ: الطعامُ والمُونَة.

(٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/ ٧٠.

(٤) أدبيات اللغة العربية: أَلَّفَهُ الأساتذة محمد عاطف ومحمد نصار وأحمد إبراهيم وعبد الجواد عبد المتعال، ونقَّحهُ وصَحَّحه وزاد عليه الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف في مصر.

(٥) أدبيات اللغة العربية: ١٢.

سوق عكاظ، كان كشأن الإغريق حينما كانوا يجتمعون في موسم «أُلِمْپُس»، يُمارسون الألعابَ الأُلِمْپِيَّةَ الرياضية، ويُقيمون الاحتفالاتِ الدينيَّةَ، وكان فيهم حينذاك فلاسفةٌ وشعراءُ وعلماءُ، فكانوا ينتهزون قيامَ الموسم، فيُقيمون فيه المناظرات والمحاورات، وينظمون الشعر، إلى غير ذلك من الأنشطة الثقافية والعلمية(١).



المطلب الثالث ـ تاريخ آداب العرب:

وقد عَرَضَ «مصطفى صادق الرافعي»(٢) في كتابه «تاريخ آداب العرب» لموضوعِ أسواق الجاهلية، وبَحثَ دَوْرَها في تهذيب اللغة العربية، وسَمَّىٰ «آخِرَ الأَدْوارِ التي قامت فيها قريشٌ مقامَها في تهذيب العربية: الدَّوْرَ العُكاظيَّ»(٣) نسبةً إلى سوق عكاظ. ثم عَدَّ من الأسواق ومواضعها ومواقيتها ما ذكره الآلوسيُّ، باستثناء سوقَيْن أغْفَلَ ذِكْرَهُما: سُوقُ نَطَاةٍ بخيْبر، وسوقُ حَجْرٍ باليمامة. . . وأشار إلى أسواقٍ ذكرها الجاحظُ، كانت بين دُورِ العرب ودُورِ العجم «يلتقون فيها للتسوُّق والبِيَاعات، وهي التي كانت أوسعَ أبواب الدَّخِيل والمُعَرَّب»(٤) في العربيَّة، وهي: سوقُ الأُبُلَّة، وسوقُ بَقَّة(٥)، وسوقُ

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٩.

(٢) **مصطفى صادق الرافعي**: (١٨٨١ ـ ١٩٣٧ م). أديب شاعر، يُعَدُّ نثرهُ في الطبقة الأولى من البلاغة والفصاحة، مولده ووفاته بمصر، كان مصاباً بالصَّمَم. أشهر كتُبه: حديث القمر، رسائل الأحزان، وحي القلم، وكتاب تاريخ آداب العرب في ثلاثة أجزاء.

(٣) تاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٩٦.

(٥) أصاب الكلمة تصحيفٌ في الطباعة فجاءتْ: لقَّة (باللام)، والصوابُ: بقَّة (بالباء) كما أثبتنا، وهي معروفة بالعراق.

الأنْبَار، وسوقُ الحِيرة... وليس لدينا دليلٌ على مَوْسميَّةِ هذه الأسواق، سوى ما سبق أن ذكرناه في سوق الحيرة.



المطلب الرابع ـ عُكاظ والمِرْبَد:

ثم نَشَر «الدكتور أحمد أمين»[1] أبحاثاً في مجلَّة الرسالة القاهرية[2]، تحدَّث فيها عن سُوقَيْ عكاظ والمربد[3]، وحاول أن يُوضح آثارَهما في النواحي الأدبيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة من حياة العرب... ولم يتعرَّضْ لسائر الأسواق بشيءٍ، إلا بِرَأيٍ قَسَم فيه تلك الأسواق طائفتين، **الأولى**: أسواقٌ مَحلِّيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي كثيرة، كسُوقِ صنعاء، وسوق حضرموت، وسوق صُحَار، وسوق الشحر، يجتمع فيها غالباً أهلُها وأقربُ الناس إليها. **والأُخْرى**: أسواقٌ عامَّة، لقبائلِ العربِ جميعاً، أَهَمُّها سوقُ عكاظ، وسببُ شمولِها وأَهميَّتِها وقوعُ موسِمِها قُبيل الحجِّ، في شهرٍ من الشهور المُحرَّمة[4]... ثم تحدَّث عن موقعِ عكاظ وموعدِ انعقاده، فقال: إنه «في الجنوب الشرقي من مكة، على بُعْد نحوِ عشرة أميال من الطائف، ونحو ثلاثين ميلاً من مكة... وهو مكان مُنبسِطٌ في وادٍ فسيح، به نخلٌ وماءٌ

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) مجلة الرسالة: الأعداد (١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦ لسنة ١٩٣٣) ـ القاهرة.

(٣) المِرْبَدُ: ضاحيةٌ من ضواحي البصرة، كان موضع سوق الإبل، وهو على طرف البادية، فجعله العربُ سوقاً عامةً يقضُون فيها شؤونهم، على غِرار ما كان بعكاظ، فكان لهم منه في الإسلام، ما كان لهم من عكاظ في الجاهلية.

(٤) مجلة الرسالة: ١٢/ ٢٤ لسنة ١٩٣٣.

وصخور»[1]، ثم أضاف أن الأقوال مختلفةٌ في موعد انعقاده، ولكن أكثرها على أنه كان في ذي القعدة من أَوَّلِهِ إلى العشرين منه[2]. . . وانتقل بعد ذلك إلى بَيانِ أَثَرِهِ ووظائفِهِ ونظامِهِ وتاريخه، ثم إلى الحديث عن سوق المربد في الإسلام وآثاره الأدبية والسياسية.

وفي تعليقٍ سريع على قوله بأن موقع عكاظ على بُعْدِ ثلاثين ميلاً من مكة، وهو غَلَطٌ قطعاً، نقولُ: كيف يستقيم ذلك إذا كان على بُعْدِ عشرة أميال من الطائف؟ فهل ما بين مكة والطائف أربعون ميلاً فقط؟

وأما قِسْمتُه الأسواقَ طائفتين: محليَّةً خاصَّةً، وعامَّةً، فيجب ألاَّ يحجبَ الموْسِميَّةَ عن الطائفتين، فكلتاهما، كما ذكر المؤرِّخون، كانت موسميَّةً، لها أوقاتٌ معيَّنةٌ من السنة كانت تقوم بها، وهو إنما أراد بهذه القِسْمة زوَّارَ الأسواق، فزعم أن الخاصَّة كان يجتمع فيها أهلُها وأقربُ الناس إليها، وأن العامَّة كانت لقبائل العرب جميعاً مثل عكاظ. وقد مثَّل للخاصَّة بأسواق صنعاء، وصُحَار، والشحْر، وهو غلَطٌ، لأن زُوَّار هذه الأسواق كانوا يقصدونها من مناطق قريبةٍ وبعيدةٍ، وكانوا من العربِ والأجانبِ على السواء، لما كان يكون بها عادةً من السِّلع المختلفة المرغوب فيها من الناس. ومن أجل ذلك جُعل موسمُ صنعاء في ذي القعدة، أي في الشهر الذي ينعقد فيه موسمُ عكاظ، وجُعل موسمُ صُحَار في شهر رجَب الحرام، لتشملَ حُرْمَتُه من كان يقصدُه من المطارِح النائية.

* * *

(1) مجلة الرسالة: ١٢/ ٢٤ لسنة ١٩٣٣.

(2) المرجع نفسه.

المطلب الخامس ـ أسواقُ العرب:

ثم نشر الأستاذ سعيد الأفغاني كتابه «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام»[1]، فكان، فيما علمتُ، أوّلَ من اختَصَّ هذا الموضوعَ، في العصر الحديث، بكتابٍ، تناولَ في القسْم الأول منه، ويقع في نَحْو مئتَيْ صفحة، عدداً من المواضيع، مَهَّدَ بها لحديث الأسواق، منها: بُيوعُ الجاهليَّة، والرِّبا، والإيلاف، وحِلْفُ الفُضُول، وحروبُ الفِجَار، وأحْداثُ قريشٍ التجاريّة، وغيرُها... ثم انتقل في القسم الثاني إلى حديث الأسواق، فكان نصيبُ أسواق الجاهلية نَحْوَ مِئَتَيْ صفحة، ونصيبُ سوقِ المِرْبَدِ في الإسلام نحو ستين صفحة.

وقد بلغت أسواقُ الجاهلية عنده عشرين سُوقاً، فزاد على ما ذكره الآلوسيُّ منها خَمْساً هي: سوقُ دَبا بعُمَان، وأسواقُ دَيْر أَيُّوب وبُصْرى وأذْرِعَات بالشام، وسوقُ الحيرة بالعراق، واتفق معه في الخمسَ عشرةَ الأُخرى عَدَداً ومَواضِعَ ومَواعِيدَ، إلا أنه أكَّد قيام موسم «مجنَّة» في العَشْر الأخير من ذي القعدة، وقيامَ موسم «عكاظ» في الأول من ذي القعدة إلى العشرين منه، مُتَّخِذاً في ذلك مذهبَ الأَزرقيّ.

والكتابُ في جُمْلته عملٌ جَيِّدٌ، لكنَّ ثمَّةَ أمريْن رئيسَيْن يُؤخَذان عليه:

الأوَّلُ: أنه لم يُحْكمِ الصِّلةَ بين موضوع الأسواق الموسميَّة، والموضوعات التي جمعها وساقها تمهيداً للبحث فيه، وهي نصفُ الكتاب

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ظهرت الطبعةُ الأولى منه سنة (١٩٣٧ م)، والطبعة الثانية بدمشق سنة (١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م)، وهي التي رجعنا إليها في هذا البحث، وسنكتفي في الإشارة إلى هذا الكتاب بعبارة «أسواق العرب».

حتى ليكاد القارئُ يَحَارُ في معرفة الغرض من عَرْضِها في الكتاب، ولا سيما أن معظم كُتُب التاريخ والسِّيَرِ والأدبِ والأخبار مَملُوءَةٌ بها!...

والآخَرُ: أنه أَثْبتَ مختلف الوقائع والحوادث والروايات من غير تحقيق فيها، أو نَقْدٍ لها، أو مُوازَنةٍ بينها وبين أمثالها، وتَقبَّلها كما وردتْ، وعَرَضَها في كتابه، وكأن الشكَّ لا يمكن أن يَرْقَىٰ إلى شيءٍ منها! وفيما يلي أهَمُّ ملاحظاتي عليه...

١ ـ غَلَطُهُ في الأَخْذِ بما زعمه المستشرقُ كِرِنْكو عن سرقة المرزوقيّ من ابن حبيب:

أوَّلُ ما أُحبُّ أن أُسجِّلَهُ أنَّ الأفغاني ما كاد يَفْرَغُ من طبع كتابه حتى أرسلَ نسخةً منه، هديّةً، إلى صديقه المستشرق الألماني «كْرِنْكُو»[١]، فكتب هذا إليه يقول: «إن أصلَ هذه الأخبارِ، أي أخبار أسواق العرب، كلِّها بابٌ في كتاب المحبَّر لابن حبيب، في النسخة الوحيدة، المحفوظة في المتحفة البريطانية... ولا شك بأن المرزوقيَّ سرق عباراته منه، وزاد أشياءَ غير مُهمَّةٍ»[٢]، فوافَقَهُ الأفغانيُّ مُسَلِّماً بصحَّة كلامه قائلاً: إنه «لم يُبْعِدْ عن الصواب» إذ كتب إليه بذلك! ثم مضى يُعلِّق على أخبار المرزوقي في غير موضعٍ من الكتاب بقوله مثلاً: «نقل المررزوقيُّ هذا عن كتاب المحبَّر لابن حبيب، ولم يَعْزُ إليه»[٣].

(١) فْرِيتْسْ كْرِنْكُو: مستشرق ألماني فاضل، من أعضاء المجمع العلمي العربي، حقَّق كثيراً من المخطوطات العربية لبعض القدماء، كابن دُريد وابن قتيبة وابن الجوزي والبيروني وغيرهم. علَّم العربية في الهند، ثم انتقل إلى كمبردج بلندن، وظلَّ فيها حتى وفاته سنة (١٩٥٣ م) عن (٨٢) عاماً.

(٢) أسواق العرب: ٢١١ (الحاشية: ١).

(٣) المرجع نفسه: ٤٧ (ح: ١)، و ٤٨، و ٥٣ (ح: ٢)، و ٢٣٨ (ح: ١)، و ٢٣٩ (ح: ١)...

والحقيقةُ، كما أشرتُ إليها في كلامي على كتاب المرزوقي، أنَّ هنالك مُشَابَهةً، كادت تكون تامّةً، بين كثير من عباراته وعبارات ابن حبيب في حديثهما عن مواسم الجاهلية. . . لكنَّ هذه المشابهة لا تَسْتلزِمُ قطعاً أن يكون المرزوقيُّ سرق نُصوصَهُ من ابن حبيب، وإنما الأمرُ مُحتاجٌ إلى بعض الرَّوِيَّةِ للكشف عن سرِّ هذا التشابُهِ، وليس إلى المُقَابلة بين عبارات الرجُلَيْن وحَسْبُ. . . فالنظرةُ الأولى إلى فصل الأسواق في كتاب المرزوقيّ تُؤكّد أن الرجُلَ عَزَا أخبارَهُ إلى أصحابها، وأنه جاء بزيادةٍ في الأخبار على ما جاء به ابنُ حبيب، فذكر لنا مثلاً عُروضَ سوق الشِّحْرِ[1]، وما كان يُصْنَعُ بعَدَنٍ، ثم يُنقل منها إلى بلدان العالم[2]، وما كان يُحْمل من البضائع إلى صنعاء، وما كان يُحْمَلُ منها[3]. . . كما قدَّم لنا معلوماتٍ عن سوق عكاظ لم نجدْ مثلَها عند ابن حبيب، كالمنابرِ التي كانت بعُكاظ، وراياتِ الوفاءِ والغَدْرِ التي كانت تُنْصَبُ فيها للوَافين والغادِرين[4]، وعيَّن كذلك مواقعَ قبائل العرب من التحريم والتحليل، ومواقعَ الأسواق من شهور الحِلّ وشهور الحرم، وموقِفَ العربِ منها، وذكر شيئاً من تقاليد السفَرِ والانتقال في غير الأَشْهُر الحرُم عند الخائفين[5]. . . وفوق ذلك كلِّه ساعدنا، كما مرَّ بنا، على تصويب موعد قيام موسم صُحَار[6]، وقد غلط ابنُ حبيب في تعيينه وضَبْطه[7]. . .

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٤.
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٧٠.
(٥) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١ و ١٦٦.
(٦) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٣.
(٧) المحبَّر: ٢٦٥.

وعلى ذلك، فالمطلوب إذن هو التحقيق في نصوص الرجُلَيْن، والبحثُ عن عِلَّة التماثُل بينهما في كثير من العبارات، وهو بحثٌ ليس بالعَسِير، وإنما يحتاجُ إلى شيءٍ من الرَّوِيَّة والأَنَاة. ذلك أن المرزوقيَّ لم يُغفِل الإسْنَادَ إلى المصدر الذي أخذ عنه، بل بدأ حديثَ الأسواق بالإشارة إليه أولاً، وذلك بقوله: «قال أبو بكر محمدُ بنُ الحسن بن دُرَيْد الأَزْدِيُّ[١]، في إسْنَادٍ ذَكَرَهُ: إن أسواق العرب الكبيرةَ كانت في الجاهلية ثلاثَ عشرةَ سوقاً...»[٢]، ثم أشار إليه مرةً أخرى، بعبارةٍ أشدَّ وُضُوحاً، جاءت في أثناء الكلام، وذلك بقوله: «قال أبو بكر الدُّرَيْديُّ: لم يكن حديثُ الأسواق في كتاب أبي عبيدة[٣]، وإنما أَلْحقَهُ أبو حاتم[٤]، فنَقَلْناهُ من كتابه»[٥].

فالمرزوقيُّ عَزا حديثَ الأسواق إذن، أو قسمٍ منها، إلى ابن دُرَيْد، وقد صرَّح ابنُ دُريد بأنه نقله من كتاب أستاذه أبي حاتم السِّجْستاني، ونَفَىٰ أن يكون في كتُب أبي عبيدة النحْوي حديثٌ عن أسواق العرب. وقد عاش أبو حاتم وابنُ حبيب في العصر نفسه، وتلقَّى كلاهما العلمَ على علماء ذلك

---

(١) ابنُ دُرَيْد: وُلدَ أبو بكر الدريديُّ بالبصرة سنة (٢٢٣ هـ)، ونشأ وتعلَّم فيها، وأخذ العلم عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وغيرهما من العلماء، وصار إمامَ عصره في اللغة والشعر والأدب. له تصانيفُ كثيرةٌ، منها: الجمهرةُ، الاشتقاقُ، السَّرْجُ والِلجَام، وله أيضاً كتابٌ في الأنواء. تنقَّل بين البصرة وعُمَان وبغداد وفارس، وتُوفي سنة (٣٢١ هـ).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) أبو حاتم السِّجِسْتَاني: سهلُ بنُ محمد الجُشَمِيُّ. عالم باللغة والشعر، من أهل البصرة. كان من تلاميذ الأصمعي، وأخذ عن أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة، وأخذ عنه العلم كثيرون، منهم المُبرّدُ. كان كثير الرواية عن الأصمعي، وله مُصَنَّفاتٌ كثيرة، توفي سنة (٢٤٨ هـ) تقريباً.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٨.

العصر، وكان منهم: الأَصْمَعيُّ، وأبو عُبَيدة، وأبو زيد الأنصاريُّ[١]، وأبو المنذر هشامُ بنُ الكلبيّ، وغيرهم[٢]. . . وعلى ذلك يكون تَشابُهُ العبارات عندهما مَرَدُّهُ إلى نَقْلِهما عن مَوْرِدٍ واحد، عَزا إليه المرزوقيُّ، وأغفله ابنُ حبيب، ولم يكن مَرَدُّه إلى سرقة المرزوقي عباراته من ابن حبيب، مع أن هذا مُتَّهمٌ بالإغارة على كتُب الآخَرين، وإسْقاطِ أسمائهم منها، وادِّعائها لنفسه[٣]، وإن كان يَذكر أحياناً إسمَ ابن الكلبي في بعض أسْنادِ المحبَّر[٤]. . . على أن أهَمَّ مآخِذِ كتاب المحبَّر، كما حقق الدكتور محمد حميد الله، إنما هي «كتُبُ ابنِ الكلبي، يُؤَيِّدُ ذلك تَشَابُهُ عناوينِ الفُصول في المحبَّر، وأسماءِ ما نُسب إلى ابن الكلبي من التصانيف[٥]. . .». والمعروف عن أبي المنذر بن الكلبيّ أنه تَتَبع آثار عرب الجاهلية، كأبيه «أبي النَّضْر محمد بن السائب الكلبي»، وجمع أخباراً كثيرةً عن أحوالهم، وأيامهم، وأنسابهم، وصنَّف في ذلك تصانيفَ كثيرةً تزيدُ على مئةٍ وخمسين[٦]، وقد ذَكَر «الزركليُّ»[٧] أن من بينها كتاباً في أسواق العرب[٨]، وأشار المستشرقُ

(١) أبو زيد الأنصاري: سعيدُ بنُ أَوْس. أحدُ الأئمّة في اللغة والأدب، كانت اللهجاتُ والنوادر في الغريب أغْلبَ عليه. عُمِّر حتى قارَبَ المئةَ، وتُوفي بالبصرة سنة (٢١٥ هـ).

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٥٩.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٥٣.

(٤) المحبَّر: ٥٠٨ ـ (كلمة محمد حميد الله في خاتمة الكتاب ـ ١٩٤٢ م).

(٥) المرجع نفسه: ٥٠٧.

(٦) ابنُ خَلِّكان ـ وَفَيَاتُ الأعيان: ٦/ ٨٢ ـ ٨٤.

(٧) خير الدين بن محمود الزركلي: (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦ م). عالم دمشقيٌّ، أديبٌ وسياسيٌّ، وصحافيٌّ مُناضِلٌ. شَغَل في المملكة العربية السعودية مناصبَ دبلوماسيةً متعددة. أهمُّ مؤلَّفاته «الأعلامُ» في تراجم العرب والمستعربين والمستشرقين، ويقع في ثماني مجلدات. وسجَّل في كتابه «ما رأيتُ وما سمعتُ» رحلته إلى الحجاز.

(٨) الأعلام: ٨/ ٨٨.

الألماني كارل بروكلمان[1]، إلى أن هذا الكتاب نُشِر في باريس بالفرنسية سنة (١٩٣٥ م)، ضمن كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخِلافَة الراشدة»[2] من تأليف الدكتور محمد حميد الله، وقد نظرتُ فوجدتُ ان لجنةَ التأليف والترجمة والنشر بمصر تولت طبعَ هذا الكتابِ بالعربيَّةِ مرَّتين، الأولى سنة (١٩٤١ م)، والثانية سنة (١٩٥٦ م)، فاطَّلعتُ عليهما، ولم أجدْ فيهما كتابَ أسواق العرب لابن الكلبي كما زعم بروكلمان، كما لم أجدْ في الكُتب التي عَدَّدها «ابنُ خَلِّكانَ»[3] لابن الكلبي ذِكْراً لكتاب أسواق العرب هذا، ولكن الأفغانيَّ أشارَ، في إحدى حواشيه، إلى أنَّ لابْن الكلبي كتاباً في أسواق العرب، وأَحَالَنا إلى الصفحة رقم (٧٧) من كتاب الأصنام لابن الكلبي، طبع دار الكُتب المصريَّة[4]، للنظر فيها، غير أنني لم أَفْقَهْ مُرادَهُ من هذا الأمر، فإن كان نَظَر فيها، ووجد شيئاً عن أسواق العرب، فلِمَ لمْ يُخبِرْنا به؟ ولمَ لم ينقلْ عنها خبراً، أو واقعةً على الأقلّ؟ وليس ثمَّةَ مَوْضعٌ لذلك خيراً من كتابه! . . .

وعلى ذلك يمكن الجزمُ بأن الفصل الذي تحدَّث فيه ابنُ حبيب عن أسواق العرب في «المحبَّر»، مَنْقولٌ في جُمْلَته عن أبي المنذر الكلبي، من غير أن يُعْزَى إليه! وإذا رجعنا إلى فصل أسواق العرب في كتاب المرزوقي، وجدنا أنه أثْبَتَهُ برواية ابن دُرَيْد عن أبي حاتم السجستاني، ووجدنا أن مُعظم

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٣٢.

(٣) ابن خلِّكان: أبو العباس أحمد بن محمد (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ = ١٢١١ ـ ١٢٨٢ م). مؤرِّخ وأديب، مؤلِّف كتاب وَفَيَاتِ الأَعْيان، وهو أشهر كتُبِ التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً. تولى قضاء الشام عدة مرات، وولي التدريس في مدارسها، وتُوفي بها.

(٤) أسواق العرب: ٢١٦.

نصوصه أَسْنَدَها أبو حاتم إلى أبي المنذر الكلبي، وعَزا إليه القولَ في أسـواق: دُومَـةِ الجنْـدَل، والمشقَّـرِ، وصُحَـار، ودَبـا، والشِحْـر، وعَـدَن، وصنعـاءَ، والـرابيـةِ، وعُكـاظ، وذي المجـازِ، ونَطـاةٍ، وحَجْـرٍ، وهـي الإثنتا عشرةَ سوقاً التي ذكرها ابنُ حبيب، ووقع في نصوصها التَّشابُهُ بين العبارات، وتلك هي عِلَّة التَّشابُه... وقد زاد المرزوقيُّ بعدها أخباراً أخرى مختلفةً، تتعلَّق بالحُرُمات، وأئمَّة المواسم والقضاءِ بعكاظ، وأسواقٍ لم يذكرها ابنُ حبيب[1]، وتفرَّد أيضاً بذِكْر أمورٍ لم نَجِدْ مثلها عند الآخَرين، كالخبر الذي رواه عن أبي حاتم، وتحدَّث فيه عمَّن شَهِدَ سوقَ عكاظ في موسمها المنعقِد سنةَ (٣٥ من عام الفيل)، أي نحو سنة (٦٠٥ م)، من قبائل العرب وسَادتِها، وعن بعض ما وقع في ذلك الموسم من الحوادث... وقد أَسْنَدَ أبو حاتم هذا الخبرَ إلى الأصمعي[2]، وهو دليلٌ آخَرُ على أن ما ذهب إليه «كْرِنْكُو» في اتِّهامِ المرزوقي بالسرقة من كتاب المحبَّر، وتابَعَهُ عليه الأفغانيُّ من غير تَحقُّقٍ، ولا تبصُّرٍ، إنما هو باطلٌ محضٌ، بل افتراءٌ واضح...

وهنالك دليلٌ، فوق كلِّ ما قدَّمتُ من الأَدِلَّة، لا يقلُّ وُضُوحاً وبُرهاناً عنها جميعاً... ذلك أن المرزوقيَّ سبق، كما مرَّ بنا، إلى الحديث عن الأسواق التي كانت تنعقِدُ مواسمُها في أطراف الشام، مما يلي جزيرة العرب. واسْتَهلَّ هذا الحديثَ صراحةً بإسْنَادِ الكلام فيه إلى «ابن كُنَاسَة»[3]،

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢/١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) ابنُ كُنَاسَة: (١٢٣ ـ ٢٠٧ هـ = ٧٤١ ـ ٨٢٣ م). أبو يحيى محمد بن عبد الله (كُنَاسَة) الأَسَديُّ، من شعراء الدولة العباسيَّة، من أهل الكوفة. كان ظريفاً، أديباً، حَسَنَ الشعر، عالماً بالعربية وأيام العرب، وله كتابٌ في الأنْواء، وعِلْمٌ بالفَلَكِ والنجوم.

وبدأهُ بقَوْلٍ في مُدَّةِ غيابِ الثريّا، إذا أَفَلَتْ مع غُروب الشمس[1]، فقد كان «صاحبَ علْمٍ بالنجوم على مذهبِ العرب، والَّفَ فيه كتاباً...»[2]، وكان عَصْريَّ العلماءِ الَّذين أَخَذَ عنهم أبو حاتم عُلومَهُ، ولعلَّهُ كان من شُيوخه كذلك، فنقَلَ عنه أبو حاتم حديثَ أسواق الشام، مثلما نَقَلَ حديثَ الأسواق الأخرى عن أبي المنذر والأصمعيّ، فكان منها جميعاً الفصلُ الذي أَلْحَقَهُ بكتابه، على نحو ما أخبرَنا به ابنُ دريد[3]... ولا شك في أن مَنْ زار أسواق الشام، وحدَّثنا عنها، وذكر الاختلافَ بين أهل الجزيرة وأهل الشام في حساب أُفُولِ الثريّا، هو ابنُ كُنَاسَة نفسُه، وهو القائلُ عن سوق بُصْرَى: «فأدركتُها تقوم خمساً وعشرينَ ليلةً، وأُخْبرتُ أنها كانت تقومُ بولاية بني أُميَّة ثلاثين إلى أربعين ليلةً»[4]... وهذا هو ما يُفْهمُ من نصّ الحديث، ولا يُمكن أن يُفْهمَ منه قطعاً، أن المرزوقيَّ هو صاحبُ حديث أسواق الشام، كما ظن الأستاذُ الأفغانيُّ، فقرَّر أنه زارها في القرن الخامس الهجري، وأَخْبَرَ عنها[5]... فالمرزوقي ليس له من موضوع الأسواق كله شيءٌ غير النقل والعَرْض، وهو لم يَدَّعِ من أخباره خبراً واحداً لنفسه، لا تصريحاً ولا تلميحاً، بل ردَّها جميعاً في مطلع الكلام إلى رواية ابن دُرَيْد... والمعروفُ أن ابنَ دريد أخذَ العلم عن أبي حاتم، وحدَّث بأخباره، وروَىٰ عنه[6]، وقد اعترف في حديث الأسواق صراحةً بأنه نقله جملةً من كتاب أبي حاتم، فأين

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٩.

(٢) ابن قتيبة ـ المعارف: ٥٤٣.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

(٤) المرجع نفسه: ٢/١٦٩.

(٥) أسواق العرب: ٣٧٠، ٣٧٣.

(٦) وفيات الأعيان: ٢/٤٣٠ ـ ٤٣١.

مَوْضِعُ المرزوقي في ذلك كله؟... ثم إن العهد بين المرزوقي وانقضاءِ عصر بني أُميَّة نحوٌ من ثلاثة قرون، فهل يُعْقَلُ أن يزورَ أسواق الشام بعد هذا الزمان الطويل، وأن لا يُخْبَرَ إلا عن مُدَّة قيامها بولاية بني أُميَّة، ولا يُحَدَّثَ عن بعض أحوالها خلال تلك القرون؟... أوَليس ذلك مُخالفاً لطبيعة الأمور؟

أما ابنُ كُنَاسَة، فقد عاش عصرَ انتهاءِ الدولة العربية الأموية (١٣٢ هـ) وقيامِ دولة بني العباس، فإذا قَدَّرْنا أنه زار أسواق الشام، أواسطَ القرنِ الثاني أو أواخِرَهُ، ووَجَد بين الناس من يُحدِّثُه بمُدَّة قيام الأسواق في ولاية بني أُميَّة، فذلك أمرٌ معقولٌ ومُمْكِنٌ، لأنهم كانوا ما يزالون يتداولون أخبارهم، ويُقابلون بين ما كانوا عليه وما صاروا إليه... ولو كان المرزوقي هو مَن زارها في القرن الخامس، كما ذهب الأستاذ الأفغانيُّ، لما وَجَد أحداً يُنْبِئُه هذا الخبر الذي مضى على وقوعه ما يقرب من ثلاثِ مئةِ سنة!

ثم إن ابنَ كناسة كما لاحظنا، وهو عالمٌ بالأزمنة على مذهب العرب في شِبْه الجزيرة، كان مُتعجباً من أهل الشام كيف يَحْسُبون خمساً وعشرين ليلةً لطلوع الثريَّا بعد أُفولها، فيُقيمون أسواقَهم، وعنده أن الثريَّا تغيبُ نَحْوَ أربعينَ ليلةً قبل أن تَطلُعَ! ولو كان المرزوقيُّ صاحِبَ هذا الخبر، لمَا تعجَّبَ لأنه يعرف سببَ هذا الفرق في الحساب، وقد ذَكَرَهُ في كتابه فقال: «وكلُّ بلدٍ شماليّ فالكواكبُ الشاميَّةُ فيه تَطْلعُ قبل طُلوعِها في البلد الجنوبيّ... وبين رُؤيةِ سُهيلٍ مثلاً بالحجاز ورُؤيته بالعراق بضعُ عشرةَ ليلةً»[1]، والمعروف أن الثريّا من الكواكب الشاميَّة... وعلى ذلك يمكننا أن نَقْطَعَ بأن صاحبَ حديثِ أسواق الشام هو ابنُ كناسَة، وأن المرزوقي كان أشدَّ حرصاً

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠١.

على أمانة النقل من ابن حبيب، فأثْبَتَ في كتابه المراجعَ التي نقل عنها، وبفضل ذلك عرفنا أن ابنَ الكلبيِّ والأصمعيَّ وابنَ كناسَة مصدرُ أحاديثِ أسواق العرب وأخبارِها عند معظم المؤرِّخين وأهل الأخبار.

* * *

٢ - زيادته على المواسم سوقيْن سمَّاهما هَجَراً وعُمَانَ، من غير دليل واضح:

أخذ الأفغانيُّ من غير تحقُّق بمذهب الآلوسي، فجعل لِهَجَرٍ سُوقاً، غير سوق المشقَّر، تقوم في شهر ربيع الآخر، فقال: «تقصدُ العربُ هذه السوق بعد انْفِضَاضِهم من سوق دومة الجندل»[١]، والمعروف أن دومة الجندل تنفضُّ آخِرَ ربيع الأول، ولا بُدَّ للمرتحل عنها إلى هجر، أن يأخذ طريق الحيرة أولاً، ثم الأُبُلَّة، ثم هجر، أو طريق تَيْماء، ثم فَيْد، ثم القطيف، ثم هَجَر، وأيُّ الأمريْن فَعَلَ، اقْتَضَاهُ بين حِلٍّ وتَرْحَالٍ نحو شهرين، بينما جعلها الأفغانيُّ ليلةً واحدةً، وهو مستحيلٌ طبعاً مع قوله: «فإذا أهلَّ ربيعُ الآخِرُ انتقلوا إليها فقامت سوقُها»[٢]، وكأنهم كانوا ينتقلون بالطائرة حينذاك! كما تابَعَ الآلوسيَّ على مذهبه أيضاً فجعَلَ لِعُمان سوقاً فوق سُوقَيْ صُحَار ودَبا، تقومُ في شهر جمادى الأولى، فقال: «تقصدُ العربُ هذه السوق إذا انتهتْ من سوق هَجَر، فترحلُ إلى عُمَانَ، وتُقيم سوقَها حتى آخر جُمادَى الأولى»[٣]، وإذا كانت الطريقُ بين هَجَر وعُمَان تقتضي سفراً في البرِّ أكثرَ من

(١) أسواق العرب: ٢٥١.
(٢) المرجع نفسه: ٢٥١.
(٣) المرجع نفسه: ٢٥٦.

شهر، وبالبحر نصفَ المدَّة تقريباً، فكيف اختصرها الأفغاني في ليلة واحدة؟ ثم إن عُمَانَ إسْمٌ لإقليم واسع، كان يضمُّ مُدُناً وقُرى ومرافىءَ كثيرةً مثلَ صُحَار ودَبَا ودَمَا وتُؤَام ومسقَط ونَزْوَى وغيرِها، فأين كان موضعُ سوق عُمَانَ من تلك المواضِع؟

٣ ـ اضطراب حديثه عن سُوق صحار وغَلَطُه في موعدها:

وفي حديثه عن سوق صُحَار، ذهب مذهباً مضطرباً، فاتَّبَعَ مذهبَ البغداديّ والآلوسيّ، وجَعَل قيامَها «من عاشر رجب إلى الخامس عشر منه، بعد انْفِضَاضِ سوق حُبَاشَة»[١]، وهو غلطٌ منه. ثم اتَّخَذَ من قول المرزوقي: «إنهم كانوا يُقيمونها لعشرين يوماً من رجب»، دليلاً على أنها كانت تمتدُّ إلى ما بعد الخامس عشر من رجب، وهو غلطٌ آخَرُ، وكأن المرزوقي قال: وكانوا يقيمونها إلى العشرين من رجَب، وإنما قال: إنها تقومُ بانقضاء عشرين يوماً من رجب! أي في اليوم الواحد والعشرين.. ومع ذلك زعم الأفغاني أن ذلك لا يناقِضُ ما ذهب إليه في قيام موسمها من عاشِرِ رجب، «لأن افتتاح السوق وانفِضَاضَها لم يكن بساعةٍ مُحتَّمةٍ، لا تَقَدُّمَ عنها ولا تأخُّر، بل إن من العرب من لا يكون حضر ما قبلها، فيأتيها من أوَّل رَجَب، ومنهم من يكون في حُباشة أو غيرها فيُوافيها مُتأخِّراً»[٢]... وتأكيداً لما ذهب إليه، أضاف في الحاشية أن ابن حبيب نصَّ في المحبَّر على أن قيامها يكون في الليالي الخمس من أوَّل رجب! وبذلك جمع ما قاله ابنُ حبيب، إلى ما قاله البغداديُّ والآلوسيُّ، وما تَقَوَّلَهُ على المرزوقي في قيام صُحَار عشرين يوماً من أوَّل رَجَبٍ!. مع أن نصَّ المرزوقي واضح، ذكر فيه أن

---

(١) أسواق العرب: ٢٦٢.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٣.

العرب يرتحلون من المشقَّر أولَ يومٍ من رجب، في طريقهم إلى صُحَار، فيصلون إليها لعشرين ليلةً يَمْضينَ من رَجَب، فيشترون ويبيعون فيها خمسة أيام[1]... ثم علَّل الأفغانيُّ هذا الاضطرابَ الَّذي وقع فيه بقوله: «وليست صُحَارُ من الأسواق العامَّة، ولا من المواسم مثل عكاظ، حتى يحرصوا عليها ذلك الحرصَ، وإنما هي سوق تجاريَّةٌ مَحْضَةٌ لِمَا حولها ولمن يقصدُها، على أنها كثيراً ما يأتيها التاجرُ البعيد»[2]... وكيف لا تكون صُحَارُ من الأسواق العامَّة، وقد اعترف بنفسه أنها كذلك لمَّا قال: «تُقِيم العربُ السوقَ العامَّةَ في صُحَار من عاشر رجب...»[3]، ولمَّا صَرَّحَ في كتابه بأنه إنما يبحثُ في الأسواق الموسميَّة «التي لها أيامٌ مُعيَّنةٌ تقومُ فيها...»[4]، ونصَّ أن سوق صُحَار «كثيراً ما يأتيها التاجرُ البعيدُ»، كما رأينا! والأكثرُ غرابةً من كلّ ذلك ذَهابُه إلى أن من يكون في حُبَاشَة يُوافي صُحَارَ مُتأخِّراً... والمعروفُ أن حُبَاشة تقعُ في بلاد تِهامَة، على البحر الأحمر، في أقصى الطرف الغربي من جزيرة العرب، وأن صُحَار تقعُ على بحر عُمَان، في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي من الجزيرة، وبينهما سَفَرُ شهرين على الأقل، فمن أين لزائر حُبَاشَة، إذا انقضى موسمُها، أن يُوافيَ سوق صُحَار في موعدها، وبين انقضاء الأولى وقيام الثانية ستة عشر يوماً لا غير؟ والعجيبُ في الأفغاني أنه رسم طرُقاً مستقيمةً، تخيَّل أنها كانت تَصِلُ بين حُبَاشة ومُدُنِ عُمان، عَبْر الرَّبْعِ الخالي[5]، وهو نحوُ رُبُعِ مليون ميلٍ مُربَّعٍ من الصحراء

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٢) أسواق العرب: ٢٦٣.

(٣) المرجع نفسه: ٢٦٢.

(٤) المرجع نفسه: ١٩٣.

(٥) المرجع نفسه: ٢٢٩.

المُقْفِرَة، الشديدة الحرارة، التي لم يخترقْها سوى عددٍ قليل جدّاً من الرُّحَّلِ، في مُدَّةٍ لا يعلم أحدٌ مقدارها[1]. . .

٤ ـ غَلَطُهُ في تحديد موقع الشِّحْر:

وفي كلامه على سوق «الشِّحْر»، عيَّن مَوْقعَها بين عُمَانَ وعَدَن[2]، وهو تَحْديدٌ ليس فيه غَنَاءٌ، ولا هو من عَمَلٍ مُحقِّق، إذ بين عُمَان وعدن أكثرُ من ألفٍ وثلاث مئة مِيلٍ[3]، فأين موقعُ شِحْرِ مَهَرَةٍ من تلك البقاع؟ وأين تقعُ السوقُ من الشِحْر؟

وقد سبق لنا، في تعليقناعلى كلام التوحيديّ أن حقَّقْنا موقعَ إقليم الشحْر، بين ظَفَار ومِرْباطٍ شرقاً، والأحقاف شمالاً، وحضرموت والمُكَلاّ غرباً، وبحرِ العرب جنوباً. . . ورَجَّحْنا قيامَ موسم الشِحْر في مدينة «إِرَم» بين ظَفَار ومِرْباط. ولكن الأفغاني جعلها «أَدَم» بالدَّالِ، وعَدَّ كتابتَها بالرَّاءِ تصحيفاً[4]، وهو غير صحيح، فأَدَمُ، كما ذكر ياقوت، إسمٌ لجهاتٍ عِدَّة، منها ناحيةٌ قربَ هَجَر، وناحيةٌ من عُمَان، ومَوْضعٌ من قرى اليمن، ومكانٌ من أعمال صنعاء[5]، وكلُّها بعيدةٌ من شِحْرِ مَهَرة، ولا يصحُّ أن تكون إحداها موضعَ سوقِ الشِحْر، وإنما الصحيح أنّ موضِعَها هو مدينةُ «إِرَمٍ» من قُرى الشِحْر كما يُفهم من نَصّ التوحيدي[6]، وليس فَلاةَ «أَدَم» قربَ عدن،

---

(١) سام وبْرِيل أَبشنين ـ الصحراء: ٩٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٢٠، ٢٦٦.
(٣) مهد العرب: ٢٤.
(٤) أسواق العرب: ٢٢٠.
(٥) معجم البلدان: ١/ ١٢٦.
(٦) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

كما أشار الأفغانيُّ لمَّا سَرَدَ الأسواق التي ذكرها التوحيدي[1]، فالقادمُ من دَبا بعُمان لا بدَّ له أن يمرَّ بقُرى الشحر قبل أن ينتقل إلى عدن، وبينهما نحوُ ستِّ مئةِ ميلٍ[2]، أي مَسِيرةٌ أَقَلُّها عشرةُ أيام بالبحر، وخمسةٌ وعشرون يوماً بالبرِّ، وهذا يجعلُ قيامَ موسم الشِحْر في الخامس عشر من شعبان مُسْتحيلاً. . .

٥ ـ التقَوُّلُ على المرزوقي ما لم يَقُلْهُ في مَوْعِدَيْ نطاة وحَجْر:

وفي تَعْيينِهِ موعدَ قيام سُوقَيْ نَطَاة بخَيْبر، وحَجْرٍ باليمامة، قَوَّل المرزوقيَّ ما لم يَقُلْهُ في قيامهما، فنَسَبَ إليه أنه جعل زمنَ نطاة «بعد زمنِ سوق ذي المجاز، أي بعد أشْهُر الحج، وقبل أن تبتدىءَ سوقُ حَجْرٍ»[3]. . . وهذا غيرُ صحيح، لأن المرزوقيَّ لم يفعلْ سوى النصّ على أسواق ذي المجاز ونطاة وحَجْرٍ كعنوانٍ للحديث عنها، ثم عيَّنَ موسمَ ذي المجاز، وسكت عن الآخَرَيْن[4]. . .

٦ ـ غَلَطُهُ في تعيين مواعيد أسواق الشام:

وفي كلامه على أسواق الشام، زَعم من غير سَنَدٍ أن مواعيدها تقع بعد الحجِّ، وقال: «كان العربُ إذا أنْهَوْا حجَّهم، ورجعت وفودُ البلدان، نظَّموا عِيرَهُم، وتَهيَّؤُوا للسفر إلى الشام، فأقاموا تجاراتهم فيها، وبَدؤوا بسوق دَيْر أيُّوب»، فهي أوَّلُ أسواق الشام قياماً[5]. . . مع أن المرزوقي لم يُعيِّنْ مواعيد

---

(١) أسواق العرب: ٢٢٠.
(٢) بلوغ الأرب: ١/ ١٨٦.
(٣) أسواق العرب: ٣٥٧.
(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.
(٥) أسواق العرب: ٣٦٣.

أسواق الشام، بل روى عن ابن كُنَاسَة قَولَهُ: «إذا غابت الثريَّا مع غُيوب الشمس، لم تَرَها أربعين يوماً، فذلك أُفُولها... وأهلُ الشام يُطْلِعونها لخمسٍ وعشرين، من غير أن تَطْلُعَ أو يَرَوْها، فيقيمون أسواقهم، وتقوم سوقُ دير أيوب...»[١]. والنصُّ بهذا الشكل لا يُفهم منه ما قرَّرهُ الأفغاني في مواعيد أسواق الشام، إلا إذا ثبت لديه أن الثريَّا تطلع أواخر ذي الحجة، أو في المحرَّم، وهو ما أَقْطعُ بغَلَطِهِ، لأنه لم يبحث في شيءٍ من هذا القبيل... فالتحقُّقُ من الموعد الذي عيَّنهُ ابنُ كناسة يقتضي أولاً معرفةَ زمنِ أُفُول الثريا وطُلوعِها متى يكون، ولا سيما عند أهل الشام، ذلك أن «كلَّ بلدٍ شماليّ فالكواكبُ الشامِيَّةُ فيه تطلعُ قبل طلوعها في البلد الجنوبي»[٢] والثُريّا من الكواكب الشاميَّة، تَأْفُلُ عند أهل الحجاز في نحو الثالث من نيسان (أبريل)، وتطلُعُ في العَشْر الأوسط من أيار (مايو)[٣]، أو في نَحْوِ الثالث عَشَرَ منه[٤]، فتكون مدةُ أُفُولها أربعين يوماً. ويبدو أنها تأفُل في الشام قبل الثالث من نيسان، ويفتتحون سوق دير أيوب بانقضَاءِ خمسةٍ وعشرين يوماً على أُفُولها، فيكون موعدُ السوق في العشر الأخير من نيسان، وهو ما ذكره القزوينيُّ عندما عيَّن الثالثَ والعشرين من نَيْسانَ موعداً لانعقاد السوق[٥]... وذلك ما سنشرحه بالتفصيل في حديثنا عن أسواق الشام، غير أنه لا بدَّ لنا من الإشارة إلى أن نيسان لم يكن يومئذٍ يقع في ذي الحجة أو المحرَّم وإنما في شهر آخر من الشهور القمرية، هو رجب المحرَّم، وهذا ما

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٩.
(٢) ابن قتيبة ـ كتاب الأنواء: ١٠، ١١.
(٣) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٠ (نجم).
(٤) الأزمنة والأنواء: ١٦١.
(٥) عجائب المخلوقات: ١١٨.

شرحناهُ آنفاً في كلامنا على الأزمنة والمواسم في الجاهلية.

٧ ـ غَلَطُه فيما عَزاهُ إلى البغدادي:

والغريبُ أن الأفغاني عندما ذكر في كتابه الأسواقَ التي وجدها في خزانة الأدب للبغدادي، أشار إلى أنها منقولةٌ عن صاحب كتاب «قبائل العرب»[(١)]، أي القلقشندي، وقد أَدْرَجَ قبل ذلك مباشرةً ما ذكره القلقشنديُّ في كتابه: صُبح الأعشىٰ، وهو مُطابِقٌ تماماً لما ذكره أيضاً في كتابه الآخَر: نهايةِ الأرب، فلم يُشِرِ الأفغاني صراحةً أو تلميحاً إلى أنه اطَّلع على كتاب قبائل العرب، أو أخذ عنه شيئاً! هذا من جانبٍ أوَّل، ومن جانبٍ آخَر لا يوجد بين ما عَدَّدَهُ البغدادي والقلقشندي موافقةٌ لا في عدد الأسواق، ولا في مواسمها، ولا في مواضِعها، لأن البغدادي في الحقيقة اعتمد، كما أشرنا في حديثنا عنه، مواردَ لم يصلْ إلينا العلمُ بها، ولعلَّها مخطوطاتٌ اتفق له الاطلاعُ عليها، والنقلُ عنها.

٨ ـ غلَطُه في تفسير كلمة الأحابيش:

وفي كلامه على زُوَّار سوق عكاظ قال: «ينزلُ السوقَ قريشٌ وهَوَازِنُ وغَطَفانُ وخُزاعَة والأحابيشُ وعَضَلٌ والمُصْطَلِقُ وطوائفُ من أفْناءِ العرب»[(٢)]، وعَزَا الكلامَ إلى المرزوقي. ولكن القسم الأخير من النصِّ جاء بشكل آخَرَ عند المرزوقي هو: «... **الأحابيشُ**، وهم: عَضَلٌ والمُصْطَلَقُ

---

(١) أسواق العرب: ٢٢٣، «وهو يريد كتابَ قلائِد الجُمَان في التعريف بقبائل عرب الزمان، وقد نظرتُ في الطبعة التي حقَّقها إبراهيم الأبياري، ونَشَرتْها دار الكتب الحديثة بمصر (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م)، فلم أجِدْ شيئاً عن أسواق العرب».

(٢) أسواق العرب: ٢٩١.

وطوائفُ من أَفْناءِ العرب»[1]. . . والفرقُ بينهما ليس بالأمر اليسير كما يَتَبادرُ للبعض، ولا سيما إذا علمنا أن الأفغاني استعمل، في كثير من المواضع، كلمات الحبشة والأحباش والأحابيش بمعنى واحد[2]، وهو غلطٌ منه وتفريط، فالحبشةُ والأحباشُ والحُبْشَانُ أبناءُ بلاد الحبشة، بعضُهم قَدِم بلادَ العرب تاجراً، وكَثْرتُهم من العبيد والإمَاءِ المجلوبين إليها، أمّا الأَحَابِيشُ فهم بطونٌ من قبائلَ عربيةٍ مختلفةٍ، اجتمعوا وتحالفوا أن يكونوا يَداً واحدةً على من أراد بهم سُوءً، فسُمُّوا الأَحابِيشَ من التَحبُّشِ وهو التجمُّعُ، ويُطْلَقُ في كلام العرب عادةً على الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة، وهؤلاء كانوا من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبني المُصْطَلَقِ بن سعد والحياءِ بن سعد من خزاعة، وأحياءِ القَارَةِ وعَضَلٍ والدِّيشِ من بني الهَوْنِ بن خُزَيمة[3]. . . وكانوا حُلَفاءَ قريش.

فالأحباشُ إذن أعَاجِمُ، والأَحابيشُ عربٌ، وليسوا أيضاً كما توهَّم الدكتور عمر فرُّوخ «مزيجاً من العرب والأحباش والزَّنْج»[4]، ولا جاليةً حَبَشيَّةً كما زعم فيليب حتّي بقوله: «ومكةُ إذ ذاك مقامُ جاليةٍ حَبَشيَّةٍ، لعلَّها نصرانيَّةٌ، يُدْعَىٰ أفرادُها الأحابيش. . .»[5]، ومثلُ هذه الأقوال يُخفي وراءَهُ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٢) أسواق العرب: ٢١، ٢٥، ١٤٠، ١٥٣ وغيرها. . .

(٣) جمهرة أنساب العرب: ١٨٨، ١٩٠، ٢٣٩، ٤٦٨، والمحبَّر: ٢٤٦، وأنساب الأشراف: ١/ ٥٢، والكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٤، ومعجم البلدان: ٢/ ٢١٤، والطبقات الكبرى: ٥/ ٥٧، والمعارف: ٦١٦، ولسان العرب: ٦/ ٢٧٨ (حبش)، ونهاية الأرب: ١٦٤، والأغاني: ٢٢/ ٦٦، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ١٠٧. . .

(٤) تاريخ صدر الإسلام: ٤٧.

(٥) تاريخ العرب: ١٥٥.

أشياءَ خطيرةً لا محلَّ للتوَسُّع في ذِكْرها هنا. وإنما أوضحنا هذا الأمر لأن الأفغاني أيضاً لم يكن دقيقاً في التفريق بين اللفظَيْن، بل كثيراً ما خلط بينهما، وفضلاً عن تحريفه نصَّ المرزوقي في نزلاء عكاظ كما رأينا، أثْبتَ في حديثه عن ثروة قريش من التجارة، وإعْدادِها لمعركة أُحُد، نصّاً يذكُر الأحابيشَ ويُريد الأحباش، يقول: «وكان عَدَدُ مَن استأجرهم أبو سفيان من الأحابيش فقط ألفين. . .»[1]! فإن كان القصدُ بالأحابيش حُلَفاءَ قريش من أحياء العرب، فالنصُّ غير صحيح، لأنهم ما كانوا بحاجةٍ إلى استئجارهم، والحلفُ بينهم يُلْزِمُهم بالتآزُر والتعاضُد في الحروب من غير أجر. والذي عليه المؤرِّخون وأهلُ الأخبار أن قريشاً خرجت إلى أُحُد، معها بنو كنانة وأهلُ تِهامَةٍ وحُلَفاؤها من الأحابيش[2]، وكان مع بعضهم عُبْدَانُهم[3]. أما إذا كان القصدُ بالأحابيش في هذا النصّ عُبْدَانَ أهلِ مكة من الحبشة، فالعددُ مُبالَغٌ فيه كثيراً جداً، والقبولُ به يقودُنا إلى الاعتراف بوجود جَوَالٍ من الأعاجم الغرباء بمكة يفوقُ عَدَدُها عَدَدَ أهلِ مكة وتِهامة والحجاز، وهو غير معقول طبعاً.

وأخيراً ما تزال هنالك أشياءُ أَخذتُها على كتاب الأفغاني، ولكني آثرتُ التعرُّضَ لها في مواضِعَ أخرى. على أن ذلك لا يمنع من الاعتراف بما في الكتاب من بعض الأفكار القيِّمة، التي نَوَّهتُ بها، وأفدتُ منها في بعض البحوث.

* * *

(١) أسواق العرب: ١٤٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٠١.
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٥١٢.

المطلب السادس ـ المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام:

وعَقَدَ الدكتور جواد علي فصلاً كبيراً في كتابه: «المفصَّل»[١]، تحدَّث فيه عن أسواق الجاهلية، فجمع كلَّ ما وقعت عليه يَدُهُ في كتب الأخبار والتاريخ والأدب، ثم أثْبَتَهُ في هذا الفصل كيفما اتَّفَق، من غير أن يتكلَّفَ تحقيقاً أو مُوازنةً، أو تَثَبُّتاً من مَوْضعِ سوقٍ، أو ميقات موسم، بل حتى من غير أن تمتدَّ يَدُهُ إلى ما جَمَعتْ بترتيبٍ أو تنسيق يُعِينُ على التتبُّع والفهم والاستيعاب، بل إنه كان أحياناً يقطعُ كلامه على سوق، ويتحدَّث عن شأن آخر، ثم يعود في موضع آخر لإتمام كلامه[٢]، كما فعل بسوق الشِحْر. . . وقد عَدَّدَ من الأسواق الموسمية في عصر الجاهلية تسعَ عشرةَ سوقاً، فزاد بذلك على ما ذكره الآلوسيُّ أربعاً هي: دَبَا، بَدْرٌ، قَيْنُقَاع، عَثْرٌ. . .

فأَمَّا «قَيْنُقَاع» فاسْمُ قومٍ من اليهود في طَرفٍ من أطراف المدينة، وقد أُضِيفَ إليهم سوقٌ سُمِّيَ سوقَ بني قينقاع[٣]، ولكنْ يُفْهم ممّا جاءَ في بعض الأخبار عند ابن الأثير[٤]، وكذلك عند ابن هشام[٥]، أن هذه السوق كانت محليَّـةً دائمةً، وليست موسميَّـةً، وكان الناسُ يقصدونها أحياناً للامتيار، وربما كان هذا ما أراده جواد علي من الإشارة إليها[٦]. . .

---

(١) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: صدرت الطبعةُ الأولى منه في بيروت سنة (١٩٧١ م)، وبين أيدينا الطبعةُ الثالثة منه، بيروت (١٩٨٠ م)، الصفحات: ٧/ ٣٦٩ ـ ٣٨٤.

(٢) المرجع نفسه: ٧/ ٣٧٤، ٣٧٧.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ٤٢٤.

(٤) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٥٩، ٦٧١.

(٥) السيرة النبوية: ١/ ٥٥٢.

(٦) المفصَّل: ٧/ ٣٧١.

وأمَّا «عَثْرٌ أو عَثَّرُ» فذكر ياقوت أنها بلد باليمن[١]، ولم يَزِدْ، وأكَّدَ هذا ابنُ منظور[٢]، والزبيديُّ[٣]، بينما عدَّ اليعقوبي «عَثَّر»من قرى سواحل اليمن[٤]. ولم أعثر في سائر المراجع على ما يُؤيِّد جواد علي في جَعْلِها من الأسواق، ويبدو لي أنه وجَدَها عند الآلوسي مُدْرَجَةً في حديث الأسواق، فظنَّها سوقاً وأضافها إلى جملة الأسواق، مع أن الآلوسي كان يتحدَّث عن بلد باليمن يُسمَّى «هَجَر» بينه وبين «عَثْرٍ»[٥] يومٌ وليلةٌ... وأمَّا «بَدْرٌ» فلم يأتِ فيها بجديدٍ سوى ما بدا له من إمكانِ كونها موضعاً مُقَدَّساً على شاكلة عكاظ[٦]...

وأمَّا سائرُ الأسواق، فلم يَزِدْ فيها شيئاً على ما نَقلهُ من تاريخ اليعقوبيّ، والأزمنة والأمكنة، والمحبَّر، وبلوغِ الأرب، سِوَى سُوءِ العَرْض، ورأيٍ قال فيه: إن تلك الأسواق «خُصِّصَتْ في الغالب بامْتِيازِ الأعراب، وشراء ما عندهم من سِلَعٍ فائضة...»[٧]، وهو قولٌ فيه نَظَرٌ، ذلك أن جواد علي تأثَّر في كتابه بنظرية ابن خلدون التي تجعل العربَ جميعاً أعراباً، فذهب مَذْهَبهُ في التسمية، وعَدَّ اسمَ العرب، كيفما كانت صيغتُه، وأينما وُجِد في وثائق التاريخ القديم، إنما هو إشارةٌ إلى جماعة من الأعراب، ولا سيما أولئك الذين كانوا في وسط الجزيرة وشمالها[٨]...

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) لسان العرب: ٤/ ٥٤٢ (عثر).
(٣) تاج العروس. ١٢/٥٢٨ ـ ٥٢٩ (عثر).
(٤) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٠١.
(٥) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.
(٦) المفصَّل: ٧/ ٣٧٧.
(٧) المرجع نفسه: ٧/ ٣٧٠.
(٨) المفصَّل: ١/ ٥٧٥، ٦٢٩.

والمعروف أن الأعراب ينزلون الفَلَوات عادةً، ويتنقَّلون فيها من مكان إلى آخَر، مساكنُهم الخِيَامُ، ولا يقرُّ لهم قرارٌ في موطن واحد. ولعله أراد أن أهل الحضارة من العرب، في المُدُن والقُرى والحُصُونِ والمعَاقِل والأرياف، وكانت منتشرةً في معظم أنحاء جزيرتهم، كانوا يُقيمون أسواقاً في مواسمَ معيَّنةٍ، يُقْبِلُ عليها الأعرابُ من فَلَواتهم، يشترون المُونَةَ والطعام منها لِعِيَالهم. إذ أنه لم يستبعد في موضعٍ آخَر قَصْدَ التجار الأجانب تلك الأسواق، واختلافَ الناس إليها من مَطارِحَ بعيدةٍ، ولأغراضٍ شَتَّى، غيرِ الامتيار[1]، وهذا لا يكون عادةً في أسواق مُخصَّصةٍ بالأعراب.

على أننا نلاحظُ اضطرابَ المعنى في نُصوصِهِ من حديثه عن سوق المشقَّر، فقد ذكر أنها تُقْصَدُ من الأعراب الساكنين في العربيَّة الشرقيَّة، والأعراب القريبين منها، والعربيَّةُ الشرقيَّة يومئذٍ كانت من أكثر بلاد العرب مُدُناً وقُرىً وحصوناً ومِيَاهاً وبساتينَ، مثلَ هَجَرٍ والقطيفِ والخَطِّ ويَبْرِينَ وقَطَر والعُقَيْرِ ودارِينَ وصُحَار ودَبَا ودَما وتُؤَام ومَسْقط ونَزْوَى وغيرها[2]... فإذا كان أهلُ هذه جميعاً أعراباً جُفَاةً، فمن كان أهلُ الحَضَرِ إذن؟ ويبدو اضطرابُ المعنى أشدَّ وضوحاً حينما عاد ليقولَ عن السوق نفسِها: «وقد قصد هذه السوقَ أحياءٌ من العرب، من مختلف أنحاء جزيرة العرب...»[3]، وليطلبَ في مَوْضعٍ آخَر ألاَّ يُنْظَرَ إلى الأسواق الموسمية في عصر الجاهلية، وكأنها كالأسواق التي نعرفها اليوم، «فقد كانت أسواقُ

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧، و ٢/ ٦٧، ١٧٤، ٣٧٨، و ٣/ ٤١١، و ٥/ ١٢٦، ١٣٤، ٢٨١، ٣٩٣.

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٧٣.

الجاهلية أوْسعَ مجالاً من ذلك بكثير»[1]، ثم ذكر أنها كانت مجَامِعَ للشعر والأدب، ومراكزَ للعُقود والعُهود والاتفاقات، ومواضِعَ لكثير من الشؤون الاجتماعية، ومحاكمَ لِفَضِّ النزاعات المختلفة[2]. . . وقَرَّر بعدئذٍ أن حال الأسواق الموسمية جميعاً كان في تلك الوظائف سواء[3]. . .

فهل من الممكن أن يتوافرَ هذا كلُّه لمجتمعات من الأعراب، في أسواقٍ أُقيمتْ لامْتِيارهم، ومَبيعِ ما فاض عن حاجاتهم من السِّلَع؟ إذا كان ذلك مُمْكناً حقّاً، فما كان أجملَ تلك المجتمعات، وما أبْشَعَ مجتمعاتنا!. . .

ولئن لم يكن فيما كتبه جواد علي، أو نقله، عن أسواقِ العرب ومواسمهم، كبيرُ نَفْعٍ، لقد كان به نفعٌ كبير في الكشف عن موسم للأنباط، أو النَّبَطِ، قيل إنهم كانوا يُقيمونَهُ على ركنٍ بساحل البحر الأحمر، كان فيه معبدٌ لهم، يحجُّون إليه في شهورهم المحرَّمة، ويعقدون فيه سوقاً كبرى على شاكلة عكاظ[4]. وسنتحدَّثُ عنه في كلامنا على مواسم بلاد الشام المعروفة.

* * *

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٨٣.
(٢) المرجع نفسه: ٧/ ٣٨٤.
(٣) المرجع نفسه: ٧/ ٣٨٢.
(٤) المرجع نفسه: ٦/ ٣٩٦.

المطلب السابع ـ في منزل الوحي:

وعقد الدكتور محمد حسين هيكل[1]، في كتابه: «في منزل الوحي»[2]، فصلاً بعنوان «أسواق العرب»، استهلَّهُ بالقول:

«ولستُ أريدُ أن أتحدَّثَ هنا عن أسواق العرب أيّامَ الجاهلية، وفي صدر الإسلام، بوجهٍ عامٍّ، وإنما أُريدُ أن أَتحدَّثَ عمّا له اتِّصالٌ منها بحياة النبيّ العربيّ، وما يَدْخُلُ لذلك في منزل الوحي، وهذه الأسواقُ ثلاثةٌ: عكاظ ومجنَّة وذو المجاز. . .»[3].

وبدأَ بحثَهُ فعَجِبَ لأن أحداً لم يُحقِّقِ الزمنَ الذي جعل العربُ يُقيمون فيه سوق عكاظ، وعَرَض للخلاف الواقع بين المؤرِّخين على تحديد ذلك الزمان، ثم لم يُحقِّق فيه شيئاً. . . ثم قال: «وليس تحديدُ المكان الذي كانت عكاظُ تُقام به، بأيْسَرَ من تحديد التاريخ الذي اتُخِذَ هذا المكانُ فيه سُوقاً، وأكثرُ الأقوال في هذا الشأن تَواتُراً أن هذه السوق كانت بين نَخْلةٍ والطائف، لكنّ ما بين نَخْلةٍ والطائف يبلغ الخمسين ميلاً أو يزيد عليها، فأين كانت السوقُ تُقام من قُطْر هذه الدائرة؟ وهل كانت ثابتةً في مكان بذاته أو مُتَنقِّلةً في أماكنَ مختلفةٍ؟ أكثرُ الكُتبَ على أنها كانت ثابتةً في مكان بذاته، لكنّ

---

(١) **محمد بن حسين بن سالم هيكل**: كاتب صحافي، مُؤرِّخ، من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، ومن رجال السياسة. درس الحقوق بالقاهرة، وحصل على الدكتوراة من فرنسا، وعمل محامياً، ومُدرِّساً للقانون، وولي وزارةَ المعارف، ورئاسة مجلس الشيوخ. صنَّف كُتباً، طُبع منها: حياة محمد، الصدِّيق أبو بكر، الفاروق عمر، في منزل الوحي. مولده ووفاته بمصر (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م).

(٢) في منزل الوحي: ٣٦٣ ـ ٣٨٤، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، طبعة (١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م).

(٣) المرجع نفسه: ٣٦٣.

تحديدَ هذا المكانِ غيرُ مُحقَّقٍ...»[1]، ولم يستطع هيكل أن يُحقِّق فيه شيئاً، على الرغم من قيامه بزيارة تلك الأماكن، فانتهى إلى ترجيح قيامها بالسيل الكبير أو على مَقْرُبةٍ منه، في مَوضعٍ يُسمَّى: الخُرَّ من وادي غَسَلة[2]... وتحدَّث كذلك عن موقع سوق مجنَّة، فرجَّح أنها كانت تقامُ بين الشرائع والجِعْرانة إلى شمالها، والطريقُ بينهما هو طريقُ مجنَّة[3]، وذكر في موضع آخر أنها تقع عند الجِعْرانة في رأي، وفيما وراءَ التنعيم في رأيٍ آخَر. وأمّا ذو المجاز فهو على يمين الموقف من عرفة[4].

ومما يُذكر في هذا الحديث، أن الأفغانيَّ، وبالرغم من ذهابه في تحديد موقع عكاظ إلى سَرْد ما قاله الرواةُ وبعضُ الباحثين من غير استقراءٍ ولا تحقُّق، عَتَبَ على هيكل خُلوَّ مراجعه من ذكر كتابه: أسواق العرب، مع أنه نُشِر قبل كتاب هيكل بنحو عشرة أشهر، وقال: «وكان الظنُّ بمثله أن يطَّلعَ على الكتاب، ويُنَوِّهَ به...»[5]! وأعتقد أن الدكتور هيكل غيرُ مَلُومٍ إن هو فعل ذلك حقّاً، فقد رجعَ إلى المراجع نفسِها التي رجع إليها الأفغانيُّ في كتابه، وزاد عليه بزيارته للأماكن كلِّها، التي زعم الرواةُ أن سوق عكاظ كانت تقومُ عليها، ثم انتهى إلى ترجيح روايةٍ من تلك الروايات.

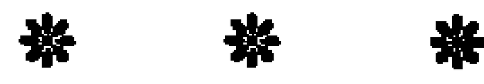
أمّا في تحديد المواعيد، التي كانت أسواقُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز تنعقدُ فيها من كل سنة، فإن الدكتور هيكل أثْبَتَ رواية الأزرقي غالباً، وقال:

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٤.
(٢) المرجع نفسه: ٣٦٤ و ٣٨٢.
(٣) المرجع نفسه: ٢٩٨.
(٤) المرجع نفسه: ٣٨٣.
(٥) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

«على أن الخلافَ في تحديدِ هذا المكانِ، الذي كانت تقومُ به عكاظ، والزمانِ الذي أُنشِئتْ فيه، لا يتَّصِلُ بتصوير ما كان يقع بها أثناء إقامتها، ولا بالموعد الذي كانت تقام فيه، فاتفاقُ المؤرِّخين على أن العرب كانوا إذا أزْمَعُوا الحجَّ إلى مكة من أصقاع شبه الجزيرة، جعلوا عكاظاً موعدَهم في هلال ذي القعدة، فأقاموا بها عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى مجنَّة فأقاموا بها عشْراً، فإذا رأَوْا هلالَ ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز فأقامُوا أسواقَهم به ثماني ليالٍ، ثم تَرَوَّوْا من مائها في اليوم الثامن، وخرجوا إلى عَرَفَة. . .»[1].

وتحدَّث هيكل أيضاً عمَّا كان يجري في سوق عكاظ، حديثاً مُقْتَضَباً، بنَىٰ عليه أحكاماً سنعود إلى عَرْضها ومُناقَشَتها ونَقْدِها في كلامنا على سوق عكاظ.



المطلب الثامن ـ موقع عكاظ:

ثم نشَر الدكتور عبدُ الوهاب عزّام[2] أبحاثاً في كُتيِّبٍ سمَّاهُ: مَوْقع عكاظ[3]. . . كتب فيه مقالاً عن مَوْقعِ عكاظ بعدما زار مَوْضِعَها للتحقُّق منه،

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٥.

(٢) **عبد الوهاب محمد عزَّام**: (١٨٩٤ ـ ١٩٥٩ م)، دكتور في الأدب الفارسي من لندن، درَّس الفارسيَّة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم صار عميداً للكلية، فسفيراً لمصر في السعودية ثم في الباكستان. وهو من أعضاء المجامع العلمية في سورية ومصر والعراق وإيران، يُحْسِنُ الفرنسية والإنكليزية والفارسية والتركية والأرديَّة. له عدَّةُ كتب مطبوعة. توفي بالرياض.

(٣) موقع عكاظ: دار المعارف بمصر ـ طبعة (١٩٥٠ م = ١٣٦٩ هـ)، والصفحات (١ ـ ٣٠) منه للدكتور عزام، وهي بعنوان موقع عكاظ، والصفحات (٣١ ـ ٤١) منه للشيخ ابن بليهد، والصفحات (٤٣ ـ ٧٢) منه للشيخ الجاسر، وهي بعنوان: موقع سوق عكاظ.

وأَلْحَقَ به مقالاً كتبه الشيخُ محمد بنُ بُلَيْهد النجديُّ، ومقالاً آخَرَ للأديب المحقِّق الشيخ حَمَد الجاسر النجديّ، في الموضوع نفسه، وقال: «هذه مقالاتٌ فيها القولُ الفَصْلُ في مكان سوق عكاظ، جمعتُ ما جاء في أُمَّهات الكتب عن موقع عكاظ وشأنِهِ، حين عزمتُ على الذهاب إلى الموضع الذي غلب على الظن أنه عكاظ، ثم كتبتُ المقالَ بعد أن شَهِدْتُ المكان، وأيْقَنتُ بالأَدِلَّة الكثيرة أنه هو...»[1]، ونَوَّه في مقدمته بأنه وَجد في كتاب الأفغاني أقوالاً في تعيين مكان عكاظ ليست صواباً، وإن كان فيه وفاءٌ بأخبار عكاظ[2]، جعله يَجتَزِىءُ في مقاله بكلمة موجزة، تحدَّث فيها عن شأن عكاظ وحُرْمَتِهِ، وبعضِ ماكان يجري فيه من أمور تدلُّ على عِظم شأنِهِ عند العرب. ولم يَرِدْ في هذه المقالات شيءٌ آخَرُ عن زمان عكاظ وموسمه، أو عن الأسواق الموسمية الأخرى. ولنا عودةٌ للحديث عمّا جاء في أبحاث هؤلاء الباحثين الأفاضل عندما نتكلَّم على سوق عكاظ.



المطلب التاسع ـ الأطلس التاريخي للدولة السعودية:

كتب الدكتور «إبراهيم جمعة» في الأطلس التاريخي فصلاً تحدَّث فيه عن أسواق العرب، فقال: «تذكر المصادرُ أسواقَ الجاهلية، وتفيضُ أحياناً في وصفها، يذكرها الألوسي في بلوغ الأرب، والمرزوقي في الأزمنة والأمكنة، والبغدادي في خزانة الأدب، واليعقوبي في كتاب البلدان، والهمداني في صفة جزيرة العرب، والقلقشندي في صبح الأعشى... يذكر

(١) موقع عكاظ: ٣.
(٢) المرجع نفسه: ٥.

البعضُ الأسواق على طريق الرحلة بين حوض المتوسط وعدن، والأسواق على الطريق المتجهة شرقاً عبر الجزيرة إلى الخليج والعراق، ويذكر أماكنها وأزمان إقامتها وواليها وجابي عُشُورها، ويكتفي البعضُ بالقليل منها، يذكره دون زمان أو مكان، فإن حاول تحديدَ المكان فهو التحديد الذي لا يُفيد. . . ويمكن الاستفادةُ مما كتب هؤلاء جميعاً، إذا أُضيف بعضُه إلى بعض أعطى قسطاً من المعلومات المتكاملة، وسنكتفي برواية الألوسي مع التعقيب عليها. . .»[1].

واعتقدتُ بعد هذا الكلام، أنني سأجِدُ عن أسواق العرب في الجاهلية بحثاً جديداً مُوَثَّقاً، مُعَقَّباً عليه بمعلوماتٍ قَيِّمةٍ، مع شيءٍ من الإفاضَةِ أو الفَيْضِ في الوصفِ[2]، الذي أشار إليه المؤلّفُ، ولا سيما أن موضوع الأطلس تاريخيٌّ، يقومُ في أساسه على تحقيق المواضع التاريخية في جزيرة العرب، وتعيين مراكز التجارة الكبرى وطُرُقِها الرئيسة فيها، وبيانِ المَواطِنِ التي كانت تنزِلُها منها قبائلُ العرب قبل الإسلام. . . ولكنني نظرتُ فوجدتُ الباحثَ الكريم سَرَدَ ممّا عَدَّهُ الآلوسيُّ ثلاثَ عشرةَ سوقاً فقط، وغَفَلَ عن ذِكْر سُوقَيْ نَطَاةٍ بخَيْبَر وحَجْرٍ باليمَامة، حاكِياً مُحَاكَاةً مُرِيبةً الجدولَ الذي نظمه الأفغانيُّ للأسواق كما وجدها عند الآلوسي، بالسَّهْوِ والعِبَاراتِ والمواقيت والأخطاءِ نفسِها، إلا في الترتيب، إذ جَعلَ سوقَ حضرموت آخِراً!. . . ثم كان جُلّ ما فعله بعد ذلك أنه جمع، إلى ما زعم أنها أقوالُ الآلوسي، عباراتٍ ادَّعَىٰ أنه نقلها عن البغدادي والمرزوقي والقلقشندي

---

(١) الأطلس التاريخي للدولة السعودية: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض (١٣٩٨ هـ = ١٩٧٧ م) ـ الصفحتان ٢ و ٣ من الملحقات بالأطلس.

(٢) **الإفاضة**: الإندفاع بسرعة، يقال: أفاض القومُ في الحديث أي اندفعوا فيه وأسرعوا، ومنه الإفاضة في مناسك الحج. **والفَيْضُ**: الكثرة والامْتِلاءُ والسَّيَلانُ.

واليعقوبي، وألَّف بينها على الخَبْطِ والهوى، من غير سبب واضح لاختياره عبارةً دون أُخْرى، ومن غير أن يُحقِّق فيها شيئاً، بل إنه كثيراً ما حَرَّفَ الكلمات عن مواضعها، ممّا يدفعُ إلى الظنّ بأن الرجُلَ لم يطَّلِعْ على تلك المراجع، ولم يَقْرَءْ شيئاً ممّا كتبهُ الآلوسيُّ في موضوع الأسواق، ولكنه أغار على خمسِ صفحاتٍ فقط من كتاب الأستاذ الأفغاني جُعِلَتْ جداولَ بأعْدادِ الأسواق ومواقيتِ قيامها ووُلاَتِها، كما حَقَّقَها عند اليعقوبي والمرزوقي والقلقشندي والبغدادي والآلوسي[1]، فألَّفَ الباحثُ الكريم بين ما جاء فيها من المعلومات المُخْتَزَلةِ تأليفاً مُنكَراً، أَسَاءَ به إساءَةً كبرى إلى موضوع الأسواق، سامحه الله.

١ ـ وعلى سبيل المثال، ذكر الآلوسي أن العرب كانوا ينزلون سوقَ دُومَةِ الجَنْدَلِ أولَ يومٍ من ربيع الأول، وكان أُكَيْدِر ملكُ دُومَةِ الجَنْدَل يرعَى الناسَ فيها ويقومُ بأمرهم ويَعْشُرهم، فتقوم السوقُ إلى نصف الشهر، فإذا غلب على السوق بنو كلب، وهم أهلُها وجيرانها، قامت السوق إلى آخر الشهر، وعشَّر الناسَ فيها بعضُ رؤساء بني كلب[2]. . . فانْظُرْ إلى هذا النصّ كيف جاء عند الباحث، قال: «ويذكر الآلوسيُّ أن سوق دومة الجندل تُعْقَدُ في ربيع الأول (البغدادي من ١ ـ ١٥ ربيع الأول)، ولا يذكر الآلوسي وَالِيها أو عاشِرَها، ويذكرهُ المرزوقي على أنه الأُكَيْدِرُ صاحبُ دُومَةِ الجندل، كما يذكرون بني كلب. . .»[3]. ولو قرأ نصَّ الآلوسيّ حقّاً لمَا وقع فيما رأيناه من الغَلَطِ القبيح، ولكنه نظر في الجدول الذي أَعدَّهُ الأفغاني بأسواق

(١) أسواق العرب: ٢١٨ و ٢٢١ ـ ٢٢٤.

(٢) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) الملحق بالأطلس التاريخي: الفقرة الأولى من الصفحة الثانية.

الآلوسي، فلم يجد فيه غير عبارةٍ واحدةٍ عن دُومة الجندل تُعيِّنُ قيامها في ربيع الأول، فظنَّ ذلك كلَّ ما قاله الألوسي.

٢ ـ مثالٌ ثانٍ... زَعَم الباحثُ أن الآلوسي قال: إن سوق المُشَقَّر تُعقَدُ في جُمادَىٰ الثانية، وأن اليعقوبي قال: إن جابيها «تَيْمٌ» رَهْطُ المنذر بن ساوى... وأن المرزوقي قال: إن واليها من بني عبد الله بن زيد رَهْطِ المنذر بن ساوى... والواقع أن الآلوسي لم يَقُلْ: في جُمادَىٰ الثانية، وإنما: «في أول جُمَادَىٰ الآخِرة»[1]، والعربُ عادةً لا تستعملُ تعبيرَ جُمادَى الثانية، أو ربيعِ الثاني، فذلك يعني وجود ثالث ورابع... ولكن الأفغاني استعمل هذا التعبير فنقله عنه إبراهيم جمعة كما وَجَدَهُ من غير تَدبُّر... كما أن اليعقوبي لم يَقُلْ إن جابي سوق المشقَّرِ تَيْمٌ، وإنما قال: وتقومُ بها بنو تميم، والقَوَامَةُ هنا بمعنى الإمارة والولاية والرئاسة، وإن كانت العشورُ تُجَبىٰ إليهم. وقد أصاب كلمة «تميم» في الطباعة تصحيفٌ فصارت بني تَيْم، فلم يفطن إليها الباحث، وأبْقاها على ماجاءت، وكان الظنُّ بمثله، وقد تصدَّىٰ لإصدار أطلس تاريخي كبير، أن يكون على علم بأن بني تميم كانوا من أهل الخليج العربي، وولاةَ أمور البحرين وهجر والمُشقَّر وغيرها، وأن المنذر بن ساوَىٰ أحَدُ ملوكِ بني تميم، من عشيرة عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم[2].

٣ ـ مثال ثالث... ذكر الآلوسي أن سوق عدن تقوم إلى أيام من رمضان[3]، فَعَزا إليه الباحثُ قَوْلَهُ إنها تُعقَدُ من أول رمضان إلى

---

(١) بلوغ الأرب: ١/٢٦٥.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢.

(٣) بلوغ الأرب: ١/٢٦٦.

الخامس عشر منه، وهو قولٌ حمله الأفغاني خطأً على الآلوسي، فنقله جمعة من غير تَبصُّر... وزاد على ذلك فقال: «ويذكر المرزوقي أن وُلاتَها وجُبَاةَ عُشُورها من: **الأَقْنَاء...**»، وكرَّر القولَ نفسَه في سوق صنعاء فقال: «ويذكر اليعقوبي أن وُلاتَها وجُبَاةَ عشورها من: **الأَقْنَاء...**»، وكنتُ أسأل نفسي وأُكرِّرُ السؤال عمَّا تعنيه كلمةُ الأَقْناءِ هذه التي يُصِرُّ عليها الباحث، حتى وصلتُ إلى حديثه عن سوق عكاظ، فوجدتُ أنه أثبتَ موعدَ قيامها من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، كما ذكره الأفغاني عن الآلوسي، مع أن الأخير لم يقطع بموعد مُعيَّن، وإنما ذكر فيه أقوالاً مختلفةً، منها قيامُها في هذا الوقت، ومنها قيامُها في شهر شوال، أو من نصف ذي القعدة إلى آخره، وقال: لعلّ ذلك لاختلاف العادة في السنين، أو لاختلاف القبائل في الإقامة في هذا الموسم[1]... ثم تحدَّث عن نزلاء عكاظ في الحاشية فقال: وتنزلها قريشٌ وغطفان وهوازن وخُزَاعة وثقيف والأحابيشُ وطوائف من (**أَقْنَاءِ**) العرب، **والأَقْنَاءُ**: هم الذين أَقْنَاهُم اللَّهُ أي أعطاهم!

وهكذا أَطْلَعَنا الباحثُ على معنى كلمة «أَقْناء»، وعرفنا منه أن الذين حكموا عَدَن وصنعاءَ، والذين زاروا سُوقَ عكاظَ كانوا جميعاً «مِمَّن أَقْناهُم اللَّهُ أي أعطاهم»[2]، وهو معنىً طريفٌ تأوَّلَهُ الباحثُ الكريم على غير مِثَالٍ سابق، فكان هو السابق إليه... والحقيقةُ المُرَّةُ أن الرجُلَ لا يجهلُ تاريخَ العرب وحسْب، وإنما يجهلُ لغتَهم أيضاً، فضلاً عن جهله القراءةَ السليمةَ، وما عسَاهُ أن يقعَ أحياناً على الكلمات من التصحيف الذي يُغيِّر لفظها ومعناها!... والعبارةُ كما جاءت عند اليعقوبي في كلامه على وُلاَةِ

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٧٠.

(٢) الأطلس التاريخي: حاشية رقم ٢ في الصفحة الثانية من الملاحق.

سُوقَيْ عدن وصنعاء هي: «ويَعْشُرهم بها **الأَبْناءُ**...»[1]، وكما جاءت عند المرزوقي في حديثه عن سوق عدن هي: «... وآخِرُ من عَشَّرَهُم **الأبناءُ** من فارس»[2]، وفي حديثه عن القبائل التي تنزلُ سوق عكاظ هي: «... وطوائفُ من **أَفْناءِ** العرب»[3]...!

ونحن هنا إذن حِيَالَ كلمتين حَرَّفَهما الباحثُ، **الأولى: الأبناء**، وهم أولادُ الفُرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن مع الملك سيف بن ذي يَزَن، فأعانوه في حربه على الحبشة، ثم ظلوا هنالك، وتزوَّجوا في العرب، فغلب على أولادهم اسمُ الأبناء[4]، كيلا يُقالَ لهم الهُجَنَاءُ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم، ولم يكن لهم في العرب نَسَبٌ، ولا كان من عادة العرب أن تُزوِّج بناتها من أعاجم... **والكلمةُ الثانية: الأَفناءُ**، ومعناها الأَخْلاطُ، ورَجُلٌ من أَفْنَاءِ القبائل أي لا يُدْرَىٰ من أيّ قبيلةٍ هو، ويُقال: قومٌ من أفْناءِ القبائل أي خليطٌ من قبائلَ مختلفةٍ[5].

وفوق ذلك كله ليس في كلام العرب شيءٌ اسْمُهُ الأَقْناءُ، بمعنى الذين أعطاهم الله، وإن كان معنى الفِعل منها كذلك، كقولنا: أَقْنَاهُ الله أي أغناهُ وأعطاه ما يَقْتَني، وإنما جاءتِ الأَقْناءُ جمعاً للقِنْوِ أي العِذْق، وهو من النخل كالعنقود من العنب[6]... ولا أعتقد أن غلطاً كهذا، يَشْتَطُّ الباحثُ فيه،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٤) لسان العرب: ١٤/ ٩١ (بنا)، والمحبَّر: ٢٦٦.

(٥) لسان العرب: ١٥/ ١٦٥ (فنا).

(٦) تهذيب الصحاح: ١٠٥٤، والمنجد: ٦٥٩.

فيَتَأَوَّلُهُ ويجمعُ إلى جهله بالتاريخ جهلاً باللغة، يمكن أن يُعذَرَ عليه مهما كانت مَعاذِيرُه!

٤ ـ مثال رابع... ذكر أيضاً أن سوق حُبَاشَة لم يذكرها أحدٌ من المؤرِّخين غير الآلوسي! وهو غير صحيح قطعاً، فالآلوسي أخذها عن الأزرقي الذي تفرَّدَ بالإشارة إليها في أخبار مكة[١]... ثم أكَّد وجودها ياقوت الحموي، وكان الخلافُ في صورة لَفْظِها السببَ في تصنيفه كتابَهُ القَيِّمَ «معجم البلدان»[٢]. ولكن الباحث اكتفى بالنظر في جدول الأفغاني، الذي نظمه للأسواق كما وردت عند المُصَنِّفين، ولم يكن بينهم الأزرقيُّ ولا ياقوتُ، فَتَوهَّم أن الآلوسيَّ هو الذي انفرد بذكر سوق حباشة.

٥ ـ مثال خامس... ذكر أن اليعقوبيَّ مُتَّفِقٌ مع المرزوقيّ في قيام سوق صُحَار أول يوم من رجب.. وهو غير صحيح، ولو قرأ المرزوقيَّ لوجد أنه لم يَقُلْ ذلك وإنما ذكر أن الناس ترتحلُ من المشقَّر بالبحرين أولَ يوم من رجب، فتصلُ إلى صُحَارَ بعُمَان «لعشرين يوماً تمضي من رجب»[٣]، فتنعقد أسواقُهم بها خمسةَ أيام!... ليس هذا وحسب، بل إن الباحث زعم أن المرزوقيَّ قال: إن والي صُحَار وجابي عُشُورِها من «**الجَلَنْد**»!... ولا يوجد في مراجع الأنساب عند العرب قومٌ لهم هذا الإِسْمُ، ولا يوجدُ أيضاً في مراجع اللغة شيءٌ اسمهُ الجَلَنْدُ، والمرزوقيُّ لم يقُلْ ذلك، وإنما قال: فكان **الجُلَنْدَىٰ** يعشُرهم فيها[٤]... ولم يكن الباحثُ يعلم أن الجُلَنْدَىٰ بنَ

---

(١) أخبار مكة: ١/١٩٢.

(٢) معجم البلدان: ١/١٠ و ٢/٢١٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣.

(٤) المرجع نفسه.

كَرْكَرَ بنِ المُسْتكبر الأَزْديّ كان مَلكَ عُمَان[1]، وأنه والدُ جَيْفَر وعبَّاد اللذين كتب إليهما رسولُ الله فأسْلَما، فتوهَّم أنه الجَلَنْدِيُّ، نُسِبَ إلى الجَلَنْد، فأثْبَتَ الكلمة كما اكتَشَفها سامحه الله.

٦ ـ مثَالٌ أخير على سُقْم ما قدَّمهُ إبراهيمُ جُمعة في حديث الأسواق، هو شكْواهُ أن جميع المُصَنِّفين، طبعاً كما وَجَدَ في جدول الأفغاني، لم يذكروا شيئاً عن وُلاَةِ سوق مجنَّة وجُبَاةِ عُشُورِها، ويبدو أنه حَسبَ الأمرَ إهمالاً أو سهواً، فقال: ولا بدَّ أنهم كانوا من سادة قريش أصحاب التجارة. . . والغريب أنه لم يُقَدِّم لنا هذه الملاحظة في سوق ذي المجاز، مع أنها كانت كذلك ليس بها ولاةٌ ولا جُبَاةُ عشور! . . . ولا شك في أنه يجهل أن المجنَّة وذا المجاز كانتا من مواسم الحجّ، وأن أرضهما مُحرَّمة، ولذلك لم يكن بهما مكَّاس ولا عشَّار، لا من قريش ولا من غيرها.

* * *

المطلب العاشر ـ الشعراء الصعاليك:

وكتب الدكتور «يوسف خليف» فصلاً طيّباً في كتابه: «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي»[2]، أشار فيه إلى خمسَ عشرةَ سوقاً من الأسواق الموسمية عند عرب الجاهلية، نقلاً عن اليعقوبي وابن حبيب وياقوت الحموي، ولم يُعْنَ كثيراً بتحقيق مواضعها، ولا بذكر مواقيت انعقادها، ولكنه بحث في أسباب نشوئها على طول الطرق التجارية، وحول

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٣٨٤.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ١٩٥٩ م ـ الصفحات (١٢٦ ـ ١٣٢).

مراكز التجارة الرئيسة، كما بحث في تَوزُّعِها على منطقتين، إحداهما بلادٌ لها حكومةٌ ترعَىٰ الناسَ، وتحفظُ الحقوق، والأخرى تحكمُها القبائلُ في البوادي، ثم خَلُصَ من هذا البحث إلى بيان العلاقة التي كانت قائمةً بين هذه الأسواق وطائفة الصعاليك عند العرب، وهو ما سنتحدَّث عنه في موضعه إن شاء الله.

* * *

* الخـلاصـة:

إذا أردنا أن نُلخِّصَ ما توصَّلنا إليه من عَرَضْ أقوالِ المُحْدَثين، في المواسم العامَّة عند العرب، ومُنَاقَشتِها، ونَقْدِها، قلنا إنهم كادوا يكونون جميعاً مُتَّفِقينَ على خَطَرِها، وعُمْقِ تأثيرها ودَوْرِها في حياة العرب، وإن كانوا مختلفين في عدد ما ذكروه منها، أو في تعيين مواعيدها ومواقعها.

١ ـ ذكر الآلوسي خمسةَ عَشَر موسماً، إثنان منها مُقْحَمَانِ فيها من غير حجَّةٍ أو سَنَد، وهما: سوقُ هَجَر وسوقُ عُمَان، فيبقى ثلاثة عشر فقط، أي أنه نَقَص من المواسم ثلاثةً هي: دَبَا، ونجرانُ، وبَدْرٌ، ولم يأتِ بجديد.

٢ ـ ذكر زيدانُ اثنَيْ عَشَرَ موسماً، وزعم أنه نقلها عن القلقشندي، مع أن الرجل لم يذكر في كتابه غير ثمانيةٍ. ويبدو أنه نقل ما ذكره الآلوسيُّ، ونَقَص منه ثلاثةً هي: ذو المجاز، وحَجْر اليمامة، ونطاة خيبر.

٣ ـ ذكر الرافعيُّ ما ذكرهُ الآلوسيُّ، إلا مَوْسميْ حَجْرٍ ونَطَاةٍ، وزاد على ذلك أربعةَ أسواق هي: الأُبُلَّةُ، وبَقَّةُ، والأنبارُ، والحيرةُ، وقال إنها كانت تقوم بين دُورِ العرب ودُورِ العجم، وكانت أوْسَعَ أبواب الدَّخِيلِ والمُعَرَّب في لغة العرب، فجَدِيدُه إذن: الأُبُلَّةُ وبقَّةُ والانبار.

٤ ـ ذكر الأفغاني عشرين موسماً، ستةَ عَشَر منها في جزيرة العرب، زاد فيها على ما ذكره الآلوسيُّ موسمَ دَبَا بعُمان، وثلاثةٌ منها في الشام هي: دير أيوب، وبصرى، وأذرعات أخذها عن المرزوقي، وموسمٌ واحد في العراق هو: الحيرة، أخذه عن الأصفهاني، وأضاف إلى ذلك كله سوق المِرْبَد لما كان له من الآثار العظيمة.

ولئن حاول الآلوسيُّ أن يُؤرِّخَ لمواسم الأسواق العامَّة، لقد جاء حديثه عنها مُقْتَضَباً، غيرَ مُوَثَّق، وإن عَدَّهُ مَن عاصَروهُ أو جاؤوا بعده مَرْجِعاً، ولكن الأفغانيَّ بَذَلَ جُهداً مشكوراً، في كتابٍ أفْرَدَهُ للمواسم وتاريخها... وقد أخذنا عليه سَرْدَهُ مختلفَ الوقائع والأخبار من غير تحقيق، أو نقدٍ، أو موازنةٍ بينها وبين أمثالها، وتقبَّلها جميعاً قَبُولاً حَسَناً، وأَثْبَتَها في كتابه كما وجدها، أو نُقِلتْ إليه، ولا سيما اتّهامه المرزوقي بالسرقة من ابن حبيب، مستنداً إلى إشارةٍ تلقَّاها من صديقه المستشرق كرنكو، مع أن الأخير لم يكن على حَقٍّ... هذا إلى أمورٍ أخرى أخذتُها عليه في مناقشتي لكتابه وتعليقي عليه، منها تعيينُه مواعيد مواسم الشام تَخْميناً وتَرْجِيحاً.

٥ ـ ذكر جواد علي تسعة عَشَرَ موسماً، فزاد بذلك على الآلوسيّ أربعةَ مواسم، هي: دبا، وبَدْرٌ، وقينقاع، وعَثْرٌ... ولم يَثْبُتْ أن سوق قينقاع كانت موسميةً فتُعَدَّ في المواسم، ولم يذكر أحدٌ أن في عَثْرٍ، وهي بلدٌ باليمن، سوقاً موسمية، فتكون جملةُ المواسم عنده سبعةَ عَشَرَ، منها إثنان مُقْحَمانِ فيها وهما سوقا هَجَر وعُمَان، والبقيةُ خمسةَ عشر موسماً، تنقصُ عمَّا حقَّقناه سوق نجران. والجديدُ عنده موسمُ الأنباط الكبير، وهو موسمٌ يمكن أن نُضيفَهُ إلى مواسم الشام، ذلك أن دولة الأنباط كانت أقرب إلى بلاد الشام، وأشَدَّ اتصالاً، وتَصِيرُ بذلك مواسمُ الشام المعروفةُ تسعةً.

٦ ـ وأما سائر الكتَّاب الأفاضل فلم يُقَدِّمُوا جديداً لأن همَّهم كان البحثَ في مواسم الحج، أو الكشفَ عن موضع عكاظ دون غيره[١]، أو البحثَ في سوقي عكاظ والمِرْبد فقط.



(١) كثيرون أولئك الَّذين أسْهموا في محاولات الكشف عن موقع عكاظ من الباحثين في المملكة العربيّة السعوديّة، أذكرُ منهم ابتداءً: الأستاذ الفاضل ناصر الرشيد، صاحب كتاب «سوق عكاظ في الجاهليّة والإسلام ـ تاريخُه ونشاطاتُه وموقعُه»، وقد اطَّلعتُ على بعض آرائه في موقع عكاظ، من خلال ما نشرتْه جريدةُ عكاظ بالملحق الثقافي سنة (١٤١٦ هـ=١٩٩٥ م)، من مقالاتٍ لبعض الباحثين عن موقع عكاظ، ولم يُسْعفني الحظُّ بالاطلاع علَى كتابه كاملاً. . .

ثم أذكر من أولئك الأفاضل، الأساتذة: عبد الله محمد الشايع، والدكتور ناصر بن علي الحارثي أستاذ الآثار والفنون الإسلامية بجامعة أمّ القرى، فهد المعطاني الهُذَليّ، محمد موسم المفرجي، مناحي القثامي، عاتق البلادي، جُوَيْبر الثبيتي، محمد بن سلطان العتيبي، خليل بن إبراهيم المعَيْقل، عبد الله الجفري، محمد منصور آل عبد الله، أحمد محمد جابر، محمد بن سعد بن حسين، سعد بن عبد العزيز وكيل وزارة المعارف للآثار والمتاحف، زكيّة حاجي، الدكتورة عَزَّة بدر، فاتن كعكي، عبد الله بن خميس، عبد العزيز الشايع، حماد السالمي، عبد العزيز مزروع الأزهري.

الفصل الثالث

تصنيف المواسم العامّة المعروفة في بلاد العرب والشام والعراق

إذا شئنا تَصْنيفَ المواسم العامَّة عند العرب، صَنَّفْناها أصنافاً ثلاثةً:

الأول: مواسم عامَّةٌ كانت تقوم فيها أسواق للتجارة، ويصحبها عادةً ألوانٌ مختلفةٌ من الأنشطة الاجتماعية والأدبيَّة والدينية. وقد كشفنا عن عَدَدٍ منها ذكره قدماءُ المورِّخين والأخباريين، وسنتحدَّث عن كل موسم منها على حِدَةٍ..

الثاني: مواسمُ طبيعيةٌ عامَّة، كان الناسُ يخرجون فيها من ديارهم، التي اعتادُوا السَّكَنَ بها في المَحاضِر، إلى البوادي، لمراجعةِ البداوة وانتجاعِ مواقع الغيث، ومواضع الكلأ. وهي موسمان كبيران، أحدهما في زمن الخريف، والآخَرُ في زمن الربيع، وقد تحدَّثنا عنها في مواضعَ مختلفةٍ من الكتاب، ولا سيما في كلامنا على نظام الأَزْمنة وطبائعها عند العرب.

الثالث: مواسمُ عامَّةٌ للحجِّ إلى بُيوتِ الله الحرام، «وكان منها في الجزيرة العربية، في عصر الجاهلية، عدَّةُ بيوتٍ مَشْهورةٍ، وهي بيتُ الأُقَيْصِر، وبيتُ ذي الخُلَصَة، وبيتُ صنعاء، وبيتُ رِضَاء، وبيتُ نَجْران، وبيتُ مكَّةَ أشْهرُها وأبْقَاها، عدا بعضِ البيوت الصغار التي يعرفها الرحَّالون،

ولا تُقْصَدُ من مكانبعيد»[1]، وكان بيتُ الأُقَيْصِر في مَشَارفِ الشام، مَقْصِدَ القبائلِ من قُضَاعة ولخم وجُذَام وعامِلة، يحجُّون إليه، ويحلقون رؤوسَهم عنده، ويُلْقُونَ قبضةً من الدقيق مع كل شعرة، وكانت تُشاركهم فيه غَطَفَانُ وهوازن[2]. وكان بيتُ ذي الخُلَصَة يُسمَّى الكعبةَ اليمانيةَ، في أرض بني خَثْعم بين مكة واليمن، ويُسمَّى البيتُ الحرامُ بمكة الكعبةَ الشاميَّة تمييزاً بين الكعبتيْن، وكانت تقصدها وتحجُّ إليها قبائلُ بَجيلة، وخَثْعم، والحارثِ بن كعب، وجَرْم، وزبيد، والغَوْثِ بن مُرّ، وبنو هلال بن عامر، وكان له سَدَنَةٌ وحَجَبَة[3]. . .

وكان بصنعاء بيتُ رِئام، يحجُّون إليه، ويَنْحرون عنده، وقد طلب حَبَرانِ من أحد مُلوكِ اليمن أن يأمرَ بهَدْمه، لأنه شيطانٌ يفتنُ الناسَ، ففعل. . . وفي بيت رضاء يقول المستوغِرُ بنُ ربيعة حين هَدمَهُ في الإسلام:

ولقد شَدَدْتُ على رِضاءٍ شَدَّةً فتركتُها قفراً بقاعٍ أسْحَما

وأما كعبةُ نجرانَ فقد عَفَت آثارُها، وكشَفَها الرحَّالةُ عبد الله فلبي في رحلته سنة (١٩٣٦ م)، وهي التي قال فيها الأعشى يخاطب ناقتَهُ:

فكعبةُ نجرانَ حَتْمٌ عليكِ حتى تُنَاخي بأبوابها
نَزُورُ يزيدَ وعبدَ المسيحِ وقيساً هُمُو خيرُ أرْبابِها

ويقول بعضُ المؤرِّخين إن هذا البيت، وبيتَ سِنْداد بين الكوفة

(١) مطلع النور: ١٥٠.
(٢) معجم البلدان: ١/ ٢٣٨.
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٣٨٣.

والبصرة، لم يكونا من بيوت العبادة، وإنما كانا من المزارات الشريفة[1]، في عصر الجاهلية.

وكانت لهذه البيوت الحرام، مواسمُ تقومُ في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ من السنة، وباتتِ اليوم مجهولةً، فكانوا يحجُّون إليها، ويَتَعاهَدون على المسالمة في جوارها، «والأمرُ الذي لا يجوزُ الشكُّ فيه أن البيوتَ الحرامَ وُجِدت في الجزيرة العربية لأنها كانت لازمةً، ولم تُوجَدِ العِبَاداتُ والمعبوداتُ فيها لأن أحداً اخْتَرَعَها لتُقْصَدَ وتُعْبَدَ، وإنما كانت العباداتُ والمعبوداتُ مَرْعيَّةً مَوْرُورثةً، ثم أُقيم لها المكانُ الذي تُعْبَدُ فيه، وتُقْصَدُ من أجله»[2].

وقد اجتمع لبيت مكة الحرام، ما لم يجتمع مثلُه لبيتٍ آخَرَ من البُيوت الحرام في سائر أنحاء جزيرة العرب، لأن مكة كانت مَثَابَةَ أمْنٍ وعبادةٍ وتجارة، وكانت عربيّة لجميع العرب، على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم وطوائفهم، تُمثِّلُ جملةَ مَأْثُوراتهم ومعبوداتهم، فلما صارت إلى الإسلام، وحُطِّمت فيها الأصنام، سقطت تلك البيوتُ جميعاً، إلا بيت مكة الحرام، ظلَّ قائماً، تقصدهُ جماعات المسلمين من المناطق القريبة والبعيدة، وتحجُّ إليه في موسمه، من كلِّ فجٍّ عميق...

وعندي ميلٌ قَويٌّ إلى الاعتقاد بأن مواسم الحجِّ إلى البيوت الحرام كانت لها علائقُ وثيقةٌ بقيام مواسم الأسواق الكبار، وأن موسم الحج كان مُلازِماً موسمَ السوق، يسبقُهُ، أو يَصْحَبُه، أو يقوم فيَ أعقابه. وفي رأيي أن موسم سوق نجران مثلاً كان مُرْتبطاً على نَحْوٍ ما بموسم كعبة نجران، وأن موسمَ بيت سِنْداد كانت له صلةٌ بموسم سوقِ الحيرة، أو سوقِ الأُبُلَّة، وأن

---

(١) مطلع النور: ١٥١.

(٢) المرجع نفسه: ١٥٣.

موسمَ بيتِ ذي الخُلَصَة مُتَعلِّقٌ بموسم سوق حُبَاشَة، مثلما كان موسمُ الحج إلى الكعبة مُتَعلِّقاً بمواسم أَسْواقِ عُكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجازِ، حتى أنهم كانوا يُسمُّونها مواسمَ الحجِّ.

وقبل أن نَعْمَدَ إلى بيان خطَّتِنا في الحديث المفصَّل عن المواسم العامَّة، التي تَوَصَّلْنا إلى الإحاطة بها، هنالك بعضُ الملاحظات على أحاديث القدماء، وأبحاث المُحْدَثين، لا بُدَّ لنا من التعرُّض لها، طلباً للدقَّة في البحث، وتعميماً للنفع.

١ ـ وَضَح من سِيَاق أحاديث القدماء، أن مَراجِعَهم كادت تكونُ واحدةً، على الرغم من اختلافِهم في عَدَدِ المواسم، وتعيينِ مَواقيتِ بعضِها، إلى تفاوتٍ يَسِيرٍ في أسمائها أحياناً لا يخفَىٰ على المحقِّق المُتَأَنِّي. . . ولكنّ بعض المُحْدَثين ظَنُّوا أنهم وقعوا على جديد في هذا التفاوت، فجعلوا من سوق المشقَّرِ بهَجَرٍ سوقين، هما: المشقَّرُ وهَجَر، وسوقي صُحَار ودَبَا بعُمان ثلاثاً هي: صُحَارُ ودَبَا وعُمَان[1]. . . كما اعتقد الأفغاني خَطَأً أن المرزوقيَّ سرق حديثه عن أسواق العرب من ابن حبيب! وقد أَثبتْنا بالبراهين القاطعة أن التماثُلَ بين عبارات الرجُليْن مَرَدُّه إلى أنهما غَرَفا من مَعِينٍ واحد.

٢ ـ ولاحظنا أن المرزوقيَّ لمَّا ذكر مواسم الشام، عيَّن مواعيدها بالاستناد إلى أُفُول نجم الثريَّا، وأشار إلى أن أهل الشام يَشْرعُون في إقامة أول مواسمهم، وهو دير أيوب، بعد خمسة وعشرين يوماً من أُفُوله. وهو توقيتٌ مُعادِلٌ للتوقيت الشمسي، يجعلُ مواعيدَ قيام مواسمهم ثابتةً، ويُطلِعُنا

---

(١) بلـوغ الأرب: ١/٢٦٥، ٢٦٦، وأسـواق العـرب: ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٦، والمفصَّـل: ٧/٣٧٣، ٣٧٤. . .

في الوقت نفسه على أن شهر نيسان كان الشهر الأوَّلَ في السنة، وهو يقع في شهر رجب عند عرب نَجْدٍ والحجاز. ولكن الأستاذ الأفغاني فَهِمَ هذا الأمرَ فهماً خاصّاً، وفسَّر كلام المرزوقي في أُفُول الثريّا بأنه الوقت الذي يأتي بعد انتهاء موسم الحج في ذي الحجَّة.

٣ ـ ولاحظنا أن مواسم الأسواق، وإن كانت مواعيدُها تقومُ تِبَاعاً، لم يكن من اللازم شُهودُها جميعاً، بالتَّتَابُع، فقد كان التجَّارُ وأصحابُ المصالح يختارون ما لهم مَآرِبُ في شهوده فيَشْهَدُونَـهُ.

٤ ـ إن التفاوت في تعيين مواعيد بعض المواسم مَرَدُّهُ عندي إلى ثلاثة أسباب. . .

الأولُ: سوءُ النقلِ، أو الروايةِ، أو الطباعةِ.

الثاني: اعتمادُهم في تعيين مواعيدهم يومئذٍ رُؤْيةَ الأَهِلَّة، ومطالعَ النجوم ومساقِطها[1]. وهو ما ضاعتْ أصولُه ومعالمه في عصر التدوين.

الثالث: أن المواسم إنما كان يجري الإعْدادُ لها، وربما الوصولُ إليها، قبل مواعيد قيامها، كما كان انقضاءُ مَوْسِمِها، لا يعني مُفَارقةَ جميع الزائرين لها فوراً، فقد يَتَخلَّفُ فيها بعضُهم أياماً فوق مَوْعِدِها، لِقَضاءِ حاجاتٍ لهم لم تُقْضَ أثناء انعقادها، وهو ما توهَّمَهُ بعضُ الأخباريين أو المؤرِّخين موعداً مختلفاً للموسم.

٥ ـ يبقى أن نُشيرَ إلى أن المُحْدَثين لم يُحقِّقُوا لنا جديداً نُضِيفُه إلى ما حقَّقْناهُ من المواسم، التي سَرَدْناها في الجدولِ المُلْحقِ بخلاصة الفصل

---

(١) الأزمنة والأنواء: ٣٥.

الأول، إلا ما ذكرهُ جواد علي عن الموسم الكبير الذي كان يقوم للأنباط، في ركنٍ على البحر الأحمر، في غابةٍ من النخيل، ويجري فيه ما كان يجري في مواسم عكاظ والحج إلى الكعبة بمكة[1]... وإلا ما أشار إليه مصطفى صادق الرافعي من أسواق كانت تقومُ في قُرى بَقَّة والأنْبَار والأُبُلَّة بالعراق، ويختلط فيها العربُ بالأعاجم.

* * *

ونعود إلى الكلام على خطتنا في الحديث المفصَّل عن المواسم العامَّة، بعد أن اسْتَوفَيْنا في الجزء الأول حديثَنا عن عوامل نشوئها وقواعد قيامها وازدهارها... وقد خَلُصْنا من عرض أحاديث القدماء والمحدثين عن مواسم الأسواق، ومناقشتها ونقدها، والتحقيق الدقيق فيها، إلى إحصاء إحدى وأربعين سوقاً، زعموا أنها كانت تقوم في مواسمَ معيَّنةٍ من السنَة... لكنَّ منها ما ذكروا مواقيتَهُ، ومنها ما أغْفَلُوها، أو غَفلوا عنها. ومنها ما تبيَّن أنه موضعُ شَكٍّ في مَوْسِميَّتِهِ، أو غير قابلٍ لمتابعة البحث، إلى غير ذلك... فإذا طرحنا ممّا أحْصَيْنا اثنتيْ عشرة سوقاً، وهي:

١ ـ ما سُمِّي بأسواق هجر البحرين، وعُمان، والشِحْر[2]، لأنها تكرارٌ بأسماءٍ مختلفةٍ لأسواق المشقَّر بهَجَر، وصُحَار أودَبَا بعُمَان، وإرَمٍ بالشحْر.

٢ ـ سوقُ مكة لأنها غيرُ موسميّة.

٣ ـ موسمُ مِنىً لأنه لم يكن في الجاهلية سوقاً تجاريةً، بل كان من

---

(١) المفصَّل: ٦/٣٩٦.

(٢) صبح الأعشى: ١/٤٦٨، والمحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣، والإمتاع والمؤانسة: ١/٨٤.

مناسك الحجِّ، وموسمُه داخِلٌ في موسم الحج إلى مكة.

٤ ـ أسواقُ النَّبَط بيثرب، والجَنَد والأسْقَى باليمن، ودَما بعُمان، وبَقَّة والأُبُلَّة والأنبار بالعراق، لعدم كفاية ما بين أيدينا من المعلومات، للحديث عن وقائعها وأخبارها وتاريخها، وخاصَّةً مواسمها.

بقي لنا إذن تسعٌ وعشرون سوقاً، عرفنا مواقيت اثنتين وعشرين منها، وعرفنا أن المربدَ كانت سوقُه قائمةً على مدار السَّنَة، وعلينا البحثُ لمعرفة مواعيد الستِّ الباقيات، وهي: بَدْرٌ، والحيرةُ، والخنافسُ، والكباثُ، ونَجْرانُ، ومَوسِمُ الأنباط.

وسيكون منهاجُ البحث في هذه المواسم جميعاً قائماً أولاً على إفْرادِ ما كان العرب يُسَمُّونَه قبل الإسلام بمواسم الحج، وهي عندهم: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، ومِنىً، وعَرَفَة[1]، وكانوا يتبايعون في عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، ولا يتبايعون يومَ عَرَفَة، ولا أيَّامَ مِنىً، تأثُّماً[2]، وكانوا يقولون: لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز إلا مُحْرِمين بالحجِّ[3]... ثم إن هذه المواسم كانت أعظمَ مواسم العرب شُهرةً، وأبعدَها آثاراً... فيكون المنهاجُ كما يلي:

١ ـ مواسم الحجِّ: عكاظ، مجنَّة، ذو المجاز، موسم الحجِّ إلى مكة.

٢ ـ مواسم جزيرة العرب: حَجْرُ اليمامة، نَطَاةُ خَيْبر، دُومَةُ الجَنْدَل، المُشقَّر بهَجَر، حُبَاشَة بتهامة، صُحارٌ ودَبَا بعُمان، إرَمٌ في الشِّحْر، الرابيةُ

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٩.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٨٨.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ١٩٢.

في حضرموت، عَدَنٌ وصنعاءُ ونَجْرانُ باليمن، بَدْرٌ بالحجاز.

٣ ـ **مواسم بلاد الشام**: أَذْرِعات، تُومَاء، الأُردنّ، فلسطين، دَيْرُ أَيُّوب، بُصْرى، عمَّان، منبج، موسم الأنباط... ثم يلي ذلك حديث عن موسم العيد السنويّ بتَدْمُر.

٤ ـ **مواسم العراق**: الحيرة، الخنافس، الكباث، المربد. ونتحدَّثُ في هذا الباب أيضاً عن مواسم أعياد بعض الأَدْيِرة المسيحية بالعراق.

وأخيراً، نحبُّ أن نُشير هنا إلى أن بدايات مواسم الحجِّ والأعياد عامَّةً، ومواسم الأسواق خاصّةً، ما تزال بعيدةً من التحديد، صعبةَ التحقيق! غير أن استقراءَ الوقائع التاريخيَّة يُثْبتُ أن بعضَها كان مُعْرِقاً في القِدَم، وسنجدُ مصداقَ هذا في كلامنا المفصَّل على سوق عكاظ... وعلى ذلك يجب أن نلاحظَ أن حديث الأسواق كما نقله إلينا الأخباريُّون، لا يُؤرِّخُ سوى فترةٍ قصيرةٍ سبَقتْ ظهور الإسلام بنَحْوِ خمسين سنةً، أو أكثر قليلاً، بدليل تَسْميتهم مُلوكَ عَددٍ من تلك الأسواق، مثلِ أكَيْدرِ بن عبد الملك السَّكُوني مَلكِ دُومَة، وقُنافَةَ الكلبيّ خليفتِهِ على السوق، والمنذرِ بن ساوَىٰ ملكِ البحرين، والجُلَنْدَىٰ بنِ المُسْتكبِر ملكِ عُمَان، وغيرِهم مِمَّن عاصَر ظهورَ الإسلام... فهذه النصوصُ تُوحي بأن تلك المواسمَ لم تَقُمْ إلاَّ في أيّامهم، بينما يدلُّ اسْتِقراءُ كثيرٍ من الأخبار، ولا سيما وقائع سوق عكاظ، على أن العهد بالأسواق الموسميَّة يعودُ إلى ما قبلَ ذلك بوقتٍ بعيد، وأن سُكوتَ أهلِ الأخبار عن الإشارةِ إليها لا يُثْبتُ عدمَ وُجودِها، فقد تُوفي ابنُ حبيب سنةَ (٢٤٥ هـ)، وعاشتْ سوقُ عكاظ نحو مئةٍ وتسعةٍ وعشرين عاماً في الإسلام، ومع ذلك لم يُحدِّثْنا بشيءٍ من أخبارها في هذه الفترة الطويلة، وإنما اكتفى بإثباتِ ما نقلهُ عن ابن الكلبي وغيرِهِ من أخبار الجاهلية، وهو ما

فعله كلٌّ من تحدَّثوا عن أسواق العرب من المؤرخين وأهل الأخبار.

* * *

وليست لدينا معلومات وافيةٌ عن بدايات مواسم العراق، ولكننا إذا افترضنا أن الحيرةَ، مثَلاً، بدأ موسمُها مع قيام دولة بني لخم، أو بعد ذلك بمُدَّةٍ من الزمان، أي أوائل القرن الخامس للميلاد، ثم تَقَوَّضَتْ في العصر الإسلامي الأول، فتكون عُمِّرت نحو ثلاثة قرون، وكانت سوقُ المربد حلَّتْ محلَّها ومحلَّ عكاظ معاً، وظلّت تقوم أكثر من خمسة قرون على الأقل.

أما مواسم الشام، فيكاد يكون من المؤكَّد أن معظمها يعود إلى العصر الأول للميلاد، وأن بعضَها ازدهر، مثل بصرى، منذ تحوَّلت طرق التجارة إليها أوائل القرن الثالث، ويأتي حديثُ المرزوقي عنها، ثم حديثُ القزويني للتأكيد على أنها عُمِّرت قُروناً من الزمان تزيد على عشرة.

* * *

الباب الثاني

سوق عكاظ ومواسمُ الحجِّ

الفصل الأول

سوق عكاظ ـ الخصائص العامة

المطلب الأول: المعنى والمقاصد

المطلب الثاني: الموقع والمكان

١ ـ مذاهب المؤرخين في موضع عكاظ ومعالمه

٢ ـ الكشف عن موضع عكاظ

٣ ـ آراء بعض الباحثين في موقع عكاظ

٤ ـ طبيعة المكان

المطلب الثالث: أصحاب الأرض والسوق

المطلب الرابع: قيام موسم عكاظ

المطلب الخامس: نزلاء عكاظ ومنازلهم فيه

المطلب السادس: أئمَّة عكاظ وقضاته

١ ـ أئمَّة العرب وقضاتهم بعكاظ

٢ ـ كيف صارت رئاسة عكاظ والقضاء فيه إلى بَني تميم

٣ ـ الخلط بين مواسم الحجِّ وولاتها وموسم عكاظ وَوُلاتِهِ وقُضَاته

٤ ـ عكاظ مجمع للتقاضي عند العرب

● تعقيبٌ على نظام التقاضي في الجاهلية

سوق عكاظ
الخصائص العامّة

*** تَمْهيد:**

ليس ثمَّةَ شيءٌ في تاريخ العرب، قبل الإسلام، كان له من الخَطَرِ والأثَر في حياتهم، ما كان لِسُوق عكاظٍ في مواسمها العامَّة. . . فقد كانت عَمَلاً حَضَارِيّاً فريداً من نوعه، وظاهرةً مُتَميِّزَةً، قلَّما شَهِدَ تاريخُ الأُمَم مثيلاً لها، في تَنَوُّعِ أغراضها، ووُجوهِ نشاطها، ووَفْرةِ ما كان يكون بها من حاجاتٍ وشؤون مختلفةٍ، شملت جوانبَ كثيرةً من حياة العرب الاجتماعيَّة، والتجاريَّة، والسياسيَّة، والأَدَبيَّة، فكأن دنيا العربِ كلَّها اختُصِرتْ في مَجْمع واحدٍ، فكان مَجْمَعَهم في مواسم عكاظ.

والواقع أن موسم عكاظ كان أكْمَلَ مِثَالٍ للأسواق الموسميَّة العامَّة في الجاهلية، وهو أَعظَمُها شهرةً، وأكثَرُها وقائعَ، فإذا أَفَضْتُ في الحديث عنه، وأَسْهَبْتُ في تَتَبُّع أخبارِهِ وحَوادِثِهِ، وما كان يجري فيه من مختلف الأَنْشِطة، فإن في ذلك إفاضَةً في الحديث عن سائر المواسم العامَّة الأُخرى، وإسْهاباً في الكلام على وقائعها وأخبارها، فليس فيها جميعاً موسمٌ بلغَ من التميُّز، والتفَرُّدِ، والأثَر ما بَلَغَهُ موسمُ عكاظ، وما كان يجري في عكاظٍ، جَرَى كلُّه، أو بعضُه، أو ما هو قريبٌ منه، في بقيَّة المواسم[1]. . . إلى أن مجمعَ عكاظٍ

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٨٢.

كان قَوميّاً، تُشاركُ فيه معظمُ قبائل العرب، بينما مجامعُ بعض المواسم ربما اقتصرت على بعض القبائل فقط، وذلك إذا استثنينا مواسم الحجّ إلى مكة، ومواسم التربُّع في البوادي والأرياف. فلْيكُنْ تأريخنا لعكاظ إذن تأريخاً لكل مواسم العرب، وتأريخاً للكثير من عاداتهم الاجتماعية.

كانت متاجِرُ العربِ، وغيرِ العرب، تُحْمَلُ من مَواضِعها إلى عُكاظ، فيقصدها في موسمها من أراد الميرةَ أو التجارةَ على السواء. فلما عَظُمَ شأنُها، وصارت مَجْمعاً عامّاً للعرب، أَمَّها الشعراءُ والخطباءُ، وكان معظمُ همِّهم انتقاءَ الكلمات الفصيحة، المشهورة عند قبائل العرب، ولا سيما قبائلِ الحجازِ ونَجْدٍ وما اتصل بها، أو جاوَرَها، طمعاً في أن تنتشِرَ أقوالُهم في العرب كافةً، فكانت عكاظُ بذلك، مع المواسم الدينيَّةِ الكبرى، والأسواقِ العامَّة الأخرى، أقوى عاملٍ في توحيد لغة العرب، وتَهْذيبِ لهجاتهم، واختلاطِ قبائلهم، والاقترابِ من المجتمع العربيّ القَوْميّ الواحد. وقد كانت وحدةُ اللغةِ والأفكار المقدّمةَ الكبرى التي سبقَتِ الإسلامَ، مُتَرَقَّبَةً لأَوَانه، «فالشعورُ بالعربيّة، والفخرُ باللسان العربيّ مُقدّمةٌ لا بدَّ منها للدعوةِ التي واجَهتِ العربَ بآيَةِ البلاغة في القرآن الكريم. . .»[1]، ذلك أن لهجات القبائل العربية كان بينها تَفَاوُتٌ في النُّطْقِ والمُفْرَداتِ والقواعد، وكان هذا التفاوُتُ يَقِلُّ، أو يكْثُرُ، تَبَعاً لقُوَّةِ أو ضَعفِ العلائق التي تربطُ بين القبائل، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمان، التي يُؤثِّرُ اختلافُها وتَفَاوتُها أعظمَ تأثيرٍ في اللغة[2]. ولئن كانت عكاظُ بدأتْ سوقاً تجاريةً، أو موسماً دينيّاً، لقد انتهت في آثارها إلى تطوُّرٍ عميق في مجتمعاتِ العرب وحياتهم، ولولاها

---

(١) مطلع النور: ٧٦.

(٢) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢ ـ ١٣.

لكانت لغةُ العرب لغاتٍ، من العسير على أصحابها أنْ يَفهمَ بعضُهم على بعضٍ شيئاً بها. فعُكاظٌ لم تكن سُوقاً وحسْبُ، وإنما كانت عالَماً للعرب كبيراً، فيه كثيرٌ من الحقائق على كثيرٍ من الخيال، فكانت أقصى أمَانيِّ أحَدِهم، أن يُسْعِدَهُ الحظُّ يوماً بزيارتها، وشُهودِ مَوْسمها، والاحتفالِ بمجَامِعها، ثم العودة منها بكل ما اشْتَهتْهُ النفسُ من عُروضِها وأمْتعَتِها، وما حَفظَتْهُ الذاكرةُ من أخبارها ووقائعها، وما زَوَّرهُ له الخيالُ من محاسنِها ومساوئها. فكأنَّ العرب الَّذين أقاموها سوقاً لتجاراتهم، وموسماً من مواسم عِبَاداتهم، ما لبثوا، بحُكم ما فُطِروا عليه من الخصائص القومية، حتى تَوسَّعُوا فيها، فجعلوا منها مَعْرِضاً اقتصادياً كبيراً، عَرَضوا فيه سِلَعَهم، وغَلاّتِهم، وأَنْعامَهم، وصناعاتِهم، وما كانوا يجلبونه إليها من البلاد الأخرى. وأقاموا فيها مَجْمَعاً فِكرياً عامّاً، تداوَلُوا فيه أشعارَ شعرائهم، وخُطَبَ خُطَبائهم وحُكَمائهم، وأخبارَ فُرسَانِهم ومكارم أخلاقهم، وحكاياتِ أيامهم. وكان لهم بها مجالسُ اجتماعيةٌ، يَقْتبِسُ فيها بعضُهم من بعضٍ ما يحلو له من عاداته وتقاليده، وأنْدِيَةٌ سياسية، يتشاوَرُون فيها، ويُعْلنون من منابرها عُهودَهم وعُقُودَهم، ليكون العربُ على علمٍ بها، وشُهوداً على حُسْنِ تنفيذِها واحترامِها. . . لقد كان موسمُ عكاظٍ أعْظَمَ مواسمِ العرب[1]، ولم يكن بين سائر المواسم موسمٌ يُضَاهِيه في تَفَرُّدِ خصائصه، وتَنَوُّعِ وظائفِهِ، وبُعْدِ آثارِهِ في حياة العرب.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٤/١٤٢، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٥، وبلوغ الأرب: ١/١٩٢، والمحبَّر: ٢٦٧، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢/٣٨، وموقع عكاظ: ١٥، والمصباح المنير: ٢/٤٩.

المطلب الأول ـ المعنى والأغراض:

يجبُ الابتداءُ أولاً بكلمةِ «عُكاظ»، والبحثِ عن معانيها، للنظَرِ في العِلَّة التي حَملتْهم على جعْلها إسماً لهذه السوق العظيمة. فالواضحُ من استقراء الأخبار أنها كانت إسماً عَلَماً للسوق، لا لموضع قيامها، ولكن الاستعمالَ غَلَّبها، في الوهم، على الموضع، فصارت إسماً للسوق والموضع معاً... وإذا فتَّشنا في المعاجم عن معاني هذه الكلمة، وجدنا لها جُملةً من المعاني المختلفة، أبْرَزُها:

- عَكَظهُ يعْكِظُه عَكْظاً: حَبَسَهُ.
- تَعكَّظَ القومُ تَعَكُّظاً: اجتمعوا، ازْدَحَمُوا، تَحبَّسُوا لينظروا في أمورهم.
- تَعَكَّظ عليه أمرُهُ: تمنَّع، وتَحبَّسَ، والْتَوَىٰ.
- عكَظَ خصمَهُ بالحُجَّة: عَرَكَهُ وقَهرهُ، وعكَظَهُ بالمفاخَرة: دَعَكَهُ، أي أوْجَعَهُ إذ رَدَّ عليه فَخْرَهُ، وعَكَظَ بالشيء: افْتَخَر.
- عكَظَ الأَدِيمَ: دَلَكَهُ، أي فرَكَهُ، أو طَلاهُ وضَمَّخَهُ.
- عاكَظَهُ مُعاكَظةً: مَطَلَهُ حَقَّهُ، أي سَوَّفَهُ بوعد الوفاء.
- تَعاكَظَ القومُ: تعاركوا، تفاخَروا، تجادَلُوا وتَحاجُّوا، أي أدْلَى كلٌّ منهم بحُجَّتِهِ في مُقَارَعَةِ قَرِينهِ.
- عَكَظَهُ عن حاجَتِهِ، وعكَّظَهُ: رَدَّهُ عنها، وصَرَفَهُ[1]...

تلك هي جملةٌ من معاني الكلمة، ومن التأمُّلِ فيها يبدو لنا، وكأن

---

(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨ (عكظ).

الكلمة إنما وُضِعتْ من أجل هذه السوق، وليس لأيَّةِ عِلَّةٍ لُغويَّةٍ أخرى، فكل مَعْنىً منها له دَلاَلةٌ على بعض ما كان يجري في السوق، وهذا ما أعْجَزَ الباحثين، وأهلَ الأخبار، فذهبوا في التفسير والتعليل مذاهبَ مختلفةً شَتَّى، وقَلَّبُوا الكلمةَ على بعض هذه المعاني، فقيل إن السوق سُمِّيت عُكاظاً، لأن قبائل العرب كانت، إذا حَضَرت موسمَها، تَتَفاخَرُ فيه، فيعكِظُ بعضُهم بعضاً بالفَخَار، أي يغْلِبُه بالمفاخرة... وكانوا يَتَحاجُونَ، فيعكظُ أحدُهم خصمَهُ بالحُجَّة عكْظاً، أي يقْهرُهُ. وقيل إنها سمِّيت بذلك من تَعَكَّظَ القومُ تَعكُّظاً، إذا تَحبَّسُوا لينظروا في أمورهم، وكانت العربُ تجتمعُ بعكاظ للتشاوُرِ والنظرِ في شؤونهم[1].

وفي اعتقادنا أن تلك المعاني كلَّها صالحةٌ لتعليل التسْمِيَة، فالحبْسُ، والعَرْكُ، والعِرَاكُ، والقهْرُ، والمفاخرةُ، والدَّعْكُ، والدَّلْكُ، والمجادَلةُ، والمَطْلُ، والاجتماعُ، والازدحامُ، والتمنُّعُ، وما إلى ذلك، جميعُها من أغراض عكاظٍ ووقَائعِهِ، وهذا مذهبٌ في التَسْمِيَةِ تتجلَّىٰ فيه عبقريةُ العرب، وبراعتُهم في اختيار كلماتهم. والواقع أن ما كانت العربُ تعالجه في مواسم عكاظ، فضلاً عن التجارة، أوسعُ من أن يُحيطَ به عَدٌّ، فكانوا يتناشدون ما أحْدثَ شعراؤهم من الشعر، ويتفاخَرون، ويتَحاجَوْن[2]، ويتنافَرون[3]، ويَفْدونَ الأسْرَى، ويعقدون المُهادَنات[4]، ويحتملون الحَمَالات[5]، ومَن

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، ولسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، وأدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢...

(٢) تحاجَوْا: تطارَحُوا الأحَاجي لامتحان الفِطْنة والعقل.

(٣) المنافَرة: التفاخُر بعِزَّة النَّفَر وكثرة العدد.

(٤) المهادَنَةُ: الصلح والمُوادَعة.

(٥) الحَمَالَةُ: الدِّيَةُ والغرامة.

كانت له حكومةٌ ارتفع بها إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم[1]. . . وكانوا يصنعون فيها أشياءَ مختلفةً كثيرةً، ذُكرتْ في موضِعِها من الباب الأول في الجزء الأول، ويمكنُ البحثُ في وقائعِها، في الفصول التالية، مُصَنَّفَةً أصْنَافاً ثلاثةً، **أوَّلُها**: شؤونُ التجارة، **وثانيها**: الشؤونُ العامَّةُ، بأشكالها الاجتماعية والسياسية والدينية، **وثالثُها**: شؤون الشِّعْر والشعراء.



المطلب الثاني ـ المَوْقعُ والمكان:

يكادُ لا يخلو كتابٌ من كتُب تاريخ العرب القديم، أو كتُبِ لُغَتِهم وآدابهم، من الإشارة إلى مواسم سوق عكاظ، أو الكلام على ما كان يكون بها من الأَنْشِطةِ المختلفة، وما كانوا يُعالجون فيها من شؤونِ حياتهم، كالتجارةِ، والحربِ والسلم، وأحاديثِ اللغة والشعرِ والأدبِ، ومَقَالاتِ التفاخُرِ والتكاثُرِ والتنافُرِ، وغيرِ ذلك من شؤون الحياة، حتى صار لسوق عكاظ ذِكرٌ ذائعٌ، وصِيتٌ شائعٌ، وبات اسْمُها عَلَماً على كل مجتمع للناس، يَضُمُّ عشرات الألوف، ويكونُ حديثُ الأدبِ، وإنشادُ الشعرِ بعضاً مما يجري فيه. . . وطَفِقَ العربُ يذكرون اسْمَ عكاظٍ، مثلما يَذْكرُ الناسُ بُرْجَ بابِلٍ، بأنه كان مُلْتَقَى الأُمَم من أنْحاءِ الأرض! ولكنَّ العجيبَ أن موقع عكاظٍ، على ما لها من ذُيُوعِ الشهرة، ظلَّ حتى وقتٍ قريبٍ مجهولاً، بعدما عَفَّتْهُ الحوادثُ، ومَحَتْ مُعظمَ مَعَالمه. مع أن مَوْضِعاً كهذا، شَهِدَ من تاريخ العرب ما شَهِدَ، وكان له من الأثر في حياتهم ما كان، جديرٌ بأن يكون رمزاً مَأْثُوراً، وأن يظلَّ

(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، وصبح الأعشى: ١/٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤، وأدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢. . .

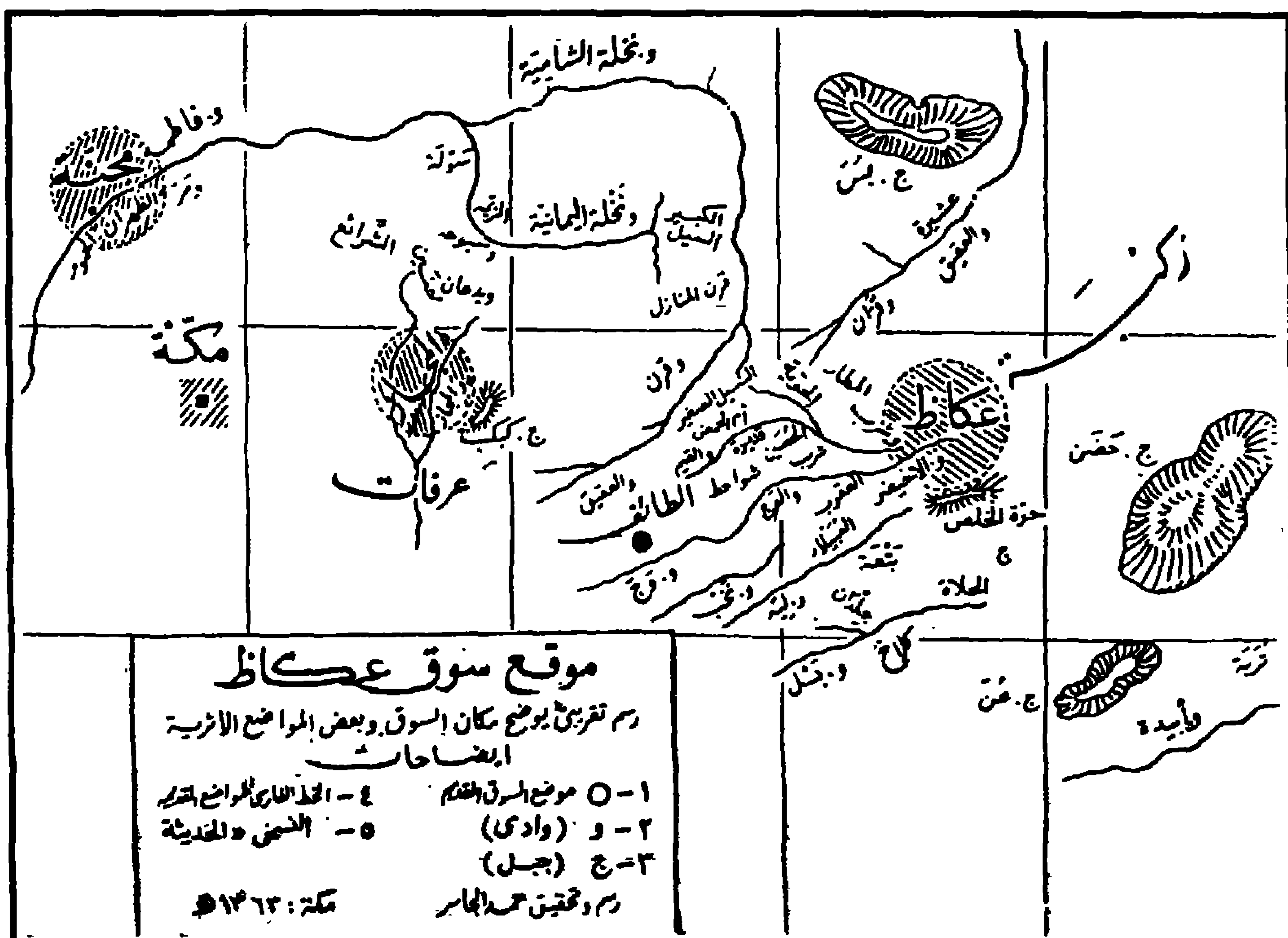
سوقاً للحاجِّ على مَرِّ الزمن، ومَجْمعاً للعرب يُنْشدون فيه أشعارَهم، ويَتَحاوَرُون في شُؤون لغتِهم وآدابِهم وعُلُومهم، ولا سيما أن النبيَّ عليه السلامُ شَهِدَ فيه حربَ الفِجَار، واستمع إلى قُسِّ بن ساعدة الإِيَاديّ يخطبُ العربَ ويعِظُهم، وعَرَضَ نفسَهُ فيه على قبائل العرب، يدعوهم إلى الإيمان بالإسلام، أو توفيرِ أسبابِ الحمايةِ له حتى يُؤَدِّيَ رسالاتِ رَبِّه. غير أن ما قام بمكة والمدينة من ثورات بعد وفاة النبيّ وصاحِبَيْه أبي بكر وعمر، وانتقالِ عاصمة العرب من الحجاز إلى الشام، ذهب بكثير من العادات التي أَقَرَّها الإسلامُ بعد الجاهلية، ومنها سُنَّةُ العرب في الاجتماع بعكاظ كل سنةٍ قُبَيل موسم الحجِّ.

والواقع أن تحديدَ الموضعِ الذي كانت تُقامُ به عُكاظُ، تحديداً جغرافياً دقيقاً، لم يكن بالأمر اليَسِير في العصر الحاضر، بعدما انْدَرَسَ كثيرٌ من المعالم التاريخية القديمة. ولكنَّ عدداً من البحَّاثةِ المتأخِّرينَ تَصَدَّوا لهذا العمل الجليل، وكان لهم فيه كلامٌ كثير، ومذاهبُ مختلفةٌ، وكان القولُ الفَصْلُ فيها جميعاً للعالم النجديّ المحقِّق الشيخ حَمَد الجاسِر، الذي كشَفَ عن هذا الموضع، وأثْبَتَ بالأَدِلَّةِ القاطعةِ حُدودَهُ ومَعَالمه... وعلى ذلك لم يكن لنا بُدٌّ من أن نعْرِضَ أولاً خُلاصةَ ما قاله القدماءُ، وتوافقوا عليه في موضع عكاظ، مع الإشارة إلى ما قاله بعضُ المُتَأخِّرينَ فيه، ولا سيما أقوال الجَاسِر ومَنِ اتَّبَعَ مذهبَه، ونَحَا نَحْوَهُ، كالشيخ محمد بنِ بُلَيْهِد، والدكتور عبد الوهاب عزَّام[1]، والأستاذ رشدي مَلْحس. ونُقَدِّم أيضاً الخريطة التي رسمها الجاسِرُ، للاستعانة بها في معرفة ما سنذكره من المواضِع.

* * *

---

(١) سبقت ترجمته.



موقع سوق عكاظ(*)

(*) ذكر الأستاذ الجاسر في ختام بحثه، أنه رسم هذه الخريطة رسماً مقرّباً، وإن لم يكن دقيقاً من كل الوجوه، لكنه أوْضحَ فيه موقعَ عكاظ كما يراه، وعيَّن فيه بعضَ الأمكنة التي لا تزال معروفةً بأسمائها حتى اليوم.

①ـ مَذاهبُ المؤرِّخينَ في مَوضع عكاظ ومَعَالِمِهِ:

صَفْوةُ ما يمكنُ اسْتخلاصُه من أقوال القدماء، والتي عَرَضْنا أكثرها في الباب الأول من هذا الجزء، واسْتَوْفاها جميعاً الشيخُ الجاسر[١]، أن موضعَ عكاظٍ كان بأَعْلا نَجْدٍ[٢]، في أرضٍ هي من دِيَار قبائل قيس بن عيلان بن مُضَر[٣]، بين وادي نخلة، ومدينة الطائف[٤]، ووراءَ قَرْنِ المنازل[٥]، بنحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، أي مسيرةِ ليلةٍ واحدة، على طريق المسَافر من مكة إلى اليمن، وأنه من أعمال الطائف، على عشرة أمْيالٍ، إلى اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً منه[٦]. وقيل بل إن بينه وبين مدينة الطائف ليلةً، أي نحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، وأن بينه وبين مكَّةَ ثلاثَ ليالٍ، وأن السوق كانت تُقامُ بمكانٍ منه يُسمَّىٰ: الأُثَيْداءُ[٧]... وذُكر أن فيه صخوراً، كانوا يطوفون بها، ويحجُّون

---

(١) موقع عكاظ: ٤٣ ـ ٥٣.

(٢) المحبَّر: ٢٦٧، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥. وعالِيَةُ نَجْدٍ: ما فوق أرضِ نَجْدٍ إلى أرض تهامة، وإلى ما وراء مكة، وهي الحجازُ وما والاها. وعاليةُ الوادي وأعلاهُ حيثُ ينحدر الماءُ منه، وسافِلَتُه أو أسْفلُه حيث ينصبُّ إليه. وعلى ذلك فأعلى نَجْدٍ يقع في الغرب والجنوب منها.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٥) قرن المنازل: من المعلوم أن وادي نخلة موضعٌ على ليلةٍ من مكة، فيه نخلٌ وكرومٌ، وهو مجتمع وادِيَيْ نخلة اليمانية ونخلة الشامية، وقَرنُ المنازل مَوضعٌ بنخلة اليمانية يُعرف اليومَ بالسَّيْل الكبير، وهو ميقاتُ الإحرام لحاجِّ نَجْدٍ واليمن والطائف، بينه وبين مكة ليلتان، أو (٥١) ميلاً تقريباً، وبينه وبين الطائف (٣٦) ميلاً، فيكون الطريق بين مكة والطائف نحو (٨٧) ميلاً ـ (معجم البلدان) ١/ ٤٤٩، ٤/ ٣٣٢، ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وأخبار مكة: ٢/ ٣١٠).

(٦) أخبار مكة: ١/ ١٩٠، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٧) الأُثَيْداء: موضعٌ اندرستْ معالمه فبات مجهولاً.

إليها، وبه كانت أيامُ الفِجَار الآخِر[1]، إلا اليومَ الأوَّلَ منها، كانت الوقعةُ فيه بموضعٍ في وادي نَخْلةٍ، على حدود الحَرَم المكِّيِّ، أما الأربعةُ الأُخرى فكانت أيَّامَ شَمْطَةٍ والعَبْلاءِ وشَرِبٍ والحُرَيْرة، سُمِّيت بأسماءِ مواضِعَ، بعضُها في عكاظ، والبعضُ في أَحَدِ جوانبه[2]، كما سنرى. . .

١ ـ شَمْطَة: موضعٌ أطْبَقَ القدماءُ على أنه في عكاظ، ولكنه اليومَ لم يَعُدْ معروفاً[3].

٢ ـ العَبْلاء: يُفهم من كلام المُحقِّقِين أنها اسْمُ عَلَمٍ لأَكَمَةٍ من صُخور بِيضٍ إلى جنب عكاظ، في جهة الجنوب والغرب، ويَليها في جنوبها: العُبَيْلاءُ، وهي قريةٌ من أعمال الطائف، مُجاوِرَةٌ لعكاظ، ينزلُها بنو عَدْوان من قيس بن عَيْلان. وقيل إنَّ العَبْلاوَات هي الصخورُ البِيضُ التي كانوا يطوفون بها في عكاظ، وهي ما تزال منتشرةً على أَرضِهِ[4].

٣ ـ شَرِب: وادٍ عظيمٌ، ما يزال معروفاً حتى اليوم، ينحدرُ من الغرب والجنوب، ويمرُّ شمالَ الطائف، ثم يلتقي بوادي الحَوِيَّة قادماً من غَرْبِهِ، فيَتَّحِدانِ في وادٍ واحدٍ، ينحدرُ إلى الشرق والشمال، ويَجُوزُ السلسلةَ الجبليةَ لبلادِ عَدْوان، ثم يُفْضِي إلى سهلٍ مُتَّسِعٍ من الأرضِ، هو موضعُ عكاظ، حيث يلتقي به هنالك وادي الأُخَيْضِرِ[5]، وهو من منازل قبيلة عَدْوان بن

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٢) الأغاني: ٢٢/٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٧، والعِقْدُ الفريد: ٥/٢٥٦ ـ ٢٥٨، ومعجم البلدان: ٣/ ٣٣٢، ٣٦٣، و ٤/ ٨٠، ومعجم ما استعجم: ٦٦٠ ـ ٦٦٢.

(٣) موقع عكاظ: ٦٧.

(٤) موقع عكاظ: ٢١ ـ ٢٢، ٢٩، ٣٦، ٦٢، ٦٤، وأخبار مكة: ١/ ٣٨٥.

(٥) موقع عكاظ: ٢٢، ٢٩، ٦٤.

عمرو، من قيس بن عيلان، ثم يَنتهيان إلى سهل ركبة. ويُسمَّى يومُ شَرِبٍ أيضاً: يومَ عكاظ(١)، إشارةً إلى أن أرض عكاظ إنما هي في مَوْضع شَرِب.

٤ ـ **الحُرَيْرة**: وهي حَرَّةٌ(٢)، أَطْبق القدماءُ على أنها تقع إلى جَنْب عكاظ، مِمّا يلي مَهَبَّ جنوبه، أي من حيث تهبُّ ريحُ الجنوب. وقد رجَّح الشيخُ الجاسِرُ أنها الحَرَّةُ التي تُعرف اليوم باسم «ضِلَعِ الخَلَص»(٣)، وهو جُبَيْلٌ أسودُ صغير، يقعُ جنوبَ عكاظ، مع مَيْلٍ قليل نحو الشرق(٤). وعلَّق عَزّام على ذلك بأنه رأى هذه الحرَّةَ، التي تُسمَّىٰ حَرَّةَ الخَلَص، في شرق عكاظ، لا في جنوبه(٥)، معتمداً روايةً عزاها ابنُ بلهيد إلى عَرَّام بن الأَصْبَغ السُّلَميّ(٦)، تقول: «... وإذا كنتَ في عكاظ، طلعتْ عليك الشمسُ على حَرَّةٍ سوداء...»(٧)، أي أن الحَرَّةَ في مشرق المكان! وقد فتَّشتُ كتابَ عرَّام عن هذا النصِّ فلم أَعْثُرْ له على أَثَرٍ... ثم إنني نظرتُ فوجدتُ للدكتور عزَّام تعليقاً آخَر على بحث ابن بُليهد قال فيه: إن الحَرَّةَ التي بجنب عكاظ غيرُ التي ذكرها عرَّامٌ السُّلَميُّ(٨)... فهُما في رأيه إذن حَرَّتانِ، لا حَرَّة واحدة،

---

(١) أيام العرب في الجاهلية: ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٢) **الحَرَّةُ**: أرضٌ حِجَارتُها سُودٌ نَخِرَاتٌ كأنها أُحْرِقتْ بالنار.

(٣) **الضِلَعُ**: جَبَلٌ صغيرٌ، مستطيلٌ في الأرض، وليس بمرتفع في السماء.

(٤) موقع عكاظ: ٦٦.

(٥) المرجع نفسه: ٦٢.

(٦) **عَرّامُ بنُ الأَصْبغ**: أعرابيٌ من بني سُلَيم. من علماء القرن الرابع الهجري. كان ثقةً في معرفة جبال تهامة والحجاز ونجد، وقراها وأهلها ومياهها ونباتها. له كتاب صغير سُمِّي: أسماء جبال تهامة وجبال مكة والمدينة، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه... وسمَّاهُ ابنُ بُليهد: جبال تهامة والحجاز ومَحَالّها. طبع عدة مرات.

(٧) موقع عكاظ: ٢١، ٣٧.

(٨) المرجع نفسه: ٣٧.

ولكنه وقف على إحداهما فحدَّثنا عنها، فما بالُه سكتَ عن الثانية، ولم يُحدِّثنا بشيء من أخبارها؟ مع أنه نظر من موقفه على الحُرَيْرة نحو الجنوب، فرأى جَبَلاً أبْعَدَ من الحُرَيْرة ومن عكاظ؟ والواقع أن الرجل أُتيَ في حُكمه من تَوَهُّمٍ، نَشَأ في فكره من أمرين، أحَدُهما: بلوغُه موقعَ الحُريْرة قادماً إليها من الغرب إلى الشرق رأساً، والآخَرُ: ما عَزاهُ ابنُ بُليهد إلى عَرَّامِ السُّلميّ من كلامٍ لم يَقُلْه كما أشرنا آنفاً... فاسمعْ معي حديثَ الدكتور عزَّام:

«سِرْنا من مطار الحَوِيَّة صَوْبَ الشرق، نحو اثنيْ عشَرَ كِيلاً، فإذا أرضٌ واسعةٌ مُطمئنَّة، أدركنا فرْقَ ما بينها وبين الأرض التي سرنا عليها من الحَوِيَّة، يدلُّ منظرُها على أنها مجتمعُ مياه... ثم قال: سِرْنا إلى الشرق، نقصدُ حَرَّةً كبيرةً، عاليةً، مُشْرِفَةً على سهل واسع. سرنا إليها بالسيارات، نمرُّ بأحجارٍ كبيرةٍ بيضاءَ من المرمر... فلما بَلَغنا الحرَّةَ... صَعَدنا، وأَجَلْنا البصرَ فيما حَوْلَنا... فقال ابنُ بُلَيْهد: إن عَرَّام بنَ الأصبغ السُّلَمي يقول في عكاظ: وهو في أرض مستوية، ليس بها جبال، وإذا كنتَ في عكاظ طَلَعتْ عليك الشمسُ على حَرَّةٍ سوداء. وبه عُبَيْلاتٌ بِيضٌ تُطيفُ بها العربُ في جاهليَّتِهم، ويَنْحرون عندها... فقال الدكتور عَزَّام: فلننظُرْ تصديقَ هذا! هذه أرضٌ مستوية، وهذه الحَرَّةُ تطلعُ الشمسُ عليها، أعني أنها شرقيُّ المكان. قال هو (أي ابنُ بليهد)، وبَدَويٌّ كان معنا: وهذه الحَرَّةُ تُسمَّى الخَلَصَ... والعُبَيْلات البِيضُ قد رأيناها في طريقنا متفرقةً، وسنراها...»[1]، والغريبُ أن الدكتور عزام لم يُحقِّقِ النصَّ الذي عَزاهُ ابنُ بُليهد إلى عرَّام السُّلَمي بل قال في حاشيةٍ له: «يُنظَر كتابُ جبالِ تهامة لعرَّام»[2]، وكأنه لم يطَّلع بنفسه عليه!

(١) موقع عكاظ: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢١/ الحاشية.

ويتبيَّنُ من كل ذلك أن الحُريْرة التي اعتلاها عبد الوهاب عزَّام وابنُ بُليهد، هي نفسُها الحرَّةُ التي رآها من قبلُ الشيخُ الجاسِرُ، وحقَّق موقعَها في جنوبِ عكاظ، بميْلٍ يسيرٍ إلى الشرق، ودليلُه في هذا إجماعُ القدماء على أن الحُرَيرة تقعُ إلى جَنْب عكاظ مِمّا يلي مَهَبَّ جَنُوبه، ومَهَبُّ ريح الجنوب عند العرب من حَدِّ القطب الجنوبي إلى مَطلع الشمس[1]، وهذا يُؤكِّدُ أن موقعَها إلى الجنوب مع مَيْلٍ إلى الشرق... هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَر فإن النصَّ الذي نَسبهُ د. عزام وابنُ بُليهد إلى عرَّام السُّلمي غيرُ موجودٍ في كتابه أصلاً، وهذا يُلغي حُجَّة عزّامٍ من أساسها! أمّا احتجاجُه بأنه رأى الحَرَّةَ في الشرق فليس بشيء، لأنه أقامه على بُلوغِهِ الحَرَّةَ قادماً إليها من الغرب إلى الشرق، فقد ظن أنه قطع بذلك عَرْضَ عكاظ، ووصل إلى حَدِّهِ الشرقي، وهو غير صحيح، لأن الحَرَّة قائمةٌ في الجنوب مُنْحرِفةً إلى الشرق.

ويَحسُنُ بنا أخيراً أن نذكر ما قاله عرَّامٌ السُّلَميُّ في كتابه عن بعض معالم عكاظ... قال: «والقَفا جبلٌ لبني هلال[2]، حِذاءَ عُنٍّ[3]... وحِذاءَهُ جبلٌ آخَرُ يُقالُ له: بُسٌّ[4]، وفي أصله ماءٌ يقال له: بقعاءُ[5]، لبني هلال، بئرٌ

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ١٨٥ ـ١٨٦، ولسان العرب: ١/ ٢٨٢ (جنب).

(٢) **القَفَا**: أحدُ الجبالِ الواقعةِ إلى الجنوب من سهل رُكْبة، قريباً من جبل عُنّ ـ (موقع عكاظ: ٦٧). **بنو هلال**: هم بنو هلال بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية، من هوازن، من قيس بن عيلان.

(٣) **عُنٌّ**: جبل في طرف رُكْبَة الجنوبي، بين تُرَبَة شرقاً ووادي بَسْل غرباً ـ (موقع عكاظ: ٦٥).

(٤) **بُسٌّ**: جبلٌ وأرضٌ كثيرة النخل لبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فوق ذات عِرْق، بالنخلة الشامية، فيه بيتُ عبادة لبني غَطَفان بن سعد بن قيس بن عيلان، أقاموه على شجرة العُزَّى. (معجم البلدان: ١/ ٤٢١، وتاج العروس: ١٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٤).

(٥) **بقعاء**: إما أنها بئر عُشَيْرة القديمة، أو أنها كانت في أصل جبل بُسّ ـ (موقع عكاظ: ٦٦).

كثيرةُ الماء، ليس عليها زرعٌ. وحِذاءَها أُخرى يقال لها: الخُدود[1]، وعكاظٌ منها على دَعْوة[2]. وعكاظ صحراءُ مُسْتَوِيةٌ، ليس بها جبلٌ ولا عَلَمٌ، إلا ما كان من الأَنْصَابِ التي كانت في الجاهلية، وبها الدِمَاءُ من دِمَاءِ البُدْنِ[3]، كالأرْحَاءِ العِظَام[4]، وحِذاءَها عَيْنٌ يُقال لها خُلَيْصٌ[5]، وهو رجلٌ من بلاد رُكبة...»[6]. ورُكْبَةُ سهلٌ فسيحٌ في نَجْدٍ، يقعُ عكاظٌ في طرفه الجنوبيّ الغربيّ[7]، وتصبُّ فيه الوِدْيَان التي تمرُّ بعكاظ.

* * *

ونعودُ إلى حديثنا عن أقوال القدماء في موقع عكاظ، وما حقَّقَهُ المتأخِّرون فيها... ومنها قولُهم إن «الفُتُق» كانت قريةً من نواحي الطائف، قريبةً من عكاظ[8]، بينها وبين «المناقِبِ»[9] إثنا عشر ميلاً، وبين المناقب

---

(١) **الخُدود**: أو الخُدَد، قريةٌ أو صَقْعٌ من قُرى الطائف، كانت تقعُ شمال عكاظ (موقع عكاظ: ٦٦، وتاج العروس: ٨/ ٥٤ (خدد)، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٤٨.

(٢) **دَعْوة**: تُفيد هنا معنى القُرْب، يُقال: هو مني دَعْوةَ الرجُل، أي قريبٌ مني، وهي منصوبةٌ على الظرفية. وهي في نسخة الجاسر: **غَلْوَة**، بمعنى رَمْيَة السهم أبعد ما يكون الرَّمْيُ.

(٣) **البُدْن**: الإبِلُ المُسَمَّنةُ، مفردها: بَدَنَة.

(٤) **الأرْحَاءُ**: مُفردُها رَحَى، وهي حَجَر الطاحون، شبَّه آثار الدماء على الأرض بأشكال حجارة الطواحين. وفي نسخة الجاسر: **الأَرْجَام**، بمعنى الحجارة، تُسَنَّمُ بها القُبور...

(٥) **عين خُلَيْص**: لعلها كانت قريبةً من حَرَّة الخَلَص.

(٦) أسماء جبال تهامة: ٤٢ ـ ٤٣.

(٧) موقع عكاظ: ٥٠، ٦١، ٦٣.

(٨) معجم البلدان: ٤/ ٢٣٥، وتاج العروس: ٥/ ٢٥٤ (عكظ)، طبعة مصر، وموقع عكاظ: ٤٤، ٤٦، ٦٧.

(٩) **المناقب**: جبلٌ مُعْتَرِضٌ بين قرن المنازل والسيل الصغير، على طريق مكة ـ الطائف، سُمِّي بذلك لأن فيه طُرُقاً إلى اليمن واليمامة ونجد والطائف.

وقرن المنازل ستةُ أميال[1]، فيكون موقعُها بذلك شمالَ الطائف، ولعله يكون أيضاً إلى الغرب والشمال من موقع عكاظ، ولكنها اليومَ باتتْ مجهولةً بعدما خربت. وقد ذكر الهمداني أن سَراةَ الطائف، غَوْرُها مَكةُ، ونجْدُها دِيارُ هَوازِنَ من عكاظِ والفُتُق[2]. وقيل كذلك إنه كان بجنب عكاظ وادٍ عريضٌ، من بلاد قيس بن عيلان، يُقال له رَحْرَحَان، وقع فيه يومان من أيام العرب، ولم يَعُدِ اليوم معروفاً[3]. وذكر ياقوت أن موضعَ «كلاخ» قريبٌ من عكاظ[4]، وهو قريةٌ بها مَزارعُ، تقع شمالَ وادي بَسْل، ما تزال معروفةً[5].



ويُضَافُ هنا أيضاً ما نقله الجاسِرُ وعزَّامٌ وابنُ بُليهد، في موقع عكاظ، عن صفة جزيرة العرب للهمداني، وقد أثْبَتَ في كتابه أُرْجُوزةً، ذكر فيها صاحبُها عيسى بنُ أحمد الرِدَاعيُّ اليمانيُّ، المواضعَ التي مرَّ بها تِباعاً، في طريقه من صنعاء إلى مكة للحجِّ[6]. . . على أن هنالك طريقين من اليمن إلى مكة، أحَدُهما تهاميٌّ، يأخذُ على ساحل البحر الأحمر، وهو أَطْولُ مسافةً، والآخَرُ يأخذُ على صنعاءَ، فصَعْدَة، فنجْرانَ[7]، فبِيشَة، فتَبالَة، فتُرَبَة، فأَوْقَح، فكلاخ، فجِلْدان، فعكاظ، أو الطائف، فرأس المناقب، فقَرْن المنازل أي السيْل الكبير، وينتهي إلى مكة[8]. وهذا الطريق هو الذي سلكهُ

---

(١) موقع عكاظ: ٤٤ ـ ٤٦، ٦٧.
(٢) المرجع نفسه: ٤٩.
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٥٢٠، ولسان العرب: ٢/ ٤٤٧ (رحح).
(٤) معجم البلدان: ٤/ ٤٧٤.
(٥) موقع عكاظ: ٦٥.
(٦) المرجع نفسه: ٢٣ ـ ٢٧، ٣٣ ـ ٣٤، ٥٨ ـ ٥٩.
(٧) معجم البلدان: ٥/ ١٨٧.
(٨) موقع عكاظ: ٥٥ ـ ٥٦.

صاحبُ الأُرْجُوزَة، ويبدو من نَسَقِ المواضع، التي جَعَلَ يذكرُها في أبياته، أن موقع عكاظٍ إنما هو في مُحيط الطائف، قريبٌ منه، وقبل السَّيْل الكبير، في طريق الذاهب إلى مكة. وسنذكرُ، فيما يلي، موضعَ الشاهِدِ فقط من أبيات الأُرْجُوزة، وذلك بعد خروج الراجز من «تُرَبَة»، ووصوله إلى «أَوْقَح» حيث قال يخاطبُ أولاً ناقَتَهُ، ثم زوجتَه هِنْداً:

قلتُ لها في مُطْلَخِمٍّ طاخِ — «بأَوْقَحٍ» ذي المنهل الوضَّاخِ[1]
يا ناقُ هَمَّ الشهرُ بانْسِلاخِ — فأَزْمِعي بالجِدِّ، لا التراخي[2]
فانْتَهضَتْ بمُشْرِفٍ شَمَّاخِ — قاربةً للوِرْدِ من «كَلاخِ»[3]
يا هندُ لو أبصرتِ عن عِيَانِ — قَلائِصاً يُوضِعْنَ في «جِلْدانِ»[4]
مُشْفِقَةً من زاجرٍ كَظَّاظِ — مُسْهِلةً للخَبْتِ من «عكاظِ»[5]
تاركةً «قُرّانَ للمَنَاقِبِ» — و «شَرِباً» في جُنْحِ ليلٍ واقِبِ[6]
واستبدلتْ بالخوف دارَ الأمنِ — وجاءتِ الميقاتَ «وادي قَرْنِ»[7]

ومن الواضح أن الرجل ترك مَنْهلَ «أَوْقح» إلى «كلاخ»، ثم إلى «جِلْدان»، ثم نزل إلى «عكاظ» فاجتاز فيها «شَرِباً وقُرَّانَ» إلى «المناقب»، ثم

---

(١) **المُطْلَخِمُّ**: الشديد. **الطاخي**: الليلُ المظلم. **الوضَّاخ**: الممتلىء.

(٢) **انسَلَخ الشهر**: مضى ولعلَّه أراد شهر ذي القعدة. **الزَّمَاعُ**: المَضَاءُ في الأمر والعزمُ عليه.

(٣) **المُشْرِف**: العالي. **الشمَّاخ**: المتكَبِّرُ أو المرتفِعُ.

(٤) **القَلائِصُ**: الإبلُ الشابَّةُ الطويلة القوائم، مُفْردها: قَلُوص. **أَوْضَعَ البعيرُ**: أسرع في سيره، **ويُوضِعْنَ**: يُسْرِعن.

(٥) **الزاجِرُ**: السائق والدافع. **الكَظَّاظُ**: المغْتَاظُ أشدَّ الغيظ. **مُسْهِلَةً**: نازلةً من الجبل إلى السهل. **الخَبْتُ**: الأرضُ الواسعةُ المطمئِنَّةُ (وهو وصف لأرض عكاظ).

(٦) **الواقِبُ**: المُظْلم.

(٧) **الميقات**: حدودُ الحَرَم، حيث يُحْرِمُ الحاجُّ.

إلى وادي «قَرْن» في السيل الكبير، أي «قرن المنازل»... ويبدو من بقية الأُرْجُوزَة أنه تابَعَ طريقه بعدئذٍ إلى مكة، سالِكاً وادي نخلة من طريق البَوْبَاة، وهي البُهَيْتَاء، ويقالُ لها: البُهَيْتَة، فالزَّيْمَة، فَسَبُوحَة، فمنهل حنين، فالشرائع، فمكة المكرَّمة.

والمتقدمون الذين قالوا إن سوق عكاظ تقعُ على الطريق بين وادي نخلة والطائف، للمسافر من مكة إلى اليمن، أرادوا هذا الطريق، وهو الذي سلَكَتْهُ قريشٌ في أول يومٍ من الفِجَار الأخير، وسُمِّي يومَ نخلة[1]، وذلك لمّا جاءَها في عكاظ مقتلُ سيِّدِ هوازِنَ عُرْوَة بنِ جعفرِ الكِلَابيّ، بيد حلِيفها البرَّاضِ بنِ قيسٍ الكِنَانيّ، فقد خَشِيَتِ انْدِلاعَ الحربِ بينها وبين قبائل هوازِنَ، وهم أصحابُ السوق، وأهلُ تلك البلادِ من «تَبَالَة»[2] إلى حدود «نَخْلة»[3] فاحتالتْ بخُدْعةٍ على سادة هوازن، وارتحلتْ من السوق مع الفجر، فاجتازت وادي شَرِب إلى قرن المنازل، قاصدةً نَخْلة اليمانية... وكان الخبرُ أَتَىٰ هوازِنَ آخرَ النهار[4]، بعد ارتحال قريش، فركبوا في طلبهم حتى أدركوهم بنخلة[5]. فاقْتَتَلوا قتالاً يسيراً، حتى دخلت قريشٌ حدودَ

---

(١) موقع عكاظ: ٤٥.

(٢) تَبالة: قريةٌ من تهامة الحجاز، تقع بعد «بيشة»، وهي قريةٌ من جهة اليمن، غنَّاءُ، في وادٍ كثير الأهل، وبينهما أربعة وعشرون ميلاً، ويقعُ بعد بيشة مَوْضعُ «تُرَبَة»، وهو وادٍ على أربع ليالٍ من الطائف، يسكنه بنو عامر من هوازن. (معجم البلدان: ١/٥٢٩، و ٢/٩، و ٢/٢١، وتاج العروس: ٢/٦٨ ـ ٦٩ ترب).

(٣) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٥٥ و ٥٨.

(٤) أيام العرب في الجاهلية: ٣٣٠.

(٥) الكامل: ١/٥٩٢.

الحرم المكّي مع الليل، فكَفَّتْ عنهم هوازنُ، ويومئذٍ قال شاعرُ هوازِنَ خِدَاشُ بنُ زهير العامريُّ[1]:

فإن سَمعتُم بجيشٍ سَالِكٍ «شَرِباً» أو «بَطْنَ مَرٍّ» فأَخْفُوا الجَرْسَ واكْتَتِمُوا
يا شَدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذبةٍ على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحَرَمُ[2]

ومنه يتَّضِحُ أن المعركة كانت في «بَطن مَرٍّ»، وهو موضعٌ يجتمع عنده وادِيَا النخلتين: اليمانيَّةِ والشامِيَّةِ، فيصيران وادياً واحداً هو وادي نخلة[3]، وهو المرحلةُ الأولى للمسافر من مكة، أي على أربعة وعشرين ميلاً تقريباً، أو مسيرة ليلة[4]. وقد ذكر ابنُ بُلَيْهد في تحقيقه موقعَ عكاظ[5]، أن تلك الوقعة كانت في بطن نَخْلة، بين الزَّيْمَةِ والبُهَيْتَة[6].

ويُلاحَظُ هنا أن الشاعر أشار في البيت الأول إلى ارتحال قريش عن عكاظ بالخديعة، وفي البيت الثاني سمَّىٰ قريشاً: سخِينَةً، والسخينةُ طعامٌ

---

(١) خِدَاشُ بنُ زهير بن ربيعة: شاعر جاهلي من أشراف بني عامر بن صعصعة من هوازن. غلب على شعره الفخرُ والحماسةُ، وكان يهجو عبدَ الله بنَ جُدْعان التيْميَّ، ولم يكن رآهُ، فلما رآه ندم على هجائه. وقد غلط الزركليُّ صاحبُ الأعلام (٢/ ٣٠٢) إذ قال إنه كان يُلقَّبُ فارسَ الضَّحْيَاء، وإنما فارس الضحياء أخو جَدِّهِ: عمرو بن عامر! (الشعر والشعراء: ٦٤٦).

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٧.

(٣) معجم البلدان: ١/ ٤٤٩.

(٤) المرجع نفسه: ٥/ ٢٧٧.

(٥) موقع عكاظ: ٣٩.

(٦) **البُهَيْتَة**: موضع قرب السيل الكبير بوادي نخلة اليمانية، يسكنه بنو سعد بن بكر بن هوازن، الذين استرضع فيهم رسولُ الله عليه السلام. **والزَّيْمَة**: قريةٌ من أرض مكة، بوادي نخلة، وهي أولُ دربِ اليمانية. (معجم البلدان: ١/ ٥٠٦، ٣/ ١٦٥).

يُتَّخذُ من الدقيق والماء أو اللبن، أغْلَظُ من الحَسَاءِ، وأرَقُّ من العَصِيدة، يُؤكل في شِدَّة الزمن، وغلاءِ السعر، وعَجفِ المال، وكانت قريشٌ تُكْثِرِ من أكلها، فعُيِّرتْ بها حتى سُمُّوا سَخِينةَ[1] . . .

أما سائرُ المواضِع التي مَرَّ بها الراجِزُ فأكثَرُها ما يزال معروفاً، ولكننا نَجتَزِىءُ بما يعنينا أمرُه، فأَوْقَحُ موضعٌ به مَنْهلُ ماءٍ عَذْبٍ، يقعُ إلى الشرق من وادي كلاخ، بَعْد جبل عُنٍّ إلى غَربه. وكلاخُ، كما ذكرنا، وادٍ قريبٌ من عكاظ، فيه قريةٌ ومَزَارعُ، ماؤه ثقيلٌ ملحٌ[2]، يقع إلى الشمال والشرق من بَسْل. وبَسْلُ من أوْدِيَة الطائف، جنوبُه لبني فَهْم بن عمرو، وشمالُه لبني نصر بن معاوية، وكلاهما من قبائل قيس بن عيلان، وبين بَسْل ووادي لِيَّة بلدٌ يُسمَّىٰ جِلْدَان[3]، مَوقعُه إلى الشمال من كلاخ، وهو في أرضٍ سهلةٍ، مُتَّصلةٍ بسهل رُكْبَة[4]، وفيها هضبةٌ سوداءُ، كانت تُسمَّىٰ «بَتَعَة»، وكانوا يُعَظمونها[5]، ويُسَمُّونها اليومَ: حَلاَةَ جِلْدان[6]، وهي من منازل بني نصر بن معاوية[7]. أمّا «لِيّة» فوادٍ من نواحي الطائف[8]، إلى شرقها، وهو من منازل بني نصر بن معاوية، وقيل: إن جنوبه لبني ثقيف، وشماله لبني نصر[9]،

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٢٠٦ (سخن).
(٢) موقع عكاظ: ٢٤، ٣٣، ٥٨.
(٣) معجم البلدان: ١/ ٤٢٣.
(٤) موقع عكاظ: ٦٣.
(٥) معجم البلدان: ١/ ٣٣٥، ٤٢٣، و ٢/ ١٤.
(٦) موقع عكاظ: ٦٣.
(٧) معجم البلدان: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١.
(٨) المرجع نفسه: ٥/ ٣٠.
(٩) موقع عكاظ: ٥٤، والمفصّل: ٤/ ١٤٢.

وهما من هوازن. وبعد جِلْدَانَ، نزلَ الراجزُ إلى عكاظ وسَهْلِها الواسِع، واجتاز فيه مواضِعَ شَرِبٍ وقُرّانَ إلى المناقب، ليُقْبِلَ بعدها على وادي قَرْنٍ، مِيقاتِ الإحْرام، وهو قَرْنُ المنازل عند السيل الكبير... وعَدَّ الهمدانيُّ مواضِعَ شَرِبٍ وقُرّان من أرض عكاظ، يضربُ على مَشْرقها جبلُ الحَضَنِ، حَضَنِ عكاظ، وهو على مَسيرةِ يومٍ وبعضِ يوم من هذا الطريق[1]، موقعُه بأعْلا نَجْدٍ، أي في حَدِّها الجنوبي إلى الغرب، ويُقال في المثَل: أَنْجَدَ من رأى حَضَناً[2]، أي بَلَغَ بلادَ نَجْدٍ إذا رآهُ. وقُرّانُ وادٍ قُربَ الطائف[3]، ينحدر من الأرض الواقعة بين وادي الحَوِيَّة ووادي السيل الصغير، وهو في غَرْبه، ويلتقي مِن ثَمَّ بوادي العقيق الكبير، ويقعُ وادي قُرّانَ غربَ عكاظ، يفصِلُ بينهما جبالٌ صغيرة، تمتدُّ من الجنوب الغربي، إلى الشمال الشرقيّ[4]. أما المنَاقِبُ فمعلومٌ أنها الرِّيعَان[5]، التي يهبط إليها المسافرُ إلى مكة، بعد أن يجتازَ السَّيْلَ الصغير، في طريقه إلى قَرْنِ المنازل[6].



وأخيراً، إن ما أَجْمَلناهُ من مذاهب القدماء في مَوضِع عكاظ، وما أَضَفْناهُ إليها من أقوال بعض الباحثين المتأخرين، ثم ما أَثْبَتْناه من بيانٍ للمَعَالم التي كانت تكتَنِفُ مَوْضعَ عكاظ، ومن تَعْيينٍ لمواقِعِها منه، ومَوْقعِه منها... من شأنه مُجْتَمِعاً أن يأتيَ مُصَدِّقاً لمَا ذهب إليه:

---

(١) موقع عكاظ: ٤٩، ٦٣.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٢٧١.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٣١٨.
(٤) موقع عكاظ: ٦٥.
(٥) الرِّيعَانُ: مفردُها الرِيعُ، وهي الطرُق المنفرجةُ في الجبل.
(٦) موقع عكاظ. ٢٧، ٣٤، ٤٥.

١ ـ معظمُ المؤرِّخين في تَعْيينهم مَوْقعَ عكاظ بين وادي نَخْلة والطائف، على طريق مكة ـ صنعاء، وفي تحديدِهم مَوْضِعَه بالحدِّ الجنوبيّ من نَجْدٍ، في بلاد قَيس بن عَيْلان.

٢ ـ الأزرقيُّ في قوله: «. . . وعكاظ وراءَ قرن المنازل بمرحلة، على طريق صنعاء، في عَمَل الطائف، على بريد منها»[١].

٣ ـ الأَصْمعيُّ في قوله: «عكاظُ نَخْلٌ في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلةٌ، وبينه وبين مكة ثلاثُ ليالٍ، وبه كانت تقومُ سوقُ العرب. . . »[٢].

٤ ـ عرَّامُ بنُ الأَصْبَغ في وَصْفِه أرضَ عكاظ بأنها مُسْتَوِيَةٌ، غيرُ وَعرة، ليس بها جبلٌ أو عَلَمٌ، وبأنها قريبةٌ من جبل عُنٍّ[٣].

٥ ـ الهمدانيُّ فيما ذكره من أُرجوزة الرَّدَاعيّ، التي رَسمتْ طريقَ صنعاءَ ـ مكة، وعيَّنَتْ موقعَ عكاظٍ بعد هَضبة جِلْدَان، وقبل المناقب، على التحديد.

ولا أرى مُوجِباً للتوقُّفِ كثيراً عند الفرق، بين تقديرالأزرقي لبُعْدِ عكاظ عن الطائف ببَرِيدٍ، أي نحوِ إثني عشر ميلاً، وتقديرِ الأصمعيّ له بليلةٍ، أي نحو أربعة وعشرين ميلاً، وذلك لأمرين:

الأَوَّلُ: أن أرضَ عكاظٍ سهلٌ واسعٌ ممتدٌّ، كان يتَّسِعُ لعَدَدٍ من الأُلوف بخِيَامِهم وأنعامهم وسائر بضائعهم، ولم تكن بُقْعةً صغيرةً لِيَسْهُلَ قياسُ بُعْدِها عن الطائف، والطائفُ كذلك لم يكن قريةً صغيرةً منفردةً، بل كان منطقةً واسعةً مُتَرامِيةَ الأطراف.

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٣) أسماء جبال تهامة: ٤٣.

والآخَرُ: إتّفاقُهما معاً في تَقْديرهما للمسافة بين عكاظ وقَرن المنازل بليلةٍ واحدةٍ، صرَّح بها الأزرقيُّ، وكَنَىٰ عنها الأَصمعيُّ، بتقديره المسَافةَ بين مكة وعكاظ بثلاث ليالٍ، ونحن نعلم أن ما بين مكة وقرن المنازل ليلتان، فيكون ما بين قرن المنازل وعكاظ ليلةً واحدةً. أمَّا قولُ الأصمعي بأن عكاظ نَخْلٌ في وادٍ، فقد علمنا أن هذا الوادي هو وادي شَرِبٍ قطعاً، ولا شك في ذلك، والموضعُ بات واضحاً، فَلْنَنظُرْ أين رأى الباحثون المتأخِّرون هذا الموضع. . .

* * *

(٢) ـ الكشفُ عن موضع عكاظ:

١ ـ نُشِرَ للشيخ العَلَّامة حمد الجاسِر، سنة (١٩٥٠ م)، تحقيقٌ جيِّد في موضع عكاظ، كان أعَدَّهُ سنة (١٩٤٤ م = ١٣٦٣ هـ). وجعله د. عَزَّام من ضمن كتابه «موقع عكاظ». وقد قدَّم الرجلُ لتحقيقه بالقول: «هذه كلمةٌ، حاولتُ أن أُوضِّح بها موقعَ سوق عكاظ، مُورداً أقوال مُتَقدِّمي المؤرِّخين، وواصِفاً، على ضَوء مُشَاهدتي، المكانَ الذي لا يُخامرني شكٌّ في أنه هو موقعُ ذلك السوق، ومُحاولاً تطبيق تلك الأقوال على أوصاف ذلك المكان. . .»[١].

وبعد أن تَقَصَّى أقوالَ المتقدمين، قَولاً قَولاً، ولم يَدَعْ منها شيئاً، مع الشرح والتعليق، انتهى إلى أنها في جُملتها، وعلى اختلاف عباراتها، متقاربةٌ في المعنى، متطابقةٌ في الدلالة، وقد لا يوجد للقدماء ما يُخالفها[٢]. . . ثم ذكر أن تلك الأقوالِ تَتَلخَّصُ بأن موقع عكاظ:

---

(١) موقع عكاظ: ٤٣.
(٢) المرجع نفسه: ٥٣.

● كان في أعْلَى نَجْد، وليس في تهامة، أو الحجاز، أو اليمن.

● وأنه في بلاد بعض قبائل قيس بن عيلان من مُضَر.

● وأنه على طريق اليمن من مكة، بين المناقب وكلاخ.. أي وراء قرن المنازل.

● وأنه يبعد عن الطائف مسافةً، اختلف المتقدِّمُون في تقديرها، بين عشرة أميال أو اثنَيْ عَشَرَ ميلاً، ومَسيرةِ يوم، أي نحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، ولا يُعَدُّ هذا الاختلافُ جوهرياً، لأن الطائف إسمٌ لا يُطلَق على المدينة وحَسْب، بل وعلى القُرى والأمكنة التابعة لها، مِن حَوْلها.

● وأنه يقعُ في صحراءَ مُسْتَوِيةٍ، خاليةٍ من الأَعْلام والجبال، سوى صخراتٍ كِبَارٍ، وحُرَيْرةٍ في مَهبِّ الجنوب منه.

● وأنه مُتَّصِلٌ بأرض رُكْبَةَ، ويقع جبلُ حَضَنٍ في مَشْرقه، على مسافة يومٍ وبعضِ يوم، ووادي قُرَّانَ في مَغْربه، بقُرْبه.

● وأن من أَوْديته وادي شَرِب[1]...

وانتهى الشيخ من هذه الخُلاصة إلى القول: «إن جميع الأوصاف المُتَقدِّمةِ، تنطبق انطباقاً تامّاً، على الأرض الواسعة، الواقعةِ شَرْقَ الطائف، بمَيْلٍ نحو الشمال، خارجَ سلسلة الجبال المُطِيفَةِ به. وتبعدُ تلك الأرضُ عن الطائف نحو اثنين وعشرين ميلاً تقريباً. ويَحُدُّها من الغرب: جبالُ بلادِ بني عَذْوان في العَقْربِ وشَرِبِ والعُبَيْلاء[2]. ومن الجنوب: أَبْرَقُ العُبَيْلاء[3]،

---

(١) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٦١.

(٢) **العَقْربُ وشَرِبٌ والعُبَيلاءُ**: كانت في الجاهلية، وما تزال حتى اليوم لبني عَدْوان بنِ عمرو بن قيس عيلان. وتقع قريةُ شَرِبٍ على ميل واحدٍ من الحَوِيَّة.

(٣) **الأبرق**: الأرض الغليظةُ فيها حجارةٌ ورمل وطين.

وضِلَعُ الخَلَص[1]. ومن الشرق: صحراءُ رُكْبَة. ومن الشمال: طرَفُ رُكْبَة، والجبالُ الواقعةُ شرقَ وادي قُرَّان... وتشملُ هذه الأرضُ: وادي الأُخَيْضِر، ووادي شَرِب، عندما يَخرُجان من الجبال ويَفِيضَانِ في الصحراء، وما بينهما من الأرض، وما اتصل بها من طَرفِ رُكْبة»[2].

ثم أشار الجاسِرُ إلى المواضع الواقعةِ قربَ عكاظ، التي يُستدلُّ بها على مَوضعه، فذكر أن منها ما يزال معروفاً باسمه حتى اليوم، مثل: بُسّ، وجلدان، وحَضَن، ورُكبة، وشَرِب، والعَبلاء، وعُنّ، وقُرّان، وكلاخ، وضِلَع الخَلَص (الحريرة)، والعَقْرب، والأُخَيضِر، وغيرِها... ومنها ما صار مجهولاً، مثل: الأُثَيْداء، وشَمْطة، وبَقْعاء، والخُدود، والفُتق والقفا[3]... لكنَّ ما عرَّفهُ منها كان كافياً للتحقيق، الذي جعله أوَّلَ مَن اكتشفَ موضعَ عكاظ، وعَيَّن حُدودَهُ ومَعَالِمَهُ، وأَثْبتَ ذلك بالأَدلَّة القاطعة، والبراهين الساطعة.



٢ ـ ويبدو أن تحقيق الشيخ الجاسِر، كان إرْهاصاً لتحقيقٍ آخَرَ، قام به العالمُ النجديُّ محمد بن بُليهد مرَّتَين، في الموضعِ عَيْنِهِ، عند مَجْمع الوادِيَيْن: شَرِبٍ والأُخَيْضِر، المرةُ الأولى كانت نحو سنة (١٩٤٩ م)، في صُحْبة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز، وكان ما يزال أميراً، والثانية كانت سنة (١٩٥٠ م)، وقد صَحِبَهُ فيها عبدُ الوهاب عزَّام، وهو ما يُفهم من كلام الأخير حيث قال: «... وقد أخبرني منذ أشهرٍ، الصديقُ الأديبُ

(١) ضِلَع الخَلَص: الحُريرة.
(٢) موقع عكاظ: ٦٢.
(٣) المرجع نفسه: ٦٢ ـ ٦٧.

الشيخُ أحمد الغزَّاوي، شاعرُ جلالة الملك عبد العزيز، أن سُموَّ الأمير فيصل أخبرهُ أنه ذهب إلى موضع عكاظ، وليس هو بالسَّيْل الكبير، ولا بالسَّيْل الصغير، وأنه اجتمعت أدِلَّةٌ كثيرةٌ على أن في هذا الموضع، لا غيره، كانت سوقُ عكاظ. وكان ذَهابُ سُموِّ الأمير إليه في رُجوعِهِ من الصَّيْد إلى الطائف، وكان معه الشيخُ محمدُ بن بُليهد، وهو عالم نَجْديٌّ واسعُ المعرفة بأخبار العرب... عارفٌ بكثير من الأمكنة، التي ذُكرتْ في الأشعار والأخبار، ذهب إليها، ورآها رأيَ العَيْن. وقد اجتمع لهذا الشيخ البحَّاثَة نُقُولٌ وأَدِلَّةٌ، لا تَدَعُ شكّاً في أن هذا الموضعَ كان هو مجتمعَ العرب في السوق، التي ذاع ذِكْرُها، وطار صِيتُها: سُوقِ عكاظ»[1].

فأمّا ابنُ بُلَيهد، فقد استند في تحقيقه الموضعَ، كما رآهُ، إلى خمسة أدِلَّة، **أوَّلُها**: ما جاء في أُرجوزة الرِدَاعيّ اليمانيّ التي رسم فيها طريق مكة من صنعاء، **وثانيها**: نصٌّ عَزاهُ إلى عَرَّام السُّلَميِّ، وهو مُصَحَّفٌ كما رأينا. **وثالثُها**: قولُ الأصمعي في تعيين موقع عكاظ، **ورابعُها**: ما ذكرهُ الأفغانيُّ، في كتابه «أسواق العرب»[2]، عن وقائع الفِجَار التي جرت على مواضِعَ من عكاظ، مع أن الأفغاني لم يكن أكثرَ من ناقلٍ، لم يُحقِّق فيها شيئاً، ولم يأتِ بجديد. **وخامِسُها**: بيتُ شعرٍ قاله الكُمَيْتُ بن زيد الأسدي[3]، في قصائده

---

(١) موقع عكاظ: ١٧ ـ ١٨.

(٢) سَمّاهُ ابنُ بُليهد «أيامَ العرب»، وهو غلط، وليس للأفغاني كتابٌ بهذا الإسم، وإنما هو أسواق العرب.

(٣) **الكُمَيْتُ بن زيد بن خُنَيْس الأسدي**: (٦٠ ـ ١٢٦ هـ = ٦٨٠ ـ ٧٤٤ م). شاعر الهاشميين في العصر الأموي، اشتُهِر بانحيازِهِ إليهم، ومَدائحِه فيهم، وكان فارساً شجاعاً سَخِيّاً. وهو من أصحاب الملحمات.

الهاشميات[1]، وهو:

أهل الحنيفةِ، فاسْأَلْ عن مَكانِهِمُ   بالمَوْقِفيْن، ومُلْقَىٰ الرَّحْلِ من شَرِبِ

ومُلْقَىٰ الرَّحْلِ من شَرِبٍ كنايةٌ عن الموضع، الذي كانت تُلْقَى فيه الرِحَالُ، من وادي شَرِب، وهو سوقُ عكاظ. ذكر ذلك لابْنِ بليهد مُعَلِّمُه الشيخُ ابنُ عيسى، وهو إبراهيمُ بنُ صالح[2]، المؤرِّخُ النجديُّ، وكان وَجَدهُ في كتاب مخطوطٍ، بإحدى مكتبات البصرة، يتحدَّث عن أخبار نجْدٍ وجبالها ومياهها، وفيه أن شَرِباً والأُخَيْضِرَ وادِيَان قُرْبَ الطائف، يَنصَبَّان من الغرب إلى الشرق، وعكاظٌ مَجْمَعُ الواديين[3].

وعلى ذلك، خَلُص ابنُ بُلَيهد إلى أن موضعَ عكاظ هو مَجْمعُ الواديين: شَرِبٍ والأُخَيضِر، يَحدُّهُ من الشرق نبعُ ماءٍ يُسمَّى المبعوث، ومن الغرب، على مسافة اثنَيْ عَشَرَ كِيلاً منه، مطارُ الحَوِيَّة[4].



وأما عبد الوهاب عزَّام، فارْتَحل إلى مَوْضع عكاظ، عند مَجْمع الوادِيَيْن، لِمُعَايَنَةِ المعالم الجغرافية للموضع، والمطابقة بينها وبين ما ذُكر عنها في أقوال المؤرِّخين... فوقف على الحُرَيْرة، المعروفةِ اليومَ بِحَرَّةِ الخَلَص، ونظر إلى أقصى الجنوب، فرأى هضبةَ جلدان، وتُسمَّى اليومَ حَلاةَ

---

(١) موقع عكاظ: ٣٢.

(٢) إبراهيم بن صالح بن إبراهيم: (١٢٧٠ ـ ١٣٤٣ هـ = ١٨٥٤ ـ ١٩٢٥ م). وُلد في بلدة أُشَيْقِر، بإقليم الوشم من نَجْد، وتعلَّم فيها. رحَل إلى الهند والأحْسَاء والبصرة وغيرها، ثم استقرَّ في بلدته، يُقْرِئُ العلم، ويُدوِّن الأخبار. توفي في عُنَيْزة بالقَصِيم.

(٣) موقع عكاظ: ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) المرجع نفسه: ٣١، ٣٢.

جلدان، ثم نظر إلى الجنوب والغرب، فرأى العبلاءَ، وهي أَكَمةٌ بيضاءُ، تقع وراءَها العُبَيلاءُ قريةٌ بني عَدْوان، ورأى هنالك وادي شَرِبٍ ينحدر إلى الشرق والشمال، وتلتقي به أوديةٌ، منها وادي الأُخَيْضر يُلاقيه في سهل عكاظ، وتأكَّد له أن عكاظاً يقع في طريق اليمن إلى مكة، قبل قرن المنازل، أي السَّيْل الكبير الذي ظن بعضُ الناس أنه موقعُ عكاظ، واستدلَّ على ذلك بقول الأزرقي[1]. ثم نظر إلى الشمال والغرب من مُقامِهِ فوق الحَرَّة، فإذا جُبَيْلٌ أَدْكَنُ، قيل له إنه العُرْفُ[2]، ووراءَهُ وادي قُرَّان، ثم رأى من بعيدٍ جبالَ عُشَيْرة، أي وراء العُرْفِ وقُرَّان[3].

ثم زادَهُ وثوقاً من سلامة هذا التحديد لموقع عكاظ، أنه نظر حيث أُشِير له في سهل عكاظ، فرأى آثارَ آبارٍ كثيرةٍ، طُمَّتْ بالحجارة، أو طَمَّها الوادي، وهذا دليلٌ على أن الماء كان مُتوافراً في هذا الموضع لسِقَاية الناس والأنعام[4]. ثم نزل من الحُرَيْرة، فجال في سهل عكاظ، وقال: «. . . وعَبَرنا وادي الأُخيضِر، فارتفعنا عن سهل عكاظ، نَؤُمُّ الحَوِيَّةَ فالطائف. . . وقد بلغتُ أَرَباً من عكاظ، وأيقنتُ أنه بهذا الموضع لا ريب، وأن قولنا فيه قولٌ فَصْلٌ»[5].

وأخيراً، لا بدَّ من الإشارة إلى أنني أخذتُ عليه ما عَزَاهُ إلى ياقوت من

---

(١) موقع عكاظ: ٢١ ـ ٢٣، ٢٨.

(٢) العُرْفُ: موضع عالٍ مرتفعٌ في نجْدٍ، لبني عمرو بن كلاب، به مُلَيحةُ ماءةٍ من أطيب مياه نجد، وهو عُرْفَان: الأعلىٰ والأسفل. لكنَّ عزَّام صحَّفَهُ إلى العَرفا. أنظر معجم البلدان: ١٠٦/٤.

(٣) موقع عكاظ: ٢١.

(٤) المرجع نفسه: ٢٩.

(٥) موقع عكاظ: ٣٠.

القولِ بأن شَرِباً في عكاظ[١]، مع أن الرجُلَ لم يقل ذلك[٢]، بل قاله غيره. وكنَّا عَرَضْنا كثيراً من مشاهداته، وناقشنا بعضَها، في حديثنا عن مذاهب المؤرخين في موضع عكاظ، وأخذنا عليه في تَعيينه موقعَ الحُرَيْرة بشرقِ عكاظ، استنادَهُ إلى نصٍّ غيرِ موجودٍ أصلاً في كتاب عرَّام السُّلَمي.

* * *

٣ ـ ثم عَلَّق الأستاذ رشدي مَلْحَس، سنة (١٩٦٥ م)، في تحقيقه كتابَ أخبار مكة للأزرقي، على موقع عكاظ فقال في الحاشية: «عكاظ بالقُرب من نواحي رُكْبَة، إلى جهات الطائف»[٣]، فأنْهَى بذلك كلَّ خلاف، وقطع كلَّ شكٍّ، وهو مُحقِّق جغرافيٌّ جيّدٌ، حقَّق كثيراً من الأمكنة والمنازل التاريخية في جزيرة العرب، أثناء إقامةٍ بالديوان الملكيّ السعوديّ، استمرَّتْ زهاءَ ثلاثين عاماً[٤].

ولعلّ من المفيد أن أُشِيرَ هنا إلى تعليقٍ آخَر للسيد مَلْحَس، ذكر فيه أن مدينة الطائف تبعُدُ اليومَ عن مكة، مئةً وسبعةً وثلاثين كِيلاً، للسيارات، بطريق السَّيْل الكبير[٥]، أي قرن المنازل. ونظرتُ فوجدتُ هذا القَدْرَ يساوي نحوَ خمسةٍ وثمانين ميلاً، وهو قريبٌ جداً من تقدير المؤرِّخين المتقدِّمين للمسافة من مكة إلى عكاظ، ومنه إلى الطائف. مع العلم بأن طريق السيارات أقصَرُ، لأنه ينحرف بعد المناقب يميناً، ويتَّجهُ مباشرةً إلى الطائف، بينما

---

(١) موقع عكاظ: ٢١.
(٢) معجم البلدان: ٣/ ٣٣٢.
(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، الحاشية رقم ٩.
(٤) الأعلام: ٣/ ٢١.
(٥) أخبار مكة: ٢/ ١٥٧، الحاشية رقم ٦.

طريقُ الإبِل لم يكن ينحرفُ بعد المناقب، بل كان يتجه شرقاً، فيجوز الجبالَ، ويمرُّ بعكاظ، ثم ينتهي إلى الطائف[1]. والأزرقيُّ قدَّر أن بين قرن المنازل وعكاظٍ ليلةً، وأن بين عكاظٍ والطائف بريداً، ونحن نعلم أن بين مكة وقرن المنازل ليلتيْن، ومجموعُ هذا يساوي أربعةً وثمانين ميلاً[2]. والأصمعيُّ قَدَّر ما بين مكة وعكاظ بثلاث ليالٍ، وما بين عكاظٍ والطائف بليلةٍ واحدة، وهذا يُساوي ستةً وتسعين مِيلاً. وياقوتُ ذكر أن بين مكة وقرنِ المنازل واحداً وخمسين ميلاً، وبين قرنِ المنازل والطائف ستةً وثلاثين ميلاً، وهو يساوي سبعةً وثمانين ميلاً.

وأعتقد أن من شأن ذلك كله، أن يزيدَ الأَدِلَّةَ ثُبوتاً على صَوابِ ما اتَّبعناهُ في تحديد مَوقع عكاظ، على طريق مكة من صنعاء، بين جلدان والمناقب، في مكانٍ مُتَّصلٍ بالطرَفِ الجنوبي الغربي من سهل رُكْبة، ومُتَّصِلٍ بالطائف في نواحيها الشرقية الشمالية، ويقعُ قبلَ السَّيْل الكبير بنحو أربعة وعشرين ميلاً، وهو مَجْمَعُ الواديين: شَرِبٍ والأُخَيضِر، عندما يخرجان من الجبال، ويَفيضان في الصحراء.

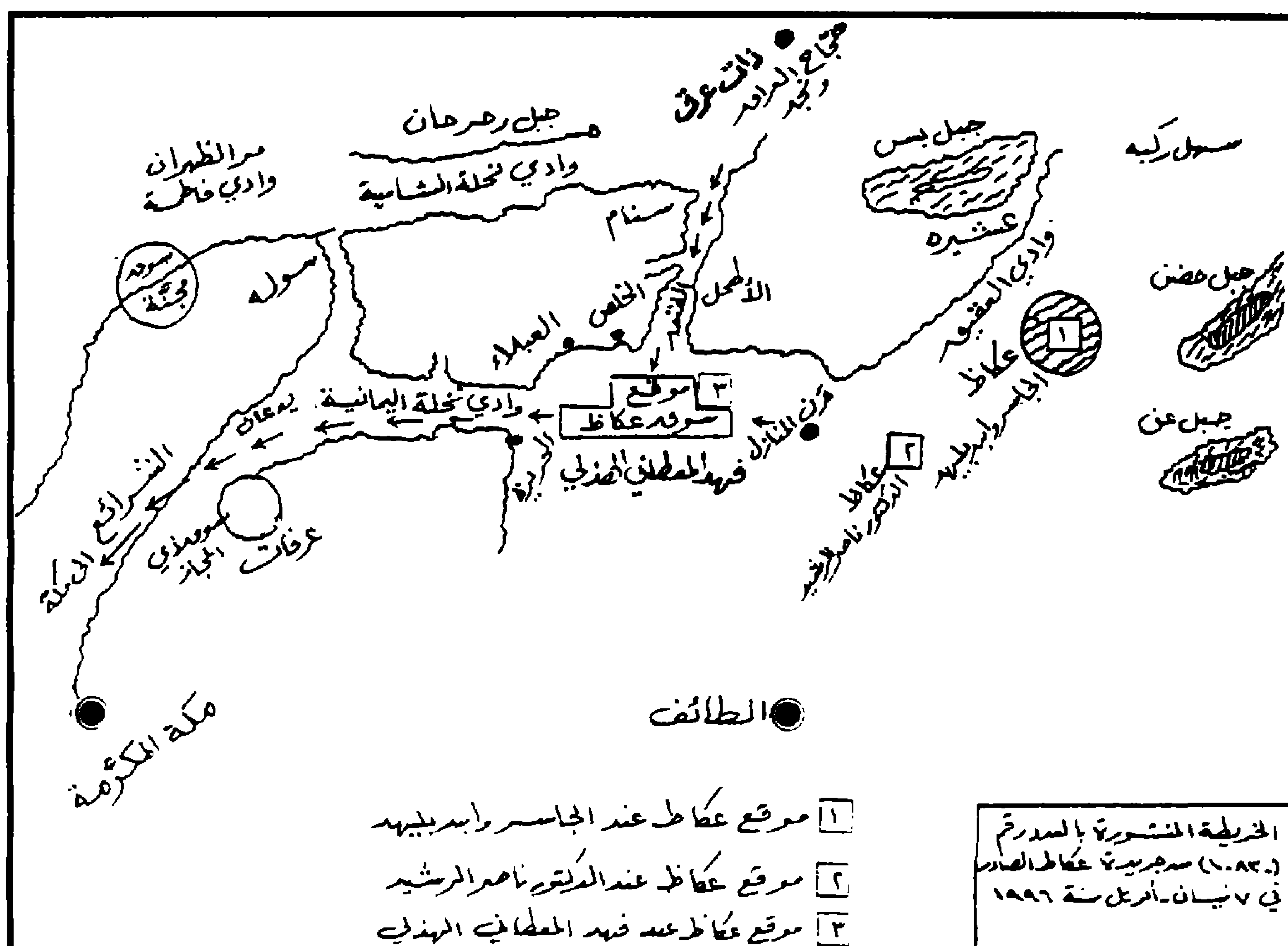


ولكن طائفةً من الباحثين، في المملكة العربيّة السعوديّة، ذهبت في تعيين موقع عكاظ مذاهبَ مُخالفةً، ولم تتَّفق على موقع مُحدَّد له..

---

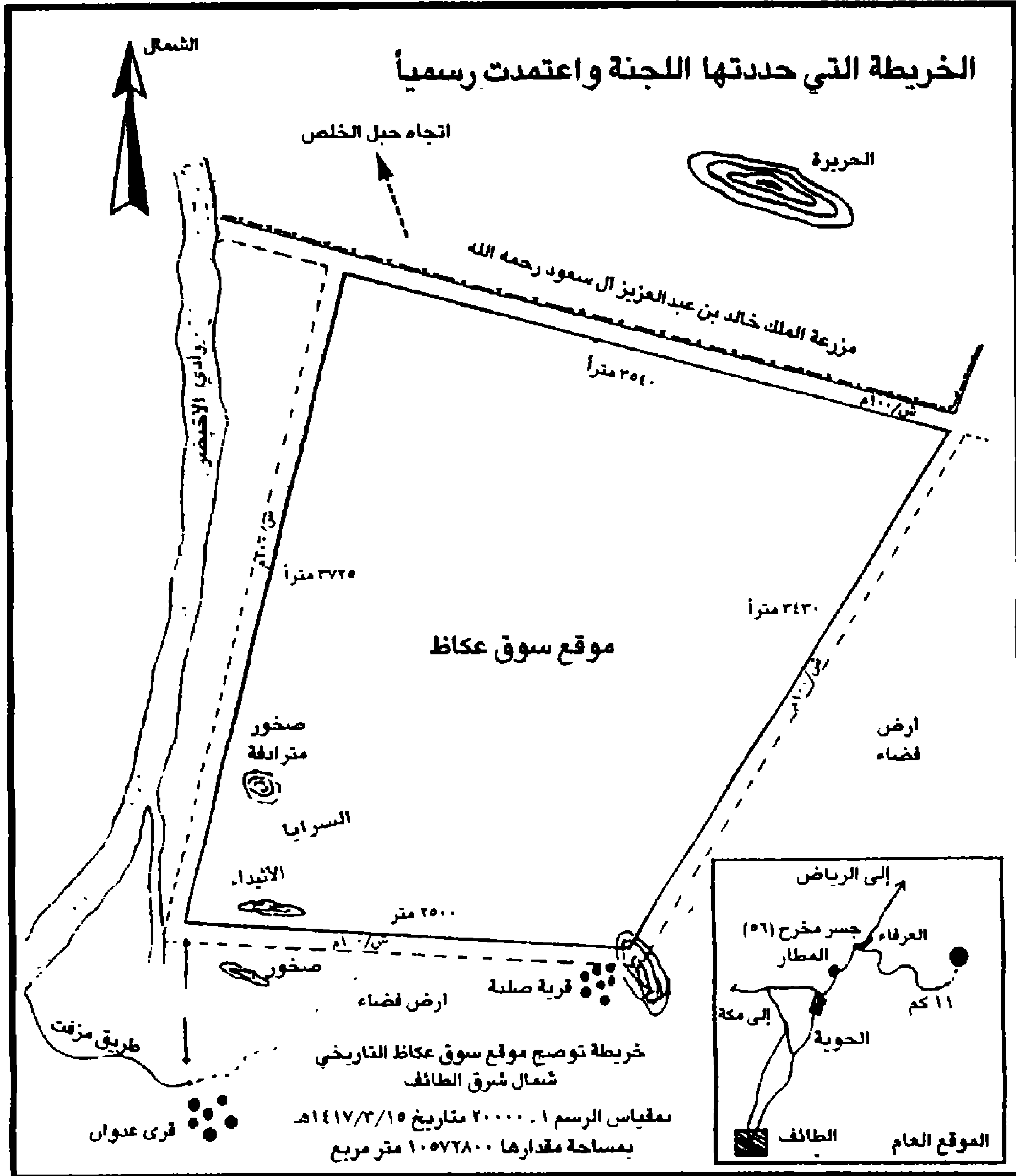
(١) موقع عكاظ: ٤٥.

(٢) سبق أن ذكرنا أن الليلةَ مَرْحلةٌ أي أربعةٌ وعشرون ميلاً، وأن البريد إثنا عَشَرَ ميلاً، وإذا قيل: يومٌ وليلة فمعناهُ مرحلتان، أي يومٌ كامل بنهارِهِ وليلِهِ.



وقد بادر سموُّ الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، فألَّف لجنةً من الأدباء والخبراء، وكلَّفها العملَ على تحديد هذا الموقع، وتسليم موضعه إلى إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف. وقد اجتمعت اللجنةُ في المدَّة من (٢٢/ ٢/ ١٤١٧) حتى (٥/ ٣/ ١٤١٧ هـ=١٩٩٦ م)، وعكفت على دراسة مختلف الآراء، والخرائط المُعدَّة من قبل بعض الباحثين، والكتُب المصنَّفة في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، ثم انتقلت إلى المكان، وعاينت فيه المعالم والآثار الباقية، ثم رجَّحتْ الموضعَ الواقعَ شمالَ شرقِ الطائف على خمسة وأربعين كيلاً، والمُحدَّد: **بالأُثَيْداء** من الجنوب الغربي، **والعبلاءِ** من الجنوب الشرقي، **والحُريْرة** من الشمال الشرقي، ووادي **الأُخَيْضِر** من الغرب. وقد اعتمد سموُّ الأمير نايف بن عبد العزيز هذا الترجيح، والخريطةَ التي رُسمت للموقع، وتمَّ تسليم الموضع إلى إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف،

في منطقة الطائف التعليمية[1]. .



وعلى الرغم من إطْباقِ المتقدّمين، وتوافُقِ جُلِّ المحدَثين على أن «الحُريْرة» كانت تقع من عكاظ في مَهبِّ الجنوب، أي في حدِّه الجنوبي مع مَيْلٍ نحو الشرق، وأن «الأُثَيْداءَ» موضعَ قيام السوقْ، باتت مجهولةً مُنْدَرِسةً. . فإن العجيب أن تجعلَ اللجنةُ موقعَ الحُرَيْرةِ في الشمال الشرقي

(١) مجلة أهلاً وسهلاً السعودية: (٤٨ ـ ٤٩) من العدد رقم (٩)، جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ= أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٨ م.

من عكاظ، وأن تكتشفَ فُجاءَةً موضعَ الأُثَيداء في الجنوب الغربي من عكاظ.

ويبدو لي أن هذا هو مذهب الأستاذ عبد الله محمد الشايع، غَلَب على توجُّه اللجنة، وهو أحدُ أعضائها، قرأتُه له في جريدة عكاظ[(١)]، وعلَّقْتُ عليه يومئذٍ بالتعليق المناسب[(٢)]. فقد انطلق فيه من ظنِّه بأن الحُرَيْرة هي الحدُّ الشماليُّ للسوق، وبأن «الأُثَيْداءَ» مُصَغَّرُ «الأَثْداء»، وبأن الأثداءَ جمعُ «ثَدْي»! وكان ذهب إلى المكان ليكتشفَ الموقع، فشاهد في بعض أجزائه من جهة الغرب: «نُتوءاتٍ بارزةً، لعلَّ العرب القدماء شبَّهوها بالثَّدي، فسَمُّوا الهُضَيْبةَ بالأُثَيْداء»، وقال في موضع آخر: «وعندما وقفتُ في وسط الأرض المستوية، نظرتُ ذات اليمين وذات اليسار عسى أن أرى جُبيلاً متميِّزاً، وفي ناحية الشرق شاهدتُ أَكمتَيْن مُتقاربتيْن، خُيِّل لي أنهما على شكل ثَدْيين»، وخوفَ الوقوع في غلط تحوَّل بنظره إلى جهة الغرب[(٣)].

وكان خلاصة تعليقي عليه أنه أقام استنتاجه على الوهم، فإذا جاز أن نغلطَ اليوم في النحو والصرف، فإن عرب الجاهلية لا يمكن أن يكونوا كذلك. وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا أن الثديَ يُجمع على: **أَثْدٍ وثُدِيّ وثِدِيّ**، وليس على أثداء، ويُصغَّر على: **ثُدَيَّة**... وعلى ذلك يكون استنتاجُه بدلالة المعنى الذي تَوهَّمه وحَمَله على اللفظ غلطاً!

ومن الجائز أن تكون الأُثَيْداءُ تصغيراً للثَّأْدِ، بنقل الهمزة إلى أوَّله **والثَّأَدُ**: الثَرى والنَدى، **والأَثْآدُ**: البَلَلُ، وربما كان أصلُ الكلمة **الأَثْآد**، فصارت بالقلب الأَثْداء، ودلالتُها على الندى والبَلَل والثرى أبْيَنُ لموضع السوق من نتوءاتٍ صغيرة تُشبه الثدي.

---

(١) جريدة عكاظ ـ الملحق الثقافي بالعدد رقم (١٠٦٢٧) في ١٧/٩/١٩٩٥.

(٢) جريدة عكاظ ـ الملحق الثقافي بالعدد رقم (١٠٦٥٢) في ١٢/١٠/١٩٩٥.

(٣) المرجع.

خلاصةُ الأمر أن اللجنة خطَتْ خطوةً، نرجو أن تكون قد أفلحتْ فيها، وأن تُؤدِّي إلى اكتشاف الحقِّ في حدود عكاظ، ومن الواضح أنها اتجهت بالموقع جنوباً، وكان من حقِّه أن ينطلق شمالاً، وأن يتصل بسهل رُكبة، ومُلْتقَى وادِييْ شَرِب والأُخَيْضِر، وربما بجبَل حَضَن الذي كان يُسمَّى حَضَنَ عكاظ. . .

* * *

③ ـ آراءُ بعض الباحثين في موضع عكاظ:

جَرتْ، في العصر الحديث، عِدَّةُ محاولات للكشْفِ عن موضع عكاظ، وبيان مَوقعِه من الأَرضِين، التي ما انفكَّتْ أسماؤها تُذكرُ، كلما ذُكر اسمُ عكاظ. . . وكان للباحثين في ذلك كلامٌ كثيرٌ، وآراءُ مختلفةٌ، منها أن عكاظاً كان يقع في السَّيْل الكبير عند قَرْنِ المنازل، ومنها أنه في موضع السَّيْل الصغير، بين المناقب والطائف، ومنها أنه بِوادي رُكْبة، في شمالِهِ المتَّصلِ بِوادي عُشَيْرة، ومنها أنه بِوادي عَقْرب، في شرق الطائف، بعد قليل من أم الحمض[1]. . . وهي آراء علَّق عليها الشيخُ الجاسِرُ بأنها جانَفتِ الصوابَ، وخالَفتِ الحقَّ، فلم يُكلِّفْ نفسَه عنَاء مناقشتها، أو بيانَ ما فيها من جَنَفٍ، أو باطلٍ، أو غلطٍ، تَظهر جَليَّةً إذا قُورنت بأقوال المتقدمين[2].

على أننا سنعرضُ هنا، باختصار، آراءَ بعضِ أولئك الباحثين، ولا سيما الذين ارتحلوا إلى جزيرة العرب، بحثاً عن موضع عكاظ.

١ ـ رأي الأستاذ خير الدين الزِركلي:

كانت له رحلة من دمشق إلى مكة، سنة (١٩٢٠ م)، رأى فيها أشياءَ،

(١) في منزل الوحي: ٣٦٤.
(٢) موقع عكاظ: ٤٣.

وسمع أخباراً وروایاتٍ، فكتب سنة (١٩٢٣ م) يقول: «. . . على مرحلتين من مكة، للذاهب إلى الطائف في طريق السَّيْل، يميلُ قاصِدُ عكاظ نحو اليمين، فيسيرُ نحوَ نصف الساعة، فإذا هو أمام نهرٍ، في باحة واسعة الجوانب، يُسَمُّونَها: القانس (بالقاف المعقودة)، وهي موضع سوق عكاظ. . . وهذه الباحة هي مجتمعُ الطُرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعةٌ، تُشْرف على جبال اليمن. . . والواقفُ فيها يرى على مَقْربةٍ منه موضعين مرتفعين، أحدُهما يُسمَّى: الدِّمَّة (بكسْرٍ ففتح)[١]، والآخَرُ: البُهيْتَة (بصيغة التصغير)، وعكاظُ هو الفاصِلُ بين الدِّمَّة والوادي الموصِل إلى الطريق، التي يمرُّ بها سَالِكُو دَرْب السَّيْل (أي درب اليمانية)[٢]. . . ثم قال بعدئذٍ: وسمعتُ كثيراً من أهل الطائف يقولون: إن عكاظاً كان في مكانٍ، يُعرف اليوم باسم القَهاوي، في وادي لِيَّة من الطائف، غير أن الشيُوعَ يُؤَيِّدُ ما قلناه آنفاً، من أنه هو القانِسُ نفسُه، وعليه أكثرُ العارفين من أهل هذه الديار»[٣].

ويبدو أن الزِرْكليَّ أُتيَ في رأيه من اعتقاده بأن مَوْضعَ عكاظ على مرحلتين من مكة، فَفَتَّش عنه في منطقة السَّيْل الكبير، وذلك غلطٌ منه، لأن المتقدِّمين قالوا إنه على ثلاث مَراحِلَ من مكة[٤]، أي بعد السيل الكبير بنحو مرحلة، وليس عنده! ثم إن «القانس» الذي ظنَّه موضعَ عكاظ، لا يَمُتُّ بصلةٍ إلى ما جاء في أقوال المتقدمين عن المعالم المتَّصِلةِ بأرض عكاظ.

* * *

---

(١) الدِّمَّةُ: لعلها تصحيف لكلمة الزَّيْمة، وهي كما قلنا آنفاً أولُ درب اليمانية إلى البُهَيْتَة.

(٢) دربُ اليمانية: هو الطريق إلى السَّيْل الكبير، والمسافةُ بين مكة والزَّيْمة تقاربُ ما بين الزيمة والسَّيْل الكبير، أي قرن المنازل.

(٣) ما رأيتُ وما سمعت: ٧٩.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

٢ ـ رأي الدكتور محمد حسين هيكل:

ارتحل إلى مكة للحجّ، ثم زار الطائف، وفكَّر في القيام ببعض البحث، أثناء عَوْدِهِ منها، لعله يهتدي إلى شيءٍ تطمئِنُّ له النفسُ، في تحقيق موضع عكاظ، فزار الأمكنةَ التي زَعَمتِ الرواياتُ المختلفةُ أن عكاظاً كانت تُقام بها، وكتب سنة (١٩٣٧ م) في كتابه «في منزل الوحي»، مُسْتبعِداً أن يكون موضعُ عكاظ بوادي عقرب، شرقَ الطائف، لأنه قريبٌ جداًمن الطائف، وليس مُلْتقىً لطرق القوافل. واسْتَبعدَ أيضاً أن يكون على حدود وادي رُكبة عند اتصاله بوادي عُشَيْرة، لأن العُشَيْرة لا تقعُ بين مكة والطائف، بل على مسافة يومين من الطائف إلى الشمال[(١)]. واسْتَبعدَ بالتالي أن يكون جنوبَ الطائف بمَيْلٍ إلى الشرق قليلٍ، لأنه لا يكون عندئذٍ بين مكة والطائف[(٢)]. ولم يستبعد أن يكون بالسَّيْل الصغير، لأنه، كما رآه، صالحٌ لقيام عكاظ به، لكثرةِ مياهه، ولانْفِساح البادية عنده، وهو يقع على مسيرة يومٍ من الطائف، وثلاثةِ أيام من مكة بسَيْر الإبل[(٣)]. ولكنه رجَّح أن يكون بالسَّيْل الكبير، أو على مَقْرُبةٍ منه، في موضعٍ هنالك يُقال له: الخُرّ، من وادي غَسَلَة، وراء جبل دَمَا[(٤)]. . . وليس هذا بصحيح!

وعلى الرغم من أنه أقام تحقيقه، على أساس أن موضعَ عكاظ يجب أن يكون على ثلاثة أيام من مكة، ويومٍ من الطائف، أي أن يكون ما بين مكة وعكاظ ثلاثةَ أمثال ما بين عكاظ والطائف[(٥)]. لكنه وقع في الغَلَطِ لمَّا حَسِبَ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٢) المرجع نفسه: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٣) المرجع: ٣٨٠.

(٤) المرجع: ٣٨٠ ـ ٣٨٢.

(٥) المرجع: ٣٧٤.

السَّيْلَ الكبيرَ موضعاً لعكاظ، وهو على يومين فقط من مكة! وإني أعتقد أن العِلَّة في غَلطه تَوهُّمُهُ أن أيام الفِجَار الخمسة كانت كلُّها بعكاظ، وأن قُرَيْشاً فرَّتْ في اليوم الأول من عكاظ، فوصلت في سُوَيْعاتٍ إلى موضع نخلة، على حُدود الحَرَم المكّيّ، فاحْتَمتْ به من هوازن[1]. والواقع أن أول أيام الفجار لم يكن بعكاظ، بل في مَوضع نخلة، وأن المسافة بينه وبين عكاظ يومٌ وليلة، أي مرحلتانِ، أو نحوُ ثمانية وأربعين ميلاً.

* * *

وأخيراً، إن للدكتور هيكل مذهباً غريباً في موقع عكاظ قال فيه: «. . . وأوَّلُ ما وقفتُ عنده أن عكاظاً تختلفُ بموقعِها عن مجنَّة وذي المجاز، فهي تقع في الآفاق من مكة، في حين تقعُ مجنَّة وذو المجاز منها في حدود مواقيت الإحْرام. مِن ثَمَّ كان يُبَاحُ بعُكاظ، ما لم يكن يُباح بمجنَّة وذي المجاز، من ألوان اللهو والمجُون، ومن ضُروب التجارة والتبادل. هذا إلى أن ذا القعدة الذي كانت عكاظ تُعقَد فيه، لم يكن له من الحُرْمَةِ ما كان لذي الحجَّة شهرِ المناسك»[2]. . . وهو مذهب غير صحيح!

وكيف لا يكون لذي القَعْدة من الحُرْمَة ما كان لذي الحَجَّة، وهو من الشُهور المحرَّمة، ومن شهور الحجِّ، وإنما سُمِّيَت حربُ قريشٍ وهوازِنَ بعُكاظِ حربَ الفِجَار، لأنها وقعت في ذي القعدة، فعُدَّ فِعْلُهم فُجوراً؟ وأمَّا أن يُبَاح بعكاظ ما لم يكن يُباح في مجنّة وذي المجاز، فأمرٌ غيرُ دقيق، بل غيرُ صحيحٍ، لأن الأسواق الثلاثة في التجارة واللهوِ والاجتماع سواء، وإنما كانوا يكفُّون عن ذلك في الثامن من ذي الحجة، فكانوا لا يتبايعون في يوم

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

عَرَفة، ولا أيام مِنًى، حتى أحَلَّ لهم الإسلامُ ذلك[1]. وليس لمواقع الأسواق الثلاثة صلةٌ بما كان يجري فيها من تجارة وغيرها، ثم إن هذه المواقع ليست في حدود الحَرَم، ولا في مواقيت الإحْرام، وإن كانت مجنَّةٌ قريبةً من مكة، وذو المجازِ قريباً من عَرَفَة.

* * *

٣ ـ رأي سعيد الأفغاني:

قال: «عكاظ نَخلٌ في وادٍ، بين مكة والطائف، على مرحلتين من مكة، ومرحلة من الطائف، وموقعُها جنوبُ مكة إلى الشرق. هذا زبدةُ ما يُسْتَخلصُ من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ...»[2].

وقال: «والظاهِرُ أن ما يُطلق عليه عكاظٌ من الأرض، مُتَّسِعٌ فسيحٌ، فيه جِرَارٌ، وفيه أَرضُونَ مَسْقِيَّةٌ ذاتُ نخيل... ولا شك أن أرضاً اتسعت بعضُ أجزائها لمعاركَ عِدَّةٍ، أرضٌ فسيحةٌ واسعةٌ، وبذلك نفهم كيف كانت السوقُ تَتَنقَّلُ في عكاظ، فلا تُلازِمُ بقعةً واحدةً، لا تَحِيدُ عنها يميناً ولا شمالاً، على مدى السنين المتطاولة»[3].

ثم أشار في الحاشية إلى رأي الزِرْكليّ، من غير أن يُعلِّق عليه، وإلى رأي هيكل، فعَزا إليه ترجيحَهُ أن يكون موضعُ عكاظ جنوبَ الطائف، وجنوبَ شرقِ الطائف، وبالسَّيْل الصغير، وأخيراً بالسَّيْل الكبير! ومذهبُ الأفغاني هذا يعني أنه لم يقرأ كتابَ هيكل قراءةَ مُحقِّقٍ، فالرجلُ كما رأينا انتهى إلى ترجيح السيل الكبير فقط.

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٨، وانظر في حدود الحرم ومواقيت الإحرام: ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١، ٣٠٩ ـ ٣١٠ من المرجع نفسه.

(٢) أسواق العرب: ٢٨٦.

(٣) المرجع نفسه: ٢٨٨.

ثم قال: «وفي شهر رمضان (١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م)، أي بعد صدور الطبعة الأولى من أسواق العرب بأربع عشرة سنةً، نُشِر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٢٦/٣٧٧) محاولةٌ للسيد حمد الجاسر في تحديد السوق، فإذا به يجعلُها شرقيَّ الطائف، أي ليس على طريق القاصِدِ من مكة إلى الطائف في نحو ثُلُثَيْ الطريق، على ما في تعاريف القدماء... ومع ما بذل الجاسِرُ من جُهد، فإن النفس لا تطمئنُّ إلى مذهبه، مع اعترافه بأن أغلب الأعلام التي كانت حول عكاظ لم تعدْ معروفةً اليوم... ومع هذا فقد يُوفَّق باحثٌ في المستقبل إلى الصواب المُقْنِع»[١].

ويضيف الأفغاني بعد ذلك قوله: «ولمّا زرتُ الطائفَ بعد أيام الحج سنة (١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م)، حرصتُ أن أرجع بما يشفي النفسَ، وتَفرَّجْتُ على المسيل[٢]، الذي وصفوه، وسألتُ العارفين، وخرجتُ بصحبة وجيه الطائف السيد محمد صالح نصيف، وعرفتُ منه أن الذي استقرَّ عليه رأيُ الباحث السيد رشدي ملحس، وابنِ بليهد، وسُمّو الأمير فيصل، في عكاظ، أنها مُتَنقِّلةٌ على أرض تمتدُّ من جنوبي العُشَيْرة إلى المسيل الصغير والحاوية[٣]. وأظن جهداً يبذُله الأفاضلُ العارفون من أهل تلك الناحية مُوصلاً إلى الكشف عن موضع عكاظ بما يزيلُ كل رَيْبٍ إن شاء الله»[٤].

من الواضح أن رأي الأفغاني في تحقيق الجاسِر مُرْتَجَلٌ، غيرُ مُسْتَنِدٍ إلى شيءٍ من العلم! فالرجلُ كما رأينا لم يجعل عكاظاً شرقَ الطائف، بل بمَيْلٍ نحو الشمال، وعلى طريق صنعاءَ إلى مكة، كما أكَّد المؤرِّخون. أما

---

(١) أسواق العرب: ٢٨٧.
(٢) المسيلُ غَلَطٌ، وصوابُه السَّيْل، ولكننا لا ندري ما أراد، السيل الكبير أم الصغير!
(٣) أراد السَّيْلَ الصغير، والحَوِيَّة.
(٤) أسواق العرب: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

قولُه بأن عكاظاً يقع على طريق القاصد من مكة إلى الطائف في نحو ثُلُثَيْ الطريق، فهو غلطٌ نَشَأَ عنده من غَلَطٍ آخر لمَّا زعم أن السوق تقع على مرحلتين من مكة، ومرحلةٍ من الطائف، فالحقيقةُ أن السوق، على ما في تعاريفِ القدماءِ كافةً، تقعُ على ثلاثِ مراحِلَ من مكة، ومرحلةٍ من الطائف، أي في نحو ثلاثة أرباع الطريق، ولو صحَّ كلامُه لكان معناهُ أن المسافة بين مكة والطائف، بطريق عكاظ، تساوي اثنين وسبعين ميلاً، وهو غير صحيح! ولو صحَّ كلامُه أيضاً لكان السيلُ الكبير موضعَ السوق، وهو ما ثبتَ بُطْلانُه، وقد أنكره بنفسه على هيكل. وأمّا قولُه بأن السوق كانت مُتنقِّلةً، لا تُلازِمُ بقعةً واحدةً، لا تحيدُ عنها يميناً ولا شمالاً، وأنها تمتدُّ من جنوب العُشَيْرة إلى السَّيْل الصغير والحَوِيَّة، زاعماً أن هذا ما استقرَّ عليه رأيُ الأمير فيصل وابنِ بُليهد ورشدي ملحس، فأمرٌ بعيدٌ جداً من الحقّ، وقد مرَّ بنا قبل قليلٍ ما كان عليه هؤلاء من رأي فَصَّلناهُ، ولا مُبرِّرَ لتكراره.

* * *

وقد ذكر الدكتور عزام أنه نظر في كتاب الأفغاني، فوجد فيه وفاءً بأخبار عكاظ، ولكنه اتَّبعَ أقوالاً في تعيين مكان عكاظ ليست صواباً[(١)]. وعلَّق في موضعٍ آخَر بأن آراء الزِرْكليّ وهيكل لا يؤيِّدُها التحقيق، وأن الرأيَ الحقَّ ما رآهُ هو والشيخُ الجاسِرُ وابنُ بُلَيْهد[(٢)]. ويقتضيني الإنصافُ أن أُضيف إليهم رشدي ملحس. وبذلك نكون قد استوفينا الكلام على موضع عكاظ.

* * *

---

(١) موقع عكاظ: ٥.

(٢) المرجع نفسه: ٧٢.

④ ـ طبيعة المكان:

تبيَّن لنا مما تقدَّم، أن أرضَ عكاظ سهلٌ واسِعٌ مُطْمئنٌّ، يمتدُّ بين وادِيَيْ شَرِبٍ والأُخَيْضِر، ويتصل في الشمال والشرق بسهل رُكْبَة، وفي الجنوب والغرب بسُفُوح الطائف... ولا شك في أن موقعاً كهذا، كان يُوفِّر له عواملَ طبيعيَّةً طيِّبةً، كالمياه وَفْرةً وعُذوبةً، والهواءِ لِيناً ورَخَاوةً، فضلاً على ما كان يَغْمُرُه من أشجار النخيل، حتى غلبتْ عند المؤرِّخين تسمِيَتُه بأنه ماءٌ في صحراء، أو نخلٌ في وادٍ[1]، دليلاً على ما كان به من المياه والنخيل.

ويدلُّ على سعَتِها اسْتيعابُها للألوف من الناس تأتيها بأنعامها، وتجاراتها، وتضربُ فيها خِيَامها، وتبني قُبَابَها[2]... وإن أرضاً، استوعبتْ بعضُ أجزائها، مَعارِكَ كبرى، لا بُدَّ أن تكون واسعةً فسيحةً، ولا سيما إذا ذكرنا أن تلك المعارك كانوا يحشدون لها حُشوداً، يُغْشِي الناظرين بريقُ أسلحتها! وهذا ما عبَّرتْ عنه خيرَ تعبيرٍ، عاتكةُ بنتُ عبد المطلب تَذُمُّ حربَ الفِجَار بعُكاظ، فقالت:

سائلْ بنا في قومنا ... ولْيَكْفِ من شرٍّ سَماعُهْ
قَيْساً، وما جمعوا لنا ... في مَجْمَعٍ باقٍ شَناعُهْ
بعُكاظَ يُغْشِي الناظريـ ... ـنَ إذا هُمُ لَمَحُوا، شُعاعُهْ[3]

(١) تاج العروس: ٥/ ٢٥٤ (طبعة مصر)، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢، ومعجم ما استعجم: ٦٦٠، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٢) القُبابُ: مفردُها القُبَّةُ وهي البناء أو البيت من الأَدَم. (تاج العروس: ٣/ ٥١١ ـ قبب).

(٣) شرح شذور الذهب: ٤٢٤/ الشاهد رقم: ٢٢٧ (وشُعاعُه فاعِلُ يُغْشِي).

ومَجْمَعٌ يُغْشي شُعاعُه الناظرينَ لا شك في أنه كبير، وأن الأرضَ التي اتَّسَعتْ له كبيرةٌ رَحْبَة.

ولئن كانت قبائلُ العرب لا تجتمعُ إلا على مياهٍ، فإن آثار ما كان متوافراً بأرض عكاظ، من مياه الينابيع والوديان، ما تزال ماثلةً حدَّثنا عنها المحقِّقُون[1].

وأمّا مُنَاخُها، ففيه بعضٌ من مناخ الطائف، على بعضٍ من مناخ سهل ركبة. والطائفُ مشهورةٌ بِثِمارها، وبَرْدِ هوائها، وعُذوبةِ مياهها، وقُرْبُها من سهل عكاظٍ، كان يُوفِّر للناس في المواسم، ما تُنْبتُه أرضُها من التّين والزيتون والأعناب والرمَّان والموز والسفرجل وغير ذلك من الفواكه والثمار[2]. ويُعَدُّ سهلُ عكاظ نَجْداً لِسَرَوَات جبال الطائف. هذا، ويَدُلُّ قولُ أمير المؤمنين عُمرِ بن الخطاب: «لَبَيْتٌ بِرُكْبَةَ أَحَبُّ إليَّ من عشرة أبياتٍ بالشام»، على أنها كانت مَوْضِعاً طيِّبَ الهواء، قليلَ الوَباء، جيداً لِطُول البقاء[3]. ويَدُلُّ أيضاً أن موضعَ رُكْبَة كان من مُتَربَّعاتِ العرب في نجد، قولُ الشاعرِ عنترة:

شَـطَّ المـزَارُ إذا تَـربَّـع أَهْلُنـا حَضَناً، وأَهْلُكِ ساكنٌ بالغَيْلَمِ[4]

وقد مَرَّ بنا أن جبل حَضَنٍ، في سهلُ رُكْبة، إلى الشرق من عكاظ، وهو أوَّلُ بلاد نجد للقادم من اليمن، وهذا دليلٌ على طبيعة الأرض التي كان يُقام عليها موسمُ عكاظ... ومثلُ هذه الأرضِ يكون عادةً مَوْضعاً لِمُتَنَزَّهاتِ

---

(١) موقع عكاظ: ١٩، ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) المفصل: ٤/ ١٤٢، ومهد العرب: ٦٣ ـ ٦٤، وتاريخ العرب: ١٥٠ ـ ١٥١.
(٣) تاج العروس: ٢/ ٥٣١ (ركب).
(٤) شرح القصائد السبع: ٣٠٢، والغَيْلَمُ: مَوْضِعٌ، أعتقد أنه في ديار عَبْس لأن الشاعر عَبْسيٌّ، ومنزله قريبٌ من منزل أهل حبيبته.

ومَلاذٌ ومَلاهٍ، كان يحفلُ بها سوقُ عكاظ، ومن ذلك قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «لأَنْ أُخطِىءَ سبعين خطيئةً برُكْبَة، أحبُّ إليَّ من أن أُخطىء واحدةً بمكة»[1]، والمعروفُ عنه أنه كان في جاهليَّته يرتادُ سوقَ عكاظ في مواسمها، ولعلَّ الملاهي كانت، من بلادِ رُكْبَة، حيث كان بعضُ أرضِ عكاظ. . .

يبقى الإشارةُ إلى ما كان بأرض عكاظ من الأنْصَابِ، وهي تماثيلُ رجَالٍ كانوا صالحين، جُعلت في الجاهلية أعلاماً، ونُصِبتْ في السوق، فكانوا يتقرَّبُون بها إلى الله، ويذبحون عندها القَرابين. وكانت هنالك أيضاً حِجَارةٌ، قيل إنها من المرمر[2]، كانوا يُقدِّسونها، ويطوفون حولها ويحجُّون إليها[3]. وتبيَّن، بالتحقيق في موضع عكاظ، إلى الشمال والشرق من الحُرَيْرة، وجودُ آثارِ بناءٍ مُنيفٍ، قائمٍ على رَبْوَةٍ، فيه بَهْوٌ، وحُجُراتٌ، وعُقودٌ مُحْكَمةٌ، قال ابنُ بُليهد إنه جاهليٌّ، أي من أطلال عكاظ[4]. وتقع غيرَ بعيدٍ من الحُرَيرة آثارُ بناءٍ آخَر، وجُدُرٍ من الحجارة مُسَوَّاةٍ بالأرض[5]، ولعلَّها أيضاً من أطلال عكاظ، كانت مركزاً لسادة السوق، أو قُضَاتِهِ وأَئمَّتِهِ.



(١) أخبار مكة: ٢/ ١٣٧.
(٢) موقع عكاظ: ٢١.
(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.
(٤) موقع عكاظ: ٢٠.
(٥) المرجع نفسه: ٢٩.

المطلب الثالث ـ أصحاب الأرض والسوق:

يُستَخْلص من أقوال القدماء، أن أرضَ عكاظ، وما اتصل بها، أو جاورها من النواحي والأرضين، إنما هي بعضُ البلاد التي كانت تعيش فوقَها قبائلُ قيس بن عَيْلان، ولا سيما منها بطون هوازن[١]، وأرضُ هوازن في نَجْدٍ مما يلي اليمن، وأرضُ غَطَفان في نجدٍ مما يلي الشام[٢]، فكلُّ البلاد من تَبالة إلى نَخْلةٍ هي ديارُ هوازن، فيها من كل بُطونها[٣]، وسوقُ عكاظ تقعُ في وَسَطِها، وأصحابُها بنو بكر بن هوازن، ويبدو أن أرضها كانت لأبناء معاوية بن بكر، وكان لبني ثَقيفِ بن مُنبه بن بكر أموالٌ ونخيلٌ فيها[٤]. وقد آلَتْ أواخِرَ عصرِ الجاهلية، وأولَ الإسلام، إلى بني نَصْر بن معاوية بن بكر، ثم صارت في القرن الهجري الثالث وأول الرابع من منازل بني هلال بن عامر بن صعصعة. والمعروف أن منازل بني نَصْرٍ كانت وقتئذٍ الأَوْدِيةَ المنحدرةَ من جبال الطائف إلى الشرق والشمال من نَجْد، والمواضِعَ القريبةَ منها، وقد تبلغُ حدودَ النخلتين، عند البَوْباةِ المعروفة اليومَ بالبُهَيتة، قريةِ بني سعد بن بكر، وكثيرٌ منها ما يزال معروفاً باسمه القديم، مثل: رُكبة، وبَسْل، ولِيَّة، وجلدان، وبُسّ، وقُرَّان، والعقيق[٥].

والظاهرُ أن بني هلال حَلُّوا فيها أيام قُوَّتهم وانتشارهم، ولمّا هاجروا إلى مصر، ثم إلى المغرب، عاد إليها سكانُها القدماءُ من أبناء عمومتهم، ولا يزالوان بها، ومنهم: الجُشَمَةُ، وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر، ويُعْرفُون

---

(١) أسواق العرب: ٢٨٨، وموقع عكاظ: ٤٦، ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) معجم البلدان: ٣/ ٣٠٢.

(٣) موقع عكاظ: ٢٤ (عن الهمداني في صفة جزيرة العرب).

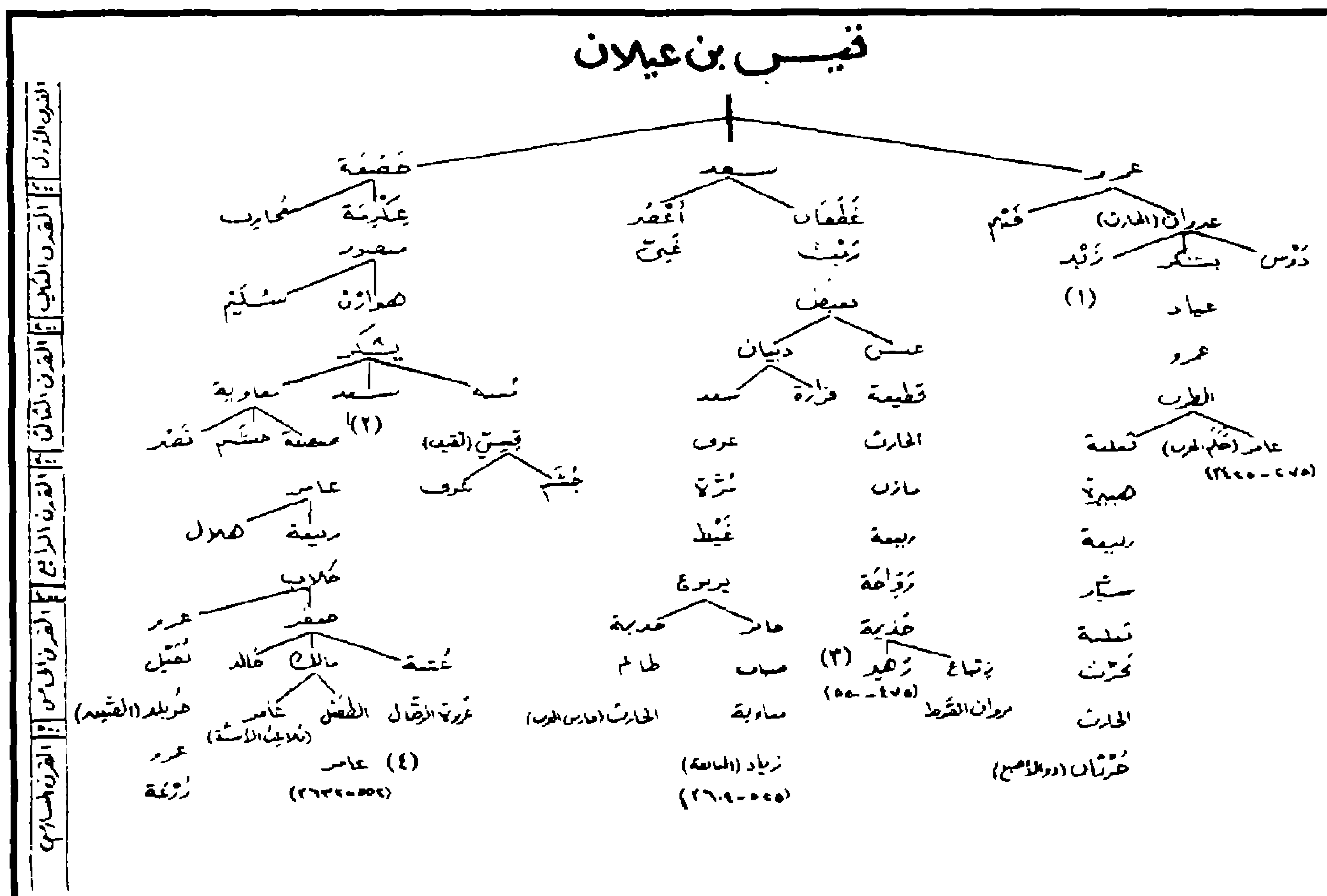
(٤) أخبار مكة: ١/ ١٩٠، وموقع عكاظ: ٢٥، ٤٨، ٥١ (عن الهمداني والبكري).

(٥) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٥٥.

بالجُثَمَة، وعَدْوانُ القبيلةُ القديمةُ المشهورةُ، وهم بنو عَدْوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، ومنهم حكيمُ العرب وقاضيهم عامِرُ بن الظرب، والشاعرُ ذو الأُصْبع، حُرْثانُ بن الحارث، ومساكنُهم قريةُ العقربِ بوادي الأُخيضر، وقريةُ العُبَيْلاءِ، وقريةُ الخُضَيْراء على وادي شَرِب قربَ مطار الحَوِيَّة. ومنهم أيضاً: ثقيف، وكانت مساكنُهم شمالَ أَوْديةِ لِيَّة والعَرْج وشَرِب، ثم ارتفعوا إلى أعْلى تلك الأَوْدِية بالطائف، ولا يزالون هنالك(١).

* * *

أصحاب سوق عكاظ
من بني هوازن (*)



---

(١) موقع عكاظ: ٦٧ ـ ٦٨.

(*) المراجع - جمهرة أنساب العرب: ٢٤٣، ٢٥١، ٢٧٢، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٠٨. الأغاني: ٣/ ٨٥، ٢١/ ١٤٤، السيرة: ١٢٢. المحبَّر: ١٣٥، ١٨١. الكامل: ٢/ ٤٣. العقد الفريد: ٣/ ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٤ - ٣٥٥. الأعلام: ٢/ ١٧٣.

(١) زيد بن عدوان: كانت فيهم الإفاضة بالحاجّ من المزدلفة إلى مِنى. وآخِرُ من تَولاَّها منهم عُمَيْلة بن الأعْزل (أبو سيارة) ٥٢٥ - ٦٢٠ م.

(٢) بنو سعد: أظآرُ النبيّ عليه السلام، استرضع فيهم واكتسب فصاحتهم.

(٣) زهير بن جذيمة العبسيّ: سيدُ قبائل قيس بن عيلان في عصره، ورئيسُ غَطفان ويقدَّر وجودُه نحو (٤٧٥ - ٥٥٠ م).

(٤) عامر بن الطُّفَيْل: قيل إن عامراً ولدتْه أمه بعدما فَرغ الناسُ من القتال يومَ جَبَلة، وكانت حاملاً به وقتئذٍ. (الأغاني: ١١/ ١٣١)، وكان يوم جَبَلة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة، وقبل مولد النبيّ بسبع عشرة سنة. (معجم البلدان: ٢/ ١٠٤)، وكان عامر في الثمانين من عمره لمّا قَدِم على النبيّ في السنة التي قُبِضَ فيها، ثم هلك في عودته من المدينة. (الأغاني: ١١/ ١٤٩ - ١٥٠)، ومن شأن هذا كله أن يجعل مولدَ عامر بن الطفيل نحو (٥٥٢ م)، ووفاتَه سنة (٦٣٢ م). فإذا أجْرَيْنا على عمود نَسَبه قاعدةَ الأجيال الثلاثة في مئة سنة، تبيَّن أن قيس بن عيلان كان من أبناء القرن الميلادي الأول، وأن عامرَ بنَ الظرِب العَدْوانيَّ، الذي جاء ذكره في أحداث عكاظ، وهو من المُعَمَّرين، كان وجودُه نحو (٢٧٥ - ٤٢٥ م)، وهذا يرتفع بزمن عكاظ إلى القرن الرابع للميلاد، ويجعلُ تقديرَنا لزمن زهير بن جذيمة العبسي نحو (٤٧٥ - ٥٥٠ م) أقرب إلى الصواب، ويؤكِّدُه أن المُسَاوِرَ بن هند بن قيس بن زهير، وكان شاعراً مُعَمَّراً، من أشراف بني عبس، وُلد في حرب داحِس والغبراء قبل الإسلام بنحو خمسين سنة. (الأعلام: ٧/ ٢١٤)، أي أن مولده كان سنة (٥٦٠ م)، وقد توفي سنة (٦٩٥ م)، وكان زهيرٌ والدَ جَدِّه قيسِ بن زهير. ومِثْلُه قُرَّةُ بنُ حُصَيْن بن فضالة بن الحارث بن زهير، كانت له صُحْبة، وبعثه النبيُّ إلى بني هلال بن عامر داعياً إلى الإسلام، فقتلوه نحو (٦٣٠ م)، وتُقدَّر ولادتُه نحو (٥٩٠ م)، وبينه وبين زهير ثلاثةُ آباء، فيكون وجودُ زهير نحو (٤٧٥ م) صحيحاً ومُؤكَّداً، ووجودُ عكاظ في القرنين الرابع والخامس للميلاد ثابتاً.

* * *

المطلب الرابع ـ قيام موسم عكاظ:

ذكرتُ في حديثي عن مواسم العرب: مَواضِعِها ومَوَاقيتها، أن سوق عكاظٍ كانت تقومُ باتفاق الجميع في شهر ذي القعدة، وهو من الأشهُر الحُرُم، على خلافٍ في يوم افتتاحها، فأخذنا فيه بقولِ الأزرقيّ، إذ هو أقربُ إلى المنطق، وأوْثَقُ روايةً، وبه أخذ معظمُ الباحثين، فيكون موعدُ قيامها يومَ هلال ذي القَعْدةِ، حتى العشرين منه.

غير أن ياقوت الحموي نقل روايةً غريبةً عن الواقدي في أيام قيامها، فقال: «وكانت العربُ تُقيم بسوق عكاظ شهرَ شَوَّال، ثم تنتقلُ إلى سوق مجنَّة، فتُقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقلُ إلى سوق ذي المجاز، فتُقيم فيه إلى أيام الحجّ[1]...»!، ولعله حَسِب توارُدَ الناس إلى موضع السوق، قبل قيامها، قِياماً! إذ لم يكن لهم بُدٌّ يومئذٍ من أن يصلوا إليها في شهر شوَّال، لِيَنْصُبوا منازلَهم، ويُنَظِّموا مَجالِسَهم، ويُخْرِجُوا بَضائعَهم لِتُعرضَ في السوق حين انعقاده، ويترقَّبوا هلالَ ذي القعدة، موعدَ قيام السوق... ومن السُّخْفِ التصوُّرُ أنهم كانوا وقتئذٍ يصلون إلى السوق يومَ افتتاحها بالضبط!

وفي الوقت نفسه جعل الأصفهانيُّ قيامَ سوق عكاظ مُدَّةً أطول، فقال: «وكانت سوقُ عكاظ في أول ذي القعدة، فلا تزال قائمةً، يُباع فيها ويُشترى، إلى حُضُور الحج[2]»... ومثلُه فعل ابن عبد ربه فقال: «وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة، والتهيُّىءِ للحجّ، من أول ذي القعدة إلى وقت

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٤.

الحجّ»[١].

ولا أرى في هذا المذهب غرابةً، فربما تخلَّفَ الكثيرون في السوق، من التجَّار وأصحابِ المصالح، اسْتكمالاً لبعض شؤونهم! إذ لا يمكن أن يستكمل كلُّ الناسِ جميعَ حاجاتهم من سوق كبرى، كسوق عكاظ، في الأيام المحدودة لقيامها، ولا سيما إذا لم يكن لهم أَرَبٌ في سوقَيْ مجنَّة وذي المجاز بعدَها، فليس عليهم أن يَشْهَدوهما، فيَظلُّون بعكاظ حتى اقترابِ موسم الحجّ في غُرَّة ذي الحجَّة. ولكن هذا لا يعني أن الموسم يظلُّ مُنعقداً كلَّ هذه المدَّة، فأئمَّةُ الموسم يُعْلنون انفضاضَه بانقضاء عشرين يوماً من شهر ذي القَعْدة كما هو مرسومٌ له.

ولمّا كانت العربُ إذ ذاك تعتمدُ منازلَ القمرِ في معرفةِ السنين والحِسَاب، والأَهِلَّةَ في افتتاح الشهور وانقضائها، فإني أُرجِّح أن يكون موعدُ انعقاد موسم عكاظ نحو الثالث والعشرين من شهر تموز، على ما خَلُصنا إليه في حديثنا عن المواسم والأزمنة عند العرب في الجاهلية. وأرى افتتاحَ الموسم كان مَنُوطاً برؤية الهلال، الذي يطلعُ مباشرةً قُبَيْل أو بعد طلوع كوكب الشِعْرى العَبُور[٢]، وهي تطلعُ في التاسع عَشَرَ من تموز، عندما يبلغُ الحرُّ مُنْتَهاهُ، وتأخُذُ شِدَّتُه بالتراجُع، ويَعْقُبه أوّلُ موسم التربُّعِ، أو التبدِّي، وأرضُ عكاظٍ، كما لاحظنا، في موقعٍ طيِّبٍ للتربُّع أو التبدِّي. وربما كانوا يلتمسون هلالَ ذي القعدة قُبَيل أو بعد طلوع منزل النَّثْرة[٣]، في السابع عشر من

(١) العقد الفريد: ٥/٢٥٣.

(٢) الشِعْرى العَبُور: كوكبٌ نَيِّرٌ، يطلع بعد الجوزاء، في شِدَّة الحرِّ، عَبَدتْه طائفةٌ من العرب في الجاهلية، إذ رأتْه عَبَرَ السماءَ عَرْضاً، ولم يَعْبُرْها كذلك غيرُه، فأنزل الله: ﴿وأنه هو ربُّ الشعرى﴾، أي ربُّ الشعرى التي تعبدونها.

(٣) النَّثْرة: كوكب في السماء، من منازل القمر، تُسميه العربُ نثرةَ الأسد.

تموز، وكانت العربُ تقول وقتئذٍ: إذا طَلعتِ النَّثْرةُ قَنَأتِ البُسْرَةُ، أي داخَلَ حُمْرتَها سَوادٌ[1]، دليلاً على ابتداءِ نُضْجِها، فالبُسْرُ هو التمرُ إذا لَوَّنَ ولم ينضج، وبرهاناً على أن الزمنَ زمنُ خُروجٍ إلى البوادي والأَرْيافِ والأسواق.

* * *

المطلب الخامس ـ نُزَلاءُ عكاظ ومَنازِلُهم فيه:

يُؤخَذُ من الأخبار الكثيرةِ، المأثُورةِ عن وقائع سوق عكاظ، أنها كانت سوقاً قوميَّةً للعرب جميعاً، يَنزلُها معظمُ قبائلهم، متى كان لهم فيها مَآرِبُ تجارِيَّةٌ، أو اجتماعيَّةٌ، أو أدبيَّة. فكان موسمُها خيرَ فُرصةٍ لاجتماعهم، ومُتاجرتهم، وقضاءِ حاجاتهم المختلفة، استعداداً لقيامهم بشَعَائر الحجِّ، التي كان موسمُها يَلي مواسمَ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بل ويختلطُ أمرُهُ بأمرها.

على أننا يجب أن نتوقَّف قليلاً عند قول الأزرقي: «... وإنما كان يحضرُ هذه المواسمَ، بعكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز، التجارُ، مَن كان يريدُ التجارةَ. ومَن لم يكن له تجارةٌ ولا بيعٌ، فإنه يخرج من أهله متى أراد. ومَن كان من أهل مكةَ، ممن لا يريد التجارة، خرج من مكة يومَ التَّرْوِيَة»[2]... وهذا لا يعني أن تلك المواسمَ كانت حِكْراً على التجارة والتجَّارِ، ممنوعةً ممَّن أراد فيها شيئاً آخَرَ، غيرَ البيع والشراء، إنما يعني أن مَن كان تاجراً، وأراد التجارة، فعليه الذهابُ أولاً إلى أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، التي تسبق مواسمُها موسمَ الحج إلى الكعبة، لأن الجمع بين التجارة والحج

---

(١) لسان العرب: ٥/ ١٩٢ (نثر).

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

حرامٌ. هذا من جانبٍ، ومن جانب آخَر، فالنصُّ يعني أيضاً أن على التجار، ممَّن أراد التجارةَ، أن يحضروا افتتاحَ السوق، يومَ قيام موسمها، حتى تَصِحَّ صفقاتُ البيع والشراء بينهم، بعدما يَأْذَنُ إمامُ السوق بابتدائها. أما أولئك الذين لا يريدون المتاجرةَ، فبِوُسْعِهِم إن كانت لهم في السوق حاجاتٌ، أن يحضروها متى شاؤوا، أو أن يقصدوا الحجَّ رأساً من منازلهم، فشُهُودُ مَواسم الأسواق ليس واجباً لِشُهود موسم الحجِّ.

وفي هذا كتبَ هيكلُ يقول: «. . . إن العرب كانوا إذا أزْمَعُوا الحجَّ إلى مكة، من أَصْقاعِ شبه الجزيرة، جعلوا عكاظاً مَوْعدَهم في هلال ذي القعدة، فأقاموا بها عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى مجنَّة، فأقاموا بها عشراً، فإذا رأوا هلال ذي الحَجَّة، انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا أسواقهم به ثماني ليالٍ، ثم تَرَوَّوْا من مائِهِ في اليوم الثامن، وخرجوا إلى عَرَفة. وبَدَهيٌّ أن الذين كانوا يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة، فأمَّا من لم يكن له تجارةٌ ولا بَيْعٌ، فإنه يخرجُ من أهله متى أراد. وكان من لا يريدُ التجارة من أهل مكة، يخرجُ مِن مكة يومَ التَرْوِيَة. وظلَّ الحالُ على ذلك، حتى جاء الإسلامُ، وخَلَعَ على الحجِّ من الجَلالِ ما تَضاءَلَ إزاءهُ جَلالُ هذا الفَرْضِ في الجاهلية. . .»، فأباح التجارةَ قبلَ الحجِّ، وأثناءَهُ، وبعْدهُ[1].

ويجب ألاَّ نفهمَ من كلام هيكل، أن شهودَ مواسم عكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز كان فَرْضاً واجباً على التجار، وإنما هو رخصةٌ تُبيحُ لهم التجارةَ قبل موسم الحجّ، لأن الجمع بين التجارة ومناسك الحجِّ كان حراماً. ولقد

(١) في منزل الوحي: ٣٦٥.

كان أهلُ مكة أشدَّ حِرصاً، على شُهود الأسواق، منهم على الخروج إلى عَرَفَة، فالكعبةُ في بلدهم، والطوافُ مَيْسورٌ لهم متى شاؤوا. . . ولذلك قلَّ من أهل مكة مَن لم يكن يخرج إلى عكاظ. فقد كانوا قوماً تُجَّاراً، وكانت التجارةُ عِمَادَ حياتهم، وكانت أسواقُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز فُرصَتَهمُ الكبرى لتحقيق المنافع والأرباح. بل إن أشرافَ العرب كانوا «يَتَوافون بتلك الأسواق، مع التجار، من أجل أن الملوك كانت تَرْضخُ للأشراف، بسهمٍ من الأرباح، لكلّ شريفٍ منهم، فكان شريفُ كلّ قومٍ يحضرُ سوقَ بَلَدِهِ، إلا عكاظاً، فإنهم كانوا يتوافُون بها من كل أَوْبٍ»[1].

أما إذا كان الغرضُ من قول الأزرقي، أن تلك المواسمَ، لم يكن يحضرها من العرب إلا التجَّارُ من الناس، فربما كان له نصيبٌ من الصحَّة لمّا أُنْشِئت أسواقُ عكاظٍ ومجنَّة وذي المجاز، دفعاً للجمع بين التجارة والحجِّ معاً، أما بعد ذلك، فإنها صارت مواسمَ قوميَّةً عامَّةً، يَحضرُها مختلفُ قبائل العرب[2]، بما كان لهم من شؤونٍ وشُجُونٍ، بدليل الأخبار الكثيرة المأثورةِ عن وقائع عكاظ، وما تُشير إليه من أَنْشِطَةٍ اجتماعيّة وأدبيّة ودينيّة، غيرِ التجارة! ذلك أنه «كانت فيها أشياءُ ليست في أسواق العرب. . .»[3]، فكان يأتيها التجَّارُ وغيرُ التجارِ مِن كلِّ ذي أَرَبٍ، لعله يجدُ فيها أَرَبهُ.

ولئن كنا لا نستطيع أن نعرفَ، على وجه الحصر، أعدادَ من كان ينزلُ عكاظاً من قبائل العرب، أو أسماءَ التجارِ وسائرِ النزلاء، لكننا نعلم من بعض الأخبار، أن أعدادهم كانت بالألوف، وأن السوق في بعض السنين

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥.

كانت تَزْدحمُ بالناس، وتَضيقُ، على سَعَتِها ورَحْبِها، بمن كان ينزلُها من قوافل التجار، ووُفودِ القبائلِ والمُلوك والأُمَمِ المجاورة، فكان التجارُ في موسمٍ كهذا يُحقِّقُون أرباحاً كثيرةً، لا يَتَأتَّىٰ لهم مِثلُها إلا في القليل النادر من المناسبات والبلاد. ولمَّا «دخلتْ سنةُ خمسٍ وثلاثين من عام الفيل[1]، وذلك قبل المَبْعَثِ بخمسِ سنين، حضر السوق من قبائل نزار[2] واليمن ما لم يَرَوْا أنه حضر مثلُه في سائر السنين، فباع الناسُ ما كان معهم من إبلٍ وبَقَرٍ ونَقَدٍ[3]، وابتاعُوا أمتعةَ مصر والشام والعراق. . .»[4]. ويبدو أنه لم يكن في الجاهلية مَجمَعٌ للعربِ أحْفَلُ من عكاظ، فكانوا يضربون بكثرة أهْلِها وزُوَّارِها المثَلَ، ومن ذلكم قولُهم: «. . . ضربتُه ضَرْبةً لو كانت بأهلِ عكاظِ قَتَلَتْهم»[5].

ويُفهم من بعض موارد الأخبار أنه كان ينزلُ سوق عكاظ في مواسِمهِ من قبائل العرب: قريشٌ، وهوازِنُ، وغَطَفانُ، وخُزَاعةُ، وأسْلمُ بنُ أَفْصَى، والأحابيشُ وهم أحياءٌ من كنانة وخُزَيمة وخُزاعة، وطوائفُ من أفناء العرب[6]، إلى جماعاتٍ من سائر العرب، تَقصدُها من اليمن وعُمَان وحضرموت والشِحْر والبحرين وبادية الشام والعراق، عرفنا منها: غسَّان، وكندة، وكلب بن وبرة، والحارث بن كعب، والحَضَارِمة، وعُذْرة. . . فضلاً عن: بني عامر بن صعصعة، ومُحارب بن خَصَفَة، وفزارة، ومُرَّة، وحنيفة،

---

(١) نحو سنة (٦٠٥ م).

(٢) نزار بن مَعَدّ: جدُّ قبائل عرب الشمال من مُضَر وربيعة وإياد.

(٣) النَقَدُ: الغَنَمُ.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

(٥) الأمالي: ٢/٢٥٦.

(٦) المحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٥.

وسُلَيم، وعَبْس، وبني نصر بن معاوية، وبني البَكَّاء بن عامر[1]. . . والأَوس، وهمدان[2]. . . ومَذْحج[3]. . . ولا شك في أن بني تميم كانوا يَشْهَدونها، إذ كانوا أئمَّةَ السوق وقُضَاتَه، أَضِفْ إلى ذلك بني إيَاد، وكان قسُّ بنُ ساعدة خطيبَهم بعكاظ، والخَزْرَجَ، وكان حسَّانُ بن ثابت شاعِرَهم فيها. . . وآخَرِينَ كُثْراً، تَسْتَبِينُ أسماؤهم واضحةً في وقائع عكاظ. . . «فترى من هذا أن بلادَ العرب، من أقصاها إلى أقصاها، كانت تشترك في هذه السوق»[4].



أمّا المنازلُ في عكاظ، فيُمكِنُنا أن نَتَخيَّلَها وقد انْتَشَرتْ على أرضٍ واسعةِ الأَرجاء، مُتَرامِيَةِ الأطراف، أَنْبَتتْ حَشَائِشَ خُضْراً، فأَزْهَرتْ زَهراً مُختلفاً ألوانُه، وارتفعتْ فيها أشجارُ النخيل باسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضيدٌ، وأشجارُ الأَراكِ والسَّلَمِ مُلتَفَّةٌ أغصانُها لها ظِلٌّ مَدِيدٌ، وانْبَسَطتْ حوَالَيْها مَراعٍ مُعْشَوشِبَةٌ، سَرَحَتْ فيها الأنعامُ تَرْعَىٰ كَلأَها وأَعْشَابَها، وانْبثَقَتْ من ينابيعها مِياهٌ عَذْبَةٌ، لَذَّةٌ للشاربين. . .

هذا في الخيال، أمّا في الحقيقة فكان لكل قومٍ في السوق منازلُ خاصَّةٌ بهم، بُنِيَتْ فيها مَضَارِبُهم، ورُفِعَتْ عليها راياتُهم تُميِّزُ بعضَهم من بعض في قبائل العرب، وتَحفظُ حقوق الجِوَار فيما بينهم، وتهدي الباحثين عن القبيلة إلى مَوْضِعها، كأنه وطنٌ صغيرٌ لها في أرض عكاظ. فإذا أرادوا بَيْعاً أو

(١) الطبقات: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠.
(٢) معجم البلدان: ١/ ١٠٦ (أُجَيرة) و ٤/ ١٣٤ (عقبة).
(٣) الأغاني: ١٢/ ٤، ٨، ١٥.
(٤) عكاظ والمربد: ٢٥.

شِراءً، دَخَل بعضُهم في بعضٍ، وإذا أرادوا الاجتماع في الأَنْدِية هَبَطوا بطنَ السوق، فالْتَقَى القاصي بالداني، واختلط القريبُ بالغريب، وجرى التمازُجُ بين القبائل في أَبْهى صُوَرِهِ. . . وهذا ما سجَّلهُ الأزرقيُّ بقوله: فإذا كان الحجُّ، خرج الناسُ إلى مواسمهم، فيُصْبِحون بعكاظ يوم هلالِ ذي القعدة، فيُقيمون به عشرين ليلةً، تقومُ فيها أسواقُهم، «والناسُ على مَدَاعِيهم وراياتِهم، مُنْحازين في المنازل، تَضْبِطُ كلَّ قبيلةٍ أشرافُها وقادَتُها، ويَدخلُ بعضُهم في بعضٍ للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق. . .»[١]، ويُفهم من هذا النصِّ أيضاً أن ضَبْطَ شؤون القبيلة إنما كان بأيدي أشرافها ورؤسائها. . . وقد لخَّص الأمرَكلَّه قولُ أبي ذُؤَيْب الهُذَليّ[٢]:

إذا بُنِــي القِبَــابُ علــى عكــاظٍ وقــام البيــعُ، واجتمــع الأُلــوفُ[٣]

أي إذا بُنِيَتِ البيوتُ بعكاظ، ورُفعتْ قِبَابُها، وابتدأ البيعُ والشراء، وجَعَلتِ الأُلُوفُ من الناس تجتمعُ في بطن السوق. . . والقِبَابُ بُيوتٌ خاصَّةٌ من الأَدَمِ النفيس، المصبوغِ باللون الأحمر، لها سُقُوفٌ مُسْتديرةٌ مُقَعَّرة. ولم تكن تُبنَى إلا للسَّادَةِ، والأشرافِ، والقُضَاةِ، والأثْرياءِ. وكانت ممّا يَفخرُ به هؤلاء على الناس جميعاً. وإذا كانت القُبَّةُ لقَاضٍ بعكاظ، رُفعت عليها رايَةٌ خاصَّةٌ به. . . وكانت تُضْربُ للملوك، الذين يحضرون الموسمَ بعُكاظ، مَضَارِبُ فَخْمَةٌ، تليقُ بمنزلتهم، وتُرفعُ عليها راياتُهم، ويُفْرَدُ فيها فِسْطاطٌ

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) **أبو ذُؤَيْب الهُذَليُّ**: خُوَيْلدُ بنُ خالد بن مُحرِّث، من بني هذيل بن مدركة، شاعر فحل مُخَضْرَم، أدرك الجاهلية والإسلام، واشترك في الغزو والفتوح، ويُعَدُّ أشعرَ شعراء هُذَيل. أشهَرُ قصائده عَيْنِيَّتُه التي رثى بها أبناءَه الخمسة.

(٣) لسان العرب: ٧/٤٤٨ (عكظ).

كبيرٌ للضيوف، يجلسون فيه، ويأكلون، ويَسْمُرون[1]. وكان كلُّ رئيسِ قبيلةٍ عند العرب ملكاً، أي كالملك في قومه. وكانت قُبَّةُ سيِّدِ القبيلةِ، عادةً، كبيرةً، لأنها تكون مُنْتدىً لِشُيوخ القبيلة وأبنائها، يجتمعون فيها للتَّشاوُرِ والسَّمَر، ويأوي إليها ضُيوفُهم، وجيرانُهم، وذوو الحاجاتِ منهم، أو من غيرهم. وفيها قسمٌ خاصٌّ بالنساء، وآخَرُ خاصٌّ بالخَدَم... وأما سائرُ الناس، فكانت تُقامُ لهم الأَخْبِيَةُ، والخِبَاءُ بيتٌ صغير، أو خَيْمةٌ قد تكون من صوفٍ أو شَعَرٍ أو وَبَرٍ[2]، وكانت تُقْطَع بحاجزٍ إلى قِسمين، أحدهما للرجال والضيوف، والآخَرُ للنساء والسَّكَنِ، ولا يدخُله الغرباء[3].



المطلب السادس ـ أئمَّةُ عكاظ وقُضَاتُه:

ذكرتُ في بعض كلامي على خصائص الأسواق الموسميَّة، أنه كان بها قُضَاةٌ، أو مُحكَّمُون، يَقْضُون بين الناس، ويَفُضُّون خُصوماتهم. فكانوا، كلما طُلب إليهم، يجلسون للنظر في المظالم، وفيما قد يَشْجُرُ من المنازعات، في أمور البيع والشراء، والتفاخُر بالأحْسَابِ، وعِزَّةِ النَّفَر... وربما قضى بين الناس الملوكُ، أو الرؤساءُ الذين تقعُ الأسواقُ في بلادهم.

وذكرتُ أيضاً أن نظامَ المتاجرة، في الأسواق الموسمية، كان يقتضي وجودَ إمام للسوق، إن لم تكن في أرضٍ مملكة، كي يَفتتِحَ السوقَ عند

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٦، ولسان العرب: ١/ ٥٥١ (ضرب) والمِضْرَبُ: فِسْطاطُ الملك، و ١/ ٦٥٩ (قبب)، و ٧/ ٣٧٢ (فسط).

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٤ (بيت)، و ١٣/ ٢٠ (أقن)، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٢٦، ومجالس ثعلب: ٧٩، ١١٢.

(٣) المفصَّل: ٥/ ٧.

حُلول مَوسمها، ويَأذنَ بابتداءِ المتاجرة بين الناس، وحينئذٍ تقومُ السوقُ، وتصِحُّ المبايعات. . .

* * *

① ـ أئمَّةُ العرب وقضاتهم بعكاظ:

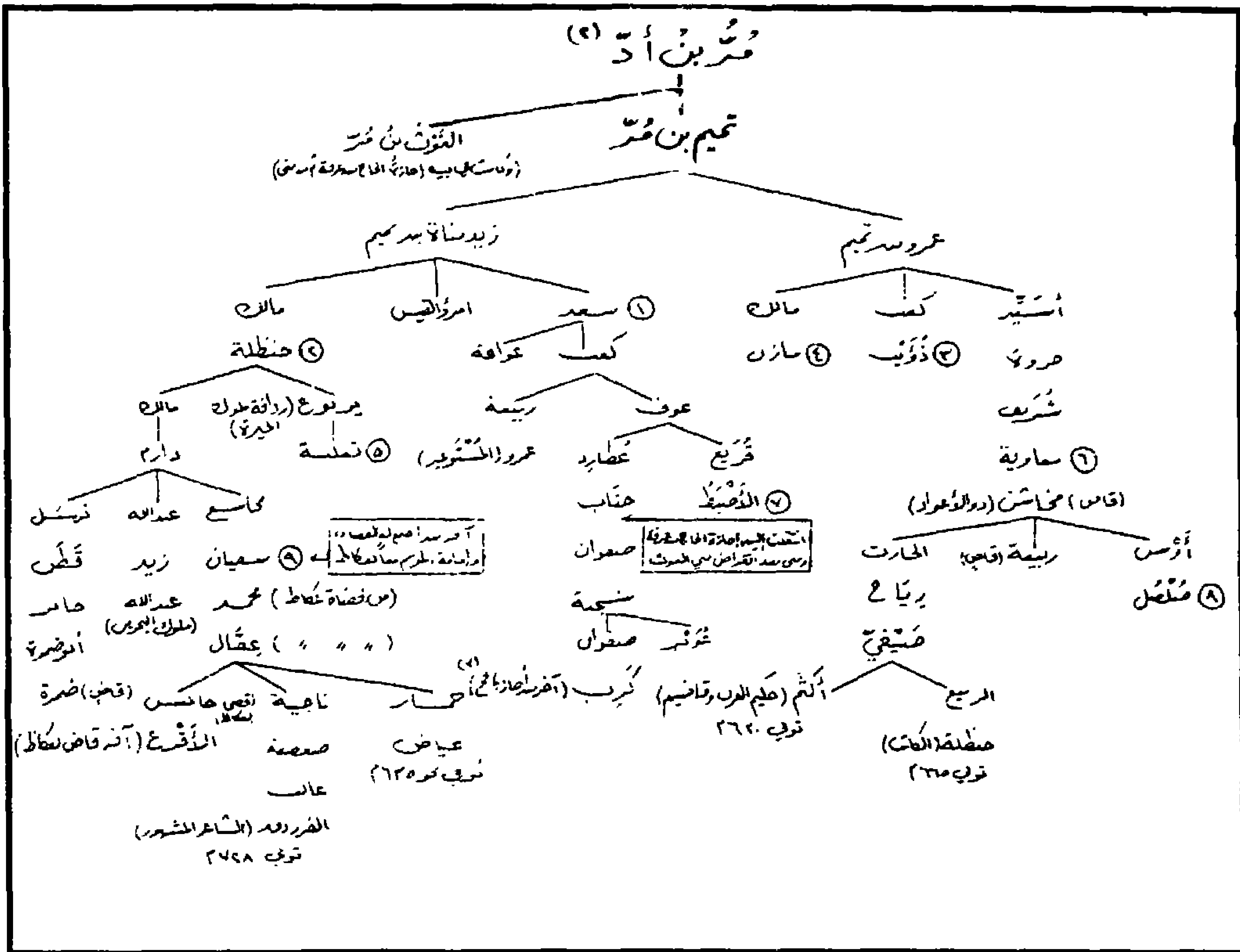
أَئمَّةُ العرب وقُضَاتُهم في مَواسِمهم بعُكاظ، كانوا من بني تميم، وكان ذلك يكون في أفْخَاذِهم كلها، أي في أَحْيَائهم أو فُروعِ قبيلتهم، فيتولَّى رجُلانِ منهم هذين الأمْرَين: قضاءَ عكاظ على حِدَة، والموسمَ على حِدَة[1]. وكان مَن اجتمع له منهم قضاءُ عكاظ وإمامةُ الموسم معاً: سعدُ بنُ زيد مناة بن تميم، ثم حَنْظلةُ بن مالك بن زيد مناة، ثم ذُؤَيْبُ بن كعب، ثم مَازِنُ بن مالك، ثم ثعلبةُ بنُ يربوع، ثم معاويةُ بن شُرَيْف، ثم الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع، ثم صُلْصُلُ بن أَوْس، ثم سفيانُ بن مجاشع، وكان آخِرَ تميميٍّ اجتمع له القضاءُ وإمامةُ الموسم بعكاظ معاً، فلما مات سفيانُ افترق الأَمْرانِ، ولم يجتمع الموسمُ والقضاءُ لأحَدٍ منهم بعد ذلك. فكان محمدُ بنُ سُفيانَ بنِ مُجاشِع يقضي بعكاظ، ولمَّا مات صار ذلك إرثاً لهم. وكان يُجِيزُ بالموسم العلاقُ بنُ شِهابِ بنِ لأْيٍ، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة. وكان آخِرَ من قَضَى منهم بعكاظ، ووصل إلى الإسلام، الأَقْرعُ بنُ حابِس[2].

---

(١) أنظر في جدول الأنساب التالي.

(٢) المحبّر: ١٨١ ـ ١٨٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨، وجمهرة أنساب العرب: ٢٢٢. وقد غلط أحمد أمين إذ حسب أن محمد بن سفيان كان قاضياً بعكاظ في الإسلام، وإنما هو في الجاهلية، والأقرعُ بن حابس الذي وصل إلى الإسلام كان ابنَ حفيده! (الرسالة: ١٣/ ٢٥ لسنة ١٩٣٣).

أئمةُ العرب وقُضاتُهم في مواسمهم بسوق عكاظ[1]



---

(١) المراجع ـ جمهرة أنساب العرب: ٢٠٧ ـ ٢٣٢، المعارف: ٧٨ ـ ٨٠. السيرة: ١/١٢٠ ـ ١٢١، الأغاني: ١١/١٣٢، المحبَّر: ١٨٢ ـ ١٨٣، مختلف القبائل: ٤٢، ٥٩، تاريخ اليعقوبي: ١/٢٥٨.

(٢) مرُّ بن أدّ: هو مُرُّ بن أَدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نزار، ونقدّرُ أن مُرَّ بنَ أدّ، وتميمَ بنَ مُرٍّ، وزيدَ مناة بن تميم، ثلاثةُ أجيال كانت في القرن الثاني للميلاد، والأدلَّةُ على ذلك كثيرة، منها: أكثمُ بنُ صَيْفِيّ، فقد قُدِّرتْ وفاتُه سنة (٦٣٠ م) عن عمر طويل، (الأعلام: ٦/٢). وقدَّر الزركليُّ مقتلَ الشاعرِ عبدِ يَغُوث الحارثي في وقعةِ يوم الكُلاب الثاني نحو سنة (٥٨٤ م) بعدما أُسِرَ فيها (الأعلام: ١٨٧/٤)، وفي تلك الوقعة خاطب أكثمُ قومَه بقوله: إني قد نَيَّفْتُ على التسعين، (العقد الفريد: ٢٢٤/٥)، فيكون مولدُه بذلك نحو (٤٩٠ م)، ويكون تميمُ بن مُرّ، الجَدُّ العاشِرُ لأكثم، موجوداً نحو منتصف القرن الثاني. ومن الأدِلَّة أيضاً: حنظلةُ الكاتبُ بنُ الربيع، المتوفَىٰ سنة (٦٦٥ م)، وعِيَاضُ بن حمار المجاشعيّ، المتوفَى نحو (٦٣٥ م)... ومن الأدِلَّة على صواب تقديرنا كذلك: حكايةُ غارةِ الملكِ عمرو بن هندٍ على بني نَهْشَل بن دارم، وفيها أنه قَتَلَ بقتلهم أخَاهُ عدداً منهم، حتى مرَّت به امرأةٌ من بني نهشل، فسألها من أنتِ؟ فقالت: أنا الحمراءُ بنتُ ضَمْرة بنِ جابر... والمعروفُ أن مُلْكَ عمرو بن هند كان بين (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، والمرأةُ كانت يومئذٍ عجوزاً، فيكون تقديرُنا لعصر أخيها ضمرة بن ضمرة نحو (٥٠٠ م) صحيحاً، فإن كانت وُلدت نحو سنة (٤٧٠ م)، فهي عجوزٌ أيامَ مُلْكِ عمرو... (أيام العرب: ١٠٥).

(٣) في سلسلة نسبِ كَرِبِ بن صَفْوانَ، اضطرابٌ شديدٌ وقع في كلِّ المراجع التي رجعنا إليها، ذلك أن بني الغَوْث بن مُرّ، أصحابِ الإجازة بالحاجِّ من عرفة ومن مِنَى، مجهولون، ومجهولٌ الزمنُ الذي انتقلت فيه الإجازةُ منهم إلى بني صفوانَ بنِ جَنَاب. وقد اشتُهر من هؤلاء كربُ بنُ صفوانَ بنِ شِجْنَة الذي كان يُجيز بأهل الموسم في الجاهلية، وعَمُّهُ عُوَيْرُ بنُ شِجْنَة، الذي أجار أهلَ امرىء القيس الشاعر، فقال فيه:

عُـوَيْـرٌ ومَـن مثـلُ العُـوَيْـرِ ورَهْطِـهِ   أَبَــرَّ بــأيْمــانٍ وأوْفَــىٰ بجيــران

(جمهرة أنساب العرب: ٢١٩)، ولا شك في أن عُوَيْراً كان معاصراً امرأَ القيس الذي عاش بين (٤٩٧ ـ ٥٦٠ م)، وأن كَرِبَ بن صفوان كان قريبَ العهد من ظهور الإسلام...

وهكذا عرفنا أسماء تسعةِ رجال من بني تميم، اجتمعت لهم إمامةُ الموسم مع القضاء بعكاظ، ومن شأن هذا أن يعودَ بوجود عكاظ، إلى ما قبل سعد بن زيد مناة، أي إلى أواسط القرن الثاني الميلادي. وعرفنا أيضاً أسماءَ ثلاثةِ آخَرين جاؤوا بعدهم، أحَدُهم: العلاقُ بنُ شهاب من بني عوافة بن سعد، وقد خَلَفَ سفيانَ بنَ مجاشع على إمامة الموسم، والآخَرُ: محمدُ بنُ سفيان خَلَف أباه على القضاء، ثم أوْرَثَهُ بَنِيهِ[1]، من بعده، فخَلَفَهُ عِقالُ بنُ محمد، ثم حابِسُ بنُ عقال، ثم الأقرعُ بنُ حابس وكان آخِرَ من تولّى القضاءَ بعكاظ، وقيل إنه كان مجوسيّاً[2]، أسْلَمَ وشَهِدَ الفُتوح[3]. وقد عرفنا بالتحقيق أيضاً أن ضَمْرَة بن ضَمْرة من بني نَهْشَل بن دارم، كان أحَدَ قُضَاةِ بني تميم اللامعين، وُصِفَ بغزارة العلم، وذكاء العقل، وكرم السجِيَّة، وسَعَةِ الخبرة بأحوال العرب، وأنسابهم، وعاداتهم. وكان فارساً، شاعراً، شريفاً[4]... وأن ربيعةَ بنَ مُخاشِن، من بني أُسيِّد بن عمرو، كان كذلك من قُضاة تميم، وإليه كان مَرْجعُهم في أيامه، وكان عالم قومه، واقفاً على أنساب العرب، وأحسابهم، وكان من أَفْصَح الخطباء، كريماً، شجاعاً. وكان يجلسُ في المواسم على سريرٍ من خَشَبٍ، في قُبّةٍ، فسُمِّي ذا الأعواد[5]، خَلَفَ في ذلك أباه مُخاشِنَ بنَ معاوية، وكان قاضياً أيضاً بعكاظ، ورثَ القضاءَ عن أبيه معاوية بن شُرَيف[6]، وهو ممَّن اجتمع لهم

---

(١) الأعلام: ٦/ ١٤٦.
(٢) المعارف: ٦٢١.
(٣) الأعلام: ٢/ ٥.
(٤) المفصَّل: ٥/ ٦٤٢.
(٥) المحبَّر. ١٣٤، والمفصَّل: ٥/ ٦٤٢، والأغاني: ٣/ ٨٦.
(٦) الأعلام: ٧/ ١٩١، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.

القضاءُ والإمامةُ معاً. وهنالك أيضاً حاجبُ بنُ زُرَارة، من بني زيد بن عبد الله بن دارم، كان من قضاة بني تميم، وهو من البُلَغاءِ الفُصَحاءِ في زمانه، له كلامٌ جيّد مُسَدَّدٌ[1]، ولعله كان يقضي بعُكاظ. ثم لا بُدَّ أن نضيف إلى هؤلاء: أكثَمَ بنَ صَيْفيّ، من بني مُخَاشِن بن معاوية، وكان في زمنه «قاضِيَ العرب، لا يَرُدُّون له حُكماً»، وكان من أشهر حكماء العرب، وخطبائهم في الجاهلية، عُرِفَ بنزاهته، وحُبِّه الخيرَ، وكان مثَالَ الرصانةِ والتعقُّل، توفي نحو سنة (٦٣٠ م). وكان من المُعَمَّرين[2]، ومثله الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع من بني سعد بن زيد مناة، كان مُعمَّراً، والمُعَمَّرُ عند العرب مَن عاش مئةً وعشرين سنةً فما فوق[3].

وعلى ذلك، فإن بني تميم كانوا مُخْتصِّينَ بشؤون القضاءِ، أو الحكومة في عكاظ، وكانوا فوق ذلك أئمَّةَ الموسم، أو رؤساءَهُ، يعودُ لِوَليِّ ذلك منهم، أن يُعلِنَ قيامَ الموسم في موعده، ويأذَنَ بافتتاح السوق للمُبَايَعات، فإذا انقضت مدَّةُ قيام الموسم، أعلن انفضاضَ السوق، ولعله كان بعدئذٍ يُفيضُ بالناس إلى مجنَّة وذي المجاز. . . وكان لا بُدَّ لمن تَؤُولُ إليه رتْبةُ القضاء، من أن يكون سيِّداً في قومه، كريماً، شجاعاً، عالماً بتقاليد العرب وعاداتهم، واقفاً على أنسَابهم وأحْسَابهم، وذلك ليكونَ قضاؤه بين الناس موضعَ تقدير، ومحلَّ طاعَةٍ.

وممّا يجدرُ ذِكرهُ في هذا المقام، أن شعراءَ العرب كانوا، كذلك،

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥٤، والمحبَّر: ١٣٤، والمفضَّل: ٥/ ٦٤١.

(٢) الأغاني: ١٦/ ٢٥٥، والأعلام: ٢/ ٦، والبيان والتبيين: ١/ ٢٨٣، والمفضَّل: ٥/ ٦٤٠، والمحبَّر: ١٣٤.

(٣) المستطرف: ٢/ ١١.

يَقْدَمُون سوقَ عكاظٍ في مواسمها، ليَعْرِضُوا جديدَهم من الشِّعْر، على قاضي الشعراء، ويتنافَسُون في القول بين يَدَيْه، ليَحكُمَ بينهم، أَيُّهم أحْسَنُ قِيلاً، وأرَقُّ عبارةً، وأبْيَنُ وَصْفاً، وأكثرُ بلاغةً. وما استطعنا معرفتَهُ، من الموارد التاريخيَّة والأدبيَّة، أن الحكومة في الشعر كانت لقاضي الشعراء: النابِغَةِ الذُّبْيَانيّ، في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي. وكان أحْسَنَ العرب ديباجَةً، لا يتكلَّفُ الكلامَ، ولا يحشُو شعرَهُ بما لا يلزم، ولعلَّهم اسْتَقضُوه لهذه الخِصَال.

وهكذا كان في سوق عكاظ قضاةٌ مُخْتصُّون، بعضُهم بشؤون السوق، وما عساهُ أن ينشأ فيها من المنازعات التجارية، وربما الجنائية. وبعضُهم بشؤون الشعر، والحُكم بين الشعراء.



(٢) ـ كيف صارت رئاسةُ عكاظ والقضاءُ فيه إلى بني تميم:

وفي بحثه القضاءَ بعكاظ، تساءَل جوادُ عليّ عن العِلَّة، التي جعلتِ القضاءَ والموسمَ بعكاظ حقّاً من حقوق بني تميم، ثم ردَّ ذلك إلى ما كان لتميم من نفوذٍ بمكةَ، وعند قُريشٍ، ومَن كانوا بجوارها... إذ لا يُعقَلُ التسليمُ بهذه الرئاسة الكبرى إلى تميم،وهي رتبةٌ لها شأنٌ خطيرٌ عند قريشٍ خاصَّةً، وعند جيرانها مثلِ ثَقيفٍ وهَوازِنَ، فلا بُدَّ أن تكون وراء ذلك مصاهرةٌ بين تميم وقريش، أو لعلّ تميماً كانت تنزلُ بمكةَ قبل ارتحالِها إلى مواضعَ أخرى، أو كانت تشدُّها إلى قُريش علائقُ وثيقةٌ[1]... تساءَل عن ذلك، وكأن الأمرَ فيه أمْرُ قريشٍ، أو كأنَّ لها سلطاناً عليه! مع أن السوق،

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٦٥٢ ـ ٦٥٤.

كما رأينا تقومُ، في أرض هَوازِنَ بنَجْدٍ، ويوم انْسَحَبتْ قريشٌ وكنانةُ من عكاظ، عشيَّةَ حربِ الفِجَار، ثم علم بذلك عامرُ بنُ مالك، من بني جعفر بن كلاب، رئيسُ هَوازِنَ، قال: «غَدَرَتْ قريشٌ، وخَدَعني حربُ بن أُمية، واللَّهِ لا تنزِلُ كنانةُ عُكاظَ أبداً. . . ». ثم ركبوا في طلبهم، حتى أدركوهم بنخلة[1]. . .

ومعنى القول أن سيِّدَ هوازن كان يملكُ حقَّ حِرمَانِ قريشٍ وسائرِ كنانة من شُهودِ المواسم بعكاظ متى شاء، وهذا دليلٌ واضحٌ، على أن بني كنانة، وفيهم قريشٌ، ما كانوا يملكون من أمر سوق عكاظٍ شيئاً، لا في إمامة الموسم، ولا في القضاء بين نُزَلائه، ولا حتى في أرضه! وإنما كانت لهم فيه مصالحُ تجاريَّةٌ كبرى، لا يَسَعُهم الاسْتِغناءُ عنها. حتى موسمُ الإفاضة بالحاجِّ، غَداةَ يوم النحْر، من المزدلفة إلى مِنىً، كانت إمامتُهُ في بني زيد بن عَدْوان، من قيس بن عيلان، وليس في قريشٍ، مع أنه في أرض مكة، لا في نَجْد! وكذلك إجازةُ الحاجِّ من عَرَفة إلى المُزْدلفة، ثم من مِنىً يومَ النَّفْر إلى مكة، بعد رَمْي الجِمَار، كانت في بني الغَوْثِ بن مُرٍّ[2]، أخي تميم بن مُرٍّ، ولمّا انقرضوا، انتقلت إلى بني تميم، وكانت منهم في آل صفوانَ، من بني سعد بن زيْد مناة، وكان أَحَقَّ أن تنتقل إلى قريشٍ، إذ هي في أرضهم، لو أن لقُريشٍ في هذا الأمر شيئاً!

والحقيقةُ أن هذه الوظائفَ كانت قِسْمةً، قَسَمها، سيِّدُ بني خُزاعة، في قبائل مُضَر، بعد أن غَلبَ جُرْهُماً على ولايةِ مكة، وحجابةِ الكعبة، أو أقَرَّهم عليها وكانت إليهم قبله. وكان نفوذُه وقتئذٍ يشمل تهامةَ والحجازَ ونَجْداً، وهو ما أشار إليه حسانُ بنُ ثابت بقوله في خزاعة:

---

(١) الكامل: ١/٥٩٢، وأيام العرب في الجاهلية: ٣٣٠.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٣٢٩.

فكان لها المِرْباعُ في كلِّ غارةٍ   تُشَنُّ بنَجْدٍ، والفِجَاجِ العَوابِرِ[١]

أي كان يُجْبَى إلى زعيمها رُبْعُ الغنيمة، في كل غارةٍ تُشَنُّ، أكانت بنَجْدٍ أم في طُرُق الجبال. وهذا ما يؤكّدُهُ قولُ الأزرقيّ عن عمرو بن لُحَيّ: «وكان أمرُهُ بمكَّةَ، مُطاعاً في العرب لا يُعْصَى»[٢]... ولذلك فإن قصيَّ بنَ كلاب، لمّا غَلبَ خُزاعة على ولايةِ مكة، وحِجَابةِ الكعبة، أَقَرَّ لقبائل مُضَر ما كانت عليه في عهد خُزاعة، إذ كان يَعُدُّهُ دِيناً في نفسه، لا ينبغي له تَغْييرُهُ[٣]... ولا شيءَ يمنع أن يكون قد جرى على إمامة الموسم، والقضاءِ بعكاظ، مثلُ ما جرى على غيرها من تلك الوظائف، فظلَّت في بني تميم، وهم إذ ذاك قاعدةٌ من أكبر قواعد العرب، تمتدُّ منازلُهم من تهامة إلى ظواهر نَجْد والحجاز، إلى خليج العرب، من أعْلاهُ إلى أصقاع البحرين وما وراءَها[٤]. وكانت فيهم المَنَعَةُ، والعَدَدُ، والفَصاحَةُ، والشِعْر، والبأسُ[٥]. وكان لهم مُلْكُ البحرين، ورِدَافةُ ملوكِ الحِيرَة[٦]... وكانوا: أخْوالَ بني عَدوان، فأمُّ عَدْوانَ بنِ عمرو، جَدِيلةُ بنتُ مُرٍّ، أختُ تميم[٧]، وأخْوالَ بني غَطَفانَ، فأمُّ غطفانَ بنِ سعد، تُكْمَةُ بنتُ مُرٍّ[٨]، وأخْوالَ قُرَيشٍ، فأمُّ قريش بن كنانة، بَرَّةُ بنتُ مُرٍّ[٩]... وغَطَفانُ وعَدْوانُ وكنانةُ كانت من كُبْريَات قبائل مُضَرِ بن

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٩٥.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٠٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٩، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٤) الأعلام: ٢/ ٨٨، و ٣/ ٨٥، ومعجم قبائل العرب: ١٢٦.
(٥) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٩.
(٦) المعارف: ٦٥١، والمحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.
(٧) جمهرة أنساب العرب: ٢٤٣.
(٨) المرجع نفسه: ٢٠٦.
(٩) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١٩.

نزار. ولكنّ هذا كلّه لا يمنعُ من التأكيد على أن اختصاصَ بني تميم بإمَامةِ الموسم والقضاءِ بعُكاظ، إنما كان، كما ذكرتُ آنفاً، قسمةً مقسومةً لهم، منذ شَرَعَ عمرو بنُ لُحيّ، في عهد خزاعة، بتنظيم مكةَ، وشؤونِ العرب في الحجاز ونَجْد، وتوزيعِ الأعمال على قبائل مُضَر...



③ ـ الخلطُ بين مواسم الحجّ ووُلاتِها وموسمِ عكاظ:

وما دمنا نُحقّق في شأن إمامةِ الموسم، والقضاءِ بعكاظ، فهنالك أمرْانِ، لم يكن بُدٌّ من عَرْضهما للبحث والتحقيق، لإزَالَة اللبْس عنهما.

الأول: إشارةٌ يجبُ التوقُّف عندها، ذهبتْ إلى أن أَئمَّةَ العرب، وقُضاتَهم في مَواسِمهم بسوق عكاظ، بعد عامِرِ بنِ الظَرِبِ العَدْوانيّ، بنو تميم[1]... وهو غَلَطٌ يقتضي التصويبَ، لأنه يجعلُ من إمامةِ الموسم والقضاءِ بعكاظٍ، أصْلاً، في بني عَدْوان، انتقلت منهم إلى بني تميم، بعد وفاة عامر بن الظرب، والمشهورُ أن الرجلَ كان من المعمَّرين[2]، ولو أخذنا بأدنى العَمَرِ، وهو مئةٌ وعشرون سنة، وقدَّرْنا وجودَهُ أواخِرَ القرن الثالث للميلاد[3] إذ هو التاسعُ على عمود النسب من عَيلان بن مُضَر، لكان معنى ذلك أنه تُوفي نحو سنة (٤٠٠ م)، وأن سعدَ بنَ زيد مناة أَتَىٰ بعد ذلك بجِيلٍ على الأقل، بينما سعدٌ في الحقيقة السادسُ على عمود النسب من إلياس بن

---

(١) المحبَّر: ١٨١، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧، والعقد الفريد: ٣/ ٣٥١.

(٢) الأعلام: ٣/ ٢٥٢.

(٣) قدَّر ابنُ بليهد وجوده قبل مبعث النبي عليه السلام بنحو ثلاث مئة سنة. «موقع عكاظ: ٣٦»، أي نحو سنة (٣١٠ م)، وهو قريب من تقديرنا.

مُضَر، وسابقٌ على عامر بن الظرب بثلاثة أجيال على الأكثر[١]. . . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإطْبَاقُ المؤرِّخين على أن سعد بن زيد مناة أوَّلُ من اجتمع له الأَمْرانِ من بني تميم، يعني أن هنالك مَن كان قبله يتولّىٰ ذلك، رجلٌ لإمامة الموسم، وآخرُ للقضاء، أي زيدُ مناة بنُ تميم وأخوه عمروُ بن تميم، لأن ورَاثةَ الأَمْرَيْن كانت في ذُرِّيتهما، كما يعني أن هذا الشأنَ من عكاظ كان في بني تميم منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، وأن أوَّليَّةَ عامر بن الظرب فيه غيرُ صحيحة! بل وغيرُ صحيح أيضاً القولُ بأنه تولّى شأنَ القضاءِ وإمامةِ الموسم بعكاظ اختصاصاً، فهذا وَهْمٌ، مَنْشَؤه شِعرٌ لذي الأصبع العَدْوانيّ[٢]، قال فيه يفخر ببني عَدْوان:

ومنهم مَن يُجيزُ الناسَ ... بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضي[٣]

فقولُه: ومنهم مَن يُجيزُ الناسَ، إشارةٌ إلى الإفاضَةِ بالحاجِّ من المُزْدَلفة إلى مِنىً، وكانت في بني زَيْد بن عَدْوان، وآخِرُهم أبو سيَّارة، عُميْلةُ بنُ الأعْزل، الذي قام عليه الإسلام[٤]. وأما قولُه: ومنهم حَكَمٌ يقضي، فإنه يعني عامِرَ بنَ الظَرِبِ، وكان حَكَماً للعرب، لا تَعْدِلُ بفَهْمِهِ فَهْماً، ولا بحُكْمه حُكماً[٥]. . . لكنّ هذا لا يعني أنه كان قاضياً مُتَخصِّصاً بعُكاظ، كبني

---

(١) انظر جداول أنساب بني تميم، وقيس بن عيلان، وقارن بجدول أنساب مضر بن نزار، المرفق بالكلام على مكة.

(٢) ذو الأصبع العَدْوانيُّ: حُرْثان بن الحارث، شاعر جاهليٌّ، حكيم، شجاع، وفارسٌ من قدماء الفرسان الشعراء، عاش طويلاً حتى عُدَّ في المعمَّرين. له أخبار وحروب ووقائع.

(٣) الأغاني: ٣/ ٨٦.

(٤) السيرة: ١/ ١٢٢.

(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٥٣، وعيون الأخبار: ١/ ٧٣.

تميم، أو أن أمرَ القضاءِ في عكاظ كان من حقِّ بني عَدْوان، وإنما شأنُه في القضاء شأنُ سائرِ حُكّام العرب، كانوا يحكمون بين الناس، أيْنما حَلُّوا، وأنَّى سُئلوا الحُكْمَ بين المتنازِعين، وحكومتُهم رُتْبَةُ شَرفٍ، بَلغُوها بفضل ما لَهم من العلْمِ والخبرةِ والسُّؤْدد والكرم، وليس من اللازم أن يَرِثَها عنهم أولادُهم، إن لم يكونوا مُسْتعِدِّين لها. أما حكومةُ عكاظ فهي رتبةُ شَرَفٍ، كُلِّفَ بها بنو تميم، يَتَوارثونها في أعقابهم، ويختارون لها منهم ذوي الكفايةِ والعقلِ والعلمِ والحزمِ والخِبْرةِ. . . فالأُولى تَطَوُّعٌ، والأُخْرى تكليفٌ. وهذا يُوجِبُ التفريقَ بين القضاءِ، أو الحكومةِ في عكاظ، وقضاءِ عكاظ، فالأوَّلُ يستطيعُه كلُّ قاضٍ أو مُحَكَّمٍ من قُضاةِ العرب ومُحكَّميهم، والثاني يتناولُ شؤونَ السوق «الإداريَّةَ والفنيَّةَ»، ومشاكلَ النزاعِ في التجارة والمبايعات، وقواعدَ الأمن، وما إلى ذلك، وكان في بني تميمٍ حَصْراً.

الثاني: هنالك إشارةٌ أخرى، كالأُولَى يجب توضيحُها، وتصويبُ غَلَطِها، خَلَطتْ بين موسمِ عكاظ وموسمِ الحجِّ بِعَرَفَة والنَّفْرِ من مِنَى. وذلك لمَّا ذكر ابنُ حبيب والمرزوقيُّ، في آخِرِ الكلام على مَن وَليَ الموسمَ والقضاءَ بعكاظ، أن «آخِرَ مَن أفاضَ بهم: كرِبُ بنُ صفوان. . . وهو الذي قام عليه الإسلام»[1]. وهو: كَرِبُ بنُ صَفْوانَ بنِ شِجنة، من آل صَفْوان، من بني عُطارِد بن عوف التميميّ[2]. انتقلتْ إليهم، بانْقِراضِ بني الغَوْثِ بن مُرّ، إجازةُ الحاجِّ من عَرَفة إلى المزدلفة، ثم من مِنىً إلى مكة، وهم مَن قال فيهم أَوْسُ بنُ مَغْراءَ[3]:

---

(١) المحبَّر: ١٨٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢١٩.

(٣) أَوْسُ بنُ مَغْراء: شاعرٌ تميميٌّ من بني أنف الناقة. أدرك الجاهلية والإسلام. توفي نحو (٦٩٥ م).

ولا يَريمُون في التعريفِ مَوْقفَهم حتى يُقالَ: أَجيزُوا آلَ صَفْوانا[1]

أراد أن الحاجَّ كانوا لا يُفارِقون مواضِعَهم في الموقفِ بعَرَفَة، حتى يكون آلُ صفوانَ أئمَّتَهم في اجتياز الطريق إلى المُزْدَلفة. وهذا الأمرُ لا يتعلق بإمامة الموسم أو القضاء بعُكاظ، بل هو خارجٌ عنه، وكَرِبُ بنُ صفوانَ لم يكن من أئمَّة المواسم بعُكاظ، وإنما كان يلي الإجازةَ بالناس في الحجّ، وكان آخِرَ مَن وَلِيَها من بني تميم[2].

* * *

٤ ـ عكاظ مجمعٌ للتقاضي عند العرب:

ومن الطبيعي أن تكون سوقُ عكاظ، وهي أكبرُ مجمعٍ عامٍّ لقبائل العرب في الجاهلية، موسماً كبيراً مُلائماً لذوي الحاجات، وأصحاب المظالم، يَتواعَدُونَ بها للتقاضي، أثناءَ مُدَّةِ إقامتهم في السوق، إلى قضاةِ عكاظ، في مُنَازعاتٍ تَتعلَّقُ غالباً بالمتاجرة، كالبُيوعِ، والدُّيُونِ، والرُّهُون، وما عساها أن تكون جَرَّتْ على بعضهم من الغُبْن، أو المظالم، ونحوِ ذلك. وهذا لا يعني أن قضاةَ عكاظ لا ينظرون فيما قد يُعْرضُ عليهم من قضايا الجِنَاياتِ، والدِّيَاتِ، ومُنَافَراتِ الأحساب والأنساب، بل يُمكنُ أن ينظروا فيها، مثلما يمكنُ أن يَنظُرَ فيها قضاةُ العربِ، ممَّن يتَّفقُ حضُورُهم المواسمَ، وهو ما يبدو واضحاً، في أخبار وقائع المُنَافَرات، المأثُورَةِ عن عكاظ.

ولا شك عندي في أن قضاءَ الجاهليَّة، عموماً، كان غيرَ مُلْزِمٍ

(١) لسان العرب: ٩/ ٢٤٢ (عرف)، والمحبَّر: ١٨٣، والعقد الفريد: ٣/ ٣٤٤ ـ ٣٥٠.
(٢) السيرة: ١/ ١٢١.

للمُتَقاضِينَ[1]، وأنه كان أقربَ إلى التحكيم منه إلى القضاء. ولكنني أراهُ في قضايا السوق بعُكاظ كان مُلْزِماً، لأنه لم يكن تطوُّعاً، أو تبرُّعاً للحُكم بين المتنازعين، وإنما كان تكليفاً، تَوافقَتِ العربُ عليه، وأقَرَّتْهُ في بني تميم، يَتوارثُونَهُ في السَّادَةِ النابِهينَ الخُبَراءِ من أعْقَابهم. . . ويبدو أن الدكتور منير العجلاني ذهب مذهباً مختلفاً، فقرَّر أن عرب الجاهلية لم يكن عندهم منصبٌ مَخْصُوصٌ باسْم القضاء، وما تُحدِّثُنا أخبارُ الجاهليّة به عن «قاضي السوق الذي كان يجلسُ للحُكم في سوق عكاظ»، لم يكن أكثرَ من مُحكَّم، اختارتْهُ جماعةُ السوق، ليقضيَ بينهم، في أغراضٍ مُعَيَّنَةٍ ومَوْسِمٍ محدود، ثم تنقضي مُهِمَّتُهُ. وحكومةُ هذا المحكَّم، بين الخصوم، لم تكن مُلْزِمةً لهم بالمُثُولِ بين يَديْه، والاحتكامِ إليه، ولم يكن حُكْمُه مُلزِماً بالتنفيذ، وربما تراضَوا على الاحتكام إلى مُحكَّم آخَر[2].

صفوةُ القول أن الأمور بعكاظ لم تكن فوضى، وإنما كانت تحكُمها قواعِدُ مَكِينةٌ، وإن كانت غير مكتوبة. فالنُّزَلاءُ بالسوق كانت تَضْبطُ كلَّ قبيلةٍ منهم رؤساؤُها وأشرافُها وحُكّامُها. والمنازعاتُ الناشئةُ في السوق، كُلِّفَ الحُكمَ فيها قضاةٌ نابِهُون من بني تميم.

* * *

● **تعقيب على نظام التقاضي في الجاهلية:**

كان في أسواق الجاهلية قُضَاةٌ أو مُحكَّمون، يَفُضُّون الخصومات، ويجلسون للنظر في مظالم الناس، وفيما قد يَشْجر بينهم من المنازعات، إذا

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٦٣٥.

(٢) عبقرية الإسلام في أصول الحكم: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

اختلفوا في أمور البيع والشراء، أو تخاصَمُوا في شأن من شؤون حياتهم. . . وقد يتولَّى القضاءَ بين المتنازعين زعماءُ الأسواق أنفسُهم، أو ملوكُها الذين يحكُمونها، ويتقاضَوْن عُشُورَها[1]، لقاء المحافظة على أرواح الناس وأرزاقهم، فإذا أصاب أحَدَهم ظلمٌ، لم يكن بُدٌّ لأولئك الملوك والزعماء أو القضاة من رَفْعِ الظلم عن المظلوم، وأَخْذِ الظُّلامَةِ من الظالم[2]، فقد كانوا يَعُدُّون الظلم عيباً يلحق بمن وقع عليه إن سكت عنه.

وقد أشار اليعقوبي في تاريخه إلى الموضوع فقال: «وكان للعرب حُكَّامٌ ترجع إليهم في أمورها، وتتحاكم في مُنافَراتها، ومواريثها، ومياهها، ودمائها، لأنه لم يكن لها دينٌ ترجع إلى شرائعه، فكانت تُحكِّمُ أهلَ الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسنّ والمجد والتجربة»[3]. . . ويُعَدُّ «الأفْعَى الجُرْهميُّ» أقدمَ مَن عرفناهم من حُكّام العرب في الجاهلية، وكان منزلُه بنجرانَ في اليمن، تقصده العربُ في قضاياها فيحكم بينها، ولا يُرَدُّ حكمه، وكان مُعاصِراً نزارَ بنَ مَعَدِّ بنِ عدنان[4]، الجدَّ العربيَّ القديم، وقد أدْرَكَهُ أبناءُ نزار: ربيعةُ ومُضَرُ وإيادُ وأنمارُ، وهو الذي حكم بينهم في ميراثهم من أبيهم نزار، وعلى ذلك يمكننا تأكيد وجوده في القرن الأول قبل الميلاد.

وكان الأصلُ في التقاضي قولُهم: «في بيته يُؤْتَى الحكَمُ»[5]. . ونفهم من ذلك أن بيت القاضي أو الحكَم كان مركزَ التقاضي بين الناس، ولكن

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨، والمحبَّر: ١٨٢، والمفصل: ٧/ ٣٨٤، وأسواق العرب: ٢٠٥، ونهاية الأرب: ٤٦٤.
(٢) **الظُّلامَةُ والمظْلَمةُ**: ما أُخِذَ من الإنسان ظُلماً، وما احْتَملُه من الظلم.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.
(٤) الأعلام: ٢/ ٥، والمحبَّر: ١٣٢.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٨.

مشقَّة الانتقال أحياناً إلى بيوت القضاة جعلتِ المواسمَ العامَّة، كمواسم الحجِّ والأسواق الكبرى، مواضعَ صالحةً للتقاضي يقصدها أصحابُ الحاجات والظُلامات، فتُقْضَى حاجاتُهم وتُردُّ عليهم ظُلاماتُهم. فكانوا في الموسم يضربون للقاضي قُبَّةً خاصَّةً، يجلسُ فيها للحُكْم بين الناس. وكان قضاةُ العرب يُخْتارُون ممَّن توافرت فيهم الحكمةُ والسيادةُ والنزاهةُ والحِلْمُ والصدقُ، مع العلم بالعاداتِ والتقاليد، والأحْسَابِ، والأنساب، وأيامِ العرب، وأحْوالِهم، وغير هذا من الشروط... فالقاضي عندهم هو الحكَمُ، والحكَمُ هو الحاكمُ، والحاكمُ هو الذي يمنعُ الظالمَ من الظلم، والحكومةُ هي رَدُّ الظالم عن الظلم، والحُكْمُ هو العلمُ والفِقهُ والقضاءُ بالعدل، والمُحَكَّمُ هو الشيخُ المُجَرِّبُ المنسوبُ إلى الحِكمة، أي إلى العدلِ وإتقانِ الأمور[١]. وكانت للقضاء عند العرب في الجاهلية أصولٌ عريقةٌ، وقواعِدُ واضحةٌ ثابتة، أقرَّ الإسلامُ عدداً كثيراً منها لاتفاقها مع العدل والمنطق السليم، كقولهم: البيِّنةُ على من ادَّعَىٰ واليمينُ على من أنكر، أو كقول زهير بن أبي سُلمى[٢] في طرُق إثبات الحق:

فــإن الحــقَّ مَقْطَعُــهُ ثــلاثٌ   يميــنٌ أو نِفــارٌ أو جَــلاءُ

وكان أميرُ المؤمنين عمر بنُ الخطاب إذا أُنشِدَ هذا الشعرَ يتعجَّبُ من فقه زُهير بالحقوق، وبَراعَتِهِ في تقسيمها، وبَلاغتِهِ في إيجازها، ويُردِّدُ: لا

---

(١) لسان العرب: ١٢/ ١٤٢ _ ١٤٣ (حكم).

(٢) زهير بن أبي سلمى: من بني مزينة من مُضَر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وكان له في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعبٌ وبُجَيْرٌ شاعرين. ولا نظن أن أسرةً هذا بعضُ حالها تنجمُ في بيئة مُتخلِّفة جاهلة. كانت قصائد زهير تسمى الحَوْليّات لأنه كان يعكف على تهذيبها وتنقيحها قبل إذاعتها في الناس.
وُلد في بلاد مُزَيْنة بنواحي يثرب، وأقام بالحاجِرِ من ديار نَجْد، وتوفي سنة (٦٠٩ م).

يخرجُ الحقُّ من إحدى ثلاثٍ، يمينٍ أو محاكمةٍ أو حُجَّةٍ بيِّنةٍ[1]. . . ولا شك في أن زهيراً إنما استفاد هذا العلم من مجتمع العرب، ممّا هو معمول به في أعرافهم وسُنَنِهم، ولكنه أحْسنَ تفصيلَ الحقوق، وإقامةَ أقسامها[2]، بعبارة بليغةٍ واضحةٍ مُوجزة. ومثلُ هذا العمل يَدلُّ بوضوح على اتصال صاحبه بمنطق الفلاسفة، وعِلْمه بأصول التشريع، كما يدلُّ على أن المجتمع الذي كان يعيش فيه مجتمعٌ يعرفُ الأحكامَ القانونية، وتنظيمَ الحقوق، ويملكُ جملةً من القواعد، كانت صالحةً لقيام نظام قضائي، يرجعُ الناسُ فيه إلى قضاتهم، للفصل فيما يَشْجُرُ بينهم من المشاكل. وكان قبولُهم بأحكام القضاة دليلاً على وجود ذلك النظام، أو تلك القواعد القانونية العامة. وكما هو الحالُ اليوم، فإن بعض الأحكام التي كان القضاةُ يحكمون بها أحياناً، تصبح قواعدَ قانونيةً مُلْزِمةً فيما بعد، يَتَّبِعُها سائرُ القضاة، كقول قسِّ بنِ ساعدة الإيَاديّ، وكان من حُكّام العرب وقضاتهم وخطبائهم[3]: لأَقْضِيَنَّ بين العرب بقضيَّةٍ لم يقضِ بها أحدٌ قبلي، ولا يَردُّها أحدٌ بعدي: «أيُّما رجلٍ رمَى رجُلاً بمَلأَمَةٍ دونها كرمٌ فلا لُؤمَ عليه، وأيُّما رجلٍ ادَّعَى كرماً دونه لؤمٌ فلا كرمَ له»! فذهب قضاؤه حُكْماً يُتَّبع في مُنَافَرات الحسَب والشرف، وكقوله أيضاً: «البيِّنةُ على مَن ادَّعَى، واليمينُ على من أنكر»، ذكر الميداني أنه أول من قالها، ومعناها أن تقديم البيِّنة يجب على المدَّعي لا على المُنكِر[4].

ويُفهم من بعض الأخبار أنه كانت للقضاء عند العرب مَراسِمُ خاصَّة،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٦٧، والشعر والشعراء: ١٤٠، ١٤٩، والعقد الفريد: ٥/ ٢٨١.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٢٨٣.

(٤) العقد الفريد ٢/ ١٩١، و ٣/ ٤١١، ومجمع الأمثال: ١/ ١٥٢.

كقَرْعِ العصا بين يَدَيْ القاضي إذا حَضَر، إيذاناً بانعقاد مجلس القضاء، أو إذا أراد الإنصرافَ، آيةً على انْفِضاض المجلس. وكانت العصَا عند العرب تُضْرَبُ مَثَلاً للاجتماع، وانْشِقاقُها مثلاً للافتراق[1]، وحَملُها من علامات السيادة والحُكم والرئاسة، فكان الحكَّامُ يحملونها، أو يحملُها بين أيديهم أعوانُهم عند قيامهم للحُكم بين الناس[2]. وما يزال قرعُ المطرقة، كقرع العصا، تقليداً مُتَّبعاً عند القضاة إلى اليوم، يُسْكِتُون به المخالفين على النظام، ويُلْزِمونهم الطاعةَ واحترامَ هيبةِ القاضي واجتماعِ الناس. ومن أمثال العرب قولُهم: «إن العَصَا قُرِعَتْ لذي الحِلْم»[3]. وذو الحِلْم هو: عامِرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانيُّ[4]، وهو حاكمُ العرب في زمنه، لا يَعْدِلُون بحكمه حكماً، ولا بفهمه فهماً، وقالوا: إنه أولُ من قُرِعَت له العصا... ومع أن هذا القول يتفق بداهةً وما ذهبنا إليه من أمْر العصا ورَسْمِها في القضاء، كما يتفق وما أضافوه إلى عامر بن الظرب من الحكمة والفهم والسيادة والرئاسة، غير أن بعض الرواة وأهل الأخبار في عصر التدوين، زعموا في تفسيره أن عامر بن الظرب لمّا أَسَنَّ أنكر من عقله شيئاً، فقال لِبَنِيه: إني قد كبُرتْ سِنّي، وعَرَض لي سَهْوٌ، فإذا رأيتموني خرجتُ من كلامي وأخذتُ في غيره فاقْرعوا ليَ المِجَنَّ بالعصا، وزعم آخرون أنه أَمَر بنتَه أن تقرعَ له بالعصا، إن هو زَلَّ في الحُكم أو جار عن القصد، تُفطِّنُه بقَرْعها للصواب فيفطن له... وأضاف

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ٦٦ (عصا).

(٢) المفصَّل: ٥/ ٤٩٩.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ٦٦.

(٤) عامرُ بن الظَّرِبِ العَدْواني: من بني عَدْوان، من قيس بن عيلان. خطيبُ قبائل مُضَر وفارسُها وإمامُها وحَكَمُها. من حُكام العرب في الجاهلية، يحتكمون إليه في النوازل، وكان عندهم مَرْضيَّ الحكم. وكنا قدَّرنا زمنه نحو (٢٧٥ ـ ٤٢٥ م). له شعرٌ جيِّدٌ وكلام مُسَدَّدٌ. وهو ممن حرَّموا الخمر في الجاهلية.

بعضُهم أنه أُتيَ بخُنْثَى ليحكم فيه، وهو لا يدري ما حكمُ الخنثى، فقامت إليه جاريتُه «خُصَيْلَة»، وقالت له: ما بالُكَ! أَتْبِعْهُ مَبَالَهُ!.. ولما جاء الإسلام أقرَّ ذلك وجرى حكمه به[1]. فانظرْ إلى أصحاب هذه الأخبار كيف جعلوا من زعيم، موصوفٍ بالعقل والحكمة والفروسية، رجُلاً خُولِطَ في عقله، وفَسَدَ رأيُه، وعَرَض له السَّهوُ والنسيان، ورغم ذلك كان مستمراً في الحكم بين الناس، حتى احتاج إلى من يقرعُ له العصا، فينزع عن زَيْغِهِ، وحتى صارت جاريتُه أَقْضَى منه، فيطلب منها النصح والمشورة!... وكأن الرجل كان إمَّعَةً جاهلاً من غِمار الناس، وكأن العربَ كانوا من الجهل بحيث لا يفرقون بين العاقل ومَنْ خُولط في عقله.

ولكننا إذا عرفنا أن الشعوبية في عصر التدوين كانت تُعَيِّرُ العربَ باسْتعمالهم العَصا في أمور كثيرة، عَلِمنا أن تلك الخرافات التي ساقها أهلُ الأخبار تفسيراً لذلك القول، إنما هي من قبيل الاختراع والتزوير والدسّ. فقول العرب: إن العصا قُرِعت لذي الحِلْم، وأنها لم تُقْرَع قبل ذلك لغيره، إنما هو من قبيل الفخر، يفخر به بنو عَدْوان على الناس، لأنهم كانوا يَعُدُّون عامِرَ بنَ الظرب أولَ قُضاة العرب وأئمتِهم بسوق عكاظ، ثم انتقل ذلك إلى بني تميم كما ذكر ابنُ حبيب[2]. ولعلَّ الرجلَ كان أوَّلَ من سنَّ عادةَ قَرْعِ العَصَا، إيذاناً بانعقاد مجلس القضاء، أو بحضور القاضي أو غير ذلك، فلم يجد الرؤساءُ في استعمالها بعدَهُ غَضَاضةً، فردُّوا على الشعوبية بأن العصا لا عيبَ فيها، وأنها قُرِعت لذي الحِلْم، دليلاً على جلالةِ قَدْرِهِ وعُلوِّ مركزه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥٣، والعقد الفريد: ١/ ٦٢، و٣/ ٩٤، وعيون الأخبار: ١/ ٧٣، والمعارف: ٨٠، ٥٥٣، والبيان والتبيين: ٣/ ٢٧، ولسان العرب: ١٥/ ٦٦ (عصا)، وجمهرة أنساب العرب: ٢٤٣، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) المحبَّر: ١٨١.

ولئن كنتُ لا أعتقد أن عامر بنَ الظرب هو أوَّلُ القضاة بعكاظ، لأن القضاء بعكاظ كان في بني تميم بن مُرٍّ حَضْراً، فإن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان قاضياً قومياً، يقضي بين العرب على اختلاف قبائلهم، وربما قضى أحياناً بعكاظ وغير عكاظ[١]، ولم يكن قاضياً مَحليّاً يقضي بين أبناء قبيلته وحَسْب، وهو في ذلك كالأفعى بن الحُصَيْن الجرهمي، يقصده العربُ في منزله بنجران للاحتكام إليه، ومثلُه أَكْثَمُ بن صَيْفي التميميُّ، وقسُّ بنُ ساعدة الإيَاديّ. وحَنْظَلة بن نَهْد القُضَاعيُّ حاكمُ العرب، وكان منزلُهُ باليمن قربَ نجران[٢]. وكانوا جميعاً من الحكام الرؤساء والخطباء البلغاء[٣]، عند العرب جميعاً.

وقد ذكر ابنُ حبيب نحواً من ستة وثلاثين حكَماً من حُكام الجاهلية، ينتسبون إلى قبائل العرب من جُرْهم وقريش وكنانة وخزاعة وأسد وتميم وقيس وربيعة وإياد ودَوْس وقضاعة[٤]، وذكر بعضَ هؤلاء أيضاً المرزوقيُّ ولم يأتِ بجديد[٥]، ومثلُه فعلَ الميدانيُّ فذكر أحَدَ عشر قاضياً، ولكنه أضاف إليهم أربع حكيمات من بنات العرب هُنَّ: صُحْرُ بنت لقمان، وهند بنت الخسّ، وجمعة بنت حابس، وإبنة عامر بن الظرب[٦]. وقد ذكر الجاحظ أن إبنة عامر «كانت من حكيمات بنات العرب حتى جاوزتْ في ذلك مقدار صُحْرِ بنت لقمان وهند بنت الخسّ وجُمُعَة بنت حابس»[٧]... وهذه

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٤٦.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣، والأغاني: ١٦/ ٢٥٥.

(٤) المحبَّر: ١٣٢ ـ ١٣٧.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٥٤.

(٧) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧.

آية على ترقّي العرب في عصر الجاهلية إذ كان فيهم نساء حكيمات مُحكَّمات، اشتُهِرنَ بصواب الحكم، وصِحَّة الرأي، وحُسْنِ الفصل في الخصومات، وكان الناسُ يحتكمون إليهن أحياناً كما يحتكمون إلى الرجال، ويقبلون أحكامهنَّ قبولَهم أحكامَ الحُكَّام من الرجال[1].

على أن إفْرادَ ابن حبيب أسماءَ حُكَّام العرب في الجاهلية في فصل مُستقلٍّ، ثم ذِكْرَهُ أسماءَ أئمَّةِ العرب وقُضاتِهم بعكاظ في فصلٍ آخر[2]، أمرٌ يدفعنا إلى وجوب التفريق بين الطائفتين، فقضاةُ عكاظ كانوا في الوقت عينه قضاةً في قومهم، ومنهم من اكتسب شهرةً قوميةً فصار قاضياً للعرب جميعاً مثل أكثم بن صيفيّ، والأَقْرع بن حابس، وضَمْرة بن أبي ضمرة، وربيعة بن مخاشن، فكان العرب يرتحلون إليهم لينظروا في أحوالهم ومنافراتهم. أما حكامُ العرب الآخرون، فأكثرهم كانوا قضاةً في قبائلهم، وإذا حُكِّم أحدُهم في موسمٍ عامّ كسوق عكاظ مثلاً، فهو إنما يُحكَّمُ بين أبناء قبيلته، وينظرُ في قضاياهم دون غيرهم فإذا كان النزاعُ بين فريقين، ينتمي كلٌّ منهما إلى قبيلة، فالنظر في هذا النزاع من حُقوق حاكم السوق أو قاضيها، وربما كان أيضاً من حقِّ القضاة القَوْميّين المعروفين عند العرب جميعاً. وفي اعتقادي أن النزاع في الأسواق الموسمية، إذا كان تجارياً، فهو من حق قضاة السوق أو ملوكها حتماً، وإلا فما كانوا عيَّنُوا للسوق قاضياً أو حاكماً ينظر في النزاعات التي يمكن أن تنشأ بين الناس، ولكانت كلُّ قبيلةٍ تَشْهدُ موسمَ السوق تكتفي بقاضِيها أو حاكمها.



(١) المفضَّل: ٥/٤٩٨ و ٥/٦٣٩.

(٢) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٣.

الفصل الثاني

عكاظ المعرض العام لتجارات العرب

المطلب الأول: عروض التجارة

المطلب الثاني: نظام المتاجرة

١ ـ التحكيم التجاري

٢ ـ الإعفاء من الضريبة

٣ ـ العلامات التجارية

المطلب الثالث: طرائق البيوع والتعامل

المطلب الرابع: كتبة الصكوك بعكاظ

معرض تجارات العرب

يهمُّنا، في هذا الفصلِ من الكتاب، أن نُحقِّق في أمورٍ رئيسَةٍ ثلاثة:

الأوَّلُ: ما كان يُعْرَض في سوق عكاظ، من صُنُوفِ السِّلَعِ والأمتعةِ والعُـروضِ المختلفـة، جعلـتِ النـاسَ تحـرصُ علـى قَصْـدِهـا، كلمـا حـلَّ موسمُها، لِيَرَوْا فيها الجديدَ الذي لم يَرَوْهُ من قبلُ، وليشتروا منها ما أحَبُّوا من حاجات، ربما نزلتِ المنافسةُ بأسعارها، في معرضٍ عامٍّ كسوق عكاظ، أكثر مما كانوا يتوقَّعون.

الأمرُ الثاني: ما يمكن أن نُحيط به من أُصول المتاجرة، التي كانت مُتَّبَعةً إذ ذاك في التعامل بين الناس.

الأمر الثالث: طرائق البيوع والتعامُل.

المطلب الأول ـ عُروضُ التجارة:

لا شكَّ في أن عُروضَ عكاظٍ بلغتْ من الكثرة مبلغاً كبيراً لا يمكن حَدُّه، ومن التنوُّع ما رغَّبَ فيها الناسَ، حتى المُلوكَ والرؤساءَ، فكانوا يُوفِدُونَ إلى عُكاظ، مَن يشتري لهم منها ما يحتاجون إليه، مما لا يكون في غيرها. جاء في الأخبار أن ملكَ الحِيرة، النعمانَ بنَ المنذر، كان من عادته أن يبعثَ إلى سوق عكاظ، في مواسمها، لَطائمَ الطِيبِ والبُرِّ، فتُباع فيها، ويُشْتَرى له منها بثَمنها: الأَدَمُ، والحريرُ، والوِكاءُ، والحِذَاءُ، والبُرودُ من

العَصْبِ والمُوَشَّىٰ والمُسَيَّرِ العَدَنيّ[1]... وكان مشهوراً بها نوعٌ مُمَيَّزٌ من الأَدَمِ الجميل، يُبَاعُ فيها، فنُسِبَ إليها، وسُمِّيَ الأَدِيمَ العُكاظيَّ، وهو مما كان يُحمل إليها[2]... ولعله من الطائف. وكان مشهوراً بها كذلك صنوفٌ من الثياب الغالية الثمن، تُجلبُ إليها من بلاد العرب والشام والعراق ومصر. وكان يتوافَرُ بها من الأشياءِ، ما ليس في سائر أسواق العرب مِثلُه، «فكان الملكُ من مُلوك اليمن، يبعثُ بالسيف الجيّد، والحلَّة الحسَنة، والمركوب الفاره[3]، فيقف بها رسولُهُ في عكاظ، وينادي عليها، ليأخُذْها أعَزُّ العرب... يُريد بذلك معرفةَ الشريفِ والسيِّدِ منهم، فيأمُرهُ بالوِفَادَةِ على الملك، فيُحْسِن صِلَتَهُ وجائزتَه»[4].

وكان يُجلَبُ إلى عكاظ كلُّ ما اشْتُهِرتْ بلادُ العرب، وغيرُها من البُلْدان القريبة والبعيدة، بإنتاجه أو صُنْعِه[5]. فكان فيها على سبيل التمثيل:

- غَوالي الطِيب، والمِسْكُ، والعَنْبرُ، والكافورُ، والبَخُورُ، والْلُبَانُ، وأنواعُ العُطور، والزَّعْفرانُ، والأَفَاوِيهَ، والوَرْسُ، والكُنْدُرُ، والخِطْرُ، والمُرُّ، والخِضَابُ، والصمغ، والعِلْكُ، والحِنَّاء...

---

(١) الأغاني: ٢٢/ ٦٤. الأَدَمُ: الجلودُ المدبوغة. الوِكاء: ج أَوْكِيَة، وهوَ كلُّ وعاءٍ يُشَدُّ رأسُه بما يشبه رباطَ الصُّرَّة. البُرودُ: ثيابٌ يمنيَّة مُخطَّطَةٌ غاليةُ الثمن. العَصْبُ: ضربٌ من بُرودِ اليمن، سُمِّي عَصْباً لأن غَزْلَهُ يُعْصَبُ، ويُدْرَجُ، ثم يُصْبَغ، ثم يُحَاكُ. المُوَشَّى: وَشَّى الثوبَ أي حَسَّنَهُ بالألوان، ونَمْنَمهُ، ونقشَهُ. المُسَيَّرُ: ثيابٌ مُخَطَّطةٌ، وَشْيُها يشبه السُّيُورَ.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٤٤٨ (عكظ)، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٣) المركوبُ: ما يُركَبُ من الحيوان، والفارِهُ: النشيطُ الحادُّ، القويُّ. ولا يقال للفرس فارِهٌ، إنما يقال للبِرْذَوْنِ والبغل والحمار. ولا يقال للفرس إلا جواد.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٥) عكاظ والمربد: ٢٥.

● أساوِرُ، وخَلاخيلُ، وقلائدُ، وسَلاسِلُ، وتيجانٌ، وأكواب، وأباريقُ، بعضُها من ذَهبٍ أو فِضَّةٍ، واللؤْلؤُ، والدرُّ، والعَقِيقُ، والبَقَرانُ، والخَرَزُ، والجَزْعُ . . .

● البُرودُ المُوَشَّاةُ، والمُسَيَّرةُ، والمُرَحَّلةُ، والمُخَطَّطةُ، وثيابُ الكَتَّانِ أو القطنِ أو الحريرِ، والحُلَلُ، والجُبَبُ، والأرْدِيَةُ، والأَقْمِصَةُ، والعَباءات . . .

● أنواعُ التُمُورِ، والخُمُورِ، والزبيبُ، ودقيقُ القمحِ الأبيض، والزيوتُ، والدُّهون، والسَّمَكُ المجفَّفُ، والعَسَلُ، والتوابِلُ، والحِنْطَةُ، والسَّمْنُ، والملحُ . . .

● الصوفُ، والشَّعَرُ، والوَبَرُ، وأنواعُ الجلودِ المدبوغةِ، والمناطِقُ المُذهَّبَةُ، والرِّحَالُ، والبُسُطُ المصنوعةُ من الصُّوفِ، أو شَعَرِ الماعِز، وريشُ النعام . . .

● أنواعُ السيوف، والرماحُ، والنِّبَالُ، والدُّرُوعُ، والخَناجِرُ، والنِّصَالُ . . .

● الإبِلُ، والبَقَرُ، والأغنام، والقرود . .

● أَوَانٍ من زُجَاج، وأُخرى من خَشَبٍ أو أديمٍ . . .

● صناديقُ، وهوادِجُ، ومَطارِقِ، وأثاثٌ للبيوتِ مختلفٌ أصنافُه . . .

● وكان في عكاظ أيضاً رقيقٌ يُعْرَضُ للبيع، وكانت المتاجرةُ به يومئذٍ تُجيزُها الأمَمُ كافةً، وتَعُدُّ حقَّ السيِّدِ على عَبْده أو أَمَتِهِ حقّاً مشروعاً مَصُوناً . . . وقد ذُكر أن السيدة خديجة أمَّ المؤمنين مَلَكَتْ زيْدَ بنَ حارِثَةٍ، اشتراهُ لها حكيمُ بن حزام[1]، في سوق عكاظ، بأربع مئة درهم. ثم سألها رسولُ الله، بعدما تَزَوَّجَ بها، أن تَهَبَهُ زيداً، فَفَعلتْ، فأَعْتَقَهُ، وزَوَّجهُ من

---

(١) حَكيم بنُ حزام: من بني أسد بن عبد العُزَّى. وُلد في الكعبة، وكان صديقاً للرسول قبل البعثة وبعدها. أسلم يوم الفتح. توفي سنة (٥٤ هـ = ٦٧٤ م)، وعاش نحو (١٢٠) سنة.

«أُم أيمن»، وكانت ممَّا وَرِثَهُ عن أبيه، وكان اسْمُها «بَرَكة»[1]. وذكر أيضاً أن «النابغةَ بنت عبد الله»، كانت سَبِيَّةً عند بعض قبائل العرب، فأبىٰ قومُها فِداءَها، فبِيعَتْ في عكاظ، فاشتراها عبدُ الله بنُ جُدْعان التَّيْميُّ، للعاص بن وائل السَّهْميّ، فولدتْ له ابنَه عمرو بنَ العاص، فاتحَ مصر[2].

هذه أمْثِلَةٌ لما كان يُعْرض في سوق عكاظ من البضائع، وقد تحدَّثْنا في كلامنا على «العرب والتجارة» حديثاً مُفَصَّلاً عن ذلك، فيه وضُوحٌ كافٍ مُغْنٍ عن التكرار.



المطلب الثاني ـ نظامُ المتاجرة:

إن استقراءَ ما تَيسَّرَ لنا من الأخبار، يُنْبِىءُ بوجود بعض القواعد العامَّة، التي كانت مُتَّبَعَةً في المتاجرة بسوق عكاظ. ولعل أكثَرها وضُوحاً: التحكيمُ التجاريُّ، والإعْفاءُ من الضرائب، والعلاماتُ التجارية.

١ ـ التَّحْكيمُ التجاري:

كان قضاةُ عكاظٍ غالباً يحكمون فيه بين المتنازعين، لِئَلَّا يطغَىٰ أحَدٌ على أحَدٍ في بيع أو شراء، فكان خيرَ ضامنٍ لحقوق الضعفاء، والمظلومين، الَّذين كانوا يقعون ضحايا للغِشِّ، أو التَّدْليس، والخِداع، أو الغُبْنِ بالأسعار، أو المَطْلِ بوفاء الدَّيْن، وغير ذلك من المظالم. وأعتقد أن منصبَ القضاءِ إنما أُحْدِثَ بِعُكاظٍ من أجل النظر في مثل هذه المظالم، قبل أيِّ شيءٍ

---

(١) المعارف: ١٤٤، والطبقات: ١/ ٤٩٧، و ٣/ ٤٠، وأنساب الأشراف: ٤٦٧، ٤٧٦.
(٢) العقد الفريد: ١/ ٥٤.

آخَرَ، كالنَّظَرِ في المنافرات والتفاخُر، ولا سيما أن أرضَ عكاظ لا يحكمُها مَلِكٌ، أو رئيسُ قبيلةٍ، ليقومَ مَقامَ السُّلْطةِ القضائيَّة، أو التنفيذيَّة في مثل هذه الأحوال. وقد ساعد هذا التدبيرُ على رَواجِ التجارة في عكاظ، وعلى دَعْم الثقة بها، وازدهارها.

٢ ـ الإعفاءُ من الضرائب:

كانت البضائع المجلوبةُ إلى سوق عكاظٍ مُعْفاةً من العُشُورِ، أو المُكُوس[١]، فكأنها كانت «منطقةً حُرَّةً»[٢] في الجاهلية. إذ لم يكن بها مَكَّاسٌ يتقاضَى المكوسَ من التجار، ولا عَشَّارٌ يُحصِّل العُشُورَ على المُبَايَعاتِ[٣]، ذلك لأن السوقَ لم تكن في سُلطان أحَدٍ من الأُمَراء أو الملوك، ولأن موسمها يقومُ في شهرٍ حرامٍ، لا يحتاجُ معه التجَّار إلى من يَخْفُرهم، أو يحميهم فيها. وكان التجارُ يُبَاشِرون البيعَ والشراءَ بالسوق فَوْرَ افتتاحها، وإعلانِ قيامِ مَوْسِمِها، وليس عليهم أن ينتظروا، كما لو كانت السوقُ تقعُ في أرض مملكةٍ، حيث لا يبيعُ أحدٌ شيئاً من بضاعته، حتى يبيعَ الملكُ، أو حاكمُ السوق، كلَّ ما يُريدُ بَيْعَهُ من العُروض.

أمّا ما ذكره أحمد أمين عن القبائل التي كانت تُقدِّم إتاوةً لرؤسائها، في نظير إقامتها بعكاظ، فهو غير صحيح، لنصِّ كلٍّ من ابن حبيب[٤]، والمرزوقي[٥]، أنه لم يكن بعكاظ عُشُورٌ ولا خفارة. واسْتِشهادُ أحمد أمين

(١) المُكُوس: مُفردها مَكْسٌ، وهي ما كان يُؤخَذُ ضريبةً من التجار، وهي كالعُشُور، والمكَّاسُ هو جابي المكوس، والعَشَّارُ جابي العُشُور.

(٢) المفصَّل: ٧/ ٣٧٩.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٤) المحبَّر: ٢٦٧.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

بالإتاوة التي كانت تُقدِّمُها هوازنُ إلى زهير بن جذيمة العبسيّ بعكاظ[1]، ليس في مَحلِّه، لأن هوازنَ هي صاحِبَةُ السوق، فكيف تُؤدِّي أجْراً عن إقامتها بها، إلى من لا يملك شيئاً من أرضها؟ والواقع أن هوازن كانت تؤدِّي إتاوةً إلى زهير، لأنها كانت تدينُ له بالطاعة، وكان موسمُ عكاظ خيرَ مناسبةٍ لتحصيل تلك الأتاوة، التي يجب أداؤها في نظير الولاء، لا في نظير الإقامة بعكاظ.

٣ ـ العلاماتُ التجاريَّة:

لم تكن كلُّ بضاعةٍ تَرِدُ إلى عكاظ تُباع، إذا لم يُعرفْ أصلُها، ومَنْشَؤها، و «علامتُها التجاريَّةُ» إن كان لها سِمَةٌ خاصَّةٌ بها. تَأَكَّدَ لنا هذا الأمرُ، لأن البضائعَ، التي كانت مجهولةَ الأصل، لم تكن تجدُ مِن الناس مَن يشتريها، أو يُقْبِلُ عليها. ومثالُ ذلك ما وقع في مَوسمٍ من مواسم عكاظ، فقد قَدِمَ السوق لصٌّ من لُصوص العرب، مُتَنكِّراً في زِيّ تاجر، وقَرَّبَ إِبِلاً للبيع، فسُئِل: ما علامةُ إبِلِكَ؟. فتَعَثَّر لسانُه، فلمّا أَلَحُّوا عليه، صاح: كلُّ نِجَارِ إبِلٍ نِجَارُها[2]... والنِجَارُ: الأَصْلُ، أراد أن فيها من كل القبائل، فعلموا أنه سارقٌ، كان يُغِيرُ على أنعام القبائل، فيطردُ إبِلَهُم، ثم يأتي السوق بها. وكانت لكلّ قبيلة من قبائل العرب سِمَةٌ خاصَّةٌ، تُوسَمُ بها أنْعَامُهم، لِيُعْرَفَ أَصْلُها، فكان من عادتهم أن يسألوا: ما نارُ هذه الناقةِ؟ أي ما سِمَتُها؟ سُمِّيَتِ السِّمَةُ ناراً، لأنها بالنارِ تُوسَم، وكانوا يقولون عن الإبِل: نِجَارُها نارُها، أي سِمَتُها تدلُّ على أصلها[3]... ويمكن أن نفهم من هذه الواقعة،

---

(١) عكاظ والمربد: ٢٤.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١١٠.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٤٣، وتاج العروس: ١٤/ ٣٠٥ (نور).

أن البضاعةَ إذا كانت مجهولةَ الأصلِ لا يشتريها أحدٌ، وأنه كان من عاداتهم تمييزُ بضائعهم بسِمَاتٍ مَعْروفةٍ بينهم. وكنتُ أشرتُ إلى العلامات التجارية في كلامي على الكتابة في الجاهلية، وذكرتُ أنهم كانوا يختمون أكياسَ البُرِّ، وزِقَاقَ الخمر، وغيرَها من البضائع، بخاتَم خاصٍّ، عليه كتابةٌ منقوشةٌ مُميِّزةٌ، يُسَمُّونه الرَّوْسَم[1].



المطلب الثالث ـ طرائق البُيوع والتعامل:

ذكر أهلُ الأخبار أن البَيْعَ في عكاظٍ كان بَيْعَ «السِّرَار»! وقد فسَّرهُ ابنُ حبيب بقوله: إذا وَجَبَ البيعُ، وعند التاجِر ألْفٌ، ممَّن يريدُ الشراءَ، ولا يُريدُهُ، أشْركه في الربح[2]... بينما قال المرزوقيُّ: إنه إذا كان عند التاجر أَلْفُ رَجُلٍ ممن يريدُ الشراءَ ولا يُريدُه فلَهُ الشركةُ في الربح[3]... ولا أعتقدُ أحداً يرضى بهذا التفسير، ولا ذاك، فكلاهما كلامٌ غريبٌ، ليس له معنى معقول!

وكنتُ ذكرتُ، في كلامي على خصائص الأسواق الموسمية، أن سوقاً كسُوق عكاظ، يَتوجَّـهُ إليها التجّارُ من كل مكان، ويُعِدُّون لها ما استطاعوا من صنوف البِيَاعات، ويَعِدُ الناسُ أَنْفُسَهم بشُهودِها، ويُواعِدُ بعضُهم بعضاً على التلاقي في مواسمها، ويَؤُمُّها عربُ الشمالِ والجنوب، وأهلُ الشام والعراق، ويَتَوافَىٰ بها أشرافُ العرب وملوكُهم، لا يمكن أن تكون البُيُوعُ

(١) المفصَّل: ٧/ ٥٥١.
(٢) المحبَّر: ٢٦٧.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

فيها، بطريقةٍ واحدةٍ مُبْهَمَةٍ، لا هي من أشكال القمار، ولا من ضُروب العَبَثِ واللهو أو اختبارِ الحظوظ.

وقد فَتَّشتُ في المعاجم عن هذه الكلمة، فلم أجد أحَداً ذكر هذا النوعَ من البُيوع، إلا بطرسَ البستانيَّ قال فيه: «وبيعُ السِّرار أن تقول أُخْرِجُ يدي وتُخْرِجُ يدَكَ، فإن أخْرجتُ خاتمي منها قَبلك، فهو بَيْعٌ بكذا، وإن أخْرَجْتَ خاتَمك قبلي فهو بَيْعٌ بكذا، فإن أخرجا معاً استأنَفَا الإخراجَ»[١]. . . ! فهل يُصدِّقُ أحدٌ أن في الدنيا سوقاً، لها من الشهرة والخُلود ما لسوق عكاظ، يكون البيعُ فيها بهذه الطريقة العجيبة الغريبة؟ لا يمكن قطعاً التسليم بذلك، ولا شك في أن بُيُوعَ عكاظ كانت في مُعْظمها تقومُ على المُسَاومَةِ، أو المُقَاوَلَةِ بين البائع والمشتري، وأن بعض البُيوع كانت تَطْغَى عليها الشَّكْليَّةُ، وأن الأمر لم يكن يخلو، كما هي العادةُ في كلِّ زمانٍ، وكلِّ مكان، من بعض العادات السيِّئة، كأنْ يَتَواطأَ البائعُ مع رجُلٍ عنده، على أن يمدحَ له بضاعتَه، ويُحْسِنَ وصفَها، على مَشْهدٍ ومَسْمَعٍ من زَبُونٍ، فَيَنْخدِعُ الزَّبُونُ بما رأى وما سمع، ويُقْبِلُ على شراء البضاعة مُتَسَرِّعاً، من غير تبصُّر، وبثمنٍ يفوق ثَمَنها الحقيقيَّ. . .

على أن الأصل اللغويَّ في معنى السِّرارِ هو المُسَارَّةُ، أي التَّنَاجي بالمودَّةَ، والبَوْحُ بالسرِّ. وصاحبُ السِّرارِ، أو أخُو السِّرار، هو الذي يُسِرُّ بالمودَّةِ، أو بسِرِّه إلى صاحبه، ومن معانيه أيضاً: خطوطُ باطنِ الكفِّ، والوجهِ، والجبهةِ[٢]. . . وفي قوله تعالى: ﴿**وأَسَرُّوهُ بضاعةً**﴾[٣]، جعله

---

(١) محيط المحيط: ٤٠٦ (سرر).

(٢) لسان العرب: ٤/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢ (سرر).

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٩.

الزبيديُّ من السِّرار، وقال: أي خَمَّنُوا في أنفُسِهم أن يحصلوا من بيعه بضاعةً[1]. فهل يكون السِّرارُ نوعاً من البُيوع، يُخمِّنُ فيه أحَدُ المُتَبايِعَيْن أن يحصل من بَيْعه ما معه من عُروضٍ، على بضاعةٍ أفضل؟

والثابتُ أن العرب كانوا يتعاملون، في مُبايَعاتِهم، بالنقودِ التي سُكَّتْ في اليمن، أو في الحبشة، أو في بلاد النبط، من ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، أو من معادنَ أُخرى كالنحاس، وعَرفوا الدنانيرَ والدراهمَ والدَّوَانِقَ. وتعاملوا أيضاً بالمقايضة، أو المُبَادَلة، كما تعاملوا بوزن الذهب أو الفضة[2]. وكانوا يتعاملون بالدَّيْنِ إلى أَجَلٍ، ويبدو أن هذا الأَجَل كان يُعَيَّن بموسم عكاظ. وقد جاء في الحديث أن النبيَّ عليه السلامُ، كتب لثقيفٍ حين أسلموا كتاباً، فيه: «. . . إن ما كان لهم من دَيْنٍ في رَهْنٍ وراء عكاظ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه، ويُلاطُ بعُكاظِ، ولا يُؤخَّر»[3]، أي أن على المدين قضاءَ الدَّيْن فقط، من غير رِباً، وذلك في موسم عكاظ، لا يُؤَخِّرُهُ عن ذلك. وكلُّ شيءٍ أُلْصِقَ بشيءٍ، وأُضِيفَ إليه فقد أُلِيطَ به، والوفاءُ هنا أُلْصِق بعكاظ، وهو دليلٌ على أنه كان ينعقدُ، والثمارُ قد أدركت، والغَلاَّتُ جُمِعتْ، والناسُ أَيْسَرتْ.

* * *

المطلب الرابع ـ كَتَبَةُ الصُّكُوك بعكاظ:

جاء في أخبار عكاظ، أنه لمَّا دخلت سنةُ خمس وثلاثين من عام الفيل، أي (٦٠٥ م) كان فيمن حَضَر الموسمَ عمرو بنُ الحارث بن الشريد

---

(١) تاج العروس: ١٢/ ٢٣ (سرر).

(٢) المفصَّل: ٧/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨، ٤٩٥.

(٣) لسان العرب: ٧/ ٣٩٧ (لاط)، ومجموعة الوثائق السياسية: ١٦٠.

السُّلَميّ[1]، من قيس بن عيلان، ومعه إبناهُ معاوية وصَخْرٌ، أَخَوا الخنساء الشاعرة، وحَضَرَ السوق مَعْمرُ بن الحارث العُذْريُّ، فلما رأى عَمْراً، واقَفَهُ، وقام حِذاءهُ، وأَمَرَ ولدَهُ أن يخدموهُ، إجلالاً له، ففعلوا، فلما تقوَّضَتِ السوقُ، دعا عمرو بن الحارث إبنَيْه صخراً ومعاوية فقال لهما: إن مَعْمراً قد طوَّقني مالم يُطوِّقني أَحَدٌ من العرب، وقد أَحْببتُ أن أُكافيه. فقالا: إفعلْ ما بدا لك! فدعا بكاتبٍ وصحيفةٍ، وكتب ما خُلاصتُه: هذا ما مَنَح عمرو بن الحارث بن الشريد السُّلَميُّ، معمرَ بنَ الحارث العُذريَّ، منَحَهُ ما لَهُ بالوحيدة من نواحي يثرب، برسُومه، وأطلاله، ومَغَانيه، ومَسَايِله، وشَجرِه، ونباته، وكلُّ ما صاءَ وصَمَتَ فيه[2]، وبكتِ السماءُ عليه، وضحكتِ الأرضُ عنه، فهو لمعْمرٍ دون عمرو، لا يشوبه كدَرُ الامْتنان، ولا أمارات الامتهان... ثم ذُكر في الصحيفة أنها كُتبت لخمسٍ وثلاثين عاماً خَلَتْ من عام الفيل، وبُعِثَ بها مُوَثَّقةً، مع طُرَفٍ من طرائف اليمن إلى معمر بن الحارث... وقد ذكر الأصمعيُّ أن الأرض كانت ما تزال باقيةً، يَفيضُ على وَلد مَعْمرٍ دَخْلُها، وذلك في أيام هارون الرشيد[3].

ويبدو من هذه الواقعة: أن العرب عرفوا صكوكَ التمليك، المُحرَّرةَ وفاقاً للأصول القانونية العامَّة، وأنهم كانوا أيضاً على علمٍ بقُيود الحسابات التجارية، وأن كَتَبَةَ الصُّكُوكِ كانوا بسوق عكاظ، مُتَأهِّبين مع صُحِفِهم للكتابة بين الناس.

---

(١) انتشر في كتُب الأدب أنه عمرو بن الشريد، وهو غلطٌ صوابُه ما أثبتناه.

(٢) ما صَاءَ وصَمَت: المالُ الناطقُ والصَّامِتُ. الأَولُ كالإبل والغَنَم، والثاني كالذهب والفضة.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨ ـ ١٦٩.

الفصل الثالث

عكاظ مُجتمعُ قبائل العرب

لوحاتٌ تُصوِّرُ الحياةَ الاجتماعية كما كانت بعكاظ:

- مصدر الأمثال، منبر الوعظ والتبشير، ملتقى المحبين، منبر التفاخر والمنافرة، مفاداة الأسرى، أخبار المعمَّرين، مقارعة عن حسناء، المُعاظمة في الأحزان، عكاظ مُوحِيَةُ العجائب، سرحة التهاجي، زبيب عكاظ، العرّافون، امتحان البديهة، رايات الغدر ورايات الوفاء، بنات للزواج، تأديب السفهاء، صواحب الرايات، التحرش بالكرام، إذاعة العرب، تأمين الخائفين، عقوبة الفتنة، صعلوك في عكاظ، أوسمة عكاظ، مُلقي القناع، ملاعنة بعكاظ، القناع بعكاظ، إطلاق الألقاب، عار الدهر، المصارعة والفروسية، الكشف عن جريمة...
- تعقيب.

عكاظ المَجمَعُ العامُّ لقبائل العرب

مثلما كانت سوقُ عكاظٍ معرضاً عامّاً لمتَاجِر العرب، فقد كانت كذلك مَجْمَعاً واسعاً، يتلاقَى فيه أشرافُ العرب، ورؤساؤهم، وأبناءُ القبائل على اختلاف مَواطِنهم، فكأنهم في نَدْوةٍ اجتماعيَّة كبرى، شُيوخُهم يَتَشَاوَرُون، وكِبَارُهم يتسَامَرون، وأشرافُهم يتفاخرون، والشُّبَّانُ يتنافسون، والعُشَّاقُ منهم في كلِّ وادٍ يَهيمون، والشعراءُ يَتَبَارُون، والرُّوَاةُ يَنْصِتُون... ألوانٌ شَتَّى من حياة العرب في عكاظ، تَتَداوَلُ سمعَ المرءِ وبَصَرَهُ، منها ما يراهُ بِعَيْنيه، ومنها ما يسمعه بأُذُنَيْه، ومنها ما يَعيشُه بكل جَوارِحِه. مَنَابِرُ كثيرةٌ انتشرت في عكاظ، نِداءاتُ غَوْثٍ تُرْفَع، وقصائدُ فَخْرٍ تُنْشَد، وأشعارُ هَجْوٍ تُرْجَز. خُطَبٌ تُرْتَجَلُ، وأحكامٌ تُنْشَر، راياتٌ مَرْفُوعَة، وأسْلِحَةٌ مَوْضُوعَة. رقيقٌ يُباع، وأخبارٌ تُذاع. قمارٌ ومُسَابَقات، مفاخرات ومُنَافَرات، جِوَارٌ ومعاهدات، وَعْظٌ وتَبْشِير، أَطِبَّاءُ وعَرَّافُون، خمْرٌ وخَمَّارون، قِيَانٌ وحانات... أصواتٌ مختلطةٌ، فيها معْمَعَةُ الفُرسان، وعَطْعَطَةُ المُجَّان، وأَطِيطُ الرُّهْبَان، وفيها بَعدُ من صُوَر الحياة ألوانٌ وألوان، لم تكن في الأسواق الأخرى، ولا يُمكن أن نُدْركها إلا إذا اطَّلعنا على ما أُثِرَ عنها من الروايات، فهُلَمَّ معي نطالع ما تَوَافَر لنا، بالتحقيق والبحث، من هذه الأخبار الكثيرة المختلفة، وهي تقعُ في ثلاثينَ حالةً اجتماعيَّةً، تُمثِّل أوْجُهَ النشاط الاجتماعي في عكاظ...

* * *

١ ـ مَصْدرُ الأَمثال:

١ ـ في أخبار الجاهلية أن ضَبَّةَ بنَ أَدٍّ بنِ طابخة[١]، وهو جدٌّ عربيٌّ قديم[٢]، نَفَرتْ له يوماً إبِلٌ تحت جُنْح الليل، فأرسل في طلبها وَلَدَيْه سَعْداً وسُعَيْداً، كلاً منهما في طريق، فوجدها سعدٌ، ورَجَعَ بها. ومضَى سُعَيدٌ في طلبها، ولكنه لم يَعُدْ، وفُقِدَ أثَره. وكان لَقِيَهُ في الطريق رجلٌ يُدْعَى الحارثَ بنَ كعب، فقتله، وسَلَبهُ بُرْدَيْن كانا عليه. فكان ضَبَّةُ، بعد ذلك، كلما أمسى فرأى تحت الليل سواداً، قال: أَسَعْدٌ أم سُعَيْد[٣]...؟ فذهب قَولُه مثلاً يُضْرب في النجاح والخيبة، أو في الاستخبار عن أيِّ الأمرين وقع: الخيرِ أَمِ الشرِّ.

ومكَثَ ضَبَّةُ على ذلك حزيناً ما شاءَ اللّٰهُ له أن يمكثَ، حتى قصد الحجَّ، فوافَىٰ سوقَ عكاظ في موسمها، فلقيَ بها الحارثَ بنَ كعب، ولم يكن يعلم أنه قاتلُ ابنه، ولكنه رأى عليه بُرْدَيْهِ، فأدرك أنه المجرمُ، فاقترب منه وسأله: هل أنتَ مُخْبِري ماهذان البُرْدَانِ الجميلان؟ فقال: بلى... لقيتُ غُلاماً كانا عليه، فسألتُه إيَّاهما، فأبَىٰ عَليَّ، فقتلتُه وأخَذْتُهما... فقال ضبَّة: لله دَرُّك، أَبِسَيْفِكَ هذا قَتلتَه؟ قال: نعم... قال: فأَعْطِنيه أَنْظُر إليه فإني أظنُّه صارِماً، وأظنُّكَ جَلْداً حتى قَدِرْتَ على ذلك! فأعطاهُ الحارثُ السيفَ، فأخذهُ من يده، فَهَزَّهُ، وقال: الحديث ذو شُجُون...! فذهب

---

(١) ضَبَّةُ بنُ أَدّ بن طابخة بن الياس بن مضر، وهو عَمُّ تميم بن مُرّ بن أَدّ. كانت منازلُهم شمالَ نجْد.

(٢) الأعلام: ٣/ ٢١٣.

(٣) ومنه المثلُ: أَنجَ سعدٌ فقد قُتِل سُعَيْد، قاله الحجَّاجُ في إحدى خُطَبه.

قولُه هذا مَثَلاً يُضربُ في الحديث يُذَكِّرُ بحديثٍ آخر[١]، ثم إنه أَهْوَى له بالسيف فقتله، فلامُوهُ في ذلك وقالوا: أَفِي الشهرِ الحَرَام يا ضبَّة؟ فقال: سَبَقَ السيفُ العَذَل[٢]. . . فذهب قولُه هذا مثلاً يُضْرب لما قد فات[٣]، فهو أَوَّلُ من سارت عنه هذه الأمثال، وقد قال اثنين منها في سوق عكاظ، فصَدَرا عنها، وكان موسمُ عكاظ في ذلك فرصةً للكشف عن قاتل مُجرم.

وإذا نظرنا في هذا الخبر نظرةً أخرى، وجدنا أنه يرتفع بزَمنِ وُجود عكاظ، إلى أواسط القرن الثاني للميلاد. إذ يُقَدَّرُ ما بين ضَبَّة وسعدِ بن زيد مناة، أَوَّلِ من اجتمع له الموسمُ والقضاءُ بعكاظ، بنحو مئة سنة[٤].



٢ ـ وفي أخبار الجاهلية أيضاً، أن سَعْدَ بنَ زيد مناة بن تميم، وكان يُلقَّبُ بالفِزْرِ، وهو اسْمٌ لابْنِ النَّمِر، وافَى الموسمَ في عكاظٍ بمِعْزَى، فنادى في الناس أنِ اجتمِعُوا، فاجْتَمَعوا، فقال: ألاَ إن مِعْزَى الفِزْرِ نَهْبٌ،

---

(١) الحديث ذو شجون: أي ذو طُرُقٍ مُتعدِّدة، واحدُها يُؤَدِّي إلى الآخر، ومنه قولُ الفَرزدق الشاعر.

لا تَأْمَنَنَّ الحربَ، إن اسْتَعَارَها ... كضَبَّةَ إذ قال الحديثُ شُجُونُ

ومنه أيضاً قولُ الشاعر:

تَذكَّرَ نَجْداً، والحديثُ شُجُونُ ... فَجُنَّ اشْتِياقاً والجنونُ فُنونُ

(٢) أي سبق القتلُ لومَ اللائم. ومنه أن الحارثَ بن ظالم المُرِّي ضرب رجُلاً فقتله. فأُخبِر بعدُ بعُذْره، فقال: سبق السيفُ العَذَل.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٢٧٥، والعقد الفريد: ٣/ ٨٥، وجمهرة أنساب العرب: ٢٠٣، ولسان العرب: ١٣/ ٢٣٣ (شجن)، و ١١/ ٤٣٨ (عذل)، وتاج العروس: ٨/ ١٩٦ (سعد)، وأدبيات اللغة العربية: ١٥٤ ـ ١٥٥، والمفصَّل: ٤/ ٥٢٣.

(٤) أنظر جدول أنساب بني تميم، وجدول بني مُضَر.

فانْتَهِبُوها، ولا أُحِلُّ لأَحَدٍ أكثرَ من شاةٍ. . . فتَقطَّعُوها في ساعة، وتفرَّقتْ في بلاد العرب. فسار من ذلك مَثَلٌ فيما لا يُدْرَكُ، فكانوا يقولون: لا آتِيكَ مِعْزَى الفِزْر، أي حتى تجتمعَ مِعْزَى سعد، وهي لا تجتمعُ أبداً[1]. وكان العربُ يجعلون ما لَهم نَهْباً، يُنْهِبُونَه الناسَ، طلباً للسيادة والشرف.

* * *

② ـ مِنْبرُ الوَعْظ والتبشير:

١ ـ جاء في الحديث، أن الرسولَ عليه السلامُ «لبِثَ عَشْرَ سنين يتبعُ الحاجَّ بالمواسم»[2]، وذكر اليعقوبيُّ: أنه «قام، عليه السلامُ، بسوق عكاظ، عليه جُبَّةٌ حمراءُ، فقال: يا أيها الناسُ، قولوا لا إلَه إلا اللَّهُ، تُفْلِحوا وتَنْجحوا»[3]. وفي أخبار السيرة النبوية أنه كان من دَأْبِهِ، بعد مَبْعَثِهِ، أن يُوافيَ القبائـلَ كلَّ عامٍ بالمواسـم في عكاظ ومجنَّة وذي المجـاز، ويَقصدَ كلَّ قبيلةٍ في منزلها من السوق، فيعرض نفسَه عليهم، ويُخْبرهم أنه نبيٌّ مُرْسَلٌ من عند الله، ويسألهم أن يُصدِّقوه، وأن يُؤْمنوا بالله، وبما أَنْزله عليه من أحكام الدِين، ويدعوهم إلى أن يُؤْوُوهُ حتى يُبلِّغَ رسالات ربِّه، ولهم الجنَّةُ. . . وكان لا يجد أحداً ينصُره أو يُجِيبُه. وكان من القبائل الَّذين أتاهم في منازلهم بالسوق: بنـو عامر بن صعصعة، ومُحَاربُ بن خَصَفَـة، وفزارة بن ذبيان، وغسان، ومُرَّة، وبنو حنيفة، وسُلَيم بن منصور، وعَبْس، وبنو البَكّاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب من مذحج، وعذرة،

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ٢١٣، ولسان العرب ٥/ ٥٤ (فزر)، وتاج العروس ١٣/ ٣٢١، والمستقصى [illegible] ٢٤٥.

(٢) [illegible]

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ [illegible].

والحَضَارمة[1]. . . وكان أهلُ يثرب يَلْقَوْنه في الموسم بعكاظ[2]. وذكرت المواردُ التاريخية، أن عمرو بنَ عَبَسَة بن منقذ السُّلَميَّ، وكان صديقاً للرسول في الجاهلية[3]، قال: أَتَيْتُ رسولَ الله، وهو نازلٌ بعكاظ، فقلتُ: يا رسولَ الله، مَن تَبِعَكَ على هذا الأمر؟ قال: تَبِعَني عليه رَجُلانِ حُرٌّ وعَبْدٌ: أبو بكر وبِلاَلٌ. . فأسْلَمتُ عند ذلك، ورأيتُني رُبْعَ الإسلام[4].

٢ ـ وكان الرُّهْبان والأَحْبَارُ والحُكَماءُ يَرِدُون سوق عكاظ، يَعِظُون الناسَ، ويَذْكُرون البعثَ والحسابَ، والجنَّة والنارَ. وكان فيهم خُطباءُ وشعراءُ، ذكرت أخبارُ الجاهلية الأخيرة منهم: قُسَّ بنَ ساعِدَة الإيَاديَّ[5]، وأُميَّةَ بن أبي الصَّلْت، ووَرَقَةَ بنَ نوفل، وأَكْثَمَ بنَ صيفيّ. . . وكانت خُطَبُ هؤلاء، وأشعارُهم، غالباً، مطبوعةً بطابع دينيّ، تُزَهِّدُ في الدنيا وشؤونها، وتدعو إلى التأمُّل والنظر في عَظَمةِ الكون، للاستدلال بها على عَظَمةِ الخالق[6].

● وقد ذكر الأصفهانيُّ أن قُسَّ بن ساعدة «كان خطيبَ العرب، وشاعِرها، وحَلِيمَها، وحَكِيمَها، وحَكَمَها في عصره. يقال إنه أوَّلُ مَن علا على شَرَفٍ، وخَطبَ عليه، وأوَّلُ من قال في كلامه: أمَّا بعدُ، وأوَّلُ من اتَّكأَ عند خطبته على سيف، أو عَصاً، أدركه رسولُ الله، عليه السلامُ، قبل

---

(١) السيرة: ١/ ٤٢٢، والطبقات الكبرى: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧، ومعجم البلدان: ٤/ ١٣٤، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥١.

(٢) أخبار مكة: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) جمهرة أنساب العرب. ٢٦٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٣١٥، والكامل ٢/ ٥٩، والطبقات الكبرى. ٤/ ٢١٥، و ٧/ ٤٠٣

(٥) في لسان العرب أنه أُسْقفُ نجران، وكذلك اشتهر بين أدباء العرب، وهو غير صحيح.

(٦) فجر الإسلام: ٢٧ ـ ٢٨.

النبوَّة، ورآهُ بعكاظ، فكان يَأْثِرُ عنه كلاماً سمعه منه، وسئل عنه فقال: يُحْشَرُ أُمَّةً وحدهُ»[1].

ويُرْوَىٰ أن وفدَ بكر بن وائل[2]، قَدِمُوا على النبيّ ﷺ، فلما فَرَغَ من حَوائجِهم، «قال: هل فيكم أحدٌ يعرفُ قُسَّ بنَ ساعِدَة؟ قالوا: كلُّنا يعرفُه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال: كأني به على جَمَلٍ أحمرَ، بعكاظ، قائماً يقول: أيها الناسُ اجْتمِعوا، وإذا اجتمعتُم فاسْتمعوا، وإذا سمعتُم فَعُوا، وإذا وَعَيْتُم فقولوا، وإذا قلتُم فاصْدُقُوا، مَن عاش مات، ومَن ماتَ فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. . . »[3].

وقُسٌّ هو القائل في هذه الخطبة: وفي هذه آياتٌ مُحْكَمات، مطرٌ ونبات، وآبَاءٌ وأُمَّهات، وذاهبٌ وآت، ونجومٌ تَمُور، وبُحُورٌ لا تَغُور، وسقفٌ مرفوع، ومِهَادٌ موضوع، وليلٌ داج، وسماءٌ ذاتُ أبْراج، مالي أرى الناسَ يموتون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا، أم حُبِسُوا فناموا؟. . . يا معشرَ إيَاد! أين ثمود وعاد، وأين الآباءُ والأجداد؟ أين المعروفُ الذي لم يُشْكر، والظلمُ الذي لم يُنكَر؟ أَقْسَم قُسٌّ قَسَماً بالله، أن لِلَّهِ دِيناً، هو أَرْضَىٰ له من دِينكم هذا. . .

فــي الــذاهبيــن الأَوَّليــن ... مــن القُــرون لنــا بَصَــائِــرْ
لمّــا رأيــتُ مَــوارِداً للمــوتِ ... ليــس لهــا مَصَــادِرْ
ورأيــتُ قــومــي نَحْــوَهــا ... تمضــي الأكـابِـرُ والأصاغِـرْ
لا يــرجــعُ المــاضــي ولا ... يبقــى مــن البـاقيـنَ غـابِـرْ

(١) الأغاني: ١٥/ ١٩٢.
(٢) بكر بن وائل: من قبائل ربيعة بن نزار الكبرى، وهم أبناء عمومة إياد بن نزار.
(٣) مجمع الأمثال: ١/ ١٥٢، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٥١.

أيْقَنــتُ أنــي لا مَحَــالــةَ حيث صار القومُ صائِرْ[١]

● وهنالك أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيّ التميميُّ، وكان من قضاة عكاظ، و «من الخطباء البُلَغاءِ، والحُكّامِ الرؤساء»[٢]، وقد أدرك الإسلامَ، وحرَّضَ قومَه على اتِّبَاعِهِ، ومن أقواله: أَقِلُّوا الخِلافَ على أُمَرائكم، واعْلموا أن كثرةَ الصِّيَاحِ من الفَشَل. . . تَثَبَّتُوا، فإن أحْزَمَ الفريقين الركينُ، ورُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً[٣]، وادَّرِعُوا الليلَ، فإنه أخْفَىٰ للوَيْل[٤]. ومن أقواله أيضاً: الكرمُ حسنُ الفِطْنَة، واللؤمُ سوءُ الفطنة. تباعدوا في الديار تقاربوا في المودَّة. تَبَاذَلُوا تَحَابُّوا[٥]. . . ذَلِّلُوا أخلاقَكم للمَطَالب، وقُودُوها إلى المحَامِد، وعَلِّموها المكارم، ولا تُقِيموا على خُلُقٍ تَذُمُّونَه من غيركم، وصِلُوا مَن رَغِبَ إليكم[٦]، وتَحَلَّوْا بالجُود يُكْسِبْكُم المحبَّة، ولا تَقْتَعِدُوا[٧] البخلَ فتتَعجَّلُوا الفقر[٨]. . .

● هذا قليلٌ عَرَفناهُ، من كثيرٍ جَهِلناه، مِمَّا كان يجري في سوق عكاظ، من وَعْظٍ، وتبشيرٍ، ودعوةٍ إلى الحِكْمة الحَسَنَةِ، وضَرْبٍ للأَمْثالِ الطيِّبَة.



(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، و ٢/ ٢١٢، ومروج الذهب: ١/ ٨٣، والأغاني: ١٥/ ١٩٣، وصبح الأعشى: ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣.

(٣) **رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً**: مَثَلٌ يُضْربُ للرجل يشتد حرصُه على حاجة، ويخرق فيها حتى تذهبَ كلُّها. والرَّيْثُ الإبْطاءُ وهو عكسُ العَجَلةِ.

(٤) العقد الفريد: ١/ ٩٧، وعيون الأخبار: ١/ ١٠٨.

(٥) البيان والتبيين: ٢/ ٥٤، و ٣/ ١٦٠.

(٦) **رغب إليه**: إبْتَهل وطلب.

(٧) **اقْتَعَد**: الشيءَ أي اتخذه مَطِيَّةً.

(٨) العقد الفريد: ١/ ٢٢٦.

③ ـ مُلتَقى المُحبِّين:

١ ـ وكان المحِبُّون ينتظرون موسمَ عكاظ، من عامٍ إلى عام، لعلَّ أحَدَهم يلتقي من يُحِبُّ، أو يَحْظَى بنظرةٍ إليه... وفي أخبار عبد الله بن العَجْلان النَّهْدِيّ(١)، وهو من شعراء الجاهلية المُتَيَّمين، أنه كان مُتزوِّجاً امرأةً جميلةً من قومه، إسمُها هِنْدٌ، وكانت من أَحَبِّ الناس إليه، وأَحْظَاهم عنده، فمكثت معه سبعَ سنين، أو ثمانياً، لم تَلِدْ. وكان أبوهُ سيداً في قَوْمِه، وأكثَرَهم مالاً، فقال له: يا بُنَيَّ! إنه لا وَلَدَ لي غيرك، وأنتَ لاوَلَدَ لك، وهذه المرأةُ عاقِرٌ، فطلِّقْها، وتزوَّجْ غيرَها... فأَبَىٰ عبدُ الله ذلك، وأبْقَى على زوجته. فآلىٰ أبوهُ ألاَّ يُكلِّمه أبداً أو يُطلِّقها، فأقام على أمره معها، لا يُطلِّقُها لما بينهما من الحبِّ والعشق.

ثم عَمَدَ إليه أبوه يوماً، وقد رآهُ شربَ خمراً فَسَكِرَ، فعاوَدَهُ في أمرها، وجَمَع عليه مَشْيخةَ الحيّ وفتيانَهم، فتناولوه بألسنتهم، وعَيَّروهُ بشَغَفِهِ بها، وضَعْفِ حَزْمِهِ، فلم يزالوا به حتى طلَّقها. ولمّا علمت هندٌ بذلك احْتَجَبتْ عنه، ثم رَجَعَتْ إلى أبيها، فخطبها رجُلٌ من بني نُمَيْر، فزوَّجَهُ منها، ولم يزل عبدُ الله عاشقاً لها دَنِفاً، أسِفاً على فراقها، سقيماً، يقولُ الشعر فيها ويبكيها.

ولمّا اشتدَّ ما به من السُّقْم، عَزَمَ على المُضِيِّ إلى بلاد بني نُمَير، يريدُ لقاءَ هند. وكانت بين بني نَهْدٍ قومِهِ، وبني نُمير قوم زوجها، تِرَاتٌ ومُغَاوَراتٌ، فمنعه أبوه، وخوَّفَه الثارات، وقال له: تراها في الشهر الحرام بعُكاظٍ أو بمكة! فلما كان الموسم، قَدِمتْ مع قومها للحجّ، فرآها عبدُ الله

(١) عبد الله بن العجلان بن عبد الأحبّ: من بني نَهْدٍ من قضاعة، اشتُهر منهم: حنظلة بن نَهْد بن زيد، وهو قاضٍ جاهلي، وكانت له منزلةٌ بعكاظ في المواسم، وبتهامة والحجاز، وكانت منازلُهم اليمنَ والشامَ.

في عكاظ، فنظر إليها ونظرتْ إليه، ثم تَبِعَها إلى مكة ورأى زوجَها يطوف بالكعبة، فرجع إلى منزله، ووقع مريضاً، فضَنِيَ من العشق، وما زال يَلْهجُ باسمها، حتى مات نحو سنة (٥٧٤ م). ومن شعره فيها بعدما رآها ورأتْه في الموسم قولُه:

ألا أبْلِغا هنداً سلامي وإن نَأَتْ ... فقلبي بها مُذْ شَطَّتِ الدارُ مُدْنَفُ
ولم أرَ هنداً بعد موقفِ ساعةٍ ... بأنْعَمَ في أهل الديار تُطوِّفُ
أشارتْ إلينا في حياءٍ، ورَاعَها ... سراةَ الضحى، مني على الحيِّ موقفُ
وقالت: تَباعَدْ يابْن عمِّي، فإنني ... مُنِيتُ بذي صَوْلٍ يَغارُ ويَعْنُفُ[1]

* * *

٢ ـ وفي حديث المحبيِّن بعكاظ، ذكر أهلُ الأخبار أن جارِيَةَ بنَ سَليطٍ التميميّ، وهو من بني يربوع بن حنظلة، وكان من أحْسَنِ الناس وجهاً، وأَمَدِّهم قامَةً، قَدِمَ سوق عكاظ في أحد مواسمه، فأبْصَرتْهُ فتاةٌ من بني خَثْعَم، فراقَها شبابُه، وأعْجَبها منظرُه، فتعلَّقت به، وجعلتْ تتلطَّفُ له، وتَمْحَضُه الوُدَّ، حتى قَرَّبَتْه منها، فأحبَّها الرجلُ، وأَنِسَ بها، وانعقدتْ بينهما أَواصِرُ المحبَّةِ والغرام، فمكَّنتْهُ البنتُ من نفسها، فوقع عليها!

ولمَّا أَزِفَ موعدُ انتهاء الموسم، تعاهدا وتواعدا على أن يسعى كلٌّ منهما إلى لقاء الآخَر، وقال لها: إن عَلِقْتِ مني، فموعدُنا عكاظٌ في الموسم القادم! ثم عَلِقَتِ الفتاةُ منه، وحَمَلتْ، فعلمتْ أُمُّها بما كان منها في عكاظ، ولامَتْها على فِعْلها، ولمَّا وضَعَتْ حملها، أقبلتْ مع أُمِّها في الموسم، تلتمسُ والدَ طفلِها في عكاظ. . . فلم تلبث حتى رأتْه مُقْبِلاً، فأشارت إليه،

---

(١) الأغاني: ٢٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٤، ومصارع العشاق: ٢/ ٢٧، والأعلام: ٤/ ١٠٣.

وأنبأتْهُ بخبر حملها وولادتها، فتزوَّجها، وأَلْحَقَ الولَدَ بنَسبه. ونظرت أُمُّها إلى جارية، فرأتْ حُسْنَهُ وجماله، فَعَذَرتْ ابنتَها على تعلُّقها به[1]. وكان من سُنَن الزواج عند عرب الجاهلية، أن المرأة تُخْطَبُ فتُزوَّج، فإن كان لها خليلٌ تُحبُّه، ثم ولدت منه، فإنه يتزوَّجُها، ويُلحق الولدَ بنَسَبِهِ[2].

④ ـ مِنبَرُ التفاخُر والمنافرات:

وكانت بعكاظ في الجاهلية مَنَابِرُ يقومُ عليها الخطيبُ بخطبته، يذكُرُ فعاله، ويعُدُّ مآثِرَهُ، وأيامَ قومه من عامٍ إلى عام[3]... وكانت قبائلُ العرب تجتمعُ بعكاظ كلَّ سنة، ومع كل قبيلةٍ شاعِرُها، فيَتَفاخَرُون فيها، ويتناشَدُون الشعر[4]. وكان تفاخُرهم بالأحْسَابِ وعِزَّةِ النَّفَر يُسمَّى مُنافَرةً، يحكم فيها بينهم أحَدُ قضاة العربِ بعكاظ، فيُنفِّرُ أحدَهم على الآخَر، أي يقضي له بالغَلَبة، وَعُلُوِّ النَّسَبِ، وشَرفِ الحسب، وربما نافَرَ بينهم سادةُ القوم وأشرافُهم.

١ ـ إزْلأَمَّ المُعَيْدِيُّ ونَفَر:

هذا مَثَلٌ يُضربُ في فَوْزِ أحَدِ الخَصميْن على الآخَر، وأصْلُه أن مَيَّادَ بنَ حُنّ بن ربيعة، من بني عُذْرة، من قضاعة، نافَرَ رجُلاً من اليمن إلى حَكَمٍ بعكاظ، فأقبل مَيَّادٌ على فَرسِهِ، وعليه سلاحُه، فقال: أنا مَيَّادُ بنُ حُنّ، أنا ابنُ حَبَّاسِ الظُّعُن... وأقبل اليمانيُّ، عليه حُلَّةٌ يمانيَّةٌ، فقال مَيَّاد: أحكُمْ بيننا أيها الحكَمُ! فقال الحكَمُ: إزْلأَمَّ المُعَيْديُّ ونَفَر، فأرسلها مَثَلاً، وقضى

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١٣١، والمفصَّل: ٨/ ٣٦٧.

(٢) المحبَّر: ٣٤٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

لميَّادِ على صاحبه[1]. . . ذلك أن حُنَّ بنَ ربيعة هو أخو رِزَاح بن ربيعة بن حرام لأُمِّهِ وأبيه، ورِزَاحُ هذا هو أخو قُصيّ بنِ كلابٍ لأُمّه[2]، وهو الذي نَصرهُ في مكة على بني خزاعة. ويقال للرجُل إذا انتصب وارتفع قد ازْلأَمَّ[3]. وحَبَّاسُ الظُّعُن، أي الذي يمنعُ حَرِيمَهُ، ويحمي نساءَهُ. والمُعَيْدِيُّ: نُسِبَ إلى مَعَدّ بن عدنان.

فهذه مُنَافَرةٌ جرت بعُكاظ، حكم فيها قاضٍ بعكاظ، وأرسل مَثَلاً صَدَر عن عكاظ، ويُمكن أن نستخلصَ منها أن سوق عكاظ كانت تقوم في عصر قصيّ بن كلاب، في القرن الخامس للميلاد.

٢ ـ مُنَافَرةٌ في خطبة حسناء:

اجتمع بموسم عكاظ يزيدُ بن عبد المدان[4]، من بني الحارث بن كعب، من مَذْحِج، وعامِرُ بنُ الطُّفَيْل[5]، من بني هوازن، وحَضَر الموسمَ يومئذٍ أُميَّةُ بنُ حُرْثَانَ بنِ الأسْكَر[6]، من بني عبد مناة بن كنانة، ومعه إبْنَةٌ له من أجْملِ أهل زمانها. فخطَبَها إليه يزيد وعامِرٌ، فقالت أُمُّها: مَن هذانِ

---

(١) مَجْمَعُ الأمثال: ١/ ٤٥٠.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٢٧٢.

(٤) يزيد بن عبد المُدان: سيِّد، شاعِرٌ، من أشراف اليمنِ وشُجعانِها في الجاهلية، وكان مَلِكاً في قومه بنجران.

(٥) عامر بن الطفيل: أبو عليّ، من بني عامر بن صعصعة، فارسُ قومه، وأحَدُ فُتَّاك العرب، وشعرائهم، وساداتهم في الجاهلية، وُلد ونشأ بنجد، له أخبار في الكرم والمروءة كثيرةٌ.

(٦) أمية بن حُرْثان بن الأسكر: من بني مُدْلج، من عبد مناة بن كنانة. شاعر فارس من سادات قومه. أدرك الجاهلية والإسلام، مات في خلافة عمر بن الخطاب نحو (٢٠ هـ = ٦٤١ م).

الرجُلان؟ فقال أُميَّةُ: هذا يزيدُ بنُ عبد المدان بنِ الديَّان، وهذا عامِرُ بنُ الطفيْل بنِ مالك! فقالت: أعرفُ بني الديَّان[1]، ولا أعرفُ عامِراً. فقال: هل سَمِعتِ بمُلاعِبِ الأَسِنَّة[2]...؟ فقالت: نعم. قال: فهذا ابنُ أخيه. وأَقْبل يزيد فقال: يا أُميَّة، أنا ابنُ الديَّان صاحِبُ الكتيبة، ورئيسُ مَذْحج، ومُكلِّمُ العُقَاب[3]، ومَن كان يُصَوِّبُ أصابعَهُ فتَنْطُفُ دماً[4]، ويَدْلُكُ راحتيْه فتُخرجان ذَهباً... ثم قال: يا عامِرُ، هل تعلم شاعراً من قومي رحَلَ بمِدْحَةٍ إلى رجُل من قومك؟ فقال: اللهمَّ لا... قال: فهل تعلمُ أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ فقال: اللهمَّ نعم... قال: فهل لكم نجمٌ يمانيٌّ[5]، أو بُرْدٌ يمانيٌّ، أو سيفٌ يمانيٌّ، أو رُكنٌ يمانيٌّ؟ فقال: لا... فقال: فهل مَلَكْناكُم ولم تملكونا؟ فقال: نعم!. فنهض يزيدُ وأنشأ يقول:

أُمَيَّ يابْنَ الأشكَرِ بنِ مُدْلجِ لا تَجْعَلَنْ هَوازِناً كمَذْحِجِ
إنك إن تَلْهَجْ بأمْرٍ تَلْجِجِ ما النَّبْعُ في مَغْرِسِهِ كالعوْسَجِ
ولا الصَّرِيحُ المحْضُ كالمُمَزَّجِ[6]

---

(١) بنو الديَّان: كانت لهم الرئاسة بنجران، وكان المُلْكُ منهم في بني عبد المدان، وكانوا مَضرب المثَل في الشرف والكرم، وهم أصحابُ القبَّة بنجران.

(٢) مُلاعِبُ الأَسِنَّة: أبو البراء عامر بنُ مالك بن جعفر، سُمِّي مُلاعب الأسِنَّة بقول أوس بن حجر التميمي الشاعر:

فلاعَبَ أطرافَ الأسِنَّةِ عامِرٌ فراح لـه حَظُّ الكتيبةِ أجمعُ

(٣) العُقَاب: كوكب، وطائرٌ من الجوارح.

(٤) تَنْطُفُ: تَقْطُرُ.

(٥) النجم اليمانيُّ: سهيلٌ، لأنه يُرى في نجد والحجاز من ناحية اليمن، وهي إشارةٌ إلى أن أهل نجد والحجاز يهتدون بالنجم اليمانيّ، ويسمُّون أحد أركان الكعبة: الركنَ اليماني، وليس فيها ركن حجازيّ أو نجديّ، وهم يفاخرون بالثياب والسيوف المصنوعة في اليمن.

(٦) لَهِجَ بالشيء: أُغْرِيَ به فثابر عليه. لجَّ: تمادى في العِنَاد.

طلب منه أن لا يُسوِّي بين بني مَذْحج قومِه، وبني هوازن قوم عامر، وسأله: هلَ يَصِحُّ أن يُقْرَنَ النبْعُ، وهو شجرٌ تُتَخذُ منه القسِيُّ والسهام، بالعوسج الذي ينبت على السِياج؟

فزوَّجَ أُميَّةُ حينئذٍ يزيدَ بنَ عبد المدان ابنتَه، وقد نَفَّرَهُ على عامر بن الطُفْيل[1]، أي قضىٰ له بأنه أَعَزُّ نفراً من عامر.

* * *

٣ ـ حُكمُ الأَقرعِ بن حابس في مُنَافَرةٍ:

وهو قاضٍ من بني تميم، واسْمُهُ فِراس، وإنما لُقِّب بالأقْرعِ لقرع برأسه، وكان سَنُوطَ اللحية، أعرجَ الرِّجْلِ اليُسْرىٰ[2]... يقول الجاحظ: «ومن العُرْجَانِ الأشراف الأقْرعُ بنُ حابس، وكان أحَدَ حُكَّام العرب بعكاظ، وقد تحاكمت إليه العربُ في النُّفُورات[3]... وزعم أبو عبيدة أن أوَّلَ حَكَمٍ في الجاهلية جارَ في الحُكْم، الأقرعُ بنُ حابس، وقال: لأنه نَفَّر جريرَ بنَ عبدِ الله البَجَليَّ، على خالد بن أرطاة الكلبي، حين وجده أقربَ إلى مُضَر. فلعلَّه إذا كان أقربَ إلى مُضَر، وإلى نزار، أن يكون أحقَّ بالنُّفُورَةِ لفَضْلِهِ في مُضَر، أو في نزار، ولعلَّه رأى مع ذلك جريراً في نفسه أكثر من هذا الرجُل الذي نافَرَهُ، وإنما ينبغي أن يحتجَّ بهذا رجُلٌ من قضاعة، فأمَّا أبو عبيدة، فما يدعوه إلى هذا؟ وليس به فقرٌ إلى هذه الحجَّة كفَقْرِ القُضَاعيِّ إليها...»[4].

---

(١) الأغاني: ١٢/٨ ـ ٩، و ٢١/٢٢.

(٢) القَرَعُ: سقوط الشعر. السَّنُوط: الخفيفُ العارضَيْن، أو لا لحية له.

(٣) الجاحظ ـ البُرصان والعُرجَان والعُمْيان: ١١٩. مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ م.

(٤) المرجع نفسه: ١٢٠ ـ ١٢١.

وكان الذي جَرَّ المنافرةَ، بين جرير وخالد، أن بني كلب أصابوا رجُلاً من بني بجيلةَ، اسْمُهُ: مالكُ بنُ عتبة، فَوافَوْا به عكاظ، فمرَّ مالكٌ بابن عمٍّ له هو القاسمُ بنُ عقيل، وكان يأكلُ تمراً، فتناول من ذلك التمر شيئاً، فجذَبَهُ الكلبيُّ المُوكَلُ به، فقال له مالِكٌ: إنه رجُلٌ من عشيرتي! فقال الكلبيُّ: لو كانت لك عشيرةٌ لَمَنَعَتْكَ! فانطلق القاسمُ بن عقيل إلى بعض بني بجيلة وسألهم أن يَسْتنقِذُوا أسيرهم، فأبَوْا، إلا جريراً فقد ذهب بقومه واستنقذَهُ، فقامت بنو كلب دونَهُ، فقال جرير: زعمتم أن قومه لا يمنعونه! فقالوا: جماعتُنا خُلُوفٌ عنا... فقام جرير وقال: لو كانوا حُضُوراً لم يدفعوا عنكم شيئاً. فقالوا: كأنك تَسْتَطِيلُ على قُضَاعَة كلِّها؟ وكلبٌ من قضاعة. فقال: إن شاؤوا قايَسْنَاهُم المجدَ! وزعيم كلب يومئذ خالد بنُ أرطاة. فقالوا له: ميعادُك من قابلٍ سوقُ عكاظ... فجمعت كلبٌ، وجمعت بَجيلة، ووافَوْا عكاظ، وتحاكموا إلى الأقرع بن حابس، ليحكم بينهما أيّهما أكثر مجداً، فحكم لجرير، وقال له: لو فاخرتَ قيصر ملكَ الروم، وكسرى عظيمَ الفُرس، والنعمانَ ملكَ العرب، لنَفَّرتُكَ عليهم!

ومن الواضح أن الأقرع إنما نفَّر بني بَجيلةَ على بني كلب، لأن بَجِيلةَ بقرابتها من مُضَر ونزار أفضلُ وأكثَرُ عَدداً من كلبٍ وقضاعة. وذلك أن خَثْعَمَ وبجيلةَ من بني أنْمار، وأنمارُ أخو مضر وربيعة[١].

* * *

(٥) ـ مُفَادَاةُ الأَسْرى:

ومن كان له أسيرٌ مضى إلى عكاظ في الشهر الحرام، يسعى إلى فدائه،

---

(١) النقائض: مصور عن طبعة ليدن (١٩٠٥ م): ١٤١ ـ ١٤٢.

وفَكِّ أسْرِهِ. فإن كان يجهلُ موضعَه، سأل عنه قبائلَ العرب في عكاظ، أو كان عنده أَسِيرٌ يريدُ إطلاقَه، وأَخْذَ فِدْيته، واعَدَ قومَه لمُفَاداتِهِ بعُكاظ... وكانوا يقولون فيمن يُغَالَى في فِدْيته: أَغْلَى عُكاظيٍّ فدَاءً! ومن ذلك أن بِسْطامَ بنَ قيس، فارسَ بني شيبان، فَدى نفسَه من عُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ، فارسِ بني يربوع، بفِدْيَةٍ في سوق عكاظ، قدَّرها المُقِلُّ بمئتي بَعيرٍ، والمُكْثِرُ بأربع مئة بعير[1]، فقالوا يومئذٍ: لم يكن عربيٌّ عُكاظيٌّ أغْلَى فداءً منه[2]. والقولُ نفسُه قيل في حاجِبِ بن زُرَارَة. ولمَّا أَسَرَ الربيعُ بنُ عُتَيْبة بن الحارث اليربوعيَّ، ذُؤَابَ بنَ رُبَيِّعَة، من بني أسد بن خُزَيمة، تَواعَدا موسمَ عكاظ في الشهر الحرام للمُفَادَاةِ، واتفقا أن يأتيَ أبو ذُؤابٍ بالإبِلِ، والربيعُ بذُؤَاب... فلما كان الموسم، أَقْبَلَ أبو ذؤاب بالإبِلِ إلى سوق عكاظ، وشُغِلَ الربيعُ عنه فلم يأتِ بالأسير، فارْتابَ أبو ذُؤابٍ، وظنَّ أن القوم قتلوا إبنَه، فقال:

إنْ يَقتلـوك فقـد هَتَكْـتَ بُيـوتَهـم … بعُتَيْبَـةَ بـنِ الحـارثِ بـنِ شهـابِ

أي سبق لك أن فضحتَ بيوتَهم، بقتلِكَ عُتَيْبَةَ بنَ الحارث، وهو أبو ربيع... وكان فارسَ بني يربوع في الجاهلية، ومن أبطال العرب المغَاوِير، وكانوا يُسَمُّونَه: سُمَّ الفرسان، وصَيَّادَ الفوارس، ويضرِبون به المَثَلَ في الفروسيَّة[3]. ويُقال إن ذُؤَاباً قتله في معركة كبيرة، وسط الليل، فَزَجَّهُ بالنَّيْزَكِ[4]، وقد هاب مُخَالطتَه، فلم يُعْرَفْ وقتئذٍ أنه قاتلُه. فلمّا بلغَ بني عُتَيْبَة ما قاله أبو ذؤاب، علموا أن أسيرهم هو قاتلُ أبيهم، فقتلوه به[5].

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٩.

(٢) العقد الفريد: ٥/١٩٨.

(٣) الأعلام: ٤/٢٠١.

(٤) البيان والتبيين: ٣/١٦، ١٨ ـ ١٩، زَجَّهُ: رماهُ وطعنه. و النَّيْزَكُ: رمحٌ قصير.

(٥) العقد الفريد: ٥/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وهنالك طرائفُ كثيرةٌ في أخبار المُفَاداة بعكاظ، وصُوَرٌ مُشْرِقةٌ من كرم أخلاق العرب في الجاهلية، وقد اخترنا شيئاً من ذلك نعرضُه فيما يلي. . .

١ ـ فداءُ أسيرٍ بتَيْسٍ أسودَ في عكاظ:

كانت قبيلةُ الأَوْسِ حليفةً لقبيلة مُزَيْنة في الجاهلية[١]، فمرَّ رجلٌ يقالُ له: جُؤَيٌّ من مُزَيْنة، على الأَوْسِ والخزرجِ وهم يَقْتَتِلون، فدَخَل في حُلَفائه من الأَوس، يُقاتل إلى جانبهم، فأُصِيبَ، فوقع أرضاً، فمرَّ به ثابتُ بنُ المنذر، أبوحسان بن ثابت، من الخزرج، فقال له: يا أخا مُزَيْنة، ما طَرَحَكَ هذا المطرح؟ فواللّهِ إنك لمن قومٍ لا يحمونك! فقال جُؤَيّ، وهو يجودُ بنفسه: أُعْطي الله عهداً، لَيُقْتَلَنَّ بي منكم خمسون، ليس فيهم أعْوَرُ ولا أعْرَجُ. . . فبَلَغ قولُه بلادَ مُزَيْنة، فثاروا يريدون الخَزْرَجَ، طالبين بدم جُؤيّ، ورئيسُهم مُقَرِّنُ بنُ عائذ، (أبو النعمانِ بن مُقَرِّن فاتحِ نهاوند)، فالْتَقوهم بموضع بُعَاث في يثرب، فاقتتلوا، فقُتِل من الخزرج عِدَّةُ رجال، وأُسِرَ ثابتُ بنُ المنذر، فأقسم مُقَرِّنُ بنُ عائذٍ لا يأخذ فِداءَهُ إلا تَيْساً أَجَمَّ أسودَ في عكاظ. . . فغضب الخزرجُ لذلك، وقالوا: لا نفعلُ أبداً! وعَرَضوا فداءً كبيراً مكانَه، فلم يقبل مُقَرِّن وقال: لا آخُذُ مكانَه إلا تَيْساً. . . فلما رأوا أنه لا بُدَّ من ذلك، جاؤوا بتَيْسٍ أسودَ، فأخذه منهم مُقَرِّنُ بسوق عكاظ، وذَبَحه هنالك، وأطعم الناسَ لحمَهُ[٢].

وفي ذلك قال كعبُ بنُ زهير المُزَنيُّ يَذكرُ يومَ بُعَاث، ويصف أَسْرَهُ

---

(١) مُزَيْنة: أمٌّ جاهلية من بني كلب بن وَبَرة، نسبت إليها ذُرِّيَّةُ ولديها عثمان وأوس ابنيْ عمرو بن أدّ بن طابخة، من مُضَر. ومنهم زهير بن أبي سلمى. **الأَوْس**: جدُّ قبيلة الأوس إحدى قبيلتيْ الأنصار، والأُخرى: **الخزرجُ**، وهما من الأَزْد، من عرب اليمن.

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

ثابتَ بنَ المنذر، ثم بيعَهُ إياهُ بعُكاظ علانِيَةً في مجمع العرب:

هــلاَّ ســألــتِ، وأنــتِ غيــرُ عَيِيَّــةٍ — وشفاءُ ذي العِيِّ السؤالُ عن العَمَى
عــن مشهــدٍ ببُعَــاثَ إذ دَلَفَــتْ لــه — غسَّــانُ بــالبِيــض القــواطــع والقَنَــا
وعــن اعتنــاقــي ثــابتــاً فــي مَشْهــدٍ — مُتَنــافــسٍ فيــه الشجــاعــة للفتَــى
فشَــرَيْتُــهُ بــأَجَــمَّ أسْــودَ حــالــكٍ — بعُكاظَ، موقوفاً بمَجْمَعِها، ضُحَى[1]

* * *

٢ ـ رَدُّ سَبِيَّةٍ إلى أبيها:

جاء في موارد أهل الأخبار، أن مروان بنَ زِنْباعٍ العبسيَّ[2]، كانت له يَدٌ لا تُنْسَى عند عوف بن أبي عمرو الشيباني[3]، صاحب القُبَّة التي عُدَّتْ من مَآثِرِ العرب في الجاهلية، إذ لم يكن يدخلُها جائعٌ إلا أُشْبع، ولا خائفٌ إلا أُمِّن[4]. وذلك أنَّ إبنتَه جُمَاعَةَ بنتَ عوف، زوجةَ ابن عمها سِنان بن مالك بن أبي عمرو[5]، وقعت أسيرةً في إحدى الوقائع عند بعض بني عبس، فسألها مروانُ: مَن أنتِ؟ قالت: جُمَاعَةُ بنت عوف، فانتزعها مروانُ منهم، وكان رئيسَهم، وأعطاهم فيها مئةً من الإبل، وقال لها: غَطِّي وَجْهَكِ، فواللَّهِ لا

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٣٢.

(٢) مروان بن زنباع بن جذيمة: ابنُ أخي زهير بن جذيمة سيد بني عبس وجميع قبائل غطفان. وكان يُسمَّى مروانَ القَرَظِ، وكان يُغيرُ على أهل القَرَظ، وهو ورق شجر السَّلَم يُدْبَغُ به الأَدَمُ.

(٣) هو عوفُ بن أبي عمرو بن عوف بن مُحَلِّم بن ذُهْل بن شيبان، وليس عوفَ بنَ مُحلِّم كما ذكر صاحبُ الأعلام (٥/٩٦)، وصاحبُ المحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥١. وتُقَدَّرُ وفاته نحو (٥٨٠ م)، وهو مُعَاصِرُ الملكَ عمرو بن هند اللخميَّ، المتوفى نحو (٥٦٩ م).

(٤) المحبَّر: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥) مجمع الأمثال: ١/٤١١.

ينظرُ إليكِ رجلٌ، حتى أَرُدَّكِ إلى أبيك! وضَمَّها إلى أهله، ووقع بينه وبين بني عَبْسٍ شَرٌّ بسببها. ولمَّا دخلَ الشهرُ الحرامُ، أحْسَنَ كسْوَتَها، وأَخْدَمَها[1]، وأكرمها، ثم حَمَلها إلى سوق عكاظ، فلما انتهى إلى منازل بني شيبان، سألها: هل تعرفين منازِلَ قومك، وقُبَّةَ أبيكِ؟ فقالت: نعم، هذه منازلُ قومي، وتلك قُبَّةُ أبي! فقال: فانطلقي إلى أَبيكِ يَرْحَمُكِ اللَّهُ!... فانطلقت، فخبَّرت أباها بصَنيعِ مروان، فكان لمروان بذلك يَدٌ عند عَوْفٍ لم يَنْسَها له[2].

وكان مروانُ قد وَتَرَ عمرو بنَ هند ملكَ الحيرة (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، فجعل هذا يطلبه، وآلى على نفسه ألاَّ يُؤَمِّنَهُ حتى يأتي إليه، ويضعَ يدَهُ في يَدِهِ. ثم إن مروان وقع في أَسْرِ رجُلٍ، من بني بكر بن وائل، لم يكن له من المَنَعَةِ ما يستطيع به حمايتَه من عمروٍ إن عرفَ بمكانِهِ، وأرسل في طلبه. ثم سمع أمَّ الرجُل تقول لابْنها: كأنك أَسَرْتَ مروانَ القَرَظِ! فقال لها مروان: وما تأملين منه؟ قالت: مئة بعير. قال: هي لك إن أَدَّيْتُمُونِي إلى عوف الشيباني. قالت: ومن لي بالوفاء؟ فأخذ عُوداً من الأرض وقدَّمه إليها رهناً بالوفاء. فحمله إبنُها حتى أتى به قُبَّةَ عوفٍ، فلاذَ بها، وصار لزاماً على عوفٍ حمايتُه. ولمّا بلغ عَمْراً مكانُه، بعث يطلبه، فأبَىٰ عوفٌ أن يُسَلِّمَه إليه، إلاَّ أن يُؤَمِّنَه... فأمَّنَهُ، فسار به عوفٌ إلى الملك، وجعل يَدَهُ بين يَدَيْهما، وأصلح بينهما، فكان هذا وفاءً من عوف لمروان.[3]

* * *

---

(١) أخْدَمَها: جعل لها خَدَماً يخدمونها.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/٤٣٦.

(٣) المحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٣ ـ رجلٌ يستغيث لإطلاق أخيه بعُكاظ:

أغار قيسُ بن عاصم المنقريُّ[١]، على بني مُرَّة بن عوف بن ذبيان، فأصاب منهم أُسَارَىٰ، فيهم رجُلٌ من بني جُشَم، من هوازن، مُجَاوِرٌ فيهم، ثم فَدَىٰ بنو مرَّة أَسْراهُم من قيس بن عاصم، وظلَّ الجُشَمِيُّ مأسوراً. لم يَفُكَّهُ أحَدٌ... فجاءَ أخوه، فاستغاث بوجوه بني مُرَّة ليَفْدوه، فلم يفعلوا، فلما كان موسم عكاظ، ركب إلى السوق، وأتى منازلَ بني مَذْحج ليلاً، فنادى يُعَيِّر بني مُرَّة لتركهم أخاه أسيراً وهو جارٌ لهم، فقال:

أعَيِّـرُهـم فـي كـلِّ يـوم وليلـةٍ بتَركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصمِ
حليفِهِـمُ الأدنـى وجـارِ بيـوتهـم ومـن كـان عمَّـا سـرَّهـم غيـرَ نـائـمِ
فيـا ليت شِعري مَـن لإطـلاق غُلّـهِ ومن ذا الذي يحظى به في المواسمِ

ثم أتى يزيدَ بنَ عبد المدان، فذكر له قِصَّتَه، فقال له: مَرْحباً بك وأهلاً، ثم أرسل إلى قيس يقول:

يا قيسُ أَرسلْ أسيراً من بني جُشَمٍ إنـي بكـلِّ الـذي تـأتـي بـه جَـازِي
لا تَـأمَـنِ الـدهـرَ أن تَشْجَـىٰ بغُصَّتِـهِ فـاختَـرْ لنفْسِـك إحْمـادي وإعْـزازي
فافُكُكْ، أخا مِنْقَرٍ، عنه وقل حَسَناً فيمـا سُئِلْـتَ، وعَقِّبْـهُ بـإنجَـازِ

فأعْلَمه قيسٌ أن الأسير في يد رجُلٍ من بني سعد، ولو كان في يده، أو في بني مِنْقَرٍ[٢]، لبَعَثَ به إليه. فأرسل يزيد إلى السَّعْديّ أن سِرْ إليَّ بأسيرك، ولكَ فيه حُكْمُك، فأتى به السعديُّ، وطلب فِدْيَتَهُ مئةَ ناقةٍ ورِعاءَها، فأعطاه

---

(١) هو قيسُ بن عاصم بن سنان: من بني منقر بن عبيد، من سعد بن زيد مناة بن تميم.

(٢) مِنْقَرُ بن عبيد: من بني تميم، بنوه بطونٌ كان أكثرها بنَجْد، من نَسْله: قيسُ بن عاصم الصحابيّ، وعمرو بنُ الأهتم من السادة المقدَّمين في الجاهلية والإسلام.

يزيد ما طلب، وقال له: إنك لقصيرُ الهِمَّة، ولقد كنتُ أظنُّ أن يأتي ثمنُه على جُلِّ أموالنا[1]. . .

فانظرْ إلى هذه الأَرْيَحيَّة الرائعة! سيِّدٌ شَهْمٌ، يَفُكُّ أسيراً استغاث به أخوه، وهو لا يعرفه، ولا هو من قومه أو من ذوي قُرْبَاه، ولا يعلم من أمره شيئاً، ويدفع في فَكِّهِ مئةَ ناقةٍ مع رُعَاتِها، وكان مُستعدّاً، لو طُلِبَ إليه، أن يدفع جُلَّ ماله في الفداء. . . فأيُّ خُلُقٍ كريم هذا الذي كان عليه أجْدَادُنا!



⑥ ـ أخبَارُ المُعَمَّرين:

وفي سوق عكاظ، يتناقل أهلُها أخبارَ مَن عُمِّر طويلاً من العرب. ولعلَّ أكثرَ هذه الأخبارِ طرافةً، ما ذكرتْهُ مواردُ الأخبار عمَّا بلغَهُ المُسْتَوغِرُ التميميُّ من طول العمر. وهو عمرو بنُ ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، بينه وبين مُضَر بن نزار تسعة آباء فقط[2]. نُقِل عن أبي عمرو بن العلاء[3]، أن المستوغرَ عاش ثلاثَ مئةٍ وعشرين سنةً، ومات في صدر الإسلام، وأنه كان فارساً شاعراً، وهو القائلُ:

ولقد سئمتُ من الحياة وطُولِها   وَعَمِرْتُ من عَدَد السنين مِئينا

---

(1) الأغاني: ١٢/ ١٤ ـ ١٦.

(2) جمهرة أنساب العرب: ٢٢١.

(3) **أبو عمرو بن العَلَاء**: (٧٠ ـ ١٥٤ هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٧١ م). هو زَبَّانُ بنُ عَمَّار التميميّ البصري. من أئمّة اللغة والأدب، وأحَدُ القُرَّاءِ السبعة. . . وُلد بمكَّة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. كان من أعْلَمِ الناس بالأدب والعربية والقرآن والشِّعْر، وكانت عامّةُ أخباره عن أعراب أدركوا عصر الجاهلية.

مئــةً حَــدَتْهــا بعــدَهــا مئتــانِ لــي   وازْدَدْتُ مـن بَعْـد الشهـور سِنينـا[1]

ومن أخباره أنه مرَّ يوماً بسوق عكاظ، يقودُ حفيدَهُ، وقد صار هَرِماً خَرِفاً، فكان يَزْجُرهُ، فقام إليه رجلٌ من السوق، وقال له: أَحْسِنْ إليه يا هذا، فطالما أحْسَنَ إليك! فقال المستوغِرُ: أوَتدري من هو؟ قال: نعم، هو أبوك أو جَدُّك. قال: هو واللّهِ ابْنُ إبْني! قال الرجلُ: لم أرَ في الكذب كاليوم، ولا مُسْتَوْغِرَ بنَ ربيعة! قال: فأنا المُسْتوغِرُ[2]... ومن الواضح أن هذا الخبر يرتفع بزمن عكاظ إلى القرن الخامس للميلاد.

* * *

⑦ ـ مُقَارَعَةٌ عن حسناء:

وما نراهُ اليومَ، في المجامِع العامَّة، من مُنَافسةٍ بين الفتيانِ على الحِسَانِ من الفَتَيات، كان مثلُه في سوق عكاظ... ومن ذلك، ذكر أهلُ الأخبار، أن معاوية بن عمرو، من بني الشَّريد السُّلَميّ، وهو أخو الخنساء الشاعرة، وافَىٰ سوق عكاظ في أَحَد مواسمه، وبَيْنا هو في بعض نواحي السوق، لقيَ أسماءَ المُرِّيَّة، وكانت فاتنةً جميلةً، فدعاها إلى نفسِه، زاعماً أنها كانت بَغِيّاً، قبل أن تكون من بني مُرَّة بن عوف بن ذبيان. فامتنعتْ وتأبَّتْ عليه، وقالت: أما علمتَ أني عند سيِّد العربِ هاشمِ بن حَرْمَلة المُرِّيّ؟ فأغْضَبتْه، فقال: أما واللّهِ لأُقارِعَنَّهُ عنكِ[3]، قالت: ذاك شأنك... ثم أتَتْ هاشماً، فأخبرتْه بما كان من معاوية، فقال: لعمري لا يَريمُ أَبْياتَنا

---

(١) المعارف: ٧٨.

(٢) الشعر والشعراء: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، والسيرة: ١/ ٨٨.

(٣) المُقَارعَة: المُضَارَبَةُ بالرماح أو بالسيوف أو بغيرها.

حتى ننظرَ ما يكون من جُهده! ثم لقِيَهُ، فقال له: واللَّهِ لَوَدِدْتُ أني قد سمعتُ بظَعائِنَ يَنْدُبْنَكَ[1]. فقال هاشم: واللَّهِ لوَدِدْتُ أني قد نَزَعتُ لك هذه الجُمَّة[2].

ولمَّا تراجع الناسُ عن عكاظ، وانقضتِ الأشهُرُ الحرُم، خرج معاوية بن عمرو غازياً، يريدُ بني مُرَّة، في فرسان من بني سُلَيم من قيس، فنَهاهُ أخوهُ صَخْرٌ، لكنه أصَرَّ على الغَزْو، فكانت بين الفريقين معارِكُ في أسامٍ مُتفرِّقةٍ، منها يومُ حَوْزَةَ الأول، ويومُ حوزة الثاني، وأيامٌ أُخَر ذكرتْها مواردُ أهل الأخبار، وكان فيها مقتلُ معاوية، قتله دُرَيْدُ بنُ حرملة، ثم مقتل دُرَيْد، قتله صخرٌ ثأراً بأخيه معاوية، وبعدئذٍ مقتلُ هاشم، وكان قد خرج مُنتجعاً في بعض مواسم الربيع، فكَمَنَ له قيسُ بن الأسوار الجُشَميُّ، ثم قتله[3].

* * *

⑧ ـ المُعَاظَمَةُ في الأَحْزان:

المُعَاظَمَةُ في الحُزْنِ والمُصَابِ زَعْمُ المُعَاظِم أنه أكبرُ حُزناً، وأشَدُّ مُصيبةً، لأن مَن فَقَدهُ أعظمُ حُرْمةً، وأكثر مجداً وشرفاً، فهو نوع من التفاخُرِ بما كان للمَيْتِ من أَمْجادٍ.

---

(١) الظعائن: نساءُ الرجُلِ عامّةً.

(٢) الجُمَّةَ: مجتمعُ شعر الرأس.

(٣) الأغاني: ١٥/٦٩ ـ ٧٠، والعقد الفريد: ٥/١٦٣ ـ ١٦٤، ود. بنت الشاطىء ـ الخنساء: ٣١ ـ ٣٥.

ومن ذلك، لمّا كانت وقعةُ بَدْرٍ الكبرى، قُتِل فيها عُتْبةُ بنُ ربيعة[1]، وأخوهُ شَيْبَةُ[2]، وابنُه الوليد بن عتبة. فأقبلتْ هند بنت عتبة[3]، إلى موسم عكاظ تَرْثيهم... ثم بلغَها مُعَاظمةُ الخنساءِ العربَ في مُصيبتها، بأبيها عمرو بنِ الحارثِ بن الشريد، وأخَوَيْها معاوية وصخرٍ، وأنها جعلت تشهدُ الموسمَ كلما انعقد، وتبكيهم، وتُسَوِّمُ هَوْدَجَها برايةٍ يُعرفُ بها، وتقول: أنا أعظمُ العرب مُصيبةً!. وقيل لهندٍ: إن العرب قد عرفتْ لها بعضَ ذلك، واعترفتْ به. فقالت: أنا أعظمُ من الخنساءِ مُصيبةً! ثم أَمَرتْ بهَوْدَجِها فسُوِّمَ برايةٍ، وقَصَدتْ عكاظاً فشهدَتِ الموسمَ، وقالت: اقْرِنوا جَمَلي بجَمَلِ الخنساء. ففعلوا، فلما دَنَتْ منها، قالت الخنساءُ: مَن أنتِ يا أُخَيَّة؟ قالت: أنا هند بنتُ عُتبة، أعظمُ العرب مصيبةً، وقد بلغني أنك تُعاظِمين العربَ بمُصيبتك، فبِمَ تُعاظِمينهم؟ فقالت الخنساءُ: بأبي عمرو بن الحارث، وأَخَويَّ صخرٍ ومعاوية، وبِمَ تُعاظِمينَهم أنتِ؟ فقالت: بأبي عتبة بن ربيعة، وعمِّي شيبة، وأخي الوليد. قالتِ الخنساءُ: أَوَ سواءٌ همُ عندك؟ وأنْشأتْ

(١) عُتبة بن ربيعة: من بني عبد شمس بن عبد مناف. كبير قريش في زمنه، وأحَدُ ساداتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحِلم والفضل، خطيباً، نافذَ القول. شهد بَدْراً مع المشركين، فقُتِل فيها.

(٢) شيبة بن ربيعة: من زعماء قريش في الجاهلية. كان يَصدُّ الناس أن يتَّبِعوا النبيّ عليه السلام في المواسم، قُتِل في وقعة بدر.

(٣) هند بنت عتبة: أمُّ معاوية بن أبي سفيان. كانت فصيحةً، جريئةً، صاحبةَ رأي وحَزْمٍ، ونَفْسٍ أَبِيَّةٍ، وأَنَفَةٍ. تقول الشعر الجيّدَ، وأكثَرُهُ في رثاء أبيها وعمها وأخيها، قبل إسلامها. ولمّا أسلمت مع بعض النِسْوة، أخذ النبيُّ البيعةَ عليهنَّ، بألاّ يَسْرِقْن أو يزنين، فقالت: وهل تزني الحُرَّةُ أو تسرقُ يا رسول الله؟ قال: ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ، فقالت: وهل تركتَ لنا ولداً إلا قتلتَه يوم بدر؟. ثم شهدت معركة اليرموك بعد ذلك، وحرَّضَتْ على قتال الروم. توفيت سنة (١٤ هـ = ٦٣٥ م).

تقول:

أُبكّـي أبـي عَمْـراً بعيـنٍ غـزيـرةٍ   قليـلٌ، إذا نـام الخَلِـيُّ، هُجـودُهـا
وصِنْـويَّ لا أنْسَـى معـاويـةَ الـذي   لـه مـن سَـرَاةِ الحَـرَّتيْـن وُفُـودُهـا[1]
وصخراً، ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا   بسَـاهِمَـةِ الآطـالِ قُبّـاً يقـودُهـا[2]
فـذلـك يـا هنـدُ الـرزيَّـةُ فـاعْلَمـي   ونيـرانُ حـربٍ حيـن شـبَّ وَقُـودُهـا

فقالت هند تُجيبها:

أُبكّـي عميـدَ الأبْطحَيْـنِ كليهمـا   وحامِيهما من كل باغٍ يُريدُها[3]
أبي عُتبةُ الخيرات، ويحكِ فاعْلمي   وشَيبةُ، والحامي الذِّمَارِ وليدُها
أولئـك آلُ المجـدِ مـن آل غـالـبٍ   وفي العِزِّ منها، حين يَنْمي عَدِيدُها[4]

ومُذْ مات صَخْرٌ، لم تَعِشِ الخنساءُ إلا للبُكاء، والرثاء. وكانت الدهرَ تَلبَسُ صِداراً[5]، حُزناً عليه. وقد رأتها أمُّ المؤمنين عائشة، حَلِيقَةَ الرأسِ، مُرْتَديةً ذلك الصِّدَارَ، فعاتَبتْها، وقالت لها: أتلبسينَ صِدارَ الحزنِ وقد نَهى الإسلامُ عنه؟ فما زادها ذلك إلا حُزْناً[6]...! فإن لم تكن أعظمَ العرب

---

(١) الحَرَّة: الأرض ذاتُ الحجارة السُّودِ النخِرة. والحرَّتان: إحداهما لبني سُلَيم، والأُخرى لبني هلال. والمعنى أنه مَقْصدُ الأشراف من القبائل، تأتيه وفودُها فيما يُلمُّ بها.
(٢) السَّاهِمةُ: الدقيقة. الآطال: ج إطْل وهو الخاصِرة الضامرة. القُبُّ: ج أَقَب وقباء، وهي الفرسُ الدقيقة الخَصْر، الضامرة البطن، وذلك كناية عن قيادته الخيلَ الجيدةَ الأصيلةَ.
(٣) عميدُ القوم: سيِّدُهم وسَنَدُهم. الأبطحان: أبطح مكة وسهل تهامة. وأصلُ الأبطح المَسِيلُ الواسِعُ فيه دِقَاقُ الحصى.
(٤) الأغاني: ٤/٢١٣ ـ ٢١٤.
(٥) الصِّدَارُ: ثوبٌ من شَعر أو صوف، كانت المرأة الثكْلَىٰ تلبسُه إذا حزنت، رأسُه كالقِناع، يَغْشَى الصدر والمنكبين.
(٦) الشعر والشعراء: ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

مُصِيبةً، فهي أَعْظمُهم حزناً، ومن حَقِّها مُعَاظَمتهم في هذا، لأنها عاشت بعد صخرٍ نحواً من ثلاثين سنةً، وهي تبكيبه وترثيه.

* * *

(٩) ـ عكاظ مُوحِيَةُ العجائب:

ويبدو أن بلوغَ عكاظٍ، وشُهودَ مَواسِمها، وشهرتها في تميُّزِها، كانت تبعثُ أحياناً على اختراع خَوارِقَ يُزْعَمُ أنها وقعت فيها، فيُصدِّق بها بعضُهم، ويتناقلها...

١ ـ من ذلك ما ذكره القزوينيُّ حيث قال: «حكى رجلٌ من ثقيفٍ، أنه رأى بسوق عكاظ، رجُلاً قصيرَ القامة، على بعيرٍ في حجم شاةٍ، وهو يقول: أيها الناسُ! هل فيكم من يسوق لنا تِسْعاً وتسعين ناقةً، ينطلق بها إلى أرض وَبَار[1]، فيُؤَدّيها إلى حِمَالِ صُبَار[2]؟... فاجتمع الناسُ عليه، يتعجبون منه ومن كلامه وبعيره، فلما رأى ذلك عَمَدَ إلى بعيره، وارتفع به في الهواء، ونحن ننظر إليه، حتى غاب عن أَعْيُننا...»[3].

٢ ـ ومنه أيضاً ما ذكره ياقوتُ، بروايةٍ عن أعشى همدان قال فيها: «خرج مالكُ بنُ حَريم الهمْدانيُّ في الجاهلية، ومعه نَفَرٌ من قومه، يريدون عكاظ، فاصطادوا ظَبْياً في طريقهم، وكان قد أصابهم عطشٌ كثير، فانتهوا إلى مكان يقال له: أُجَيْرة، فجعلوا يفصدون دَمَ الظبي، ويشربونه من

---

(١) وَبَار: أرضٌ واسعة في جنوب بلاد العرب، بين شِحْرَ مَهَرة وتخوم صنعاء.

(٢) حِمَال: مفردها حَمْل وهو ثمر الشجرة. والصُّبَار: حَمْل شجرةٍ شديدة الحموضة، قيل هو التمر الهنديُّ الحامض.

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد: ٥٦.

العطش، حتى أُنْفِدَ دَمُهُ، فذبحوه، ثم تفرَّقوا في طلب الحَطَب. ونام مالِكٌ في الخِبَاء، فأثار أصحابُه شُجَاعا[1]، فانْسَابَ حتى دخل خِباءَ مالكٍ. فأقبلوا فقالوا: يا مالكُ، عندك الشجاعُ فاقتلْهُ!. فاسْتَيقظَ مالك، فقال: أَقْسَمْتُ عليكم إلاَّ كفَفْتُم عنه! فكَفُّوا، فانْسابَ الشجاعُ وذهب، فأنشأ مالك يقول:

وأوْصانـي الحـريـمُ بعِـزِّ جـاري ... ومَنْعَتِـهِ إذا امْتَنَـع المنـاعُ
فـدىً لكـمُ أبـي، عنـه تَنَحَّـوا ... لأمـرٍ مـا اسْتَجـارَ بـيَ الشجـاعُ
ولا تَتَحمَّلُـوا دَمَ مُسْتَجيـرٍ ... تَضَمَّنَـهُ أُجَيْـرَةُ فـالتِّـلاعُ
فـإنَّ لمـا تَـرَوْن خَفِـيَّ أمْـرٍ ... لـه، مـن دون أمْـرِكـمُ، قنـاعُ

ثم ارتحلوا، وقد أجْهَدَهمُ العطشُ، فإذا هاتفٌ[2]، يهتفُ بهم قائلاً:

يـا أيهـا القـومُ لا مـاءٌ أمـامَكُـمُ ... حتى تَسُومُوا المطايا يومَها التَّعَبَا
ثم اعْدِلُوا شامَةً، فالماءُ عن كثَبٍ ... عَيْـنٌ رواءٌ، ومـاءٌ يُـذهِـبُ اللغَبَـا
حتـى إذا مـا أصَبْتُـم منـه رِيَّكُـمُ ... فاسْقُوا المطايا، ومنه فامْلَؤوا القِرَبَا

قال: فعَدَلُوا «شامةً» فإذا هم بعينٍ خرَّارةٍ، فشربوا، وسَقَوْا إبِلَهم، وحملوا منه في قِرَبِهم، ثم أتَوْا عكاظاً، فقضَوْا أَرَبَهم، ورجعوا، فانتهوا إلى موضع العَيْن، فلم يروا شيئاً[3]، فتوهَّموا أن الذي فعل ذلك لهم هو الشُّجَاع، شكراً على عدم قتله.



(١) **الشُّجَاعُ**: ضَربٌ من الحيّات، وقيل: بل هو الحَيَّةُ الذَّكَرُ.
(٢) **الهاتفُ**: هو الذي تسمعه من غير أن تراه.
(٣) معجم البلدان: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦ (أُجَيْرَة).

(١٠) ـ سَرْحَةُ التَّهاجي بعُكاظ:

السَّرْحُ شجرٌ كِبَارٌ، عِظَامٌ، لا تُرْعَى، وإنما يُستظَلُّ بها. وكانت في عكاظ سَرْحَةٌ، يجتمع الناسُ إليها، ويضربون قبابَ الأَدَم، وإلى ذلك أشار الشاعرُ الجاهليُّ، راشدُ بنُ شهاب اليَشْكُرِيُّ، من بني بكر بن وائل بقوله:

بِـذَمٍّ يُغَشّـي المـرءَ خِـزْيـاً ورَهْطَـهُ   لدى السَّرْحَةِ العَشَّاءِ، في ظِلِّها الأَدَمْ[١]

وهذه السَّرْحةُ العَشَّاءُ، أي الخفيفةُ، كانت للشاعر الأَغْلب بن جُشَم العجليِّ[٢]، من بكر بن وائل، فكان يصعد عليها في المواسم، ثم يرتجزُ، ويُهاجي الشعراء، ويقول:

قـد عَـرَفتْنـي سَـرْحَتـي فـأَطَّـتِ   وقـد شَمِطْـتُ بعـدَهـا واشْمَطَّـتِ[٣]

فاعْترضَهُ يوماً هُرَيْمُ بنُ جَوَّاس التميميُّ[٤]، فقال له:

قُبِّحـتَ مـن سـالفـةٍ ومـن قَفَـا   عبـدٌ إذا مـا رَسَـبَ القـومُ طَفَـا
فمـا صفـا عَـدُوُّكـمُ، ولا صفـا   كما شِرارُ البقل أطرافُ السَّفَا[٥]

---

(١) المُفَضليّات: ٣٠٩.

(٢) الأغلب بن جُشَم: راجز مشهور، قيل: إنه أوَّلُ من رجز الأراجيزَ الطوال، عُمِّر في الجاهلية طويلاً، وأدرك الإسلام، فأسلم وحَسُنَ إسلامُه، وشهد معارك الفُتوح.

(٣) أَطَّت: من الأطيط وهو صوتُ الجوف من الخَواء، وحنينُ الجِذْع. شَمِطَ واشْمَطَّ: خالطَ بياضَ رأسه سواد، فهو أشمط. وشَمَطتِ الشجرةُ: انتشر ورقها.

(٤) هُرَيم بن جَوَّاس: راجز من بني مُقاعس، من سعد بن زيد مناة بن تميم، كان يُهاجي الأغلبَ العجليَّ بعكاظ.

(٥) السَّفَا: ما تَذْروهُ الرياح.

فقال له الأغْلبُ: ويْلَكَ مَن أنتَ؟ قال:

أنــا غــلامٌ مــن بنــي مُقــاعِــسِ الضَّــارِبيــنَ فَلَــكَ الفَــوارِسِ[1]

* * *

ويبدو أنه كانت هنالك سَرْحَةٌ أُخرى بعُكاظ، كان يأوي إليها زُهْرةُ بن سِرْحَان، وكان يَصْطنعُ عندها، في كلامه، صوتاً كصوت الأَطيط يَصْدُرُ عن الجَوْفِ الخَوِيِّ، فسُمِّيَ الراهبَ. وقد ذكر ابنُ منظور أنه كان يأتي سوق عكاظ، فيقومُ إلى هذه السَّرْحَة، فيَرْجِزُ عندها ببني سُلَيْم قائماً، فلا يزال ذلك دَأْبَهُ، حتى يصدرَ الناسُ عن عكاظ. وكان يقول:

قــد عَــرَفَتْنــي سَــرْحَتــي فــأَطَّــتِ وقــد وَنَيْــتُ بعــدَهــا فــاشْمَطَّــتِ[2]

* * *

(١١) ـ زَبيبُ عكاظ مكافأة:

بعد الذي أصاب المسلمين في يوم أُحُدٍ، خرج رسولُ الله، عليه السلام، في اليوم التالي، حتى انتهى بالمسلمين إلى حمراء الأسد، على سبعة أو ثمانية أميال من المدينة، يريدُ أن يظنَّ به المشركون قوّةً، فلا يَكُرُّون عليهم.

ويومئذ مرَّ بأبي سفيان، وهو في طريقه إلى مكة، رَكْبٌ من بني عبد القيس يريدون المدينة، فقال لهم: هل أنتم مُبلِّغُون عني محمداً رسالةً،

---

(١) الإصابة: ٣/ ٥٨٤/ت ٩٠٤٩، والأغاني: ٢١/ ٣١ ـ ٣٢، والشعر والشعراء: ٦١٣.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٢٥٧ (أطط).

وأُحَمِّلُ لكم إبِلَكم هذه غداً زَبِيباً بعكاظ؟ قالوا: نعم! قال: فإذا جِئْتُموه، فأخْبروهُ أنَّا قد أَجْمَعْنا المسيرَ إليه وإلى أصحابه، لِنَسْتأصِلَ بقيَّتَهم. . . فمرَّ الركْبُ برسول الله وهو في حمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حَسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيل! ثم انصرف بعد ثلاثة أيام إلى المدينة، لم يَلْقَ كَيْداً[1].

١٢ ـ العَرَّافون:

وقد كانت مواسمُ الأسواق، كسوق عكاظ، مَوْضعاً يأوي إليه العرَّافون، فكان الناسُ يأتونهم بصِبْيَانهم، ويَعْرِضُونهم عليهم، ليُخْبِروهم بما قد يكون عليه مستقبلُ كلٍّ منهم، يفعلون ذلك بالتفرُّسِ في الوجوه، ومقارنة ما يرونه من الملامح بما لهم من خبرةٍ وتجاربَ، وكان أَحَدُهم يَعْمدُ إلى الخُطوط، يخطُّها على الأرض، ثم ينظرُ إليها، ليستخرجَ منها ما يَتَنبَّؤُ به للصبيّ وغيره. . ويُقال للعَرَّاف أيضاً: الحازي والطارقُ والكاهِنُ والحدَّاس والمنجّم[2]. . .

ومن ذلك ما ذكره ابنُ سعد، من أن حليمةَ السَّعْديَّةَ، مُرْضِعَةَ رسول الله،

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، والكامل: ٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) **العَرَّاف**: المنجِّمُ، وعملُه العِرافَةُ وهي التنجيمُ والإخبارُ عن الماضي والمستقبل، **والحازي**: الذي يَحْزُرُ الأشياءَ ويُقدِّرُها بظنه، والذي ينظرُ في الأعضاءِ وخِيلانِ الوجهِ والبَدَنِ يتكهَّنُ. ويقال إن الحازي هو من كان يأتي إلى أرضٍ رِخْوةٍ، فيأتيه فيها صاحب الحاجة، فيعطيه حلواناً، فيقول له الحازي: أقعد حتى أخطَّ لك! وبين يديْ الحازي غلامٌ يتبعه، معه مِيلٌ له، فيأخذه الحازي منه، ويخطُّ به خطوطاً كثيرةً بالعَجَلة لئلا يَلحقَها العددُ، ثم يرجعُ فيمحو منها على مَهَلٍ خَطَّيْن خَطَّيْن، وغلامه يقول للتفاؤل: ابْنَيْ عِيَان، أسْرِعا البيان! فإن بقي من الخطوط خطَّانِ فهما علامةُ النجاح، وإن بقي منها خطٌّ واحدٌ فهو علامةُ الخيبة في قضاء الحاجة.

قالت: إن آمِنةَ بنتَ وهبٍ، أمَّ الرسول، لمَّا أعطتْها إبنَها لتُرضِعَه، أمرتْها أن تسألَ عنه، فرجعتْ به إلى بلادها، فأقامت حتى دخل موسمُ عكاظ، فانطلقت به حتى حضرتِ السوقَ، وأتَتْ عَرَّافاً من بني هُذَيْل، يَعْرِضُ الناسُ عليه صِبْيَانَهم، فلما نظر إليه صاح: يا معشرَ هُذَيْل، يا مَعْشَرَ العرب! فاجتمع إليه مَن كان مِن أهل الموسم، فقال: إنني أرى غلاماً ليُكسِّرَنَّ آلِهتَكم، وليَظْهرنَّ أمرُهُ عليكم. . . فانسَلَّتْ به حليمةُ، فجعل الناسُ يقولون: أيُّ صبيٍّ؟ ولا يَرَوْنَ شيئاً، وطُلب في عكاظ، فلم يجده أحدٌ، ورجعت به حليمة إلى ديارها، فكانت بعد ذلك لا تَعرِضُهُ لِعرَّافٍ، ولا لأحدٍ من الناس[1].

* * *

(١٣) ـ امتحانُ البَديهة:

وعلى نحو ما نَشهَدُهُ اليوم من ندواتٍ، يجري فيها اختبارُ البَديهة، وسرعةِ الجواب، والمُغَالبة في الفطنة والعقل، كان العربُ يتلاقون في حلقات للسَّمَرِ، يمارسون فيها مثل هذه الأمور، ولا سيما في مواسمهم، كموسم سوق عكاظ. . . ومن أهل الدَّهاءِ والفِطْنة، ومن أهل اللسَنِ واللقَنِ، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة: هندُ بنتُ الخُسِّ الإياديَّة، وكانت من حكيمات العرب، معروفةً بالفصاحة، وضرب الأمثال[2]. وكانت تحضر عكاظاً، ولها فيه أخبارٌ كثيرة[3]. وقد أَتتِ الموسم في إحدى السنين، فالتَقَتْ رجُلاً أراد أن يمتحن عقلها، ويمتحنَ جوابَها، فقال لها: إني أريدُ أن أسألك. قالت: هاتِ! قال:

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ١٥، ولسان العرب: ٩/ ٢٣٨ (عرف)، و١٤/ ١٧٤ (حزا) و٧/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ (خطط).

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٤٩، و ٣/ ٢٧، ولسان العرب: ٦/ ٦٤، والمفصَّل: ٨/ ٧٩٠.

(٣) الأعلام: ٨/ ٩٧، ومجالس ثعلب: ٣٤٣، ٣٦٩.

كاد... فقالت: المُنْتَعِلُ يكون راكباً. قال: كاد... فقالت: الفقرُ يكونُ كُفْراً. قال: كاد... قالت: العروس تكون ملكاً. قال: كاد... قالت: النعامةُ تكونُ طائراً. قال: كاد... قالت: السِّرَارُ يكون سَحَراً... ثم قالت للرجل: أسألك؟ قال: هاتي... قالت: عَجبتُ... قال: للسِّبَاخِ لا ينبتُ كَلَؤُها، ولا يجفُّ ثَراها. قالت: عَجبتُ... قال: للحجارة لا يَكْبَرُ صغيرُها، ولا يَهْرَمُ كبيرها[١].

وذكر ابنُ منظور عن الأزهري أنه كانت في الجاهلية امرأةٌ، تقوم بسوق عكاظ، فتنشِدُ الأقوالَ، وتضربُ الأمثالَ، وتُخجِلُ الرجال، فانتدب لها رجلٌ يوماً، فقالت المرأة ما قالت، فردَّ عليها ردّاً قبيحاً أخْجَلها فهربت[٢].

١٤ ـ راياتُ الغَدْر وراياتُ الوفاء:

كان العربُ يُعظِّمُونَ الوفاءَ، ويحضُّون عليه، فإذا أعطى أحدُهم عهداً، كان من أكبر العار والشَّيْنِ ألاَّ يفيَ به، وكثيراً ما كان يُضَحِّي بنفسه وماله وأهله، ليَفيَ بعهده، فيُعَدَّ في الوافين، ولئلاَّ يُوصفَ بالغَدْر، ويُحشَرَ مع الغادرين. وقلما كان العربُ يحتاجون إلى من يفصِلُ بينهم في خصوماتهم، لما فُطِروا عليه من جُنوحٍ إلى الوفاء، فالوفاء إذا كان في أمَّةٍ، أغناها عن الحكومة والقضاء، والحكومةُ إنما تكون بين من ينكرون الوفاء[٣].

وكان من سنَنِهم في الجاهلية، إذا غَدَرَ الرجلُ منهم، أن يرفعوا له لواءَ في المواسم الكبرى، ولا سيما في مَجْمَعِهم العامّ بسوق عكاظ، ليَفْضَحوهُ

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢١٤.
(٢) لسان العرب: ٢/ ٤٩١ (سنح).
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٠٨.

في الناس جميعاً، وليُحَذِّروهم منه، ومن التعامُل معه[1]. ولهم في ذلك مَثَلٌ يقول: إن لكل غَدْرةٍ لواءً، أي علامةً تُشْهَرُ بها في الناس[2]، وهذه العلامةُ تكون كالرَّاية، تُرفع ليعرفَها الناس جميعاً. وإلى هذا أشار قُطْبَةُ بنُ أَوْس المازني[3]، يسأل حبيبتَهُ سُميَّةَ إن كانت سمعتْ لهم بغَدْرةٍ:

أَسُمَيَّ وَيْحَكِ، هل سمعتِ بغَدْرةٍ رُفِـعَ اللـواءُ لنـا بهـا فـي مَجْمَـعِ[4]

وربما أَوْقَدوا للغَادرِ ناراً، وصاحُوا: هذه غَدْرةُ فلان، فاحْذَرُوهُ، والْعَنُوهُ، أو ربما أقاموا له تمثالاً من طينٍ، يَنْصبونه في السوق، رمزاً لنَقْضِهِ العهدَ وغَدْرِهِ به... وقد ذكر المرزوقي أن العرب كانوا إذا غَدَرَ الرجلُ، أو جَنَى جنايةً عظيمةً، انطلق أحَدُهم، حتى يرفع له رايةَ غدْرٍ بعكاظ، فيقوم رجلٌ من المغدور بهم، يخطب بذلك الغدر، فيقول: ألا إنَّ فلانَ بنَ فلان قد غَدرَ، فاعْرفوا وجهه، والْعَنُوهُ، ولا تُصاهِرُوهُ، ولا تُجالِسُوه، ولا تسمعوا منه قولاً، ولا تُعاملوه... فيُمسِي بذلك مَذْمُوماً، مَدْحُوراً، يُثْقِلُ ضميرَهُ شعورُهُ بالخِزْي والعار، بعدما صَدَر بحقِّهِ حُكمُ عكاظ، القاضي بعَزْله عن المجتمع، فإن رَجَعَ عمَّا جَنَى فأَعْتَبَ، أي أَرْضَى، وإلا جُعِلَ له مِثْلُ مِثَالِهِ في رُمُحٍ، فنُصِبَ بعُكاظ، ثم لُعِنَ ورُجِمَ. ويُقال إن بني كندة رفعوا رايةَ غَدْرٍ بعُكاظ، لعامِرِ بنِ جُوَيْن الطائيّ، في غَدْرِه بامرىء القيس بن حجر الكندي قُبيل سفره إلى قيصر الروم. فقد نزل به امرؤ القيس مُجاوراً له، فأراد عامرٌ

(١) المفصَّل: ٤/ ٤٠٣.
(٢) لسان العرب: ١٥/ ٢٦٦ (لوى).
(٣) **قُطْبة بن أوس**: شاعر جاهليٌّ مُقِلٌّ، من بني مازن، من فزارة. كان حسانُ بن ثابت من المعجبين بشعره.
(٤) المفضَّليات: ٤٥.

أن يَغْلبَهُ على أهلهِ ومالِهِ، فعَلمَ بذلك، فانتقل عنه إلى رجُلٍ من بني ثُعَلٍ، وهم بطنٌ كبير من طيِّىء، فوقعت بين عامرٍ والثُّعَليِّ حربٌ، فرحل امرؤ القيس عنهم إلى السَّمَوْأَل. . .

وقيل في الوقت نفسه، إن بني فزارة بن ذبْيانَ رفعوالعامِرِ بن جُوَيْن رايةَ وفاء بعكاظ، في حُسْن صَنيعهِ بمنظور بن سيَّار الفزاريّ، لمَّا أقْحَمتْهُ السنةُ، فانتقل بماله وإبِلِهِ وأهْلِهِ إلى جَبَلَيْ طَيِّىء، فأجارَهُ عامرٌ، ووَفَىٰ له، فصار الناسُ بعد ذلك بين حامِدٍ عامِراً وذَامٍّ له[1]. . .

* * *

وجاء في حديث «ضُبَاعَة بنتِ عامر القُشَيْرِيَّة»[2]، أنها كانت زوجة لصاحب اليمامة هَوْذَة بن عليّ الحنفيّ، ثم مات عنها، فأصابت منه مالاً كثيراً، ورجعت إلى أهلها بني قُشَيْر. . . فخطبها إلى أبيها عبدُ الله بنُ جُدْعَانَ التَّيْميُّ، فزَوَّجَهُ منها. فأتاه ابنُ عمٍّ لها، يُقال له: حَزَنُ بنُ عبد الله، من بني قُشَيْر، فقال: يا عمّ! زَوِّجْني ضُبَاعة. قال: قد زوَّجْتُها عبدَ الله بن جُدْعان. فحلَفَ ابنُ عمها أن لا يَدَعَ ابنَ جُدْعان يصلُ إليها أبداً، وليَقتُلَنَّها دونه.

فكتب أبوها إلى ابن جُدْعانَ يذكر ذلك. . . فكتب إليه ابنُ جُدْعانَ: واللَّهِ لئن فعلتَ هذا، لأَرْفعنَّ لك رايةَ غدرٍ بعُكاظ!. . . فقال أبوها لابن عمِّها: قد جاء من الأمر ما ترى، فلا بُدَّ من الوفاء لهذا الرجُل. ثم جَهَّزَهَا، وحَمَلها إليه.

فركب حَزَنٌ في إثْرِهَا، وأخذ معه رُمْحاً، وتَبِعها حتى انتهى إليها،

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠، والأعلام: ٣/ ٢٥٠، والكامل: ١/ ٥١٨.

(٢) ضُبَاعَةُ بنتُ عامر: من بني قُشَيْر، من هوازن، كانت من أجمل نساء العرب. شاعرة، أسلمت بمكة، وكانت زوجة هشام بن المغيرة وولدتْ له إبنَه سَلَمة. تُوفيت نحو (١٠ هـ).

فوضع سِنانَ الرمح بين كتفيها، وقال لها: يا ضُبَاعة! هل قومٌ يَقْتَنُونَ المالَ تجارةً، أَحَبُّ إليكِ، أم قومٌ حُلُولٌ؟. . . وكان ابنُ جُدعانَ تاجراً كسائر أهل مكة، أي أهل الحَرَم، خلافاً للحُلُولِ، أي أهل الحِلِّ الذين سكنوا خارج الحرَم، فكانوا بُداةً، يعيشون غالباً من رَعْي الأنعام. فقالت ضُبَاعة: لا، بل قومٌ حُلول. قال: أمَا واللَّهِ، لو قلتِ غير هذا، لأَنْفَذتُ الرُّمحَ من بين ثَدْيَيْكِ! ثم انصرف عنها، وزَفَّها أبوها إلى ابن جُدعان، وفاءً بالعهد الذي قطعه له، وتمَّ الزواجُ كما اتَّفقا[1].

وهكذا كان نَصْبُ رايةٍ للوفاء بعكاظ، إعلاناً يُكسِبُ الرجُلَ الوافي حَمْداً وثناءً في أحياء العرب كافةً. وكان نصْبُ رايةٍ للغدر دعوةً للقَدْحِ في الغادر وذَمِّهِ، ورادعاً خُلُقيّاً، له رهبةٌ في نفوس العرب تُلزِمُهم بالوفاء. . .



(١٥) - بناتٌ للزواج:

كان من عادة الشاعر الأعشى[2]، أن يُوافي سوق عكاظ في كل عام، فيتجاذَبهُ الناسُ في الطريق، تكريماً له، وطمعاً بمِدْحَةٍ من شعره، يُنَوِّهُ بهم فيها، فيَتَلقَّاها الرواةُ بعكاظ، وينشرونها في العَربِ، فتنتشِرُ لهم بذلك شهرةٌ واسعة. ومن ذلك أنه مرَّ يوماً ببني كلاب[3]، في طريقه إلى عكاظ ليشهدَ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٠ (حاشية: ٣). وهنالك بقيةٌ لحديث ضُبَاعَة، نذكره عند كلامنا على موسم الحجّ في الجاهلية.

(٢) الأعشى الكبير: (٥٣٠ ـ ٦٢٩ م). أبو بصير ميمون بن قيس، من بكر بن وائل. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلّقات. كان كثير الوفود على الملوك، غزيرَ الشعر، يسلك فيه كلَّ مَسْلَكٍ، وكان يُغَنّى بشعره. فسُمِّي صَنَّاجَة العرب. أدرك الإسلام ولم يُسلم، مولده ووفاته في منفوحة من قرى اليمامة بنجد.

(٣) بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، من هوازن.

موسمَها في تلك السنة، وكان في القوم رجلٌ يقالُ له: المُحلَّقُ بن حَنْتَم الكِلابيّ[١]، وكان مِئْناثاً مُمْلِقاً[٢]، له ثمان بناتٍ، لا يَخطُبهنَّ أحَدٌ لمكان أبيهنَّ من الفقرِ وخُمولِ الذِكْر. فقالت امرأةُ المحلَّقِ لزوجها: ما يمنعُكَ من التعرُّضِ لهذا الشاعر وإكْرامِهِ؟ فما رأيتُ أحداً أكْرمَهُ، إلا أكْسَبَهُ خيراً. فقال: وَيْحَكِ! ما عندي إلا ناقتي. فقالت: يُخْلِفُها اللَّهُ عليك.

فقام المحلَّقُ بعد تَردُّدٍ، ورَصَدَ الأعْشى في مَقْدَمِهِ، حتى يَتَلقَّاهُ قبل أن يسبقَهُ إليه أحَدٌ، وكان الأعشى كفيفاً يقوده ابنْه، فلما وصَل، أقبل عليه المحلَّقُ، فأخذ بخِطام ناقته[٣]، فقال: من هذا الذي غَلبَنا على خِطام ناقتنا؟ فقيل له: هذا المحلَّقُ. فقال: شريفٌ كريم. ثم أمَرَ ابْنَهُ أن يَدَعَ المحلَّقَ يقتادُ الناقةَ، فاقتادها إلى منزله، وأكرمَهُ، ونَحرَ له الناقةَ الوحيدة التي يملكُها، وأَوْلَمَ له وليمةً عظيمةً، وجعلت بناتُ المحلَّق يَدُرْنَ حول الأعشى، ويُبالِغْنَ في خدمته، فسأل: ما هذه الجواري حولي؟ فقال المحلَّقُ: بناتُ أخيك، وهُنَّ ثمانٍ، نَصيبُهنَّ من المال قليل!

فقام الأعشى من عنده، وخَرَجَ من غير أن يقولَ شيئاً، وقصد إلى عكاظ من ساعته... ثم خرج المحلَّقُ، فوافَىٰ عكاظاً، فإذا هو بسَرْحَةٍ[٤]،

---

(١) المُحَلَّقُ بنُ حَنتَم: من بني شَدَّاد الكلابي العامِريّ. كريم جاهلي، اشْتُهر بما قاله فيه الأعشى. يقال إن اسمه عبد العُزَّى بن حنتم، وغلب عليه لقبُ المحلَّق، لِشَجَّةٍ كانت في وجهه تشبه الحلقة، من عَضَّة حصان، أو من أثَر كَيٍّ. ومن نسله «أم الهيثم» الكلابية راوية أهل البصرة.

(٢) المِئْناثُ: الكثير الذريَّة من البنات. المُمْلِقُ: من أنفق ماله حتى افتقر.

(٣) الخِطَام: حبل يُجعل في عنق البعير، يُقاد به.

(٤) يبدو أن أشْجَارَ السَّرْح كانت مجتمعَ الناس إلى الشعراء، وأنها كانت كثيرةً في سهل عكاظ، يستظلُّون فيها.

اجتمع الناسُ إليها، وإذا الأَعْشَى يُنشِدُهم قصيدةً أَنْشَأها في مَدْح المحلَّق، ويقول فيها:

أَرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ ... وما بيَ من سُقم، وما بي مَعْشَقُ
لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نارٍ، باليفاع، تُحرَّقُ[1]
تُشبُّ لمقرورَيْن، يصطليانها ... وباتَ على النار، الندىٰ والمحلَّقُ[2]
ترىٰ الجودَ يجري ظاهراً فوق وجههِ ... كما زانَ متنَ الهندوانيّ رَوْنقُ[3]

ما كاد الأعشى ينتهي من إنشاد قصيدته، إلا والناسُ يَنْسَلُّون إلى المحلَّق يُهنِّئونه، ثم لم تمضِ سنةٌ عليه، حتى زَوَّج بناته، ويَسُرَتْ أحواله[4]. . . ومن ذلك وأمثاله، يتبيَّن لنا ما كان لعكاظ من آثار اجتماعية واضحةٍ، في مجتمعات العرب، من خلال ما تُعالجُه من مواضيع الشعر والشعراء.

* * *

(١٦) ـ تأديبُ السُّفَهاء:

يُحكى أنه كان لعبد الله بن جَعْدَة[5]، وهو من شيوخ بني عامر بن

---

(١) اليَفَاع: التلُّ المُشْرِف، وكلُّ ما ارتفع من الأرض.
(٢) تُشَبُّ: تُوقَد، المَقْرور: البَرْدَانُ، الندَى: الكرم.
(٣) الهُنْدُوانيُّ: سيفٌ. أي أن الكرم يزينُ وجهَ المحلَّق، كما يزين متن السيف الهندُوانيّ الرَّوْنق واللمعان.
(٤) الأغاني: ٩/ ١١٠ ـ ١١٤، والأعلام: ٧/ ٣٤١.
(٥) بنو جعدة: حيٌّ من قيس، وهو جَعْدَةُ بنُ كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ومنهم الشاعرُ النابغة الجعدي.

صعصعة، وقائدُهم في معركة النِّسَار[1]، إتاوَةٌ على بعض أحياء الأَزْد[2]، فكان يحضُرُ عكاظاً، فيأتيه هذا الحيُّ بها. فجاءَه سمير بن سَلَمة القُشَيريّ في أحد المواسم، وعبدُ الله جالسٌ فوق أَمْتعةٍ جُمعت له من الإتاوة، فأنْزَلَهُ عنها، وجلس مكانَه! فقام إليه رجالٌ في السوق، وسَحَبُوهُ من رِجْلَيْه، وأبْعَدوه عن ذلك الموضع، وأعادوا عبدَ الله إلى مكانه[3]. ولعلّ أولئك الرجال كانوا ممن يحفظن الأمنَ في السوق، ويَذُودون عن الحُرُمات، ويُؤَدِّبُون السُّفَهاء.



(١٧) ـ صَواحِبُ الرايات:

هُنَّ الإمَاءُ اللائي كُنَّ يحتَرِفْنَ البِغَاءَ، فكانت لهنَّ في السوق حوانيتُ أو حَانَاتٌ خاصَّةٌ، تُنصَبُ عليها راياتٌ يُعْرَفن بها، وزِيٌّ خاصٌّ بهنَّ، كَيْلا يختلطْنَ بالحرائر من نساء العرب[4]، فالبِغَاءُ للإمَاء دون الحرائر، وفِعْلُه خاصٌّ بهنَّ، وكان من الإمَاءِ قِيَانٌ يُغَنِّينَ في تلك الحوانيت، وإنما قيل للمُغَنِّيةِ قَيْنةٌ لأن الغناء من عمل الإمَاء، وكان من تلك الحوانيت ما تُباع فيه الخمورُ، أو تجري مُعَاقَرتُها فيه، وكانت تُرفع عليها أيضاً رايةٌ تُعرفُ بها. ولا شك في أن أبناء البوادي كانوا يَتَوافون بعُكاظ، وغيرها من المجامع

---

(١) الكامل: ١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١، ٦١٩، والمفصَّل: ٥/ ٣٧٨.

(٢) **الإتاوة**: معناها هنا خَراجٌ كان يُؤَدَّى للزعماء والرؤساء، بقدر معلوم، استحقُّوه بأحد الأعمال، أو الأعراف، ومن الضروريّ ألا يُفهمَ منها أنها ضريبةٌ كانت تُجبَى بعُكاظ، عن بضائعَ أو تجارةٍ، فعُكاظ منطقةٌ حُرَّةٌ ليس فيها ضرائبُ على التجارة.

(٣) الأغاني: ٥/ ٢٠ ـ ٢١.

(٤) المحبَّر ٣٤٠، والبيان والتبيين: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧، والحياة الجنسية عند العرب: ١٤.

العامّة، ليقصدوا حاناتها، ويجدوا في نشوة الشراب نعيماً، وفي أنغام القِيَان طرَباً، ومتعةً تسلب ألبابَهم، حتى ليُخيَّل إليهم أنه قد أُتيح لهم في عكاظ، من الرخاء والنعيم واللهو، ما لا وجود لمثله في سائر المواسم(١).

* * *

(١٨) ـ التحرُّشُ بالكِرَام:

وعلى نحو ما يفعلُ اليومَ بعضُ أهل الصحافة، يَسبُّون كريماً، وينتقدونه بما يُثيرهُ، من غير ذنبٍ جَناهُ، إلا أنهم يريدون أن يُسْكِتَهم بماله، كان الشعراء في الجاهلية أحياناً يفعلون مثل ذلك. ذكروا أن دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة(٢)، هجا عبدَ الله بنَ جُدْعان التيْميَّ، ولم يكن يعرفُهُ، بقصيدةٍ مطلعُها:

هل بالحوادثِ والأيام من عَجَبِ ... أم بابْنِ جُدْعانَ عبدِ اللّهِ من كَلَبِ

فلبث ابنُ جُدْعان ينتظرُ حتى دخل الموسم، فلقِيَهُ بعكاظ، فحيَّاهُ، فردَّ التحيةَ بمثلها، فسأله: هل تعرفُني يا دُرَيْد؟ قال: لا! قال: فلمَ هَجَوْتَني إذن؟ قال: ومَن أنت؟ قال: أنا عبدُ الله بنُ جُدْعان! قال: هَجَوْتُك لأنك امْرُؤٌ كريمٌ، فأحْببتُ أن أَضَعَ شِعْري مَوْضِعَهُ. فقال ابنُ جُدْعان: لئن كنت هَجَوْتَ لقد مَدَحْتَ. . . ثم كسَاهُ، وحَمَلهُ على ناقةٍ برَحْلِها، فمدحَهُ دريدٌ

---

(١) تاريخ العرب: ١٣٨، والمفصَّل: ٥/١١٢.

(٢) دريدُ بن الصِمَّة: من بني جُشَم، من هوازن. شاعر جاهلي من الشجعان الأبطال، كان سيد بني جُشَم وفارسهم وقائدهم. غزا نحو مئة غزاةٍ لم يُهْزَم فيها. وهو من المعمَّرين، قُتل في معركة حنين نحو (٦٣٠ م).

بقصيدةٍ قال فيها:

رحلـــتُ البـــلادَ فمـــا إن أرَىٰ   شَبيهَ ابنِ جُدْعانَ وسْطَ العَربْ[1]

* * *

(١٩)ـ إذاعةُ العرب:

وكانت عكاظ كذلك إذاعةً للعرب، ومِنْبراً لإعلاناتهم، يُطْلق فيها كلُّ نَبَءٍ يُراد منه أن يكون عامّاً، أو أن ينتشِرَ، فتعرفَهُ العربُ جميعاً. فمن أراد أن يَسْتَلحِق أحداً بنَسَبِهِ، أي أن يمنحَهُ «جنسيَّةَ» قبيلته، وهُوِيَّتَها، قام بعُكاظٍ، فأعلن ذلك في قبائل العرب، للعِلْم به، والشهادةِ عليه، والتعامُلُ معه... ومن أراد كذلك أن يُجِيرَ أحداً من غير قبيلته، أي أن يمنحَهُ حقَّ «اللجوءِ» إليها وحمايتِها له، أو أراد أن يخلعَ أحداً من القبيلة، أو من جِوارها، فعليه أن يُعلنَ ذلك في مجامع العرب الكبرى، كي تعرفَه الناس، وتتعامَلَ معه على أساسه. ولم يكن هنالك مجمَعٌ للعرب أكبرُ من مَجمَعِهم في عكاظٍ، ومواسم الحجِّ. وكانت معاهداتُ الأمن، المعقودةُ بين قبائل العرب، لا تصِيرُ نافذةً غالباً، ما لم تُعلن في سوق عكاظ! ومن ذلك ما ذكره الأصفهانيُّ عن أحياءٍ من العرب، اجتمعت بعكاظ، في سنينٍ تتابعت بالقَحْطِ على الناس، «فتَواعَدوا وتوافَقُوا أن لا يَتَغَاوَرُوا حتى يُخصَبَ الناس»[2].

١ ـ ومَن أراد أن يُعلنَ حرباً على قومٍ أعْلَنَها في عكاظ، ومَن أحَبَّ أن

---

(١) الأغاني: ١٠/ ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ١٥/ ١٨٧.

يُخلِّدَ نصراً لقومه، صَنَعَ ما صنَعهُ عمرو بن كلثوم التغلبيُّ[1]، لمَّا قام خطيباً بعُكاظ، فأعلن أن ملكَ الحيرة عمرو بنَ هند، تعمَّد إلحاقَ الذُّلِّ به وبأُمِّه، فقتله... ثم أنْشأَ في ذلك مُعَلَّقتهُ الشَّهِيرةَ فتَلقَّاها الرواةُ عن عكاظ، وأذاعوها في العرب، حتى صارت حديثَ الأجيال. وقد قيل إنه «قام بها خطيباً في سوق عُكاظ، وقام بها في موسم مكة، وبنو تَغْلب تُعظِّمُها جدّاً، ويرويها صِغَارُهم وكبَارهم، حتى هُجُوا بذلك، فقال بعضُ شعراء بني بكر بن وائل:

أَلْهَىٰ بني تَغْلبٍ عن كلِّ مَكْرُمَةٍ قَصيدةٌ قالها عمرو بنُ كلثومِ»[2]

* * *

٢ ـ ومَن أَحبَّ أن يُخلَّدَ في العرب ذِكْرُه، وأن يتحدَّثَ الناسُ بكرمه وفَضْله، فَعَلَ ما فَعلَهُ «نَهِيكُ بنُ مالك القُشَيريُّ»، من بني عامر بن صَعْصَعة،

---

(١) عمرو بن كلثوم: شاعر جاهلي قديم، من بني تغلب، وُلِد في شمال جزيرة العرب، في ديار ربيعة. وتجوّل فيها وفي بلاد الشام ونجد. كان من أعَزِّ الناس نَفْساً، وهو من الفُتَّاك الشجعان. وقد قتل عمرو بن هند لأنه قال ذات يوم لنُدمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنَفُ أُمُّهُ من خدمة أُمي؟ فقالوا: نعم، عمرو بنُ كلثوم، لأنّ أباها مُهَلْهِلُ بن ربيعة، وعمَّها كُلَيبُ وائل أعزُّ العرب، وزوجَها كلثومُ بن مالك أفْرَس العرب. وإبنَها عمرو بن كلثوم سيّدُ قومه. فأرسل ابنُ هند إلى ابن كلثومٍ وأمِّه يستزيرُهما، فأقبلا إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، ودخل ابن كلثوم في رُواق عمرو بن هند، ودخلت أمُّه ليلى في قُبَّة هند بجانب الرواق، وبعد الطعام، حاولت هند إذلال ليلى، فقالت لها: ناوليني ذلك الطَبَق! فقالت ليلى: لتَقُمْ صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها!. فألَحَّت هندٌ عليها، فصاحب ليلى: وَاذُلَّاهْ! يا لَتَغْلِبَ! فسمعها ابنُها، فنظر إلى عمرو بن هند، فعرف في وجهه أن الذُلَّ لأُمِّه مُتَعمَّد، فقام إلى سيف معلَّق بالرُّواق، فضرب به رأسَ عمرو بن هند، فقتله. توفي بالجزيرة الفراتية نحو (٥٨٤ م).

(٢) الأغاني: ١١/٤٨.

في سوق عكاظ... فقد قَدِمَ السوقَ في أحَدِ مواسمها للتجارة، ومعه عُروضٌ مختلفةٌ من أَمْتَعةٍ وأثاث ولباس، وصُنوفٌ من الطعام، حَمَلها على عددٍ من العِير. فرأى الناسَ هناك، فريقاً يتماجَدُون، فيُعدِّدُ كلٌّ منهم أَمْجادَ آبائه، وما اكتسبوه بفعالهم من خِصال الشرف والمروءَة والنَّجْدة، وفريقاً تحلَّقوا حول قاضٍ تنافَروا إليه في تفاخُرهم بالأحساب، وعِزَّةِ النَّفَر، وكثرةِ العَدَد... ولمَّا رأى نهيكُ بنُ مالك الرواةَ يَتَلقَّفُون أخبارَ الكِرام الأَجْوادِ، لِيُذيعوها في أحْياءِ العرب، ورأى الناس مَجْهُودينَ من شُحِّ الطبيعة، وتكاليف الحياة، أَنْهَبَ عِيرَهُ بما عليها من العُروض والأمتعة، رَغْبَةً في حُسْن الذِكْر، واكْتِسابِ الحمْدِ والخُلُود. ولمّا علم خالُه بما فعل، أَقْبل عليه يَلُومُه في ذلك، فردَّ عليه بقوله:

يا خالُ ذَرْني ومالي، ما فعلتُ به ... وما يُصيبُكَ منه، إنني مُودِي
فلن أُطيعَكَ، إلاَّ أن تُخَلِّدَني ... فانظرْ بِكَيْدِكَ هل تَسْطِيعُ تخليدي
الحمدُ لا يُشتَرىٰ إلا له ثَمَنٌ ... ولن أعيش بمالٍ غير محمودِ[1]

فالرجُلُ وجَدَ في فِعْل الجُود والسخاءِ، أقصرَ سبيلٍ إلى الحمد والثناء، ورأى أقصَرَ سبيل إلى الشهرة والخلود، أن يفعَلَهُ بعُكاظِ إذاعةِ العرب، حيث يتلقَّفُه رواةُ الأخبار، فيذيعونَهُ في أحياء العرب... وقد لُقِّبَ نَهيكُ بن مالك بعد ذلك بأنه «فتى أهل المشرق».

* * *

٣ ـ نَفيُ المرء عن قبيلته، أو حِرمانُه من حمايتها له، وتضامُنِها معه، أو إسقاطُ جنسيَّتها عنه.. كلُّ ذلك كان يُسمَّى «الخَلْعَ» في الجاهلية. وهو

---

(١) الإصابة: ٣/ ٣٨٥/ت ٧٩١٩.

خَلْعَانِ، أحدهما: خلعُ فَرْدٍ من أبناء القبيلة، والآخَرُ: خَلْعُ رجُلٍ أَعْطتْهُ حقَّ مُجاورتها، والتمتّع بحمايتها، وهو ليس منها. وللخَلْع قواعِدُ لا بدَّ منها ليَصِيرَ حكمُهُ نافذاً، وأوّلُ هذه القواعد إعلانُه في عكاظ، ومواسم الحجّ، ليكونَ الناسُ على علمٍ به. وذلك أن الرجلَ كان يجني الجنايات فيُؤخَذُ بها أوْلياؤهُ، وقد لا تكون لهم طاقةٌ أن يحملوا عنه أكثر مما فعلوا، فيتبرَّؤونَ منه، ويُعلنون أنهم لا يُؤاخَذون بجناياته على الناس بعد اليوم، ولا يضمنون شيئاً لمن جنى عليهم، ولا يُؤاخِذُون أحداً جَنَى عليه، ولا يطالبونه بشيء! فالعربُ في قبائلهم كانوا يتعاهدون، ويتعاقدون على النُّصْرةِ، والنجْدَة، وأن يُؤخَذَ كلٌّ منهم بالآخَر[1]. . وعَقْدُ المُجَاوِرِ فيهم كعقد أبناء القبيلة، فحُكْمهُ كحُكْمِهم في التناصُر والتعاضُد، فإذا أرادوا فَسْخَ هذا التعاقُدِ، أعلنوهُ على الناس في المواسم، وخيرُ المواسم صَلاحَاً لمثل هذا الإعلان، موسمُ عكاظ[2]. ويدخُلُ في أسباب الخَلْعِ من القبيلة، أو من حِلْفِها وجوارِها، خروجُ الرجل على وحدة القبيلة، وتصرُّفُه تصرُّفاً فَرديّاً دون الرجوع إليها، أو دون موافقتها، فتكون القبيلةُ عندئذٍ في حِلٍّ من تضامُنها معه، ومسؤوليتها عنه، فتُعلن خَلْعَهُ في عكاظ[3]. وقد خَلَعتْ قبيلةُ خُزَاعَة قيسَ بنَ الحدادية منها، ونَفَتْه عنها، وأعلنت ذلك بسوق عكاظ، وأَشْهَدتِ العربَ عليه، وكان قيسٌ صُعْلوكاً فاتكاً، وشاعراً شُجاعاً، يشترك مع الصعاليك في الفتك والغزو، ويجرُّ على أوليائه الجرائر[4]. . . وربما ساءَ سلوكُ أحَدِ أبناءِ القبيلة، وصار وجودُهُ فيها حَطّاً من قدرها بين القبائل، فتعلن خلعَهُ بعُكاظ،

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٧٧ (خلع).

(٢) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٢٩٩.

(٤) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.

حرصاً على سُمعتها وكرامتها[1]. وقد مرَّ بنا في حديث البَرَّاض بن قيس الكناني أنه كان سكِّيراً، فاسقاً، فاتكاً، خلعه قومُه بعكاظ، بعدما تهالك على الخمرة واللذَّات، حتى تحامَتْهُ العشيرةُ كلُّها، فلجأ إلى بني الدُّئِل، فشرب فيهم، فخلعوه، فأتى مكَّةَ، ونزل في جوار حَرْب بن أُميّة، فحالفَهُ حربٌ وأحْسَنَ جِوارَهُ، ولكنه عاد إلى السُّكْر مرَّةً أُخرى، حتى هَمَّ حربٌ بخَلعه، ولكنه لم يفعل. فارتحل عن مكة وهو على حِلْفِهِ قريشاً، فقتل عروة بن جعفر سيِّدَ هوازن، فهاج حرباً بين قريش وهوازن، هي حرب الفِجَار[2]. وفي أخبار عبد الله بن جُدعان، أنه كان في شبابه فاتكاً، لا زال يجني الجنايات، فيتحمَّلُ عنه أبوهُ ما يجني به على الآخرين، حتى مَلَّتْهُ عشيرتُه، فنفاهُ أبوهُ، وحلفَ لا يُؤْويه لما أثْقَلَهُ به من الغُرْم، وحَمَّلهُ من الدِّيَاتِ، وأعلن ذلك في عكاظ[3].

صفوةُ القولِ، أن الخَلْعَ من القبيلة، أو من حق الجِوار الذي تمنحُه القبيلةُ للعائذين بها، والمتحالفين معها، كان يتَّخِذُ شكلَ مرسومٍ قانونيّ، تُصدِرُه القبيلةُ، ولا يكون نافذاً في حقوق الغير، إلا بعد إعلانه في إذاعة العرب بسوق عكاظ، في مواسمها، ومواسم الحجّ الكبرى. وكان أولياءُ المخلوع ربما بعثوا في السوق مُنادياً، يُذيع هذا المرسومَ على قبائل العرب في منازلهم من عكاظ، وقد يكتبون به كتاباً يُعَلَّقُ في السوق، زيادةً في العَلانِيَة.

* * *

---

(١) المحبَّر: ١٩٥.

(٢) الأغاني: ٢٢/٦٣.

(٣) المفصَّل: ٤/٩٤ ـ ٩٥، وعجائب المخلوقات: ٣٢، (الأبشيهي ـ منشورات المتوسط ـ ١٩٨١ بيروت).

(٢٠) ـ تأمينُ الخَائفين وإغَاثَةُ المَلْهُوفين:

وكان الأشرافُ بعُكاظ يُؤَمِّنون الخائفين، ويُغيثون الملهوفين، ويُطعِمون الجَوْعَى، ولعلَّ أجملَ صوت كان يُسمع هنالك، صوتُ المُنادِينَ يَبْعثُهم سادَةُ القبائل وأشرافُها، يطوفون في السوق، يسألون: هل مِن راجلٍ مُتعَبٍ فَنَحْمِلَهُ؟ أو جائع فقير فنُطْعِمَهُ؟ أو خائفٍ فنُؤَمِّنَه ونُجِيرَهُ؟. ما أجملَ هذا النداء، وما أحْلَى وَقْعَهُ في أُذُنِ خائفٍ أو جائعٍ أو مُتْعَبٍ؟ وأين نحن اليومَ من أمثال تلك المروءةِ والشَّهامَةِ والنَّجْدَة!

ومن هذا القَبيل ما كان يَصْنعُه عامرُ بنُ الطفَيْل، فارسُ قومه، وأحَدُ سادات العرب في الجاهلية. فقد كان يأمُرُ مُنادِياً يطوفُ بعُكاظ أيامَ الموسم، ويُفتِّشُ عن الخائفينَ والمُعْوَزينَ والمُتعَبين[١]... ولم يكن ينتظرُ مَن يأتيه منهم مُستجيراً بل يبادرُ إلى البحث عنهم، ويُقَدِّمُ لهم الأَمْنَ، والطعامَ، والكسَاءَ، والمركُوبَ... ولمّا مات عامرُ بن الطُفَيْل، أقام قومُه حولَ قبره أنصاباً، على أرضٍ مساحتُها مِيلٌ في ميل، وجعلوها حِمَىً، إذا لاذ بها خائفٌ أمِنَ وأُجير[٢].

وجاء في أخبار الجاهلية أيضاً، أن الصَّعِقَ الكلابيَّ، وهو خُوَيْلدُ بنُ نُفَيْل، من بني عامر بن صَعْصَعَة، كان سَيِّداً، يُطعِم الناسَ بعُكاظ[٣].

ولمَّا ضاقت بفارس العرب، الحارثِ بن ظالمٍ المُرِّيِّ، سُبُلُ الأمَان، واشتدَّ عليه طلبُ المَوْتُورين منه، أتَىٰ سوقَ عكاظ في الموسم، وقَصَدَ إلى مَضْرِبِ عبد الله بن جُدعان، فقام بين يَديْه، ونكَسَ رُمْحَهُ، إشارةً إلى طلبه

(١) الأعلام: ٣/ ٢٥٢، ومجمع الأمثال: ٢/ ٤٦.

(٢) الأغاني: ١٧/ ١٩، والمفصَّل: ٤/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٦.

الجِوارَ والحمايةَ، فقام ابنُ جُدْعان، ورفَعَ الرُّمْحَ، إشارةً إلى أنه قَبِلَ إجارتَهُ، فأَمِنَ الحارثُ في حِمَاهُ، ثم لبِثَ بمكَّة(١)، حتى اشتدَّ ملكُ الحيرة في طلبه، وكان أكثَرَ المَوْتُورينَ منه طَلباً له، فانطلق من مكّة يتنقَّلُ في أحْياءِ العرب مُسْتجيراً بهم(٢)، وقيل إنه لحق أخيراً بأحَدِ ملوك غسَّان في مشارف الشام(٣).

* * *

(٢١)ـ عُقوبَةُ الفِتْنَة:

جاء في أخبار الجاهلية، أن زُرْعَةَ، ابنَ الصَّعِقِ الكلابي(٤)، لقيَ النابغةَ الذبيانيَّ في سوق عكاظ، فذكرَ بالسُّوءِ بني أسَدٍ، حلفاءَ بني ذبيانَ قومِ النابغة، وأشار عليه أن ينصحَ لقَوْمِهِ بنَقْضِ حِلْفِهم. ولكن النابغة رأى في كلام زُرْعَةٍ فتنةً، فطردَهُ من مجلسه. ثم بلغَهُ بعد ذلك أن زُرْعَةَ يَتوعَّدُهُ، ويُهدِّدُهُ، فلم يجدْ لنفسه نُدْحَةً من عقاب زُرْعَة على فعلتِهِ، وكانت أقسى عقوبة يُنزِلُها به يومئذٍ، أن يقول فيه قصيدةً بسوق عكاظ، يفضحُ فيها أمْرهُ، ويَهْجُوهُ، ويُحذِّرَ الناسَ من فتنته، ويَحُضُّه على الانصياع إلى حُكم المجتمع. وحينما يَهجُو النابغةُ رَجُلاً مثلَ زُرعة، فهو لا يدفَعُ عن نفسه قَدْحاً، ولا ذَمّاً، وإنما يَرُدُّ واشِياً، أراد أن يُؤَجِّجَ فتنةً بين الحُلَفَاءِ. فقد كان هذا النوعُ من الشِّعْر دفاعاً عن سياسةٍ اجتماعِيَّةٍ مُعيَّنَةٍ، وإن كان في ظاهره

---

(١) المحبَّر: ١٩٤ ـ ١٩٥، وأنساب الأشراف: ٤٢ ـ ٤٣، والمفصَّل: ٤/ ٣٦٤، والأغاني: ١١/ ١١٩.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٦.

(٣) المفصَّل: ٣/ ٢١١، والأغاني: ١١/ ١١١.

(٤) هو زُرْعَة بن عمرو بن خُوَيْلد الصَّعِق، من بني كلاب، من عامر بن صعصعة.

يَسْتعينُ بالسُّخْرِيَةِ، والاسْتِخْفافِ، وبعضٍ من معاني الهجاءِ الشخصيِّ. وبذلك قام النابغةُ في عكاظ، وأصدر حُكمَهُ على زُرْعة، فقال:

نُبِّئتُ زُرْعَةَ، والسَّفاهَةُ كاسْمِهَا ... يُهْدِي إليَّ غرائبَ الأَشعارِ
فحلفتُ يا زُرْعَ بنَ عمروٍ، أنني ... ممّا يشقُّ على العدُوِّ ضِرَاري
أرأيتَ يومَ عُكاظ، حين لقيتَني ... تحتَ العَجَاجِ، فما شَقَقْتَ غُباري
إنّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتينا بيننا ... فحملتُ بِرَّةَ، واحْتَمَلْتَ فَجَارِ
فَلْتأتينْكَ قَصائدٌ، وَلَيَدْفَعَنْ ... جيشٌ إليكَ، قوادمَ الأكوارِ[1]...

ثم يُعدِّدُ النابغةُ لزُرْعَةٍ رجالَ قبيلته، وحُلفاءَهم، ويُذكِّرُهُ بقُوَّة بأْسِهم، ومَنَعَتِهم، مؤكِّداً له أنهم باقُونَ على اتحادهم، غير عابِئين بعَدُوِّهم[2]... وهكذا كانت عقوبةُ الوَاشِي، والسَّاعي في الفتنة، تشهيراً له في موسم عكاظ، يَرْدعُه عن غِيِّه، ويُحذِّرُ الناس من غَدْرِهِ.



(٢٢)ـ صُعْلوكٌ في عكاظ:

من الواضح أن موسمَ عكاظ كان يمكن أن يكون أطيبَ مناسبةٍ عند الصعاليك، للإغارة على أموال التجارِ، والأغنياء، سواء في بعض الطُرق المؤدِّية إلى السوق، أو في وسط الزحام ببطن السوق، لولا أمورٌ ثلاثةٌ ضَيَّعتْ هذه الفُرصَةَ منهم، **أوّلُها**: أن الموسمَ يقع في شهرٍ حرام يوضع فيه

---

(١) **السفاهة**: ضد الحلم، أو هي الحمق. **ضراري**: مسّي بأذى. **برّة**: إسم للبر أي الخير، **فَجَار**: إسم للفجور، أي حملتُ خُطةَ الخير وحملتَ أنت خطة الفجُور. **العجاج**: الغبار. **قوادم الأكوار**: مفردها قادمة الكور وهي مقدّمة الرحل.

(٢) النابغة الذبياني: ١٥٤ ـ ١٥٦، وشرح القصائد السبع: ١٤٧.

السلاح، **وثانيها**: أن طائفة الذَادَةِ المحرِّمين كانوا مُستعدِّين للدَّفْع عن الحرمات بالسلاح، **وثالثها**: أن الصعاليك أنفُسَهم، مع كثرةِ طالبيهم المَوْتُورين منهم، كانوا يستفيدون من حُرْمَةِ الشهر، ويحضرون السوق من غير أن يَخشَوْا بأساً، فما كان بوسْعِهم الاعتداءُ على أحَدٍ في حَرَم السوق، أو سَلْبُه شيئاً، ولكنهم اغتنموا فرصة الزحام هنالك، لانتقاء ضحايا هم من بين أحياء العرب، والإحاطةِ بما يملكونه من الأموال، ومعرفةِ المواضع التي يسكنونها من البوادي، وذلك ليرسموا خُطَطَهم فيما بعد للإغارة عليهم، حينما يعودون من الأسواق إلى منازلهم، وتنقضي الأشهُر الحرُم. . .

وفي أخبار **السُّلَيْكِ بنِ سُلَكَة السَّعْديّ**، وهو من كبار الصعاليك، أنه خرج في الشهر الحرام، حتى أتىٰ سوقَ عكاظ. فلما اجتمع الناسُ، وتدافعوا في السوق، أَلْقَىٰ سِلاحَهُ، وخرج يَتكلَّفُ الوقارَ والمَهابَةَ، وجعل يطوفُ بين الناس، ويسأل: مَن يَصِفُ لي منازِلَ قومه، وأَصِفُ له منازِلَ قومي؟ ويبدو أن ذلك كان عادةً مألوفةً في المواسم، اعْتَادَها فِتْيانُ القبائل، في المجامع العامَّة، ولعلَّها للتعارُف أو التفاخُر. وظلَّ السُّلَيْكُ على ذلك السؤال، مُتظاهراً بالفَضْل في القَدْرِ والمنزلة، حتى اقْتَرَبَ من فَتى، توسَّمَ فيه بساطةَ الفِطرة، فبادَرَهُ الفتى إلى الكلام فقال له: أنا أفعلُ ذلك. . . أنا قيسُ بنُ المكْشُوحِ[1]. . . فتواقفا، وتعاهدا أَلاَّ يكذبا، وطفق كلٌّ منهما يصفُ للآخَرِ منازلَ قومه، فقال قيسٌ: خُذْ بين مَهَبِّ ريح الجنوب، وريح الصَّبا[2]، ثم سِرْ أربعَ ليالٍ، حتى تبدو لك رَمْلَةٌ وقَفَ بينها الطريقُ، فهنالك منزلُ قومي، ومَضاربُ خِيَامِهم. . . فقال السُّلَيْك، وذكر له اسماً آخَرَ غيرَ إسمه الحقيقي:

---

(١) قيس بن المكشوح: هو قيس بن هبيرة المكشوح ابن هلال البَجَليّ، وكان حليفاً لبني مُراد فنُسِبَ إليهم. كان فارس قبيلته في الجاهلية، أدرك الإسلام فأسْلَم، وشارك في الفتوح.

(٢) أراد أن الطريق إلى منزل قومه بين الجنوب والشرق، فريح الصَّبا تهبُّ من الشرق.

خُذْ بين مطلع سُهَيْلٍ ويَدِ الجوزاءِ اليُسْرى، فثَمَّ منازِلُ قومي بني سعد بن زيد مناة...

ولا شك في أن السُّلَيْكَ كان كاذباً في وصْفِهِ، وأنه فعل ذلك ليعرفَ منازل قوم قيس، لِيَضَعَ خطَّتَهُ فيما بعد للإغارة عليهم. ثم انطلق قيسٌ بعدئذٍ إلى أهله، فأنْبَأَهم بما كان بينه وبين السُّلَيْك، فقال له أبوه، وكان خبيراً بأساليب الصعاليك وحِيَلهم: ثَكِلَتْكَ أُمُّك! هل تدري مَن لقيتَ؟ قال قيس: نعم، لقيتُ رجُلاً فُضُلا، وصَفَ لي نَفْسَه ومنازِلَ قومه، فكأنما أراه خارجاً من أهله بعَيْنيَّ... فقال له أبوه: هو واللَّهِ السُّلَيْكُ بنُ سعد، وهذه إحدىٰ حِيَلِهِ... ويقال إن السُّلَيْكَ اسْتنفَرَ أصحابَه بعد ذلك، ووضع خطَّتَهُ موضعَ التنفيذ، فأصاب من القوم غِرَّةً، فأغار عليهم، وغنم من أموالهم ونعمهم، ثم انصرف[1].

* * *

(٢٣)ـ أَوْسِمَة عكاظ:

ذكر الطبريُّ في رواية مُسْندةٍ إلى أبي بكر الهُذَليّ أنه قال: سِرتُ مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة، فعَرَضَ لنا رجلٌ على ناقةٍ حمراء، وعليه جُبَّةُ خَزٍّ، وعمامةٌ عَدَنيَّةٌ، وفي يَدِهِ سَوْطٌ يكاد يمسُّ الأرضَ، سَرِيُّ الهيْأَة، فلما رآه المنصورُ، أَمَرني أن أدْعوهُ، فدَعوْتُه له، فجاء، فسأله عن نَسبِهِ وبلاده وبادِيَةِ قومه، فأحْسَن الجوابَ، وأعْجبَ أميرَ المؤمنين، فقال له: أنْشِدْني مما تحفظ من الشِّعْر، وحَدِّثْني! فأنشدَهُ وحدَّثَهُ، حتى أتى على شعرٍ لطريف بن تميم العنبريّ، أَحَدِ فُرْسَانِ بني تميم في الجاهلية، قال فيه:

---

(١) الأغاني: ٢٠/٣٤٦، ٣٥٠.

إنّ قَنــاتــي لَنَبْــعٌ لا يُــؤَيِّسُهــا غَمْزُ الثِّقَاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ[1]
متى أُجِرْ خائفاً، تأمَنْ مَسَارِحُهُ وإن أُخِفْ آمِناً، تَقْلَقْ به الدارُ
إنّ الأمورَ إذا أوْردتُها، صَدَرت إنّ الأمــورَ لهــا وِرْدٌ وإصْــدارُ

فقال: ويْحَك! وما كان طريفٌ فيكم حتى قال هذا الشعرَ؟ قال: كان أثْقلَ العرب على عَدُوِّهِ وَطْأةً، وأَدْرَكَهم بثأر، وأيْمَنَهم نَقِيبةً، وأصْلَبهم قناةً لمن رامَ هضْمَهُ، وأَقْراهم لِضَيفٍ، وأحْوَطَهم من وراءِ جارِهِ، اجتمعتِ العربُ بعُكاظ، فكلُّهم أَقَرَّ له بهذه الخِلال. فقال المنصور: يا أخا بني تميم، لقد أحسنتَ إذ وصفتَ صاحِبَك، ولكني أحقُّ بأبياته منه، فأنا الذي وصف، لا هو[2]!

ويبدو أن المنصور غَبَطَهُ، وتمنَّى لو تجتمع العربُ بعُكاظ وتُقِرُّ له بمثل هذه الخِلال، لأن من تعترف له مجامعُ العرب بعكاظ بخِلالٍ، لا يقدر أن ينزعها منه أحَدٌ، فكأنها مَنَحتْه أَوْسِمةً تظلُّ خالدةً على مَرِّ الزمن.

* * *

(٢٤) ـ مُلْقِي القِنَاع:

كان من عادة فرسان العرب التقنُّعُ في المواسم والجموع، وفي أسواق العرب، كأيام عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، وما أشبه ذلك، إلا ما كان من طريف بن تميم العَنْبريّ، فارس بني عمرو بن تميم في الجاهلية، فإنه كان لا

---

(١) القناة: الرمح أو العود، جمع: قناً. النبع: واحدته النبعة. وهي شجرٌ تتخذ منه السهام والقسيُّ. يقال: «ما رأيتُ أصلبَ منه نبعاً» أي أشد منه. غمز: القناة جسها ليختبرها أو ليقوِّمها. الثقاف: آلةٌ تثقف بها الرماح. ثقف الرمح: قوَّمه وسوَّاه.

(٢) تاريخ الطبري: ٨/ ٦٩ ـ ٧٠.

يتقنَّعُ، وكان يُسَمَّىٰ: «مُلْقي القِناع»، لأنه أوَّلُ من ألْقَى القناعَ بعُكاظ، غيرَ مُبالٍ أن يُثْبِتَ عَيْنَه جميعُ فرسان العرب، وكانوا يكرهون أن يُعْرَفوا، فلا يكون لأعدائهم هَمٌّ غيرهم.

ولمَّا وافَى طريفٌ عُكاظاً في أحد مواسمها، وكان قد قتل شَراحيلَ الشيبانيَّ، فارسَ بني ذُهْل بن شيبان، جاء حَمَصِيصَةُ بنُ جندل الشيباني[1]، وكان شابّاً، قويّاً، شجاعاً، وشاعِراً من فصحاء الشعراء في الجاهلية، فقال: أَرُوني طريفاً! فأرَوْهُ إياهُ، فجعل كلما مرَّ به ينظر إليه، ويتأمَّلُه، فسأله طريفٌ: لم تَشُدُّ نَظَرَكَ إليَّ؟ فقال: أريد أن أُثْبِتَك[2]، لعلِّي أَلْقاكَ في جيشٍ فأقتُلَكَ! فدَعا طريفٌ: اللهمَّ لا تُحِلِ الحَوْلَ حتى ألقاهُ، ودعا حَمَصِيصَةُ مثلَهُ، فقال طريف:

أَوَ كلَّمـا وردت عكـاظَ قبيلـةٌ ... بعثـوا إلـيَّ عـريفَهـم يتـوسَّـمُ[3]
فتـوسَّمـونـي، إننـي أنـا ذاكُـمُ ... شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعْلِمُ[4]
تحتـي الأغـرُّ وفـوق جلـدي نَثْـرةٌ ... زَغْـفٌ تـردُّ السيـفَ وهـو مُثَلَّـمُ[5]

ثم قُتِل طريفٌ بعد ذلك في معركةٍ، كانت الغَلَبَةُ فيها لبني شيبان على

---

(١) الحَمصِيصَة: بَقْلةٌ طيِّبةُ الطعم، رَمْليَّة، حامِضَةٌ، تُجعَلُ في الأقِط وتُؤكل معه.
(٢) أثْبَتَهُ: نظر إليه ليعرفَه حقَّ المعرفة.
(٣) يتوسَّم: يتفرَّس ويطلب الوسم وهو العلامة.
(٤) شاك سلاحي: تامُّ السلاح. المُعْلِم: الذي شهر نفسه في الحرب بعلامة يُعرف بها. وكان هذا شأن الفرسان. وكان حمزة بن عبد المطلب يوم بدر مُعْلماً نفسه بريشة نعامة حمراء. وكان الزبير بن العوام يُعْلم نفسه بعمامة صفراء.
(٥) الأغرُّ: اسم فرسه. النثرة: الدرع الجيدة النسج. زغفٌ: واسعة لينة.

بني تميم، في يوم مُبَايض، فقد حَمل عليه حَمَصِيصَةُ يومئذٍ حتى قتله[1].

ويبدو أن التقنُّعَ، في المواسم والمجامع العامَّة، لم يكن حَذَرَ الغَدرِ أو الثأر وحسب، بل كان أحياناً خوفاً من الأَسْر، ثم المُغَالاةِ في طلب الفِدْيَة، كما يحدثُ اليوم في عصرنا من جرائم الخطفِ والمُغَالاة في قيمة الفداء.

* * *

(٢٥)ـ مُلاعَنَةٌ في عكاظ:

الْتَقَىٰ بعكاظ في أحد مواسمها، قعْنَبُ بنُ عَتَّابٍ اليربوعيُّ فارسُ تميم، بُجَيْراً بنَ عبد الله العامريَّ فارسَ قيس، والناسُ مُتَواقِفُون، فقال بُجَيْرٌ: يا قعنبُ، ما فَعَلتِ البيضاءُ فَرَسُكَ؟ قال قعنب: هي عندي. قال: فكيف شُكْرُكَ لها؟ قال: وما عَسَيْتُ أن أشكُرَها به؟ قال: وكيف لا تشكرُها وقد نَجَّتْكَ مني! فأنكر ذلك قعنب، فتَلاعَنا، وتَداعَيا أن يَلعنَ اللَّهُ الكاذبَ، ويجعلَ مِيتَتَهُ على يد الصادق. ثم نَذَر قعنبُ أن لا يرى بُجَيراً بعد هذا الموقف، إلا قتله، أو مات دون ذلك.

ثم إن بُجَيْراً أغار بقومه يوماً على بني العنبر من تميم، وهم خُلوفٌ، أي أن الرجال لم يكونوا في المنازل، فاستاق السَّبْيَ والنَّعَمَ، فأتى الصَّرِيخُ بني العنبر وإخوانَهم بني عمرو وبني حنظلة، فركبوا في أَثَرهم حتى أدركوهم، فقاتلوهم، ولَحِقَ قعنب بُجَيراً فطعنه، فأرْدَاهُ عن فرسه وقتله، وانهزم بنو عامر قومُ بُجَيْر، واسْتَنْقَذَ بنو تميم أمْوالَهم وسَبْيَهم[2].

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٦٩، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧١، والأصمعي ـ الأصمعيات: ١٢٧، والكامل في التاريخ: ١/ ٦٠٢، والعقد الفريد: ٥/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، وتاج العروس: ١٧/ ٥٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٣١ ـ ٦٣٢، والعقد الفريد ٥/ ١٧٩، ومعجم البلدان: ٥/ ١١١، وأيام العرب في الجاهلية: ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

٢٦ - القِنَاعُ في عكاظ:

لم يكن فرسانُ العرب فقط مَن يُخْفُون وجوههم وراءَ الأَقْنعة، وإنما كان الرجال المشهورون بالجمال، إذا وردوا المواسمَ، يُؤْمَرو أيضاً بالقِنَاع، مَخافَةَ فتنةِ النساء بهم، وكان منهم سُنَيْعُ الطُّهَوِيُّ، وهو أحدُ المشهورين بالجمال من بني طُهَيَّة، وهم حيٌّ من تميم[١]... وكان بعضُهم يتَقنَّعُ خوفاً من الحسَدِ، والإصابةِ بالعَيْن! ويُعَدُّ من هؤلاء: المُقَنَّعُ الكِنْديُّ، محمدُ بنُ عُمير، وكان من أجمل الناس وجهاً، وأمَدِّهم قامةً، وأكملهم خلقاً، فكان إذا كشف عن وجهه أصابتْهُ العينُ، ولحقه مرضٌ وعَنَتٌ. ومثلُه: وَضَّاحُ اليمن، عبدُ الرحمن بنُ إسماعيلَ الحِمْيَريُّ، وأبو زبيدٍ الطائيُّ، حَرْمَلةُ بنُ المنذر... وكان هؤلاء، كما ذكر الأصفهاني: «يَرِدُون مواسِمَ العرب مُقنَّعين، يَسْتُرون وجوههم خوفاً من العين، وحَذَراً على أنفسهم من النساء، لجمالهم...»[٢]. وربما تقنَّع بعضُهم في المجامع العامَّة، جرياً على عادة الأشراف في اتّخاذ القناع، لأنه أهْيبُ في الصدور، وأجَلُّ في العيون، وهو من سِيماء الرؤساء[٣]. ومن النساء مَن كُنَّ يأتين عكاظاً مُتبرقعات، خوفاً من تعرُّضِ الشبَّان لهنَّ بما يُؤْذيهنَّ. وكنتُ ذكرتُ في وقائع الفِجَار بعكاظ، أن إحداها وقعتْ لمّا تحلَّق فِتْيةٌ من قريش حول فتاة من بني عامر، وأرادوها أن تَنْزِعَ بُرْقعَها وتُسْفِرَ عن وجهها، فأبَتْ، فشَدُّوا ذَيْلَ ثوبها بشوْكةٍ إلى ظهرها، فما كادت تقومُ حتى انكشف ثوبُها عن جَسَدِها وعَوْرَتها، فاستغاثَتْ بقومها، فاشْتَجروا مع قريش ثم اصطلحوا.

* * *

(١) لسان العرب: ٨/ ١٦٨ (سنع)، و ١٥/ ١٧ (طهو)، والمحبَّر: ٢٣٢.
(٢) الأغاني: ٦/ ٩٨ - ١٩٩، والشعر والشعراء: ٣٠١، ٣٠٥، والبيان والتبيين: ١/ ١٥٥.
(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٧٠.

(٢٧) - إطلاقُ الألْقاب:

وكانوا في مجامع عكاظ، إذا وقع أمرٌ له شَأنٌ، فأُطْلِقَ فيه لَقَبٌ على أحدٍ، جَرىٰ له هذا اللقبُ مَجْرى اسْمِهِ الأَصْليّ... فقد قاتل أبو ربيعة بن المُغِيرَة المخزوميُّ[(١)]، برُمْحَيْنِ في معركة شَرِبٍ بعُكاظ، فسُمِّيَ «ذا الرُّمْحَيْن»، وصار يُعرفُ بهذا اللقب بقيَّةَ حياته[(٢)]... وثَبَتَ أبناءُ أُميَّة بن عبد شمس السِّتَّةُ، مع أبيهم في معركة عكاظ، وعَقَلُوا أنفُسَهم، وقاتلوا قتالاً شديداً، فشُبِّهُوا بالأُسْدِ، وسمَّاهُم الناسُ يومئذٍ «العَنَابِسَ»، والعُنْبُسُ: الأَسَدُ، وهم حربٌ، وأبو حربٍ، وسفيانُ، وأبو سفيان، وعمرو، وأبو عمرو[(٣)]... وكان خُوَيْلدُ بنُ نُفَيْلٍ الكلابيُّ سيِّداً يُطْعِمُ الناسَ بعُكاظ، وقد صَنَعَ طعاماً للناس في أحد المواسم، فهبَّتْ ريحٌ بغُبَارٍ، وألْقَتْهُ في الطعام، فسَبَّها، ولعَنَها! وقيل إن صاعِقَةً يومئذٍ أصابته، فصُعِقَ بها، فسُمِّي «الصَّعِقَ»، فجرى له هذا اللقب مَجْرىٰ الإسم، وعُرِفَ به أبناؤه أيضاً، ومنهم زُرْعَةُ بن الصَّعِق، ويزيدُ بن الصَّعِق، وهما حفيدا خُوَيْلد الصَّعِق من ابنه عمرو[(٤)].

* * *

(١) أبو ربيعة بن المغيرة: عمرو بنُ المُغِيرة بن عبد الله، من بني مخزوم، من قريش. كان سيِّداً، شريفاً، موسراً، وكان يكسو الكعبة وحدهُ سنةً، وجميعُ قريش سنةً. وهو والد عبد الله بن أبي ربيعة الذي بعثت به قريشٌ مع عمرو بن العاص وعمارةِ بنِ الوليد، إلى الحبشة بعد هجرة المسلمين إليها.

(٢) العقد الفريد: ٥/٢٥٨، ولسان العرب: ٢/ ٤٥٤ (رمح)، والأغاني: ١/ ٧١.

(٣) الأغاني: ١/٢٦، والكامل: ١/ ٥٩٤.

(٤) الأصمعيّات: ١٤٤، وجمهرة أنساب العرب: ٢٨٦.

٢٨ـ أخذ عار الدّهرِ بثَوْبَيْن:

جاء في قِصَّة المثَلِ العربيّ الجاهليّ: «أَخْسَرُ صَفْقةً من شيخ مَهْوٍ»، أن بني مَهْو بطنٌ من قبيلة عبد القيس، وأن الشيخَ هو عبدُ الله بنُ بَيْدَرة، من بني مَهْوٍ، وفي أخبار عكاظ، أن قبيلة إيَادٍ كانت تُعَيَّر بالفَسْوِ[1]، وتُسَبُّ به. وربما كان ذلك ناشِئاً، كالعادة عند العرب، من هجاء شاعرٍ لأَحَدِ بني إيَاد، فصارتِ القبيلةُ كلُّها في ذلك سواء. فقام رجُلٌ من إيَاد في موسم عكاظ، ومعه بُرْدَا حَبَرَةٍ[2]، ونادى: يا قومُ، ألاَ إني من إيَاد، فمن يأخذُ عارَ الفَسْوِ منا ببُرْدَيَّ هذين؟... فقام عبدُ الله بنُ بَيْدَرة، وقال: أنا أفعلُ، فهاتِهما! فأخَذَهما، فاتَّزَرَ بأحدهما، وارْتَدَىٰ الآخَر. وأَشْهَدَ الإيَادِيُّ عليه أهل عكاظٍ، بأنه أخَذَ من إيَادٍ لعبد القيس عارَ الفَسْوِ بِذَيْنَكَ البُرْدَيْنِ، فشَهِدوا على ذلك!. ولمَّا رجعَ عبدُ الله إلى قومه، سُئِل عن البُرْدَيْن، فقال: أخذتُ لكم بهما عارَ الدَّهر! وفي هذا يقول شاعِرُ عبدِ القيس:

إنّ الفُسَـــاةَ قبلَنَـــا إيَـــادُ ... ونحـــن لا نَفْسُـــو، ولا نكـــادُ

وذكر أحَدُ الشعراء هذه الحكاية، فقال:

يا مَن رأى كصَفْقَةِ ابن بَيْدَرَهْ ... مـن صفقـةٍ خـاسِـرَةٍ ومُخْسِـرَهْ
المشتري العارَ بِبُرديْ حَبَرَهْ ... شُلَّتْ يمينُ صافِقٍ ما أَخْسَرَهْ

وقد تفرَّقَتِ العربُ يومئذٍ، وعلى لسانهم هذا المثَلُ: «أَخْسَرُ صَفْقَةً من

---

(١) كانت العربُ تهجو من يَفْسُو، وتُعَيِّرُ به، خلافاً للإنكليز! وقديماً قال الشاعر يهجو مُنافقاً:

لا تُسَبِّـــحْ فمـــا عليـــكَ جُنَـــاحٌ ... جَعَـلَ اللّـهُ بيـن فكَّيْـكَ دُبْـرا
أنـــتَ تَفسُـــو إذا نطقـــتَ ومَـــن سَبَّـ ... ـحَ بـالفَسْـوِ نـال إثْمـاً ووِزْرا

(٢) الحَبَرَةُ: ج حَبَرات، نوعٌ من ثياب اليمن مُوَشَّىً ومُنَمَّرٌ.

شيخ مَهْو. . .»[1].



(٢٩) ـ المُصَارَعَة والفُروسيَّة:

ولا شك في أن سوق عكاظ كانت تَشْهدُ في بعض جوانبها، كثيراً من أَنْشِطَةِ الرياضةِ البدنيَّةِ، كالمصارعة، ورُكوبِ الخيْل، ومُبارَزاتِ الفُرْسَان. . . ويبدو أن مواسمها كانت عند العرب، كما قال العَلاَّمةُ الشيخُ عليٌّ الطنطاويُّ، أعياداً «للفنِّ والرياضة، يَحْتَشِدُ لها الناسُ، ويتَبارَىٰ فيها أرْبابُ اللَسَنِ والفصاحة، وأصحابُ القُوَّةِ والبراعَةِ، وربما صَحِبَ ذلك بيعٌ وشراء، وربحٌ وتجارةٌ، كأعْيادِ الأُلِمْپِيَادِ عند اليونان، وسُوقِ عكاظٍ عند العرب»[2].

وقد ذكر ابن سعد أن رجُلاً لَقِيَ راعياً، حينما أسْلَمَ عمر بنُ الخطاب، فقال له: أَعَلِمْتَ أن ذاك الأَعْسَر الأَيْسَرَ أسْلمَ؟ فقال: أَلَّذي كان يُصارعُ في سوق عكاظ؟ قال: نعم! قال: أما واللَّهِ لَيُوسِعَنَّهم خيراً، أو لَيُوسِعَنَّهم شَرّاً[3].

وفي سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ما يُؤَكّدُ أنه كان، في الجاهلية، «يُصَارِعُ في المواسم، ويُسَابِقُ على الخيل، في عملٍ من أعمال الفُروسيَّة، والرياضة البدنيَّة»[4]، وكانوا يَشْهَدُون له بالغَلَبة في عُكاظ على

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٥٠.
(٢) حديث العيد ـ مجلة المسلمون ـ المجلد الرابع/ العدد الثالث: ٢٤٠، (أيار ١٩٥٥).
(٣) الطبقات الكبرى: ٣/ ٣٢٥.
(٤) عباس محمود العقاد ـ عبقرية عمر: ٢١٦.

كلِّ أقْرانِهِ إذا صارعَهم[1]، فقد حَذِق من أوَّلِ فُتُوَّتِهِ المصارعةَ، وركوبَ الخيل، والفُروسيَّةَ، واعتاد غِشْيانَ عكاظ مُبكِّراً، يلعبُ مع أتْرابه، ويَزِعُ الصبيانَ بعَصَاهُ، وهو ما كان الناسُ لا يزالون يَذْكرونه له حتى صار أميراً للمؤمنين[2].

ومن شأن ما قَدَّمنا، في هذا الجانب، أن يُوضحَ ما كان يكونُ بعُكاظِ في مواسمها من فنون الرياضة والفُروسيَّة، لم تتأخَّرْ في ذلك عن سائر المواسم العالميَّةِ الكبرى.

* * *

٣٠ـ الكشفُ بعكاظ عن قاتلٍ يُشْعِلُ حَرْباً:

كان زهيرُ بنُ جذيمةَ العَبْسِيُّ أميرَ بني عَبْسٍ في زمانه، ورئيسَ قبائلِ غَطَفان[3]، وقد كانت تُؤدِّي الإتاوةَ كلَّ سنةٍ إلى بعض ملوك اليمن، فخرجتْ في أيامه عليهم، واستقلَّتْ عنهم. وكانت هوازنُ[4]، في عِدادِ القبائل التي اعترفتْ بسيادة زهير عليها، وعَدَّتْهُ رَبّاً، فكانت تهابُه حتى العِبادة، ولم يكن معظمُها يومئذٍ أكثرَ من رُعَاةٍ في الجبال والبوادي، ولم يكن بنو عامر بن صَعْصَعَة قد كَثُروا فيها. وقيل إن زهيراً بلغ من السُّؤْدَدِ والشرف ما جعله كالمَلِك في تلك القبائل، فكانت تُخْرِجُ له من أموالها قدراً معلوماً، وتُؤَدِّيه إليه كلَّ سنةٍ، بعدما تُجْنَى الثمَارُ، وتُجْمَعُ الغَلَّات... فإذا كان موسمُ

---

(١) الفاروق عمر لهيكل: ٣١، ٣٨.
(٢) أسواق العرب: ٢٨٤، وخالد محمد خالد ـ خلفاء الرسول: ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٣) غطفان بن سعد: من قيس بن عيلان، وأشهر قبائلهم: عَبْسٌ وذُبْيان وفزارة...
(٤) هوازن بن منصور: من قيس بن عيلان، أشهر بطونها بنو عامر بن صعصعة، وجُشَم، ونصر، وثقيف.

عكاظ، أتاها زهيرٌ، وقَدِمَها الناسُ من كل وجه، فتأتيه هوازنُ فيها بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم، وتُقَدِّمُ له السَّمْنَ والجُبْنَ والغَنَم وغيرها من الأموال. وقد أتَتْهُ عجوزٌ من هوازِنَ، يوماً، بسَمْنٍ في نِحْيٍ[1]، واعتذرتْ إليه، واشْتَكتِ السنين التي تتابعت على الناس بالجدْبِ، فذاقَهُ، فلم يرضَ طَعْمَهُ، فدفَعها بقوْسٍ في صدرها، فاسْتَلقَتْ على قفاها، فبَدَتْ عَوْرَتُها، فغضبتْ منه هوازِنُ، وحقدتْ عليه، وكان في أنْفُسِهم منه غَيْظٌ لما كان يَسُومُهم به من الخُسْفِ والهوان، وكانت عامرُ بنُ صَعْصَعة قد كثُرتْ، فآلَىٰ خالدُ بن جعفر، سيِّدُ بني عامر، أن يجعلَهُ من شأنه حتى يقتلَهُ[2].

وفي حديث زهير بن جذيمة، أن أحَدَ مُلوكِ الحيرة[3]، وقد علم بما بلغه من الشرفِ والسِّيَادة في قومه، تَزوَّجَ إليه إحدى بناته، وأرسلَ يَسْتَزيرُه بعضَ وَلَدِهِ، فبعث إليه ابْنَهُ شَأْساً، وكان أصْغَرَ أبنائه. فأكْرَمهُ الملكُ، وأجْزَلَ له العطاءَ. ولما أحبَّ الانصرافَ، والرجوعَ إلى أهله، أنْعَمَ عليه، وحَباهُ أفضلَ الحُبْوَةِ من المسك والطِيب والطنافِسِ، وكسَاهُ حُلَلاً فاخِرةً، وقُطُفاً ثمينةً، فيها قطيفةٌ حمراءُ، لها هُدْبٌ وخَمْلٌ، وكانت وقتئذٍ من حُلَلِ الملوك.

---

(١) النِحْيُ: الزِّقُّ، وهو ما كان للسَّمْن خاصةً.

(٢) أيام العرب: ٢٣٥ ـ ٢٣٦، والأغاني: ١١/ ٧٧ ـ ٧٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٥، والمفضَّل: ٥/ ٣٥٧، و ٤/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩، ٥١٦، ٦٥٢، والمحبَّر: ٢٤٨، والأعلام: ٣/ ٥١.

(٣) ذهب الرواةُ إلى أنه النعمانُ الأول بن امرىء القيس (٤٠٣ ـ ٤٣١ م)، ولكنني أرى عصرهُ أقدمَ من زمن زهير بن جذيمة، الذي أُرجِّحُ أنه كان نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠)، لأن في الخبر أحداثاً، وقعت في أيام ملوكٍ للحيرة، اختلف الرواةُ فيمن كانوا، وتبين لي بالبحث أن هذه الواقعة ربما كانت في عصر المنذر بن ماء السماء (٥١٤ ـ ٥٢٥ و ٥٣١ ـ ٥٥٤ م)، واستمرت أحداثها بعد ذلك في أيام خلفائه، حتى وصلت إلى أبي قابوس النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م)، على ما ذكرهُ الرواةُ من دَوْرٍ لهذا الملك في أحداث الخبر.

ولمَّا كان شأسٌ في بعض الطريق، أَناخَ ناقَتَه في الظهيرة ليستريح، على مَقْرُبةٍ من نبعِ ماءٍ لبني عامر، يقعُ في جواره مَسْكِنُ رياح بن الأَشَلِّ، من بني غَنِيٍّ بنِ أَعْصُر[1]. ثم خلع شأسٌ ثيابَهُ، وجَعَلَ يغتسِلُ، وامرأةُ رياح غير بعيد منه تنظرُ إليه، فغضب رِيَاحٌ، وصاح به: وَيْحَكَ اسْتَتِرْ، فالبُيوتُ بين يَدَيْك! فلم يحفل به شأسٌ، فرماهُ رِيَاحٌ بسهمٍ في صُلْبِهِ فقتله... ثم اسْتَلَبَ مالَهُ ومَتَاعَهُ، ونَحَرَ ناقتَه، وغَيَّبَ كلَّ أثَرٍ له.

بلغ زهيراً أن ابْنَهُ أقبل من عندِ الملك، منذ مُدَّةٍ غير قصيرة، وأن آخِرَ العهد به كان بالقُرْب من بُيوتٍ لبني غَنِيّ، ثم فُقِدَ أَثَرُهُ، فركبُوا إلى الملك، وسألوه عن حاله، فقال: حَبَوْتُه وسَرَّحْتُه، فقالوا: وما مَتَّعْتَهُ به؟ قال: طِيبٌ ومِسْكٌ وحُلَلٌ وقُطُفٌ، فرجعوا يَقُصُّونَ أثَرَهُ[2]، فلم تَتَّضِحْ لهم سبيلُه، ولم يَعْثُرْ عليه أحَدٌ. ولم يَدْرْ في خَلَدِ زهير أن يكون قاتلُ ابْنِهِ من بني غَنِيّ، وهم من قبائل قيس بن عَيْلان، حتى جاء موسمُ عكاظ، فشُوهِدتِ امرأةٌ تَعْرِضُ فيه للبيع قُطُفاً فاخِرةً، بينها قطيفةٌ حمراءُ، وأشياءُ أُخَر... وكانوا يعرفون أن هذه الأمتعةَ لا تكونُ إلا من هدايا الملوك، فارْتابُوا في أمرها، حتى تَحقَّقُوا أنها كانت لشَأْسِ بن زهير من حباء الملك، وأن المرأة زوجةٌ لِريَاح بن الأَشَلِّ، فعلموا أن رياحاً صاحبُ ثأرهم.

غضب زهير، وغضبتْ معه قبيلةُ عَبْس، ولمَّا انقَضَتِ الأشهُرُ الحُرُم، جعلوا يُغِيرونَ على بني غَنِيٍّ، ويُمْعِنُون فيهم قَتْلاً، ثأراً وانتقاماً، قبل أن يطلبوا قَوَداً أو دِيَةً... فاستعانت بنو غَنِيٍّ بحلفائهم من بني عامر بن صَعْصَعة، وهم بطنٌ من هوازِنَ، مِمَّن كانوا يَسْخطون على زهير لما كان

---

(١) غنِيُّ بن أَعْصُر: بطنٌ من قيس بن عيلان. كانت منازلُهم بنَجْد وجوار طيِّىء.

(٢) قَصَّ: أثَرَهُ، أي تَتَبَّعَهُ شيئاً فشيئاً.

يَسُومُهم من الخُسْفِ والذُّلِّ، فاتَّسَعَتِ الحربُ، وامْتدَّ نِطَاقُها. . .

وفي السنة التالية، وحينما أَزِفَ موسمُ عكاظ، خرج زهيرٌ في أهل بيته إلى عكاظ، كعادته في كل سنة، فالتقَى هنالك خالدَ بن جعفر، سيِّدَ هوازن، من بني عامر صعصعة، وكان رياحُ بنُ الأَشَلِّ جَدَّهُ لأمه(١)، أو من بعض أخواله، فقال له خالد: لقد طال شَرُّنا منك يا زهير، فكُفَّهُ عنا! فقال زهير: أمَا واللَّهِ ما دامت لي قُوَّةٌ أُدْرِكُ بها ثأراً، فلن أَكُفَّ. . . فانصرف خالد إلى قومه، وحرَّضَهم على زهير، والخلاصِ منه، وأمَرهم بالاستعدادِ وجَمْعِ الجموعِ لحربه. ولمَّا انفضَّ موسمُ عكاظ، وانْصَرمتِ الأشهُر الحرُم، سار زهيرٌ حتى نزل بقومه مَوْضعاً قريباً من بلاد هوازن، فحذَّرَهُ ابنُهُ قيس من ذلك الموضع قائلاً: أَنْجُ بنا من هذه الأرض، فإنّا قريبٌ من عدوِّنا! فقال له: ما الذي تُخَوِّفُني به من هوازن؟ أنا أَعْلَمُ الناس بها. . . وكان خالد يَتَجسَّسُ أخبار زهير، فلما علم بمكانه، ركبَ إليه في جَمْعٍ من بني عامر، فاقْتَتَل الفريقان، وكان زهيرٌ شيخاً قد أَسَنَّ وضَعُفَ، فتمكَّن خالدٌ منه، وأَوْقَعهُ أرضاً، وخَرَّ فوقهُ يَعْتنقُه، فجاء فارسٌ آخَرُ معه، وضرب رأسَهُ بالسيف، فقُتِل. وسُمِّي ذلك اليومُ يومَ النَّفْرَاوَاتِ(٢).

* * *

ثارتْ عَبْسٌ وذُبْيانُ وجميعُ غطفانَ لمقتل سيِّدها، وتنادَتْ لِلأَخْذِ

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٤.

(٢) الكامل: ١/٥٥٦ ـ ٥٥٨، والأغاني: ١١/ ٧٠ ـ ٨٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، وأيام العرب: ٢٣٥ ـ ٢٣٩، والمفضل: ٣/٢١٣، و ٤/٢٥٢، و ٥/٣٥٨، والعرب قبل الإسلام: ٣١٧ ـ ٣١٨. **والنفراوات**: موضعٌ بنَجْدٍ لعلّه في ناحية من نواحي سهل ركبة.

بثأره، فخاف خالدٌ على نفسه القتلَ، ومكث على ذلك بُرْهةً من دَهْرِهِ[1]، ثم قَصَدَ الحيرةَ، واسْتَجار بملكها، فأجارَهُ، وأنْزَلَهُ في قُبَّةٍ بجواره... فتَعهَّدَ الحارثُ بن ظالم المُرِّيُّ بعدئذٍ لبني زهير بقتل خالد، على أن تكُفَّ غَطَفانُ عن حرب هوازن. وكان خالدٌ استحقَّ عداوةَ الحارث، لأنه أغَارَ على رَهْطِهِ بني مُرَّةَ بنِ عَوْفٍ، من ذبيان، فأصابتْ أباهُ في الغارة جِرَاحٌ، هَلَكَ منها، والحارثُ يومئذٍ غلام.

فسار الحارثُ في أثَرِ خالد، حتى أدْرَكَهُ بالحيرة وهو في جِوَار الملك، فجرى بينهما حِوَارٌ قال فيه خالد: أتُنَازِعُني يا حارثُ وقد قتلتُ حاضِرَتَك، وتركتُك يتيماً في حُجُورِ النساء! فقال الحارثُ: ذلك يومٌ لم أشْهَدْهُ، وأنا اليومَ مُغْنٍ بمكاني... قال خالد: فَهَلاَّ تشكرُ لي إذ قتلتُ زهير بنَ جذيمة، وجعلتُك سيِّد غطفان؟ قال: بلى، سوف أشكرك على ذلك! ثم خرج الحارثُ، ولمَّا هبط الليلُ، تسَلَّلَ إلى خيمة خالد، وقتله غيرَ مُبالٍ بحُرْمة الملك، فأصبح بين فريقين يطلبانه للثأر منه، ملك الحيرة يطلبه ليقتلهُ بجاره، وهوازنُ تطلبه لِتَقتلَهُ بسيِّدها، فانطلق هارباً، وتنقَّل في عدد من أحياء العرب، مُسْتجيراً بهم. ولمَّا أجارَهُ بنو دارمٍ، أرسل الملكُ لقتالهم، فاستعدُّوا له، وانضمَّ إليهم قيسُ بن زهير في جمع من بني عَبْس، وذبيان، فانضمَّ إلى أنصار الملك أحْياءٌ من هوازن، والْتَقَى الجَمْعانِ بوادي رَحْرَحَان، قربَ عكاظ، ودار القتالُ بينهما شديداً، فانهزم أنصار الملك ومعهم بنو هوازن، وسُمِّي ذلك اليومُ يومَ رَحْرَحَان[2].

---

(١) البرهة: المدَّةُ الطويلة.

(٢) الأغاني: ١١/٨٩ ـ ١٠٧، والعقد الفريد: ٥/١٣٩ ـ ١٤٠، والمحبَّر: ١٩٢ ـ ١٩٣، ومجمع الأمثال: ٢/٤٩، ٣٤٠، والكامل: ١/٥٥٩ ـ ٥٦٠، وأيام العرب: ٢٤٢ ـ ٢٤٤، والعرب قبل الإسلام: ٣١٦ ـ ٣١٩.

ثم قيل للملك: إنك لن تُصِيبَهُ بِمُصَابٍ أشَدَّ عليه من سَبْيِ جاراتٍ له، فبعث الملكُ في طلبِهنَّ، فاسْتاقَهُنَّ وأموالَهُنَّ. فعلم الحارثُ بالأمر، فكَرَّ راجعاً من وَجْهِ مَهْرَبِه، وطَفِق يبحثُ عن مَوْضِعهنَّ حتى دُلَّ عليه، فأتاهُنَّ، واسْتَنْقَذَهُنَّ، وألْحَقَهُنَّ بقَوْمِهِنَّ(١). ثم مضىٰ إلى باديةٍ يُرَبَّىٰ فيها ولدٌ للملك، اختلف الرواةُ في اسْمِهِ، فاحتال حتى قَتَلَهُ(٢)... وانطلق هارباً، يطوفُ في البلاد حتى أتى مَشَارِفَ الشام، فاسْتَجارَ بأحَدِ ملوك بني غسَّان(٣)، فأجارَهُ، وأكْرَمهُ. وكانت للملك ناقةٌ، عليها علامةُ حمايةِ الملكِ لها، فلا يَقْرَبُها أحدٌ. فوَحِمتِ امْرأَةُ الحارثِ، واشْتَهَتْ في وَحَمِهَا شحماً ولحماً، فعَمَد الحارثُ إلى تلك الناقة، فنَحَرَها، وحَمَل إلى امرأته من لحمِها وشَحْمها ما أرادت... ثم فُقِدَتِ الناقةُ، فأرسل الملكُ إلى «الخِمْسِ التغلبيّ»، وكان كاهِناً يُسْأَلُ عن المُغَيَّباتِ، فسأله عن الناقة، فأخبره بأن الحارثَ هو صاحِبُها! فَهَمَّ به الملكُ، ثم تَذَمَّمَ من ذلك، فلم يفعلْ به شيئاً، فأوْجَسَ الحارثُ في نفسه شرّاً، وقيل إنه أَتَى الخِمْسَ ليلاً فقتلهُ، فما لبِثَ الملكُ حتى دعا به، وأمَرَ بقتْلِهِ، فقتَلَهُ ابنُ الخِمْسِ بثأر أبيه(٤)... ولا أظنُّ الحارثَ كان ساذَجاً حتى يبقى قريباً من الملك، رُغْمَ قَتْلِهِ الخِمْسَ، والأرْجَحُ عندي أنه انطلق وقتئذٍ إلى مكة، كما في بعض الروايات، ولحِق بأهلها، فأقام بينهم مُجاوِراً لهم، «حتى أتاهُ أمانُ ملكِ الحيرة، النعمانِ بن المنذر»(٥)، فلما

---

(١) الأغاني: ١١/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) الكامل: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٣) قيل: إنه يزيد بن عمرو، توفي سنة (٦٠٨ م).

(٤) العقد الفريد: ٥/١٤٦ ـ ١٥٠، والأغاني: ١١/ ١١٢ ـ ١١٣، والكامل: ١/ ٥٦٥، والمفصّل: ٣/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٥) أنساب الأشراف: ٤٣.

ذهب إليه، دعا به وأَمَرَ بقتله، فقال له: أيها الملكُ إنك قد آمَنْتَنِي، فلا تَغْدُرَنَّ بي! فقال: لا ضَيْرَ إن غدرتُ بك مَرَّةً، لقد غدرتَ أكثر، ثم أَمَرَ ابْنَ الخِمْسِ أن يقتلَهُ ثأراً لأبيه، فقتلهُ، وأخذَ سيفَه، وكان يُسمِّيه «المعْلوب»[1] فأتى به سوق عكاظ، وجعل يعْرِضُه للبيع، ويُنَادي: هذا المَعْلوبُ سيفُ الحارثِ بن ظالم[2]... ومن حقِّ ذلك السيفِ أن يُغَالَىٰ في ثَمنِهِ بعُكاظ، فصاحِبُه كان فارساً من أشهر فُتَّاكِ العرب في الجاهلية.



● تـعقيــب:

هذه ثلاثون حالةً إجتماعيةً مختلفةً، فيها نحوُ خمسين خبراً من أخبار عكاظ، تُثبتُ أن ما كان يجري في عكاظ هو أكثر من التجارة، وأن التجَّارَ، وغيرَ التجار كانوا يحضرونها، من أجل الحاجات التجاريَّة والاجتماعيَّة والأدبيَّة على السواء[3]. وقد لا تكون هذه الأخبارُ كلُّها صحيحةً، لكنَّ مُعْظَمَها صحيحٌ من غير شكٍّ، وكافٍ ليُصَوِّرَ لنا ما كان يجري في عكاظ من الأَنْشَطَةِ الاجتماعية، ودُخُولِ قبائلِ العرب بعضِها في بعض، وسَعْيِها إلى الوحدة القوميَّة واللغويَّة.

---

(١) المَعْلُوبُ: عَلَب السيفَ والسِكِّينَ والرمحَ، أي حَزَم مَقْبِضَهُ بالعِلْباءِ، وهو العَصَبُ يُشَدُّ رَطْباً على أجْفَانِ السيوف، وقيل: إن سيف الحارث سُمِّي مَعْلوباً لآثارٍ كانت في مَتْنِهِ من كثرة ما ضَربَ به.

(٢) المفصَّل: ٣/ ٢١٤، والمحبَّر: ١٩٤ (وفيه أن النعمانَ أخو الأسود)، وإنما هو ابنُهُ، أي النعمان الثاني بن الأسود بن المنذر الأول (٥٠١ ـ ٥٠٥ م)، أما النعمان المذكور هنا فهو النعمان الثالث بن المنذر الرابع (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م)، ويلاحظ أن بينهما نحو ثمانين سنة! ومن شأن ذلك أن يجعل مقتل الحارث نحو (٥٩٠ م).

(٣) عكاظ والمربد: ٢٤.

فدعوةُ الناس إلى الإيمان بالله، ووَعْظُهم بالحِكمة والمواعِظِ الحسنة، وإنْهابُ المالِ طلباً للمجْدِ، والكشفُ عن قاتل، ورَدُّ سَبِيَّةٍ إلى أهلها، ومُفَاداةُ الأسْرَى أو البحث عنهم، وتأمينُ الخائفين، وإغاثةُ الملْهُوفين، والتنافُسُ في ألعاب الفروسيَّةِ والمصارعةِ، وعُهودُ المحبِّينَ، ومجالسُ التفاخُرِ والتنافُرِ وامتحانِ البديهة، والعِرافَةُ، والمُعَاظَمةُ، والمُقَارَعَةُ عن الحَسْناوَات، وإذاعةُ المكْرمات، والخَلْعُ من القبيلة، ورفعُ راياتِ الوفاء وراياتِ الغَدْرِ، وحِيَلُ الصعاليك، وجِبَايَةُ الإتاواتِ المستحقَّةِ لزعماء العرب... هذه الأمورُ، وأشياءُ أُخْرى غيرُها، مما كان يجري بعُكاظ، تدخُلُ كلُّها في وجوه الحياة الاجتماعية، وتُعطي هذه السوق بُعْداً، كان له أكبَرُ الأثَرِ في الوحدة اللغويَّة، واتّجَاهِ العرب نحو الوحدة القومية، فالشعورُ بالعربية، كما قال العقاد: و«الفخرُ باللسان العربيّ مُقَدّمةٌ لا بُدَّ منها للدعوة، التي تُواجِهُ العربَ بآيةِ البلاغة في القرآن الكريم، وتَرُوعُهم بالمعجزة التي يَحْكُونَها إن استطاعوا أو يَحْسَبُونَها من قدرةِ الله. ومثلُ هذا التحدِّي بالبلاغةِ، لا يحدُثُ في أُمَّةٍ، لم تتأصَّلْ فيها مَفْخَرَةُ اللسانِ العربي، والوحدةِ العربية...»[1]. وسَيَتَأكَّدُ لنا هذا المذهبُ في كلامنا على المَجْمَعِ اللغويّ والأدبيّ، الذي كان يَنعقِدُ للعرب، في كل موسم من مَواسم عكاظ، زمَنَ الجاهلية المُتَأخِّرة.

---

(١) مطلع النور: ٧٦.

الفصل الرابع

عكاظ محفل الشعراء والخطباء

المطلب الأول: صراع اللغات العربية

المطلب الثاني: عكاظ واختلاف اللهجات

- نهضة الشعر العربي في الجاهلية مدينة لعكاظ خاصة.
- الدور العكاظيُّ في تهذيبِ العربية وتوحيدِها كان من أحوال الحضارة عند العرب.
- تهذيب العربيّة وتوحيدها وارتقاؤها عمل «جماعي» أسهمت فيه عامة القبائل التي اشتهرت بالفصاحة.

المطلب الثالث: الحكومة بين الشعراء

المطلب الرابع: أثر النقد في توحيد لغة العرب

المطلب الخامس: الصورة الطبيعية لسوق عكاظ

١ ـ مذهب من بَخَس عكاظاً حقَّها

٢ ـ مذهب المُغالين في دور عكاظ.

الفصل الرابع

عكاظ المجْمَعُ اللغويُّ والأدبيُّ للعرب

عكاظُ التي كانت للعرب مَعْرِضاً تجاريّاً عامّاً، ومَحْفلاً اجتماعياً واسعاً، كانت كذلك مَجْمَعاً لُغويّاً وأدبيّاً، اهتَدىٰ العربُ بها إلى تهذيبِ لُغتهم في ألفاظها وعباراتها، وإلى جَعْلِ لغةِ الشعرِ والخطابة لغةً واحدةً بين معظم قبائلهم... بل كان لعُكاظِ والمواسم الأُخرى دورٌ أعظمُ من هذا، فهي تأتي على رأس الأسْبابِ التي أَفْضَتْ إلى الوحدة اللغويّة بين قبائل العرب، قبل الإسلام.

وفي ذلك يقول الشيخ أحمد رضا: «... ولَعَلِّي إذا قلتُ، إنَّ أكبرَ هَمٍّ لهم في هذه الأسواق، يكادُ يَنحصِرُ في تَخَيُّرِ اللغة، وتَهْذيبِها عَمَلاً لا قَوْلاً، لم أَجيءْ بالغريب من القول، وعلى الأخَصِّ منذ كانت هذه الأسواقُ مجالسَ للتحدُّثِ بأيّامهم، وحُروبهم، ونوادِيَ يَتبارَىٰ فيها خُطَباؤُهم وشُعَراؤُهم... وقد كان في عكاظِ إجْماعٌ على أن كلَّ كلمةٍ تُقالُ، أو خُطْبةٍ تُلْقَى، أو قصيدةٍ تُنْشَدُ، لا تَتَّصِلُ بالفصاحة بسببٍ، لا ينقلُها أحدٌ، ولا يَرْويها راوٍ، ولا يَحْفَظُها حافِظٌ»(١).

وفي مثل ذلك قال بروكلمان: «... وإلى هذه الأسواق، وبالتالي إلى الدِّين بشكلٍ غير مباشر، يعودُ معظمُ الفَضْلِ في تَوْحيدِ نظرة العرب

---

(١) معجم مَتْن اللغة: ١/ ٤٢.

الجاهليّين إلى العَالَم، وصَهْرِ عاداتِهم، ومَفاهِيمِ الشَّرَفِ عندَهم في بَوْتَقَةٍ واحـدةٍ، ومَنْحِهـم لغـةً شِعْـريَّـةً مُـرَكَّـزَةً، تَسْمُـو علـى جميـع اللهجـات، وتَسْتغرِقُها»[١]. وكنتُ أشَرْتُ، من قَبلُ، إلى أن بروكلمان عَدَّ عُكاظاً من مواسم الحجِّ، وأن القبائلَ كانت تحجُّ إليها من مَطارِحَ نائيَةٍ، وأن قيامَها كان مُرتبطاً بالاحتفالات الدينيَّة، ولذلك كانت مجالاً للتبادُلِ الثقافيّ والروحيّ عند العرب، فضلاً عن تَبادُلِ العُروض والبضائع التجاريّة.



المطلب الأول ـ صِرَاعُ اللغات العربيّة:

من المعلوم أن جُذور العربية الأُولى ما تزالُ مُغَيَّبَةً في مَجاهِل التاريخ، وجُلُّ ما تَوافَق عليه العلماءُ حتى اليوم، أن اللغات الساميَّةَ، قبل تَفرُّقها، كانت ترجعُ إلى أصْل واحدٍ، ومن العَسِير تحديدُ ذلك الأصل، لأن المهدَ الأول للشعوب العربية، ما يزال مجهولاً غامضاً[٢]... ولكن يُمكننا أن نُقرِّرَ أنه كـان مـن تلـك اللغـة الأُمِّ، فِئَتَـانِ رئيستَـانِ، تنتمـي إليهمـا كـلُّ اللغـات واللهجات العربية[٣]. وهنالك اتِّجاهٌ علميٌّ قويٌّ، يعتمدُ على النقوشِ

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلاميّة: ٢٦.

(٢) د. صبحي الصالح ـ دراسات في فقه اللغة: ٤٨.

(٣) **اللغات الساميّة**: يمكن تصنيفُها في فئتين، الأولى: **شماليةٌ**، والثانية: **جنوبية**. أمَّا **الشماليةُ** فهي مجموعتانِ، **شَرقيّةٌ**: ومَوْاضعُها بلادُ الرافدين، وتشملُ: **الأكَّادِيَّةَ**، والبابليَّةَ، والآشوريَّةَ. **وغربيّةٌ**: وهي فرعان، الأولُ: **الآرامِيَّةُ** بلهجاتها الكلدانيَّة والسريانيَّة، والثاني: **الكنعانيةُ** (أوجْريتيَّة، عِبريَّة قديمة، فينيقيَّة، مُؤابيَّة، إيبْلَوِيَّة). وأمَّا **الفئةُ الجنوبيةُ**، فَمَوْطنُها جزيرةُ العرب، وهي ثلاثة أقسام، الأولُ: **لغةُ اليمن**، وتشملُ لهجاتِ معِين وسَبَأ وحضرموت وقتَبان والشِحْر والحبشة، وهي أكثرُ اتصالاً بالأكادِيَّة. والثاني: **العربيّةُ البائدةُ**، وتشملُ اللحيانيّةَ والثَّمُوديَّةَ والصَّفَوية. والثالثُ: **الفُصْحى الباقيةُ** بلَهْجتَيْها الحجازيّة والتميميَّة.

اليَمَنِيَّةِ، المكتشفةِ في العصر الحديث، يجعلُ اليمنَ مَهْدَ اللغة العربية الأُمّ، ويجعلُ لغةَ اليمن أصْلاً لِلُغَةِ الحجاز. فقد وُجِدت في تلك النقوشِ، مئاتُ المُفْرداتِ المُشْتَركةِ بين اللغتين، في الرَّسْم والمعنى... ومع أن لغةَ الحجاز أَحدثُ اللغاتِ العربيةِ القديمةِ، ولَهجاتِها، نَشْأةً وتاريخاً، لكنها أكثَرُها شَبَهاً باللغة الأم، وربما كان ذلك لأن عربَ الحجاز ظَلُّوا في مَواطِنِهم لم يَبْرحُوها إلى المَهَاجِرِ، مثلما فَعَلَ إخوانُهم أهلُ الجنوب في هجرتهم المستمرَّة إلى الحجاز، والشامِ، وبلادِ الرافدين، والحبشة وغيرها من البلدان.

على أن اللغة العربية، عُموماً، لم تَبلغْ في اليمن من الفَصاحَةِ، والتهذيب، وانتظام القواعد، ما بَلغَتْهُ في الحجازِ، خاتِمَةِ مَطافِها، بعد دَوْرَتها التاريخيَّة الكبرى، ابتداءً من جنوب جزيرة العرب، فبلادِ الرافدين، ثم إلى بلاد الشام، حيث انتهت بغَلَبَةِ الآرامية على سائر أخواتها، لغاتِ الشمال، في العراق والشام...

وفي صراع لُغَوِيٍّ طويل، بدأ منذ ما قبل الميلاد، واستمرَّ نحواً من خمسة قرون، قَضَتِ العربيَّةُ الحجازيَّةُ على اليمنيَّة بكل لهجاتها، وتحقَّقتِ الوحدةُ اللغويَّةُ حينئذٍ بين العرب في الجزيرة، ولا سيما بعد انْهِيارِ دُولِ الجنوب، وانتقالِ مراكز التجارة الدوليَّة إلى الحجاز، وغدتْ مكَّةُ العاصمةَ القوميَّةَ للعرب جميعاً، وسوقُ عكاظِ المجمَعَ العَامَّ لقبائلهم، والمَعْرِضَ الكبيرَ لمتاجرهم...

ولا شك في أنه كان لعُكاظٍ أثَرٌ خطيرٌ في وحدةِ العرب، ووحْدَةِ لغتهم وثقافتهم، إذ تَداعَتْ ثقافةُ اليمن قبل ظهور الإسلام بزمنٍ ليس قصيراً، «فماتتْ لغةُ الجنوب، واحتلَّتْ لغةُ الشمالِ، أي الحجاز، مكانَها، وساعد على هذا الانقلاب الأسواقُ الأَدَبيَّةُ، التي كان الشمالُ قد أَلِفَها، كسوق عكاظِ، ومَواسمُ الحجِّ السنويِّ، التي كان عربُ الجاهليّة يقصدون الكعبةَ

فيها، والعلاقاتُ التجاريَّةُ التي أنشأتها مكَّةُ مع غيرها من البُلدان»[1]. . . وكانت مَكَّةُ مَثَابَةَ الحجَّاجِ من مختلف طوائف العرب، وكانت مواسمُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، التي تسبقُ موسمَ الحجِّ، مُلْتَقَى الشعراءِ والخطباءِ والحكماءِ، إلى جانب التجَّارِ، وذوي المصالح المختلفة. ويُضَافُ إلى ذلك ما كان من هجرة بعض قبائل اليمن إلى الشمال، واختلاط مَنازلهم بمنازِلِ أهله. . . فكان من شأن ذلك كلِّه أن خَرَجَتِ العربيَّةُ الحجازيَّةُ أكثَرَ اتِّساعاً وانفتاحاً، وأشدَّ عُمقاً ودِقَّةً، وما هو إلا أن نَزَلَ القرآنُ بها، حتى بدأت معركتَها الأخيرةَ ضِدَّ الآراميَّة، فصَرَعَتْها، وصارت لها السيادةُ المُطْلَقَةُ في جميع أنحاءِ جزيرة العرب وبلادِ الشام والعراقِ، ولم يَنْجُ من سيطرتها سوى مناطق قليلةٍ مَعْزُولة، ظلَّت على الآراميَّةِ أو العِبْريَّة.

والواقع أن الإسلام «صادَفَ حين ظُهورِهِ، لغةً مِثَاليَّةً، مُصْطَفاةً، مُوَحَّدةً، جديرةً أن تكونَ أداةَ التعبير عند خاصَّةِ العربِ، لا عامَّتِهم، فزاد من شُمولِ تلك الوحدةِ، وَقوَّىٰ من أثَرِها، بنُزولِ قرآنه بلسانٍ عربيّ مُبِين. . . ولا شكَّ في أن الوحدةَ اللغويَّة كانت قائمةً قبل ظهور الإسلام، وهذا لا يعني أن الفُروق بين اللهجات العربيَّة زالتْ نهائياً، وإنما يُؤَكِّدُ أن الاختلافَ لم يَعُدْ عميقاً وصارِخاً»[2]. . . ذلك أن سوق عكاظِ، والمواسمَ الأُخرى، أزالت قسماً كبيراً من تلك الفُروق، وقَضَتْ لغةُ القرآن على ما بقي منها.



المطلب الثاني ـ عُكاظٌ واختلافُ اللهجَات:

كانت لقبائل العرب في الجاهلية لهجاتٌ مُتعدِّدةٌ، مُتَبايِنَةٌ في أشكالِ

(١) تاريخ العرب: ٨٥.

(٢) دراسات في فقه اللغة: ٥٩.

الفُروقِ التي كانت بينها. ولكنها فُروقٌ «لم تكن في الأصل فروقاً ضخمةً، ولم يكن بينها هذا المدى المتَّسِعُ. كانت لهجاتٍ مُتَقارِبةً حيناً، ومُتَضامَّةً حيناً آخَر، لا يكادُ يُجاوِزُ الخلافُ فيها بعضَ الألفاظ، وبعضَ الصِّيَغِ، ولا يكاد يَعْدُو بعضَ هذه الأساليبِ في الوقْفِ أو الحَذْفِ، وفي الهَمْزِ أو التخفيف، وفي إبْدال حرفٍ بحرفٍ آخَرَ يُقَارِبهُ في المَخْرج[1]... وعلى الجُمْلةِ كانت فروقاً صَوْتيةً، ترجع إلى اختلاف الأصوات، لا إلى اختلافِ البِنْيَة، ولا إلى التبايُنِ في التركيب. ومن المؤكَّد أن العرب حين كانوا يَتَباعَدون في المكان، بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، كانوا يستطيعون أن يتبادلوا الحديثَ مُتَفاهِمين، وأن يتَناقَلُوا الخبرَ أو القصَّةَ مُطْمئِنِّينَ، وأن يروي بعضُهم شِعْرَ بعضٍ، وأن يتذوَّقَهُ دون مَشَقَّة»[2]. ذلك أن مجتمعَ الجاهلية لم يكن جامداً، إنْطِوائياً، تتحاجَزُ فيه القبائلُ، وتتباعَدُ حتى كأنَّ كلَّ قبيلةٍ منها أُمَّةٌ مُسْتقِلَّةٌ، لا يكاد يكونُ بينها وبين مَنْ حولَها إلا الغاراتُ، أو الحَذَرُ من الغارات... وإنما كان مجتمعاً مُتَحرِّكاً، مُنْفَتِحاً، تَسوقُ القبائلَ فيه حركةٌ مُسْتمِرَّةٌ إلى التخالُطِ والتقارُب، وتَصِلُ بينها بالنَّسَبِ، والجِوارِ، والحِلْفِ، والمصالح المشتركة... إلى حركةٍ أُخْرى، قلَّما هَدَأتْ، لكثيرٍ من قبائل الجنوب، في الهجرة إلى الشمال، والاستقرارِ في مواضِعَ مختلفةٍ منه، كهجرة الأزْدِ الكبرى، التي توزَّعَتْها الحجازُ وعُمَانُ واليمامةُ والبحرين والشامُ والعراقُ... إلى حركة دائمةٍ لأبناء كلِّ قبيلةٍ داخِلَ

---

(١) من ذلك ما كان بالإبدال، كقولهم في الخِباء: «خِباع». ومنها ما كان بتقديم حرف في الكلمة، كقولهم في صاعقة: «صاقعة». ومنها أفعال القلب، كقولهم في يئسَ: «أَيِسَ».
ومن ذلك ما كان في أَوْجُه الإعراب، كنصبِ خَبرِ ليس عند الحجازيين، ورَفعهِ عند قبائل تميم إذا اقترن بإلاّ.

(٢) د. شكري فيصل ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: ٢٤٥.

قبيلتهم، وخارِجَها مع إخوانهم من أبناء القبائل الأُخرى، يتلاقون في قوافل التجارة، ومراكزِها الكبرى، ومَحطَّاتِها الرئيسة، وفي مواسم الحجِّ، ومواسم الأسواق كعُكاظٍ ومجنَّة وذي المجاز وغيرها[1]. . . وقد كان من شأن ذلك كله أن يكون سبيلاً إلى الوحدةِ اللغويَّة عند عربِ الجاهليَّة، وإن ظلَّت بين لهجاتهم فُروقٌ، ليست غالباً أكثرَ من عُيوبٍ في نُطْق بعض الحروف، وكان منها: عَنْعَنَةُ تميم، وكَشْكَشَةُ ربيعة، وكَسْكَسَةُ هوازِنَ، وتضجُّعُ قَيْس، وتَلْتَلَةُ بَهْرَاءَ، وعَجْرفيَّةُ ضبَّة، وغَمْغَمَةُ أو عَجْعَجَةُ قُضَاعَة، وطُمْطُمَانِيَّةُ حِمْيَرَ، ولَخْلَخَانيَّةُ عُمَانَ والشِحْر[2]، وهي جميعاً عيوبٌ في النُطْق لا أكثر[3]. . .

وقد ذهب أهلُ الأخبار، وكثيرٌ من الأدباء إلى أن قريشاً ارتفعت بفصاحتها عن كل تلك العيوب[4]، حتى غدت لغتُها أفضلَ اللغات، ولهجَتُها أحسنَ اللهجات[5]، فنزل القرآنُ الكريمُ بها! والواقع أن القرآن إنما أُنْزِلَ

---

(١) أُنظرِ المرجعَ نفسَه: ٢٢ ـ ٢٩.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) **العَنْعَنَةُ**: يقولون عَنَّ عبد الله قائمٌ بدلاً من أنَّ، فيجعلون الهمزةَ عَيْناً إذا وقعت في أول الكلمة. **الكَشْكَشَةُ**: يجعلون ما بعد كاف الخِطَاب في المؤنَّث شِيناً. **الكَسْكَسَةُ**: يجعلون بعد كاف المذكَّر أو مكانها سِيناً. **التَّضَجُّعُ**: الإمالَة والخَفْض. **التَّلْتَلَةُ**: كسر أوائل الحروف، كقولهم: تِعْلمون وتِعْقلون وتِصْنَعون. **العَجْرفيَّةُ**: التقعُّر في الكلام. **الغَمْغَمَةُ**: عدم إظهار بعض حروف الكلمات أثناء الكلام. **العَجْعَجَةُ**: يجعلون الياء جِيماً مع العَيْن، كقولهم: راعِج في راعي، ومَعج في معي. **اللخْلَخَانيَّة**: كقولهم مَشَا الله بدلاً من ما شاء الله. **الطُمْطُمَانيَّة**: كقولهم طابَ امْهَواء بدلاً من طاب الهواء، يجعلون الميمَ بدلَ أل التعريف. ومنه: «وفدُهم على رسولِ الله وقد سألوه: هل مِنَ امْبِرِّ امْصِيَامٌ في امْسَفَر؟ أرادوا: هل من البِرِّ الصيامُ في السفر.

(٤) مجالس ثعلب: ١/ ٨٠ ـ ٨١.

(٥) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١٣، وأسواق العرب: ٢٠٦، وفي الأدب الجاهلي: ١٣٦.

﴿بِلسَانٍ عَربيٍّ مُبِينٍ﴾[1]، كما قال تعالى، واللسانُ العربيُّ لغةُ كلِّ العرب، لا لغةَ بعضِهم فقط، أو لسانَ قريشٍ خاصَّةً. . . ولو كان القرآنُ نزلَ بلسَانِ قريشٍ فقط، لما احتاج الفقهاءُ إلى شِعْرِ كلِّ قبائل العرب، وما أُثِر من أقوالهم، للاسْتِعَانَةِ به على فَهْم المُشْكِل والغريبِ من مُفْردات القرآن، وإنما كان حَسْبُهمُ الرجوعُ إلى شِعْرِ قريشٍ وكلامِهم دون غيرهم! ولا بُدَّ أن يُذكرَ في هذا المقام أن الفصاحةَ في بني سعد، من هوازن، كانت أَعْلا مما هي عليه في قريشٍ، وهم الذين استرضَعَ فيهم رسولُ الله، ونشأ بينهم، وكان كثيرون من غِلْمانِ قريش يُرسَلُون إليهم لتعلُّم الفَصاحةِ واللغةِ السَّليمة، إذ كانوا أهلَ بادِيَةٍ، وأبْعَدَ عن الاختلاط بالغرباء[2].

إن توحيدَ اللغة العربية، قبل الإسلام، كان أكبَرَ من أن تَختصَّ به قريشٌ دون سائرِ جيرانها، لأنه ثمرةُ جُهدٍ مُشْتَرِكٍ، بَذَلَتْهُ في المجامع العامَّة الكبرى، كموسم عكاظ، قبائلُ اشتُهِرتْ بالفصَاحةِ والبيان، كبني تميم. . . ذلك أن «لهجةَ تميمٍ قد أَمَدَّتِ العربيةَ الفُصْحَى، برَوافِدَ غنيَّةٍ غزيرة، ساعدتْ على استقرارِ نَحْوِها وصَرْفِها، وسعةِ اشتقاقها، وبُعْدِ دَلاَلاتها، وانْبِسَاطِ مَدْرَجِها الصَّوْتيّ، وحياةِ عددٍ كبيرٍ من مُفْرداتها. . . وإن تميماً تُشَارِكُ قريشاً بنصيبٍ كبير من خصائص العربية، ومُميِّزاتها، وإن إغْفَالَ دوْرِ تميم في هذا، إنما هو تهاوُنٌ بجُزءٍ لا يَتَجزَّءُ من لغتنا العربيّة الفُصْحَى»[3].

ومع اعترافِ الرافعيّ، بأن «الدَّوْرَ العُكاظيَّ» في تهذيب اللغة كان من أحوال الحضارة، فاقْتَضَى الصناعةَ اللسانيَّةَ، وبلغتْ به العربيَّةُ درجةً عاليَةً من

---

(١) سورة الشعراء: ١٩٥.

(٢) المفصَّل: ٨/ ٦٦٩.

(٣) دراسات في فقه اللغة: ١٠٣ ـ ١٠٤.

المنطق الفصيح، لكنه، من طرَفٍ آخرَ، عَدَّهُ آخِرَ أدوار التهذيب اللغويِّ، التي اضْطَلَعتْ بها قريشٌ، من حيث كانت تُبَالِغُ في انتقادِ اللهجات، وانتقاءِ الأَفْصَح من مُفْرداتها[1]... وإذا كان الدورُ الأخير في تهذيب اللغة دَوْرَ عكاظ، فكيف تسَنَّىٰ لقُرَيْشٍ فيه، أن تقفَ وحدَها بوجه العرب جميعاً، تنتقدُ لهجاتهم، وتنتقي منها الأَفْصَحَ، ثم تُذيعُه في الناس، فيستعملوهُ في أحاديثهم وخُطَبِهم وأشعارهم؟ مع أن قريشاً، كما ثبت لنا بالتحقيق، لم تكن تملكُ من أمور عكاظ شيئاً، بل كانت مِمَّن يَؤُمُّونها في مواسمها، كسائر القبائل والتجَّار. والسوقُ تقعُ في ديار هوازِنَ بنَجْدٍ، في جِوارِ ثَقيفٍ بالطائف، فلم يكن لقريش فيها سلطانٌ، بل منافِعُ تسعى إلى تحصيلها! ورئاسةُ الموسم، والقضاءُ فيه بين الناس، حتى الإمَامَةُ في مواسم الحجِّ، كانت كلُّها بأيدي بني تميم، وبعضُها في بني عَدْوان. والحكومَةُ في الشِعْر بين الشعراء كانت، في هذا الدوْرِ الأخير، للنابغة الذبْيانيِّ، ولم تكن لقريش... ويُرْوَى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب قال للوفد الذي قَدِم عليه من غَطَفَان: من الذي يقول

حَلَفتُ، فلم أترِكْ لنَفْسِكَ رِيبَةً ... وليس وراءَ اللَّهِ للمرءِ مَذْهَبُ

قالوا: نابغةُ بني ذبيان! قال: فمَن الذي يقولُ هذا الشعرَ:

أَتيتُكَ عارِياً خَلَقاً ثيابي ... على وَجَلٍ تُظَنُّ بيَ الظنُونُ
فألْفَيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها ... كذلك كان نُوحٌ لا يَخُونُ

قالوا: هو النابغةُ! قال: هو أشْعَرُ شعرائكم[2]... ويُروَى أنه كان في

---

(١) تاريخ آداب العرب: ١/ ٨٧، ٩٥.

(٢) العقد الفريد: ٥/ ٢٧٠.

شعر النابغة، في ابتداءِ أمره، شيءٌ من «الإقواء»، فقال: وردتُ يَثْربَ، وفي شِعْري بعضُ العاهَةِ، فصَدَرتُ عنها وأنا أشْعَرُ الناس[1]. . . وكان النابغةُ من شُعراءِ الطبقة الأولى، المُقَدَّمين على سائر الشعراء[2]. وقد نَقل ابنُ منظور عن أبي حنيفة، أن النابغة كان يأتي المدينة (يثرب)، ويُنْشِدُ بها الناسَ، ويسمعُ منهم، وكانت بالمدينة جماعةُ الشعراء[3]. . . وهذا دليلٌ على أن الفصاحةَ، وسلامةَ اللغةِ، وقَواعِدَ الشِعْر، كانت مُتَوافِرةً في الأَوْس والخَزْرَج، وأنهم كانوا يمارسون نقداً على الشعراء. . . فأين تَفَرُّدُ قريشٍ في ذلك كلِّه؟

يُضاف إلى ذلك أن معظم الخطباء الأَبْينَاءِ كانوا من تميم أو إِيَادٍ، وفي هذا قال الجاحظ: «إن لإيَادٍ وتميم في الخُطَبِ خصْلةً ليست لأحدٍ من العرب، لأن رسول الله هو الذي روى كلامَ قُسِّ بنِ ساعدة، ومَوْقفَهُ على جَمَلِه بعُكاظ، ومَوْعِظتهُ، وهو الذي رواهُ لقريشٍ وسائرِ العرب، وهو الذي عَجِبَ من حُسْنِهِ، وأَظْهَرَ من تصويبه. وهذا إسْنَادٌ تعجزُ عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمالُ، وإنما وَفَّق اللَّهُ ذلك الكلامَ لقُسِّ بن ساعدة، لاحْتجاجِه للتوحيد، ولإظهارِهِ معنى الإخلاص، وإيمانِهِ بالبعث، ولذلك كان خطيبَ العرب قاطبةً»[4]. وعَدَّهُ في موضعٍ آخَر من الشعراء البُلَغَاءِ، والخُطَباءِ الأبيِنَاء، والحُكَّام الرؤساءِ[5]. . . وقال أيضاً: وكذلك ليس لأَحَدٍ في ذلك

---

(١) الأغاني: ١١/ ٩ - ١٠، والشعر والشعراء: ١٦٨، ولسان العرب: ١٥/ ٢١٠ (قوا).
والإقواء: عَيْبٌ في الشعر، تختلف فيه حركات الرَّوِيِّ، فبعضُه مرفوعٌ وبعضُه منصوبٌ أو مجرور، ولكنه لا يكسر الوزن.

(٢) الأغاني: ١١/ ٣.

(٣) لسان العرب: ٢/ ٥٦٥ (قمح).

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٦٠.

(٥) المرجع نفسه: ١/ ٥٢، ٢٨٣.

مثلُ الذي لبني تميم. لقول النبيِّ في فصاحة عمرو بنِ الأهْتم: إن من البيان لسحراً[١]. وذُكِرَ أيضاً أن عبد الملك بن مروان قال يوماً: هل تعرفون حَيّاً، فيهم أخْطبُ الناس، وأَجْوَدُ الناس، وأشْعَرُ الناس؟ هم إِيَادٌ، لأن فيهم قُسَّ بنَ ساعدة، وكعبَ بنَ مَامَة، وأبا دُؤادٍ الإيَادِيَّ[٢].

وذهب د. جواد علي إلى أن بناءَ العربية شيدَ معظَمُه من لُغاتِ تميم وقَيْس وأَسَد، وهي القبائلُ التي تجاورتْ في مواضع سَكَنِها، وتوغَّلتْ بطونُها في بَوادي العراق والبحرين واليمامة ونَجْدٍ، وأن لقبائلِ هُذَيْلٍ وثقيفٍ سهماً مَوْفوراً في ذلك، وتبيَّن له أن قريشاً كانوا قد داوَرُوا بينهم لغات العرب جميعاً، وتداوَلُوها، وأخذوا ما اسْتَملَحُوهُ منها، في الأسواق ومَواسِمِها، وفي التنقُّل بقوافل التجارة، وأن تميماً كانت أكثرَ شهرةً منهم في بضاعة الكلام[٣]. . . أي أن دَوْرَ قريش في تهذيب العربية عموماً، وفي سوق عكاظ خصوصاً، كان أقلَّ من دَوْرِ تميم، وأنه كان دَوْرَ المُتَأثِّرِ أكثرَ منه مُؤَثِّراً، وهو في مكَّة أظْهَرُ منه في عكاظ. ومن ذلك قولُ حمّاد الراوية: «كانت العربُ تعرض أشعارها على قريش، فما قَبِلوهُ منها كان مقبولاً، وما رَدُّوهُ منها كان مَرْدُوداً، فقَدِم عليهم عَلْقَمَةُ بنُ عَبَدَة التميمي[٤]، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما اسْتُودِعتَ مكتومُ　　　أم حَبْلُها إذ نَأتْكَ اليوم مصرومُ

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الأعلام: ٢/ ٣٢.

(٣) المفصّل: ٨/ ٦٦٠ ـ ٦٦١، و ٨/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٤) علقمة بن عَبَدَة الفَحْل: من بني زيد مناة بن تميم. شاعر جاهليٌّ مُجيد، وكان من صُدور الجاهلية وفُحولها. لُقِّب بالفَحْل لأنه نازع امرأ امرأ القيس الشعرَ، وكان صديقاً له، ورَضِيَا حُكمَ امرأةِ امرىء القيس، فقال كلٌّ منهما قصيدةً في وصف الخيل، فحكمت لعلقمة، فطلَّقها امرؤ القيس، وخَلَفَ عليها علقمة.

فقالوا: هذه سِمْطُ الدَّهر[1]، ثم عاد إليهم العامَ المُقْبل، فأنشدهم:

طَحَا بكَ قلبٌ في الحِسَانِ طَروبُ   بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

فقالوا: هاتان سِمْطا الدَّهْر[2]. . . جاءت هذه الإشارة في الأغاني، إلى إشارة أخرى مُخالِفَةٍ قيل فيها: «كانت العربُ تُقِرُّ لقُريشٍ بالتقدُّم في كل شيءٍ عليها إلا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمر بنُ أبي ربيعة، فأقَرَّت لها الشعراءُ بالشِّعْر أيضاً، ولم تُنازِعْها شيئاً»[3]. . . ومن شأن هذا كله أن يَضَعَ دَوْرَ قريش قي تهذيب لغة العرب، في الجاهلية، حيث يجب أن يكون، إلى جانب أدوار غيرها من القبائل أمثال: تميم وإيَاد وأسد وقيس، ممَّن اشتُهِرت أيضاً بالفصاحة وصناعة الكلام. . . وإذا أخذنا بما ذكره إبنُ منظور من حديث ابن مسعود: «فلما وضعتُ رِجْلي على مُذَمَّرِ أبي جهل قال: أعْلِ عَنِّجْ، أي تَنَحَّ عني، وأراد بعَنِّجْ عني، وهي لغة قومٍ يقلبون الياءَ في الوقف جيماً»[4]، وهي من عيوب النطق، فإنَّ لنا أن نتساءل: أكانت العَجْعَجَةُ في قضاعة أم في بني مَخزوم؟

والحقيقة، إذا كان الدورُ البارزُ في تهذيب العربية دَوْرَ عكاظٍ، وهو كذلك حقّاً، فإننا لا نستطيع نِسْبَتَهُ إلى جماعةٍ مَخْصُوصَةٍ، فليس في أخبار عكاظ، كما رأيناها، ما يحصرُ فعلَ التهذيب بقريشٍ، أو بغيرها من قبائل العرب، وإنما كان تهذيبُ العربية، وتوحيدُها، وارْتِقاؤها نتيجةَ عملٍ جماعيّ، أَسْهَمتْ فيه طوائفُ العرب المختلفةُ، التي كانت تجتمعُ بعُكاظٍ ومواسِمِ الحجِّ، ثم غلبتْ عليه لهجةُ الحجاز ونَجْد، ونشأتْ بذلك لغةٌ أَدبيَّةٌ

---

(١) السِّمْط: هو الخيطُ ما دام اللؤلؤ منتظماً فيه.

(٢) الأغاني: ٢١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٨٣.

(٤) لسان العرب: ١٥/ ٨٦ (علا).

مِثَالِيَّةٌ، هي لغةُ الشِعْرِ والخَطابة، خَلتْ من عُيوب اللهجات وهَنَواتِها، وتكوَّنتْ من خير ما في تلك اللهجات من المُفْردات والتعابير، فصارت لغةَ المجتمعات الأدبية. ولو أن شاعراً ضَمَّن شِعرَهُ، يومئذٍ، شيئاً من عيوب لهجته الخاصَّة، كالكَشْكَشَةِ أو العَجْعَجَةِ، وغدا يُنْشِدُهُ في عكاظ، لصَيَّروهُ أُضْحُوكَةً، من التهكُّم به، والتندُّرِ عليه[١].

ومن الطبيعيّ أن التفاوُتَ في اللهجات والمُفْرداتِ، كان يَقِلُّ أو يكثُرُ، تَبَعاً للعلائق التي تربطُ بين قبائل العرب، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمان والاجتماع، التي تُؤثِّرُ أعظمَ تأثيرٍ في اللغة... ولمَّا عَظُمَ شأنُ عكاظ، وطَفِق العربُ من كل الأحياءِ يَؤُمُّونها سعياً وراء مصالحهم، قَصَدَ إليها الشعراءُ والخطباءُ من كل مكانٍ في بلاد العرب، وكان معظمُ هَمِّهم انتقاءَ الألفاظِ الفصيحةِ[٢]، المعروفةِ عند أكثر العرب، طَمعاً في أن تنتشِرَ أقوالُهم بينهم، وأن تحوزَ الرِضَى والاسْتِحسَانَ منهم كافةً. فكان الشعراءُ والخطباءُ بذلك دعاةَ الوحدة اللغوية، والعاملينَ على تحقيقها. ولو اتَّبَعَ كلُّ

(١) دراسات في فقه اللغة: ٩٦.

(٢) ذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٢/٧): أن البلغاء من الشعراء والخطباء العرب، لم يكونوا يقولون كلَّ ما يَرِدُ على خواطرهم، وإنما كانوا يُنغّمون ويُجَوِّدون حتى يظفروا بالكلام الجيد البليغ، وأن «من شعراء العرب مَنْ كان يَدَعُ القصيدة تمكث عنده حَوْلاً كَرِيتاً (تامَّ العَدَد)، وزمناً طويلاً يُرَدِّدُ فيها نظره، ويُجيلُ فيها عقله، ويُقلّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبّعاً على نفسه، فيجعل عقله ذِمَاماً على رأيه، ورأيَه عياراً على شعره... وكانوا يُسمّون تلك القصائد: الحوليّات والمقلّدات والمنقَّحات والمُحْكَمات، ليصير قائلُها فَحْلاً خِنْذيذاً (مُجيداً)، وشاعراً مُفْلقاً».

ويلتقي مع هذا الاتجاه، تسميةُ المعلّقات بالمُذهَّبات، لأنها فازت بإجماع الآراء على أنها أجودُ الشعر لفظاً وأسلوباً ومعنى، فَدُوِّنت بماء الذهب. وهذا يؤكّد أن الشعر عند العرب لم يكن فطرةً وحسب، وإنما كان دَرْساً ودَأباً، وجهوداً مُستمرةً من أجل التجويد والتزويق.

شاعرٍ، أو خطيبٍ، لهجةَ قومِهِ على ما بها من العُيوب، لم يجدْ مَن يَسْتحسِنُها غيرَهم، ولم تَرْوِها القبائلُ الأخرى، فتفوتُه بذلك الشهرةُ، والافْتِخارُ بها.

ويُفْهم من بعض موارد الأخبار والأدب، أن نشأةَ المُعَلَّقاتِ الشعريَّة اقترنتْ بسوق عكاظ، التي كانت مَجْمعاً أدبيّاً، أَمَّهُ فحولُ الشعراء، يتبارُونَ فيه بأشعارهم، ولم يكن للشاعر وقتئذٍ أن يطمحَ إلى مَجْدٍ أكبرَ من أن يَفُوزَ في هذه السوق بإعجابِ الناس، وتقديرهم... «فسوقُ عكاظ، في جاهليَّةِ التاريخ العربيّ، كانت أشْبَهَ شيءٍ بأكَّادِيميَّةٍ كبرىٰ في بلاد الغرب. وكان الفائزُ في عكاظ يُبَاهي بنفسه مُبَاهاةَ البطَلِ المُجَلِّي من أبطال الإغريق في ألعابهم الأُلِمْبِيَّةِ، بل ليس بين نائلي جائزة نُوبل اليومَ مَن يزيدُ فخرُهُ على فخرِ أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية»[1]. ويذهبُ الرواةُ إلى أن أوَّلَ قصيدةٍ نالتْ إعجابَ المحكَّمِينَ بعُكاظ، مُعَلَّقَةُ امْرِىءِ القَيْس بن حجر الكِنْديّ[2]، المتوفَّىٰ نحو سنة (٥٦٠ م)، ومَطْلَعُها:

قِفَا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِوَىٰ بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

ومرَّتِ الإشارةُ أيضاً إلى أن عمرو بنَ كلثومٍ التغلبيَّ، بعدما فتَك بالملك عمرو بنِ هند اللَّخْمِيِّ، نحو سنة (٥٦٩ م)، وقال في ذلك مُعلَّقَتَهُ المشهورةَ:

أَلاَ هُبِّي بصَحِنك فاصْبَحينا ولا تُبقي خُمورَ الأَنْدَرِينَا[3]

---

(١) تاريخ العرب: ١٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ١٣٨.

(٣) **الصحن**: القدح الواسع. **فاصبحينا**: فاسقينا الصَّبُوحَ وهي الخمرة تُشرب في الصباح. **الأندرين**: بلدة كانت جنوبي حلب اشتهرت بالخمور الجيدة.

أبـا هنـدٍ فـلا تَعْجَـلْ علينـا وأَمْهِلْنـــا نُخَبِّـــرْك اليقينـــا
بـأنـا نـورِدُ الـرَّايـاتِ بيضـاً ونُصـدِرُهُـنّ حُمْـراً قـد رَوِينـا

وأَحَبَّ أن تَسِيرَ في الناس، ويُكتَبَ لها الخُلودُ، سَعَى إلى سوق عكاظ، وقام بها خطيباً في أحد المواسم[١]، فأُعْجِبَ الناسُ بها، وتلقَّاها الرواةُ، ونقلوها إلى قبائل العرب. والقولُ نفسُه يمكنُ قولُه في سائر المُعلَّقات الطِوَالِ، فما كان الإجماعُ لِينعَقِدَ على فَوْزِها بالسَّبْق، لولا أنها أُعْلِنَتْ على المَلأِ في عكـاظ، وشَهِـدَ لهـا المُحَكَّمـونَ والنقَّـادُ بـالجَـوْدَةِ والتفوُّق، ولولا أنها صِيغَتْ بلُغَةٍ أدبيَّةٍ مِثاليَّةٍ، يَفْهَمُها العربُ جميعاً، بمُخْتَلِفِ لهجاتهم، وليس فئةً مخصوصةً منهم.

وكان ذلك شأن سائر الشعراء، فهذا أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ الخُزَاعيُّ، يهجو حسَّانَ بنَ ثابت، ويُمْعِنُ في قَدْحِه بقصيدةٍ، لا تَشْفِي غَليلَهُ، إلا إذا دَبَّتْ إلى عكاظ، فتَقبَّلَها العربُ قَبولاً حَسَناً، وانتشرتْ في مَجَامِعِهم:

أَلاَ، مَـــنْ مُبْلِـــغٌ حَسّـــانَ عنـــي مُغَلْغَلَـــةً تـــدبُّ إلـــى عُكـــاظِ
أليـسَ أبـوكَ، فينـا، كـان قَيْنـاً لدىٰ القَيْناتِ، فَسْلاً في الحِفاظِ[٢]
يمـــانِيّـــاً، يظـــلُّ يَشُـــدُّ كِيـــراً وينفُـــخُ دائمـــاً لَهَـــبَ الشُّـــواظِ[٣]

فيَرُدُّ عليه حسَّان بقصيدةٍ، يريدُ لها كذلك أن تَنْتشِرَ في المجامع من عكاظ:

أتـــانـــي عـــن أُميَّـــة زُورُ قَـــوْلٍ وما هو في المَغِيب بذي حِفَاظِ

---

(١) الأغاني: ١١/٤٨.
(٢) القَيْن: الحدّاد، وكل صانع عند العرب قين. الفَسْلُ والمفسول: من الرجال، الرديء.
(٣) الكِيرُ: كيرُ الحدّاد الذي ينفخ به النار.

سأنشُرُ ما حييتُ لكم كلاماً يُنشَّر بالمَجَامِعِ منْ عُكاظِ[1]

فكلا الشاعِرَيْن يتمنَّىٰ أن تَدِبَّ أشعارُهُ إلى سوق عكاظ، فيَتَسَنَّى لها عندئذٍ أن تَذِيعَ في الناس، ويتناقَلَها الرواةُ في أحْياءِ العرب، وهذا لا يمكن أن يكون، ما لم تكن بلُغَةٍ يَفْهَمُها كلُّ العرب... وهي اللغةُ الأَدَبيَّةُ المِثَاليَّةُ المُوَحَّدةُ، التي كانت تعملُ لها عُكاظٌ، ومواسمُ الحجِّ والأسواق. وما نهضةُ الشعرِ العربيِّ، في عصر الجاهليَّة المُتَأخِّرةِ، إلا ثَمَرةٌ من ثمرات أعمال النَّخْلِ والاصْطِفاءِ، والتهذيب والتوحيد، التي اضْطَلَعَت سوقُ عكاظٍ بالنصيب الأَوْفَى منها في لغات العرب ولهجاتهم. وفي ذلك قال الأفغانيُّ: «إن نهضةَ الشِعْر مَدِينةٌ للأسواق، بل مَدِينةٌ لعُكاظٍ خاصَّةً، عُرِفَ لها هذا الأمرُ منذ الجاهلية حتى اليوم...»[2]، وعَدَّ التوحيدَ أعظمَ آثارها قبل البَعْثَةِ: التوحيدَ الذي جرى بين قبائل العرب من عامَّة الأقطار، والتوحيدَ اللغويَّ الذي كان للشعراء والحُكَّام فيه، على مدى سنين مُتَطاوِلَةٍ، أبْلَغُ الأَثَرِ في انتقاءِ الألفاظ والأساليب، وشُيُوعِها بوساطة الرواة في القبائل[3]...

ولا بُدَّ من الإشارة أخيراً، إلى أن عمل عكاظ على التوحيد والتهذيب، لم يكن مَقْصُوراً على أدب الشعراء والخطباء، بل كان يشملُ أَنْماطاً مُتَعدِّدةً من فنون الكلام، في الاجتماع، والتجارة، ومختلفِ شؤون الحياة، فكان من اللازم أن يجري الكلامُ فيها بألفاظٍ ولهجةٍ يُمكِنُ للجميع فَهْمُها من غير عُسْرٍ.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٧/٤٤٦ (شوظ)، والمفصَّل: ٩/ ٧٤٤.

(٢) أسواق العرب: ٢٠٨.

(٣) المرجع نفسه.

المطلب الثالث ـ الحُكُومَةُ بين الشُّعَراء:

كان للعرب في سوق عكاظ قُضَاةٌ للشِّعْرِ، أو حُكَّامٌ يتحاكمُ إليهم الشعراءُ، تُضْرَبُ عليهم قبَابٌ حُمْرٌ من أَدَمٍ، تكريماً لهم. فيَتَقدَّم منهم شاعِرُ كلِّ قبيلةٍ، فيَعْرِضُ عليهم جديدَ ما قاله من الشِعْر، فما اسْتَجادَهُ القضاةُ فهو الجيِّدُ، وما حكموا بضَعْفِهِ فهو الرَّكيكُ. . .

وكان ينتشِرُ حول هذه القباب رُوَاةُ الشِعْر، وأبناءُ القبائل من الرجال والنساء، قَدِمُوا إلى عكاظ، ومع كل قومٍ شاعِرُهم، يستمعون إلى ما أعَدَّهُ للموسم الجديد، وينتظرونَ حُكمَ القضاءِ فيه، فما يكادُ القاضي يُصْدِرُ حُكمَهُ، حتى يتناقلَ الرواةُ والناسُ المجتمعون القَصِيدةَ الفائزة، وينشروها في أحْياءِ العرب، فتَلْهَجُ بها الألْسُنُ في الحَواضِرِ والبوادي، وتَسِيرُ لصاحبها شهرةٌ بين القبائل، تُشَجِّعُهُ، وتُغْري غيرَهُ من الشعراء بنَظْم القصائد، وإنشادِها في الأسواق والمواسم، تخليداً للذِّكْرِ، أو طلباً للشهرة. . . وفوق ذلك كان الشاعِرُ الفائزُ ما يلبث حتى يُصْبحَ شاعِرَ القبيلة، المُتكلِّمَ باسْمِها، والمُدَافِعَ عن حُقوقها. . . ومن شأن هذا أن يُطْلِعَنا على أمرين في طبيعة شعراء الجاهلية.

الأول: أن الشِعْرَ الجاهليَّ كان يقوم على الصَّنْعة، فلم يكن الشاعِرُ يقولُ شِعْرَهُ ارْتجالاً، أو عَفْوَ الخاطِرِ، وإنما كان يَعْكفُ على نَسْجِهِ، ويُقلِّبُ فيه رأيهُ، يُجَوِّدُه ويُزَوِّقُهُ، يُرقِّقُهُ أو يجعلهُ جَزْلاً. ومن مظاهرِ الصَّنْعةِ أنهم كانوا يُطلِقُون على الشعراء ألقاباً، تُصوِّرُ مقدارَ ما أحْسَنُوا صُنْعَهُ في شعرهم، أو ما سبقوا إليه من القول فمَهرُوا فيه[1]. ومن ذلك مثَلاً أنهم مَنَحُوا عَدِيَّ بنَ

---

(١) د. شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ١٣ ـ ١٤، ٢٣.

ربيعة التغلبيَّ لقَبَ «المُهَلْهِل»، لما ظهر في شعره من الرِقَّة[1]. كما مَنَحُوا زيادَ بنَ مُعَاوية الذبيانيَّ لقَبَ «النابغة» لتفوُّقِهِ ونُبوغِهِ في الشِعْر[2]، ومَنَحوا ربيعةَ بن سعد السَّدُوسيَّ لقبَ «المُرَقِّش» لقوله:

الـدارُ قَفْـرٌ، والـرُّسُـومُ كمـا رَقَّشَ في ظهر الأَدِيم قَلَمْ[3]

فكأنما كان هنالك ذَوْقٌ أدبيٌّ عامٌّ في مجامع العرب، يدفعُ الشعراءَ والخطباءَ إلى تجويد أقوالهم، وصَقْلِها، وتهذيبِها، عَمِلَ على نَشْأتِهِ ونَمائِهِ النشاطُ الأدبيُّ واللغويُّ في المواسم الكبرى، ولا سيما منها عكاظ، حيث كان الخطباء والشعراءُ، كما ذكر د. شوقي ضيف، يتبارون فيها، وكلٌّ يريدُ أن يَنتزِعَ وسامَ السَّبْق على أقرانِهِ، عند أهل الموسم[4].

والثاني: أن المعنى الحقَّ لشاعر القبيلة في العصر الجاهلي، هو أنه كان يَشْغَلُ فيها وظيفةَ ذاتَ خَطَرٍ، هي وظيفةُ الشاعرِ العامِّ، مَثَلُه في ذلك مَثَلُ فارسِ القبيلة، يَذُودُ عن حِمَاها، ويُدافِعُ عنها، ويفتخرُ بأمجادها، وقلَّما كان شاعرُ القبيلة يتحدَّثُ عن نَفْسِهِ إذا افتخر، وإنما كان يتحدَّثُ بضمير الجماعة التي يُمثِّلُها، ويَعْتزُّ بانتمائه إليها[5]... ومن هنا كان تَفوُّقُ الشاعر على

---

(١) المُهَلْهِلُ: أبو ليلى، عَدِيُّ بن ربيعة، من بني جُشَم، من تَغْلِب. شاعر من أبطال العرب في الجاهلية، لُقِّبَ مُهَلْهِلاً، لأنه أولُ من هَلْهَلَ نَسْجَ الشعر، أي رقَّقَهُ. وكان من أصْبَحِ الناس وجهاً، ومن أفْصَحِهم لساناً. عكف في صِبَاهُ على اللهو والغزل، فسمَّاهُ أخوه كُلَيبُ بنُ ربيعة «زِيرَ النساء» أي جَليسهنَّ. ولمّا قَتَلَ جسَّاسُ بنُ مُرَّة أخاهَ كليباً ثار المهلهلُ، وانقطع عن الشراب واللهو، وأقسم أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب المشهورة، التي دام النزاع فيها أربعين عاماً. توفي نحو سنة (٥٢٠ م).

(٢) وقيل: بل لقوله: «فقد نَبَغَتْ لهم منَّا شُؤونُ...» ـ الأغاني: ١١/٣.

(٣) لسان العرب: ٦/٣٠٦ (رقش).

(٤) البلاغة تطورٌ وتاريخ: ١٠.

(٥) انظر كتاب بنت الشاطىء ـ قِيَمٌ جديدة للأدب العربي: ٣٤ ـ ٣٧.

أقرانه، بين يَدَيْ قاضي الشعراء، فَرَحاً للقبيلة كلِّها، ببُلوغِهِ المقدرةَ الشعريَّة التي تُؤهِّلُه للدفاع عنها، والحديثِ باسمها، والتغنِّي بمفاخرها.

«ويبدو أن من الشعراء النابهين، مَن كان يقومُ في هذه السوق مقامَ القاضي، الذي لا تُدْفعُ حكومتُه»[1]، وقد أسْعَفَتْنا مواردُ الأخبار بمعرفة واحدٍ منهم، إذ أَطْبَقَتْ على أن الحكومة بين الشعراء، في سوق عكاظ، كانت للنابغة الذبياني، في نحو النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، ومَطلع السابع. وذكرتْ أنه كانت تُضْرَبُ له هنالك قبَّةٌ حمراءُ من أَدَمٍ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرضُ عليه أشعارَها، وتُناقِشُه الرأيَ في فصاحة ألفاظها، وقُوَّةِ تعبيرها وبيانِها، فينقدها نقدَ العالمِ الخبيرِ بأسرار الفَصاحة والبيان، ثم يُصدرُ حُكمه.

وكان أوَّلَ مَن أَنْشدَهُ، في أحد المواسم، أبو بصير الأعشى بنُ ميمون... وكان حسَّانُ بنُ ثابت، أحسَّ من نفْسِهِ القدرةَ يومئذٍ على عَرْضِ أشعاره في سوق الشعر، فجاء إلى عكاظ في ذلك الموسم، ودخَل على النابغة، فأنشدَهُ قصيدتَهُ التي يقول فيها:

نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ، إذا بَدَتْ مُروءَتُهُ فينا، وإنْ كان مُعْدَمَا
وَلَدْنَا بني العنقاءِ، وابنَيْ مُحرِّقٍ فَأَكْرِمْ بنا خالاً، وأكرمْ بنا ابْنَمَا[2]

(١) البلاغة تطور وتاريخ: ١١.
(٢) **العنقاء**: هو ثعلبة بن عمرو. **ومحرِّق**: هو أخوه الحارث بن عمرو (يقال إنه أول من عاقب بالنار)، ومن ثعلبة والحارث تفرعت الأوسُ والخزرجُ. **إبْنَما**: إبناً والميم زائدة. يريد أنهم يُسوِّدون صاحب المروءة وإن كان فقيراً مُعْدَماً، ويفخر بقبيلتَيْ الأوس والخزرج.

وإنّا لَنقْري الضيفَ، إن جاءَ طارقاً ... من الشحم، ما أمْسَى صحيحاً مُسَلّماً
لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نَجْدةٍ دَما[1]

ثم جاءت الخنسَاءُ السُّلَميَّةُ، فأنشَدَتْهُ قصيدةً ترثي فيها أخاها صخراً، وتقول:

قــذىً بِعَيْنَيْـكِ أم بــالعيــن عُــوَّارُ ... أم ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلها الدارُ
تبكي خُنَاسٌ على صَخْرٍ، وحقَّ لها ... إذ رابَهـا الـدهـرُ، إنّ الـدهـرَ ضَرَّارُ
وإنّ صخــراً لتــأتــمُّ الهُــدَاةُ بــهِ ... كــأنــه عَلَــمٌ فــي رأسِــهِ نــارُ
حَمّــالُ ألْــوِيَــةٍ، هَبّــاطُ أوْدِيــةٍ ... شَهّـادُ أنْـديـةٍ، للجيـش جـرّارُ[2]

وكان قاضي الشعراءِ، النابغةُ، حَكَمَ للأعْشَى، فالتَفَتَ إلى الخنساءِ، وقال لها: واللّهِ، لولا أن الأعشَى أبا بَصيرٍ أنشدني قبلَكِ، لَقُلْتُ إنكِ أشْعَرُ الإنْسَ والجِنِّ، أنتِ واللّهِ أشْعَرُ من كلِّ ذاتِ مَثَانَةٍ... حَكَمَ لها على الشاعرات فقط، فقالت: واللّهِ ومِنْ كلِّ ذي خِصْيَتَيْنِ! فحَمِيَ عندئذٍ حسانُ بن ثابت، وغَضِبَ اعتقاداً بأن النابغة ظَلَمهُ، واسْتَلَبهُ حقَّه في الفَوْزِ، فقال: واللّهِ لأَنا أشْعَرُ منكَ ومن أبيك!... فقام النابغةُ بهدوءٍ، وقَبَضَ على يَدِ حَسَّان، وسأله: حيث تقولُ ماذا؟ قال: حيث أقول:

---

(١) نقري الضيف: نكرمه. طارقاً: زائراً بالليل، وقِرَى الضيف في الليل أدْعَىٰ للثناءِ على المضيف، وفخرِه. الجَفَنَات: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة. الغُرُّ: البِيضُ. يفخر بالكرم والشجاعة.

(٢) عَلَم: جبل. تسأل الخنساءُ نفسها في البيت الأول: ما هذه العيون الدامعة؟ أهو قَذَى أصابها، أم بها مرضٌ؟ أم أنها دمعت حزناً على خلوّ الدار من أهلها؟ ثم قالت: إن الخنساء تبكي أخاها صخراً، وهو حقّ لها، فقد رابها الدهرُ، والدهرُ ضَرَّارٌ، ولماذا لا تبكي وصَخرٌ كان إماماً للهُدَاة، كأنه جبلٌ أُوقدتْ نارٌ على رأسه، وقد عَرَفه الناسُ شُجاعاً مِقْدَاماً يقودُ الجيوش، ويحمل ألويتَها.

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا[1]

فقال النابغة: إنك لشاعِرٌ، ولكنك أقْلَلْتَ جِفَانَكَ وأسيافَكَ، وفَخَرْتَ بمن وَلَدْتَ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَك، وقُلتَ: بالضُّحَى، ولو قُلتَ: بالدُّجَىٰ، لكان أَبْلَغَ في المديح، لأنَّ الضيفَ في الليل أكثرُ، وقلتَ: يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دَمًا، فدَلَلْتَ على قِلَّةِ القتل، ولو قلتَ: يَجْرِينَ، لكان أكثرَ لانْصِبَابِ الدَّمِ! وأنتَ يا بْنَ أخي لا تُحْسِنُ أن تقولَ مثل قولي:

فإنك كالليلِ الذي هو مُدْرِكي   وإنْ خِلْتُ أن المُنْتَأىٰ عنك واسعُ

فخَنَسَ حسَّانُ لقوله، ومضى في طريقه[2].

* * *

ويبدو أن النابغةَ الذبيانيَّ كانت له شُهْرَةٌ معروفةٌ في عالم الشِعْر، فضلاً عن غَلَبَتِهِ على مُعَاصرِيه من الشعراء، فكانوا يعترفون له بالمقْدرةِ والتفوُّق، ويحترمون أحكامَهُ في أشعارهم، إيماناً منهم بسَلامة ذَوْقِهِ في النقد. ومن الممكنِ أن نرى في مُلاحَظات النابغة، أنه كان شديدَ الثقة بمقدرته الشعريَّة، وأنه كان، على الأغلب، يَدْرسُ شِعرَهُ، ويَنْقدُه قبل عَرْضِهِ على الناس، ويعرفُ ما يختارُ منه إذا وقف مُنْشداً بعُكاظ. . . ذكر الأصفهانيُّ أن النابغة قَدِمَ يوماً سوقَ عكاظ، فنَزَلَ عن راحِلَتِهِ، وجلس على رُكْبَتَيْهِ، ثم اعْتَمَدَ على عَصَاهُ، وأَنْشَأَ يقول:

---

(١) إن جمعَ الجَفْنَةِ والسيفِ على جَفَناتٍ وأسْيافٍ هو لأدنى العدد، أما أكثرُه فهو: جِفَان وسُيوف.

(٢) الأغاني: ١١/٦، و ٤/١٧٠، والشعر والشعراء: ١٦٧ ـ ١٦٨ و ٣٤٤، والخنساء لبنت الشاطىء: ٤٧ ـ ٤٨. ود. محمد طاهر درويش ـ حسان بن ثابت: ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

عَـرَفْـتُ مَنـازِلاً بعُـرَيْتِنـاتٍ فَـأعْلَـىٰ الجِـزْعِ، لِلْحَـيِّ المُبِـنِّ[1]

فما كاد حَسَّانُ بنُ ثابت يستمعُ إلى مَطْلَعِ القصيدة، حتى أسرع يقول: هَلَك الشيخُ! فقد رأيتُه تَبعَ قافِيَةً مُنكَرَةً. ولكنَّ النابغةَ اسْتمرَّ في إنْشَادِ قصيدته، وهو على مَوْقفِهِ في مَوْضِعه، فما زال يُنْشِدُ حتى أتَىٰ على آخِرها، فكانت من أرْوَعِ شِعْرِهِ، وأشْجَاهُ نَغَماً، وأكْمَلِهِ أداءً... فأُعْجِبَ بها حسَّانُ أشدَّ الإعجاب[2]... ومما قاله النابغةُ في هذه القصيدة:

تَعَـاوَرَهُـنَّ صـرْفُ الـدهـرِ حتـى عَفَـوْنَ، وكـلُّ مُنْهمـرٍ مُـرِنِّ
وَقَفْتُ بها القَلوصَ، على اكْتِئابٍ وذاك تَفـارُطُ الشَّـوقِ المُعَنِّـي
بكـاءُ حَمـامـةٍ، تـدعـو هـديـلاً مُفجَّعـةٍ علـى فَنَـنٍ تُغنِّـي
ألِكْنـي يـا عُيَيْـنُ، إليـكَ قَـوْلاً سـأُهـديـه إليـكَ، إليـكَ عنّـي[3]

* * *

(١) عُرَيْتِناتٌ وأعلى الجِزْع: إسمان لموضعين. المُبِنّ: المقيم بهذه المنازل المرتفعة. يذكر المنازلَ التي كان يقيم أحبابه فيها.

(٢) الأغاني: ٣/ ١٠، والنابغة الذبياني: ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) تعاورهُنَّ: تداولهنّ وتعاقب عليهن. صرفُ الدهر: أحداثه. عَفَوْن: ذهبتَ آثارُها ودَرَسَتْ. المنهمرُ المُرِنُّ: المطر ذو الرعد. يقول: إن أحداث الدهر، وكلَّ مُنْهمِرٍ من السماء، تعاقبت على هذه المنازل حتى ذهبت آثارها، ولم تُبقِ غير الذكرى.
القلوص: الناقة، التفارط: السبق والتسرّع. يقول إنه وَقَفَ بها ناقَتَهُ مُكْتَئباً لذهاب أهلها ودُرُوسِ آثارها، وسبب كآبته شدَّة الشوق. الهديل: زعموا أنه زوج الحمامة. الفَنَن: الغصن. فهو يبكي بكاءَ حمامةٍ على غصنٍ تدعو زوجها أو حبيبها. ألِكْني: أبلغ رسالتي. إليك عني: أبعد عني.

المطلب الرابع ـ أَثَرُ النقْدِ في توحيد اللغة:

يبدو واضحاً أن في نَقْدِ النابغة للشعراء، وتَعاليقهِ على أقوالهم، ما يُؤكِّدُ أن شعراءَ الجاهلية كان بعضُهم يُراجِعُ بعضاً فيما يُنشِئُه من الشعر، وأنهم كانوا يُبْدون، في ثنايا مُراجَعاتهم، بعضَ الآراء في الألفاظ والمعاني. وكان أحَدُهم يفخرُ بجَوْدَةِ شعره على الآخرين، فكانوا يتنافَرون في ذلك، أي يتحاكمون، كما يتنافَرُ الأشرافُ في سُؤْدَدِهم ومَجْدِهم، إلى المحكَّمين ليقْضُوا بينهم[1]، فكان هؤلاء يُفَضِّلون من سَهُلَتْ عبارتُه، وكان لألفاظِهِ النصيبُ الأَوْفَرُ من الفصاحة والبيان، مع التحرُّزِ من عُيُوبِ النُطْقِ[2]، والابتعادِ عن الكلام الحُوشِيِّ. وهذا من شأنه العملُ على توحيد العربية. . . وليس هذا وحَسْبُ، بل كان الشعراءُ حينئذٍ «يَسُوقُونَ أحياناً ملاحظاتٍ، لا ريب في أنها أصلُ الملاحظات البيَانيَّة في بلاغتنا العربيَّة. ومَن يتصَفَّحْ أشعارهم يجدْها تَزْخَرُ بالتشبيهات، والاستعارات، وتَتَناثَرُ فيها من حينٍ إلى حينٍ ألوانٌ من المُقَابَلات والجِنَاسَاتِ، مما يَدُلُّ دلالةً واضحةً على أنهم كانوا يُعْنَوْنَ عنايةً واسعةً، بإحْسَانِ الكلام، والتفَنُّنِ في مَعَارِضِه البليغة»[3]، رغبةً في الفَوْز بإعجابِ العرب في مجامِعِهم العامَّةِ الكبرى كعكاظ. ولو نظرنا في نقد النابغة لرأينا أنه «نقدٌ سَدِيدٌ، تناول فيه مسألتين: الأولى لفظية، والثانيةُ معنويَّة. فأمَّا اللفظيَّةُ فإن حَسَّاناً لم يجمع الجفناتِ والأَسْيافَ جمعاً يدُلُّ على الكثرة، والعربُ تَسْتَحِبُّ المُبَالغةَ في مثل هذا الموقف، حين يفخرُ الشاعرُ

---

(١) انظر كتاب الأغاني: ١٣/١٩٨ ـ ١٩٩ (منافرة الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبَّل السعدي إلى قاضي العرب ربيعة بن حُذار من بني أسد بن خزيمة، وذلك بعد ظهور الإسلام، وقبل أن يُسلموا، ليحكم بينهم في شعرهم أيُّهم أجْوَدُ شعراً).

(٢) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١١.

(٣) البلاغة تطوُّر وتاريخ: ١٣.

بالكرم والشجاعة في قبيلته. وأمَّا المسألةُ المعنويَّةُ، فَفَخْرُهُ بمن ولَدَتْهُ نساؤهم، والعربُ لا تفخرُ بالأبناء، وإنما تفخرُ بالآباء... وفي هذا كلِّه ما يَدُلُّ على أن النقدَ في الجاهلية كان شائعاً، وأنه كان يأخذُ مظهريْن عامَّيْن: المظْهر الأوَّلُ يشترك فيه العربُ جميعاً، حين يستمعون إلى شعرِ شاعرٍ، فيقدرونه، ويطربون له، ويتقدَّمُ أشرافُهم وملوكُهم فيُجِيزُون أصحابَه جوائزَ ثمينةً قيِّمةً. وهم في ذلك إنما يرجعون إلى ذَوْقٍ أدبيّ راقٍ، والمظهر الثاني مَقْصورٌ على الأخصائيِّين من الشعراء، الَّذين كانوا لا يكْتَفُون بإظهار الإعجابِ أو السُّخْطِ، وإنما يَعْمَدون إلى إبْداءِ الملاحظات والآراء على ما يسمعون»[1]. هذا، ومن المؤكَّد أن نقدَ الشعرِ الجاهليّ لم يَصِلْ إلينا كلُّه، ولكنَّ ما وصل يَدُلُّ على أنه كان كثيراً، ولا سيما عند الروَاةِ المعلِّمين، فقد تَحوَّلَ فريقٌ منهم إلى نُقَّادٍ، يَفْرضُون أنْفُسَهم، بعِلْمهم وفنِّهم وذَوْقهم، على الشعر والشعراء، وخيرُ مِثَالٍ على ذلك منهم النابغةُ الذبيانيُّ[2]، في قُبَّتِهِ التي كانت تُضْربُ له بعكاظ ليقضيَ بين الشعراء.

على أننا لا نريدُ المبالَغَة في تَقْدير قواعد النقد عند عرب الجاهلية، بل نريدُ التأكيدَ على أنه كان نقداً قيِّماً، تَأَسَّسَ على ذَوْقٍ فِطْريٍّ سليمٍ، وتَوَضَّحَ في المواسم الكبرى، ولا سيما في عكاظ والحجِّ، وقد بلغَ العربُ مبلغاً طيِّباً من الترقّي في صناعة الكلام، فأَسْهَمَ إسْهاماً كبيراً في توحيد لغة العرب، حينما أَفْلَح في توجيه أنظار الشعراء والخطباء إلى العِنَايةِ بالفَصَاحَةِ والبلاغَةِ والبيان، واختيارِ الألفاظِ والتعابير التي يفهمُها العربُ جميعاً. وبذلك صار غُواةُ الشهرة والخُلودِ من الشعراء والخطباء، يصطنعون الكلامَ، الذي يفهمُهُ

---

(١) فن النقد: ٢٢.

(٢) المرجع نفسه: ٢١.

عنهم كلُّ العرب، ويختارون من المُفْرَدات ما خَفَّ على السَّمْع، وعَذُبَ في النُطْقِ، ومن العِبَاراتِ ما كان يَأْسِرُ النفوسَ ويملكُ القلوبَ، فتكوَّنَتْ من ذلك كلِّه لغةٌ مِثَاليَّةٌ، هي لغةُ الشعر والخطابة في المجتمعات الأدبيَّة، وقامت على خَيرِ ما في لَهجاتِ العربِ من القواعد والمفردات، ولا سيما منها لهجات قريشٍ وتميم وإيَاد وأَسَدٍ وقَيْس، ونَفَضَتْ عنها مُعْظَمَ العُيُوبِ التي كانت تَسِمُ سائرَ اللهجات، فبَدَتْ في أَحْسَنِ حُلَّةٍ، فيما وصل إلينا من أدب عصر الجاهلية، وظهرت في أَبْلَغِ صورةٍ، حينما نَزَلَ القرآنُ الكريمُ بها، في بلاغَتِهِ المُعْجِزَة، وتَحدِّيهِ العربَ أنَ يَأْتُوا بمثلِهِ، على ما لهم من بلاغةٍ، وفصاحة، ونظرٍ ثاقبٍ في دِقَّةِ التعبير، وخَفَايا القولِ وأسْرارِه.



المطلب الخامس ـ الصورةُ الطبيعيَّةُ لسوق عكاظ:

الصورةُ الطبيعيَّةُ لسوق عكاظ في حياة العرب، كما نقلها إلينا المؤرِّخُون وأهلُ الأخبار، وكما فِهِمَها معظمُ الباحثين المتأخِّرين، وكما عَرَضْناها فيما تَقصَّيْناهُ من الحوادث والروايات، أنها كانت مَعْرِضاً تجارِيّاً عامَّاً يجمعُ قبائلَ العرب على اختلافها، مثلما كانت مَرْجِعاً يرجعون إليه لبحث شُؤونهم الاجتماعيَّة على تَنوُّعِها، ومَجْمَعاً للشعر والأدب تُنْشَدُ فيه القصائدُ، وتُلْقَى الخُطَبُ والمواعظ، وتُضْرَبُ الأمثال... فكانت، بهذه الصورة، تعملُ على التقريب بين قبائل العرب، وعلى التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم، مما أدَّىٰ إلى خلق لغةٍ مِثَاليَّةٍ موحَّدَةٍ، صارت لغةَ المجتمعات الأدبيَّة، فكانوا يستعملونها للتفاهُم، وإنْشادِ الشعر، وقولِ الخُطَب، حتى أضْحَى اسمُ عكاظٍ في التاريخ عَلَماً على كل مَجْمَعٍ، أو مَعْرِضٍ، يضمُّ الأُلوفَ المتباينةَ من الناس، بل عشراتِ الألوف، ويكون حديثُ الشعر والأدب بعضَ ما يجري فيه.

غير أن ثمَّةَ مَن رأى سوق عكاظ على غير هذه الصورة السَّوِيَّة، فكان في تصوُّرِهِ لها إمَّا مُمْعِناً في التقليل من شأنها، أو مُغَالِياً في الخَيَال حتى جاوَزَ به الحقيقةَ. وسنأتي بمثالٍ على كلٍّ منهما. . .

١ ـ التقليل من دَوْرِ عكاظ:

خيرُ مِثَالٍ له ما كتبهُ هيكلُ عن تصوُّرِهِ لما كانت عليه هذه السوق، فقال: «وقد تَعوَّدَ المؤرِّخون، إذ يذكرون عكاظاً، أن يقولوا: إن الشعراء كانوا ينتهزون فرصةَ انعقادِها، فيَعْرضون حَوْليَّاتٍ من نُخَبِ قصائدهم على الناقدين، في احتفالٍ عظيم تَشْهَدُهُ الجماهير، وبذلك يَذِيعُ ما يُقِرُّهُ الناقدون وأُولو الحُكْم من هذا الشعر في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً، ويَتَغنَّى به العربُ في كلِّ نادٍ. . . وإن الخطباء كانوا يجعلون منها مَثَابةً لعَرْضِ آرائهم وتعاليمهم! وصحيحٌ أن الشعراء كانوا يُنْشِدون في عكاظ، وأن الخطباء كانوا يتحدَّثون إلى الناس فيها، ولكنَّ ذلك لم يكن سببه أن هؤلاء وأولئك كانوا يتَّخِذون من عكاظ حَفْلاً أَدبيّاً، ومجتمعاً خاصّاً بألوان البلاغة في الشعر والخطابة، بل كان يرجعُ إلى طبيعة الحياة في بلاد العرب، وإلى أن عكاظاً كانت تضمُّ مِن قبائلها مَن لا يجتمعون طيلةَ العام، إلا أيامَ الحجِّ. وقد كانت عكاظ تجمعُهم لتبادُلِ التجارة، ابْتغاءَ المنافع. وهذا التبادُلُ في التجارة، وهذا التنافُسُ في ابتغاءِ المنافع، وما كان يقعُ أثناء ذلك، وبسببه، من خصوماتٍ تتصلُ بعضَ الأحيان أعواماً مُتَتاليَةً، هو الذي كان يدعو الشعراءَ ليُنْشِدوا، والخطباءَ ليقولوا. أمّا أنَّ هؤلاء الشعراء كانوا يجيئون ليَعْرِضوا شِعرهم للنقد، وأنّ هؤلاء الخطباءَ كانوا يَتَبارون بلاغةً، ليَسْتَعْليَ بعضُهم على بعض في البيان، وأن ذلك كان يقع في الجاهلية، أيامَ كانت لهجاتُ العرب لا يزال بينها من التبايُنِ ما لم يُزِلْهُ اسْتِعْلاءُ لغة قريش، إلا بعد أن

أنزل اللَّهُ القرآنَ بها، فتَجاوُزٌ في التصوُّرِ، يدعو إليه ما جُبِل الناسُ عليه من تَوَهُّم الحياةِ في كل العصور والأمكنة، على صُورةِ حياتهم في البيئة المحيطةِ بهم. . . فذهبوا يُصَوِّرون عكاظاً، وما كان يجري فيها، هذه الصورةَ الذهنيَّةَ التي أَلِفُوا، والتي تختلفُ وما تُثْبته أنباءُ الحياة العربية في العهد الجاهليّ اختلافاً عظيماً. ولستُ أَزْعم أنني عثرتُ في أَثَرٍ قديم، أو مَخْطُوطٍ غير معروف، على صورةٍ تصفُ ما كان يجري بعكاظ على النحو الذي أريد أن أُسَطِّرَهُ هنا، لكنني انتزعتُ نفسي جهدَ الطاقة من بيئتنا الحاضرة، وحَملتُها على تصوُّرِ البيئة العربية قُبَيْل الإسلام، وفي فَجْرِه، كما تَصِفُها لنا أنباءُ التاريخ، وحاولتُ بذلك، وفي حدود الطبيعة الإنسانية، أن أرى ما كانت عليه عكاظ بالفعل، وما كان يقعُ فيها»(١).

وكأنَّ انتزاعَ النفسِ من البيئة الحاضرة، ووَضْعَها في البيئة الماضِيَة، لِتَصَوُّرِ ما كانت عليه عكاظ، وما كان يجري فيها، أَمْرٌ لا يستطيعُه أحدٌ من الناس إلا هيكل، ولا يجوز لأحَدٍ غيره أن يقُومَ به. مع أنه، كما يَتَبيَّنُ من مُتابعة حديثه عن عكاظ، لم يُحقِّق من أخبار عكاظ شيئاً، ولم يطَّلِعْ على أكثرَ مما قاله الأزرقيُّ عن مواسم الحجِّ، وبعضِ ما اتَّفق له من كتُب أهل الأخبار، كالأغاني، فيما تحدَّثتْ به عن حروبِ الفِجَار، وخطبةِ قُسِّ بن ساعدة، وطوافِ النبيّ عليه السلام في السوق مُبشِّراً بالإسلام. والصورةُ الطبيعية عنده لعكاظِ أنها كانت سوقاً يجتمع العربُ بها كلَّ سنةٍ «لتبادُلِ التجارة، وليس لهم من الاجتماع غرضٌ آخَر»، أمَّا ما كان يجري فيها أحياناً من إنشادٍ للشعر وخطابةٍ، فمَرَدُّهُ إلى الخصومات والحروب، التي كانت تنشب بين القبائل، من جرَّاءِ المنافَسَةِ التجارية، «وحيثما اجتمع الناسُ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

وتنـافَسُـوا اختلفـوا وتخـاصَمُـوا. . . فـإذا آن للحـرب أن تضـعَ أوْزارَهـا، وللخُصُومات أن تَهْدأَ ثائرتُها، قام الحكماءُ يَعِظُون المتخاصمين، ويُصْلحون بين المختَلِفين، لا مُتَباهِينَ ببلاغتهم، ولا مُقِيمينَ سوقاً لها، بل عامِلِين لتَهْدِئةِ الخواطر، وإعادةِ السَّكِينة والسَّلْم، حتى تتَّصِلَ التجارةُ. . . فأمَّا ما يضافُ إليها من صُوَرِ مَحافِلِ الشعر، ومُبَاريات الشعراء، وتنافُسِ الخطباء، فخَيَالٌ لا يصفُ الواقعَ، أبْدَعَهُ الأُدَباءُ والكُتَّابُ بعد أن عَفَّىٰ الزمنُ على عكاظ، وهو خيالٌ لا يتفق مع ما يُرْوَىٰ عن عكاظ، وما كان يجري فيها من التجارة، وما يتَّصِلُ بالتجارة من لَهْوٍ وعَبَثٍ، وما يجرُّ ذلك إليه من خصوماتٍ وحروبٍ مُتَّصِلةٍ». واستشهد بعدئذٍ بوقائع الفِجَار الأول، وهي ثلاثةٌ ليس وراءَها أيُّ منافسةٍ تجارية، أو ما يتَّصِلُ بالتجارة! وقد علَّق على بعضها بقوله: فاقْتَتَلوا قتالاً شديداً، ووقعتْ بينهم دماء[1]. . . مع أن المؤرخين أطْبقوا على أن وقائع الفجار الأول لم يكن فيها قتال[2]. ثم استشهدَ بخطبة قُسٍّ بن ساعدة وقال: فليس يحمِلُ قُسّاً على أن يُلقي هذا الخطابَ، في سوق يتَّجِرُ فيها الناسُ، إلاّ خلافٌ شَجَرَ بينهم، وبلغ التفاخرَ بأصنامهم، فلمَّا هَدَؤُوا، وآن لذوي الرأي أن يحسموه بالحكمة، تحدَّث قُسٌّ هذا الحديثَ، مُتأثِّراً فيه، لا ريب، بعقيدته المسيحية، ولكنْ من غير حِرْصٍ على الدعوة إليها، دعوةً قَلَّ أن تُؤْتي في مثل هذا الجمع ثمرتها»[3]. . . مع أن كلَّ موارد الأخبار أجمعتْ على أن الرجل ألقَى خطبتَه بعكاظٍ على سبيل التبشير والموعظةِ، وليس لإصْلاحِ ذاتِ البين، ودعا فيها إلى التأمُّلِ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٢) الكامل: ١/٥٨٨ ـ ٥٨٩، والعقد الفريد: ٥/٢٥٢، والمعارف: ٦٠٣.

(٣) في منزل الوحي: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

والاعْتبار فيما خَلَق الله، ولم يذكرْ تَفَاخُراً بالأصنام ولا خلافاً شَجَر بسببه. وكان الرسولُ عليه السلام يسمعُ الخطبةَ، فأعجبتْهُ، فقال بعدئذٍ: يرحمُ اللَّهُ قُسّاً، إني لأرجو أن يُبْعَثَ يومَ القيامة أُمَّةً وحدَهُ.

ثم استشهد بحرب الفِجَار الثاني بعُكاظ، وذكر أن شعراً كثيراً قيل فيها، كان يُذَاع في الناس، ولا يبتغي قائلوه الاحتكامَ إلى نُقَّادِ الشعر، بل الفخرَ والدعاية[1]. . . والحقيقة أن حرب الفجار الثاني لم تنشبْ بسبب مُنافسةٍ تجاريَّة بين التجَّار بعكاظ، وأن الشعرَ الذي قيل فيها لم يكن له علاقةٌ بعكاظ، فقد قيل والسوقُ مُعَطَّلة، ولم يدَّعِ أحدٌ أنه عُرِضَ على النقَّاد يومئذٍ والحربُ دائرةٌ، أو أن كلَّ شعرٍ قالته العربُ كانوا يحتكمون فيه إلى نُقَّادِ الشعر بعكاظ! فهذا كلُّه من تَوَهُّم الدكتور هيكل بعدما انتزع نفسَهُ من بيئتها، ونقلها إلى عصر الجاهلية. والغريبُ في مذهبه أن أخبار عكاظ، كما تَقَصَّيْناها وأحْصَيْناها، ليس فيها جمعاً خبرٌ واحدٌ، على الأقلّ، يُنْبِئُنا عن مُتَاجرةٍ أو مُبَادَلةَ مُعَيَّنَةٍ بين تاجِريْن، أو فريقَيْن تنافَسا في سلعةٍ أو مَتاعٍ، أو سُمِّيَ لنا إسمُ تاجرٍ نافَسَ آخَرَ، إلاما كان من أمر بعض الرقيق الذي بيع بعُكاظ! ومع ذلك فإنه يزعم أنّ ما رُوِيَ عن عكاظِ كلَّهُ مُتَّصِلٌ بالتجارة والتجَّار، وهذا غير صحيح قطعاً، وهو شَبيهٌ بقوله، من غير حُجَّةٍ أو سَنَدٍ: كان يُباح بعكاظ ما لم يكن يُباح بمجَنَّةٍ وذي المجاز من ألوان اللهو والمجُون، ومن ضُروب التجارة والتبادُل، لأن ذا القعدة الذي كانت عكاظُ تُعْقَدُ فيه لم يكن له من الحُرْمَةِ ما كان لذي الحجَّة[2]. . . وهذا قولٌ غير صحيح أيضاً، ولم يَقُلْ به أحدٌ من السَّلَفِ، ولا من الخَلَفِ. والمواسمُ

(١) في منزل الوحي: ٣٧٢.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

الثلاثةُ كانت سواءً في ضروب التجارة، وألوان اللهو، وحُرْمَةُ ذي القَعدة، كما أشرنا آنفاً، كحُرْمَةِ ذي الحجة، وقد سَمَّتِ العربُ المتحاربين بعُكاظٍ فُجَّاراً، لأنهم خرجوا على شِرْعةِ العرب في التحريم، وتقاتلوا في ذي القعدة، فَفَجَرُوا فيه.

صفوةُ القول في مذهب هيكل أنه قام على التوهُّم لا على الأَدِلَّة والأخبار المُسْنَدَةِ، وإلا فأين الإجماعُ الذي رأيناهُ على حكومة النابغة الذبياني بين الشعراء؟ وأين ما قيل عن مُعَلَّقَةِ عمرو بن كلثوم وسائرِ المُعَلَّقات؟ وأين ما قيل في المواسم من شعرٍ في أغراض مختلفةٍ، كالمُعَاظَمةِ في الحزن، والدفاع عن القبيلة، والتهاجي؟ وهل قال الأعشى قصيدته في مدح المحلَّق بعكاظ، لأسبابٍ تتعلَّقُ بالخصومات والحروب؟ . . . أو لأسبابٍ تتعلَّقُ بالتجارة؟ نحن لا نريد الذهابَ إلى أن كلَّ أشْعَارِ العرب أُنْشِدتْ بعكاظ، وذاعتْ بعدما تناولها النقَّادُ هنالك بالنَّقْد، ولكننا نؤكِّدُ أن عكاظاً صارت مَحْفلاً للشعراء والخطباء، من حيث كانت موسماً للتجارة والاجتماع، وهو ما أَثبتْناهُ بما عَرَضْناهُ من أخبار عكاظ، وما ناقشناه في الفصول السابقة من خصائصها. . . ونحن لا نريد الزَّعْم بأن الخطباءَ يَرِدُون عكاظاً، ليَتَبارَوْا في البلاغة والبيان، ولكننا نؤكد أنهم كانوا يحضرون مواسمَ عكاظ، بوَصْفِهم أشرافَ قومِهم وسادَتَهم ومُقَدَّميهم، فكانوا، إذا تكلَّموا في الناس داعينَ إلى الصَّلاح والهُدَىٰ، أو مُتَفاخِرينَ، يخطبون بلُغَةٍ أدبيَّةٍ مثاليَّةٍ، مُصْطَفاةٍ، مُنْتَقَاةٍ، ليفهمَ عنهم العربُ جميعاً ما يقولون، فكانوا بذلك يُسْهِمون في إزَالةِ التبايُنِ بين لهجات العرب، وفي الاقتراب من اللغة العربيَّة الموحَّدة. . . وأوضحُ مِثَالٍ على ذلك خطبةُ قُسِّ بنِ ساعدة، التي ذكرنا بعضَها، ثم دعوةُ النبيِّ الكريم قبائلَ العربِ، على اختلاف لهجاتها، إلى الإسلام، وغيرُ ذلك من الأَمثلة التي تَدْحَضُ مذهبَ

هيكل في التقليلِ من شأنِ عكاظ، وتميلُ بنا إلى القول بأن عكاظاً كانت، بالفعل، مَعْرِضاً للبلاغة «ومدرسةً بَدَوِيَّةً، يُلْقَى فيها الشعرُ والخُطَبُ، ويُنْقَدُ ذلك كلُّه، ويُهَذَّب»[1]، وهو ما جعل لها الأثَرَ الكبير في لغة العرب. وهنا يجب أن نُذَكِّر بقول ابن الكلبي: «كانت بعكاظ منابرُ في الجاهلية، يقوم عليها الخطيبُ بخُطْبتِهِ، وفَعالِه، وعَدِّ مآثِرِه، وأيَّامِ قومه من عامٍ إلى عامٍ...»[2]، وهو قولٌ نعتقدُ أنه دليلٌ كافٍ.



٢ ـ الغُلُوُّ في وَصْفِ عكاظ:

ولعلَّ خيرَ مَن يُمثِّل هذا الاتجاه الأستاذُ معروف الأرناؤوط[3]، في كتابه «سيِّد قريش»، وهو رواية تاريخيَّة اجتماعية، تبحثُ، كما أشار مُؤَلِّفها، عن حياة العرب السياسيَّة والاجتماعيَّة، في العصر الجاهلي، إلى ظهور الرسول عليه السلام. ومن شأن روايةٍ كهذه أن يلتزمَ كاتبُها بالوقائع التاريخيّة، التي أُسِّسَتْ عليها، وأن يُراعي الأمانةَ والدقَّةَ في نَقْلِها، أو في صياغتها. وليس من حقِّه أن يَجْمَحَ به الخيالُ، فيُسْرِفَ في التصرُّف بالوقائع، حتى يصيرَ فيها قاصّاً، أكثرَ منه راويَةً للتاريخ...

(١) عكاظ والمربد: ١٣/ ٢٣ (مجلة الرسالة ١٩٣٣ م).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٣) **معروف بن أحمد الأرناؤوط**: (١٨٩٣ ـ ١٩٤٨ م). كاتب صِحَافيٌّ، ألباني الأصل. ولد في بيروت، وكتب في بعض صُحُفها، ثم أصدر بدمشق جريدة «فتى العرب» نحو سنة (١٩١٨ م)، فاستمرَّتْ يوميَّةً حتى وفاته. وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. من كتُبه: سيد قريش في ثلاثة أجزء، وعمر بن الخطَّاب، وطارق بن زياد، وفاطمة البَتُول، وغيرها.

وقد خصَّ الكاتبُ سوقَ عكاظ بفصلٍ من كتابه، فوق ما قاله عنها في مواضِعَ أُخْرى من سائر الكتاب، فأسْرَفَ في وَصْف مَوْسم الشِعْر بها، حتى غَلَبه الخيالُ على ما أراده من بحث التاريخ والاجتماع في حياة العرب، وحتى شَطَّ به الوهمُ أحياناً عن المَحَجَّةِ، فمضى يُعَيِّنُ أيَّاماً، وأسباباً، وتفاصيلَ للحوادث، ليس لأحَدٍ عِلْمٌ بها، أو بشيءٍ منها، وليس في كتابه ما يُشير إلى سَنَدِه فيها! كقوله مثلاً:

«مَضَتْ أربعةُ شهورٍ على رجوع أبي سفيان بن حرب من الشام إلى مكة، فنحن الآن في اليوم الخامس من شهر أيلول سنةَ اثنتين وثمانين وخمسِ مئةٍ، وفي مكة، حيث أخذت وفودُ القبائل تتهافتُ من كل حدب وصَوْبٍ على الكعبة، للاجتماع حولها، ثم لإعْدادِ المعدَّات اللازمة لجعْلِ موسم الشعر في عكاظ، في هذا العام، موسماً حالِيَاً بالروعة والجَلال، وقد ضاعَفَ في تَشَوُّفِ الناس إلى هذا الموسم، وتَحمُّسِهم لتجميله وتَزْيينِه، ذلك الروحُ الجديدُ، الذي تملَّك القبائلَ بعد الانتصارات المتتالية، التي أحْرَزَها القُرشيُّون في مكة، والحِمْيريُّون في اليمن... وزَهْوٌ طغَى على النفوس لاشتراك اليمن والعراق ونَجْد والشام في موسم عكاظ، الذي اعتاد العربُ تجديدَهُ، وتَنْعِيشَهُ في كل عامٍ، لتكريم الشعراءِ النابِهين... وكانت الشَّحنَاءُ، القائمةُ بين الغَساسِنَةِ في الشام والمنَاذِرَة في العراق، العاملَ الأصليَّ في عُزُوفِ ملوك غَسَّانَ عن إيفاد مُمَثِّلِيهم إلى عكاظ، مع أن ملوك العراق أحاطوا هذه السوقَ برعايتهم وعنايتهم، ووضَعوا الجوائِزَ القيِّمةَ باسم الشعراء البارعين...»[1].

وذكر في موضع آخَر أن وَرَقة بنَ نوفل اعتلى المنبر بمكة في ذلك

---

(١) سيِّدُ قريش: ٢/ ٢٢ ـ ٢٣.

اليوم، «ودعا الناسَ إلى موسم عكاظ في صباح الغَد»، وأن أبا طالب أعْقَبَهُ في الكلام على موسم العام الجديد، فبَاهَىٰ العربَ بحماية قريشٍ مواسمَ عكاظ، و «قَدَّم لهم شعراءَ الموسم الحالي واحداً بعد واحد»[1].

ثم ذكر أن قبائل العرب خرجت من مكة إلى سوق عكاظ في اليوم التالي[2]، وأن عشرةَ آلافٍ من الفرسان المَسَاعِير خرجوا معهم إلى عكاظ[3]... وأن قريشاً أقامت في عكاظ قُبّةً من الأَدَم، جَلَّلتْها بغطاء من القماش الأخضر، وجَعلتْ على حراسة هذه القبَّة التي أُعِدَّتْ للنابغة الذبياني حرسَ شَرَفٍ من غسَّانَ ولَخْمٍ وقريشٍ وعبد شمس[4]...

ومن الواضح ما في هذه الأقوال جميعاً من غُلُوٍّ في الوصفِ، والخروج عن الحقائق التاريخيَّة! فمن أين للكاتب تعيينُ يوم الخامس من أيلول موعداً لانقضاء أربعة شهور على عودة أبي سفيان بقافلة قريش من الشام؟ ومن أين له تعيينُ ذلك اليوم لحجِّ العرب إلى الكعبة، وتعيينُ اليوم الذي يليه لقيام موسم عكاظ؟ وكيف تكون سنةُ (٥٨٢ م) موعداً لاحتفال قريش بارْتِدادِ الحبشة عن غزو الكعبة الَّذي كان سنة (٥٧٠ م)، وموعداً لاحتفال حِمْيَر بتحرير اليمن الَّذي كان سنة (٥٧٥ م)، وأَنَّىٰ يكون ذلك؟ ومن المُلاحَظِ أيضاً أنه جعل موعدَ عكاظ بعد موسم الحج، وإنما هو قبله، كما جَعَلَ مكانَ اجتماع الناس بمكة، بينما هو في الحقيقة بعُكاظ، يَقْدَمُونها من اليمن ونَجْد والطائف، وربما من العراق!... واخترع كذلك أمْرَ مقاطعةِ ملوكِ غسَّانَ مواسمَ عكاظ، وجَعلَهُ نتيجةً لِخلافِهم مع ملوك بني لخْم بالعراق، مثلما

---

(١) سيِّدُ قريش: ٢/٢٦ ـ ٢٧.
(٢) المرجع نفسه: ٢٧.
(٣) المرجع نفسه: ٣٠.
(٤) المرجع نفسه: ٣٢.

جَعلَ إدارةَ مواسم عكاظ بأيـدي ورقة بن نوفل وأبي طالب، وحمايتَها والقيامَ عليها بأيدي قريش! وهي أقوالٌ كلُّها بعيدةٌ من حقائق التاريخ، ولا يملكُ الروائيُّ أن يتصرَّفَ بها على هذا النحو من التحريف والغُلُوِّ، فيسيء إليها، وهو ما فعله معروف الأرناؤوط في روايته.

* * *

الفصل الخامس

تاريخ سوق عكاظ

المطلب الأول ـ البداية: بعض أخبار عكاظ يؤكد وجودها في القرن الثاني للميلاد.

المطلب الثاني ـ النهاية: ظل أمرها يتضاءل في الإسلام حتى انتُهِبت سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) ثم لم تعد تنعقد بعدها.

الخاتمة

الفصل الخامس

تاريخ عكاظ

المطلب الأول ـ البداية:

ليس من اليَسِير على المُحقِّق أن يُعيِّنَ السنةَ التي ابتدأتْ فيها مواسمُ عكاظ بالانعقاد. والأخبارُ التي يَصِحُّ التعويلُ عليها في هذا الموضوع، ليست في مُنْتَهى أمرها أكثَر من أَدِلَّةٍ على وجود عكاظ في أزمنة مُعَيَّنةٍ، لا في سنةٍ مُعيَّنة، مع تَفَاوتٍ كبير بينها فيما تدلُّ عليه من قِدَم عكاظ. وللباحثين في ذلك آراءٌ مختلفةٌ، أشْهَرُها قولُ الآلوسيّ: إنها «اتّخِذَتْ سوقاً بعد عام الفيل بخمسَ عشرةَ سنةً»[1]، أي نحو (٥٨٥ م)، إذ كانت واقعةُ الفيل سنة (٥٧٠/ ٥٧١ م)... وبينما عَدَّ الدكتور هيكل هذا التحديدَ أَدَقَّ ما رُوِيَ عن الزمنِ الذي بدأ العربُ يُقيمون فيه عكاظاً[2]، عَدَّهُ الدكتور أحمد أمين غيرَ صحيح، لأن معظم الحوادث المأثورة عن عكاظ، يرجعُ تاريخُها إلى ما قبلَ ذلك[3]، ورجَّح الأفغانيُّ إنشاءَ عكاظ قبل الهجرة (٦٢٣ م) بأكثر من سبعين عاماً[4]، أي نحو (٥٥٠ م)، ثم رجَعَ بزمنها في موضع آخر إلى ما قبل القرن السادس للميلاد[5].

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٧٠.

(٢) في منزل الوحي: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٣) عكاظ والمربد ـ مجلة الرسالة لسنة ١٩٣٣: ١٣/ ٢٥.

(٤) أسواق العرب: ٢٠٩.

(٥) المرجع نفسه: ٣٤٢.

وقد مرَّ بنا أن الفِجَار جملةُ وقائعَ، نشأت كلُّها في سوق عكاظ، وأن المؤرِّخين يُصَنِّفُونَها في فِجَارَيْن، **أوَّلُهما**: وهو السابق، قديمٌ مجهولُ التاريخ، كان في ثلاثة أيام مُتفرِّقةٍ على بضع سنين. **والثاني**: مُتأخِّر، كان في خمسة أيام، نشب سنة (٥٨٦ م)، وانتهى سنة (٥٩٠ م). وهذا من شأنه أن يُبطِلَ مذهبَ الآلوسيّ، لأنه يؤكِّدُ أن عكاظاً كانت قبل (٥٨٥ م). ومثلُه أيضاً خبرٌ نقله الأصفهانيُّ، ذكر فيه أن عَبْلة بنت عُبيد، من بني زيد مناة بن تميم، كانت زوجةً لرجُلٍ من بني جُشَم بن معاوية، من هوازن، فبعَثَها بأنْحَاءِ سَمْنٍ تبيعُها له بعكاظ، فباعَتِ السمنَ، وراحِلَتَيْنِ كان عليهما، وشربتْ بثمنها خمراً، فلما نفد ما معها، رَهَنَتِ ابنَ أخيه وهربتْ، فطلَّقها... فتزوَّجها بعده عبدُ شمسٍ بن عبد مناف (٤٧٠ ـ ٥٥٠ م)[١]، فولدتْ له بعضَ ولده[٢]. ومن الواضح أن هذا الخبر يرتفع بوجود السوق إلى زمنٍ أقْدَمَ من ذاك، ولعلَّه في أوائل القرن السادس. ويؤكد ذلك قولُ النابغة الجَعْدِيّ[٣]:

ولقد شَهِدْتُ عكاظَ قبل محلِّها ... فيهـا، وكنـتُ أُعَـدُّ فـي الفِتْيـانِ
والمنـذرَ بـنَ مُحـرِّقٍ فـي مُلْكِـهِ ... وشهـدتُ يـومَ هَجَـائـنِ النعمـانِ
فمـن يَـكُ سـائـلاً عنـي فـإنـي ... مـــن الشبَّـــانِ أيـــامَ الخُنَـــانِ

أي أنه كان ما يزال فتىً لمّا شَهِدَ عكاظاً، وحينما مَلَكَ الحيرةَ المنذرُ بنُ ماء السماء نحو سنة (٥٠٦ م)، وكان شابّاً كذلك أيامَ «الخُنَانِ»، وهو مرضٌ خطيرٌ وقع في عهد المنذر، ففتك بالناس والإبِل، فأرَّخُوا به إذ

---

(١) انظر جدولَ أنساب مضر بن نزار في كلامنا على مكة، في الفصل الرابع من الباب الثاني.
(٢) الأغاني: ١/ ١٩٩.
(٣) **النابغة الجعديّ**: قيس بن عبد الله، من بني جَعْدة، من عامر بن صعصعة. شاعر مفلق، من المعمَّرين، اشتُهر في الجاهلية، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل الإسلام.

عَدُّوه من الحوادث العِظام، وقال إنه عاش حتى أدرك زمنَ الملك النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م). ثم أدرك الإسلامَ، فأسلم، وكانت له صُحبة، وتُوفي نحو (٦٧٠ م) عن عمر طويلٍ، قيل إنه بَلَغَ مئة وثمانين سنة[١]، أي أن مولده كان نحو (٤٩٠ م)، وشُهودَه عكاظاً كان في أوائل القرن السادس، وربما منذ سنة (٥٠٥ م)، أيامَ حَدَاثَتِهِ.

على أنني كنتُ ذكرتُ في أخبار عكاظ مُنَافرةً بين «مَيَّادِ بن حنّ العُذْريّ»، ورجلٍ من اليمن في بعض المواسم[٢]، وأشرتُ إلى أن مَيَّاداً هذا كان يُعاصِرُ قَصيَّ بنَ كلاب (٤٠٠ ـ ٤٨٠ م)، وهذا يرتفعُ بزمن وجودالسوق إلى القرن الخامس... غير أن ذلك كلَّه لا يَدُلُّ دلالةً دقيقةً على تاريخ عكاظ، فحكايةُ الأمثال التي صَدَرتْ عن «ضَبَّة بن أَدّ» بعكاظ، بعد مقتل ابنه سعيد[٣]، تُشير بوضوح إلى أن هذه السوق كانت قائمةً قطعاً في القرن الثاني للميلاد... إذ أن «ضَبَّةَ بنَ أَدّ» هو عمُّ «تميم بن مُرِّ بن أَدٍّ»، وكانا في عصر واحدٍ. وهنا لا بُدَّ لي من التذكير بما حقَّقْتهُ في كلامي على عهد خزاعة في مكة[٤]، فقد انتهينا هنالك إلى أن عمرو بنَ لُحَيٍّ الخُزَاعيَّ هو أوَّلُ من عكف على تنظيم الشؤون العامَّة بمكة والحجاز ونَجْد، جَرْياً على خطته في النهوض بها، وترغيب سائر العرب في شُهُودِ مواسمها، سواء أكانت للحجِّ والعبادة، أو للتجارة والاجتماع واللهو. فعيَّنَ للمواسم وقتئذٍ أئمَّةً يُدِيرونَها، وكان منهم أئمَّةُ عكاظٍ وقُضاتُها. ولم تَرِدْ قبل ذلك أيَّةُ إشارةٍ إلى وجود

---

(١) الإصابة: ٣/٥٠٨/ت: ٨٦٤١، والمفصَّل: ٣/٢١٩ و٨/٥٢١، و٩/٨٤٧، ولسان العرب: ١٣/١٤٣ (خنن).

(٢) انظر الفقرة الرابعة في الفصل الثالث من هذا الباب.

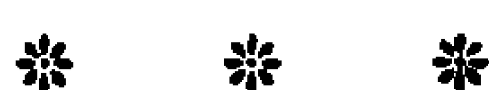
(٣) انظر الفقرة الأولى في الفصل نفسه.

(٤) انظر الفقرة الثالثة من المطلب التاسع في الفصل الرابع من الباب الثاني، في الجزء الأول.

عكاظ، فضلاً عن وجود أَئمَّةٍ وقُضاةٍ لها! وقد أَطْبَقَ أهلُ الأخبار على أن «سعدَ بنَ زيد مناة بنِ تميم» هو أوَّلُ من اجتمعت له الخصلتان معاً من بني تميم: إمامةُ الموسم، والقضاءُ بعُكاظ، ومعنى هذا أن إحداهما كانت في أبيه، والأُخرى كانت في عمِّه عمرو بن تميم، ثم صارتا بعدئذٍ إرثاً في أبنائهما. وفي ذلك يقول شاعرُ بني تميم، المخبَّلُ السعْدِيُّ[1]، مفتخراً بِجَدِّه سَعْد بن زيد مناة:

ليالِيُّ سعدٍ في عكاظَ يَسُوقُها ... له كلُّ شرقٍ من عُكاظَ ومَغْربِ[2]

مما يعني أن هذا الشأن من عكاظ كان في بني تميم، منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، وأن سوق عكاظ كانت موجودةً وقتئذٍ من غير شك، وذلك منذ بدأت تجارةُ القوافل تنتقلُ إلى مكة، بعدما سقطتِ البتراءُ سنة (١٠٦ م)، وتَلَتْها تدمرُ سنة (٢٧٢ م)، وكانت بين هذه وتلك ولايةُ خُزَاعَة شؤونَ مكةَ وما حولها، ثم نهضةُ الحجاز بمواسمه وقوافله على طرُق التجارة الدوليَّة.



المطلب الثاني ـ النهايــة:

ظلَّت سوقُ عكاظ تقومُ في الإسلام، فعاصَرتْ ظهورهُ، وشَهِدَتْ دعوةَ الناس إلى الإيمان به، وكانت وقتئذٍ مُزْدَهِرةً. ثم أخذ شأنُها يَضْعفُ منذ هاجرَ المسلمونَ من مكة إلى المدينة، لما كان بينهم وبين المشركين بعد

---

(١) المخبَّل السعدي: شاعر مُعمَّر من مُخَضْرمي الجاهلية والإسلام، توفي غالباً في خلافة عمر، بعدما أَسَنَّ وضَعُف. وهو: الربيع بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عوف بن قتال بن جعفر أنف الناقة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد. فإذا قدرنا وجود المخبَّل بين (٥١٠ ـ ٦٤٠ م)، كان سَعْدٌ من أبناء القرن الثاني.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧.

ذلك من وقائِعَ وغزوات، عَوَّرتْ على أهل الحجاز ونَجْدٍ متاجِرَهم، وأفْسَدَتْ طُرُقَهم، وهدَّدَتْ قوافِلَهم بالاستلاب.

ولمّا كانت الفُتوح، انْقَلَبَ العربُ غُزَاةً فاتحين، فانصرفوا عن التجارة، وتضاءَلَ شأنُ أسواقهم، إذ كان في الفُتوح ما شَغَلَهم عنها، وكان لهم في أسواق الشام والعراق ومصر وإيران ما سَدَّ حاجاتهم إلى سِلَعِ التجارة وعُروضِها. وكان لهم في القرآن الكريم شاغِلٌ بعُلوم الدِين، وأحكام الشريعة، عن شؤون الشعر والأدب.

وكان العربُ في الجاهلية يتَأَثَّمُون من الجمع بين الحجِّ والتجارة، فكانوا يُتَاجِرُون في مواسم عكاظ ومجنَّة وذي المجاز قبل حُلول موسم الحجِّ، فلما كان الإسلام، أباح لهم التجارةَ في موسم الحج، فاسْتَغْنى كثير من التجار عن شهود مواسم عكاظ، ولا سيما بعد انصرافِ كِبَارِ الناس وأشْرافهم عنها إلى قيادة الجيوش، وإدارة معارك الفُتوح. وهذا كلُّه كان عاملاً كبيراً على تضاؤل شأن عكاظ.

ويأتي فوق ذلك عاملٌ كان من أكبر الأسباب في انحطاط عكاظ، وإهْمالِ أمرها، بعدما أُطْلِقَتِ الشهورُ القمريَّةُ من عِقَالها، في حجَّة الوداع (١٠ هـ = ٦٣٢ م)، فصارت الشهورُ والمواسمُ تدور في الفصول الأربعة، وكان العربُ يعملون قبل ذلك على تَثْبيتها، لتظلَّ مواسمُهم ثابتةً في مواقيتها المُعَيَّنةِ لها من السنة الشمسيَّة. فلمَّا جعلتِ الشهورُ تدور، فَقَدَ موسمُ عكاظ ثباتَ مَوْعدِه، ففقَدَ بذلك ركناً رئيساً في أساس وجوده واستمراره. فالمواسمُ إنما سُمِّيت بذلك لأنها وسِمَتْ بوقتٍ، يجب أن يظلَّ ثابتاً، لأنه قائمٌ في الأصل على أحوال ثابتةٍ في الزراعة، والتجارة، والغَلَّاتِ، والنِتَاجِ، ووفاء الديون، وما إلى ذلك.

وهكذا تضاءل أمرُ عكاظ، وخَمَلَ ذِكْرُها، ولكنها لم تزل قائمةً، على

ضَعفها، حتى ثارت بمكة طائفةٌ من الخوارج سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) وكان على رأسهم المختارُ بن عَوْف[١]، فانتَهبوها، فخاف الناسُ بعدها على أموالهم وأَنْفُسِهم، فلم يعودوا إليها، فتُرِكَت حتى الآن، ثم تُركتْ مَجَنَّة وذو المجاز بعد ذلك، واسْتُغْنِيَ عنها جميعاً بالأسواق في مكة ومِنى وعرَفة[٢]. وانطوىٰ بذلك سِجلٌّ مُشْرقٌ لحضارة العرب في الجاهلية، ظلَّ مَنْشُوراً نحو خمسة قرون، كان له فيها أعظمُ الآثار في حياة العرب الاجتماعيّة، والأدبيَّة، والسياسيَّة، وفي تَقْرِيبهم من الوحدة القوميَّة، وبُلوغِهم اللغةَ الأدبيَّةَ الموحَّدةَ، التي كان لها الفضلُ فيما وصل إلينا من أَدَبِ الجاهلية في الشعر والخطابة والأمثال والمواعظ وغيرها. وكان من حقٍّ عكاظٍ على أصحاب الأمر فيها اليومَ، أن يَبْعَثُوها من جديد، ويُقيموا مواسمَها على الأرض التي كانت تقومُ فيها، وعلى النحو الذي كان أجدادُنا يَنْحُونَه في إقامتها عند إدْبارِ الصيف وإقْبالِ الخريف، فذلك كان ميقاتَ موسمها، ثم في اتخاذِها مَعْرِضاً اقتصادياً، ومَحْفِلاً اجتماعيّاً، ومَجْمَعاً لُغَويّاً وعِلْمياً، لعلها ترجعُ مُجدَّداً، فتصبح مُلْتَقَى العلماء والشعراء والأُدَباء، وقُطْبَ الدائرة الفِكريَّة في بلاد العرب.



(١) **المختار بنُ عوف الأَزْديُّ**: أبو حمزة، وُلد بالبصرة، وأخذ بمذهب الخوارج الإبَاضِيَّة، وكان في كل سنة يُوافي مكة يدعو الناس إلى الخروج على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، حتى كانت سنة (١٢٩ هـ) فقام بفريق من الخوارج واستولى عليها، وتبعه جمعٌ من أهلها. قُتِل سنة (١٣٠ هـ).

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

الخـاتمـة:

أمَّا بعدُ، فقد كان من طبائع الأمور إذن، كلما ذُكرت أسواقُ العرب في الجاهليَّة، أو كلما ذُكر مَجمَعٌ للناس عامٌّ، أن تكون سوقُ عكاظ أوَّلَ ما يأتي في الخاطِر، وأوَّلَ ما ينطق به اللسانُ، فكأن اسمها صار عَلَماً على كلِّ مَجْمعٍ، ورمزاً لكلِّ نشاطٍ يتَّصلُ بما كان يجري في عكاظ من قريبٍ أو من بعيد... وما من شيءٍ ذُكر في كُتب التاريخ والأدب والأخبار مثلما ذُكرت عكاظ، ومع أن سُوقَيْ مَجنَّة وذي المجاز اتَّصل مَوْسِماهما بموسم عكاظ في نَسَقٍ زَمَنيّ واحد، فإنهما لا تُذكران إلا عند الكلام على مواسم الحجِّ وشعائره، فكأنهما كانتا أكثرَ اتصالاً بمواسم عَرَفَة ومِنىً والكعبة منهما بموسم عكاظ، غير أن التجارة فيهما كانت مُباحةً، وفي مِنىً وعَرَفَةَ كانت مَحْظُورةً.

وإني أعتقد أن ما قدَّمتُهُ في كلامي على عكاظ، قد استوفيتُ فيه كلَّ ما يجب على الباحث الصادق، في مثل هذا الموضوع الخطير، أن يستوفيه، وما كان حُلماً فيما أَشْكَلَ أو خَفِيَ من أمور عكاظ، جعلتُه بالبحث والتحقيق والاستقراء حقيقةً وعِلْماً.. فقد كشفتُ عن خصائص هذه السوق، وعيَّنْتُ موقعها، وبيَّنْتُ طبيعةَ موضعها، وذكرتُ أصحابَها، وولاةَ القضاءِ فيها، وزمانَها، وأفَضْتُ في الحديث عن مجامع العرب فيها، ومنابرها، ومحافل الشعراء والخطباء بها، ووصفتُ منازلَ القبائل وعدَّدت النزلاء وأشياءَ أُخرى كثيرة، ولعلِّي فيما بذلتُ من الجهد قد أصَبْتُ ما أصبو إليه من النجاح.



الفصل السادس

موسمُ سوقِ مجنّة

مقـدمـــة:

ذكر الأزرقيُّ أن العرب كانوا، كلما أَهَلَّتْ شهور الحجِّ، وهي شوَّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة، يخرجون إلى مواسمهم في عكاظ ومجنّة وذي المجاز وعَرَفَة ومِنىً، فهذه مواسمُ الحجّ... وكانوا يقولون: لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز إلا مُحْرِمين بالحجّ[1].

وكنا أَفَضْنا في الحديث عن موسم سوق عكاظ، ونتحدَّثُ هنا عن موسم مجنَّة، مَوْقِعها وميقاتها وما أُثِرَ من وقائعها.

١ ـ موقع السوق وأصحابها:

ذكر الأزرقيُّ أن «مَجنَّة» سوقٌ بأسْفَل مكة، على بريدٍ منها... أي على نحو اثْنَيْ عَشَر ميلاً إلى الشمال من مكة. وأنها سوقٌ لبني كنانة، وأرضُها من أَرْضِهم[2]. وهي التي يقولُ فيها الأصمعيُّ إنها كانت بِمَرِّ الظَّهْران، قُربَ جبلٍ يُسمَّىٰ: الأَصْفَرَ، وهو في شمال مكة على قَدْر بريدٍ منها، وكانت لبني الدُّئِل بن بكر خاصَّةً، من بني كنانة بن خزيمة. وذكر ياقوت أن «مَرَّ الظهران»

(١) أخبار مكة: ١/١٨٧، ١٨٩، ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه: ١/١٩٠.

موضعٌ على مرحلةٍ من مكة (٢٤ ميلاً)، به عُيونٌ كثيرةٌ، ونخلٌ، وجُمَّيْزٌ، وسوقُ مَجنَّةَ كانت تقوم في قرية مَرٍّ بوادي الظهران، بجَنْبِ «طَفِيل» وهو جبلٌ مُشْرِفٌ على مجنَّة[١]. وإيَّاهُ كان بِلالٌ الحبشيُّ يريدُ فيما كان يتمثَّلُ به من قول الشاعر، شوقاً إلى مجنَّةٍ، وطيِب هوائها، ولذَّة مياهها:

ألا ليت شعري هل أبِيتَنَّ ليلةً ... بفَخٍّ وحولي إذْخِرٌ وجَليلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مِيَاهَ مَجنَّةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيلُ[٢]

فكان النبيُّ عليه السلام إذا سمع ذلك يقول: اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبِّنا مكَّةَ أو أشَدَّ، وصَحِّحْها وباركْ لنا في صاعها ومدِّها[٣]. وهذا دليلٌ على حُسْنِ موقعها، وهو ما لعلَّه يتبيَّنُ من تقليب بعض معاني إسمها، فكأنها سُمِّيت بذلك لشيءٍ فيها يتصل بالجَنَّة، أي البستان، أو يتَّصلُ بالمُجون لما كان بها منه[٤].

٢ ـ موسمُ السوق:

كانت العربُ، إذا مضتْ عشرون يوماً من أوَّلِ ذي القعدة، انصرفوا عن سوق عكاظ إلى سوق مجنَّة، فأقاموا بها الأيامَ العشرةَ الأخيرة من

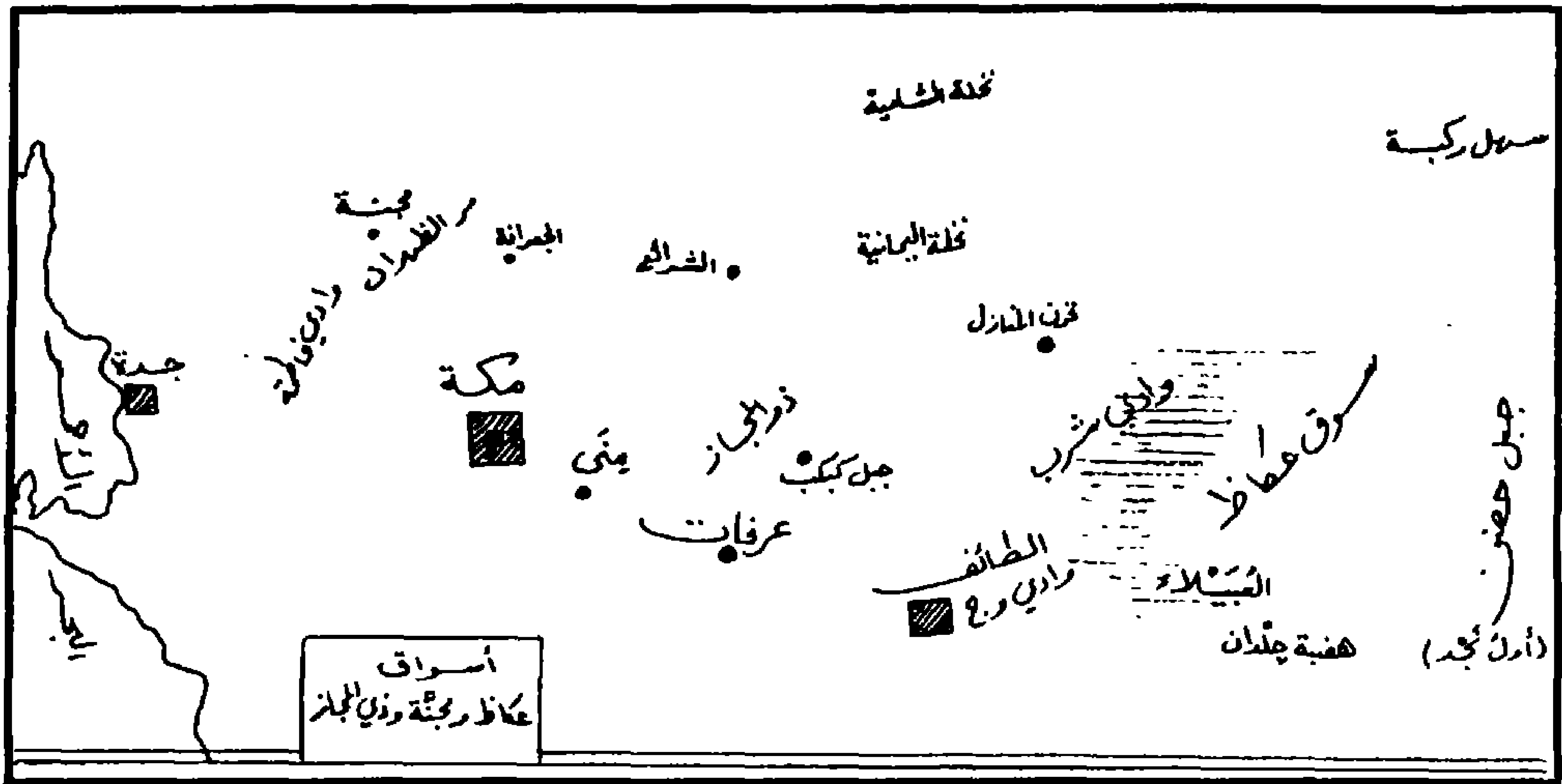
---

(١) معجم البلدان: ٥/٥٨ ـ ٥٩، و ٥/١٠٤، وأسماء جبال تهامة: ٤٦، والكامل: ١/ ٥٩٠، وتاريخ الطبري: ٣/ ٩٤.

(٢) فَخٌّ: وادي الزاهر بمكة. الإِذْخِرُ: حشيشٌ طيب الرائحة، يُسقف به البيوت فوق الخشب، له ثَمرٌ يُطحن ويُدخل في الطيب. ينبت في الحُزون والسهول. شامَةٌ وطفيل: جبلان مشرفان على مجنَّة.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٠/٣١٩ ـ ٣٢٠ (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق)، وأخبار مكة: ١/ ١٩١، ومعجم البلدان: ٥/٥٩ و ٣/ ٣١٥.

(٤) لسان العرب: ١٣/ ١٠٠ (جنن)، ومعجم البلدان: ٥/٥٨.



الشهر[1]، أسواقُهم قائمةٌ للبيع والشراء والمُبادَلاتِ المختلفة. فكان مَنْ فاتَهُ شُهودُ موسم عكاظ، أو شَهِدَها وفاتَهُ غَرَضٌ فيها، يَسْتوفيه في موسم مَجنَّة، ومَنْ بَقِيَ عنده فَضْلٌ من عُروض التجارة عَرَضَهُ للبيع فيها، ومَن كان له أسِيرٌ لم يُسْعِفْهُ الحظُّ في العثور عليه بعُكاظ، سعَىٰ إلى مَجنَّةٍ يبحثُ عنه، لعلَّهُ يعثرُ عليه عند أحدٍ من قبائل العرب فيُفَادِيه.

ومما لا ريْبَ فيه أنه كان في هذه السوق مثلُ ما كان بعكاظٍ، أو مُعْظَمُه، من الأنْشَطةِ التجاريّة والاجتماعيّة والأدبيَّة، فكأنَّ موسمَها كان استمراراً لموسم عكاظ، ولكن مَوْضعَها أقربُ إلى مناسك الحجِّ من عكاظ، وأصحابَها من بني كنانة، وأرضَها من بعض أَرْضِهم، بينما أصحابُ عكاظ من بني هوازن، وأرضُها لهم... وربما كان ذلك مقصوداً، ليَعمَّ النفعُ مختلفَ قبائل العرب، ولا سيما أن موسم مَجنَّة كان يقعُ وقتئذٍ في زمن الخرِيف، فكانوا يَتَربَّعُونَ في موضعها، يَنْهلون من مياهها، ويَجْنُون من ثمارها. وقد علمنا من شعرٍ لأبي ذُؤيْب الهُذَليّ، أن الخمر كانت تُجلبُ

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٧.

إليها من بُصْرَى وغزَّة، وذلك حيث قال[1]:

سُـــلافَـــةُ راحٍ ضُمِّنَتْهـــا إداوَةٌ مُقَيَّـرَةٌ رِدْفٌ لمـؤخَـرةِ الـرَّحْـلِ[2]
تَـزَوَّدَهـا مـن أهـلِ بُصْـرى وغَـزَّةٍ على جَسْرةٍ مرفوعةِ الذَّيْلِ والكِفْلِ[3]
فَـوَافَـىٰ بهـا عُسْفَـانَ، ثـم أتـى بهـا مَجَنَّةَ تَصْفُو في القِلالِ ولا تَغْلي[4]

وكان شُعراءُ العربِ اعْتَادوا أن يَصِفُوا الخمرَ، ويُشِيدوا بذكرِها، ويُعيِّنُوا مواضِعَ صُنْعِها وَوُرودِها.

وأخيراً نُشِيرُ إلى أن سوق مجنَّة كانت، على شاكلة عكاظ، منطقةً حُرَّةً، مُعْفَاةً متاجِرُها من الضرائب أو العُشُور، لأنها واقعةٌ في إطار مناسك الحجّ، ولأن موسمها يقوم في شهرٍ حرام، وليست في حَوْزَةِ مَلِكٍ يستبدُّ بمقاليد الأمور فيها. أمَّا القضاء بين الناس فيها، فأعتقدُ أنه كان من شأن حُكَّام بني كنانة، وسائرِ مَن كانت العربُ تَرتضي حكومتهم من القضاة.

* * *

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٩.
(٢) سُلافَةُ الراح: ما سال وتَحلَّبَ قبل العصر، وهو أفضلُ الخمر. الإداوةُ المُقَيَّرة: إناءٌ من الجلد، مَطْليٌ بالقار حفظاً للخمر أن يُصيبها مكروه. الردْفُ: الراكبُ خلفَ الراكِبِ، وكلُّ ما تبع شيئاً فهو رِدْفُه. الرَّحْل: مركبٌ يُجعل على الناقة.
(٣) الجَسْرَةُ المرفوعةُ الذَّيْلِ: الناقةُ العظيمةُ. الكِفْل: ما يحفظُ الراكبَ من خَلْفِه، وهو شيءٌ كالحبل يُجْعل على سنام البعير لحفظ الراكب والرَّحْل.
(٤) القِلاَلُ: جمع قلّة وهي الجَرَّةُ العظيمةُ. وقولُه: لا تَغْلي أي لا تَجيشُ بقُوَّةِ الحرارة.

الفصلُ السابع

موسم سوق ذي المجاز

١ ـ موقع السوق وأصحابها:

يقعُ ذو المجاز عن يمين الموقف من عَرَفَة، على ثلاثة أميال منها، في موضع قريبٍ من كَبْكَب، على ماءٍ ينبعُ من أصله. وكَبْكَبُ هو الجبلُ الذي يجعله الواقفُ بعَرَفَة خلفَ ظهره[(١)]. وهو سوقٌ لبني هُذَيْل بن مُدْرِكة[(٢)]، وقد أكثر شعراؤهم من ذكره في قصائدهم، لأنه أعظمُ مواسمهم.

ولستُ أدري إن كان صحيحاً ما تَفَرَّدَ به ابنُ الأثير، عندما عيَّن موقعَ ذي المجاز بقوله: «كان ذو المجاز بالجانب الأَيْسَرِ، إذا وَقَفْتَ على الموقفِ» بِعَرَفَة[(٣)].

٢ ـ موسم السوق:

كان العربُ إذا رأوا هلالَ ذي الحجَّة انصرفوا عن سوق مَجنَّة إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمان ليالٍ[(٤)]، أسواقُهم قائمةٌ للبيع والشراء وسائر

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩١، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٥ و ٥/ ٢٦٥.

(٢) هُذَيْلُ بن مدركة بن الياس، وهو عمُّ كنانة بن خزيمة بن مدركة، وكان بنو هُذَيْل أشعرَ العرب حَيّاً، وأشعرَ هُذَيْل أبو ذؤيب.

(٣) الكامل: ١/ ٥٩٠.

(٤) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، والمحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

الأغراض الاجتماعية والأدبيّة، فكان يجري في هذا الموسم ما كان يجري في مجنَّة وعكاظ ومُعْظَم المواسِم الكبرى. بل كان يجتمع فيه أكبرُ حَفْلٍ من قبائل العرب، تَفِدُ إليه من اليمن وحضرموت وعُمَان والبحرين ونَجْد والحجاز وتهامة والعروض، وبلاد الشام والعراق. . . ذلك أن موسمَ ذي المجاز كان آخر مواسم الحجّ التي يَحلُّ لهم فيها الجمعُ بين التجارة والنُّسكِ، ثم يمتنعون من التجارة في عَرَفَة ومِنًى بعد انقضاء موسم ذي المجاز.

٣ ـ من وقائع مواسم ذي المجاز:

وقد أُثِرَتْ وقائعُ كثيرةٌ ممّا كان يجري في ذي المجاز أيّامَ انعقاد موسمه، فأحْصَينا جُملةً منها تُشير إلى بعض أنْشِطَة العرب فيه.

● **الدعوة إلى الإسلام:**

ذكر ابنُ كثير في روايةٍ مُسْنَدةٍ، نقلها عن الإمام أحمد، أن رسول الله ﷺ كان في الجاهلية يسيرُ في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناسُ، قولوا لا إلَه إلا الله تفلحوا»، والناسُ مجتمعون عليه، ووراءَهُ رجُلٌ وَضيءُ الوجه، أحْوَلُ، ذو غَديرتَيْن، يقول: إنه صابىءٌ كاذبٌ، وكان هذا الرجلُ عمَّه أبا لهب. . .

وذكر في روايةٍ أخرى أنه كان، عليه السلامُ، في سوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله. . . وأنه كان في مقتبل الدعوة يعرضُ نفسَه على قبائل العرب في كل موسم، ويسأل أشرافَهم أن يُؤْوُوهُ ويَمْنَعُوه، ويقول: «لا أُكْرِهُ أحداً منكم على شيء، مَن رضيَ منكم بالذي أدعوهُ إليه فذلك، ومَن كَرِه لم أُكْرِهْهُ، إنما أريد أن تُحْرِزوني فيما يُراد لي من القتل،

حتى أُبَلِّغَ رسالةَ ربّي، وحتى يقضي اللّهُ لي ولمن صَحِبَني بما شاء»[1].

وذكر البلاذريُّ أن شيخاً من بني كنانة رأى رسولَ الله بسوق ذي المجاز، في بُرْدَيْن أحمريْن، مَرْبُوعاً، حَسَنَ الوجهِ، شديدَ سواد الشَّعْر، سابِغَهُ، شديد البياض[2]. وقد ذكر ابنُ سعد هذه الرواية أيضاً[3]، ونقل عن رجُلٍ من قوم طارق بن عبد الله قوله:

«إني بسوق ذي المجاز إذ مرَّ عليَّ رجُلٌ شابٌّ، عليه جُبَّةٌ من بُرْدٍ أحمر، وهو يقول: يا أيها الناسُ قولوا لا إلَه إلا الله تفلحوا... ورجُلٌ خَلْفَه يرميه، قد أدْمَىٰ عرقوبَيْه وساقَيْه، يقول: إنه كذَّابٌ فلا تُطيعوه! فقلتُ: من هذا؟ قالوا: غلامٌ من بني هاشم يزعم أنه رسولُ الله، وهذا عَمُّه عبد العُزَّى»[4].

ولقيَ النبيُّ بسوق ذي المجاز سُوَيْدَ بنَ الصَّامت الخَزْرَجيَّ، وكان قومُه يُسَمُّونه «الكامل»، فدعاهُ إلى الإسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن، فاسْتَحسنه، ثم انصرف عائداً إلى المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرجُ، وكان ذلك قبل الهجرة[5]... وبسُوق ذي المجاز أيضاً لقيَ رسولُ الله قيسَ بنَ الخطيمَ[6]، فدعاه إلى الإسلام[7]، فتريَّث في قُبوله، فقُتل قبل أن يُسْلم.

* * *

(١) البداية والنهاية: ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٨.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٣٩٦.
(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٤٣٣.
(٤) المرجع نفسه: ٦/ ٤٢.
(٥) الأعلام: ٣/ ١٤٥.
(٦) قيس بن الخطيم بن عديّ: من شعراء يثرب في الجاهلية، وأحَدُ صَنَاديد الأَوْس، له ديوان شعر جيّد، ذكر فيه أيامَهم، ووصَفَ النساءَ والحربَ، وحياةَ البُدَاةِ والمتحضّرين.
(٧) الطبقات الكبرى: ٨/ ٣٢٣.

● **طلاب الثأر:**

وكثيراً ما كان طُلَّاب الثأر يُؤخَذون بثورة الانتقام في المواسم، فإذا رأَوْا واتِراً لهم عاجَلوهُ بالقتل، قبل أن ينقضيَ الموسم، ويفلتَ منهم.

ومن ذلك ثأرُ «قَيْس بن الخَطيم» من قاتل جَدِّه بذي المجاز. . . وكان رجلٌ من بني عبد القيس، من أهل هَجَر البحرين، اغتال الخَطِيمَ فقتله، وقيسٌ يومئذٍ صغير، وكان عديٌّ أبو الخَطيم قُتِل قبله أيضاً، فلما بلغ قيسُ بنُ الخطيم مبلغَ الشباب، وعرف أخبارَ قومِهِ، وموضعَ ثأرِهِ، لم يَزَلْ يلتمسُ غِرَّةً من قاتل أبيه وقاتل جَدِّهِ حتى ظفر بالأوَّل في يثربَ فقتله، ثم ظفر بالثاني في موسم ذي المجاز واقفاً على راحلته بالسوق، فعاجَلَهُ بطعنةٍ من حَرْبَتِهِ فقتَلَهُ، وقال:

ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخَطيمَ فلم أُضِعْ ... وِلايـةَ أشْيَـاخٍ جُعِلْـتُ إزاءَهـا[1]

* * *

ومثل ذلك أيضاً ما فعله هشامُ بن الوليد بن المغيرة المخزوميُّ، عندما وَجَدَ أبا أُزَيْهِر الدَّوْسيَّ قاعداً في مقعد أبي سفيان بن حرب بذي المجاز، فعَاجَلَهُ بضربةٍ على رأسه[2]. . . وكان لأبي أُزَيْهر ثلاثُ بنات، زوَّج الأولى من أبي سفيان، وزَوَّجَ الثانية من عُتْبة بن ربيعة، وزوَّج الثالثة من الوليد بن المغيرة والدِ هشام، ولكنه أَمْسَكها عنه، ولم يُهْدِها إليه! وكادت أن تقوم فتنةٌ يومئذٍ بسبب ذلك، ولكن أبا سفيان استطاع إخمادَها بحِلْمه وأَنَاتِهِ. وفي هذه الواقعة قال جَعْدةُ بن عبد الله بن عبد العُزَّى:

لا أرى في الأَنَامِ مثلَ هشام ... أبـداً مـن مُسَـوَّدٍ ومَسُـودِ

---

(١) الأغاني: ٣/ ٤، والأعلام: ٥/ ٢٠٥.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٥.

يـوم ألقَـى أبـا أُزَيْهِـرَ غَضْبـاً لم يكن عند ذاك بالمحْدُودِ
ثم وَلَّى بذي المجازِ كريماً غير ما طائشٍ ولا رِعْديدِ[1]

● **الرقيق في ذي المجاز:**

كان أبو يزيد عُبَيْد السُّلَميُّ لحقه سِباءٌ وهو صبيٌّ، فبِيعَ بسوق ذي المجاز في الجاهلية، فابتاعه رجلٌ من بني سعد بن بكر بن هوازن، فأقام عنده زماناً طويلاً، يَرْعَىٰ له إبِلَهُ، ثم إن عُبيداً ضرب ضِرْعَ ناقةٍ لمولاهُ، فأدْماهُ، فلَطَم وجهه، فخرج عبيدٌ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مُسْتعدِياً، فلما قدم عليه، قال: أنا رجلٌ من بني سُلَيم، أصابني سباءٌ في الجاهلية، كما يُصيبُ العرب بعضها من بعض، وأنا معروفُ النَّسَب، وقد كان رجلٌ من بني سعد ابتاعني، فأساء إليَّ، وضرب وجهي، وقد بلغني أنه **لا سباء على عربيّ في الإسلام**... فما كاد يَفْرَغ من كلامه، حتى وَصَل مولاهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا غلامٌ ابتعتُه بذي المجاز، وقد كان يقوم في مالي، فأسَاءَ، فضربتُه ضربةً واللّهِ ما أعْلَمُني ضربتُه غيرها قط، وإن الرجُلَ ليضرب ابنَهُ أشدَّ منها، فكيف بعبده؟ وأنا أُشْهِدُكَ أنه حُرٌّ لوجه الله! فقال عمر لعُبَيد: قد امْتَنَّ هذا الرجلُ عليك، وقطع عنك مؤونةَ البَيِّنَةِ، فإن أحْبَبتَ فأقمْ عنده، وإن أحْبَبتَ فالْحَقْ بقومك... فاختار الرجلُ الإقامة معه، وانتسب هو وولدُه إلى بني سعد... ويُذكر أن يزيد بن عُبيد هو المعروف بأبي وَجْزَة[2].

ويُقال: إن عمر بن الخطاب اشترى خادمه «أسلم» من سوق ذي المجاز، وكان أَسْلَمُ هذا حبشيّاً أسود[3]. ومنه نفهمُ أن الرقيقَ كان من

---

(1) أنساب الأشراف: ١/١٣٦.

(2) الأغاني: ١٢/٢٤٠.

(3) أسواق العرب: ٣٥٢.

العُروض التجاريَّة الرائجة في موسم ذي المجاز.

● **حلف ذي المجاز:**

كان عَقْدُ الحِلْفِ، أو إعلانُهُ، أو حِفظُه في المجامع والمواسم المقدَّسة يُضْفي على الحِلْفِ صفةَ القداسَةِ والإلْزام. وقد اشتُهِر من ذلك «حلفُ ذي المجاز»، الذي أصْلح فيه ملكُ الحيرة عمرو بنُ هند، بين بني تَغْلبِ وبكرِ بن وائل، وأخذ عليهم العُهودَ والمواثيق والرُّهُنَ ضماناً لوفائهم به. وإلى هذا الحلف أشار الحارثُ بن حِلِّزَة اليشكريُّ بقوله:

واذْكروا حلفَ ذي المجاز وما قُـدِّم فيـه العهـودُ والكُفَـلاءُ[1]

وهذا الخبرُ يُشير بوضوح إلى خَطَر ذي المجاز، وإلى أنه كان مجمعاً عامّاً من مجامع العرب يقصده أهلُ الحيرة وقبائلُ العرب الأخرى على اختلافها، وأنه كان موضعاً مُقدَّساً يُجِلُّه العربُ على تبايُن مُعْتَقداتهم، ويأتيه الملوكُ.



وأخيراً نقولُ في ذي المجاز ما قلناه في مَجنَّة وعكاظ من أن المتاجر فيه كانت مُعْفاةً من العُشُور أو الضرائب، لأنه مشمولٌ بحرمة ذي الحجَّة ومواسم الحجِّ، ولم يكن في حَوْزَةِ ملك يستبدُّ به. وكان اليومُ الثامنُ، وهو الأخيرُ، من موسمه يُسمَّىٰ يوم التَّرْوِيَة، لأنهم كانوا يَتَروَّونَ فيه من الماء بذي المجاز قبل انتقالهم إلى عَرَفَة[2].

---

(١) شرح القصائد السبع: ٤٧٨.

(٢) أخبار مكة: ١/١٨٨.

الفصل الثامن

موسم الحج إلى الكعبة

- مقدمة - كان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة
- مناسك الحج كما كانت في الجاهلية - الحُمْسُ - الحلّة
- موسمُ الحجِّ في الإسلام فريضةٌ من أركانه
- زمنُ موسم الحجِّ
- أخبار الشعراء في موسم الحجِّ: المعلقات أو المذهبات، أَخَذَ الشعرُ أشكالاً جديدة بعد ظهور الإسلام، مجالس الشعر والغناء.

عمر بن أبي ربيعة، عائشة بنت طلحة، عمر وعائشة في الطواف، عائشة وسكينة في الحجِّ، عمر والوليد بن عبد الملك، عمر في مِنَى، عائشة والحارث المخزومي، ليت الحجَّ كان كل يومين، عمر والنَّوار، سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف، عمر يزوج محبين، طائفة بالبيت تنشد غزلاً. بكاء عاشقة في المزدلفة. لقاء كُثَيِّر وعَزَّة في موسم الحجِّ، أشعر من قال في مشاعر الحج. مجنون ليلى في موسم الحجِّ. أخبار مختلفة.

- تعقيب على أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

الفصلُ الثامن

موسمُ الحجِّ إلى الكعبة

كانت ما تزال في العرب بقيّةٌ من الشعائر الدينيّة يتمسّكون بها في عصر الجاهلية، ورثوها عن الحنيفيّةِ دينِ أبيهِمُ إبراهيمَ ثم إسْماعيلَ. ولعلَّ أبرزَها إطباقُهم على تعظيم بيت الله الحرام بمكة، مع ما صاروا إليه من الوثنيّةِ، والشِّرْكِ، وعبادةِ الأصنام،فكان في مكة، حول الكعبة وفي جوفها، ثلاثُ مئة وستون صنماً، تُمثِّل جملة ما كانت قبائلُ العرب تَتَعبَّدُ له، أو تَتَقرَّبُ به إلى الله زُلْفَى[1]. وقد ذكر ابنُ حبيب أنهم كانوا يحجُّون إلى البيت، ويعتمرون، ويطوفون بالكعبة أسبوعاً، أي سبعَ مرّات، ويمسَحُون الحجرَ الأسود، ويَسْعَوْن بين الصفا والمروة، وكانوا يُلَبُّون، إلا أن مُعْظَمهم كان يُشْرِكُ في تَلْبيتِهِ، وكانت لكل قبيلة تلبيةٌ تتوجَّهُ بها إلى صنمها، وكانوا يُهْدون الهَدْيَ، ويَرْمُونَ الجِمَارَ[2]. وكانوا يُحْرِمُون بالحجّ، ويعرفون المَنَارَ القديمةَ[3]، التي ضَرَبها إبراهيمُ الخليلُ على حُدود الحَرَم المكّيّ، ويعلمون أن ما دون المنار إلى مكة من الحرَم، وما وراءها من الحِلّ، وقد أقرَّ الرسولُ عليه السلامُ العربَ على ما عرفوه من ذلك. أمّا مواقيتُ الإحرام التي يُهَلُّ

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٢١، السيرة النبوية للندوي: ٦٧، ٨٣، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢٨.

(٢) المحبَّر: ٣١١، ٣١٩.

(٣) المَنَارُ: جمع مَنَارة، وهي العلامةُ تُجعل بين الحدَّين، ومَنَارُ الحَرَم: أعْلامُه.

منها للحجّ فهي أبعدُ من حدود الحَرَم، وهي من الحِلّ، ومَن أحْرَم منها بالحجّ في الأشهُر الحرُم، فهو مُحْرِمٌ، مأمورٌ بالامتناع عن الرَّفَثِ، والتطيُّبِ، ولُبْسِ المَخِيط، وعن صَيْد الصَّيْد[1]. ولئن أقَرَّ رسولُ الله العربَ على ما عرفوه من حدود الحرم، لقد حطم لهم أصنامَهم، وألْغَى تَلْبيَاتِهم، واستبدل بها جميعاً تلبيةً واحدةً لله الواحدِ الأحَدِ، وعلَّمهم المناسِكَ كما جاء بها الإسلام، مُنزَّهةً عن كلِّ ما كان يَشُوبَها من علامات الشِرْك. .

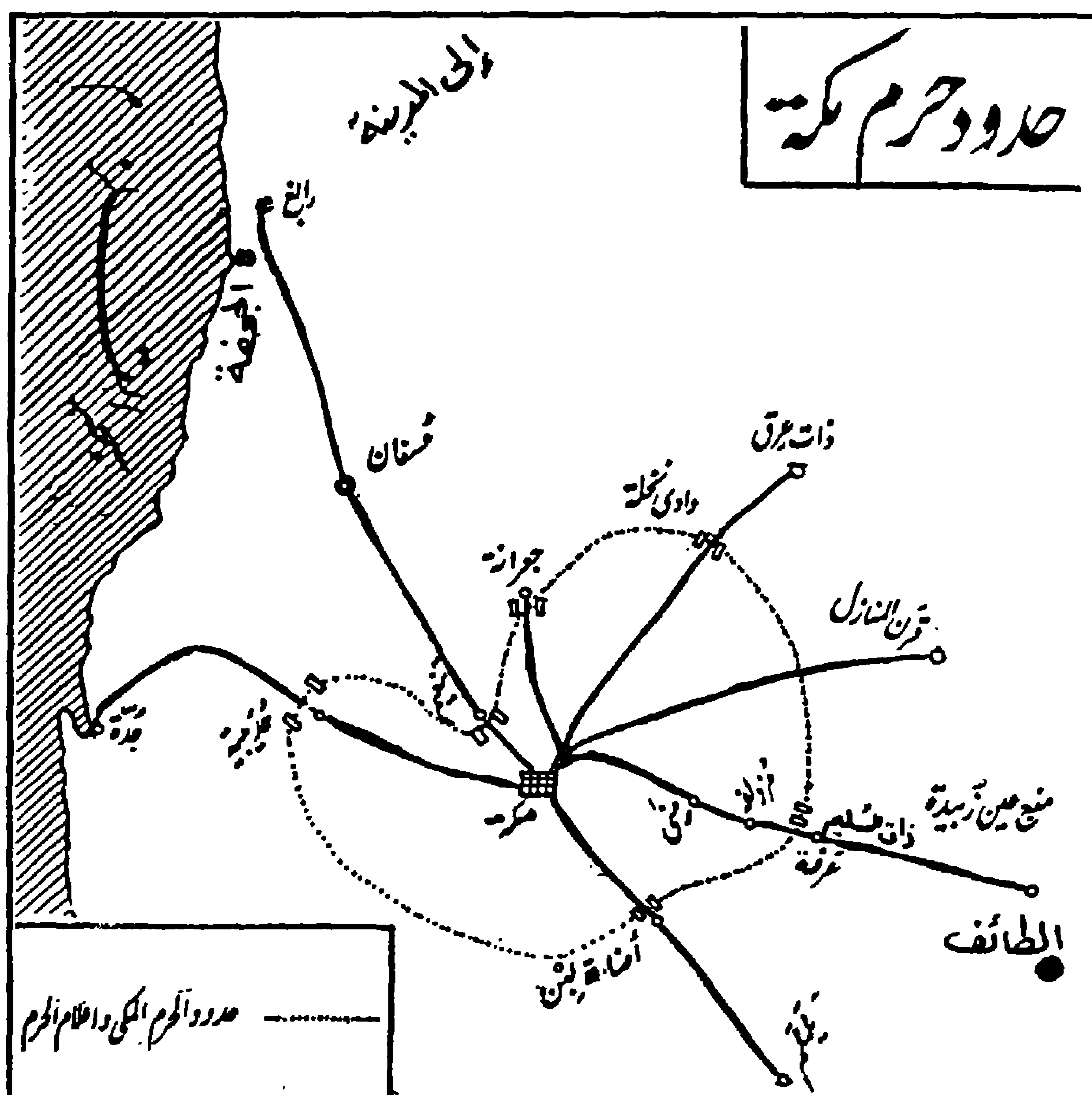
وتُوجَدُ في كتب الأخبار والتاريخ إشاراتٌ كثيرةٌ إلى صُوَرِ التلْبيَةِ التي كانت عند قبائل العرب في الجاهلية. ويبدو من النظر فيها أنها بجُملتها أُنشِئت على إيقاعاتٍ مُعَيَّنةٍ، للتغنِّي بها والرقص، فهي غالباً «تتكوَّنُ من جُمَلٍ قليلةٍ، قصيرة، مُقفَّاةٍ، مُجَزَّأةٍ تجزيئاً موسيقيّاً، لعلَّه قُصِدَ لِيُسَاعِدَ على تَنْغيمها وغنائها. . . ومن أمثلة هذه التلبيات الموزونة تلبيةُ قبائل نزار: لبَّيْك إن الحمد لك، والمُلْكَ لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكهُ وما مَلَك»[2]. . . ذلك أنهم كانوا في نُسكهم يطوفون بالكعبة، وبأصنامهم، يرقصون حولها، ويُغَنُّون لها، ويُلَبُّونَ، ويُهَلِّلُون، وينحرون عندها ما ساقوه معهم من الأنعام يُقَدِّمُونه قرابينَ للآلهة ونُذُوراً.

وإن في قوله تعالى: ﴿وما كانت صلاتُهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً﴾[3]، إشارةً إلى هذا الذي كانوا يفعلونه في حجِّهم، فالمُكَاءُ: الصَّفِيرُ، والتَّصْدِيَةُ: التصفيق باليَدَيْن. وكان من العادات المألوفة في الجاهلية توافُرُ القِيَانِ للغِنَاءِ في المواسم، وقد تحقَّق أنه كانت لقُرَيشٍ قِيَانٌ

(١) لسان العرب: ٥/ ٢٤١ (نور)، و ١٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣ (علم).
(٢) القِيَان والغناء في العصر الجاهلي: ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

يَعْزِفْنَ لهم، ويُغَنِّينَ في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وغير ذلك من المناسبات[1]. ولعلَّهم كانوا، بعد فراغهم من مناسك الحج، يعقدون مجالسَ للغناء واللهو والطرب والشراب، يحضرها معهم من تأخَّر بمكة من أشراف العرب وساداتهم وتُجَّارهم، لقضاء ما لم يُقْضَ بعدُ من حوائجهم.

* * *



---

(١) القيان والغناء: ٥٠ ـ ٥١.

● مَنَاسِكُ الحج كما كانت في الجاهلية:

وكان العربُ في الثامن من ذي الحجة، يقوم فيهم مَن يُنادِي أن تَرَوَّوْا من الماء بذي المجاز، لأنه لا ماءَ بعَرَفَة، ولا بالمزْدَلفةِ يومئذٍ، فسُمِّيَ ذلك اليومُ يومَ التَّرْوِيَة، وهو آخِرُ أسواقهم. ثم يخرجون يومَ التروية من ذي المجاز إلى عَرَفَة، وكانوا لا يتبايعون في يوم عَرَفَة، ولا في أيام مِنىً، تأثُّماً، فلما ظهر الإسلامُ، أُحِلَّ لهم ذلك بقوله تعالى: ﴿**ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضلاً من ربكم**﴾[1]، وفي قراءة أُبَيّ بنِ كعب: ﴿**في مواسم الحجّ**﴾، يعني، كما قال الأزرقي: مِنىً وعرفَة وعكاظ ومجنة وذي المجاز، فهذه مواسم الحج[2]... وفي صحيح البخاري أن أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، هي التي تأثَّموا من التجارة فيها، فأحَلَّ الله لهم ذلك بهذه الآية، وعَزا القولَ إلى ابن عباس[3].

وكانوا يخرجون من ذي المجاز، عند غروب شمس الثامن من ذي الحجَّة، وابتداءِ اليوم التاسع منه، وكان ابتداءُ اليوم يكون عند غروب الشمس. فإذا جاؤوا «عَرَفة»، وقفت طائفةُ «الحِلَّة» على الموقف من عَرَفَة، ووقفت طائفةُ «الحُمْسِ» في أطراف الحَرَم من ناحية «نَمِرَة»، وهي الجبلُ الذي عليه أنصابُ الحرَم، عن يمين الخارج من المأزمَيْن يُريد الموقفَ بعرفة[4]. وكانت العربُ في دينها على مذهبيْن: الحُمْس والحلَّة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٢) أخبار مكة: ١/١٨٨ ـ ١٨٩.

(٣) صحيح البخاري (كتاب البيوع): ٣/٨٢.

(٤) معجم البلدان: ٥/٣٠٤ ـ ٣٠٥.

١ ـ فالحُمْـسُ:

هم الذين شدَّدُوا على أنفسهم في دينهم، فكانوا إذا دخل موسمُ النُّسْك والحجّ، وأَحرموا، لم يأكلوا لحماً، ولم يطبخوا سمناً، ولم يَمْخَضُوا لَبَناً ولا جبناً، ولم يغزلوا وَبَراً ولا صُوفاً ولا قُطناً، ولم يُحرِّكوا شَعْراً ولا ظِفراً، ولم يلبسوا إلا جديداً، ولم يطوفوا بالبيت إلا في ثيابِهم ونِعَالِهم، لا يَطَؤُون أرضَ المسجد بأقدامهم تعظيماً له، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها، وإنما ينقبُ أحَدُهم نقباً في ظهر بيته، أو خلفه، ليدخلَ ويخرجَ منه... وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿**وليس البِرُّ بأن تأْتُوا البُيُوتَ من ظهورها ولكن البرَّ مَن اتَّقَىٰ، وأْتُوا البيوتَ من أَبوابها واتَّقُوا الله لعلكم تُفْلحون**﴾[(١)]. وكان الحُمْسُ لا يقفونَ بعرَفَة، ولا يفيضون منها، ويقولون: نحن أهلُ الحَرَم ولا نخرجُ من الحَرَم! فنزل فيهم قولُه تعالى: ﴿**ثم أَفيضُوا من حيث أفاضَ الناسُ واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم**﴾[(٢)].

٢ ـ والحِلَّـةُ:

كانوا يطبخون السمنَ، ويأكلون اللحمَ، ويَجتزُّون من الصوف والوَبَر والشَّعَر ما يكتفون به، ويتواصَلُون في النُّسك، ويمنحُ الغنيُّ الفقيرَ بعضَ مالِه، وكانوا يدَّهِنُونَ ويتطيَّبُون، ويلبسون كلَّ الثياب، فإذا دخلوا مكة بعد فَراغهم من عرفة ومنَى، تصدَّقوا بكلِّ حذاء وكلِّ ثوبٍ لهم، ثم اسْتَكْرُوا من الحُمْس ثياباً جُدُداً، تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها بثيابٍ قارَفُوا فيها الذنوبَ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاءً، يُباشِرونها بأقدامهم، فإن لم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٩٩.

يجدوا ثياباً طافوا عُراةً، الرجالُ في النهار، والنساءُ في الليل، ذلك أنهم كانوا إذا أحْرَمُوا بالحجِّ، لم يستحلُّوا البَيْعَ والشراءَ حتى يعودوا إلى منازلهم، إلا ما يحتاجون إليه من اللحم لطعامهم. وقيل إن الحُمْسَ هم الذين فرضوا على العرب، إذا دخلوا الحَرَم في موسم الحج، أن يطرحوا أزْوادَ الحِلِّ، وهي ما تزوَّدُوه من طعام للسفر، ويشتروا اللحم من أهل مكة، وأن ينزعوا عنهم ثيابَ الحِلّ، ويستبدلوا بها ثيابَ الحرَم، إما شراءً، أو عاريةً، أو اسْتيهاباً، فإن تيسَّرَ لهم ذلك، وإلا طافوا بالبيت عرايا، وربما طافَتِ المرأةُ منهم مُرْتديةً ثوباً أو قميصاً، مُفَتَّقاً في مُقَدَّمِهِ ومُؤَخَّره[1]، أو مُفَرَّجاً، كأنه من سُيُورٍ تكادُ إذا انفرجت تُبدي ما وراءها.

ولمّا أقام أبو بكر، رضي الله عنه، للمسلمين حجَّهم في موسم سنة تسع للهجرةِ، كان الناسُ من أهل الشِّرْك على منازلهم من حَجِّهم، وقد نزلت يومئذ سورةُ التوبة على رسول الله، فوجَّه عليَّ بن أبي طالب إلى مكة، وأمره أن يُؤذِّنَ في الناس، إذا اجتمعوا بمِنىً يوم النَّحْر: أنه لا يدخلُ الجنةَ كافرٌ، ولا يحجُّ بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُرْيان[2].

* * *

وكان العربُ نَهارَ التاسع من ذي الحجة، إذا طَفَلَتِ الشمسُ للغروب، وصارت على رؤوس الجبال كأنها عَمائمُ الرجال في وجوههم، دَفَعُوا من عَرَفَة، فأفاضَ الحُمْسُ من أنصاب الحرَم، وأفاضَتِ الحلَّةُ من الموقف، حتى يلتقوا بالمزدلفة جميعاً، فيبيتُون بها[3]. وكان قصيُّ بنُ كلاب بنَىٰ فيها

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧، وأخبار مكة: ١/ ١٧٩ ـ ١٨٢، والمحبَّر: ١٧٩ ـ ١٨١، ومعجم البلدان: ٥/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) السيرة النبوية للندوي: ٣٢٠.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

المِشْعَرَ، فكان يُسْرَجُ عليه ليلاً، ليهتدي به أهلُ عَرَفَة إذا جاؤوا المزدلفة، فأبقاهُ اللّهُ مِشْعراً، وأمر بالوقوف عنده[1]، بقوله تعالى: ﴿**فإذا أفَضْتُم من عرفات فاذكروا الله عند المشْعَر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالِّين**﴾[2]. وكانوا يَظلُّون ليلتَهم في مُزدلفة حتى تطلعَ الشمسُ، وتصيرَ على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال على وجوههم، فيدفَعُونَ من مزدلفة إلى مِنىً[3]، لِرَمْي الجِمَار، وتقديم الأَضَاحي، وإنما سُمِّيتْ مِنىً لما يُمْنَى بها، أي يُراقُ، من دِمَاءِ الأضَاحي[4].

فلما حجَّ رسولُ الله خطب الناسَ بعرفَة، فقال: «إن أهل الشِّرْك والأوثان، كانوا يدفعون من عرفة إذا صارتِ الشمسُ على رؤوس الجبال، كأنها عمائمُ الرجال في وجوههم، ويدفعون من مزدلفة إذا طلعت الشمسُ على رؤوس الجبال، كأنها عمائمُ الرجال في وجوههم، وإنا لا ندفعُ من عَرَفَة حتى تَغْرُبَ الشمسُ، ويحِلَّ فِطْرُ الصائم، وندفعُ من مزدلفة غداً إن شاء الله قبل طلوع الشمس»[5].

وكان العربُ إذا قضَوا مناسِكَهم بمنىً، نَفَروا إلى مكة، فكانوا يَسْعَوْن بين الصَّفا والمروة، ويطوفون بالكعبة. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**إن الصَّفا والمروة من شعائر الله فمَن حجَّ البيتَ أو اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بهما ومن تطوَّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم**﴾[6].

---

(١) المحبَّر: ٣١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٣) أخبار مكة: ١/١٨٩.

(٤) معجم البلدان: ٥/١٩٨.

(٥) أخبار مكة: ١/١٩٠.

(٦) سورة البقرة: ١٥٨.

وكان بنو الغَوْثِ بن مُرّ، وهو أخو تميم بن مُرّ، يَلُونَ الإجازةَ بالحاجِّ مِن عَرَفة إلى مزدلفة، ومِن مِنىً إلى مكة، ثم ورثهم في ذلك بنو صفوان من بني تميم. وكان بنو عَدْوانَ يَلُونَ الإفاضةَ بالحاجِّ من مُزْدلفة إلى مِنىً غداةَ يوم النَّحْر(١). وكانت صورةُ الإجازة أو الإفاضة بالناس، أن يتقدَّمَ صاحِبُها الناسَ فيخطبُهم، ويأمُرهم بالوفاءِ وقِرَى الضَّيْف، ورعاية الجار، وتعظيم الحرمات، ثم يجوزُ بهم فيمضُون وراءَه، فإذا نَفَر نَفَرُوا معه، وإذا رَمَى الجِمَارَ رَمَوْا، وإذا أفاض أفاضُوا...

وكانت تحجُّ البيتَ جماعاتٌ كثيرة من مختلف قبائل العرب، في الحجاز ونَجْد وتهامة، والعَروض، والبحرين، وعُمَانَ، واليمن، وحضرموت، فضلاً عن عرب الشام والعراق. وكان يحجُّ إليه أيضاً ملوكُ حِمْيَر وكندة وغسَّان ولخم، على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم(٢). وإن إبقاءَ الإسلام على مكانة الكعبة لدليلٌ على مكانتها في قلوب العرب جميعاً، فقد كانت مَهْوَى أفئدتهم من عهد إبراهيم وإسماعيل، ثم ظلَّتْ تضمُّهم إليها بعد ذلك، على شِرْكهم، كما تضمُّ أوثانَهم وأصنامَهم، حتى هداهُم الله بالإسلام، وعلَّمهم رسولُ الله، عليه السلامُ، مناسِكَ حجِّهم، وهَدَمَ قواعدَ الشِرْك، وأمورَ الجاهلية.



موسمُ الحجّ في الإسلام:

لئن أَقَرَّ الإسلامُ الحجَّ، وجعله فريضةً على المسلمين مَنِ استطاع منهم

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/١١٩ ـ ١٢١.

(٢) معجم البلدان: ٥/١٨٣، وأخبار مكة: ١/١٨٩، ومطلع النور: ١٥٥ ـ ١٥٧.

إليه سبيلاً، لقد نَقَّاهُ مما شابَهُ من شوائب الوثنيَّة، وأرسَى قواعِدَهُ على إخلاصِ التوحيد، ونزاهةِ العبادة، وجعل أركانَه أربعةً، **الأوَّلُ**؛ الإحْرامُ، وهو نيَّةُ الدخول في أداء فريضة الحجّ، أو العُمرة، وسُمِّي إحْراماً لأنه يمنعُ الحاجَّ من إتيان المحرَّمات. **والثاني**: الوقوفُ بعرَفَة، فالحجُّ عرَفَة. **والثالث**: الطوافُ بالبيت، وهو طوافُ الإفاضة. **والرابع**؛ السَّعْيُ بين الصَّفا والمروة.. وجعل على الحاجِّ واجباتٍ، **أوَّلُها**؛ الإحْرامُ من الميقات، وهو ميقَاتانِ، ميقاتٌ زماني، أي في أشْهُرِ الحجّ، لقوله تعالى: ﴿**الحجُّ أشْهُرٌ معلومات**﴾[1]، وهي شوَّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة. والميقاتُ المكانيُّ يعني أن يُحرِمَ الحاجُّ من الحدود التي عيَّنها رسولُ الله عليه السلامُ للإحْرام، وهي على مسافاتٍ مُتباينةٍ من مكة، وهي الحدودُ نفسُها التي عيَّنها إبراهيم الخليلُ، وكانت العربُ ما تزال تعرفها، فأقَرَّها رسولُ الله على ما كانت عليه. أمّا **الواجبُ الثاني** فرَمْيُ الجِمَارِ الثلاثِ أيامَ التشريق الثلاثة، غير جمرة العقبة، فإنها تُرمَى يومَ النحر. **والواجبُ الثالث** حَلْقُ الشعر أو تقصيرُه. ومن سُنَن الحجِّ تقديمُه على العُمرة، والتَّلْبِيةُ، وطوافُ القدوم، والمبيتُ بمزدلفة، ومِنىً، وطوافُ الوداع، وتجرُّدُ الرجُلِ عن الإحْرام من المَخِيطِ، وارتداؤه إزاراً ورِداءً أبْيَضيْن[2]... إلى ما هنالك من أحكام دقيقةٍ، ألْغَتْ كلَّ العاداتِ والتقاليد السَّيِّئة، ومنها أنهم كانوا في الجاهلية يمتنعون من الهُجْر في القول ما دام موسمُ الحجّ قائماً، فإذا بدا لبعضهم أن يفخر بما لقَوْمه من المآثِر، ويَهجُوَ غيرهم بما يراه فيهم من المثَالِب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) أحمد عبده عاشور ـ الفقه الميسَّر: ١٧٣ ـ ١٧٨، (القاهرة ١٩٧٨)، والقاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين الأصفهاني ـ مَتْنُ الغاية والتقريب: ٢٦ (مصر (١٣٤٣ هـ).

والمعايب، انتظرواحتى يَفرَغُوا من مَنَاسِكهم، فإذا فَرَغُوا نزلوا شِعْبَ «الصُّفِيّ» ليلة التحصيب، ووقفوا على الشِّعْب، وجعلوا يتفاخرون بالآباء والمكارم والوقائع، فيقوم من كل قومٍ شاعرٌ أو خطيبٌ، فلا يترك شيئاً من المَحَامِدِ والشرف إلا أضافه إلى قومه، وأنْشَدَ كلَّ ما قيل فيهم من المديح، وتحدَّى الآخَرين أن يأْتُوا بمثل ذلك. فإذا كان هنالك من أراد مُفاخرتَهم من القبائل الأخرى، قام خطيبُهم أو شاعِرُهم، فردَّ عليهم أقوالهم، وذكر مَثَالِبهم، وكلَّ ما أُضيف إليهم من المساوىء، وما هجاهم به الشعراءُ، ثم افتخر بما يراهُ فَخَاراً لقومه(١). . . والمحصَّبُ شِعْبٌ بين مِنىً ومكة، وكانوا إذا نَفَرُوا من منىً إلى مكة للتوديع، أقاموا بالمحصَّب، وهَجَعُوا ساعةً من الليل، ثم دخلوا مكة. وكانوا يُسَمُّونَ شِعْبَ الصُّفِيِّ هذا، صُفِيَّ السِّبَاب، والصُّفِيُّ هي الحجارة المَلْسَاءُ التي كانوا يقفون عليها، ويَعْقدون بها مجالسَ المدْحِ والذمِّ والمفاخرة. . . وقد أبْطل الإسلام هذه العادةَ بقوله تعالى: ﴿فإذا قضيتُم مناسِككُم فاذكروا الله كذكركم آباءَكم أو أشدَّ ذِكراً﴾(٢).

ويُذكر أنه لما كان عصرُ بني أُميَّة، كان يخرجُ إلى صُفِيِّ السِّبَابِ سُدَيْفُ بن ميمون الشاعر، مولى بني خزاعة، وكان مُتعصِّباً لبني هاشم، ويخرج معه مولى لبني أُميَّة يُقال له: سَبْلَب، فيَتَسابَّانِ، ويتشَاتمان، ويذكران المثالبَ والمعايبَ، ويخرج معهما من سفهاء الفريقين مَن يتعصَّبُ لهما، فلا يبرحون حتى تكون بينهم الجِراحُ والشِّجَاجُ، فيخرج إليهم والي مكة، فيفرِّقهم ويُعاقب الجُنَاةَ منهم. ولم تزل هذه العصبيَّةُ بمكة حتى شاعت في عامَّة الناس وسِفْلَتِهم، فكانوا طائفتين يُقال لهما: السُّدَيْفِيَّةُ والسَّبْلَبِيَّة(٣).

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٨، و ٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤، والعقد الفريد: ٣/٣١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

(٣) الأغاني: ١٦/٨٦.

ومن العادات السيئة التي هَدَمَها الإسلامُ، ماكان «الحُمْسُ» يأخذون به أنفسهم من التشدُّدِ والتفرُّد في مناسك الحجّ، فصار شأنُهم شأنَ سائر المسلمين، لا يمتازون عنهم بشيء... وقد كان من عادات الحُمْسِ أن أحَدَهم إذا أَحبَّ أن يُعاقِبَ أحْمَسِيّاً، شَرَط عليه أن يقوم بفِعْل ما يَحْرُم عليه فِعْلُه في هذا المذهب...

ومن حديث ضُبَاعة بنت عامر القُشَيريَّة، أنها كانت من أجمل نساء العرب، تزوَّجها هَوْذَةُ بنُ عليّ الحنفيُّ، ثم مات عنها، فتزوَّجها عبدُ الله بنُ جُدعان التيمْيُّ، فكانت عنده بمكة ما شاء اللَّهُ لها أن تكون... وبينما هي تطوفُ بالكعبة يوماً، إذ رآها «هشامُ بنُ المُغِيرة المخزوميُّ»[1]، فأعجبتْهُ، فكلَّمها عند البيت، فقال لها: أَيُرضيكِ أن يكون هذا الجمالُ وهذا الشباب عند شيخ كبير؟ فلو أنك سألتِهِ الفُرْقَةَ لتزوَّجتُك!... وكان هشامٌ رجُلاً جميلاً مُكْثِراً من المال، وابنُ جُدعان طاعِناً في السنِّ، لا يُولد له.

فرجعتْ ضُبَاعَةُ إلى ابن جُدعانَ، وقد وقع هشامٌ من نَفْسها موقعاً طيِّباً، فقالت: أنا امرأةٌ شابَّةٌ، وأنتَ رجُلٌ مُسِنٌّ، فلو طلَّقْتني لكان أحسنَ! فقال: ما الذي بدا لكِ في هذا؟ على أنني أُنبِئتُ بما كان بينك وبين هشام وأنتِ تطوفين بالكعبة، وإني أُعطي الله عهداً ألاَّ أفارِقَكِ حتى تَحْلِفي ألاَّ تَتزوَّجي هشاماً، ويوم تفعلين ذلك، فعليكِ أن تطوفي بالبيت عُرْيانةً، وأن تَنْحري كذا وكذا إبِلاً، وأن تَغْزِلي الصوفَ بين جَبَلَيْ مكة، وأنتِ من الحُمْسِ، لا يحلُّ لك أن تَغْزِلي صُوفاً أو وَبَراً.

---

(١) هشام بن المغيرة بن عبد الله: من بني مخزوم، من قريش، وسيِّدٌ من سادات العرب في الجاهلية. كانت قريش وكنانة ومَن وَالاهُم يُؤرِّخون بثلاث وقائع: بناء الكعبة، وعام الفيل، ثم بموت هشام، وهو قريب عهد من البعثة النبويَّة. وكان ممن شَهِدَ حرب الفِجَار رئيساً على بني مخزوم.

فأرسلت إلى هشام بالذي أَخَذَهُ عليها ابنُ جُدعان، فبعثَ إليها: أمّا ما ذكرتِ من طوافك بالبيت عُرْيانةً، فإني أسألُ قريشاً أن يُخْلُوا لكِ البيتَ، فتطوفي قبل الفَجْر في سَدْفَةٍ من الليل، فلا يَراكِ أحدٌ، وأمّا الإبلُ التي يجب أن تنحريها، فَلَكِ اللّهُ أن أَنْحرها عنك، وأمّا ما ذكرتِ من غَزْل الوَبَرِ، فإنها بِدْعةٌ ابتدعها نَفَرٌ من قريش، وليست دِيناً.

فقالت ضُباعَةُ حينئذٍ لابن جُدعان: نعم، لكَ أن أَصْنَعَ كلَّ ما قلتَ وأخذتَ عليَّ إن تزوَّجتُ هشاماً! فطلَّقَها، فتزوَّجت هشاماً، فكلَّم قريشاً، وسألهم أن يُخْلوا لها المكانَ كي تطوفَ بالكعبة... نقل ابنُ عباس عن «المطَّلب بن أبي وَدَاعَة» قولَه: كنتُ يومئذٍ غُلاماً من غلمان قريش، فكنتُ أَخْتلسُ النظرَ إليها، فرأيتُها أقبلتْ من باب البيت، فوضعتْ ثيابَها، ثوباً بعد ثوب، ثم نَشَرتْ شعرها، فغطى بطنَها وظهرها، حتى وصل إلى خلخالها، وطافت بالكعبة سبع مرّاتٍ، فكنتُ أتبعُها إذا أَدْبَرَتْ، وأستقبلُها إذا أقبلتْ، فما رأيتُ شيئاً ممَّا خلق اللّهُ أحسنَ منها، واضِعةً يدَها على فَرْجها وهي تقول:

اليومَ يبدو بعضُهُ أو كلُّهُ   وما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

حتى فَرَغَتْ.. ثم غزلتْ ذلك الوَبَرَ، ونَحَرَ عنها هشام ما ذكرتْ من الإبل... وقد ولدتْ لهشام إبنَه سَلَمة بن هشام، فكان بعدُ من خيار المسلمين. وبينا هي قائمةٌ ذات ليلةٍ، إذ سمع هشام صوتَ صائحةٍ، فقال: ما هذا؟ فقيل: مات عبدُ الله بن جُدْعان! فقالت ضُبَاعة: لَنِعْم زوجُ العربيَّة كان! فقال هشام: أي واللّهِ، وابنةِ العمِّ القريبة! ثم مات هشام بعد ذلك عنها.

وذكرت كتبُ السيرة والأخبار أن رسول الله رغب في الزواج منها، وكانت أكبرَ منه سِنّاً بنحو عشر سنين، فخطبها إلى ابنها سَلَمة، فقال له: حتى أَسْتأمِرَها... فجاءَها وأعْلمها بالخبر، فقالت: أفي رسول الله

تستأمِرُني؟ إرْجِعْ فزوِّجْهُ! فرجَعَ، وقد بلغ الرسولَ عنها كَبْرةٌ، وأنها كثُرتْ غضونُ وجهها، وسقط بعضُ أسنانها، فأمْسَكَ عن أمرها[1].



● **زمن موسم الحج إلى مكة:**

لا شك في أن بيت الله بمكة كان قائماً قبل زَمنِ إبراهيم عليه السلام وأنه كان مَثَابَةَ نُسكٍ وعبادةٍ وحجٍّ، بدليل قوله تعالى: **﴿إن أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذي ببكَّةَ مُباركاً وهُدىً للعالمين﴾**[2]. ولمَّا ذهب إبراهيمُ إلى مكة ليُسْكِنَ فيها زوجَهُ هاجَرَ وإبْنَهُ إسماعيلَ، خاطَبَ ربَّه فقال: **﴿ربَّنا إني أَسْكنتُ من ذُرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم...﴾**[3]، وهذا دليلٌ على أن البيت كان قائماً، ومُحرَّماً منذ زمنٍ بعيد، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: **﴿وإذ بَوَّأْنا لإبرهيم مكانَ البيت أن لا تُشرك بي شيئاً وطَهِّرْ بيتيَ للطائِفينَ والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُودِ وأَذِّنْ في الناس بالحجِّ يأتوكَ رِجَالاً وعلى كلِّ ضامِرٍ يأتين من كلِّ فجٍّ عميق ليَشْهدوا منافِعَ لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعام فكُلُوا منها وأطْعِموا البائسَ الفقير ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفُوا نُذُورَهم ولْيَطَّوَّفوا بالبيت العتيق﴾**[4]... وبَوَّأَهُ، أو بوَّأَ له منزلاً أو مكاناً، أي هيّأَ له، وأنزله ومكَّن له فيه، أو أسْكَنَهُ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ح: ٣)، والمحبَّر: ٩٧، و ٤٣٧ ـ ٤٣٨، ومعجم البلدان: ٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥، والأعلام: ٣/ ٢١٣، و ٨/ ٨٨، والإصابة: ٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥ (الترجمة رقم: ٦٧٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الحج، الآيات: ٢٦ ـ ٢٩.

إيَّاهُ[1]. . . فالبيتُ كان موجوداً إذن، فأنزله الله فيه، وأمره أن يُطهِّرهُ ويرفعَ قواعدَهُ، ويؤذِّنَ في الناس بالحجِّ، ليَشْهَدوا منافعَ لهم، وهي رضوانُ الله في الآخِرة، وما قد يُصِيبُونه هنالك من منافع التجارات والطعام والبَدَنِ[2]. . . وليذكروا اسمَ الله في أيام معلوماتٍ، هي في الغالب العشر الأول من ذي الحجة، ويقال إنها يومُ عرفة، ويومُ النَّحْر، وأيامُ التشريق[3]. . وفي هذا كلِّه تحديدٌ دقيق لميقات موسم الحجِّ. وقد أمر اللَّهُ الناس، إذا قصدوا الحجَّ، أن يقضوا تَفَثَهم، وهو في قولٍ: مناسكُ الحجّ، وفي أقوالٍ أخرى: حَلْقُ الشعر أو تقصيرُهُ، وتقليمُ الأظفار، وذَبْحُ الهَدْي، ورَمْيُ الجِمَار[4]. . . كما أمرهم بأن يُوفُوا نُذُورهم، وهي كلُّ ما أَوْجَبَهُ الإنسانُ على نفسه، تبرُّعاً لبيت الله، من عبادةٍ أو نُسكٍ، أو صدقةٍ، أو هَدْيٍ، ونحوِ ذلك[5]. . . وأما الطوافُ، فهو الطوافُ الواجبُ يومَ النَّحْرِ، وهو آخِرُ المناسِك، وهكذا صنع رسولُ الله، فإنه لما رجع إلى مِنىً يومَ النَّحْرِ بدأ برَمْي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نَحَرَ هَدْيهُ، وحَلَق رأسَهُ، ثم أفاض من مِنىً فطاف بالبيت[6].

ذكرتُ ذلك اسْتِطراداً، لأن سِيَاقَ الكلام يَستوْجِبُه، بينما أريدُ التأكيد على أن بيت الله بمكة كان قائماً قبل زمن إبراهيم. . . ومع ذلك، إذا فَرضنا أن موسمَ الحجِّ إنما بدأ في زمن إبراهيم، وقد تبيَّن أنه في منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فذلك يعني أن هذا الموسم انقضى عليه، منذ قيامه

(١) لسان العرب: ١/ ٣٨ ـ ٣٩ (بوأ).
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٣.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤.
(٤) لسان العرب: ٢/ ١٢٠ (تَفَث)، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٥.
(٥) لسان العرب: ٥/ ٢٠١ (نذر)،
(٦) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٥.

وحتى اليوم، أكثرُ من اثنين وثلاثين قرناً من الزمان، وأنه يُعَدُّ أقدمَ موسمٍ دينيّ واجتماعيّ وتجاريّ في العالم المعروف. . . ولا سيما إذا لاحظنا، أن مَن كان يَشْهَدُهُ، في عصر الجاهلية، لا يكاد عَدَدُهم يتجاوزُ بِضعةَ أُلوفٍ إلا قليلاً، وأن مَن يشهدُهُ اليومَ بلغ عددُهم أكثرَ من مليونٍ ونصفِ مليونٍ من المسلمين، من مختلف الأقوام والأجناس والبُلدان، تنظرُ إليهم، وهم في مَلابِسِ الإحْرام البيض، فلا ترىٰ إلا صَعيداً تَرامَتْ أبْعادُهُ، وكأنه غَطَّتْهُ الثلوجُ، وتُصْغي إليهم، فلا تسمع إلا نشيداً واحداً: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْكَ، لبيك لا شريكَ لكَ لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والمُلْكَ لا شريكَ لك. . . إنه التوحيدُ في أكْمَلِ صُوَرِهِ نزاهةً وإخلاصاً.

* * *

● **الشعراء في مواسم الحج:**

لا شك في أن شعراءَ العرب كانوا، في الجاهلية، يَشْهدون المواسمَ بمكة ومِنىً وعَرَفَة، كشُهُودِهم مواسمَ عكاظ وغيرها، وكانوا يقولون شعراً فيما عَرَض لهم بها، في أيامها أو بعد انقضائها. غير أن ما تَيَسَّر لنا من النصوص لا يُشِير إلى الكثير في هذا الباب، سوى ما ذكرتُه عن تَفاخُرِهم وتهاجِيهم في «شِعْبِ الصُفِيِّ» بالمُحَصَّبِ من مِنىً، وما سبق أن أشرتُ إليه، في كلامي على عكاظ، من احتفالِ العربِ بقصائد الفُحول من شعرائهم، فكانوا بعدما يُنْشِدُها الشعراءُ في المجامع الكبرى، كسُوق عكاظ، يُعَلِّقونها في أسْتارِ الكعبة، تَنْويهاً بها وبقائليها. . . وفي هذا قال ابنُ عبد ربه: «لقد بلغ من كَلَفِ العرب بالشعر، وتفضيلها له، أن عَمَدَتْ إلى سبع قصائدَ، تخيَّرَتْها من الشعر القديم، فكتبتْها بماء الذهب، في القَبَاطِيِّ المُدْرَجَة[1]،

(١) القَبَاطِيُّ: ج قُبْطيَّة، وهي نسيجٌ من كتَّانٍ أبيض. المُدْرَجَةُ: المَطْويَّةُ: أو الملفوفة.

وعلَّقتْها بين أستار الكعبة، فمنه يُقال: مُذَهَّبَةُ امرىء القيس، ومُذَهَّبَةُ زهير، وسائرُ المُذَهَّباتِ السبع، وقد يقال لها: المُعَلَّقاتُ»[1]... وسمَّاها الباقِلاَّنيُّ: السَّبْعيَّات، وأشار إلى أنها اخْتِيرت من أَجْوَدِ شعر العرب فصاحةً وبراعةً وإبداعاً[2]، ولم يذكر شيئاً عن تعليقها بين أستار الكعبة بمكة! بينما قال ابنُ خلدون في سبب تَسْميتها بالمعلَّقات: إنهم كانوا يقفون بسُوق عكاظ، لإنْشَادِ الشعر، والتنافُسِ فيه، «حتى انتَهْوا إلى المُنَاغَاة[3]، في تعليق أشعارهم، بأركان البيت الحرام، مَوْضعِ حجِّهم وبيتِ إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بنُ حُجْر، والنابغةُ الذبيانيُّ، وزهيرُ بنُ أبي سُلْمى، وعنترةُ بنُ شدَّاد، وطَرَفَة بن العبد، وعَلْقَمةُ بن عبدة، والأعشى، أصحابُ المعلَّقاتِ السَّبْع وغيرُهم فإنه إنما كان يَتوصَّلُ إلى تعليق الشعْرِ بها، مَن كان له قدرةٌ على ذلك، بقومه، وعَصَبِيَّته، ومكانِهِ في مُضَر، على ما قيل في سبب تَسْميتها بالمعلَّقات»[4].

والواقع أن الشهرةَ المُستفيضةَ لهذه القصائد قامت على أنها المعلَّقاتُ، وأن أوَّلَ شِعرٍ عُلِّق في الجاهلية شعرُ امرىء القيس، عُلِّق على ركنٍ من أركان الكعبة أيامَ الموسم ثم أُحْدِرَ، فعلَّقَتِ الشعراءُ من بعده، وكان ذلك فخرَ العرب في الجاهلية[5]... ولكن هذا المذهبَ في علَّةِ تسميتها بالمعلَّقاتِ أمرٌ غيرُ مُتَّفَقٍ عليه، فهنالك من أنكر أنها كانت تُعلَّقُ حقّاً على

---

(١) العقد الفريد: ٥/ ٢٦٩.

(٢) إعجاز القرآن: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) المُنَاغَاةُ: المُبَاراةُ، وتناغَىٰ القومُ: تَبَاروا وتغالَبُوا.

(٤) المقدمة: ٥٨٠ ـ ٥٨١.

(٥) شرح القصائد السبع: ١١ (من مقدمة التحقيق).

أركان الكعبة، وهو أمرٌ لا يهمُّنا فيما نحن فيه، إذ يكفينا من الخبر دلالتُهُ، في الحالَيْن، على أن العرب كانوا يتداولون قصائد المتفوِّقين من شعرائهم، في مواسم الحجِّ بمكة، وأن هذا هو ما كانت عليه أحوالُهم في الجاهلية.

ولمَّا كان فجرُ الإسلام، تبدَّل وجهُ المجتمع العربي، وبينما كان الشعر زمنَ الجاهلية في خدمة القبيلة ومصالحها، صار في الإسلام وسيلةً إلى تأييد الديانة الجديدة... ثم أخذ التنافسُ بين الشعراء أشكالاً جديدةً، وطرأتْ على الشعر أغراضٌ مختلفةٌ، حتى كان زمنُ بني أُميَّة، فازدهر فنُّ الغَزَلِ في الحجاز ازدهاراً عظيماً، واشتغل به شعراءُ الحواضر والبوادي هناك كفَنٍّ مستقلٍّ بذاته، وليس كما كان قديماً، لازمةً تأتي في مُقدِّمة كلِّ قصيدة في سائر فنون الشعر... وقد كان الحجازُ قلبَ الدولةِ الجديدة التي أقامها الإسلامُ، فلما غلب بنو أميَّة على الخلافة، خافوا المُعارِضَةَ من زعماء المهاجرين والأنصار في الحجاز، أن تَزْحَمَهم عليها، وتعملَ على صَرْفها عنهم، فنقلوا عاصمةَ الدولة من المدينة، وجعلوها في دمشق، وعَمَدُوا إلى إقصاء أهل الحجاز عن شؤون الحُكم والسياسة العامَّة، وطَفِقُوا يُغْدقون عليهم، من الأموال والهِبَاتِ والنِّعَم، ما وسَّع عليهم أسبابَ معيشتهم، وصَرَفَهم عن التفكير في أُمورِ الخلافةِ والمطالبةِ بها، فنشأت في مكة والمدينة طبقةٌ مُتْرَفَةٌ جِدّاً من أبنائهم، وفيهم شعراءُ الغزل، ورثتْ عنهم السيادةَ والشرفَ، فوق ما كانوا غنموهُ من الغنائم الكبرى إبَّانَ حركة الفتوح، وفوقه ما ظلَّ بنو أميَّة يُنْعمون به عليهم من كل جانب، فعاشوا في بطالة ونعيم وثراء، وكانت مجالسُ اللهو والغناء يومئذٍ انتشرت في حواضر الحجاز مع انتشار المُغَنِّينَ والمُغَنِّياتِ من الموالي والرقيق، فاشتغلوا بها عن غيرها من الأمور، فاقترنت نهضةُ الغناءِ والموسيقى، بنهضةٍ كبيرةٍ في فنِّ الشعر الذي يُغَنَّىٰ، أو يُصْنَعُ ليُغَنَّىٰ ويُصْحَبَ بالعَزفِ على الآلات الموسيقيَّة، وهو

شعرٌ يدورُ في مُعظمه على الغَزلِ بالمرأة، ووصفِ محاسنها، وثيابِها، وعطرِها، وحديثها... ويمتاز بأن موسيقاهُ أكثرُ صفاءً من موسيقى الشعر القديم، وبأن لغتَهُ مُختارةٌ من مُفْردات سهلةٍ، يفهمها العربُ والمستعرِبُون، فالقِيَانُ الأعجميَّاتُ كُنَّ يُلَقَّنَّ العربيةَ، ليُغنِّينَ ما يُنظَمُ لهنَّ بها من الشِعْر، فكان شعراً شَعْبيّاً غنائيّاً، يُنْشِدُهُ الشعراءُ في مواسم الحجِّ بمكة والمدينة، ويُغَنَّى في مجالس الغناء واللهو، ثم ينتقل إلى الحواضر والبوادي القريبة في الحجاز، والبعيدة في العراق والشام، ولا سيما وقد قَرُبَتْ معانيه من الناس، وسَهُلت عِبَاراتُه وألفاظُه، وخَفَّت أوزانُه.

ومثلما اشتغل هؤلاء الشعراءُ بمجالس الغناء، اشتغلوا أيضاً بمواسم الحجِّ، فكانوا يترصَّدُون قوافلَ الحَجِيج، يَتَعرَّضُون للحاجَّاتِ الجميلاتِ من بنات الأشراف ونسائهم، فيتغزَّلون بهنَّ، ويَصِفُونَهنَّ بأحسنَ ما يُمكن أن تُوصَفَ به امرأة. ولعلَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة يأتي على رأس شعراء الغزل في الحجاز ممَّن كانوا يُشَبِّبُون بالنساء الجميلات الوافدات إلى مكة للحجِّ. ولعلّ عائشة بنت طلحة التَيْميَّة كانت على رأس من تغزَّلَ بهنَّ الشعراءُ في مواسم الحج عَلاَنِيَةً...

* * *

● **عمر بن أبي ربيعة ومواسم الحج:**

أمَّا عمرُ فهو أبو الخطَّاب بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميُّ القرشيُّ (٢٣ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٤ ـ ٧١٢ م)، من أهل مكة، أَرقّ شعراءِ عصره، ولم يكن في قريش أشعرُ منه[١]. وذكر الأصفهانيُّ روايةً تقول: «كانت العربُ تُقِرُّ

---

(١) الأعلام: ٥/ ٥٢.

لقريشٍ بالتقدُّم عليها في كل شيء، إلا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمرُ بن أبي ربيعة، فأقرَّتْ لها الشعراءُ بالشعر أيضاً»[1]. وكان عمرُ من أسرةٍ واسعة الثراء، عظيمة المكانة منذ أيام الجاهلية. نشأ على الترف، ورخاءِ العيش، والدَّلال، مُفْرِطاً في التجمُّل والتطيُّبِ والتزيُّن، وكانت أحبَّ الأيام إلى نفسه أيامُ مواسم الحجِّ، فكان يرتدي أحسنَ الثياب من الوَشْي والمُخَطَّط والمُسَيَّرِ، ويُسْبِلُ لِمَّتَهُ على أُذُنَيْه، ويُطيلُ إزارَهُ، ويخضبُ نَجَائِبَهُ بالحِنَّاء، ثم ينتقلُ من ناحيةٍ إلى أخرى، يَتَعرَّضُ للحاجَّات في مَراكِبهنَّ أو مَضَارِبهنَّ، فيتراءَىٰ لهنَّ، ويَتَرائَيْنَ له، ثم يصفُهنَّ في شِعْرِهِ، ويتفنَّنُ في تفصيل أوصافِهِنَّ ومحاسِنهنَّ، حتى ذاع أمره في الناس، فكانت النساءُ تتمنَّى أن يقول فيهنَّ شعراً، وكانت الأشرافُ تخاف على نسائها وبناتها من أشعاره. وكان بعضُهم يُحذِّرُ بعضاً بقوله: لا تَحمِلُوا فتياتكم على رواية شعر ابن أبي ربيعة لئلا يَتورَّطْنَ في الفُسوق تَورُّطاً... وكانوا يقولون: ما دخل على الفتيات في حِجَالِهِنَّ شيءٌ أضَرُّ عليهنَّ من شعر عمر بن أبي ربيعة[2]. وقال ابنُ قتيبة: «كان عمرُ فاسقاً، يتعرَّضُ للنساء الحَوَاجِّ في الطَّوافِ وغيرِهِ من مشاعر الحجِّ، ويُشبِّبُ بهنَّ، فَسَيَّرهُ عمر بنُ عبد العزيز إلى الدَّهْلِكِ، وهي جزيرةٌ بالبحر الأحمر، فغزا، فأُحْرقت سفينتُهُ، فمات فيها»[3].

عائشة بنت طلحة:

وأما عائشة فهي بنت طلحة بن عُبَيد الله، من بني تَيْم، وأُمُّها أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتُها عائشة أمُّ المؤمنين. وكانت أديبةً، عالمةً

---

(١) الأغاني: ١/ ٨٣.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الشعر والشعراء: ٥٥٤.

بأخبار العرب، فصيحة[1]، تزوَّجَتْ عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق، ثم مُصعب بن الزبير بن العَوّام، ثم عمر بن عبيد الله بن معمر التيميّ[2]. . . قيل إنها وفدتْ على هشام بن عبد الملك، فبعث إلى مشايخ بني أمية أن يسمروا عنده، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب، وأشعارها، إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غاب إلا سمَّتْهُ، وأخبارُها مع الشعراء كثيرةٌ، ولعمر بن أبي ربيعة غَزَلٌ بها، وقد تُوفيت سنة (١٠١ هـ = ٧١٩ م)[3]. . .

ولم يكن لها شبهٌ في زمانها حُسْناً، ودماثةً، وجمالاً، وهَيْأةً، ومتانةً، وعِفَّةً[4]. . . وكانت لا تسترُ وجهها من أحد، ولمّا عاتبها في ذلك زوجُها مُصْعبُ بن الزبير، قالت: إن الله تبارك وتعالى وَسَمَني بمِيسَم جمال، أحببتُ أن يراهُ الناسُ، ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنتُ لأستره، واللَّهِ ما فيَّ وصمةٌ يَقْدِرُ أن يذكرني بها أحد[5]. . . وقد نظر إليها «ابن أبي ذئب»[6] تطوف بالبيت فقال لها: مَن أنت؟ فقالت:

من اللاَّءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبةً ... ولكـنْ ليقتلـنَ البـريءَ المُغَفَّـلا

فقال: صان اللَّهُ هذا الوجه عن النار!. فقيل له: أفَتَنَتْكَ؟ قال: لا،

---

(١) الأعلام: ٣/ ٢٤٠.
(٢) المحبَّر: ٤٤٢.
(٣) الأعلام: ٣/ ٢٤٠.
(٤) الأغاني: ١١/ ١٧٢.
(٥) المرجع نفسه: ١١/ ١٦٥.
(٦) ابنُ أبي ذئب: (٨٠ ـ ١٥٨ هـ)، أبو الحارث، محمد بن عبد الرحمن، من قريش، ومن أوْرَعِ الناس وأفضلهم في عصره. تابعيٌّ من رُوَاة الحديث، كان يُفتي بالمدينة.

ولكنَّ الحُسْنَ مرحوم[١]. ورآها أبو هريرة فقال: سبحان الله! ما أحسنَ ما غَذَّاكِ أهلُكِ، لكأنما خرجْتِ من الجنة[٢]...

وكانت عائشةُ تُعِدُّ للحجِّ عُدَّةً ما أعَدَّتْ مثلَها امرأةٌ قطُّ، في فَخَامتها، وكثرةِ رَوَاحِلها، وجمالِ مَن يُرافقها من الإمَاءِ والجَواري، وتنوُّعِ ما تحملُ معها من المتَاع والألْطافِ والهدايا... ويقال إن عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية، استأذنتْ زوجَها أمير المؤمنين عبدَ الملك بنَ مروان في الحجِّ، فأذِنَ لها... ولكنه قال: ارفَعي حوائجَكِ، فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ! ففَعَلتْ، وجاءت بهَيْأَةٍ جَهِدَتْ فيها... فلما كانت بين المدينة ومكة، إذا موكبٌ قد جاء، فزَحَمَها، وضَيَّق عليها، وفَرَّق جماعَتَها، فقالت: أظنُّ هذه عائشةَ بنتَ طلحة، وسألتْ عنها فقالوا: هذه خازِنتُها... ثم جاء موكبٌ آخَرُ أعظمُ من ذاك، فقالوا: عائشةُ عائشة... فزاحَمهم، فسألت عنه، فقيل لها: هذه ماشِطَتُها! ثم جاءت مواكبُ على هذا السَّنَن، وكلما مرَّ منها موكبٌ أحَسَّتْ عاتكةُ له في حَلْقها مثلَ الغصَّة، وفي قلبها شبهَ الحَسْرة، حتى أقْبَلتْ كوكبةٌ فيها ثلاثُ مئةِ راحلةٍ، عليها القبابُ والهوادِجُ، وفيها عائشة، فقالت عاتكة: ما عند الله خيرٌ وأَبْقَى[٣]...

* * *

● **عمر وعائشة في الطواف:**

بينا عمر بنُ أبي ربيعة يطوفُ بالبيت، إذ رأى عائشة بنت طلحة، وهي

---

(١) العقد الفريد: ٦/١٠٩.

(٢) الأغاني: ١١/١٧٩.

(٣) الأغاني: ١١/١٧٨.

تريدُ الركنَ تَسْتلمه، فبُهِتَ لمّا رآها، ورأَتْهُ فعلمتْ أنها قد وقعت في نفسه، فبعثت إليه بجاريةٍ وقالت لها: قولي له اتَّقِ الله ولا تَقُلْ هُجْراً، فإن هذا مقامٌ لا بدَّ فيه مما رأيت! فقال للجارية: أَقْرِئيها السلامَ وقُولي لها ابنُ عمِّك لا يقول إلا خيراً. . . ثم قال فيها:

لعائشةَ ابنَةِ التَّيْميِّ عندي ... حِمىً في القلب، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذكِّرُني ابنةَ التيميِّ ظَبْيٌ ... يَرودُ بروضةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له، وكاد يُراعُ قلبي ... فلم أرَ قطُّ كاليوم اشْتِبَاها
سوى حَمْشٍ بسَاقِكَ مُسْتَبينٍ ... وأنَّ شَواكَ لم يُشْبه شَوَاهَا
وأنك عاطِلٌ عارٍ، وليستْ ... بعَارِيَةٍ ولا عُطُلٍ يَدَاها
وأنك غيرُ أَفْرَعَ وهي تُدْلي ... على المَتْنَيْن أسْحَمَ قد كسَاها
ولو قَعَدتْ ولم تكْلَفْ بِوُدٍّ ... سوى ما قد كَلِفْتُ به كفاها[(١)]

ولم يَزَلْ يتغزَّلُ بها أيام الحجِّ، ويطوف حولها، ويتعرَّضُ لها، حتى وافقَها وهي ترمي الجِمار بمنىً سافرةً، فنظر إليها، فقالت: أما واللَّهِ لقد كنتُ لهذا منك كارهةً يا فاسق! . . . فقال فيها يومئذٍ:

إنـي وأوَّلُ ما كَلِفتُ بحبِّها ... عَجِبٌ، وهل في الحبِّ من مُتعجَّبِ
غَرَّاءُ يُغْشي الناظرين بياضُها ... حوراءُ، في غُلَواءِ عَيْشٍ مُعْجِبِ
إن التي في أرضها وسمائها ... جُلبتْ لحَيْنِكَ ليتها لم تُجلَبِ[(٢)]

ثم لقيها بعدئذٍ بمكة، وهي على بغلةٍ لها، فقال: قفي حتى أُسمِعَكِ ما

(١) الحَمْشُ: دِقَّةُ الساقين. الشَّوَىٰ: ظاهر الجِلْد، واليدان والرجلان. العاطِلُ: ليس عليه حُليٌّ. العَاري: ليس عليه ثياب. الأفْرَعُ: الكثيرُ الشَّعر. الأسْحَم: الأسودُ.
(٢) الغُلَواءُ: الغُلُوُّ وهو الزيادة والارتفاعُ وأوَّلُ الشيء. الحَيْن: الهلاك.

قلتُ فيك. قالت: أوَ قد فعلتَ يا فاسق؟ قال: نعم، فوقفتْ، فأنشدها:

يا ربَّةَ البغلةِ الشهباءِ هل لكِ في ... أن تَنْشُري مَيّتاً، لا تُرْهَقي حَرَجَا
قالتْ: بدائِكَ مُتْ، أو عِشْ تُعَالِجُهُ ... فـإن تُقِـدْنـا فقـد عَنَّيْتَنـا حِجَجَـا
حتى لَوَ اسْطِيعُ مما قد فعلتَ بنا ... أكلتُ لحمَكَ من غيظٍ وما نَضِجَا[1]

فقالت: لا وربِّ هذه الكعبةِ ما عَنَّيْتَنا طَرْفَةَ عينٍ قطُّ، ثم سارت[2]. . . ذلك أنها إنما كانت تَتَراءَىٰ له ليَصِفَ جمالَها، ويُشيدَ بمحاسِنِها، وليس لأنه عَنَّاها بشبابه وجماله، فهي امرأةٌ حُرَّةٌ مسلمةٌ، لا ترتكبُ مثلَ هذا الإثْم، وإن كانت فخورةً بحُسْنِها، حريصةً على أن يتحدَّثَ الناسُ به اعترافاً بفَضْلها في ذلك على غيرها من نساء عصرها.



● عائشة وسُكَينة في الحجِّ:

ومن طريف ما يُذكر من أخبار عائشة، واحتفالها بموسم الحجِّ، أنها دخلتْ على الوليد بن عبد الملك، وهو بمكة، فقالت: يا أمير المؤمنين، مُرْ لي بأعْوانٍ!. فضَمَّ إليها قوماً يكونون معها، فحجَّتْ ومعها سِتُّونَ بِغْلاً عليها الهوادِجُ والرَّحَائِلُ، ويُقال إن سُكَيْنَةَ بنت الحُسَيْن، وكانت عائشةُ ضَرَّتَها عند مُصعب، حجَّتْ في ذلك العام، وكانت عائشةُ أحْسَنَ منها مَتَاعاً وأَجْهِزَةً وعُدَّةً، فقال حادِيها:

عـائـشُ يـا ذاتَ البِغَـال السِّتِّيـن ... لا زلـتِ مـا عشـتِ تَحجِّيـن

(١) النَّشْرُ: الإحْيَاءُ. أَرْهَق: حمَّل، أو كلَّفَ الشيءَ، أو دَفع إليه. الحَرَجُ: الإثم أو الذنب. القَوَدُ: القصاص. التَّعْنِيَةُ: تكليفُ المشقَّةِ والأذَى. الحِجَجُ: ج حِجَّة بمعنى الحجِّ والسنة.
(٢) الأغاني: ١/ ١٩٠ ـ ١٩٣.

فشقَّ ذلك على سُكَيْنَة، فنزل حاديها، فقال:

عـائـشُ هـذي ضَـرَّةٌ تَشْكُـوكِ　　لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرتْ عائشة حاديَها أن يكفَّ فكفَّ(١).

● عمر بن أبي ربيعة والوليد بن عبد الملك:

ويبدو من الأخبار، أن أمير المؤمنين، في عصر بني أمية، كان إذا انقضى موسمُ الحجِّ، ظلَّ هنالك مُدَّةً يستقبلُ فيها الناس. وقد ذُكر أن ابن أبي ربيعة حجَّ في إحدى السنين، فلما انصرف من الحجِّ، ألْفَىٰ الوليدَ بنَ عبد الملك وقد فُرِشَ له في ظهر الكعبة، وجلس هنالك يستقبل الناس. فجاءَهُ عمرُ، وقد صار شيخاً مُسِنّاً، فجلس إليه، فقال له الوليدُ: أنْشِدْني شيئاً من شِعرك، فأنشده قصيدته التي قال فيها:

أَمِـنْ آلِ نُعْـم أنـتَ غـادٍ فمُبْكِـرُ　　غــداةَ غَــدٍ أم رائــحٌ فمُهَجِّــرُ

بحاجةِ نفسٍ لم تقلْ في جوابها　　فتُبلِـغَ عُـذْراً، والمقـالـةُ تُعْـذِرُ

فطرب الوليدُ، واهتزَّ لذلك، فأجْزَلَ صِلَتَه وبالغ في إكرامه(٢).

● ابنُ أبي ربيعة في مِنىً:

ويبدو أن عُمر ابن أبي ربيعة كان يتَّبعُ النساءَ الحَوَاجَّ في كل مكان من مناسك الحجّ، ويختلسُ النظرَ إلى وجُوهِهنَّ وأَيْديهنَّ، وقد رأى إحداهُنَّ بالمُحَصَّبِ من منىً في أحد المواسم، فراعَهُ منها أنها ليست كالأعراب تبدو

(١) الأغاني: ١١/١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ١/١٢٣.

على أيديهنَّ آثارُ الضَّرْبِ بالعَصَا على الماشِيَة، وتبدو على وجوههنَّ آثارُ الريح السَّمُوم التي تهبُّ عليهنّ عادةً أثناء الرَّعْي، فقال فيها:

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنىً ... ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عارِمُ
فقلتُ: أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعَةٍ ... بدتْ لكَ خلف السَّجْفِ أمَ أنتَ حالمُ
ومَدَّ عليها السَّجْفَ يومَ لقيتُها ... على عَجَلٍ تُبَّاعُها والخَوادِمُ
فلم أسْتَطِعْها غير أن قد بدا لنا ... عشيَّةَ راحتْ وَجْهُها والمعَاصِمُ
معاصِمُ لم تضرِبْ على البَهم بالضحى ... عصاها، ووجهٌ لم تَلُحْهُ السَّمَائمُ
نَضيرٌ تَرىٰ فيه أسَاريعَ مائِهِ ... صبيحٌ تُفَادِيه الأكُفُّ النواعم[1]

كلُّ هذا، وأكثر منه كما في بقيَّة القصيدة، رآهُ في المرأة وقد نظر إليها نظرةَ تحرُّجٍ فقط، خوفاً من الإثم، مع أن نَظَرهُ لولا التحرُّجُ، كما قال، حديدٌ شديدٌ، ومع أن الخَدَمَ مَدُّوا عليها ستراً كيلا يراها.

● عائشة والحارثُ المخزوميُّ:

كان الحارثُ بنُ خالد بن العاص المخزوميُّ شاعراً غَزِلاً على مذهب ابن أبي ربيعة، وكان من المفتونين بجمال عائشة بنت طلحة، يقولُ فيها الشعرَ كلَّما قدمتْ مكةَ للحجِّ، أو للعُمْرة. وكان له قَدْرٌ ومَنْظَرٌ في قريش[2]، فولَّاهُ عبدُ الملك بنُ مروان على إمارة مكة (٨٠ ـ ٨١ هـ)، وكان أبوه

---

(١) الأغاني: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.. عارم: شديدٌ حادٌّ. البِيعَةُ: معبد النصارىٰ، ويبدو أن المصابيح التي تستعمل فيها كانت شديدة النور. البَهْمُ: الصغيرُ من أولاد الضأن والماعز والبقر. نضيرٌ: حسن، جميلٌ، ناعمٌ. الأَسَارِيعُ: واحِدُه أُسروع وهو الخطُّ أو الطريق، يريد أنه يترقرقُ في وجهها النضير ماءُ الشباب.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٤، (وقد غلط الزركلي إذ جعل وفاته سنة ٨٠ هـ)، لأنه كان يومئذٍ أمير مكة.

خالدُ بنُ العاص وَلِيَها قبله ثلاث مرات[1]. . . وبيْنا عائشةُ تطوفُ بالكعبة يومئذٍ، أذَّن المؤذِّنُ، فخرج الحارثُ للصلاة، فأرسلت إليه عائشةُ: قد بقيَ من طَوَافي شيءٌ لم أُتِمَّهُ! فأمَرَ المؤذِّنَ، فكفَّ عن الإقامة ريثما تَفْرَغُ من طوافها. . . وبلغ ذلك عبدَ الملك فعَزَلهُ، فقال: ما أهْوَنَ واللَّهِ غَضَبُه عليَّ عند رضاها عني[2].

● ليت الحجَّ كان كلَّ يومين:

ذكر الأصفهاني أن إحدى بنات مروان بن الحكَم حَجَّتْ في سنةٍ، ولمّا قَضَتْ نُسُكَها، أحبَّتْ أن تسمعَ حديثَ ابنِ أبي ربيعة، فأَخْفَتْ نفسَها في نِسْوةٍ أتَيْنَهُ، فحدَّثَها مَلِيّاً، ثم انصرفتْ. . . فأتْبَعَها خادماً عرفتْ موضِعَها، فسأل عمرُ عنه حتى تحقَّق منها وعَرَفها، ولعلَّها كانت تنزلُ بالخَيْفِ من مِنىً. ولمّا عادتْ إليه بعد ذلك، أخبرها بأنه عرفها، فقالت له: سألتُك بالله ألاَّ تُشهرني بشِعرك! ثم بعثتْ إليه بألف دينار هديَّة، فقبِلَها، وابتاع بها حُلَلاً وطِيباً، وأهْداها إليها، فردَّتْها، فقال لها: واللَّهِ لئن لم تَقْبليها لأَجْعَلَنَّها نَهْباً مُباحاً لمن شاء أَخَذَ منها، فتكوني مشهورةً! فقبِلَتْها ورحَلَتْ، فقال فيها:

أيُّها الرائحُ المُجِدُّ ابتكارا ... قد قضى من تِهامَةَ الأَوْطارا
إن يكن قلبُك الغداةَ خَلِيّاً ... ففؤادي بالخَيْفِ أمسى مُعَارا
ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا ... كلَّ يومين حِجَّةً واعْتِمَارا[3]

---

(١) زامباور ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة: ٢٧.
(٢) الأغاني: ١١/ ١٨٠ ـ ١٨١.
(٣) المرجعُ نفسه: ١/ ١٦٦.

وقيل إن سعيدَ بنَ المُسَيّب[1]، سمع هذا الشعر فقال: لقد كلَّفَ المسلمين شَطَطاً! فقال مُحدِّثُه: إن في نَفْسِ الجَمَل شيئاً غير ما في نفس الجمَّال[2].

● عُمَرُ والنَّوَار:

وكانت النسوةُ القادماتُ للحجِّ يَعْلمنَ أن عُمَرَ لهنَّ بالمِرْصَادِ، يختلسُ النظرَ إليهنَّ، ليُشَبِّبَ بهنَّ، ويشيدَ بذكرهِنَّ، فكانت العجائزُ تُحذِّر الشابَّاتِ منه أن يَراهُنَّ، فيَفْضَحهنَّ بِشعره في أحياء العرب.

وبينما عمرُ مُنْصرفٌ من المزدلفة إلى مِنىً، إذ بَصُرَ بامرأةٍ في مركب على بعير، ففُتِنَ بها، وسمع عجوزاً تُناديها: يا نَوَارُ[3]، اسْتُري لا يَفْضحْكِ عمرُ بن أبي ربيعة!... فاتَّبَعَها عمرُ وقد شَغَلتْ قلبه، حتى نزلت بمِنىً، في فسطاطٍ كبير، فنزل إلى جنب الفسطاط، ثم لم يزل يَتَلطَّفُ حتى جلس معها، وحادَثَها، وإذا هي أحسنُ الناس وجهاً، وأحلاهم مَنْطقاً، فزاد ذلك في إعجابه بها، فأراد مُعاوَدَتَها، فتعذَّر ذلك عليه، وكان آخرَ عهده، ومما قال فيها وقتئذٍ:

عَلِـقَ النَّـوَارَ فـؤادُهُ جهـلاً　　　وصَبَـا فلـم تتـرك لـه عقـلا

---

(١) سعيد بن المسيب: من بني مخزوم، سيد التابعين في عصره، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان يعيش من التجارة بالزيت، ولا يأخذ عطاءً من بيت المال. توفي سنة (٩٤ هـ) عن اثنتين وثمانين سنة.

(٢) مصارع العشاق: ٢/ ١٦٠.

(٣) النَّوَارُ: المرأةُ النَّفُور من الريبة والشر، أمّا النُّورَة التي تُسمَّى بها البناتُ اليوم، فهي كلُّ علامةٍ بمَكْوَىً على بعيرٍ أو غيره، وهي أيضاً الكلْسُ الذي كان يُحلَق به شعرُ العانَة.

وتعرَّضتْ لي في المسير فما أمسى الفؤادُ يرى لها مِثْلا(1)

● سُعْدَى بنت عبد الرحمن بن عوف:

كانت سُعدى جالسةً في المسجد الحرام بمكة، فأبصرت عمر بن أبي ربيعة يطوفُ بالكعبة، فأرسلت إليه: إذا قضيتَ طوافَكَ فَأْتِنا! فلما قضى طوافَهُ أتاها، فحادثها وأنشدها من شعره، فقالت: ويحك يا ابنَ أبي ربيعة ما تزالُ سادِراً في حَرَم الله مُنْتَهكاً، تتناول رَبَّاتِ الحِجَال من قريش! فقال: دعي هذا عنك، أما سمعتِ ما قلتُ فيكِ؟ قالت: وما قلتَ فيَّ؟ فأنشدها:

أَحِـنُّ إذا رأيـتُ جمـالَ سُعْـدىٰ وأبكـي إن رأيـتُ لهـا قَـرِينـا
أَسُعْـدى إنَّ أَهْلَـكِ قـد أجَـدُّوا رحيـلاً، فـانظـري مـا تـأمـرينـا

فقالت: آمُرُكَ بتقوى الله، وتَرْكِ ما أنت عليه(2)...

● عمر يُزوِّجُ مُحِبَّيْن:

ويبدو أن عُمر لمّا أَسَنَّ، وذهب عنه ما كان به من شوق وطَربٍ إلى النساء، جعل يُنكر على نفسه بعض ما كان يفعل... ومن ذلك أنه نظر يوماً إلى رجُل يُكلِّم امرأةً في الطَّوَاف، فاقترب منه، وعاب عليه ذلك، وأَنكرهُ، فقال الرجُل. إنها ابنةُ عميٍّ! فقال له عمرُ: ذاك أَشْنَعُ لأمرك، فقال: إني خطبتُها إلى عمِّي، فأبىٰ عليَّ إلا بصَدَاق أربع مئة دينار، وأنا غيرُ مُطيقٍ ذلك... وشَكا إليه من حُبِّها، وكَلَفِهِ بها أمراً عظيماً، واسْتَشْفَعَ به على عمِّه. فسار معه إليه، وكلَّمه، فقال العمُّ: هو مُمْلِقٌ، وليس عندي ما أُصْلِح

---

(1) الأغاني: 1/159 ـ 160.
(2) المرجع نفسه: 17/97 ـ 99.

به أمرَه! فقال عمر: وكم الذي تريده منه؟ قال: أربع مئة دينار... فقال: هي عليَّ، فزَوِّجْهُ. ففَعَل العمُّ ذلك، فطرب عُمَرُ واشتاق إلى أيامه الماضِيات، فقال:

تقولُ وليدتي لمّا رأتني ... طربتُ وكنتُ قد أقْصَرتُ حِينا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقاً ... وهاج لك الهوى داءً دَفِينَا
فقلتُ شكا إليَّ أخٌ مُحبٌّ ... كبعض زماننا إذ تَعْلمينا
فقَصَّ عليَّ ما يَلْقَى بهندٍ ... فذكَّرَ بعضَ ما كنا نَسِينا
وذو الشوقِ القديم وإن تعزَّىٰ ... مَشُوقٌ حين يلقَى العاشِقينا(1)

● طائفةٌ بالبيت تُنْشِدُ شعراً:

جاء في الأخبار أن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان يطوفُ بالبيت الحرام، إذ رأى امرأةً تطوفُ وتُنشد:

لا يقبلُ اللّه من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها غَضْبانُ مهجورُ
ليست بمأجُورةٍ في قتلِ عاشِقها ... لكنَّ عاشقَها في ذاك مأجورُ

فقال لها: يا أَمَةَ الله! أمثلُ هذا الكلام في مثل هذا الموقف، في بيت الله الحرام؟ فقالت: يا فتىً! ألَسْتَ ظريفاً؟ قال: بَلَىٰ... فقالت: ألستَ راوِيَةً للشعر؟ قال: بلىٰ... فقالت: ألم تسمع قولَ الشاعر:

بيضٌ غَرائِرُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظِبَاءِ مكَّةَ صَيْدُهُنَّ حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث زَوَانِياً ... ويصدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ(2)

---

(1) الأغاني: ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(2) مصارع العشاق: ٢/١٧٧ و ٢١٧.

● **بكاءُ عاشقةٍ في المزدلفة:**

وفي أخبار العاشقين، نقل أبو محمد السرَّاج عن أحدهم قولَه: إني لبالمزْدَلفة بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ بكاءً مُتتابعاً، ونَفَساً عالياً، فاتَّبعتُ الصوتَ، فإذا أنا بجاريةٍ كأنها الشمسُ حُسْناً، ومعها عجوزٌ، فلَطِئْتُ بالأرض أنظرُ إليها، وأُمَتِّع عيني بحسنها، فسمعتُها تقولُ وهي تبكي:

دعوتُك يا مولاي سرّاً وجهرةً ... دعاءَ ضعيف القلب عن محمل الحبِّ
بُليتُ بقاسي القلب لا يعرف الهوى ... وأَقْتَلِ خَلْقِ اللَّهِ للهائم الصبِّ
فإن كنتَ لم تقضِ المودَّةَ بيننا ... فلا تُخْلِ من حبٍّ له أبداً قلبي
رضيتُ بهذا في الحياة، فإن أَمُتْ ... فحسبي ثواباً في المَعَادِ به حسبي

فقمتُ إليها، فقلتُ: بنفسي أنتِ، أَمَعَ هذا الوجه يمتنعُ عليكِ من تحبِّينَهُ؟ قالت: نعم، وفي قلبه واللَّهِ أكثرُ مما في قلبي. فقلتُ: إلى متى هذا البكاء؟ قالت: أبداً، أويصيرَ الدمعُ دماً، وتتلفَ نفسي غمّاً. فقلت لها: إن هذه لآخِرُ ليلةٍ من ليالي الحجِّ، فلو سألتِ الله التوبة مما أنتِ فيه، رجوتُ أن يُذهبَ حبَّه من قلبك! فقالت: يا هذا، عليك بنفسِكَ في طلب رغبتك، فإني قد قَدَّمتُ رغبتي إلى من ليس يجهل بُغْيَتي... وحَوَّلتْ وجهها عني، ورجعت إلى شِعْرها وبكائها[(١)].

● **لقاءُ كُثَيِّر وعَزَّة في الحجّ:**

ذُكر في أخبار كُثَيِّر صاحبِ عَزَّة، وكان عفيفاً في حُبّه وغَزَله، أنه وَفَد على عبد الملك بن مروان، فسأله عن أَعْجب خبر له مع عَزَّة، فقال:

---

(١) مصارع العشاق: ١/ ٧٧ ـ ٧٨.

حججتُ سنةً من السنين، وحجَّ زوجُ عَزَّةَ بها، ولم يكن أحدٌ منا يعلم بصاحبه، فلما كنا ببعض الطريق، أمرها زوجُها أن تَبتاع سمناً تُصْلح به طعاماً، فجعلتْ تأتي الخِيَامَ خَيْمةً بعد أُخرى، حتى دخلتْ عليَّ وهي لا تعلم أنها خيمتي. وكنتُ أَبْري سهماً، فلما رَأَيْتُها جعلتُ أبري أصبعي وأنا أنظر إليها ولا أعلمُ ما أصنع، فأقبلتْ عليَّ، وأمسكت يدي، وجعلتْ تمسحُ الدمَ عنها بثوبها. وكان عندي زِقٌّ من السمن، فحلفتُ لتَأخُذَنَّه، فأخذتْه، وذهبتْ به إلى زوجها، فرأى أثَر الدم عليها، فسألها عن خبره، فكتمتْهُ، فحلَفَ لتَصْدُقَنَّه، فصَدَقَتْهُ، فضربها وحَلَفَ لَتَشْتُمَنِّي في وجهي! فوقفتْ عليَّ، وهو معها، وقالت لي: يا فاسق! وهي تبكي، ثم انصرفا... فذلك حين أقول:

يُكلِّفُها الخِنْزيرُ شَتْمي وما بِها ... هَوَاني، ولكنْ للمليكِ اسْتَذلَّتِ[1]

وهو من قصيدته التي قال فيها، يذكرُ ذلك الموسمَ، ومكانَها أو رَبْعَها الَّذي نزلتْ به يومئذٍ:

خليليَّ هذا ربْعُ عزَّةَ فاعْقِلا ... قَلُوصَيْكُما ثم ابكيا حيث حلَّتِ
وما كنت أدري قبل عَزَّةَ ما البُكا ... ولا مُوجِعاتِ القلبِ حتى تَولَّتِ

وأحب أن أُسجِّلُ هنا أن هذا الغَزَلَ الذي سمَّتْه كتُبُ الأدب والنقد: شِعْرَ الوقوفِ على الديار الخَالِيَة، وبكاءِ الأطلالِ العافِيَة، كالَّذي ابتدأ به كُثيِّر قصيدتَه، بطلَبِهِ من أصحابه أن يتوقَّفُوا عند الرَّبْع الذي حلَّتْ به عَزَّةُ في الموسم، ثم أصبح منها خالياً... هذا الشعر إنما هو أثَرٌ من آثار المواسم الكبرى، كموسم الحجّ، وموسم الخروج إلى البادية للتربُّع فيها زمنَ الربيع

(١) الأغاني: ٩/٢٨ ـ ٢٩. والقَلُوص: الناقةُ الشابَّةُ الطويلةُ القوائم.

أو الخريف، فهذه المواسمُ العامَّةُ كانت الموضعَ الوحيدَ الذي يمكن أن يتلاقىٰ فيه المحبُّون، وأن يسعَىٰ بعضُهم في إثْر بعض، دون أن يخشَوْا غالباً ما يخشَوْنَه عادةً خارجَ المواسم، بعدما يعودون منها إلى مَواطِنهم التي يُقيمون بها دائماً. فهنالك إن سعى الشاعرُ إلى منزل حبيبته، ليقفَ به ويسْتَوقفَ، ويبكي عنده ويَنُوح، حلَّ قتلُه وأُريق دمُه إذا كان قادماً من قبيلةٍ أخرى، فإن كان من القبيلة نفسِها حُرِّمَتْ عليه رؤيتُها أو زيارتُها ولقاؤها، بل والزواجُ بها لأنه فَضَح القبيلةَ حين شَبَّبَ بابنة عمِّه، وانتشر شعرُه في قبائل العرب.

● **أشعرُ من قال في مشاعر الحجِّ:**

ذكروا أن أحْسَنَ ما قيل في مشاعر الحجِّ قولُ كثيِّر:

تَفرَّق أنواعُ الحجيج على مِنىً ... وفرَّقَهم، شَعْبَ النَّوىٰ، مَشْيُ أرْبَعِ
فلم أرَ داراً مثلَها دارَ غِبْطةٍ ... ومَلْقىً إذا الْتفَّ الحجِيجُ بَمْجَمَعِ
أقلَّ مُقيماً راضِيَاً بمقامِهِ ... وأكثرَ جاراً ظاعِناً لم يُودَّعِ[1]

ومثلُ ذلك قولُ القلقشندي في معرض كلامه على فضل الألفاظ، وشَرَفِها، وحُسْنِ انتقائها: «وإذا كان الكلامُ حلواً عَذْباً، وسَلِساً سهلاً، ومعناهُ وسَطاً، أي حَسَناً، دَخَل في جُملة الجيِّد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر:

ولمّا قَضَينا من مِنىً كلَّ حاجَةٍ ... ومسَّحَ بالأركان مَن هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارِي رِحَالُنا ... ولم ينظرِ الغادي الذي هو رائحُ

---

(١) مصارع العشاق: ١/ ١٩٩، الشَّعْبُ: التفريق. النوى: البُعد. مشي أربعٍ: أي مسيرُ أربع ليال.

أخـذنـا بـأطـراف الأحـاديـث بيننـا وسَـالَـتْ بـأعنـاق المطِيِّ الأبـاطـحُ

وقال: وليس تحت هذه الألفاظ كثيرُ معنىً، وهي رائقةٌ مُعْجِبةٌ، وإنما معناها: ولمَّا قضَيْنا الحجَّ، واستلمنا الأركان، أي أركان الكعبة، وشُدَّتْ رِحَالُنا على مَهازِيل الإبِل، ولم ينتظر بعضُنا بعضاً، وجعلنا نتحدَّثُ، وتسيرُ بنا الإبلُ في بطون الأودية»[١].

وقد ضرب ابنُ قتيبة هذه الأبيات مَثَلاً على أن ألفاظها أحسنُ شيءٍ مَخَارِجَ ومطالِعَ، ومقاطِعَ، مع أن معناها يسيرٌ[٢]... ولم يَنْسُبْها إلى أحدٍ من الشعراء، ولكن أحمد الربيعي نَسبها في كتابه إلى كُثيِّر عَزَّة، وقال: إنها أبياتٌ مشهورة، تناقلها النقَّادُ وأهلُ البلاغة، تنويهاً بلُطف الوصف الذي جاء فيها لمناسك الحجِّ[٣].

● مجنون ليلى في الحجّ:

لمَّا ظَهر من قيسِ بن المُلوَّح العامريّ، ما ظهر من هُيَامِهِ بابنة عمه ليلى بنت سعد، ورأى قومُه ما ابتُليَ به، أَتَوْا أبا ليلى ورَهْطَها، وسألوهم بالرَّحِم أن يُزوِّجوا قيساً من ليلى، وأخبروهم بما ابتُلي به من حُبِّها، فأَبَىٰ أبو ليلى، وحَلَفَ ألاَّ يزوِّجها منه أبداً... فقال الناس لأبي قيس: لو خرجتَ به إلى مكة، فعاذ بالبيت، ودعا الله، رجَوْنا أن ينساها، أو يُعافِيَه اللَّهُ ممّا ابتُليَ به! فحجَّ به أبوهُ إلى مكة، وبينما هو يمشي بمِنىً، وأبوه معه قد أخذ بيده، يريدُ رميَ الجِمَار، سمع منادياً يُنادي من بعيد: يا ليلى! فظنَّها ليلاهُ، وخَرَّ مَغْشِيّاً

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٢٢٣.
(٢) الشعر والشعراء: ٦٦ ـ ٦٧.
(٣) «كُثيِّر عزَّة». حياتُه وشِعره: ٢١٣، (دار المعارف بمصر ١٩٦٧).

عليه، واجتمع الناسُ حوله، ونَضَحوا الماءَ على وجهه، وأبوه يبكي عند رأسِهِ. ثم أفاق وهو مُصْفَرٌّ لونُه، مُتَغيِّرٌ حالُه، فأنشأ يقول:

ودَاعٍ دعا، إذ نحن بالخَيْفِ من منىً فهيَّجَ أشواقَ الفؤادِ ولم يَدْرِ
دعا باسْم ليلى غيرِها، فكأنَّمَا أطار بليلى طائراً كان في صدري

وبينا أبو قيس يطوفُ بالكعبة، ويدعو الله له بالعافية، كان قيس يقول:

دعا المُحْرِمونَ اللَّه يستغفرونه بمكة، وَهْناً، أن تُمَحَّىٰ ذنوبُها
وناديتُ أن يا ربِّ أوَّلُ سُؤْلَتي لنفسيَ ليلى، ثم أنت حَسِيبُها
فإن أُعْطَ ليلى في حياتيَ لا يَتُبْ إلى اللَّه خَلْقٌ توبةً لا أتُوبُها(١)

ويبدو أن قيساً كان يرجو لقاءَ ليلى وهي ترمي الجِمَارَ بِمنىً، فلم يَرَها، فقال:

ولم أرَ ليلى، بعد موقفِ ساعةٍ بخَيْفِ مِنىً ترمي جِمَارَ المُحَصَّبِ
ويُبْدي الحصَى منها إذا قَذفتْ به من البُرْدِ أطرافَ البَنَانِ المُخَضَّبِ
وأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ من الصبح في أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ(٢)

* * *

وأخيراً، لا شك في أن مواسم الحجِّ كانت تشهدُ، فضلاً على مجالس الشعر والشعراء، جوانبَ مختلفةً من الحياة الاجتماعية، كانت تجري بعد انقضاءِ أيام الحجّ بمكة، ولا سيما أن كثيرين من أشراف العرب، كانوا يَظَلُّون فيها حتى تُسْتَرَ الكعبةُ في العاشر من المحرَّم، ويُغادِرَ وقتئذٍ آخِرُ

---

(١) الشعر والشعراء: ٥٦٧ ـ ٥٦٨، ومصارع العشاق: ٢/ ٥٣، و ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤١٢.

الحاجّ مكة إلى بلادهم[١]... أمّا حكاياتُ الشعرِ والشعراءِ في مواسم الحجِّ، فكانت كثيرةً جداً بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين، ولكنني اجتَزَأْتُ ببعض النماذج الطريفة، لعلّي أقدِّم من خلالها صورةً واضحةً لمجامع العرب العامَّة في ذلك الزمن.

ويبدو من استقراء بعض الأحاديث، أن الغناءَ ولَعِبَ الجواري بالدفوف في أيام الحج، لم يكن عملاً مُسْتقبَحاً، لأن رسولَ الله قال: «يومُ عَرَفَة، ويومُ النَّحْر، وأيامُ مِنىً: عِيدُنا أهلَ الإسلام، وهي أيامُ أكلٍ وشُرْبٍ»، رواهُ أبو داود والنَّسَائيُّ والترمذيُّ[٢]. ورُوي عن السيدة عائشة أن أبا بكر دخل عليها في بعضِ أيام الحجِّ، وعندها جاريتان تُغنّيانِ، وليسَتا بمُغَنِّيَتَين، فأنكر ذلك عليها، فقال رسولُ الله: يا أبا بكر، إن لكلِّ قوم عيداً، وهذا عيدُنا... وفي الصَّحِيحيْن أنه قال: دَعْها يا أبا بكر فإنها أيامُ عيد... وكانت تلك الأيام أيامَ مِنىً[٣]... ومما يُذكر أيضاً أن مواسم الحجِّ كانت خير مناسبة لإذاعةِ خبرٍ، أو إعلانه في الناس، لأنها أكثرُ عُموميَّةً من المواسم الأخرى... ومن ذلك أنه لمَّا تُوفيَ الزبيرُ بنُ العوَّام، وفَرَغَ ابنُه عبدُ الله من قضاء دَيْنِهِ، قال بنو الزبير: إقْسِمْ بيننا ميراثَنا! فقال: لا واللَّهِ، لا أَقسِمُ بينكم حتى أنادي في الموسم أربعَ سنينَ: ألاَ من كان له على الزبير دَيْنٌ، فلْيَأْتِنا فنقضيه... فجعل كلَّ سنةٍ يُنادي بالموسم، فلمَّا مضت أربعُ سنين، قَسَمَ بينهم[٤].

---

(١) أخبار مكة: ١/٢٥٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٩٤.

(٣) المرجع نفسه: ١٧٩، ١٩٣.

(٤) الطبقات: ٣/١٠٩.

● **تَعْقيب:**

إذا نظرنا كرَّةً أخيرة إلى أسواق عكاظ ومَجنَّة وذي المجاز، وجدنا أن وراء إقامتها بين مكة والطائف، تدبيراً مُحْكَماً، فتلك البقعةُ الوسَطُ امتازت بخَصَائصَ طبيعيةٍ وجغرافيَّةٍ قلَّما توافَرَ بعضُها لبقعةٍ أخرى من بلاد العرب. . . ووجدنا أن وراءَ ذلك أيضاً دهاءً حاذقاً، فقد جُعِلتْ مواسمُها تتَّصِلُ اتِّصالاً مباشراً، في نَسَقٍ زَمنيٍّ واحدٍ، بشعائر الحجِّ، في عَرَفَة ومِنىً والكعبة، وكأنها مدخلٌ إليها، حتى غَلَبَ عليها جميعاً إسمُ مواسم الحجِّ، فقيل للناس يومئذ: لا تَحضُروا سوقَ عكاظ إلا وأنتم مُحْرِمون بالحجِّ، وكان لا بُدَّ لمن أراد الحجَّ من العرب، أن يمرَّ بتلك الأسواق، فيشهد مواسمها قبل أن يصل إلى عَرَفة، ثم مِنىً والكعبة. ذلك أن عرفة لم يكن بها ماء، كما رأينا، فكان عليه أن يَتَزَوَّدَ بالماء من ذي المجاز، ولم يكن بها وبمنىً بيعٌ ولا شراء، فكان عليه أن يتزوَّدَ بما يحتاجُه من عكاظ أو مجنَّة أو ذي المجاز، هذا إن لم يكن صاحبَ تجارةٍ يريدُ أن يبيعَ عُروضَه، أو يستبدلَ بها عُروضاً أخرى.

أمَّا أهلُ مكة ومَن جاوَرهم، فقَلَّ مَن لم يكن منهم يخرج بتجارةٍ إلى عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بل لعلَّهم كانوا أشدَّ الناس حرصاً على شُهودِ هذه الأسواق من شُهودهم شعائرَ الحجِّ، فالبيتُ الحرامُ قائمٌ في ديارهم، وأصنامُ الجاهليَّة التي كان الناسُ يحجُّون إليها كانت قائمةً في البيت وفيما حوله، والطوافُ بكلِّ ذلك مَيْسُورٌ لهم متى شاؤوا. . . وعلى ذلك فقد أفادوا ومَن حولهم، من هذه الأسواق، فوائدَ كثيرةً من المالِ والشَّرفِ والنفوذِ، وهو ما لم يُحقِّق بعضَهُ سائرُ قبائل العرب.



الباب الثالث

مواسم الأسواق في جزيرة العرب

الفصل الأول: سوق حَجْر اليمامة

الفصل الثاني: سوق نطاة خيبر

الفصل الثالث: سوق دومة الجندل

الفصل الرابع: سوق المشقَّر بهجر

الفصل الخامس: سوق حباشة

الفصل السادس: مواسم أسواق عُمَان (١ ـ صُحَار، ٢ ـ دبَا)

الفصل السابع: سوق شحر مَهْرة

الفصل الثامن: موسم سوق الرابية بحضرموت

الفصل التاسع: مواسم أسواق اليمن (١ ـ عدن، ٢ ـ صنعاء، ٣ ـ نجران)

الفصل العاشر: موسم سوق بدر

الفصل الأول

سوق حَجْر

حجْرٌ مدينةُ اليمامَة، وأمُّ قُراها، وهي شركة بين عدد من أحياء العرب، إلا أن الأصل لبني حنيفة بِن لُجَيْم، من بكر بن وائل. واليمامةُ من نَجْد، وكانت تُسمَّى جَوّاً، والعَروضَ، وكانت بها قصورٌ في القديم من الزمن، وحصونٌ مَبْنيَّةٌ.. وكانت حَجْرٌ منزلَ أُمراءِ اليمامة وولاتِها، تقع إلى الغرب من قَطَر، وامْتَازَتْ بما كان فيها من المياه والنخيل(١). وذكر ابنُ منظور أنَّ حَجْراً قَصَبَةُ اليمامةِ وسُوقُها(٢).. وهي مشهورةٌ في العرب، اشتُهر منها زرقاءُ اليمامة التي ضُرِبَ المثَلُ بحِدَّةِ بصرها(٣)، كما اشتُهِر منها عرَّافُ اليمامة، رباحُ بن مكحول، وكان طبيباً أو كاهِناً يقصدُه الناسُ من أماكنَ بعيدةٍ، وفيه قال عروةُ بنُ حزام العذريّ صاحبُ عَفْراء:

جعلتُ لعَرَّافِ اليمامة حُكمَهُ ... وعَرَّافِ نَجْدٍ إن هما شَفَياني

فما تَركا من رقيةٍ يَعْلمانِها ... ولا سَلْوةٍ إلا بها سقياني(٤)

والسَّلْوةُ والسُّلْوانَةُ خَرَزةٌ شفَّافة، قيل: تُسْحَق ويُشْرب ماؤها، فيَسْلو شاربُ ذلك الماء عن حُبِّ من ابتُلَى بحبّه، أو هي شيءٌ يُسْقاهُ العاشقُ ليسْلوَ عن المرأة التي تيَّمتْهُ.

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٢٢١، و٥/ ٤٤٢.

(٢) لسان العرب: ٤/ ١٧٠ (حجر).

(٣) الأعلام: ٣/ ٤٤.

(٤) الأغاني: ٢٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧، ولسان العرب: ١٤/ ٣٩٥ (سلا).

ومنها أيضاً الشاعرُ الأعشى ميمونُ بنُ قيس، وكان مولدُه ووفاتُه في قرية «مَنْفُوحة» باليمامة[1]. . وفيها تَحصَّنَ مُسَيْلِمَةُ الحَنَفيُّ الكذَّابُ عندما ارْتَدَّ عن الإسلام، واتَّبعتْهُ سَجَاح بنتُ الحارث التميميَّةُ المُتَنبِّئَةُ[2].

ينعقد موسمُ سوقِ حَجْر في العاشر من المحرَّم (صفر الأول)، وفي اعتقادنا، يقعُ هذا اليومُ في العاشر من تشرين الأول (أكتوبر)، ويظلُّ الموسمُ قائماً حتى آخر الشهر، فينفضُّ الناسُ عنه إلى مثله من قابل[3]. ونعتقد أن مَن كان يقصدها من الناس لم يكن بحاجةٍ إلى خفارة، لأنها تقومُ في شهرٍ حرام، في حاضِرَةٍ أمرُها مُحْكَمٌ، يتولاَّهُ أشرافُ بني حنيفة، ويعشرون التجَّارَ فيها، وكان أميرَها لمّا ظهر الإسلامُ: هَوْذَةُ بنُ عليّ بن ثمامة، سيدُ بني حنيفة، وشاعِرُهم، وخطيبُهم، وكان يُقال له ذو التاج، وهو من أهلِ قُرَّان، من قُرى اليمامة، وكانوا أفصحَ بني حنيفة[4].

* * *

وقيل إن سوق حَجْر كانت في الجاهلية تُشبه سوق عكاظ، بما كان يجري فيها من بيع وشراء، وتفاخُر، ومُنافَرة، وتَنَاشُدِ أشعار، وخطابة. ثم كان لها في الإسلام شأنٌ أدبيٌّ آخَرُ، إذ كانت بلدَ الشاعرِ المشهور جرير بن عطيّة الخَطَفيّ التميميّ (٢٨ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٠ ـ ٧٢٨ م)، وُلِد ومات فيها، وكان من أشعر أهل عصره، ولم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل[5]. وكان مجلسُ جرير أحَدَ المَشَاهِدِ في سُوقِ حَجْرٍ، وقد قيل إنه كان يوماً جالساً عند

(١) الأعلام: ٧/ ٣٤١.
(٢) الأعلام: ٧/ ٢٢٦، و٣/ ٧٨.
(٣) المحبَّر: ٢٦٨.
(٤) الأعلام: ٨/ ١٠٢.
(٥) المرجع نفسه: ٢/ ١١٩.

المُهاجِر بن عبد الله الكلابي والي اليمامة، فأتاهُ نَعيُ الفَرزدق، فقال جرير:

مـات الفـرزدقُ بعـدمـا جَـدَّعتُـه ... ليت الفرزدق كان عاش قليلا[1]

فقال له المهاجِرُ: بئس ما قلتَ! أتهجو ابنَ عمِّك بعدما مات؟ لو رثَيْتَهُ لكان أحسنَ بك.. فقال: والله إني لأعلم أن بقائي بعده لقليلٌ، وإن كان نجمي مُوافِقاً لِنَجمِه، أفلا أَرْثيه؟ فقال له: لو كنتَ بكيتَهُ ما نَسِيتْك العرب! ثم قال جرير يرثيه:

فـلا وَلَـدتْ بعـد الفـرزدق حـامـلٌ ... ولا ذاتُ بَعْـلٍ مـن نَفَـاسٍ تَعَلَّـتِ

هو الوافِدُ المأمونُ والرَّاتِقُ الثَّأَىٰ ... إذا النَّعْـلُ يـومـاً بـالعَشيـرةِ زَلَّـتِ[2]

ثم بكىٰ وندم وقال: أما والله إني لأعلمُ أن كل واحد منا كان مشغولاً بصاحبه، وقلَّما مات ضِدٌّ أو صديقٌ إلا تَبِعَهُ صاحبُه[3].. فكان كذلك، ومات جرير بعد سنةٍ، وكانت سوقُ حَجْر خاتمةَ المطاف للحرب الشعريَّة الطويلة بين جرير والفرزدق.

* * *

وجاء في إحدى روايات الأصفهاني أن عليَّ بن شفيع، من بني بكر بن وائل، كان واقفاً بسوق حَجْر، فرأى رجُلاً له هَيْأةٌ حسنة، وعليه أَرْدِيةٌ من الحرير، يركب نجيباً مَهْريّاً، عليه رَحْلٌ لم يَرَ أحسنَ منه قطّ، وهو يقول: مَن يُفاخرني، من يُنَافرني ببني عامر بن صعصعة فرساناً، وشعراء، وعَدَداً، وفعالاً؟ فقال له عليٌّ: أنا أُنافِرُك! قال: بمن؟ فقال: ببني ثعلبة بن

(١) جَدَعَه: قطع أنفه.

(٢) تَعلَّت: سَلِمتْ وعُوفيتْ. الثَّأَىٰ: الخَرْمُ والفَتْق.

(٣) الأغاني: ٨/٨٨، و٢١/ ٤١٠ ـ ٤١١، ولسان العرب: ١٤/ ١٠٧ (ثأى).

عُكابَة[1]. . . قال: أما بَلَغَك أن رسول الله نَهَىٰ عن المنافرة؟. . ثم ولَّىٰ هارباً! فسأل عليٌّ عنه، فقيل له: إنه عبد العزيز بن زُرارة الكلابيُّ[2]، وكان سيِّدَ قومه.

* * *

(١) بنو ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن بكر بن وائل. وقد اشتُهر من بني ثعلبة: شيبان، وقيس الذي يُعَدُّ الشعراء من بنيه أشعر الناس، وكان منهم الأعشى.
(٢) الأغاني: ٩/ ١٠٥.

الفصل الثاني

موسمُ نَطاة خَيبر

نطَاةُ حِصْنٌ، وعينُ ماءٍ بقريةٍ من قرى خَيْبر، وخَيْبَرُ واحةٌ خصبةٌ، فيها عيون ماءٍ جاريةٌ، فوق حَرَّةٍ مُرْتَفعةٍ، تقع على طريق الشام بين المدينة وتَبُوك، يكثر فيها النخيلُ والمزارعُ المُتنوِّعةُ. أهلُها كانوا من اليهود الذين استوطنوا الحجازَ قديماً، واسْتَعْربوا، واشتغلوا بالزراعة، واستغلُّوا موقعَ قُراهم على الطريق التجارية بين اليمن والشام، فأسْهَمُوا في التجارةِ وقوافلها، فصارت منطقتُهم إحدى محطات القوافل التجارية، فأفادوا من الزراعة والتجارة ثرواتٍ عظيمةً، وغنىً واسعاً. وأقاموا هنالك لأنفُسِهم حُصُوناً، قيل إنها سبعةٌ، هي: شِقٌّ ووطيحُ وقَمُوص وسُلالم وناعِمٌ وكتيبةٌ ونطاةُ[1]، وجعلوا فيها أموالهم وأرزاقهم ومِيرتَهم من حُبُوبٍ وثَمرٍ وسائر الطعام. وقد بلغ من وَفْرة غناهم، أن المسلمين، لمَّا فتحوا هذه الحصون سنةَ سبعٍ للهجرة، وجدوا فيها كنوزاً من الذهب والفضة، وأموالاً طائلةً.

ويبدو أن نطاةَ كان حصناً رئيساً في حُصونهم، فكانوا يُقيمون به موسِمَهم في عاشوراء، ويظلُّ قائماً حتى آخِر الشهر[2]. وعاشور عند اليهود، كعاشوراء عند العرب، يقع في العاشر من شهر تشري بالتقويم العبري، أي تشرين الأول (أكتوبر) بالتقوم السرياني، والمحرَّم أو صفر

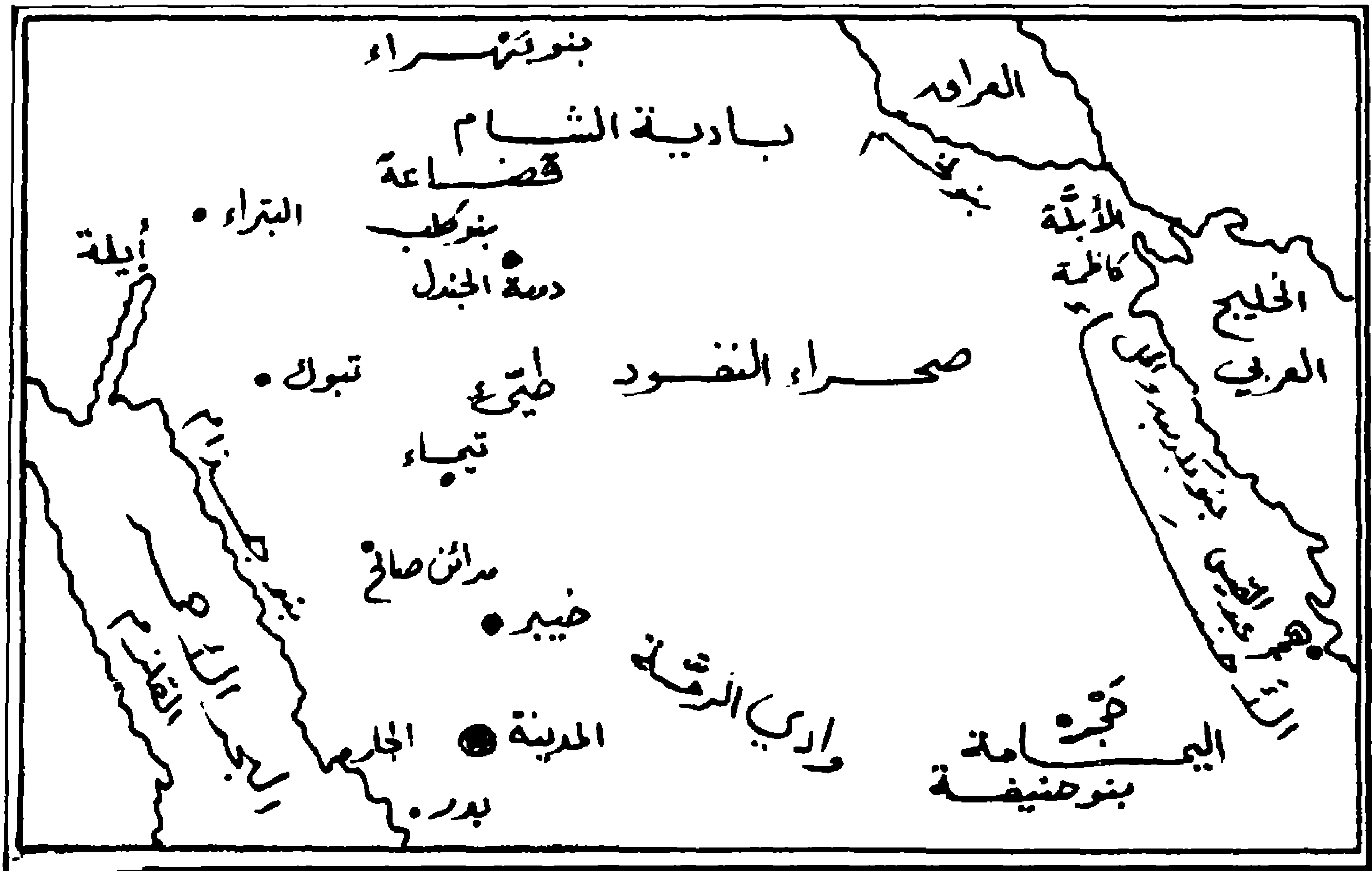
---

(١) تاج العروس: ١١/ ١٣١ (خبر)، _معجم البلدان: ٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠، و٥/ ٢٩١.

(٢) المحبَّر: ٢٦٨.

الأول بالتقويم العربيّ. وكان أهلُ خَيْبَر يصومون عاشوراء، ويتَّخِذُون من هذا اليوم عيداً، يُلبِسُون فيه نساءَهم الحليَّ واللباسَ الحَسَنَ والزينةَ(١)، ويلعبون فيه ويمرحون، ويتبايعون. ولعلَّ أحياءَ العرب القريبة من واحة خيبر، كانت تقصدها في موسم عاشوراء، وتُشارك في المتاجَرة بها، أو تمتارُ منها ما هي محتاجةٌ إليه. وقد ظلَّ اليهودُ بخَيْبَر حتى أجْلاهُم عنها أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّاب(٢)، إلى الشام، وقَسَمَها بين أصحاب السِّهام فيها من المسلمين.

* * *



(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٢.

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤١٠.

الفصل الثالث

موسمُ دُومَة الجَنْدَل

المطلب الأول ـ موقعُ السوق وخَطَرُهُ:

كانت السوقُ تقومُ في دُومَةِ الجَنْدَلِ[١]، وهي واحةٌ خضراءُ خصيبةٌ، فيها مياهٌ عَذْبةٌ، وحِصْنٌ مَنِيعٌ، وقُرىً كانت لبني كلب بن وبرة، من بُطون قضاعة[٢]، تقع في الشمال من صحراء النفود، فيما يُسمَّى اليومَ منطقةَ الجوف، على منتصف الطريق القديمة للقوافل، بين الشام والعراق[٣]، وهي في غائطٍ مُطْمئنٍّ من الأرض، يبلغ نحو خمسة عشر ميلاً[٤]، يمتدُّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وكلُّها حدائقُ وبساتينُ ومزارعُ نخيل، وفي جوارها بعضُ القرى التابعة لها، وعَدَدٌ من الواحات الصغيرة المزروعة نخلاً. وهي في هذا الموقع تتَّصلُ بأرض الحيرة، وديارِ بني بكر بن وائل من الشرق[٥]، وبديارِ

---

(١) دُومَة: الدَّوْمُ جنسُ شجر ضخم، من فصيلة النخليَّات، يُستخرج من ثماره نوعٌ من الدبس. ينبت في جزيرة العرب ومصر والسودان. الجَنْدَل: الصخر العظيم، واحدتُه جَنْدَلَةٌ.

(٢) قُضَاعَة: جدٌّ عربيٌّ قديم، والأكثر على أنه قحطاني، كان ملكاً على بلاد الشحر بين عُمَان واليمن. بَنُوهُ قبائلُ وبطونٌ كثيرةٌ، وهي أولُ من نَزَح من الجنوب إلى الشمال في نحو تاريخ الميلاد أو ربما قبله بقليل. وقد تفرقوا في البلاد، وكان لهم مُلْكُ ما بين الشام والحجاز إلى العراق. وكانت قبيلةُ كلب بن وَبَرة من أعظم قبائلهم.

(٣) الامتاع والمؤانسة: ١ / ٨٣ ـ ٨٤، وتاريخ العرب: ٢٠٥.

(٤) معجم البلدان: ٢/ ٤٨٧.

(٥) ديار بكر: وهو بكر بن وائل من بني ربيعة، قبيلة كبرى منازلُها كانت منتشرة بالبحرين والأحساء واليمامة، ثم امتدَّت إلى الشمال من بلاد الرافدين، حيث اشتُهرت البلاد هنالك باسم ديار بكر. والمقصود هنا ديارهم في شرق جزيرة العرب، أنظر الخريطة.

طيِّىء من الجنوب[١]، وبديار بني جُذَام ومدينتيْ تَيْماءَ وتَبُوك من الغرب[٢]، وبديارِ بَهْراءَ[٣]، ومنازلِ الغساسنة من الشمال[٤].

ويقال إن دومة الجندل كانت من القُرَيَّات، وهي ثلاثٌ: دُومَة وسُكاكة وذو القارة. فأما سُكاكة وذو القارة فكان على كلٍّ منهما سورٌ يُتحصَّنُ به، ولكنَّ أهلهما قليلٌ. وأمَّا دُومَة فهي جُملةُ قرى، عليها سورٌ قديم مَبْنيٌّ بالجَنْدَلِ الضخم، ومن وراء السور حِصْنٌ آخَرُ منيعٌ إسمه: مارِدٌ[٥]. وفي بعض الأخبار أن الزبَّاءَ ملكة الجزيرة الفُراتيةِ، أغارت على أهل دومة، فتحصَّنُوا منها بحِصْنهم هذا، فعجزت عنهم، وامْتَنَع عليها اختراقُ الحِصْن، فقالت قَوْلةً ذهبت مثلاً: تمرَّدَ مارِدٌ، وعَزَّ الأَبْلق[٦].. وإذا صحَّ هذا الخبرُ،

---

(١) ديارُ طيِّىء: جَبَلا أَجَأ وسَلْمى في شمال نجد.

(٢) جُذَام: منازلهم في الساحل الشرقي للبحر الأحمر، في شماله، بين تَبُوك والعقبة. تَبُوك: من مدن الحجاز في أطراف الشام، تقع إلى الشمال الغربي من تيماء. غزاها المسلمون سنة تسع للهجرة. تَيْماء: موضع قديم في الحجاز، على حافَةِ الصحراء بين وادي القُرى والشام، ملتقىٰ طرق القوافل القادمة من بلاد الشام ومصر والعراق واليمن، وبها عينُ ماء غزيرة، تُعدُّ أكثر عيون الماء شهرةً في شمال الجزيرة.

(٣) بهراء: قبيلة عربية قديمة من بني قضاعة، منازلها بين باديتيْ الشام والسماوة، إلى الشمال من دومة الجندل، والجنوب من تدمر.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٢٤٩ و١/ ٦١٣.

(٥) معجم البلدان: ٢/ ٤٨٧، والمفصَّل: ٤/ ٢٣٦.

(٦) معجم الأمثال: ١/ ١٧٣، والمفصَّل: ٣/ ١٠٦، وتاريخ الأدب العربي: ١/ ١٢١. والأَبْلَقُ: حِصْنُ الشاعر السَّمَوْأَل بن غريض الأزديّ، وقد حقَّق بروكلمان أنه كان عربياً محضاً، وأُمُّه من بني غسان. ويُعرف هذا الحصن بالأبْلق الفَرْدِ، وكان منقوشاً عليه بالعربيَّة كما ذكر الجاحظ. وهو يُشْرف على تَيماءَ من رابية عالية. ويُقال إنّ الزبّاء غَزَتْه أيضاً، فامتنع عليها، فرجعت عنه، وقالت تلك القولة الشهيرة. وجاء في بعض المراجع أن الزبَّاءَ هذه هي ملكةُ تدمر زنوبيا، والصوابُ أنها ملكة الجزيرة الفراتية، صاحبة جذيمة الأبرش ملك العراق.

ولعلَّه صحيح، فالعهدُ بدُومَةَ يعودُ إلى القرن الثالث للميلاد، ومن الضروريّ أن نذكر هذه الملاحظة، لأنَّ الأخبارَ عن وجودِ هذه المدينة، وبنائها، وأَهْلِها، كثيرةٌ ومُتَناقِضَة.

وقد أشارت إلى وجود «دُومة الجندل» في وسط البادية، كقلعةٍ حصينةٍ للعرب، نصوصٌ تاريخيَّةٌ قديمة، منها نصٌّ آشوريٌّ يذكر أن ملك آشور سَنْحَرِيب بن سرجون قام بحملةٍ سنةَ (٦٨٨ ق.م) على العرب في البادية، فأخضع «أَدُّومُو قلعةَ بلاد العرب»، واستولى على أصنامها، وحملها إلى عاصمته[١].. ومنها نصٌّ بابليٌّ يُشير إلى أن الملك نبونيد حَمَل عليها سنة (٥٥٢ ق.م)، وقضى على حُكَّامها، ثم تابع مسيرهُ، فهاجم تَيْماءَ، واحْتلَّها، وجعل منها مَقَرّاً لحُكمه[٢]. والطريقُ بين دُومة الجندل وبلاد الشام كانت معروفةً قديمةً، وهي التي سلكها نبونيد إلى الدُّومَة، والتي كان الحُجَّاجُ إلى مكة يسلكونها أيضاً[٣]... وهنالك اعتقاد بأن الدُّومَةَ وما حولها هي المنطقة التي كان الآشوريُّون يُسمُّونها بلادَ «عريبي أو أربي»[٤]... وتدلُّ هذه الأخبار على أن الدُّومَةَ كانت قلعةً عربيةً، قائمةً في الألف الأول قبل الميلاد، وأن موقعها كان مركزاً خطيراً، لا بُدَّ للقوافل أن تختلف إليه، في تَنقُّلها بين جزيرة العرب والشام والعراق، تَتَروَّىٰ بالمياه العَذْبة، وتسعى إلى الراحة بعد التعب، وتَتَزوَّدُ بالطعام بعد السَّغَب.

---

(١) تاريخ العرب: ٦٧، والمفصَّل: ١/ ٥٩٠ ـ ٥٩٢.

(٢) تاريخ العرب: ٦٩.

(٣) المفصَّل: ١/ ٦١١.

(٤) قصة الكتابة العربية: ٩.

المطلب الثاني ـ دولة بني كلب في الدُّومة:

يتفق المؤرِّخون على أن بني كلب بن وبرة كانوا، بعد انسياح بطون قضاعة من الجنوب، ينزلون دومةَ الجندل وتَبُوكَ وأطرافَ الشام(١). وأنهم أقاموا دولةً صغرى في دُومة الجندل وما حولها، بعدما غلبوا مَن كان بها(٢). وقيل إن أولَ من رَأَسَها منهم دُجَانَةُ بنُ قُنَافَةَ الكلبيُّ، من حَفَدَةِ زهير بن جَناب(٣)، وهو من كبار زعماء قبيلة كلب. وقد ظلَّ المُلْكُ على دُومة وتبوك فيهم، حتى قُبيل ظهور الإسلام، حيث كانوا يتداولونه وقتئذٍ مع بني السَّكُونِ من كندة، ولمّا ظهر الإسلامُ كان الأُكَيْدِرُ بنُ عبد الملك السَّكُونيُّ الكنْديُّ، مَلِكاً على دُومة(٤).. ولكن يبدو من بعض الأخبار أن المُلْكَ لم يكن مُستقيماً للأُكَيدرِ وحدَهُ على دومة، بل كان يُنَافِسُه فيه زعماءُ بني كلب، فربما وَلِيَهُ الأُكَيْدرُ، وربما وَلِيَهُ زعيمُ بني كلب(٥)، على اختلافٍ بين أهل الأخبار فيمن كان من زعماء كلب ملكاً على دومة حين ظهر الإسلام.. غير أن في هذا المذهب نظراً!

---

(١) الأعلام: ٥/ ٢٣٠، والمفصَّل: ٤/ ٢٤٠.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٢٣٤.

(٣) زهير بن جناب بن هبل: من بني كلب بن وبرة، خطيب قُضَاعة، وسيِّدُها في زمنه، وشاعرها، وبطلُها، ووافِدُها إلى الملوك. كانوا يَدْعُونَه الكاهِنَ، لصوابِ أفكاره، وسَدَادِ آرائه. له وقائعُ كثيرة، أشهرُها مع بني تغلب، وبني بكر. قدَّر الزركليُّ وفاتَه نحو (٥٦٤ م) عن عمر طويل (الأعلام: ٣/ ٥١) وقدَّر ابنُ الكلبي أنه عاش نحو مئتي سنة، فجعله جواد علي من أهل القرن السادس للميلاد (المفصَّل: ٤/ ٤٢٨). وإذا رجعنا إلى عمود نسبه، واستقرَأْنا أخبارَه وأخبارَ لِدَاتِه، تبين لنا أن مولده كان نحو (٤٣٠ م)، ولو فرضنا أنه عاش مئة وعشرين سنةً فقط، وهي أدنى العمَر، لكانت وفاته نحو (٥٥٠ م)، وكان بذلك من أهل القرنين الخامس والسادس.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٤٣٠.

(٥) المحبَّر: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١، والمفصَّل: ٤/ ٢٣٧.

جدول أنساب بني كلب[1]
في دومة الجندل

بنو السكون	٢٠٠						
أشرس بن كندة	١	عوف بن عذرة بن زيد اللات					
السكون	٢	عامر الأجدار(٢)	بكر		عبد ودّ		كنانة
شبيب	٣		عوف		كنانة(٣)		عوف
٣٠٠							
شكامة	١		عامر الأكبر(٤)		عبد الله		عبد ودّ
أُبامة	٢		بكر		هُبَل		عامر
خلادة	٣		عامر	عبيدة	جناب		النعمان
٤٠٠							
معاوية	١		الخزرج	مالك	زهير	عدي	عامر
الحارث	٢		امرؤ القيس	الحُمام	عدي	ضمضم	امرؤ القيس
أغبا	٣		زيد	امرؤ القيس(٥)	قنافة	الحصن – الثليص	زيد
٥٠٠							
عبد الحيّ	١		فضالة		دُلجة – دُجانة	الحارث	عبد العزّى
عبد الملك	٢		فروة		أُنيف	ثعلبة	شراحيل
الأكيدر	٣		خليفة		بجدل(٦)	عمرو	حارثة
٦٠٠							
(توفي سنة) ٦٣٣م			دِحْيَة		حسّان – مَيْسون	الأحوص – الأصبغ	زَيْد
						الفرافصة	أسامة

(١) **المراجع**: جمهرة أنساب العرب: ٤٢٧ ـ ٤٢٩، ٤٥٦ ـ ٤٥٩، ومختلف القبائل ومؤتلفها: ٣٠، ٤٣، ٥٢، ٥٩، ٧٦، ٩٣، ومعجم قبائل العرب: ٣٨٠، ٣٨٣، ٧١٢، ٩٩٦، وتاريخ اليعقوبي: ٢/٢٤١، والمختصر في أخبار البشر: ١/٧٦، والإصابة: ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤ ت(٢٣٩٠)، والمحبَّر: ١٧٩، ٣١٦، والمفصَّل: ٤/٢٣٦، البداية والنهاية: ٨/٢٤٥.

(٢) **عامر الأجدار**: كانت إليه سدانةُ معبدِ دُومة الجندل والصنم ودّ، ثم صارت إلى بَنِيه، ولم نَقِفْ على سلسلة لِنَسَبِهم.

(٣) **كنانة بن بكر**: كان في بنيه البيتُ والشرفُ والعَدَدُ، وكانوا أكثر سكان دُومة الجندل.

(٤) **عامر الأكبر بن عوف**: كان أخاً لعامر بن صعصعة من أُمِّه، وأُمُّهما عمرة بنت عامر بن الظرب العداوني، وكان تبيَّن لنا في كلامنا على عكاظ، أن عامر بن صعصعة مولودٌ في الجيل الأول من القرن الرابع، ونلاحظ هنا أن عامر بن عوف جاء في الجيل نَفْسِه والقرنِ نفسِه، وهو ما يؤكد صحةَ تقديرنا، انظر جدول نسب قيس بن عيلان.

(٥) **امرؤ القيس بن حُمَام**: وهو ابنُ حُمَام الشاعر القديم، الذي سبق امرأ القيس بن حجر الكندي (٤٩٧ ـ ٥٦٠ م) إلى بكاء الديار والأطلال، فقال فيه:

عُـوجَـا علـى الطَّلَـلِ المُحِيـلِ لعلَّنـا نبكي الديارَ كما بكىٰ ابنُ حُمَامِ

وكان بنو كلب يتناقلون ما قاله امرؤ القيس في شاعرِهم ابنِ حُمَام، إشارةً إلى سَبْقِهم في قول الشعر. وهذا دليلٌ على أنه كان مُتقدِّماً بأكثر من جيلٍ على عصر امرىء القيس الكندي، وأنه عاش في القرن الخامس، وهو من جيل قُنَافَةَ الكلبيِّ، وزهيرُ بنُ جَنَابٍ من جيل جَدِّه.

(٦) **بَحْدَلُ بن أُنَيْف**: تزوَّج إليه معاويةُ بنُ أبي سفيان (٦٠٣ ـ ٦٨٠ م)، إبنتَه مَيْسُون، ولدت له إبنَه يزيد نحو سنة (٦٤٢ م). وكان أخوها حسانُ أميرَ بادية الشام، ومن القادة في جيش معاوية بصِفِّين، وتُوفي سنة (٦٨٥ م)، وبذلك يكون بحدل من أهل القرن السادس.

ومن شأن ذلك كله أن يُثبتَ صحةَ تقديرنا لزمن عوف بن عُذْرَة في القرن الثالث، وزَمَنِ دُجَانةَ بنِ قنافة في القرن السادس، وأن يؤكِّدَ على أن دولة بني كلب، في دومة الجندل، كانت قائمةً قبل دُجَانة، وخاصةً إذا تذكرنا تقديرنا لزمن معاوية بن كندة، أخي أشْرَس بن كندة، جَدِّ أُسرة الأكيدر، وذلك في كلامنا على النَّسَأة.

وأنا أعتقد أن دولة بني كلب في دُومة كانت أبْعدَ في القِدَم من دُجَانة بن قُنافة الكلبيّ، وأن عهد بني السَّكُون من بني كندة بدُومَة كان أقْدَمَ من أُكيْدر بن عبد الملك. .

١ ـ عهد بني كلب:

جاء في الأخبار أن قبائل قضاعة كانت أَسْبَقَ العرب إلى النزوح عن مواطنها، وأن نُزوحَها كان زمنَ الميلاد أو ربما قبله، ومن نزل منهم البلادَ العامرةَ، فأنشأ دُوَلاً، وأقام مُدُناً، عُرِفت أخبارُه، ومن نزل البادية، كبني كلب، ضاعت معظمُ أخباره[١]. وكانت كلبُ من كُبْرَيَاتِ قبائلِ قُضاعة، تفرَّع منها بطونٌ كِبَارٌ كبني عُذْرة بن زيد اللات، وانتشرت في أرضينَ واسعةٍ، شملت دومةَ الجندل وباديةَ السماوة والأطرافَ الشرقيَّةَ من بلاد الشام[٢]. وكانت النصرانيةُ تغلبُ على أبنائها[٣]، وهو دليلٌ على وجودهم بالشام عصرَ الميلاد، وأيامَ انتشارِ المسيحية في المنطقة.

وتذكر الأخبارُ أن الكلبيِّين استمرُّوا في ملك دومة الجندل مدَّةً طويلةً من الزمن، وأقاموا بها معبداً، جعلوا فيه «ودّاً»[٤]، وهو صَنَمٌ مشهور، كان لقوم نوح، ثم صار لبني كلب، دَفَعه عمرو بنُ لُحيّ الخزاعيُّ في موسم الحجِّ، إلى عوف بن عُذرة بن زيد اللات الكلبيّ، فحمله إلى وادي القرى،

---

(١) العرب قبل الإسلام: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) المفصَّل: ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٩١، والمفصَّل: ٤/ ٢٣٧.

(٤) لسان العرب: ٣/ ٧١ (أدد)، و٣/ ٤٥٥، وتاج العروس: ٩/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ (ودد)، وفيهما أيضاً أنه كان لقريش صنم مثله إسمه وُدٌّ، ومنهم من يهمز فيقول: أُدٌّ، أو أَدَدٌ، ومن ذلك سُمِّي: عبدُ ودّ، وأُدُّ بن طابخة، وأَدَد جدُّ معدّ بن عدنان.

وأَقَرَّهُ بدومة الجندل، وسمَّى أَحَدَ أبنائه عبدَ وُدٍّ، وجعلَ سدانةَ المعبد إلى ابنه عامرٍ[1] وولدِه من بعده، وعامرٌ هذا هو الذي لُقِّبَ بالأجْدار، لجُدَرَةٍ كانت في وجهه. وقد ظلَّ «وَدٌّ» معبوداً، وقائماً في موضعه، حتى ظهر الإسلام، وقيل إن خالد بن الوليد، لمّا غزا دُومةَ الجندل، هَدمَهُ وكسَرهُ جُذَاذاً. وكان يُشَارِكُ بني كلب في التعبُّد له: قريشٌ، وطيِّيءٌ، وهُذَيْلٌ، والخَزْرَجُ، وبنو لخم، وبعضُ تميم[2]. . . وذلك يعني أنهم كانوا يَشْهَدون موسمَه، ونعتقدُ أنه موسمُ السوقِ نفسُه.

وههنا أمران، **أوَّلُهما**: أن الذي دَفَع الصنَم ودّاً إلى عوف بن عذرة، هو عمرو بنُ لُحيّ، وكنتُ قدَّرتُ أنه تولَّى سدانةَ الكعبة نحو سنة (١٧٥ م)، وقدَّر بعضُ المؤرخين ذلك نحو (٢١٠ م)، ولو فرضنا أن عَوْفاً متأخِّرٌ عن عمرو جِيلاً، فذلك يعني أنه كان من أهل القرن الثالث، وهو ما يرجعُ بوجود بني كلب في دومة الجندل إلى ما قبل القرن السادس، المُقَدَّرِ وجودُ دُجَانَةَ الكلبيّ فيه.. وهذا يبدو واضحاً من تتبُّع أنسابِ مَن وصلتْ إلينا أخبارُه من بني كلب.

والأمرُ الثاني: نقدٌ سجَّله ياقوتُ، على القول بأن أوَّلَ مَن دعا العربَ إلى عبادة الأوثان عمرو بنُ لُحيّ، وقد ذُكر فيما تقدَّم أنه سلَّم ودّاً إلى

---

(١) جاء في جمهرة أنساب العرب: ٤٩٢، والمحبَّر: ٣١٦، أن السدانة كانت في بني الفرافصة بن الأحوص الكلبي، وهو غلطٌ فيما نعتقد، لأن الفرافصة لم يكن من نسل عامر الأجدار.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، والمفصَّل: ٦/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، والسيرة لابن هشام: ١/ ٧٨، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٠٥..

عوف بن عذرة بن زيد اللات، وزَيْدٌ هذا إنما سُمِّيَ باللات[1] التي كانوا يعبدونها، فهي أَقْدمُ عندهم من ودّ[2]... أي أنها كانت قائمةً قبل أيام عمرو بن لُحيّ.

وعلى ذلك، يبدو لنا أن أوَّلَ رئيس عُرِفَ لبني كلب في دومة الجندل، هو عوفُ بنُ عُذْرة، وأن الرئاسةَ انتقلت من بعده حتى صارت في بني كنانة بن بكر بن عوف، وكانوا مُعْظمَ سكانِ دُومَة[3].. ثم كانت منهم في بني جَنَابِ بن هُبَل، وقد اشتُهر منهم زهيرُ بنُ جَناب زعيمُ بني كلب، وملكُهم، وبَطَلُهم، ومن نَسْله كان دُجَانَةُ بن قُنَافة مَلكُ دومةَ، الذي قيل إنه أوَّلُ مَن رأَسَها مِن بني كلب[4]. وأنا أعتقد أنه ربما كان آخِرَهم، فقد خَلَفَهم على رئاستها وقتئذٍ بنو السَّكُون من كندة[5]، وما ذكرتْه بعضُ المراجع عن وجود رئيسين لها معاً، عند ظهور الإسلام، أحَدُهما من بني السَّكُون، والآخَرُ من بني كلب، كلامٌ غيرُ دقيق، وقراءةٌ خاطئةٌ للأخبار، وسنبيِّنُ هذا في كلامنا على عهد بني السكون في دومة الجندل.

ولو كنا نملك أسماءَ من تعاقَبوا على السِّدَانَةِ في معبدِ دُومة، لَقَدِرْنا على تعيينٍ أكثرَ دقَّةً للزمن الذي كانت فيه هذه الإمارةُ، أو الدولةُ الصغيرةُ لبني كلب، وللزمن الذي أخذتْ سوقُها تقومُ فيه، مع قيام موسم التعبُّد

(١) **اللات**: إسمٌ يُرمَزُ به إلى الشمس، وكان ودٌّ يرمز إلى القمر، وربما كان إسماً من أسمائه الحسنى، يعني المودَّةَ والمحبَّة.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٣٦٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٤٨٧.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٤٣٠ (نقلاً عن ابن خلدون، ولم يذكره أحدٌ من المؤرخين أو أهل الأخبار).

(٥) العرب قبل الإسلام: ٢٣٤.

للصنم «ودٍّ». . وكلُّ ما عرفناهُ، من هذا الجانب، أن عوفَ بنَ عذرة رئيسَ بني كلب، جعل سدانةَ المعبد إلى ابنه عامر الأجْدار. وقد ذكرت بعضُ المصادر أنه أبو حيٍّ من بني كلب، دون تفصيل[1]. غير أن مالكَ بنَ حارثة الأجداريَّ، وهو قطعاً من حَفَدَةِ عامر الأجدار، أدرك ودّاً، ورآهُ قبل هدمه، فنقل عنه محمد بنُ السائب الكلبي وصفاً له، قال فيه: إنه كان تمثالاً كبيراً، لرجُلٍ كأعظم ما يكون الرجالُ، عليه حُلَّتانِ، لُفَّ بواحدةٍ سَتَرتْ جسمَهُ كالإزَارِ، وأُلْقِيتِ الأُخرى فوق الأولى كالعَباءَةِ أو الجُبَّة، وقُلِّدَ سيفاً وُضِعَتْ حِمَالتُه في عُنُقِهِ، وجُعِلتْ على مَنْكِبِهِ قوسٌ، وبين يديه جُعْبَةٌ فيها نِبَالٌ، وحَرْبَةٌ عليها لِواءٌ[2]. . وكانوا في الموسم الذي ينعقدُ لعبادته والحجِّ إليه، يطوفون حوله، ويُردِّدُونَ: لبَّيْكَ اللهُمَّ لبَّيْك، لبَّيْكَ مَعْذرةً إليك[3].



٢ ـ عهد بني السَّكُون:

لم يذكر أحدٌ، من أهل الأخبار أو المؤرِّخين، كيف دالَتْ دولةُ بني كلب في دومة الجندل إلى بني السَّكُون، فصاروا مُلوكها. ولكنني استخلصتُ من بعض الروايات التاريخية، أن دومةَ الجندل أَتَى عليها حينٌ من الدَّهْرِ، نَزَل

---

(١) تاج العروس: ١٠/٣٨٧ (جدر)، وفيه أنه عامرُ بن عوف بن كنانة، فجعل السدانة بذلك في بني كنانة بن عوف بن عذرة، وهو خَطأٌ، وقفز بها من الجَدِّ إلى ابن حفيده، وهو غلطٌ آخَر. وفي معجم قبائل العرب (٧٠٤) أنه عامرٌ الأكبر ابنُ عوف بن بكر بن عوف، وهذا تخليطٌ لا يقفُ لقول المؤرخين بأن عوف بن عذرة جعل السدانة إلى ابنه عامر وولده من بعده.

(٢) معجم البلدان: ٥/٣٦٨.

(٣) المحبَّر: ٣١٢.

بأهلها فيه ما نَزَل بمعظم العرب من النزاع والفُرْقَة، ووافَق ذلك زمناً ارْتَقى فيه بنو كندة، وعَلا شأنُهم، وظَفِرَ ملكُهم الحارثُ بنُ عمرو[١]؛ بإمارة الحيرة (٥٢٥ ـ ٥٣١ م)، فأصبح ملكاً على كندة والحيرة معاً، فعَظُمَ شأنُه في نفوس العرب، ووَفَدَتْ عليه قبائلُهم تَسْأله أن يُوَلّيَ عليها من أبنائه مُلوكاً، يأخذون فيها من الظالم للمظلوم، ويُقِرُّون الأمنَ والعدلَ. فاتَّسَعتْ دولةُ كندة، وازداد سلطانُها. وقد وزَّع الحارثُ فيهم أربعةً من أبنائه، كلُّ واحدٍ منهم تولّى حُكم عددٍ من القبائل في نجد والحجاز وتهامة والعروض[٢]، ويبدو أنه مَلَّك بني السَّكُون، وهم أبناءُ عُمومتِه، على أخوالهم من بني كلب في دُومة الجندل. وبنو السَّكون في الأصل من الأحْلاف، لحقوا بأهل الحيرة وسكنوا معهم، وكانت الأحلافُ بالحيرة بطوناً من جميع قبائل العرب، من كندة ولَخْم وجُذَام وعبد القيس وغيرهم[٣].

ولذلك فأنا أمِيلُ إلى القول بأن أُكَيْدِرَ بنَ عبد الملك، المتوفَّىٰ سنة (١٢ هـ = ٦٣٤ م) لم يكن أوّلَ مَن تملّك على دومة الجندل من بني السَّكُون، بل لعلَّ هنالك مَن سبقه إلى ذلك منهم، منذ تعاظَم سلطانُ الملِكِ الكِنْديّ الحارث بن عمرو بتملُّكِهِ على الحيرة، ولمَّا هَلَك سنة (٥٣٥ م) ضَعُفَتْ دولةُ كِنْدة، ووَهَنَ أمرُ أبنائه لِطُغْيانهم، وتَعسُّفِهم في جباية الضرائب، فقُتِلوا واحداً بعد الآخر، وظلَّت دومةُ الجندل في ملك بني السَّكون، دولةً صغيرةً، بَقِيَّةً من دولة كندة الكبرى، إلى أن ظهر الإسلام[٤].

---

(١) الحارثُ بنُ عمرو الكندي: (٤٥٥ ـ ٥٣٥ م)، خَلَفَ أباه عمرو بن حجر آكل المرار، على مُلْك بني كندة، فكان أقوى ملوكهم، وحكم نحواً من أربعين عاماً منذ سنة (٤٩٥ م)، ولم يَدُمْ له مُلْكُ الحيرة طويلاً، فقد استرجعه بنو لخم، وعاد ملكاً على دولة كندة حتى قُتل.

(٢) العربُ قبل الإسلام: ٢٨٨، وتاريخ اليعقوبي: ١/٢١٦ ـ ٢١٧، والمحبَّر: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٥٣، ومختلف القبائل ومؤتلفها: ٨٧.

(٤) العربُ قبل الإسلام: ٢٣٤، ٢٩١، والمفصَّل: ٣/٣٧٨.

على أن هنالك روايةً تاريخيّةً أُخرى تقول: إن أُكَيْدرَ بنَ عبد الملك السَّكُونيَّ الكنديَّ[١]، وإخوته، وهم سادةُ قومهم، كانوا يسكنون الحيرة، وقَدِمُوا الباديةَ يوماً لزيارة أخوالهم من بني كلب، فخرجوا معهم للصَّيْد والقَنْصِ، فتَراءَتْ لهم على البُعْدِ أطلالُ مدينةٍ مُتَهدِّمة، لم يبقَ إلا حِيطانُها، وهي مَبْنيَّةٌ بالجندل، فأعادوا بِنَاءَها، وغَرسُوا فيها أشجارَ الزيتون والنخيل، وسَمَّوها دومةَ الجندل[٢]. وقيل إنهم جعلوا حولها سُوراً، وفي داخل السُّور حِصْناً مَنيعاً إسْمهُ مارِدٌ، هو حِصْنُ أُكَيْدر الملك[٣]..

ومن الواضح أن هذه الرواية ضعيفةٌ مُصْطَنعة، فهي من جهة أُولى لا تُبرِّرُ تمليك بني السَّكون على دومة، ومن جهة أخرى لا تقف للنصوص التاريخيَّة الثابتة، التي تؤكدُ قيامَ دومة، وحِصْنِها ماردٍ، منذ زمن بعيد، يسبقُ زمنَ أكيْدرِ بنِ عبد الملك وإخوته. ويبدو أن ثمَّةَ لَبْساً خلط بين دُومة الجندل، وحِصْنٍ آخَرَ في نواحي الحيرة، قربَ عين التمر، يُقال له أيضاً دُومَة، وربما كان لبني السَّكُون[٤]. وقد أصاب اللَّبْسُ كذلك أخبارَ فَتْح دُومةِ الجندل وغَزْوِها في الإسلام، ومَنْشَأُ هذا اللَّبْسِ فيما أعتقد وَهْمٌ، ظنَّ معه بعضُ المؤرِّخين بأنه كان على دومة، عند ظهور الإسلام، مَلِكانِ يتنازعَانِ الحكمَ، أحدُهما أكيدرُ بن عبد الملك السَّكُونيُّ، والآخَرُ الأَصْبَغُ بنُ عمرو

---

(١) ذكر الأفغاني أن أكيدر صاحبَ دومة الجندل كان عاملاً عليها لهرقل ملك الروم (أسواق العرب: ٢٣٤)، ولم يذكر هذا الخبر أحدٌ من المؤرخين، فيما أعلم، إلا الأفغاني، من غير أن يعزوه إلى مرجع معيَّن!

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤٨٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٤٨٧.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٤٨٦، و٢/ ٤٨٧، ٤٨٨.

الكلبيُّ[1]، وقيل أيضاً بل هو الجوديُّ بنُ ربيعةَ الغسَّانيُّ[2]، أو قُنَافَةُ الكلبيُّ، واستخلص جواد عليّ من ذلك أن أكيْدِر لم يكن قادراً على تثبيت مُلكه في دومة الجندل بشكل دائم[3]. . .

ولا شك في أن مَرَدَّ ذلك الوهمِ اضطرابٌ في الروايات التي تعرَّضَتْ لهذا الأمر، وقراءةٌ خاطئة لبعضها. . ولكن يُفْهم من التحقيق فيها أن فتح دومة الجندل مرَّ بأربع مراحل:

الأولى: تَوَجَّه فيها رسولُ الله ﷺ، سنة خمس، إلى الدومة وقد بَلَغَه عن جمع تَجمَّعُوا بها، ودَنَوْا من أطراف المدينة، ثم رجع قبل أن يصل إليها.

الثانية: بعث فيها رسولُ الله، سنة ستّ، عبدَ الرحمن بن عوف على سَرِيَّةٍ إلى بني كلب في دومة، وأمَرَهُ أن يدعوهم إلى الإسلام، وكانوا على النصرانيَّة، فقَدِمَ الدومةَ، ودعاهم إلى الإسلام ثلاثاً، فأَبَوْا، ثم أَسْلم منهم الأَصْبَغُ بن عمرو الكلبيُّ، وكان رَأْسَهم وسيِّدَهُم، فتزوَّج عبدُ الرحمن إبنتَه تُماضِر بنت الأصبغ، وهي أمُّ أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، وأسلم مع الأَصْبغ ناسٌ من قومه.

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٣٧.

(٢) الجوديُّ بن ربيعة: من بني غَسَّانَ، أميرُ دمشق قبل الإسلام. ذُكر أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يختلف إلى دمشق أيام الجاهلية في تجارة قريش، فرأى ليلى إبنةَ الجودي، وكانت موصوفةً بالجمال، فهام بها، ولمّا فُتحت دمشق، وقعت أسيرةً، فأُهْدِيتْ إليه، فتزوَّجها. وفي رواية أخرى أن خالد بن الوليد لمّا فتح دومَةَ الجندل وقعت إبنةُ الجوديّ أسيرةً فاشتراها لنفسه. . فإما أن يكون للجُوديّ الغسَّانيّ أكثر من إبنة جميلة، وإما أن يكون أحدُ الخبرين غير صحيح.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٢٣٨.

الثالثة: غزا خالدُ بنُ الوليد دومة الجندل، سنة تسع، فوجد أُكَيْدرَ الملِكَ خارجَ الحصن، يصطادُ مع أخيه حسَّان البقَرَ الوَحْشيَّ، فشدَّ عليهما خالد، فاسْتَأسَرَ أُكَيْدرُ، وامتنع حسَّانُ فقُتِل. ثم قَدِمَ خالد بأكيدر على النبيِّ ﷺ في المدينة، فحقَنَ دمَهُ، وصالحه على الجزية، وخَلَّى سبيله، وكتب له ولأهل دومة كتاباً فيه أَمَانُهم، وما صالحهم عليه. فرجع أكيدرُ بعد ذلك إلى قريته.

الرابعة: لمّا بدأت فتوحُ العراق، وحركةُ تأمين المسلمين أن يُؤْتَوا من خلفهم، كان عياضُ بنُ غَنْم الفِهريُّ على رأس جيشٍ من المسلمين مُحاصِراً ومُحاصَراً في منطقة دومة الجندل، فتوجَّه إليه خالدُ بنُ الوليد من الحيرة مُمِدّاً له، فعلم أهلُ دومة بمسيره، فاستنفروا أحلافَهم من بني كلب وبَهْراء وغسَّان وتَنُوخ والضجاعم من عرب الشام، وحينما دنا خالدٌ منهم، كانوا مَتَأهِّبينَ للقتال، يقودهم رئيسَانِ: أكيدرُ بنُ عبد الملك، والجوديُّ بن ربيعة الغسَّانيُّ. ثم إن أكيدر لم يَرَ قتالَ خالدٍ صواباً فانسحب من الجموع، وقاتل الباقون فانهزموا[1]...

وهكذا يتبيَّن لنا بوضوح، أن الأصْبَغَ الكلبيَّ لم يكن ملكاً على دومة الجندل، وإذا كانت بعضُ مصادر الأخبار لقَّبتْهُ بالملك، فذلك يعني بُلوغَهُ السيادةَ والشرفَ في قومه، وليس بُلوغَهُ السلطانَ على كل مَنْ كان نازلاً

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٨٨، ٢/ ٨٩، ١٦٦، ٣/ ١٢٩، ٤٣٦. والسيرة لابن هشام: ٢/ ٢١٣، ٥٢٦، ٦٣٢. والمحبَّر: ١١٤، ١٢٠ ـ ١٢١. تاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٤، ٦٤٢، ٣/ ٣٧٣، ٣٧٨ ـ ٣٧٩. والبداية والنهاية: ٤/ ٩٣، ١٣١، ٦/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥. وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧٥. والكامل: ٢/ ١٧٧، ٢٠٩، ٢٨١، ٣٩٥ ـ ٣٩٦. ومعجم البلدان: ٢/ ٤٨٧، ٤٨٨. والأعلام: ٢/ ٦.

بالدومة. . وقد دُعيَ إلى الإسلام، فاستجابَ ومعه نَفَرٌ من قومه فقط، وظلَّ الآخَرون على النصرانية، حتى أخوهُ الأحْوَصُ، وبنو الفَرافِصَة بن الأحْوص، ظلُّوا نصارى، ومنهم نائلةُ بنتُ الفَرافصة[1]، أسلمت يوم تزوَّجها أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفَّان، وكان أبوها يومئذٍ نصرانياً[2].

وأمَّا الجوديُّ بنُ ربيعة، فقد ظهر لنا جَليّاً، أنه لم يكن من أهل دومة، ولا من رؤسائها، وإنما هو أميرٌ غسَّانيٌّ قَدِمَ إليها، مَدَداً لأهلها، ببعض بني غسَّان، كسائر أقاربِ بني كلب وحُلفائهم، للوقوفِ معهم في وَجْه المسلمين، فاختِير ليكون قائداً إلى جانب أكيْدر الملك في قيادة تلك الجموع. فالقولُ بأن خالد بن الوليد لمّا توجَّه إلى الدومة، كان على الناس هنالك رئيسانِ، الأكيْدِرُ والجوديُّ، إنما يعني قائدَيْن على رأس الجموع التي استُنْفِرت للدفاع عن الدومة وما حَوَاليها، ولا يعني قطعاً وجودَ رئيسيْن يحكُمانِ الدومةَ في الوقت عَيْنه.

وهنالك ملاحظةٌ أعتقد أن لها دلالةً في هذا الشأن، فكتابُ الصُّلْح الذي أمْضَاهُ رسولُ الله لأُكيْدر، كان لأهل دُومة كلِّهم أيضاً، وهذا يعني أن أكيْدرَ كان الملكَ الوحيدَ على دُومة الجندل في أيامه، يُمثِّلُ أهلَها كافةً، فيُمضُون له ما التزم به عنهم. ولعلَّ قَباءَ الدِّيباجِ المنسُوجِ بالذهب، وكان على الأُكيْدرِ لمّا قَدِمَ المدينةَ، علامةٌ من علامات الملوك، فضلاً عن نَعْتِه في

(١) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص: خطيبةٌ، شاعرةٌ، شجاعة من بني كلب. حُملتْ إلى عثمان من بادية السماوة حيث منازلُ أهلها، فتزوَّجها، وأقامت معه بالمدينة. ولمَّا قُتِل، ألقتْ بنفسها عليه تحميه، فَحَزَّ السيفُ بعضَ أصابعها، وقطع بعضاً.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٥٦ ـ ٤٥٧، والأعلام: ٧/ ٣٤٣.

مختلف المراجع بأنه صاحبُ دومة الجندل[1].

وأمَّا قُنَافَةُ الكلبيُّ، الذي جاء ذِكرهُ كمنافِسٍ للأُكيدرِ في زمنه على ولاية الدومة، فإن له حديثاً آخَرَ، نذكره في كلامنا على موسم سوق الدومة. ونكتفي هنا بالتأكيد على أن الدولةَ الصغيرة، التي أقامها بنو كندة في دومة الجندل، ظلَّت قائمةً بولاية بني السَّكُون بن أشرسَ عليها حتى سنة (١٢ هـ = ٦٣٤ م)، حيث انتهى أمرُها وأمرُهم فيها، بقيام دولة الإسلام الأولى.

المطلب الثالث ـ موسمُ سوقِ دُومة ونُزَلاؤها:

لَعَلِّيَ فيما قدَّمتُ، استطعتُ أن أُبرِزَ خَطَرَ مملكة «دومة الجندل»، وذلك من خلال الكشف عن خُطُورةِ موقعها، والدَّوْر الكبير الذي كان لها في تاريخ تلك المنطقة. وإذا أضفنا إلى خَطَرِ الموقع والدَّوْر التاريخيّ، ما كان لمعْبَدِها الكبير، وصَنَمِها «ودّ» من التعظيم عند كثير من قبائل العرب في الجاهلية، وما كان يتوافَرُ فيها من المَرَافِق والمَلاعبِ والمنافع، أدركنا أن السوق التي كانت تقوم بها في الموسم المُعَيَّنِ، كانت من الأسواق الخطيرة عند العرب، وأنها عند قيام الموسم تُصبح مَحَجّاً، فتَعْمُر بالناس، يأتونها على وُعُورة طريقهم إليها، وأنها سوقٌ قديمةٌ للعرب، يعود العهدُ بها إلى زمنٍ قديم غير معروف، يُقدَّرُ بمئات السنين.

وهنالك إطباقٌ، بين أهل الأخبار، على أن قيامَ موسمِ السوق كان في أوَّل يومٍ من شهر ربيع الأوَّل إلى النِّصْفِ منه، ثم تَرِقُّ، ولا تزال قائمةً على رِقَّتِها إلى آخر الشهر، ثم يفترقون عنها إلى مِثْلها من قابِلٍ[2].. فيعودون إلى

---

(١) تاج العروس: ١٤/ ٢٤ (كدر)...

(٢) المحبر: ٢٦٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦١، والامتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤، وصبح الأعشى: ١/٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

الإجتماع بها كرَّةً أخرى، وهكذا يَصْنَعُون على توالي السنين. وهذا يعني أن موسمها كان ينعقدُ أواخِرَ الخريف وأوائل الشتاء. والغريبُ أن المرزوقيَّ تفرَّد بالنصِّ، عن أبي المنذر الكلبي، على أن دُومةَ الجندل كانت أوَّلَ أسواقِ العرب قياماً، مع أن رأس السنة في الجاهلية، كما في الإسلام، هو شهر المحرَّم (صفر الأول)، وليس شهر ربيع الأول!

وقد ذكر المرزوقي أن العرب كانت تُوافي سوق دُومةِ الجندل في موسمِها، قادمةً إليها من كلِّ أَوْبٍ، وأن تجَّارَ الشام والعراق كانوا أيضاً يَشْهَدُونَها[1]. . ويبدو أن السوق كانت تحفِلُ في موسمها بجيرانها من قبائل كلب، وجَدِيلَة طيِّىء[2]، وبوُفُودٍ من قبائل قريش وتميم وهُذَيْل والخزرج، فهؤلاء جميعاً كانوا يُشَارِكون بني عوف بن عُذْرة في عبادة «ودّ»، وكان يَشْهَدُها كذلك بعضُ قبائـل الحجازِ، والمناطق الشماليَّة والغربيَّة من نَجْد[3]، وتأتيها جماعاتٌ من عرب الشام، لما كان بين بني كلب في الدومة، وقبائِل الشام من أواصر القُربىٰ، وتَقْصِدُها بنو لَخْم وسائرُ عربِ العراق، لما كان بين الحيرة وملوك الدومة من علائقَ وثيقةٍ. . ولم تكن السوقُ تخلو عادةً من التجَّار الأجانب، القادمين إليها من بلاد الفرس والروم والحبشة وغيرها، للمتاجرة بها، أو للراحة والامتيار والتزوُّدِ بأزْوادِ الطريق، ذلك أن موضعَ دومة الجندل كان، كما لاحظنا، مَفْرِقاً خطيراً من مَفَارِق الطرُق في بلاد العرب، يقصدهُ أصحابُ القوافل في كل أيام السنة، وليس في موسم السوق فقط.

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

(٢) المحبَّر: ٢٦٣.

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٧٢، ٣٧٣.

المطلب الرابع ـ الأمنُ والحكومة:

ما من شَكٍّ في أن الأمنَ كان مُتَوافِراً في دُومة الجندلِ وسُوقِها، يَضْمَنُه لها أنها حِصْنٌ منيعٌ، وراءَ سُورٍ ضخمٍ، في أرضِ مملكةٍ، أمْرُها مُحْكَمٌ، أحْكَمَهُ رؤساؤها أو ملوكُها، وقد رأينا أنها امتنعت على الغُزاةِ قبل الإسلام، فرجعوا عنها. . وكان القادمونَ إليها آمِنينَ كذلك على أنْفُسِهم وأموالهم، في الطُرق التي يسلكونها عادةً لِبُلوغِها، لأن الأحلافَ المعقودةَ بين القبائل الضارِبَة في البادية كفلت لهم ذلك، ولأن بطونَ بني كلب كانت منتشرةً في أرضين واسعة من بادية السَّمَاوَة وأطرافِ الشام[1]، فكانت كلبٌ وجَدِيلةُ طَيِّىء جيرانَها، أي حُمَاتها مِن حَوْلها، يدفعون عنها، ويُجِيرون من مَرَّ بهم قاصداً إليها. . ويُفهم مما ذكره أهلُ الأخبار، أن قبائلَ مُضَرِ بنِ نزارٍ عامّةً، لم تكن تعرضُ بأذىً للتجّار الذين تنتهي أنسابُهم إلى مُضَر، إذا مَرُّوا في بلادها، أو سَلَكُوا طرُقَها، ولم يكن يُؤذيهم كذلك حليفٌ لها من القبائل الأخرى غيرِ المُضَرِيَّة، وكان ذلك معروفاً، ومُتَّفَقاً عليه بينهم. فكان تُجَّارُ قريشٍ، مَثَلاً، إذا خرجوا من مكة يريدون دُومَةَ الجَنْدل، لم يتخفَّروا بأحدٍ من العرب، ومِثْلُهم أيضاً بنو هُذَيْل بن مدركة، أو بنو تميم بن مُرّ، وغيرُهم من أبناء مُضَر بن نزار. ذلك أنهم إذا أخذوا طريقَهم على الحَزْنِ[2]، فثمَّةَ بلادُ يربوع بن حنظلة، من تميم[3]، وهم من مُضَر، ولا يَهيجُ مُضَريٌّ

---

(١) معجم قبائل العرب: ٩٩١، والأعلام: ٥/ ٢٣٠، والمفصّل: ٤/ ٢٤٠.

(٢) الحَزْنُ: ما ارتفع من الأرض، والحُزُونُ المشهورةُ في بلاد العرب ثلاثة، حَزْنُ بني يربوع بن حنظلة، وهو أطيبُ البادية مَرْعى، وحَزْنُ غاضِرَة، وهم من بني أسد بن خزيمة، وحَزْنُ جَعْدَة من بني عامر بن صعصعة.

(٣) معجم البلدان: ٢/ ٢٥٤.

مُضَرِيّاً، فإذا مَرُّوا بديار بني كلب، من قضاعة، لم يَعْرِضْ لهم أحدٌ بأذىً، لأن بني كلب حُلَفاءُ تميم، ولا يؤذي حليفٌ لتميم مُضَرِيّاً، فإذا وردوا ديارَ بني أسد بن خزيمة، كانوا آمنين، لأن هؤلاء، مُضَريُّون، فإذا وصلوا إلى ديار طيِّىء، قَدَّمتْ إليهم طيِّىءُ كلَّ معونةٍ، ودَلَّتْهم على كل ما يحتاجون إليه، لأن طيِّئاً حلفاءُ بني أسد بن خزيمة، وأَسَدُ عمُّ قريش. وأمَّا إذا أخذوا على طريق العراق، فكانوا يتخفَّرون ببني عمرو بنِ مَرْثَد[1]، من ربيعة بن نزار، فتُجِيزُ لهم ذلك قبائلُ ربيعةَ كلُّها. وكان تجّارُ اليمن يتخفَّرون بقريش، فيأمَنُون ما داموا في بلاد مُضَر[2].

وفوق ذلك، حدَّثتْنا الأخبارُ، التي أُثِرَتْ عن المرحلة الأخيرة من عصر الجاهلية، بأن ملك الدومة أُكَيْدرَ بنَ عبد الملك كانت له شهرةٌ مُسْتَفيضةٌ في قبائل العرب، وكانت له عُقودٌ ومعاهداتٌ معها، تأميناً للطُرق المُوصِلَة إلى الدومة، وتسهيلاً على مَن يرغبُ من أبنائها وتُجّارها في شُهودِ السوق أيامَ انعقاد موسمها، للامْتِيَارِ، أو لبيع ما يحملونه معهم من التجارات[3]. وقد عَدَّهُ الجاحظُ من القدماء في الحِكْمة والخطابة والرِّيَاسَةِ[4]. مثلما عُدَّ أخوه بِشرُ بنُ عبد الملك من أشراف المعلِّمين وقُدَمائهم[5]، وكان تعلَّم الكتابة بالحيرة، ثم طَفِق يُعَلِّمُها، وقَدِمَ مكةَ فتزوَّج الصَّهْباءَ بنتَ حرب، أختَ أبي

---

(١) عمرو بن مَرْثَد: من بني قيس بن ثعلبة، يُضرب المثلُ به في كَرم مَن أنجب من السادة الفُرسان، وقيسُ بن ثعلبة، من بني بكر بن وائل، جَدٌّ عربيٌّ قديم، ينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار، من صُلْبه بطونٌ كثيرةٌ، أشهرُها: سَعْدٌ وتَيْم وعباد وضُبَيْعة.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٢.

(٥) المحبَّر: ٤٧٥.

سفيان[1].

وبذلك كانت الحكومةُ صاحبةُ الأمر والسلطان، وأحكامُ الجِوار، ومعاهداتُ الحلف بين القبائل، ضامِنَةً كلُّها للأمن والسلام، في سوق الدومة، وفي الطرُق المُوصِلةِ إليها على السواء. ولولا أن الأمن كان غالباً عليها، لما شَهِدَها أحدٌ من غير أهلها، على ما كان فيها من إغراء بما يمكن أن يَجْنيه زائرُها من الفوائد والأرباح، أو يَنْعَمَ به من اللهو والملذّات.

وقد ذكر أهلُ الأخبار أن رياسَة السُّوق، كانت في الحقبة الأخيرة بين أُكَيْدِر السَّكُونيّ وقُنَافَةَ الكلبيّ، يتنافَسَانِ عليها بشكل طريفٍ جدّاً، فكانا يَتَحاجَيَانِ قُبَيْل انعقاد الموسم، وأيُّهما غَلَب صاحِبَه في فَهْم ما يُلقَىٰ عليه من الأحاجي والألغاز[2]، كانت إليه الولايةُ على السوق، يصنعُ فيها ما يشاء، ولم يَبِعْ بها أحدٌ من التجّار شيئاً إلا بإذْنِه، وحتى يبيعَ كلَّ ما أراد بَيْعَهُ في ذلك الموسم، مع ما كان إليه من مَكْسِها أو عُشُورها[3].

ولا بُدَّ لنا، في هذا المقطع من الكلام، أن نُذكِّر بما ذهب إليه جواد علي من أنّ قُنَافةَ الكلبيَّ كان، وقتَ ظهورِ الإسلام، يُنازِعُ أُكيْدِرَ السَّكونيَّ المُلْكَ على دومة الجندل، فذلك غلطٌ منه أيضاً، لأن القوم، كما تبيَّن لنا

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٤٢٧.

(٢) سبق أن ذكرنا أن التحاجي كان غرضاً من الأغراض في الأسواق الموسميَّة، فكان الرجلُ يقول للآخَر مثلاً: أُحَاجِيكَ على كذا، ما معنى قول الشاعر:

ولمّا رأيتُ النَّسْرَ عَزَّ ابنَ دَأْيَةٍ ... وعَشَّشَ في وَكْرَيْه، جاشت له نفسي؟

ذلك أن الشاعر قال كلاماً يخالف معناهُ ألفاظَه، فقد أراد بالنَّسْرِ الشيبَ، شبَّههُ به لبياضه، وشبَّه الشبابَ بابن دَأْية، وهو الغرابُ الأسود، لأن شعر الشباب أسود.

(٣) المحبَّر: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

مما قدَّمناهُ، كانوا يتنافَسُونَ على رياسة السوق التي تقومُ في الدومة كلَّ عام، للاضطلاع بشؤونها، وجباية ضرائبها، والسَّبْقِ إلى المتاجرة فيها، وليس على رياسة الدومة نفسِها، أو على مُلْكها. . . ولا غَزْوَ، فبنو كلب كانوا أكثر سُكان الدومة، ومن حقِّ شُيوخِهم، أو رؤسائهم أن ينتفعوا بما يُحقِّقُه موسمُ السوق من الفوائد والأرباح. . . فلم يكن هنالك إذن نزاعٌ، ولا مَن يتنازعون، ولا «تطاحُنٌ» كما زعم الأفغانيُّ[1]، وإنما كان بينهم تنافُسٌ وُدِّيٌّ لطيفٌ، يقوم على اختبار طريفٍ للحِذْق في فهم الألغاز والأحاجي! وهنالك نصٌّ للتوحيديّ في كلامه على مواسم العرب يؤيِّد ما ذهبتُ إليه، يقول فيه عن دومة الجندل: «وكان ينزلُها الناسُ أوَّل يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء، وكان يَعْشُرهم أكيدرُ دُومَة، وربما غلبتْ على السوق بنو كلب، فيعشرهم بعضُ رؤساء كلب، وتقومُ سوقُهم إلى آخر الشهر»[2]. . وقوله: «بعضُ رؤساء كلب» دليلٌ على أنه لم يكن هنالك منهم مَلِكٌ مُعيَّنٌ يُنازع أكيدرَ المُلْكَ على دومة الجندل، وإنما هنالك بعضُ الأشراف السَّادَة ينازعونَه الاستفادةَ من عُشُورِ السوق وفوائدها فقط.

يبقى أن نشير إلى أننا لا نعرف عن قُنَافَةَ الكلبيّ شيئاً، سوى أنه من بني كلب، وأُرَجِّحُ أن يكون من سادَةِ بني زهير بن جَنَاب، من ذُريَّة دُجَانة بن قُنافة، مَلِكِ الدومة قبل أُكيدر، أو قبل تمليك بني السَّكُون على دومة الجندل.

المطلب الخامس ـ أغراض السوق:

كانت دومة الجندل تُقصَدُ في مواسمها للمتاجَرة، ويُوافيها العربُ

---

(١) أسواق العرب: ٢٣٨.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

وتُجَّارُ العراق والشام، فيبيعون بها ما يُمْكنهم بيعُه، ويشترون منها ما يحتاجون إليه، من عُروض التجارة وسِلَعِها. وكانت تُقصَدُ أيضاً لما اشتُهِرتْ به من فنون اللهو والمرَحِ والمُتَع. . ولا أريد أن أقول المزيدَ، إلا في أمريْن، أحَدُهما: ما قيل عن طريقة المبايعة في هذه السوق، والآخَرُ: القِنُّ الذي كان بها لبني كلب[1].

١ ـ طريقة المبايعة:

ذكر ابنُ حبيب والمرزوقي أن المبايعة فيها كانت بإلقاء الحجارة، وذلك «أن يجتمع النَّفَرُ منهم على السِّلْعة، يُسَاوِمُون بها صاحِبَها، فأيُّهم رضيَ أَلْقَىٰ حَجَرهُ. وربما اتفق في السلعة الرَّهْطُ، فلا يجدون بُدّاً من أن يشتركوا فيها، وهم كارهون. وربما اتفقوا، فألْقَوا الحجارةَ جميعاً إذا كانوا عدداً، على أمرٍ بينهم، فَوكَسُوا صاحبَ السلعة إذا تظاهروا عليه»[2].

وإذا نظرنا في هذا النصّ، وجدنا أنه من ثلاثة أقسام، تفترضُ كلُّها اجتماعَ نَفَرٍ من الناس، على سلعة معيَّنةٍ واحدة، وكلُّ واحدٍ منهم يريدُ شراءَها لنفسه، والبائعُ يُغَالي من أجل ذلك في الثمن، وهذه هي المساومة. ففي القسم **الأول** يَرضَىٰ أحدُهم بالثمن، فيُلقي حَجَرهُ عليها، إيذاناً بقَطع الخِيَارِ ووُجُوبِ البَيْع، فتكون السلعةُ له دون غيره. وفي القسم **الثاني** يتَّفِقُ أن يرضَى عَدَدٌ منهم بالثمن، فيُلْقُون حجارَتَهم معاً على السلعة، فيكون ذلك

---

(١) **القِنُّ**: العبدُ الذي وُلد عندك، ولا يستطيع أن يخرج عنك. وقيل: عَبدٌ مُلِكَ هو وأبواه، وهو بلفظٍ واحد للمذكَّر والمؤنَّث والمفرد والجمع.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، **النَّفَرُ، والرَّهْطُ**: الجماعة من الرجال، من ثلاثة إلى عشرة. **المُسَاومة**: المغالاة في ثمن السلعة، والمجاذَبةُ بين البائع والمشتري في فصل الثمن. **الوكْسُ**: النقص، وهي هنا خسارةُ البائع في تجارته، ونقصُ مالِهِ.

مُوجِباً للبيع، ومُلْزِماً لهم في الوقت نفسه أن يكونوا شركاءَ فيها، على كُرْهٍ منهم، وعندئذٍ، إذا كانت السلعةُ مما لا يصحُّ اقْتِسامُه، يُسَاوِمُ بعضُهم بعضاً بثمنٍ أكبر، ليختصَّ بها أَحَدُهم دون الآخرين. وفي القسم الثالث يتوافق المجتمعون على السلعة، أن لا يَسُومَ أَحَدُهم على سَوْمِ الآخَر[1]، وإنما هو سَوْمٌ واحدٌ للسلعة، فإذا ذكر البائعُ ثمنَها، أَلْقَوا حجارتَهم جميعاً فوَجَبَ البيعُ، ووُكِسَ البائعُ، لأن امتناعَهم من السَّوْمِ، قطع عليه طريق المُغَالاةِ في الثمن... وهو بيعٌ شبيهٌ في جُملته ببَيْع المزايدة، حيث تَثْبتُ السلعةُ للزائدِ الأخير، ولكن الراغبين في شرائها هنا، هم الذين يَتَزايدون في ثمنها، خلافاً للبيع بإلقاء الحَجَر، فهنالك يُغَالي البائعُ في ثَمنِها، كلَّما سامَهُ أَحَدٌ من المجتمعين في شرائها. ولذلك جاء في الحديث أنه، عليه السلام، «نَهَىٰ أن يَسُومَ الرجُلُ على سَوْمِ أخيه»، والمَنْهِيُّ عنه أن يَتَساوَمَ المتبايعان في السلعة، ويتقاربَ الانعقادُ، فيجيءُ رجلٌ آخَرُ يريدُ أن يشتريَ تلك السلعةَ، ويُخْرِجَها من يد المُشْتري الأول، بزيادةٍ على ما اسْتقرَّ الأمرُ عليه بين المُتَسَاوِمَيْن، ورضِيَا به قبل الانعقاد، فذلك ممنوعٌ عند المُقَارَبَةِ، لما فيه من الإفْسَادِ، ومُبَاحٌ في أول العَرضِ والمُسَاوَمة[2].

هذا هو مقدارُ فَهْمي لطريقة البيع بإلْقاءِ الحجارة في الدُّومَة، فكأن إلقاءَ الحجر إيذانٌ بانتهاءِ الخِيَار ووجوبِ البيع، وبَدَلٌ من تبادُلِ القبول والإيجاب، وهو لا يكون إلا بعد المساومة بين المتبايعين. والعِلَّةُ في النهْي عنه بعدئذٍ انتهازُ البائعِ رغبةَ المُشْترين في سِلْعةٍ واحدةٍ، ومُغَالاتُه في ثمنها من غير حقّ.

---

(١) السَّوْمُ: من المشتري سؤالُهُ البائعَ ثمنَ السلعة وطَلَبُها، ومن البائع ذكرُ الثمن والمغالاةُ فيه.
(٢) لسان العرب: ١٢/ ٣١٠ (سوم).

وقد عَرَض الآلوسيُّ لهذه المبايعة، وقال: إنها «بَيْعُ الحَصَاة، وهو من بُيُوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام»[1]، وكذلك فعل الأفغاني[2]، وقدَّما لها سِتَّ صُوَرٍ، يتصل معظمُها ببَيْع الغَرَر، لما فيها من الجهالة، وهي، كما قلنا في الجزء الأول من الكتاب[3]، أقربُ إلى أن تكون أنواعاً من القمار، يُراد بها اللهو والعبث، كقول البائع للمشتري: ما وقعت عليه حَصَاتُك، إذا رميتَ بها، فهو لكَ بدرهم، أو بعتُك من السلع ما تقع عليه حَصَاتُك، أو بِعتُك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك[4]. . وهذه لا يمكن أن تكون طرائقَ للبيع في أسواقٍ موسميَّةٍ، تُقام فيأتيها التجارُ وأصحابُ القوافل بتجاراتهم لِيَشْهَدوا موسمها، والقولُ بذلك جهلٌ، أو رَمْيٌ للعرب بالجهل. . .

٢ ـ حوانيتُ القِنّ:

ذكر المرزوقي أنه كان لبني كلب، في سوق دومة الجندل، «قِنٌّ كثيرٌ، في حوانيتَ من شَعَرٍ، وكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، فكانوا أكثَر العربِ قِنّاً»[5]. . وكان من عادة العرب أن يفخروا بكثرة ما يملكون من العبيد والإماء.

والمقصودُ بهذا الكلام أن بني كلب كانوا أكثر العرب عبيداً وإمَاءً، لأنهم كانوا يُقيمون في المواسم حوانيتَ من شَعَر، ويجعلون فيها إماءَهم، ويُكْرِهونهنَّ على البَغَاءِ، فكانوا يستفيدون مما كَسَبْنَ، ومما حَمَلْنَ في

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤.
(٢) أسواق العرب: ٤٦ ـ ٤٨.
(٣) انظر المطلب الرابع من الفصل الثاني في الباب الأول من الجزء الأول.
(٤) لسان العرب: ١٤/ ١٨٣ (حصى).
(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

بُطونهنَّ، فقد كانت الأُمم جميعاً يومئذٍ تَعُدُّ العبدَ وما مَلَكَ، أو ما وَلَدَ، أو ما كَسَبَ ملكاً لصاحبه. ويبدو من نصِّ المرزوقي أن الإكْراهَ هنا غايتُهُ الزيادةُ في عدد العبيد. وكان الرقيقُ تجارةً رائجةً مُرْبحةً، وكان التجّارُ يشترونه من الأسواق الخارجية، ويأتون به إلى بلاد العرب، لبيعه في الأسواق الموسمية[1].

وانظرْ كيف جاء هذا الخبرُ عند ابن حبيب: «وكان لكلبٍ فيها قِنٌّ كثيرٌ، في بيوت شَعَر، فكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، وكانوا أكثر العرب»[2]. . . فقولُه: «فكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، وكانوا أكثَر العربِ»، وإسْقاطُه «قِنّاً»، يُفهم منه أن بني كلب كانوا يُجْبِرون بناتِهم على البغاء، وبذلك كانوا أكثَر العربِ، وأنَّ ما تَلِدُ بناتُ العرب عربٌ! وهذا افتراءٌ واضحٌ، لا نعتقد أن يكون من ابن حبيب، بل ممن حقَّق كتابَهُ. وقد سُمِّيَ العبدُ فتىً، والأَمَةُ فتاةً في الإسلام، امتثالاً لقوله عليه السلام: لا يقُولَنَّ أحدُكم عبدي وأَمَتي، ولكن ليقُلْ فَتَايَ وفتاتي. . فالفَتَياتُ الإمَاءُ، والمُحْصَنَاتُ الحرائرُ من نساء العرب[3]. .

ويبدو أن اضطرابَ النصّ عند ابن حبيب دفع «د. صلاح الدين المنجد» إلى التعسُّفِ في القول، فزعم أن «العرب كانوا يَزْنُونَ بابْنَتِهم»[4]، بينما كانت العربُ، كما ثبت في أخبار الجاهلية، «لا تَنْكَحُ البناتِ، ولا

---

(١) انظر المطلب السادس من الفصل الثاني في الباب الأول من الجزء الأول من الكتاب.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ١٤٧ (فتو).

(٤) الحياة الجنسية عند العرب: ١٤.

الأُمَّهاتِ، ولا الأخواتِ، ولا الخالاتِ، ولا العَمَّات»[1]. وقد عُرِف الزِنا بالإبنة عند الفُرس.. والمؤسفُ أن المنَجِّد لم يقفْ عند ذلك، بل اندفع إلى القول أيضاً بأن «اللواطَ كان معروفاً، وإن كانت الأخبارُ عنه قليلةً»[2]... والعجيبُ في أمره أنه، على ما يبدو، كان ساعياً إلى الشهرة، أكثر من سعْيِهِ إلى التحقيق العلميّ، ذلك أنه أقام زعمه على خبر ضعيف، مَصْنُوعٍ، فقال: «إن أبا سفيان بنَ حرب كان يعتمدُ أُسْتَهُ على حَجَرٍ، أو عصاً، فيَحكُّهُ ويقولُ: لا واللَّهِ، ما يَقْرَبُك أحدٌ! ولمّا كان يومُ بَدْرٍ، قال عتبةُ بن ربيعة لأبي سفيان: يا مُصَفِّرَ أُسْتِهِ! وكان أبو سفيان نُسِبَ إلى التخنُّثِ والتأنُّثِ، وهو ما أراده عتبةُ بقوله يا مُصَفِّرَ أُسْتِهِ»[3]..

ولم يثبتْ في خبر واحد على الأقلّ أن اللواط كان معروفاً عند العرب، بل كان ثابتاً أنه منتشرٌ في بلاد فارس، حيث كانوا يجعلون الغِلمان كالبنات، والبنات كالغِلمان. ومع ذلك فالرواية التي استند إليها المُنجِّدُ في زَعمه غيرُ صحيحةٍ، وعُتْبةُ بن ربيعة لم يقل ذلك في أبي سفيان، بل قاله في أبي جهل، عمرو بن هشام، يوم بَدْر، إذ بلغه قولُه فيه: انتفخ واللَّهِ سَحْرُ عُتْبَةَ، فقال: سيعلَمُ مُصَفِّرُ أسْتِهِ مَن انتفَخَ سَحْرُهُ[4]، أنا أم هو!.. ويقول السُهَيْليُّ[5]: «مُصَفِّرُ أُسْتِهِ كلمةٌ لم يخترعْها عتبةُ، بل قيلت في الملك قابوس بن المنذر

---

(١) المحبَّر: ٣٢٥.

(٢) الحياة الجنسية عند العرب: ١٥.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) السَّحْرُ: الرئة وما حولها مما يَعْلق بالحُلْقوم من فوق السُّرَّة، وما كان تحت السرَّة فهو القُصْب.

(٥) السُّهَيْليُّ: أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله الخَثْعَميُّ، السُّهَيْليُّ، الأندلسيُّ، صاحبُ الروض الأُنُف، وهو كتابٌ جليلٌ جَوَّدَ فيه، مَوْلدُه ووفاتُه: (٥٠٨ ـ ٥٨١ هـ).

(٥٦٩ ـ ٥٧٩ م)، لأنه كان مُرَفَّهاً، لا يغزو في الحروب، وأُرِيدَ بها صُفْرَةُ الخَلُوقِ والطيب[١]، وقد قالها أيضاً قيسُ بن زهير العبسيُّ في حُذَيْفة بن بدر الفزاريّ يومَ الهباءَة، ولم يقل أحدٌ يومئذٍ إن حُذَيفة كان مَسْتوهاً! ولا يصحُّ إذن قولُ من قال في أبي جهل إنه كان مستوهاً، وسادةُ العرب لا تستعملُ الخَلُوقَ والطيبَ إلا في الدَّعَة والخَفْضِ، وتَعيبُه في الحرب أشدَّ العيب، وأحسبُ أن أبا جهل تَبخَّرَ وتطيَّب يوم موقعة بدر لمّا علم بأن عِيرَ أبي سفيان وصلت سالمةً إلى مكة، وقوله: مُصَفِّرُ أسْتِهِ، إنما أراد به مُصَفِّرَ بَدَنه، ولكنه قَصَدَ المبالغة في الذمِّ، فخَصَّ بالذكر ما يسوءُ أن يُذْكر»[٢].

وقد حرصنا على سِيَاقَةِ هذا الكلام، استطراداً، لما كان بين أبي سفيان بن حرب وبشر بن عبد الملك السَّكونيّ من صِهْرٍ، وما كان من علائق تجاريةٍ ودينيَّةٍ وثيقةٍ بين بني كلب وقريش، وما كان لدومة الجندل وسُوقها من شهرةٍ مُسْتفيضةٍ بحانات الخَمَّارين، وحوانيت الإمَاءِ ذوات الرايات، وبصنوفٍ أُخرى من اللهو والعبث، ولأننا أردنا دَفْعَ الشُّبْهةِ أن تُصِيبَ أحَدَ مواسمِ العربِ القديمة الكبرى، موسمَ سوق دومةِ الجندل، أو أن تنالَ من سُمْعَةِ آبائنا وأجدادنا.



---

(١) الخَلُوق: ضربٌ من الطيب، أعظمُ أجزائه الزعفران، ومن الزعفران تكون الصُّفْرةُ.

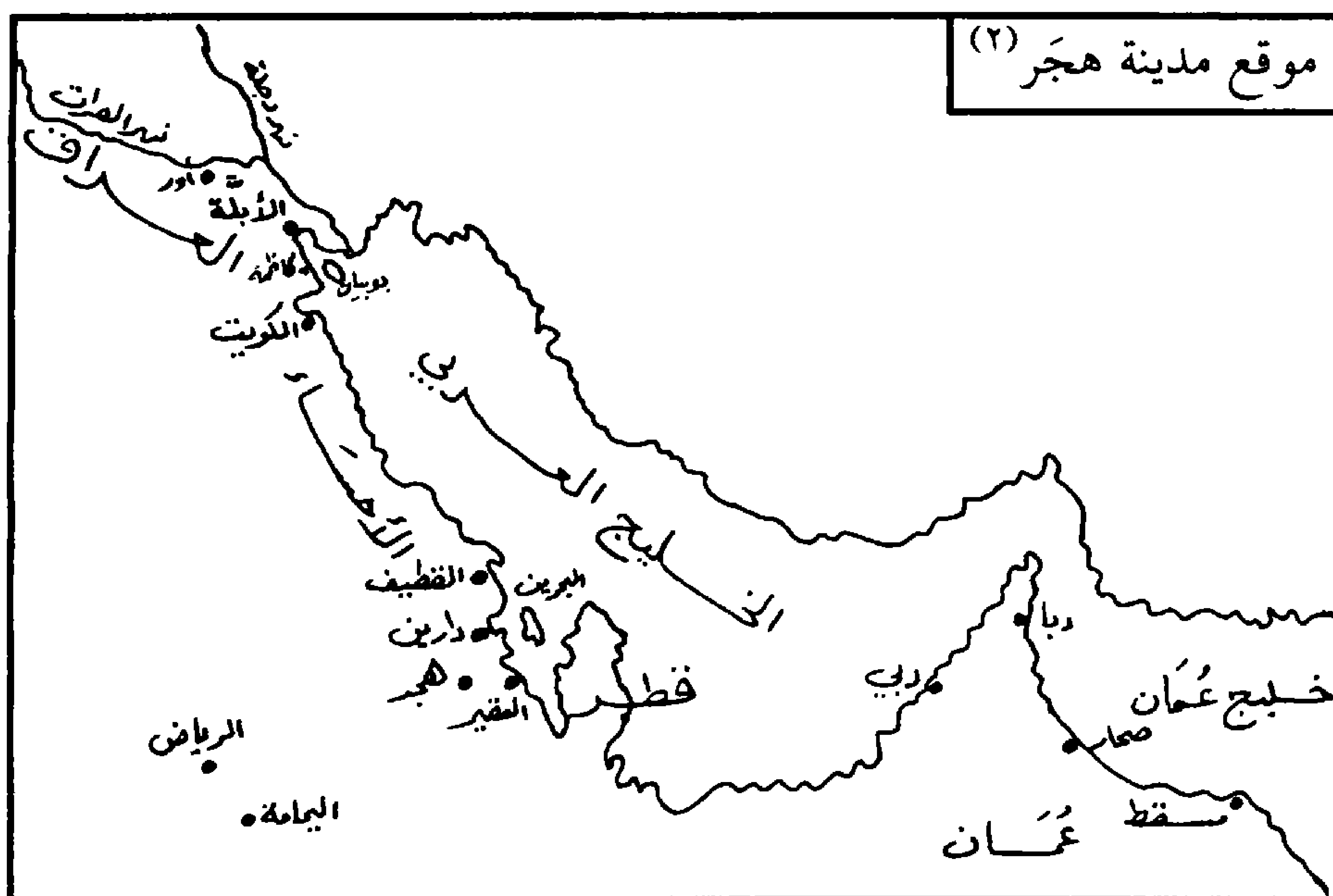
(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ٦٢٤ (ح)، ولعلّ للمُنَجِّدِ عُذْرَهُ فيما افترى، ذلك أن كتابه ظهر سنة (١٩٥٨ م) وكان إذ ذاك في أوار غرائزه، وأعتقد أنه ندم بعد ذلك على ما كان منه في ذلك الكتاب! ثم إن قول أبي سفيانَ ما قال دليلٌ على كراهته اللواطَ، وليس على أن اللواط كان معروفاً عند العرب.

الفصل الرابع

موسمُ سُوقِ المُشَقَّرِ بهَجَر

المطلب الأول ـ موقع السوق:

كانت السوقُ تقوم في حِصْن المُشَقَّرِ، وهو حصنٌ عربيٌّ قديم، وثيقُ البُنْيَانِ، لبني عبد القيس بن أَفْصَى[1]، من بني ربيعة بن نزار. وهو يَلي حِصْناً



(١) عبد القيس بن أَفْصَى: جدٌّ جاهليٌّ من بني أسد بن ربيعة، بَنُوهُ بطونٌ كثيرةٌ، كانت ديارهم بتهامة، ثم استوطنوا البحرين والقسم الشرقي من جزيرة العرب.

(٢) المرجع: الأطلس التاريخي للدولة السعودية.

آخَرَ لهم يُسمَّى الصَّفَا، وهما معاً قاعدةُ مدينةِ هَجَر[١]، وقَصَبَتُها. . وكان بينهما نهرٌ جارٍ يُسمَّىٰ العَيْنَ، أو عَيْنَ مُحلِّم، وهي عينٌ فوَّارةٌ مشهورةٌ، تسقي نخيل قُرَيَّاتٍ من قُرى هجر، منها جُوَاثَىٰ، وهي حصنٌ أيضاً لبني عبد القيس، كان قاعِدةَ الخطّ، والخَطُّ مدينةٌ قديمةٌ، من حديثها أن هُزَيْزَ بنَ شَنّ بن أَفْصَى كان أول من ثقَّفَ القَنَا بالخَطِّ[٢]، وإليه تُنْسَبُ الرِّماحُ الهُزَيْزِيَّة[٣]، وإلى الخطِّ تُنْسَبُ الرمَاحُ الخَطِّيَّةُ، وهي أحسنُ أنواع الرماحِ خِفَّةً وصلابةً وتَثْقيفاً[٤]. . ويُقال إن حِصْنَ المُشَقَّرِ كان عاصمةَ هَجَرٍ وحاضِرَتَها، وأن مدينةَ هَجَر كانت قاعِدةَ الإقليم المُمْتدِّ ما بين الأُبُلَّةِ وعُمَان، وقَصَبَتَهُ وأكبرَ مُدُنِه، وكانت بهذا الإقليم قُرىً كثيرةٌ عامِرةٌ، أشهَرُها: هَجَر، والقطيفُ، ودارين، والخطُّ، وقَطَرُ، والعُقَيْرُ، وبَيْنُونَةُ، والزَّارَةُ، وقد غَلَبَ عليها جميعاً إسمُ البحرين، وربما غلب عليها أحياناً إسمُ هَجَر، وهو أمرٌ مَعْهودٌ في حَواضِرَ كثيرةٍ، غلبتْ أسماؤها على جُمْلَةِ البلادِ التي تكون بها[٥]. . . ومن الراجح أن جزيرة البحرين، كما يُشير تاريخُها القديمُ، كانت قاعدةَ هذا الإقليم،

---

(١) هَجَر: الهَجَرُ في لغة الجنوب العربي معناها المدينة، وهي تُضاف عادةً إلى اسمٍ آخَر، كقولهم هَجَر نجران، وهَجَر تَيْماء، والمشهور منها هَجَرُ البحرين بالأحْسَاء.

(٢) ثَقَّفَ الرُّمْحَ: قوَّمَهُ وسَوَّاهُ، وثقَّف الولدَ: هذَّبَهُ وعلَّمه فتهذَّب وتعلَّم فهو مُثقَّف، وهذا مُسْتعارٌ من ثقَّف الرمح. والقنا: ج قناة، وهي العودُ الذي يُصنع منه الرمح، ويقال إن الخَطَّ لم تكن مَنْبتاً للقَنا، وإنما كانت مَرْفأً تُحمل إليه القَنَا من الهند، فتُسَوَّىٰ به.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٩٩، وتاج العروس: ١٥/ ٣٨٧ (هزز)، والأعلام: ٨/ ٨٤.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد: ٦٠.

(٥) معجم البلدان: ١/ ٣٧٤ (البحرين)، و٢/ ١٧٤ (جواثاء)، و٢/ ٣٧٨ (الخط)، و٣/ ١٢٦ (الزارة)، و٣/ ٤١١ (الصفا)، و٤/ ١٧٩ (عين محلّم)، و٥/ ١٣٤ (المشقَّر)، و٥/ ٣٩٣ (هجر)، ولسان العرب: ٤/ ٤٢٢، ٤٢٣ (شقر)، و٥/ ٢٥٧ (هجر)، و٧/ ٢٩٠ (خطط)، وتاج العروس: ٥/ ٢٠٠ (جوث)، و١٢/ ٢٢٢ (شقر)، ومعجم قبائل العرب: ٧٢٦.

وجُزْءً منه، وعاصمتَه، فغَلَب اسمُها عليه، وعُرِفَ به عند الأخباريّين، وإنما هو في الحقيقة منطقة الأَحْسَاءِ المعروفة في الأجزاء الشرقية من جزيرة العرب، على شواطىء الخليج العربيّ، وما اتصل بها في الشمال والجنوب والغرب. والحِسْيُ: الرملُ المتراكمُ فوق أرض صَلْدَة، فإذا مُطِرَ الرَّمْلُ، شرِبَ الحِسْيُ ماءَ المطرِ، فإذا انتهى الماءُ إلى الأرضِ الصَّلْدَةِ أَمْسَكَتْهُ، ثم مَنَعَ الرملُ حرَّ الشمس أن يُنَشِّفَهُ، فإذا اشتدَّ الحَرُّ، نُبِشَ وجهُ الرمْلِ عن ذلك الماء، فنَبَع بارداً عَذْباً، وقد اشتُهرت تلك المنطقة بأَحْسَاءٍ كثيرةٍ على هذه الصفة، منها أَحْسَاءُ بني سعد بن زيد مناة التميميّ بحذاءِ هَجَر وقريةِ يَبْرين، وأَحْسَاءُ خِرْشَاف لبني جذيمة بن عوف من عبد القيس، بالبيضاء، وهي قُرَيَّات على سيف الخليج قُربَ القطيف، وأَحْسَاءُ القطيفِ وغيرُها[1]. .

وكان بنو عبد القيس بن أَفْصَى يَتَوطَّنُون تهامةَ الحجاز، ولمّا انفردت قبائلُ مُضَر برياسَة مكةَ، وتَبَحْبحتْ تهامةَ والحجازَ ونَجْداً، نزحت بطونُ عبد القيس إلى الأحساء، وكان بها خَلْقٌ كثيرٌ من بطون بكر بن وائل، وتميم بن مُرّ، فنزلت بجوارهم، ثم قاسَمَتْهم ديارهم، واستقرَّت بها، ولعلَّ ذلك كان في نحو القرن الرابع للميلاد[2]. . ثم تكاثروا حتى صاروا جُلَّ أهلِ تلك الديار، ولكن الأخبار تُشير إلى أن الإمْرَةَ فيها كانت لبني تميم. . .

وقد أثبتتِ الآثارُ المكتشَفةُ حديثاً أن أرضَ «دِلْمون»، التي جاء ذكرُها في النصوص السَّوْمريَّة والأكاديَّة والآشُوريَّة، هي جزيرةُ البحرين، وقد غَلَبَ اسْمُها على الساحل المُقَابل لها من شرق جزيرة العرب، أي إقليم الأحساء، فأُطلِق عليها جميعاً اسمُ دِلْمُونَ، واسمُ البحرين، ويبدو أنها كانت منطقةً

(١) لسان العرب: ١٤/١٧٧ (حسا)، ومعجم البلدان: ١/١١٢، ٥٣٠، و٢/٧٠، ٣٥٩، ومعجم قبائل العرب: ١٧٦، ٥١٤.
(٢) معجم قبائل العرب: ٥٣، ٧٢٦.

حَيَوِيَّةً غنيَّةً، وكانت مشهورةً بتُمورها وأخشابها ومَعادِنها كالذهب والبرونز والنحاس، وحجارتها التي تُصْنعُ منها التماثيلُ، وتُبنَى منها المعابدُ فيما بين النهرين، كما اشتُهرت أيضاً بالسَّمَكِ واللؤلؤ. . . ولعلَّ طائفةً من هذه البضائع كانت تُحمل إليها من الهند وإيران وبلاد الشام وغيرها، فقد كان أهلُها تجّاراً مَهَرَةً، يَجُوبُون بسفُنِهم البحرَ يبيعون ويشترون، وكانت التجارةُ بين «دِلْمون» وأُور في العراق مُتَّصلةً مُستمرَّةً، وكان الاتصالُ الثقافيُّ والدينيُّ قَويّاً متيناً بين هذه المنطقةِ وشُعوبِ ما بين النهرين كالبابليين والكلدانيين والآشوريين، وذُكر أنها خضعت للآشوريين لمّا احتلُّوا بابِلَ، وضَمَّها البابليُّون إلى أملاكهم، ونَصَبُوا حاكماً بابليّاً عليها نحو سنة (٦٠٠ ق. م). ويُقال إن السَّوْمريين قَدِمُوا منها إلى العراق نحو سنة (٣١٠٠ ق. م)، ويُقال إنها كانت إلى ذلك موضعاً خطيراً، تنزلُه القبائلُ العربيةُ المهاجِرةُ من جنوب شبه الجزيرة إلى الشمال، في طريقها إلى العراق أو بلاد الشام. والرأيُ الغالبُ عند العلماء أن منطقة البحرين كانت الموطنَ القديمَ للفينيقيين، قبل استقرارهم في لبنان والساحل السوري، وأنها كانت أيضاً، في نحو القرن السابع ق. م. موطنَ الكلدانيين الذين سكنوا فيما بعد المناطق الجنوبية من العراق[1].

ثم تعاقبت على تلك الأَرضينَ، في الجانب الشرقيّ من جزيرة العرب، قبائلُ كثيرة، إلى أن حَلَّتْ بها قبائلُ عبدِ القيس وبكرِ بن وائل وتميم، واستقرُّوا بها[2]، وكان البابليُّون أطلقوا عليها اسْمَ الفردوس «برديسو»[3]، لما كان بها من القُرى والمرافق والثروات الزراعية والبحريَّة والتجارية وغيرها، فكان من

---

(١) المفصَّل: ١/ ٥٦٢، ٥٦٤ ـ ٥٦٦، ٥٦٨ ـ ٥٦٩، ٦٢٠.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧.

(٣) المفصَّل: ١/ ٥٦٣.

الطبيعي أن تكون أرضُها مُعجبةً، لا يراها أحدٌ إلا تَعلَّق بها. . ثم غَلَب عليها جميعاً اسمُ البحرين، فعُرِفتْ به زمناً من الدهر، كانت حاضِرتَها فيه مدينةُ هَجَر، إلى أن عاد هذا الإسْمُ، كما كان، للدلالة على جُملة الجُزُر الواقعة في منتصف الخليج العربي، إلى الشرق من ساحل الأَحْسَاء في جزيرة العرب.

قدَّمتُ ذلك كلَّه وأنا أرمي إلى إبراز خَطَرِ هذه المنطقة من بلاد العرب، واحتمالِ أن تكون كلُّ مدينةٍ من مُدُنها عرفت سوقاً موسميَّةً، وأن تكون جزيرةُ البحرين مَوْضعاً لقيام أكبر تلك المواسم، وأوْسَعِها، بما تكشَّفَ عنه تاريخُها من أطلالٍ عُمرانيَّةٍ قديمة كانت بها. غير أن الأخباريين لم يذكروا إلا موسماً واحداً كان يقوم بحصن المشقَّر في مدينة هَجَر، بالجانب الشرقيّ من جزيرة العرب، على ساحل الخليج العربي. وهو ما أشرتُ إليه في أول هذا الحديث، وما كنتُ انتهيتُ إليه في كلامي على مواسم العرب في الباب الأول من هذا الجزء، بعد التحقيق الدقيق في أقوال القدماء والمحدَثين. وهذا لا ينفي أن يكون بهَجَر سوقٌ خاصَّةٌ بها، وهي التي عَنَاها الهمدانيُّ بقوله: «وهَجَرُ سوقٌ من أسواق الجاهليَّة، يؤمُّها بنو مُحارب من عبد القيس»(١). ولكن هذه السوق، كما يبدو من النص، لم تكن موسميةً عامّةً، بل خاصَّة ببني مُحارب بن عمرو. . وهنالك إشارةٌ تاريخيَّةٌ أخرى، ذكرت أن مدينة «دارين» كانت سوقاً من أسواق العرب في الجاهلية، ومَرْفأً كبيراً، يقعُ في الطرف الجنوبي من جزيرة «تاروت»(٢) في الخليج

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢١١.

(٢) **تاروت**: تقع بالقرب من القطيف، على نحو ستة أكيال، ويُعتقد أن اسمها عشتاروت، وكان فيها معبدٌ للفينيقيين قبل نزوحهم إلى الساحل السوري.

العربي[1]، وقد اشتُهرت بصناعةِ المِسْكِ وتجارته، حتى نُسِبَ إليها، فكانوا يقولون: مِسْكُ دارين! وزعموا أنها كانت تستوردهُ من الهند[2]. . . وعَدَّ الأستاذ «خليل إبراهيم الفزيع»[3] سوق دارين من المواسم الأدبيَّة والتجاريَّة عند العرب، وجعل قيامها في شهر رجب من كل سنة، وعدَّ معها أسواقاً أخرى منها: الزَّارَةُ والجرعاء[4]. . غير أني لا أعلم شيئاً عن سَنَدِه فيما ذهب إليه، ولا سيما قوله بأن موسم دارين كان ينعقد في شهر رجب، وإن كنتُ لا أنفي أن يكون في دارينَ سوقٌ يجتمع إليها التجارُ، ويذكرها الشعراءُ في شِعْرهم. ومن ذلك قولُ أحدهم:

إذا التــاجــرُ الــداريُّ جــاء بفــأرةٍ   من المسك، راحت في مفارقها تجري

والداريُّ: العطَّارُ، نُسِب إلى دارِين، ذكر ابنُ منظور أنها موضعٌ في البحرين يُؤتى منه بالطيب، وفيها سوقٌ كان يُحمل إليها مسْك من ناحية الهند. وفي الحديث: مَثَلُ الجليس الصالح مَثَلُ الداريّ، إن لم يُحْذِك، أي يُعْطِكَ، من عطره عَلِقَك من ريحه[5].

وعلى ذلك حَسْبُنا أن نتحدَّث عن موسم سوق المشقَّر، وقد كان ينعقدُ بمدينة هَجَر، التي تقعُ إلى الجنوبِ من القطيف، والشمالِ الشرقيّ من اليمامة، والغربِ من قَطَر والعُقَيْرِ على ساحل الخليج العربي. وتقعُ العُقَيْرُ على شاطىء البحر بحذاءِ هَجَر، وقَطَرُ بينها وبين عُمَان. وبين هجرٍ واليمامة

---

(١) مجلة العربي: ص ٧٨ من العدد رقم ١٨٠ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٧٣.

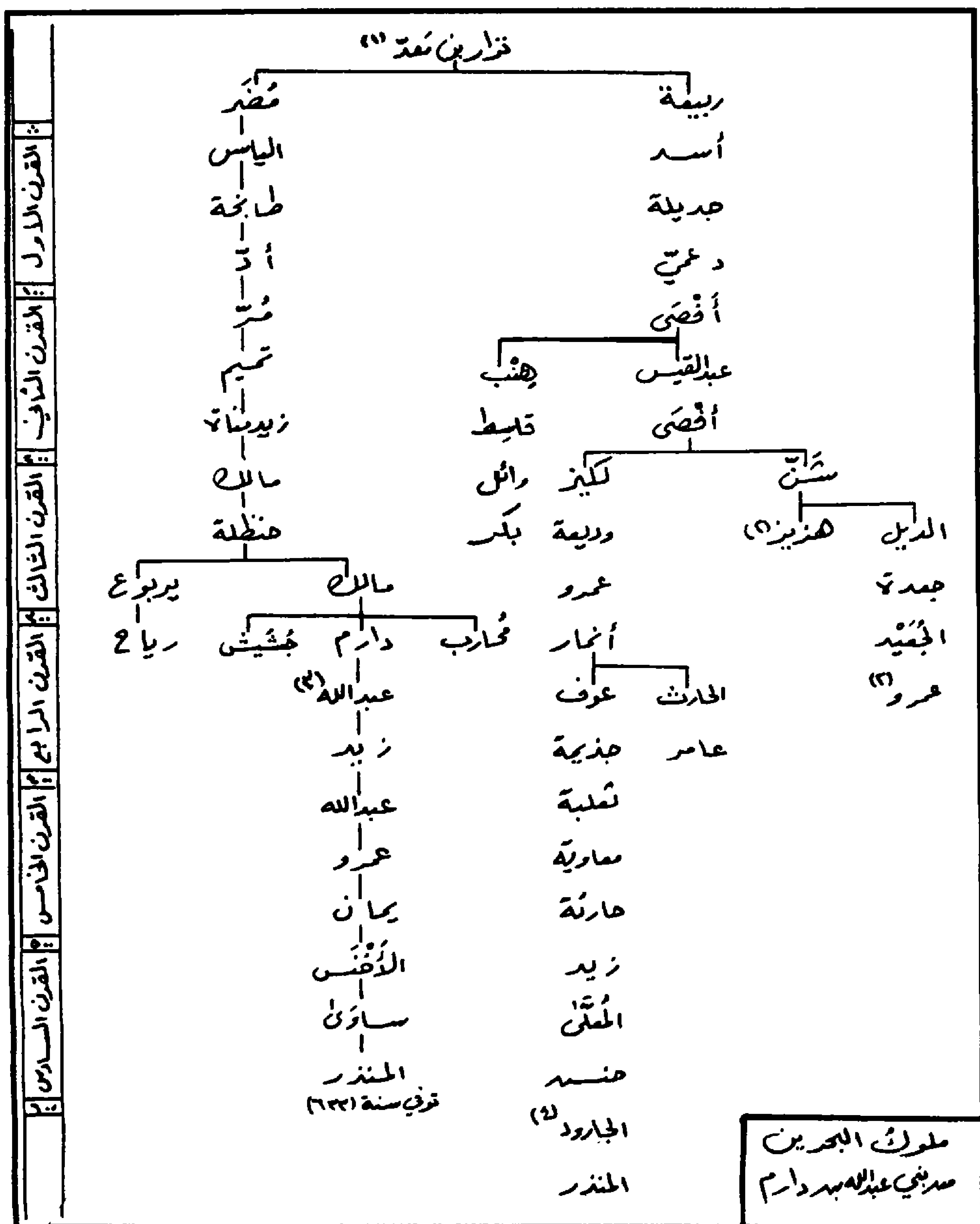
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤٣٢، ولسان العرب: ٧/ ٢٩٠ (خطط).

(٣) أديب سعوديّ، كان رئيساً لتحرير جريدة اليوم السعودية التي تصْدرُ بالدمَّام.

(٤) مجلة أهلاً وسهلاً السعودية: ٥٤ من العدد الثالث، مارس ـ آذار ١٩٩٤.

(٥) لسان العرب: ٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ (دور).

مسيرةُ عشرةِ أيامٍ على الإبِلِ، أي نحو مئتين وخمسين ميلاً، وبينها وبين الأُبُلَّة خمسة عشر يوماً، وبينها وبين عُمَانَ شَهْرٌ(١).



(١) معجم البلدان: ١/٣٤٧، و٥/٣٩٣.

(١) المراجع: جمهرة أنساب العرب: ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ٢٩٩، والأعلام: ٢/ ٥٥، و٧/ ٢٩٢، و٨/ ٨٤، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٥٩، و٤/ ٣٧٨، ومعجم قبائل العرب: ١٧٦، ٥١٤، ٧٠٦، ٧٣٢، وتاج العروس: ٤/ ٤٠٥ (هنب)، و١٥/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧ (هزز)، و١٧/ ١٠٦ (جشش)، والمعارف: ٦٥١، ونهاية الأرب: ٣٣٩.

(٢) **عمرو بن الجعيد**: قيل إنه أَوَّلُ من سار ببُطونِ عبد القيس من تهامة إلى الخليج العربي، وقيل أيضاً إن هُزَيْزَ بنَ شنّ هو أَوَّلُ من ثقف القَنَا بمدينة الخَطِّ على ساحل الخليج، فتكون عبدُ القيس بذلك موجودةً في الخليج قبل عمرو بن الجعيد.

(٣) **عبد الله بن دارم**: كان بَنُوهُ ملوكَ البحرين، وقاعدةُ مُلْكهم مدينةُ هَجَر، وقد توفي آخِرُهم المنذر بن ساوَىٰ العَبْديُّ سنة (٦٣٣ م)، وهو دليلٌ على صواب تقديرنا للأزمنة في جدول النَّسب.

(٤) **الجارودُ بنُ حَنَش**: أسْلَمَ، وكانت له صحبة، وكان سيِّدَ عبد القيس في زمانة، توفي سنة (٦٤١ م)، وتولَّىٰ إبنُه المنذر ولايةَ السِّنْد، وتُوفي هنالك نحو سنة (٦٨٤ م).. وهو ما يؤكدُ أيضاً صوابَ تقديرنا للأزمنة في جدول النسب.

وقد اشتُهِرت هَجَرُ بوفرةِ المياهِ والينابيع، وكثرةِ النبات والنخيل، وتَنوَّعَت مياهُ ينابيعُها بين ماءٍ بارد وماءٍ حارٍّ، وآخَرَ مَعْدَنيّ، وتعدَّدَتْ فَواكِهُها بين ليمون وخوخ ومشمش ورُمّانٍ وعنبٍ وتين، إلى ما كان بها من نباتٍ كالأرز والحبوب، ولكنَّ شهرتَها قامت على ما كان بها من أشجار النخيل وأنواع التمر، فهي مَعْدِنُ التَّمْرِ، وفيها أطيَبُهُ وأكثرهُ جودةً، حتى ضُرِبَ به المثَلُ، كقولهم: كمُبضِعِ تَمْرٍ إلى هَجَر، وكَجَالبِ التَّمْرِ إلى هَجَر[1]. . وما من عجبٍ في ذلك، فالأخبارُ المأثورةُ عنها مُطْبِقَةٌ على أنها والأَحْسَاءَ المُطيفة بها، كانت من أخصبِ بلاد العرب تربةً، وأكثرِها غِنىً وثروةً ورخاءً، وأوْسَعِها إنتاجاً لأنواع التَّمْر. . . ومن ذلك حديثُ رجُلٍ من بني عُذْرة، حضَر وليمةً لعبد الملك بن مروان، عَجز الفُصَحاءُ عن وصفِ ما حوَتْ من الأَطَايِب، فقيل له: هل رأيتَ أطيبَ من هذا أو أكثر؟ فقال العُذْريُّ: أمَّا أكثرُ فلا، وأمَّا أطيبُ فنعَم، فقد واللَّهِ خرجتُ زائراً لأَخْوالٍ لي بهجَر، فأكلتُ هنالك طعاماً أطيبَ منه، مَصْنُوعاً من التمر، ثم جعل يَصِفُهُ، فوافقه عبدُ الملك وقال له: لقد أكلتَ طعاماً طيِّباً[2]. . . وذكر المرزوقي أن أرض هجر «كانت أرضاً مُعْجِبةً، لا يراها أحَدٌ فيصبر عنها، وكانت لا تَقْدَمُها قافلةٌ إلا تَخلَّفَ بها منهم ناسٌ، فمن ذلك صار بهَجَرٍ من كل حيٍّ من العرب وغيرِهم»[3].

وإذا كان التمرُ أعْظَمَ غَلاَّتِ هجر، لكنه لم يكن كلَّ تجاراتها، فقد اشتُهِرت أيضاً باللؤلؤ، وحياكةِ نسيجٍ تُصنعُ منه الأثوابُ الهجريَّة[4]، وتَثْقِيفِ

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٢٩، ولسان العرب: ٥/٢٥٧ (هجر).

(٢) الأغاني: ٨/٣٨ ـ ٤٠، والبخلاء: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣.

(٤) الطبقات الكبرى: ١/٢٦٢.

الرماح[1]، والقِلاَلِ الهَجَرِيَّة، أي الجِرَارِ العظيمةِ والأكْوازِ الصغيرة، كانت تُجلَبُ من هجر إلى المدينة[2]، وتُباع في سوقها الثيابُ الظَّهْرانِيَّةُ، وكانت تُصنَعُ بالظهران إحدى قُرى هَجَر[3]، ومثلُها الثيابُ القَطريَّةُ والنجائبُ القَطَرِيَّةُ[4]، ومِسْكُ دارين، وأشياءُ أخرى كثيرة تَجِلُّ عن الحصر، يدخلُ فيها ما كانت تحمله إلى مَرْفَئِها السفُنُ القادمةُ من الهند وإيران وإفريقية، فقد كانت بحُكم موقعها على اتصالٍ مُستمرٍّ بهذه البلاد، وكذلك بالحيرة، والشام، واليمامةِ وعُمَان وسائرِ بلدان العرب، فمَعَاشُ أهلها كان قائماً على التجارة. ويبدو أن مَرْفَأها على الخليج العربي كان قرية العُقَيْر، وأعتقد أن العُقَيْر كانت في أوَّلِ أمرها قصراً صغيراً، أو منزلاً من منازل أهل هجر، ذلك أن العُقَيْر تَصْغِيرُ العَقْرِ أو العُقْرِ، بمعنى القَصْر أو البِناءِ على أيِّ حالٍ كان، ومنه يتبيَّنُ أن أهل هَجَر كانوا يبنون البيتَ أو القصرَ، ويُسَمُّونَه العَقْرَ، وفيه يقول لبيدُ بنُ ربيعة العامِريُّ، أحدُ أصحاب المعلَّقات:

كعَقْــرِ الهــاجِـرِيّ إذا بَنَــاهُ   بأشْبَاهٍ حُذِينَ على مِثَالِ[5]

فانظرْ كيف وصف لنا بيوتَ أهل هجر، تُبنَى على نَسَقٍ واحد، مُتَشابهات، بعضُها بإزاءِ الآخَر مُتحاذِيات. . .

* * *

أمَّا المُشَقَّرُ، فقد كان قاعدةَ هَجَرٍ، والحِصْنَ المتينَ الَّذي يتَّخِذُ منه

---

(١) معجم البلدان: ٢/٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ٥/٣٩٣.

(٣) المرجع نفسه: ٤/٦٣.

(٤) المرجع نفسه: ٤/٣٧٣، ومهد العرب: ٨٨.

(٥) لسان العرب: ٤/٥٩٨، وتاج العروس: ١٣/١٠٨ (عقر).

ملوكُها مركزاً للحكومة، ويأوي إليه الناسُ إذا دَهَمهم عَدُوٌّ، وفيه كان ينعقدُ موسمُ السوق كلَّما أَزِفَ موعدُه، وكانت له شهرةٌ في العرب مُسْتَفيضةٌ، مما أغْرَى بعضَ رُواةِ الأخبار في عصر التدوين أن يُضِيفُوا أَمْرَ بنائه إلى كسرى أنوشروان تارةً (٥٣١ ـ ٥٧٩ م)، وإلى كسرى ابرويز (٥٨٩ ـ ٦٢٨ م) تارةً أخرى، وهو مذهبٌ تَكلَّفوهُ للحطِّ من شأن العرب. وفي بعض الروايات التي نقلها الطبريُّ: أن الَّذي بَنَىٰ المشقَّرَ رجلٌ من أَسَاوِرَة كسرىٰ، أي من قادته أو فُرسَانِه، وإذ كان الفَعَلَةُ، الَّذين اسْتَقدمهم إلى هجرٍ لبنائه، لا يُقِيمون، ولا يُتمُّون البناءَ إلا أن تكون لهم نسَاءٌ، والعربُ تكرهُ أن تُزوِّجَ نساءَها من الأعاجم، فقد نَقَلَ لأولئك الفَعَلَةِ الفَواجِرَ من نساء الأحْوازِ والسَّوادِ، فتناكحوا وتَوالدوا، وصاروا جُلَّ أهلِ هَجَر، وتعلَّموا العربيَّةَ، وطلبوا من بني عبد القيس إلْحَاقَهم بهم، فأبَوْا عليهم ذلك، لأنهم يعرفون أَصْلَهم وأوَّلَهم، فكانوا يَعُدُّونَهم من مواليهم، أي عبيدهم[١].

ومن شأن هذه الرواية أن تؤكد لنا، أن الفرس الذين كانوا بهَجَرٍ وسائر مدُنِ الخليج، إنما قَدِمُوا، أو استُقْدِموا في الأصل، للعمل في الأرض وفِلاحَتِها، أو في البناءِ، وحيث كان العربيُّ يأنَفُ القيامَ به من الأعمال[٢]. . وهؤلاء هم الجاليةُ التي كانت في تلك المنطقة لمَّا فَتَحها المسلمون، وكلُّ ما ذُكر عن وقوعها في سُلطانِ الأكاسِرَة، أو وجودِ جيشٍ فارسيّ بها يحكمُ العربَ، غيرُ صحيح، باستثناء الفترة القصيرة التي كانت بين مقتلِ النعمان بن المنذر، ملكِ العرب، سنة (٦٠٤ م)، وموقعةِ ذي قار نحو سنة (٦٠٦ م)، وقد مُنِيَ بها جيشُ كسرى أبرويز بهزيمةٍ مُنْكَرةٍ على أيدي بضع قبائلَ من

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ١٧٠.

(٢) يبدو اليوم أن هذه المُعْضِلَةَ عادت إلى الظهور مرةً أخرى، بعدما جرى في الحِقَبِ المُنْصَرِمَة استقدامُ عددٍ كبير من الأعاجم للعمل في مُدُن الخليج حيث لا يعملُ أهلُ الخليج!

العرب، انتقاماً لمقتل النعمان غدراً على يديْ أبرويز، ولم تَسْتقِم الأمورُ بعدئذٍ بين العرب والفُرس، لا في الحيرة، ولا في مُدُن الخليج حيث كانت قبائلُ العرب تدين للملوك من بني لَخْم غالباً، وليس للفُرس. .

وفي حديثه عن خُطوطِ أهل الجاهلية وكتابتهم، ذكر الجاحظُ أن الكتابة إذا كانت تاريخاً لأمر جسيم، كانوا يجعلونها حَفْراً في الصخور، كما كتبوا على قُبَّةِ غُمْدانَ، ورُكْنِ المُشَقَّر، وعلى الأَبْلَق الفَرْدِ[1]. . . ولو كان المشقَّرُ فارسيّاً لكتبوا عليه بالفارسيَّة، لا بالعربية! والواقعُ أن المشقَّر حصنٌ قديمٌ، له ذِكْرٌ في أشعار العرب، يعودُ إلى ما قبل أنُوشُروان وأبرويز. . وإذا صحَّ أن بانيه هو معاويةُ بنُ الحارثِ بن معاوية، الملكُ الكِنْديُّ[2]، فبناؤه يعود إلى أوائل القرن الرابع للميلاد تقريباً. . . ومن أقوال الشعراء في متانة الصخور التي بُني منها المشقَّر قولُ أبي ذُؤيب الهُذَليّ في مَرْثِيَّتِه لبنيه، يصفُ ما نزل به من نوائب الدهر:

حتى كـأنّـيَ للحـوادث مَـرْوَةٌ   بصَفَا المشقَّرِ كلَّ يوم تُقْرَعُ

والمَرْوَةُ الحجرُ الصوَّانُ الصُّلْبُ، والصَّفا الحجارةُ الصَّلْدَةُ الضخمة، واحدتُها صَفَاة. . . وقولُ لبيد بن ربيعة العامريِّ يصفُ فِعْلَ بنات الدَّهْر:

وأَنْزَلْنَ بالدُّوميِّ من رأس حِصْنِهِ   وأنـزلْـنَ بـالأسبـابِ ربَّ المُشَقَّـرِ

أراد بالدُّوميِّ أكيدرَ بنَ عبد الملك صاحب حصن دومة الجندل[3].

---

(١) الحيوان: ١/ ٣١١ ـ ٣١٣، والمحاسن والأضداد: ٥.
(٢) المفصَّل: ١/ ٣٣٩، و٤/ ٢٠٤، و٨/ ٥١١.
(٣) لسان العرب: ٤/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣ (شقر).

وقولُ الأعشى الكبير، من بني بكر بن وائل، يذكر المشقَّرَ والصَّفا، ويشير إلى كثرة ما كان بهما من غَلَّات النخيل:

فإن تَمنَعُوا منا المشقَّر والصَّفَا فإنَّا وجَدْنا الخَطَّ جَمّاً نخيلُها[1]

أراد أن مدينة الخَطّ كانت أيضاً كثيرة النخيل، كالمشقَّرِ والصَّفا.

* * *

المطلب الثاني ـ الموسم والحكومة:

خَلُصنا من تحقيقنا، في مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين، إلى أن الأخباريين لم يذكروا لإقليم هَجَر إلا موسماً واحداً فقط، هو موسمُ السوقِ العامَّةِ، التي كانت تقومُ بحِصْن المشقَّرِ، كلَّ سنةٍ، في اليوم الأول من شهر جُمادَى الآخرة، ثم تَنْفَضُّ بانقضائه[2]. وفي اعتقادي أن هذا الموعد كان يُوافِقُ شهرَ آذار (مارس) من السنة الشمسيَّة، بالتقويم العربيّ السريانيّ.

وقد سمَّىٰ القَلْقَشَنديُّ هذا الموسمَ سوق هَجَر[3]، ولم يذكرِ المشقَّرَ كموْضِعٍ لقِيَامِهِ، فوَهِمَ الآلوسيُّ، وحَسِبهُ موسماً آخَرَ غيرَ موسم المشقَّر، وحَسِبَ موعدَ ارتحال الناسِ، في شهر ربيعِ الآخِرِ، من دُومة الجندل إلى مدينة هَجَر، موعداً لقيام موسم هجر[4]، فجعل بذلك مسيرةَ ما بينهما يوماً، بينما هي في الحقيقة أكثر من شهر! على أن التوحيديَّ، وهو من نَقَل عنه القلقشنديُّ، تَنبَّه للأمر فقال: «ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر، وهو المشقَّرُ، في

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٣٧٨.
(٢) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، وخزانة الأدب: ٤/ ٣٦٠.
(٣) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨.
(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.

شهر ربيع الآخِر»[١]. . ثم وَهِمَ الأفغانيُّ كذلك، فتابَعَ الآلوسيَّ على مذهبه، وجعل سوق هَجَر غيرَ سوقِ المشقَّر، ولمَّا أراد الكلامَ عليهما، كرَّرَ الأقوالَ نفسَها في كليْهما[٢]. . . وهذا كلُّه مُسْتَوْفىً في الباب الأول من هذا الجزء، ولا ضرورة لتكراره هنا، ونكتفي بالتأكيد على أن سوق هجر، وسوق المشقَّر إسمان لمُسَمّىً واحدٍ هو موسمُ سوق المشقَّر.

ويبدو أن موسم المشقَّر كان، كسائر المواسم، دينيّاً وتجاريّاً واجتماعيّاً في آن معاً. . فقد ذكر الأخباريُّون أنه كان بالمشقَّر صنمٌ لبني عبد القيس، إسمُهُ «ذو الْلِبَا»، سَدَنَتُه منهم بنو عامر بن الحارث[٣]. ولعلَّهم كانوا، إذا انعقد موسمُ السوق، يَنْسُكُونَ لهذا الصَّنَم، ويطوفون به، فِعْلَ العربِ في سائر المواسم الأُخرى، وأكادُ أُرجِّحُ أن نُسكَهم كان يُباشَرُ عند انْفِضَاضِ السوق، ذلك أن موعد انْفِضَاضِها يتّفقُ غالباً مع موعد عيد الفِصح، أو يكون قريباً منه، وكانت كثرةٌ من أهلِ هَجَر على النصرانيَّة يومئذٍ.

ولكن الطريف في نُسْكِهم أن تلبيتهم كانت: «لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْك، لبيك ربِّ فاصْرِفَنْ عنّا مُضَر، وسَلِّمنْ لنا هذا السَّفَر، إن عمّا فيهمُ لَمُزْدَجَرْ، واكْفِنَا اللهمَّ أربابَ هَجَر»[٤]. . فانظرْ إلى هذا النصّ كيف يُبيِّنُ لنا أن السلطانَ على بلادِ هَجَر وسائرِ ما كان يُسمَّىٰ بإقليم البحرين كان لبني تميم من مُضَر بن نزار، فكان بنو عبد القيس، وهم من ربيعة بن نزار، يدعون الله أن يَصْرفَ عنهم بني مُضَر، ويَكْفيَهم أربابَ هَجَر، أي ملوكَها، وكانوا من تميم، من

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٤٠ ـ ٢٥١.
(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٩٣، والمحبَّر: ٣١٧.
(٤) المحبَّر: ٣١٤.

بني عبد الله بن زَيْد، قَومِ المنذرِ بن ساوَىٰ مَلكِ هَجَر وسائر مُدُنِ الخليج، عند ظهور الإسلام. وكان هؤلاء حُكَّامَ سوقِ المشقَّر، يسيرون فيه بسيرة الملوك في دُومَة الجُنْدَل[1]، فيبيعون ويشترون ما شاؤوا من التجارات قبل الناس جميعاً، وتُجْبَىٰ إليهم العُشُورُ من التجَّار.

وعلى ذلك فإن وُلاةَ موسم المشقَّر هم أنفُسُهم ملوكُ هَجَر، وكان آخِرَهم المنذرُ بن ساوَىٰ بن الأَخْنَسِ العَبْديّ، وقد زعم ابنُ الكلبيّ أنه من بني عبد القيس، وهو غَلَطٌ منه، أشار إليه العَسْقلانيُّ، وأوْضَحَ أنه عَبْدِيٌّ نسبةً إلى جَدِّه عبد الله بن دارم، وأن رسولَ الله، عليه السلامُ، كتَب إليه فأسلم، وظلَّ على عمله لم يَعْزِلْهُ عنه[2]. وقيل إنه جعل معه على البحرين وقتئذٍ العَلاءَ بنَ الحضرميّ، وهو صحابيٌّ أصلُه من حضرموت، وُلِدَ ونشأ بمكة[3]، ووَلاَّهُ جبايةَ الصَّدَقة من بعض مَن تَجِبُ عليهم، ولعلَّ ذلك كان في القطيف فقط، بدليل أنه كتب إليه بعدئذٍ يأمرهُ أن يبعثَ ما اجتمع عنده من الصَّدَقةِ، ويُخْبِرُهُ بأنه بعث إلى المنذر مَن يقبضُ منه ما اجتمع عنده منها[4].

ولكن أهل الأخبار ذكروا ههنا أشياء لا بدَّ أن نتوقَّفَ عندها قليلاً لمناقشتها والتعليق عليها. فالمعلومُ أن جُلَّ سُكَّانِ البحرين كانوا من بني عبد القيس وبكر بن وائل وتميم، وهم بين وَثَنيَّةٍ ونصرانيَّةٍ، إلى شَراذِمَ من

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، وصبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤. وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٢) الإصابة: ٤/ ٤٣٩ (ت: ٨٢١٨)، والطبقات: ١/ ٢٦٣، وجمهرة أنساب العرب: ٢٣٢.

(٣) السيرة لابن هشام: ٢/ ٥٧٦.

(٤) الأعلام: ٤/ ٢٤٥، والطبقات: ١/ ٢٦٣، ٢٧٦، ومعجم البلدان: ١/ ٣٤٨، وتاريخ الطبري: ٣/ ١٣٧، والكامل: ٢/ ٣٠١.

مَجُوسٍ ويهود[1]، وكانت هنالك جاليةٌ من الأعاجم تُستخدم في زراعةِ الأرض والأعمالِ المختلفةِ، مُعْظمُها من فارسَ، وفيها من الهند والسِّنْد، وهي التي رفض أكثَرُها الدخولَ في الإسلام، ففُرِضَت عليها الجزيَةُ، وكان أَحَدُ مُقَدَّميها أو رؤسائها، واسْمُهُ «سِيبُخْت»، كتب إلى رسول الله، عليه الصلاةُ والسلام، يطلبُ الشفاعة لقومه، فَشَفَّعَهُ فيهم، وسمَّاهُم بني عبد الله[2]. . ثم زعم الأخباريون بعد ذلك أن رسول الله كتب إلى سِيبُخْت «مَرْزُبَانِ هَجَر»[3]، أو السِّيبُخْتِ «صاحبِ هَجَرٍ»[4]، مع أن الرجلَ لم يكن رئيسَ هَجَرٍ ولا صاحِبَها، وإنما كان رئيسَ جالية توطَّنَتِ البحرين، واستعربت، ثم أرادت من بني عبد القيس إلحاقَها بأنسابهم، فأَبَوْا عليها ذلك، وكانوا يَعُدُّونها من مواليهم لا أكثر[5]. . . وزعم الأخباريون كذلك أن رسول الله كتب إلى «الهلال صاحبِ البحرين»[6]، فمن هذا الهلالُ الذي ظهر فُجاءَةً وجُعِلَ صاحبَ البحرين؟ وكيف يكون مَلكَ البحرين ولا يُعْرفُ له أَبٌ أو جَدٌّ أو نَسَبٌ إلى قبيلة من قبائل العرب؟ والجواب واضح طبعاً، فالرجلُ لم يكن غيرَ ترجُمانٍ بين المسلمين والجالية الفارسية، واشتُهِر باسم

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٠٣، ٢١٠.

(٢) الطبقات: ٢٧٥.

(٣) معجم البلدان: ١/ ٣٤٨.

(٤) الطبقات: ١/ ٢٧٥.

(٥) إن الصُّلْحَ، الذي أمضاهُ المنذرُ بن ساوى والعلاءُ بنُ الحضرميّ لمن رفضوا الدخولَ في الإسلام، من سكان البحرين، سمَّاهُم «أهلَ الأرض من المجوس واليهود والنصارى»، أي مَن كانوا يَتَعَهَّدُون الأرض بالفِلَاحة والزراعة، بدليل قوله: «على أن يكْفُونا العملَ ويُقَاسِمُونا الثمر»، وهذه إشارةٌ إلى أن معظم هؤلاء كان من الأعاجم المستوطنين. (معجم البلدان: ١/ ٣٤٨، والكامل: ٢/ ٢١٥).

(٦) الطبقات: ١/ ٢٧٥.

هلالٍ الهَجَرِيّ[1]، أي أنه لم يكن عربيّاً، ولو كان كذلك لَنُسِبَ إلى آبائه، والأمرُ كلُّه مَحْضُ افتراءٍ وتَزْوير، اخترعوهُ حُجّةً تُبرِّرُ زعمهم بأن ملوكَ العرب من بني عبد الله بن زيد كانوا عُمَّالاً للفُرس على هَجَرٍ والخليج العربيّ، وأن هذا الإقليم كان في مملكة الفُرسِ عندما فتحه المسلمون، وأن المنذرَ بنَ ساوى كان من قِبَل الفُرس[2].

وهذا كلُّه زعمٌ غيرُ صحيح قطعاً، تَدْحضُه وقائعُ التاريخ، إذا ما أُحْسِنَ استقراؤها، فضلاً عن افتقاره إلى دليلٍ تاريخيّ واحدٍ على الأقلّ يُؤيّدُ شيئاً ممّا جاء فيه[3]، أو يُشير، من قريبٍ أو بعيد، إلى وجودِ كتيبةٍ أو جيشٍ للفُرس بالبحرين، أو في الخليج العربيّ، سواء في الجاهلية أو عند ظهور الإسلام. وكنتُ، في مناقشتي لدعوى القائلين بسُلْطان الفُرس على بعض بلاد العرب، أو أسواقِهم، تحدَّثتُ حديثاً مُسْهَباً، مُؤيِّداً بالأَدِلَّة التاريخيّة[4]، برهنتُ فيه على أن هذا المذهبَ باطِلٌ، وأنه دعوى لَفَّقَها بعضُ أهل الأخبار من الغُلاَةِ، للتهوين من شأن العرب، وإعلاءِ شأنِ الفُرس، والإيحَاءِ بأن أرضَ الخليج جزءٌ من أرضهم، مع أن قبائل العرب كانت وقتئذٍ مُتَوطِّنَةً شاطِئَيْ الخليج معاً، وكانت في الشاطىء الشرقيّ تنتشِرُ ما بين مَيْسَانَ وكَرْمان... وأُحبُّ أن أضيف هنا دليلاً آخَر، فقد كتب رسولُ الله، عليه السلام، في نحو السنة السادسة للهجرة إلى كسرى أبرويز يحضُّه على الإسلام، فغضب ومزَّق الكتابَ، وكتب إلى باذانَ الفارسيّ باليمن يأمره أن يأتيه

---

(١) المفصَّل: ٤/٢١١، ٢٢٧.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥، ومعجم البلدان: ١/٣٤٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٢، والسيرة لابن هشام: ٢/٦٠٧.

(٣) المفصَّل: ٢/٦٣٨ ـ ٦٣٩، و٢/٦٤٧، و٤/٤٨٦.

(٤) أنظر المطلبَ الثاني من الفصل الرابع في الباب الخامس من الجزء الأول من هذا الكتاب.

برسول الله عليه الصلاةُ والسلام[1]. . فما بالُه لم يكتبِ إلى مَن زعموا أنه عامِلُهُ على هَجَر؟ هذه واحدة، والأُخرى: كتب رسولُ الله في الوقت نفسه إلى المنذر بن ساوَىٰ صاحبِ هَجَر وسائرِ إقليم البحرين أو الخليج، ودعَاهُ بدعوة الإسلام، فأجاب، وأسْلَم معه جميعُ العربِ هناك وبعضُ العجم[2]. . ولم يَرِدْ في الأخبار ما يُشير إلى أن المنذرَ شاوَرَ الفُرسَ أو مَلِكَهم في هذا الأمر، وإنما ورد أنه فَرضَ الجزيةَ على من رفض الدخولَ في الإسلام، وهذا معناه أنه كان صاحبَ الأمر في ذلك الإقليم من بلاد العرب، ومعناهُ كذلك أنه لا صحَّة لما زعمه الأفغانيُّ عن رُضُوخ ملوك المشقَّر إلى ملوك فارس، بالنصيب الأَوْفَىٰ من العُشُور التي يحصلون عليها في موسم قِيَام السوق[3]، ولا معنى لقوله بأن فارسَ كانت تبسطُ سلطانَها على سواحل الخليج وبَحْرِ اليمن[4]. . .

على أن هنالك أخباراً تُشِيرُ إلى أن نفوذَ «عمرو بن هند» ملكِ الحيرة (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، اتَّسع حتى صارت جبايةُ كلٍّ ما بين الحيرة واليمامة تعودُ إليه، ويُشير بعضُها إلى وجود عُمَّالٍ له، تارةً على البحرين[5]، وتارةً على عُمَان والبحرين، وتارةً أخرى على البحرين وهجر[6]. ويتبيَّنُ من التحقيق في هذه الأخبار، أن إقليم البحرين كان تابعاً، في تلك الحقبة، إلى ملك الحيرة، وأن حاكمه كان عاملاً لعمرو بن هند، ويبدو أنه كان ربيعةَ بنَ الحارثِ العَبْديّ، ثم اعْتَزَلَ، فاستعملَ مكانَه المُعَلَّى بن حَنَش العبديّ الذي

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٣٤٨.

(٣) أسواق العرب: ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

(٤) المرجع نفسه: ٢٥٤.

(٥) المفضَّل: ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، والشعر والشعراء: ١٧٩، ١٨١، ١٨٦، ١٨٩.

(٦) شرح القصائد السبع: ١١٦، ١٢٣.

لُقِّبَ بالمُكَعْبِر لقَتْلِه طَرَفَةَ بنَ العَبْد[1]، بعدما قطع يَدَيْه ورِجْلَيه، بأمرٍ من الملك[2]. . .

ولا شك في أن لهذه الأخبار دَلاَلاتٍ أُخْرِيَاتٍ غيرَ التي تحدَّثنا عنها، أوَّلُها أن إقليم البحرين كانت له تَبَاعَةٌ أحياناً إلى ملوك العرب بالحيرة حينما يَعْظم شأنُهم، وليس إلى ملوك فارس. وثانيها أن حُكَّامه لم يكونوا دائماً من بني عبد الله بن زيد، من تميم، فربيعةُ بنُ الحارث، والمُعَلَّى بنُ حَنَش ربما كانا من عبد القيس، ولعلَّ ذلك كان في زمن عمرو بن هند فقط. ذلك أن الأخباريين مُتَّفقون على أن مُلوك هَجَر كانوا من بني تميم، من بني عبد الله بن زيد[3]، وأن عبدَ الله بنَ زيدٍ هذا هو الأسْبَذِيُّ، نُسِبَ إلى «الأسْبَذِ»، وهي قريةٌ بهَجَر[4]، ثم غلبتْ هذه النسبة على أبنائه. ولكن هنالك من يقول إنه كان من الأَسْبَذِيِّينَ، وهم قومٌ كانوا يعبدون الخَيْلَ بالبحرين في رأيٍ، أو قومٌ من المجوس كانوا مَسْلَحةً لحصن المشقَّر في رأيٍ آخَر، إلى زَعْمٍ بأن الأَسْبَذَ إسْمُ مَلِكٍ من الفُرس ولاَّهُ كسرى على البحرين، فأَذَلَّهم واسْتَعبدهم. . وقائلُ هذا فَسَّرَ بنَزْعةٍ فارسيّةٍ قولَ طَرَفة بن العبد يعتب على قومه:

---

(١) طرفَةُ بنُ العَبْد البكريُّ الوائليُّ: أبو عمرو، شاعر جاهليٌّ من الطبقة الأولى، وُلد في بادية البحرين، وتنقَّل في بقاع نجد، واتصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في نُدَمائه، ثم وَجَد عليه إذ بلغه أنه هجاه، فأرسله بكتابٍ إلى ربيعة بن الحارث عاملِه على البحرين، أوْهَمَهُ فيه بأنه أمَرَ له بجائزة كبيرة، وهو إنما أمر بقتله، وكان ربيعةُ من أقارب طَرَفة، فلم يفعل واعتزل عمله، فنَصب عمرو مكانَه المكعْبِرَ، فقتله نحو سنة (٥٦٤ م)، وكان ما يزال شابّاً في العِشْرينات.

(٢) المفصَّل: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، والأعلام: ٣/ ٢٢٥، والشعر والشعراء: ١٨٦.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠. . .

(٤) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢، ومعجم البلدان: ١/ ٣٤٧.

خذُوا حِذْرَكم، أهلَ المُشَقَّرِ والصَّفا   عَبِيدَ «اسْبَذٍ»، والقَرْضُ يُجْزَىٰ من القَرضِ[1]

والأقربُ أن يُقال إن «الأَسْبذَ»، بدلالة هذا البيت، لم يكن اسم قريةٍ، بل إسماً أو لقَباً فارسيّاً لرجُلٍ عربيّ، لعلَّه عبدُ الله بنُ دارم[2]، وكان ذلك مألوفاً في بلاد البحرين، وقد عُرِفَ أن فريقاً من بني تميم كانوا على المجوسيَّة، وأن بعضَهم كان يُسمِّي أولادَهُ بأسماءٍ فارسيّةٍ. . والأَسْبَذُ تعريبٌ لكلمة «أسبيذ» ومعناها: الأبيضُ، والمُضيء، وربما الميمونُ والمُبَارَكُ وربما كانت تعريباً لكلمة «أسْبْ بازي» ومعناها: الفارسُ والفروسية[3]. وذهب جواد علي إلى أن «الأَسْبَذِيَّة» يُراد بها الفُروسية، وهي درجة من الشرف والرفعة في الجيش الفارسي[4]. أي أنه ردَّها إلى كلمة «إسپاهْبُد» ومعناها أمير الجيش، أو قائدُ الجند، أمَّا الفُروسيّة فيقابلُها في الفارسية كلمةُ «أسْبْ بازي»، وكلمة «أسْبَ» تعني الجوادَ أو الفَرسَ[5]، ومن هنا مذهبُ من زعم أن الأَسْبَذِيّين كانوا يعبدون الفَرَسَ، وهو تفسير غير صحيح كما يتَّضِحُ من السِّيَاق. فالأَسْبَذِيُّون هم أبناءُ عبدِ الله بن زيد، أوَّلِ من نُسِبَ إلى الأَسْبذِ، أي الفارس، أو الميْمون المبارك، وكانوا حكَّامَ البحرين، ومقامُهم حصنُ المشقَّر بهَجَر لا يبرحونه، وفي ذلك قال مالكُ بن نُوَيْرة التميمي:

---

(١) تاج العروس: ٩/ ٤١٧، ولسان العرب: ٣/ ٤٩٣ (سبذ)، والمفصَّل: ٤/ ٢٠٣، ومعجم البلدان: ١/ ١٧١ ـ ١٧٢. والقَرْضُ: ما يَتَجازَىٰ به الناسُ بينهم ويَتَقَاضَوْنَه، وهو ما أَسْلَفَهُ أَحَدُهم من إحسانٍ ومن إساءة.

(٢) عبدُ الله بنُ دارم: جَدُّ عبدِ الله بنِ زيد أوَّلِ الأَسَابِذَةِ أو الأَسْبَذِيّين من بني تميم.

(٣) المعجم الذهبي: ٦٥، ٦٦، ٣٧٧، ومن ذلك قولهم: دِرَمْنَه إسْپيذ، وهو نبتٌ جبليٌّ يَبْيضُّ إذا يبس (تهذيب الصحاح: ٧١٦ ـ ٧١٧)، والمعجم الذهبي: ٢٩٤.

(٤) المفصَّل: ٦/ ٦٩٤.

(٥) المعجم الذهبي: ٦٥.

أَبىٰ أن يَريمَ الدهر وَسْطَ بيوتكم كما لا يَريمُ الأَسْبَذِيُّ المُشَقَّرا[1]

* * *

المطلب الثالث ـ شُهود الموسم:

كان يقصدُ سوق المشقَّرِ في موسمها تُجَّارٌ من مختلف أنحاء جزيرة العرب، يأتُونَها على ما كان في الطريق إليها من مشقَّةٍ وخَطَرٍ. وفي حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: عَجِبتُ لتاجِرِ هَجَر وراكبِ البحر[2].. أي أن التاجِرَ القاصِدَ إليها بَرّاً وراكبَ البحرِ سواءٌ في الخَطَرِ.. وكان تُجَّارُ فارسَ يَقْطَعُون البحرَ إليها ببِيَاعَاتِهم، ثم يَنْقَشِعُون عنها إلى مِثلها من قابِلٍ[3]. ومن الطبيعي أن تنزلَ السوقَ أحياءٌ من بني عبد القيس، وتميم، وبكر بن وائل، وأن يَقْدَمَها تُجَّارُ مُدُنِ الخليج بما تَوافَرَ لهم من العُروضِ والغَلاَّت والصناعات، يبيعونها من الراغبين فيها، ويشترون ما كانوا بحاجة إليه.

وكانت قبائل عبدِ القيسِ وتميمٍ جيرانَها، أي أنها كانت تقومُ بحمايتهم، وجِوَارِهم، وخفارتهم، ذلك أن جميعَ مَن كان يأتيها مِن التجَّار، لا يستطيع الوصولَ إليها إلا بخُفَارةٍ، ومن كان يأتيها من بلاد مُضَر، يَتَخفَّرُ ببعض قبائلِ مُضَر، فيُجيره سائِرُها أينما كانوا على طريقه. ومن كان يأتيها من بلاد ربيعة، يَتَخفَّرُ ببعض قبائلها، وكانت ربيعةُ منتشرةً بين العراق والخليج العربي واليمامة، وكانت مُضَرُ أهلَ الكثرة والغَلَبةِ في نجد والحجاز وتهامة، وكانت كلب وقضاعة في بادِيَتَيْ الشام والسَّمَاوَة، وتَرْبطها أحلافٌ

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٧٢، والرَّيْمُ: البَراحُ، ورامَ أي بَرِحَ.

(٢) تاج العروس: ١٤/ ٤٠٦، ولسان العرب: ٥/ ٢٥٧ (هجر).

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٣.

مع ربيعة ومُضَر. . وعلى ذلك يمكن القولُ بأن الأَمْنَ كان غالباً على طرُق التجارة إلى هَجَر، وإن كانت طُرُقاً وَعرةً مُتْعِبَةً.

* * *

المطلب الرابع ـ طرائق البيع:

زعم الأخباريون أن بَيْعَهم في سوق المشقَّر كان بإحدىٰ طرائقَ ثلاثٍ: بيع المُلامَسَةِ، وبيع الهَمْهَمَةِ، وبيع الإيماء. فأمَّا المُلامَسَةُ فأكثَرُ صُوَرِها وضُوحاً أن يُجعَلَ لمسُ السلعةِ بيد المشتري قاطعاً للخِيَار، ومُوجِباً للبيع، من غير صيغة كلام. وأما الهَمْهَمَةُ فهي تَرديدُ الصوت في الصَّدْرِ من غير بيان، لكيلا يحلفَ أحدُهم على كذبٍ، إن زعم المشتري أنه قد بدا له. وأمَّا الإيماءُ فهو الإشارة بالرأس، أو باليد، أو بالعين، علامةً على وجوب البيع، فكان بعضُهم يُومىءُ إلى بعضٍ، ولا يتكلَّمون، فيتبايَعُون ويَتَراضَون إيماءً[1]. . وقد حرَّم الإسلامُ بيعَ المُلامسة لأن الشكليَّةَ تطغى عليه. وكنت رجَّحتُ، في كلامي على خصائص الأسواق الموسميَّة[2]، أنَّ هذه البيوعَ، إن صحَّ أنها كانت مُتَّبعةً في المواسم الكبرى، فما ذلك إلا بسببِ الجهل، وهو جَهلُ الأعاجم لغةَ العرب، أو بسبب اللبْس، وهو لَبْسٌ لاختلاف لهجات العرب وتبايُنِها في النُطق والدلالة. ومن الطبيعي أن هذه البيوعَ كانت تُسْبَقُ قطعاً بشكل من أشكال المُسَاوَمة بين المتبايعين، وإلا فإن اتِّبَاعَها إنما كان بقصد اللهو والمقامرة، إلى جانب الطريقة الطبيعية القائمة على المساومة الحرَّة بين المتبايعين.

* * *

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣، وبلوغ الأرب: ١/٢٦٥ ـ ٢٦٦، ولسان العرب: ١٢/٦٢٢ (همم)، و١٥/٤١٥ (ومى)، و٦/٢١٠ (لمس).

(٢) انظر المطلب الرابع من الفصل الثاني في الباب الأول من الجزء الأول.

الفصل الخامس

موسمُ سوقِ حُبَاشَة

الحُبَاشَةُ الجَماعةُ من الناس، ويُقال: في المجلس حُبَاشَاتٌ من الناس، أي ناسٌ ليْسُوا من قبيلةٍ واحدة، وكذلك الأحابيش[1]. وحُبَاشَة اسمُ قريةٍ بتهامة، واسمُ سوقها القديمة[2]. ولعلّ القريةَ سُمِّيتْ بذلك لأن أهلها لم يكونوا من قبيلةٍ واحدة، بل خليطاً من بطونٍ أو قبائلَ مختلفة، وإن كانت أخبارُ السوق تُشِيرُ إلى أنها كانت للأَزْدِ[3]... وحُبَاشَةُ أيضاً كانت سوقاً أخرى لبني قَيْنُقَاعَ في الجاهلية[4].

والطريفُ في لَفْظِ حُبَاشَة أنه كان السبَبَ في تأليف ياقوتَ كتابَهُ المعجمَ في أسماء البلدان، فقد ذكر في مُقَدّمته أنه سئل في مجلسٍ بمَرْو، عاصمةِ خُراسانَ، عن حُبَاشَة، إن كانت بضمٍّ الحاء أو بفتحها، فأجاب أنها بالضمِّ قياساً على أصل اللغة، لأن الحُبَاشَةَ الجماعةُ من الناس، من قبائل

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٢٧٩ (حبش).

(٢) تاج العروس: ١٧/ ١٢٢ (حبش).

(٣) الأَزْدُ: من أكبر قبائل العرب، تنتسبُ إلى الأَزْدِ بن الغوث، من عرب اليمن. وقد تَفَرَّقتْ ثلاثَ فِرَقٍ كبرى: أَزْدِ عُمَانَ، وأَزْدِ سَراةِ اليمن، وأَزْدِ شنوءة نزلوا تِهامةَ عَسِير بجوار خَثْعَم بن أنمار، وأشهرُ بطونهم: دَوْسُ بنُ عُدْثان، وبارِقُ، وهو سعدُ بن عدي، وغامدُ بن عبد الله. ومن سلالة الأزد: قبائلُ غسَّانَ والأَوْسِ والخَزْرَجِ وغيرُها.

(٤) تاج العروس: ١٧/ ١٢٢.

شتَّى، وهي موضع سوق من أسواق العرب في الجاهلية، فانْبَرىٰ له رجُلٌ من المجلس، وقـال: إنما هي حَبَاشَة، بالفتح، وصَمَّمَ على ذلك، وكابَرَ من غير حُجَّة. . فأُلْقِيَ في رُوعِ ياقوت يومئذٍ افْتِقَارُ الناس إلى كتابٍ مُتْقَنٍ، يضبطُ أسماءَ الأمكنة، فكان لفظُ حُبَاشَة أوَّلَ البواعِث لجمع هذا الكتاب وتأليفه[1]. . . ومع ذلك فإننا لم نظفر منه بطائلٍ عن موقع هذه السوق، ومَوْضع قيامها، إلا قوله إنها كانت بتهامة[2]، وتِهامَةُ غَوْرٌ على ساحل البحر الأحمر، يمتدُّ من عدن إلى شمال جُدَّة، وتمتدُّ في شرقها جبالُ السراة من أقصى اليمن حتى تتَّصِلَ بالشام.

غير أن الأزرقيَّ ذكر عن سوق حُبَاشَة ما هو أكثَرُ دِقَّةً ودلالةً، فعَيَّنَ موقعها، وحدَّد موعدَ قيامها، وذلك عندما نصَّ أنها كانت سوق الأَزْدِ، تقومُ في قرية **الأَوْصَام** من ديار بارق، بأوَّل وادي قَنَوْنَىٰ وحَلْيٍ من ناحية اليمن. وتقعُ من مكة على ستِّ ليالٍ، أي مسيرة نحو مئة وخمسين ميلاً على الإبل، وهي آخِرُ سوق خربت من أسواق الجاهلية، وكان والي مكة في الإسلام يستعملُ عليها عاملاً، يخرجُ إليها بجُنْدٍ، فيُقيمون بها ثلاثةَ أيام، من أوَّل رجب، مُتَوالية، حتى قتلتِ الأَزْدُ عاملاً عليها من بني غنيّ، سنة (١٩٧ هـ)، فأشار فقهاءُ أهلِ مكة على داود بن عيسى، والي مكة (١٩٣ ـ ١٩٩ هـ)، بتخريبها، فخربها، وتُرِكت إلى اليوم[3]، أي إلى أيام الأزرقي.

وتوضيحاً لبعض ما جاء في النص من أعلام الأماكن، نقول: إن بني خَثْعَم بن أنمار كانوا ينزلون، مع إخوتهم من بني بَجِيلةَ بن أنمار، في جبال

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٠.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) أخبار مكة: ١/ ١٩١ ـ ١٩٢.

السَّراة، سراةِ عَسِير بين الحجاز واليمن[1]. ولمّا تفرَّقت قبائلُ الأزد، نزلت أزْدُ شنوءَة، وهم بنو دَوْسٍ، وبنو غَامِد، وبنو بارق. من سَراةَ عَسِير إلى تِهامَة على البحر، وبارقُ هو سعدُ بن عديّ، غَلَبَ عليه اسمُ بارق، وهو جبلٌ هناك، يتصلُ به وادٍ واسعٌ عظيم، ينحدرُ إلى تِهامَة عَسير، وهي سهلٌ كبيرٌ خصبٌ، كثيرُ الخيرات، يمتدُّ على ساحل البحر الأحمر، ومیناؤه القُنْفُذَة.

---

(١) نهاية الأرب: ٢٤٣.

والأَوْصَام هي التي ذكرها الزبيديُّ باسم «الوَصْم»، وهي قرية بأوَّلِ «قَنَوْنَىٰ»، وهو وادٍ من أودية السراة، يمتدُّ من جبال خَثْعَم إلى القنفذة، عند حدود أرض اليمن للقادم من مكة[1]. . . وإذا علمنا أن الوَصْمَ من معانيه العَيْبُ في الحسَب[2]، رَجَح لدينا أن القرية إنما سُمِّيت بذلك لأن أهلها لم يكونوا من أصل واحد، أو من نَسبٍ واحد، وهذا يُفسِّرُ تَسميتها فيما بعد بالحُبَاشَة. وعلى ذلك فإن موقعَ حُبَاشَة هو قريةُ الوَصْم عند أوّل وادي قَنَوْنَىٰ من ديار بارق.



وكان في هذه السوق مثلُ ما كان في سائر المواسم: تجارةٌ، وفداءُ أسرى، والبحثُ عن الوَاتِرِينَ طلباً للثأر منهم، وبيعُ رقيق، إلى ما هنالك من أغراض مختلفة. . . وقد تاجَرَ فيها رسولُ الله، عليه السلامُ، وجاء في حديث ذلك، أنه لمّا اسْتَوىٰ وبلغَ أَشُدَّهُ، وليس له كثيرُ مالٍ، استأجرتْهُ خديجةُ بنتُ خُوَيْلد إلى سوق حباشة، وهي سوقٌ بتِهَامة، واستأجرتْ معه رجُلاً آخَرَ من قريش، فكان من قول الرسول عليه السلام، وهو يُحدِّثُ عنها: ما رأيتُ من صاحبةِ أَجيرٍ خيراً من خديجة، ما كنا نرجعُ أنا وصاحبي، إلا وجدنا عندها تحفةً من طعام تُخبِّئُهُ لنا[3].

وكان الشاعرُ الشَّنْفَرىٰ يُغِيرُ على منازل الأزد بتهامة، مع بعض بني فَهْم، ثم إنه قتل رجلاً منهم، فتَعقَّبُوهُ حتى رآهُ أحدُهم في سوق حُبَاشة،

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٣١٩، و٢/ ٢٩٧، و٤/ ٤٠٩، وجمهرة أنساب العرب: ٤٧٣، وأخبار مكة: ١/ ١٩١ ـ الحواشي: ٧، ٨، و١/ ٣٨٢.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٦٣٩ (وصم).

(٣) معجم البلدان: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.

فأسْرَعَ إلى قومه يُنبِئُهم بالأمر، فكمَنُوا له في بعض الطريق، ينتظرون مُنْصَرفَهُ من السوق. فلما انقضى الموسم، خرج الشَّنْفَرىٰ من السوق في جَوْفِ الليل، وقد خَلَعَ نَعْلاً، وأبْقَىٰ على الأُخرى في قَدَمِه. ليُخْفِيَ وطْأَهُ على الأرض، وكان من زعماء الصعاليك العَدَّائين، فجعل يَعْدُو في كلِّ عَدْوَةٍ ما يَعْدِلُ عشرين خطوةً، أو نحوَها، ولكنهم مع ذلك أحَسُّوا به، فوثبوا عليه، وأخذوهُ، ثم انطلقوا به إلى قوم القتيل فقتلوه به[١].

* * *

(١) الأغاني: ٢١/٢٠٧ ـ ٢٠٩.

إقليم عُمَان


إيران
خليج عمان
الخليج العربي
رأس مسندم
رأس الخيمة
أم القيوين
عجمان
الشارقة
دبي
أبوظبي
دبا
الفجيرة
البريمي
صحار
نزوى
مسقط
قُرَيَّات
الحد
الربع الخالي
الخلوف
العين
البحر العربي
ظفار
حاسك
مرباط
صلالة

الفصل السادس

مواسم عُمَان

يقعُ إقليمُ عُمَانَ في أقصى الجنوبِ الشرقيّ من جزيرة العرب، وهو في شَرْقِيِّهَا كاليمن في غَرْبِيِّهَا، ويضُمُّ بُلداناً وقُرى ومرافىءَ كثيرةً، اشتُهِرَ منها: دَبَا، وصُحَار، ودَمَا، وتُؤام، ومسقطُ، ونَزْوَىٰ وغيرها[1].. وهو في جُمْلتِهِ إقليمٌ جَبَليٌّ خصيب، ينحدر إلى سواحِلَ على البحر شديدةِ الحرارة، وأهْلُهُ مَلاَّحُونَ مَهَرَةٌ، خَبِرُوا البحارَ، وعَرفُوا أسْفارَها منذ آمَادٍ بعيدة[2].. تكْثُر فيه المناطقُ المزروعةُ بالنخيل، وأشجارِ الفواكهِ، كالموزِ والتِّينِ والرمَّانِ، وغيرِها من الزروع. أعظمُ جباله الجبلُ الأخضرُ، ويمتاز بكثرة ما فيه من الينابيع العظيمة، وقد أَحْسَنَ أهلُه توزيعَ المياه، وتصريفَها، والانتفاعَ بها.

وعلى ذلك كانت بعُمَانَ مَعَايِشُ وافِرَةٌ، ومَتَاجِرُ كثيرةٌ، وذَخَائِرُ مُتَنوِّعَةٌ، ومَعَادِنُ جَيِّدةٌ، وغَلاَّتٌ طيِّبَةٌ.. وإليها يُنسَبُ العَنْبرُ العُمَانيُّ المشهور، كان يُستَخرَجُ ويُحَضَّرُ بها، وكانت تُصنع بها أنواعٌ من النسيج، ويُحْمَلُ إليها الوَرْسُ من اليمن لاستعماله في صبغ الثيابِ المصنوعةِ من نَسْجِها، وجاء في الحديث أنه، عليه السلام، كان يَلبسُ إزاراً من نَسْج عُمَان[3]، وأنه كانت عليه حُلَّةٌ من

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٥٠.

(٢) مهد العرب: ١١٤.

(٣) الطبقات: ١/ ٢٥٠.

نسج عُمَان[1]. . . وكان يجري في أسواقها عرضُ البضائع وتبادُلُها بين تُجَّارِ اليمن وحضرموت والشِحْر والحجاز والشام والحبشة والهند وفارس وغيرها، فكان أهلُها يَجْمعون إلى تَفَوُّقهم في الزراعة والصناعة، نجاحاً في التجارة جعلهم في العرب من كبار المُوسِرينَ وأصحاب الثروات.

وكان معظمُ سكانِ عُمَانَ من قبيلة الأَزْدِ الكبرى، ويُشاركهم سُكْنَاها بطونٌ من قبائلَ عربيَّةٍ أُخَر، وجالِيَةٌ من الفَعَلَةِ الأعاجم، مُعْظَمُها من الفُرسِ والبُلُوش، قَدِمُوا إليها بالبحر، واستقرَّ بعضُهم في المناطق الزراعية للعمل في الحَرْثِ والزَّرْع، ونزل الآخرون في ضواحي بعض القرى الساحلية للعمل في المرافق العامَّة. ولكن مُلُوكَها والحكَّامَ فيها كانوا من الأَزْد، ولمَّا ظهر الإسلامُ كان عليها مَلِكانِ، هما جَيْفرُ، وعَبَّادُ، إبنا الجُلَنْدَىٰ بن كركر من بني المُسْتكبر، من الأزد[2]، ويبدو أن أحدهما كان على الإقليم الذي يلي الجَبَلَ، والآخَرَ على المناطق التي تلي الساحِلَ، وهنالك من يقول إن جَيْفَرَ بن الجُلَنْدَى كان أسَنَّ من أخيه عبَّاد، فكان هو الملك على كل عُمَانَ[3]. وقد كتب إليهما رسولُ الله، عليه السلام، فأسْلَما وأَسْلَم معهما كلُّ العربِ في عُمَان، وأَبىٰ الفُرسُ إلا أن يَظلُّوا على مَجُوسِيَّتهم، فقاتلهم المسلمون، وقتلوا «مسكانَ» رأسَهم، وفريقاً معه، فتحصَّنَ مَن بقيَ منهم في

(١) المرجع نفسه: ١/ ٣٢٧.

(٢) **الجُلَنْدَى، أو الجُلَنداء**: قيل إنه ليس إسماً، بل هو لقبٌ بمعنى الملك أو القَيْلِ في لهجة أهل عُمَان. ويبدو لي أن أصله فارسي مُعَرَّب، من مَقْطعين: كُلاه، ومعناهُ التاج، وآنْدَىٰ، ومعناهُ الأملُ أو الثناء، فيكون معنى الكلمة: تاج الأمل أو تاج الثناء. أنظر المعجم الذهبي: ٥٣٦، ٢١١، ٧٩، ٨١.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٢٠٠.

ضاحيةٍ لهم قربَ مدينة «صُحَار»، تُسمَّى «دَسْتَجِرْد»[١]، فحاصَرَهم العربُ حتى اسْتَسْلَمُوا، ثم أبْحَرُوا عائدين إلى حيث كانوا من بلاد فارس[٢]. . ولا شك في أن هذه الجالية خلَّفتْ وراءَها بعضَ الآثار والعاداتِ الإجتماعية، وعدداً من المفرداتِ الأعجميةِ أخَذَتْها العربُ عنهم، وتصرَّفَتْ بها، وهو ما جعل بعضَ مَن لا يُحْسِنُ قراءةَ التاريخ، أن يُصدِّق مَن نقلوا عن الموارد الفارسية، أن ملوك فارس كانت تستعملُ بني المستكبر ولاةً على عُمَان[٣]، وأن يَعْتَقِدَ خَطَأً بأن وجود تلك الجالية بعُمان إنما كان سلطاناً فارسيّاً عليها، وأن دَسْتَجِرْدَ كانت عاصمةَ الفُرسِ بعُمان، وأن قلعةَ الرُّسْتَاقِ، وقلعةَ بَهْلاءَ كانتا من آثارهم[٤]، مع أن التحقيق التاريخي لم يتوصَّل بعد إلى الزمن الذي بُنِيَتا فيه، وإذا كانت كلمةُ الرُّسْتَاق فارسيَّةَ الأصل، فإن معناها البيوتُ المُجْتَمِعة[٥]، فما الدافعُ إلى تسمية القلعة بهذا الإسم، إن لم يكن محلُّها في الأصل بيوتاً كانت للفَعَلَةِ الفُرس، قبل إجلائهم عنها إلى مَواطِنهم بفارس، ثم دَرَسَتْ، ولمّا أُقيمت بموضعها هذه القلعةُ، غَلَب عليها اسمُ الرُّسْتاق، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ. . أمَّا بَهْلاء، فقال ياقوتُ إنها بلدٌ قديم على ساحل عُمَان[٦]، والمعروفُ اليومَ أن قلعة بَهْلاءَ تبعدُ عن مدينة نَزْوَىٰ نحو ثلاثين كِيلاً، وفي غيابِ كلِّ دليلٍ تاريخيّ، ليس هنالك ما يمنع أن تكون هذه القلعةُ بعضَ آثار ذلك البلد القديم، أو أن تكون بُنِيَتْ على أطلالها. . أمَّا الافْتِراضُ

---

(١) دَسْتَجِرْد: الدَّستُ الصحراءُ (لسان العرب: ٢/ ٣٣)، وهي فارسيةٌ أو اتفاق وقع بين اللغتين بحُكم الجوار. وجِرْدُ أصلُها كِرْدُ، ومعناها قريةٌ أو مدينةٌ، فتكون الكلمة: قرية الصحراء.

(٢) عُمَان والإمارات السبع: ١٢ ـ ١٣، ١٤، ٦٩.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٤) مجلة العربي: العدد (٢٨٠) آذار ـ مارس ١٩٨٢، ص (١٠٠).

(٥) لسان العرب: ١٠/ ١١٦.

(٦) معجم البلدان: ١/ ٥١٦.

بأنها ربما بُنِيت أيامَ حُكم الفُرسِ لِعُمان[1]، فهو مما لا يصحُّ قطعاً، لأن الفُرسَ لم يحكُموا عُمَانَ قط، وليس في مراجع التاريخ، الغربيَّة والشرقيَّة على السواء، أيُّ ذِكْرٍ مُؤكَّدٍ لسُلطانٍ كان لملوكِ فارسَ على عُمَان، إلا ما أضافه بعضُ الأخباريين الغُلاَة إلى الجالية الفارسيَّة فيها، فزعم أنها كانت جيشاً فارسيّاً يحكمُ قائدُهُ عُمَانَ باسم ملوك فارس، وهو كلامٌ غير صحيح، مَرَدُّهُ، كما حقَّق جواد علي، إلى رأيٍ افْتَرضَ فيه أَحَدُ الكتَبَة أن ساحِلَ عُمَانَ ربما خَضَع للفُرسِ أيَّامَ حُكْم أردشير (٢٢٤ ـ ٢٤٠ م)، بعد قضائه على مُقَاومة قبائل العرب، التي كانت تستوطن المناطقَ الجنوبيَّةَ من فارس، على الساحل الشرقي من الخليج العربي[2]، وهو رأيٌ باطلٌ مُؤَسَّسٌ على افتراضٍ من غير دليل.

وخلاصةُ القول أن عُمَان كانت إقليماً عربيّاً خالصاً بسَواحِلِه وجباله، تَتوطَّنُهُ قبائلُ الأَزْدِ الكبرى، وإلى جانبها بُطونٌ مختلفةٌ من قبائلَ عربيةٍ شَتَّىٰ، وكانت الحكومةُ فيه إلى مُلوكٍ من بني الأَزْدِ، في الأزمنة التي ظلَّتْ أخبارُها محفوظةً عند مَن دوَّنُوا الأخبارَ والتواريخَ في عصر التدوين.



ولا شك في أن بلاداً كعُمَانَ عَرفتْ في تاريخها القديم كثيراً من المواسم العامَّة، في كُبْريَاتِ المدُنِ والمرافىء، ولكن الأخباريين والمؤرِّخين، كما خَلُصْنَا في تحقيقنا بمواسم العرب عند القدماء والمتأخِّرين[3]، لم يثبت أنهم ذكروا لنا غير مَوسمَيْنِ في عُمَان، كان الأوَّلُ

(١) مجلة العربي: المرجع نفسه.

(٢) المفصَّل: ٢/ ٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤٧، و٣/ ٥٢٧.

(٣) انظر كلامنا على مواسم العرب عند المُحدَثين في الفصل الثاني من الباب الأول.

منهما يقوم في مدينة «صُحَار»، والثاني في مدينة «دَبَا»، على خِلافٍ بينهم في تعيين مَوْعِدَيْهِما. . . غير أن ياقوت أضاف إليهما سوقَ «دَمَا»، وذكر أنها كانت أيضاً سوقاً من أسواق العرب المشهورة بعُمَان[1]، وعيَّنَ موقعَها في أوَّلِ بلاد عُمَان من جهة الشمال[2]، ولعلَّها كانت بالقُربِ من «بَيْنُونَة» إلى الجنوب من قَطَر[3]، ولم يذكر لنا شيئاً عن موعد قيامها. .

وأمَّا ما سَمَّاهُ الآلوسيُّ، ثم الأفغانيُّ، من الباحثين المُحْدَثين، بسُوقِ عُمَانَ[4]، فليس له أيُّ سَنَدٍ من أخبار المؤرِّخين، ولم يكن أكثر من تَوَهُّم، وذلك أن القَلْقشنديَّ، خلافاً لمن سبقه، أَمْسَكَ لِعِلَّةٍ مَا عن التصريح بمَوْسِمَيْ صُحَار ودَبَا، وكَنىٰ عنهما بقوله: إن التجار كانوا يرتحلون من هَجَرٍ نحو عُمَانَ، فتقومُ سوقُهم بها[5]. . . وربما أراد صُحَارَ، وهي الحاضرةُ القديمةُ لعُمَان، وكانت تُسمَّىٰ عُمَانَ باسم الإقليم كلِّه[6]. والغريبُ أن القلقشنديَّ لم يُعيِّن موعداً لقيام السوق، فاخترع له الآلوسيُّ موعداً شَهْرَ جُمادىٰ الأولى، ثم تابعه على ذلك الأفغانيُّ من بعدُ، وهو غلطٌ منهما يُضاف إلى التَّوَهُّم.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٤٦١.

(٢) المرجع نفسه: ٥/ ٤٤٨.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٥٣٦، و٥/ ٤٤٧.

(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥، وأسواق العرب: ٢٥٦.

(٥) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٦) مهد العرب: ١١٤.

المطلب الأول ـ موسمُ صُحَار:

صُحَارُ مدينةٌ على بحر عُمَان، تقع إلى الشمال والغرب من مسقط، كانت قَصَبَةَ عُمَان، وحاضِرَتَها القديمةَ ممّا يلي الجبلَ باتجاه الساحل، وكانت «تُؤَامُ» قَصَبتَها مِمّا يلي الساحِلَ نحوَ الداخِل، ويُنْسَبُ إليها الدُّرُّ التُّؤَامِيُّ، ومنه قولُ الشاعر يصفُ امرأةً:

كـالتُّـؤامِيَّـةِ إنْ بـاشَـرْتَهـا قَرَّتِ العينُ وطابَ المُضْطَجَعْ[1]

وصُحَارُ مدينةٌ طيِّبةُ الهواءِ والخيرات والفواكه، دُورُها شاهقةٌ نَفِيسَةٌ، مَبْنِيَّةٌ بالآجُرِّ وخشَب السَّاج[2]، واسعةٌ كبيرة، لم يكن على ساحل البحر أَجَلُّ منها أو مثلُها، عامِرَةٌ، آهِلَةٌ، نَزِهَةٌ، وهي أكثَرُ مُدُن عُمَانَ تجارةً وأموالاً، فيها أسواقٌ عجيبة، ومياهٌ غزيرة، ويَنَابيعُ عَذْبة، وأهْلُها في سعَةٍ من كلِّ شيء، وقد وُصِفَتْ قديماً بأنها كانت دهليزَ الصين، وخزانةَ الشرق والعراق ومغوثةَ اليمن، بها متاجِرُ البحر، وإليها قصدُ المراكب، ولم تُعرف على شاطىء البحر وقتئذٍ مدينةٌ كانت أكثر عمارةً ويسَاراً ومصانعَ من صُحَار[3].. وتُنسَبُ إليها الثيابُ الصُّحَارِيَّةُ، وهي مما كان يُنسَجُ ويُصْنَعُ بها، وفي الحديثِ أن رسول الله، عليه السلام، كُفِّن في ثَوْبَيْنِ صُحَارِيَّيْن[4].

وذكر ابنُ حبيب أن سوقَ صُحَار كانت تقومُ أوَّلَ يوم من رجب، خمسَ

---

(١) المفضليات: ١٩٦ (٤٨/ ٤٠). **التُّؤَامية**: الدرَّةُ المنسوبة إلى تُؤَام، شبَّه بها المرأة لحسْنها وبياضها. **والتؤام**: ج توأم. والشعر لسُوَيْد بن أبي كاهل اليشكري.

(٢) **السَّاجُ**: نوع جيِّد صلبٌ من أنواع الخشب

(٣) معجم البلدان: ٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٤) لسان العرب: ٤/ ٤٤٥ (صحر)، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٦.

ليالٍ. وكان يعشر الناسَ فيها الجُلَنْدَىٰ بنُ المستكبر[1]. . وفي هذا الموعد الذي عيَّنَهُ لقيامها نَظَرٌ، فإذا كانت سوقُ المشقَّرِ تنفضُّ آخرَ يوم من جُمادَى الآخِرة، فكيف يمكن للتجار أن يَصِلُوا من هَجَرٍ إلى صُحَار في ليلةٍ واحدة، مع طُولِ الطريق ووعورته؟ وهو يقتضي سَفَراً على الإبل أو بالبحر أكثر من خمسة عشر يوماً! ومن هنا كان نصُّ المرزوقي أقربَ إلى الصواب، لمَّا قال: ثم يرتحلون من المشقَّر إلى صُحَار، أوَّلَ يوم من رجب، في غير خفارةٍ، فيَقْدَمونَها لعشرين يوماً تمضي من رجب، فيُوافيهم بها مَنْ لم يشهدْ ما قبلها من الأسواق، ومَنْ شُغِلَ بحاجَةٍ ولم يكن له أَرَبٌ فيما يُباعُ في الأسواق التي قبلها، فَيَشْتَرون من بَزِّها وبِيَاعَاتها، ويبيعون بها، خمسَ ليالٍ، وكان الجُلَنْدَىٰ يَعْشُرهم فيها[2]. . وهذا معناه أن التجار كانوا يرتحلون من المشقَّر في اليوم الأول من رجب، وهو شهرٌ حَرامٌ، لا يحتاجون فيه إلى خفارة أو حمايةٍ، فيصلون إلى صُحار بانقضاء عشرين يوماً من رجب، فتقوم سُوقُهم بالبيع والشراء، في الواحد والعشرين من رجَبٍ، وتنفضُّ بانقضاءِ خمسة أيام، فيرتحلون عنها يوم السادس والعشرين، قاصِدِينَ إلى مدينة «دبا»، لِشُهودِ موسمها. . . وهذا هو الموعدُ الصحيحُ لموسم صُحَار، ولا يُعْتَدُّ بما ذهب إليه بعضُ الباحثين المتأخِّرين[3].

والواضح من النص كذلك أن مُلوكَ عُمَان من بني الأَزْد، كانت إليهم العُشُورُ التي تُجْبَى من التجار، الّذين كانوا يَشْهَدُون موسمَ صُحَار للمتاجرة فيه، وكانت سيرةُ أولئك الملوك في هذه السوق سِيرةَ الملوك في سائر

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٣) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٦، وأسواق العرب: ٢٦٢، والمفصَّل: ٤/ ٢٠٣. . .

الأسواق، فكانوا يَفْتتحون الموسمَ في وقته، ويبيعون كلَّ ما أرادوا بيعَه من البضائع قبل الناس جميعاً، وعند انتهاء أحدهم من المتاجرة، يأخذ التجَّارُ بالبيع والشراء، وحينما ينتهي أَجَلُ الموسم يُعلن الملك انْفِضَاضَه إلى مِثْله من قابِل.

ولست أُحْصي مَن مِن تُجَّارِ العرب كان يشهدُ هذه السوق، ولكنني أفترضُ أن تجَّار الأحْساءِ والبحرين والعراق واليمامة كانوا من شُهودِها، فضلاً عن تُجَّارِ قُرى عُمَان، والتجَّارِ الأعاجم. وأظنُّ أن تجَّار قريش كانوا يشتركون في موسم صُحَار، وربما دَبَا أيضاً، لأن إخوانهم، من بني سامة بن لؤيّ بن غالب[1]، كانوا يسكنون بعُمان، وكانوا حُلَفاءَ الأزد فيها[2].



المطلب الثاني ـ موسمُ دَبا:

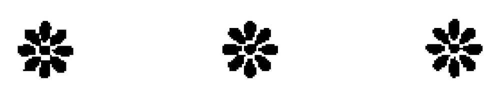
دَبَا مدينةٌ عربيَّةٌ قديمةٌ مشهورةٌ من مُدُنِ عُمَان، لها ذِكْرٌ في أيَّامِ العرب، وأخبارِهم، وأشعارهم، تقع على ساحل البحر، إلى الشمال من صُحَار، بمَيْلٍ قليلٍ نحو الغرب، وكانت قديماً قَصَبةَ عُمَان، قبل أن تَحْتلَّ محلَّها مدينةُ صُحَار، وهي أَحَدُ مَرَافِىء العرب الكبرى[3]، يجتمعُ بها من التجار من لا يكون في غيرها، من أهل المشرق والمغرب، ويأتيها تجارُ الهندِ والسِّنْدِ والصِّين، ويرتحلُ إليها من شَهِدُوا سوق صحار، وهي على

(١) غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر، وهو قريش، ابن كنانة.
(٢) المحبَّر: ١٦٨.
(٣) معجم البلدان: ٢/ ٤٣٥.

مسيرة أربعة أيَّام منها[١]، أي نحو مئة ميل، فيَبْلُغونَها في التاسع والعشرين من رجَبٍ، فيقومُ موسمُ سُوقِها آخِرَ يوم من رجَب، يوماً واحداً، فيشتري الأعاجمُ بِيَاعَاتِ العرب، ويبيعون منهم أمتعةَ بلادهم، ثم يسيرون بكلِّ ما فيها، ومَن فيها من تُجَّار البَرِّ والبحر لِيَشْهَدوا موسمَ سوق الشِّحْر[٢].

ويبدو لي أن قيامَها يوماً واحداً في الثلاثين من رجب، إنما هو مَوْعدٌ يلتقي فيه تُجَّارُ البرِّ بتُجَّارِ البحر القادمين من الهند والسِّند والصين، في طريقهم إلى مرافىء الشِحر وعَدَن، فكانوا يُتَاجِرون في هذا اليوم مع تُجَّارِ البَرِّ من أهل تلك النواحي وما اتصل بها، قبل أن تُبْحِرَ بهم السفُنُ في الأوَّلِ من شعبان، ومعهم من تجَّار العرب من أراد مُتَابَعةَ السَّفَرِ لِشُهودِ المواسمِ التالية.

وكان يَعْشُرُ التجَّارَ في هذه السوق ملوكُ عُمَان من بني المستكبر، من الأَزْد، وكان بَيْعُهم فيها بالمُسَاوَمَة[٣].



(١) الكامل: ٨/ ٦٤٧ (وقد وقع تصحيف على كلمة «دبا»، فصارت «دما»، وهذه، كما عيَّن موقعها ياقوتُ، على الحدود الشمالية لعُمان).

(٢) المحبَّر: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه.

الفصل السابع

موسمُ سُوقِ الشِّحْر

المطلب الأول ـ موقع السوق:

إتفق الأخباريُّون أن تجَّار البحر والبَرِّ، كانوا ينتقلون، في الأول من شعبان، من مرفأ دَبَا، بالسفُنِ إلى سوق الشحْرِ، شِحْر مَهْرَة، فتقومُ السوقُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُودٍ عليه السلام[1]. ولكن التوحيديَّ أحْسَنَ صُنْعاً إذ تفرَّد بالنصِّ أنهم كانوا ينزلون مدينةَ «إرَمٍ» من قُرى الشحر، فتقوم أسواقُهم بها[2]. . وأما الباحثونَ المتأخِّرون في مواسم العرب، فإنك لا تكاد تجدُ عندهم في تعيين موقع هذه السوق أكثر من قولهم: إنها كانت في شِحْر مَهْرَةَ، بين عُمَانَ وعَدَن! وأين عَدَنُ من عُمَانَ، وبينهما نحوُ شهرين[3]. . ؟

وعلى ذلك قمتُ بالتحقيق في هذا الموقع، وتتبَّعتُ المسألةَ من بدايتها، عسى أن أُوَفَّق فيما أَخفَق به الآخَرُون. . . والشِّحْر هو الشَّطُّ، أو الساحِلُ في لغة عرب الجنوب، وشِحْرُ مَهْرَةَ صُقْعٌ على ساحل البحر، في جنوب جزيرة العرب، نَزَلته قبيلةُ مَهْرَة بن حَيْدان، من بني قضاعة، فأُضِيفَتْ

---

(١) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

(٣) معجم البلدان: ٥/ ٢٣٤، وبلوغ الأرب: ١/ ١٨٦، وقلائد الجمان: ١٧ ـ ١٨.

إليه، وسُمِّيَ بها، وهي قبيلةٌ من كُبْريَاتِ قبائل العرب[1]. تُنسب إليهم النجائبُ المَهْرِيَّةُ من الإبل، وكذلك العِيدِيَّةُ، وهي إبِلٌ مَوْصُوفةٌ بالنَّجابَة، منسوبةٌ إلى بني العِيد من قبيلة مَهْرَة، وفيها قال الشاعر:

ظلَّتْ تجوبُ بها البلدانَ ناجِيَةً   عيديّةً أُرْهِنَتْ فيها الدنانيرُ[2]

وكانت بلادُ مَهْرة مُتَّصِلةً ببلادِ قَوم عادٍ، أهلِ الأحقاف، فقد رُوِيَ أن عليَّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، سأل رجُلاً أتى إليه: مِمَّن أنت؟ قال: من مَهْرَةَ! فقال: ﴿**واذْكُرْ أخَا عادٍ إذ أنْذَرَ قومَهُ بالأَحْقَاف**﴾[3]، وأَخُو عادٍ هو نبيُّ الله هودٌ، وقد نقل ابنُ عبد ربه أن قَبْرَهُ في بلاد مَهْرَة[4].

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن هُوداً بُعِثَ إلى قوم عادٍ بالأَحْقَاف، أَهْلِ مدينةِ «إرَمَ» ذاتِ العماد، التي لم يُخْلَق مثلُها في البلاد[5].. وتبيَّن لنا بالتحقيق أن شِحْر مَهْرَةَ يقعُ على بحر العرب، بين عُمَانَ في الشرق، وحضرموتَ في الغرب، والأَحْقافِ في الشمال. وحَدُّهُ من جهة الشرق مِرْباطُ وظَفَارُ، فأما ظَفَارُ فكانت تقعُ على خَوْرٍ، خرج من بحر العرب، وطَعَنَ في البَرِّ شمالاً نحو مئة ميلٍ، وهي مدينةُ بلادِ الشِحْرِ، وحاضِرتُها. وأمَّا مِرْبَاطُ فكانت مَرْفأَ ظَفَار، وهي بُلَيْدةٌ على ساحل ذلك الخَوْر، تقعُ في الجنوب الشرقيّ من ظَفَار، بينهما نحوُ خمسة عشر ميلاً، وقبرُ هُودٍ على خمسة أيام منها[6]، أي

---

(١) معجم البلدان: ٣/ ٣٢٧.

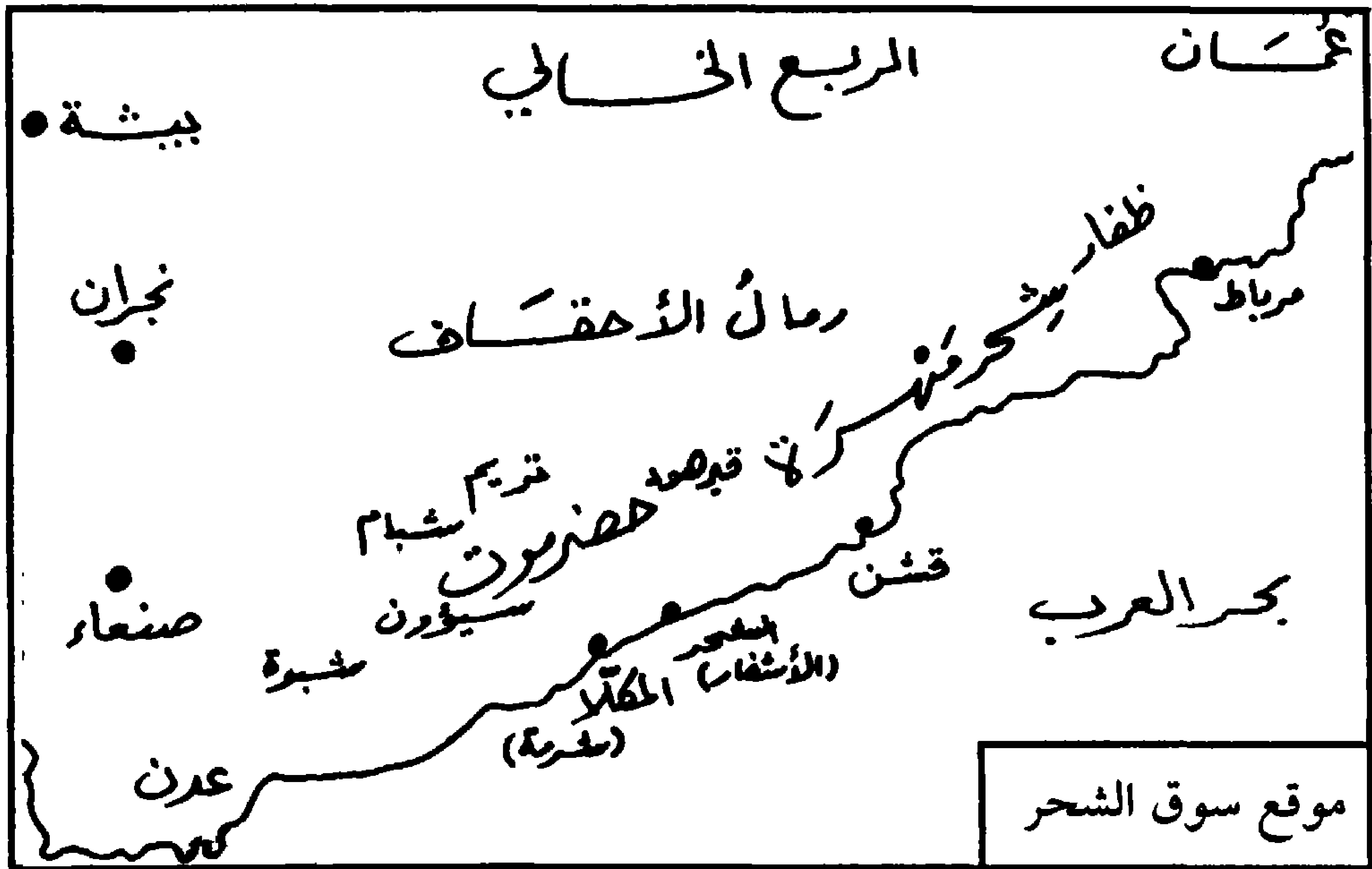
(٢) لسان العرب: ١٣/ ١٩٠ (رهن).

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢١.

(٤) العقد الفريد: ٣/ ٣٣٥.

(٥) لسان العرب: ١٢/ ١٥ (أرم)، ومعجم البلدان: ١/ ١٥٥، وآثار البلاد وأخبار العباد: ٩ ـ ١٠.

(٦) صبح الأعشى: ٥/ ١٠ و١٤، ومعجم البلدان: ٤/ ٦٠، و٥/ ٩٧.



نحو مئة وعشرين ميلاً، ويُقال إن الجبلَ الذي دُفِنَ بأعْلاهُ هُودٌ «جبلٌ قُربَ ظَفَارِ المَهْرَة»[١]. . . وحَدُّ الشِحْرِ من جهة الغرب بلادُ حَضرموت إلى مَرْفأ **المُكلاَّ** على البحر، وكانوا يُسَمُّونه قديماً: **شُرْمَة**[٢]، ويُسَمُّون البلدةَ الواقعةَ في شَرْقِهِ: **الأشْفَارَ**، وهي التي غَلب عليها إسمُ الشّحْرِ بعدئذٍ، وظنَّ الباحثون أنها حاضِرةُ بلادِ المَهْرَةِ، والموضِعُ الذي كانت تُقام به سوقُ الشِحّر، وهو غلطٌ، فالشحرُ المعروفةُ اليومَ بناها الملكُ المظفَّرُ صاحبُ اليمن سنةَ (٦٧٠ هـ)[٣]، في موضع الأَشْفَارِ، وقد صارت من قرى

---

(١) المدخل إلى تاريخ الإسلام: ٤١.

(٢) **الشُرْمَةُ**: موضعٌ في البحر، أو خليجٌ منه، وهي أيضاً الشقُّ في الأرض.

(٣) الشريف عبد الرحمن بن محمد ـ شمس الظهيرة: ١/ ٧٣ ـ ٧٤ (تحقيق محمد ضياء شهاب). **والأشْفَارُ**: بَلَدٌ من أرضِ مَهْرة قُربَ حضرموت بأقصى اليمن (معجم البلدان: ١/ ١٩٨)، ولعله كان على الحدود بين مهرة وحضرموت، فالأشفارُ هي الحدودُ، جمعُ شُفْر، أي الحَدّ، هكذا ضَبطها ياقوتُ بالفاء، وقيل هي «الأَسْعَاءُ»، بالسين والعَيْن، في كتاب أدوار التاريخ الحضرميّ (٦٦ ـ ٦٧)، وأراهُ تصحيفاً، إذ لم أجِدْ لها ذِكراً أو معنى عند أحَدٍ بهذا اللفظ.

حضرموت ومَرافِئِها، وطفِقَتْ تقومُ بها سوقٌ لأهلِ حضرموتَ، بعدما أضيف إليهم أهلُ المهرة وشِحْرُهم في العصور الإسلامية.

وعلى ذلك يمكن القولُ بأن مدينةَ «إرَم» كانت موضِعَ سوق الشِحْر، وكانت تقعُ في سَفح الجبل المُشْرفِ على ظَفَار، ذلك الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُودٍ عليه السلام، ولذلك سمَّاها التوحيديُّ سوق إرَم.

وكانت بلادُ الشِحْرِ مَشهورةً بالإبِلِ النُّجْبِ، التي تَفْضُلُ في السَّيْر سائرَ أنواع الإبِل، وإليها يُنْسَبُ العَنْبرُ الشِحْريُّ، وكان يُسْتخرجُ من سواحلها، ويُصنَعُ بها صناعةً جَيّدةً، كانت لها شُهْرةٌ مُسْتَفيضةٌ في مختلف البلدان، إلى ما كان بها من أشجار اللبَانِ والمُرِّ والصَّبِرِ والدُّخْنِ وغيرها، وما كان يُستخرج منها من الأدوية التي تُحْمَلُ إلى أنحاءِ العالم[1].

المطلب الثاني ـ موسم السوق:

ذكر الأخباريون أن سوق إرَم، أو الشحْر، كانت تنعقدُ في النصف من شهر شعبان، ولم يذكروا موعداً لانفِضَاضها أو مُدَّةً مُعيَّنةً لقيامها[2]، إلا التوحيدي حيث قال: فتقوم أسواقُهم بها أياماً[3]. . ولا أعتقدُ أنها كانت تزيدُ على خمسةٍ، لأن الطريق بعدها إلى عدن طويلةٌ[4]، وإن كنتُ أُرَجّح أنهم كانوا ينتقلون إليها بالبحر، ليشهدوا افتتاح موسم عدن في الأول من رمضان.

ويبدو لي أنه كان لموسم هذه السوق علاقةٌ وثيقةٌ بموسمٍ دينيّ، كان

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد: ٣١، ٣٧، ومهد العرب: ١١٢.
(٢) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٤) معجم البلدان: ٥/ ١٨٨.

يُقامُ للنبيّ هُود، في الوقتِ نفسه، أو قُبَيل ذلك ببضعة أيام.. فقد نَقَل صاحبُ الأعلام عن مفتي حضرموت عبد الرحمن بن عبيد الله قوله: «.. ولا يزال أهلُ حضرموت يزورون قبرَ النبيّ هُود إلى اليوم، في شعبان من كلّ سنة، وكان السابقون يروْن كمالَ الزيارةِ بالحضُور ليلةَ النصفِ من شعبان، وهي العادةُ التي كانوا عليها في الجاهلية»، وذكر أن بعضَهم كان يأتي للزيارة في التاسع، ويَنْفِرُ في الحادي عشر من شعبان[1].. فإذا كان الأمرُ كذلك، وكان قبرُ هودٍ، كما مرَّ بنا، على بُعْدِ نحو خمسة أيام من مرْباط، ولعلّها أربعةٌ من ظَفَار، فالناسُ تكون في السوق يوم انعقادها للبيع والشراء في الخامس عشر من شعبان، كما جاء في مَراجع أهل الأخبار.

ومن الطبيعيّ أن التجّارَ القادمين إلى سوق الشِحْر من البُلْدانِ الأُخَر، كانوا يبيعون فيها ما حملوه معهم من العُروض والسِّلَع، التي يحتاجُ أهلُ الشحر إليها، ويشترون بأثمانها الإبِلَ المَهْريَّةَ، والعنبرَ الشِحْريَّ، وغَلّاتِ ما يُجْنَىٰ من الأشجار التي لا تنبتُ إلا في الشحْر، كاللبان والمُرّ وغيرها. وكانت السوقُ منطقةً تجاريّةً حُرَّةً، لا تُجْبَىٰ فيها عُشُورٌ، أو ضرائبُ، من التجّار، لأنها لم تكن بأرضِ مملكةٍ، وكان جميعُ مَن يختلفُ إليها من العرب للمتاجرة في مواسمها، يَتَخفَّرُ ببني مُحارِبِ بن هَرَب، من قبيلة مَهْرَة[2].

وحين ينقضي موسمُ السوق بالشِحْر، يرتحلُ التجّارُ منها إلى عَدَن لِشُهود موسمها، إلا تُجّارَ البحرِ، فإنه لا يرتحلُ منهم إليها إلا مَن بقيَ معه فَضْلٌ من بضائِعه، ولم يَبِعْهُ[3]. أمّا من باع منهم كلَّ ما كان حَمَلهُ معه من

---

(١) الأعلام: ٨/ ١٠١ ـ ١٠٢، والمفصَّل: ١/ ٣١٢.
(٢) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

البضائع إلى سوق الشِحْر، فإنه، كما يُفهم من نصِّ المرزوقي، يَقْفِلُ عائداً من هناك بالبحر إلى بلاده، في الهند أو السند أو الصين أو غيرها. وفي ذلك إشارةٌ جيِّدةٌ إلى أن مواسم العرب، وإن كانت تقومُ تِباعاً، لم يكن من اللازم أن يَشْهَدَها التجّارُ، أو الناسُ عامّةً، موسماً بعد موسم، بل كان أحدُهم يختارُ ما له أَرَبٌ في شُهوده، فَيَشْهدهُ.. ولا شك في أن الأمر يختلفُ بين تجّار البحر وتجّارِ البرِّ، فتجّارُ البحر غالباً من الأجانب، وتجّارُ البرِّ غالباً من العرب، وطرُقُ البحرِ لها مرافىءُ ومواقيتُ مُعيَّنةٌ للوصول إليها أو السفَرِ منها، وطرُقُ البرِّ لها محطّاتٌ كذلك ومواقيتُ مُعيَّنةٌ، وكلاهما مختلفٌ عن الآخَر.

● **تعقيب: علاقةُ موسم سوقِ إرَمِ الشِحْرِ بموسم زيارة النبي هود:**

من الواضح أننا رجَّحنا وجودَ علاقةٍ سَبَبِيَّةٍ بين موسم سوقِ إرَمٍ، أو الشحْرِ، في بلادِ مَهَرة، وبين موسم زيارة قبرِ النبيِّ هُودٍ، إذ هما يقومان في موعدٍ واحدٍ هو النصفُ من شعبان، وأكثَرُ الأخباريين على أن السوق كانت تقومُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبي هود، وأن قبرهُ كان ببلادِ مَهَرة، على جبلٍ قُربَ ظَفَارِ المهَرة.

ويبدو لي أن بعض إخواننا المؤرِّخينَ من أهلِ حضرموت، بعدما دُمجتْ ظفارُ وسائرُ بلادِ المهرة في حضرموت[1]، صاروا يميلون إلى القول بأن هُوداً مات بحضرموت، وأن قبرهُ معروف هناك، «وكانت تقامُ سوقٌ سنويَّةٌ في الجاهليَّة، في شعبان، في المنطقة التي بها قَبْرُهُ بشرقِ حضرموت، قربَ بئرِ بَرَهُوت الشهيرة، وهي، كما وصفها بعضُ المستشرقين، كهفٌ

---

(١) محمد بن أحمد الشاطري ـ أدوار التاريخ الحضرميّ ـ منشورات عالم المعرفة، (جُدَّةَ ١٩٨٣): ١٤، ٣٧٩.

عظيمٌ مُظلمٌ، ذو تعاريجَ وتقاطيع»[1]، وقد ظلَّ الحضارمةُ في الإسلام يتردَّدُونَ إلى هذا الموضع، حتى تأسَّستْ له زيارةٌ عامَّةٌ في القرن التاسع الهجريّ، في شهر شعبانَ من كل سنة، وصارت موسماً من المواسم العامَّة بحضرموت، وحُدِّدَ موضعُ القبر هناك، وبُنِيتْ قريةٌ حولَهُ في سفح الجبل الذي عليه القبرُ، ولكنها لم تكن تُسْكنُ إلا في أيام موسم الزيارة، وتظلُّ خاليةً سائرَ أيام السنة، شأنُها في ذلك شأنُ مِنىً بالحجاز. وتُعْقَدُ في يومين من أيام الزيارة مجالسُ عامَّةٌ حولَ القبرِ، لقراءةِ القرآن والدعاءِ والذِكْرِ، وذلك بعد شروق الشمس، وبعد الظهر، وفي الليل، ويتصدَّرُها جميعاً شيوخٌ من حَفَدةِ الإمام عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، من أهل حضرموت، ويَشْهدُها الرجالُ، دون النساءِ، وجميعُهم على مذهب الإمام الشافعيّ، فليس في هذه الزيارة اختلاطٌ بين الرجال والنساء، على نحوِ ما يقعُ في الزيارات العامَّة بحضرموت وغيرها من بلاد المسلمين. وتُقامُ كذلك في أيام الزيارة أفراحٌ ومهرجاناتٌ شعبيَّةٌ لأهل كلِّ ناحيةٍ لَدُنْ دُخولهم شِعْبَ الجبلِ الذي عليه القبر، ثم عند عودتهم منه إلى أوطانهم[2].

ويبدو في خريطةٍ مُلْحقةٍ بالكتاب، أن الشاطريَّ عيَّنَ موقعَ قبرِ هُودٍ على طريقٍ قديمةٍ تصلُ حضرموتِ بظَفَارِ المَهرة، ولكنه بعيدٌ من ظَفَار، وقريبٌ من شَرْقِ تَرِيم، إحدى مدينتَيْ حضرموت، والأُخْرى شبام. وتقعُ على هذه الطريق قريةُ تِنْعَة[3]، عند وادي بَرَهُوت، وبَرَهُوتُ بئرٌ بحضرموت، أو بالقُرْبِ منها، وقيل هو اسمٌ للبلد الذي فيه هذه البئرُ، وهي بئرٌ في فَلَاةٍ

---

(١) أدوار التاريخ الحضرمي: ٣٧، (وقد ذكر عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء: ٥٣» أن هُوداً سكن حضرموت ومات بها، ودُفن في شرقيِّها على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت، وعزا كلامَه إلى ما يقوله أهلُ حضرموت).

(٢) المرجع نفسه: ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) المرجع نفسه: ٦٧.

وادٍ مُظْلم[1]. وكيفما كان الأمر، فإذا كان موقعُ قبر هُودٍ بعيداً من ظَفَارٍ، في غَربها، نَحْوَ مئةِ ميلٍ أو أكثرَ قليلاً، وقريباً من تَرِيم، في شرقها، نحوَ خمسين ميلاً، وكانت الطريقُ بين ظفار وتريم نحو مئةٍ وخمسينَ ميلاً، فما قاله الشاطريُّ في موقع القبر هو الصواب، لأنه يتفّق مع كل الأقوال التي عرضناها، ويكون موقعُ قيام سوق «إرم» في ظلِّ ذلك الجبل الَّذي عليه القبرُ مطابقاً لما ذكره القدماء.

ولعله من المفيد أن نُضيف في الختام ما ذكره الشاطريُّ عن آل باعبَّاد، وهم من أعرق القبائل الحضرميَّة في العصور الإسلامية الأُولى، وعن وِلايتهم الحِفاظَ على التقاليد والعادات في آدابِ زيارة نبيّ الله هود، فأشار إلى وجود مسجدٍ وأوْقافٍ هنالك وقَفَها بعضُ أجدادهم، وتركوا لهم حقَّ تَوارُثِ الإشراف عليها[2]. .

كما ذكر في موضعٍ آخَر، أن الإمام عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ ـ ١١٣٢ هـ)، وهو من حَفَدةِ الإمام عليّ، كان يتمنَّى لو ربَطَ موعدَ زيارة نبيّ الله هود بالتوقيت الشمسي، ولكنه لم يفعلْ تأدُّباً مع من سبقه من السَّلَفِ الصالح[3]. . . وهذه إشارةٌ قَيِّمةٌ إلى أن الإمام كان مُقتنعاً بأن شهور العرب لم تكن تدورُ في الفصول، وإنما بدأت بالدوران بعد ذلك في الإسلام.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٤٠٥، و٢/ ٤٩.

(٢) أدوار التاريخ الحضرمي: ٣٨١.

(٣) المرجع نفسه: ٣٢٣.

الفصل الثامن

موسم سوق الرابية

الرابيَةُ مدينةٌ كانت تقعُ بوادي العَيْن في حضرموت، وهي مع شَبْوَة، وتريم، وشبام، ودَمُّون، والنُّجَيْر، وتِنْعَة، ومشطة، وسَيؤون، وشَبْوَة، وغيرِها من مُدُن حضرموت، كانت مَسَاكنَ أهْلِها، ومراكزَ حضَارتهم، وفيها، وفيما اتَّصَل بها من الأَوْدية والجبال والأَرْياف، كانت تَنعقِدُ مجالسُ سَمَرِهم، ومجامِعُ أَنْدِيتهم، ومُبَارَيَاتُ فُرسَانِهم، وتقومُ أيضاً مواسمُ أسواقِهم العامَّةُ، فتأتيها قبائلُ العرب من المواضِع البعيدةِ والقريبةِ، لِتُشَارِكَ في أَنْشِطَتها التجاريَّة والثقافية، وكان أكثَر تلك المواسم شهرةً سوقُ الرابية بوادي العَيْن، وسوقُ الأشْفَارِ، والأَشْفارُ هي بلدةُ الشِحْر[1]، وتقعُ إلى الشرق من المُكلاَّ، مَرْفَأِ حضرموتَ الشهيرِ، وهي غيرُ شِحْرِ مَهْرَة وسُوقِهِ بمدينة إِرَم.

وحضرموتُ إقليم واسعٌ، حَدُّهُ من الشرق عُمَانُ وشِحْرُ مَهْرَة، ومن الشمال رمالُ الأحقاف، ومن الغرب صنعاءُ وعَدَن، ويقطعه من الغرب إلى الشرق وادي القصر، وتقوم هنالك أكبرُ مُدُنِ حضرموت، مثل شبام وتريم[2]. وأرضُه خصبةٌ، وأهَمُّ غَلاَّتِه: الذُّرَةُ، والدُّخْنُ، والقمحُ،

---

(١) أدوار التاريخ الحضرمي: ٦٧، (ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن بلدة الأشفار ضُبِطت عنده (بالسين والعين) أي: الأسْعَاء، وهو غلطٌ كما ذكرنا من قبلُ).

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٢٧٠، ومهد العرب: ١١١.

والسمسمُ، والقطنُ، وأكثرُها وَفْرةً التمرُ، وهو الغذاءُ الرئيسُ لأهل حضرموت، وكانت فلسطينُ وبلادُ الشام تستوردُ كثيراً من هذه السِّلع[1].

وقد اكتُشِفَت في التنقيب عن آثاره القديمة، معالمُ مُدُنٍ خَرِبَةٍ، عليها كتاباتٌ بالخطِّ المُسْنَدِ، تُشير إلى ما كان لأهلها من شأن كبير. ويظهرُ من آثارِ الحصُونِ والقِلَاعِ الباقية فيها، أن مملكة حضرموت كانت تحمي حدودها بحُصُونٍ، تقيم عليها حامِيَاتٍ عسكريَّةً، تردُّ عنها الغُزاةَ الطامعين فيها، وتحافظ على أمن السُّكَّانِ في الداخل أيضاً، وتُوفِّرُ لهم الطمأنينةَ[2]... ويبدو من حُسْنِ اختيارهم للمواقع، التي أقاموا عليها الحصونَ، في قمم الجبال، ومَضَايق الأوْدِيَة، ومُرْتفعات التِّلَال، أنهم كانوا على درجةٍ عاليةٍ من الخبرة القِتَاليَّة والتنظيم. وهو ما يجعلنا نقِرُّ بأنَّ الأمنَ كان مكفولاً في هذه البلاد، للمواسم التي تقومُ بها، وللناس الذين يأتُونَها على السواء، وكأن الأرضَ التي كانت تقومُ عليها هنالك سوقُ الرابية أرضُ مملكةٍ وأمْرٍ مُحْكَمٍ، وإن لم تكن حضرموتُ مملكةً واحدةً عند ظهور الإسلام! ودليلُ ذلك أن رسول الله، عليه السلام، كتب إلى وائل بن حُجْر[3]: «من محمد رسول الله إلى الأَقْيَالِ العَبَاهِلَةِ من أهل حضرموت»[4]، والأَقْيَالُ: الملوكُ، والعَبَاهِلَةُ: مَن ظَلُّوا على مُلكهم لا يُزالون عنه، كما أشرنا آنفاً... ومن شأن هذا كله أن يُوضحَ ما نقله ابنُ حبيب عن ابن الكلبيّ في نصٍّ مُضْطَرِبٍ، ثم تابَعَهُ عليه المرزوقيُّ في نصٍّ أكثَرَ إبَانَةً، وأصْوَبَ عبارةً، جاء فيه:

---

(١) المفصَّل: ١/ ٦٤٨.
(٢) المفصَّل: ٢/ ١٦٥.
(٣) هو وائلُ بنُ حُجرْ بن سعيد بن مسروق بن وائل الحضرميُّ، أسلم وكانت له صُحبة.
(٤) لسان العرب: ١١/ ٤٢٢ (عبهل).

«فأمَّا الرابِيَةُ فلم يكن يصلُ إليها أحدٌ إلا بخُفَارةٍ، لأنها لم تكن أرضَ مملكة، وكان مَن عَزَّ فيها بَزَّ صاحِبَهُ[(1)]، فكانت قريشٌ تَتخفَّرُ ببني آكِلِ المرار من كندة[(2)]، وسائرُ الناس يتخفَّرون بآل مسروق بن وائل الحضرميّ، فكانت تلك الخُفَارَةُ مَكْرُمَةً لأهل البيتَيْن جميعاً، وكان فضلُ أحَدِهما على الآخَر، كفَضْلِ قريشٍ على سائر العرب»[(3)].

ويجب أن يُفهم من هذا النصّ، أن الطريق إلى حضرموت، لا سوق الرابية، هو الذي كان خَطِراً، غير آمِنٍ، فكان لا بُدَّ لمن يُريدُ أن يَشْهَدَ موسمَ السوق، أن يَلْتَمِسَ إذْناً بالمرور، أو خُفَارةً من زُعَماءِ إحدى قَبيلتَيْن: بني كِنْدَة، أو آلِ مَسْروق بن وائل، فيجوزَ الطريقَ حينئذٍ آمِناً، لا يعترضُ سبيلَهُ أحَدٌ. . فالخَطَرُ لم يَحِقْ بالطريق إذن لأن حضرموت لم تكن مملكةً، بل لأن الطريق إليها، شأن كلِّ الطرُق، كان طويلاً وَعراً، ومن الصعب ضمانُ الأمن فيه بقوَّة الدولة، بينما يَسْهُلُ ضمانُه بما كان بين القبائل من أحلافٍ وذِمَمٍ ومعاهداتٍ تُوفِّرُ الحمايَةَ لمن يتخفَّرُ بها. . وهذا يتفق أصلاً وما نقله المرزوقيُّ عن ابن دُرَيْد، أنه لم يكن أحَدٌ يصل إلى الأسواق إلا بخَفِير، ولا يرجعُ إلا بخفير[(4)]. فقد أراد خَطَرَ الطرُق، لأن الأمن في الأسواق كان مكفولاً، والخُفَارةُ هنا لا تعني إصْحابَ القوافل بالخُفَراء والحَرَسِ، فهذا أمرٌ

---

(1) العِزُّ: في الأصل القوَّةُ والشدَّة والامتناعُ، والعِزَّةُ: حالةٌ إذا حصلت للإنسان تمنعُه من أن يُغلب، وتُمكِّنُه من بَزِّ صاحبه، أي غَلَبَتِه وانتزاع ما معه.

(2) آكِلُ المرار: حُجْرُ بن عمرو بن معاوية، أوَّلُ مُلوك بني كندة، مَلَّكَهُ أخوه «حسَّانُ بن أسعد أبي كرب» ملكُ اليمن، على قبائل مَعَدّ بن عدنان، فدانت له نحو سنة (٤٢٥ م)، قيل إنه كان في سَفَرٍ، فأصابه جوعٌ، فأكل من المُرار حتى شبع، فنجا من الموت، فلُقِّب بآكل المرار.

(3) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥، والمحبَّر: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(4) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

طبيعيٌ لا بُدَّ منه في كل الأحوال، وإنما تعني الدُّخُولَ في ذِمَّةِ القبائلِ التي تمرُّ الطرُق في بلادها، أو بلادِ من يُحالِفُها.

وعلى ذلك جعل قبائلُ العرب لبني حُجْر بن عمرو الكنديّ، وبني مَسْروق بن وائل الحضرميّ، مَكْرُمَةً، فأجارتْ، أو خَفَرَتْ كلَّ مَن أجَارُوهُ، أو خَفَرُوهُ في مَقْدَمِهِ إلى بلادهم لشُهود مواسمهم. وليس ببعيدٍ أن تكون خُفَارَةُ هذيْن الحَيَّيْنِ لقوافل التجارة موردَ رزقٍ لهما، كانا يَجْنِيان منه أموالاً ومنافِعَ كثيرةً... ذلك أن سوق الرابية لم تكن به عُشورٌ تُفْرضُ على بُيوع التجار، فكأنه كان منطقةً حُرَّةً مُعْفاةً من الضرائب، ولكن القوافل التي تأتيه، كانت تُؤدّي إلى مَنْ يَضْمَنُها ويخفرها جُعالةً، هي من بعض لوازم الزعامة والرياسة.

وكان موسمُ سوق الرابية يقوم في النصف من ذي القعدة، ويظلُّ قائماً إلى آخر الشهر(١)، فيَنْفَضُّ الناسُ عنه إلى مثله من السنة المقبلة. ويبدو من النصِّ أن تجَّار قريش كانوا يحرصون على شُهودِه، والإشتراكِ فيه، مع أن سوق عكاظ يكون منعقداً في هذا الوقت، ويعقبهُ سوقُ المجنَّة.. ومن الواضح أن موسم الرابية ينعقدُ في شهر حرام، وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من توافُرِ الأَمْن في السوق وفي الطريق المُوصِلة إليها معاً(٢).

---

(١) المحبَّر: ٢٦٧.

(٢) أنظرْ كلامنا على قواعد الأمن في الباب الخامس من الجزء الأول، وكلامنا على العُشُور في المطلب الثالث من الفصل الأول في الباب الأول من الجزء الأول.

الفصل التاسع

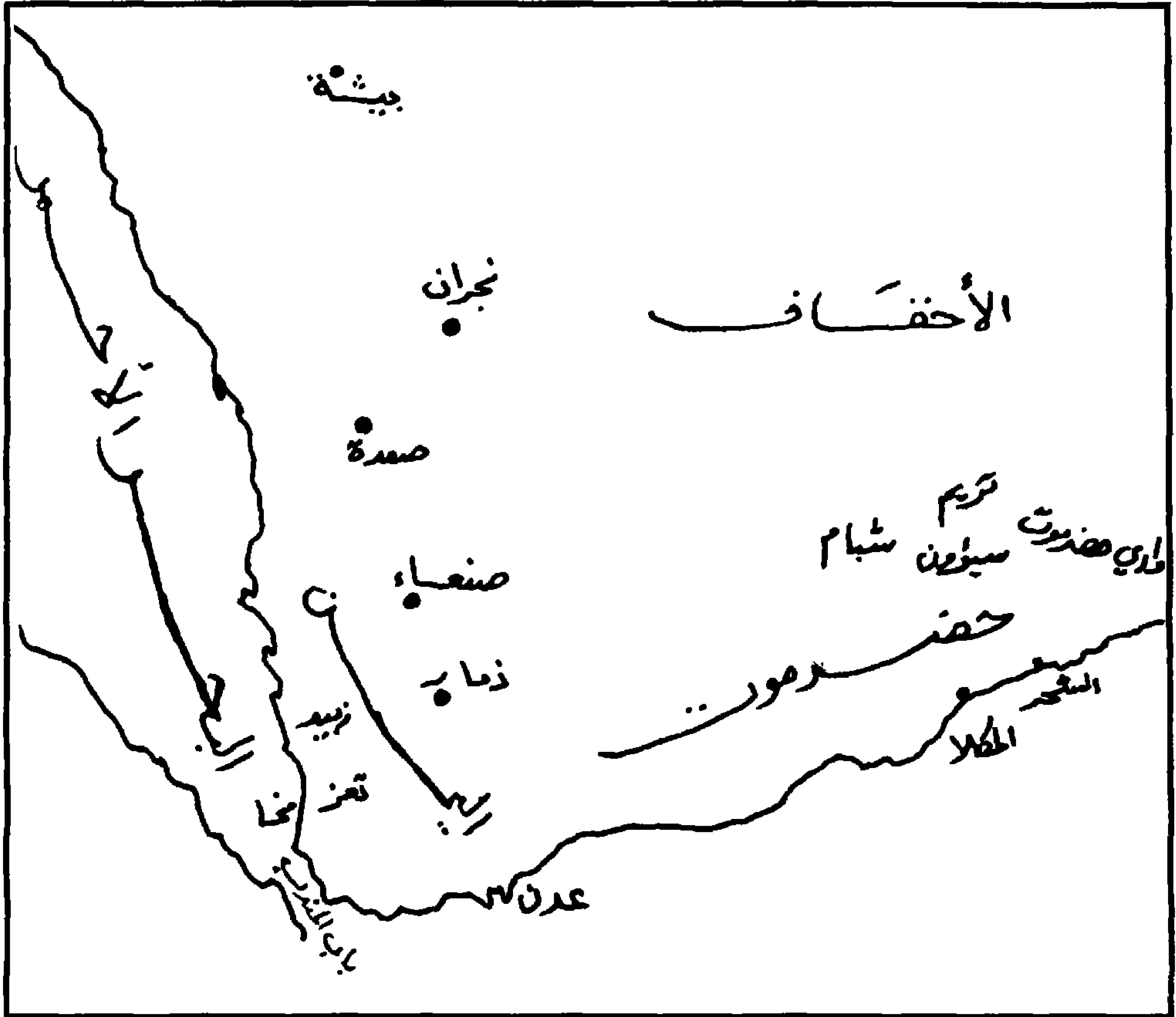
مواسم أسواق اليمن

في كلامنا على الأسواق الموسميَّة عند العرب، لم يُفْضِ بنا التحقيقُ في أخبار القدماء إلا إلى خمسة أسواق، ذكر أهلُ الأخبار أنها كانت تقوم باليمن، وهي: عَدن، وصَنعاءُ، ونَجْرانُ، والأَسْقَىٰ، والجَنَد. . وتبيَّن لنا بالبحث أن «الجَنَدَ» كانت من مُدُنِ اليمن الكبرى، تقعُ بين عَدَنٍ وتَعِزَّ، ولكننا لم نجدْ عند أحدٍ ذِكْراً لموسمها متى كان قِيَامُه، ومَن كان يَشْهَدُهُ من الناس، إلى غير ذلك من المعلومات. . . كما تبيَّن لنا أيضاً أن «الأَسْقَىٰ» كانت مدينةً يمانيَّةً قديمة، تقعُ إلى الجنوب من نجران، جاء ذِكرُها في إحدى الحملات الرومانيَّة على جزيرة العرب، أواخِرَ القرن الميلادي الأول، وليس هنالك شيءٌ آخَرُ فوق ذلك. . أمّا الأسواق الثلاثُ الأُخْرَيات، فلديْنا من المعلومات ما يسمحُ لنا بالحديث عنها في هذا الفصل.

المطلب الأول ـ موسمُ سُوق عَدَن:

تقع عَدَنُ في أقصى الجنوبِ والغربِ من جزيرة العرب، في القسم الجنوبي من تهامة اليمن، وهي في الأصل ساحلٌ، يكتَنِفُه جبلٌ من ورائه، يَحْجبُه عن البرِّ، ولم يكن به لها طريقٌ إلى البرِّ، حتى قُطِعَ في الجبل بابٌ، فصار طريقاً بين الساحل والداخِل، وتُعَدُّ سوقُ عَدَن أقدمَ أسواقِ العرب، وكانت عَدَنُ إذ ذاك مرفأَ المراكبِ القادمةِ من الهندِ، والصين، ومصر،

أسواق اليمن(١)



(١) يعتقد بعضُ الناس أن عَدَنَ تقع عند مدخل البحر الأحمر، على باب المندب، وهو اعتقادٌ خاطِئٌ، لأن عَدَنَ تقعُ على مسافة مئة ميل، إلى الشرق من باب المندب، ومساحتُها في الأصل ضَيِّقةٌ، تتألَّفُ من رأسين بُرْكانيَّيْنِ، يُطْبِقَانِ على خليج صغير، عرضه سبعةُ أميال، هو خليج عدن، وتقع مدينةُ عدن القديمة في الرأس الشرقي من الخليج، وتتَّصل بالأرض الأُمّ عن طريق «خور مَكْسَر».

والحبشة، وكان التجَّارُ يجتمعون في مواسمها من أجل ذلك، لأنها بلدةٌ للتجارةِ ليس غير[1]. وقد حقق «علوي بن طاهر الحداد» في نصوص صِينيَّةٍ، كُتبت في القرن الثالث للميلاد، فتبيَّن منها أن: «المدينة التي لعبت دوراً هامّاً، في العلاقة التجارية بين مصر والهند والصين، وسائر بلاد المشرق، في القرون الأولى للميلاد، هي مدينةُ عَدَن»[2].. ويُذكر في المراجع التاريخيَّة أن الرومان احتلُّوا مَرْفأَ عَدَن، وظَلُّوا فيه زَمَناً، لأنه خيرُ موضعٍ للوصول منه إلى سواحل إفريقية، والهند، وبلاد العرب الجنوبية، فكانت فيه دائماً جالِيَةٌ كبيرةٌ من التجَّارِ الأجانب والعربِ، وأصحابِ المراكب، وكان له بذلك شأنٌ خطيرٌ في التجارة العالميَّة[3]، لما كان يُحمَلُ إليه من ثمينِ العُروض والسِّلَع، وما كان يجري فيه من تبادُلٍ للمتاجِر بين التجَّار. ومن هنا قولُ المرزوقي: فكان يُوافي السوق بعَدَن، «مَن بقي معه من تُجَّارِ البحر شيءٌ، ومَن لم يكن شَهِدَ الأسواق التي كانت قبلَها... وكان طِيبُ الخَلْق جميعاً يُعَبَّأُ بها، ولم يكن أحدٌ يُحْسِنُ صُنْعَهُ من غير العرب، حتى أن تُجَّارَ البحر لتَرجعُ بالطيب المعمول بعَدَن، تَفخَرُ به في السِّند والهند، وترتحلُ به تجَّارُ البَرِّ إلى بلاد فارسَ والروم»[4]، وكانت أرضُ اليمن وحضرموت والشِحْرِ تُسمَّى عند اليونان والرومان أرضَ الطيب واللبَانِ والمُرِّ والبخُور[5]، ويُقال إنه لم يكن في العالم أكثَرُ طيباً، ولا أحْذَقُ صُنَّاعاً للطيب من عدن[6]، وكان يُحمل منها

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ٨٩.

(٢) المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى: ٤٣.

(٣) المفصَّل: ٢/ ٦٠ ـ ٦٣.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٥) المفصَّل: ٢/ ٥٨ ـ ٥٩.

(٦) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

إلى سائر الآفاق[1].

وكانت السوقُ تقومُ أوَّلَ يوم من شهر رمضان، إلى عَشْرِ ليالٍ يَمْضِينَ منه، أي ما بين أواخر أيار ـ مايو، وأوائل حزيران ـ يونيه، ثم يتفرَّقُ الناسُ عنها إلى مثلها من قابِلٍ. وكانوا في مَقْدَمهم إليها لا يَتَخفَّرون بأحَدٍ من قبائل العرب، لأنها تقومُ بأرضِ مملكةٍ، وأمْرٍ مُحْكَمٍ. وكانت عُشُورُها تُجبَىٰ من التجَّار إلى ملوك اليمن، وآخِرُ مَن كانت إليه عُشُورُها الأبناءُ[2]، أبناءُ من صَحِبَ الملكَ سيفَ بن ذي يزن من الفُرس، في قتاله الأحباش، ولم تكن الأبناءُ تملكُ حقَّ المتاجرة بالسوق، كما جرت بذلك عادةُ الملوك، وإنما جُعِلت لهم العُشُورُ فقط منفعةً وكرَماً.

المطلب الثاني ـ مَوسِمُ سُوق صنعاء:

صنعاءُ قَصَبةُ بلادِ اليمن، وأحْسَنُ مُدُنها بناءً، وأَصَحُّها هواءً، وأعْذَبُها ماءً، وأطيَبُها تربةً، وأَقلُّها أمراضاً، وكان من عجائبها قصرُ غُمدانَ ذو الطبقات العشرين، والسقفِ البِلَّوْريّ[3]. وكانت صنعاءُ تُشَبَّهُ بدمشق في كثرة فواكِهها، وتَدَفُّقِ مياهها، ولم يكن في جميع بلاد اليمن أكثَرُ منها مَرافِقَ وسُكَّاناً، طيِّبَةُ الهواءِ في الصيف والشتاء، وكأنها إحدى جِنَان الأرض[4].

وكان موسمُ السوق يقوم في النصف من شهر رمضان إلى آخِرِه، ثم يَنْقشِعُ الناسُ منها إلى مِثْلها من السنة المُقبِلة[5]، وكانت تُباعُ بها عُروضٌ

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٢) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد: ٣٣.

(٤) معجم البلدان: ٣/ ٤٢٦.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤، والمحبَّر: ٢٦٦.

كثيرةٌ مُتَنوِّعَةٌ، منها: القطنُ، والأَدَمُ، والبُرودُ، والزعفران، والأصْبَاغُ، وآلةُ الخَرَزِ، والحِبَرُ، والبَزُّ، والحريرُ، وأشياءُ أُخَر[١]. .

وقيل إن السوق كانت تُقامُ بوادي صنعاء، في أصل جَبَلِ «نُقُم»، وهو جبلٌ مُطِلٌّ على صنعاء، بالقرب من قصر غُمدان[٢]. .

وذُكر أن «الجَسَّ» كان طريقةَ البيع في هذه السوق، وهو جَسُّ الأيدي[٣]، ومعناها: إذا تَمَّتِ المساومةُ بين المتابعين، جَسَّ أحَدُهما يَدَ الآخَرِ علامةً على وُجوبِ البيع، وانتهاءِ الخِيَار[٤]، وقيل بل هي جَسُّ السلعةِ بيَدِ المشتري.

وذكر ابنُ حبيب أن «الأبناء» كانت تعشرُ التجَّار في موسم صنعاء[٥]. . وأريد هنا أن أقول قولاً في أمر الأبناء، أو فيمن كان يتولَّىٰ رياستَهم، فأنا أرى أن تَعْشِيرَ التجار إنما جُعل لهم، إكراماً لآبائهم الَّذين قاتلوا الأحباشَ مع الملك سيف، بينما مُنِعَت عنهم المتاجرةُ، كما رأينا، لأنها تُعَدُّ في المواسم العامَّة من امتيازات الملوك إذا اجتمعت إلى التعشِير، وهو ما يُشير إلى أنهم لم يكونوا حُكَّاماً لليمن حقّاً، وإنما كان لهم نوعٌ من النفوذ الأدبيّ، لعلَّه لم يتجاوز عَدَن وصنعاء إلا قليلاً. . وإني لأعتقدُ أن الوُلاةَ من أبناء الفُرس على صنعاء، وكان «باذانُ» آخِرَهم، لم يكونوا في الواقع أكثر من وكلاءَ لبعض ملوك فارس، يَرعَوْن لهم مصالحهم التجاريَّة في اليمن. فقد جرت عادة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥، ونهاية الأرب: ٤٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٧٣، ومعجم البلدان: ٥/ ٣٠٠.
(٣) المحبر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٤) المفصَّل: ٧/ ٣٩٤.
(٥) المحبَّر: ٢٦٦.

أولئك الملوك أن يُسَيِّروا القوافِلَ إلى أسواق العرب للمتاجرة، فكانت تبيع ما تحمله معها، وتشتري به ما يحتاج إليه الملوكُ من غَلَّاتِ العرب وحاصلاتهم، وكانوا يتَّفِقُون مع أشراف العرب على حماية قوافلهم، ويُؤَدُّون إليهم جُعلاً كبيراً أجْراً على ذلك[1]. . ولو كان ادِّعاؤُهم السيطرةَ على اليمنِ وعُمَانَ وهَجَرٍ واليمامةِ صحيحاً، لما احتاجوا إلى من يحمي قوافلهم، لأن ذلك معناهُ أنهم كانوا يسيطرون على الطريق الشرقيّ للقوافل بكامله في بلاد العرب. وهو ما كنا فصَّلنا الكلام عليه لمَّا تحدَّثنا عن الأمن عند العرب، وهذا ما يجعلنا في شكٍّ من أمر ولاية أبنائهم على جميع اليمن، ولا سيما أن رسول الله، عليه السلام، لمَّا كتب إلى «باذان» بصَنْعَاءَ، كتب في الوقت نفسه إلى مُلوك اليمن على مختلف مُدُنِه أو أقاليمه، إذ كان لكلِّ قبيلةٍ في مِخْلافِها مَلِكٌ عليها من أهلها، منذ قُتِل الملكُ سيفُ بنُ ذي يزَن، وتفرَّق مُلْكُ دولةِ حِمْيَر باليمنِ من بعده، وكان أولئك الملوكُ يُسَمَّوْنَ: العَبَاهِلَةَ، أي الذين أُقِرُّوا على مُلْكِهم لا يُزَالُونَ عنه[2].



المطلب الثالث ـ موسم سوق نَجْرانَ:

عَدَّ الهمدانيُّ سوقَ نجرانَ في مَواسمِ العربِ، من غير أن يُضيف إلى ذلك شيئاً يَهْدِينا إلى موقعِ قيام تلك السوق، أو زمانِ موسمها. والمعروفُ أن نجرانَ مدينةٌ قديمةٌ مشهورةٌ، تقع إلى الشمال من صنعاء، في منتصف الطريق إلى بِيشَة، وكانت محطةً من المحطَّات الكبرى على طريق القوافل

(١) المفصَّل: ١/ ٦٣٢ ـ ٦٣٣.
(٢) لسان العرب: ١١/ ٤٢٢ (عبهل).

الغربيّ. وهي منزلُ حَكَم العرب القديم «الأفعى بن الحُصَيْن» الجُرْهميّ، الذي حكم بين أبناء نزار بن مَعَدّ، في ميراثهم من أبيهم، ومن نَسْله: السيِّدُ والعاقبُ، أسقفا نجران، وكانا في الوفد الذي أراد مُباهَلَةَ رسول الله، عليه السلام[1].

وذكر ياقوتُ في كلامه على نجران ما يؤكد أن معظم أهلها كانوا من بني الحارث بن كعب، وهو جَدٌّ جاهليٌّ قديم، يمانيٌّ من قبيلة مَذْحج[2]، وكان لهم موسمٌ ينعقدُ بنَجران كلَّ سنةٍ، عند حُلول عيدٍ مُعيَّن لهم.. وذلك أن أهل نجرانَ كانوا في الجاهليَّة على دين العرب، وكانوا يتعبَّدون نخلةً عظيمةً، لها عندهم عيدٌ في كل سنة مَرَّةً، فإذا كان ذلك العيدُ، عَلَّقوا عليها كلَّ ثوبٍ حَسَنٍ وَجدوهُ، وزَيَّنُوها بالحُليّ، وجرى بينهم أثناءَ احْتِفالهم بَيعٌ وشراء.. ولمَّا تَنَصَّروا، أقاموا عليها كعبةً، سُمِّيتْ كعبةَ نجران، بَنَاها لهم بنو عبد المدان بن الديَّان، من بني الحارث بن كعب، وجعلوها على هَيْأَةِ كعبة مكّة، مُضَاهاةً لها، وعَظَّموها، فكان إذا جاءها الخائفُ أَمِنَ، أو طالبُ حاجَةٍ قُضِيتْ حاجَتُهُ، أو مُسْتَرفِدٌ أُرْفِدَ[3]، وكان موقعُها على نهرٍ بنجران[4]... وليس ببعيدٍ أن تكون كعبةُ نجران موضعَ «يَغُوث» أيضاً، وكان صَنَمَ مَذْحجَ كلِّها، وقد نقله بعضُ بني مُراد إلى نجران، وأَقَرُّوهُ عند قومٍ من بني الحارث بن كعب، ثم اجتمعوا عليه جميعاً[5].

---

(١) المحبَّر: ١٣٢، والأعلام: ٢/ ٥.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٧.

(٣) اسْتَرفَدَ: طلب المعونةَ أو العطاء.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ٢٦٦، ٢٦٨.

(٥) المحبَّر: ٣١٧.

ويبدو لي، من هذه الأخبار، أن سوق نجرانَ، التي أشار إليها الهمدانيُّ، كان موسمُها في عيد النخلة، ومن المعقول أنها صارت تقوم بعد ذلك في موسم العبادة، حِيَالَ كعبة نجران لمَّا أُقيمت للنصارى.

* * *

● **تعقيب على موسم سوق نجران:**

ذكر ياقوتُ في موضعٍ آخَر من كتابه أن «دَيْرَ نَجْرانَ» كان باليمن لآلِ عبدِ المُدانِ بن الديَّان، من بني الحارث بن كعب، ومنه جاء القومُ الَّذين أرادوا مُبَاهَلَة النبيّ عليه السلام. وكان بنو عبد المدان بن الديَّان بَنَوْا هذا الدَّيْرَ مُرَبَّعاً، مُسْتَوِيَ الأضلاع والأقطار، مُرْتفِعاً من الأرض، يُصْعَدُ إليه بدرجةٍ على مِثَالِ بناء الكعبة، فكانوا يحجُّون إليه هُم وطوائفُ من العرب، مِمَّن لا يعتقدون بحُرْمة الشهور الحرُم، ولا يحجُّون إلى كعبة مكة، وكان يحجُّ إلى الدَّيْر قبيلةُ خَثْعَم قاطبةً!.. وكان أهلُ ثلاثةِ بُيوتاتٍ يتبارون في البِيَعِ وإصْلاحِها للنصَارى: المَنَاذِرةُ بالحيرة، والغَسَاسنةُ بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنَجْران، ويَبْنُونَ دِيَاراتِهم في المواضع النَّزِهَةِ عادةً، الكثيرةِ الشجرِ والرِيَاضِ والغُدْرانِ، ويجعلون في حيطانها الفُسيْفُسَاءَ، وفي سُقُوفها الذَّهَبَ والصُّوَرَ... وكان بنو الحارث على ذلك إلى أن جاء الإسلامُ، فقَدِم على النبيِّ، العاقِبُ والسيِّدُ، وإيليا أُسْقفُ نجرانَ، للمُبَاهَلَةِ، ثم اسْتَعفوهُ منها قبل أن تتمَّ. وكانوا يركبون إلى الدَّيْر في كل يوم أَحَد، وفي أيام أعيادهم، وعليهم الدِيباجُ المُذهبُ، والزنانيرُ المحلاَّةُ بالذهب، فإذا قضَوْا صلاتَهم انصرفوا إلى نُزَهِهم. وكان يقصدهم الوفودُ والشعراءُ من قبائل العرب، فيشربون، ويستمعون إلى الغناء، ويَلْهُونَ، ويمرحون[1]...

---

(١) معجم البلدان: ٢/٥٣٨.

وههنا ليَ ملاحظتان، **الأولى**: أن ياقوت أطْلَعنا في سِيَاق كلامه على دير نجران، أن نصارى العرب من المناذرة والغساسنة وبني الحارث بن كعب كانوا يتنافسون في بناء البِيَع والأدْيِرَة، في العراق والشام واليمن. والملاحظة **الثانية**: أن دير نجران هو ما كان يُسمَّى عند العرب كعبةَ نجران، وأن مواسمه كانت أيامَ أعيادِ المسيحيين، وهي كثيرةٌ، ولعلَّ موسم السوق الذي أشار إليه المؤرِّخون كان يقومُ في واحدٍ منها، إن لم يكن حقيقةً في عيد النخلة كما كنا رجَّحْنَا، وقد رأينا قبلُ أن معظمَ أعْيادِ النصارى أصلُها أعيادٌ زراعيّةٌ أو وثنية.

أمَّا قولُ ياقوتَ بأن من كانوا يحجُّون إلى دير نجران من العرب، لم يكونوا يؤمنون بحرمة الشهور المحرَّمة، ولا يحجُّون إلى مكة، فقَولٌ فيه نظرٌ!.. ذلك أن قبيلة خَثْعَم، التي خصَّها بالذكر، هي التي تصدَّتْ للدفاع عن كعبة مكة[1]، من دون العرب جميعاً، لمَّا حَمَل عليها أبْرَهَة الحبشيُّ يبتغي هَدْمَها، وهو ما كنا فَصَّلنا فيه الكلامَ آنفاً لمّا تحدَّثنا عن المُحلِّين والمحرِّمين في الجاهلية، فأوْضَحْنا أن قبيلةَ خَثْعَم، وإن كانت من طائفة الحِلَّة، ليست من المحلِّين للحرمات الدينية، ذلك أن مذهب الحِلَّة في التديُّن إنما هو تقاليدُ مُخففَّةٌ، في مقابل تقاليدَ مُشدَّدةٍ لطائفة الحُمْس. أما قصدُ بني خَثْعَم ديْرَ نجرانَ للحجِّ إليه، فهو في اعتقادي قائمٌ على مَيْل العرب وقتئذٍ إلى أن تكون ديانتهُم جُملةً مُختارةً من الشعائرِ والمعتقَداتِ المُنْتَقاةِ من مختلف المِلَلِ والنِحَل، على سبيل المُشاركَة والمُقارَبَة. وقد ذكر ياقوتُ في غير موضع من كتابه أن قبائل لخم وغسَّانَ وكندة وملوكَ حِميَر كانت تحجُّ إلى مكة، ومثلُها قُضاعة، على نصرانيَّةِ مُعْظمها.

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/٤٦.

الفصل العاشر

موسم سوق بَدْر

ذكرتُ من قبلُ أن أقْدمَ إشارةٍ إلى موسم بدرٍ قولُ ابن إسحاق: «وكان بَدْرٌ موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوقٌ كلَّ عام. .»[1]، وذلك في كلامه على غزوة بدر الكبرى، من غير أن يُعيِّن لنا موعداً لانعقاده، أو مُدَّةً لِقِيَامه، أو شيئاً عن موقعه. ثم جاء هذا الخبر في مُعْظم كتُب أهل الأخبار والسِّيرة[2]، وكان الاتفاق فيها قائماً على أن رسول الله، عليه السلام، خرج من المدينة لثلاثِ ليالٍ مضَتْ من رمضان[3]، يَتَرصَّدُ لقافلة أبي سفيان القادمة من الشام، وفيها أموالُ قريش[4]، وكان مُقدَّراً وصولُها إلى بَدْر في ذلك الوقت. ولكن أبا سفيان كان يَتَحسَّسُ الأخبار قُبَيل مَقْدَمه، تخوُّفاً على أموال الناس أن يعترضَها المسلمون[5]، فتأخَّر أياماً عن موعد وصوله، ثم أخَذ طريقَ الساحل، مبتعداً عن موضع بَدْرٍ، ومضى بالقافلة سالماً إلى مكة.

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/٦١٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/٤٣٨، والكامل: ٢/١٢١، والطبقات الكبرى: ٢/١٣، والأغاني: ٤/١٨٦ ـ ١٨٧، وصفة جزيرة العرب: ١٧٩. .

(٣) تاريخ الطبري: ٢/٤٣١.

(٤) الكامل: ٢/١١٨، والمحبَّر: ١١١.

(٥) تاريخ الطبري: ٢/٤٢٧.

وكان موضعُ بذْرٍ «طريقَ رُكْبان قريش، مَنْ أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام. .»[١]، ومنزلاً تنزلُه القوافلُ للتجارة والعبادة والراحة والتزوُّدِ بالماء، يقع بين مكة والمدينة، أسفلَ وادي الصفراء، وهو إلى المدينة أقربُ، بينه وبين مرفأ «الجار»[٢] مسيرُ يومٍ وليلةٍ[٣]، وبينه وبين المدينة ثمانيةُ بُرُدٍ تقريباً[٤]، أو مسيرُ نحوِ أربعة أيام[٥]. .

وقد ذكر ابنُ إسحاق في كلامه على غزوة بدر الصغرى[٦]، أن الرسول، عليه السلامُ، خرج إليها في شهر شعبان، وتابَعَه على هذا القول سائرُ أهل الأخبار والمؤرخين[٧]، إلا ابنَ سعد[٨]، زعم أنها كانت في ذي القعدة، ولعله خلط بين غزوة السَّوِيق وغزوة بدر الموعد، وأضاف أن المسلمين خرجوا إليها ببضائعَ وتجاراتٍ، حتى انتهوا إلى «بَدْر الصفراء»[٩]. .

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢٢.

(٢) **الجَارُ**: مدينة على ساحل بحر القُلْزم، الأحمر، وهي مرفأ يثرب، كانت تَرْفَأُ إليها السفُنُ من مصر والحبشة وعدن والصين والهند، وتُسمَّى اليوم: «يَنبُع».

(٣) معجم البلدان: ١/ ٣٥٧، و٢/ ٩٢.

(٤) الطبقات الكبرى: ٢/ ١٣، ومعجم البلدان: ١/ ٣٥٨.

(٥) **البريد**: إثنا عشر ميلاً، **والمرحلةُ**: أربعة وعشرون، وهي مسافة كان المسافر يقطعها في يوم واحد، أي ليلةٍ. **والفَرسَخُ**: ثلاثة أميال (كرَّرْتُ ذكرها هنا للتذكير بها).

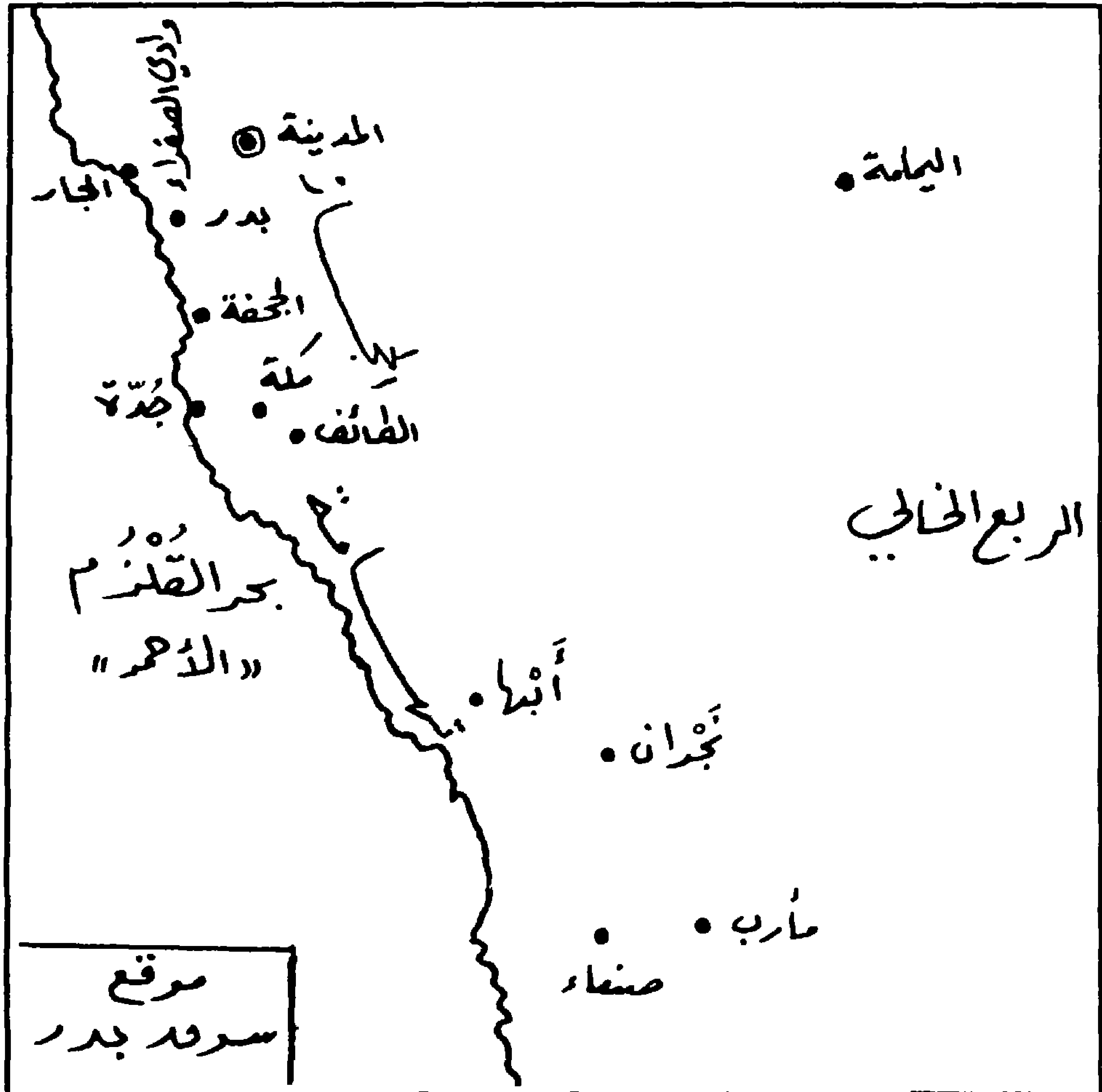
(٦) **بدر الصغرى**: الغزوةُ التي سُمِّيت: بدرَ **الموعد**، لأن الرسول خرج فيها إلى بدر لميعاد أبي سفيان، ولم يكن فيها قتال، ويُقال لها أيضاً: **بدر الصفراء**.

(٧) السيرة: ٢/ ٢٠٩، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٥٩، والمحبَّر: ١١٣، والكامل: ٢/ ١٧٥، والبداية والنهاية: ٣/ ٩١. . .

(٨) سبقت ترجمته.

(٩) الطبقات الكبرى: ٢/ ٥٩ ـ ٦٠.

الكشف عن موقع سوق بدر



والصفراءُ قريةٌ من نواحي بدر، كثيرةُ النخل والمزارع، وماؤها عُيُونٌ كلُّه، وكانت لِبني جُهَينة وفِهْر والأَوْسِ والخَزْرجِ وغيرهم[١]. ويبدو أنها كانت موضعَ السوق التي كان العرب يُقيمونها فيها أيام الجاهلية، وكانوا يجتمعون إليها في موسمها كل عامٍ ثمانيةَ أيام[٢]، ويقصدُها الناسُ من يثرب ومكة والجار وجُدَّة والجُحْفَة وغيرها من المواضع القريبة والمجاورة. . .

ذلك أن وصول المسلمين إليها وافَق قيامَ موسم السوق فيها، وكان: كما ذكر المؤرخون، موسماً عظيماً باع فيه المسلمون كلَّ ما خرجوا به معهم من التجارات، وأصابوا ربْحاً حَسَناً، ثم انصرفوا بعد أن أقاموا بها ثمانية أيام، ولم يَلْقَوا عَدُوّاً[٣]. . وقد تفرَّدَ ابنُ حبيب بالإشارة إلى أن الرسول، عليه السلامُ، خرج إلى «بَدْرِ الموعد، مُسْتَهلَّ شعبان، ورجَعَ لِعَشْرٍ بقين منه»[٤]، فأعاننا بذلك على تَعْيينِ اليوم الذي كان ينعقدُ فيه موسمُ بدر، ولا سيما بعدما عرفنا أن قيامه كان ثمانيةَ أيامٍ في كل عام.

والعربُ تقولُ: أَهَلَّ الشهرُ، واسْتهلَّ، إذا ظهر هلالُه، ويظلُّ الشهرُ في مُسْتَهلِّه ثلاثَ ليالٍ[٥]، أو حتى يتبيَّنَ ضوءُ الهلال، وهذا لا يكون إلا في الليلة السابعة[٦]. . فإذا قدَّرْنا أن الرسول خرج من المدينة في اليوم الرابع من شعبان، لزم من ذلك أن يكون وصولُه إلى مَوْضع الصَّفراء في اليوم السابع، بعد مسيرة أربعة أيام تقريباً، وأن يكون انعقادُ موسم السوق في اليوم الثامن،

---

(١) معجم البلدان: ٣/ ٤١٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٦١.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٧.

(٤) المحبَّر: ١١٣.

(٥) صبح الأعشى: ٢/ ٣٩٦.

(٦) لسان العرب: ١١/ ٧٠٢ (هلل)، و١١/ ٦٧٣ (نفل)، والأزمنة والأنواء: ٣٥.

وقيامُه حتى الخامس عشر من شعبان. وإذا كان الرسولُ قَفَلَ عائداً إلى المدينة في السادس عشر، فإنه يكون قد وصل إليها في التاسع عشر، وقد بقيَ من الشهر، كما قال ابنُ حبيب، عشرةُ أيام، والمعروف أن عِدَّة أيام شعبان تسعةٌ وعشرون على رسْم أهل الحساب.

موقع سوق بدر وموسمه:

نَخلُص، من التحقيق الذي قدَّمناهُ، إلى أن موسم سوق بدر، كان موقعُه قريةَ الصفراء، أسفلَ الوادي بين المدينة والجار، إلى الجنوب منهما. وكان يقوم في اليوم الثامن من شهر شعبان، ثمانية أيام، ويَنْفضُّ في الخامس عشر. ويبدو من بعض الأخبار أنه كان مَوْضِعاً من المواضع المقدَّسة عند العرب، جعلوا فيه وَثَناً، أو صَنَماً مُقدَّساً[1]، يلتقون في موسمه للتجارة والعبادة، واللهْوِ واللعب والمرَح، فيَنْحرون الجُزُرَ، ويطعمون الطعام، ويسقون الخمر، وتَعْزفُ عليهم القِيَان[2].

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٧٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٨.

الباب الرابع

مواسم أسواق بلاد الشام

الفصل الأول: حديث أسواق الشام

١ ـ أبو علي المرزوقي

٢ ـ زكريا القزويني

٣ ـ الخلاصة

الفصل الثاني: مواسمُ الأسواقِ المعروفةُ في الشام

● الأمن، والعشور

● أذرعات ـ تيماء ـ الأردن ـ فلسطين ـ دير أيوب ـ بصرى ـ عمّان ـ منبج ـ موسم النبط ـ عيد تدمر.

الفصل الأول

حديث أسواق الشام

المطلب الأول ـ أبو علي المرزوقي:

يبدو فيما نُشِرَ من كتُب التُراثِ، حتى اليوم، أن المرزوقيَّ كان أوَّلَ من نقل إلينا حديثَ الأسواق الموسميَّة، التي كانت تنعقدُ بالشام أيَّامَ الجاهلية، وظلَّت على ذلك رَدحاً طويلاً في الإسلام. فقال:

«قال ابنُ كُنَاسَة:

١ ـ إذا غابت الثريَّا مع غُيُوبِ الشمسِ، لم تَرَها أربعين يوماً، فذلك أُفُولُها. وأهلُ الشام يُطْلِعُونَها لخمسٍ وعشرينَ ليلةً، من غير أن تَطْلُعَ، أو يَرَوْها، فيُقيمون أسواقهم.

٢ ـ فتقومُ سوق دَيْر أيُّوب، وهي أوَّلُ أسواقهم.

٣ ـ فإذا انفضَّتْ، اعْتَدُّوا سبعين يوماً، ثم أقاموا سوقَ بُصْرى. قال: وأدْرَكتُها تقومُ خمساً وعشرينَ ليلةً، وأُخْبِرتُ أنها كانت تقومُ بولاية بني أميَّة ثلاثينَ إلى أربعين ليلةً.

٤ ـ فإذا انفضَّتْ، اعْتَدُّوا سبعين ليلةً، ثم أقاموا سوقَ أذْرِعَات، وهي اليومَ أطْولُها قياماً، وربما لقيتُ الناسَ صادِرينَ منها، وأنا وارِدٌ إليها. . »[1].

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٩ ـ ١٧٠.

ولكي نفهمَ هذا النصَّ، علينا أولاً أن نَحُلَّ لُغْزَ المقْطَعِ الأوَّلِ منه، وأن نفهم مَدْلُولَه ومعناهُ، فنتوصَّلُ بذلك إلى معرفة المواعيد التي كانت تقوم بها مواسمُ أسواق الشام، أو موعد سوق دير أيوب على الأقل.

١ ـ الثريَّا نجمٌ من ثمانية وعشرين نجماً هي منازلُ القمر[١]، وهي تطلعُ من أُفُق المشرق مرَّةً في السنة، فتظلُّ طالعةً تُرى في السماء ستةَ أشهُرٍ، ثم تسقط في أُفُق المغرب ستةَ أشهُرٍ أيضاً، فتظلُّ تُبصَرُ بالعَشِيَّاتِ فقط حتى تأفُلَ. وأُفُولُها أن تدخُلَ في شُعاع الشمس، فتخفَىٰ عن الأبصار مُدَّةً، تُرَىٰ بعدَها طالعةً من أفُق المشرق. ذلك أن الشمس تنزلُ منازِلَ القمر، فتُقيم بكل واحد منها ثلاثةَ عَشَرَ يوماً، وكلما حَلَّتْ منزلةً سَتَرَتْها، وسَتَرتْ منزلةً قبلَها، ومنزلةً بعدَها، فلا تزال ثلاثُ منازِلَ منها مَحْجوبةً عن الأبصار بشُعاع الشمس، أي آفِلَةً لا تراها العينُ أربعين يوماً. على خلافٍ في وقت ابتداءِ الأُفُول، فالقائلون بوقوع الإعتدال الربيعي في الخامس عشر من آذار (مارس)، يُقدِّرون أفُولَ الثريَّا في التاسع والعشرين منه، والقائلون بوقوعه في الواحد والعشرين من آذار (مارس)، يُقدِّرونه في نحو الثالث من نيسان (أبريل)[٢]. ويبدو أن أهل الشام كانوا يأخذون بالتقدير الأوَّل، ويجعلون ابتداءَ أُفُول الثريَّا في التاسع والعشرين من آذار (مارس). . ذلك أن العرب كانت تقولُ بطُلوعِ الثريَّا في العَشْر الأوسط من أيار (مايو)، أو في نحو الثالث عشر منه[٣]، والثريَّا من الكواكب الشاميَّة فهي تطلع بالشام قبل

(١) انظر جدول منازل القمر في الفصل الأول من الباب السادس في الجزء الأول من الكتاب.

(٢) الأزمنة والأنواء: ٩٥ ـ ٩٦، ١٠٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٨٠، ١٨٣، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٠ (نجم)، والأزمنة والأنواء: ١٦١، والأنواء: ٢٦، وعجائب المخلوقات: ٧٧، ٧٨.

طلوعها في اليمن والحجاز[1]، ويراها أهلُ الشام قبل أن يراها أهلُ اليمن والحجاز ببضعة أيام، وعلى ذلك يكون طلوعُها في الشام نحو السابع من شهر أيَّار، أي بعد أُفُولها أربعينَ يوماً.

أمَّا قولُ ابنِ كنَاسة بأن أهل الشام يُطلعون الثريَّا، أي يَعُدُّونها طالعةً من غير أن تطلع، وذلك بانقضاء خمسٍ وعشرين ليلةً على أُفُولها، فهو قولٌ غير دقيق، وصَوابُهُ أن أهل الشام كانوا يُقيمون موسمَ دير أيُّوب حينما تنقضي خمسٌ وعشرون ليلةً على أُفُول الثريَّا، وذلك لعِلَّةٍ سنبيِّنُها في كلامنا على هذا الموسم، وليس لاعتقادهم بأنها طَلَعتْ وانتهى أُفولُها.

٢ ـ إذا كان ابتداءُ أُفُولِ الثريَّا في التاسع والعشرين من شهر آذار (مارس)، حينما تَحِلُّ بها الشمسُ، فقيامُ موسم دير أيوب يكون في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل).. وقولُه إنه أوَّلُ أسواقهم، لأن السنة كانت تُفتتح إذ ذاك في شهر نيسان (أبريل)، وكانت تُفتتح عند العرب قديماً في شهر رجب.

٣ ـ نلاحظ أنه لم يُعيِّن أَجَلاً لانْقِضَاءِ موسم دير أيوب، ولذلك تَعذَّر علينا أن نُعيِّنَ موعدَ قيام موسم سوق بُصْرى، وإن علمنا أن مُدَّة قيامه كانت خمساً وعشرين ليلةً في زمَنِ ابنِ كناسَة وما قبله.

٤ ـ وقد تعذَّرَ علينا أيضاً أن نعرفَ، من كلام ابن كناسة، موعدَ قيام سوق أذْرِعات وانقضائها، وإن ذكر أنها كانت أطولَ أسواق الشام قِيَاماً. فلْنَنظُرْ إذن فيما قاله القزويني، لعلَّنا نجد فيه ما نريد معرفته..

* * *

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/١٩٨، ٢٠١، والأنواء: ١٠، ١١، والأزمنة والأنواء: ٦٢.

المطلب الثاني ـ زكريا بن محمد القزويني:

لئن كان حديثُ المرزوقي عن مواسم أسواق الشام جاء في نصٍّ خاصٍّ بها، فإن حديث القزويني عنها إنما هو بضعُ إشارات إليها، جاءت في أثناء كلامه على طبيعة كلِّ شهرٍ من شهور السنة الشمسيَّة، وما يتكرَّرُ وقوعُه فيها كلَّ سنة، ابتداءً من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، إذ كان في أيامه رأسَ السنة الشمسيَّة، مثلما كان شهرُ صَفَرٍ الأوَّل (المحرَّم) رأسَ السنةِ عند العرب، ولكنَّ الجانبَ الجيِّدَ في حديث القزويني، ذِكْرُهُ مواعيدَ قيام تلك المواسم...

ذلك أنه لمَّا تحدَّث عن شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وما كان يقع في أيامه من فَوران المياه، واضطراب البحر، واشتداد الريح، وبدءِ البرد، ذكر أن سوق «أذْرِعات» تقومُ في الثالث عَشَر منه[1].

ثم تحدَّث عن شهر كانون الأول (ديسمبر)، فذكر أن سوق «تُومَا» بدمشق تقومُ في اليوم الأول منه، وأن سوق «الأُرْدُنّ» تقومُ في الحادي عَشَرَ منه[2]. ثم أشار في كلامه على شهر نَيْسَانَ (أبريل)، أن سوق «فلسطين» تقومُ في الحادي والعشرين منه، وأن «موسم دير أيُّوب» بالشام يقوم في الثالث والعشرين منه[3]، وهو الموعدُ نفسُه الذي توصَّلنا إلى معرفته بالتحقيق في نصِّ المرزوقي... ولمّا تحدَّث عن شهر تموز (يوليو)، ذكر أن سوق «بُصْرى» تقوم في العاشر منه[4]. ثم تحدَّث عن شهر آب (أغسطس)، فذكر

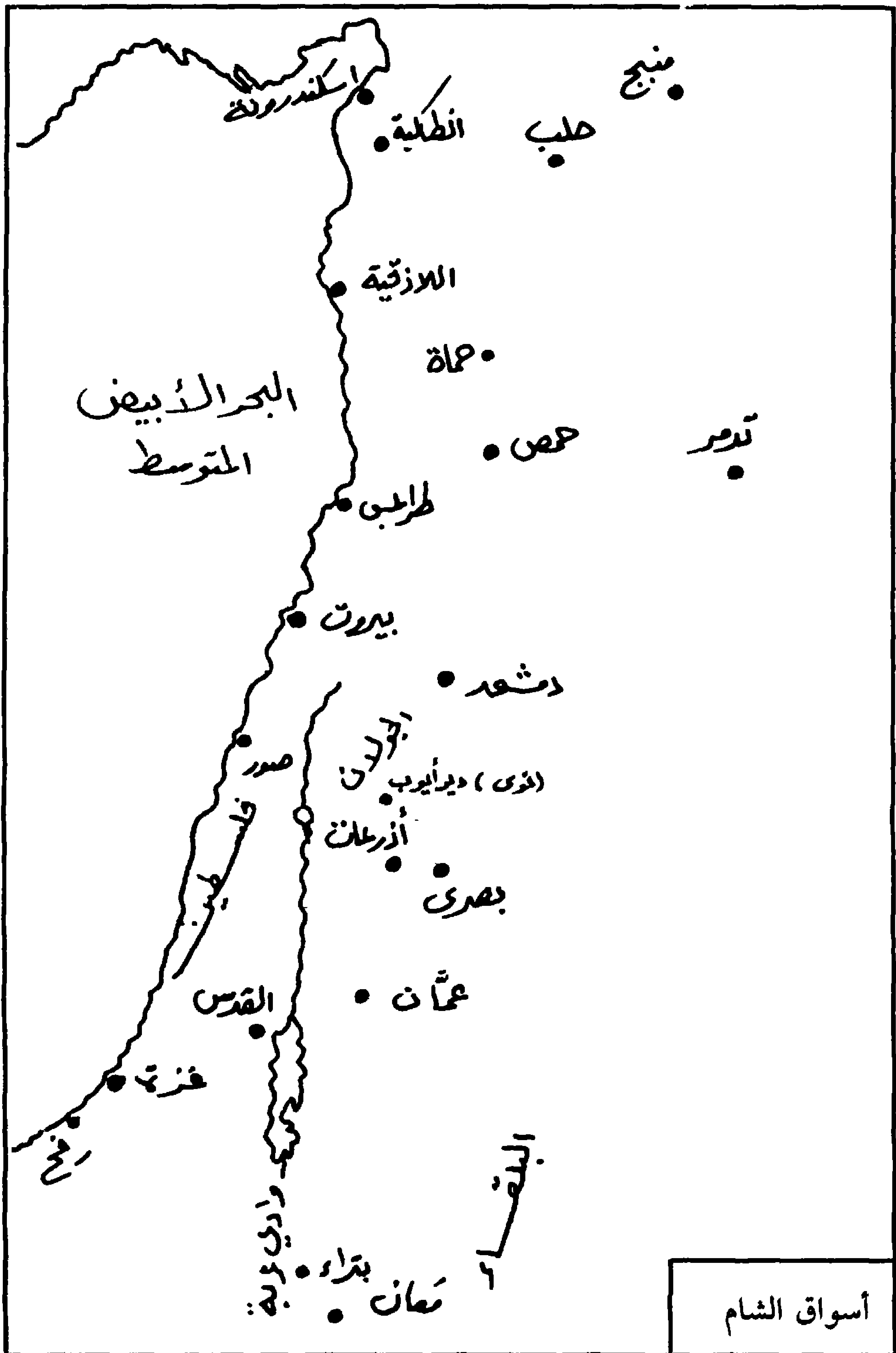
---

(١) عجائب المخلوقات: ١١٥.

(٢) المرجع نفسه: ١١٦.

(٣) المرجع نفسه: ١١٨.

(٤) المرجع نفسه: ١١٩.


منبج
اسكندرونة
حلب
انطاكية
اللاذقية
حماة
البحر الأبيض
المتوسط
حمص
تدمر
طرابلس
بيروت
دمشق
الأردن
صور
(قرى) دير أيوب
أذرعات
فلسطين
بصرى
القدس
عمان
غزة
رفح
البلقاء
بتراء
معان

أسواق الشام

أن سوق «عَمَّانَ» تقومُ في العاشر منه[1]. وأخيراً أشار إلى أن سوق «منبح» تقوم في الأول من شهر أيلول (سبتمبر)، وقال، مؤكداً على مَوْسِميَّة ما ذكره في هذا الفصل: «.. فهذه أمورٌ تتكرَّرُ في كلٍّ سنة، على رأي أصحاب التجارب، في الأوقات المذكورة»[2].

فأسواق الشام إذن كانت ثمانيةً: أذرعات، تُوما، الأردنّ، فلسطين، دير أيوب، بصرى، عَمَّان، منبج.. ولكن القزويني لم يُحدِّثنا بشيءٍ عمَّا كان يجري فيها، ولم يُخْبرنا بمدَّة قيام كلٍّ منها! إلا أننا، بما حقَّقْناهُ من المعلومات في نصِّ المرزوقي، نستطيع أن نعرف المزيدَ عن مُدَّة قيام موسم دَيْر أيوب، وأن نَفْتَرِضَ مُدَّةً لقيام سوق أذرعات. وقد تَبيَّنَتْ لنا المطابقةُ التامَّةُ، بين الموعد الذي عيَّنَهُ القزوينيُّ لقيام موسم دَيْر أيوب في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل)، والموعدِ الذي نقله المرزوقي لقيام الموسم نفسه بانقضاء خمس وعشرين ليلةً على أُفُول الثريَّا. فإذا كان بين ابتداءِ سوق بُصْرىٰ في العاشر من تَمُّوز، وانتهاءِ موسم دير أيُّوب، سبعون يوماً، فذلك يعني أن موسم دير أيُّوب يَنْفَضُّ في الثلاثين من نيسان (أبريل)، وأن مُدَّةَ قيامه ثمانيةُ أيَّام. وإذا كان موسم بُصْرى يقومُ خمسةً وعشرين يوماً، فإنه ينفضُّ في الثالث من شهر آب (أغسطس)، وبين الرابع من آب (أغسطس) والثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) سبعون يوماً، وذلك يؤكد صِحَّةَ قيام سوق أَذْرِعات في الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، وإذا كانت أطولَ الأسواق قياماً، فلعلَّها كانت تنفضُّ قُبيل انعقاد سوق توماء بدمشق في الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر)، بعد قيامها نحو أربعين يوماً أو أكثر قليلاً.

* * *

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه: ١٢٠.

المطلب الثالث ـ خلاصة التحقيق في حديث أسواق الشام:

يبدو من الواضح أن تحقيقَنا، في كلام كلٍّ من المرزوقي والقزويني، قد انتهى بنا إلى الكشفِ عن ثمانيةٍ من مواسم الأسواق، التي كانت تقومُ في بلاد الشام، وإلى معرفة مواعيد انعقادها جميعاً، إلا ثلاثةَ مواسمَ حَقَّقْنا مواعيدَ انْعِقادِها وانْقِضائها ومدَّةَ قيام كلٍّ منها، وهي:

١ ـ **سوق أذرعات**: وقيامُها في الثالث عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، نحو أربعين يوماً. ويقع هذا الموعدُ في شهر صفر الأول (المحرَّم) عند عرب الحجاز، أي في الخريف.

٢ ـ **موسم دير أيُّوب**: وقيامُه في الثالث والعشرين من شهر نيسان (أبريل)، ثمانيةَ أيامٍ، وانْقِضَاضُه في آخر الشهر. ويُوافِقُ هذا الموعدُ عند عربِ الحجاز شهرَ رَجَبٍ في أواخره، وأوائل شهر أيار (مايو) على التقريب، أي أواخر الربيع.

٣ ـ **سوق بُصْرَىٰ**: وقيامُها في العاشر من شهر تَمُّوز، خمسةً وعشرين يوماً، وانْقِضَاؤها في الثالث من شهر آب (أغسطس). ويقع هذا الموعدُ في شهر شوَّال إلى أيامٍ من أوائل ذي القعدة تقريباً، أي في فصل القَيْظ. وهو يُذكِّرنا برحلة قُريش في الصيف بتجاراتها إلى الشام(١).

---

(١) يجب أن نلاحظ أن الأستاذ الفاضل سعيد الأفغاني قد غلط لمَّا توهَّم أن أسواق دير أيوب وبصرى وأذرعات تقوم بعد مواسم عكاظ ومجنَّة وذي المجاز (أسواق العرب: ٣٦٣)، أي ابتداءً من شهر صفر الأول المحرَّم، لأن بين أذرعات وبصرى نحواً من ثمانية شهور، وبين دير أيوب وأذرعات ستة شهور، والواضح أنه عيَّنَ الموعدَ من غير أن يعرف شيئاً عن غياب الثريَّا ومُدَّة أفولها.

ومن الطبيعي أن نقول: إن هذه المواسم لم تكن كلَّ ما عرفه أهلُ الشام، بل هي ما ذكره بعضُ المؤرِّخين، فهنالك مثلاً موضعٌ، يقعُ إلىٰ الشمال من دمشق، ما يزال حتى اليوم يحملُ إسمَ «سوق وادي بَرَدَىٰ»، ولعلَّه كان مَحلاً لسوقٍ موسمِّيةٍ عند أهل دمشق... وهنالك أيضاً مدينة «البتراء»، عاصمةُ الأنباط في بلاد الشام الجنوبية، ولا شيءَ يمنعُ من الافْتِراضِ بأنها عرفتْ مواسمَ دينيَّةً وتجاريَّةً كبرى، كسائر بلاد العرب، ولا سيما، كما مرَّ بنا، أن مَقْدَمَ الأنباط بِغَلاَّتِ الشام إلى المدينة، كان يُقَامُ له موسمٌ ثابتٌ كلَّ عام يَشْهدُهُ أهلُ الحجاز. وإلى ذلك ذكر جواد علي أن الأنباط كانوا يقيمون موسماً دينيّاً كبيراً، سنتحدَّثُ عنه في الفصل التالي، في كلامنا على المواسم المعروفة ببلاد الشام، ونتكلَّم بعد ذلك على موسم العيد بتَدْمُر...

وأخيراً، إذا كان المرزوقيُّ نقل حديثَ أسواق الشام عن ابن كُنَاسَة، الذي أدرك بعضَها، وشَهِدَ مواسِمَهُ، فإنه أطْلَعنا بذلك على أن تلك المواسم كانت ما تزالُ تقومُ حتى زمنِ ابنِ كناسة، المتوفَّىٰ سنة (٢٠٧ هـ = ٨٢٣ م)، وأنها ظلَّت تنعقدُ مواسمُها بعد ذلك، بدليل ما ذكره القزويني عنها، وقد تُوفِّي نحو (٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م)، مع أنه لم يذكر شُهودَهُ شيئاً منها، ولكنَّ قولَهُ: «فهذه أمورٌ تتكرَّرُ في كلّ سنةٍ على رأي أصحاب التجارب»، دليلٌ على أنها كانت ما تزال معروفةً عند الناس، وأنها من التقاليد الأَصِيلةِ عند أهل الشام... وبذلك يمكن القولُ بأن أسواق الشام ظلَّت تنعقدُ، في مواسِمِها المُعيَّنَةِ، نحواً من تسعة قرون، إذا افترضنا أنها بدأت في القرن الخامس للميلاد، مع أن بعضها ربما رجع إلى زمنٍ أبْعَدَ من ذلك.

هذا عن عَمَارتِها، وأمَّا من جانبٍ آخَرَ فأنا أعتقد بأن الأسواق الثلاثة:

أذْرِعات ودير أيُّوب وبُصرى، التي اجْتَزَأ المرزوقيُّ بذكرها، إنما كانت الأسواقَ الأكْثَر شُهرةً عند العرب، ولعلَّها المحطَّاتُ الأخيرةُ التي وصلت إليها قوافلُ أهل الحجاز أيّامَ الجاهلية، فكان رُوَاتُهم يتناقلون أخبارها، وشعراؤهم يُكثِرون من ذِكْرها، والإشادَةِ بخُمورِها في أشعارهم، وإن كانت في الحقيقة مَواضِعَ لتبادُلِ صُنُوفٍ كثيرةٍ مُتَنوَّعَةٍ من العُروض والسِّلَع والغَلَّات، تُحمل إليها من مختلف البُلدان والبِقَاع..

وإلى ذلك فقد جاء في أخبار الجاهلية، أن تُجَّار العرب كانوا يقصدون دمشق للاتِّجار بها، وربما للتصيُّفِ، أو لزيارة بعضِ أمراء بني غسَّان، ممّن اتَّخَذُوا بها قصوراً... غير أن بعض أولئك التجَّار كان يقفُ عند بُصْرى، فيتَّجِرُ في سوقها، ثم يعود منها إلى بلده، ومنهم من كان يتوجَّهُ إلى غَزَّة، حيث يكون بها تُجَّارٌ جاؤوها من سواحل البحر المتوسط يحملون معهم بضائعَ من مُدُنها[1].

* * *

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

مورد وادي بردى
نهر الليطاني
دمشق
الغوطة
كسوة
بانياس
الجولان
الحولة
صنمين
فلسطين
نوى
(دير أيوب)
طبرية
فيق
جدرة
حوران
أذرعات
(درعا)
بصرى
بيسان
نهر الأردن
أم الجمال
جرش

سورية الجنوبية

الفصل الثاني

مواسم الأسواق المعروفة في الشام

● الأمنُ والعُشُور:

كان العربُ يَتَوطَّنُون بلادَ الشام، منذ ما قبل الميلاد بزمنٍ طويل، وكانت طوائفُ منهم تشتغلُ هنالك بالزراعة، وآخَرُون يَتَولَّوْنَ حمايةَ طرُق التجارة، وخُفَارةَ القوافل(١). وكانت سياسةُ الرومانِ، ثم الرومِ البيزنطيين من بعدهم، تقومُ على التحالُفِ مع العرب، لأنهم أَقْدَرُ على حمايةِ المواضع التي تَتَّصِلُ تُخُومُها بالبوادي الواسعة، والصحارى الشاسعة، وأكثَرُ خِبْرةً وحِيلةً في صَدِّ هجماتِ الغُزاةِ عنها، سواء أكانوا من الأعراب، أو من العرب المتحالفين مع إيران(٢)، أي قبائل الحيرة.

وفي أخبار الروم بالشام، أنه كان من الصعب عليهم أيضاً اسْتِيفاءُ العُشُورِ من التجار العرب، في مَقْدَمهم إلى حُدودِ الشام من جزيرة العرب، فكانوا يَكِلُونَ أَمْرَ الجباية إلى أمراءِ القبائل وساداتها، ممَّن لهم حِلْفٌ معهم، وتقفُ وَراءَهم قبائلُ قَوِيَّةٌ تَدْعَمُهم، ويَخْشَاها أصحابُ الغَزْو والغاراتِ غالباً(٣). وكان التجارُ العربُ إذا دَخَلُوا الشام عَشَّرَهُم رجالُ المكْسِ على

---

(١) المفصَّل: ٢/ ٣٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٤٠.

(٣) المرجع نفسه: ٥/ ٣٠٩.

الحدود، وإذا تاجروا في أسواق الشام عَشَّرَهُم وُلاةُ هذه الأسواق[1]. وقد اشتُهِرتْ قبيلةُ جُذَام بن عديّ، بقيام سادتها على تَعْشِير تُجَّار العرب في مَشَارفِ الشام، أواخِرَ عصر الجاهلية، ويبدو أن مُلوك الغَساسِنَة وأُمَراءَهم، كانوا يستعملونهم على هذا الأمر، وعُرِف منهم «زِنْباعُ بنُ رَوْح بن سَلامة» الجذاميُّ، وكان ينزلُ مَشارِفَ الشام، ويَعْشُرُ من مَرَّ به من التجَّار، عامِلاً للحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني. . وفي أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه خرج تاجراً في الجاهلية مع نَفَرٍ من قريش، فلما وصلوا إلى فلسطين، قيل لهم: إن زِنْباعَ بنَ رَوْح بن سَلاَمة الجذاميَّ يَعْشُرُ من يمرُّ به للحارث بن أبي شَمِر، فعَمَدُوا إلى ما معهم من الذهب، فألْقَمُوهُ ناقَةً لهم، حتى إذا مَضَوْا إلى الشام، نَحَروها، وسَلِمَ لهم ذَهَبُهم. فلمَّا مَرُّوا على زِنْباع قال: فَتِّشُوهم! ففتَّشُوهم، فلم يجدُوا معهم إلا شيئاً يَسِيراً. . فقال: اعْرِضُوا عليَّ إبِلَهم، فمرَّتْ به الناقَةُ نفسُها، فنظر إليها تذرفُ عيناها، فقال: إنحروها، إنَّ لها لشَأناً! فقال عمر: لأيّ شيء؟ قال: إن كان في بطنها ذهب، وإلا فَلَكَ ناقةٌ غيرها، وكُلْ هذه. . فشَقُّوا بطنَها، فسال الذهبُ، فأغْلَظَ عليهم زِنْباعُ في العُشْرِ، ونال من عُمَر، فتوعَّدَهُ عمرُ، وقال:

متـى أَلْـقَ زِنْبَـاعَ بـنَ رَوْحٍ ببلـدةٍ   لِيَ النصْفُ منها، يَقْرعِ السِّنَّ من نَدمْ[2]

وذُكر كذلك أن فَرْوَةَ بنَ عمرو الجذاميَّ كان عاملاً لقيصر الروم على عَمَّان، من أرض البلقاء، وكان رئيسَ جُذَام، وقد كتب إلى رسول الله، عليه السلامُ، بدُخُولِهِ في الإسلام[3]. . . وكان سلامَةُ بنُ رَوْح بن زِنْباع أَحَدَ من

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٤٧٩.

(٢) الإصابة: ١/ ٥٣٣ (ت: ٢٨١٧)، ولسان العرب: ١/ ٢٦٤ (قرع).

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧٩، والطبقات: ١/ ٢٦٢، ٢٨١.

تَولَّوْا جبايةَ العُشُور على مشارفِ الشام، وقد هجاهُ حسَّانُ بنُ ثابت، ووصفه بأنه دميةٌ وبئسَ الخفير[1]. وأكَّد ابنُ حزم أن رياسة معان وفلسطين كانت لبني جذام، وأن ضِبْعَانَ بن رَوْح الجذاميَّ وليَ الأُرْدُنَّ[2].. وفي الإسلام كان رَوْحُ بنُ زِنْباع الجُذَاميُّ أمير فلسطين، وسيِّدَ اليمانيَّةِ في بلاد الشام، وقائدَهم[3]... وكانت منازلُ بني جُذَام بن عَدِيّ تمتدُّ من مِدْيَنَ إلى تَبُوك، وإلى طبريَّة من أرض الأردن[4].. وكانوا يحكُمونَ، من موقعهم هذا، طريقَ القوافل إلى أسواق الشام، وكانوا يفعلون ذلك بالإتفاق مع ملوك بني غسَّانَ، لأن عهدهم قريبٌ من زمن هؤلاء، ولعلَّ الأمر من قبلُ كان بأيدي الأنباط، أصحاب الدولة العربية المُتَقدِّمة، التي امتدَّتْ من شمالِ جزيرة العرب، إلى الأجزاء الجنوبية والشرقيَّة من فلسطين، وإلى حوران وبُصْرى ودمشق وسهلِ البقاع. فكانت في زمنها تحكُم طُرُقَ القوافل، وتَعْشُرُ من يمرُّ بها من التجَّار، كما تحكُمُ الأسواق التي تقومُ بولايتها في مَشَارفِ الشام حتى دمشق، وتَعْشُرُ المُتَاجِرين فيها. وقد ظلَّ تُجَّارُها، بالرغم من قضاء الرومان على دَوْلتهم سنة (١٠٦ م)، يَجُوبُون المُدُنَ القريبةَ والبعيدةَ بمتاجرهم، ويُقيمون الأسواق فيها عِدَّةَ قرونٍ بعد ذلك[5]. ولمَّا قُسِمتْ فلسطين في عهد الروم البيزنطيين، أواخر القرن الرابع للميلاد، كانت البتراءُ، عاصمةُ الأنباط، المدينةَ الرئيسةَ في القسم الجنوبيّ منها[6]... وعلى ذلك فالتَّعْشِيرُ في مَشَارفِ الشام وأسواقِها كان غالباً بأيدي العرب.

---

(١) المفصَّل: ٥/٣٠٩.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٢٠.

(٣) الأعلام: ٣/٣٤.

(٤) معجم قبائل العرب: ١٧٤.

(٥) المفصَّل: ٣/٤٩ ـ ٥٠.

(٦) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٣٨٩.

ويَحْسُنُ بي أخيراً أن أؤكِّدَ ما سبق لي الحديثُ عنه، في كلامي على قواعد الأمن عند العرب، من أن الأمن كان غالباً على أسواق الشام، وقوافلِ التجّارِ القادمين إليها، إذ كانت الإدارةُ فيها على العُموم قويّةً مُنظَّمةً، والأحوالُ مُستقرَّةً، والتَّدابِيرُ مُحْكَمةً، وبذلك كانت التجارةُ مُزْدَهرةً في جميع مُدُن الشام.

وننتقلُ، بعد هذا التمهيد، إلى الكلام على مَواضِع الأسواق التي تَوصَّلْنا إلى الكشف عنها في بلاد الشام، ثم نتحدَّثُ بعد ذلك عن موسم الأنباط، ونُتْبِعهُ بحديث آخر عن موسم العيد السنويّ بتَدْمُر.

المطلب الأول ـ سوقُ أَذْرِعَات:

أَذْرِعَاتٌ مدينةٌ في طَرَفِ الشام، تُسمَّىٰ اليومَ درعا. والنِّسْبَةُ إليها أَذْرَعِيٌّ[١]. تقعُ إلى الجنوب من دمشق، بجِوار أرض البَلْقَاءِ، غربيِّ حوران.. كان يحكمها في الجاهلية عُمَّالٌ تَبَعٌ للروم، ولمّا ظهر الإسلامُ، طلب صاحبُها من المسلمين الصُّلْحَ، فَصُولح على ما صولح عليه أهلُ بُصْرى، ونال أهلُها عهداً بالأمان لأنْفُسِهم وبلدهم[٢].. وما تزال بادية فيها آثارُ طرُقٍ وحَوَانيتَ وموضعِ سوق كانت بها قديماً، ربما من أيّام الرومان، كما عُثِر في خَرائِبها على نقودٍ رومانيةٍ وبيزنطيّةٍ ونبطيّة، ضُرِبتْ بها[٣].

ويبدو لي أنها كانت تمتاز عند العرب بثلاثة أشياء، فهي أَدْنَىٰ بلاد الشام إلى الحجاز، ومُفْتَرَقُ الطرُق إلى بُصْرى ودمشق وفلسطين وعمَّان،

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٩٧ (ذرع).

(٢) فتوح البلدان: ١٣٢.

(٣) المفصَّل: ٣/ ٦٠ ـ ٦١.

واشتهارُها بصناعة الخمر، إلى ما كانوا يجدونه فيها من أصناف الحبوب، التي تنبتُ بحوران، ثم تُحمل إلى سوقها.

ومثَالُ ذلك ما نقله الطبريُّ في بعض الأخبار، من أن الفُرسَ قاتَلُوا الرومَ بأذْرِعاتٍ وبُصْرىٰ، فغَلَبُوهم نحو سنة (٦١٥ م)، وكان النبيُّ عليه السلامُ يكرهُ أن يظهرَ الأُمِّيُّون من المجوس، على أهل الكتاب من الروم، فنزل في ذلك قولُه تعالى: **﴿ألم غُلِبَتِ الرومُ في أدْنىٰ الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون..﴾**[1]، وأَدْنَى الأرض إلى بلاد العرب يومئذٍ أذرعاتٌ وبُصْرى[2].

ومثالُه أيضاً أن طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، في مَقْدَمِه الشامَ، سنة (١٥ هـ)، كان على أذرعات، ليُمْضيَ صُلْحَ أبي عبيدة مع أهل إيلياء بفلسطين، فلقِيَهُ هنالك المُقَلِّسُونَ، من أهل أذْرِعَاتٍ، بالسيوف والرَّيْحَانِ، فقال عمرُ: مَهْ، إمنعوهم! فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سُنَّتُهم، وإنك إن منعتَهم منها يَرَوْا أن في نفسك نقضاً لعهدهم. فقال: دَعُوهم[3]..

ولأَذْرِعـاتٍ، مثـلُ مـا لخمـرهـا، ذِكْـرٌ مُسْتفيـضٌ فـي أشعـار العـرب وأخبارهم، جعل ياقوتُ عِلَّتَهُ في أن أذرعات بلدٌ يُنسَبُ إليه الخمرُ، ولـم يَزَلْ من بلاد العرب في الإسلام وقبله. كقول امرىء القيس:

ومثْلِـكِ بيضـاءِ العَـوارضِ طَفْلَـةٍ   لَعُوبٍ تُنسِّيني، إذا قمتُ، سِرْبَالي

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣) فتوح البلدان: ١٤٥. **والتقْليسُ**: الضربُ بالدُّفِّ والغناءُ، واستقبالُ الولاة عند قدومهم بالرقص وأصناف اللهو، وهو أيضاً وضعُ اليدين على الصدر علامة الخضوع في العبادة.

تنـوَّرْتُهـا مـن أذْرعـاتِ، وأهلُهـا بيثْـربَ أدْنَـى دارِهـا نظـرٌ عـالـي[1]

وقولِ أبي ذؤيب الهذليّ:

فمـا إنْ رحيـقٌ سبتْهـا التِّجَـا رُ مـن أذرعـاتٍ فَـوادي جَـدَرْ[2]

وقولِ بِشْر بن أبي خازم الأسَديّ:

كـأنَّ مُـدامَـةً مـن أذرعـاتٍ كُمَيْتـاً، لَـوْنُهـا لـونُ الـرُّعَـافِ[3]

وذلك إلى أقوالٍ أُخَر كثيرةٍ، يطولُ الكلامُ إذا ما تقصَّيْناها جميعاً، وهي في جُملتها تُشِير إلى ما كان لمواسم سوق أذرعات من الإهتمام عند العرب.

* * *

المطلب الثاني ـ سوقُ تُوماء:

كلُّ ما نعرفُه أن تُوماءَ اليومَ حيٌّ في الناحية الشرقية من دمشق، وكانت قديماً قريةً من قُرى غوطة دمشق، يُنْسَبُ إليها بابُ تُوماء، أحَدُ أبوابِ دمشق[4]. ويبدو أن السوق كانت تقومُ بها، في اليوم الأول من شهر كانون الأوَّل (ديسمبر)، أي في أواخر الخريف. وأعتقد أنه كان يُبَاعُ فيها كلُّ ما اشتُهرت به دمشقُ من الصناعات كالنسيج والآنِيَةِ، وما تطرحه أشجار الغوطة ونباتُها في فصل الخريف.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١. السِّرْبَالُ: القميصُ أو كلُّ ما يُلبَس. تَنوَّرَ: أبْصَر من بعيد.

(٢) لسان العرب: ٨/ ٩٧ (ذرع).

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم: ١٤٣ ـ ١٤٤. المُدَامُ والمُدامَةُ: الخمرُ، والكُمَيْتُ: ما كان لونا بين الأحمر والأسود.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٥٩.

المطلب الثالث ـ سوق الأردن:

لا نعلم بالتحديد أين كان مَوضعُ قيام هذه السوق من مُدُنِ الأُرْدُنّ وقُراه، وكانت كثيرةً مشهورة[1]. غير أنني أُرجِّحُ قيامها بمدينة «جَرَش»، فقد كانت من مُدُن القوافل ومراكز التجارة الكبرى. وهي تقع على بُعد اثنين وثلاثين ميلاً إلى الجنوب والشرق من «جَدَرَه»، وما تزال بها إلى اليوم آثارٌ رومانيَّةٌ تُشير إلى خَطَر مَوْقعها[2].



المطلب الرابع ـ سوق فلسطين:

وهذه السوقُ أيضاً نجهلُ موضعَ قيامها من مُدُنِ فلسطين، وأظنُّ أنها كانت تقوم بمدينة «غَزَّة»، إحدى مُدُن القوافل الكبرى، ومَقْصد كثير من العرب، وغير العرب، ومَرْفأ السفُنِ القادمة من بلاد الروم، وإيطالية، ومصر، ولبنان، فتُفْرِغُ فيه ما تنقلُه من العروض والسِّلَع المتنوِّعَة، وتحمل منه ما تحتاج إليه من بضائع غَزَّةَ وما يُجلبُ إليها من بلاد العرب، ولذلك كانت محطةً ضَرُوريَّةً ولازمةً عند أهل الحجاز[3]، وإليها كان مَتْجَرُ قريش، وفيها مات هاشم بن عبد مناف، وبها قَبرهُ. . وممَّا ذكره ياقوتُ عنها أنها مدينةٌ في أقصى الشام، على حُدودِ مصر، وهي من مُدُنِ فلسطين، تقع إلى الغرب من عَسْقَلان. وقد اشتُهرت عند العرب بجَوْدَةِ ما يُصْنَع فيها من الخمر، فذكرها شعراؤهم[4]، مَثَلُها في ذلك كمثَلِ أذرعاتٍ وبُصْرىٰ. . يقول

---

(١) المرجع نفسه: ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٣٢٨ ـ ٣٢٩، ٣٥١.

(٣) المفصَّل: ٢/٦٥٣.

(٤) معجم البلدان: ٤/٢٠٢.

أبو ذؤيب الهُذَليُّ:

فما فَضْلَةٌ من أذرعاتٍ هَوَتْ بها ... مُـذَكَّـرةٌ عَنْـسٌ كهَـادِيَـةِ الضَّحْـلِ
تَـزَوَّدهـا مـن أهـل بُصْـرىٰ وغَـزَّةٍ ... على جَسْرةٍ مرفوعةِ الذَّيْل والكِفْلِ
بأطيبَ مِن فيها، إذا جئتُ طارقاً ... ولم يتبيَّنْ صادقُ الأُفُق المُجْلي(١)

* * *

المطلب الخامس ـ موسم دير أيوب:

أَيُّوبُ نبيٌّ قديم من أنبياء العرب، قيل إنه من بني عيسو بن إسحاق، وليس من بني إسرائيل، كان يسكن بين شرقيّ فلسطين وحَوْرَان. وكان غنيّاً، صاحبَ أموال عظيمة، فابتلاهُ اللَّهُ بأن أذْهَبَ أمواله حتى عاد فقيراً، وابتلاهُ في جَسَده بأن أصابه الجذام حتى تساقَطَ لحمه، فبقي مَرْمِيّاً على مَزْبلةٍ لا يُطيق أحدٌ رائحتَه ثماني عشرةَ سنةً، ولكنه ظلَّ على عبادة الله، وشُكْره، صَابراً حتى مَلَّتْهُ الناسُ إلا امرأته، فقالت له يوماً: لو دعوتَ الله! فقال لها: كم كانت مُدَّةُ الرَّخاء؟ قالت: ثمانين سنة، فقال: أنا أسْتَحيي من الله أن أدعوه، وما بلغتْ مُدَّةُ بلائي مُدَّةَ رخائي.. ثم إن الله عافَاهُ، ورزقه، وكثَّر أهْلَهُ(٢).

وسِفْرُ أَيُّوب في التوراة عربيُّ الأَصل، تُرجم من العربية إلى العبرية، بدليل ما فيه من أسماء للناس والأمكنة والنبات والحيوان، إلا إسمين غير معروفين زادهما المترجِمُ ليجعله عبرياً، ولكن أدباء الغرب وبعضَ المستشرقين

---

(١) **الفَضْلةُ**: الخمرُ، سُمِّيتْ بذلك لأن صَمِيمها هو الذي بقيَ وفَضل. **المذكَّرةُ العَنْسُ**: الناقةُ القويَّةُ الشابَّة. **هادِيَةُ الضَّحْل**: صخرة ملساءُ تنبت بالماء. **الجَسْرةُ**: الناقة العظيمة. أراد أن خُمورَ غَزَّة وبُصْرى وأذرعات، على طِيبِها، ليست بأَطْيبَ من ريق حبيبته إذا جاءَها ليلاً.
(٢) مختصر تاريخ البشر: ١/١٦.

يؤكدون على عروبة هذا السِّفْر، ويَعُدُّون أيُّوبَ أوَّلَ من ابتدع شعرَ الفواجع «DRAMA»[1].

وثمَّة إطباقٌ على أن منزله كان في «نَوَىٰ»، وهي قريةٌ من نواحي حوران، تقع إلى الجنوبِ والغربِ من دمشق، والشرقِ من طَبَرِيَّة، والشمالِ من درعا، وهي بلدةٌ قديمةٌ معروفةٌ، فيها قبرهُ، وعينُ الماء التي ركَضَها برِجْله، واغتسل منها كما أمَرهُ اللَّهُ، والحِجْرُ الذي كان يأوي إليه في مرضه[2].

ويبدو أن عمرو بنَ جَفْنة، أوّلَ ملوكِ بني غسَّانَ في بادية الشام، أوائلَ القرن الثاني للميلاد[3]، أقام على قَبر أيُّوب دَيْراً[4]، فاشتُهِرت البلدةُ كلُّها بإسْم «دَيْرِ أيُّوب»، وذكرها ياقوتُ بمثل ما ذكرهُ عن «نَوَى»[5]. غير أن الأفغاني ذهب إلى أن دير أيُّوب في قرية «شيخ سعد» بحوران[6]، ولا أدري إن كانت هذه القريةُ هي نفسُها «نَوَىٰ» أو قريةً أُخرى.

ومن هنا نفهم أن موسمَ سوقِ دير أيوب، إنما هو في الأصل موسمٌ دينيٌّ، **يُقام بانقضاء خمسةٍ وعشرين يوماً على أفُول الثريَّا**، ويزورون خلاله قبر النبيّ أيُّوب، ثم يُقيمونَ سوقهم بالدَّيْر، أو بموضعٍ آخَر في البلدة. وهذه هي العِلَّةُ التي جعلتِ ابنَ كُنَاسَة يَرْبَكُ في فَهْم ما أرادَهُ أهلُ الشام بتعيينهم

---

(١) الأعلام: ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) معجم البلدان: ٥/٣٠٦، وصبح الأعشى: ٤/١٠٨، وآثار البلاد وأخبار العباد: ١٣١، ومروج الذهب: ١/ ٦٠. .

(٣) الأعلام: ٥/ ٧٥.

(٤) المفصَّل: ٣/ ٤٠٠.

(٥) معجم البلدان: ٢/ ٤٩٩.

(٦) أسواق العرب: ٣٦٢.

ذلك الموعدَ لقيام موسم دَيْر أيُّوب، فتوهَّم أنهم كانوا يجهلون أُفُولَ الثريَّا أربعين يوماً قبل طلوعها، ولم يفطن إلى أن الموعدَ المعيَّنَ لا علاقةَ له بطُلوع الثريَّا، بل بابتداء أُفُولها فقط.

وقد أثْبَتَ الزركليُّ كلاماً للنَّوَوِيِّ[1]، ذكر فيه أنه كان بعَصْرِهِ قبرٌ في «نَوَىٰ»، يُعْتَقَدُ أنه قبرُ أيُّوب، فبنَىٰ عليه أهلُ نَوَىٰ مَشْهداً ومسجداً[2]... وهنالك أيضاً نصٌّ ذكر فيه ابنُ تَيميَّة: أن موسم دير أيُّوب كان عيداً بالشام، يشْهَدُهُ المسلمون، ويَشْهدون الأسواقَ التي تُقامُ فيه، ويجلبون إليه الأنعامَ والبُرَّ والشَّعيرَ والدقيقَ وغيرَها من صُنوفِ التجارات[3]. ويمكنُ أن نَسْتنتجَ من كلِّ هذا، أن موسمَ دَيْر أيوب كان ما يزال يقومُ في عصر القزويني والنَّوَوِي، أي في القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي، وأنه ظلَّ على ذلك حتى زمن ابن تيمية في القرن الثامن للهجرة، والرابع عشر للميلاد، ولكنَّ في نصِّ ابن تيميَّة ما يُشِير إلى أن الموسمَ كان ينعقدُ بدَيْرٍ أو بِيعَةٍ للنصارى، وأن المسلمين كانوا يَشْهدونَه، ويشهدون السُّوقَ أيضاً، وكان ذلك في الثالث والعشرين من شهر (نيسان ـ أبريل)، ثمانيةَ أيام، وانقضاؤه في آخر الشهر من كل سنة.



(١) مُحيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف: (١٢٣٣ ـ ١٢٧٧ م)، ومن أهل القرن السابع الهجري، اشتُهِر بجمع الأحاديث وشرحها، له الأربعون النَوَوِيَّة، حَوَتْ قواعدَ الدين الأساسية.

(٢) الأعلام: ١/ ٣٧.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٢، ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

المطلب السادس ـ سوقُ بُصْرى:

بُصْرىٰ مدينةٌ تاريخيَّةٌ عريقة، تقعُ في الجنوب الشرقي من إقليم حَوْران، في مَشَارفِ الشام، تِلْقَاءَ جزيرة العرب. وكانت من كُبْريَاتِ مدائن الشام، وهي من أكثَرِهنَّ آثاراً شاهدةً على ما كان بها من العُمْرانِ والمرافق الحسنة، وما كان لها من المجد والخَطَرِ في الأزمنة القديمة.. وإنَّا لنجدُ لها ذِكْراً في أخبار العرب، وأشعارهم، في الجاهلية والإسلام، ما لا نجِدُ مثلَه لدمشق نفسها، على ما كان بين أهل الشام عامّةً، وأهل الحجاز من علائق مُتَواصِلَةٍ، وذلك لأن بُصْرى، كما يبدو، كانت محطةً رئيسةً يَحُطُّ بها تجَّارُ العرب رِحَالَهُم، يحملون إليها حاصِلات الحبشة والهند واليمن والشحْر وحضرموت، ثم يعودون منها بما تَشْتهيه نفوسُ العرب من العُروض والسِّلَع التي اشتُهِرتْ بها، ولا سيما الخمر.

كانت بُصْرى في عهد الأنباط مركزاً كبيراً من مراكز التجارة والعِبَادة، وقد أقاموا فيها عدداً من الهَيَاكل والقُصور، لم يُبْقِ منها الدَّهْرُ إلا القليلَ، يُنْبِىءُ بما كانوا عليه من الحضارة والإرتقاء. ولمَّا قضى الرومانُ على دولةِ الأنباط (١٠٦ م)، أُلْحِقَتْ بُصْرى بالولاية العربية الجنوبية، التابِعَة للأمبراطورية الرومانية، واتخذها بعضُ ملوكِ الأنباط مَقَرّاً لهم، بعدما تضاءل شأنُ عاصمتهم البتراء. ثم جُعلتْ بعدئذٍ عاصمةَ الولاية، وقَصبتَها العُظْمىٰ.. وقد وسَّعها الرومان، وشادوا بها كثيراً من المباني الرائعة، وأقاموا حولها سُوراً منيعاً، وجعلوا منها مَعْقلاً حَصِيناً من مَعَاقِلِهم في وجه الصحراء، وما يمكن أن يأتيهم منها.. وما تزال آثارهم تُحدِّثُ بما كانت عليه في زمنهم من الفَخامة والعظَمة، ومن ذلك: الشارعُ الرئيسُ للمدينة، وبابُها في الطَرفِ الغربيّ منها، وعددٌ من الأعمدةِ، والأَرْوِقَةِ، وأقواسِ

النصر، وبقايا قُصورٍ وهياكلَ وحَمَّاماتٍ وقَنَواتِ مياه، وسوقٌ تجاريةٌ مَسْقُوفةٌ، وكاتدرائيةٌ كبرى، ومَسْرَحٌ يُعَدُّ من أكبر المسارح الرومانية الباقية، ومن أجْملها وأكْمَلِها، يتَّسِعُ لنحو أربعةَ عشَر ألفِ مُشَاهِدٍ، وقد جعله العربُ بعد الفتح الإسلامي قلعةً، ويقوم في جنوب المسرح ملعبٌ كبير، كانت تجري فيه ألعابٌ كالألعابِ الأُلِمْبِيَّة، ينعقد موسمُها كلَّ أربع سنين. وهنالك بقيَّةٌ من مَبْنى قديمٍ، يُقالُ إنه منزلُ الراهبِ «بحيرا»، الذي بَشَّرَ رسولَ الله ﷺ بالنبوَّة، ومَسْجدٌ بُنِيَ، في العصر الإسلامي، على الموضع الذي بَرَكَتْ به ناقةُ رسول الله، لمّا قَدِمَ بُصْرى بتجارةٍ للسيدة خديجة بنت خُوَيْلد، وهو أحَدُ مسَاجدِ المدينة، أُقيمتْ له مِئْذَنَةٌ عالية، مُربَّعةُ الشكل، في القرن الثاني عشر، وإلى جانبه مدرسةٌ تُعَدُّ من أقدم مدارس الشام.

ولمَّا اعْتَلىٰ عرشَ الإمبراطورية الرومانيَّةِ الإمْبراطورُ فيليب العربيُّ، أحدُ أبناءِ بُصْرى، زاد في مبانيها ومَرافِقها، حتى بلغت في عهده (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) مرتبةَ المـدُنِ الكبرى، وسُمِّيَتْ «بصرى متروپوليس».. وإلى ذلك كانت تَصِلُها بسائر المـدن السورية طرُقٌ مُبَلَّطـةٌ بالحجارة المرصوفـة، نُصِبتْ على مراحلها علاماتٌ لهداية المسافرين، وصـارت تُعَدُّ واحدةً من أكبر مُدُن القوافل بعد سقوط البتراء وتدمر، وأَضْحَتْ تلتقي فيها، وتَصْدُرُ عنها جُملةُ الطرُقِ القديمةِ المعروفةِ للقوافل التجارية، فتربطُها بالحجاز والأُردنّ وفلسطين ومصر ودمشق، ومُدُنِ المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي. ثم ظلَّت مزدهـرةً حتى فتحها المسلمون سنـة (٦٣٤ م)، وكانت أوَّلَ مدينة بالشام تسقط بيد خالد بن الوليـد، ويومئذ قال قَوْلَتَه الشهيرة مُعْجَباً بها: بُصْرى مِينَاءُ الشام والعراق... ولم تبلغ بعد ذلك من الإزدهار، ما بلغتْه في عهد الرومان، مع عناية الأُمَويِّين بها، وتَوفُّرِهم على رعاية

مواسمها[1].



نخلُصُ مما قدَّمْنَا إلى أن شهرة بُصْرى كانت قائمةً قديماً على موقعها الجغرافيّ الجيِّد، ومركزِها السياسيّ والتجاريّ المُتَميِّز، فكانت سوقُها الموسميَّةُ بذلك أكثَرَ أسواق الشام خَطراً عند تُجَّار العرب، وأَشَدَّها اجْتِذاباً لأَهلِ الحجاز، ولعلَّها آخِرُ مَوْضعٍ كان تُجَّارُ مكة يصلون إليه بقوافلهم وتجاراتهم، فيبيعون فيه ويشترون، ويُؤدُّون العُشُورَ إلى وُلاةِ السوق عن مُتَاجرتهم فيها، ثم يعودون بما اشْتَرَوْهُ من مَتَاجِر الشام والطُّرَفِ المصنوعةِ فيه، أو المستوردةِ إليه من بلاد الروم وبعضِ مُدُن أوروبة، بما في ذلك الرقيق الذي كان يُجْلَبُ إلى سوق بُصْرى من مختلف البلدان[2]. وكانت تُصْنَعُ في بُصْرى أنواعٌ جِيَادٌ من السيوف، وتُنسَبُ إليها السيوفُ البُصْريَّةُ، وصَفَائِحُ بُصْرىٰ، وهي السيوفُ العريضةُ التي أخْلَصَتْ صُنْعَها قُيُونُ بُصْرى، فجاءتْ بها خالصةً من العُيُوب.. والقَيْنُ: الحدَّادُ، وكلُّ صانعٍ ماهرٍ بيده قَيْنٌ[3].. ولا يَقلُّ اشْتهارُ بُصْرى بصناعة السيوف عن شُهْرتها بصُنْع الخمر، التي كان العربُ يَسْتَطيبونها، ويُقْبِلونَ على شرائها، ونَقْلِها معهم إلى بلادهم، كما تبيَّن لنا من إشادة شعرائهم بذكرها في قصائدهم. ولا شك في

---

(١) المراجع: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٩، وسورية ـ قضايا حفظ المواقع الأثرية: ٣٨ ـ ٣٩ (مطبوعات الأونيسكو ومديرية الآثار بدمشق ١٩٥٥)، والمفصَّل: ٣/ ٤٨ ـ ٤٩، ٦٢ ـ ٦٣، ٦٩، و٧/ ٢٧٨، ورحلة ابن بطوطة: ١١١ (دار صادر ١٩٦٤ م، بيروت)، ومعالم الحضارات: ١٣٥ ـ ١٣٦، وخريطة أثر روما في بادية الشام (١٩٨٠ م) تدقيق محمد علي مادون، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٣٤.

(٢) المفصَّل: ٢/ ٦٣٢، و٢/ ٦٥٢، و٣/ ٦٣، و٥/ ٤٢٣، و٧/ ٢٩٢.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٦٨ (بصر)، والمفضَّليات: ٦٦.

أن رحلة قريش في الصيف، التي ذكرها القرآنُ الكريم، كانت إلى سوق بُصْرى، فالسوقُ كانت تقومُ، كما رأينا، في العاشر من شهر تموز (يوليو)، أي في نحو السابع عشر من شهر شَوَّال، مع تحرُّكِ هذا الموعد في التقويم القمريّ ضمنَ مُدَّةِ ثلاثةٍ وثلاثينَ يوماً، مُتأخِّراً فيها عن موعده في التقويم الشمسيّ، ثم يَعودُ بعدها إلى مثل ما كان عليه.. أي أنه يكون أولاً في السابع عشر من شوَّال، ثم يأتي ثانياً في الثامن والعشرين منه، ثم يأتي أحياناً في العاشر من ذي القعدة، ثم يعود من جديد إلى ما ابتدأ منه أولاً، وذلك لِقُصُور السنة القمريَّة أحَدَ عَشَر يوماً عن الشمسيَّة، وهذا كلُّه من باب التقريب لا أكثر[1].



وقد جاء في ذِكر بصرى ومَوسمِها عند العرب من الأخبار ما يؤكِّدُ أنها كانت مدينةً عربيَّةً... وفي أخبار السيرة أن رسول الله، عليه السلام، ارتحل إلى بُصرى مرَّتيْن، الأُولى لمَّا كان في الثانية عشْرةَ من عمره، خَرج به إليها عَمُّه أبو طالب، في تجارةٍ لقُريش، ونزلوا هنالك بالراهب بحيرا، فصنع لهم طعاماً، ودعا إليه جميع من كانوا في العِير مِن قريش. والثانية لمَّا كان في الخامسة والعشرين، خرج في عِير قريشٍ، بتجارةٍ للسيدة خديجة بنت خويلد، حتى قدم بصرى، فحضَر السوق، فباع سلْعتَهُ التي جاء بها، واشترى بثمنها غيرها، ورجع إلى مكة، فأضْعَفَتْ له خديجةُ ضِعْفَ ما سمَّتْ له من الأجْر، لأنها ربحت ضِعْفَ ما كانت تربحُ عادةً[2]...

---

(١) قَدَّرنا هذه المواعيد على ما سبق أن حقَّقناه في حديث المواسم والأزمنة، وعلى افتراض أن الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر، يقع وقتئذٍ في الأول من المحرَّم.

(٢) الطبقات الكبرى: ١/ ١٢١، ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٥٦، و٨/ ١٦.

ولمَّا كتب رسولُ الله ﷺ إلى قيصر الروم، يدعوه إلى الإسلام، بعث دِحْيَةَ بنَ خليفة الكلبيّ بكتابه، إلى والي بُصْرى ليدفعَ الكتابَ إلى قيصر، وكان يومئذٍ بحمص[١]. . وهذا دليل على أن بُصرى كانت غالباً آخِرَ ما يَصِلون إليه.

وذكر الواقديُّ في إسنادٍ له، أن طلحةَ بنَ عبيد الله قال: حضرتُ سوق بصرى، فإذا راهبٌ في صَوْمعته يقول: سَلُوا أهلَ الموسم، أَفِيهم رجلٌ من أهل الحرَم؟ فقلتُ: نعم، أنا. فقال: هل ظهر أحمدُ بعدُ؟ قلتُ: ومَن أحمد؟ قال: ابنُ عبد الله بن عبد المطلب، هذا شَهْرُهُ الذي يخرج فيه، وهو آخِرُ الأنبياء في مخرجِه من الحرم، ومهاجِرُهُ إلى نخلٍ وحَرَّةٍ وسِبَاخٍ، فإيَّاكَ أن تُسبق إليه.! قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجتُ سريعاً حتى قدمتُ مكة، فسألتُ: هل كان من جديد؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله الأمينُ قد تنبَّأ، واتَّبَعَهُ أبو بكر بن أبي قُحَافَة. قال: فخرجتُ حتى قدمتُ على أبي بكر، فقلتُ: أتَبِعتَ هذا الرجلَ؟ قال: نعم، فانْطَلِقْ إليه، فادْخُلْ عليه، فاتَّبِعْهُ، فإنه يدعو إلى الحق.. فأخْبَرَهُ طلحةُ بما قال الراهب في موسم بصرى، فخرج أبو بكر بطلحةَ ودخل به على محمد، فأسْلم، وأخْبَرَ النبيَّ بما قاله الراهب، فسُرَّ بذلك[٢].

وجاء في بعض الأخبار الطريفة أن أبا بكر الصدِّيق خرج في تجارة إلى بُصْرى، ومعه سُوَيْبِطُ بنُ حَرْملة[٣]، وكان مَزَّاحاً، وخرج معهم نُعَيْمانُ

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٥٩.

(٢) البداية والنهاية: ٣/ ٢٨.

(٣) **سُوَيبط بن حرملة**: من بني عبد الدار بن قصيّ، كان من مُهاجِرةِ الحبشة، ثم شهد بدراً وأُحُداً.

الأنصاريُّ[1]، وكان مَزَّاحاً أيضاً، وكان في الرحلة مُوكَلاً بالزَّادِ، فسأله سُوَيْبِطُ في بعض الطريق أن يُطعمه، فقال: حتى يجيءَ أبو بكر! فكتمها في نفسه منه وقال له: أمَا والله لأَغِيظَنَّكَ.. ثم مَرُّوا بقومٍ، فانْتَحى بهم سويبط، وقال لهم: أتشترون مني عبداً؟ قالوا: نعم. فقال: إنه عبدٌ له كلام، وسيقول لكم: إني حُرٌّ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تُفسِدوا عليَّ عبدي.. قالوا: بل نشتريه منك. فاشتروهُ بعَشْرِ قلائص[2]. ثم جاؤوا، فوضعوا في عُنُق نُعيمانَ حبلاً، وأخبروه بأنهم اشْتَرَوْهُ، فقال لهم: إن هذا يَسْتهزِئُ بكم، وإني حُرٌّ. فقالوا: قد عرفنا خَبَرك! وانطلقوا به، فلما جاء أبو بكر أخبروه بذلك، فاتَّبَعَ القومَ، وردَّ عليهم القلائصَ، وأخذهُ منهم.. فلما قَدِمُوا على النبيّ، أخبروه، فضحك هو وأصحابُه من ذلك حَوْلاً[3]...

وفي أشعار العرب ذِكْرُ بُصْرى، ومَنْ حلَّ بها من الأَحِبَّة، أو ارتحل عنها[4]، كالذي قاله شاعرٌ من أهل نَجْد، يَحِنُّ إلى بلده، وهو نازلٌ ببُصْرى:

أيـا رِفْقـةً مـن آل بُصـرى تحمَّلـوا رسـالتَنـا، لُقِّيـتِ مـن رِفْقَـةٍ رُشْـدا
إذا مـا وصلتُـم سـالميـنَ، فبَلِّغُـوا تحيّةَ من قد ظنَّ أن لا يَرىٰ نَجْدا

---

(١) **نُعَيْمانُ بن عمرو الأنصاري**: صحابي، شهد بدراً وأُحُداً والخندق. كان مَزَّاحاً يُضْحِكُ النبيَّ، عليه السلام، وله في ذلك أخبار كثيرة. تُوفي بُعَيْد (٤١ هـ = ٦٦١ م).

(٢) **القلائص**: مفردها قَلُوص، وهي الناقة الشَّابَّةُ، الطويلةُ القوائم.

(٣) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي: ٤٧ ـ ٤٨، طبعة دار الشورى، بيروت ـ ١٩٨٣ م.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٤٤١.

وكقَوْلِ الصِمَّة بن عبد الله القُشَيريّ[١]:

نظرتُ، وطَرْفُ العينِ يتْبعُ الهوى بشَرْقيِّ بُصْرى، نظرةَ المُتَطاوِلِ
لأبْصِرَ ناراً أُوقِدَتْ بعد هَجْعَةٍ لِرَيَّا، بذاتِ الرِّمْثِ من بطن حائلِ[٢]

وقَولِ الرمَّاح بِن ميَّادة[٣]، يذكرُ خشيتَه من الفراق، إذا بلغت حَبيبتُهُ بُصرى، حيث يسكنُ أهلُها، وغُلِّقَتْ من دونها أبوابُ قصرها:

إذا هَبَطتْ بُصْرى تَقطَّعَ وَصْلُها وأَغْلَقَ بَوَّابانِ من دونها قَصْرا
فلا وَصْلَ، إلا أن تُقَارِبَ بيننا قلائِصُ يَحْسِرْنَ الطريقَ بنا حَسْرا
فيا ليتَ شعري هل يَحِلَّنَّ أهلُها وأهْلِيَ رَوْضاتٍ ببطنِ اللِّوَىٰ خُضْرا[٤]

وقد ذُكر أن الشاعر المُتَلمِّسَ، جرير بن عبد المسيح، كان نديماً للملك عمرو بن هند بالحيرة، فلما غضب عليه، وأمر بقتله، فرَّ إلى الشام، وسكن بُصرى، ثم مات بها[٥].

فهذه جُملةٌ من الأخبار والأشعار إن كان لها أن تَدُلَّ على شيءٍ، فعلى وَثاقَةِ عَلائق العرب بمدينة بُصْرى، في الجاهلية والإسلام، واطِّرادِ انتقالهم

---

(١) الصِمَّةُ بن عبد الله: من بني قُشَيْر، من عامر بن صعصعة، شاعر بدويٌّ غَزِلٌ، من شعراء العصر الأمويّ، ومن العُشَّاق المُتيَّمين. توفي نحو (٩٥ هـ = ٧١٤ م).

(٢) حائل: موضعٌ واسعٌ بأرض اليمامة، لبني قُشَير، وهو وادٍ أصلُه من الدَّهْناء. وذاتُ الرِّمْث: موضعٌ هناك.

(٣) الرَّمَّاحُ بن يزيد: وميَّادةُ أمُّه، وهو من بني مُرَّة بن عوف، من ذبيان، وكان فصيحاً يُحتجُّ بشعره، توفي نحو (١٤٩ هـ = ٧٦٦ م).

(٤) حَسَرَ: كشَفَ. اللِّوَىٰ: موضع ببلاد غطفان، وهو يتمنَّىٰ أن يرجع أهلُها وأهلُه للارْتباع في بطنِ اللوى، حيث كان يلقاها في مواسم الربيع.

(٥) الشعر والشعراء: ١٨٢، والأعلام: ٢/١١٩.

إليها، وإقامتهم بها، وشُهودِهم مواسمَ سوقها، ومُتَاجرتهم فيها، وقد لاحظنا من قبلُ، أن موسمها كان في الجاهلية يقوم خمسةً وعشرين يوماً، فصار في أيام بني أُميّة يقوم ثلاثين إلى أربعين يوماً. . وما من شك في أن معظم أهلها كانوا عَرَباً، ذكر المؤرخون منهم بني مُرَّة وبني فزارة، من قبائل قيس بن عيلان[1]، وذكروا أن طوائفَ منهم كانت من العرب المُتَنصِّرة. أمَّا نزولُ الرومان، ثم الروم بها، فأمرٌ طارىءٌ، ولكنه يُرَجِّحُ عندنا إحْسَانَ العربِ في بُصْرى لغةَ الروم إلى جانبِ العربيّة، وتأثُّرَهم بجوانبَ من حضارتهم، ولا سيما العمران ووسائل العَيْش، وأكثرُ العربِ تأثُّراً بذلك الأنباطُ والغساسنةُ.



المطلب السابع ـ سوقُ عَمَّان:

مدينةُ عمَّان عاصمةُ الأُردنّ، مَوْضعُ سُوق عمَّانَ الموسمية، مدينةٌ قديمة جدّاً ببلاد الشام، ذكر ياقوتُ أنها كانت قَصبةَ أرضِ البلقاء، على سِيفِ البادية، وربما كان الكهفُ والرقيمُ بالقُرب منها، وكانت بها مَزارِعُ وأنهارٌ وأَرْحِيَةٌ يُدِيرها الماءُ، وهي مَعْدِنُ الحبوبِ والأنعام[2].

ويذكر المؤرخون أن عمَّانَ هي مدينةُ «رَبَّةِ عَمُّون» عاصمة العَمُّونيين، وقد جُدِّدَ بناؤها، وأُعِيدَ عمرانُها في عهد الإمبراطور فيلادلفوس اليوناني (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م)، وتكريماً له سُمِّيت «فيلادلفيا»، ثم صارت من المدن المشهورة، التابعة للرومان في بلاد الشام، وكان يمرُّ بها طريقان قديمان،

---

(١) المفصَّل: ٣/ ٦٣.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٥١، ٣/ ٦٠، ٦١.

أحدهما يمتدُّ من بلاد الشام إلى بصرى، ثم إلى فيلادلفيا، وينتهي عند البحر الأحمر، والثاني من فيلادلفيا إلى جرش، فبُصْرى. وكانت من المدُنِ ذات الحصون القويَّة، والقِلاع المنيعةِ في أيام الرومان، وتدلُّ بعضُ الآثارِ المكتشَفَةِ فيها، أنها كانت بأيدي الأنباط سنة (٦٥ ق.م)، وما تزال بها آثارٌ مختلفةٌ رائعة، منها هيكلٌ، ومَعْبدٌ، ومَسرحٌ رومانيٌّ، وقلعةٌ على جبلٍ يُقال إنها قلعةُ جَالُوتَ الفلسطينيّ، الذي كان جبَّاراً قويّاً، لم يَقْوَ عليه أحدٌ من بني إسرائيل، إلا داود النبيّ، نازَلَهُ، وتمكَّنَ منه فقتله.. ويقعُ قصرُ القَسْطل، على عشرين ميلاً إلى الجنوب من عمَّان، وهو من بناء الملك الغسَّانيّ الحارثِ بن جَبَلة، وقيل بل هو من بناء الخليفة الأُمويّ الوليد الثاني بن يزيد.. وكان فتحُ عمَّانَ في الإسلام سنة (٦٣٥ م)، فتحها يزيدُ بن أبي سفيان[١]. وقد مرَّ بنا أن موسم سوقها كان يقومُ في العاشر من شهر آب (أغسطس)، ولا نعرف شيئاً عن مُدَّة قيامه، ولكننا نعرف أن أكثَرَ ما كان يتوافَرُ فيه من المحصولِ المحلِّيّ الحبوبُ والعَسَلُ والأنعام.

وأُحِبُّ أخيراً ألاَّ أُخْفِيَ مَيْليَ إلى الظنّ بأن موسمَ سُوقِ عَمَّان، ربما كان من مواسم الأنباط، إذا تذكَّرنا أن البتراءَ، أو الرَّقيمَ عاصمتَهم، قريبةٌ من عمَّان، وأن التجارة في تلك المناطق ظلَّت بأيدي تجَّارهم حتى ظهور الإسلام.

* * *

(١) المفصَّل: ٣/٥٨، ٣/٦٨ ـ ٦٩، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٢٧٧، ٣٩٥، و٢/١٢٥، ٢٠٢.

المطلب الثامن ـ سوق مَنْبِج:

تقعُ مدينةُ مَنْبج في الشمال الشرقيّ من مدينة حلب بالشام، على طريق رئيسَةٍ، تمتدُّ من أنطاكيةَ حتى حلب، وتمرُّ بمنبجٍ، حيث تَصْدُرُ عنها طُرُقٌ فَرْعيَّةٌ إلى عدد من النواحي[1]. وهي مدينةٌ قديمة، سمَّاها الآشوريُّون «نامبيجي»، واليونان «بامْبِيسه ـ BAMBYCE»، والرومان «هيراپولس ـ HIERAPOLIS» أي المدينة المقدَّسة، ذلك أنها كانت المركزَ الأكبر لعبادة الإله «حَدَد»، وكان بها أعظمُ معبدٍ له، وكانت عبادتُه في سورية منتشرةً بين الزُّرَّاع خاصَّةً، لأنه يَرمزُ عندهم إلى البرق والرعْدِ والزوابع، تَثُور فتأتي بالمطر، فتُخْصِبُ الأرض[2].. ويمكن أن نلاحظَ هنا علاقةً، ربما كانت بين هذا الإعتقادِ، وإقامةِ موسم مَنْبج في الأول من شهر أيلول ـ سبتمبر، وهو موعدُ قدوم الخريف.

هذا، وتأتي كلمةُ «نَبَجَ» بالآراميَّةِ، والسريانيَّة، بمعنى نَبَعَ، ولعلَّ منبج كانت قائمةً في الأصل على عُيون ماء! وقد وصفها ياقوتُ بأنها مدينةٌ كبيرةٌ واسعة، ذاتُ خَيْراتٍ كثيرة، وأرزاقٍ كبيرة، تقوم على فضاءٍ من الأرض، وحولها سُورٌ مبنيٌّ بالحجارة، مُحْكَمٌ، يشربُ أهلُها من قُنِيٍّ تَسِيحُ على وجه الأرض، وفي دُورِهم آبارٌ مِيَاهُها عَذْبَة[3].

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فتح المسلمون مَنْبج، بعثَ أبو عبيدة بنُ الجرَّاح عِيَاضَ بنَ غنم إليها، ففتحها صُلحاً سنة (١٦ هـ =

---

(١) خريطة أثر روما في بادية الشام.

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/١٨٦، و٢/٢٢.

(٣) معجم البلدان: ٥/٢٠٦.

٦٣٨ م)، وقيل إن عمرو بنَ العاص هو الذي فتحها[1]. وفي زمان يزيد بن معاوية جُعِلت منبجُ مع أنطاكية وقِنَّسْرين جنداً واحداً، فلما استُخلِفَ الرشيدُ كان أوّلَ مَن أَفْرَدَ منبج، وجَعَلَها مدينةَ العَواصِم، أي حِصْناً منيعاً، يعتصمون بها، فتَعصِمُهم، وتمنعُهم من العدوِّ إذا غزاهم[2].. ومنبج بلدُ الشاعرِ البحتريّ[3]، بها مولدهُ ووفاتُه[4]، ومنزلُ الشاعرِ أبي فراس الحمداني[5]، كان أميراً عليها لابن عمه سيف الدولة[6].. وإيَّاها أراد المتنبي بقوله:

قَيْــلٌ بمنبــجَ مَثْــواهُ ونــائِلــهُ   في الأُفْـقِ يسـألُ عمَّـن غيـرُه سـألا

وإليها يُنسَبُ الكسَاءُ المَنْبِجانيُّ[7].

* * *

المطلب التاسع ـ موسم الأنباط:

نذكرُ، من غير شك، أننا في تحقيقنا المواسمَ العامَّةَ للأسواق في بلاد

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٧٥، وفتوح البلدان: ١٥٥.
(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٦٥.
(٣) أبو عُبَادة البحتري: الوليد بن عبيد الطائي، (٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ)، شاعر كبير، يقال لشعره «سلاسل الذهب»، وكان مع أبي تمام والمتنبي أشعر أهل زمانهم.
(٤) الأعلام: ٨/ ١٢١.
(٥) أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد التغلبي: (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ)، شاعر، أمير، شجاع من القادة، أسره الروم في معركة، ثم فداهُ سيف الدولة بأموال عظيمة. كانت له منبج وحرَّان، مات مقتولاً.
(٦) الأعلام: ٢/ ١٥٥.
(٧) معجم البلدان: ٥/ ٢٠٦.

الشام، لم نجد عند القدماء سوى إشارةٍ إلى سوقٍ للأنباط[1]، كان موسمُها ينعقدُ كلَّ سنة مرَّةً، حينما يصِلُ تُجَّارُهم إلى المدينة بالحجاز، وقد شَهِدَها هاشمُ بن عبد مناف أواخِرَ القرن الخامس للميلاد، لمَّا خرج في عِيرٍ لقريش، وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسوق النَّبَط، فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة، يحشدون لها، فباعوا واشْتَروا.

فإذا كانت جِيئَةُ تُجَّار الأنباط إلى المدينة موسماً، يُقام فيه سوقٌ، يبيعون فيها ويشترون، حتى سُمِّيَ موضعُ نزولهم بالمدينة سوق النَّبَط، فما الذي يمنع من الإفتراض بأن يكون للأنباط سوقٌ موسميَّةٌ كبرى، كانت تقومُ في عاصمة بلادهم البتراء، ويَشْهَدُها العربُ وغيرُ العرب؟ ذلك أن مدينة البتراء كانت مركزاً حَيَوِيّاً وتجاريّاً خطيراً على طرُق القوافل، تُسَيْطِرُ من موقعها على الطرُق المؤدِّيَةِ إلى مرفأ غَزَّة على البحر المتوسط، وأيْلَةَ على البحر الأحمر، وبُصْرى ودمشق في بلاد الشام، وتَبُوك ويثرب في بلاد العرب، فكان لا بُدَّ للقوافل أن تَنزِلَ بها، للتجارة، أو للراحة والزَّادِ، واستبدال الإبِلِ المُتْعَبَة.

---

(١) الأنباطُ والنَّبَطُ: على وزن الأحباش والحَبَش، والأعراب والعرب. والنَّبَطُ في الأصل: الماءُ يَنْبُطُ من قعر البئر إذا حُفِرَتْ، واسْتَنْبَطَ الماءَ: اسْتخرَجه، واسْتَنبط منه العلمَ: تلقَّاهُ وأخْرَجَهُ. ويبدو أن العرب اعتادتْ تسميةَ أهل القُرى بالنَّبَطِ والأنباط، لأنهم كانوا يُحْسِنُونَ اسْتِزْراعَ الأرض، واستخراج غَلَّاتها، واستنباطَ المياه، وجباية المال.. وفي حديث عُمَر، رضي الله عنه: لا تَنَبَّطُوا في المدائن.. أي لا تَشَبَّهوا بالنَّبَطِ في سُكْنَاها، واتخاذِ العَقَارِ والمِلْكِ. وكانوا يُسَمُّون عَرَبَ السَّوادِ بالعراق نَبَطاً وأنباطاً. ومثلُه حديثُ عمرو بن معد يكرب، سأله عمرُ عن سعد بن أبي وقاص فقال: أعرابيٌّ في حِبْوَته، نَبَطيٌّ في جِبْوَته! أراد أنه في جباية الخراج وعمارة الأرض كالنَّبَطِ حِذْقاً ومهارةً بها، لأنهم كانوا سكانَ العراق وأرْبَابَها.

ويُرَجِّح هذا الإفتراضَ أنه كان فيها مَعْبدٌ دينيٌّ، نُصِبَ فيه صَنَمُهم «ذو الشَّرَى» على قاعدةٍ كُسِيَتْ ذَهَباً، في بيتٍ مُوَشًّى بالذهب أيضاً، يُسَمُّونه «بيتَ الربِّ، أو بيتَ ربِّ الأرْباب»، وكان الناسُ، في موسم مُعيَّنٍ من السنة، يَحجُّون إليه من أَمَاكنَ بعيدةٍ، وينحرون عندهُ الذَّبَائحَ قُرْباناً له، ثم يعودون إلى بلادهم بعد قيامهم بالمناسك وانقضاء الموسم. وكان «ذو الشَّرَىٰ» يرمزُ إلى الإله الشمس[1]، الذي يفرق بين الليل والنهار، ولم يكن خاصّاً بالأنباط فقط، بل كانت تُشَاركهم الحجَّ إليه في موسمه، والتعبُّدَ له، قبيلةُ الأَوْسِ وبعضُ قبائل العرب[2]. . .

وقد ذكر جواد علي أن هذا الموسم كان يقوم في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) من كل سنة[3]. . غير أنني أشكُّ في صواب هذا الموعد، لأن الموسمَ قديمٌ جدّاً، وكانونُ الأوَّل (ديسمبر) كان الشهرَ العاشِرَ في السنة القديمة، وهو ما يدلُّ عليه إسْمُه (ديسمبر)[4]، قبل أن يُنقل في التقويم الغريغوري إلى الشهر الثاني عشر، وذلك نحو سنة (١٥٨٢ م). . . هذا، والأنباطُ كانوا يأخذون في حساب الأزمنة بالتقويم السرياني، وهو بابليٌّ في أساسه، وكان شهرُ تشرين الأول (أكتوبر) مُخصَّصاً عند البابليين بعبادة الإله الشمس، وكان مُحرَّماً عندهم، وهو الشهرُ الأوَّلُ في السنة المدنيَّة. وعلى ذلك، فأنا أُرجِّح أن موعدَ هذا الموسم كان في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، أي أواخِرَ شهر صفر الأوَّل (المحرَّم) في

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٤١٨، ٤٢٨، وتاريخ العرب: ١١٠.

(٢) تدمر والتدمريون: ٢٩٧، ومحيط المحيط: ٤٦٤.

(٣) المفصَّل: ٦/٤١٥ ـ ٤١٦.

(٤) البادئة «DECA» معناها عشرة.

التقويم العربي القمري، ولعلهم كانوا يُقيمون خِلالَه سُوقاً لتجاراتهم وتجاراتِ مَن كانوا يأتُونَهم في الموسم.

* * *

وهنالك رواية تاريخيَّةٌ أُخرى، أَشَدُّ خَطراً، نقلها جواد علي عن بعض المؤرِّخين القدماء، ذكرت أن الأنباط كانت لهم غابَةٌ من أشجار النخيل، في ركنٍ على البحر الأحمر، يُقدِّسُونَ أرضَها. وكان لهم بها مَعْبدٌ دينيٌّ، مَبْنيٌّ بالحجارة، عليه سَدَنَةٌ وحَجَبَةٌ، وكانوا يحجُّونَ إليه، ويَنْحرون عندهُ الأنعام، يتقرَّبُونَ بها إلى الآلهة. وجاء في إحدى الروايات، أن الحجَّ إلى هذا البيت، كان مرَّتَيْن في السنة، إحداهما في الشهر الأول منها، والأُخْرى في نهاية الصيف، مُدَّتُها شهرانِ، وكانت الشهورُ الثلاثةُ مُحرَّمةً، يَعُمُّ فيها الأمنُ والسلامُ. . وكانوا في عودتهم من الحجِّ، يحملون معهم ما تَيَسَّرَ لهم من مياه المعبد، تَبرُّكاً وإيماناً بأنها تمنَحُ شارِبَها الصحة والشفاءَ، وذلك على شاكلة الحُجَّاج إلى مكة في تبرُّكهم بمياه بئر زَمْزَم، واسْتِقَائهم منها، وحَمْلِ شيءٍ منها في رحلة العودة. ولولا تعيينُ المؤرِّخين موقعَ ذلك المعبدِ على البحر الأحمر، في غابةٍ من النخيل، لحسبناه بمكة، لما بين المعبديْنِ وشعائرِ الحجِّ فيهما من مُشَابَهةٍ! ثم أضاف جوادُ عليّ إلى ذلك قوله: «. . ويُلاحَظُ أن النَّبَط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشْهُرِ الحرُم سُوقاً، تُذكِّرُنا بسوق عكاظ، التي كان يَعْقدُها أهلُ الحجاز. . .»[1].

ومن المعلوم أن الشهر الأوَّلَ في السنة الدينية عند السِّرْيان والبابليين كان يقع في نيسان (أبريل)، وهو الشهر السابعُ في السنة المدنيَّة التي تبدأُ في

(١) المفصَّل: ٦/٣٩٦.

تشرين الأول (أكتوبر)[1]. أمَّا الشهرانِ اللذان يأتِيَان في آخِر الصيف فَهُما آبُ (أغسطس)، وأيلول (سبتمبر)، وفي اعتقادي أن ذلك كان مُمَاثلاً تماماً لما عند العرب في الحجاز، فشهر رجب كان الشهر الأوَّلَ في السنة العربية، ثم صار السابعَ في تعديل لاحق، وشهرا ذي القعدة وذي الحجة آخِرُ الصيف، والشهورُ الثلاثةُ مُحرَّمةٌ، ثم حُرِّمَ معها شهرُ صَفَر الأوَّل، لمَّا نُقِل إليه رأسُ السنة العربية في تطوُّرٍ لاحِقٍ. . . وإذا صَحَّتْ هذه المعلوماتُ، نكون قد كشفِنا عن موسمين كبيرين للعرب الأنباط، أحَدُهما كان في البتراء، والآخَرُ ربما كان بمِدْيَنَ على البحر الأحمر، حيث كانت حدود مملكتهم.

* * *

المطْلَبُ العاشر ـ موسم العيد السنَويّ في تدمر:

وكان يقعُ في اليوم السادس من شهر نَيْسَان (ابريل) في كل سنة، وكان موسماً عظيماً، يُضْفُونَ عليه كثيراً من الجَلال والقدسيَّة، ففي مثل هذا اليوم تمَّ تكريسُ معبد «بل»[2]، وهو أكبرُ معابِد تدمُر، وبيتُ أربابها، ووُجِدَتْ فيه كتابةٌ باليونانية تُسمِّي هذا اليومَ باليوم الطيِّبِ، أو المُبَارك. . وكان الإحتفالُ بعيد السادس من نيْسان يجري في هذا المعبد، وكان الإلهُ «بل» من أرباب بلاد الرافديْن، فكان بناةُ بيته، وأكثَرُ الناسِ حماسةً لعبادته من قبائل العرب المقيمةِ في تلك البلاد، وكانت الطقوسُ المتَّبَعَةُ في النُّسُكِ له، كالطَّوَافِ والموْكبِ والقُرْبَان، عربيَّةً خالصةً، معروفةً عند العرب من أيام الوثنيَّة الأولى.

---

(١) أسماء الأشهر: ٢٩.

(٢) بِلْ: هو نفسُه «بَعْلٌ» الربُّ المعروفُ عند الساميِّين.

وكان للمعبد صحنٌ تبلغ مساحتُه أربعين ألف متر مُربَّع، وكانت أعمدتُه وأبوابُه ومَبَاخِرهُ وكؤوسُه وصَوَانيه كلُّها من الذهب، وكانت قبائلُ العرب، كلما أَزِفَ موعدُ قيامه، تُوافيه من كلِّ الجهات، وتدخل تحت أرْوَقتِه الواسعة، التي تتَّسِعُ لعشرات الألوف من المتعبِّدين، وقد ارتدَوْا أفْخرَ ما عندهم من الثياب، وتطيَّبُوا بأذكىٰ ما يملكون من الطيُوب، والرجالُ رَجَّلُوا شُعورهم، وأخذوا من لحَاهم، والنساءُ ازيَّنَتْ بأحْلى زينةٍ وأبهاها! وتجمَّعَ عند كلِّ مدخلٍ وزاويةٍ باعَةُ العُروضِ والسِّلَعِ المتنوِّعَةِ، من طيُوبٍ وإيقوناتٍ وزهور ومطاعِمَ وغير ذلك. .

وكانت النُّذُورُ من الأنعام تُسَاقُ إلى المذبح الكبير بالمعبد حيث يُقدِّمها أصحابُها قرابينَ، ورائحةُ البخُورِ والندِّ والآسِ وغيرها من صنوف الطيب، تصَّاعَدُ من المبَاخِر والمذابحِ وتملؤُ جَوَّ المعبد بالروائح العطرة. وإلى جانب ذلك كانت الخمورُ الممزوجةُ بالعَسَل تُراق على اسْم الربِّ، وأواني الطقوسِ وآلاتُها تُغْسَلُ في الحوضِ المقدَّس.

وقد عُثِر على صورةٍ للطواف، حُفِرَتْ في جِسْرٍ حجريّ كبيرٍ كان في سقفِ رُوَاقٍ بالمعبد، وهي تُمثِّل جَمَلاً، عليه قبَّةٌ حمراءُ، يقودُه سادنٌ من سَدَنة المعبد، وأمامه وخَلْفَه رجالٌ يرفعون أيديهم. . . وكان من عادتهم في هذا اليوم، أن يَنْزِلوا بصَنَم «بل» من محرابه، ويحملوهُ على سرير مذهب، ويتَّجِهون به إلى مُنْحدَرِ الهيكل في الباحة الكبرى، ثم يجعلونه على جَمَلٍ كريمٍ، ويطوفون به حول الهيكل، ووراءَهُ نساءٌ مُحجَّبَاتٌ وسَدَنَة.

ولا شك في أن هذه الطقوسَ حينما تنتهي، يَعْقُبها لَهْوٌ ولعبٌ ورقصٌ وشرابٌ على نحو ما يكون في الأعياد غالباً. ويجب أن نذكر أنَّ الأضحيات التي كانت تُذبح بأيدي كَهَنَةٍ، مُغْتَسِلينَ، مُتطهِّرين، يحملون سكاكينَ نظيفةً

خاصّةً، كانت تُولَمُ عليها وليمةٌ مُقدَّسةٌ في غرفةٍ مُعَدَّةٍ لذلك، ولا يدخلُها إلا كِبَارُ الكهنة وعِلْيَةُ القوم. وفي غرفة الوليمة كان المدعوُّونَ يَسْتلقُون فيها على طنَافِسَ، وُضِعتْ فوق مقاعِدَ حجريَّةٍ إزاءَ الجدران، جُعِلَتْ بشكلٍ نصْفِ دائري، فَتْحَتُهُ حِيَالَ الباب، وفي الصدر يجلس رئيسُ المائدة، واسمه عندهم: «رَبُّ مَرْزَحا»، والمَرْزَحُ في العربية: المطمئنُّ من الأرض، ولعلَّها في التدمرية تعني القاعةَ. وفي القاعة عددٌ من المبَاخِر والمذابح من الحجَرِ والمعدن، وفي أحد أركانه جرنٌ حجريٌّ، إسمُهُ في التدمرية: جباتا، وفي العربية: جابية، وهو حَوْضٌ يُجْبىٰ فيه الماءُ أو الخمر، وكان في تدمُرَ يُمْلَؤُ خمراً، فيَغْرفَ منها المدعوُّون بأكوابٍ ضِخَام، ويتناولون الأطعمة التي أُعدَّتْ لهم في هذه المناسبة[1].

---

(١) تدمر والتدمريون: ١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣.

الباب الخامس

مواسم أسواق العراق

- حديث أسواق العراق

الفصل الأول: موسم سوق الحيرة

الفصل الثاني: سوق الخنافس

موسم دير الخنافس

الفصل الثالث: سوق الكبَاث

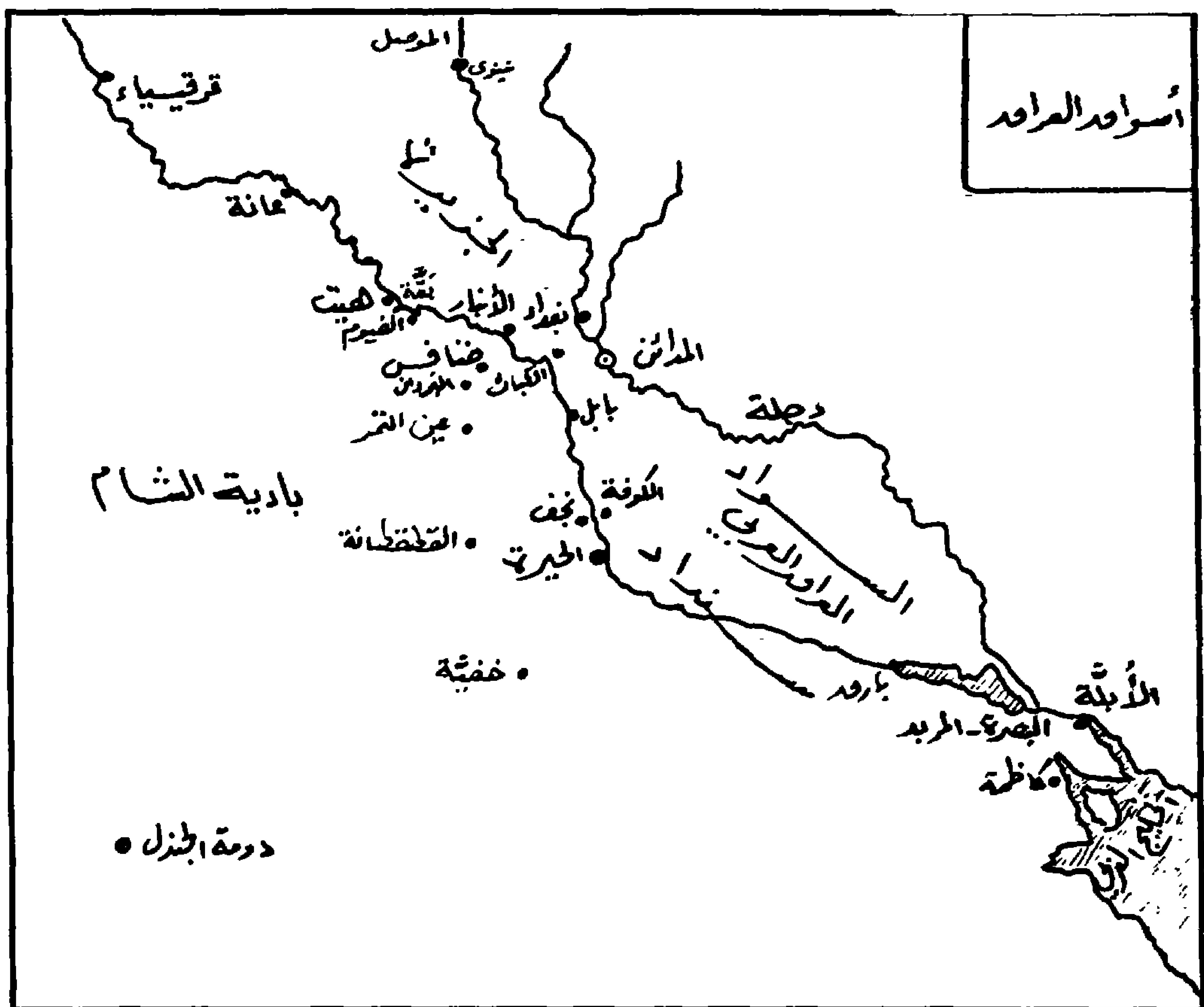
الفصل الرابع: مواسم أعياد بعض الأديرة بالعراق

الفصل الخامس: سوق المِرْبَد بالبصرة

حديث أسواق العراق

لم نجدْ في حديث المواسم العامّة الكبرى عند العرب، ذِكْراً صريحاً، ومُفَصَّلاً، للمواسم التي كانت تقومُ بالعراق في عصر الجاهلية، وفي اعتقادنا أنها كانت كثيرةً، لما كان للحيرة يومئذٍ من خَطَرِ الموقع والمكانة. وكلُّ ما وجدناهُ في هذا الصَّدَدِ أربعُ إشاراتٍ فقط، إلى سَتِّ أسواقٍ كانت تُقامُ هناك، على ضِفَافِ الفُراتِ، بين السَّوادِ والجزيرة، في مواسِمَ مجهولةٍ، تَذْكُرُ إحداها موسمَ سوقِ الحِيرة، والثانيةُ موسمَ سوقِ الكَبَاثِ، والثالثةُ موسمَ سوقِ الخنافِس، والرابعةُ أسواقاً كانت في بَقَّةَ والأَنْبارِ والأُبُلَّةِ بين دُورِ العرب ودُورِ العجم.. ولم يكن وراءَ هذه الإشاراتِ أخبارٌ كافيةٌ عمَّا كان يجري فيها، غير التجارة، وهو ما جعلَنا نَجْتزِىءُ بثلاثِ أسواقٍ منها يمكننا التحقيقُ في مواقعها، والبحثُ عن مواعيدها، والإستعانةُ بما تَيَسَّرَ لنا من أخبارها، على قِلَّتِهِ، لمعرفة بعض ما كان يجري فيها.

وقد اضْمَحلَّتْ تلك الأسواقُ الثلاثُ بالفتح الإسلامي لبلاد العراق، ونشأتْ بعد ذلك في طَرَفِ البصرة، بالمِرْبَدِ، حيثُ سوقُ الإِبِلِ، سوقٌ دائمةٌ، عامَّةٌ، غيرُ موسميّة، كان للعرب منها مثلُ ما كان لهم من عكاظ في عصر الجاهلية، فكان فيها سياسةٌ، وخطابة، وشِعْرٌ، ومفاخراتٌ، ومُنَافَرات، ونَحْوٌ وبلاغةٌ، وكان فيها أيضاً مُتَنَزَّهاتٌ يُرَوِّحُون بها عن أنفُسهم.



وكنتُ ذكرتُ آنفاً أن المتاجرة ببلاد العراق كانت، كما في بلاد الشام، تُسْتَوفىٰ عنها ضريبةٌ مُعيَّنةٌ، غير أننا نلاحظُ في العراق أسلوباً مختلفاً في مِقْدارِ الضريبة، وكأنه لم تكن هنالك عُشُورٌ، أي اسْتِيفَاءُ العُشْرِ من قيمة السلعة، بل ضريبةٌ مقطوعة، دليلُها قولُ الشاعر:

وفــي كــلِّ أســواقِ العــراق إتَــاوَةٌ ... وفي كلِّ ما باع امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ(١)

والمكْسُ لفظةٌ آراميةُ الأصل، معناها الضريبةُ التي يستوفيها الماكِسُ

---

(١) المفضّليات: ٢١١، والمفصّل: ٧/ ٤٧٢، ٤٧٣، و٨/ ٧٢٢.

من بائعي السِّلَع، وهي هنا كما يبدو درهمٌ واحدٌ عن كلِّ سلعةٍ يبيعها التاجِرُ، ويَسْتوي في ذلك كلُّ أسواقِ العراق، وقد عَدَّها الشاعِرُ إتَاوَةً لأنها خَراجٌ، يجبُ على التاجر إخراجُه من ماله إذا تاجَرَ في هذه الأسواق، وأداؤُهُ إلى الوُلاَةِ. وبينما كانت حكوماتُ الشام تُوَلِّي من يَعْشُرُ التجَّارَ، على الطريق، لدُنْ دُخُولهم حُدودَها، فإن حكومةَ العراق كانت تجعلُ هذه الضريبةَ أحياناً طُعْمةً لبعض القبائل، على سبيل المُقَارَبة والتألُّفِ، أو بسبب المصاهرة، ومثالُه أن النعمان بنَ المنذر جعل رَيْعَ الطريق طُعْمةً لبني لأم بنِ عمرو، من بني طَيِّىءٍ، إذ كانوا أصْهارَه[1]، فكانوا بهذا التدبير يَسْتَوفُون ضريبة الطريق من التجَّار لأنفُسِهم، وليس للحكومة..

ويبدو أن أرضَ السوق، إذا كانت مِلْكاً لقبيلةٍ، أو لفَرْدٍ واحد، فإن من حَقِّهِ أن يستوفيَ الخَراجَ من التجَّار إذا تاجَرُوا فوقها، ومن حقِّه كذلك أن يَضَعَ عنهم هذا الخرَاج، وهو ما يُفهم من خبرٍ ساقَهُ ابنُ حبيب، ذكر فيه أن عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، من بني عبد شمس بن عبد مناف، كانت له حِيَاضُ عَرَفات، وكذلك سوقُ البصرة، اشْتراهُ من ماله، ووَهَبَهُ لأَهلِه، فلا خَراجَ عليهم فيه[2].

ولا شك في أن التجارات التي كانت تُعْرضُ في أسواق العراق، هي ما كان يُعْرَضُ في سائر أسواق العرب، وتشملُ ما ينبتُ أو يُصْنع في العراق، وما يُنقل إليه من عُروض بلادِ العرب، والشرقِ الأقصى والهند وإيران وغيرها من البلدان المجاورة. وقد اشتُهرتِ الحيرةُ بعدد من الصناعات،

(١) الأغاني: ١٧/ ٢٨٣. والأَصْهَارُ: أهلُ بيتِ المرأة، والأَخْتَانُ: أهلُ بيت الرجُل، وربما سُمِّي بها أهلُ المرأة أيضاً.
(٢) المحبَّر: ١٥٠.

منها: الخمرُ، والآنِيَةُ، والفُرُشُ الفاخِرةُ من الوَشْي والخَزِّ[١]، ومنها: الإثْمِدُ المنسوبُ إليها، وهو كحل للعيون، قال فيه الشاعر:

كـــأنَّ الإثْمِـــدَ الحـــارِيَّ منهـــا   يُسَـفُّ بحيـث تَبْتَـدِرُ الـدمـوعُ[٢]

ومنها أيضاً: الرِّحالُ الحارِيَّةُ، التي تُطرح على ظُهور الإبل والأفراس، والأَنْماطُ الحارِيَّةُ، وهي ضربٌ من البُسُط لها خملٌ رقيق، تُصنَعُ من الصوف، ويكون لونُها الأحمر أو الأخضر أو الأصفر، فإن كان الأبيضَ فلا يُقال لها أنماط، وإلى ذلك تُنسب إليها السيوفُ الحاريَّةُ[٣]. كما اشتهرت الحيرةُ بتربية الإبل النجائب، ومنها عَصَافيرُ المنذر، وعَصَافيرُ النعمان، والعَصْفُوريُّ جَمَلٌ ذو سَنَامَيْن[٤]. . ولا شك أنَّ في العراق أشياءَ أُخَرَ غيرُ ما ذكرنا، لعلَّ أظْهَرَها مواسمُ الأعياد في أَدْيرَةِ النصارى، وسنذكر طَرَفاً منها. . .

(١) الأغاني: ٢/ ٣١١.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٣٢٨.
(٣) لسان العرب: ٤/ ٢٢٥ (حير)، و٧/ ٤١٧ (نمط).
(٤) تاج العروس: ١٣/ ٧٧ (عصفر).

الفصل الأول

موسمُ سُوقِ الحِيرة

المطلب الأول ـ مملكة الحيرة:

الحيرةُ مدينةٌ قديمة مشهورة، كانت على ثلاثة أميال جنوبيَّ الكوفة، على مَوْضعٍ بين بحيرة النَّجَفِ وتُخُوم البادية. أرضُها خصبةٌ، تسقيها فروعٌ من نهر الفرات، ثم تَصُبُّ في النَّجَفِ. وكانوا يقولون لها الحيرةُ الرَّوْحاءُ، لِسَعَتِها. والنِّسْبةُ إليها حارِيٌّ، على غير قياس، وحِيرِيٌّ على القياس(١). عُرِفَت عند العرب بالمُنَاخِ الجيِّد، والطبيعةِ الطيِّبَةِ، فأَحَبُّوها، وتَغَنَّى بها شعراؤهم، وكَثُرت فيها المَلاذُّ والملاهي والقَيْنَاتُ والحانات، فصارت مَقْصِفَ العرب، ومَهْوَىٰ أفئدتهم، ومَطْرَحَ آمالهم. وكان بها قصرُ الخَوَرْنَقِ، على مِيلٍ منها في شرقيِّها، وقصرُ السَّدِيرِ، في وسط البادية بينها وبين الشام. وكانت منزلَ مُلوكِ العرب، في الجاهلية، من بني لخم(٢).

وقد كان العربُ بالحيرة منذ أيام الملك البابليِّ بخت نصر (٦٠٥ ـ ٥٦١ ق.م)، أي قبل قيام قورش بإيران بنحو خمسين سنةً، وكانت الحيرةُ

---

(١) معجم البلدان: ٢/٣٢٨.

(٢) لخم: هو مالك بن عديّ، جدٌّ جاهليٌّ، وأبو قبيلة هاجرت من اليمن، واستقرَّت في العراق، ثم أنشأت بالحيرة دولةَ المناذرة، أنشأها بنو نصر بن ربيعة، من بني نمارة بن لخم، ويقال لها أيضاً دولة بني نصر.

والأنبارُ بُنِيَتا في زمن بخت نصر[1]، ولمَّا مات انضمَّ عربُ الحيرة إلى أهل الأنبار، فخَرِبَتِ الحيرةُ لتحوُّلِ أهلها عنها، إلى أن نزلها عمرو بنُ عديّ بن نصر، واتَّخَذَها عاصمةً لمُلْكِ بني لَخْم، فعُمِرَتْ وازدَهَرتْ.

وكان أوَّلَ من تَملَّك على العرب بأرض العراق مالكُ بن فَهْم الأزديّ، ولمّا هَلَكَ، خَلَفَهُ إبنُه جذيمةُ بنُ مالك، الشهيرُ بالوضَّاح، وبالأبْرشِ، لِبَرصٍ كان به، ثم مات، فانتقل المُلْكُ من بعده إلى ابن أخته، عمرو بن عديّ، فكان أوَّلَ مُلوكِ بني لَخْم بالعراق، وهم الذين عُرِفوا باللخميِّين، وبالمناذرة أيضاً، ويُخْطىءُ من يحسبُ مملكتَهم إنما هي مدينةُ الحيرة فقط، لأنها كانت في الحقيقة دولةً كبيرةً، حاضِرتُها الحيرةُ، ومن نواحيها الأُبُلَّةُ، وخَفِيَّة، وبارقُ، وسِنْدادُ، والنَجَفُ، والأَنْبارُ، وبَقَّةُ، والفَيُّومُ، وهيتُ، وعينُ التمر، والقُطْقُطانةُ، ومعظمُ الضفَّةِ الغربيةِ للفرات إلى أطراف البادية. وكان سُكَّانُها بُطوناً كثيرةً من مُعْظم قبائل العرب، أَشْهَرُها: بنو لخم، وكندةُ، وقُضاعةُ، وإيَادُ، وربيعةُ، ومُضَرُ، وبكرُ بنُ وائل، وتميمٌ، وطيِّءٌ، وكلبٌ، والسَّكُون، والعِبَادُ، وغيرُها[2]... فكان فيها من كلِّ العربِ تقريباً، وكانت الحيرةُ واسِطةَ العِقْد.

المطلب الثاني ـ التجارةُ والعمران في الحيرة:

يُعَدُّ مَوْقعُ مدينةِ الحيرة موقعاً حَسَناً للتجارة وقوافِلها، ومَوْضعاً طيِّباً لِراحَةِ التجَّارِ والمسافرين، لما كانوا يجدونه فيها من المنافع والمرافق، إلى ما فيها من رفَاهَةِ العيش ولذَّاته.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣.

(٢) تاريخ الطبري: ١/ ٦٠٩ ـ ٦١٠، ٦١٢ ـ ٦١٣، ٦٢٧، و٢/ ٤٢ ـ ٤٣، والكامل: ١/ ٣٤٠، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١. أنظر خريطة أسواق العراق.

وكانت بضائعُ الشرق الأقصى والهند تُنقل إليها عبر ثَغْرِ الأُبُلَّة على الخليج العربي، ثم تُنقل منها مع عُروضِ إيرانَ، وما اشتُهِرت به الحيرةُ من الصناعات، إلى سوريَّة، وشواطىء البحر الأبيض. وكانت القُطقُطانة طريق من أراد التوجُّه إلى أذْرِعاتٍ فدمشق، وكانت عينُ التمر، فالخَفِيَّةُ، طريق من أراد بُصْرى[1]. وكان ملوكُ الحيرة يُجهِّزُون القوافِلَ بالتجارات النَّفِيسة، ويُرسِلونها إلى أسواق العرب، فتُباع فيها، ويُشْتَرىٰ لهم بأثْمانِها ما يحتاجون إليه من أنواع الأَدَم والحرير والبُرودِ وغيرها.. وكان بين أهلِ الحيرة وأهلِ مكة علائقُ تجاريَّةٌ وَثيقةٌ، بل ثَقَافيَّةٌ أيضاً[2]، فقد كان لأهل مكة والطائفِ رحلاتٌ تَتكَرَّرُ إلى الحيرة، فتعلَّموا خلالها الكتابةَ من أهلها، وحَمَلُوا منها الخطَّ العربيَّ إلى مكة[3].. ويُقال إن أهل الحيرة أخذوا الخَطَّ عن أهل الأنبار، وحين نَزَلَ خالدُ بنُ الوليدِ الأنْبارَ رأى أبناءَها يكتبون العربيةَ ويتعلَّمُونَها، وذكروا له أنهم أخذوا ذلك عن بني إياد[4].

وكان لتُجَّارِ الحيرة أحْلافٌ من تُجَّارِ مكة، فكان أحَدُهم إذا قَدِم مكةَ، نَزَلَ فيها على حَليفِه، فباع واشترى، ثم عاد إلى الحيرة سالماً غانماً. وكان تُجَّارٌ من الحيرة ومكة يُقيمون بينهم شركةً، تُتاجِر في البَلَدَيْن، وربما في مواضِعَ أُخَر، ثم تجري المحاسبةُ بينهم، فيقتسمون الأرباح، أو يحتملون الخسائرَ، وفاقاً لما اتفقوا عليه[5]. وكان لبعض الحِيريِّين وكلاءُ من قريش، يَكِلُونَ إليهم أمرَ التجارة في أسواق مكة نِيَابةً عنهم، وكان لبعض تُجَّار قريش

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٢) المرجع نفسه: ٧/ ٣٣٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٤١٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٥، ومصادر الشعر الجاهلي: ٢٤.

(٥) المفصَّل: ٧/ ٢٩٧، ٤٠٨.

وكلاءُ أيضاً من الحِيريِّين، يَتَولَّوْنَ لهم أمر المتاجرة في أسواق الحيرة[١].

وهنالك أخبار تاريخيَّة تُشير إلى قوافل تجاريةٍ، كانت تُسَيَّرُ من الحجاز إلى الحيرة، وجاء في بعضها أن أبا سفيان بن حرب كانت له علائقُ طيِّبةٌ بتُجَّارِ الحيرة ورؤسائها، وحتى بملوكها، وكان يُهادِيهم ويُهادُونَه الألْطافَ والتُحَفَ، وقد عُرِفَ عنه تَرَدُّدُهُ إلى الحيرة، بقوافِلَ تحملُ عُروضَ الحجاز واليمن، وتعودُ بما في سوق الحيرة من تجاراتٍ يرغبُ فيها أهلُ الحجاز واليمن[٢]. وذُكر أيضاً أن مُسَافِرَ بن أبي عمرو بن أمية القُرَشيَّ، وهو من رجال مكة المعْدُودِينَ جُوداً وشِعراً وجمالاً، كان ممن يُتاجِرون في الحيرة، وقيل إنه كان ينزلُ فيها ضيفاً على الملك النعمان بن المنذر، فتُضْربُ له قُبَّةٌ حمراءُ من أدَمٍ تكريماً، بجوار الملك، وكان موتُه في الحيرة[٣].

وقد اشتُهِرَ أهلُ الحيرة عامَّةً بنشاطهم إلى المتاجرة، فكانوا يجوبون البلادَ القريبة والبعيدةَ، ويُتاجرون في أسواق العرب وغيرها، حتى قيل فيهم: إنك لن تجدَ في الأرض بلداً ليس فيه حِيريٌّ! ومن هنا صارت الحيرةُ نفسُها سوقاً معروفةً، ومطلوبةً، يأتيها التجَّارُ من مختلف الأمكنة للبيع والشراء. كما عُرِف عن الحِيريّينَ أيضاً حِذْقُهمُ الصِّرافَةَ، وهي بيعُ الفُلوسِ بالفُلوس، ويُحكى أن أحدهم، وكان يتعاطى الطبَّ، سئل: ما لأهلِ الحيرةِ والطبّ؟ عليكَ ببيْع الفُلوس في الطريق[٤]..

وكان أهلُ الحيرة، على العُموم، أكثرَ ارْتقاءَ وحضارةً من عرب

---

(١) المفصَّل: ٤/ ١١٤.

(٢) المرجع: ٧/ ٢٩٤.

(٣) المرجع: ٧/ ٢٩٥.

(٤) المرجع: ٧/ ٢٩٦.

الحجاز، ولم يكن ذلك لمجاورتهم إيرانَ، بل لأنهم كانوا وَرَثَةَ الحضارات البابلية واليونانيَّة، شأنُهم في ذلك كشأن الفُرس أنفُسِهم.. وكانت النصرانيةُ تغلبُ على كثير منهم، فكان بعضُهم يخرجُ مُبشِّراً بها، وداعياً الناسَ إليها، وعُرِفَ عن عَددٍ من مُلوكها ورؤسائها تَوفُّرهم على بناء الأَدْيرة الكبرى، كالمنذرِ الأوَّلِ بن النعمان الأول، صاحبِ قصر الخَوَرْنَق، وباني «دير حنّه»، وهندٍ بنتِ الملك النعمان الثالث صاحبةِ «دير هند»[1]... وكانت في الحيرة قصورٌ كبيرةٌ، أقامها أشرافُها، واتخذوا منها بُيوتاً لهم، وحُصوناً يأْوُون إليها كلما دَهَمهم خطرٌ[2]. وقد ذكر البلاذريُّ أنه تبيَّن، من الصُّحُفِ المكتوبة، المكتشَفةِ فيما هُدِم من قصور المناذرة بالحيرة، أن المسجدَ الجامعَ بالكوفة بُنيَ ببعضِ حجارتها، فحُسِبَتْ لأهل الحيرة قيمةُ ذلك من جِزْيتهم[3]... ولو كانوا أَبْقَوا على تلك القصورِ لأَفَدْنا منها إذن علماً كثيراً!

وإلى ذلك كان ملوكُ الحيرة يقيمون مجالسَ الأدبِ والشعرِ والغناءِ في

---

(١) فجر الإسلام: ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨، والأعلام: ٧/ ٢٩٥، و٨/ ٩٨ ـ ٩٩. **هند الصغرى** بنت النعمان بن المنذر: نبيلةٌ، فصيحة، وُلدتْ ونشأت في بيت الملك بالحيرة، ولمَّا قتل كسرى أباها، بَنَتْ لنفْسِها ديراً بين الحيرة والكوفة، وأقامت به مُتَنَسِّكةً. ولمَّا دخل خالدُ بن الوليد الحيرةَ زارها، وعرض عليها الإسلام، فاعتذرت بكبر سنِّها عن تغيير دينها، فأمر لها بمعونةٍ وكسوة، فقالت: ما لي إلى شيءٍ من هذا حاجة، لي عبدانٍ يزرعان مزرعةً لي، أتَقوَّتُ منها! ودَعَتْ له. ولمَّا خرج، جاءها النصارى، فسألوها عمَّا صنع بها، فقالت:

صـان لـي ذِمَّتـي، وأكـرم وجهـي ... إنمـا يُكـرِمُ الكـريـمَ الكـريـمُ

ثم عاشت طويلاً، وعميت. وكان ممن زارها المغيرةُ بنُ شعبة، وأُعجِبَ بحديثها كثيراً، وعبيدُ الله بنُ زياد، وهانئُ بنُ قبيصة، ثم الحجَّاجُ لمَّا قدم الكوفة سنة (٧٤ هـ = ٦٩٣ م). وماتت في ديرها نحو تلك الأيام.

(٢) المفصَّل: ٨/ ٣٤.

(٣) فتوح البلدان: ٢٨٤.

قصورهم، وكان شعراءُ العرب يذهبون إليهم، ويمدحونهم بالقصائد الطِوالِ، تَسيرُ في أنحاء الجزيرة، وتطيرُ لهم بها شهرةٌ واسعة، فكانوا يتألَّفونَ الشعراءَ بالهدايا والألطاف، ومن هؤلاء النابغةُ والأعشى وحسَّانُ بن ثابت.

وكانت حياةُ التَّرفِ، وما اتصل بها من أسباب الحضارة، بلغت شَأْواً بعيداً في قصور الحيرة، وحاناتها، حتى صارت تموجُ بالقِيَانِ والشراب، وكانت «إبنةُ عَفْرز» قَيْنَةً تملكُ أشهَرَ حانةٍ بالحيرة، فكان مَن وَفَدَ على النعمان إذا أَتَوهُ لَهَوْا بها[1].

المطلب الثالث ـ الحيرةُ مَقْصَفُ العَرب:

فُتحت الحيرةُ في الإسلام سنة (٦٣٣ م)، فتحها خالدُ بن الوليد صلحاً، فما لبث حتى تضاءَلَ شأنُها التجاريُّ، لانصراف العرب إلى الفُتوح، ولكنها ظلَّت تفتنُ الشبَّانَ بحاناتها وخمرها ومَنَازِهها وأديارها وقِيَانِها، وما انقضى القرنُ الأولُ للهجرة، حتى صرنا «لا نجدُ ذِكْراً للحيرة إلا حيث مجلسُ شرابٍ، وجماعةُ قَصْفٍ وبَذخٍ، وخليفةٌ يخرجُ للترويح عن النفس، وفتيانٌ سئموا حياة الجِدِّ فخرجوا إلى الحيرة، فنزلوا أحدَ أَدْيرتها، أو إحدى حاناتها، فنَحَرُوا وطَعِمُوا وشَربوا وغَنَّوا وأنشدوا. وأثْرىٰ أصحابُ الحاناتِ من وراءِ ذلك إثراءَ عظيماً، فصاروا يتنافَسُون بتجويد الخمر، وجَذْبِ الزائرين، حتى كثُر الذين ذهبت ثرواتُهم، وفَدَحَهم الدَّيْنُ من جرَّاءِ خمرة الحيرة»[2].

---

(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي: ٤٤ ـ ٤٥، ٦٧.

(٢) أسواق العرب: ٣٨١.

ولعلَّ أكثرَ أخبارِ مُعَاقَرةِ الخمر طرافةً أخبارُ «بكر بن خارجة»، وهو مَوْلى لبني أسد، كان ورَّاقاً، ضَيِّق العيشِ، شاعراً، وكان مُعاقِراً للشراب في منازل الخمَّارين وحاناتهم بالحيرة، ويُحكى أن بعض أمراءِ الكوفة حرَّم بيعَ الخمرِ على خَمَّاري الحيرة، وركب إليهم فكسر قِلالَ نَبيذِهم، وصَبَّهَ في الرِّحَابِ والطرُق، فجاء بكرُ بنُ خارجة ليشربَ عندهم كعادته، فرآه مَصْبُوباً في الأرض، فبكى طويلاً، ثم أنشأ يقول:

يـا لقـومـي لِمَـا جَنَـى السلطـانُ ... لا يكـونَـنْ لمـا أهـانَ الهـوانُ
صَبَّها في التراب من حَلَبِ الكرْ ... مِ عُقَـاراً كـأنهـا الـزَّعْفَـرانُ
صَبَّهـا فـي مكـانِ سـوءٍ، لقـد صـادفَ سعـدَ السعـودِ ذاك المكـانُ
مِـن كُميْـتٍ يُبـدي المـزاجُ لهـا لـؤلـؤَ نَظْـمٍ، والفصـلُ منهـا جُمَـانُ
كيف صبري عن بعض نفسي، وهل يصـبرُ عن بعض نَفْسِه الإنسانُ؟

وقد أُنْشِدَ الجاحظُ هذا الشعر، فقال: إن من حقِّ الفُتوَّةِ أن أكتب هذه الأبيات قائماً[1]...

وقد عُرِف عن أهل الحيرة شِدَّةُ تَعصُّبِهم لها، وتعلُّقِهم بها، «وكان بعضُ وُلاة الكوفة يَذُمُّ الحيرةَ في أيام بني أُميَّة، فقال له رجلٌ من أهلها، وكان عاقلاً ظريفاً: أَتَعِيبُ بلدةً بها يُضْربُ المثَلُ في الجاهلية والإسلام؟ قال: وبماذا تُمدح؟ قال: بصحَّةِ هوائها، وطيبِ مائها، ونُزْهةِ ظاهِرها، تصلح للخُفِّ والظِلْف[2]، سهلٌ وجبل، وباديةٌ وبستان، وبَرٌّ وبحرٌ، محلُّ الملوك ومَزارُهم، ومَسكنُهم ومَثْواهم، وقد قَدِمتَها أصلحك اللَّهُ مُخِفّاً،

---

(١) الأغاني: ٢٣/ ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) **الخُفُّ**: للإبل، و**الظِلفُ**: للبقر.

فرجعتَ مُثْقِلاً، ووَرِدْتَها مُقِلاً فأصارتْك مُكْثراً.. قال: فكيف نعرفُ ما وصفتَها به من الفضل؟ قال: بأن تَصِيرَ إليَّ، ثم ادْعُ ما شئتَ من لذَّاتِ العيش، فوالله لا أجُوزُ بك الحيرةَ فيه! قال: فاصنعْ لنا صنيعاً واخْرُجْ من قولك. قال: أفعل..

فصنَعَ لهم طعاماً، وأطعمهم من خُبزها، وسَمَكِها، وما صِيدَ من وَحْشِها: من ظِباءٍ ونَعامٍ وأرانِبَ وحُبَارى[١]، وسقاهم ماءَها في قِلالِها، وخمرَها في آنيتها، وأجْلسهم على رَقْمها[٢]، وكان يُتَّخَذُ بها من الفُرُشِ أشياءُ ظريفة، ولم يستخدم لهم حُرّاً ولا عبداً إلا من مُوَلَّدِيها ومُوَلَّداتها من خَدَمٍ ووَصَائفَ[٣]، كأنهم اللؤلؤ، لغتُهم لغةُ أهلها، ثم غنَّاهم حُنَيْنٌ[٤]، وأصحابُه، في شعر عَديّ بن زيد شاعرِهم، وأعشى همدان[٥]، لم يتجاوَزْهما، وحيَّاهم برياحينها، ونقَّلَهم على خمرها[٦]، وقد شربوا بفواكهها.. ثم قال له: هل رأيتَني استعنتُ على شيءٍ مما رأيتَ وأكلتَ

(١) **الحُبَارى**: للذكر والأنثى والواحد والجمع، طائرٌ طويل العنُق والمنقار، رماديُّ اللون.

(٢) **الرَّقم**: فراش من الوَشْي أو الخزِّ.

(٣) **الوصائف**: ج وصيفة، وهي الجارية البالغة حدَّ الخدمة.

(٤) **حنين بن بَلْوَع الحيري**: ويكنى أبا كعب، كان شاعراً، مُغنياً فحلاً من فحول المغنين، وله صنعة في الغناء فاضلة متقدّمة، وكان يسكن الحيرة، ويكري الجمال إلى الشام، وهو نصراني. توفي نحو (١١٠ هـ = ٧٢٨ م). وقيل إنه عاش أكثر من مئة سنة، ولم يكن بالحيرة مذكورٌ في الغناء سواه.

(٥) **أعشى همدان**: هو عبد الرحمن بن عبد الله، أبو المصبح. شاعر كوفي فصيح، من شعراء الدولة الأموية. وكان أحد الفقهاء القُرَّاء، ولكنه ترك ذلك وقال الشعر. خرج مع ابن الأشعث في ثورته ضد الحجاج، فأُتي به إلى الحجاج أسيراً بعد معركة يوم الجماجم، وقُتل بعد ذلك نحو سنة (٨٣ هـ = ٧٠٢ م).

(٦) **نَقَّل**: أطعم النَّقْلَ، وهو ما يُتنَقَّلُ به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما.

وشربتَ وافترشتَ وشَمَمْتَ وسمعتَ بغير ما في الحيرة؟ قال: لا والله، ولقد أحسنتَ صفةَ بلدك. ونَصَرْتَه فأحسنتَ نُصْرتَه والخروجَ مما تَضَمَّنْتَهُ، فبارك الله لكم في بلدكم»[1].

* * *

ويُحكىٰ أن «عُبيد الله بن سُرَيْج»[2] أشهرَ المُغنِّين بمكة في صدر الإسلام، قَدِمَ الحيرةَ، ومعه ثلاثُ مئة دينار، في ولاية بشر بن مروان الكوفةَ (٧١ هـ)، فأتَى منزلَ حنين بن بَلْوَع، مُغنِّي الحيرة، ولم يكن أحدُهما رأى الآخَر، فقال له: أنا رجلٌ من أهل مكة، بلغني طيبُ الحيرة، وجَوْدةُ خمرها، وحسنُ غنائكَ، فخرجتُ بهذه الدنانير، لأُنْفقَها عندك حتى تَنفَدَ، وأنصرف إلى منزلي. فسأله عن اسمه، فاستبدل به إسماً آخَر، وانتسب إلى بني مخزوم، فأخذ حنينٌ المالَ منه، وقال: مُوَفَّرٌ مالُكَ عليك، ولكَ عندنا كلُّ ما يحتاجُ إليه مثلُكَ ما نَشِطتَ للمُقَام عندنا، فإذا دَعَتْك نفسُك إلى بلدك، جَهَّزناكَ إليه، ورددْنا عليك مالَك، وفَوْقهُ نفقةُ مجيئك إلينا من مكة.. ثم أسكنه داراً كان ينفردُ بها، فمكث شهرين لا يعلم أحدٌ أنه يُغنّي، حتى انصرف حُنين من دارِ بشْرِ بن مروانَ في يومٍ صائف، فصار إلى مسكن ابن سُرَيج، فوجده مُغْلقاً، فدقَّ البابَ، فلم يُفتح، ولم يُجِبْه أحد، فارتاب في الأمر، فصار إلى دار الحريم، فلم يجد فيها ابنتَه ولا جواريه، ورأى ما بين دارِ الحريم ومَسْكنِ ابن سُريج مفتوحاً، فانتضى سيفه ودخل الدار،

---

(١) الأغاني: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) عبيد الله بنُ سريج: أبو يحيى، مولى بني نوفل بن عبد مناف، من أشهر المغنين في صدر الإسلام، كان يرتجل الغناء فيأتي باللحن المبتكر، وهو أول من ضرب بمكة على العود بالغناء العربي. توفي (٩٨ هـ = ٧١٦ م).

فوجد ابنته وجَوارِيَهُ وقوفاً على باب السِّرْداب، وهُنَّ يُومِينَ إليه بالسكوت، فلم يلتفت إلى إشارتهنَّ لما تداخَلُه من الريبة، إلى أن سمع تَرَنُّمَ ابنِ سُرَيج بالغناء، فألقى السيفَ من يده، وصاح به، وقد عرفه من طريقته في الغناء: أبا يحيى، جُعلتُ فداءَك، أتَيْتَنا بثلاث مئة دينار لتُنفِقَها عندنا في حِيرَتنا! فَوَحقِّ المسيحِ لا خرجتَ منها إلا ومعك تسعُ مئة دينار فوق ما جئتَ به معك. ثم دخل إليه فعانقه، ورحَّب به، ولَقِيَهُ بخِلافِ ما كان يلقاه به، وسأله عن الصوت الذي كان يُغنِّيه، فأخبره أنه صاغَهُ من فَوْرِه، فصار معه إلى بشر بن مروان، فوصله بعشرة آلاف درهم أوَّلَ مرَّة، ثم وصَلهُ بعد ذلك بمثلها. فلما أراد الخروج، ردَّ عليه حنينٌ مالَه، وجَهَّزَهُ، ووَصَله بمقدار ما أنفق من مكة إلى الحيرة[1].



المطلب الرابع ـ سوقُ الحيرة:

لاحظنا أن للحيرة وسُوقها ذكراً مُسْتَفيضاً، وأخباراً كثيرة في كتُبِ المؤرِّخين وأهل الأخبار، غير أن هؤلاء جميعاً، إلا الأصفهانيَّ، لم يُشِيروا إلى سوق موسميَّةٍ كانت تقومُ بها في السنة، وإنما ذكروا سوقاً بالحيرة يقصدها التجَّارُ، وهذا ليس بشيء، إذ أن لكل مدينة، أو قرية، سوقاً أو أسواقاً تظلُّ عادةً قائمةً بها على مدار السنة، ونحن إنما نُعْنَى بالأسواق الموسمية التي تقوم مرةً في السنة. أياماً معدودات، لما كان يُلازِمُ التجارةَ فيها من نُسْلِكٍ، وشعر، وخطابة، ومفاخرة، ومماجدة، كما في سائر مواسم العرب.

---

(١) الأغاني: ٢/٣١٣ ـ ٣١٤.

فقد ذكر القالي في أحد أخباره، أن أعرابيّاً أَدْخَلَ قرداً إلى سوق الحيرة ليبيعَهُ[1]. . فهذا الخبرُ يحتملُ أن الرجُلَ شَهِدَ موسمَ سوق الحيرة، أو أنه إنما دخل إلى سوق الحيرة الدائم! وهو كالخبر الذي ذكر فيه الأصفهانيُّ، أن الشاعر الأعشى ميمون، أتى الحيرةَ فباع فيها وعاءً من جلدٍ مملوءاً عنبراً بثلاثِ مئةِ ناقةٍ حمراءَ[2]. . أما روايته التي ساقَها في أخبار حاتم بن عبد الله الطائيّ، فإنه ذكر فيها موسمَ الحيرة صراحةً، فقال: «وكان بالحيرة سوقٌ يجتمع إليها العرب كلَّ سنة. . »، وسنجِدُ في الرواية بعد ذلك دليلاً على أنه كان في موسم الحيرة فخرٌ ومُمَاجَدَةٌ وشعرٌ ومجامعُ للعرب، كما كان في عكاظ.

صفوةُ هذه الرواية أن «الحكمَ بن أبي العاص بن أمية» خرج من مكة، ومعه عِطرٌ يريدُ الحيرةَ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العربُ كلَّ سنة، فمرَّ في الطريق بحاتم الطائيّ، فسأله الجِوارَ في أرض طيِّىء، حتى يصيرَ إلى الحيرة، فأجارَهُ. ثم أمر حاتمٌ بجَزُورٍ فنُحِرتْ وطُبخت، فأكلوا، ولمّا فرغوا من الطعام، طَيَّبهم الحكَمُ من عطره، واسْتأنَفُوا المسِيرَ، فمرَّ حاتمٌ بسعد بن حارثة بن لأم، وكان النعمانُ جعلَ رِبْعَ الطريق طُعْمةً لبني لأم لأنهم أصهارُه، فأتاهُ سعدٌ ببني لأم، فوضَعَ حاتمٌ سُفْرتَه، وقال: إطْعَمُوا حيَّاكمُ الله، فقالوا: مَن هؤلاء معك يا حاتم؟ قال: هؤلاء جِيراني. فقال له سعد: فأنتَ تُجِيرُ علينا في بلادنا؟ قال: أنا ابنُ عمِّكم، وأحَقُّ مَن لم تَخْفِروا ذِمَّتَه[3]. فأنكروا عليه ذلك، وتناول أحدُهم حاتِماً، فأهْوىٰ له حاتمٌ

(١) الأمالي: ٢/ ٤٤.
(٢) الأغاني: ٩/ ١٢١.
(٣) خَفَر الذمَّةَ: نقضَ العهد، ووفَىٰ به أيضاً، وهي من الأضداد.

بالسيف، فأطار أَرْنَبَةَ أنفِهِ، ووقع الشرُّ حتى تحاجَزُوا[1].. فقالوا لحاتم: بيننا وبينك سوقُ الحيرة فنُماجِدُكَ، ونضَعُ الرُّهُنَ!

ففعلوا، ووضعوا تسعة أفْراس رهناً على يدي امرىء القيس بن عدي، من بني جَنَاب الكلبي، وهو جَدُّ سكينة بنت الحسين، ووضع حاتمٌ فرسَهُ. ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة، وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائيّ[2]، فخاف أن يُعِينَهم النعمانُ بن المنذر، ويُقوِّيهم بمالِه وسُلطانِه، للصِّهْرِ الذي بينهم وبينه، فجمع إياس رهطَهُ من بني حيَّة، وقال: يا بني حَيَّة، إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضحوا ابنَ عمّكم في جَارِه، بِمُمَاجَدَتِه.. فقال أحدُهم: عندي مئة ناقةٍ سوداء، ومئة ناقةٍ حمراءَ أدْمَاءَ، وقام آخَرُ فقال: عندي عشرةُ حُصُنٍ، على كلِّ حصانٍ منها فارسٌ مُدَجَّج لا يُرَى منه إلا عيناه، وقال حسان بن جَبَلة الخير: قد علمتم أن أبي مات وترك مالاً كثيراً، فعَلَيَّ كلُّ خمرٍ أو لحمٍ أو طعامٍ ما أقاموا في سوق الحيرة.. ثم قام إياس فقال: عليَّ مثلُ جميعِ ما أعطيتُم كلُّكم..

وكان حاتم لا يعلم بشيءٍ مما فعلوا، وذهب إلى مالك بن جبار، وهو ابنُ عمٍّ له بالحيرة، كثيرُ المال، فقال: يا ابن عمّ، أعِنِّي على مُفَاخَرتي. فقال له مالك: ما كنتُ لأُعطيك مالي وأتركَ نفسي وعِيالي بدون شيء! ثم أتى حاتم ابنَ عمٍّ له آخر، يُقال له: وَهْمُ بنُ عمرو، وكان حاتم يومئذٍ مُصَارِماً له لا يُكلِّمه، فقالت له امرأتَه: أيْ وَهْمُ، هذا واللَّهِ أبو سَفَّانة حاتمٌ قد طلع. فقال: ما لنا ولحاتم؟ أَثْبتي النظرَ، فقالت: هو حاتم.. قال:

---

(١) **تحاجزوا**: تمانعوا.

(٢) **إياس بن قبيصة الطائي**: من بني حيّة بن سعنة من طيِّىء. فصيح، شريف، شجاع، تولّى الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر نحو سنة (٦٠٥ م)، وفي أيامه وقعت معركة ذي قار.

ويحك هو لا يُكلِّمني، فما جاء به إليَّ؟.. فنزل حتى سلَّم عليه، فردَّ سلامَهُ وحَيَّاه، ثم قال له: ما جاء بك يا حاتم؟ قال: خاطَرْتُ على حَسَبِك وحَسَبي. قال: في الرَّحْبِ والسَّعَة، هذا ما لي، وهو تسعُ مئة بعير، فخُذْها مئةً مئةً، حتى تَذهبَ الإبلُ، أو تُصيبَ ما تريد... فقالت امرأتُه: يا حاتم أنتَ تُخْرِجُنا من مالنا، وتفضحُ زوجي! فقال: إذهبي عني، فواللَّهِ ما كان الذي غَمَّكِ لِيَرُدَّني عمَّا قِبَلي.

ثم إن إياس بن قبيصة قال: احملوني إلى الملك، وكان به نِقْرِسٌ، فحُمِلَ حتى أُدْخِلَ عليه، فقال: أنعمْ صباحاً أبيتَ اللعنَ! فقال النعمانُ: وحيَّاكَ إلهُك! فقال إياس: أتَمِدُّ أصهارك بالمال والخيل، وجعلتَ بني ثُعَل في قعر الكنانة[1]؟ أظَنَّ أصهارُكَ أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوَيْن[2]، ولم يشعروا أن بني حيَّةَ بالبلد؟ فإن شئتَ واللَّهِ ناجزناك حتى يَسفَحَ الوادي دماً، فلْيَحضُروا مِجَادَهم غداً بمجمع العرب! فعرف النعمانُ الغضبَ في وجهه، فقال له: يا أحْلَمَنا لا تَغْضبْ فإني سأكفيك.

وأرسل النعمانُ بعدئذٍ إلى سعد بن حارثة، وإلى أصحابه: أنْظُروا ابنَ عمِّكم حاتماً، فأَرْضُوه، فواللَّهِ ما أنا بالذي أُعطيكم مالي تُبذِّرونَه، وما لي طاقةٌ ببني حيَّة... فخرج بنو لأم إلى حاتم فقالوا له: أَعْرِضْ عن هذا المِجَادِ نَدَعْ أَرْشَ أَنفِ ابنِ عمِّنا[3]. قال: لا والله لا أفعلُ حتى تتركوا أفراسَكم، ويُغْلَبَ مِجَادُكم.. ففعلوا، فعَمَدَ حاتم إلى أفراسهم فعَقَرها، وأطعمها

---

(١) بنو ثُعَل: بطن كبير من قبيلة طيِّىء.

(٢) ذكرتُ، في كلامي على رايات الغدر ورايات الوفاء بعكاظ، قصة عامر بن جُوَيْن الطائي وغدره بامرىء القيس الشاعر، وما كان بينه وبين ثُعَل.

(٣) الأَرْشُ: دِيَةُ الأنف.

الناسَ، وسقاهم الخمر[1]. . .

* * *

كانت هنالك إذن سوقٌ موسميَّةٌ كبرى بالحيرة، تقوم فيها مجامِعُ للعرب على نَحْوِ ما كان بعكاظ، ويجري فيها تفاخُرٌ، ومُماجَدَةٌ، ومجالسُ شِعْرٍ ولَهْوٍ وخمرٍ وغناءٍ، وتجارةٌ، وربما نُسكٌ أيضاً على عادة العرب في التعبُّدِ أو الحجِّ، قبل أو بعد التجارة واللعب. ويبقى أن نحاولَ بالاسْتِدلالِ معرفةَ موعدِ قيامِ هذه السوقِ، ومَوْضعِها من الحيرة.

ويَدلُّ قولُ حسَّانَ بنِ جَبَلة لابن عمِّه حاتم: «. . فعَلَيَّ كلُّ خمرٍ، أو لَحْمٍ، أو طعامٍ، ما أقاموا في سوق الحيرة»، أي مدَّةَ شُهودِ الناسِ تلك المُمَاجَدَةَ مهما طالتْ، على أن مُدَّةَ قيام السوق لم تكن قصيرةً، لأن الكرَمَ مع طُول المدَّةِ أَدْعَىٰ إلى زيادةٍ في المجدِ والفَخْرِ، ولعلها كانت نحواً من خمسةَ عَشَر يوماً. . ومن باب الترجيح أرى أن السوق كانت تقومُ بانقضاء عشرة أيام من شهر ربيعِ الآخِر، وذلك أن بين انقضاءِ موسم دُومَةِ الجندل، آخِرَ شهرِ ربيع الأول، وانعقادِ موسم المشقَّر بهَجَر أوَّلَ جُمادَىٰ الآخِرة، شَهريْن هما ربيعُ الآخِرُ وجُمادَى الأولى. وكان طريقُ تجَّار قريش إلى الحيرة يمرُّ غالباً على دومة الجندل، ويَتَخفَّرون خلاله بقبيلة طيِّىء[2]، والمرتحِلُ عن دُومة الجندل إلى هَجَر لم يكن له بُدٌّ من قصْدِ الحيرة أولاً، لأن الطريق إليها كانت أسهلَ الطرُقِ المعروفة يومئذٍ[3]، وهي تقعُ على مسيرة عشرة أيام من الدومة[4]. . أي أنه يصل إلى الحيرة في العاشر من شهر ربيع الآخِر،

---

(١) الأغاني: ١٧/ ٢٨٣ ـ ٢٨٦.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤.

(٣) تاريخ العرب: ٢٠٥.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

فيلبث فيها مدَّةَ قيام سُوقها إلى آخِر الشهر تقريباً، ثم يرتحلُ إلى هَجَر، فَيَبْلُغُها في نحو شهرٍ[1]، أي مع انعقاد موسم المشقَّر في الأول من جُمادَى الآخِرة، وإذا شاء رجع من الحيرة إلى مكة من طريق الدومة ثم يثرب.

هذا عن موعد قيامها، وأمّا عن مَوْضِعها فإنني أميلُ إلى الإعتقاد بأنه كان في ريف الحيرة، وليس في المدينة نفسها، فهنالك أرْحَبُ لاستيعابِ التجّارِ والزُّوّار، وضَرْبِ القباب والخِيَام، وتسريح الأنعام... وإذا كانت مواسمُ الأسواق، في أصل نشأتها، مُرْتبطةً بالمواسم الدينيَّة، ومرَاسِم الحجِّ إلى بيوت العبادة، فمن المُرَجَّح وجودُ علاقةٍ بين سوق الحيرة وموسم الحجِّ إلى «كعبة سنداد» بالعراق، وهي بيتٌ، أو قصرٌ للعبادة، اتَّخَذَتْهُ قبائلُ إيَادٍ لمّا نزلت سنداد، وشاركتْها في التعبُّد له قبائلُ ربيعة وبكر وتغلب[2]، وكانت العربُ تحجُّ إليه[3]، وهو من المعابد المشهورة عندهم، قيل إن بني إياد جعلوا فيه صنماً يقال له: ذو الكعبات[4].

وكانت منازلُ إياد في سنداد وبارق والحيرة والخَوَرْنقِ والسَّدِير[5]، وذلك قولُ الأسود بن يَعْفُر النهشَليّ، وهو شاعر جاهليٌّ من بني تميم:

ماذا أُؤَمِّلُ بعد آلِ مُحرِّقٍ ... تركوا منازِلَهم، وبعد إيادِ
أهلِ الخَوَرْنقِ والسديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ من سندادِ[6]

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧، ٥/ ٣٩٣، وبلوغ الأرب: ١/ ١٨٦، وقلائد الجُمان: ١٧ ـ ١٨.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٩٤، وتاج العروس: ٤/ ١٥٣ (كعب)، والمفصَّل: ٦/ ٤١٥ ـ ٤١٧ ـ ٤٤٦ ـ ٤٤٧.
(٣) تاج العروس: ٨/ ٢٢١ (سند).
(٤) الأعلام: ٢/ ٣٢.
(٥) معجم البلدان: ٣/ ٢٦٦، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٥، والأغاني: ٢٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.
(٦) الشعر والشعراء: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

وكان يقال لكعبة سنداد: القصرُ ذو الشُّرفَاتِ.. ومن المعلوم أن الحيرة تقعُ على ثلاثة أميال من جنوب الكوفة، على بحيرة النجف، ويقعُ الخورنقُ شرقيَّ الحيرة على بُعد ميلٍ منها، والسَّدِيرُ في غَرْبِيِّها، وسندادُ ريفٌ واسعٌ، ونهرٌ يمتدُّ من شمال الكوفة إلى الأُبلَّة[1]، فهي داخلةٌ بذلك في ريف الحيرة[2]. ولعلّ موضعَ سوق الحيرة كان بها، قريباً من الحيرة، وموسم السوق كان أيام الحجِّ إلى القصر ذي الشُّرُفَاتِ.

* * *

---

(١) تاج العروس: ١١/ ١٢٠ (حير).

(٢) معجم البلدان: ٣/ ٢٦٦.

الفصل الثاني

سوق الخنافس

الخَنَافِسُ أرضٌ للعرب، في طَرفِ العراق، قربَ الأنبار، في الجهة الغربية من نهر الفرات، من ناحية البَرِدَان، كانت تُقام فيها سوقٌ للعرب[1]... وجاء في موارد الأخبار أن بعض أهل الأنبار أخبروا «المثنَّى بنَ حارثة الشيبانيَّ»[2]، بعد فراغِه من معركة البُوَيْبِ[3]، عن سوقٍ للعرب، تُقامُ مرةً كلَّ سنة بالخنافس، على شاطىء الفرات، وتجتمع بها أحياءٌ من العرب، من بكر بن وائل وقُضَاعة وكلب، بحمايةٍ من قَبِيلتيْ ربيعة وقضاعة، وأن تلك الأيامَ موعدُ قيام موسمها، فإن غزاها أصاب فيها مالاً كثيراً، يَقْوَىٰ به المسلمون على عَدوِّهم.

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٣٩١، وتاج العروس: ١٦/ ٤٠ (خنفس)، وخَنْفَسَ: الرجلُ عن القوم، إذا كرههم وعَدَلَ عنهم إلى غيرهم. والخُنْفَسُ والخُنْفَسَاءُ: حشرة سوداءُ مُنتِنَةُ الريح.

(٢) **المثنَّى بنُ حارثة الشيباني**: صحابي فاتح، من كبار القادة الشجعان. أسلم سنة (٩ هـ)، وغزا بلاد الفرس في خلافة أبي بكر، وهو أوَّل من صنع ذلك من العرب المسلمين، وقد أَمَدَّهُ أبو بكر بخالد بن الوليد، فكان ذلك بدء تحرير العراق من فارس. ثم أمدَّه عمر بن الحطاب بأبي عبيد، ثم بجيشٍ كبير يقوده سعد بن أبي وقّاص. وقد توفي سنة (١٤ هـ) متأثّراً بجراح أصابته في معركة الجسر.

(٣) **البُوَيْبُ**: نهر بالعراق في موضع الكوفة، يأخد من الفرات. كانت عنده وقعةٌ بين المسلمين والفُرس، أيام أبي بكر.

أعَدَّ المثنَّى خطَّتَهُ، ثم أغار على السوق يوم قيامه، وكان يخفر الناسَ فيه فرسانٌ من ربيعة بقيادة السَّليل بن قيس، وفرسانٌ من قضاعة بقيادة ابن وَبرة، فجرَّدَهم من سلاحهم، ودخل السوق، ففرَّ الناسُ مذعورين، وتركوا أموالهم، فأخذ كلَّ ما كان بالسوق من الذَّهَبِ والفضَّة، وكلَّ ما خفَّ حملُه وغلا ثمنُه، وعاد من هذه الغزاة سالماً غانماً، وفيها يقول:

صَبَحْنا بالخَنَافِس جَمْعَ بَكْرٍ ... وحَيّاً من قُضَاعَةَ غير مِيلِ
نَسَفْنا سُوقَهُمْ والخيلُ رُودٌ ... من التَّطْوافِ والشُّرْبِ البخيلِ[1]

وإذا شئنا أن نعرفَ موعدَ قيام سوق الخنافس من كل سنة، وجَبَ علينا الاستدلالُ ببعض الحوادث التاريخية المعلومة، التي سبقت غَزْوَ السوق! ونحن نعلم أن المثنَّى بن حارثة عاد من المدينة إلى الحيرة، بُعَيْد أيامٍ من وفاة أبي بكر الصدِّيق، رضي الله عنه، وكانت في الثاني والعشرين من جُمادَىٰ الآخِرة، سنة (١٣ هـ)[2]، ويُوافق هذا اليومُ، في تقديرنا، يومَ التاسع عشر من شهر آذار ـ مارس، سنة (٦٣٥ م). فإذا كان ترك المدينةَ في الخامس والعشرين، اقتضاهُ السَّفَرُ عشرين يوماً لبُلوغ الحيرة[3]، ومعنى ذلك أنه وصل إليها منتصفَ رجَبٍ تقريباً، فأقام نحو شهر حتى وصل جيشُ أبي

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٤٧٣، والكامل: ٢/٤٤٥، وفتوح البلدان: ٢٤٧، ومعجم البلدان: ٢/٣٩١، (رُود: رادَ رَوْداً ورَوَدَاناً أي تحرّك تحركاً خفيفاً. والرَّوْدُ: ريح ليّنةُ الهبوب. والأرْوَدُ: المتمهّل في عمله. ورُوَيْد: مصغّر رَوْد، وسار رُوَيْداً أي برفق وتُؤدة. ورُوَيْدَكَ: أي تمهّلْ. والخيلُ الرُّودُ: التي تمشي على مهل من التعب والعطش).
(٢) تاريخ الطبري: ٣/٤٢٠.
(٣) معجم البلدان: ٤/٤٩٣.

عُبيد بن مسعود الثقفي[1]، الذي أرسله أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب مَدَداً له. فما لبث أبو عبيد أن أنْشَبَ القتالَ مع الفُرس، فقُتل في معركة الجسر أواخرَ شعبان، وانتقم له المثنَّى بانتصاره على الفرس في معركة البُوَيْبِ منتصفَ رمضان[2]. . ثم كان غَزْوُهُ سوقَ الخنافس.

وعلى ذلك نُقدِّرُ أن موعد السوق كان في تلك السنة، أواخرَ رمضان أو مطلعَ شوَّال، وإذا تذكرنا أن عربَ العراق يأخذون بالتقويم الشمسي، أو بالقمريّ مع الكبْسِ لإلحاقه بالشمسي، عرفنا أن موعدَ السوق في الأصل يكون قريباً من أواخر حزيران (يونيو) وأوائل تموز (يوليو) من كل سنة، وذلك على افتراض أن الأول من شهر المحرَّم سنة عَشْرٍ للهجرة، وقع في الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (٦٣٢ م).

تعقيب على موقع سوق الخنافس:

إن تعيينَ ياقوتَ موقعَ سوق الخنافس قربَ الأنبار، من ناحية «البَرَدان»، يقتضينا الإشارة إلى أن البَرَدانَ إسمٌ لمواضِعَ كثيرة، ولكنه فيما قدَّمْنا كان إسماً لموضعٍ بالكوفة، ينزلُ به «وبرة بنُ رومانُس» الكلبيُّ القضاعيُّ، من بني عُذْرة بن زيد اللات، وهو أخو النعمانَ بنِ المنذر اللخميِّ، من أمِّه. . وهذا ما يؤكِّدُه قيامُ ابن وبرة على فرسان قضاعة لحماية السوق أيام انعقاده.

---

(١) أبو عبيد بن مسعود الثقفي: قائد من الشجعان. أمَّره عمر بن الخطاب على الجيش الزاحف إلى العراق لقتال الفرس، وأوصاه ألاّ يكون عجولاً، لأن الحرب لا يصلحها إلا الرجل الرزين، ولكنه اسْتَقْتَل، فقُتِل رحمه الله في معركة الجسر (سنة ١٣ هـ). وهو والد المختار الثقفي.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٠.

أما موسمُ دَيْرِ قُوطا الراهبِ، وهو مار سرجس، الذي كان يقومُ في البَرَدان، في اليوم السابع من تشرين الأول (أكتوبر)، إن كان أَوَّلَهُ يومُ الأحد، وإن لم يكن، فيُقام في الأحَدِ الذي يأتي بعد السابع، فإنَّ مَوْضعَ البَرَدانِ هذا يقعُ إلى الشمال من بغداد، على يسَارِ دجلة، وهو من الأماكنِ الحسَنةِ، والبقاعِ النَّزِهَة، وكان كثيرَ الطُّرَّاق والمتنزِّهين في أيام موسمه، لما كان يتوافَرُ به من كلِّ ما يطلبُه أو يَشْتهيهِ أهلُ البطالةِ والخَلاعَةِ، من الوُجوه الحِسَانِ، والشراب اللذيذ، والحانات الكثيرة(١).



موسمُ ديْر الخنافِس

ويبدو أن الخَنَافِسَ كان إسماً لِغَير موضعٍ بالعراق، وكان لهذا الموضع موسمٌ خاصٌّ به، لا علاقة له بموسم سوق الخنافس! فقد ذكر الشَّابُشْتيُّ(٢)، صاحبُ كتاب الدِّيَاراتِ، أن هنالك موسماً دينياً للمسيحيين بالعراق، كان يقومُ في موضعٍ يُقال له: دَيْرُ الخنافس، وهو دَيْرٌ كثيرُ الرُّهْبان، يقعُ بين مدينتَيْ الموْصِل وبَلَد، له يومٌ في السنة، يجتمع الناسُ إليه من كل موضع، فتظهر فيه الخنافسُ ذلك اليومَ، حتى تُغَطي حيطانَهُ وسُقوفَه وأرضَه، ويَسْودُّ جميعُه منها، فإذا كان اليومُ الثاني، وهو عيدُ الديْر، اجتمعوا إلى الهيكل

---

(١) الديارات: ٦٢ ـ ٦٣ (لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي)، تحقيق كوركيس عوَّاد، دار الرائد العربي ـ بيروت، (الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م).

(٢) الشابُشتيُّ: أبو الحسن، علي بن محمد، المعروف بالشابشتي، والمتوفَّىٰ بمصر سنة (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م). كان أديباً فاضلاً، حلو المحاورة، لطيف المعاشرة، له مُصنَّفات حسنة، منها كتاب الديَارات الذي وصف فيه بعضَ أديرة النصارى في العراق والشام ومصر، وما كان يكون بها من المواسم والأعياد.

فقدَّسُوا، وتقرَّبُوا، ثم انصرفوا وقد غابتِ الخنافِسُ حتى لا يُرَىٰ منها شيءٌ إلى مثل ذلك الوقت من قابِل[1].

وعلَّق «كوركيس عوَّاد»، مُحقِّقُ كتابِ الدِّيَارات، بأن الموقع الذي عيَّنَهُ الشابُشتيُّ غير صحيح، والصوابُ أن دَيْر الخنافس يقعُ شرقَ الموصل إلى يَسارِ دجلة، ذلك أن قرية بَلَدٍ تقعُ شمالَ الموصلِ إلى يمين دجلة[2]. . وذكر أيضاً أن الدَّيْر لم يكن كبيراً، وأنه رأى أطلاله، وهي تُشيرُ إلى أنه كان ديراً صغيراً[3]. . .

وتكلَّم ياقوت الحموي على دير الخنافس، وعيَّن موقعَه إلى الغرب من دجْلةَ، على قمَّة جبل شامخ، ووصفه بأنه ديرٌ صغير، لا يَسْكنه أكثر من راهبيْن، وأنه نَزِهٌ لعُلُوِّهِ على الضِّيَاع، وإشرافِهِ على أنهار نِينَوىٰ والمرج، وذكر أن له عيداً يقصدُهُ أهلُ الضِّيَاعِ في كلِّ سنةٍ مرَّةً، وأكَّدَ مجيءَ الخنافس إليه ثلاثةَ أيام من السنة، فإذا انقضَتْ، ذَهبتْ عنه ولم يبق منها واحدةٌ[4]. . .

وحقَّق البطريرك العَلاَّمةُ «مار اغناطيوس أفرام الأول برصوم» في أمر هذا الدير، وانتهى إلى أنه كان يقع على هضبة في شرق الموصل، بالقرب من قرية «بَرْطُلَّىٰ»، وهي من أعمال نينوى، وإنما سُمِّي بدير الخنافس، لأن خنافِسَ صغيرةً تَظهرُ به، في موسم عيده من كل سنة، الموافق للعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، مُدَّةَ ثلاثة أيَّام، ثم تختفي[5]. . . وقد ذكر

---

(١) الديارات: ٣٠٠.

(٢) المرجع نفسه: الحاشية رقم ١.

(٣) المرجع نفسه: ح/ ٢.

(٤) معجم البلدان: ٢/ ٥٠٨.

(٥) الديارات: ٤١٢/ تذييل رقم ٢٥.

ياقوت أن «بَرْطُلَّىٰ» قريةٌ كالمدينة في شرقيّ دجلة الموصل، من أعمال نينوى، وأنها كانت كثيرةَ الخيراتِ والأسواقِ والبيع والشراء، وأن الغالبَ على أهلها دينُ المسيح عليه السلام[1].

* * *

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٣٨٥.

الفصل الثالث

سوقُ الكَباث

وقال قومٌ من أهل الحيرة للمثنَّىٰ: ألا نَدُلُّكَ على قريةٍ يأتيها تُجَّارُ المدائن، وتُجَّارُ السَّوادِ وأهلُ الأحْوازِ، يجتمعون بها مرَّةً في كل سنة، ومعهم من الأموال ما يكون غَناءً للمسلمين إذا أصبْتَه؟ فقال لهم: ما هي؟ قالوا: بغداد، يقومُ موسمُ سوقها بعد أيامٍ من سوق الخنافس[1].

وبغداد يومئذٍ قريةٌ للأعاجم، تقع على الشاطىء الشرقيّ لنهر دجلة، على نحو خمسة وعشرين ميلاً من المدائن، ومئةٍ وخمسينَ ميلاً من الحيرة، والسوقُ فيها عند قرن الصَّراة[2]. وكان صُنَّاعُ إيران اشتُهروا بصناعة السُّنْدُسِ الحريري، وحياكةِ البُسُطِ الصوفية، وإنتاجِ الذهبِ والفضةِ والنحاسِ والبِلَّوْرِ الصخريّ، وكثيرٍ من الأدوات الثمينة[3].

وقد سأل المثنَّى: كم بين مدائنِ كسرى وبغداد، فقيل: بعضُ يومٍ أو عامَّتُه، فعرج على الأنبار، وأخذ معه دليلاً، ثم انطلق بجيشه نحوَها، فعَبَروا دجلةَ، وطلعوا على بغدادَ وسُوقِها، مع أوَّل ضوءِ النهار، فبُغِتَ أهلُ السوقِ، فَهَرب مَن هَرب، وقُتِل مَن قُتِل، وقال المثنَّى لجُنْده: لا تأخذوا إلا

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٣.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٤٥٧.

(٣) الطريق إلى المدائن ـ أحمد عادل كمال: ٤٤٩ (دار النفائس ـ بيروت ١٩٧٧).

الذهبَ والفضَّةَ، ولا تأخذوا من المتَاع إلا ما يَقْدرُ الرجلُ منكم على حمله، فملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء، والحُرِّ من كل شيء. ثم رجعوا من بغداد إلى الأنبار[١].

ويبدو أن المثنَّى لم يشَأْ، بعد الخنافس وبغداد، أن يعودَ إلى الحيرة، قبل أن يَسْتكملَ غاراته على شمال العراق، فأمَرَ وهو بالأنبار بغَزْوِ بني تغلب في «الكباث»[٢]، وهو مَوْضعٌ بالجزيرة الفراتية، لبني تغلب[٣]، ولعله كان قريباً من الأنبار على الضفَّةِ الشرقية للفرات، وكانوا يُقيمون عليه في الجاهلية سوقاً للعرب، فلما غزاهُ المسلمون، كان أهلُه قد ارْفَضُّوا وأَخْلوا السوق، فلم يظفروا بشيء[٤]. . .

ولا شك في أن موسمَ الكَبَاثِ كان يقوم بعد موسم الخنافس بأيام معدودات، ولذلك لم يُدْركْهُ المسلمون قائماً، ومعنى هذا أن موسمه في تلك السنة كان في شهر شوَّال.



(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٤.

(٢) الكَبَاثُ: يُقال لثمر الأَراك إذا أَدْرَكَ ونَضج الكَبَاثُ، ويكونُ ثمرُ الأراك على شكل العناقيد، ويُقال لعُنْقود الكَبَاث: المُلاَّح، سُمِّي به لِطَعْمه، فكأن فيه من حرارته ملحاً. ويبدو أن السوق كانت تُقام بموضع يُجنَى فيه الكَبَاثُ أو يُباع، فغلب عليه.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ٤٣٣.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٥، والكامل: ٢/ ٤٤٦.

الفصل الرابع

مواسمُ الأعياد في بعض اديرة النصارى بالعراق

● **الخليفةُ المأمون يشهدُ عيد الشعانين بالموصل:**

من الأعيادِ المسيحيَّة المشهورة عيدُ الشعانين، ويقال له أيضاً: يومُ السعانين، ويُعرف عند العرب بيوم السَّبَاسِبِ، وجاء في الحديث «إن الله أبْدَلكم بيوم السباسب يومَ العيد»، وكان يومُ السباسب عيداً تُعيِّدُه العربُ، وعليه قولُ النابغة الذبياني يمدحُ مُلوكَ بني غسَّانَ، وكانوا من نصارى العرب:

رِقَـاقُ النِعَـالِ، طيِّـبٌ حُجُـزاتُهـم   يُحيَّوْنَ بالريْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ[1]

وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفِصْح من كلِّ سنة، فهو من الأعياد المنُوطةِ بالأهِلَّة، وإن كان موعدُه لا يتحوَّلُ أكثر من مُدَّةٍ معروفةٍ، في زَمَنٍ معروفٍ من فُصول السنة لا يتجاوزه.

والشعانينُ كلمة عبرانيَّةٌ أصلُها: «هُوشعنا، أو هُوشِعَه نا»، أي خَلِّصنا

---

(١) تاج العروس: ٣/ ٤١، ولسان العرب: ١/ ٤٦٠ (سبسب)، والمفصَّل: ٦/ ٦٦٠. وكانت العربُ تَمدَحُ بِرِقَّةِ النِعَال، وتجعلُها من لباس الملوك، وقد أشار الشاعر بذلك إلى طيب عَيْشهم ورَفَاهته، وقولُه: طيِّبٌ حُجُزاتُهم، كنايةٌ عن العفَّة، فالحُجُزَةُ مَعْقِدُ الإزار على البطن، ثم ذكر أن الناس كانت تُحيِّيهم بطاقات الريْحان في يوم الشعانين تعبيراً عن مكانتهم ومحبَّتهم في أنفسهم.

أو أنقَذَنا، ومنها اشتُقَّ إسمُ «يسوع»، ومعناه المخلِّص.. والطريف أن من معاني السُّعْنَة في العربية: «المظلَّة، والرقصُ واللعب»[1]، وهي بذلك تُعبِّرُ عمَّا كان يكون في العيد!

وقد رُوِيَ أن الخليفة المأمون العباسيَّ شَهِدَ هذا العيدَ في موسمه، بإحدى السنين، وذلك في دَيْرِ الأعْلَىٰ بالموصل.. ويقعُ هذا الديرُ على جبل فوق دجلة، ويُضْربُ به المثَلُ في رِقَّة الهواء، وحُسْن المُسْتَشْرَفِ، ويقال إنه ليس للنصارى ديْرٌ مثلُه في العراق، لما كان فيه من أناجيلهم ومُتعبَّداتهم. وكانت فيه صَوامِعُ كثيرةٌ للرُّهْبان، وله دَرَجاتٌ مَنْقوراتٌ في الجبل، عليها نحوُ مئةِ مِرْقَاةٍ تُفْضي إلى دجلة هُبُوطاً، ويُسْتَقَىٰ عليها الماءُ منه. وتحت الديْر عينُ ماءٍ غزيرةٌ تصبُّ إلى دجلة، ولها وقتٌ من السنة يقصدها الناسُ فيَسْتحمُّون فيها، ويعتقدون أنها تُبْرِىءُ من الحكَّة والجَربِ، وتنفعُ المقعَدين والزَّمْنَى، أي ذوي العاهات.

وكان الشعانين في هذا الديْر حَسَناً، يخرجُ الناسُ إليه، فيقيمون فيه أياماً يشربون ويتنزَّهُون، وكلُّ من اجتاز بالموصل من الولاة كان ينزلُ به. وقد اجتاز المأمونُ بهذا الدَّيْر في خروجه إلى دمشق، فأقام عندهُ أياماً، ووافق نزولُه عيدَ الشعانين، رَوَى ذلك أحمد بنُ صدقة[2]، فقال: خرجنا مع المأمون، فنزلنا الدير الأعْلىٰ بالموصل لِطيبِه ونَزاهتِه، وجاء عيدُ الشعانين، فجلس المأمونُ في موضعٍ منه حَسَنٍ، مُشْرفٍ على دجلةَ والصحراء والبساتين، ويُبصِرُ منه كلَّ من يأتي إلى الديْر. وزُيِّنَ الديرُ في ذلك اليوم بأجمل زينةٍ،

---

(١) معجم متن اللغة: ١٥٨.

(٢) أحمد بن صدقة: طنبوري حاذق، له غناء كثير معروف، نشأ في الحجاز، وزار الشام، ثم أقام ببغداد، واتصل بالمأمون وغنَّى له. مات نحو (٢١٠ هـ = ٨٢٥ م).

وأحسن زيّ، وخرج رُهبانُهُ وقسّانُهُ إلى المذبح، وحَوْلَهم فتيانُهم، بأيديهم المجامِرُ، قد تقلّدُوا الصُّلْبَانَ، وتَوشَّحُوا بالمناديل المنقوشة، فرأى المأمونُ ذلك، فاستحسنه. ثم انصرف القومُ إلى صَوامِعِهم وقرابينهم، وعَطَفَ إلى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان، بيَدِ كلٍّ واحدٍ منهم تُحفَةٌ من الرياحين، وبأيدي طائفةٍ منهم كؤوسٌ فيها أنواعُ الشراب، فأدْنَاهم، وجعل يأخذُ من هذا تُحفةً ومن هذه تُحفة، وشُغِف بما رآهُ منهم، وما فينا إلا مَن هذه حالُه، وهو في أثناء ذلك يشربُ، والغناءُ يرتفع، ثم أمَر بإخْراج مَن كان يَصْحَبُه مِن وصَائِفه المُزَنَّرات، فأُخرِجَتْ إليه عشرون وصيفةً كأنهنَّ البُدورُ، عليهنَّ ثيابُ الديباج، وفي أعْنَاقِهنَّ صُلْبانٌ من الذهب، وبأيديهنَّ الخوصُ والزيتون، فقال: يا أحمد! قد قلتُ في هؤلاء أبياتاً فغنِّني بها، وهي:

ظِبَـاءٌ كـالـدنـانيـرِ مِـلاَحٌ فـي المقـاصيـرِ
جَـلاهُـنَّ الشعـانيـنُ علينـا فـي الـزنـانيـر
وقـد زَرْفَـنَّ أصـداغـاً كـأذنـاب الـزرَازيـر[1]
وأقْبلْـنَ بـأوسـاطٍ كـأوسـاط الـزنـابيـرِ

ثم أخرج نُعْماً جاريتَه، وكانت وصيفةً، فغنَّتْهُ:

وزعَمـتِ أنـي ظـالـمٌ فهجـرتِنـي ورَميْـتِ فـي كبـدي بسهـمٍ نـافـذِ
فَنَعَمْ ظلمتُكِ، فاصْفَحي وتجاوزي هــذا مقـامُ المستجيـرِ العَـائـذِ

فطَرِب وشرب، واستعاد الغناءَ مرَّاتٍ، ثم قال: أرأيتَ أحسنَ مما نحن فيه؟ فقلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! أن نشكرَ من خَوَّلكَ، فيَزِيدَكَ منه ويحفظَهُ عليك. قال: بارك اللَّهُ فيك، فلقد ذَكَّرتَ في موضع الذكرى... ثم أمر له

(١) زَرْفَنَّ: زَرْفَنَ شعرَ صدغَيْه، أي جعله كالزَّرافين، أي الحَلَق، واحِدُها زُرْفين.

بثلاثين ألف درهم[1]!..

* * *

● موسم عيد الصليب في دير قُنَّى:

يقعُ ديْرُ قُنَّى على نحو خمسين ميلاً من بغداد، مُنْحدِراً في الجانب الشرقي، بالقُرب من دجلة. وهو دَيْرٌ حَسَنٌ، نَزِهٌ، عامِرٌ. وموسمه الذي يجتمع فيه الناسُ إليه، هو عيد الصليب، ويُوافق اليومَ الرابعَ عَشَرَ من شهر أيلول (سبتمبر) من كل سنة. وفي الديْر مئةُ صَوْمعةٍ لرُهْبانِه، وكانوا يتبايعون هذه الصوامِعَ بما تُغِلُّه بساتينُها، إذ كان لكلِّ صومعةٍ حولَها بستانٌ، فيه من جميع الثمار والنخيل والزيتون. ويُطيف بالديْر سورٌ عظيم، وفي وسطه نهرٌ جارٍ. وقد وصَفَهُ الشعراءُ أحسنَ وصفٍ وأجْمَلَه، وذكروا أيامَ لَهْوهم فيه.. ومن ذلك قولُ أحدهم:

وكم وقفةٍ في دَيْر قُنَّى وقَفتُها ... أُغازِلُ فيه فاتنَ الطرْفِ أحْوَرا
وكم فَتْكةٍ لي فيه لم أَنْسَ طِيبَها ... أَمتُّ بها عُرْفاً، وأحْيَيتُ مُنْكرا
أغازِلُ فيه شادِناً أو غَزالةً ... وأَشربُ فيه مُشْرقَ اللونِ أحمرا

وكان إلى جانب هذا الدير قريةٌ كبيرةٌ تُعرف أيضاً بقرية دير قُنَّى، وقد خَرج منها عددٌ من مشاهير الكتَّاب والوزراء. ويبدو أن هذا الدير كان خَرِباً في القرن الثامن الهجري[2].

* * *

---

(١) الديارات: ١٧٧ ـ ١٧٩، ومعجم البلدان: ٢/٤٩٨.

(٢) معجم البلدان: ٢/٥٢٨، والديارات: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٣٩٦.

ومن طريف ما قيل في هذا الديْر أيضاً من الشعر، وهو يدلُّ على ما كان به من اللهو والطرب والمرح:

يـا مَنـزلَ اللهـو بـديْـرِ قُنَّـا ... قلبـي إلـى تلـك الـرُّبَى قـد حَنَّـا
سُقْيـاً لأيَّـامـكَ لمَّـا كُنَّـا ... نَخْتَـارُ منـك لـذَّةً وحُسْنـا
أيـامَ لا أنْعَـمَ عيـشٍ منّـا ... إذا انْتَشيْنـا وصَحـوْنـا عُـدْنـا
وإنْ فَنَـىٰ دَنٌّ بَـزَلْنـا دَنَّـا ... حتـى يُظـنَّ أننـا جُنِنَّـا
ومُسْعِـدٍ فـي كـل مـا أردْنـا ... يحكي لنا الغُصنَ الرطيبَ اللَّدْنا
أحسـنَ خَلْـقِ اللَّـهِ أدّى لحنـا ... وجـسَّ زيـرَ عُـودِهِ وغَنَّـى
بـاللَّـه، يـا قسِّيـسَ ديْـرِ قُنّـا ... متـى رأيـتَ الـرشَـأَ الأَغَنَّـا
متـى رأيـتَ فِتْنتـي يُـوحنّـا ... آهِ إذا مـا مَـاسَ أو تَثَنَّـى
يـا مُنْيـةَ القلـبِ إذا تمنَّـى ... فَتكْـتَ بـالصـبِّ بـك المُعَنَّـىٰ
ثـم قَلَبـتَ فـي الهـوى المِجَنَّـا[1] ... عـذّبتَـه بـالحـبّ فنّـاً فنَّـا
وصـارت الأرضُ عليـه سِجْنـا ... فمـا يُـلاقـي الجفـنُ منـه جَفْنـا
أفْـدِيـكَ لا تهجـرُ صَبَّـاً مُضْنَـى ... قـد كـان مـن غـدرك مُطمئنَّـا
أسـأت إذا أحسنـتُ فيـك الظنَّـا ... وصـار قلبـي فـي يـديـك رهنـا[2]

وأخيراً، إنني أَجْتَزِىءُ بالكلام على مَوسِميْ هذين العيديْن فقط عند نصارى العرب في العراق، عن الخوْضِ في الكلام على مواسِمَ أُخَرَ مثلِها كثيرةٍ، لأن ما كان بالعراق من الأَدْيِرة يُعَدُّ بالعشرات، ولكلِّ ديْرٍ منها عِيدٌ خاصٌّ به، يقعُ في موسمٍ دينيّ مُعيَّن، وموعدٍ معروف.. ولأن الأخبار لم

---

(١) يقال: قَلَبَ له ظهْر المِجَنّ، لمن كان لصاحبه على مَودَّةٍ ووئام ثم انقلب عليه وتحوَّل عن عهده.

(٢) الديارات: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

تُشِرْ إلى أنْشِطةٍ مُتنوِّعَةٍ كانت تجري بها، على نحو ما كان في المواسم العربية الأُخَر، وإنْ أشارت إلى أنَّ مناطقها جميعاً كانت في أيام الأعياد مُتَنَزَّهاتٍ للبطَّالين، وحاناتٍ للخمَّارين، ومَقَاصِفَ للخُلَعاءِ ومحبِّي الشراب والأكل واللهو، وكانت كذلك حافزاً للشعراء المتماجنين على قول أشعار الغزل، والتغنِّي بالنساء الحِسَانِ، والخمور الجِيَادِ، مما لو جُمع بعضُه في ديوانٍ، لَوَقَع في عدد من المجلَّدات!

* * *

الفصل الخامس

سوقُ المِربَد

المِرْبَدُ في اللغة مَحْبِسُ الإبِل، أو الموضعُ الذي تُحبَسُ به الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَم. . والموضعُ الذي يُنْشَرُ فيه التمرُ لِيَيْبَسَ[1]. والمِرْبَدُ ضاحيةٌ من ضواحي البَصْرَةِ، في الجهة الغربية منها، ممَّا يلي البادية، وإنما سُمِّيتْ مِرْبَداً لأنها كانت قديماً موضعَ سُوقِ الإبل[2].

والبصرةُ أولُ مدينةٍ اختُطَّت في الإسلام، ومُصِّرتْ في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، اخْتَطَّها وبنَاها سنةَ (١٧ هـ) عُتْبةُ بنُ غزوان[3]، على أرضٍ هي بعضُ أرضِ الأُبُلَّة، والأُبُلَّةُ يومئذٍ مَوْطِنٌ قديمٌ للعرب وإخوانِهم من أنباط السَّواد، شاركَهم فيه أقوامٌ من الهند واليونان والفُرس، وهي مرفأٌ على شَطِّ العرب، تَرْسُو فيه السفُنُ القادمةُ ببضائع الشرق الأقصى والهند، وكانت العربُ تُسمِّيه «ثَغْرَ الهند». وتَبعدُ الأُبُلَّةُ عن الموضع الذي اختُطَّتْ به مدينةُ البصـرة نحو اثنيْ عَشَر ميلاً[4]، ويُعَدُّ الوادي الذي يمرُّ به نهرُ الأُبلَّةِ من جِنَانِ الأرض، لكثرة ما فيه من أشجار النخيل،

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٧١ (ربد).

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٩٨.

(٣) عتبة بن غزوان: (٥٨٤ ـ ٦٣٨ م)، صحابي، فاتح، شهد بدراً والقادسية وفتح مَيْسانَ. وجَّهَهُ عمرُ إلى أرض البصرة والياً عليها، فاختطَّها ومصَّرها.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٤٣٦، وفيه أنها أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال.

والأُتْرُجّ، والنارنجِ، وصُنُوفِ الخضرةِ والزُّرُوعِ، ولحُسْنِ ما عليه من القصور المتناظرة، والأبنية الساحرة. . . ثم ما لبثت البصرةُ حتى اتَّسعتْ وحَلَّتْ محلَّ الأُبُلَّة(1).

والبَصْرةُ في الأصل حِجارةٌ رِخْوَةٌ بيضاءُ، وبها سُمِّيتِ البصرةُ التي بُنِيَتْ بالمِرْبَدِ، والبصرةُ والكذَّانُ كلاهما الحجارةُ الرِخْوَةُ، التي ليست بصُلْبَةٍ(2)، ولمَّا مرَّ عتبةُ بنُ غزوانَ بموضع المِرْبَدِ، ووجد فيه الكَذَّانَ الغليظَ قال: هذه البَصْرةُ، فانْزِلُوا باسم الله! ويومئذٍ اخْتُطَّتِ البَصْرةُ، وبُنِيتْ على جانبٍ من مِرْبَدِ الإبِل(3)، وقد كان هناك، كما يبدو، منذ عصر الجاهلية، ولم يكن له من الخَطَر إذ ذاك ما يجعلُه يُذْكر، أو تُنْقَلُ أخبارُهُ. . وإنما كان خَطَرُهُ بعدما استوطن العربُ البصرة، وتَبَحْبَحُوا أرضَ السَّوادِ، ومُدُنَ العراق، ثم بعد أن كان مِرْبَداً للإبل، وصار لهم سُوقاً للتجارة، «ليكونَ أوَّلَ ما ينزلون إذا قَصَدُوا البصرةَ، وآخِرَ ما يَتْركون إذا رحَلُوا عنها، ليقْضُوا فيه مَتاعاً لهم، ومَرافِقَ يَتَبلَّغُون بها، في ظَعْنِهم وإقامتهم»(4).

وكانت البصرةُ في نشأتها بلدةً رقيقةَ الحال، فقيرةً، وظلَّت على ذلك إلى أن انقضَى عهدُ الفِتَنِ، واستقرَّ الأمرُ في العراق لبني أميَّة، بمثل زيادٍ وابنهِ والحجَّاج، فانصرف أهلُها إلى شؤونهم، وعكفوا على الأرض يَشُقُّون فيها الأنهار، ويزرعونها، فانتعشوا، واستفاضت لهم بها زُروعٌ ونخيلٌ وتجاراتٌ، فما زالت تزدهِرُ، ويَطَّرِدُ نُموُّها، ويزدادُ عمرانُها، ويُثْري أهلُها،

---

(١) المفصَّل: ٧/٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٢) تاج العروس: ١٠/٢٠٣ (بصر).

(٣) عيون الأخبار: ١/٢١٧، ولسان العرب: ٤/٦٧ (بَصَر)، و١٣/٣٥٧ (كذن).

(٤) أسواق العرب: ٤٠٧.

ويَنْبغُ أبناؤها، حتى عُدّتْ من أكبر ثُغور الإسلام قاطبةً، وحتى غدت كما قيل فيها: قبّةَ الإسلام، وخزانةَ العرب(١)، وموطنَ السادةِ والقادةِ والعلماءِ.

وقد امتدَّ العمرانُ من البصرة إلى المربد، فبُنيت فيه الدُّورُ والقُصُور، وأُقيمتِ المُتَنَزَّهاتُ والمرافِقُ، وصار ما بينهما كلُّه عامِراً، نَضِراً، حتى قيل يومئذٍ: العراقُ عينُ الدنيا، والبصرةُ عينُ العراق، والمِرْبَدُ عينُ البصرة(٢)... ذلك أن المربدَ لم يَعُدْ سوقاً للتجارة وحسب، بل سوقاً للدعوات السياسيَّة، وسوقاً للشعر والأدب، وسوقاً لعُلوم العربية من نَحْوٍ وصَرْفٍ وبلاغة، وأصبح مجتمعاً عامّاً للعرب، يخرجون إليه كلَّ يومٍ، ويَنْضمُّ كلُّ امرىءٍ منهم إلى قومه، أو فريقه، أو حِزْبِه، فتَتَعدَّدُ المجالسُ، وتَتَنوَّعُ الحلقاتُ، ويَتَنقَّلُ بينها الشعراءُ والرُّوَاةُ والنُّحَاةُ، ويكون هنالك مديحٌ وهجاء، ومُفاخَرات ومُنافَرات، وخُطبٌ ومُنَاظَراتٌ، وكأنما أراد البَصْرِيُّون أن يكون لهم من المِرْبَدِ، مثلُ ما كان لعرب الجاهلية من عكاظ، مع ما كان بينهما من تبايُنٍ في المكان والزمان، فسوق عكاظ قامت في قلب الجزيرة العربية، ومَعْقِلِ العرب، ينزلُها أشرافُهم وخطباؤهم وشعراؤهم، وكلُّهم فصيحٌ بليغٌ، لا عُجْمةَ في لغته، ولا أثَرَ لأعجميّ، فكان دَوْرُها توحيدَ لهجات العرب في لغة مِثاليّةٍ واحدة، تَنزَّلَ بها القرآنُ الكريم.. والمِرْبَدُ قام في أقصى جزيرة العرب، وأدناها من حُدودِ الأعاجم، فكان ذلك مع الفُتُوحِ، وامتزاجِ العربِ بغيرهم من الأُمم، سبباً في شُيُوعِ اللَحْنِ، وفُشُوِّ العُجْمَة، وانتشارِ اللُّكنَةِ في العربية... وقد غَشِيَ هذا الفسادُ في اللغةِ، حتى مجالسَ الخاصَّةِ من العرب، فأَزْرَىٰ بلهجات بعضِ الفُصَحاء، وصار بعضُ الولاة يَلْحَنُ على

---

(١) تاج العروس: ١٠/ ٢٠٢ (بصر).

(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢٢٢، ومعجم البلدان: ٥/ ٩٨.

المِنبَر وهو يخطبُ الناسَ في المواسم، فكان دورُ المِرْبد تقويمَ الألْسِنة، وتَعْوِيدَها النطقَ السليمَ بالعربية الفصيحة، إلى ما كان له من أدْوارٍ أُخَر كثيرةٍ، يُمكن إجمالُها في جوانب التجارة، والسياسة، والأدب. أما التجارةُ فليس من هَمِّنا في شيءٍ أن نَعْرِضَ لها في هذا المقام، وأما السياسةُ والأدبُ، فكلاهما كان مُرْتبطاً أحَدُهما بالآخَر. ذلك أن الأحزابَ والشِّيَعَ، إنما كانت تُنتج أَدَباً، إذا شَعَرَ شعراؤها، أو خَطَب خطباؤها، أو تَحاوَرَ زعماؤها. ومَثَلُهم في ذلك كمثَل القبائل، يتبارَىٰ شعراؤها في الفخر والهجاء، ويتنافَسُ خطباؤها في ذِكرِ الأمجادِ، ومآثِرِ الآباءِ والأجداد.. إلى ما كان يعجُّ به المربَدُ من أعلام اللغة والنحو والشعر، يتسابقون إلى تَلقِّي فُصَحاءِ أهل البادية، ليأخذوا عنهم الصِّحَاحَ من مفردات العربية وقواعدها.

وحَسْبُنا في مُتابعة هذا الأمر، أن ننقلَ شيئاً مما ذكره أحمد أمين عن تطوُّرِ المربد في العصور الثلاثة: عصر الخلفاء الراشدين، وعصر بني أميَّة، وعصر العباسيين[١].. وشيئاً مما ذكره أيضاً سعيد الأفغاني في كلامه على المربد[٢].

* * *

(١) مجلة الرسالة: العددان ١٥ و١٦ لسنة ١٩٣٣، وضحى الإسلام: ٢/ ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) أسواق العرب: ٤١٢ ـ ٤١٣، ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

المطلب الأول ـ المِرْبَدُ في عصر الخلفاء الراشدين:

أَبْرَزُ أخبار المِرْبَدِ في ذلك العصر، ما كان بعد قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان، ذلك أن المربد انتقل وقتئذٍ من سوق تجارية إلى مَجمعٍ عامّ، حفل بالأحزاب السياسية، التي نشأت ممن يُطالبُ بدم عثمان، ومَن يُنكر عليهم هذا الحقَّ، ويُحاول كلُّ فريق أن يُؤيِّدَ دعواهُ بالخُطَبِ البليغة، يَسُوق فيها الأَدِلَّةَ والبراهينَ على صواب رأيه أو مذهبه. ولكن هذا الحوارَ لم ينفع، بل تطوَّر إلى قتالٍ، وكان المربدُ ساحةَ ذلك القتال.. ولئن شَهِدَ عكاظُ قِتَالاً بين قبيلتين في الجاهليَّة، لقد شهد المِربدُ أكبر فتنةٍ، وأشدَّ قتالٍ، وقف فيه المسلمُ في وجه أخيه المسلم يُكافحُه بسَيْفه، ويَشْرَعُ إليه رُمْحَه.



فقد خرجت يومئذٍ عائشة أمُّ المؤمنين إلى المربد، فنزلت به، ومعها مشيخةٌ من أصحاب الرسول عليه السلام، مُهاجِرينَ وأنصاراً، فيهم الزبيرُ بن العوَّام وطلحةُ بن عبيد الله، يطالبون بقَتَلةِ عثمان، ناقمين على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه لم يَقْتصَّ من قَتَلةِ عثمان، فخرج إليهم من البصرة مَن كان يرى رأيهم، ووقف معهم في ميمنة المربد. وخرج أيضاً عثمانُ بنُ حنيف عامِلُ عليٍّ على البصرة فيمن يُؤيِّده، ووقفوا في مَيْسرة المربد.. ثم تكلم طلحة، فأنْصَتَ الناسُ له، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر عثمانَ وفَضْلَه، وما استُحِلَّ منه، ودعاهم إلى الطلب بدمه، وحثَّهم عليه. وتكلَّم الزبيرُ بعده بمثل ما قال، فصاح مَن في ميمنة المربد: صَدَقا وبَرَّا، وقال من في مَيْسَرته: فَجَرا وغَدَرا وأَمَرا بالباطل، فقد بايَعَا عَلِيّاً، ثم جاءا يقولان ما قالا..

فتكلمت عائشة، وكانت جَهْوَرِيَّةَ الصوت، فحمدتِ الله وأَثْنَتْ عليه، وقالت: إن قَتَلَةَ عثمان فَجَرَةٌ غَدَرَةٌ كَذَبَةٌ، اقتحموا عليه داره، واستحلُّوا الدم الحرام بلا تِرَةٍ ولا عُذْرٍ، وإنَّ ممّا ينبغي، ولا ينبغي لكم غيرُه، أَخْذُ قَتَلةِ عثمان، وإقامةُ كتاب الله عزَّ وجلَّ[1] . . .

فأثَّر كلامُها في أهل الميسرة، وانقسموا فريقين، أحدهما يقول: صَدَقتْ، وبرَّتْ، وقالتِ الحقَّ، وأمَرَتْ بالحقِّ، والثاني يقول: كذبوا والله ما نعرفُ ما يقولون، ثم قام خطباؤهم يَردُّون، فتَحاثَىٰ الناسُ، وتحاصَبُوا، وأَرْهَجُوا. . وكاد الأمرُ يقفُ عند هذا، فإن أصحابَ عائشة ما أرادوا قتالاً، ولكن طائفةً في أصحاب ابن حنيف، ولعلَّ أكثرهم ممن اشترك في دَم الخليفة الشهيد، تعجَّلوا الحوادثَ، وأَقْبَلُوا يُنْشِبُون القتالَ، فأَشْرَعَ أصحابُ عائشة رماحَهم، وأَمْسَكُوا لِيُمْسِكَ أصحابُ ابن حنيف ويَكُفُّوا، ولكنهم لم يكفُّوا، بل هجموا وأعملوا القتلَ في حزب أم المؤمنين. . ثم كان ما كان من تلك الحرب، التي اشتُهرت بموقعة الجمل، وانتهت بانْدِحَارِ أصحاب عائشة، ومقتل طلحة والزبير، وهي أَوَّلُ حربٍ فرَّقَتْ كلمة المسلمين، وجعلت بأسهم بينهم شديداً.

* * *

المطلب الثاني ـ المِرْبَدُ في عصر بني أُميّةَ:

اتَّسَعَ المربدُ في أيام الأمويين، وكثُر قاصدوهُ من الأطراف، وازدهت

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٣ وما بعدها، والكامل: ٣/٢١٢ ـ ٢١٣، وفيهما ما جرى بالتفصيل. . .

سوقُه «بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل، مما لم يكن في العهد الأول، لانْشِغَالِ الناس آنئذٍ بالجهاد والفتوح، وعدم فَراغِهم لهذه الألوان من الأدب، التي لا تَغْزرُ وتَـتَهَيَّءُ إلا بعد اسْتِتْباب حال الدولة، ولـم نَعْهَدْ حركةً أدبيةً نشأت إبَّانَ الفُتوح حين تَتَأسَّسُ الدول. وازْدان هذا العهدُ بأفْحَلِ رُجَّازٍ وشعراءَ أخرجهم العهدُ الأموي، ويُخَصُّ بالذكر منهم جريرٌ والفَرزْدَقُ والأخْطَلُ والبَعِيثُ وراعي الإبلِ وذو الرِمَّةِ، ومن الرُّجَّازِ رُؤْبَةُ وأبوه العجَّاجُ وأبو النجم العجليُّ»[١] . . .

وتحوَّلَ المِرْبَدُ، وسط هذه الحركة الأدبية، إلى مَسْرحٍ يأتيه الشعراءُ من البصرة والكوفة والبادية، ليُنْشِدوا الناسَ خير ما صاغُوه من أشعار. واستطـاع جريـرٌ والفرزدق أن يتقدَّما في سوق المربد بفن الهجاء القديم، وأن يجعلا منه فناً مُتطوِّراً، يقوم على الحِوَارِ والمناظرة في حقائق العَشيرة، فكان جريرٌ ينتصر لقبائل قيس، والفَرزدق لتميم، في أسلوبٍ جَدَليّ رائع، جعل كثيراً من الشعـراء يقتدون به في شعرهـم، وكان النـاسُ يتجمَّعُـون حول أولئك الشعراء، يستمعون إليهـم، ويُصَفِّقُون لهم علامة الرضا والإعجاب[٢]. وقد أنتج هذا الفنُّ الجديدُ في التهاجي، قصائدَ النقائض المشهورة، التي صدرت كَثْرتُها عن المِرْبد، وعُرِفَت بنقائض جرير والفرزدق والأخطل. وكان لكلِّ شاعر من هؤلاء الشعراء حلقةٌ معروفةٌ بالمِرْبَدِ، يجلسُ فيها، فيجتمعُ الناسُ إليه، وذكر الأصفهانيُّ أنه «كان لراعي الإبل[٣]،

---

(١) أسواق العرب: ٤١٩.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ: ١٦.

(٣) راعي الإبل: أبو جندل، عُبَيد بنُ حُصَين، من بني نُمَيْر، من هوازن. وكان من فحول الشعراء، ومن جِلَّةِ قومه، وهم أهل بيت وسؤدد. لُقِّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. عاصر جريراً والفرزدق. توفي نحو (٩٠ هـ = ٧٠٩ م).

والفرزدق[1]، وجُلَسَائهما حَلقةٌ بأعْلَىٰ المِرْبَدِ بالبصرة يجلسون فيها»[2]، وكان راعي الإبل يقضي للفرزدق على جرير، ويُفَضِّلُه. فخرج جريرٌ يوماً إلى المربد يتعرَّضُ له، ليلقاهُ حين يمرُّ مُنْصرِفاً من مجلسه، ولمّا رآهُ اسْتَوقَفَهُ وقال: يا أبا جندل، إن قولَك يُستَمعُ، وإنك تُفَضِّل الفرزدق عليَّ تفضيلاً قبيحاً، وأنا أمدحُ قومَكَ، وهو يهجوهم، ويكفيك من ذاك إذا ذُكرنا، أن تقول كلاهما شاعرٌ كريمٌ، ولا تحتملُ مني ولا منه لائمةً! فلم يلتفتِ الراعي إليه، فانصرف جريرٌ غضبانَ إلى منزله، وجعل يُعِدُّ قصيدةً في هجائه، فما زال يُهَمْهِمُ بها حتى كان السَّحَرُ، وإذا هو يُكبِّرُ قد قالها ثمانين بيتاً في بني نُمير، ولمَّا خَتَمها بقوله:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فـلا كعْبـاً بلَغـتَ ولا كِـلاَبَـا

كبَّر وقال: أَخزَيتُه وربِّ الكعبة! ثم أصبح، حتى إذا عرفَ أن الناسَ قد جَلَسُوا في مجالسِهم بالمِربَد، قصد مجلسَ الفرزدق والراعي، ثم اندفع في قصيدته يُنْشِدُها، فنكَسَ الفرزدقُ والراعي، وسكتَ الناسُ، حتى إذا فرغ منها سَارَ، وثَبَتَ الراعي ساعةً، ثم ركب وخَلَّىٰ المجلسَ، وهو يقولُ لقومه: فَضَحكُم واللَّهِ جريرٌ، فليس لكم ها هنا مُقَامٌ[3].

ويبدو أن جريراً كان أَقْذَعَ مُعَارِضيه هجاءً، وأقْدَرَهم على امتلاكِ

---

(١) الفرزدق: همَّام بنُ غالب من بني دارم، من تميم، أبو فراس. شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في العربية، كان يُقال: لولا شعرُ الفرزدقِ لذَهَبَ ثُلُثُ لغةِ العرب، ولولاهُ لذهب أيضاً نصفُ أخبار الناس. أخباره مع جرير والأخطل أشهرُ من أن تذكر، توفي (١١٠ هـ = ٧٢٨ م).

(٢) الأغاني: ٨/ ٢٨.

(٣) المرجع نفسه: ٨/ ٢٨ ـ ٣٠.

ناصية القول، وأبْرَعَهم اقتناصاً للمعنى وتَوْليده، وأعْذَبَهم أسلوباً، وأكثَرهم تهكُّماً واسْتِهزاءً، يرمي خَصْمَهُ بما يُضْحِكَ الناس، ويَحُطُّ من شأن قبيلته، ويهتكُ الحرُماتِ والأعراض، فكان الناسُ يخشَوْنَ شِرَّةَ لسانه، والبيتُ الذي قاله في بني نُمير يُعَدُّ من أشَدِّ الهجاء، لما فيه من التفضيل[1]. .

وكتُبُ الأدب، ودواوين الشعر مَلأىٰ بكثيرٍ من قصائد هذا النوعِ من الهجاءِ، وهو فنٌّ جديدٌ قام على الحِوار والمناظرة والتحدّي، يَنْظِمُ الشاعِرُ فيه قصيدةً، فيُبادِرُ مُقارِعُهُ فينقُضُ هذه القصيدةَ بأُخرىٰ تجري مع الأُولى في وَزْنها وقافيتها، ويحاول أن يُظهِرَ فيها مقدرتَه وتفوُّقَهُ. . وتُعَدُّ النقائضُ، التي قيل معظمُها في المِرْبَد، من الوثائق التاريخيَّةِ الجامعةِ للحوادثِ والأيام، والأحْسَابِ والأنْسابِ، والمَنَاقِبِ والمثَالب، وأخبارِ العرب في جاهليتها وصَدْرِ الإسلام، وأشهرُها نقائضُ جريرٍ والفَرزدق والأخْطَلِ التغلبي. وقد أذْكىٰ نيرانَ هذا الفنِّ، في العصر الأمويّ، انْبعَاثُ العصبيَّة القبليَّة مُجدَّداً بين العرب، بعدما خَبَتْ نارُها ورَقَدَتْ بظهور الإسلام. وكان الأمويُّون يُعْنَوْن بهذه العصبيَّة لتأييد دولتهم، وقد تمثَّلتْ بأجْلَى صُوَرِها في مجتمعات العرب بالبصرة، فسَاعدوا على إحيائها، وأرادوا أن يكون لهم من سوق المِرْبَد بالبصرة، مثلُ ما كان لهم ولآبائهم من سُوق عكاظ بنَجْدٍ، فأدركوا بُغْيَتَهم، وبَلَغُوا ما أرادوا، فكانت تنعقد لهم بالمِرْبَدِ مجامِعُ للتفاخُر بالأحساب، والتنافُرِ بعِزَّةِ الآباء، والتماجُدِ بالكرم، وإنهابِ المالِ اكتساباً للثناءِ والحمد والشرف بين العرب.

وأخبارُ ذلك كثيرةٌ يطولُ بنا الكلامُ لو مضينا وراءَها بالمتابعة والذِّكْرِ، ولكننا نكتفي بالمثَلِ. . كان الرجلُ في الجاهلية، إذا أراد أن يسير في العرب

---

(١) محمد إبراهيم جمعة ـ جرير: ٥٢ ـ ٥٣، دار المعارف بمصر.

ذِكْرُهُ بالكرم والشرف، جاء سوقَ عكاظ بمالِهِ، ثم دعا الناسَ إلى انْتهابِهِ. . . ويُحكىٰ أن زياد بنَ أبي سفيان نَهىٰ، في ولايته البصرةَ، أن يُنْهِبَ أحَدٌ مالهُ، ثم إن الفرزدق بَعَثَهُ أبوهُ، غالبُ بن صعصعة الدارميُّ، في إبِلٍ وجَلَبٍ ليبيعَها، ويشتريَ بثمنها أكْسِيَةً وميرةً لأهله. فباعها في المِرْبَدِ، وأخذ ثمنَها فجعله بين ثيابه، وعقد عليه مِطْرَفَ خَزٍّ، فعَرَض له رجلٌ فقال: لشَدَّ ما تَسْتوْثق منها! أمَا لو كان مكانَكَ غالبُ بنُ صعصعة لما صَبَر عليها. . فدعا الفرزدقُ أهلَ المِرْبَدِ، فقال لهم: دُونكُمُوها، ومَن أخذ شيئاً فهو له. فقال له أحدُهم: فألْقِ رداءَك يا ابنَ غالب! فألْقَاهُ، وقال آخَرُ: ألْقِ عمامتك! فألقاها، وقال ثالث: ألْقِ قميصَكَ! فألقاه له، حتى بقيَ في إزَارٍ، فقالوا: ألْقِ إزارَكَ! فقال: لن أُلْقِيَهُ وأمشيَ مُجرَّداً، ويَحسَبُني الناسُ مجنوناً، ولستُ بمجنون. . . فبلغ الخبرُ زياداً، فأرسل إلى المربد من يأتيه بالفرزدق، فجاء رجلٌ من قومه على فَرس، وقال له: أُتِيتَ فالنَّجاءَ، وأرْدَفَهُ خلفَهُ، وركَضَ حتى تَغيَّب. ووصل رجالُ زياد فلم يجدوا الفرزدق، فأخَذَ زياد عَمَّيْنِ له كانا معه فحَبَسهما، فقيل لزياد: شَيْخَانِ سَامِعَان مُطِيعَان، ليس لهما ذنبٌ فيما صنعه الفرزدق، فخلَّىٰ عنهما. فأتَيَا إلى الفرزدق فقالا: أخْبِرنا بجميع ما أَمَرَكَ به أبوك من ميرةٍ أو كسوة، فأخبرهما، فاشْتَرَيَاهُ من مالهما، وانطلق به إلى أبيه، فوجَدَهُ على علمٍ بما صنع، راضياً عنه أنه يُحْسِنُ مِثلَ ذلك[1].

وكان ذو الرُّمَّةِ[2]، يذهب أيضاً إلى المِرْبَد، ويقفُ فيه مُنْشِداً شعره،

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) ذو الرُّمَّة: أبو الحارث، غيلان بن عقبة العَدَويُّ المُضَريُّ، (٧٧ ـ ١١٧ هـ = ٦٩٦ ـ ٧٣٥ م)، صاحب ميّة المِنْقَريَّة. شاعر بدويٌّ، من فحول الطبقة الثانية من الشعراء في عصره. أكثرُ شعره تَشْبيبٌ وبكاءُ أطلال، وكان مجيداً في التشبيه.

والناسُ مُجتمِعةٌ إليه. ولمّا أنشدهم قصيدتَه البائيَّةَ، ودُموعه تجري على وجهه:

ما بالُ عَيْنِكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ كأنه من كُلَىً مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ[1]

قال جرير: لو خَرِسَ ذو الرُّمَّةِ بعد هذه القصيدة لكان أشعَرَ الناس! وبَيْنا هو قائمٌ بين الناس يوماً، عليه بُرْدٌ ثمينٌ، يُنشِدُهم بعضَ قصائده، تصدَّى له رَجُلٌ فنَقَدَهُ نقداً شديداً، وأخَذَ عليه سوءَ تَشْبيهاته، فآلىٰ ذو الرمَّة على نفسه ألاَّ يأتيَ إلى المِرْبَد بعدها، أو يموتَ ذاك الرجل[2].

واشتُهِر بالمِرْبَدِ، في أيام بني أميَّة، إلى جانب أولئك الفُحول من الشعراء، طائفةٌ أخرى من كِبَارِ الرُّجَّازِ، أبرزُهم: أبو النجم، الفضلُ بنُ قدامة العِجْلي، من بني بكر بن وائل، وأبو الشَّعْثَاء، عبدُ الله بن رؤبة العجَّاج السعديُّ، من بني تميم، وإبنُه أبو الجَحّاف، رُؤْبة بنُ عبد الله العجَّاج... وكانوا يخرجون إلى المربد، وتجتمع الناس إليهم، تستمعُ إلى أراجِيزهم، وكانوا فُصَحاءَ مَشْهورينَ، أَخَذَ عنهم أعْيانُ أهلِ اللغة[3].

وبفَضْلِ هؤلاء الرجّاز، وأولئك الشعراء، خَلَّفَ المِرْبَدُ في عصر بني أميَّة، هذا المحصولَ الواسعَ من الرَّجَزِ، والشِّعْرِ، والطُرَفِ الأدبيَّةِ، ومَلأَ بها أُمَّهاتِ كتُبِ الأدب، ففَاق في ذلك مَحصُولَ عكاظٍ كَثْرةَ إنتاجٍ، وعَدَدَ شعراء ورُجّازٍ.

* * *

(١) الكُلَى: ج الكُلْيَة، وكُلْيَةُ المزَادَة أو الرَّاوِيَة: جُلَيْدَةٌ مستديرةٌ، مشدودةُ العُروة، قد خُرِزَت مع الأديم، تحت عروة المزادة. المَفْرِيَّة: المشقوقة. السَّرِبُ: السائل. شبّه انسكاب الدمع من عينه، بانبجاس الماء من راوية مشقوقة أو مثقوبة.

(٢) الأغاني: ١٧/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٣) الأغاني: ١٠/ ١٥٧ ـ ١٦٠، والأعلام: ٣/ ٣٤، و٤/ ٨٦، و٥/ ١٥١.

المطلب الثالث ـ المربدُ في العصر العَبَّاسيّ:

ظلَّ المِرْبَدُ قائماً في العصر العباسيّ، ولكنه كان إذ ذاك يُؤدِّي غرضاً آخَرَ، غير الذي كان يُؤدِّيه في العصر الأمويّ. ذلك أن العصبيَّةَ القبليَّةَ، بل القوميَّةَ، أخذتْ تَضْعُفُ بتَغْليبِ العباسيِّينَ العنصرَ الفارسيَّ على العرب، في مرافق الدولة ومجتمعاتها كافةً. فأحسَّ العربُ بالخَطَر يُوشِكُ أن يَدْهَمَهُم جميعاً، سواء أكانوا من الشمال أو من الجنوب، ولكنهم لم يستطيعوا التصدِّيَ له، لما كان من رُؤوس الأعاجم من نفوذ في قصور بني العبَّاس.. ثم ما لبثْ أن فَشَتْ في العرب وانتشرتْ عاداتُهم، وأخلاقُهم، وطرائقُ معيشتهم، وجعل الناسُ في المدُن، كالبصرة والكوفة وبغداد، يَحْيَوْنَ حياةً اجتماعيةً، هي أقربُ إلى حياة الفُرس منها إلى حياة العرب، وتقاليدهم، وعاداتهم.. كما انصرف، في الوقت نفسِه، الخلفاءُ والأمراءُ والكِبَارُ عن مثل ذلك النزاعِ الذي كان بين جرير والفرزدق والأخطل والراعي وغيرهم، وطَفِقَتِ العلومُ تُزَاحِمُ الشعرَ والأدبَ، وفشَا اللحْنُ في العربية بكثرة العبيد والإمَاءِ في بيوت العرب، وبِدُخُولِ الأجانب في الإسلام، من الموالي وغيرهم، فأفْسَدُوا، حتى على العرب الخالصةِ لغتَهم، وحينئذٍ تحوَّل المِرْبَدُ يُؤدِّي غَرَضاً آخَرَ يتَّفِقُ وهذه الحياةَ الجديدةَ.

وهكذا أصبح الشعراءُ يقصدون المِرْبَدَ، لا ليَتَهاجَوْا أو يَتَفاخَروا، وإنما ليأخذوا عن أهل البادية مَلَكَةَ الشِّعْر، وليكْتَسِبُوا منهم فصاحةَ المفردات، وبلاغةَ العِبَاراتِ، وقد عُرِفَ أن بشَّار بنَ بُرْد، وأبا نُواس[1]،

(١) أبو نواس: الحسَنُ بن هانىء (١٤٦ ـ ١٩٨ هـ = ٧٦٣ ـ ٨١٤ م)، شاعر العراق في زمنه، ولد في الأحواز، ونشأ بالبصرة. أول من نهج للشعر طريقته الحَضَريَّةَ، وأخرجه من اللهجة البدوية، قال الجاحظ: ما رأيتُ رجلاً أعْلَمَ باللغة، ولا أفْصَحَ لهجةً من أبي نواس.

وأمثالَهما كانوا يخرجون إلى المربد، ويُخالطونَ البُدَاةَ من العرب ليتعلَّموا منهم أساليبَ الشعر، ويكتسبوا مَلَكَتَهُ. -

ولمّا اشتدَّ الخِلافُ بين مَدرستَيْ البصرة والكوفة، وتَعصَّبَ كلٌّ منهما لمذهبه في اللغة والنحو، كان النُّحَاةُ وأهلُ اللغة يقصدون المِرْبَدَ ليأخذوا عنه ما يُقَوِّمُ ألْسِنَتَهم، ويُصَوِّبُ قواعدَ اللغة عندهم، أو ما يُؤَيِّدُ مَذَاهِبَهم... فكان المِرْبَدُ أعظمَ مَوْرِدٍ اسْتمدَّتْ منه مدرسةُ البصرة دعائم مذهبها في النحو واللغة والشعر.. ذكر القالي أن الأصمعيَّ قال: جئتُ إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال لي: من أين أقبلتَ يا أصمعيُّ؟ قلت: جئتُ من المِرْبَدِ. قال: هاتِ ما معك.. فقرأتُ عليه ما كتبتُ في ألْواحي، فمرَّت به ستةُ أحْرُفٍ - أي كلمات - لم يَعْرِفْها، فخرج يعدو في الدرجَة، ويقول: شَمَّرتَ في الغريب، أيْ غَلَبتَني فيه[1].. ومن هذا نعلم أن اللغويين كانوا يخرجون إلى المِرْبَدِ، ليأخذوا عن أهله، وأنهم كانوا يُدَوِّنون ما يسمعون في صُحُفِهم.. ونجد في تراجم النُّحَاةِ أن كثيراً منهم كان، في ذلك العصر، يخرج إلى المِرْبَدِ ليأخذَ عن أهله قواعدَ النَّحْوِ والصَّرْفِ، شأنُهم في ذلك شأنُ الأدباء، فقد كان هؤلاء يخرجون أيضاً إلى المِرْبَدِ، ليطَّلِعُوا على ما خَلَّفَهُ العربُ من تراثٍ في الشعر والخُطَب والحِكَم والأمثال وأيّام العرب. ويُذكر أن الجاحظ مثلاً أخذ النَّحْوَ عن الأخفش[2]، والكلامَ عن النظّام[3]، وتَلقَّفَ الفصاحةَ شفاهاً من

---

(١) الأمالي - النوادر: ٣/ ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) الأخفش: لقب ثلاثة من مشاهير النحاة، الأخفش الأكبر، توفي (١٧٧ هـ = ٧٩٣ م)، والأخفش الأوسط (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م)، والأخفش الأصغر (٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م)، وتوفي الجاحظ (٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م).

(٣) النظّام: إبراهيم بن سيّار، أبو إسحاق، نشأ في البصرة، وهو من المعتزلة. مكانته عظيمة في الفكر الإسلامي، لأنه بادر إلى التصدِّي للمذاهب الفلسفية المانيَّة (نِسبةً إلى ماني) واليونانية. توفي (٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م).

العرب بالمِرْبَد[1]. . . فكان إقبالُ العلماء والنُحاة والشعراء والأدباء على المِرْبَد، في هذا العصر، من العوامل التي أعانَتِ العربيةَ على الثبات في وجه الهجمة الشعوبية، وما كانت تَنقلُه معها، أو تَدَّعيه لنفسِها من الحضارة والتقدُّم. ومن هنا كان سُكانُ البصرة أعْرَقَ في الفصاحة من سائر العرب.

* * *

ولعلّ خير مثالٍ نَسُوقُه عمَّا كان عليه المِرْبَدُ في ذلك العصر من المُسْتَوىٰ الثقافي، حِوَارٌ فلسفيٌّ بين ابنِ المقفَّعِ[2]، وطائفةٍ من الأدباءِ بالمِرْبَد، يُفَاضِلُونَ بين الأُمم، أيُّها أعْقَل. . .

«قال شبيبُ بن شَيْبَة[3]: إنَّا وقوفٌ بالمربد، وكان المربَدُ مَأْلَفَ الأشراف، ومجتمعَ الأعيان، وقد حضر أعْيَانُ البصْرة، إذ طلع ابنُ المقفَّع، فما فينا أحدٌ إلا هَشَّ له، وبدأناهُ بالسلام، فقال: ما يَقِفُكم على مُتُونِ دَوَابِّكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بَعَثَ الخليفةُ إلى أهل الأرض يبتغي مِثْلكم ما أصاب أحداً سواكم، فهل لكم بمجلسٍ في ظِلٍّ مَمْدُودٍ، ووَاقِيَةٍ من الشمسِ، واستقبالٍ من الشَّمَالِ، وتَرْويحٍ للدَّوَابِّ والغِلمان، ونَتَمهَّدُ الأرضَ، فإنها خيرُ بِسَاطٍ وأَوْطَؤُهُ، ويسمعُ بعضُنا من بعض، فهو أَمَدُّ للمجلس، وأَدَرُّ

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) عبد الله بن المقفَّع: (١٠٦ ـ ١٤٢ هـ = ٧٢٤ ـ ٧٥٩ م)، من أئمَّة كُتَّابِ العربية، أصله مجوسيٌّ فارسي ثم أسلم. عُني بترجمة كتب أرسطو في المنطق، وكتاب كليلة ودمنة عن السريانية، وله رسائلُ في غاية الإبداع، منها: الأدبُ الصغير، والأدبُ الكبير. اتُّهِم بالزندقة، فقتله أمير البصرة.

(٣) شبيب بن شَيْبَة التميميُّ: أبو معمر، شريفٌ، أديبٌ، كان يُقال له: الخطيبُ، لفصاحته، نديمُ الملوك، وجليسُ الفقراء، وأخو المساكين، من أهل البصرة، وإليه كان يَفْزَعُ أبناءُ قومه في حوائجهم.

للحديث؟.. فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دَوَابِّنا في تلك الدار، نَتَنَسَّمُ الشَّمَالَ، أي ريحَ الشمال.. فلما استقرَّ بنا المكانُ، قال لنا: أيُّ الأُمَم أعْقَلُ؟ فَظَنَّنَا أنه يُريد الفُرسَ، فقُلنا: فارسُ أعْقَلُ الأُمم! نقصدُ مُقَاربتَه، ونَتَوخَّى مُصَانَعتَه. فقال: كلاَّ، ليس ذلك لها، ولا فيها، هم قومٌ عُلِّمُوا فَتَعلَّمُوا، ومُثِّلَ لهم فامْتَثَلُوا واقْتَدَوا، وبُدِئُوا بأمرٍ فصاروا إلى اتِّبَاعِه، ليس لهم اسْتِنْباطٌ، ولا اسْتِخْراج... فقُلنا له: الرُّومُ.. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبْدانٌ وَثيقةٌ، وهم أصحابُ بناءٍ وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يُحْسِنُون غيرهما... قلنا: فالصِّينُ.. قال: أصحابُ أَثَاثٍ وصَنْعَةٍ، لا فِكْرَ لهم ولا رَوِيَّة... قلنا: فالتُّرْكُ.. قال: سِبَاعٌ للهِرَاشِ... قلنا: فالهند.. قال: أصحابُ وَهْمٍ، ومَخْرَقَةٍ، وشَعْبَذَةٍ، وحيلة... قلنا: فالزَّنْجُ.. قال: بهائمُ هامِلَة...

فَرَدَدْنا الأمرَ إليه، فقال: العربُ... فتَلاحَظْنَا، وهَمَسَ بعضُنا إلى بعض، فغَاظَهُ ذلك منا، وامْتُقِعَ لونُه، ثم قال: كأنكم تظنُّون فيَّ مُقَارَبتَكم، فواللّهِ لَوَدِدْتُ أن الأمر ليس لكم، ولا فيكم، ولكن كرِهْتُ إن فاتني الأمرُ أن يفوتَني الصواب، ولكن لا أَدَعُكم حتى أُبيِّن لكم لمَ قلتُ ذلك!. لأَخْرُجَ من ظِنَّةِ المداراة، وتَوَهُّم المصانعة.. إن العربَ ليس لها أَوَّلٌ تَؤُمُّه، ولا كتابٌ يَدُلُّها، أهلُ بلدٍ قَفْرٍ، ووَحْشَةٍ من الإنس، احتاج كلُّ واحدٍ منهم في وَحْدته إلى فِكْرِهِ وعقله، وعلموا أن معاشَهم من نبات الأرض، فوَسَمُوا كلَّ شيءٍ بسِمَتِهِ، ونَسَبوه إلى جِنْسه، وعرفوا مصلحةَ ذلك في رَطبِه ويابِسِه، وأوقاته وأزْمِنَتِهِ، وما يَصْلُحُ منه في الشاةِ والبعير، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعيّاً، وصَيْفيّاً، وقَيْظِيّاً، وشتويّاً، ثم علموا أن شربهم من السماء، فوصفوا لذلك الأنواء، وعرفوا تَغَيُّرَ الزمان، فجعلوا له منازله من السَّنَة، واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجومَ السماءِ أَدِلَّةً على أطراف

الأرض وأقطارها، فسَلكُوا بها البلاد، وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المُنْكَر، ويُرغِّبُهم في الجميل، ويَحضُّهم على المكارم، حتى إن الرجُلَ منهم وهو في فجٍّ من الأرض يصفُ المكارِمَ فما يُبْقي من نعْتِها شيئاً، ويُسْرِفُ في ذمِّ المساوِىء فلا يُقصِّر، ليس لهم كلامٌ إلا وهم يُحَاضُّونَ به على اصطناع المعروف، ثم حِفْظِ الجار، وبَذْلِ المال، وابْتِنَاءِ المحامِد، كلٌّ واحدٍ منهم يُصيبُ ذلك بعقله، ويستخرجُه بفِطْنَتِهِ وفكرته، فلا يتعلَّمونَ، ولا يتأدَّبُون، بل نحائِزُ مُؤَدَّبةٌ[1]، وعقولٌ عارفةٌ، فلذلك قلتُ لكم: إنهم أعقلُ الأُمَم، لِصِحَّةِ الفطرة، واعتدال البِنْيَة، وصَوابِ الفِكر، وذكاء الفهم[2]...



كان المِربَدُ مدرسةً علميَّةً، اختلف مَنْهجُها في العصر العباسي عمَّا كان عليه في العصر الأُمَويِّ، وأدَّت فيه رسالةً مختلفةً عن رسالتها في ذلك العصر. وإلى ذلك كان المربدُ «منشرةً للمحامد والمساوىء، مَسَرَّةَ الصديق، وغيظَ العَدُوِّ، فكلُّ من أراد أن يكْبِتَ خصماً، أو يَحْقِرَ قبيلةً، أو يَشْهَرَ مَحْمَدَةً، طلب لها المِرْبَدَ يجعلُها فيه، لتكون أشْيَعَ، وأَسْيَرَ، وأبْلَغَ في الإرضاء والإغاظة. وقد كان المربدُ مسرحاً لدعوات سياسيةٍ، ودينيَّةٍ، واسْتِغَاثاتٍ، وشكوى، ورثاءٍ، وفَخْرٍ، كما كانت عكاظ، وأحْفَلَ ما كان المربَدُ، في النصف الثاني من عهد الأمويين، والثُلُثِ الأول لعهد العباسيين»[3]، وتفرَّدَ المربدُ بأمرٍ علميّ لم يكن له في عكاظ مَثِيلٌ، فقد كان يُهْرَعُ إليه طُلَّابُ الفصاحةِ من كلِّ وجْهٍ، يلتمسونَها في رِحَابِه، عند أهلِه

---

(١) النحائز: الطبائع والعادات، الواحدةُ نَحِيزَة.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٧١ ـ ٧٣، والعقد الفريد: ٣/ ٣٢٤.

(٣) أسواق العرب: ٤٢٤.

وجيرانِه من البادِيَة، حتى نَبَغَ منهم عددٌ غير قليل. . كما أنه أرْفَدَ اللغةَ بمادَّةٍ كثيرةٍ، عليها أسَّسَ النُّحَاةُ قواعِدَهم وأصلحوها، وذلك بما كانوا يقصدون له فُصَحاءَ الأعراب يسألونهم فيما هم فيه مختلفون، ويأخذون عنهم مستفيدين ومُتعلِّمين. . . ومن المربد، وعلى هامشه، غُذِّيَ الأدبُ بقصصٍ وأساطيرَ، كما غُذّيَ التاريخُ بأخبَارِ ما وقع، ووَضَعَ مَن وضَع من الرواة والأخباريين أحاديثَ حاكُوا بها ما وقع، وفي مجالسِه وحَلقاته اضْطَرعَتِ الأهواءُ المتبايِنَةُ، والنزعاتُ المختلفةُ، اسْتغلَّها الشعوبيُّون والغُلَاةُ والمنافحون عن الحقِّ على السواء[1].

صفوةُ القول أن المِرْبدَ كان بحقٍّ مفخرةَ البَصْرِيِّينَ خاصةً، والعربِ عامَّةً، لما كان له من آثارٍ عميقةٍ بارزةٍ في حياتهم العقلية والأدبية واللغوية.



المطلب الرابع ـ آخِرُ العهد بالمربد:

لعلَّ أعظمَ مُصيبةٍ أصابتِ المِرْبَدَ، كانت سنة (٢٥٧ هـ = ٨٧٠ م) أيَّامَ هاجَمَ البصرةَ جماعةُ الزَّنْج، وهم جيلٌ من السُّودان، اسْتُقدِمُوا من شرقيّ أفريقية إلى البصرة، لِكَسْحِ السِّبَاخ، أي لِكَنْسِ الطَحالِبِ ونحوِها، في نواحي الفرات الجنوبية[2]، تَزعَّمهم عليُّ بنُ محمد الورزنيني[3]، فجاؤوها من

---

(١) أسواق العرب: ٤١٢.

(٢) تاريخ العرب: ٥٤٣.

(٣) **علي بن محمد الورزنيني**: الملقَّبُ بصاحب الزَّنج، وبالخبيث، كان من كبار أصحاب الفتن في العهد العباسي، وفتنتُه عُرفت بثورة الزَّنج، لأن أكثر أنصاره كان من سُودان أهل البصرة، وكان يدَّعي الإنتسابَ إلى العَلَويين، وقد استفحل أمره، حتى ظفر به الموفَّق بالله العباسي سنة (٢٧٠ هـ)، في أيام الخليفة المعتمد (٢٢٩ ـ ٢٧٩ هـ)، فقتله وبعث برأسه إلى بغداد.

ثلاثِ نَواحٍ: المِرْبَد، والخُرَيْبَة، وبني سعد[1]، فأحرقوا الدُّورَ، وسَلَبُوا ما كان فيها، وأقاموا يقتلون الناسَ هنالك، ولا يُبْقون على أحد.. وجاء في حديث الطبريّ، عن ذلك اليوم المشؤوم، روايةٌ قال فيها محمد بن سمعان الكاتب: «فإني يومئذٍ لفي المسجد الجامع، إذ ارتفعت نِيرانٌ ثلاثٌ، من ثلاثة أَوْجُهٍ: المِرْبَد وزهران وبني حِمَّانَ[2]، في وقتٍ واحدٍ، كأن مُوقِديها كانوا على ميعاد، وذلك صدرَ يوم الجمعة، وجَلَّ الخَطْبُ، وأيْقَنَ أهلُ البصرة بالهلاك...»[3]، ثم عَمَّتْهُمُ الفاجِعةُ بالخرابِ والدَّمَارِ، وذهابِ الأنْفُسِ والأموال.

ويبدو أن ذلك لم يكن آخِرَ حريقٍ أتى على المِرْبَد، فشاعِرُ البصرة نَصْر بن أحمد، قال شعراً في حريقٍ وقع بالمربد، في زمنٍ لاحق قطعاً، لأن الشاعر توفي نحو سنة (٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م)، أي بعد الحريق الأول بسبعين سنةً! وقد ذكر ياقوتُ أن نَصْرَ بنَ أحمد سُئِل عمَّا قاله في حريق المربد، فقال: ما قلتُ شيئاً.. فقالوا: وهل يَحْسُنُ بكَ وأنتَ شاعِرُ البصرة، والمربَدُ من أَجَلِّ شوارعها، وسُوقُه من أَجَلِّ أسواقها، ولا تقولُ فيه شيئاً؟ فقال: ما قلتُ، ولكني أقول! ثم ارْتَجَل هذه الأبيات[4]:

أَتَتْكُـــم شهـــودُ الهـــوىٰ تَشْهـــدُ   فمـــا تستطيعـــون أن تَجْحَـــدُوا
فيَـــا مِـــرْبَـــديُّـــون نـــاشَـــدْتُكـــم   علـــى أننـــي مَعَكُـــم مُجْهَـــدُ

---

(١) الخُرَيْبَة: موضع بالبصرة، وعندها كانت وقعة الجمل. وبنو سعد: ناحية بالبصرة.

(٢) حِمَّان: محلَّةٌ بالبصرة، سُمِّيت ببني حمَّان بن سعد، من تميم. وزهران: محلَّة بالبصرة.

(٣) تاريخ الطبري: ٩/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥.

(٤) عزا الدكتور أحمد أمين هذه الأبيات إلى أبي الحسين بن المثنى، وسمَّاهُ أبا الحصين، وذلك كلُّه غلط، والصواب ما أثبتناه.

جَـرَىٰ نَفَسـي صُعُـداً نحـوكـم فمـن أجلـه احتـرق المِـرْبَـدُ
وهـاجـت ريَـاحُ حَنينـي لَكُـم وظلَّـتْ بـه نـارُكـم تُـوقَـدُ
ولـولا دمـوعـي جـرت لـم يكـن حَـريقُكـم أبَـداً يخمَـدُ[1]

والشاعِرُ، صاحبُ هذه الأبيات، أبو القاسم، نَصْرُ بنُ أحمد بن نصر، كان شاعراً غَزِلاً، من أهل المِرْبَد، عَلَتْ له شهرةٌ في الشعر، مع أنه لم يكن يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ، وكان له دُكَّانٌ بالمِرْبَد يَخْبزُ فيه خُبزَ الأَرُزِّ، ويُنْشِدُ أشعـارَهُ فـي الغَـزَل، فيـزدحـم النـاسُ عليـه، ويَتَطـرَّفُـون بـالاسْتمـاع إليـه، ويتعَجَّبون من حاله وأمره، ويبدو أنه لما وقع الحريقُ بالمربد، انتقل إلى بغداد فسكنها دهراً طويلاً[2].

وكان إسماعيلُ بن أرسلانجيق، وهو من السَّلاجِقَة، استقلَّ بولاية البصرة، في أيام العباسيين، سنة (٤٨٦ هـ)، فحاصَرهُ بها سيفُ الدولة صَدَقة بنُ منصور الأسديُّ، صاحِبُ الحِلَّة، وهي مدينةٌ كبيرة بين الكوفة وبغداد، فوقعت بينهما معركة، نُهِبَتْ فيها البصرةُ، ولم يَسْلَمْ منها إلا المحلَّةُ المجاورة لقبر طلحة، والمِرْبَدُ، لأن جيش العباسيين دخل المدرسةَ النظاميةَ، وامتنعوا بها، وحَمُوا المِرْبَد، واستولى سيفُ الدولة على البصرة سنة (٤٩٩ هـ)، وكانت المصيبة عَمَّتِ البلد[3].. ثم نُهِبَتِ البصرةُ مرةً أخرى، أواخِرَ العام نفسه، وأُحْرِقتْ أسواقُها، ودُورُهَا الحِسَانُ، وظلَّ المُخرِّبُونَ يُضْرِمُونَ النيران فيها أكثر من شهر[4].

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٩٨.
(٢) وفيات الأعيان: ٥/ ٣٧٦ (ت: ٧٦٠)، وشذرات الذهب: ٢/ ٢٧٦، والأعلام: ٨/ ٢١.
(٣) الكامل: ١٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٤) المرجع نفسه: ١٠/ ٤١١.

وبينما كان المربدُ مَحلَّةً عظيمةً، تَنتشِرُ فيها الدُّورُ والقُصُور، وتزينها المُتَنَزَّهاتُ الحِسَانُ، وينزلُها أشرافُ العرب، وأَعْيَانُ الناس، وتقوم فيها مَجامِعُ العلماء، ومجالسُ الخطباء، ومحاورات البُلَغاءِ والفُصَحاءِ، ومُباريات الشعراء. . . يُطالِعُنَا ياقوتُ، المتوفَّىٰ سنة (٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) بقوله عن المربد: «وهو الآن بائنٌ عن البصرة، بينهما نحوُ ثلاثة أميالٍ، وكان ما بين ذلك كله عامراً، وهو الآن خراب، وصار المربدُ كالبلدةِ المُفْرَدةِ في وسط البرِّيَّة»[1]. .

لقد كانت تلك الأميالُ الثلاثةُ، التي تَصِلُ بين المربد والبصرة، عُمراناً مُتَّصِلاً، فأمست خراباً يباباً، أَفْرَدَ المِرْبَدَ من البصرة، وجَعلهُ قريةً بائنةً لا خَطَرَ لها، بعدما كان من أعظم أسواقها ومَحَالِّها. . وهكذا عَفَا أثَرُ المِرْبد، ولم نَعُدْ نسمعُ له بعد ذلك ذِكْراً يُؤْثَر.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٩٨.

كلمة الخِتام...

وبعدُ، فإني نظرتُ إلى العربِ في تاريخهم القديم، فراعَتْني فيه ظاهرةُ المواسم العامَّة، التي كانت تَنعقِدُ في مُجتمعاتِهم على مَدَارِ السنة، لكلّ موسمٍ منها موعدٌ مُعيَّنٌ معلومٌ، فيأتُونَها من كلّ فجٍّ عميق، لِيَقْضُوا فيها حاجاتٍ مختلفاتٍ، ويَنَالُوا منها مآرِبَ شَتَّى من التجارة، أو الاجتماع، أو الحجِّ والأعياد. . .

ونظرتُ ثانيةً، فوجدتُ أن هذه الظاهرةَ نَجَمتْ في الحجاز ونَجْد، وفي اليمن وعُمَانَ وبلادِ حَضرموت والشِحْرِ ومُدُنِ الخليج العربي، مثلما نَجَمتْ في بلاد الشام والعراق، بالنظام نفسِه، وعلى النَسَقِ عَيْنِه، وتجلَّىٰ أكثرُ صُوَرِها بهاءً وألَقاً، وأشدُّ آثارها خَطَراً وعُمقاً وخُلوداً، في مواسم سوق عكاظ. . .

ثم نظرتُ من بعد ذلك كَرَّةً أخرى، فَتحقَّقْتُ وراء هذه الظاهرةِ القديمةِ، نظاماً حضَاريّاً قديماً، قائماً على قواعِدَ مكينةٍ، يَشُدُّ بعضُها أَزْرَ بعض، فمضيْتُ وراءَ تلك القواعد أَسْتكشِفُها، وفي يَديَّ ما استطعتُ بُلوغَه من أدواتِ البحث، وكلُّ ما قَدِرتُ على استقصائه من مراجع التحقيق، وما زلتُ على ذلك حتى استوى لديَّ موضوعٌ كبيرٌ واحِدٌ، مُتجانِسٌ، مُتَشاكلٌ، يُؤرِّخ لتلك الظاهرةِ الحضاريَّةِ الخطيرة في تاريخ العرب القديم، وإن كانت فُروع هذا الموضوع، أو عناصِرُه، تُوهِمُ المرءَ أحياناً بأنه حِيَالَ موضوعاتٍ

مُتفرِّقاتٍ، أو مَسائلَ مُتبايناتٍ، إذا حاول أن ينظر إلى كلّ واحدةٍ منها في مَعْزِلٍ عن الأُخْريَات. . . وقد جعلتُ فروع هذا الموضوع في جُزْءَيْن كبيرَيْن.

* * *

١ ـ أمّا الجزء الأوّلُ فقد أقَمتُه على ثلاثةِ أركان، دخلتُ إليها من ستة أبواب، بابٌ إلى الركن الأول، جعلتُه مدخلاً واسعاً إلى التعريف بمعاني المواسم العامَّة، ودلالاتها، وخصائصها، وأنواعها من طبيعية وتجاريَّة واجتماعيَّة ودينيَّة، ووضَعْتُها حيث يجب أن تكون في مَوْضِعها من جوانب الحضارة والارْتقاءِ. . وإذ كان بينها وبين أسواق التجارة أحياناً مُشَابَهةٌ في كثير من الوجوه، وعلائقُ سَبَبِيَّةٌ في بعض الأنواع، فقد عقدتُ فصلاً كبيراً بَيَّنتُ فيه فَرْقَ ما بين الطائفتَيْن، وامتيازَ مواسم الأسواق العامَّة على الأسواق التجاريَّة الدائمة بكثير من الخصائص والآثار والأغراض، وأتبعتُ ذلك بفصلٍ تَقصَّيْتُ فيه القواعدَ المشتركةَ، التي كان بعضُها أو كلُّها وراءَ نشوءِ المواسم العامَّة وازدهارِها واستمرار انعقادها في مواعيدها. . . وكنتُ في كلامي على عناصر هذا الركنِ أُفَصِّلُ الحديثَ حيث أرى وجوباً للتفصيل، وأُوجِزُهُ حيث أجدُ لُزوماً للإيجاز.

ثم انتقلت إلى الركن الثاني في هذا الجزء، وجعلتُه وقْفاً على الحديث عن عوامل نشوء المواسم العامَّة، حديثاً مُفصَّلاً، قسمتُه على ثلاثة أبواب، بحثتُ في الباب الأول الحالةَ التجاريَّةَ في بلاد العرب قديماً، وتكلَّمتُ على مُدُنِ القوافل ومَحَطَّاتها فيها، وعلى تعلُّق العرب بالتجارة، وتعلُّقِ التجارة بالعرب، في مختلفِ دُوَلَهم ومَمالِكهم ومُدُنِهم. . وقد بَرزَتْ مكةُ في عصر الجاهلية كأعظم محطَّةٍ تجاريَّةٍ في تاريخ العرب، ورثتْ مراكزَ اليمن والنَّبَطِ وتَدمُرَ وبُصرى، وصارت عاصمةَ العرب القوميّة والدينيَّة، ولذلك فإنني

عمدتُ إلى تاريخها منذ انتهاء عهدِ جُرْهُمَ بها وحتى ظهور الإسلام، فأعَدْتُ تحقيقَهُ بنزاهةٍ وإخلاص، وحاولتُ إزالةَ ما عَلِق به من الأَوْهام والشوائب، فجاء أقربَ إلى العقل والمنطق والصواب... ونظرتُ فوجدتُ أن المواسمَ الكبرى لا يمكن أن تنشأ، ثم تنمو وتزدهر، حينما تكونُ عامَّةً لكلِّ الناس، إلا إذا كانت في بيئةٍ دينيَّةٍ مُميَّزةٍ! فبحثتُ في الباب الثاني الحالةَ الدينيةَ في بلاد العرب، وتبين لي أن العرب عرفوا مختلفَ الدياناتِ القديمةِ المعروفة، ولكنهم لم يتعصَّبوا لديانةٍ على أخرى، بل أقاموا عقائدهم على عنصرين، أحدُهما المشاركةُ بين أصحاب المِلَلِ المختلفة في كثير من الشعائر والعبادات، على سبيل المُقَارَبة والتطوُّع، والآخَرُ الحريَّةُ المُطْلَقَة في اختيار المرء ما يُؤمنُ به من الديانات، ولذلك كانت البيئةُ الدينيَّةُ في بلادهم مُميَّزةً، وصالحةً لأن تقوم بها تلك المواسمُ الكبرى العامَّة... وما نزال نذكر أن التعصُّبَ اليهوديَّ، لمَّا ظهر في بعض اليمن، قضَى على الدولة ومواسمها وتجاراتها، ثم أعْقَبهُ التعصُّبُ المسيحيُّ، فأقام كنيسةَ القُلَّيْسِ بصنعاء، وأراد صَرْفَ العربِ عن كعبةِ مكَّةَ إليها، فانتهى إلى الفشَل، لأن مكة كانت تُمثّل العربَ كافةً، في جُملة مأثوراتهم ومعبوداتهم، ولأن الأمر فيها كان قائماً على التعميم دون التخصيص في مسائل الإعتقاد والديانة، ولذلك ظلَّت مواسمُها الكبرى، مثلُ عُكاظ ومجنَّة وذي المجاز وغيرِها، تقومُ في مواعيدها حتى ظهور الإسلام... وبحثتُ في الباب الثالث من هذا الركن الحالةَ الإجتماعيَّة التي كانت عليها بلادُ العرب، والمجتَمعاتِ التي كانت تَتوزَّعُ أهلَها، ذلك أن المواسم العامَّةَ حالةٌ من حالات الحضارة والإرتقاءِ، والمعروفُ أن المؤرِّخين تحاملوا على العرب، اتّهمُوا مُعظمهم بالجفاءِ والميْلِ إلى الغَزْو والسَّلْبِ وقطع الطرق! فكيف يتَّفِقُ أن تقوم تلك المواسمُ في مجتمعاتِ أقوامٍ كانت على هذه الأحوال؟

وقد تبين لي بالتحقيق أن العلَّة الكبرى وراءَ تحامُل المؤرخين، خَلْطُهم مجتمعاتِ العربِ بالأعراب في كيانٍ واحد، وتأوُّلُهم مُفْرَداتِ العربيةِ على غير معانيها الحقيقية، وتوسُّعُهم في استعمال اسْمِ الصعاليك ليشملَ أكبر فريق من العرب، وفَهْمُهم أيّامَ العرب على غير حقائقها، وتفسيرُهم الجاهليةَ بالجهل والتخلُّف، ونَفْيُهم المعرفةَ بالكتابة والحساب عن عامَّةِ العرب وخاصَّتِهم. . . وقد انتهيتُ من البحث في ذلك كلِّه، إلى ما اعتقدتُه أقربَ إلى الحقّ والصواب في أمر الحياة الإجتماعية عند العرب، وجَدارَتِها بأن تقومَ في مُدُنِها وقُراها وأريافها تلك المواسمُ العامَّةُ الكبرى. .

وأمَّا الركنُ الثالثُ من هذا الجزءِ، فكان مَنَاطُ البحثِ والتحقيق فيه يدورُ على القواعدِ والشروط، التي لم يكن منها بُدٌّ، لانعقادِ المواسم وازْتحالِ الناسِ إليها في أمْنٍ وسلامٍ، وفي مَواعيدِها المعيَّنةِ لقيامها من غير تقديم أو تأخير. . وإني لأكادُ أقْطعُ بأنها المرَّةُ الأولى يُحقَّقُ فيها هذا الموضوعُ تحقيقاً تاريخياً دقيقاً، ينتهي به إلى نتائجَ لم نَألَفْها في كتُب التاريخ على اختلافها. . وقد جاء هذا الركنُ في بابَيْن كبيريْن، تَقَصَّيْتُ في الأوَّل منهما قواعدَ الأمن التي كانت مُتوافرةً في مجتمعات العرب بالجاهلية، وأثْبَتُّ بالأدِلَّة والنصوص التاريخية أن الشروط المطلوبةَ، لاعتبار الأمن غالباً على بلاد العرب، كانت مُتَوافِرَةً، ومَرْعيَّةً، ونافِذَةً. . وكانت تَتَجلَّىٰ في رعاية الحرُمات، ولا سيما الشهور المحرَّمةِ، والأمكنة المحرَّمة، وفي كثير من التقاليد الدينيَّة الموروثة، وفي الأَحْلاف والمواثيق، وأحكام الجِوار، والخفارة، والمصاهرة وما إليها. . وأبْطلتُ في الوقت نفسِه زعْمَ من قالوا بوجود حمايةٍ فارسيَّةٍ لبعض أسواق العرب، كما وضعتُ مسألةَ الصعاليك ضمن إطارِها الطبيعيّ، وبيّنتُ أن فلسفتَهم وأشعارهم وشجاعتَهم وسَّعَتْ من دائرة شُهرتهم، وأدَّتْ إلى المبالغة في تقدير خَطرهم، حتى حُسِبَ معظمُ

العرب في عِدَادِ الصعاليك... وفي الباب الثاني أكَّدْتُ أن الأساسَ في المواسم الكبرى أن تكونَ مواعيدُها مُعَيَّنةً في أزمنةٍ ثابتةٍ، لا تَتَحرَّكُ إلا ضمن مُدَّةٍ معروفةٍ، مُحدَّدَةٍ، لإلْحاقِ شُهورِ القمرِ بسَنَةِ الشمس، وبَرْهَنتُ، من خلال التفسير الدقيق لمعاني شهور العرب، على أنهم كانوا يتَّبِعُون تقويماً قمرياً في الشهور، وشمسياً في السنين، وأنهم كانوا يَعْتَدُّون في حساب السنين بمنازل القمر، وهي كالبُروج للشمس. كما بحثتُ في مسألة النسيء عند العرب، وبيَّنْتُ أنه إنما كان لمساواة سنة القمر بسنة الشمس، وليس لإباحة الغزو والغارات كما زعم بعضُ المفسِّرين، وأن إبْطالَهُ بالقرآن الكريم إنما كان لجعْلِه السنةَ القمريَّةَ أحياناً ثلاثةَ عَشَرَ شهراً، لإلْحاقِها بسنة الشمس، ومقدارُ السنة، كما هو في كتاب الله، إثنا عشر شهراً. وكذلك لاعتباره تحريمَ الشهورِ أيضاً يقعُ على عَدَدٍ مُعيَّنٍ منها، وليس على أشْهُرٍ مُعَيَّنةٍ بأسمائها ومواقعها...

وبذلك نكون قد اسْتوفَيْنا الكلامَ على الأركان الثلاثة للجزء الأول من الكتاب: خصائص المواسم العامَّة، ثم عوامل نشوئها، ثم قواعدِ ازدهارِها واسْتمرارِها.



٢ ـ وأمَّا الجزءُ الثاني من الكتاب فإني أَقَمتُهُ على خمسة أبواب، أحْصَيتُ فيها كلَّ ما كان معروفاً في بلاد العرب من مواسم الأسواق والحجِّ والأعياد، فأثْبَتُّهُ ذِكْراً وعَدّاً ومَوْقعاً ووقائِعَ وتأريخاً.

وبدأتُ، في الباب الأول، بتحقيق دقيقٍ في موارد القدماء عن المواسم التي جاؤوا على ذِكرها في مُصَنَّفاتهم قَصْداً، أو جاءتْ بالإتِّفاق والإشارة، وانتهيتُ من كلِّ هذا إلى خلاصةٍ واضحةٍ، وافيةٍ بأسماء تلك المواسم،

ومواعيدها، ومَواضِعِ قيامها.. ثم ما لبثتُ حتى أَقَمْتُ مُوازنةً دقيقةً بين ما خَلُصْتُ إليه، وما عَرَضَهُ أو أشار إليه عددٌ من الباحثين والكُتّابِ المتأخِّرين عن أسواق العرب الموسميَّة، وعَمَدْتُ إلى كتاباتِ فريقٍ منهم، كالآلوسيّ، والأفغاني، وجواد علي، وحسين هيكل، فتناولتُها بالعَرْضِ المفصَّل أولاً، ثم بالنقد المُركَّزِ ثانياً، مُبيِّناً مقدارَ ما بها من الصواب، أو من الأغاليط التي وقعت غالباً نتيجة التعسُّفِ في استقراء نصوص القُدماء، أو في فَهْمِها والاسْتِدلال بها، أو في عَرْضِها كما يجب أن تُعْرضَ...

ثم عَمَدْتُ في الباب الثاني من هذا الجزء إلى الكلام المفصَّل على سُوق عكاظَ ومَواسمِ الحجِّ، فلم أُغادِرْ كبيرةً، ولا صغيرةً لها علاقةٌ بهذا الموضوع، إلا أحْصَيْتُها، وحقَّقتُ فيها تحقيقاً تناولتُ به مختلف وُجوهها، حتى اسْتَوىٰ لديَّ من كل ذلك ما أستطيعُ أن أَعُدَّهُ تاريخاً وافياً لسوق عكاظ، وسائرِ مواسم الحجِّ، لم أُسْبَق إليه.. فقد تَتَبَّعْتُ الخصائصَ العامَّةَ لسوق عكاظ، وعَرَضْتُ مذاهبَ المؤرِّخين في موضعها ومعالمِه، وحَدَّدْتُ هذا الموضعَ بالاستنادِ إلى ما حقَّقَهُ فيه بعضُ العلماء المتأخِّرين، ووصفتُ طبيعةَ المكان، وما عَسَاها أن تكونَ عليه يوم كانت تنعقدُ مواسمُ السوق، وذكرتُ أسماءَ القبائلِ صاحبةِ الأرضِ والسوق، وقَدَّمتُ بياناً مُسْتَفيضاً عن أئمَّة العربِ وقُضاتِهم بالسوق، وكانوا من بني تميم، وصَوَّبْتُ الغَلَطَ الذي يخلطُ بين مواسمِ الحجِّ في مِنىً وعَرَفَة والمزدلفة، ووُلاَتِها، وموسمِ عكاظ وقُضَاتِه وأئمَّتِه، وتناولتُ بالشرح عُروضَ التجارة، ونظامَ المتاجرة بعكاظ، وطرائقَ البُيوعِ والتعامُل، وما كان به عادةً من كَتَبَةٍ تفرَّغُوا لكتابة الصكوك بين الناس، ونقلتُ أكثر من أربعين واقعةً، أو خبراً مما كان يقعُ بعكاظ في مواسمه، لأُصَوِّرَ الحياة الإجتماعية للعرب في السوق كيف كانت، وعقَّبتُ على ذلك

بما كان في السوق من تنافُسٍ بين الشعراء في قول الشعر، وتقاضيهم إلى قاضٍ يجلس للحُكْم بينهم، وأوضحتُ أن نهضةَ الشعر العربي في الجاهلية مَدِينةٌ لسوق عكاظ ومَجامِعِ العربِ فيه، وأن الدوْرَ العُكاظيَّ في تهذيبِ العربية، وتوحيدِها، كان من أحوال الحضارة عند العرب، أَسْهمتْ فيه كلُّ القبائل التي اشتُهرت بالفصاحة، وختمتُ ذلك ببيانِ الصورة الطبيعية لسوق عكاظ، وتقديرِ بداياتها في نحو القرن الثاني للميلاد، وقيام مواسمها حتى انْتهابها سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م).

ولمَّا اسْتَوفَيْتُ الحديثَ عن سوق عكاظ، تحدَّثتُ عن سُوقِ مجنَّة، ثم عن سوق ذي المجاز، وكانتا في الجاهلية من مواسم الحجّ، وبعدما قلتُ فيهما كلَّ ما أردتُ قولَه، انتقلتُ إلى الحديث عن موسم الحجّ إلى مكة كما كان في الجاهلية، ثم كيف هذَّبَهُ الإسلامُ، وسَنَّ له السننَ القويمةَ، وقدَّمتُ صُوراً طريفةً بعد ذلك من أخبار الشعراء في موسم الحجِّ.

وانتقلتُ بعد ذلك إلى الباب الثالث من هذا الجزء، فتحدَّثتُ فيه حديث المؤرِّخ المحقِّق عن سائر الأسواق الموسميَّة في جزيرة العرب، وهي: حَجْرُ اليمَامَة، ونَطَاةُ خَيبر، ودومةُ الجنْدَل، والمشقَّرُ، وحُبَاشَةُ، وصُحَار، ودَبَا، وإرَمُ بالشِحْر، وعَدَنُ، وصنعاءُ، ونَجْرانُ، والرابيةُ بحضرموت، وبَدْرٌ بالحجاز. وكان حديثي عن دومة الجندل والمشقَّر وصُحَار ودَبَا وبَدْر وإرَم والرابية حديثاً وافياً، حقَّقْتُ فيه أُمُوراً جَديدةً، لها خَطَرٌ بيِّنٌ في تاريخ المواسم الكبرى عند العرب، وأمّا سائرُ الأسواق فكان حديثي عنها على قَدْرِ ما تَوافَر عندي من الأخبار... وتحدَّثتُ في الباب الرابع عن مواسم الأسواق المعروفة في الشام، حديثاً طيِّباً، قدَّمتُ له بمقدّمةٍ حقَّقْتُ فيها مواعيدَها مُوَثَّقةً بالمطابقة بين مَن عَيَّنَها بحركة منازل القمر، ومَن

عَيَّنها بحركة الشمس في البُروج، كما أتْبعتُ ذلك بحديثٍ وافٍ عن توافُر الأمن فيها، وفي الطُرق المُوصِلَةِ إليها، وعن نظام العُشُورِ بها، ثم ذكرتُ ما تَيسَّر لي من المعلومات عن أسواق: أَذْرِعات، وتُومَاءَ، والأُرْدُنّ، وفلسطين، ودَيْر أيوب، وبُصْرى، وعمَّان، ومَنْبج، وأتبعتُ ذلك كلَّه بالكلام على موسم النَّبَطِ، كلاماً حاولتُ أن أحقِّق به جديداً في حديثِ المواسم الكبرى عند العرب، ثم خَتَمتُ هذا البابَ بحديث طريفٍ عن موسم العيد الذي كان يُقام بتَدمُرَ كلَّ سنةٍ... وأخيراً تحدَّثت في الباب الخامس عن الأسواق التي عرفناها للعراق، واكتفَيْتُ بالتحقيق في ثلاثٍ منها في الجاهلية، وهي الحيرةُ والخنافِسُ والكَبَاث، وتكلَّمتُ بعد ذلك على مواسم الأعياد في بعض أدْيِرَة العراق، ثم انتقلتُ إلى الحديث عن سوق المِرْبَد بالبصرة، وكانت قد حلَّت في الإسلام محلَّ سوق عكاظ في الجاهلية، وجاء كلامي عليها مُحيطاً بنشأتها وتطوُّرها وازدهارِها، وبما شَهِدتْهُ من إقْبالِ الشعراء وعُلَماءِ اللغة والنُّحَاةِ عليها، وبما كان يجري في مجامع العرب بها ومُنْتَدياتهم من الأنشطة السياسية والفكرية والإجتماعية، وذلك منذ قيامها في عصر الخلفاء الراشدين إلى خَرابِها في نحو القرن السابع للهجرة...

وقد زَوَّدْتُ مَوَاضيعَ الكتاب بكثير من الخرائط الجغرافية، للاسْتِعانَةِ بها على تحديد الأمكنة، وبيان المواقع والمعالم، كما ألْحقْتُ بها عدداً من الجداول المُحقَّقة، تُبيِّنُ أنسابَ بعض القبائل وأبنائها، للاستعانة بها على تعيين الأزمنة، ومعرفة التواريخ والأعلام... وترجمتُ في هوامش الكتاب كثيراً من أعلام الرجال والنساء والأماكن، وشرحتُ الألفاظَ والعباراتِ والمصطلحاتِ، التي وجدتُ في شَرْحِها ما يزيدُ من فائدة الكتابِ، ويُعْلي من شأنِه، ويجعلُه في جُمْلَتِه موسوعةً تاريخيَّةً وأدبيّةً، تُبرِزُ جوانِبَ رائعةً من

حضارة العرب في عصر الجاهلية، فجاء وكأنه عِدَّةُ كتُبٍ في كتابٍ واحد..

ولعلِّي لا أكون مُبَالِغاً إنِ ادَّعَيْتُ بأن ما بُذِلَ فيه من الجهد والعناءِ والمُصَابرة يجعلُ منه كتاباً لم يُكتَبْ، ولن يُكتَبَ في بابه مِثْلُه...

* * *

المراجع والفهارس

ثبت المراجع والموارد

١ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية:
أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني ـ طبعة ليبزيغ (١٨٧٨ م)، ألمانيا.

٢ ـ آثار البلاد وأخبار العباد:
زكريا بن محمد الأنصاريُّ القزوينيُّ ـ طبعة فردينان وستنفليد ـ ليدن (١٨٤٨ م)، نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

٣ ـ ابن خلدون ـ حياته وتراثه الفكري:
محمد عبد الله عنان ـ الطبعة الثانية (١٩٥٣ م)، القاهرة.

٤ ـ إبراهيم أبو الأنبياء:
عباس محمود العقاد ـ طبعة دار الهلال بمصر.

٥ ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية:
عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (١٩٦٢ م).

٦ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار:
أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ـ طبعة دار الأندلس (١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م)، بيروت، عن نسخة حقَّقها ونشرها بمكة رشدي الصالح ملحس، سنة (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م).

٧ ـ أدبيات اللغة العربية:
محمد عاطف، ومحمد نصار، وأحمد إبراهيم، وعبد الجواد عبد المتعال، تحقيق الشيخ حمزة فتح الله ـ المطبعة الأميرية بمصر (١٩٠٩ م).

٨ ـ الأزمنة والأمكنة:
الشيخ أبو علي، أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ـ مطبعة دائرة المعارف بحيدر أباد الدكن (١٣٣٢ هـ) الهند.

٩ ـ الأزمنة والأنواء:
ابن الأجدابي، أبو إسحاق، إبراهيم بن إسماعيل ـ تحقيق د. عزة حسن، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٦٤ م).

١٠ ـ أسباب نزول القرآن:
أبو الحسن، علي بن أحمد

الواحدي ـ طبعة دار الكتب العلمية (١٩٩١ م)، بيروت.

١١ ـ الإسلام ومستقبل الحضارة:
د. صبحي الصالح ـ دار الشورى، بيروت (١٩٨٢ م)، الطبعة الأولى.

١٢ ـ أسماء الأشهر في العربية ومعانيها:
د. أنيس فريحة ـ دار العلم للملايين، بيروت (١٩٥٢ م).

١٣ ـ أسماء جبال تهامة:
عرام بن الأصبغ السُلَمي ـ تحقيق د. محمد صالح شناوي ـ دار الكتب العلمية (١٩٩٠ م) بيروت.

١٤ ـ أسواق العرب:
عرفان محمد حمّور ـ دار الشورى، الطبعة الأولى ١٩٧٩، والثانية ١٩٨١ ـ بيروت.

١٥ ـ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام:
سعيد الأفغاني ـ دار الفكر، الطبعة الثانية (١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م) دمشق.

١٦ ـ الإصابة في تمييز الصحابة:
ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد شهاب الدين بن علي ـ وفي حاشيته: الإستيعاب في أسماء الأصحاب، للقرطبي المالكي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٧ ـ الإشتقاق:
ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة مصر (١٩٥٨ م).

١٨ ـ إصلاح المنطق:
ابن السِكِّيت، أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٦ م).

١٩ ـ الأصمعيّات:
أبو سعيد، عبد الملك بن قريب الأصمعي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

٢٠ ـ الأصنام:
ابن الكلبي، هشام بن محمد ـ طبع مصر (١٣٤٣ هـ).

٢١ ـ الأطلس التاريخي للدولة السعودية:
مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض (١٣٩٨ هـ = ١٩٧٧ م).

٢٢ ـ إعجاز القرآن:
أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

٢٣ ـ الأعلام:
خير الدين الزركلي ـ دار العلم

للملايين ـ بيروت (١٩٧٩ م).

٢٤ ـ **الأغاني:**
أبو الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني ـ دار الثقافة ـ بيروت (١٩٥٧ م).

٢٥ ـ **الإفصاح في فقه اللغة:**
عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى ـ دار الكتب المصرية (١٩٢٩ م).

٢٦ ـ **إقتضاء الصراط المستقيم:**
تقي الدين أحمد بن تيميّة ـ تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة ـ بيروت.

٢٧ ـ **الأم:**
الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ـ دار الشعب (١٩٦٨ م) القاهرة.

٢٨ ـ **الأمالي:**
أبو علي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ المكتب التجاري، بيروت، عن نسخة دار الكتب المصريَّة.

٢٩ ـ **الإمتاع والمؤانسة:**
أبو حيَّان التوحيدي، علي بن محمد. نشرة أحمد أمين وأحمد الزين بالقاهرة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ م)، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٣٠ ـ **أنساب الأشراف:**
أحمد بن يحيى البلاذري ـ الجزء الأول، تحقيق د. محمد حميد الله. دار المعارف ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة (١٩٥٩ م).

٣١ ـ **الأنواء:**
ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم ـ طبعة حيدر أباد ـ الهند (١٩٥٦ م).

٣٢ ـ **أيام العرب في الجاهلية:**
محمد أحمد جاد المولى، وعلي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت وصيدا، عن طبعة (١٩٤٢ م).

٣٣ ـ **إيبلا، مُنعطف التاريخ:**
د. عمر الدقاق ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٧٩ م).

٣٤ ـ **البداية والنهاية:**
ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقي ـ دار الكتب العلمية، طبعة (١٩٨٩ م) بيروت.

٣٥ ـ **البدو والبادية:**
د. جبرائيل سليمان جبور ـ الطبعة الأولى (١٩٨٨ م)، دار العلم

للملايين، بيروت.

٣٦ ـ البلاغة تطوُّرٌ وتاريخ:
د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٥ م).

٣٧ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب:
محمود شكري الآلوسي ـ شرح محمد بهجة الأثري ـ دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الثالثة.

٣٨ ـ البيان والتبيين:
أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ ـ المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (١٩٣٢)، تحقيق حسن السندوبي.

٣٩ ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (كتاب الصيام):
الشيخ منصور علي ناصف ـ الطبعة الثالثة (١٩٦١ م)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت عن طبعة دار إحياء الكتب العربية (١٣٥١ هـ).

٤٠ ـ تاريخ آداب العرب:
مصطفى صادق الرافعي ـ طبعة مصر.

٤١ ـ تاريخ الأدب العربي:
كارل بروكلمان ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (١٩٦٨)، ترجمة د. عبد الحليم النجار (الأجزاء: ١ و٢ و٣).

٤٢ ـ تاريخ الأدب العربي:
حنا فاخوري ـ المطبعة البولسيَّة، بيروت (١٩٥٣ م).

٤٣ ـ تاريخ الأمم الإسلامية:
الشيخ محمد الخضري ـ محاضرات (الدولة الأموية) ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر (١٩٦٩).

٤٤ ـ تاريخ الأمم القديمة:
أنور الرفاعي ـ المطبعة الهاشمية بدمشق (١٩٤٨ م).

٤٥ ـ تاريخ أوربا في العصور الوسطى:
هـ. ا. ل. فِشر ـ تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٠ م).

٤٦ ـ تاريخ التمدن الإسلامي:
جرجي زيدان ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٤٧ ـ تاريخ الجنس العربي:
محمد عزة دروزة ـ المكتبة العصرية (صيدا ـ بيروت)، طبعة (١٩٥٩ م).

٤٨ ـ تاريخ الحضارة العربية:
د. جورج حداد، وراتب الحسامي ـ مكتبة العلوم والآداب للطباعة والنشر بدمشق (١٩٥٢ م).

٤٩ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين:
د. فيليب حتي ـ ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق ـ دار الثقافة (١٩٥٨ م) بيروت.

٥٠ ـ تاريخ الشرق الأدنى القديم:
د. أبـو المحـاسـن عصفـور ـ دار النهضة العربية (١٩٨٤ م) بيروت.

٥١ ـ تاريخ الشعر العربي:
نجيب محمد البهبيتي ـ مطبعة دار المكتب المصرية (١٩٥٠ م).

٥٢ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية:
كارل بروكلمان ـ ترجمة نبيه أمين فـارس ومنير البعلبكي ـ دار العلم للملايين (١٩٧٩ م) بيروت.

٥٣ ـ تاريخ صدر الإسلام:
د. عمر فَرُّوخ ـ دار العلم للملايين (١٩٨١ م) بيروت.

٥٤ ـ تاريخ الطبري:
أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف (١٩٦٠ م) القاهرة.

٥٥ ـ تاريخ العرب:
د. فيليـب حتـي، وإدْوَرْدُ جـرجـي وجبـرائيـل جبـور ـ دار غنـدور (١٩٨٦ م) بيروت.

٥٦ ـ تاريخ العصور القديمة:
د. كامل عيَّاد، ود. جورج حداد، ود. نظيـم المـوصلـي ـ وزارة المعـارف السـوريـة (١٩٥٣ م) دمشق.

٥٧ ـ تاريخ الكعبة:
د. علـي حسنـي الخـربـوطلـي ـ دار الجيل (١٩٧٦ م) بيروت.

٥٨ ـ تاريخ اليعقوبي:
ابن واضح، أبو يعقوب، أحمد بن إسحـاق ـ دار بيـروت (١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م).

٥٩ ـ تدمر والتدمريون:
د. عـدنـان البنـي ـ وزارة الثقـافـة والإرشـاد القـومـي بـدمشـق (١٩٧٨ م).

٦٠ ـ تفسير القرآن العظيم:
الإمـام عمـاد الـديـن، أبـو الفـداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي ـ دار الأندلس ـ بيروت.

٦١ ـ تفسير القرآن الكريم:
محمد محمود حمزة، حسن علوان، محمد أحمد برانق ـ دار المعارف (١٩٥٨ م) مصر ـ القاهرة.

٦٢ ـ التقويم الهادي:
د. محمد صالح البنداق ـ دار الآفاق الجـديـدة (١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م) بيروت.

٦٣ ـ التنبُّؤ بالغيب قديماً وحديثاً:
أحمـد الشنتنـاوي ـ دار المعـارف بمصر (١٩٥٩ م).

٦٤ ـ تهذيب الصحاح:
محمود بن أحمد الزنجاني ـ تحقيق عبد السلام هارون وأحمد عبد الغفور عطار ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).

٦٥ ـ جمهرة أنساب العرب:
ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد ـ تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٢ م).

٦٦ ـ حسان بن ثابت:
د. محمد طاهر درويش ـ دار المعارف بمصر.

٦٧ ـ حضارات العالم في العصور القديمة:
منير البعلبكي ورفاقه ـ دار العلم للملايين (١٩٨٤) بيروت.

٦٨ ـ الحوليات الأثريَّة السورية:
المجلد (٣٢) لسنة (١٩٨٢) ـ مديرية الآثار بدمشق.

٦٩ ـ حياة محمد:
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة عشرة (١٩٨١ م).

٧٠ ـ الحيوان:
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٧٩ م).

٧١ ـ خزانة الأدب:
عبد القادر بن عمر البغدادي ـ المطبعة السلفية بمصر (١٢٩٩ هـ).

٧٢ ـ الخنساء:
د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطىء ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٧ م).

٧٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين:
محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت (١٩٧١ م) ـ الطبعة الثالثة.

٧٤ ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون:
ساطع الحصري ـ دار العلم للملايين، بيروت.

٧٥ ـ دراسات في فقه اللغة:
د. صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة (١٩٨١ م) بيروت.

٧٦ ـ ديوان بشر بن أبي خازم:
تحقيق د. عزة حسن ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٦٠ م).

٧٧ ـ ديوان الطِرِمَّاح:
تحقيق د. عزة حسن ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٦٨ م).

٧٨ ـ ديوان النابغة الذبياني:
تحقيق وشرح كرم البستاني ـ مكتبة صادر (١٩٥٣ م) بيروت.

٧٩ ـ سيد قريش:
معروف الأرناؤوط ـ مطبعة فتى العرب (١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م) دمشق.
٨٠ ـ السيرة العطرة:
عبد العزيز خير الدين ـ دار الفكر العربي (١٩٦٩ م) مصر.
٨١ ـ السيرة النبويّة:
ابنُ هشام، محمد بن عبد الملك المعافري ـ تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي ـ دار الكنوز الأدبية.
٨٢ ـ السيرة النبويّة:
أبو الحسن، علي الندوي ـ دار الشروق، الطبعة السابعة (١٩٨٧ م) جُدَّة ـ بيروت.
٨٣ ـ شرح ديوان الأعشى:
دار الكاتب العربي ـ بيروت (١٩٦٨ م).
٨٤ ـ شرح ديوان كعب بن زهير:
الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ـ الدار القومية للطباعة والنشر، عن طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة (١٩٥٠ م).
٨٥ ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب:
الإمام جمال الدين، ابن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (١٩٥١ م) مصر.
٨٦ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:
أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٣ م).
٨٧ ـ الشعر والشعراء:
ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٦ م).
٨٨ ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي:
د. يوسف خليف ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٩ م) الطبعة الأولى.
٨٩ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا:
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ـ دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٨٧ م).
٩٠ ـ صحيح البخاري (باب المناقب):
أبو عبد الله، محمد بن اسماعيل البخاري ـ دار ومطابع الشعب بالقاهرة.
٩١ ـ الصدِّيق أبو بكر:
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الثامنة (١٩٧٩ م).

٩٢ ـ الصعلكة والفتوّة:
د. أحمد أمين ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).
٩٣ ـ ضحى الإسلام:
د. أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة (١٩٦١ م) القاهرة.
٩٤ ـ الطبقات الكبرى:
محمد بن سعد بن منيع الزهري ـ دار صادر، بيروت (١٩٦٨ م).
٩٥ ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم:
د. منير العجلاني ـ دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت (١٩٦٥ م).
٩٦ ـ عبقرية عمر بن الخطاب:
عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.
٩٧ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات:
زكريا القزويني ـ دار الآفاق الجديده، الطبعة الأولى، بيروت (١٩٧٣ م).
٩٨ ـ عجائب المخلوقات:
الأَبْشيهي، محمد بن أحمد ـ منشورات المتوسط (١٩٨١) بيروت.
٩٩ ـ العرب والإسلام في حوض المتوسط:
د. عمر فرُّوخ ـ منشورات المكتب التجاري (١٩٥٨) بيروت.
١٠٠ ـ العرب في التاريخ:
برنارد لويس ـ ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين (١٩٥٤) بيروت.
١٠١ ـ العرب قبل الإسلام:
جرجي زيدان ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٧٩).
١٠٢ ـ العشاق الثلاثة:
د. زكي مبارك ـ دار المعارف بمصر (١٩٤٥ م).
١٠٣ ـ العصور القديمة:
جيمس هنري برستد ـ ترجمة داود قربان، مؤسسة عز الدين ـ بيروت (١٩٨٣ م).
١٠٤ ـ العقد الفريد:
ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي ـ شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي ـ لبنان (١٩٨٢ م).
١٠٥ ـ عُمَان والإمارات السبع:
عبد القادر زَلُّوم ـ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م).
١٠٦ ـ عيون الأخبار:
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت، عن طبعة

دار الكتب المصرية (١٩٢٥ م) القاهرة.
١٠٧ ـ **الفاروق عمر بن الخطاب:**
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة (١٩٨١ م).
١٠٨ ـ **فتوح البلدان:**
البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى ـ دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩١ م).
١٠٩ ـ **فتوح الشام:**
الواقدي، أبو عبد الله محمد ـ مطبعة شقرون بمصر (١٣٤٧ هـ).
١١٠ ـ **فجر الإسلام:**
د. أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية (١٩٦١ م) القاهرة.
١١١ ـ **فقه السنَّة:**
سيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١١٢ ـ **فقه اللغة:**
الإمام أبو منصور اسماعيل الثعالبي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٣ ـ **الفن ومذاهبه في الشعر العربي:**
د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).
١١٤ ـ **في الأدب الجاهلي:**
د. طه حسين ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).
١١٥ ـ **في منزل الوحي:**
د. محمد حسين هيكل ـ مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م) القاهرة.
١١٦ ـ **قلائد الجُمَان في التعريف بقبائل عرب الزمان:**
القلقشندي، أبو العباس ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ دار الكتب الحديثة بمصر (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م).
١١٧ ـ **القيان والغناء في العصر الجاهلي:**
د. ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٨ م).
١١٨ ـ **قيم جديدة للأدب العربي:**
د. عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف بمصر (١٩٧٠ م).
١١٩ ـ **الكامل في التاريخ:**
ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد ـ دار صادر ـ بيروت (١٩٧٩ م).
١٢٠ ـ **كل شيء عن الصحراء:**
سام وبْريل أبْشتين ـ ترجمة مصطفى بدران ـ دار المعارف بمصر (١٩٦١ م).
١٢١ ـ **كلمات القرآن: تفسير وبيان.**
الشيخ حسنين محمد مخلوف ـ دار المطبوعات الحديثة ـ جُدَّة

(١٩٥٦ م).
١٢٢ ـ لسان العرب:
ابن منظور الأفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـ دار صادر ـ بيروت.
١٢٣ ـ مجالس ثعلب:
أبو العباس، أحمد بن يحيى ثعلب ـ شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).
١٢٤ ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول:
د. شكري فيصل ـ مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد (١٩٥٢ م).
١٢٥ ـ مجلة التراث الشعبي ـ بغداد (١٩٧٥) ـ أصول بابلية لكلمات عربية: يوسف داود عبد القادر.
١٢٦ ـ مجلة العربي ـ الكويت (تموز ١٩٨٠) ـ قصة الألعاب الألمبية القديمة: عادل شرف.
١٢٧ ـ مجلة قافلة الزيت ـ جُدَّة (ذو الحجة ١٣٩٠) ـ في رحاب البيت العتيق.
١٢٨ ـ مجلة الكتاب ـ دار المعارف بمصر (المجلد: ١١، لعام ١٩٥٢) ـ ابن خلدون والعرب: سلامة موسى.
١٢٩ ـ مجلة المسلمون ـ دمشق (المجلد: ٤، العدد الثالث أيار ١٩٥٥) ـ حديث العيد: علي الطنطاوي.
١٣٠ ـ مجمع الأمثال:
الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٦١).
١٣١ ـ المحبَّر:
أبو جعفر، محمد بن حبيب البغدادي ـ دار الآفاق الجديدة، بيروت، عن نسخة مطبعة حيدر أباد الدكن (١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م) تحقيق د. إيلزة ليختن شتيتر، ومراجعة د. محمد حميد الله.
١٣٢ ـ مخارج الحروف وصفاتها:
إبن الطحان، أبو الأصبغ السُّماني الاشبيلي ـ تحقيق د. محمد يعقوب تركستاني، مكة (١٩٨٤).
١٣٣ ـ مختصر تاريخ العرب:
د. سيد أمير علي ـ ترجمة عفيف البعلبكي ـ دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨١).
١٣٤ ـ المختصر في أخبار البشر:
أبو الفداء، الملك المؤيَّد عماد الدين اسماعيل ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ الطبعة الأولى (١٣٢٥ هـ).
١٣٥ ـ المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى:
علوي بن طاهر الحداد ـ تحقيق

محمـد ضيـاء شهـاب ـ عـالـم المعرفة، جُدَّة (١٩٨٥ م).
١٣٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر:
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ـ دار الأندلس، بيروت (١٩٧٨ م).
١٣٧ ـ المستطرف في كل فن مستظرف:
الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٨٦ م).
١٣٨ ـ مصادر الشعر الجاهلي:
د. ناصـر الـديـن الأسـد ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٦ م).
١٣٩ ـ مصارع العشاق:
أبو محمد، جعفر بن أحمد السرَّاج القارىء ـ دار بيروت ودار صادر، بيروت (١٩٥٨).
١٤٠ ـ مطلع النور:
عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.
١٤١ ـ المعارف:
ابـن قتيبـة، عبـد الله بـن مسلـم ـ تحقيـق د. ثـروت عكـاشـة ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٩).
١٤٢ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم:
مجمع اللغة العربية بمصر ـ دار الشـروق، القـاهـرة وبيـروت (١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م).
١٤٣ ـ معجم البلدان:
أبـو عبـد الله، شهـاب الـديـن ياقوت بن عبد الله الحموي ـ دار صادر، بيروت (١٩٧٧ م).
١٤٤ ـ معجم تـاج العـروس مـن جـواهـر القاموس:
محمـد مـرتضـى الـزبيـدي ـ طبعـة مصـر بـالمطبعـة الخيـريـة (١٣٠٦ هـ)، وطبعة الكويت.
١٤٥ ـ معجم قبائل العرب:
عمـر رضـا كحـالـة ـ مـؤسسـة الرسالة، بيروت (١٩٧٨ م).
١٤٦ ـ معجم متن اللغة:
الشيـخ أحمـد رضـا ـ دار مكتبـة الحياة، بيروت (١٩٥٨ م).
١٤٧ ـ معجم محيط المحيط:
المعلـم بطـرس البستـانـي ـ مكتبـة لبنان، بيروت (١٩٧٧).
١٤٨ ـ المفصَّـل فـي تـاريـخ العـرب قبـل الإسلام:
د. جواد علي ـ دار العلم للملايين في بيروت ومكتبة النهضة ببغداد (١٩٧٨ م).
١٤٩ ـ المفضَّليات:
المفضَّـل الضبِّـي ـ تحقيـق أحمـد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

١٥٠ ـ مقدمة ابن خلدون:
ابن خلدون ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
١٥١ ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي:
د. حسين عطوان ـ دار المعارف بمصر (١٩٧٠ م).
١٥٢ ـ مهد العرب:
د. عبد الوهاب عزام ـ دار المعارف بمصر (١٩٤٦ م).
١٥٣ ـ موسوعة تاريخ العالم:
وليم لانجر ـ الترجمة العربية ـ مكتبة النهضة بمصر.
١٥٤ ـ الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة:
الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض (١٩٨٩ م).
١٥٥ ـ موقع عكاظ:
د. عبد الوهاب عزام، وحمد الجاسر، ومحمد بن بليهد ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٠ م).
١٥٦ ـ النابغة الذبياني:
د. محمد زكي العشماوي ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).
١٥٧ ـ نظرات في العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم:
د. عبد الحميد زايد: مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني ـ العدد الثالث لسنة (١٩٧١)، والعدد الرابع لسنة (١٩٧٢ م).
١٥٨ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ـ تحقيق إبراهيم الابياري ـ دار الكتب الإسلامية بالقاهرة وبيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٠ م).
١٥٩ ـ وفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:
ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد ـ دار صادر، بيروت.

بيان الخرائط الجغرافية

جداول أسماء الشهور ومنازل القمر والمواسم



جداول الأنساب وأئمة عكاظ والنسأة

الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب

والمغرب. جُلُّ اعتماد اليونان والروم وإيران ومصر والحبشة والشام والعراق فيما كانوا يحتاجون إليه من المَتاجرِ، على العرب. كان البخُور الذي اشتُهرت به بلادُ العرب على رأس المتاجر الثمينة التي يسعى إليها الملوك ورجالُ الدين والأثرياء في العالم القديم.

- كانت إيران تُصدِّر عُطور العرب إلى الصين تحت إسم «بضائع پرسي» أي فارس.
- أربعة أشياء مَلأت الدنيا ولا تكون إلا في بلاد العرب: الوَرْسُ واللُّبَان والخِطْر والعَقيق.
- كلُّ إقليم من بلاد العرب الجنوبية وساحل تهامة وخليج العرب اشتُهر ببعض أنواع العُروض والسلع والصناعات والغَلّات.
- كانت الخمر من أشهر ما اتّجر به العرب.
- يعود بعضُ العلَّة في اعتماد أُمم العالم على العرب في توفير ما تحتاج إليه من المتاجر، إلى توسُّط جزيرة العرب بُلدانَ العالم القديم.

- كانت جزيرة العرب الممرَّ البرّيَّ الوحيد قديماً لتبادل المتاجر.
- وكان بها طريقان رئيسَان للقوافل شرقيٌّ وغربيٌّ، ينطلقان من مدينة «ظفَار المَهَرة» في جنوب الجزيرة.
- وكانت بها طُرق داخليّةٌ كثيرة تصلُ بين القُرى والمدُن والأسواق.
- أحاط العربُ طرُق البرِّ وقوافلَ التجارة بكثير من الرعاية والأمن، وأقاموا عليها محطّاتٍ ما لبثت حتى صار معظمُها قُرى ومُدُناً.
- كانت القافلةُ من قوافلهم كالجيش، وقد بلغ بعضُها ألفَيْن وخمسَ مئة بعير. وكانت قيادةُ القافلة تُناط بالشجعانِ

الباب الرابع

الحالة الاجتماعيّة

الباب الخامس

الجزء الثاني

مواسم الأسواق والحجّ والأعياد في بلاد العرب

الباب الأول

مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين

الباب الثالث

الباب الرابع

ARAB'S ANCIENT SEASONS AND FESTIVALS

BY

IRFAN M. HAMMOUR

Al-Rihab Modern Establishment
Telephone: 03-359788
P.O. Box: 11/3847
Beirut - Lebanon